سلسلة مؤلفات فضيلة الشيخ (١٥٠)

تفسير
القرآن الكريم
سورة غافر

لفضيلة الشيخ العلامة
محمد بن صالح العثيمين
غفر الله له ولوالديه وللمسلمين

من إصدارات
مؤسسة الشيخ محمد بن صالح العثيمين الخيرية

سلسلة مؤلفات فضيلة الشيخ (١٥٠)

تفسير القرآن الكريم

سورة غافر

لفضيلة الشيخ العلامة
محمد بن صالح العثيمين
غفر الله له ولوالديه وللمسلمين

من إصدارات
مؤسسة الشيخ محمد بن صالح العثيمين الخيرية

بسم الله الرحمن الرحيم

ح مؤسسة الشيخ محمد بن صالح العثيمين الخيرية، ١٤٣٧ هـ
فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية أثناء النشر
العثيمين، محمد بن صالح
تفسير سورة غافر. / محمد بن صالح العثيمين ـ ط ١ ـ القصيم، ١٤٣٧هـ
٥٨٨ ص؛ ١٧ × ٢٤ سم (سلسلة مؤلفات الشيخ ابن عثيمين؛ ١٥٠)
ردمك: ٠ ـ ٧٤ ـ ٨١٦٣ ـ ٦٠٣ ـ ٩٧٨
١ ـ القرآن ـ سورة غافر ـ تفسير.
أ ـ العنوان
ديوي: ٢٢٧،٦ ١٤٣٧/١٨٥١

رقم الإيداع: ١٤٣٧/١٨٥١
ردمك: ٠ ـ ٧٤ ـ ٨١٦٣ ـ ٦٠٣ ـ ٩٧٨

حقوق الطبع محفوظة
لمؤسسة الشيخ محمد بن صالح العثيمين الخيرية
إلا لمن أراد طبع الكتاب لتوزيعه خيريًا بعد مراجعة المؤسسة

الطبعة الأولى
١٤٣٧ هـ

يُطلب الكتاب من :
مؤسسة الشيخ محمد بن صالح العثيمين الخيرية
المملكة العربية السعودية
القصيم ـ عنيزة ـ ٥١٩١١ ص.ب: ١٩٢٩
هاتف: ٠١٦/٣٦٤٢١٠٧ ـ ناسوخ: ٠١٦/٣٦٤٢٠٠٩
جوّال: ٠٥٥٣٦٤٢١٠٧
www.ibnothaimeen.com
info@binothaimeen.com

الموزع المعتمد والحصري في جمهورية مصر العربية
دار الدُّرة للنشر والتوزيع ـ شارع محمد مقلد ـ متفرع من مصطفى النحاس
بجوار سوبر ماركت أولاد رجب
هاتف وفاكس: ٢٢٧٢٠٥٥٢ ـ محمول: ٠١٠١٠٥٥٧٠٤٤

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

تقديم

إنَّ الحمدَ لله، نحمدُهُ ونَسْتعينُه ونَسْتغفرُه، ونَعوذُ بالله مِن شُرور أَنْفُسنا ومِن سيِّئات أعمالِنا، مَن يَهْده اللهُ فلا مُضِلَّ له، ومَن يُضْلِلْ فَلا هادِيَ له، وأَشْهَد أنْ لا إلَهَ إلا اللهُ وحدَه لا شريكَ لَه، وأَشْهَد أنَّ محمَّدًا عبدُه ورسولُه، أرسلَه اللهُ بالهُدَى ودِين الحقِّ؛ فبلَّغَ الرِّسالةَ، وأدَّى الأمانةَ، ونَصَح الأمَّةَ، وجاهَد في الله حَقَّ جِهادِه ، حتَّى أتاهُ اليَقينُ ، فصَلواتُ اللهِ وسلامُه عليهِ وعلَى آلِه وأصحابه ومَن تَبِعهم بإحسانٍ إلَى يوم الدِّين.

أَمَّا بَعْدُ: فمِنَ الدُّروسِ العِلميَّة المُسجَّلَة صَوتيًّا، والَّتِي كانَ يَعقِدُها صاحِبُ الفَضِيلةِ شَيخُنا العلَّامةُ الوالِدُ محمَّدُ بنُ صالحِ العُثَيْمِين -رَحِمَهُ اللهُ تَعالَى- في جامِعِهِ بمَدينَةِ عُنَيْزَةَ صَباحَ كُلِّ يومٍ أَثْناءَ الإِجازاتِ الصَّيْفيَّة؛ حَلقاتٌ فِي تَفْسير القُرآن الكَريم كانَت بِدايَةُ التَّسْجِيلِ الصَّوتيِّ لَـهَا مِن سُورة النُّور وَمَا بَعدَها؛ حتَّى بلَغ فَضيلتُه قَولَه تَعالَى فِي سُورة الزُّخرف: ﴿وَسْـَٔلْ مَنْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رُّسُلِنَآ أَجَعَلْنَا مِن دُونِ ٱلرَّحْمَٰنِ ءَالِهَةً يُعْبَدُونَ ﴿٤٥﴾﴾.

وقَدِ اعتَمدَ رَحِمَهُ اللهُ تَعالَى فِي تَفْسيرِه لتِلْكَ السُّور كِتابًا بَيْن يَدَيِ الطُّلاب هُو (**تَفْسير الجَلالَيْنِ**) للعلَّامة جَلال الدِّين محمَّد بنِ أَحْمَدَ بنِ محمَّدِ بنِ إبراهيمَ المَحَلِّيِّ،

المُتوفَّى سَنَةَ (٨٦٤هـ)(١)، والعلَّامة جَلال الدِّين عبد الرَّحمن بن أَبِي بَكْر بنِ محمَّد بنِ سابِق الدِّين الخُضَيْرِيِّ السُّيُوطِيِّ، المُتوفَّى سنة (٩١١هـ)(٢). تغمَّدهما الله بواسِع رَحمته ورِضوانه، وأَسْكنهما فَسِيحَ جنَّاته، وجَزاهُما عَنِ الإِسْلام والمُسلِمِينَ خَيرَ الجَزاءِ.

وسَعْيًا -بإِذْنِ اللهِ تَعالَى- لِتَعْمِيمِ النَّفْع بتِلْكَ الجُهُود المُبارَكة فِي هَذا المَيْدان العَظِيم باشَر القِسْمُ العِلْمِيُّ بِمُؤسَّسةِ الشَّيخِ مُحمَّد بنِ صالِحِ العُثَيْمِين الخَيْرِيَّةِ واجِباتِه فِي شَرَفِ الإِعْدادِ والتَّجْهِيز للطِّباعةِ والنَّشْر لإِخْراج ذَلِكَ التُّراث العِلمِي؛ إنفاذًا للقواعِدِ والضَّوابِط والتَّوْجِيهاتِ الَّتِي قَرَّرها فَضيلةُ الشَّيخِ رَحِمَهُ اللهُ تَعالَى في هَذا الشَّأْنِ.

نَسْأل اللهَ تعالَى أنْ يَجْعَلَ هَذا العَمَلَ خالِصًا لِوجهِه الكَريم؛ نافِعًا لعِبادِه، وأنْ يَجزِيَ فَضِيلةَ شيخِنا عَنِ الإسلامِ والمسلِمِينَ خَيْرَ الجَزاء، ويُضاعِفَ لهُ المَثُوبَةَ والأَجْرَ، ويُعْلِيَ دَرَجَتَهُ في المَهْدِيِّينَ، إنَّه سَمِيعٌ قَرِيبٌ مُجِيبٌ.

وَصَلَّى اللهُ وسلَّم وبارَك علَى عبدِه ورَسولِه، خاتَمِ النَّبِيِّينَ، وإِمامِ المُتَّقِينَ، وسيِّدِ الأَوَّلِينَ والآخِرينَ، نبيِّنَا محمَّدٍ، وعلَى آلِه وأَصْحابِه والتَّابعينَ لَهُمْ بإِحْسانٍ إِلَى يَوْمِ الدِّين.

القِسْمُ العِلْمِيُّ

فِي مُؤَسَّسَةِ الشَّيْخِ مُحَمَّدِ بْنِ صَالِحِ العُثَيْمِين الخَيْرِيَّةِ

١٤ مُحَرَّم ١٤٣٧هـ

---

(١) انظر ترجمته في: الضوء اللامع (٧/ ٣٩)، حُسن المحاضرة (١/ ٤٤٣).

(٢) انظر ترجمته في: الأعلام للزركلي (٣/ ٣٠١).

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

مقدمة

الحمد لله ربِّ العالَمين، وصلى الله وسلم على نبيِّنا محمد وعلى آله وأصحابه ومَن تَبِعهم بإحسان إلى يوم الدِّين.

إن العِلْم يَحتاج إلى مُكابَدة وإلى مُثابَرة وإلى دأَبٍ وكلَّما عوَّد الإنسان نفسَه على ذلك اعتاده وصار أَمْرًا سهلًا عليه.

أمَّا إذا ركَنَ إلى الكَسَل والدَّعة والسُّكون فإنه يَصعُب عليه جِدًّا أن يَكون مُجتَهِدًا؛ لأن النفس وما تَعوَّدت، والإنسان في طلَب العِلْم كالمُجاهِد في سبيل الله في إعداد العُدَّة؛ لأن الله تعالى جعَل الجِهاد في سبيل الله والعِلْم عَديلَيْن؛ حيث قال الله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ ٱلْمُؤْمِنُونَ لِيَنفِرُوا۟ كَآفَّةً﴾ [التوبة:١٢٢] يَعنِي: لا يُمكِن أن يَخرُجوا جميعًا في الجِهاد، ﴿فَلَوْلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَآئِفَةٌ﴾ يَعنِي: وقعَدَت طائِفة ﴿لِّيَتَفَقَّهُوا۟ فِى ٱلدِّينِ وَلِيُنذِرُوا۟ قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوٓا۟ إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ﴾ ﴿لِّيَتَفَقَّهُوا۟﴾ الفاعِل همُ الفِرْقة الباقِية ﴿لِّيَتَفَقَّهُوا۟ فِى ٱلدِّينِ وَلِيُنذِرُوا۟ قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوٓا۟ إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ﴾، بل قال بعضُ العُلَماء رَحِمَهُمُ اللَّهُ: إن طلَب العِلْم أَوكَدُ من الجِهاد في سبيل الله؛ لأن طلَب العِلْم يَنبَني عليه الجِهاد والعِلْم لا يَنبَني على الجِهاد، بل إن المُجاهِد لا يُمكِن أن يُجاهِد على الوجه الصحيح إلَّا بطلَب العِلْم؛ فلِهَذا كان أَوكَدَ.

إِذَنْ: فبَقاء الإنسان يُطالِع ويُراجِع ويُذاكِر ويَحفَظ في العِلْم الشَّرْعيِّ هو كالمُجاهِد في سبيل الله سَواءً بسَواءٍ.

ولو سُئِلْنا: أيُّهما أفضَلُ الجِهاد في سبيل الله أو طلَب العِلْم؟

قُلْنا: لا يُمكِن أن نُفضِّل أحدَهما على الآخَر على الإطلاق، فمِن الناس مَن نَقول له: طلَبُ العِلْم في حقِّك أفضَلُ. ومن الناس مَن نَقول: الجِهاد في حقِّك أفضَلُ؛ ولهذا تَجِدون أَجْوبة النَّبيِّ ﷺ في التَّفاضُل بين الأعمال أنه يُخاطِب كل إنسان بما تَقتَضِيه حاله، وبهذا يَنفَكُّ الإشكال الذي يَرِد على النَّفْس؛ حيث يَقول الرسول عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ في بعض الأحاديث: «أَفْضَلُ الْأَعْمالِ كَذا وَكَذا»، وفي بعضِها: «أَفْضَلُ الأَعْمالِ كَذا وكَذا»، فيُقال: إن هذا الاختِلافَ هو على حَسب حال المُخاطَب نَقول: بعض الناس طلَب العِلْم أَفضَلُ في حقِّهم، وبعض الناس الجِهاد في حَقِّهم أفضَلُ، فمَن كان وِعاءً للعِلْم حافِظًا فاهِمًا مُكابِدًا للعِلْم، فهذا طلَب العِلْم في حقه أَفضَلُ؛ لأنه يُنتِج أكثَرَ، ويَنفَع المُسلِمين أكثَرَ، ومَن كان على غير هذه الحالِ قليلَ الحِفْظ، قليلَ الفَهْم ولكنه شُجاع قوِيٌّ بطَلٌ فهُنا الجِهاد في حَقِّه أفضَلُ، ﴿وَلِكُلٍّ دَرَجَٰتٌ مِّمَّا عَمِلُوا۟﴾.

وقبل البَدْء بالتَّفْسير نُقدِّم مُقدِّمة -نَسأَل الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى أن يَنفَع بها-، فنَقولُ:

إنَّ مِنْ نِعْمَة الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى على العَبْد أن يُحبِّب إليه العِلْم، وذلك لأن العِلْم الشَّرْعيَّ مِفتاح كل خير؛ لقول النَّبيِّ ﷺ: «مَنْ يُرِدِ الله بِهِ خَيْرًا يُفَقِّهْهُ فِي الدِّينِ»(١) وهذه بُشْرى لكُلِّ مَن فقَّهَه الله في دِينه وعلَّمه، أنَّ الله أَراد به خيرًا، والفِقْه في الدِّين هو مَعرِفة الأحكام الشرعية من أدِلَّتها، ثُم تَطبيق هذه الأحكامِ التي عُلِّمها؛

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب العلم، باب من يرد الله به خيرًا، رقم (٧١)، ومسلم: كتاب الزكاة، باب النهي عن المسألة، رقم (١٠٣٧)، من حديث معاوية بن أبي سفيان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.

لأن مَن لم يُطبِّق فليس بفقيه؛ بل هو قارِئ؛ ولهذا حذَّر عبدُ الله بن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ من أن يَكثُر القُرَّاء ويَقِلَّ الفُقَهاء[1]، فالفَقيه في دِين الله هو الذي يَعلَم شريعة الله ثُم يُطبِّقها على نفسه وعلى غيره، بقَدْر استِطاعته.

وطالب العِلْم عليه مَسؤُولية كبيرة؛ لأنه واسِطة بين الخَلْق وبين الرسول ﷺ إذ إنَّه يَنقُل شريعة الرسول -صلى الله عليه وعلى آله وسلم- إلى أُمَّته؛ ولهذا يَجِب أن يَكون أُسْوة حسَنة في عِباداته وأخلاقه ومُعامَلاته؛ لأنه إذا كان أُسوة حَسَنة في ذلك، فقد أَثمَر العِلْم في حقِّه ثمَراته الجَليلة، ولأنه إذا كان أُسوة للنَّبيِّ ﷺ في ذلك أَحبَّه الناس وأَلِفوه، واقتَدَوْا به، وصار إمامًا، وإن لم يَكُن إمامًا كبيرًا؛ لكنه إمام بحَسَبِ حاله، وكلَّما ازداد الإنسانُ عِلْمًا وتَمسُّكًا بما علِم، ازداد احتِرام النَّاس له، واقتِداؤُهم به، وجَعْلهم إيَّاه أُسوةً.

ثُم إن طالِب العِلْم يَجِب عليه الإخلاصُ لله عَزَّ وَجَلَّ في طلَبه؛ لأن الإخلاص هو أهمُّ شيء، وهو الذي يَكون به تَحقيق ما أَراده العَبْد، والإخلاص لله في طلَب العِلْم أَشار الإمامُ أَحمَدُ رَحِمَهُ اللَّهُ إلى شيء منه، فقال: العِلْم لا يَعدِله شيء لمَن صحَّتْ نِيَّته. قالوا: وبِمَ تَصِحُّ النِّيَّة؟ قال: يَنوِي بذلك رَفْع الجَهْل عن نَفْسه وعن غيره[2].

وهذا لا شَكَّ أنه تَصحيح النِّيَّة، لكنه ليس كلُّه، أو ليس كلُّه تَصحيحَ النِّية، بل هناك أَشياءُ تَجِبُ مُلاحظتُها أيضًا، وذلك بأن يَنوِيَ بطلَب العِلْم امتِثال أَمْر الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى؛ لأن الله أَمَر بالعِلْم، ورغَّب فيه، فقال تَعالى: ﴿ فَاعْلَمْ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ

(1) أخرجه مالك في الموطأ (1/ 173، رقم 77)، والدارمي في السنن رقم (191، 192).
(2) انظر الفروع لابن مفلح (2/ 339).

وَٱسْتَغْفِرْ لِذَنۢبِكَ﴾ [محمد:١٩]، وقال الله تعالى: ﴿يَرْفَعِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ دَرَجَٰتٍ﴾ [المجادلة:١١]، وهذا شيء مُشاهَد، بَيِّنوا لي تاجِرًا من أكبَر التُّجَّار في عهد الأئِمَّة الأربَعة حصَل له من رَفْع الذِّكر ما حَصَل لهؤلاءِ الأئِمَّة الأربعة، لن تَجِدوا إلى ذلك سبيلًا؛ فأَهْل العِلْم مَرفوعون عِند الله، ومَرفوعون عِند العِبَاد، مَرفوعون في حَياتهم ومَرفوعون بعد مَماتِهم، حتى وإن نَالَ أحَدًا منهم ما يَنالُه من التَّعذيب أو المُضايَقة، أو ما أَشبَه ذلك فإنه يَزداد بذلك رِفْعة عِند الله ورِفْعة عِند العِباد.

فأنت إذا نَوَيْت بطلَبك للعِلْم امتِثال أَمْر الله، صارَت كلُّ حرَكة تَتحَرَّكها في هذا المَجالِ عِبادة، إن راجَعْت الدَّرْس فعِبادة، وإن حَفِظت فعِبادة، وإن مَشَيْت فعِبادة، وقد ثبَت عن النَّبيِّ ﷺ أن «**مَنْ سَلَكَ طَرِيقًا يَلْتَمِسُ فِيهِ عِلْمًا، سَهَّلَ اللهُ لَهُ بِهِ طَرِيقًا إِلَى الجَنَّةِ**»(١).

وهذه مسائل تَغيب عنَّا كثيرًا:

الأولى: كثيرًا ما نُراجِع الكُتُب لتَحقيق مَسأَلة ما، ولكن يَغيبُ عنَّا أَنَّنا الآنَ في عِبادة نَرجو بها ثَواب الله؛ لكن إذا استَحضَر طالِب العِلْم أنه يَمتَثِل أَمْر الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ بطَلَب العِلْم، صارَ طلَبُه للعِلْم عِبادة.

الثانية: أن يَنوِيَ بطلَب العِلْم حِفْظ الشريعة؛ لأنَّ الشريعة تُحفَظ برِجالها؛ ولهذا قال النَّبيُّ -صلى الله عليه وعلى آله وسلم-: «**إِنَّ اللهَ لَا يَقْبِضُ الْعِلْمَ انْتِزَاعًا**

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب العلم، باب العلم قبل القول والعمل، معلقًا مجزومًا به، ووصله مسلم: كتاب الذِّكر والدعاء والتوبة، باب فضل الاجتماع على تلاوة القرآن، رقم (٢٦٩٩)، من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

مِنْ صُدُورِ الرِّجَالِ، وَلَكِنْ يَقْبِضُهُ بِمَوْتِ الْعُلَمَاءِ؛ حَتَّى إِذَا لَمْ يَجِدِ النَّاسُ عُلَمَاءَ يَسْتَفْتُونَهُمْ، اسْتَفْتَوْا أُنَاسًا جُهَّالًا، فَأَفْتَوْا بِغَيْرِ عِلْمٍ، فَضَلُّوا وَأَضَلُّوا»[1].

إِذَنْ: حِفْظ الشريعة يكون بالعُلَماء، برِجالها فانْوِ بذلك -أي: بطلَبك العِلْم- حِفْظ الشريعة، ونِعْمَ الرجُلُ أنتَ؛ إذا كُنْت خِزانة لشَريعة الله عَزَّوَجَلَّ!.

الثالِثة: أن يَنوِيَ بهذا -أي: بطلَبه العِلْم- حِماية الشَّريعة والذَّوْد عنها؛ لأن الشَّريعة لها أَعداءٌ، أعداءٌ مُعلِنون بعَداوتهم، وأَعداءٌ ﴿يَسْتَخْفُونَ مِنَ ٱلنَّاسِ وَلَا يَسْتَخْفُونَ مِنَ ٱللَّهِ وَهُوَ مَعَهُمْ إِذْ يُبَيِّتُونَ مَا لَا يَرْضَىٰ مِنَ ٱلْقَوْلِ﴾ [النساء:١٠٨]، فلها أَعداءٌ؛ فأنت انْوِ بطلَبك العِلْم حِماية الشَّريعة، والدِّفاع عنها؛ وإذا كان هذا مَقصودَ طالِب العِلْم، فإنه سوف يَختار الجِهَة التي يَكون غَزو أعداء المُسلِمين من ناحِيَتها، وعلى هذا يَجِبُ أن يَكونَ على عِلْمٍ بما يَجرِي في الساحة من الأفكار الرَّديئة أو العقائِد الفاسِدة.

ونَضرِب مثَلًا بوَقْت من الأَوْقات مَرَّ على الناس وهُمْ لا يَعرِفون مَذاهِبَ أهل التَّعْطيل، ولا يَعرفون الأفكار المُنحرِفة الهَدَّامة؛ لأنَّهم لم يَخْرُجوا من بلادهم، ولم يَفِد إليهم أَحَدٌ من غيرهم، فهم مُلتَفُّون على عُلَمائهم، ولا يَعرِفون إلَّا الحَقَّ، هؤلاء لا يُهِمُّهم أن يَشتَغِلوا بأمور أخرى من وَسائِل العِلْم، أو الدِّفاع عن الشَّريعة؛ لأنَّهم آمِنون، لكن إذا جاء العَدوُّ فلا بُدَّ أن نَستَعِدَّ له، وأن يَكون استِعْدادنا بسِلاح مُناسِب لسِلاحه، فمِن المَعلوم مثَلًا أنَّ مَن هَاجَمَك بالمَدافِع والصواريخ، لا يَصِحُّ ولا يَستَقيم

(١) أخرجه البخاري: كتاب العلم، باب كيف يقبض العلم، رقم (١٠٠)، ومسلم: كتاب العلم، باب رفع العلم وقبضه وظهور الجهل والفتن في آخر الزمان، رقم (٢٦٧٣)، من حديث عبد الله بن عمرو بن العاص رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.

أن تُدافِعه بما يُسمَّى بالسِّلاح الأبيض بالخَناجِر والسيوف وما أَشبَهها؛ لأن الواجِب أن تَستَعدَّ لكل عَدوٍّ بما يُناسِب سِلاحه.

فالآنَ صار في الساحة أَفكار رَديئة خَبيثة، إن لم تَكُن مُلحِدة فهِيَ إلى الإِلْحاد أقرَبُ من الاعتِدال، ولا حاجةَ إلى التَّخصيص؛ لأنه مَعلوم عند كَثير مِنْكم.

فنَحتاج أن نَعرِف هذه الأفكارَ وكَيفَ نُبطِلها، وإني أَقول لكُمْ: إن جميع الأفكار المُنحرِفة إبطالُها سَهْل جِدًّا، حتى وإن هَوَّلوا الأمر، وإن ضَخَّموا فهُمْ كالإِسْفِنج، اعصُرْه بيَدِك يَخرُج كلُّ ما فيه، ولا تَتَهيَّبوا لأنهم ليس عِندهم عِلْم مَسموع ولا عَقْل مَصنوع، فلا بُدَّ أنَّ الإنسان إذا كان قد نوَى بطلَب العِلْم حماية الشريعة والدِّفاع عنها، لا بُدَّ أن يَعرِف ما يَكون في الساحة؛ حتى يَستَطيع أن يُدافِع، ولكل مَقامٍ مَقال، ولكل مَكان ما يُناسِبه.

وإني أَقولُ لكُم: إن حِماية الشريعة والدِّفاع عنها لا يَكون إلَّا برِجالها، لو أنَّك كُنت في مَكْتبة، ومعَك جماعة ودخَل رجُل مُلحِد يُقرِّر الإلحاد، وأنتُمْ لا عِلْمَ عِنْدكم، لكن المَكتَبة مَملوءة من الكتُب التي تَرُدُّ على المُلحِدين، وتُبيِّن زَيْف ما هُم عليه، فلا يُمكِن أن يَقفِز كِتاب منها من أَجْل أن يَرُدَّ على هذا المُلحِدِ؛ فالكُتُب وإن كثُرَتْ لا تُفيد، لا بُدَّ من عُلَماء، وإذا كان في هذا المَكانُ الذي ذكَرْت إذا كان فيه عالِمٌ، فسوف يَتكلَّم بما يَرُدُّ قول هذا المُلحِدِ، حتى يَنكِص على عَقِبيه. هَذِه أُمور ثلاثة كلُّها تَترَتَّب على إخلاص النِّيَّة.

الرابعة: ما أَشار إليه الإمامُ أَحمَدُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ أَنْ يَنوِيَ رَفْع الجَهْل عن نَفْسه وعن غيره، ومتى كان يَنوِي ذلك لا بُدَّ أن يَجِدَّ في الطلَب، لأنَّ مَن أَراد الغِنَى لا بُدَّ أن يَكتَسِب، ولا بُدَّ أن يَتَّجِر، ولا بُدَّ أن يَخوض جميع مَيادين التِّجارة؛ فإذا كان يُريد

رَفْع الجَهْل عن نفسه فليس من المُمكِن، ولا من المَعقول أن يَجلِس من غير تعلُّم، لا بُدَّ أن يَجِدَّ في الطَلَب.

وإذا كان يُريد رَفْع الجَهْل عن غيره فلا بُدَّ أن يَحرِص غاية الحِرْص على نَشْر العِلْم بالوَسائِل المُناسِبة، الوسائِل القَويَّة في كل مَجال:

أولًا: يُمكِن أن يَنشُر العِلْم عن طريق الحَديث في المَجالِس العادِيَّة؛ جلَس مَجلِسًا في وَليمة في أي مَكان، يُمكِن أن يَنشُر عِلْمه، وذلك بالطريقة اللَّبِقة المُحبَّبة للنُّفوس، والتي لا تُوجِب المَلَل والاستِثْقال، يُمكِن أن يُورِد مَسأَلة من المَسائِل في هذا الجَمْعِ الذي عِنده يُورِد مَسألة يَقول: ما تَقولون في رجُلٍ فَعَل كذا وكذا، أو قال كذا وكذا؟ أو يَأتِي بمَسأَلة إلغازٍ حتَّى يَفتَح الأَذْهان، وحِينئذٍ يَدخُل في تعليم الناس.

لسْتُ أَقولُ: افرِضْ نَفْسك في المَجلِس الذي أنت فيه؛ لأن هذا صَعْب على النُّفوس، لكن اجلِبْهم إلى العِلْم بالطُرُق المُحبَّبة المُناسِبة، حتى يَشْتَغِل المَجلِس بالعِلْم مُناقَشة، أو إلقاءً، أو ما أَشبَه ذلك.

ثانيًا: كذلك أيضًا يَنشُر عِلْمه عن طريق الأشرِطة، والأشرِطة -ولله الحمد- نفَع الله بها نَفْعًا كثيرًا، خُصوصًا وأنَّ الناس كثيرٌ مِنهم -وخاصَّة من الشَّباب- يَتلقَّوْن هذه الأشرِطةَ بشغَف ولهَف، لا تَكاد تَخرُج إلَّا والناس يَتلقَّوْنها ويَنتَفِعون بها، فهذه الأَشرِطةُ -ولله الحمد- فيها مَصلَحة كبيرة ونَشْر للعِلْم، وليس في مَكانِك أو بلَدِك، أو مَنطِقتك، بل إنه يَتعدَّى إلى خارِج بلادِك، كما سمِعنا أنَّ أَشرِطة الدُّعاة والعُلَماء تَذهَب إلى أماكِنَ بَعيدةٍ. هذه من وَسائِل نَشْر العِلْم.

ثالِثًا: يُمكِن أن تَنشُر العِلْم عن طَريق الكِتابة، كِتابة الرَّسائِل، تَأليف كُتُب، نَشرة وَرَقية، وما أَشبَه ذلك، بقَدْر المُستَطاع؛ حتى تَنشُر عِلْمك، وتَنفَع وتَنتَفِع.

وهناك نَشْر للعِلْم بطَريق خَفيٍّ، يَخفَى على طالِب العِلْم، أو على كثير من طلَبة العِلْم، ألَا وهو نَشْر العِلْم عن طريق العمَل به، كثيرًا ما يَرقُب النَّاس هذا العالِمَ، ويَرَوْن ماذا يَصنَع، فيَقتَدون به، قال بعض الناس: إنه كان يُصلِّي. فقال بعض الذين شاهَدوه: إنَّك تَفعَل كذا وكذا في صلاتِك. فانظُرْ كيف كان الناس يُراقِبون أَفعال طالِب العِلْم من أَجْل أن يَقتَدوا به، وهذا من طريق نَشْر العِلْم، بل قد يَكون هذا من أَبلَغِ الطُّرُق التي يَتأثَّر بها الناس؛ لأنَّ تَأثُّر الناس بالفِعْل قد يَكون أَشدَّ وأقوَى من تَأثُّرهم بالقَوْل؛ ولهذا نُكرِّر ما أَسلَفْناه من أنَّ طالِب العِلْم لا يَكون فَقيهًا إلَّا إذا عمِل بعِلْمه، وإلَّا فهو قارِئ وليس بفقيهٍ.

وبهذه المُناسَبة أَودُّ أن أَحُثَّكم على مَكارِم الأخلاق، من: السَّماحة، وبَذْل السَّلام، وبَذْل المَعروف، والتَّسامُح فيما بينكم، ومُلاقاة الناس بالبِشْر، وطلاقة الوَجْه، فقد كان من صِفات النَّبيِّ ﷺ أنه كان دائِم البِشْر كثير التَّبسُّم، صلَواتُ الله وسلامه عليه؛ دائِم البِشْر لا تَجِده مُنغلِقًا ولا مُكفَهرًّا، كَثير التَّبسُّم في محلِّه، فلنا فيه صلوات الله وسلامه عليه أُسوة حسَنة؛ قال الله تعالى فيه: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾ [القلم:٤].

ومِمَّا يَنبَغي لطالِب العِلْم أن يَحفَظ وَقْته عن الضَّياع، وضَياع الوقت يَكون بأسباب، أو يَكون له وُجوهٌ:

الوجهُ الأوَّل: أن يَدَع المُذاكَرة ومُراجَعة ما قرَأ.

الوجه الثاني: أن يَجلِس إلى أصدقائه، وأَحِبَّائه، ويَتحدَّث معهم بحَديث لَغو، ليس فيه فائِدة.

الوَجْه الثالِثُ: وهو أَضرُّها على طالِب العِلْم، ألَّا يَكون له همٌّ إلَّا تَتبُّع أقوال

الناس، وما قيل وما يُقال، وما حصَل وما يَحصُل في أمر ليس مَعنِيًّا به، وهذا لا شَكَّ أنه من ضَعْف الإسلام؛ لأن النَّبيَّ -صلى الله عليه وعلى آله وسلم- قال: «مِنْ حُسْنِ إِسْلَامِ الْمَرْءِ تَرْكُهُ مَا لَا يَعْنِيهِ»(١).

والاشتِغال بهذا القِيلِ والقال وكَثْرة السُّؤال مَضيَعة للوقت، وهو في الحَقيقة مَرَض إذا دبَّ في الإنسان -نَسأَل الله العافِية- صار أكبَرَ همِّه، ورُبَّما يُعادِي مَن لا يَستَحِقُّ العداء، أو يُوالي مَن لا يَستَحِقُّ الوَلاء، من أَجْل تَشاغُله في هذه الأُمورِ، التي تَشغَله عن طلَب العِلْم، بحُجَّة أنه يَقول له فِكْرة. هذا من باب الانتِصار لصاحِب الحَقِّ، وليس كذلك، بل هذا من إِشْغال النَّفْس بما لا يَعنِي الإنسان.

أمَّا إذا جاءك الخبَرُ بدون أن تَتلَقَّفه، وبدون أن تَطلُبه، فكل إنسان يَتلقَّى الأخبار، لكن لا يَنشَغِل بها، لا تكون أكبَرَ همِّه؛ لأن هذا يَشغَل طالِب العِلْم، ويُفسِد عليه أمرَه، ويَفتَح في الأُمَّة باب الحِزْبية والوَلاء والبَراء، فتَتفَرَّق الأُمَّة فنَسأَل الله تعالى أن يُوفِّقَنا وإيَّاكم لما فيه الخَيْر والصَّلاح، وأن يَجمَع القُلوب على طاعته، ويَرزُقنا عِلْمًا نافِعًا، وعمَلًا صالِحًا، ورِزْقًا طيِّبًا، واسِعًا يُغنينا به عن خَلْقه.

فإن قال قائِل: كثير من المَشايِخ يَهتَمُّون بالعِلْم ويُهمِلون فِقْه الواقِع، وكثير من الطُّلَّاب يُنكِرون إنكارًا شديدًا على مَن اهتَمَّ بالواقِع ويَقولون: العِلْم قال الله قال الرسولُ.

فالجوابُ: النَّاس في كل أُمورهم يَنقَسِمون إلى ثلاثة أقسام: طرَفان ووسَط، طرَف مُفرِّط، وطرَف مُفرِط، ووسَط. من الناس مَن يَشتَغِل بما يُسمُّونه فِقْه الواقِع،

---

(١) أخرجه الترمذي: كتاب الزهد، رقم (٢٣١٧)، وابن ماجه: كتاب الفتن، باب كف اللسان في الفتنة، رقم (٣٩٧٦)، من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

ولا يَكون له هَمٌّ إلَّا تَتبُّع الناس، وقيل وقال وكَثْرة السؤال، وهذا لا شَكَّ أنه مَضيَعة وتَشاغَل بالمُهِمِّ إن كان مُهِمًّا عن الأهمِّ، وهذا غلَط.

ومن الناس مَن يَتشاغَل بالفِقْه الشَّرْعيِّ ويَحرِص عليه، لكنه لا يَلتَفِت إلى أحوال الناس إطلاقًا، بل رُبَّما يُنكِر من الفِقه الشَّرعيِّ ما يَظُنُّ أنَّ الدليل لا يَدُلُّ عليه، وهذا أيضًا طرَف خَطَأ.

ومن الناس مَن يُحاوِل الجمع بين هذا وهذا، ونحن إذا سَبَرْنا سِيرة النّبيِّ -صلى الله عليه وعلى آله وسلم- وجَدْنا أنه عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ يَفهَم الواقِع، ويَفهَم الناس، ويَفهَم الخَيِّر من الشِّرير، لكنه ﷺ يَهتَمُّ بالأمر الثاني، الذي هو الفِقْه في الدِّين، ولهذا قال: «مَنْ يُرِدِ الله بِهِ خَيْرًا يُفَقِّهْهُ فِي الدِّينِ»[1] لم يَقُل: يُفقِّهْه في الواقِع، فِقْه الواقِع وَسيلة للتَّطبيق فقَطْ، فلا بُدَّ لطالِب العِلْم من هذا ومن هذا، لا تَجنَح إلى طرَف الفِقْه في الواقِع، ولا تَغلُ في الفِقْه في الدِّين، فتُعرِض عن كل شيء، فالإنسان يَجِب أن يَكون وسَطًا.

فإن قال قائِل: لكن لو نظَرْنا إلى واقِعنا المُعاصِر الآنَ بعض وسائِل الإعلام تَدعو إلى الكُفْر والإلحاد والشِّرْك، وما أَشبَه ذلك، الواقِع الحَقُّ يَمنَع من ذلك، فكيف تكون حِماية الشَّريعة؟

فالجوابُ: أنت انْوِ بذلك حِماية الشريعة، أمَّا كونُك تُطبِّق ذلك في المُجتَمَع، هذا ليس إليك، هذا إلى الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِى مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِى مَن يَشَآءُ﴾ [القصص:٥٦]، ومعلومٌ ما جرَى للإمامِ أحمدَ وغيرِه من الأئمَّة من المِحَن، في

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب العلم، باب من يرد الله به خيرًا، رقم (٧١)، ومسلم: كتاب الزكاة، باب النهي عن المسألة، رقم (١٠٣٧)، من حديث معاوية بن أبي سفيان رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمَا.

مُحاوَلة تَطبيق الشَّريعة في الناس، ومع ذلك هم صبَروا واحتَسَبوا حتى ظهَر الحقُّ، ولله الحمدُ.

فتَطبيق الشَّريعة ليس مَعناه أن طالِب العِلْم إذا نَوى تَطبيق الشَّريعة وحِمايَتها، أنه يَستَطيع ذلك، قد لا يَستَطيع، لكن هو يَنوِي هذا، ويَجعَل طلَبه للعِلْم مُركَّزًا على هذه النِّيَّة، والله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى يُيَسِّر له الأمر، ثُم إذا أُوذِيَ في الله، فهو رِفْعة لدرَجاته، ورِفْعة لِذكْره، لو تَأمَّلت مَن أكثَر الناس إيذاءً من العُلَماء لوَجَدْت أنهم العُلَماء الكِبار هم الذين يَلحَقهم الأذى من حَبْس وضَرْب وإهانة، وربَّما قَتْل، فيَكون هذا من رِفْعة الله لهم.

مسألة: ما هي العُلوم التي يَحسُن لطالِب العِلْم البَدْء بها؟

الجَوابُ: نَرَى أن أهمَّ المهمَّات هو العِلْم بهذا الكِتابِ العَزيز، كِتاب الله قبلَ كل شيء؛ لأن الصَّحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ لا يَتَجاوَزون عَشْر آيات حتى يَتعلَّموها وما فيها من العِلْم والعمَل، ثُمَّ العِناية بما صحَّ من السُّنَّة، ثُم العِناية بما كتَبه أهل العِلْم وأَخَذوه من هَذين المَصدَرَيْن الأساسين؛ الكِتاب والسُّنَّة، ولا يَعنِي إذا قُلنا: إنَّك تَحرِص على مَعرِفة كلام الله، وكلام رسوله، أن تُعْرِض عن كُلِّ شَيءٍ، لا بُدَّ أن نَنْتَفِعَ بأفْكَارِ العلماء الذين كرَّسوا جُهودَهم لِخدْمة العِلْم، وإلَّا لضِعْنا؛ ولهذا كتَب العُلَماء رَحِمَهُمُ اللَّهُ في أُصول الفِقْه، وفي أُصول الحديث، وفي قَواعِد الفِقْه، وفي قَواعِد التَّحديث، وغير ذلك من أَجْل الضَّبْط؛ حتى يَنضَبِط الناس ويَكونوا ماشِين على قَواعِدَ معلومةٍ.

فإن قال قائِل: حِفْظ المُتون فيه صُعوبة، بعض الناس يَقول: أنا أُكرِّر مَسائِلَ مرَّاتٍ، وأَفهَمها وأَكتَفِي بذلك عن حِفْظ المُتون، حِفْظ المُتون مِثْل الفِقْه مثَلًا يَقول: هذه إنما كَلام أُناس نحن نَأتِي بمِثْله، فما رأْيُك؟

فالجوابُ: أنا رَأْيِي أنَّ حِفظ المُتون هو الأساس، وما انتَفَعْت بشيء من انتِفاعي بما حَفِظت من الكتُب؛ لأنَّ حِفْظ المَسائِل يُطيل إلَّا مَسائِلَ تَتكرَّر على الإنسان يَوميًّا فهو لا يَنساها من قِبَل العمَل، فحِفْظ المُتون هو العِلْم في الواقِع، وكونه صعبًا على بعض الناس هذا صَحيح، فبعضُ الناس يَصعُب عليه جدًّا أن يَحفَظ، تَجِده يُكرِّر المَتْن تكرارًا كثيرًا، ولكِن لا يَحفَظه، لكِنِ احرِصْ على هذا، وكُلَّما تَقدَّمـتِ السِّنُّ بالإنسان قوِيَ فَهمُه وضَعُف حِفْظه، يَعنِي: فَهمه يَقوَى ويَتفتَّح عليه من الفُهوم ما لم يَكُن يَعرِفه من قَبلُ، لكن يَقِلُّ حِفْظه؛ ولهذا نَنصَح الشابَّ إلى الحِفْظ، وأوَّل ما يَجِب أن يُحفَظ هو كِتاب الله، الذي هو أساس كلِّ شيء.

فإن قال قائِل: هل يُنصَح طالِب العِلْم أن يَسير في فنٍّ من الفُنون مثل فَنِّ الفِقْه، أو أنه يَتنقَّل في الفُنون من فَنِّ العَقيدة إلى فَنِّ الفِقه؟

فالجوابُ: العُلوم ليسَتْ سواءً، بعضُها أهمُّ من بعض؛ فأنت كَرِّس جُهودك على الأهَمِّ، ولا تَخلُ نَفسُك من العُلوم الأخرى المُسانِدة للأهَمِّ، يَعنِي مثَلًا: رجُل قال: أَنا أَهوَى النَّحو، أُكرِّس جُهودي على النَّحو ولا أَتعرَّض لغير هذا. نَقول: غلَط، كَرِّس جُهودك على ما تَهواه نَفْسك؛ لئَلَّا يَضيع عليك الوَقْت؛ لأنَّ الإنسان إذا حاوَل أن يُرغِم نفْسَه في دِراسة شيء لا يَختاره سيَضيع عليه الوقتُ، لكن لا تَنْسَ العُلوم الأُخرى.

وكذلك أيضًا لا تُكثِر على نَفْسك من العُلوم؛ لأن كَثْرة العُلوم تُضعِف الإنسان في هِمَّته، وفي فَهْمه والَّذين درَسوا في المَدارِس النِّظامِية يَعرِفون هذا، تَجِد مثَلًا في المَعاهِد أو المدارس الثانويَّة تَجِـد فيها مثَلًا خمسَ عشْـرَةَ مادَّةً تَضيع على الإنسان، لو أَرَدْت أن تَبحَث معه في شيء عَميق من المَوادِّ التي درَسها ما وجَدْت

عنده شيئًا، فإذا رَكَّز الإنسان على العُلوم واختَصَرها بقَدْر ما يَستَطيع، صار هذا أَجوَدَ له، وأكثَرَ استِفادةً.

ويُذكَر أنَّ بعض الناس يَقول: إن مَن أَتقَن عِلْمًا من العلوم إتقانًا جيِّدًا استَغنَى به عن سائِر العُلوم، وهذا لا شَكَّ أنه غلَط، لو أنك أَدرَكْت النَّحْو جيِّدًا، لا يُغنِيك عن مَعرِفة الفِقْه. وما يُذكَر عن أبي يُوسُفَ والكِسائيِّ أنَّهما تَناظَرا في حَضْرة الرشيد، وقال الكِسائيُّ: إن الإنسان إذا أَتقَن العِلْم -أي عِلْم أَتقَنه- يَستَغنِي به عن غيره، وأنَّ أبا يُوسُفَ أَورَدَ عليه الرجُل يَسهو في سُجود السَّهْو، فقال الكِسائيُّ: ليس عليه سُجود. قال: ومن أَيْن يُوجَد هذا في عِلْمك. لأنَّ الكِسائيَّ إمامٌ في النَّحوِ، قال: من قَواعِد عِلْمي أن المُصغَّر لا يُصغَّر[1]. هذا لا يَصِحُّ دليلًا في حُكْم شَرعيٍّ أبدًا. وأنا أَظُنُّ أنَّ هذه القِصَّةَ مَصنوعة، ليسَتْ صَحيحة.

لكن الإنسان يَنبَغي له أن يُركِّز، وأنا في نظَري أن أَهَمَّ ما أُركِّز عليه هو القُرآن الكَريم، القُرآن كُنوز عَظيمة، كُلَّما أَخَذْت آية وصِرْت تَتَأَمَّلها انفتَح لك من العُلوم فيها ما لا يَعلَمه إلَّا الله، ثُم القُرآن سَنَد يَعنِي: ليس القُرآن ككِتاب أيِّ عالِمٍ من العُلَماء، هو سَنَد يَحتَجُّ به الإنسان أمام الله عَزَّوَجَلَّ؛ لأنه كَلام الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ؛ فلهذا أنا أَرَى أن نُركِّز على عِلْم التَّفسير، ثُم على مَعرِفة ما صَحَّ عن النَّبيِّ ﷺ، وأَنتُمْ تَعرِفون أنَّ ما نُسِب للرسول ﷺ يَحتاج إلى جُهْد قبلَ أن يَكون دليلًا، الجُهْد هو أن نَعرِف صِحَّته إلى الرسول؛ لأنه ما أَكثَرَ الأحاديثَ التي رَواها ضِعَاف النَّاس رِوايةً! إمَّا لِقِلَّة أمانَتِهم، أو لسُوء حِفْظهم، أو ما أَشبَه ذلك.

---

(١) ذكرها الجويني في نهاية المطلب (٢/ ٢٧٥)، وابن مفلح في النكت على المحرر (١/ ٨٢)، وانظر: الموافقات للشاطبي (١/ ١١٨).

بل ما أَكثَرَ الأحاديثَ المَوْضوعةَ المَكْذوبة على الرسول عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ! لأنَّ الأهواءَ كثُرت، فصار مَن لا يَخاف الله يَضَع ما شاء من الأحاديث، ويَنسُبها للرسول ﷺ، تَحتاج السُّنَّة إلى عِناية كَبيرة في ثُبوت صِحَّتها عن الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

أمَّا القُرآن فلا يَحتاج إلى هذا؛ لأنه ثابِت بالنَّقْل المُتواتِر الذي يَنقُله الأصاغِر عن الأكابِر؛ فالعِناية بالكِتاب والسُّنَّة هو أهمُّ شيء، لكن لا يَعنِي ذلك الإعراضَ عمَّا كتَبه العُلَماء، لا بُدَّ من الاستِعانة بآراء العُلَماء، وكيفية استِنْباطهم للأحكام من القُرآنِ والسُّنَّة.

ويَنبَغي أن نُلِمَّ بشَيْء من قَواعِد التَّفسير، فنَقولُ:

أوَّلًا: التَّفْسير مَأْخوذ من الفَسْر، فسَرَتِ الثَّمَرَةُ عن قِشْرِها؛ أيِ: اتَّضَحت وبانَت، وهو عِبارة عن تَوضيح كلام الله عَزَّوَجَلَّ، والتَّفسير يُراد به التَّفْسير اللَّفظيُّ، يَعنِي: أن تُفسِّر اللَّفظة بقَطْع النَّظَر عن سِياقها، ويُراد به التَّفْسير المَعنَويُّ، بأن تُفسِّر اللَّفْظة بحَسَب سِياقها، فمثَلًا قول الله تَبَارَكَ وَتَعَالَى: ﴿وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا ٱسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ﴾ [الأنفال:٦٠]، إذا فسَّرنا القُوَّة التَّفسير اللفظيَّ، صار مَعناها ضِدَّ الضَّعْف، لكن الرسول ﷺ قال: «إِنَّ القُوَّةَ الرَّمْيُ»(١)، وعلى هذا فنَقول: مَعنَى القُوَّة ضِدُّ الضَّعْف، هذا باعتِبار اللَّفْظ، والمُراد بها الرَّميُ، هذا باعتِبار المَعنَى المُراد.

ومِثله أيضًا: ﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُواْ ٱلْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ﴾ [يونس:٢٦]، الزِّيادة مَعناها: الفَضْل، زِيادة الشيء على الشيء، هذا من حيثُ اللَّفْظ؛ لكن المُراد النَّظَر إلى وَجْه الله عَزَّوَجَلَّ كما فسَّره النَّبيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ.

---

(١) أخرجه مسلم: كتاب الإمارة، باب فضل الرمي، رقم (١٩١٧)، من حديث عقبة بن عامر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

إِذَنِ: التَّفْسير اللَّفْظيُّ غير المُراد، المُراد يُعيِّنه السِّياق، أو يُبيِّنه النَّبيُّ ﷺ أو ما أَشبَه ذلك، وأمَّا اللَّفْظ فأن تُفسَّر الكلِمة باعتِبار مَعناها، مُنْفرِدَة دون النَّظَر إلى سِياقها، والقُرآن الكَريم يُفسَّر بالمعنى الثاني، أي: بما أَراد الله به.

ثانيًا: هل المُراد يُخالِف الظاهِر أو هو الظاهِر إلَّا بدَليل؟ المُراد هو الظاهِر، يَعنِي: أنَّ الله يُريد بكَلامه ظاهِره، ولا بُدَّ، ولا يُمكِن أن نَعدِل عن الظاهِر إلَّا بدليل، فمَن عَدَل عن الظاهِر إلى غيره بدون دَليل، كان مِمَّن يُحرِّفُون الكَلِمَ عن مَواضِعه.

مثال هذه القاعِدةِ: قال الله تَبَارَكَ وَتَعَالَى: ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ﴾ [الأعراف:٥٤] فظاهِر قوله: ﴿ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ﴾؛ أي: عَلا عليه، علُوًّا يَليقُ بجلاله وعظَمته، وهو عُلوٌّ خاصٌّ بِالعَرْش، وليس هو العُلوَّ العامَّ على جميع المَخلوقات، فإذا جاء الإنسان، وقال: ﴿ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ﴾ يَعنِي: استَوْلى عليه، فإننا لا نَقبَل منه؛ لأنَّ هذا خِلاف الظَّاهِر بلا دليلٍ، فإذا كَانَ خِلافُ الظَّاهِر بلا دليلٍ؛ فإنه من بابِ تَحريف الكَلِم عن مَواضِعه، وإن تَسَمَّى أهْلُه بأنَّهم مُؤَوِّلة، فإِنَّما يُسمُّون أنفسهم بذلك من أَجْل قَبول قولهم، وتَسهيل خطَئِهم على الناس؛ لأنه فَرْق بين أن تَقول: هذا مُؤَوِّل، أو هذا مُحرِّف. وإلَّا فالحقيقة أنهم مُحرِّفون.

ولهذا تَجِد شيخ الإسلام ابنَ تَيميَّةَ رَحِمَهُ اللَّهُ عبَّر بالعَقيدة الواسِطية بقوله: من غير تَحْريف[1]. ولم يَقُل: من غَيْر تَأْوِيل؛ لأن التَّحريف مَذموم بكُلِّ حال، والتَّأْوِيل منه صَحيح ومنه فاسِد.

---

(١) العقيدة الواسطية (ص:٥٧).

فإن دَلَّ دليل على أن المُراد خِلاف الظاهِر، فَسَّرناه بالمُراد، مِثْل قوله تعالى: ﴿فَإِذَا قَرَأْتَ ٱلْقُرْءَانَ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ﴾ [النحل:٩٨]، مَعنى قرأْت، يَعنِي: أرَدْت أن تَقرَأ، وليس المعنى: إذا فرَغْت، لو أننا فَسَّرْنا اللَّفْظ بظاهِره، لقُلنا: إذا قرَأْت. يَعنِي إذا انتَهَيْت من القِراءة فاستَعِذْ بالله، ولكنَّ هذا غيرُ مُراد، والذي يُبيِّن أن هذا غيرُ مُراد فِعْلُ النَّبيِّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ فإنه كان يَستَعيذ قبل أن يَبدَأ القِراءة. هاتان قاعِدتان.

القاعِدة الثالِثة: إلى مَن يُرجَع في تَفسير القُرآن؟ هل يُرجَع إلى اللُّغة والحَقيقة اللُّغَوية، أو يُرجَع إلى الحَقيقة الشرعية، أو ماذا؟ نَقولُ: أوَّلًا يُرجَع في التفسير إلى تَفسير مَن تَكلَّم به، وهو الله عَزَّوَجَلَّ فيُرجَع في التَّفسير:

أوَّلًا: إلى كلام الله، فإذا كانت الكلِمة مُجمَلة في مَوْضِع من القُرآن ومُفصَّلة في مَوْضِع؛ فإنه يُرجَع إلى ما فُصِّل بالقُرآن نفسه، إذا كانت مُبهَمة في مَوضِع لكنها مُبيَّنة في مَوْضِع آخرَ نَرجِع إلى المَوْضِع الآخَر.

فيُفسَّر القُرآن أوَّلًا بالقُرآن؛ لأن المُتكلِّم به أَعلَمُ به من غيره، ففي قوله تعالى: ﴿ٱلْقَارِعَةُ ۝١ مَا ٱلْقَارِعَةُ ۝٢ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلْقَارِعَةُ﴾ [القارعة:١-٣]، ما هي القارِعة؟

نَقول: بيَّنها الله بقوله: ﴿يَوْمَ يَكُونُ ٱلنَّاسُ كَٱلْفَرَاشِ ٱلْمَبْثُوثِ﴾ [القارعة:٤]، وقال تعالى: ﴿وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا يَوْمُ ٱلدِّينِ ۝١٧ ثُمَّ مَآ أَدْرَىٰكَ مَا يَوْمُ ٱلدِّينِ﴾ [الانفطار:١٧-١٨] فسَّرَها بقوله: ﴿يَوْمَ لَا تَمْلِكُ نَفْسٌ لِّنَفْسٍ شَيْـًٔا ۖ وَٱلْأَمْرُ يَوْمَئِذٍ لِّلَّهِ﴾ [الانفطار:١٩]، وكذلك قوله تعالى: ﴿لَنَسْفَعًۢا بِٱلنَّاصِيَةِ﴾ [العلق:١٥]، أيُّ ناصِية هي؟ كلُّ ناصِية يَسفَع الله بها؟ لا ﴿نَاصِيَةٍ كَٰذِبَةٍ خَاطِئَةٍ﴾ [العلق:١٦]، وعلى هذا فقِسْ.

فنَرجِع أوَّلًا إلى تَفسير مَن تَكلَّم به وهو الله؛ أي: إلى تَفسير القُرآن بالقُرآن؛ ثُم بعد هذا نَرجِع إلى:

ثانيًا: تَفسير القُرآن بالسُّنَّة؛ لأنَّ أَعلَمُ الناس بكلام الله رسولُ الله ﷺ فنَرجِعُ إلى تَفْسيره، ولا نَقبَل تفسير غيره.

مِثال ذلك قوله تعالى: ﴿لِّلَّذِينَ أَحۡسَنُواْ ٱلۡحُسۡنَىٰ وَزِيَادَةٞ﴾ [يونس:٢٦]، فقد فسَّرَها ﷺ بأنَّها النظَر إلى وجه الله؛ فلو جاءَنا جاءٍ وقال: وزِيادة؛ أي: زِيادة في الحُسْن، قُلنا له: لا نَقبَل قولَك. وإن كانت الكلِمة من حيثُ مَعناها اللَّفظيُّ تَحتَمِل ما قلت لكنَّنا لا نَقبَل؛ لأن النَّبيَّ ﷺ فسَّرها بأنها النظَر إلى وجهِ الله، وهو أَعلَم الناس بمُراد ربِّه، فلا نَقبَل قوله.

ثالثًا: نَرجِع إلى تَفْسير الصحابة، يَعنِي: إذا لم نَجِد في القُرآن ولا في السُّنَّة، رجَعْنا إلى تَفسير الصحابة؛ لأن الصحابة أَعلَمُ النَّاس بمُراد الله ورسوله؛ حيث إنَّهم في عَصْر التَّنزيل، وشاهَدوا الأحوال والقرائِن الدالَّة على المُراد، ولا شَكَّ أن المُشاهِد للشيء ليس كالغائِب عنه؛ فالآنَ رُبَّما أَتكلَّم أنا بكلام، مُنفعِل فيه، وأَقول: أَتَفْعَلون كذا؟ ولِـمَ كَذا؟ وتَجِدونَني مُنفَعِلًا والذي يَسمَع كلامي ولم يُشاهِدْني يَظُنُّه كلامًا عادِيًّا، ولا يَعرِف؛ لأنه ليس عنده قَرينة.

ولـهذا نَقول: الصحابة أَعلَمُ الناس بتَفسير كَلام الله ورسوله؛ لأنهم قد شاهَدوا الأحوال، وعرَفوا القَرائِن؛ فيُرجَع إلى تَفسيرهم.

مثال ذلك: قولُه تعالى: ﴿وَإِن كَانَ رَجُلٞ يُورَثُ كَلَٰلَةً أَوِ ٱمۡرَأَةٞ وَلَهُۥٓ أَخٌ أَوۡ أُخۡتٞ فَلِكُلِّ وَٰحِدٖ مِّنۡهُمَا ٱلسُّدُسُ﴾ [النساء:١٢]، فهُنا فسَّر أبو بَكْر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ الكَلالة

بأنه مَن لَيْس له ولَد ولا والِد[1]، بأنه الميت يَموت ليس له ولَد ولا والِد، يَعنِي: لا أُصولٌ ولا فُروعٌ. هنا نَأخُذ بتَفسير أبي بَكْر؛ لأنه من الصَّحابة، والصَّحابة أَعلَم النَّاس بتَفسير كلام الله عَزَّوَجَلَّ.

ومَعنَى قولنا هذا: أنه لو جاء أحَدٌ من المُتأخِّرين، وفسَّر القُرآن بخِلاف ما فسَّرَت به الصحابة، فإننا لا نَرجِع إلى قوله أبَدًا.

رابِعًا: إذا لم نَجِد في القُرآن ولا في السُّنَّة، ولا في كلام الصحابة، نَرجِع إلى أقوال التابِعين، ولا سِيَّما مَن عُرِف مِنهم بالتَّلقِّي عن الصحابة، مثل مُجاهِد بنِ جَبْر رَحِمَهُ اللَّهُ؛ فإنه قال: عرَضْتُ المُصحَف على ابن عبَّاس مرَّتَيْن أو أكثَرَ أَقِف عند كل آية وأَسأَله عن مَعناها[2]. فمِثْل هذا يُؤخَذ بقوله؛ لأنه أخَذ عن الصَّحابة، وإن كان بعض التابِعين قد لا يَنال هذه المَرتَبة؛ لعدَم أَخْذه عن الصَّحابة، لكن التابِعون أَقرَبُ إلى المعنى الصَّحيح ممَّن بَعدَهم إلَّا أنهم -كما عرَفْتم- يَقِلُّون مَرْتَبةً عن الصحابة.

خامِسًا: نَرجِع إلى المعنى الحَقيقيِّ للكلِمة، وهو المعنى اللُّغويُّ، يَعنِي: نَرجِع إلى مَعنَى الكلِمة في اللُّغة العَربية، ودليلُ ذلك قوله تعالى: ﴿إِنَّا جَعَلْنَٰهُ قُرْءَٰنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ [الزخرف:٣]؛ يَعنِي: تَفهَمون المَعنَى، وهذا إحالةٌ من الله عَزَّوَجَلَّ إلى اللُّغة العَربية، وأنَّ عَقْل القُرآن يَكون بمُقتَضى اللُّغة العَربية، ولنا حُجَّة.

فإذا قال قائِل: ما دَليلُك على أن معنى هذه الكلِمةِ هو كذا؟

---

(١) أخرجه عبد الرزاق (١٠/ ٣٠٤)، وسعيد بن منصور في التفسير من السنن رقم (٥٩١)، وابن أبي شيبة (١٦/ ٣٧٠).

(٢) أخرجه الطبري في تفسيره (١/ ٨٥)، والطبراني في المعجم الكبير (١١/ ٧٧، رقم ١١٠٩٧).

قلنا: هذا مَعناها في اللُّغة، والقُرآن نزَل باللُّغة العرَبية، وقد أَشار الله إلى ذلك في قوله: ﴿إِنَّا جَعَلْنَهُ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ ﴿فَإِنَّمَا يَسَّرْنَهُ بِلِسَانِكَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾ [الدخان:٥٨]، إلى غير ذلك من الآيات الواضِحة.

فإن اختَلَفَتِ الحَقيقة اللُّغَوية والحَقيقة الشَّرْعية، رجَعْنا إلى الحَقيقة الشَّرْعية، يَعنِي: الحَقيقة الشرعية واللُّغَوية لا شكَّ أنها تَتَّفِق في أشياءَ كَثيرةٍ؛ فالسَّماء سَماء لُغة وشرعًا، والأرض أرض لُغة وشَرْعًا، والإِبل إِبل لُغة وشَرعًا، وما أَشبَه ذلك، فإن تَعارَضــت الحقيقة الشرعية والحَقيقة اللُّغَوية فنُقدِّم الحَقيقة الشَّرْعية؛ لأن هُناك كلماتٍ نقَلها الشَّرْع من المعنى الأصليِّ اللُّغَويِّ إلى المَعنَى الشَّرعيِّ.

مِثال ذلك: «الإيمان» الإيمان في اللُّغة هو: الإقرار والاعتِراف، أو التَّصديق، على خِلاف بين العُلَماء في التَّفسير. لكنه في الشَّرْع غير ذلك، الإيمان في الشَّرْع أَوسَع من هذا؛ يَشمَل المَعنى اللُّغَويَّ، ويَشمَل ما سِواه، مثل: الأعمال، الأقوال، الأفعال، التُّروك. كلُّ هذه من الإيمـان شرعًا، ومِثل: الصلاة، وجَدْنا في القُرآن: ﴿أَقِيمُوا الصَّلَوٰةَ﴾ على أيِّ شيء نَحمِـل الصـلاة، على المَعنَى اللُّغَـويِّ الذي هـو الدُّعاء أو على المَعنَـى الشَّرْعيِّ؟ على المعنـى الشَّرعيِّ؛ لأنَّ الشَّرْع نَقَـل بعض الألفاظ العرَبية إلى مَعنًى جَديدٍ، ليس مُستَعمَلًا في اللُّغة العرَبية فنَأخُذ بما أَقرَّه الشَّرْع.

إِذَنْ: نَرجِع في التَّفْسير إلى القُرآن، السُّنَّة، الصَّحابة، التابِعين، مَعنَى الكلِمة، وإذا تَعارَض اللُّغة والشَّرْع، قَدَّمنا المَعنَى الشَّرْعيَّ، وهذا هو المَبحَث الثالِث.

المَبحَث الرابع: هل يَجوزُ لنا أن نُفسِّر القُرآن دون الرُّجوع إلى كلام العُلَماء المَكتوب أو المَسموع؟ هذا يُنظَر إذا كانَتِ الكلِمة لـها مَعنًى لُغويٌّ، ولـم نَعلَم أن

لـها مَعنًى شرعيًّا يُعارِضه؛ فلنا أن نُفسِّر القُرآن بمُقتَضى اللغة، إذا لم نَعلَم أن لـها مَعنًى شرعيًّا نُقِلت إليه؛ لأن القُرآن -كما قُلْنا واستَدْلَلنا- نزَل باللُّغة العرَبية، فإذا فسَّرته بمُقتَضى اللُّغة العرَبية فلا بأسَ، لكن بشَرْط أن يَكون لي عِلْمٌ باللُّغة العرَبية، ليس أيُّ عامِّيٍّ يَجيء يُفسِّر القرآن.

أمَّا إذا فَسَّرتُ القُرآن بما يُوافِق رَأْيِي مع مُخالَفته للقَواعِد السابِقة، فهذا جاءت الأَحاديث بالوعيد فيه، وأن «مَنْ قَالَ فِي الْقُرْآنِ بِرَأْيِهِ فَلْيَتَبَوَّأْ مَقْعَدَهُ مِنَ النَّارِ»[1] ولهذا أَمثِلة كثيرة عقَدية وفِقْهية.

كثير من العُلَماء فسَّروا القُرآن بآرائهم؛ أي: بما يُناسِـب مَذاهِبهم، وهذا في العَقائِد مَشهور معروف، مثل يُفسِّر قول الله تعالى: ﴿وَجَآءَ رَبُّكَ﴾ [الفجر:٢٢]؛ أي: جاءَ أَمْر ربِّك، يُفسِّر قوله تعالى: ﴿فَأَجِرْهُ حَتَّىٰ يَسْمَعَ كَلَٰمَ ٱللَّهِ﴾ [التوبة:٦]؛ بأنه الكَلام المَخلوق، يُفسِّر قوله تعالى: ﴿ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ﴾ يَعنِي: استَوْلى عليه، يُفسِّر قوله تعالى: ﴿لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ﴾؛ أي: بقُدْرتي، وما أَشبَه ذلك، هذا قارِئٌ في القُرآن برَأْيه لا شكَّ؛ لأنه لا فسَّره بمُقتَضى اللُّغة، ولا بمُقتَضى الشَّرْع، وإنَّما بمُقتَضى رَأْيه، الَّذي يُطابِق ما هو عليه من المَذهَب أو من الطَّريقة.

فالتَّفسير بالرَّأْي إِذَن مُحرَّم ومن كبائر الذُّنوب، وهو داخِل في قوله تعالى: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا﴾ [الأنعام:٢١]؛ لأن هذا المفَسِّر يَقول: إنَّ الله أَراد بهذا هذا. فيَكون كاذِبًا؛ فيَكون ممَّن افترَى على الله كذِبًا حيث قال: إن الله أَراد كذا.

---

(١) أخرجه الإمام أحمد (١/ ٢٣٣)، والترمذي: كتاب تفسير القرآن، باب ما جاء في الذي يفسر القرآن برأيه، رقم (٢٩٥١)، من حديث ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.

ثُم هو مِمَّنِ اعتَدَى في حقِّ الله؛ حيث قال: لم يُرِد كذا. انظُرِ الخطَر، إذا قال: ﴿وَجَآءَ رَبُّكَ﴾ قال: أَراد الله: وجاء أَمْر رَبِّك، فيَكون كذَب على الله. قال: ولم يُرِد أنه جاء بنَفْسه، يَكون اعتَدَى على كلام الله، وتَجاوَز حَدَّه، مَن قال لكَ: إنَّ الله لم يُرِد هذا، وهذا ظاهِر كلامه؛ فيَكون هذا مُعتَدِيًا مُحرِّفًا، والعِياذ بالله.

وكذلك أيضًا في المَسائِل الفِقْهية، مثلًا: ﴿وَٱمْسَحُواْ بِرُءُوسِكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ﴾ [المائدة:٦]، قال الرافِضة: يَعنِي أنَّ الله أَمَرنا أن نَمسَح الأرجُل بدَل الغَسْل؛ فيُقال: هَؤلاء قالوا برَأْيِهم؛ لأنهم أَهمَلوا قِراءة النَّصْب ﴿وَأَرْجُلَكُمْ﴾ ولم يَعمَلوا بها، ثُم خالَفوا المُراد بقِراءة الجَرِّ، وهي أنها تُمسَح الرِّجْل على الوَجْه الذي بيَّنَتْه السُّنَّة، والذي بيَّنَته السُّنَّة أنَّ الرِّجْل تُمسَح إذا كان عليها خُفَّان، أو جَوْربان، أو ما أَشبَه ذلك؛ فتَبيَّن الآنَ أنَّ التَّفسير بالرَّأْي من كبائِر الذُّنوب؛ لأنه يَتضمَّن مَفسَدَتين عَظيمتين: إحداهما: تَحريف الكلِم عن مَواضِعه، والثاني: الكذِب على الله، والتَّعدِّي في حَقِّه؛ حيث قالوا: إنه لم يُرِد كذا، وأَراد كذا.

المَبحَث الخامِس: أهمِّيَّة التَّفسير: التَّفْسير من أجَلِّ العُلوم وأَعلاها قَدْرًا؛ لأن الإنسان يُحاوِل أن يَفهَم به مَعنَى كلام الله عَزَّوَجَلَّ والعُلوم تَشْرُف بحَسب مَوْضوعها، ولا أَشرَف من مَوضوع تَفْسير كلام الله عَزَّوَجَلَّ، فيَكون التَّفْسير من أجَلِّ العُلوم إن لم نَقُل: هو أجَلُّ العُلوم وأَعظَمها قَدْرًا؛ لأنه عِناية بكَلام الله عَزَّوَجَلَّ؛ ولأنه اتِّباعٌ لطَريق السَّلَف الذين لا يَتجاوَزن عَشْر آيات حتى يَتعلَّموها وما فيها من العِلْم والعمَل، ولأن الإنسان إذا فهِمَ كلام الله ذاقَ له طَعْمًا، وصار يَقرَؤُه وهو يَجِد حَلاوة مَعناه، والأُنْس به، أكثَرُ من إنسان أُمِّيٍّ لا يَعلَم الكِتاب إلَّا أمانيَّ.

ففي عِلْم التَّفْسير يَطمئِنُّ القَلْب، وفي عِلْم التَّفْسير يَعرِف الإنسان قَدْر هذا القُرآنِ العظيم، الذي وصَفه الله بعِدَّة أَوْصاف عَظيمة: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَكَ سَبْعًا مِّنَ ٱلْمَثَانِى وَٱلْقُرْءَانَ ٱلْعَظِيمَ﴾ [الحجر:٨٧]، وأَكثَرُنا -عفا الله عنَّا- لا يَعتَنِي بالتَّفسير، ولا يَهتَمُّ به، رُبَّما يَستَشرِق كِتابَ عَالِمٍ منَ العُلَماء، يُخطِئ ويُصيب، ويَتأمَّل هذا الكِتابَ مَنطوقًا ومَفهومًا وإشارةً وإيماءً، وغير ذلك من أنواع الدَّلالة، لكن كَلام الله لا يَعتَني به، ولولا أنه يَتبرَّك به في أَجْره لما عَرَّج عليه أصلًا إلَّا أن يَشاءَ الله. وهذا غلَط، حتى في طلَبة العِلْم الآنَ مَن لا يَهتَمُّ بالتَّفْسير، تَجِده يَهتَمُّ بكُتُب الفِقْه، يَهتَمُّ في كتُب الحديث، يَهتَمُّ في كتُب الرِّجال؛ ويُعرِض عن هذا الذي هو أَصْل الأصول، الذي يَجِب علينا أن نَعرِفه، والَّذي سنُحَاسب عليه. «**الْقُرْآنُ حُجَّةٌ لَكَ أَوْ عَلَيْكَ**».

استَوقِفْ شخصًا من أكبَر طلَبة العِلْم عند آية من القُرآن؛ قل له: ما مَعناها؟ ماذا يَقول؟ إمَّا أن يَكون جَريئًا فيَقول: أَراد الله بهذا كذا وكذا. وهو لم يُرِد ذلك، أو أنه يَكون ورِعًا، ويَقول: لا أَدرِي.

لكن لو أنَّ طلَبة العِلْم أَخَذوا القُرآن من أوَّله يَقرَؤُونه ويَتَدبَّرونه ويَتَأمَّلونه، لوَجَدوا خيرًا كثيرًا، وانفَتَح لهم من أبواب المَعرِفة ما لا يَخطُر على البال، والله عَزَّوَجَلَّ يَقول في القُرآن الكريم: ﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا ٱلْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ﴾ [القمر:١٧]، ليس هو صَعْبًا، القُرآن إذا أَقبَلْت عليه حَقيقةً بقَلْب ونِيَّة جازِمة؛ فهو سَهْل، أَسهَلُ من جميع الكُتُب؛ لأن الله يَقول: ﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا ٱلْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ﴾ [القمر:١٧].

هذه نُبَذ تكلَّمتُ بها -أَسأَل الله تعالى أن يَنفَع بها- في مُقدِّمة التَّفْسير، ومِثْل هذه القَواعِد سوف تُفيدُ، إن شاء الله تعالى.

فإن قال قائِلٌ: يَقول بعضُهم: إنَّه هُناك شَيْئان ليس لهما سنَد: التَّفْسير والتاريخ، فما صِحَّة هذا القولِ؟

فالجوابُ: نعَمْ، هذا يُذكَر عن الإمامِ أَحمدَ رَحِمَهُ ٱللَّهُ وقال فيه ثلاثة: المَغازِي، والسِّيَر، والتَّفْسير[1]. ومُراده بأنها ليس لها سنَد، أنَّ الناس يَتَناقَلونها بدون إسناد، فمثَلًا يَقول: قال مُجاهِد كذا، قال ابنُ عباس كذا، بدون إسناد هذا المَعنَى.

كذلك التَّواريخُ تَجِد مثلًا الناس يَتكلَّمون بهذا في غَزوة أحُدٍ، لكن لا تَجِد الرجُل يَقول؛ حدَّثَني فُلان عن فُلان حتَّى يَصِل إلى الغَزْوة، وكذلك يُقال في السِّيَر، هذا مُراد الإمامِ أَحمَدَ رَحِمَهُ ٱللَّهُ، قَصْده بذلك أنَّك إذا سَمِعت مثل هذا الذي اشتُهِر ونُقِل أن تَتَأكَّد منه.

فإن قال قائِل: لو أنَّ شيخًا أو مُدرِّسًا عرَض على طلابه تفسير آية، وقال: ما تَقولون في هذه الآيةِ؟ وهو عالِم بها فجلَسَ التلاميذ يَقولون، هذا بقوله، وهذا بقوله، هل يَدخُلون في ضِمْن مَن يُفسِّر القُرآن برأْيه؟

فالجَوابُ: لا، هذا لا يَدخُل في ضِمْنه؛ لأن هذا الذي قال: مَعنَى الآية كذا. لا يُريد أنَّ هذا المَعنَى مُستَقِرٌّ، لكن يَعرِضه على شيخ أَعلَمَ منه، فكأنه حينما يَقولُ: أَراد الله كذا. كأنَّه يَقولُ بلِسان الحال: هل أَراد الله بهذا كذا؟ فهذا لا يُعتبَر تَفسيرًا للقُرآن بالرَّأْي ولا مُحرَّمًا.

فإن قال قائِل: بعض الناس يَترُكون التَّفسير ويَتَّبعون السُّنَّة وآثار الرِّجال، وما أَشبَه ذلك، ويُعلِّلون ويَقولون: إن أَهْل البِدَع يَستَدِلُّون بالعُمومات من القُرآن،

(١) أخرجه عنه ابن عدي في الكامل (١/ ٢١٢)، والخطيب البغدادي في الجامع لأخلاق الراوي (٢/ ١٦٢).

فنَقرَأ السُّنَّة لكي نُبيِّنَ هذه العُموماتِ من السُّنَّة، فما رَأْيُكم في هذا؟

فالجَوابُ: رأيُنا: صَحيح أننا لا نُزهِّد في السُّنَّة، ولا في مَعرِفة الرِّجال، ولا في مَعرِفة المُصطَلَح، لكِنَّنا نَرى أنَّ هُناك أَوْلوياتٍ، وهُناك أَهمِّيات قبل المَهمَّات. وأمَّا ما ادَّعاه من أنَّ القُرآن لم يُبيِّن الرَّدَّ على أهل البِدَع، والسُّنَّة بَيَّنته، فهذا غير صَحيح، القُرآن ليس فيه دليلٌ واحِد لأيِّ بِدْعة من البِدَع أبدًا، بل إنَّ شيخ الإسلام رَحِمَهُ اللَّهُ قال في كِتابه دَرْء تَعارُض العَقْل والنَّقْل قال: «أي دَليل يَستَدِلُّ به شَخْص على بِدْعة، فأنا أَجعَل هذا الدَّليلَ دَليلًا عليه»[1]، وصَدَق، أَضرِب مثَلًا لكم: ﴿لَّا تُدْرِكُهُ ٱلْأَبْصَٰرُ وَهُوَ يُدْرِكُ ٱلْأَبْصَٰرَ﴾ استَدَلَّ بهذه الآيةِ مَن يَرَى أنَّ الله لا يُرَى، والحَقيقة أنَّها تَدُلُّ على أنَّ الله يُرَى، انظُرِ استَدَلَّ بها وهي دَليل عليه؛ لأن نَفيَ الأَخصِّ يَستَلزِمُ وجودَ الأعَمِّ، ﴿لَّا تُدْرِكُهُ﴾ إِذَنْ تَراه، ولو كانَت لا تَراه لقال: لا تَراه الأبصار، أمَّا أن يُعبِّر بِـ: لا تُدرِكه. عن: لا تَراه، فهذا لا شَكَّ أنه تَعمية وإلغاز، ولا يُمكِن أن يَكون هذا في كلام الله، الذي جَعَله الله تِبيانًا لكل شيء.

استَدَلُّوا بقول موسى: ﴿رَبِّ أَرِنِىٓ أَنظُرْ إِلَيْكَ ۚ قَالَ لَن تَرَىٰنِى﴾ [الأعراف:١٤٣] قالوا: هذا يَدُلُّ على أن الله لا يُرَى، نَقول: هذا دَليل عليكم. فمُوسى سأَل الرُّؤْية في الدُّنيا، فكَيْف تَنقُلونها أنتُم إلى الآخِرة؟! ولهذا قال الله: ﴿لَن تَرَىٰنِى﴾ يَعنِي: الآنَ ليس بكَ قُدْرة على أن تَتحمَّل رُؤْيَتي، ورُؤْية الله مُستَحيلة في الدُّنيا، لا لأَمْر يَتَعلَّق بالرُّؤْية، لكن لأَمْر يَتعلَّق بالرَّائِي، فالرائِي لا يَتحمَّل.

ولهذا ضرَب الله مثَلًا لمُوسى فقال: ﴿وَلَٰكِنِ ٱنظُرْ إِلَى ٱلْجَبَلِ فَإِنِ ٱسْتَقَرَّ مَكَانَهُۥ فَسَوْفَ تَرَىٰنِى ۚ فَلَمَّا تَجَلَّىٰ رَبُّهُۥ لِلْجَبَلِ﴾ جلَّ وعَلَا، ماذا صار؟ ﴿جَعَلَهُۥ دَكًّا﴾

---

(١) انظر: درء التعارض (١/ ٣٧٤)، والجواب الصحيح لمن بدل دين المسيح (١/ ١٠٤-١٠٥).

[الأعراف:١٤٣] هذا الجبَلُ العَظيمُ الذي لا تَدُكُّه القنابل صار دَكًّا بمُجَرَّد أنَّ الله تَجلَّى له، ولهذا خَرَّ موسى صَعِقًا، عجَز أن يَتحمَّل المَوْقِف فَضْلًا عن رُؤْية الرَّبِّ عَزَّوَجَلَّ.

فالمُهِمُّ: أنَّ الآية الآنَ فيها دليلٌ عليهم؛ لأن مُوسى إنما سأَل الرُّؤية في الدنيا لا في الآخِرة، ثُم إنَّ مُوسى سأَل الرُّؤْية وأنتُم تَقولون: رُؤْية الله مُستَحيلة، إِذَنْ أَنتُم أَعلَمُ بالله من موسى، يَعنِي: إمَّا أن تَكونوا أعلَمَ بالله من موسى؛ لأن موسى سأَل شيئًا مُستَحيلًا، يَرَى أن الله يُرَى، لكن البَشَر لا يَتحمَّلون ذلك؛ فإمَّا أن يَكون جاهِلًا بقَدْر الله، وأنتم عَالِمون به، وإمَّا أن يَكون مُعتَدِيًا على الله؛ حيث سأَل ما لا يَحِلُّ له سُؤاله.

فأَقول لكم يا إخواني: مَن قال: إن البِدَع لا تُدفَع إلَّا بالسُّنَّة، أو لا يَتِمُّ دَفْعها إلَّا بالسُّنَّة، فقد أَخطَأ، وهذا يَدُلُّ على قُصور فَهْمه للقُرآن، أو على تَقصير في تَفهُّم القُرآن، وإلَّا فالقُرآن نفسه لا يُمكِن أن يُوجَد بِدْعة إلَّا رَدَّ عليها أبَدًا، ولو لم يَكُن من ذلك إلَّا قوله: ﴿شَرَعُوا۟ لَهُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَنۢ بِهِ ٱللَّهُ﴾ [الشورى:٢١]، هذه الآيةُ قاضِية على كل بِدْعة، فكلُّ بِدْعة تَبطُل بهذه الآيةِ، سواء كانت عَقَدية أو قَوْلية أو فِعْلية.

مسألةٌ: التَّقلِيد في التَّفسير يَعنِي: أن يُمسِك بتَفْسير ابن كثير، أو غيره من العُلَماء، هذا تَقْليد؛ لكن أنا أُريد التَّفْسير المُجتَهِد، أمَّا مَن لم يَجِد إلَّا مَيْتة فيأكُل مَيْتة للضَّرورة؛ ولهذا قال شيخ الإسلام رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «يَنبَغي أن نَعلَم أن التَّقليد بمَنزِلة أَكل المَيْتة إن اضْطُرِرْتَ إليها فقَلِّدْ»[1]. وإلَّا فاجتَهِد أَدْلِ إلى البِئْر بمِثْل ما أَدْلى به الناس، أَدْلِ بِدَلْوك.

(١) انظر: مجموع الفتاوى (٢٠/ ٢٠٣-٢٠٤)، وإعلام الموقعين لابن القيم (٢/ ١٨٥).

والحَقيقة أنَّ التَّقليد لا يَجوز إلَّا عِند الضَّرورة وعِند العَجْز، وإلَّا مَن أَمكَنه أن يَأخُذ الأحكام أو العقائِد من كِتاب الله وسُنَّة رسوله فلْيَفعَل؛ لأن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى يَقول: ﴿وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ مَاذَآ أَجَبْتُمُ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ [القصص:٦٥] هذه تَحتاج إلى جَوابٍ، ولولا قول الله تعالى: ﴿فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ مَا ٱسْتَطَعْتُمْ﴾ [التغابن:١٦]، لقُلْنا: يَجب على كل إنسان أن يَجتَهِد، وأن يَأخُذ الحُكْم من القُرآن والسُّنَّة، لكن الحمد لله وَسَّع الله علينا، ﴿لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾ [البقرة:٢٨٦]، ﴿فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ مَا ٱسْتَطَعْتُمْ﴾ [التغابن:١٦]، وإلَّا لقُلْنا: كُلُّ واحِد يَجِبُ أن يَأخُذ من الكِتاب والسُّنَّة؛ لأننا سنُسأَل عن القُرآن والسُّنَّة.

مسألة: ما هي أَفضَلُ كتُب التَّفْسير التي تَمشِي على القَواعِد التي ذكَرت، حتَّى يَتبيَّن للطالِب ويَتمرَّن عليها؟

الجَوابُ: أحسَنُ شيء فيما أَرَى من التَّفاسير التي تَعتَني بالأَثر، تَفسير ابن كَثير، من أَحسَن ما يَكون من الكتُب التي تَعتَمِد على التَّفْسير بالأثَر، لكن القُرآن -سُبْحان الله- واسِع، لوِ اجتَمَع الناس كلُّهم على أن يُدرِكوا مَعناه ما استَطاعوا، تَجِد مثَلًا هذا يَبحَث في القُرآن من النَّاحِية اللُّغوية، وهذا من الناحِية العَقَدية، وهذا من الناحِية الفِقْهية، وهذا من ناحِية البَلاغة، فهناك عُلوم شَتَّى كَثيرة في القُرآن الكَريم، ابنُ كثير مثَلًا في الأَثَر لا شكَّ أنه جيِّد، لكن في كثير من أُمور اللُّغة يَكون قاصِرًا، أيضًا في استِنْباط الأحكام قَليل جِدًّا أن يَتكَلَّم في الأَحْكام، نَجِد مثَلًا القُرطبيَّ يَعتَني بالأحكام، ويُفرِّع الآية وما أَشبَه ذلك.

المُهِمُّ: كل عالِمٍ له مَنهَج في تَفْسير كلام الله عَزَّوَجَلَّ.

فإن قال قائِل: إذا كان القُرآن الكَريم تَفسيره مَبنيٌّ على اللُّغة، هل نَقول:

إن وجهَ تَفسيرِ القُرآن باللُّغة هو الوَجهُ الصحيح؟

فالجَوابُ: إذا وجَدْنا كلِمة لم تُفسَّر بالقُرآن ولا بالسُّنَّة، ولا بأَقْوال الصَّحابة، فنَرجِع إلى اللغة؛ لأن القُرآن -كما قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُّبِينٍ﴾ [الشعراء:١٩٥] ﴿إِنَّا جَعَلْنَٰهُ﴾ [الزُّخرُف:٣] أي: صيَّرْناه ﴿قُرْءَٰنًا عَرَبِيًّا﴾ أي: باللُّغة العرَبية ﴿لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ انظُرِ الآياتِ الثانية ﴿وَلَوْ نَزَّلْنَٰهُ عَلَىٰ بَعْضِ ٱلْأَعْجَمِينَ ﴿١٩٨﴾ فَقَرَأَهُۥ عَلَيْهِم﴾ [الشعراء:١٩٨-١٩٩] أَكمِل ﴿مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ مُؤْمِنِينَ﴾؛ لأَنَّهم لا يَفهَمون مَعناه.

فإن قال قائِل: قُلتُ: إن مَن فسَّر القُرآن برَأيه، ولو كان من العُلَماء كيف نَجمَع بين هذا وحديث النَّبيِّ ﷺ: «**إذا اجتهد فأَصاب...**» إلخ[1].

فالجَوابُ: إذا اجتهَد، والذي يُفسِّر القُرآن برَأْيه لم يَجتَهِد، وأنا ضرَبْت لكم عِدَّة أمثِلة من التَّفْسير بالرأي، ليس مَعنَى التفسير بالرَّأْي أنْ تُفسِّر القُرآن حَسب ما تَقتَضيه اللُّغة العرَبية، التَّفسير بالرَّأي أَنْ تَحمِل مَعنى القُرآن على رَأْيك، وهذا إنما يَكون في المُتعَصِّبين لمَذاهِبهم، الذين يُحاوِلون أن يَلْووا أعناق النُّصوص إلى ما كانوا عليه.

• • ۞ • •

(١) أخرجه البخاري: كتاب الاعتصام، باب أجر الحاكم إذا اجتهد، رقم (٧٣٥٢)، ومسلم: كتاب الحدود، باب بيان أجر الحاكم إذا اجتهد، رقم (١٧١٦)، من حديث عمرو بن العاص رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ.

سورةُ غافر

سورة غافِر هي مَكِّيَّة، وكل السُّوَر المُبتَدَأَة بحروف الهِجاء مَكِّية إلَّا البقَرَةَ وآلَ عِمران.

والمَكِّيُّ ما نزَل قبل الهِجرة، وما نزَل بعدها فهو مدَنيٌّ، هذا هو أَرجَحُ الأقوال حتى وإن نزَل بمكَّةَ.

قال الله تَبَارَكَ وَتَعَالَى: ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ﴾ البَسْملة: آية من كِتاب الله عَزَّوَجَلَّ مُستَقِلَّة، ليست من السُّورة التي قبلَها، ولا من السورة التي بعدَها، ولكن يُؤتَى بها في ابتِداء السور، إلَّا سورة واحِدة وهي سورة بَراءة، فإنه لم يَرِد عن النَّبيِّ -صلى الله عليه وعلى آله وسلم- أنه جعَل فيها بَسْملة، ولهذا ترَكها الصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ بدون بَسمَلة؛ لعدَم ثُبوت ذلك عن رسول الله -صلى الله عليه وعلى آله وسلم-.

وأمَّا ما قيل: إنها تُرِكَت بلا بَسمَلة؛ لأنها نزَلَت بالسيف؛ فإنه قول باطِل، ليس هذا هو السببَ، والسَّيْف إذا كان رحمة فإنه غَنيمة، ومعلوم أن السَّيْف على الكُفَّار رحمة، يُقصَد به إعلاء كلِمة الله عَزَّوَجَلَّ.

ثُمَّ البَسمَلة جُمْلة ليس فيها فِعْل ولا اسم فاعِل، لكنها جارٌّ ومجرور، ومُضاف، ومُضاف إليه، وصِفة ومَوْصوف.

الجارُّ: هو الباء، والمَجرور اسم، والمُضاف اسم، والمُضاف إليه لفظ الجَلالة، ومَوْصوف وهو الله، وصِفة وهو الرحمن الرحيم، فأين المُتعلَّق؛ لأنه لا بُدَّ لكل جارٍّ

ومجرور، أو ظَرْف، لا بُدَّ له من مُتعلَّق، كما قال ناظِم الجمل[١]:

لَا بُــدَّ لِلْجَــارِّ مِــنَ التَّعَلُّــقِ ... بِفِعْــلٍ اوْ مَعْنَــاهُ نَحْــوَ مُرْتَقِــي
وَاسْــتَثْنِ كُــلَّ زَائِــدٍ لَــهُ عَمَــلْ ... كَالْبَاءِ وَمِنْ وَالْكَـافِ أَيْضًـا وَلَعَـلْ

فأين مُتعلَّق البَسمَلة؟

أحسَنُ ما يُقال: إن مُتعلَّقها فِعْل مُتأَخِّر مُناسِب لما ابتُدِئ بالبَسمَلة من أَجْله، فنحن الآنَ نُريد أن نَقرَأ فنقول: المُتعلَّق تَقديره: باسم الله أَقرَأ، نُريد أن نَتوضَّأ نَقول: التقدير، باسم الله أَتوضَّأ، نُريد أن نَذبَح نَقول: التَّقدير، باسم الله أَذبَحُ، وإنما قدَّرناه فِعْلًا لا اسم فاعِل؛ لأنَّ الأصل في العمَل هو الفِعْل، وإنَّما قدَّرناه مُتأخِّرًا لوجهين:

الوَجْه الأوَّل: التَّيمُّن بالبَداءة باسم الله.

والثاني: إفادة الحَصْر؛ لأنَّك إذا أَخَّرت العامِل وقدَّمت المَعمول كان ذلك دَليلًا على الحصر، إذ إنَّ القاعِدة المَعروفة في البلاغة هي أن تَقديم ما حقُّه التَّأخير يُفيد الحَصْر، وإنما قدَّرناه مُناسِبًا لما ابتُدِئ به؛ لأنَّه أدلُّ على المَقصود، فمثَلًا لو قلت: إنَّ التقدير باسم الله أَبتَدِئ. صحَّ، لكن أَبتَدِئ بأي شيء؟ فإذا قلنا: نُقدِّره فعلًا خاصًّا مُناسِبًا لما ابتُدِئ به، صار ذلك أدلَّ على المَقصود، ومعلوم أنَّ ما كان أَدَلَّ على المقصود كان أبينَ في المُراد.

فيه أيضًا وجه آخرُ تَبيَّن لنا، وهو أنك إذا قلت: باسم الله أَبتَدِئ صارت البَسملة على الابتِداء فقَطْ، إذا قلت: باسم الله أَقرَأ، صارت البسملة على كل الفِعْل، وهذه فائِدة أَكبَرُ بكثير من مُناسَبة التَّعيين، إذا قلت: باسم الله أَبتَدِئ صارت البَسمَلة على

(١) انظر: كشف النقاب على نظم قواعد الإعراب للسعدي (ص:٥٧).

الابتِداء فقَطْ، إذا قلت: باسم الله أَقرَأُ، صارَت البَسمَلة على كل الفعل، وكذلِك باسم الله أتوضَّأ صارَت البَسملة على كُل الفِعل من أوله إلى آخره، بخِلاف ما إذا قُلت: باسم الله أَبتَدِئ. فإن البَسملة تكون على الابتِداء فقَطْ.

هذا هو إعرابُ هذه البَسْملة.

أمَّا مَعناها: فإن (اسم) مُفرَد مُضاف، وكلُّ مُفرَد مُضاف فإنه للعُموم، أَرأَيْتم قول الله تعالى: ﴿وَإِن تَعُدُّواْ نِعْمَةَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ﴾ [النحل:١٨]؟ فإنَّ ﴿نِعْمَةَ﴾ مُفرَد مُضاف لكن ليست نِعمة واحِدة؛ لأنَّ النِّعمة الواحِدة تُحصَى، لكنَّها نِعَمٌ كَثيرة، فتَشمَل كلَّ ما أَنعَم الله به على العَبْد، إذا كان المُفرَد المُضاف يُفيد العُموم فما مَعنى قولنا: بسم الله الرحمن الرحيم؟ مَعناها: بكلِّ اسم من أسماء الله أَفعَل كذا وكذا، بكلِّ اسمٍ، فتكون أنت الآنَ مُستَعينًا بكل اسمٍ من أسماء الله على هذا الفِعْلِ الذي بَسْمَلت من أَجْله.

وأمَّا (اسم) فقيل: إنه مُشتَقٌّ من السُّموِّ، وهو الارتِفاع؛ وذلك لأن الاسم يَرفَع المُسمَّى ويُبيِّنه، وقيل: إنه مُشتَقٌّ من السِّمة، وهي العَلامة، قال الله تعالى: ﴿سِيمَاهُمْ فِى وُجُوهِهِم﴾؛ أي: عَلامتهم في وجوههم، وأيًّا كان فالاسمُ يُعيِّن مُسمَّاه، ويُميِّزه من غيره.

وأسماء الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ غيرُ محصورة بعدَد، كما جاء في الحديث الصَّحيح: «أَسْأَلُكَ بِكُلِّ اسْمٍ هُوَ لَكَ، سَمَّيْتَ بِهِ نَفْسَكَ، أَوْ أَنْزَلْتَهُ فِي كِتَابِكَ، أَوْ عَلَّمْتَهُ أَحَدًا مِنْ خَلْقِكَ، أَوِ اسْتَأْثَرْتَ بِهِ فِي عِلْمِ الْغَيْبِ عِنْدَكَ»[1].

(١) أخرجه الإمام أحمد (١/ ٣٩١) من حديث عبد الله بن مسعود رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ.

وأمَّا (الله) فهو علَمٌ على الذات المُقدَّسة العَليَّة، وهو الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، قال النَّحويُّون: «وهو أَعرَف المَعارِف» أَعرَف المَعارِف هو هذا العَلَمُ، وقد رتَّبوا المَعارِف بأن أَعرَفَها: الضميرُ، ثُمَّ الأَعلامُ، لكن هذا العَلَم هو أَعرَفها؛ إذ لا تُحتَمل المشاركة فيه، وغيره من المَعارِف يُمكِن المُشارَكة فيه.

وأمَّا قوله: ﴿ٱلرَّحْمَٰنِ﴾ فهو اسمٌ من أسماء الله دالٌّ على الرحمة الواسِعة؛ و﴿ٱلرَّحِيمِ﴾ اسمٌ من أسماء الله دالٌّ على الرحمة التي تَقَع بالفِعْل، فالرحمن للوَصْف، والرحيم للفِعْل، يَعنِي: أنه رَحْمن يَرحَم، وبذلك تَبيَّن فائِدة الجمع بينهما، فإن فائِدة الجَمْع بينهما هو الدَّلالة على أن رحمة الله واسِعة، وذلك في قوله: ﴿ٱلرَّحْمَٰنِ﴾؛ لأنَّ فَعْلان يَدُلُّ على الامتِلاء والسَّعة، كما تَقول: شَبْعان، ورَيَّان، وما أَشبَهَها، وأمَّا ﴿ٱلرَّحِيمِ﴾ فهو باعتِبار الفِعْل، أي: إيصال الرَّحْمة إلى مَن قدَّر الله أن يَرحَمه.

والبَسْملة لها أَحْكام:

منها أنَّها تَكون أحيانًا شَرْطًا في الحِلِّ؛ كالتَّسمية على الذبيحة، فإنَّ التَّسمية على الذبيحة شَرْط لحِلِّها، حتى إنه لو ترَك التَّسمية ولو نِسيانًا لم تَحِلَّ الذَّبيحة.

وقد تَكون واجِبةً لا شَرْطًا كما في الوُضوء عند بعض العُلَماء، فإنَّ التَّسمية في الوُضوء واجِبة، ولكنها ليسَتْ شَرْطًا للصِّحة، إذ لو ترَكها نِسيانًا صحَّ وُضوؤُه، وقد تَكون مُستحَبَّة في كل أَمْر ذي شأن، كما جاء في الحديث: «كُلُّ أَمْرٍ ذِي شَأْنٍ لَا يُبْدَأُ فِيهِ بِبِسْمِ الله فَهُوَ أَبْتَرُ» أو: «كُلُّ أَمْرٍ ذِي بَالٍ -يَعنِي: ذي شَأْن مُهِمٍّ- لَا يُبْدَأُ فِيهِ بِبِسْمِ الله فَهُوَ أَبْتَرُ»[1]، أي: مَنزوع البرَكة.

---

(١) أخرجه الإمام أحمد (٢/ ٣٥٩)، من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، بلفظ: «بذكر الله».

ولهذا كان النَّبيُّ ﷺ يبتَدِئ بها في المُكاتَبات إلى المُلوك وغيرهم، وكذلك الأَنبياء من قَبله، كما جاء في القُرآن الكريم: ﴿إِنَّهُۥ مِن سُلَيْمَٰنَ وَإِنَّهُۥ بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴿٣٠﴾ أَلَّا تَعْلُوا۟ عَلَىَّ وَأْتُونِى مُسْلِمِينَ﴾ [النمل:٣٠-٣١].

الآيات (١-٣)

﴿ قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿حمٓ ۝١ تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ مِنَ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ ۝٢ غَافِرِ ٱلذَّنۢبِ وَقَابِلِ ٱلتَّوْبِ شَدِيدِ ٱلْعِقَابِ ذِى ٱلطَّوْلِ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ إِلَيْهِ ٱلْمَصِيرُ﴾ [غافر:١-٣].

قال الله تَبَارَكَ وَتَعَالَى: ﴿حمٓ﴾ هذه كلِمة مُكوَّنة من حَرْفَيْن مُهمَلين هِجائِيَّين: الحاء، والميم. ولهذا نَنطِق بها باسمِهما لا بلَفْظهما، فلا نَقول: حَمْ. بل نَقول: «حامِيم» باسمِهما، فهما إِذَن حَرفان مُهمَلان هِجائِيَّان يَتركَّب منهما كلام الناس، فهل لهذَيْن الحرفَيْن معنًى؟

يَقول المفسِّر رَحِمَهُ اللَّهُ[1]: [الله أعلَمُ بمُراده به] يَعنِي لا نَدرِي ماذا أَراد، هل أَراد إثبات معنًى، أم لم يُرِد إثبات معنًى، وهل أراد مَعنًى مُعيَّنًا أم ماذا؟

المُهِمُّ: أننا نُفوِّض، فمَوقِفنا من هذا التَّفويضِ كغيره من الحُروف الهِجائية التي ابتُدِئَت بها بعض السُّور.

ولكن مُقتَضى كون القُرآن باللسان العربيِّ أن نَقول: إنَّهما حَرْفان هِجائِيَّان مُهمَلان ليس لهما مَعنًى، يَعنِي نَجزِم بأنه لا معنَى لهما؛ لأن القُرآن نزَل باللغة العربية، واللغة العَربية لا تَجعَل للحروف الهِجائية مَعنًى، وهذا مَرويٌّ عن مُجاهِدٍ[2] إمام

(١) المقصود بـ(المفسِّر) هنا: محمد بن أحمد بن محمد بن إبراهيم جلال الدين المحلي، المتوفى سنة (٨٦٤هـ) رحمه الله تعالى، ترجمته في: الضوء اللامع (٧/ ٣٩)، حسن المحاضرة (١/ ٤٤٣).

(٢) انظر: تفسير ابن كثير (١/ ٧٠).

المفَسِّرين في زمانه، زمَن التابعين.

وهو الحـقُّ؛ لأنَّ الله تعالى قال: ﴿نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ ﴿١٩٣﴾ عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُنذِرِينَ ﴿١٩٤﴾ بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُّبِينٍ﴾ [الشعراء:١٩٣-١٩٥].

فإن قال قائِل: يَرِد على هذا القولِ أنَّ في القُرآن ما ليس له مَعنًـى، وليس له فائِدةٌ، وإنَّما هو حروف مُقطَّعة ليس لها فائِدة!!.

قلنا: الجَوابُ عن هذا الإيرادِ أنَّ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى تكلَّم بذلك لَمغزًى لا لَمعنًى؛ أي: لِحِكْمة بالِغة، وهي أنَّ هذا القُرآن الذي أَعجَزكم أيُّها البُلَغاء من العرب لم يَكُن أَتَى بشَيْء جديد من حروف، بل أَتَى بالحروف التي تُركِّبون منها كلامكم، ومع ذلك أَعجَزكم، فعجَزْتم عن صَفِّ الحروف حتى تكون مثل القُرآن، فإذا كُنْتم عجَزْتم عن ذلك، فعَجْزُكم عن معنَى هذه الكلِماتِ من بابِ أَوْلى.

وهذا الذي ذكَره الزَّمخشريُّ[1] في تفسيره وارْتَضاه شيخ الإسلام ابنُ تَيميَّةَ[2] رَحِمَهُ ٱللَّهُ وذكَره أيضًا إمَّا ابتِداءً أو تَقليدًا.

المُهِمُّ: أنَّ هذا هو الصوابُ عند المُحقِّقين، وهو أن الله تعالى أَنزَلها لتَمام التَّحدِّي لهؤلاء البُلَغاءِ الذين عجَزوا أن يَأتوا بمِثل القُرآن، أو بمِثل بعضه، وأَيَّدوا قولهم هذا بأن الله تعالى لم يَبتَدِئ سورة بحروف هِجائية إلَّا ذكَر بعدَها القُرآن إلَّا نادِرًا.

فإن قال قائل: ما نَقول في الحُروف المُقطَّعة هذه في أوائل السُّوَر، هل تَدخُل فيها قال ابن عبَّاسٍ[3] أن القُرآن أربعة أقسام: القِسْم الرابع أنه ما لا يَعلَمه إلَّا الله؟

(١) الكشاف (١/ ٢٦).

(٢) انظر تفسير ابن كثير (١/ ٧١).

(٣) أخرجه عبد الرزاق في تفسيره (١/ ٢٥٣).

فالجوابُ: لا، هذه تَدخُل على رأيِ المفَسِّر، أمَّا على القول الذي رجَّحنا فإنَّه مَعلوم أنه ليس لها مَعنًى، يَعنِي ممَّا يَدخُل تحت عِلْمنا أنه ليس لها مَعنًى.

قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ مِنَ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ﴾ [غافر:٢].

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ﴾ القُرآن، مُبتَدَأ] يَعنِي: المُراد بالكِتاب هنا القُرآن، مع أنَّ الكِتاب اسم جِنْس يُحتَمَل أن تَكون فيه (أل) للجِنْس، فيَشمَل كل كِتاب، ولكن الظاهِر ما ذهَبَ إليه المفَسِّر؛ لأنَّ المَقصود بذلك تَقرير كون هذا القُرآنِ الذي نَزَل على المُكذِّبين من عند الله عَزَّوَجَلَّ.

وقوله: [مُبتَدأٌ] يُريد قوله: ﴿تَنزِيلُ﴾؛ أي: أنَّها مُبتَدَأ، والمُبتَدَأ يَحتاج إلى خبَر، والخبَر قوله: ﴿مِنَ ٱللَّهِ﴾؛ ولهذا قال المفَسِّر: [﴿مِنَ ٱللَّهِ﴾ خبَرُه] تنزيل الكِتاب من الله لا من غيره.

قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿ٱلْعَزِيزِ﴾ في مُلْكه ﴿ٱلْعَلِيمِ﴾ بخَلْقه] العَزيز: ذو العِزَّة، وقد سبَق أن عِزَّة الله تَنقَسِم إلى ثلاثة أقسام:

١- عِزَّة القَدْر.

٢- وعِزَّة القَهْر.

٣- وعِزَّة الامتِناع.

وهو كذلك في كل مَوضِع جاء فيه «العَزيز» فهذا هو مَعناه، أي: أنَّه ذو عِزَّة.

أمَّا عِزَّة القَدْر: فمعناها: أنه ذو شَرَف وسيادة.

وأمَّا عِزَّة القَهْر فمَعناها: أنه ذو غلَبة وسُلْطان.

وأمَّا عِزَّة الامتِناع: فمَعناه: أنه ذو امتِناع عن كل نَقْص وعَيْب.

وقد سبَق الاستِشْهاد على هذه المعانِي الثلاثة وبيان اشتِقاقها؛ فيَكون قولُ المفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿ٱلْعَزِيزِ﴾ في مُلْكه] فيه قُصور؛ لأَنَّه جعَله بمَعنى الغالِب فقَطْ، والصواب ما ذكَرْنا لكم.

وقوله تعالى: ﴿ٱلْعَلِيمِ﴾ قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [بخَلْقه] والعليم أي: ذو العِلْم، وعِلْم الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ ليس بمَحدود لا أوَّلًا، ولا آخِرًا، ولا مِقدارًا، فعِلْم الله تعالى واسِعٌ شامِلٌ لكل شيءٍ، عِلْم الله تعالى أزَليٌّ؛ أي: لم يَسبِقْه جَهْل، عِلْم الله تعالى أبدَيٌّ؛ أي: لا يَلحَقه نِسْيان، فصار عِلْم الله تعالى واسِعًا شامِلًا زمَنًا وكيفًا، زمَنًا أي: في المُستَقبَل وفي الماضي، وكيفًا أي: أنَّه شامِل لكُلِّ ما من شأنه أن يُعلَم.

قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿غَافِرِ ٱلذَّنۢبِ وَقَابِلِ ٱلتَّوۡبِ شَدِيدِ ٱلۡعِقَابِ ذِي ٱلطَّوۡلِۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۖ إِلَيۡهِ ٱلۡمَصِيرُ﴾ [غافر:٣].

قال المفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿غَافِرِ ٱلذَّنۢبِ﴾ للمُؤمِنين ﴿وَقَابِلِ ٱلتَّوۡبِ﴾ لهم ﴿شَدِيدِ ٱلۡعِقَابِ﴾ للكافِرين]، قوله: ﴿غَافِرِ ٱلذَّنۢبِ﴾ الغَفْر هو السَّتْر مع الوِقاية، ومنه المِغفَر: ما يُوضَع على الرأس عند الحَرْب؛ لاتِّقاء السِّهام، ومعلومٌ أنَّ المِغفَر ساتِر، فهو جامِع بين السَّتْر والوِقاية، والذَّنْب: المعصية، يُقال: أَذنَب الرجُل. إذا عصى، ومَعنَى غافِر الذَّنْب؛ أي: ساتِره المُتجاوِز عنه.

وقول المفَسِّر: [للمُؤمِنين] فيه نظَر واضِح؛ لأنَّ مَغفِرة الذَّنْب شامِل للمُؤمِنين وغير المُؤمِنين، قال الله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ: ﴿قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِن يَنتَهُواْ يُغۡفَرۡ لَهُم مَّا قَدۡ سَلَفَ﴾ [الأنفال:٣٨]، فهو غافِر الذَّنْب لكلِّ مَن تاب إلى الله وسأَل المَغفِرة.

وقوله: ﴿وَقَابِلِ ٱلتَّوۡبِ﴾ قابِلُه: مَعناها: أن مَن تاب إلى الله قَبِلَ الله تَوبَتَه، و﴿ٱلتَّوۡبِ﴾ بمعنى: الرُّجوع إلى الله عَزَّوَجَلَّ من مَعصيته إلى طاعته.

وقال المفسِّر: [لهم] أي: للمُؤمِنين، وهذا أيضًا ليس بصحيح، فالتَّوْبة مَقبولة من المُؤمِنين والكافِرين، قال الله تَبَارَكَ وَتَعَالَى عن المُشرِكين: ﴿فَإِن تَابُوا۟ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُا۟ ٱلزَّكَوٰةَ فَإِخْوَٰنُكُمْ فِى ٱلدِّينِ﴾ [التوبة:١١].

وقال تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلتَّوْبَةُ عَلَى ٱللَّهِ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلسُّوٓءَ بِجَهَٰلَةٍ ثُمَّ يَتُوبُونَ مِن قَرِيبٍ فَأُو۟لَٰٓئِكَ يَتُوبُ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿١٧﴾ وَلَيْسَتِ ٱلتَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ حَتَّىٰٓ إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ ٱلْمَوْتُ قَالَ إِنِّى تُبْتُ ٱلْـَٰٔنَ وَلَا ٱلَّذِينَ يَمُوتُونَ وَهُمْ كُفَّارٌ﴾ [النساء:١٧-١٨].

فقال: ﴿يَمُوتُونَ وَهُمْ كُفَّارٌ﴾ إِذَنْ: لو تابوا قَبْل ذلك لقُبِلت، فتَبيَّن بهذا أن ما ذهَب إليه المفسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ من تخصيص ذلك بالمُؤمِنين يُعتبَر قصورًا.

قال: [مَصدَر] ﴿وَقَابِلِ﴾ اسم فاعِل، إِذَنْ فالمَصدَر هو ﴿ٱلتَّوْبِ﴾.

قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿شَدِيدِ ٱلْعِقَابِ﴾ للكافِرين] كأنَّ المفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ خصَّ الغافِر والقابِل بالمُؤمِنين؛ لقوله: ﴿شَدِيدِ ٱلْعِقَابِ﴾؛ لأن شِدَّة العِقاب إنَّما هي للكافِرين، ولكنَّ في هذا نظَرًا؛ لأنَّ المَقصود هنا ذِكْر صفة الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى أنه جمَع بين الفَضْل والعَدْل، بين الفَضْل في كونه غافِرَ الذَّنْب وقابِلِ التوب، والعَدْل في كونه شَديدَ العِقاب؛ لأنَّ شِدة العِقاب من الله عَزَّوَجَلَّ لِمَن استَحقَّها عَدْل، إذ إنَّ الله أَخبَرنا وبيَّن لنا أنَّ مَن فعَل كذا عاقَبَه بالعُقوبة الشديدة، فإذا فعَل الإنسان ما تُوعِّد عليه بالعُقوبة الشَّديدة فهو الذي اختار لنَفْسه هذا، فيَكون مُعامَلة الله له به تكون عَدْلًا.

وقوله: [أي: مُشَدِّدُه] وليُنْتَبه لهذا التَّفسيرِ! فقَد عَدَل عن ظاهِر الآية التي تُفيد أنه نفسه شَديد العِقاب؛ لأنهم -الأشاعِرة- يَنفون الصِّفاتِ، والتَّشديدُ فِعْل بائِن عن الله عَزَّوَجَلَّ، فهي مِثْل القادِر، يَعنِي تَعود الصِّفة على مَذهَب الأشاعرة إلى القُدْرة،

وتَعود على مَذهَب الماتُريدية إلى الخَلْق؛ لأن الماتُريدية يُثبِتون الخَلْق والتَّكوين بخِلاف الأشاعِرة.

فلنَنظُرِ الآنَ: فعلَى كلام المفَسِّر تكون ﴿شَدِيدِ﴾ بمَعنى مُشدِّد، ولنا أن نُطالِب فنَقول: هل «فَعيل» تأتي بمَعنى «مُفعِل»؟ الجوابُ: نعَمْ، تَأتي «فعيل» بمَعنى مُفعِل كقول الشاعِر:

أَمِــنْ رَيْحَانَــةَ الــدَّاعِي السَّــمِيعُ   يُــؤَرِّقُنِي وَأَصْــحَابِي هُجُــوعُ[1]

«السَّميع» هنا بمَعنى المُسمِع، «الداعِي» الذي يُسمِعه، «يُؤرِّقُني» فلا أَنام، «وأَصحابي هُجوع» نائِمون.

فمن حيثُ اللَّفْظ لا اعتِراضَ على المفَسِّر؛ أي: من حيثُ جَعْله (فعيل) بمَعنَى (مُفعِل) لا اعتِراضَ عليه؛ لأن ذلك وارِد في اللغة العرَبية، لكن من حيثُ المَعنَى فيه نظَر؛ لأن ظاهِر قوله: ﴿شَدِيدِ ٱلْعِقَابِ﴾، أنه هو نَفسُه عِقابُه شديد، وهو كذلك، فإذا كان العِقاب شَديدًا لزِمَ أن يَكون الأَلَمُ -أَلَمُ مَن عُوقِب- شديدًا أيضًا، والعِقاب مَأخوذ من المُعاقَبة، وهي المُجازاة، وسُمِّيَت المُجازاة عِقابًا؛ لأنها تَعقُب العمَل، لكنها تُذكَر غالبًا فيما يَسوء لا فيما يَسُرُّ.

قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿ذِى ٱلطَّوْلِ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ إِلَيْهِ ٱلْمَصِيرُ﴾ [غافر:٣].

قوله: ﴿ذِى﴾ بمَعنَى صاحِب، وهي مَجرورة بالياء نِيابةً عن الكَسرة؛ لأنَّها من الأسماء الخَمسة.

---

(١) البيت لعمرو بن معدي كرب (ت٢١هـ)، انظر: الأصمعيات (ص:١٧٢)، الشعر والشعراء لابن قتيبة (١/ ٣٦٠).

و﴿ٱلطَّوۡلِ﴾ يقول رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [أي: الإنعام الواسِع] هذا الطَّوْلُ، قال الله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ: ﴿وَمَن لَّمۡ يَسۡتَطِعۡ مِنكُمۡ طَوۡلًا أَن يَنكِحَ ٱلۡمُحۡصَنَٰتِ ٱلۡمُؤۡمِنَٰتِ﴾ [النساء:٢٥] إلى آخِره؛ فالطَّوْل هو الغِنَى الواسِع، ومن تَمام الغِنَى أن يَكون مُنعِمًا، والله سُبۡحَانَهُ وَتَعَالَىٰ مُنعِم، واسِع الغِنى.

وقوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿ذِي ٱلطَّوۡلِ﴾ وهو مَوْصوف على الدوام بكُل من هَذه الصِّفاتِ، فإضافة المُشتَقِّ منها للتَّعريف كالأخيرة] فيه عِدَّة صِفات ﴿غَافِرِ ٱلذَّنۢبِ وَقَابِلِ ٱلتَّوۡبِ شَدِيدِ ٱلۡعِقَابِ ذِي ٱلطَّوۡلِ﴾ هذه أربَعة، والأَخيرة غيـر مُشتَقَّة، فإنَّ ﴿ذِي﴾ بمَعنى صاحِب غيـر مُشتَقَّة، لكنَّها مُؤوَّلة بمُشتَقٍّ، أمَّا ما قبلها ﴿شَدِيدِ ٱلۡعِقَابِ﴾، ﴿وَقَابِلِ ٱلتَّوۡبِ﴾، ﴿غَافِرِ ٱلذَّنۢبِ﴾، فهي مُشتَقَّة، ووَصْف؛ ولهذا جاءت باسم الفاعِلِ، وجاء «الغَفورُ» الذي هو اسمُه على صيغة المُبالَغة.

وجعَل المفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ هذه الصِّفاتِ لا يُراد بها إثبات المَعنى المُشتَقِّ منه، ولكنها للتَّعريف فقَطْ، ولا يَخفَى ما في هذا الكلامِ من القُصور التامِّ، فكيف نَجعَل المُشتَقَّ لمُجرَّد التَّعريف؟ كيف نَقول: إن ﴿غَافِرِ ٱلذَّنۢبِ﴾ المُراد بذلك التَّعريفُ بالله عَزَّوَجَلَّ، لا أنه غافِر، ولا أنه قابِل، ولا أنه شديد العِقاب؟! فهو قاصِر جدًّا، ولا يَصِحُّ أن نُفسِّر كلام الله تعالى بهذا الكلامِ، بل نَقول: ﴿غَافِرِ﴾ مُشتَقٌّ من الغَفْـر، وهو صِفة مَقصودة، ليس المَقصود بها التعريف، وكذلك نَقول في ﴿وَقَابِلِ ٱلتَّوۡبِ﴾، وفي ﴿شَدِيدِ ٱلۡعِقَابِ﴾.

وقول المفَسِّر: [مَوْصوف على الدوام بكُلٍّ من هذه الصِّفاتِ] قال ذلك هرَبًا من إثبات صِفات الأفعال، فانتَبِهْ لأنك إذا قلت: غافِر بمَعنَى يَغفِر، صارت صِفة فِعْل يَتعلَّق بالمَشيئة!. وعند الأشاعِرة وغيرهم من المُتكلِّمين يَمتَنِع أن يُوصَف الله

تعالى بوَصْف هو فِعْل، لا يُمكِن، قالوا: لأن الفِعْل يَدُلُّ على الحُدوث، والحُدوث لا يَكون في القديم، لا يَكون الحُدوث إلَّا لحادِث!.

وقد سبَق لنا بيانُ بُطلان هذا القَوْلِ، فالصَّواب إِذَنْ: أنَّ ﴿غَافِرِ﴾ ﴿وَقَابِلِ﴾ صِفتان من صِفات الأفعال، وأمَّا ﴿شَدِيدِ ٱلْعِقَابِ﴾ فهي أيضًا صِفة من صِفات الأفعال؛ لأن التَّقدير: عِقابُه شديد، فهو من باب إضافة الصِّفة إلى مَوْصوفها؛ أي: أن عِقابه شديد، فتكون كما سبَق من الصِّفات الفِعْلية.

وأمَّا ﴿ذِى ٱلطَّوْلِ﴾ فإذا قلنا: إن مَعناه ذي الغِنَى الواسِع، فهي من صِفات الذات، وإذا قلنا: إنَّها بمَعنَى الإنعام الواسِع؛ فهي من صِفات الأفعال.

فإن قال قائِل: هل ﴿شَدِيدِ﴾ صِفة فِعْل لله عَزَّوَجَلَّ؟

فالجوابُ: لا هي صِفة لفِعْله، ليسَتْ صِفة فِعْل، وإنما هي صِفة لفِعْل الله، يَعنِي نفس العِقاب شديد، وهو جَعلها مُشدِّدًا شيئًا مُنفصِلًا عن الله عَزَّوَجَلَّ.

فإن قيل: عِقاب الله منه النار، فكأنها هي التي وُصِفَت بالشِّدة، فكيف وصَفنا بها الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَى؟

فالجوابُ: هو نفسه شديد العِقاب، أنا مثَلًا إذا قلت: فُلان قَويُّ الضَّرب. يَعني ضَرْبه الواقِع منه قويٌّ، والعِقاب الواقِع منه شديد، والمَوْصوف الله عَزَّوَجَلَّ شِدَّة عِقابه هو، أمَّا المُعاقَب به فهذا شيء آخَرُ، فعندنا عِقاب ومُعاقَب به ومُعاقَب وارِد عليه العِقاب، فإذا عاقَبت شخصًا بالضرب فهذا الضربُ مُعاقَب به، وأمَّا ضَرْب الضارِب فهو وَصْفه الذي هو عِقابه.

فإن قال قائِل: قلنا: إن المفَسِّر يَتهَرَّب من إثبات الصِّفات الفِعْلية، ثُم هو قال

هنا: [ذي الطَّوْل الإنعام الواسِع، وهو مَوْصوف على الدوام بكُلٍّ من هذه الصِّفات]. فهو هنا أثْبَت الصِّفات؟

فالجَوابُ: أي لكن على أنَّها صِفات ذاتِية، ثُم إنَّ المفَسِّر أيضًا لاحَظَ شيئًا آخَرَ من جهة النَّحْو، وهو أن ﴿غَافِرِ ٱلذَّنۢبِ﴾ و﴿وَقَابِلِ ٱلتَّوۡبِ﴾ و﴿شَدِيدِ ٱلۡعِقَابِ﴾ هذه صِفات مُضافة، وإضافتها ليست مَحْضة، بل إضافتها إضافة لَفْظية، والإضافة اللَّفْظية لا تَقتَضي التعريف.

فإن قال قائل: لكن سَمَّاها صِفاتٍ!.

فالجوابُ: لا مُخالفةَ، هي صِفات لكن ما قصَده؟ انظُرْ عِبارة المفَسِّر: [وهو مَوْصوف على الدوام بكُلٍّ من هذه الصِّفات] إذا كان موصوفًا بها على الدوام فتكون صِفاتٍ ذاتيةً. ثُم يَقول: [فإضافة المُشتَقِّ منها للتَّعريف كالأخيرة] المُشتَقُّ: ﴿غَافِرِ﴾ و﴿وَقَابِلِ﴾ و﴿شَدِيدِ﴾، يَقول: للتَّعريف، يَعنِي أن إضافتها أَفادَت التَّعريف كالأخيرة: ﴿ذِى ٱلطَّوۡلِ﴾ فإن هذه الإِضافةَ أَفادَتِ التَّعريف لا شَكَّ؛ لأنها إضافة اسمٍ جامِد إلى مَعرِفة، فيَكون مَعرِفة.

واسم الفاعِل واسم المَفعول والصِّفة المُشبَّهة إذا أُضيفت فإنها لا تُفيد التعريف، ويُسمُّون هذه الإضافةَ: إضافةً لَفْظية، لا مَعنَوية، وبعضُهم يَقول: مَحْضة، وغير مَحْضة، وأَتَى المفَسِّر بهذا الكلامِ؛ لأنه يُورَد عليه مَسألة: «الله العزيز العليم»، فهذه مَعارِف، وإذا قلنا: غافِر صِفة لله. وقُلنا: إن إضافَتها لَفْظية، ورَدَ علينا إشكالٌ، الإضافة اللَّفْظية لا تَقتَضي التعريف، فتكون الصِّفة نكِرة وُصِفَ بها مَعرِفة، ووَصْف المعرفة بالنكِرة غير جائِز.

ولا يَجوز أن تَقول: جاء زَيْد فاضِل. يَجِب أن تَقول: جاء زَيْد الفاضِلُ. فإذا كانت الإضافة في ﴿غَافِرِ﴾ و﴿وَقَابِلِ﴾ و﴿شَدِيدِ﴾ لا تُفيد التعريف، وأَعرَبْناها على أنَّها صِفة، فصار في هذا إشكال، وهو أننا وصَفْنا مَعرِفة بنكِرة، وهذا غير جائِز، فأَراد المفَسِّر أن يُصحِّح المَوْضوع فقال: إن هذه الصِّفاتِ لا يُراد بها الحُدوث، وإنَّما هي صِفات على الدوام، وإذا كانت الصِّفات على الدوام خرَجَت عن مُشابَهة الفِعْل، وصارَت الإضافة للتَّعريف؛ لأَجْل أن يَصِحَّ وَصْف اسم الجلالة، أو لفظ الجلالة بهذه الصِّفاتِ لَمَّا كانت إضافتُها مَحْضة مَعنَوية.

لكنْ للمُعْربين قول آخَرُ، بل قول ثالِث: في القول الآخَر يَقولون: إن ﴿غَافِرِ﴾ و﴿وَقَابِلِ﴾ و﴿شَدِيدِ﴾ بدَل من الله، والبدَل لا يُشتَرط فيه مُوافَقة المُبدَل منه، لكن القول بأنها بدَل غيرُ صحيح؛ لأن عَلامة البدَل أن يَحِلَّ مَحَلَّ المُبدَل منه، وهذا لا يَصِحُّ، هذا وَصْف زائِد على المَوْصوف.

وهناك رَأْيٌ ثالِث لإخواننا الكَوْفيِّين المُيسِّرين يَقولون: يَجوز أن تُنعَت المعرِفة بمِثْل هذا التركيبِ، ولو كانت الإضافةُ لفظيةً غيرَ مَحْضة. يَعني يَقولون: ما أُضيف إلى المَعرِفة ولو كانَت الإِضافة غيرَ مَحْضة يَجوز أن يَكون نَعْتًا للمَعرِفة اعتِبارًا باللفظ؛ لأن لَفْظ: ﴿غَافِرِ ٱلذَّنۢبِ﴾ مَعرِفة؛ لأنه أُضيف إلى مَعرِفة، وإن كانَتِ الإضافة عِنْدهم غير حقيقية، وإنَّما هي لَفْظية.

فالنَّحويُّون يَقولون: لا يُهِمُّ لفظية أو مَعنَوية، ما دام ظاهِر اللفظ مُنسجِم الصِّفة مع المَوْصوف، فهذا يَكفِي.

والقاعِدة المُتَّبَعة عندنا فيما إذا ورَد خِلاف بين النَّحويِّين أن نَتَّبع الأسهَل اقتِداءً بالرسول عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ، أنه ما خُيِّر بين أَمْرين إلَّا اختار أَيسَرَهما ما لم يَكُن إثمًا.

ونحن لا نَأْثَم إذا اتَّبَعْنا الكُوفيين في رَأْيهم؛ لأنها ليست مَسائِلَ شرعية؛ فعَلى رَأْيِ الكوفِيِّين لا حاجةَ إلى كلام المفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ.

فنَقول: الإضافة لَفْظية، لكن صورتها أنها إِضافة مَعنَوية؛ لأنها أُضيف إلى معرِفة، فصحَّ أن يُوصَف بها المَعرِفة؛ وهذا البَحثُ لا يُدرِكه الإنسان تمامًا إلَّا إذا عرَف أن الإضافة نَوْعان: محْضة مَعنَوية، ولفظية غير محَضَة.

مَسْألةٌ: كيف نَجمَع بين القول بأنَّ أسماء الله تعالى لا تُحصى، وبين قول النبيِّ ﷺ: «إِنَّ للهِ تِسْعَةً وَتِسْعِينَ اسْمًا مَنْ أَحْصَاهَا دَخَلَ الجَنَّةَ»[1]؟

فالجَوابُ على ذلك أن نَقول -إذا كان السائِل مُستَفهِمًا فقل: الجَـوابُ على ذلك، وإذا كان مُورِدًا أي مُناقِضًا، فقل: الجوابُ عن ذلك؛ ولهذا يَكون «الجواب عن ذلك» في مَقام الرَّدِّ على مَن اعترَض عليك، و«الجواب على ذلك» في جواب مَنِ استرَشَد-: أن كلام النبيِّ ﷺ ككَلام الله لا يَتناقَض أبدًا، فإذا كان قد ثبَتَ عنه أنه قال: «أَوِ اسْتَأْثَرْتَ بِهِ فِي عِلْمِ الْغَيْبِ عِنْدَكَ»[2] علِمنا أن من أسماء الله ما لا يُمكِن الوصولُ إليه، ولا يُمكِن إدراكُه؛ لأن ما استَأْثَر الله به لا يُمكِن أن نَعلَمه، فحينَئِذ يَتعيَّن أن نَقول: إن مَعنى قوله: «إِنَّ للهِ تِسْعَةً وَتِسْعِينَ اسْمًا مَنْ أَحْصَاهَا دَخَلَ الجَنَّةَ» أي: من أسمائه تِسعة وتِسعين مَن أَحصاها دخَل الجَنَّة، فتكون جُملة «مَنْ أَحْصَاهَا» وصفًا لكلمة «اسْمًا»، وليسـت جُملةً مُستقِلَّة مُستَأنَفة، تكون معنى «إِنَّ للهِ تِسْعَةً وَتِسْعِينَ اسْمًا» مَوْصوفة بأن «مَنْ أَحْصَاهَا دَخَلَ الجَنَّةَ»، وله أسماءٌ أخرى لكن اختَرْ

(١) أخرجه البخاري: كتاب التوحيد، باب إن لله مائة اسم إلا واحدًا (٧٣٩٢)، ومسلم: كتاب الذكر والدعاء والتوبة، باب في أسماء الله تعالى وفضل من أحصاها (٢٦٧٧)، من حديث أبي هريرة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ.

(٢) أخرجه الإمام أحمد (١/ ٣٩١) من حديث عبد الله بن مسعود رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ.

منها تِسعة وتِسْعين فإذا أَحصَيْتها دخَلْت الجَنَّة.

ومعنى إحصائها: هو مَعرِفتها لفظًا ومَعنًى، والتَّعبُّد لله بمُقتَضاها، أي: مَعرِفة لَفْظها ومَعناها والتَّعبُّد لله تعالى بمُقتضاها.

قال رَحِمَهُ اللَّهُ: [﴿إِلَيْهِ الْمَصِيرُ﴾ المَرجِع] الجُمْلة خبَرية مُكوَّنة من مُبتَدَأ وخبَر، والخبَر فيها مُقدَّم، وإذا قُدِّم الخبَر أَفاد التخصيص والحَصْر؛ إليه أي: إلى الله وحدَه، المَصير: المَرجِع، وهل المُراد بقوله: ﴿إِلَيْهِ الْمَصِيرُ﴾ أي: المَرجِع في كل شيء، أو إليه المَصيرُ بعد الموت؟

الجوابُ: إليه المَصيرُ في كل شيء، فإليه المَرجِع في الحُكْم بين النَّاس، إليه المَرجِع في تدبير الأمور، إليه المَرجِع بعد الموت، إليه المَرجِع في كل شيء، ﴿هُوَ الْأَوَّلُ وَالْآخِرُ وَالظَّاهِرُ وَالْبَاطِنُ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ [الحديد:٣].

من فوائدِ الآياتِ الكريمة:

الْفَائِدَةُ الأُولَى: أنَّ القُرآن الكريم حُروف، تَكلَّم الله به بحُروف، ففيه الرَّدُّ على الأشاعِرة، ومَن سلَك سبيلهم الذين يَقولون: إن كلام الله هو المَعنى القائِم بالنَّفْس، وإنَّ الله لا يَتكلَّم بحَرْف وصَوْت، لكن يَخلُق حُروفًا وأصواتًا تُسمَع تَعبيرًا عمَّا في نفسه.

وحقيقةُ هذا القولِ نَفيُ الكلام؛ لأنَّ ما في النَّفْس من المعلومات المُرتَّبة ليسَت كلامًا، ولكنها مَعلومات، عِلْم، وليست كلامًا.

والرَّدُّ عليهم معلوم من كتُب العقائِد: منها أنَّ القول إذا أُطلِق فهو قول اللِّسان، وإذا أُريد به قول النَّفْس حُدِّد، مثل: ﴿وَيَقُولُونَ فِي أَنفُسِهِمْ لَوْلَا يُعَذِّبُنَا اللَّهُ بِمَا نَقُولُ﴾

[المجادلة:٨] ومثل قوله ﷺ: «إِنَّ الله تَجاوَزَ عَنْ أُمَّتِي مَا حَدَّثَتْ بِهِ أَنْفُسُهَا»[1].

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَةُ: عُلوُّ الله عَزَّوَجَلَّ، يُؤخَذ مِن قوله: ﴿تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ مِنَ ٱللَّهِ﴾؛ لأن النُّزول لا يَكون إلَّا من أعلى.

الْفَائِدَةُ الثَّالِثَةُ: أنَّ القُرآن كلام الله، لا كلامُ غيرِه؛ لقوله تعالى: ﴿تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ مِنَ ٱللَّهِ﴾، وذلك أنَّ ما ذكَر الله أنه نزَّله يَنقَسِم إلى قِسْمين:

إمَّا أن يَكون أعيانًا قائِمة بنَفْسها، فهذه مَخلوقة.

أو تَكون أَوْصافًا لا تَقوم إلَّا بالغَيْر، فهذا غير مَخلوق.

مثال الذي أَضاف الله تعالى إنزالَه إلى نفسه، وهو عين قائِمة بنَفْسها، قوله تعالى: ﴿وَأَنزَلْنَا ٱلْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ﴾ [الحديد:٢٥] فالحَديد مَخلوق، وقوله: ﴿وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ ٱلْأَنْعَٰمِ ثَمَٰنِيَةَ أَزْوَٰجٍ﴾ [الزُّمَر:٦] أعيان قائِمة بنَفْسها مَخلوقة، ﴿يَٰبَنِىٓ ءَادَمَ قَدْ أَنزَلْنَا عَلَيْكُمْ لِبَاسًا﴾ [الأعراف:٢٦] مَخلوق.

إِذَنْ: فما أَضاف الله تعالى مِن إنزاله إليه، وهو عين قائِمة بنَفْسه؛ فهو مَخلوق، وإلَّا فهو غير مَخلوق، والقُرآن هو كلام لا يَقوم إلَّا بالغير، إِذَنْ هو غير مَخلوق.

الْفَائِدَةُ الرَّابِعَةُ: وصفُ القُرآن الكريم بالكِتاب، فلماذا وُصِف بالكتاب؟

نَقول: أوَّلًا: لأنه يُكتَب فهو مَكتوب بالمَصاحِف التي بأيدينا.

ثانيًا: أنه بصحُف بأَيْدي المَلائِكة: ﴿فَمَن شَآءَ ذَكَرَهُۥ ﴿١٢﴾ فِى صُحُفٍ مُّكَرَّمَةٍ﴾ [عبس:١٢-١٣].

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب الطلاق، باب الطلاق في الإغلاق والكره، رقم (٥٢٦٩)، من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

ثالثًا: أنَّه مَكتوب في اللوح المَحْفوظ: ﴿بَلْ هُوَ قُرْءَانٌ مَّجِيدٌ ﴿٢١﴾ فِى لَوْحٍ مَّحْفُوظٍ﴾ [البروج:٢١-٢٢]، وعليه فكِتاب بمَعنى مَكتوب، وهل يَأتي «فِعال» بمَعنى «مَفعول»؟ نَقول: كثيرًا، كغِراس بمَعنى مَغروس، وبِناء بمَعنى مَبنيٍّ، وفِراش بمَعنى مَفروش، وما أَشبَهَه.

الْفَائِدَةُ الخَامِسَةُ: إثبات ثلاثة أسماء من أسماء الله: الله، والعزيز، والعليم، من قوله تعالى: ﴿مِنَ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ﴾، وإثبات ما دلَّت عليه هذه الأسماءُ من الصِّفات، فالله دلَّ على الأُلوهية، والعَزيز على العِزَّة، والعليم على العِلْم، واعلَمْ أنَّ كل اسم من أسماء الله فإنه مُتضَمِّن لصِفة، وليس كل صِفة يُشتَقُّ منها اسمٌ؛ ولهذا قُلْنا: إنَّ الصِّفاتِ أوسَعُ من الأسماء.

الْفَائِدَةُ السَّادِسَةُ: ذِكْر الأسماء المُناسِبة للمَقام. يَعني: أنَّ الله جَلَّوَعَلَا يَذكُر من أسمائه ما يُناسب المَقام، فهذه السورةُ تَتَحدَّث عن المُكذِّبين للرُّسُل، وما جرَى عليهم من الهلاك والانتِقام، فالذي يُناسِبه من الأسماء العِزَّة التي فيها الغلَبة والأَخْذ؛ فلهذا جاءَت هنا العَزيز، وجاء العَليم؛ ليُفيد أنَّه لعِزَّته أخَذَ هؤلاءِ المُكذِّبين، ولعِلْمه أَنزَل الكتُب وعلِم كيف يَأخُذ هؤلاءِ المُكذِّبين.

الْفَائِدَةُ السَّابِعَةُ: أن الله جَلَّوَعَلَا يَغفِر الذُّنوب جميعًا لقوله: ﴿غَافِرِ ٱلذَّنۢبِ﴾، والذَّنْب هنا مُفرَد مُحلًّى بـ(أل) فيَكون عامًّا؛ لأن المُفرَّد المُحلَّى بـ(أل) يَكون عامًّا؛ مثل: ﴿إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَفِى خُسْرٍ﴾ [العصر:٢] أي: إن كل إنسان.

الْفَائِدَةُ الثَّامِنَةُ: الحَثُّ على كل ما تَكون به المَغفِرة، وجهُ ذلك: أنَّ الله تعالى لم يُخبِرْنا بأنه غافِر الذَّنْب من أَجْل أن نَعلَم أنه غافِر فقَطْ، لكن من أَجْل أن نَتعرَّض لمَغفِرته.

وما هي الأسباب التي تكون بها المَغفِرة؟

الجواب: الأسباب كثيرة؛ منها: الاستِغْفار، تقولُ: اللهُمَّ اغفِرْ لي، ومنها: أعمال صالحِة يُكفِّر الله بها الخَطايا، ومنها: إحسان إلى الخَلْق، حتى إن الله عَزَّوَجَلَّ غفر لامرأة بَغيٍّ بسَقْيِها كلبًا عَطشانَ، وغفَر لرجُل وجَد شجَرة في الطريق تُؤذِي الناس فأَزالها، فغفَر الله له.

المُهِمُّ: أن نَتعرَّض لأسباب المَغفِرة؛ لأن ذلِك مُقتَضى قوله: ﴿غَافِرِ ٱلذَّنۢبِ﴾.

الْفَائِدَةُ التَّاسِعَةُ: أَنَّه يَقبَل التوبة من عِباده، ولكن لا يُقبَل الشيءُ حتى يَكون جارِيًا على مُقتَضى الشريعة؛ لقول النبيِّ ﷺ: «**مَنْ عَمِلَ عَمَلًا لَيْسَ عَلَيْهِ أَمْرُنَا فَهُوَ رَدٌّ**»(١).

والتوبة الجارِية على مُقتَضى الشريعة هي ما جمَعَت خمسة أُمور، وهي ما يُعرَف بشُروط التَّوْبة:

الشَّرط الأوَّلُ: الإخلاص لله عَزَّوَجَلَّ، بأن يَكون الحامِل للإنسان على التَّوْبة هو إخلاصَه لله عَزَّوَجَلَّ، حُبُّ التَّقرُّب إليه والفِرار من عُقوبته، فلا يَحمِله على التوبة مُراعاة الخَلْق، ولا حُصول الجاهِ والرِّئاسة، وإنَّما يَحمِله الإخلاص لله.

الشَّرط الثاني: النَّدَم على فِعْل المَعصية أن يَشعُر الإنسان بانفِعال ندَم وحَسْرة على ما وقَع منه، فلا بُدَّ من ندَم؛ لأن النَّدَم هو الذي يَتبيَّن به حقيقة رُجوع الإنسان إلى الله، وأن هذه المَعصيةَ أثَّرت في نفسه، فندِم على ما جرَى منه، لا يُقال: إن النَّدَم

---

(١) أخرجه مسلم: كتاب الأقضية، باب نقض الأحكام الباطلة، ورد محدثات الأمور، رقم (١٧١٨)، من حديث عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا.

انفِعال، والانفِعال يَأْتي بغير الاختيار؛ كالغضَب مثَلًا، والحُزْن من الواقِع، يُقال: المُراد بالنَّدَم هنا تَحسُّر القلب، فهو انفِعال يَقَع من الإنسان ليس كالانفِعال الذي يَأتِي سببه من الخارِج، هذا ربَّما لا يَستَطيع الإنسان أن يُغيِّر ما وقَع.

الشَّرط الثالث: التَّخلِّي عن المَعصية والانفِصال عنها، فإن تابَ وهو مُصِرٌّ فإن تَوْبَته أشبَهُ ما تَكون بالاستِهْزاء، كيف يَقول الذي يَأكُل لَحم الخِنزير: أَستَغفِر الله تعالى، وأَسأَل الله أن يَجعَل طعامي طيِّبًا؟! وهو يَأكُل هو يَمضَغ اللَّحمة جيِّدًا، ويَقول: أَستَغفِر الله من أَكْل لَحْم الخِنزير، وأَسأَل الله أن يَجعَل طعامي طيِّبًا! هذا أَشبَه ما يَكون بالمُستَهزِئ. ولو أنَّ رجُلًا نَهاكَ عن شيء، ووجَدَكَ تَعمَل هذا الشيءَ، وأنت تَقول: أَرْجو منك أن تَعذِرني، وما أَشبَه ذلك وهو يَأكُل، وقال له: لا تَأكُل، وهو يَأكُل، فإنَّ هذا الذي يُخاطِبه سوف يَقول: إنك تَستَهزِئ بي وتَسخَر بي. فلا تَوْبةَ مع الإصرار، ولا بُدَّ أن يَتخلَّى عن الذَّنْب.

وإذا كان الذَّنْب لله عَزَّوَجَلَّ فالتَّخلِّي عنه سَهل، لكن إذا كان الذَّنْب لغير الله -يَعنِي: أَذنَب في حق غير الله- فكيف يَتخلَّى عنه؟

نَقول: إذا كان مالًا فالتَّخلِّي عنه بإيصاله إلى صاحِبه، بأيِّ وَسيلة كانت، فإن كان قد مات فإلى ورَثَته، فإن جهِلهم فإلى بيت المال، أو إذا كان بيت المال غيرَ مُنتَظِم، أو يُخشَى عليه أن يَضيع، فلْيَتصَدَّق به هو لصاحِبه، هذه أربَعُ مَراحِلَ: لصاحبه، لورَثَته، لبيت المال، إن جهِلهم، يَتصَدَّق به. والغالِب أن الصدَقة أَوْلى من بيت المال.

وإذا كان عُدوانًا على النفس ليس مالًا، فالتوبة منه أن يُمكِّن صاحب الحَقِّ من الاقتِصاص منه، فمثَلًا: إذا كان قدِ اعتَدَى على شَخْص بضَرْب، فلْيَذهَب إليه

ويَقول: أنا اعتَدَيْت عليك بالضَّرْب اضرِبْني كما ضرَبْتك. كما فعَل النَّبيُّ ﷺ مع الرجُل الذي ضرَبه النبيُّ ﷺ حينما رآه مُتقدِّمًا في الصفِّ فقال الرجُل: أَقِدْني يا رسول الله ﷺ. فكشَف النَّبيُّ ﷺ عن بَطْنه ليُقيدَه، فماذا فعَل الرجُل؟ قبَّله(١).

فهذا النبيُّ ﷺ، وهو أَشرَف الخَلْق، وأَحَبُّ الناس إلى أَتباعه مكَّن من الاقتِصاص منه، هذا اثنان: المال والبدَن.

أما إذا كان في العِرْض: بأنِ اعتَدَيْت على شخص في عِرْضه، يَعنِي بأنِ اغتَبْته أو سبَبْته، والفرق بين الغِيبة والسَّبِّ أن السَّبَّ مُواجهة والغِيبة مع الغَيبة، فذِكْرك أخاك بما يَكرَه إن كان غائبًا فهي غِيبة، وإن كان حاضِرًا فهو سَبٌّ، فإنَّ التَّوْبة من هذا أن تَستَحِلَّه، فلو قلت: سُبَّني كما سببْتُك فلا يَصِحُّ؛ لأن هذا جِناية على نَفْسك، ولكن استَحِلَّه، وهذا إذا كان سبًّا؛ لأنَّه قد علِم بذلك.

فأمَّا إذا كان غَيْبة فهل تَستَحِلُّه تَذهَب إليه وتَقول: إني اغتَبْتك فاعذِرْني اسمَحْ لي؟

الجوابُ: قال بعض العُلَماء: نعَمْ! يَجِب أن تَذهَب إليه وتَقول: أنا اغتَبْتُك فاعذِرني، حُلَّني. وقال بعض أهل العِلْم: لا يَلزَم استِحْلاله بل يَكفِي أن تَستَغفِر له كما جاء في الحديث، وإن كان ضَعيفًا: «كَفَّارَةُ مَنِ اغْتَبْتَهُ أَنْ تَسْتَغْفِرَ لَهُ»(٢) استَغفِر له وأَثنِ عليه بما هو أَهْله في الأماكِن التي اغتَبْته فيها، يَقول: ﴿ٱلْحَسَنَٰتِ يُذْهِبْنَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾ [هود:١١٤].

---

(١) انظر: سيرة ابن هشام (١/ ٦٢٦).

(٢) أخرجه الحارث بن أبي أسامة في مسنده كما في زوائده رقم (١٠٨٠)، وابن أبي الدنيا في الصمت رقم (٢٩١)، والبيهقي في الدعوات الكبير رقم (٥٧٥)، من حديث أنس رَضِيَالِلَّهُعَنْهُ.

وهذا القولُ أَصَحُّ؛ لأنَّ هذا فيه البَراءة وعدَم التَّشويش؛ لأنه ربما لو ذهَبْت إليه تَقول: اغتَبْتك فحُلَّني، مَهْما أَتيت به من صِيغة الغِيبة قد لا يَقتَنِع بها، إذا قلت: إني قُلْت فيك: إنك بَخيل. قد يَقول: إنك قلت: بَخيل وجبانٌ. ربما يَقول له الشيطان هكذا، ويَأبى أن يُحلِّلك، فإذا كان لم يَعلَم فاحمَدِ الله على ذلك واستَغفِر له وأَثْنِ عليه بما هو أَهْله في الأماكن التي كُنت اغتَبْته فيها، وبذلك تَسلَم من الإِثْم، هذه صِفة التَّخلِّي من الذَّنْب إذا كان في حَقِّ غير الله.

وهنا سُؤالٌ: بعض الناس يَكون عليه حقٌّ ماليٌّ لشخص، إمَّا سَرَقه، أو جَحَده، أو ما أَشبَه ذلك، ثُم يَتوب هذا الفاعِلُ، ويَذهَب إلى صاحِب الحقِّ، ويَقول: خُذْ حقَّكَ. فيَأبى صاحِب الحقِّ أن يَأخُذه، فماذا يَصنَع؟ وهذا يَرِد كثيرًا: يَكون صاحِب الحقِّ قد حمَل في نفسه على هذا الظالِمِ الذي ظلَمه، ويَأبى أن يَقبَل، فماذا يَصنَع؟ هل نَقول: إنه حينَئذٍ سقَط حقُّه وصحَّت تَوْبة المُعتَدي، ويَبقَى إن طلَب حقَّه مرَّة أخرى أُعطِيَ، وإن لم يَطلُب فإن المُعتَديَ بَرِئَ؟

نَقول: نُنزِّل هذه الحالَ على القواعِد الشرعية، فالقَواعِد الشرعية تَقتَضي أن هذا الذي عليه الحقُّ قد برِئَ؛ لأن الله يَقول: ﴿لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾ [البقرة:٢٨٦]، وهذا ما يَسَعه! قدَّم الحَقَّ لصاحبه، وقال: خُذْ. قال: لا، لا آخُذه، أنت اعتَدَيْت عليَّ في الأَوَّل ولا أَقبَل منك، هذا الذي أَبَى أن يَقبَله هو الذي أَخطَأ وجنَى؛ لأنه يَنبَغي للإنسان إذا اعتَذَر إليه أَخوه أن يَقبَل عُذْره، لكن هذا هو الذي جنَى الآنَ، فهذا الرجُلُ نَقول: أنت الآنَ برِئَت ذِمَّتُك، خلِّ الدراهِم عندَك إن جاء يومًا من الدَّهْر أَعطِها إيَّاه.

وإن مات: فهل يَلزَمه أن يُعطيَه الورَثة؟

الجوابُ: في هذا نظَر، وذلك أن الرجُل الذي اعتُدِيَ عليه لم يَقبَل هذا المالَ، ولم يَدخُل في مُلْكه، فإذا كان لم يَقبَله ولم يَدخُل في مُلْكه، فكيف يَنتَقِل إلى الورَثة؟! ومن شَرْط الإِرْث انتِقال المال عن المَوْروث، وهذا المَوْروثُ لم يَقبَل هذا المالَ، وقد يُقال: إن الأصل أنَّه مُلكه فيَلزَم الرَّدُّ إلى ورَثَته، وهذا الأخيرُ أحوطُ، لكن في وجوبه نظَر؛ لأنَّ الذي اعتَدى وأَراد أن يَرُدَّ، يَقول: أنا أَعطَيْت الرجُل وأَبى أن يَتملَّكه، فكيف يَنتَقِل إلى الورَثة؟ ولكن نَقول: الأحوَطُ والأَوْلى أن يَرُدَّه إلى الورَثة؛ ليَسلَم منه.

لكن لو فُرِض أنه لا ورَثةَ له، أو أن ورَثَته مجهولون، فإن هذا التائِبَ قد أدَّى ما عليه.

الشَّرط الرابع: أن يَعزِم على «ألَّا يَعود إلى الذَّنْب»، أو «أن لا يَعود إلى الذَّنْب»، الأوَّل أو الثاني؟ الأوَّل: أن يَعـزِم على ألَّا يَعود إلى الذَّنْب، أو الشـرط ألَّا يَعود إلى الذَّنْب؟ الأوَّل، والفَرْق بينهما أننا إذا قلنا: الشـرط ألَّا يَعود ثُم عاد بطَلَت التوبة الأُولى، وإذا قلنا: الشرط العَزْم على ألَّا يَعود، وقد عزَم ألَّا يَعود، ثُمَّ عاد، فالتوبة الأُولى تَبقَى صحيحة، وعليه أن يَتوب توبة ثانية للذَّنْب الجديد، فالشَّرْط هو: العَزْم ألَّا يَعود في المُستَقبَل، فإن عاد فعليه تَوبة أُخرى، وهكذا.

فإن قال قائِل: أَلَيْس قد ثبَت في الصحيح أنَّ الرسول ﷺ أَخبَر: «أن رجُلًا أَذنَب ذَنْبًا فتابَ، ثُم أَذنَب فتابَ، ثُم أذنَب فتابَ، ثُم قال الله عَزَّوَجَلَّ: عَلِمَ عَبْدِي أَنَّ لَهُ رَبًّا يَغفِرُ الذَّنْبَ ويَأْخُذُ بِهِ، قَدْ غَفَرْتُ لِعَبْدِي فَلْيَعْمَلْ مَا شَاءَ»[١]، فهل هذا

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب التوحيد، باب قول الله تعالى: ﴿يُرِيدُونَ أَن يُبَدِّلُوا كَلَامَ اللَّهِ﴾ [الفتح:١٥]، رقم (٧٥٠٧)، ومسلم: كتاب التوبة، باب قبول التوبة من الذنوب وإن تكررت الذنوب والتوبة، رقم (٢٧٥٨)، من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

يَعنِي أن الإنسان إذا تكرَّر منه الذَّنْب وهو يَستَغفِر يُغفَر له؟

فالجَوابُ: نعَمْ، مَهْما أَذنَب ثُم استَغْفَر يُغفَر له.

لكن لو قال قائِل: إن ظاهِر الحديث: «فَلْيَعْمَلْ مَا شَاءَ» يعنِي: فلْيَعْصِ الله!

قُلنا: لا يَستَقيم هذا؛ لأنه يُخالِف الأدِلَّة الكثيرة الدالَّة على أنه لا بُدَّ لكل ذَنْب من تَوْبة إلَّا طائِفة واحِدة من هذه الأُمَّةِ، همُ الذين لا يَحتاجون إلى تَوْبة من الذنب، وهم أهل بَدْر، فإنَّ الله اطَّلَع إليهم وقال: «اعْمَلُوا مَا شِئْتُمْ فَقَدْ غَفَرْتُ لَكُمْ»[1].

فهَؤلاءِ القَوْمُ ثلاثُ مِئة وبِضعةَ عشَرَ رجُلًا، وهُمْ أَهْل بَدْر اطَّلَع الله عليهم فكافَأَهم مُكافَأَة لم تَحصُل لغَيْرهم، اطَّلَع عليهم فقال: «اعْمَلُوا مَا شِئْتُمْ فَقَدْ غَفَرْتُ لَكُمْ»، هذه الحَسَنةُ العَظيمة مَحَت جميع ما يَعمَلونه من السَّيِّئات، ونفَعَت هذه الغَزوةُ لَمْنْ غَزا، حتى حاطِب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ الذي كتَب بأَخْبار النَّبيِّ ﷺ إلى قُرَيْش قُبَيْل غَزوة الفَتْح لَمَّا عُثِر على ما صنَع، قال عمرُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ للرسول ﷺ: دَعْنِي أَضْرِبْ عُنُقَهُ فَقَدْ نَافَقَ. فعُمرُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ شُجاع ليس عنده إلَّا السَّيْف، قال: «أَمَا عَلِمْتَ أَنَّ الله اطَّلَعَ إِلَى أَهْلِ بَدْرٍ فَقَالَ: اعْمَلُوا مَا شِئْتُمْ فَقَدْ غَفَرْتُ لَكُمْ»[2] فوقَعَت هذه السَّيِّئةُ العَظيمة من جُمْلة ما يُغفَر لأهل بَدْر؛ ولهذا كان أهل بَدْر أفضَلَ من أهل بَيْعة الرُّضوان، أفضَلُ لما حصَل فيه من النُّصْرة العَظيمة للنَّبيِّ ﷺ؛ ولهذا يُسمَّى يومُ بَدْر يومَ الفُرقان. قال: فأَهْل بَدْر.

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب الجهاد، باب الجاسوس، رقم (٣٠٠٧)، ومسلم: كتاب فضائل الصحابة، باب من فضائل أهل بدر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ، رقم (٢٤٩٤)، من حديث علي بن أبي طالب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٢) أخرجه البخاري: كتاب الجهاد، باب الجاسوس، رقم (٣٠٠٧)، ومسلم: كتاب فضائل الصحابة، باب من فضائل أهل بدر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ، رقم (٢٤٩٤)، من حديث علي بن أبي طالب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

الشَّرْط الخامِس: أن تَكون التوبة في الوقت الذي تُقبَل فيه التَّوْبة، وهو أن تَكون التَّوْبة قبل طلوع الشَّمْس من مَغرِبها، وقبل حُضور الأَجَل.

فالأوَّلُ عامٌّ لكل أحَد، فلا تَوبةَ لأَحَد إذا طلَعَت الشمس من مَغرِبها؛ لقول النبيِّ ﷺ: «لَا تَنْقَطِعُ الهِجْرَةُ حَتَّى تَنْقَطِعَ التَّوْبَةُ، وَلَا تَنْقَطِعُ التَّوْبَةُ حَتَّى تَخْرُجَ الشَّمْسُ مِنْ مَغْرِبِهَا»(1)، وهذا يُؤيِّده قوله تعالى: ﴿أَوْ يَأْتِيَ رَبُّكَ أَوْ يَأْتِيَ بَعْضُ ءَايَٰتِ رَبِّكَ يَوْمَ يَأْتِي بَعْضُ ءَايَٰتِ رَبِّكَ لَا يَنفَعُ نَفْسًا إِيمَٰنُهَا لَمْ تَكُنْ ءَامَنَتْ مِن قَبْلُ أَوْ كَسَبَتْ فِىٓ إِيمَٰنِهَا خَيْرًا﴾ [الأنعام:١٥٨]، والمُراد ببَعْض الآيات: طُلوع الشَّمْس من مَغرِبها.

والثاني أن تكون قبل حُضور الأَجَل، فإذا حضَر الأَجَل لم تَنفَعِ التَّوْبة؛ لقول الله تَبَارَكَ وَتَعَالَى: ﴿وَلَيْسَتِ ٱلتَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ حَتَّىٰٓ إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ ٱلْمَوْتُ قَالَ إِنِّى تُبْتُ ٱلْـَٰٔنَ﴾ [النساء:١٨]، هذا ليس لهم تَوْبة، وتَطبيق هذا عمَليًّا أنَّ فِرعونَ لمَّا أَدرَكه الغرَقُ قال: ﴿ءَامَنتُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱلَّذِىٓ ءَامَنَتْ بِهِۦ بَنُوٓا۟ إِسْرَٰٓءِيلَ وَأَنَا۠ مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾ [يونس:٩٠] فقيل له: ﴿ءَآلْـَٰٔنَ﴾؛ تُؤمِن ﴿وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنتَ مِنَ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٩١﴾ فَٱلْيَوْمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ﴾ [يونس:٩١-٩٢]، لا رَحمةً بك ولكِن ﴿لِتَكُونَ لِمَنْ خَلْفَكَ ءَايَةً﴾، وأمَّا رُوحُك فلا نَجاةَ لها، وإنَّما نجَّاه الله ببَدَنه؛ لأنه قد أَرعَب بني إسرائيلَ، ولا يَكادون يُصدِّقون بأنَّه هلَك حتى يُشاهِدوه فيَطمَئِنُّوا؛ فلهذا نجَّاه الله تعالى ببدَنه؛ ليُشاهِدوه!.

فإن قال قائِل: هل يُشترَط ألَّا يَكون مُصِرًّا على ذَنْب آخرَ؟ يَعنِي: لنَفرِض أنه تاب من شُرْب الخَمْر، لكنه باقٍ على الزِّنا -والعِياذ بالله- فهل تَصِحُّ تَوْبته من شُرْب الخَمْر؟

(1) أخرجه الإمام أحمد (٤/ ٩٩)، وأبو داود: كتاب الجهاد، باب في الهجرة هل انقطعت؟، رقم (٢٤٧٩)، والنسائي في الكبرى رقم (٨٦٥٨)، من حديث معاوية رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

فالجوابُ: في هذا خِلاف، فمن العُلَماء مَن يَقول: لا تَصِحُّ التوبة من ذَنْب مع الإصرار على ذَنْب آخَرَ، ومنهم مَن قال: بل تَصِحُّ؛ لأنَّ كل ذَنْب له جُرْمه. ومنهم مَن قال: إذا كان الذَّنْب الذي أَصَرَّ عليه من جِنْس الذي تاب منه، فإن التوبة لا تَصِحُّ، كرجُل تاب من الزِّنا، لكنه يُطلِق بصَرَه في النظَر المُحرَّم، فإن توبَته من الزِّنا لا تَصِحُّ، أو رجُل تاب من النظَر المُحرَّم، ولكنه لم يَتُبْ من المَسِّ المُحرَّم، هذا أيضًا لا تُقبَل توبتُه.

ومن العُلَماء مَن قال: تُقبَل مُطلَقًا، إذا تاب من ذَنْب تاب الله عليه من هذا الذَّنْبِ؛ لأن الله عَزَّوَجَلَّ حكَمٌ عَدْل، ورحمتُه سبقَت غضَبَه، وهذا الرجُلُ عِنده جِنايات مُتعدِّدة، تاب من واحِدة منها، فلْيَكُن تائِبًا؛ وهذا القولُ أصَحُّ، ولكن لا يُطلَق على هذا التائِبِ وصفُ التوبة المُطلَقة؛ لأن توبته هذه مُقيَّدة، يَعنِي: لا يَستحِقُّ وصفَ التائِبين على الإطلاق، فلا يَدخُل في قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلتَّوَّٰبِينَ وَيُحِبُّ ٱلْمُتَطَهِّرِينَ﴾ [البقرة:٢٢٢]؛ لأنَّ هذا الرجُلَ لا يَصدُق عليه أنَّه تائِب على وَجهِ الإطلاق؛ لكنه تائِب من ذَنْب واقِع في ذَنْب آخرَ.

وهذا القولُ هو الذي تَجتَمِع فيه الأدِلَّة، فيُقال: استِحْقاق الوصف المُطلَق فيمَن تاب من ذَنْب مع الإصرار على غيره لا يكون، وأمَّا وَصْفه بتَوْبة مُقيَّدة فهذا صحيح، كالسرِقة فإنه إذا قُطِعت يدُه فلا بُدَّ من ردِّ المال إلى صاحِبه، نَقول: هذا بالنِّسبة لحقِّ الله سقَط في إقامة الحدِّ عليه، لكن لا بُدَّ من أن يُوصِل المال إلى صاحِبه.

فإن قال قائِل: مَن يَشترِك في الزِّنا؟

فالجوابُ: الواقِع أن الزِّنا يَشترِك فيه الفاعِل والمَفعول به، حتى المَفعول به يَتلذَّذُ ويَجِد شَهْوة، أمَّا إذا قلنا: بالإِكْراه فهذا صحيح أنه عُدوان، لا بُدَّ مِن استِحْلاله؛

أمَّا حقُّ الله فنُقيم عليه الحَدَّ، وحقُّ العِباد -وهو الإكراه والعُدوان عليه- لا بُدَّ مِن استِحْلاله.

فإن قال قائِل: رجُل سرَق من شخص مالًا، ثُم ردَّه عليه وقال: هذه هَدية. هل يَبرَأ منه؟

فالجوابُ: لا يَبرَأ، هو ردَّه على أنه هَدية، وهذا قبِلَه على أنه هَدية، وأن المُهدِي له عليه مِنَّة، وأنه يَحتاج إلى مُكافأة.

ولو وَضَع معَها رِيالًا وقال: هذه هَدية؛ لكان مُخادِعًا، ولا بُدَّ، لكن -الحمد لله- يَقول: والله أنا في حالِ السَّفَه، وهذه تَقَع كثيرًا في حال الصِّغَر، وإلَّا فالكبير ليس بسارِق -إن شاء الله-، لكن وهو صَغير يَسرِق من دُكَّان، أو من صاحِب له، يَأخُذ قلَمًا، أو يَأخُذ ساعة، فلا بُدَّ أن يُوصِله إليه ويَقول: هذه حَقٌّ لك علَيَّ.

ولكن لو قال مثَلًا: هذه من إنسان تاب، وقد سرَقها منك، ولم يَقُل: أنا أو غيره، فهذا يَصِحُّ، والظاهِر أنه يَنبَني على استِحلال المَجموع.

مسألةٌ: ورَد في حَديث النَّبيِّ أن الإنسان يَكتُب في بَطْن أُمِّه شَقِيٌّ أو سَعيد[1]، فلماذا يعمل الإنسان؟

فالجَوابُ: قد احتَجَّ الصَّحابة بهذه الحُجَّة على الرسول عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ لمَّا قال لهم: «مَا مِنْكُمْ أَحَدٌ إِلَّا وَقَدْ كُتِبَ مَقْعَدُهُ مِنَ الجَنَّةِ وَمَقْعَدُهُ مِنَ النَّارِ» قالوا: يا رَسول الله، ففيمَ العمَلُ؟ -أي: من أَجْل ماذا نَعمَل؟- فقال: «اعْمَلُوا فَكُلٌّ مُيَسَّرٌ

(١) أخرجه البخاري: كتاب بدء الخلق، باب ذكر الملائكة، رقم (٣٢٠٨)، وأخرجه مسلم: كتاب القدر، باب كيفية خلق الآدمي في بطن أمه، رقم (٢٦٤٣)، من حديث عبد الله بن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

لِمَا خُلِقَ لَهُ»[١].

ونَقول: أنت مَكتوب أَنَّك في الجَنَّة أو في النار بسبَب عمَلِك، فاعمَلْ عمَل أهل الجَنَّة لتكون من أَهْلها.

الْفَائِدَةُ الْعَاشِرَةُ: أنَّ عِقاب الله تعالى شَديد؛ لقوله تعالى: ﴿شَدِيدِ ٱلْعِقَابِ﴾.

ويَتفرَّع على هذه الفائِدةِ: الحَذَرُ من التَّعرُّض لعِقابه، وقد قال الله عَزَّوَجَلَّ لنبيِّه: ﴿نَبِّئْ عِبَادِىٓ أَنِّىٓ أَنَا ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٤٩﴾ وَأَنَّ عَذَابِى هُوَ ٱلْعَذَابُ ٱلْأَلِيمُ﴾ [الحجر:٤٩-٥٠]، وقال في آية أُخرَى: ﴿ ٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ وَأَنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ [المائدة:٩٨].

الْفَائِدَةُ الحَادِيَةَ عَشْرَةَ: بَيانُ كَمال غِنى الله؛ لقَوله: ﴿ذِى ٱلطَّوْلِ﴾؛ أي: صاحِبه، والطَّوْل هو: الغِنَى، كما شرَحْناه.

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَةَ عَشْرَةَ: انفِراد الله تعالى بالأُلوهية؛ لقوله: ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ وهو أَحَد أقسام التوحيد الثلاثة التي هي: تَوْحيد الرُّبوبية، والأُلوهية، والأَسْماء والصِّفات، ويُسمَّى تَوْحيد العِبادة، فهو باعتِبار العبد تَوْحيد عِبادة، وباعتِبار المَعبود تَوْحيد أُلوهية.

الْفَائِدَةُ الثَّالِثَةَ عَشْرَةَ: بَيان أنه لا مَعبودَ حقٌّ إلَّا الله، ولا بُدَّ أن نُقيِّد: لا مَعبودَ حقٌّ إلَّا الله؛ لأنَّ هناك ما يُعبَد من دون الله وتُسمَّى آلِهة، وقد سمَّاها الله تعالى آلِهة: ﴿ وَمَن يَدْعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ لَا بُرْهَٰنَ لَهُۥ بِهِۦ فَإِنَّمَا حِسَابُهُۥ عِندَ رَبِّهِۦٓ ﴾ [المؤمنون:١١٧]،

(١) أخرجه البخاري: كتاب التفسير، باب قوله تعالى: ﴿فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ وَٱتَّقَىٰ﴾، رقم (٤٩٤٥)، وأخرجه مسلم: كتاب القدر، باب كيفية خلق الآدمي في بطن أمه، رقم (٢٦٤٧)، من حديث علي بن أبي طالب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

﴿فَمَآ أَغْنَتْ عَنْهُمْ ءَالِهَتُهُمُ ٱلَّتِى يَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مِن شَىْءٍ﴾ [هود:١٠١]، لكِنها آلِهة باطِلة.

الْفَائِدَةُ الرَّابِعَةَ عَشْرَةَ: أن المَصير إلى الله عَزَّوَجَلَّ؛ لقَوْله: ﴿إِلَيْهِ ٱلْمَصِيرُ﴾.

الْفَائِدَةُ الخَامِسَةَ عَشْرَةَ: وُجوب التَّحاكُم إلى شريعة الله، تُؤخَذ من قوله: ﴿إِلَيْهِ﴾ حيثُ قدَّم الخبَر، وتَقديم الخبَر يُفيد الحَصْر والاختِصاص.

الْفَائِدَةُ السَّادِسَةَ عَشْرَةَ: الجَمْع بين الخَوْف والرجاء في السَّيْر إلى الله، وجهُ ذلك: أنَّ الإنسان إذا علِم أن المَصير إلى الله، وأنه غافِر الذَّنْب، وقابِلُ التَّوْب، وشَديد العِقاب، يَرجو من وَجْه، ويَخاف من وَجهٍ آخرَ، ما دام المَصيرُ إلى مَن هذا وَصْفه، فإنه لا شَكَّ أنه يَرجو تارةً، ويَخاف أُخرى. وأيُّهما يُغلِّب؟

قال بعض العُلَماء: يَجِب أن يَكون خوفُه ورجاؤُه واحِدًا، لا يُغلِّب الرجاء؛ فيَقَع في الأَمْن من مَكْر الله، ولا يُغلِّب الخوف؛ فيَقَع في القُنوط من رحمة الله، بل يَكون خوفه ورَجاؤُه واحِدًا، قال الإمامُ أحمدُ رحمه الله تعالى: يَنبَغي أن يَكون خوفُه ورَجاؤُه واحِدًا فأيُّهما غلَب هلَك صاحِبه[1].

وقال بعضُهم: يَنبَغي أن يَسير الإنسان إلى الله تعالى سَيْر الطَّيْر، جَناحاه مُتساوِيان، فإن مال أَحَدُ جَناحيه، جنَح إلى الجانِب الذي مال إليه، وقال بعضُ العُلَماء: يَنبَغي في جانب الطاعة أن يُغلِّب جانِب الرجاء، وأن الله تعالى يَقبَلها، وفي جانِب المَعصية أن يُغلِّب جانِب الخوف؛ لئَلَّا يَقَع فيها، فإذا هَمَّ بسيِّئة ذكَر شِدَّة العِقاب فخاف فارْتَدَع، وإذا عمِل صالِحًا ذكَر الثواب والجَزاء وقَبول الله عَزَّوَجَلَّ فغلَّب جانِب الرجاء.

---

(١) انظر: الاختيارات العلمية لابن تيمية [المطبوع مع الفتاوى الكبرى] (٥/ ٣٥٩).

وقال بعض العُلَماء: يَنبَغي أن يُغلِّب جانب الخَوْف في حال الصِّحة، وجانِب الرجاء في حال المَرَض حتى يَأتيَه الموت وهو يُحسِن الظَّنَّ بالله؛ لقول النَّبيِّ ﷺ: «لَا يَمُوتَنَّ أَحَدُكُمْ إِلَّا وَهُوَ يُحْسِنُ الظَّنَّ بِاللهِ»(١).

فالأَقوال إِذَنْ ثلاثة:

الأَوَّل: أن يَكون خوفُه ورجاؤُه واحِدًا.

والثاني: أن يُغلِّب جانب الرَّجاء في العمَل الصالِح، وجانب الخوف إذا هَمَّ بالمعصية.

والثالث: أن يُغلِّب جانِب الرجاء في حال المَرَض، وجانب الخَوْف في حال الصِّحَّة.

هذه ثلاثة أقوال، والذي يَظهَر أنَّ القول بأنه يُغلِّب جانب الرجاء في حالِ فِعْل الطاعة، وجانب الخوف إذا هَمَّ بمَعصية هو أقرَبُ الأقوال، من أَجْل أن يَردَع نَفْسه إذا هَمَّ بمَعصية خوفًا من الله، وأن يُؤمِّل القَبول من الله والثواب إذا فعَل الطاعة فيُغلِّب جانِب الرجاء.

وهذا القول ليس جَديدًا، وهو بقَطْع النظَر عن حالات تَعرِض للإنسان، فكما نَقول: هذا الشيءُ مُباحٌ. وقد يَكون واجِبًا، وقد يَكون حرامًا، فنحن إذا رجَّحنا يَعنِي نَنظُر إلى القول من حيثُ هو قولٌ، لكن قد تَعرِض للإنسان حالات حتى إذا هَمَّ بالمَعصية قد يَكون يُغلِّب جانب الرجاء، أو بالعكس، فالقول من حَيثُ هو

(١) أخرجه مسلم: كتاب الجنة وصفة نعيمها وأهلها، باب الأمر بحسن الظن بالله تعالى عند الموت، رقم (٢٨٧٧)، من حديث جابر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

قولُ القياسُ يَقتَضي أننا نُغلِّب جانِب الرجاء إذا فعَلْنا الطاعة، ونَقول: إن الله تعالى لم يُوفِّقْنا للطاعة إلَّا وسيَقبَلها منا: ﴿ٱدۡعُونِيٓ أَسۡتَجِبۡ لَكُمۡۚ﴾ [غافر:٦٠]؛ ولهذا قال بعض العُلَماء: مَن وُفِّق للدعاء فلْيُبشِر بالإجابة. وإذا همَّ بالمَعْصية فمَعلوم أنه إذا غلَب جانب الخَوْف سوف يَرتَدِع، لكن هناك حالات تَطرَأ على الإنسان شيء آخَرُ، فالحالات العارِضة نَقول فيها: الإنسان طَبيب نَفْسه، أمَّا القول من حيثُ هو قولٌ فهذا القولُ أَقرَبُ للقِياس.

الْفَائِدَةُ السَّابِعَةَ عَشْرَةَ: الحَثُّ على التَّوكُّل على الله، والآية دَليل على الحثِّ على التَّوكُّل على الله؛ لأنه لَمَّا كان المَصير إلى الله، كان يَنبَغي أن يَتعَلَّق الإنسان برَبِّه لا بغيره، ما دام المَصيرُ إلى الله، فتَوكَّل على الله لا على غيره.

الْفَائِدَةُ الثَّامِنَةَ عَشْرَةَ: اللُّجوء إلى الله تعالى عند الشَّدائد، وعند طلَب المَحبوب، تُؤخَذ من قوله: ﴿إِلَيۡهِ ٱلۡمَصِيرُ﴾، فإذا اشتَدَّت بك شِدَّة فلا تَلتَفِت إلى زَيدٍ أو عَمرٍو، عليك بالله عَزَّوَجَلَّ، حتى الشدائِد التي أَسبابها خَفِيَّة لا يَنفَعك إلَّا الله: ﴿وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ ٱلشَّيۡطَٰنِ نَزۡغٞ فَٱسۡتَعِذۡ بِٱللَّهِۖ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡعَلِيمُ﴾ [فُصِّلَت:٣٦].

• • ۞ • •

الآية (٤)

قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿مَا يُجَٰدِلُ فِيٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فَلَا يَغۡرُرۡكَ تَقَلُّبُهُمۡ فِي ٱلۡبِلَٰدِ﴾ [غافر:٤].

ثُمَّ قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿مَا يُجَٰدِلُ فِيٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ [غافر:٤]؛ «ما»: نافِية، و«إلَّا»: أداة حَصْر، والجملة هنا جملة خبَرية حَصْرية، فهي خبَرية لأنها مَنفِيَّة، وحَصْرية لأنه حَصَر الجِدال في الذين كفَروا: ﴿مَا يُجَٰدِلُ فِيٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾، أمَّا الذين آمَنوا فلا يُجادِلون في آيات الله.

والمُجادَلة: المُنازَعة والمُخاصَمة، مَأخوذة من الجَدْل وهو: فَتْل الحَبْل حتى يَشتَدَّ ويَقوَى هكذا، هذا أَصْل الجَدْل: المُنازَعة، وهي مَأخوذة من الجَدْل أي: فَتْل الحَبْل؛ لأن كلَّ واحِد من المُتنازِعَيْن كأنَّما يَفتِل حَبْلًا لمُنازِعه، فيَكون ذلك أشَدَّ في الإحكام.

وقوله: ﴿فِيٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ﴾ قال المفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [القرآن]، ويَنبَغي أن نُفسِّر الآياتِ بما هو أعَمُّ، وهذا الذي فسَّر المفَسِّر به الآياتِ يُعتبَر قُصورًا، ولا يَنبَغي أن نُفسِّر العامَّ بأَخصَّ منه إلَّا إذا دلَّتْ قَرينة قوية على ذلك، وهنا لا دَلالةَ، فالمُنازِعون في آيات الله منهم مَن يُنازِع في القرآن، ومِنهم مَن يُنازِع في السُّنَّة، ومِنهم مَن يُنازِع في الخَلْق.

فمثَلًا: الكسوف من آيات الله، وخُسوف القمَر من آيات الله، ومن الناس

مَن يُجادِل فيه، ويَقول: ليس هذا من باب تَخويف العِباد، وأيُّ رابِطة بين هذا وبَيْن التخويف، وسبَبه طبيعيٌّ مَعلوم يُدرَك بالحِساب؟! فيُجادِل في شَرْع الله، وفي آيات الله، فيَقول مثَلًا: لماذا كان كذا، وكان في مَوْضِع آخَرَ كذا وكذا؟ كقِصَّة المَعَرِّيِّ الذي جادَل في كون اليَدِ تُقطَع في ربُع دِينار ودِيَتُها خَمسُ مِئة دِينار[1]، وكقول بعضِهم: لماذا يَنتَقِض الوُضوء بالريح من أسفَلُ، ولا يَنتَقِض بالرِّيح من أَعْلى؟ والريح من أَعْلى هو: الجُشاء، وما أَشبَه ذلك من المُجادلات في الآيات الشرعية!.

ومِنهم مَن يُجادِل في القُرآن، يَقول: القُرآن فيه تَناقُض! قال الله تعالى: ﴿ثُمَّ لَمۡ تَكُن فِتۡنَتُهُمۡ إِلَّآ أَن قَالُواْ وَٱللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشۡرِكِينَ﴾ [الأنعام:٢٣]، وقال في آية أُخرى: ﴿وَلَا يَكۡتُمُونَ ٱللَّهَ حَدِيثٗا﴾ [النساء:٤٢] هذا تَناقُض! فيُجادِل.

فالمُهِمُّ: أن الجَدَل يَكون في الآيات الشرعية الثابِتة في القُرآن والسُّنَّة، ويَكون أيضًا في الآيات الكونية، فيَنبَغي أن نُفسِّر الآياتِ بما هو أَعَمُّ مِمَّا ذكَر المفَسِّر، فنَقول: ﴿مَا يُجَٰدِلُ فِيٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ﴾ الكَوْنية أو الشَّرْعية ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾، وأمَّا المُؤمِنون فلا يُجادِلون، المُؤمِنون يَقولون: ﴿ءَامَنَّا بِهِۦ كُلّٞ مِّنۡ عِندِ رَبِّنَا﴾ [آل عمران:٧] ولا يُجادِلون، عرَفْنا ذلك من كَوْنه حَصَر المُجادَلة في الذين كفَروا.

قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ من أهل مَكَّةَ] وهذا تَخصيص آخَرُ، فالله عَزَّوَجَلَّ يَقول: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ والمفَسِّر يَقول: من أهل مكَّةَ، سُبحانَ الله! القُرآن يُعمِّم، ونحن نَخُصُّ، فهذا خطَأ وقُصور في التَّفْسير، فنَقول: ﴿فِيٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ﴾ أعَمُّ من القُرآن، ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ أعمُّ من أهل مكَّةَ، فالذي يُجادِل في آيات الله: الذين كفَروا من أهل مكَّةَ ومن غير أَهْل مكَّةَ، من أهل المَدينة، من أَهْل الطائِف، من أهل جُدَّةَ،

(١) انظر: شرح اللزوميات لأبي العلاء المعري (٢/ ٢٠٣)، والذخيرة للقرافي (١٢/ ١٨٥).

من أهل القَصيم، مِن كل مَكان، كلُّهم يُجادِلون في آيات الله، إذا كانوا كُفَّارًا.

فإن قال قائِل: كيف تَجمَع بين هذه الآيةِ وبين قوله تعالى: ﴿وَجَٰدِلۡهُم بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُ﴾ [النحل:١٢٥] فأمَرَ بالمُجادَلة؟ هنا أَمَر: ﴿وَجَٰدِلۡهُم﴾ وهنا قال: ﴿مَا يُجَٰدِلُ فِيٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ ؟

فالجوابُ: مُجادَلة الكُفَّار تَكون بالباطِل لإِبْطال الحَقِّ، أمَّا الذين آمَنوا فمُجادَلتهم تَكون لبيان الحَقِّ. إِذَنِ: المُجادَلة هنا غيرُ المُجادَلة هناك.

قوله تعالى: ﴿فَلَا يَغۡرُرۡكَ تَقَلُّبُهُمۡ فِي ٱلۡبِلَٰدِ﴾ الفاء: للتَّفْريع على ما سبَق، والخِطاب في قوله: ﴿فَلَا يَغۡرُرۡكَ﴾ إمَّا للنَّبيِّ ﷺ؛ لأنه الذي نـزَلَ عليه القُرآن، وإمَّا لعُموم المُخاطَبين؛ لأن القُرآن نزَل للجميع، وأَوْلاهما الثاني؛ لأنَّ القاعِدة التَّفْسيرية عِندنا: أنه إذا دار الأَمْر بين كون المَعنَى عامًّا أو خاصًّا؛ فإنَّه يُحمَل على العامِّ؛ لأن الخاصَّ يَدخُل في العامِّ ولا عَكْسَ.

إِذَنْ: فلا يَغرُرْك أيُّها المُخاطَب، وأوَّل مَن يَدخُل في ذلك الرسولُ ﷺ، و﴿يَغۡرُرۡكَ﴾ يَعنِي: لا يَخدَعك، ولا تَغترَّ به.

وقوله تعالى: ﴿تَقَلُّبُهُمۡ فِي ٱلۡبِلَٰدِ﴾ التَّقلُّب هو: التَّردُّد من شيء إلى شيء، ومنه تَقلُّب الإنسان في فِراشِه من جَنْب إلى جَنْب، المعنى: لا يَغُرك تَردُّدهم في البلاد يَمينًا وشِمالًا، وشَرْقًا وغَرْبًا، للتِّجارة ولغير التِّجارة.

قال المفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿فَلَا يَغۡرُرۡكَ تَقَلُّبُهُمۡ فِي ٱلۡبِلَٰدِ﴾ للمَعاش سالِمين فإن عاقِبَتهم النار]، ولكن لو قال: فإنَّ عاقِبَتهم البوارُ لكان أحسَنَ؛ لأنَّ الله تعالى ضَرَبَ مثَلًا بمَن كان على حالهم بأنَّ الله أَهلَكَهم، فقال: ﴿كَذَّبَتۡ قَبۡلَهُمۡ قَوۡمُ نُوحٖ﴾ إلى آخِره.

من فوائدِ الآيةِ الكريمةِ:

الْفَائِدَةُ الأُولَى: أنَّ الكُفَّار يُجادِلون في آيات الله، لقوله تعالى: ﴿مَا يُجَٰدِلُ فِيٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾.

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَةُ: حِرْص الكُفَّار على إبطال الحَقِّ بالمُجادَلة والمُجالَدة، فالمُجادَلة كما في الآية، والمُجالَدة: إذا عجَزوا عن إبطال الحَقِّ بالجَدَل أَبطَلوه بالقِتال، كما في آيات أُخرى.

الْفَائِدَةُ الثَّالِثَةُ: الحَذَر من مُجادَلة الكُفَّار، إذا كانَ ليسَ عِند الإنسانِ سِلاح، أي: لا تَدخُل مع الكُفَّار في جدَل إذا لم يَكُن لدَيْك سِلاح؛ لأنك سَوْف تُهزَم، وهَزيمتك ليسَتْ هَزيمة شَخْصية لكنها هَزيمة للإسلام.

الْفَائِدَةُ الرَّابِعَةُ: أنَّه يَنبَغي لنا أن نَعرِف مَعايِب الكُفَّار وأقوالهم حتى يُمكِننا أن نُجادِلهم؛ لأنَّ الجَدَل كما قلنا فيما سبَق: المُنازَعة، كل واحد يُنازِع الآخَر ليَفتِل كلامه أمامَه حتى يَشتَدَّ عليه، فلا بُدَّ أن تَعرِف ما هم عليه من الباطِل من أَجْل أن تُحاجَّهم فيه، يَعنِي: لا يَكفِي في مُجادَلة الكُفَّار أن تعرِف الحقَّ الذي أَنْت عليه، بل لا بُدَّ أن تَعرِف الباطِل الذي هَمَّ عليه.

والله عَزَّوَجَلَّ يُجادِل الكُفَّار بمِثْل هـذا يَقول: ﴿ءَآللَّهُ أَذِنَ لَكُمْۖ أَمْ عَلَى ٱللَّهِ تَفْتَرُونَ﴾ [يونس:٥٩] والآياتُ في هذا كثيرة، اعْرِفْ ما عند عَدوِّك من الباطِل من أَجْل أن تَدْحَض حُجَّته.

فإن قال قائِل: كَيفَ نَجمَع بين هذه الآيةِ الكَريمةِ التي ذكَر الله فيها أنه لا يُجادِل في الآيات إلَّا الكُفَّار، وبيَّنَ قول الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿ ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ وَٱلْمَوْعِظَةِ

﴿ٱلْحَسَنَةِ وَجَـٰدِلْهُم بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ﴾ [النحل:١٢٥] فأَمَر بالجِدال مع أنه في هذه الآيةِ ذَمَّ الجِدال، وقال: إنه لا يُجادِل إلَّا الكُفَّار؟

فالجوابُ على هذا سَهْل: أن المُجادَلة التي أُمِرنا بها هي المُجادَلة لإِبْطال الباطِل، وإحقاق الحَقِّ، أمَّا الكُفَّار فإنَّهم يُجادِلون لإِبْطال الحقِّ وإحقاق الباطِل.. عَكْس ما أُمِرنا به.

الْفَائِدَةُ الخَامِسَةُ: أنَّ الله تعالى يُملِي للكُفَّار ويُمهِلهم، ويُمكِّنهم من التَّقلُّب في البلاد حيث شاؤُوا؛ لقوله: ﴿تَقَلُّبُهُمْ فِى ٱلْبِلَـٰدِ﴾.

الْفَائِدَةُ السَّادِسَةُ: تَحذيرُ المُؤمِن أن يَغتَرَّ بما أَنعَمَ الله به على هـؤلاء الكُفَّار من التَّقلُّب في الدُّنيا حيث شاؤُوا؛ لقوله: ﴿فَلَا يَغْرُرْكَ تَقَلُّبُهُمْ فِى ٱلْبِلَـٰدِ﴾.

الْفَائِدَةُ السَّابِعَةُ: بَيانُ سفَه أُولئِك الذين أُغْروا واغتَرُّوا بالكُفَّار، بيان سفَهِهم في العُقول وضَلالهم في الدِّين، فإنَّ بعض المُسلِمين ضُعَفاء الإيمان انبَهَروا ممَّا عليه الكُفَّار، وظَنُّوا أن ما هم عليه من تَحلُّل الأخلاق، وفَساد العقائِد والكُفْر، هو الذي أَوجَب أن يَكونوا على هذا المُستَوى من التَّقدُّم المادِّيِّ، فانبَهَروا بذلك، وانفَلَتوا من الدِّين، وضيَّعوا مِشْيتهم ومِشْية الحَمامة.. صاروا كالغُراب، يَقولون: إن الغُراب أعجَبَه مِشْيةُ الحَمامة -ومَعروف الفَرْق بين مِشْية الحَمامة ومِشية الغُراب-، فقال: سأَمشِي مثل مِشْية الحَمامة. فأَراد أن يَفعَل ولم يُدرِك شَيْئًا، أَراد أن يَعود إلى مِشْيته الأُولى، فعجَز أن يَعرِفها، فضَيَّع المِشْية الأُولى والثانية!.

وهؤلاء المَساكينُ الذين انبَهَروا بما عليه الكُفَّار من القوة المادِّيَّة، وما زُخرِف لهم من الدُّنيا، ضيَّعوا دِينَهم ولم يَصِلوا إلى ما عليه هؤلاءِ من الدنيا، وقد قال الله

تعالى لنبيِّه: ﴿وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّنْهُمْ زَهْرَةَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ ۚ وَرِزْقُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ﴾ [طه:١٣١].

الْفَائِدَةُ الثَّامِنَةُ: أنَّه مَهما طال الأمَدُ بهَؤلاء الكُفَّار، فإن مَآلَهم الهلاك والبَوار، وانظُروا الآنَ: كلُّ الكُفَّار السابِقين ذهَبوا إلى النار؛ لأنَّنا نَشهَد بالله أنَّ كلَّ كافِر في النار، فهَؤلاءِ الذين ماتوا على الكُفْر انتقَلوا من الدنيا التي جُعِلت لهم جَنَّة إلى النار، والعِياذُ بالله.

وقد كان ابن حجَرٍ العَسقلانيِّ كان قاضِيَ القُضاة في مِصرَ -يَعنِي: كبير القُضاة- وكان إذا مشَى يَمشِي على عرَبة تَجُرُّها الخُيول أو البِغال في مَوكِب، فمَرَّ ذات يوم بيَهودي سَمَّان -يَعنِي: يَصنَع السَّمْن- أو زَيَّات -ومعلومٌ أنَّ الزَّيَّات والسَّمَّان تَكون ثِيابُه مُلوَّثة بالزيت وأحواله سَيِّئة- فأَشار إلى المَوكِب فوقَف، فقال لابن حجَرٍ: إنَّ نَبيَّكم يَقول: «إِنَّ الدُّنْيَا سِجْنُ الْمُؤْمِنِ وَجَنَّةُ الْكَافِرِ»[1]، وكيف يَتَّفِق هذا القولُ مع حالي وحالِك، فأنت الآنَ مُسلِم وفي هذه الرَّفاهية، وفي هذا المَوكِبِ العَظيم، وهو يَهودِيٌّ وتَعِسٌ، في زيت أو سَمْن يُلوِّث ثِيابه ويَدَيْه وكل شيء، فقال له ابنُ حجَرٍ رحمه الله تعالى: «نعَمْ، لكن ما أَنتَ فيه من البُؤْس هو جَنَّة بالنِّسبة لما ستَؤُول إليه إذا مِتَّ». لأنه إذا مات يَكون في النار، فهذا جَنَّة بالنِّسبة للنار، «وأمَّا أنا فنَعيمي هذا بالنِّسْبة للجَنَّة يُعتبَر سِجْنًا»؛ لأن نَعيم الجَنَّة أعلى بكثير من هذا، فقال اليَهوديُّ: أَشهَد أن لا إلَهَ إلَّا الله، وأن مُحمَّدًا رسول الله[2]، سُبحانَ الله! تَبيَّن له الأمر بكلِمة بَسيطة.

---

(١) أخرجه مسلم: كتاب الزهد والرقائق، رقم (٢٩٥٦)، من حديث أبي هريرة رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ.

(٢) ذكر هذه القصة المناوي في فيض القدير شرح الجامع الصغير (٣/ ٥٤٦).

فأَقول: إن هَؤلاءِ الكُفَّارَ مَهما زُيِّنَت لهم الدُّنيا، فإنهم -والعِياذ بالله- سيَؤُولون إلى عَذاب، وكما نَعلَم جميعًا أنَّ الإنسان إذا آلَ إلى عَذاب بعد النَّعيم صار العَذاب عليه أشَدَّ، لكن لوِ انتَقَل من عَذاب إلى عَذاب صار أَهوَنَ، أمَّا من نعيم إلى عَذاب فصَعْبٌ جِدًّا، ﴿فَلَا يَغْرُرْكَ تَقَلُّبُهُمْ فِي ٱلْبِلَـٰدِ﴾.

إِذَنْ: هؤلاءِ الكُفَّارُ الذين يَذهَبون ويَجيئُون كل هؤلاءِ لا يَغُرَّنكم، لا سِيَّما إذا كان تَردُّدهم في البلاد استِكْبارًا في الأرض ومَكْر السَّيِّئ، وعُلوًّا على الخَلْق، وزعمًا منهم أنهم سيُدبِّرون الناس، وسيَسُنُّون نِظامًا عالَمِيًّا كما يَقولون، فإننا نَعلَم أن مَآلَهم الفَشَل إذا نحن صدَّقنا الله، إذا نحن صدَّقْنا الله فإن كَيْدَهم لا يَضُرُّنا: ﴿إِنَّهُمْ يَكِيدُونَ كَيْدًا ﴿١٥﴾ وَأَكِيدُ كَيْدًا﴾ [الطارق:١٥-١٦] يَعنِي: كيدًا أعظَمَ، ومَعلوم أنَّ الكَيْد الواقِع من الله أشَدُّ من الكَيْد الواقِع من البَشَر.

مسألة: بعض الناس يَقول: لا يَجوز للإنسان أن يَقول: إن الكُفَّار كلهم في النار، نَقول: الذي بلَغَته الدَّعوةُ نَشهَد أنه في النار، والذي لم تَبلُغه الدَّعوةُ لا نَشهَد له؟

فالجوابُ: لا، بل نَقول: كلُّ كافِر في النار، لكن مَن لم تَبلُغه الدَّعوةُ فلا نَجزِم له بجَنَّة ولا نار؛ لأنه لم يَصدُق عليه أنه كافِر إلى الآنَ، ونَقول: أَمْره إلى الله يوم القِيامة، وهذا بخِلاف الذي يَنتَسِب للإسلام، وفعَل ما يُكفِّر جاهِلًا فقد سبَقَ لنا القول في هذه المَسأَلةِ، وذكَرْنا لكم أن شَيْخ الإسلام رَحِمَهُ اللَّهُ لَمَّا ناظَر الجَهْمية وبيَّن لهم الحَقَّ، وأَصَرُّوا على ما هم عليه قال: «أَنَا أَعْلَمُ لَو أَنَّني لو قلتُ بما تَقولون لكنتُ كافِرًا، وأمَّا أنتُم فلَسْتُم كفَّارًا عندي لأَنَّكم مُتأَوِّلون»[1] هذا وهو يُناظِر الجَهْمية ويُبيِّن لهم الحَقَّ، ذكَر هذا في كِتاب الاستِغاثة.

---

(١) انظر: بيان تلبيس الجهمية في تأسيس بدعهم الكلامية (١/ ١٠).

وهذا يَدُلُّ على مَسألة يَشتَدُّ فيها بعض الناس اليوم في مَسألة فِعْل ما يُكفِّر، حيث يُكفِّرون الناس مُطلَقًا بلا بَيِّنةٍ، والمَسأَلة هذه كما قُلْنا فيما سبَق خَطيرة، فالآنَ شيخ الإسلام رَحِمَهُ ٱللَّهُ يَقول: أنا أَعلَم أنني لو قلتُ بقَوْلكم لكُنْت كافِرًا؛ لأني أَعلَمُ أن هذا خِلاف الحَقِّ، أمَّا أنتم فلَسْتم تَكفُرون عِندي لأنَّكم مُتأَوِّلون؛ وهُمْ جَهمية، مع أن إطلاق الكُفْر على الجَهْمية عُمومًا جاء ذلك عن الإمام أحمدَ وغيرِه، وكما نقَلْتُ لكم أيضًا عن الشيخِ مُحمَّدِ بنِ عبدِ الوهَّاب رَحِمَهُ ٱللَّهُ أنه قال: «إنَّنا لا نُكفِّر الذين اتَّخَذوا صنَمًا على قَبْر البَدَويِّ وعبد القادِر؛ لجَهْلهم وعدَم مَن يُنبِّههم»[1].

وقد كان كثيرٌ من الناس أو من طلَبة العِلْم يُفرِّقون بين الأصل والفَرْع، فيَقولون: الفَرْع يُعذَر فيه بالجَهْل، والأَصْل لا يُعذَر، فهذا ليس بصحيح، أوَّلًا أن تَقسيم الدِّين إلى أصل وفَرْع يَقول شيخ الإسلام[2]: هذا بِدْعة، ليس في القُرآن ولا في السُّنَّة تَقسيم الدِّين إلى أَصْل وفَرْع، وإنما حَدَث هذا من كلام المُتكلِّمين بعد القُرون المُفضَّلة، قسَّموا الدِّين إلى أَصْل وفَرْع، وقال: إن هذا التَّقسيم يَنتَقِض بأن الصلاة عندهم فَرْع، وهي من أصل الأصول، وبأن بعض المَسائِل التي فيها الخِلاف فيما يُسمُّونه أصولًا لا يُكفَّر المُخالِف فيه، كما تقدم في الصِّراط، وفي المِيزان، وفي عذاب القَبْر، وفي رُؤْية النَّبيِّ ﷺ ربَّه، كل هذه مِمَّا يُسمُّونه أصولًا، ومع ذلك ففيها الخِلاف، وإن كان الخِلاف في الأصل لم يَرِد، لكن فُروع الأصول فيها الخِلاف، فهذه المَسائِلُ يَنبَغي لطالِب العِلْم أن يُحرِّر فيها القول قبل أن يَحكُم على عِباد الله بما لم يَجعَله الله له.

• • ۞ • •

---

(١) انظر: الدرر السنية في الأجوبة النجدية (١/ ١٠٤).

(٢) انظر: مجموع الفتاوى (٢٣/ ٣٤٦).

الآية (٥)

۞ قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَٱلْأَحْزَابُ مِنۢ بَعْدِهِمْ ۖ وَهَمَّتْ كُلُّ أُمَّةٍۭ بِرَسُولِهِمْ لِيَأْخُذُوهُ ۖ وَجَٰدَلُوا۟ بِٱلْبَٰطِلِ لِيُدْحِضُوا۟ بِهِ ٱلْحَقَّ فَأَخَذْتُهُمْ ۖ فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ﴾ [غافر:٥].

قال الله تَبَارَكَ وَتَعَالَى: ﴿كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ﴾ [غافر:٥] هذا كالتَّعليل لقوله: ﴿فَلَا يَغْرُرْكَ تَقَلُّبُهُمْ فِى ٱلْبِلَٰدِ﴾ [غافر:٤] يعني: فلْيَنظُر عاقِبة مَن كان قَبلَهم حين كذَّبوا.

وقوله: ﴿قَبْلَهُمْ﴾ الضمير يَعود على الذين كذَّبوا النَّبيَّ ﷺ.

وقوله: ﴿قَوْمُ نُوحٍ وَٱلْأَحْزَابُ مِنۢ بَعْدِهِمْ﴾ نوح عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ هو أوَّلُ رسول أَرسَله الله تعالى إلى أهل الأرض بعد أنِ اختلَفوا، ﴿فَبَعَثَ ٱللَّهُ ٱلنَّبِيِّۦنَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ وَأَنزَلَ مَعَهُمُ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ ٱلنَّاسِ فِيمَا ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ﴾ [البقرة:٢١٣]، ونوح بُعِثَ إلى أهل الأرض؛ لأنَّ أهل الأرض كانوا هم قَوْمَه، أمَّا حين تَعدَّدتِ الأقوام فقد كان الرسولُ لا يُبعَث إلَّا إلى قومه خاصَّةً، كما ثبَت ذلك عن النبيِّ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ(١).

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب الصلاة، باب قول النبي ﷺ: «جعلت لي الأرض مسجدًا وطهورًا»، رقم (٤٣٨)، ومسلم: كتاب المساجد، باب جعلت لي الأرض مسجدًا وطهورًا، رقم (٥٢١)، من حديث جابر رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ.

فإن قال قائِل: ما هو الدَّليل على أن الذين ذُكِروا من الأنبياء في القُرآن كلُّهم رُسُل؟

فالجوابُ: الدليلُ قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِّن قَبْلِكَ مِنْهُم مَّن قَصَصْنَا عَلَيْكَ﴾ [غافر:٧٨]، فكُلُّ مَن قصَّه الله علينا فهو رَسولٌ.

فإن قال قائِل: هل يُوجَد دَليل على عدَد الأنبياء والرُّسُل؟

فالجَوابُ: في حديث أبي ذَرٍّ أنهم كانوا مئة وعِشْرين ألفًا مِنهم ثلاثُ مِئة وبِضعةَ عشَرَ رَسولًا والباقي أنبياءُ، لكن الحَديث بعض العُلَماء قالوا: إنه غير صَحيحٍ. وإن كان ابنُ حِبَّانَ صحَّحه[1]، فالله أَعلَمُ. ليس هناك شيء يركَن إليه الإنسانُ في العَقيدة بأن عدَدهم كذا أو كذا، لا الأنبياء ولا الرُّسُل.

وقوله: ﴿وَالْأَحْزَابُ﴾ جمع حِزْب وهي الطائِفة، يَعنِي: الطوائِف، ﴿مِنْ بَعْدِهِمْ﴾ أي: من بعد قَوْم نوحٍ.

يَقول المفَسِّر رَحِمَهُ اللَّهُ: [كعادٍ وثَمودَ وغيرِهما] فماذا أَغنَى عنهم التَّكذيب، يَقول الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿فَأَخَذْتُهُمْ﴾.

وقوله: ﴿وَهَمَّتْ كُلُّ أُمَّةٍ بِرَسُولِهِمْ لِيَأْخُذُوهُ﴾ يَعنِي: كلُّ أمَّة همَّت برَسولهم، أي: بالَّذي أُرسِل إليهم، ﴿لِيَأْخُذُوهُ﴾ هذه مُتعلِّقة بـ﴿وَهَمَّتْ﴾، أي: همُّوا ليَقتُلوه، واللَّام هنا بمعنَى الباء؛ أي: بأن يَأخُذوه فيَقتُلوه، ومنهم مَن قتَلهم بالفِعْل مَن قتَل النَّبيِّين بغير حَقٍّ.

وقوله: ﴿وَجَادَلُوا بِالْبَاطِلِ لِيُدْحِضُوا بِهِ الْحَقَّ﴾ هذه تُفسِّر مَعنى الجِدال فيما

---

(١) أخرجه ابن حبان رقم (٣٦١).

سبَق في قوله: ﴿مَا يُجَـٰدِلُ فِىٓ ءَايَـٰتِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ فجادَلوا بالباطِـل؛ أي: جعَلوا الباطل سِلاحًا لهم ﴿لِيُدْحِضُوا۟﴾ [يُزيلوا] به الحقَّ، فكانوا يَأتون بالباطِـل يَحتَجُّون به على الحَقِّ لإِدْحاضه.

واعلَمْ أن الذين يَأتون بالباطِل ليَدحَضوا به الحقَّ لا يَأتون بالباطِل على وَجْهه، بل يُزخْرِفون القول له كما قال تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِىٍّ عَدُوًّا شَيَـٰطِينَ ٱلْإِنسِ وَٱلْجِنِّ يُوحِى بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ زُخْرُفَ ٱلْقَوْلِ غُرُورًا﴾ [الأنعام:١١٢]، ولهذا تَجِد الذين يُجادِلون بالباطِل يَأتون بعِبارات إذا رآها الإنسان ظنَّها حقًّا، كأنها السراب للظَّمْآن ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَهُۥ لَمْ يَجِدْهُ شَيْـًٔا وَوَجَدَ ٱللَّهَ عِندَهُۥ فَوَفَّىٰهُ حِسَابَهُۥ﴾ [النور:٣٩].

وكما قال بعضُهم:

حُجَجٌ تَهافَتُ كالزُّجاجِ تَخالُها حَقًّا وكُلٌّ كاسِرٌ مَكْسُورُ[(١)]

فهم يَأتون بزُخْرف القول، الزُّخْرف يَعنِي: القول المُنمَّق المُحسَّن المُزيَّن لأَجْل إِدْحاض الحقِّ.

قال الله تعالى: ﴿فَأَخَذْتُهُمْ﴾ الفاء هنا للسَّببية؛ أي: فبسبَب ما قاموا به من المُجادَلة بالباطِل والتَّكذيب أَخذْتُهم، والضمير الفاعِل يَعود على الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، والمَفعول يَعود على هَؤُلاءِ المُكذِّبين.

فقوله: ﴿فَأَخَذْتُهُمْ﴾ قال المفسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [بالعِقاب] ﴿فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ﴾ فسَّر المفسِّر الأَخْذ هنا بالعِقاب لقوله: ﴿فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ﴾ أي: مُعاقَبَتي لهم، وكيف هنا للتَّعجُّب وللتَّقرير وللتَّعْظيم أيضًا، أي: فكان عِقابي عَظيمًا في كيفيَّتِه، وفي وقوعه

---

(١) عزاه شيخ الإسلام ابن تيمية في مجموع الفتاوى (٤/ ٢٨) للخطابي.

مَوْقعه، وفي شِدَّته، فإنَّه عَذاب لم يُبقِ أحدًا منهم، وعلى هذا فالاستِفْهام له عِدَّة مَعانٍ يُعيِّنها السِّياق.

فإن قال قائل: ما الفرق بين الأخذ في قوله: ﴿وَهَمَّتْ كُلُّ أُمَّةٍ بِرَسُولِهِمْ لِيَأْخُذُوهُ﴾ وقوله: ﴿فَأَخَذْتُهُمْ﴾ ؟

فالجواب: الأَخْذُ يَأتِي بقَرينة، مِثل قوله: ﴿فَأَخَذْتُهُمْ﴾ أي أَهْلَكْتهم، أمَّا أَخْذهُم هُم للأنبياء فقد يَكون يَأْخُذونهم ليَحبِسوهم، كقوله: ﴿وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ﴾ [الأنفال:٣٠]، يُثبِتوك يَعني: يَحبِسونك، فتكون ثابتًا في مَكان لا تَتعدَّاه، أو يَقتُلوك، أو يُخرِجوك من البلَد؛ لقوله تعالى: ﴿وَيَقْتُلُونَ الْأَنْبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ﴾ [آل عمران:١١٢]، ولقوله: ﴿فَأَخَذْتُهُمْ﴾ فيَكون إهلاكُهم في مُقابِل ما يُريدونه من إهلاك الرُّسُل، الرسول ﷺ لَمَّا همُّوا أن يَقتُلوه أَشار عليهم الشيخُ النَّجديُّ قال: لا يُمكِن أن تَقتُلوا قُرشيًّا، إلَّا أن يكون عشَرة شُبَّان أقوياءَ وأَعطَوْا كلَّ واحد منهم سيفًا، فإذا خرَج مُحمَّد فلْيَقتُلوه ضربة رجُل واحِد، حتى يَتفرَّق دمُه في القبائِل فلا تَستَطيع قُرَيْش أن تُطالِب به، فيَخضَعوا لأَخْذ الدِّيَة[1]. إِذَنْ همُّوا بقَتْله، واليَهود همُّوا بقَتْله في قِصَّة بني النضير[2].

وقوله: ﴿عِقَابِ﴾ قد يُشكِل على الناظِر لأَوَّل وَهْلة كيف كان مجرورًا مع أنَّه مُبتَدأ أو خبر مُبتَدأ، فيُقال: إنه ليس بمَجرور، وأن الأصل عِقابي، فحُذِفَت الياء تَخفيفًا والكَسْرة قبلها دَليلٌ عليها.

قال المفَسِّر رَحِمَهُ اللَّهُ: [أي: هو واقِع مَوْقِعه] وهذا بِناءً على أنَّ الاستِفهام تَقريريٌّ،

(١) انظر: سيرة ابن هشام (١/ ٤٨٢).
(٢) انظر: سيرة ابن هشام (٢/ ١٩٠).

وإذا قلنا: للتَّعظيم يَكون المَعنى: ﴿فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ﴾ أي: فما أَعظَمَ عِقابي، وأَشَدَّه حيث أَزالَهم عن آخِرهم!.

من فوائدِ الآيةِ الكريمةِ:

الْفَائِدَةُ الأُولَى: أن الله تعالى أَعذَر إلى الخَلْق بإِرْسال الرُّسُل مُبشِّرين ومُنذِرين؛ لئَلَّا يَكون للناس على الله حُجَّة بعد الرُّسُل؛ لقوله: ﴿كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ﴾، وهذا يَدُلُّ على أن هناك قَوْلًا قاله الأنبياء فكذَّبه هَؤلاءِ.

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَةُ: أن نُوحًا هو أوَّلُ الرُّسُـل؛ لقوله: ﴿وَالْأَحْزَابُ مِنْ بَعْدِهِمْ﴾، فجعَلَ الأحزاب المُكذِّبين كلهم من بعد قوم نُوحٍ، وهذا يَدُلُّ على أَنَّ نوحًا هو أَوَّلُ الرُّسُل، وهذا أمر مَعلوم مُتقرِّر في عِدَّة آيات وفي الأحاديث أيضًا، وبه نَعلَم أن مَن زعَم أن إدريسَ قبل نُوحٍ فإنه خاطِئ، ولا وَجهَ لقوله.

الْفَائِدَةُ الثَّالِثَةُ: بَيانُ ما تَنطَوِي عليه صُدور المُكذِّبين للرُّسُل من الهَمِّ بقَتْلهم، يَعنِي أنَّ المُكذِّبين للرُّسُل لم يَقتَصِروا على أن يُكذِّبوا فقَطْ، بل همُّوا بالقَتْل، والقَتْل والاغتِيال وما أَشبَهَ ذلك هو سِلاح العاجِز، وكذلك السَّجْن هو سِلاح العاجِز؛ ولهذا قال فِرعونُ لمُوسى عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: ﴿لَأَجْعَلَنَّكَ مِنَ الْمَسْجُونِينَ﴾ [الشعراء:٢٩]، وقال أبو إبراهيمَ (آزَرُ): ﴿لَئِن لَّمْ تَنتَهِ لَأَرْجُمَنَّكَ﴾ [مريم:٤٦].

فالسَّجْن والقَتْل والاغتِيال والسَّبُّ والشَّتْم كله سِلاح العاجِز؛ لأنَّ القادِر على دَفْع الحُجَّة هو الذي يَدفَع الحُجَّة بمِثْلها بحُجَّة، أمَّا أن يَستَعمِل سُلْطته فهذا يَدُلُّ على عَجْزه.

الْفَائِدَةُ الرَّابِعَةُ: إثبات الأسباب؛ لقـوله: ﴿فَأَخَذْتُهُمْ﴾؛ لأنَّ الفاء للسَّببيـة،

وإثبات الأسباب حَقٌّ، وهو مُقتَضى حِكْمة الله عَزَّوَجَلَّ أن كل شيء له سبَب، فالإنسان لا يُولَد له مثَلًا إلَّا بسبَب إذا تَزوَّج وجامَعَ وأَنزَل وُلِد له، فالله عَزَّوَجَلَّ قَرَن المُسبَّبات بأَسْبابها، وهو مُقتَضى الحِكْمة.

والناس في الأسباب ثلاثة أقسام: طرَفان ووسَط.

فقِسْم أَنكَر الأسباب، وقال لا تَأثيرَ لها، وما يَحصُل بالسبَب فإنه حاصِل عِنده لا به، والسَّبَب أَمَارة على حُلول وقت الحادِث، وعَلامة فقَطْ على حُصول الحادِث، أو على حُلول وقته، فانكِسار الزُّجاجة بالحَجْر إذا أُرسِل عليها ليس هو الذي كسَرَها، لكن الله قدَّر انكِسارها عند وجود الصَّدْمة فقَطْ وليس للحجَر أيُّ تَأثير! فالأشياء تَحصُل عند الأسباب بغَيْر الأسباب، لكن السبَب جعَله الله أَمارة وعَلامة على حُلول وقت الحادِث؛ ولهذا يَقولون: لو أنَّ أحَدًا أَثبَت تأثير الأسباب لكان مُشرِكًا؛ لأنه أَثبَت مع الله خالِقًا فاعِلًا.

والقِسْم الثاني، الطرَف الثاني يَقول: بل الأَسْباب ثابِت تَأْثيرها، وهي مُؤثِّرة بنَفْسها؛ لأنها هي القُوَّة الفاعِلة، ولا عَلاقةَ لله بها، وهذا يُشبِه مَذهَب القدَرية وهو قول الفَلاسِفة، يَقولون: هكذا المَسأَلة طبائِعُ، من طَبيعة هذا الشيءِ أن يَحدُث به هذا الشيءُ، وهذا لا شَكَّ أنه خطَأ، وأنه نَوْع من الشِّرْك.

والقِسْم الثالِث: وسَط يَقول: إن للأَسباب تَأثيرًا، ولكن لا بنَفْسها، بل بما أَودَع الله فيها من القُوَّة المُؤثِّرة، وهذا الذي دَلَّ عليه المَنقول والمَعقول وهو الحَقُّ.

والرَّدُّ على الطبائِعِيِّين الذين يَقولون: إن الأسباب مُؤثِّرة بطَبيعتها أن الله تعالى قال لنار إبراهيمَ، وهي مُحرِقة، قال لها: ﴿كُونِي بَرْدًا وَسَلَـٰمًا عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ﴾ [الأنبياء:٦٩] فكانت بَرْدًا وسَلامًا، فخرَجت عن طبيعتها.

إِذَنْ: ليسَت الطبائِع قُوَّةً مُؤثِّرةً بنفسها، ولكن بما أَودَع الله فيها من القُوى المُؤثِّرة، والأدِلَّة على تَأثير الأسباب أكثرُ من أن تُحصَى: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى يُرْسِلُ ٱلرِّيَٰحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا﴾ [الروم:٤٨]، ﴿فَأَنزَلْنَا بِهِ ٱلْمَآءَ فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ﴾ [الأعراف:٥٧]، والأَعْمال الصالِحة سبَب للفَوْز، والأعمال السَّيِّئة سبَب للخُسْران وهكذا، فالأسباب ثابِتة شَرْعًا ولا شكَّ في الأمور الحِسِّيَّة والأمور الشرعية، فالآية التي معَنا: ﴿فَأَخَذْتُهُمْ﴾ تُفيد إثبات الأَسْباب وتَأثيرها، ولكن بأَمْر الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

الْفَائِدَةُ الخَامِسَةُ: تَحريم المُجادَلة بالباطِل لإِدْحاض الحقِّ؛ لقوله: ﴿وَجَٰدَلُوا۟ بِٱلْبَٰطِلِ لِيُدْحِضُوا۟ بِهِ ٱلْحَقَّ﴾ [غافر:٥].

ويَتفرَّع على هذا: أن هذه العادةَ من عادات المُكذِّبين للرُّسُل، ومن المُجادَلة بالباطِل لإِدْحاض الحقِّ أن يُجادِل الإنسان للانتِصار لقوله، وهذا يَقَع كثيـرًا في المُتفقِّهة والمُتكلِّمة وغيـرهم، يُجادِلون بالباطِل من أَجْل الانتِصار للقول، كما قال تعالى: ﴿يُجَٰدِلُونَكَ فِى ٱلْحَقِّ بَعْدَ مَا تَبَيَّنَ كَأَنَّمَا يُسَاقُونَ إِلَى ٱلْمَوْتِ وَهُمْ يَنظُرُونَ﴾ [الأنفال:٦]، فمَن جادَل من أَجْل أن يَنصُر قوله لا أن يَنصُر الحقَّ ففيه شبَه من المُكذِّبين للرُّسُل الذين يُجادِلون بالباطِل ليُدحِضوا به الحقَّ.

ثُمَّ إن فيه -أي في الذي يُجادِل لنَصْر قوله فقط- أنه قد عرَّض نفسَه لأمر عظيم جِدًّا، وهو قوله تعالى: ﴿وَنُقَلِّبُ أَفْـِٔدَتَهُمْ وَأَبْصَٰرَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا۟ بِهِۦٓ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَنَذَرُهُمْ فِى طُغْيَٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾ [الأنعام:١١٠]، فإنَّ الإنسان إذا جادَل لنُصْرة قوله فإنه يَكون لم يُؤمِن به أوَّل مرَّة، وحينَئِذٍ يُبتَلى بهذه العاهةِ العَظيمةِ أن الله يُقلِّب فُؤادَه وبصَره حتى لا يُبصِر الحقَّ، ولا يَعِيَ الحقَّ ويَكتُم الحقَّ؛ لأنه لم يُؤمِن به أوَّل مرَّة.

والواجِب على المُؤمِن قَبول الحقِّ من أوَّل مرَّة، لا يَتردَّد في قَبوله، كما كان

الصَّحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ يفعَلون ذلك إذا قال النَّبيُّ ﷺ هذا حرام؛ امتَثَلوا، وكفُّوا عنه فِعْلًا في الحال، وإذا أَمَرَهم ابتَدَروا أَمْره، وهذا شيءٌ له شَواهِدُ كَثيرة وبذلِك حقَّقوا الإيمان عَقيدة وقَوْلًا وعمَلًا.

الْفَائِدَةُ السَّادِسَةُ: بَيانُ شِدَّة عِقاب الله؛ لقوله: ﴿فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ﴾؛ أي: ما أَعظَمَه! وما أَشدَّه! وما أَحسَنَه؛ لأنه وقَع مَوقِعه!.

الْفَائِدَةُ السَّابِعَةُ: أنه يُخشَى من مُعاجَلة العُقوبة؛ لأنَّ العُقوبة جاءَت بالفاء: ﴿فَأَخَذْتُهُمْ فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ﴾، ولأن المُسبَّب يَكون بعد السبَب مُباشَرة، فالإنسان العاصِي عليه الخطَر من مُعاجَلة الله له بالعُقوبة.

• ● ۞ ● •

الآية (٦)

• ● ◦ ● •

۞ قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَكَذَٰلِكَ حَقَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ عَلَى ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَنَّهُمْ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ﴾ [غافر:٦].

• ● ◦ ● •

قوله: ﴿وَكَذَٰلِكَ﴾: أي مِثْل ذلك الأَمْرِ، وهو وُقوع العِقاب، ﴿حَقَّتْ﴾ وجَبَت ﴿كَلِمَتُ رَبِّكَ عَلَى ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَنَّهُمْ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ﴾.

قال المفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [أي: ﴿لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ﴾ الآيةَ] ﴿لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ أَجْمَعِينَ﴾ [هود:١١٩]، ففسَّر كلمة الله بذلِك، ولكنَّ في هذا نظَرًا واضِحًا؛ لأن الله يَقول: ﴿أَنَّهُمْ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ﴾ هذه الكلِمةُ، وهي قوله: ﴿أَنَّهُمْ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ﴾ أي: حَقَّت كلِمة ربِّك التي ثبتَت أزَلًا أن هؤلاءِ أصحابُ النار.

وقوله: ﴿حَقَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ عَلَى ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ﴾ أي: وجَبَت عليهم، والكلمة هي قوله: ﴿أَنَّهُمْ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ﴾، ولهذا قال المفَسِّر إنها: [بدَل من ﴿كَلِمَتُ﴾] وإذا كانت بدَلًا من ﴿كَلِمَتُ﴾ كيف نَقول: إن الكلِمة هي قوله: ﴿لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ أَجْمَعِينَ﴾، إذا كانت هي البدَلَ، فابنُ مالِكٍ يَقولُ:

التَّابِعُ المَقْصُودُ بِالحُكْمِ بِلَا ... وَاسِطَةٍ هُوَ المُسَمَّى بَدَلَا[1]

(١) الألفية (ص:٤٩).

فقوله: «التابعُ المَقصود بالحُكْم بلا واسِطة» هذا البدَلُ.

إِذَنْ: فالمَقصود بالحُكْم المَقْصود بقوله: ﴿كَلِمَتُ رَبِّكَ﴾ هو قوله: ﴿أَنَّهُمْ أَصْحَـٰبُ ٱلنَّارِ﴾؛ وإذا وَجَدْت في القرآن أصحاب النار فالمُراد بها أصحابها المُخلَّدون؛ لأن الصُّحْبة تَقتَضي المُلازَمة، ولا يُمكِن أن تكون أصحاب النار لَمِن تُوعِّدوا بدُخول النار، ثُم يُخرَجون منها، إنما تَكون لَمِن هم أَهْل النار الذين هم أَهْلها وأَصحابُها.

من فوائِدِ الآيةِ الكريمةِ:

الْفَائِدَةُ الأُولَى: إثبات تَقدير الله عَزَّوَجَلَّ الأَشياءَ، أي: إثبات أن الأشياء قد كُتِبَت من قبلُ؛ لقوله: ﴿حَقَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ﴾، وهذا لا يُنافِي إرسال الرُّسُل، ولا يُنافِي الأمر بما أَمَر به، ولا النَّهيَ عمَّا نَهَى الله عنه؛ لأن الله تعالى أَعطَى الإنسان عَقْلًا ورُشْدًا وبَصيرةً يَعرِف كيف يَتصرَّف، فإذا أُرسِلت الرُّسُل مع الفِطْرة الأُولى ثُم عانَد فقَدْ قامت عليه الحُجَّة.

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَةُ: إثبات الكَلام لله عَزَّوَجَلَّ؛ لقوله: ﴿كَلِمَتُ رَبِّكَ﴾، ومن عَقيدة أهل السُّنَّة والجَماعة: أن الله تعالى يَتكلَّم بكلام مَسموع وبحَرْف، يَعنِي أنه يُسمَع ويُفهَم بحُروف مُرتَّبة، فقوله جَلَّوَعَلَا: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ﴾ [غافر:٦٥]، نَعلَم أن الهَمْزة قبل اللَّام، واللَّام قبل الحاء، والحاء قبل الميم، والميم قبل الدال، وهكذا، حُروف مُرتَّبة لم تَأتِ جُملة واحِدة، وإذا كانت مُرتَّبة لزِمَ من ذلك حُدوث الكلِمات؛ لأن ما بعد الأوَّل واقِع بعده فيكون بهذا دَليلًا على حُدوث كلام الله عَزَّوَجَلَّ، وليس المُراد أصلَ الصِّفة؛ لأن أصل الصِّفة أزَليٌّ لم تَكُن حادِثة من قبلُ، فإن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى لم يَزَل بصِفاته، لم يَزَل عليمًا، لم يَزَل مُتكلِّمًا، لم يَزَل سميعًا، لم يَزَل قَديرًا، لكن الصِّفة قد تَحدُث شيئًا فشيئًا باعتِبار آحادها وأفرادها.

أمَّا ما كانت صِفة مَعنَويَّة فالحُدوث ليس لها، ولكن لُتعلَّقها، فسَمْعُ الله عَزَّوَجَلَّ لا نَقول: إنه حادِث؛ لأنه لم يَزَل، لكن الذي يَحدُث هو المَسموع؛ الكلام يَحدُث لأنه نَوْع من الفِعْل.

وعلى هذا فنَقول: في الآية إثبات الكلام لله تعالى، ومَذهَب أهل السُّنَّة والجماعة أن الله يَتكَلَّم بحَرْف مُرتَّب وصوت مَسموع.

فإذا قال قائِل: لو قلت: إنه بحَرْف مُرتَّب لزِمَ أن يَكون كلامُه مُشابِهًا لكلام المَخلوقين؟

فالجَوابُ: لا يَلزَم؛ لأن الكلام لا يُمكِن أن يَكون كلامًا إلَّا بهذا، لكن صوت الرَّبِّ عَزَّوَجَلَّ الذي يُسمَع ليس كأصوات المَخلوقين؛ لأن الصوت هو صِفته، لكن الحُروف صِفة الكلام الذي تَكلَّم به، وهي لا يُمكِن أن تَكون كلامًا إلَّا بتَرتيب بعضُه بعد بعضٍ.

فإن قال قائِل: لماذا لا يَكفُر مَن يَقول: إن القرآن مُحدَث؟

فالجوابُ: لا يَكون كُفْرًا لأن لهم تَأويلًا، يَقولون: مُحدَث إِنزالُه، ليس الذِّكْر المُحدَث بل إنزاله، ولا شَكَّ أن هذا إقحام لكلِمة إنزال في غير دليل، مثل قوله: ﴿وَجَآءَ رَبُّكَ﴾ [الفجر:٢٢] قالوا: المَعنى: وجاء أَمْر رَبِّك، فأَقحَموا أَمْر، فنظَرًا لهذا التَّأويلِ لا نَحكُم بكُفْرهم.

فإن قال قائِل: لا يُنافِي هذا كِتابته في اللَّوْح المَحفوظ؟

فالجَوابُ: لا يُنافِي ذلك، لأنه ليس هناك دَليل قَطعيٌّ يَطمَئِن الإنسان إليه بأن القُرآن كُتِب أوَّلًا في اللَّوح المَحفوظ.

وأمَّا قوله تعالى: ﴿وَإِنَّهُۥ فِىٓ أُمِّ ٱلْكِتَٰبِ لَدَيْنَا لَعَلِىٌّ حَكِيمٌ﴾ [الزُّخرُف:٤]، فإنَّه يُمكِن أن يَكون المُراد به ذِكْر هذا الكِتاب، كما قال تعالى: ﴿وَإِنَّهُۥ لَفِى زُبُرِ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ [الشعراء:١٩٦]، ومَعلوم أن زُبُر الأوَّلين ليس فيها القُرآن، وإنما فيها التَّحدُّث عنه وذِكْره، فليس هناك دَليل قَطعيٌّ يَطمَئِن الإنسان إليه بأن القُرآن كُتِب في اللَّوح المَحفوظ، وإذا ثبَت هذا فلا يُنافِي أن يَكون كلام الله تعالى به مُحدَثًا بمعنى أنه يَتكَلَّم به ليُلْقيَه على جِبريلَ، وإن كان مَكتوبًا من قبلُ في اللَّوح المَحفوظ.

الْفَائِدَةُ الثَّالِثَةُ: عِناية الله عَزَّوَجَلَّ برسوله ﷺ، وجهُه قوله: ﴿رَبِّكَ﴾، حيث أَضاف إليه الرُّبوبية، وهذه الرُّبوبيةُ خاصَّة؛ لأنَّ رُبوبية الله عَزَّوَجَلَّ نَوْعان: عامَّة وخاصَّة، فالعامَّة الشامِلة لكل شيء، والخاصَّة المُختَصَّة بما أُضيفَت له، استَمِع إلى قوله تعالى: ﴿قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٢١﴾ رَبِّ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ﴾ [الأعراف:١٢١-١٢٢] في هذه رُبوبية عامَّة ورُبوبية خاصَّة، العامَّة ﴿بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾، والخاصَّة ﴿رَبِّ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ﴾.

وقوله: ﴿إِنَّمَآ أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ رَبَّ هَٰذِهِ ٱلْبَلْدَةِ ٱلَّذِى حَرَّمَهَا وَلَهُۥ كُلُّ شَىْءٍ﴾ [النمل:٩١]، الأوَّل: ﴿رَبَّ هَٰذِهِ ٱلْبَلْدَةِ﴾ يَعنِي: مكَّة الذي حرَّمها، رُبوبية خاصَّة، ﴿وَلَهُۥ كُلُّ شَىْءٍ﴾ هذه عامَّة.

إِذَنْ: قوله: ﴿رَبِّكَ﴾ من باب الرُّبوبية الخاصَّة، ولا شَكَّ أن أخصَّ رُبوبية تَكون للمَربوبين هي رُبوبية الرُّسُل، ولا سِيَّما أُولِي العَزْم منهم، وهم خمسة: مُحمَّد، إبراهيمُ، مُوسى، عِيسى، نُوحٌ، عليهم الصلاة والسلام.

الْفَائِدَةُ الرَّابِعَةُ: خُلود الذين كفَروا في النار؛ لقوله: ﴿أَنَّهُمْ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ﴾،

وهذا الخلودُ أبَديٌّ، جاء ذلك في آيات ثلاث في القرآن في سورة النِّساء، وفي سورة الأحزاب، وفي سورة الجِنِّ.

الْفَائِدَةُ الخَامِسَةُ: التَّحذير ممَّا يُوجِب غضَب الله وسخَطه؛ لئَلَّا يَكون الرجُل قد حقَّت عليه كلِمة الله عَزَّوَجَلَّ؛ لأن قوله: ﴿وَكَذَٰلِكَ﴾ أي: مثل ذلك الذي حصَل لهؤلاءِ المُكذِّبين يُحِقُّ كلمة الله عَزَّوَجَلَّ.

• • ❁ • •

الآية (٧)

۞ قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿ٱلَّذِينَ يَحۡمِلُونَ ٱلۡعَرۡشَ وَمَنۡ حَوۡلَهُۥ يُسَبِّحُونَ بِحَمۡدِ رَبِّهِمۡ وَيُؤۡمِنُونَ بِهِۦ وَيَسۡتَغۡفِرُونَ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ رَبَّنَا وَسِعۡتَ كُلَّ شَيۡءٖ رَّحۡمَةٗ وَعِلۡمٗا فَٱغۡفِرۡ لِلَّذِينَ تَابُواْ وَٱتَّبَعُواْ سَبِيلَكَ وَقِهِمۡ عَذَابَ ٱلۡجَحِيمِ﴾ [غافر:٧].

قوله: ﴿ٱلَّذِينَ﴾: مُبتَدَأ مُستَأنَف، ويَجِب الوُقوف على ما قَبْله ﴿أَنَّهُمۡ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِ﴾؛ لأنَّك لو قُلْت: ﴿ٱلَّذِينَ يَحۡمِلُونَ ٱلۡعَرۡشَ﴾ ووصَلْتَ لظَنَّ الظانُّ أنَّ أصحاب النار همُ الذين يَحمِلون العَرْش، وهذا فَساد للمَعنى.

قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿ٱلَّذِينَ يَحۡمِلُونَ ٱلۡعَرۡشَ﴾ مُبتَدَأ]، وجُمْلة ﴿يُسَبِّحُونَ﴾ خبَر المُبتَدَأ.

قوله: ﴿ٱلَّذِينَ يَحۡمِلُونَ ٱلۡعَرۡشَ﴾ العَرْش: هو عَرْش الرحمن عَزَّوَجَلَّ، وهو أَكبَرُ المَخلوقات، وأعظَمُها، وأَوْسَعها، وأَشرَفُها فيما عدا المُكلَّفين، هذا العَرْشُ لا يَعلَم قَدْره إلَّا الله عَزَّوَجَلَّ؛ لأننا لم نُخبَر عن قَدْره، ولا نَعلَم من أيِّ مادَّة هو، أهُوَ من نور أو خشَب أو حَديد؟ لا نَعلَم؛ لأننا لم نُخبَر عن ذلك، ولم نَعلَم عن لونه، ولم نَعلَم عن مَلمَسه، أَليِّنٌ هو أم قاسٍ؟ كل هذا لا نَعلَمه، إنما نَعلَم أنه عَرْش عَظيم مُحيط بالمَخلوقات، استوَى عليه الربُّ عَزَّوَجَلَّ، وله حَمَلة، والمَشهور أن حمَلته الآنَ أربَعة، وفي يوم القِيامة يَكونون ثَمانية، ومن جُملة حَمَلة العَرْش إسرافيلُ المُوكَّل بالنَّفْخ في الصور، فإنه أَحدُ حمَلة العَرْش.

ونحن لا نَعلَم صِفاتِ هؤلاء الذين يَحمِلون العَرش، لكن نَعلَم أنهم مَلائِكة، أمَّا كيف هم فإن ذلك مَوْقوف على ما جاء به السَّمْع.

﴿وَمَنْ حَوْلَهُۥ﴾ (من) مَعطوفة على ﴿ٱلَّذِينَ يَحۡمِلُونَ ٱلۡعَرۡشَ﴾ أي: والذين حولَه.

قال المفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿وَمَنْ حَوْلَهُۥ﴾ عَطْف عليه] على المُبتَدَأ؛ لأنَّ المفَسِّر قال: [مُبتَدَأ ﴿وَمَنْ حَوْلَهُۥ﴾ عَطْف عليه] أي: على المُبتَدَأ، وهو قوله: ﴿ٱلَّذِينَ يَحۡمِلُونَ ٱلۡعَرۡشَ﴾.

قال المفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿يُسَبِّحُونَ﴾ خبَرُه] خبَرُ المُبتَدَأ وما عُطِف عليه، يَعنِي: حَمَلة العَرْش والذين حول العَرْش يُسبِّحون بحمد الله، والتَّسبيح تَنزيهُ الله عَزَّوَجَلَّ عمَّا لا يَليق به من نَقْص أو مُماثَلة للمَخلوقين.

والباء في قوله: ﴿بِحَمۡدِ رَبِّهِمۡ﴾ للمُلابَسة؛ أي: تسبيحًا مَمزوجًا بالحَمْد، فهُمْ مُسبِّحون حامِدون. قال المفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [أي: يَقولون: سُبحان الله وبحَمْده]، وقد بيَّن الله عَزَّوَجَلَّ أنَّ ذلك دائِم مُستَمِرٌّ، فقال تعالى: ﴿وَمَنۡ عِندَهُۥ لَا يَسۡتَكۡبِرُونَ عَنۡ عِبَادَتِهِۦ وَلَا يَسۡتَحۡسِرُونَ ۝١٩ يُسَبِّحُونَ ٱلَّيۡلَ وَٱلنَّهَارَ لَا يَفۡتُرُونَ﴾ [الأنبياء:١٩-٢٠]، أمَّا ﴿فَإِنِ ٱسۡتَكۡبَرُواْ فَٱلَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ يُسَبِّحُونَ لَهُۥ بِٱلَّيۡلِ وَٱلنَّهَارِ وَهُمۡ لَا يَسۡـَٔمُونَ ۩﴾ [فُصِّلَت:٣٨].

قال المفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿وَيُؤۡمِنُونَ بِهِۦ﴾ تعالى ببَصائرهم. أي: يُصدِّقون بوَحْدانيَّته] الإيمان في اللُّغة الإقرارُ بالشيء.

وأقول: بل الإقرار بالقَلْب واللِّسان وليس هو مُجرَّد التَّصديق فقط، قد لا يُعرَض على الإنسان شيء فيُؤمِن به، كما إذا شاهَد شيئًا بعَيْنه فإنَّه يُؤمِن به وإن لم يُعرَض عليه، والقول بأنَّه في اللغة التَّصديق. فيه نظَر؛ لأنَّ تَفسير الشيء بالشيء

يَلزَم أن يَكون مُطابِقًا له، ومن المَعلوم أنك تَقول: آمَنْتُ به. وتَقول: صدَّقْت به. وتَقول: آمَنْت له. وتَقول: صدَّقْت له. وتَقول: صدَّقْته. ولا تَقول: آمَنْتُه. وهذا يَدُلُّ على أنَّ الإيمان ليس هو التَّصديقَ.

وقد نبَّه على ذلك شيخُ الإسلام ابنُ تيميَّةَ رَحِمَهُ ٱللَّهُ في كِتابه (الإيمان)، فقال: «إن الإيمان بمَعنى التَّصديق ليس بصَحيح»[1] وإن كان قد يَأتِي بمَعناه، ولكنْ حقيقتُه أنه ليس إيَّاه؛ فهو إقرار بالقَلْب، ونُطْق باللِّسان.

وقوله: ﴿وَيُؤْمِنُونَ بِهِۦ﴾ أي: يُؤمِنون بوُجوده عَزَّوَجَلَّ ووَحْدانيته، وبكل ما يَستَحِقُّه من أسماء وصِفات وغيرها إيمانًا كامِلًا؛ والإيمان بالله يَتضمَّن: الإيمان بوُجوده، ورُبوبيته، وأُلوهِيَّته، وأسمائه، وصِفاته، وانفِراده بذلك.

وقوله: ﴿وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ ﴿وَيَسْتَغْفِرُونَ﴾ أي: يَطلُبون المَغفِرة للذين آمَنوا، وقد تقدَّم مِرارًا أن المَغفِرة هي سَتْر الذَّنْب والتَّجاوُز عنه.

وقوله: ﴿وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ رَبَّنَا وَسِعْتَ﴾ جُمْلة ﴿رَبَّنَا﴾ مَقول لقَوْل مَحذوف فسَّره المفَسِّر بقوله: [يقولون: ﴿رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَىْءٍ﴾] ربَّنا؛ أي: يا ربَّنا، وحُذِفَت منه (يا) النِّداء لكَثْرة الاستِعْمال وتَيمُّنًا بالبَداءة باسم الله عَزَّوَجَلَّ، أو بوَصْفه بالربوبية.

قال المفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَىْءٍ رَّحْمَةً وَعِلْمًا﴾ أي: وسِعَتْ رحمتُك كلَّ شيء وعِلْمك كلَّ شيء]، فمَعنى ﴿وَسِعْتَ كُلَّ شَىْءٍ﴾ أي: أحَطْتَ به رحمةً، وأَحَطْتَ به علمًا، فما بلَغه عِلْم الله بلَغَتْه رحمَته، ولكن الرحمة إمَّا عامَّة، وإمَّا خاصَّة كما سيَأتي في الفَوائِد إن شاءَ الله.

---

(١) كتاب الإيمان (ص:١٠١).

وجُمْلة ﴿رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ﴾ هي عِبارة عن تَوسُّل؛ أي: تَوسَّلوا بسَعة عِلْم الله ورحمته إلى مَطلوبهم.

يَقول المفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَّحْمَةً وَعِلْمًا فَٱغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُوا﴾ من الشِّرْك] ورجَعوا إلى الله تعالى بالتَّوْحيد والإخلاص، ﴿وَٱتَّبَعُوا سَبِيلَكَ﴾؛ أي: طَريقك، وهو دِين الإسلام، سَواءٌ كان إسلام مُحمَّد ﷺ، أو إسلام من قَبْله؛ لأن هذا الدُّعاءَ عامٌّ لكُلِّ المُؤمِنين، فقَوْل المفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [دين الإسلام] يُريد به الإسلام العامَّ، فالذين اتَّبَعوا الرسُل السابِقين مُسلِمون والذين اتَّبَعوا مُحمَّدًا ﷺ مُسلِمون، لكن لا إسلامَ بعدَ مُحمَّد ﷺ إلَّا باتِّباع دِينه.

وهنا قال: ﴿وَٱتَّبَعُوا سَبِيلَكَ﴾ وفي آية أُخرى: ﴿وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [النساء:١١٥]، فأضاف السبيل إلى المُؤمنين، وكذلك الصِّراط يُضيفه تعالى أحيانًا لنفسه مثل قوله: ﴿صِرَٰطِ ٱللَّهِ ٱلَّذِى لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾ [الشورى:٥٣]، وأَحيانًا للمُؤمِنين مثل: ﴿صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ﴾ [الفاتحة:٧]، فالجَمعُ بينهما أن الله أَضاف السبيل أو الصِّراط إليه باعتِبارَيْن:

الاعتِبار الأوَّل: أنه هو الذي وضَعَه لعِباده يَسيرون عليه.

والاعتِبار الثاني: أنه مُوصِل إلى الله عَزَّوَجَلَّ، فمَن سلَكَه أَوْصَله إلى ربِّه.

أمَّا إضافتُه للمُؤمنين في قوله: ﴿وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ أو للذين أَنعَم عليهم في قوله: ﴿صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ﴾؛ فلأنَّهم سالِكوه، فأُضيف إليهم باعتِبار سُلوكهم إيَّاه، وحينَئذٍ ليس بين الآيات تَعارُض.

قوله: ﴿وَقِهِمْ عَذَابَ ٱلْجَحِيمِ﴾ أي: اجعَلْ لهم وِقاية من عذاب الجَحيم وهو عذاب النار، كما فسَّر بذلك المفَسِّر.

من فوائد الآية الكريمة:

الْفَائِدَةُ الأُولَى: إثبات العَرْش، وقد تكرَّر ذِكْره في القرآن الكَريم في آياتٍ عَديدة، ووَصْفه بأنه كَريم، وبأنه عَظيم، وبأنه مَجيد.

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَةُ: إثبات أنَّ لهذا العَرْشِ حَمَلةً؛ لقوله: ﴿ٱلَّذِينَ يَحۡمِلُونَ ٱلۡعَرۡشَ﴾، وإثبات الحَمَلة له مع قُدْرة الله سُبۡحَانَهُۥ وَتَعَالَىٰ على إِمْساكه بدون حَمَلة إشعار بتَعْظيمه، وأنه عَظيم مُعتَنًى به؛ ولهذا نَجِد أن الله قال في السَّموات بغير عمَد، ولم يَذكُر لها حمَلة، والعَرْش ذكَر له حمَلة مع أن الذي أَمسَك السَّمواتِ والأرضَ أن تَزولا قادِر على إمساك العَرْش بلا حمَلةٍ، لكن هذا من باب التَّعظيم والتَّنويه بشَرَفه وعظَمته.

الْفَائِدَةُ الثَّالِثَةُ: أن حول هذا العَرْش مَلائِكةً، وأنهم كَثيرون، ربما نَستَفيد كَثْرتهم من قوله: ﴿وَمَنۡ حَوۡلَهُۥ﴾ [غافر:٧]، كأنَّ كل الذي حول العَرْش، ثُمَّ مَن الذي حَوْل العرش هل يُقدَّر بمَسافة عشَرة أمتار، أو عِشرين مترًا، أو مئة متر، أو أَلْف متر؟ يُقال: الحَوْل في كل مكان بحسَبه، فعِندنا مثلًا الأرض صَغيرة بالنِّسبة للعَرْش، والذي حَوْل الإنسان فيها لا يَتَجاوَز عشَرة أمتار، ربما نَقول: مَن حَوْلك هو الذي يَسمَع كلامك المُعتاد، لكن مَن حول العَرْش، لا نَعلَم! قد تَكون مِساحاتٍ كبيرةً لا يَعلَمها إلَّا الله.

الْفَائِدَةُ الرَّابِعَةُ: تَعظيم هؤلاء الذين يَحمِلون العَرْش، والذين حول العَرْش، للربِّ عَزَّوَجَلَّ؛ لقوله: ﴿يُسَبِّحُونَ بِحَمۡدِ رَبِّهِمۡ وَيُؤۡمِنُونَ بِهِۦ﴾.

الْفَائِدَةُ الخَامِسَةُ: تَنزيهُ الله عَزَّوَجَلَّ عن كل نَقْص، وعن مُماثَلة المَخلوقين؛ فإن قيل: مُماثَلة المَخلوقين من النَّقْص، فلماذا نَقول: وعن مُماثَلة المَخلوقين؟ أفلا يَجدُر بنا أن نَقتَصِر على قولنا: تَنزيهُ الله عن النَّقْص؟

نَقول: لا، مُرادُنا بـ«التَّنزيه عن النَّقْص»: أنَّ صِفاتِه الكامِلةَ مُنزَّهة عن النَّقْص، فقوَّتُه لا يعتَريها نَقْص ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ وَمَا مَسَّنَا مِن لُّغُوبٍ﴾ [ق:٣٨] وعِلْمه لا يَعتَريه نَقْص ﴿فِى كِتَٰبٍ لَّا يَضِلُّ رَبِّى﴾؛ أي: لا يَجهَل ﴿وَلَا يَنسَى﴾ [طه:٥٢]، فمُرادُنا بالنقص أن كَماله لا يعتَريه النَّقْص، وأمَّا نفيُ المُماثَلة؛ فلأَنَّ الله نصَّ على نفيها، فينبَغي أن نَتَّبع في ذلك القُرآنِ أن نَقول: مُنزَّهٌ عن مُماثَلة المَخلوقين.

الْفَائِدَةُ السَّادِسَةُ: وَصْف الله عَزَّوَجَلَّ بالكَمال والإفضال؛ لقوله: ﴿بِحَمْدِ رَبِّهِمْ﴾؛ لأن الحَمْد وَصْف المحمود بالكَمال والإفضال؛ لأن الله يُحمَد على كَماله، مثل قوله: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَجَعَلَ ٱلظُّلُمَٰتِ وَٱلنُّورَ﴾ [الأنعام:١]، وكذلك مِثْل قوله: ﴿وَقُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ شَرِيكٌ فِى ٱلْمُلْكِ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ وَلِىٌّ مِّنَ ٱلذُّلِّ﴾ [الإسراء:١١١]، كل هذا حَمْد على الكَمال، ويُحمَد على إِفْضاله؛ لقول النبيِّ ﷺ: «**إِنَّ اللهَ لَيَرْضَى عَنِ الْعَبْدِ يَأْكُلُ الْأَكْلَةَ فَيَحْمَدُهُ عَلَيْهَا، وَيَشْرَبُ الشَّرْبَةَ فَيَحْمَدُهُ عَلَيْهَا**»[1] هذا حمد على الإِفْضال.

إِذَن: يُستَفاد كَمال الله عَزَّوَجَلَّ وإفضاله؛ لقوله: ﴿بِحَمْدِ رَبِّهِمْ﴾.

الْفَائِدَةُ السَّابِعَةُ: أن كَمـال الكَمال بنَفْي النَّقْص، أو بالجمع بين نَفْي النَّقْص وإثبات الكَمال، فكَمال الكَمال أن تَجمَع بين النَّفْي والإثبات في الكَمال، يُؤخَذ من قوله: ﴿يُسَبِّحُونَ﴾ هذا نَفيُ النَّقائِص، و﴿بِحَمْدِ رَبِّهِمْ﴾ إثبات.

إِذَنْ: كَمال الكَمال بالجَمْع بين النَّفيِ والإثبات.

---

(١) أخرجه مسلم: كتاب الذكر والدعاء، باب استحباب حمد الله تعالى بعد الأكل والشرب، رقم (٢٧٣٤)، من حديث أنس رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ.

الْفَائِدَةُ الثَّامِنَةُ: فَضيلة المَلائِكة الذين يَحمِلون العَرْش ومَن حَولَه، تُؤخَذ من إضافة الرُّبوبية إليهم على وَجْه، فإن هذه من الرُّبوبية الخاصَّة ﴿يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ﴾، وإضافة الربوبية إليهم من عِدَّة وُجوهٍ: منها اختِصاص الله لهم بحَمْل العَرْش، تَسبيحهم بحَمْد الله.

الْفَائِدَةُ التَّاسِعَةُ: أنَّ المَلائِكة مُكلَّفون؛ لقوله: ﴿وَيُؤْمِنُونَ بِهِۦ﴾، ووَجهُ الدَّلالة أنَّهم لولا أنهم مُكلَّفون قاموا بما كُلِّفوا به لم يَكونوا مُستَحِقِّين للثَّناء بالإيمان، لو كان هذا من طَبيعتهم وسَجيَّتهم لم يَكُن للثَّناء عليهم بذلك كبير فائِدة، ويَدُلُّ على أنَّهم مُكلَّفون قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ أَبَىٰ وَٱسْتَكْبَرَ﴾ [البقرة:٣٤]، ولا شَكَّ أن كل عِباد الله الذين لهم فَهْم وعَقْل لا بُدَّ أن يَكونوا مُكلَّفين.

فائدة: نُزول المَلائِكة في بدرٍ تَثْبيت لقُلوب المُؤمنين، ومُشارَكة لهم في هذا، من باب التَّأييد للمُؤمِنين ونُصرة الحَقِّ؛ ولهذا قال الله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ وَلَوْ يَشَآءُ ٱللَّهُ لَٱنتَصَرَ مِنْهُمْ وَلَٰكِن لِّيَبْلُوَا۟ بَعْضَكُم بِبَعْضٍ﴾ [محمد:٤]، ومن المعلوم أيضًا أنَّ الله لو قال لهؤلاء الكُفَّار: كونوا أَمْواتًا. لماتوا. المَسأَلة ليس مَعناها من باب العَجْز أو القُدْرة.

الْفَائِدَةُ الْعَاشِرَةُ: تَسخير الله عَزَّوَجَلَّ للمُؤمِنين أن تَستَغفِر لهم المَلائِكة، وليس المَلائِكة مُطلَقًا، بلِ المَلائِكة المُقرَّبون؛ لقوله: ﴿وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ [غافر:٧].

الْفَائِدَةُ الْحَادِيَةَ عَشْرَةَ: الحَثُّ على الإيمان حتى تَدخُل في ضِمْن مَن تَستَغفِر لهم المَلائِكة، والإيمان كلُّه خير وسُرور ونِعْمة في القلب، ونِعمة في البدَن، حتى البلاء الذي يُصيب المُؤمِن هو له خَيْر؛ فلِهذا نقول: احْرِص على تَحقيق إيمانك بفِعْل الوسائِل التي تُنمِّي هذا الإيمانَ وتُغذِّيه وتُقوِّيه.

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَةَ عَشْرَةَ: التَّوسُّل إلى الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ بصِفاته، كما يُتوسَّل إليه بأسمائه، فهنا تَوسَّل المَلائكة إلى الله بالرُّبوبية في قولهم: ﴿رَبَّنَا﴾ وتَوسَّلوا إليه بسَعة الرحمة ﴿وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَّحْمَةً﴾ [غافر:٧]، وبسَعة العِلْم ﴿وَعِلْمًا﴾، والتَّوسُّل إلى الله تعالى بصِفاته من أسباب إجابة الدُّعاء، كالتَّوسُّل إليه بأسمائه.

وهنا يَجدُر بنا أن نَتعَرَّض لمَعنى الوَسيلة وحُكْمها:

فالوَسيلة فِعْل ما يُوصِّل إلى المَقصود يُسمَّى وَسيلة، وربما نَقول: إنه تَناوَبَت فيه السين والصاد، وأن أَصْل الوَسيلة يَعنِي: الوَصيلة، وَصيلة بمعنى مُوصِلة، فهي فَعيل بمعنى مُفعِل.

والوسائِل لا بُدَّ أن تَكون مَعلومة: إمَّا بالشَّرْع، وإمَّا بالحِسِّ، وإنَّما قُلتُ ذلك لدَفْع الوسائل المَوْهومة؛ كالذين يُعلِّقون على صدورهم أَشياءَ لم يَثبُت شَرْعًا ولا حِسًّا أنها مُفيدة، لكن على سبيل الوَهْم، أو الذين يُعلِّقون نُحاسًا أو خُيوطًا، أو ما أَشبَه ذلك، هذه وَسائِلُ للشِّفاء ادعوها، ولكنها حقيقة ليست وَسيلةً؛ لانتِفاء ثُبوت ذلك شَرْعًا وحِسًّا.

وإذا كانت الوَسيلة هي فِعْلَ ما يُوصِل إلى الشيء فالعِلْم بإيصال هذا إلى المَقصود -العِلْم بكونه مُوصِلًا- يَأتِي عن طريق الشرع، أو عن طريق الحِسِّ، فكون العسَل شِفاءً وتَناوُله وَسيلة للشِّفاء، هذا علِمناه بطريق شَرعيٍّ، وربما حِسِّيٍّ أيضًا بعد التَّجرِبة، وكون السَّنَا مُحرِّكًا للبطن مُسهِلًا له هذه وَسيلة حِسِّية، والسَّنَا باللغة العامِّية يُسمَّى السَّناوَيْن، وهو أوراق شجَر مَعروف يُخمَّر بالماء ثُم يُشرَب على الرِّيق، فإذا شرِبه الإنسان على الرِّيق فإنه يُسهِله ويُنظِّف بَطْنه، وكان الناس يَستَعمِلونه كثيرًا قبل أن تَأتِيَ هذه الأَدْويةُ، يُسمَّى سنا مَكَّةَ، وله أسماءٌ مُختَلِفة.

فالوَسيلة إِذَن هي فِعْل ما يُوصِل إلى المقصود، والعِلْم بإيصاله إلى المَقْصود، يَأتِي عن طريق الشَّرْع وعن طريق الحِسِّ.

والوَسائِل هي التَّوسُّل إلى الله تعالى بإجابة الدُّعاء، أن تَفعَل شيئًا يُوصِل إلى الإِجابة، ولا طريقَ لنا إلى العِلْم بإيصاله الإجابة إلَّا عن طَريق الشرع.

إِذَنْ: نَنظُر التَّوسُّل إلى الله تعالى بأسمائه، هذا القِسْمُ الأَوَّلُ، ودَليله قوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ فَٱدْعُوهُ بِهَا﴾ [الأعراف:١٨٠]، فتَقول: اللهُمَّ يا غَفورُ يا رحيمُ اغفِرْ لي وارْحَمْني. هذا تَوسُّل إلى الله بأسمائه.

الثاني: التَّوسُّل إلى الله بصِفاته، ومنه قوله ﷺ: «اللَّهُمَّ بِعِلْمِكَ الْغَيْبَ، وَقُدْرَتِكَ عَلَى الخَلْقِ أَحْيِنِي إِذَا عَلِمْتَ الحَيَاةَ خَيْرًا لِي»(١) تَوسُّل بـ«عِلْمِكَ الْغَيْبَ» والعِلْم صفة «وَقُدْرَتِكَ عَلَى الخَلْقِ» والقُدرة صِفة، فتَقول: «اللهُمَّ بعِلْمِكَ الغَيْبَ وقُدْرَتِكَ عَلَى الخَلْقِ أَحْيِنِي مَا عَلِمْتَ الحَيَاةَ خَيْرًا لِي...» إلى آخِره.

القِسْم الثالِث: التَّوسُّل إلى الله بأَفعاله، ومنه قوله تعالى عن مُوسى عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ: ﴿رَبِّ بِمَآ أَنْعَمْتَ عَلَيَّ فَلَنْ أَكُونَ ظَهِيرًا لِّلْمُجْرِمِينَ﴾ [القصص:١٧]، إن جعَلنا قوله: ﴿فَلَنْ أَكُونَ﴾ من باب الدُّعاء، وإن جعَلْناها من باب الالتِزام لم تَكُن من هذا البابِ.

ولكن من هذا البابِ قولُه عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ وهو يُعلِّمنا كيف نُصلِّي عليه: «اللَّهُمَّ صَلِّ عَلَى مُحَمَّدٍ وَعَلَى آلِ مُحَمَّدٍ كَمَا صَلَّيْتَ عَلَى إِبْرَاهِيمَ وَعَلَى آلِ إِبْرَاهِيمَ»(٢) فالكاف هنا ليسَت للتَّشبيه، الكاف للتَّعليل، يَعنِي: صلِّ على مُحَمَّد وآل مُحَمَّد؛

---

(١) أخرجه الإمام أحمد (٤/ ٢٦٤)، والنسائي (١٣٠٥) من حديث عمار بن ياسر رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا.

(٢) أخرجه البخاري: كتاب الدعوات، باب الصلاة على النبي ﷺ، رقم (٦٣٥٧)، ومسلم: كتاب الصلاة، باب الصلاة على النبي ﷺ بعد التشهد، رقم (٤٠٦)، من حديث كعب بن عجرة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ.

لأنك صلَّيْت على إبراهيمَ، فتوسَّل إلى الله بفِعْله، يَعني: كما منَنْت أوَّلًا على إبراهيمَ وآله فامنُنْ ثانيًا على مُحَمَّد وآله.

القِسْم الرابع: التَّوسُّل إلى الله تعالى بالإيمان بالله، وهذا من فِعْلك أنت، ومنه قوله تعالى: ﴿رَبَّنَآ إِنَّنَا سَمِعْنَا مُنَادِيًا يُنَادِى لِلْإِيمَـٰنِ أَنْ ءَامِنُواْ بِرَبِّكُمْ فَـَٔامَنَّا﴾ هذه الوَسيلةُ ﴿رَبَّنَا فَٱغْفِرْ لَنَا﴾؛ أي: بسببَ ذلك اغفِرْ لنا ﴿ذُنُوبَنَا وَكَفِّرْ عَنَّا سَيِّـَٔاتِنَا وَتَوَفَّنَا مَعَ ٱلْأَبْرَارِ﴾ [آل عمران:١٩٣] هذا تَوسُّل إلى الله بالإيمان به.

القِسْم الخامِس: التَّوسُّل إلى الله بالعمَل الصالِح؛ لأنَّ العمَل الصالِح سببَ للمَثوبة، ومن المَثوبة حُصول ما دعَوْت به، ودليلُه: قِصَّة أصحاب الغار التي حدَّثَنا بها رسولُ الله ﷺ[1]، أصحاب الغار ثلاثة، آواهُمُ المَبيت الليل، فلَجَؤُوا إلى غار فدخَلوا به، فتَدحْرَجت عليهم صَخْرة عظيمة من الجَبَل فسَدَّت عليهم بابَ الغار، ولم يَستَطيعوا أن يُزَحْزِحوها ولا مُغيثَ لهم إلَّا الله، ليس حولهم بشَر، فتوسَّلوا إلى الله تعالى بأعمالهم الصالِحة، أحدُهم تَوسَّل إلى الله ببِرِّ والِدَيْه، والثاني تَوسَّل إلى الله بالعِفَّة التامَّة، والثالِث تَوسَّل إلى الله بالأمانة التامَّة، فبِرُّ الوالدين عمَل صالِح، والعِفَّة عمَل صالِح، والأمانة وأداء الأمانة عمَل صالِح، فلمَّا تَوسَّل الأوَّل منهم انفرَجَت الصَّخْرة، لكن لا يَستَطيعون الخُروج، تَوسَّل الثاني فانفرَجَت الصخرة، ولكن لا يَستَطيعون الخُروج، تَوسَّل الثالِث فانفرَجَت الصخرة مرَّة واحِدة، فخرَجوا يَمشون.

هذا التَّوسُّل إلى الله بالعمَل الصالِح.

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب الإجارة، باب من استأجر أجيرًا فترك الأجير أجره، رقم (٢٢٧٢)، ومسلم: كتاب الرقاق، باب قصة أصحاب الغار الثلاثة، رقم (٢٧٤٣)، من حديث عبد الله بن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.

السادِس: التَّوسُّل إلى الله بحال الشخص، تَتَوسَّل إلى الله تعالى بذِكْر حالِكَ، أنك فَقير، مُحتاج إلى الله، مَريض، وما أَشبَهَ ذلك، ومِنه قول موسى عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ دليله -وإن شِئْت قلتَ: مثل؛ لأن هذا يَصلُح دليلًا وتَمثيلًا-: ﴿رَبِّ إِنِّي لِمَآ أَنزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ﴾ [القصص:٢٤]، لَمَّا سقَى للمَرْأَتين تَولَّى إلى الظِّلِّ؛ ليَستَظِلَّ به فقال: ﴿رَبِّ إِنِّي لِمَآ أَنزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ﴾ لم يَقُل: أَعطِني، لكن تَوسَّل إلى الله بحاله؛ لأنَّ قول القائِل: أنا فَقير، أنا مُحتاج، أنا مَسَّنِي الضُّرُّ. وما أَشبَه ذلك يَعنِي: فأَعطِني، اشفِني، وقد جمَع أيُّوبُ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ بين ذِكْر الحال والتَّوسُّل بالأسماء فقال: ﴿أَنِّي مَسَّنِيَ ٱلضُّرُّ وَأَنتَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ﴾ [الأنبياء:٨٣] الأوَّلُ: ﴿مَسَّنِيَ ٱلضُّرُّ﴾ ذِكْر الحال، والثاني بالأَسْماء.

السابع من التَّوسُّل الجائِز: التَّوسُّل إلى الله بدُعاء مَن تُرجَى إجابتُه، ومنه تَوسُّل الصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ إلى النَّبيِّ ﷺ أن يَدعوَ الله لهم، مثل: الاستِسْقاء، والاستِصْحاء، وغير ذلك كثير.

ومن ذلك تَوسُّل الناس عمومًا يوم القِيامة بشفاعة النَّبيِّ ﷺ إلى الله أن يَقضِيَ بينهم. هذه سَبْعة.

وقولنا: «التَّوسُّل إلى الله بمَن تُرجَى إجابتُه» يُستَفاد منه أن التَّوسُّل إلى الله تعالى بمَن لا تُرجَى إجابته لا يَجوز؛ لأنَّ هذا استِهْزاء بالله، لو أنَّك أَتَيْت بصاحب رِبًا يَأكُل الرِّبا، ويَأكُل المال بالظُّلْم والغِشِّ والكذِب وقلت: ادْعُ الله لي. فإن هذا لا يَجوز؛ لأنَّك تَوسَّلْت إلى الله بمَن تَبعُد إجابتُه، فإن النبيَّ ﷺ ذكَر الرجُل يُطيل السفَر أَشعَثَ أَغبَرَ يَمُدُّ يديه إلى السماء يا رَبِّ يا رَبِّ، ومَلبَسُه حرام، ومَطعَمه حرام،

وغُذِّيَ بالحَرام قال: «فَأَنَّى يُسْتَجَابُ لِذَلِكَ»[1] وهو سُخرية، لو أنك أتَيْت بشَخْص -ولله المثل الأعلى- ليَتوجَّه لك إلى ملِك كان الملِك يُبغِض هذا الشَّخْص ويُبعِده، يَكون هذا استِهْزاء بالمَلِك واستِهْتارًا به، كلُّنا يَعرِف هذا، فلا يَجوز أن تَتوَسَّل إلى الله تعالى بدُعاء مَن لا تُرجَى إجابتُه؛ لأن هذا من باب السُّخرية بالله عَزَّوَجَلَّ، هذه سَبْعة أقسام من التَّوسُّل الجائِز.

فائدة: الوَسائِل ليسَت هي الوَسائِطَ، الوسائِلُ ليس فيها وسائِطُ إلَّا السابِعة، وهي التَّوسُّل إلى الله بدُعاء مَن تُرجَى إجابتُه.

وإن قيل: لماذا أَخرَج العُلَماء التَّوسُّل إلى الله بالعمَل الصالِح عن التَّوسُّل بالإيمان؟

فالجوابُ: لأن الإيمان بالقَلْب، والعمَل الصالِح بالجوارِح، ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ [التين:٦] فالإيمان بالقَلْب، والعمَل الصالِح بالجوارِح، ولكن العمَل الصالِح من الإيمان.

فإن قال قائِل: أيَجوز أن أَتوَسَّل بمَحبَّة الرسول، فأَقول: اللَّهُمَّ بمَحبَّتي لرَسولِك؟

فالجواب: يَجوز، لأن محَبَّة الرَّسول لا شَكَّ أنه عمَل صالِح، فإن من أَفضَل الأعمال محَبَّة الرسول ﷺ، بل لا يُؤمِن الإنسان حتى يَكون رَسولُ الله ﷺ أَحبَّ إليه من نَفْسه وولَده ووالِده والناس أَجْمعين.

(١) أخرجه مسلم: كتاب الزكاة، باب قبول الصدقة من الكسب الطيب، رقم (١٠١٥) من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

فإن قال قائِل: ما حُكْم التَّوسُّل إلى الله بمَحبَّة الصالِحين والعُلَماء؟

فالجوابُ: محبَّة الصالِحين والعُلَماء هي عِبادة تُقرِّب إلى الله.

إِذَنْ: هي عمَل صالِح تَدخُل في التَّوسُّل إلى الله بالعمَل الصالِح.

فإن قال قائِل: ما حُكْم تَخصيص العالِم بعَيْنه؟

فالجوابُ: الأحسَنُ ألَّا تُخصِّص؛ لأن العالِم بعَيْنه -نَسأَل الله تعالى أن يَحمِيَنا وإيَّاكم، ويَجعَل ظواهِرنا كبواطِننا، أو بواطِننا خيرًا منها- لا تَدرِي حقيقته، قد تَغترُّ بإنسان، ولكن لا يَكون على ما تَظُنُّ، لكن عمِّم: اللَّهُمَّ بحُبِّي لعلماء الشَّرْع احشُرْني معهم، بحُبِّي للصالِحين اجعَلْني معَهم. وما أَشبَه ذلك.

أمَّا التَّوسُّل المَمنوع: كأن يَتوَسَّل إلى الله بما ليس بوَسيلة، مثل: تَوسُّل المُشرِكين بأَصْنامهم؛ حيث يَقولون: ﴿مَا نَعۡبُدُهُمۡ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلۡفَىٰٓ﴾ [الزُّمَر:٣]، فهذا لا يَنفَع.

ومن ذلك التَّوسُّلُ إلى الله بجاهِ الرسول ﷺ، فهذا لا يَجوز؛ لأَنَّه تَوسُّل بما ليس بوَسيلة، فلا تَستَفيد من جاهِ الرَّسول عند الله شيئًا؛ لأن جاهَ الرسول عند الله إنَّما يَنفَع الرَّسول فقَطْ لا عَلاقةَ لي به، فلِذلك يَكون التَّوسُّل بجاه الرسول ﷺ ممنوعًا محُرَّمًا، أوَّلًا: لأنه لم يَرِد، والثاني: لأنه ليس بوَسيلة، إذ إن الوَسيلة هي فِعْل ما يُوصِّل إلى المَقصود، وأي ارتباط بين جاه الرَّسول عند الله وبين مَطلوبك؟!

فصار التَّوسُّل المَمنوع شيئَين:

الأوَّل: التَّوسُّل الشِّرْكيُّ: تَوسُّل المُشرِكين بآلِهَتهم لتَقرُّبهم إلى الله، فإن هذا لا شَكَّ أنه وَسيلة غيرُ صحيحة، وأنها باطِلة، على أن تَسميتنا إيَّاها وَسيلة إنما نُريد

مَن لا يَعبُد الأصنام، أمَّا مَن يَعبُد الأصنام فإنه مُشرِك ولم يَتوَسَّل إلى الله تعالى بشيء.

والثاني: التَّوسُّل إلى الله تعالى بجاهِ الرَّسول.

فإن قال قائِل: ما هو الضابِط في الفرق بين الوَسيلة الشِّرْكية والوَسيلة البِدْعية؟

فالجوابُ: الوَسيلة البِدْعية هي التي لم تَرِد عن النَّبيِّ ﷺ، ولا عن أصحابه، والشِّرْكية هي ما تَتَضمَّن إشراك غير الله مع الله، مع أنَّ البِدْعة تُسمَّى شِرْكًا بالمَعنى العامِّ؛ لأن المُبتَدِع شرَع شرعًا لم يَشرَعه الله، وقد سمَّى الله ذلك شِرْكًا، فقال: ﴿أَمْ لَهُمْ شُرَكَٰٓؤُاْ شَرَعُواْ لَهُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَنۢ بِهِ ٱللَّهُ﴾ [الشورى:٢١]، لكن ما كان مَظهَرُه مَظهَرَ الشِّرْك غلَّب عليه اسمَ الشِّرْك، وما كان مَظهَره سِوى ذلك فيُسمَّى بالاسم الذي يَختَصُّ به؛ ولهذا قال بعضُ العُلَماء: إن جميع المَعاصِي شِرْك؛ لأنَّ الإنسان أشرَك فيها مع الله هَواه، كما قال تعالى: ﴿أَفَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ﴾ [الجاثية:٢٣].

فإن قال قائِل: هل يَجوز تَصنيف الشِّرْك يَعنِي: مثلًا من الآية ﴿ٱتَّخَذُوٓاْ أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَٰنَهُمْ أَرْبَابًا﴾، نُسجِّل هذا شِرْك الطاعة أو شِرْك الاتِّباع؟

فالجَوابُ: هو شِرْك اتِّباع، أمَّا شِرْك الطاعة هذا شِرْك عِبادة؛ ولهذا من أَحسَن حدود الطاغوت ما قاله ابن القيِّم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: ما تَجاوَز به العبدُ حدَّه من مَعبود، أو مَتبوع، أو مُطاع[1]؛ فالمَعبود: الأصنام، والمَتبوع: العلماء، والمُطاع: الأُمَراء.

وهذا أحسَنُ ما يُقال في حد الطاغوت، لكن باعتِبار الطاغِي، أمَّا باعتِبار المَعبود أو المَتبوع أو المُطاع؛ هؤلاءِ ليسوا طواغيتَ باعتِبار ذواتِهم؛ لأنَّ العالِم قد لا يَرضَى بهذا الشيءِ والأمير كذلك، والمَعبود كذلك، لكن باعتِبار الفاعِل هي

(١) إعلام الموقعين (١/ ٤٠).

طَواغيتُ -باعتِبار الفاعِل يَعنِي: أنه طغَى فيها هي مَحَلُّ طُغيانه- ومَعنى كونها طواغيتَ أنها مَحَلُّ طُغيانه، وليسَت هي طاغِيةً. فعِيسى ابنُ مَريمَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ مَعبودٌ، لا نَقول: إنه طاغوت، لكنه مَحَلُّ طُغيان الذين عبَدوه، انتَبِهوا لهذه النُّقطةِ؛ لأن بعض الناس استَشكَل كلام ابن القيِّم، وقال: كيف نَقول هذا الكَلامَ؟ إذن عِيسى طاغوتٌ؛ لأنه مَعبود، فيُقال: مُرادُه رَحِمَهُ ٱللَّهُ أن مَحَلَّ الطُّغيان يَكون في المَعبود والمَتْبوع والمُطاع.

فإن قال قائِل: الله عَزَّوَجَلَّ يَقول: ﴿إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ﴾ [الأنبياء:٩٨] كيف عُبِد سيِّدُنا عيسى وغيرُه من الصالِحين؟

فالجَوابُ: قال الله تعالى: ﴿إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنتُمْ لَهَا وَٰرِدُونَ ﴿٩٨﴾ لَوْ كَانَ هَٰٓؤُلَآءِ ءَالِهَةً مَّا وَرَدُوهَا ۖ وَكُلٌّ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٩٩﴾ لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَهُمْ فِيهَا لَا يَسْمَعُونَ ﴿١٠٠﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُم مِّنَّا ٱلْحُسْنَىٰٓ أُوْلَٰٓئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ﴾ [الأنبياء:٩٨-١٠١].

وعيسى مِمَّن سبقَتْ لهُمُ الحُسنى؛ ولهذا ضَرَب الكُفَّار عِيسى مثلًا وقالوا لمَّا نزَلَتِ الآية: ﴿إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ﴾ قالوا: إذَن عِيسى في النار جدَلًا، فأَنزَل الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُم مِّنَّا ٱلْحُسْنَىٰٓ أُوْلَٰٓئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ﴾ مثل قوله: ﴿ءَأَٰلِهَتُنَا خَيْرٌ أَمْ هُوَ﴾ [الزُّخرُف:٥٨] قال الله تعالى: ﴿مَا ضَرَبُوهُ لَكَ إِلَّا جَدَلًۢا ۚ بَلْ هُمْ قَوْمٌ خَصِمُونَ﴾ [الزخرف:٥٨] وأَبغَضُ الرِّجالِ إِلَى الله الأَلَدُّ الخَصِمُ.

فائدة: الفَترةُ وهي امتِداد بين عِيسى ومُحمَّد عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ لِحكمة؛ وذلك حتى يَعرِف الناس شِدَّة ضَرورتهم إلى الرِّسالة.

مسألةٌ: ذكَر بعض أهل العِلْم أنه من تَمام حُسْن أدَب الإنسان مع الله عَزَّوَجَلَّ، ومع رسوله ﷺ، ومع صَحابته ومع العُلَماء إذا ذُكِر الله تعالى قال: عَزَّوَجَلَّ. والنبيُّ يُصلِّي عليه، والعُلَماء يَترَحَّم عليهم، والصحابة يَترضَّى عليهم، هل هذا على إطلاقه؟ وهل مَن ترَكَه فاته خَيْر عَظيم؟

الجَوابُ: أمَّا من جهة الصَّلاة على النَّبيِّ ﷺ فإنه لا شَكَّ أنه إذا ذُكِر فإن الإنسان مَأمور بالصلاة عليه، إمَّا وجوبًا، وإمَّا استِحْبابًا، فمِن العُلَماء مَن أَوجَب عليك إذا ذُكِر عندك اسمُ الرسول أن تُصلِّيَ عليه لحَديث: «رَغِمَ أَنْفُ امْرِئٍ ذُكِرْتُ عِنْدَهُ فَلَمْ يُصَلِّ عَلَيْكَ قُلْ: آمِينَ. فَقُلْتُ: آمِينَ»(١).

وأمَّا الله عَزَّوَجَلَّ فليس بشَرْط الثَّناء عليه عند ذِكْره؛ ولهذا دائمًا يَقول الرسول ﷺ قَوْلًا يُسنِده إلى الله ولا يَذكُر وَصْفًا بالعِزَّة، أو الجَلال، أو التَّعالِي، أو التَّبارُك، أحيانًا يَقول وأَحيانًا لا يَقول، فكونُك أحيانًا تَقول وأحيانًا لا تَقول فهذا أحسَنُ.

وكذلك بالنِّسْبة للتَّرَضِّي عن الصحابة، أو التَّرحُّم على مَن بَعدهم، كل هذا لا يُتَّخَذ سُنَّة راتِبة، ولكن إن ذُكِر أحيانًا فهو حسَن، أمَّا اتِّخاذه سُنَّة راتِبة فهو يَحتاج إلى دَليل.

الْفَائِدَةُ الثَّالِثَةَ عَشْرَةَ: بَيان الصِّيغة التي تَقولها المَلائِكة في استِغْفارهم للمُؤمِنين، أنَّهم يَتوسَّلون أوَّلًا، ثُم يَطلُبون ثانيًا ﴿رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَّحْمَةً وَعِلْمًا فَاغْفِرْ

---

(١) أخرجه البزار في مسنده (١٠/ ١٩٢ رقم ٤٢٧٧)، من حديث جابر بن سمرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ. وأخرجه البخاري في الأدب المفرد رقم (٦٤٦)، وابن خزيمة في صحيحه رقم (١٨٨٨)، من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وليس فيه قوله: «قل: آمين». وأخرجه أبو يعلى في مسنده رقم (٥٩٢٢)، وابن حبان في صحيحه رقم (٩٠٧)، من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، بلفظ: «ومن ذكرت عنده فلم يصل عليك فمات فدخل النار فأبعده الله، قل: آمين، فقلت: آمين».

لِلَّذِينَ تَابُوا﴾ [غافر:٧].

الْفَائِدَةُ الرَّابِعَةَ عَشْرَةَ: سَعة رحمة الله؛ لقوله: ﴿رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَّحْمَةً﴾.

فإن قال قائِل: كيف يَصِحُّ ذلك وأكثرُ بني آدَمَ كُفَّار، فأين الرحمة؟

فالجوابُ: هم مَرحومون بالرَّحْمة العامة، فمَن يُخرِج لهم النَّبات، مَن يُنزِل لهم المطَر، مَن يَجعَلهم أصِحَّاءَ، مَن يُمتِّعهم بالسَّمْع والبصَر إلَّا الله، وهذه رحمة، فرَحْمة الله وسِعَت كلَّ شيء.

الْفَائِدَةُ الخَامِسَةَ عَشْرَةَ: سَعة عِلْم الله؛ لقوله: ﴿وَعِلْمًا﴾.

ويَترتَّب على هاتين الفائِدَتَيْن: أنَّ الإنسان مَتى علِمَ ذلك تَعرَّض لرحمة الله؛ لعله يَكون من الداخِلين فيها، وإذا آمَن بسَعة عِلْم الله استَحْيَى من الله أن يَفقِده حيث أمَره، أو يَجِده حيث نَهاه، فلو قال لك أَبوكَ: يا بُنَيَّ لا تَفعَل كذا. فأنت إذا غاب أبوكَ ولكَ هَوًى فيه تَفعَله لا شكَّ؛ لأنه لا يَعلَم بك، فإذا كان يُشاهِدك لا تَفعَله. فالله عَزَّوَجَلَّ لا يَغيب عنك، إذَنْ لا تَفعَله لا في السِّرِّ ولا في الجهر إذا كان فيما نَهى الله عنه، ولا تَتْرُكه إذا كان فيما أمَر به، ولهذا نَقول: لا يَفقِدُكَ الله حيث أمَرَك، ولا يَجِدك حيث نَهاك.

الْفَائِدَةُ السَّادِسَةَ عَشْرَةَ: فَضيلة التَّوْبة؛ حيث علقت المَلائِكة بطلَب المَغفِرة بها فقالوا: ﴿لِلَّذِينَ تَابُوا﴾.

الْفَائِدَةُ السَّابِعَةَ عَشْرَةَ: أنَّ من تَحقيق التوبة اتِّباعَ سبيل الله؛ لقوله: ﴿وَاتَّبَعُوا سَبِيلَكَ﴾؛ ولهذا نَجِد أنَّ الله تعالى يَقرُن دائِمًا مع التوبة ذِكْر العمَل الصالِح: ﴿إِلَّا مَن

تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَٰلِحًا﴾ [الفرقان:٧٠].

الْفَائِدَةُ الثَّامِنَةَ عَشْرَةَ: فضيلة الإسلام؛ لإضافته إلى الله عَزَّوَجَلَّ.

الْفَائِدَةُ التَّاسِعَةَ عَشْرَةَ: كمال الإسلام بإضافته إلى الله، ففيه الفَضيلة بإضافته إلى الله باعتِباره مُوصِلًا إليه، وفيه الكَمال بإضافته إلى الله باعتِباره واضِعًا له، أنه هو الذي شرَعَه، وهو كامِل، والكامل لا يَشرَع إلَّا كامِلًا.

الْفَائِدَةُ العِشْرُونَ: أنَّ المَلائِكة أكَّدوا المَغفِرة بحصول أثَرِها، وهي قولهم: ﴿وَقِهِمْ عَذَابَ ٱلْجَحِيمِ﴾، وذلك أنَّ التَّوْبة لا تَكون إلَّا بالوِقاية من الجَحيم، ولكنهم أكَّدوا ذلك لعِظَم هذا العَذابِ -عذاب الجَحيم- فنَصُّوا عليه لهذا السبَبِ، وإلَّا فإنَّ التَّوْبة في الحقيقة والمَغفِرة تُوجِب الوِقاية من عَذاب الجَحيم، ولكن النَّص عليه يَكون في ذلك زيادة على ما يَتَضمَّنه المَعنَى العامُّ.

الْفَائِدَةُ الحَادِيَةُ وَالعِشْرُونَ: الرَّدُّ على الجَبْرية، تؤخذ من قوله: ﴿وَٱتَّبَعُوا۟ سَبِيلَكَ﴾ فأَضاف الاتِّباع إليهم ولو كانوا مُجبَرين على ذلك لم يَصِحَّ أن يُضاف الفِعْل إليهم، ولهذا إذا أُكرِه الإنسان على الكُفْر لا يَكفُر؛ لأن الفِعْل لا يُنسَب إليه حقيقةً فهو مُكرَه عليه، والله أَعلَمُ.

الآية (٨)

• قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿رَبَّنَا وَأَدْخِلْهُمْ جَنَّٰتِ عَدْنٍ ٱلَّتِى وَعَدتَّهُمْ وَمَن صَلَحَ مِنْ ءَابَآئِهِمْ وَأَزْوَٰجِهِمْ وَذُرِّيَّٰتِهِمْ ۚ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴾ [غافر:٨].

قال الله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ: ﴿رَبَّنَا وَأَدْخِلْهُمْ جَنَّٰتِ عَدْنٍ ٱلَّتِى وَعَدتَّهُمْ﴾ هذا من جملة دُعاء الذين يَحمِلون العَرْش ومَن حولَه، يَقولون: ﴿رَبَّنَا وَأَدْخِلْهُمْ جَنَّٰتِ عَدْنٍ﴾ ربَّنا؛ أي: يا ربَّنا، وكرَّروا النِّداء بالربوبية؛ لأنهم كانوا بالأوَّل يَسأَلون الله المَغفِرة لهم، ووِقاية عَذاب الجَحيم، وهذا من باب التَّخلية؛ أي: السلامة ممَّا يَضُرُّ، أمَّا الثاني: فهو من باب التَّحلية؛ أي: من باب حُصول المَطلوب ﴿رَبَّنَا وَأَدْخِلْهُمْ جَنَّٰتِ عَدْنٍ ٱلَّتِى وَعَدتَّهُمْ﴾ فترَى الجُملة الأُولى من الدُّعاء فيها النَّجاة من المَرهوب، والثانية فيها حُصول المَطلوب، ولهذا كرَّروا قولَهم: ربَّنا.

﴿رَبَّنَا وَأَدْخِلْهُمْ﴾ وجعَلوا هذه الجُمْلةَ مَعطوفة على ما سبَقَ لا مُستأْنَفة؛ أي لم يَقولوا: ربَّنا أَدخِلهم. قالوا: وأَدخِلهم؛ لتَحقُّق ما قبلَها؛ لأن العَطْف يَقتَضي ثُبوت المعطوف عليه وكونه أصلًا، فكأنهم قالوا: ربَّنا واجمَعْ لهم مع ما سبَقَ أن تُدخِلَهم جنَّاتِ عَدن.

وقوله: ﴿جَنَّٰتِ﴾ جَمْع جنَّة، والجَنَّة تَأتِي في القُرآن مجموعة وتَأتي مُفرَدة، فباعتِبار الجِنْس هي جَنَّة واحِدة، وباعتِبار الأنواع هي جِنان، ذكَر الله تعالى فيها أربعة

أنواع في مَوضِع واحِد: ﴿وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ جَنَّتَانِ﴾ [الرحمن:٤٦] ﴿وَمِن دُونِهِمَا جَنَّتَانِ﴾ [الرحمن:٦٢]، فهي تُجمَع باعتبار الأنواع، وتُفرَد باعتِبار الجِنْس.

والجَنَّة في الأصل البُستان الكثير الأشجار، وسُمِّيَ بذلك؛ لأنه يَجِنُّ مَن فيه. أي: يَستُره لكَثْرة أشجاره. والمُراد بها شَرْعًا دار النَّعيم التي أَعَدَّها الله تعالى لأَوْليائه، فيها ما لا عَينٌ رأَتْ، ولا أُذُنٌ سمِعَت، ولا خطَرَ على قَلْب بشَرٍ، وسَقْفها عَرْش الله عَزَّوَجَلَّ، فهم أَقرَب الناس إلى الله.

وقوله: ﴿جَنَّتِ عَدْنٍ﴾ العَدْن بمَعنى الإقامة، يُقال: عدن بمَكان، أي: أَقام، ومنه سُمِّي المَعدِن لَمعادِن الأرض؛ لأن المَعدِن مُقيم ثابِت راسِخ في الأرض، فجَنَّات عدن أي: جنَّات إقامة، ووُصِفت بذلك؛ لأن أهلَها لا يَبغون عنها حولًا، ولأنها دائِمة أبَدَ الآبِدين.

وقوله: ﴿ٱلَّتِى وَعَدتَّهُمْ﴾ صِفة لـ﴿جَنَّتِ﴾، وإنَّما قالوا ذلك اعتِرافًا بفَضْل الله تعالى أوَّلًا وآخِرًا، وتَوسُّلًا إليه بتَحقيق ما طلَبوا؛ لأنَّ الله إذا وعَد شيئًا أَتمَّه، فإنه لا يُخلِف المِيعاد، فصار ذِكْر قول: ﴿ٱلَّتِى وَعَدتَّهُمْ﴾ له فائِدتان:

الأُولى: الاعتِراف بفَضْله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ؛ حيث وعَدَهم هذه الجَنَّاتِ.

الثانية: التَّوسُّل إلى الله تعالى بإجابة الدُّعاء، كأنهم يَقولون: أَدخِلهم هذا؛ لأنك وعَدْتهم إيَّاه، فيَكون من باب التَّوسُّل بوَعْده إلى تَحقُّق مَوْعوده.

وقوله: ﴿وَمَن صَلَحَ مِنْ ءَابَآئِهِمْ وَأَزْوَٰجِهِمْ وَذُرِّيَّٰتِهِمْ﴾ مَن صلَح يَقول المفَسِّر رَحِمَهُٱللَّهُ: [عَطْف على (هُمْ) في ﴿وَأَدْخِلْهُمْ﴾ أو في ﴿وَعَدتَّهُمْ﴾]، فالواو حرف عَطْف، و﴿وَمَن﴾ اسم مَوْصول مَبنيٌّ على السُّكون في مَحَلِّ نَصْب عطفًا على

﴿وَأَدۡخِلۡهُمۡ﴾ أو على ﴿وَعَدتَّهُمۡ﴾، والأحسَنُ أن يَكون عطفًا على ﴿وَأَدۡخِلۡهُمۡ﴾، فيَكون الدُّعاء بالدُّخول شامِلًا لهم ولِمَن صلَح من آبائهم وأزواجهم وذُرِّيَّاتهم.

فقوله: ﴿وَمَن صَلَحَ مِنۡ ءَابَآئِهِمۡ وَأَزۡوَٰجِهِمۡ وَذُرِّيَّٰتِهِمۡۚ إِنَّكَ أَنتَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ﴾ هذا احتِرازٌ جيِّد حيث قالوا: ﴿وَمَن صَلَحَ﴾ ولم يَقولوا: وآبائِهم وأزواجهم وذُرِّيَّاتهم، قالوا: ﴿وَمَن صَلَحَ﴾؛ لأنهم لو دعَوْا بالعُموم لكان فيه نوع من الاعتِداء في الدُّعاء؛ لأن الاعتِداء في الدُّعاء هو أن يَدعوَ الإنسان بما لا يُمكِن شَرْعًا أو حِسًّا، كل مَن دعا الله تعالى بما لا يُمكِن شَرْعًا أو حِسًّا فإنه مُعتَدٍ في الدعاء، ولو زِدْنا أيضًا أو حِسًّا أو عادة فهو مُعتَدٍ، فلو سأَل الله تعالى أن يُخرِج له ولَدًا من جِدار بيته لكان هذا اعتِداءً في الدُّعاء، ولو سأَل الله تعالى أن يَجعَله نبيًّا لكان هذا اعتِداءً في الدُّعاء؛ لأن ذلك لا يُمكِن شرعًا، ولو سأَل الله أن يَجعَل السَّمواتِ والأرضَ بيَدِه لكان هذا مُعتَديًا في الدُّعاء؛ لأنه لا يُمكِن عَقْلًا، فما لا يُمكِن شرعًا، أو عقلًا، أو عادة، أو حِسًّا؛ فإنه لا يُدعَى الله به؛ لأن هذا اعتِداءٌ في الدُّعاء.

فهنا يَقول الله سُبۡحَانَهُۥ وَتَعَالَىٰ: ﴿وَمَن صَلَحَ مِنۡ ءَابَآئِهِمۡ﴾ لو قالوا: آباءهم لكان فيه نَوْع من الاعتِداء حيث إن آباء هَؤلاءِ قد يَكونون مُشرِكين كُفَّارًا، لا يَستَحِقُّون أن يَدخُلوا الجَنَّة، فيَقول: ﴿وَمَن صَلَحَ مِنۡ ءَابَآئِهِمۡ وَأَزۡوَٰجِهِمۡ﴾ جمع زَوْج، ﴿وَذُرِّيَّٰتِهِمۡ﴾ جمع ذُرِّيَّة، فذكَروا الأصول والفُروع والمُصاهَرة، الأُصول والفُروع: آباء وذُرِّيَّات، والمُصاهَرة: أزواج.

أمَّا إذَا قالَ القَائِل في دُعائِه: اللهُمَّ اغفِرْ لنا ولآبائنا وذُرِّيَّاتنا وإخواننا، وجَدَّاتنا وأجدادنا، وخالاتِنا وأَخْوالنا، وعمَّاتنا وأعمامنا، والأصول والفُروع والحَواشي، هذا ليس تكرارًا للدُّعاء، إنما هو تكرار للمَدعوِّ لهم، وأنت تَرى المَلائِكة الآنَ ما دعَت

إلَّا لثلاثة أصنافٍ فقَطْ: الأصول، والفُروع، والأصهار -الزَّوْجات- لكن لا نَقول في هذا شيئًا، لا نُنكِر عليه، لكن كونه يُطوِّل على الناس بمِثْل هذه الأشياءِ قد يَكون فيه مضَرَّة على الناس وتعَب.

قوله: ﴿إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ هذه جُمْلة استِئْنافية يُراد بها التَّوسُّل إلى الله تعالى بعِزَّته وحِكْمته أن يُحقِّق هذا الدُّعاءَ أو هذا المَدعوَّ به.

من فوائدِ الآيةِ الكريمةِ:

الْفَائِدَةُ الأُولَى: إثبات أن المَلائِكة عِباد مَربوبون؛ لقولهم: ﴿رَبَّنَا وَأَدْخِلْهُمْ﴾ إلى آخِره.

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَةُ: أنَّ الشيءَ لا يَتِمُّ إلَّا بانتِفاء المُؤذِي وحُصول المَطلوب؛ وجهُ ذلك أنَّهم لَمَّا انتَهَوْا من دعاء الله تعالى بانتِفاء المُؤذِي سأَلوا الله تعالى حُصول المَطلوب، وهو إدخال الجَنَّات.

الْفَائِدَةُ الثَّالِثَةُ: أنَّ الجَنَّاتِ أنواعٌ، نَستَفيد هذا من الجَمْع في قوله: ﴿جَنَّٰتِ عَدْنٍ﴾.

الْفَائِدَةُ الرَّابِعَةُ: أنَّ الجَنَّاتِ دارُ إقامة، لا يَبغِي ساكِنُها تَحوُّلًا عنها، ولا يَلحَقه فَناء؛ لقوله: ﴿جَنَّٰتِ عَدْنٍ﴾.

الْفَائِدَةُ الخَامِسَةُ: التَّوسُّل إلى الله تعالى بفِعْله أو قوله؛ لقوله: ﴿ٱلَّتِي وَعَدتَّهُمْ﴾ فإنَّ وَعدَه قول، وهَؤلاء المَلائِكة تَوسَّلوا إلى الله بهذا القولِ.

الْفَائِدَةُ السَّادِسَةُ: بيانُ فَضْل الله عَزَّوَجَلَّ على أهل الجَنَّة أوَّلًا وآخِرًا: أوَّلًا: حيث وعَدهم الجَنَّة؛ لأن الوعد بالجَنَّة يَقتَضي العمَل لها. وآخرًا: بإدخالهم إيَّاها.

الْفَائِدَةُ السَّابِعَةُ: أنَّ من تَمام النَّعيم أن يَجمَع الله بين الإنسان وبين قَرابته وزَوْجه؛

لقوله: ﴿رَبَّنَا وَأَدْخِلْهُمْ جَنَّٰتِ عَدْنٍ ٱلَّتِى وَعَدتَّهُمْ وَمَن صَلَحَ مِنْ ءَابَآئِهِمْ﴾ [غافر:٨] إلى آخِره.

فإن قال قائِل: هل يَلزَم من ذلك أن يَكونوا في درَجة واحِدة؟

قلنا: لا يَلزَم، ولكن الأزواج لا بُدَّ أن يَكونوا في درَجة أزواجهم، والذُّرِّية ذكَر الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ في سُورة الطُّور أنهم في درَجة آبائِهم أيضًا، قال الله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَٱتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُم بِإِيمَٰنٍ أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَمَآ أَلَتْنَٰهُم مِّنْ عَمَلِهِم مِّن شَىْءٍ﴾ [الطور:٢١].

وهذا يَدُلُّ على أنَّ الذُّرِّيَّة الذين لم يَبلُغوا مَنازِل آبائهم أنَّهم يُرفَعون حتى يَكونوا في مَنازِل آبائِهم، وأن ذلك لا يَقتَضي نَقْص الآباء من المَنازِل، يَعنِي لا نَقول: إن الحَلَّ الوسَط أن نَرفَع هؤلاءِ قليلًا، ونُنزِل هؤلاءِ قليلًا؛ ولذلك قال: ﴿وَمَآ أَلَتْنَٰهُم مِّنْ عَمَلِهِم مِّن شَىْءٍ﴾ لئَلَّا يَظُنَّ الظانَّ أنه إذا رُفِعَت الذُّرِّية فإنها تُرفَع قليلًا، ويُنزَل الآباء بمِقدار ما رُفِع هؤلاء؛ ليَلتَقوا في نُقْطة الوسَط، وهذا ليس كذلك؛ لأنه لو نزَل الآباء قليلًا لزِمَ من ذلك أن يُنقَصوا، ولكن الله يَقول: ﴿وَمَآ أَلَتْنَٰهُم﴾؛ أي: ما نَقَصْناهم، أي: الآباء ﴿مِّنْ عَمَلِهِم مِّن شَىْءٍ ۚ كُلُّ ٱمْرِئٍۭ بِمَا كَسَبَ رَهِينٌ﴾ [الطور:٢١].

الْفَائِدَةُ الثَّامِنَةُ: الاحتِرازُ في الدُّعاء عن التَّعميم؛ لقولهم: ﴿وَمَن صَلَحَ مِنْ ءَابَآئِهِمْ وَأَزْوَٰجِهِمْ﴾، ومن ذلك قولُ إبراهيمَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: ﴿وَٱرْزُقْ أَهْلَهُۥ﴾؛ أي: أهل المَسجِد الحَرام، ﴿مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ مَنْ ءَامَنَ مِنْهُم بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ﴾، أهله، ثُمَّ أَبدَل منها قوله: ﴿مَنْ ءَامَنَ مِنْهُم بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ﴾ فاحترَز.

ولكن الله تعالى قال: ﴿وَمَن كَفَرَ﴾ يَعنِي: ارزُقْ مَن في هذا البلَدِ، ولو كانوا كُفَّارًا، لكن: ﴿وَمَن كَفَرَ فَأُمَتِّعُهُۥ قَلِيلًا ثُمَّ أَضْطَرُّهُۥٓ إِلَىٰ عَذَابِ ٱلنَّارِ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ﴾ [البقرة:١٢٦].

المُهِمُّ: أنه يَنبَغي للإنسان في الدُّعاء أن يَحتَرِز من التَّعميم الذي قد يَتَناوَل مَن

لا يَستَحِقُّ الدُّعاء، فيَكون في دُعائه هذا نوع من الاعتِداء.

الْفَائِدَةُ التَّاسِعَةُ: إثبات هذَيْن الاسمَيْن: العزيز والحكيم من أسماء الله، وإثبات ما تَضمَّناه من الوَصْف، أو من الصِّفة، فالعَزيز مُتضَمِّن للعِزَّة، والحَكيم مُتضمِّن للحِكْمة والحُكْم.

الْفَائِدَةُ الْعَاشِرَةُ: التَّوسُّل إلى الله تعالى في الدُّعاء بأَسْمائه.

فإن قال قائِل: سبَق أنَّ التَّوسُّل بالأسماء يَنبَغي أن يَكون مُطابِقًا للسؤال أو للمَسؤول، وهنا ما مُناسَبة العِزَّة والحِكْمة للدُّعاء بإدخال هَؤلاء الجَنَّة؟

فالجوابُ: الظاهِر -واللهُ أَعلَمُ- أن المُطابَقة أنهم دعَوْا أن الله يُدخَل مَن صلَح مِن ﴿ءَابَآئِهِمۡ وَأَزۡوَٰجِهِمۡ وَذُرِّيَّٰتِهِمۡ﴾، وهذا أَمْر يَحتاج إلى عِزَّة وتَمام سُلْطة، وإلى حُكْم وحِكْمة؛ فلهذا ختَموا هذا الدُّعاء بقَوْلهم: ﴿إِنَّكَ أَنتَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ﴾ دون أن يَقولوا: إنك ذو الفَضل العَظيم.

وإن قال قائِل: إذا خالَف الوَصْف الدعاء، هل يَكون اعتِداءً، يَعنِي إذا قُلت: اللَّهُمَّ اهْدِ الكَفَرَةَ والمُشرِكين، أو أذِلَّ الشِّرْك والمُشرِكين برحمتك يا أَرحَمَ الراحِمين. فإن هذا اعتِداءٌ؟

فالجوابُ: لا، بل هذا غلَط، قال الله تعالى: ﴿وَمَن تَقِ ٱلسَّيِّـَٔاتِ يَوۡمَئِذٖ فَقَدۡ رَحِمۡتَهُۥ﴾، فهذا زوال مَكروهٍ، وإذلالُ الشِّرْك لا شَكَّ أنه نِعْمة ورحمة.

الْفَائِدَةُ الحَادِيَةَ عَشْرَةَ: التَّرتيب الوُجودي في الأشياء؛ لقوله: ﴿ءَابَآئِهِمۡ وَأَزۡوَٰجِهِمۡ وَذُرِّيَّٰتِهِمۡ﴾، فهذا هو التَّرتيب: أبٌ، ثُم زَوْج، ثُمَّ ذُرِّيَّة، فهذا تَرتيب وُجودي، ولا شَكَّ أن هذا من مُحسِّنات اللَّفْظ.

• • ۞ • •

الآية (٩)

قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَقِهِمُ ٱلسَّيِّـَٔاتِۚ وَمَن تَقِ ٱلسَّيِّـَٔاتِ يَوۡمَئِذٖ فَقَدۡ رَحِمۡتَهُۥۚ وَذَٰلِكَ هُوَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡعَظِيمُ﴾ [غافر:٩].

ثُم قال الله تعالى: ﴿وَقِهِمُ ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾، هذا مَعطوف على ما سبَق، على قوله: ﴿وَأَدۡخِلۡهُمۡ﴾؛ أي: ﴿وَقِهِمُ ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾ والجُملة فِعْل أَمْر وفاعِل ومَفعول به، بل ومَفعولان، الجُملة تَتضمَّن فِعلًا وفاعِلًا ومَفعولين، الفِعل (قِ)، والفاعِل مُستَتِر وجوبًا، والمَفعول الأوَّل الهاء، والمَفعول الثاني السَّيِّئات، و(قِ) هنا فِعْل أَمْر، لكنه مُكوَّن من حَرْف واحد بعد أن حُذِف منه حُرْفان؛ الأوَّل والثالث، وهكذا كل مِثال ناقِص إذا كان ثلاثِيًّا فإن فِعْل الأمر منه على حَرْف واحِد، هذه القاعِدةُ، كل مِثال ناقِص ففِعْل الأَمْر منه إذا كان ثُلاثيًّا على حَرْف واحد.

والمِثال هو: الذي أوَّله حَرْف عِلَّة، والناقِص: الذي آخِره حَرْف عِلَّة.

إِذَنِ: القاعِدة هذه تَشمَل أمثِلة كَثيرة، وقد جمَعها الخُضَريُّ في حاشِية ابن عَقيل على أَلْفية ابنِ مالِك(١) جمَعها في أبيات، منها: قِ فِ عِ يَعنِي عدَّد، لكن الضابِط هو هذا، كل ثُلاثي كان مِثالًا ناقِصًا ففِعْل الأمر منه على حَرْف واحِد.

وقوله: ﴿وَقِهِمُ ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾ قال المفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [أي: عَذابها]، وهذا إذا جعَلْنا

(١) حاشية الخضري على شرح ابن عقيل (١/ ٣١).

السيِّئاتِ بمَعنى الأعمال السيِّئاتِ، فإنه يَتعيَّن أن نُفسِّر ذلك بعذاب السَّيِّئات؛ لأنَّ عمَل السَّيِّئات الآنَ قد انتَهى وقته، وإنَّما المَوْجود هو الجزاء، فيُفسَّر حينَئِذٍ بالعذاب.

وأمَّا إذا فسَّرنا السَّيِّئاتِ بما يَسوء دون العمَل الذي يَقَع من العبد، فإنه لا حاجةَ إلى أن نَقول: عذابها؛ لأنَّ العَذاب ممَّا يَسوء، فكأنهم قالوا: وقِهِم ما يَسوؤُهم من العذاب، والقاعِدة في التَّفسير وفي شَرْح الأحاديث: أنَّه إذا دار الأَمْر بين احتِمال التَّقدير وعدَم التَّقدير، فالأَوْلى عدَمُ التَّقدير، وعلى هذا فنَقول: السَّيِّئاتُ هنا لا يُراد بها الأعمال السَّيِّئات التي هي فِعْل العَبْد قطعًا؛ لأن هذا قد انتَهى، وإنما يُراد بالسَّيِّئات ما يَسوء من أعمال، ومن عُقوبات، ومن عادات، ومن غير ذلك.

قال المفسِّر رَحِمَهُ اللَّهُ: [﴿وَمَن تَقِ ٱلسَّيِّـَٔاتِ يَوْمَئِذٍ﴾ يوم القِيامة ﴿فَقَدْ رَحِمْتَهُۥ﴾] مَنْ شرطيَّة، وجُملة ﴿فَقَدْ رَحِمْتَهُۥ﴾ جواب الشَّرْط، وإنَّما اقترَن جواب الشَّرْط بالفاء؛ لأنه مَبدوء بـ(قَدْ)، وجواب الشَّرْط إذا بُدِئ بـ(قَدْ) وجَب اقتِرانه بالفاء، وله نَظائِرُ ممَّا يَجِب اقتِرانه بالفاء.

المُهِمُّ: أنه يَجِب ارتِباط جواب الشَّرْط بالفاء إذا وقَع واحِدًا من سبعة أُمور، مجموعة في قول الناظِم:

اسْمِيَّةٌ طَلَبِيَّةٌ وَبِجَامِدٍ وَبِمَا ... وَقَدْ وَبِلَنْ وَبِالتَّنْفِيسِ(١)

التَّنفيس يَشمَل سوف والسِّين، وهذه الآيةُ من نوع قوله: ﴿فَقَدْ رَحِمْتَهُۥ﴾.

قوله: ﴿وَذَٰلِكَ﴾ المُشار إليه وِقاية السَّيِّئات والرحمة ﴿هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾ ﴿هُوَ﴾: يَجوز أن تَكون مُبتَدأ، و﴿ٱلْفَوْزُ﴾ خبَرُه، والجُملة من المُبتَدأ الثاني وخبَرِه

---

(١) غير منسوب، وانظر النحو الوافي (٤/ ٤٦٣).

خبرُ المُبتَدَأ الأوَّل، ويَجوز أن تكون ﴿هُوَ﴾ ضميرَ فَصْل لا مَحَلَّ لها من الإعراب، ويَكون التقديرُ: وذلك الفوزُ العَظيم، ويُؤيِّد هذا أنَّها تَأتي بهذه الصِّيغةِ في بعض المَواضِع ﴿وَذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾ [النساء:١٣].

وضَمير الفَصْل من حيثُ الإعرابُ لا مَحَلَّ له من الإعراب، أمَّا من حَيثُ المَعنَى فله ثَلاثُ فَوائِدُ:

الفائِدةُ الأُولى: الحَصْر.

والفائِدة الثانية: التَّوْكيد.

والفائدة الثالِثة: التَّمييز بين الصِّفة والخَبَر.

والتمييز بين الخَبَر والصِّفة يَظهَر هذا في المِثال.

إذا قُلت: زيدٌ الفاضِلُ. وأنت تُريد أن تَكون (الفاضِلُ) خبرَ المُبتَدَأ، فإنَّه يحتَمَل أن تَكون (الفاضِلُ) صِفةً، والخَبَر لم يأتِ بعدُ، ويُحتَمَل أن يَكون المُرادُ زيدٌ الفاضِل فاهِمٌ، ويُحتَمَل أن تَكون (الفاضِل) خبرَ المُبتَدَأ، فإذا جاءَت زيدٌ هو الفاضِل، زال الإشكال، وتَعيَّن أن تَكون (الفاضِل) خَبَرَ المُبتَدَأ.

أمَّا التَّوْكيد والحَصْر فظاهِر؛ لأنك إذا قلت: زَيدٌ هو الفاضِلُ. أكَّدْت أنه فاضِل، وحصَرْت الفَضْل فيه.

وقوله: ﴿ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾؛ الفَوْز: حُصول المَطلوب والنَّجاة من المَرهوب، والدَّليل على ذلك قوله تعالى: ﴿فَمَن زُحْزِحَ عَنِ ٱلنَّارِ وَأُدْخِلَ ٱلْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ﴾ [آل عمران:١٨٥] فالنَّجاةُ من المَرهوب في الآية ﴿فَمَن زُحْزِحَ عَنِ ٱلنَّارِ﴾ وحُصول المَطلوب ﴿وَأُدْخِلَ ٱلْجَنَّةَ﴾ ولا تَفسيرَ أبيَنُ وأَوْضحُ من تَفسير الله عَزَّوَجَلَّ، فالفوزُ

هو: النَّجاةُ من المَرْهوب وحُصول المَطلوب، والدليل ما سمِعْتم.

وقوله: ﴿ٱلْعَظِيمُ﴾ وَصْف له بالعَظَمة؛ لأنه لا فوزَ أعظَمُ من هذا، لا فوزَ أعظَمُ من أن يَمُنَّ الله عليك بسُكْنى هذه الدارِ -جعَلَني الله وإيَّاكم من ساكنيها- التي فيها ما لا عَيْنٌ رأَت ولا أُذُنٌ سمِعَت ولا خطَرَ على قَلْب بشَرٍ، كل الناس في الدُّنيا -المُؤمِنون- يَسْعون للوُصول إلى هذه الدارِ؛ ولهذا لمَّا قال الأعرابيُّ للنبيِّ ﷺ: يا رَسول الله، أنا لا أُحسِنُ دَنْدَنَتَكَ ولا دَنْدنةَ مُعاذٍ، ولكِنِّي أَسأَل الله الجَنَّةَ، وأَستَعيذُ به من النار فقال: «حَوْلهَا نُدَنْدِنُ»[1]، نحن لا نُريد إلَّا هذا، وهذا الحَديثُ وإن كان في صِحَّته ما فيه، لكن حَقيقة هو هذا، كل المُؤمنين يَعمَلون للوصول إلى هذه الدارِ، وهو -أي: العَمَل لها- يَسير، لكن على مَن يَسَّره الله عليه، ومتى يُيَسِّر الله عليك ذلك؟ اسمَعْ إلى قول الله تعالى: ﴿فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ وَٱتَّقَىٰ ۝٥ وَصَدَّقَ بِٱلْحُسْنَىٰ﴾، الجوابُ: ﴿فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلْيُسْرَىٰ﴾ [الليل:٥-٧]، اعمَلْ أنت كما قال النَّبيُّ ﷺ: «اعْمَلُوا فَكُلٌّ مُيَسَّرٌ لِمَا خُلِقَ لَهُ»[2].

من فوائدِ الآيةِ الكريمةِ:

الْفَائِدَةُ الأُولَى: أن المَلائِكة الذين يَحمِلون العَرْش ومَن حولَه يَسأَلون الله تعالى أن يَقِيَ الذين آمَنوا السَّيِّئاتِ؛ أي: عذابها حتَّى يَتِمَّ لهم المَطلوب.

---

(١) أخرجه الإمام أحمد (٣/ ٤٧٤)، وأبو داود: كتاب الصلاة، باب في تخفيف الصلاة، رقم (٧٩٢)، من حديث بعض أصحاب النبي ﷺ. وأخرجه ابن ماجه: كتاب الصلاة، باب التشهد في الصلاة، رقم (٤٤٦)، من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٢) أخرجه البخاري: كتاب التفسير، باب قوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ وَٱتَّقَىٰ﴾، رقم (٤٩٤٥)، وأخرجه مسلم: كتاب القدر، باب كيفية خلق الآدمي في بطن أمه، رقم (٢٦٤٧)، من حديث علي بن أبي طالب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

فإن قال قائِل: أَلَيْس هـذا حاصِلًا مِمَّا سبَق ﴿وَقِهِمُ عَذَابَ ٱلْجَحِيمِ﴾، ﴿وَأَدْخِلْهُمْ جَنَّٰتِ عَدْنٍ﴾؟

قلنا: بلى، ولكن مَقام الدُّعاء يَنبَغي فيه البَسْط لعِدَّة أَسباب:

السبَب الأوَّل: أنَّ الدُّعاء عِبادة، فكُلَّما بَسَطْتَ فيه ازدَدْتَ تَعبُّدًا لله، وازدَدْتَ ثَوابًا وأَجْرًا.

الثاني: أنَّ البَسْط فيه التَّفصيل، والتَّفصيل خَيْر من الإجمال؛ لأنَّ الإِجْمال قد يَنسَى الإنسان فيه أَشياءَ مُهِمَّةً، ولا تَطرَأ على باله، لكن إذا فصَّل تبيَّن الأَمْر.

الثالِث: أن التَّفْصيل في الدُّعاء انبِساط مع الله عَزَّوَجَلَّ؛ لأن الداعِيَ يُناجِي ربَّه.

ومن المَعلوم أن مُناجاة المَحبوب يُستَحَبُّ فيها التَّطويل، أو نَقول بعِبارة ثانية: من المَعلوم أن مُناجاة المَحبوب يُحِبُّ الحَبيب أن تَطول المُناجاةُ بينه وبين حَبيبه، وهذا شيء مُشاهَد، إذا جلَس إليك مَن تُحِبُّ، فإنَّك تَوَدُّ أن يَطول الحَديث، ويَطول الجُلوس حتى إنَّ الزمَن يَنفَرِط بسرعة، وإن جلَس إليك الثَّقيل، قلت:

إِذَا حَلَّ الثَّقِيلُ بِدَارِ قَوْمٍ ... فَمَا لِلسَّاكِنِينَ سِوَى الرَّحِيلِ[1]

فأحيانًا يَجلِس إليك الثَّقيل، يُخاطِبك ويُكلِّمك، كلَّما خاطَبك بكلِمة ولو كانت ثَناءً عليك كأنَّما صفَع وَجْهَك؛ لأنَّك يَكون عندك كأنه جالِس على قلبك، لكن الحَبيب إذا جلَس إليك لا تَوَدُّ أن تُفارِقه، ولا تَمَلُّ حَديثه، ولكن من خير الجُلَساء؟

---

(١) انظر: روض الأخيار المنتخب من ربيع الأبرار لابن قاسم الأماسي (ص:٣٤٤).

لَنَــا جُلَسَــاءُ لَا نَمَــلُّ حَــدِيثَهُمْ أَلِبَّــاءُ مَــأْمُونُونَ غَيْبًــا وَمَشْــهَدًا[١]

يَعنِي بذلِك: الكُتُب.

أَعَــزُّ مَكَــانٍ فِي الــدُّنَا سَرْجُ سَــابِحٌ وَخَيْرُ جَلِيسٍ فِي الزَّمَــانِ كِتَــابُ[٢]

هَؤلاءِ همُ الجُلَساء الذين لا يَملُّون والذين يَنفَعون ولا يَضُرُّون.

فيَنبَغي البَسْط في الدُّعاء لثلاثة أَسْباب:

السبَبُ الأَوَّل: لأنه عِبادة، فكُلَّما بسَطْت فيه ازدَدْتَ تَعبُّدًا وتَقرُّبًا لله.

الثاني: أنه تَفصيل، والتَّفصيل خَيْر من الإجمال؛ لأنه قد يَكون في التَّفْصيل ما يَغيب عنك عند الإِجْمال.

والثالث: أنه انبِساطٌ مع الله الذي هو أَحَبُّ شيءٍ إليك، والحَديث مع المَحبوب لا شَكَّ أن كل أحَدٍ يُحِبُّ أن يَطول.

وانظُرْ إلى قول الرسول عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: «**اللَّهُمَّ اغْفِرْ لِي ذَنْبِي كُلَّهُ، دِقَّهُ وَجِلَّهُ، عَلَانِيَتَهُ وَسِرَّهُ، وَأَوَّلَهُ وَآخِرَهُ، اللَّهُمَّ اغْفِرْ لِي مَا قَدَّمْتُ وَمَا أَخَّرْتُ، وَمَا أَعْلَنْتُ وَمَا أَسْرَرْتُ، وَمَا أَنتَ أَعْلَمُ بِهِ مِنِّي**»[٣]، يَكفِي عن هذا كلِّه أن يَقول: اللَّهُمَّ اغفِرْ لي ذَنْبِي، لكن البَسْط له تَأثير على القَلْب.

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَةُ: أن مَن وُقِيَ السَّيِّئاتِ يوم القيامة؛ فقد دخَل في رحمة الله؛ لقوله: ﴿وَمَن تَقِ ٱلسَّيِّـَٔاتِ يَوْمَئِذٍ فَقَدْ رَحِمْتَهُۥ﴾.

---

(١) انظر: سراج الملوك لأبي بكر الطرطوشي (ص:٢٠٧).

(٢) البيت للمتنبي، انظر: ديوانه (ص:٤٧٩).

(٣) أخرجه مسلم: كتاب الصلاة، باب ما يقال في الركوع والسجود، رقم (٤٨٣)، من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

الْفَائِدَةُ الثَّالِثَةُ: أن الرَّحْمة كما تَكون في جَلْب المَحبوب تَكون في دَفْع المَكروه؛ لقوله: ﴿وَمَن تَقِ ٱلسَّيِّـَٔاتِ يَوْمَئِذٍ فَقَدْ رَحِمْتَهُۥ﴾.

الْفَائِدَةُ الرَّابِعَةُ: أن هذا أعظَمُ فوزٍ؛ لقوله تعالى: ﴿وَذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾، ووجهه: أنه أَشار إليه بإشارة البَعيد؛ للدَّلالة على عُلوِّ هذا الفَوْزِ، ووَصَفه بالعَظَمة، فيَكون جامِعًا بين عُلوِّ المَرتَبة وعُلوِّ الماهِيَة أنه عَظيم.

فإن قال قائِل: قلنا: هو الفَوْز العظيم في قول الله تَبَارَكَ وَتَعَالَى: ﴿فَمَن زُحْزِحَ عَنِ ٱلنَّارِ وَأُدْخِلَ ٱلْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ﴾ هل يَدخُل النظَر إلى الله عَزَّ وَجَلَّ في هذه الآيةِ؟

فالجوابُ: أي نعَمْ؛ لأن الجَنَّة وما فيها فَوْز، دخول الجَنَّة فَوْز، وأَعظَمُ النعيم في الجَنَّة هو النظَر إلى وجه الله؛ ولهذا ذكَرْنا أن قول الزَّمَخْشريِّ: «أي فَوْز أعظَمُ من هذا»[1] قلنا: هذه كلِمة حقيقةٌ، ولا يُعترَض عليها إلَّا لأننا نَعلَم أن الرجُل لا يُثبِت النظَرَ إلى وجهِ الله، وإلَّا لقُلْنا: متى دخَلْت الجَنَّة فأنت دخَلْت الجَنَّة بكل ما فيها من النعيم.

• • ۞ • •

(١) انظر: الكشاف (١/ ٤٤٩).

الآية (١٠)

• قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يُنَادَوْنَ لَمَقْتُ ٱللَّهِ أَكْبَرُ مِن مَّقْتِكُمْ أَنفُسَكُمْ إِذْ تُدْعَوْنَ إِلَى ٱلْإِيمَٰنِ فَتَكْفُرُونَ﴾ [غافر:١٠].

قوله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يُنَادَوْنَ﴾ والنِّداء: هو الكَلام من بعيد، والمُناجاة الكَلام من قَريب، ولم يُبيِّنِ الله تعالى مَن يُناديهم، لكن المفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ قال: [من قِبَل المَلائِكة]، وذلك عند دُخولهم النار، وهم يَمقُتون أنفسهم في ذلك الوقت أكبَرَ مَقْتٍ -والمَقْت: هو أشَدُّ البُغض-، فهم في ذلك الوقتِ عند دُخولهم النار يُبغِضون أنفسهم بُغضًا شديدًا؛ حيث لم يَتوصَّلوا إلى النَّجاة منها، فيُنادَوْن فيُقال لهم: ﴿لَمَقْتُ ٱللَّهِ أَكْبَرُ مِن مَّقْتِكُمْ أَنفُسَكُمْ﴾ اللَّام هنا لام الابتِداء، وتَدخُل على المُبتَدأ تَوْكيدًا.

وقوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿لَمَقْتُ ٱللَّهِ﴾ إيَّاكم]، هذا أحَد الوَجْهين في الآية، وعلى هذا فيَكون المَقْت مُضافًا إلى فاعِله لا إلى مَفعوله، يَعنِي: لبُغْض الله إيَّاكم أشَدُّ من بُغْضكم أنفُسِكم، وقيل: إنه مُضاف إلى مَفعوله لا إلى فاعِله، وعلى هذا يَكون المَعنَى: لَمَقتُكمُ الله حين تُدْعَوْن إلى الإيمان أكبَرُ من مَقْتكم أنفسِكم اليومَ، أي: أنهم كرِهوا ما دُعُوا إليه في الدُّنيا من محبَّة الله، وأُبدِلوا ذلك بأشَدِّ البُغض، وهذا المَعنى أَقرَبُ ممَّا مشَى عليه المفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿لَمَقْتُ ٱللَّهِ﴾ إيَّاكم]، وعلى ما رجَّحْنا يَكون المعنى: لَمَقتُكم الله، فهو مُضاف إلى مَفعوله.

متى مَقَتوا الله؟ الجواب: ﴿إِذْ تُدْعَوْنَ إِلَى ٱلْإِيمَٰنِ﴾ وعلى هذا فيَكون قوله: ﴿إِذْ تُدْعَوْنَ﴾ مُتعلِّقًا بقوله: ﴿لَمَقْتُ ٱللَّهِ﴾، أي: أنَّكم حينما دُعِيتم إلى الإيمان كرِهتم ذلك، ولم تَقتَنِعوا به، بل أَبغَضْتُموه أشدَّ البُغْض.

وقوله: ﴿أَكْبَرُ مِن مَّقْتِكُمْ أَنفُسَكُمْ﴾ مَقَتوا أنفسهم حين قيل لهم: ادخُلوا نار جهَنَّمَ، فأَبغَضوا أَنفُسَهم، وقوله: ﴿مِن مَّقْتِكُمْ أَنفُسَكُمْ﴾ مَقْت هنا مَصْدر مُضاف إلى فاعِله، يَعنِي: أنَّهم هم مَقَتوا أَنفُسهم، وأَنفُس مَفعول مَقْت.

وقوله: ﴿إِذْ تُدْعَوْنَ إِلَى ٱلْإِيمَٰنِ فَتَكْفُرُونَ﴾ تُدعَون في الدُّنيا إلى الإيمان، وأُبهِم الداعِي؛ لأن دَعْوتهم إلى الإيمان تَكون من الرُّسُل، وتَكون من ورَثة الرُّسُل، وهُم العُلَماء، فالداعِي لهم إلى الإيمان في الدُّنيا ليس واحِدًا، بل هُمُ الرُّسل يَدعونهم، وورَثة الرُّسُل وهم العُلَماء يَدْعونهم كذلك.

وقوله: ﴿إِذْ تُدْعَوْنَ إِلَى ٱلْإِيمَٰنِ فَتَكْفُرُونَ﴾، الإيمان بالله، ومَلائِكته، وكُتُبه، ورُسُله، واليوم الآخِر، والقدَر خَيرِه وشَرِّه، هذا هو الإيمان كما فسَّره النَّبيُّ ﷺ حين سأَله جِبريلُ قال: «أَخْبِرْنِي عَنِ الْإِيمَانِ؟ قَالَ: أَنْ تُؤْمِنَ بِاللهِ...» إلى آخِره[1].

فقوله: ﴿إِذْ تُدْعَوْنَ إِلَى ٱلْإِيمَٰنِ فَتَكْفُرُونَ﴾ المُراد بالإيمان هنا -كما ذكَرْت لكم- هو الإيمان بالأركان السِّتَّة، وكذلك الانقِياد اللازِم من الإيمان بهذه الأَرْكانِ السِّتَّة؛ ولهذا هم دُعُوا إلى الإيمان الذي في القُلوب، ودُعُوا إلى الاستِسْلام أيضًا وهو أعمال الجَوارِح، وكفَروا بذلك كلِّه، ﴿إِذْ تُدْعَوْنَ إِلَى ٱلْإِيمَٰنِ فَتَكْفُرُونَ﴾.

---

(١) أخرجه مسلم: كتاب الإيمان، باب بيان الإيمان والإسلام، رقم (٨)، من حديث عمر رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ.

من فوائد الآية الكريمة:

الْفَائِدَةُ الأُولَى: بيانُ أن الكافِرين يُوبَّخون يوم القِيامة تَوْبيخًا يَزيدهم ألَمًا إلى أَلَمِهم؛ لقوله: ﴿لَمَقْتُ ٱللَّهِ أَكْبَرُ مِن مَّقْتِكُمْ أَنفُسَكُمْ﴾.

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَةُ: أنهم تَبيَّن لهم ما هم عليه من الضَّلال والكُفْر حين رأَوُا العِقاب، وجهُه: أنهم مقَتوا أَنفُسهم في ذلك الوقتِ حين رأَوُا العَذاب، وهذا يَدُلُّ على أنهم تَبيَّن لهم الضَّلال في ذلك اليومِ.

الْفَائِدَةُ الثَّالِثَةُ: إثبات المَقْتِ لله؛ أي: أن الله يَمقُت. أي يُبغِض. هذا على ما مَشَى عليه المفَسِّر من أن (مَقْت) مُضافة إلى الفاعِل.

وإذا قُلنا بالقَوْل الراجِح: لم يَكُن في الآية دليلٌ على أن الله يَمقُت، لكن الدَّلالة على أن الله يَمقُت وأن له مَقْتًا من أدِلَّة أخرى، مثل قوله تعالى: ﴿كَبُرَ مَقْتًا عِندَ ٱللَّهِ أَن تَقُولُوا۟ مَا لَا تَفْعَلُونَ﴾ [الصف:٣]، والمَقْتُ: أشَدُّ البُغض، والبُغْض هو من الصِّفات الفِعْلية التي تَتعلَّق بمَشيئته وإرادته.

الْفَائِدَةُ الرَّابِعَةُ: أنَّ الإنسان قد يَكرَه نَفْسه، ويَكون ذلك إذا رأَى من تَصرُّفه ما يَسوؤُه، فإنه يَكرَه نفسه ويَقول: هذا من النَّفْس الأمَّارة بالسُّوء.

الْفَائِدَةُ الخَامِسَةُ: أن الحُجَّة قد قامَت على هؤلاء المُكذِّبين المُعذَّبين؛ لقوله: ﴿إِذْ تُدْعَوْنَ إِلَى ٱلْإِيمَٰنِ فَتَكْفُرُونَ﴾، وهل الدَّعْوة دَعْوة بإفهام أو دَعْوة بمُجرَّد البَلاغ؟

الجواب: الأوَّلُ؛ دَعْوة بإفهام؛ لقول الله تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِۦ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ﴾ [إبراهيم:٤]، فلا بُدَّ من فَهْم الحُجَّة، ولكن إذا بلَغَتِ الإنسانَ فالواجِبُ عليه أن يَبحَث عن الفَهْم، فإن لم يَفعَل كان مُقصِّرًا.

الْفَائِدَةُ السَّادِسَةُ: أن هَؤلاءِ كفَروا عن عِناد، يُؤخَذ ذلك من قوله: ﴿إِذْ تُدْعَوْنَ إِلَى ٱلْإِيمَـٰنِ فَتَكْفُرُونَ﴾؛ لأنهم دُعُوا فكَفَروا، وهذا كُفْر عِناد، والعِياذُ بالله.

الآية (١١)

• • • •

۞ قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿قَالُواْ رَبَّنَآ أَمَتَّنَا ٱثْنَتَيْنِ وَأَحْيَيْتَنَا ٱثْنَتَيْنِ فَٱعْتَرَفْنَا بِذُنُوبِنَا فَهَلْ إِلَىٰ خُرُوجٍ مِّن سَبِيلٍ﴾ [غافر:١١].

• • • •

قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿قَالُواْ رَبَّنَآ أَمَتَّنَا ٱثْنَتَيْنِ﴾ الإماتة هنا ما كان قبلَ الحَياة وبعد الحَياة، ما كان قبل الحَياة أي وهُمْ أجِنَّة في بُطون أُمَّهاتهم، وما كان بعدَها وهو المَوْت الذي يَكون بعد الوُجود في الدنيا، هاتان مِيتَتان،﴿وَأَحْيَيْتَنَا ٱثْنَتَيْنِ﴾ الحَياة وهُم أَجِنَّة في بُطون أمَّهاتهم، والحَياة بعد البَعْث يوم القِيامة، أو حين البَعْث يوم القيامة.

وهذا كقوله تعالى: ﴿كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِٱللَّهِ وَكُنتُمْ أَمْوَٰتًا فَأَحْيَٰكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ﴾ [البقرة:٢٨] هذه أربعة: إماتتان، وإِحياءَتان، فهم يَقولون -كما ذكَر المفَسِّر-: [﴿رَبَّنَآ أَمَتَّنَا ٱثْنَتَيْنِ﴾ إماتَتَيْن ﴿وَأَحْيَيْتَنَا ٱثْنَتَيْنِ﴾ إحياءَتَيْن؛ لأنهم نُطَف أموات، فأُحْيوا، ثُم أُميتوا، ثُم أُحْيوا للبَعْث]، هذا تَفسير: ﴿أَمَتَّنَا ٱثْنَتَيْنِ وَأَحْيَيْتَنَا ٱثْنَتَيْنِ﴾.

والإماتة الأُولى ليسَت إماتةً بعد حَياة، ولكنها فَقْد حَياة، فصَحَّ أن يُطلَق عليها اسمُ الموت، وقَصْدهم بهذا الإقرارِ بأن الأَمْر حَقٌّ، فكما أننا نُدرِك أنه مرَّت بِنا هذه الأطوارُ الأربَعة: مَوْت فحَياة، ثُم مَوْت فحَياة، فإننا نَتيقَّن أننا أخطَأْنا؛ ولهذا قالوا: ﴿فَٱعْتَرَفْنَا بِذُنُوبِنَا﴾ يَعنِي: فقدِ اعترَفْنا بذُنوبنا.

فإن قال قائل: قول الله تَبَارَكَ وَتَعَالَى: ﴿أَمَتَّنَا ٱثْنَتَيْنِ﴾ هل يَقصِد بالمِيتَتَيْن: الموت في الدنيا حين المَنام، والموت في الأُخرى في يوم القِيامة؟

فالجَوابُ: لا يَصِحُّ؛ لأن مِيتة الدُّنيا في المَنام ليسَت هي مرَّتَين، ولا ثلاثًا، ولا أربعًا، ولا مِئة، الإنسان في الشَّهر يَنام على الأقل ثلاثين مرَّةً ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يَتَوَفَّىٰكُم بِٱلَّيْلِ وَيَعْلَمُ مَا جَرَحْتُم بِٱلنَّهَارِ ثُمَّ يَبْعَثُكُمْ فِيهِ﴾ فإذا بعَثَنا من مِيتة الليلة البارِحة جاءَتِ اللَّيْلة الثانية، مِتْنا ثانيةً، والتي وراءَها، والَّذي يَنام بعد صلاة الفجر، والذي يَنام في القَيْلولة، والذي يَنام بعد العَصْر، أربَع مِيتات في يوم واحِد.

والذُّنوب جَمْع ذَنْب وهو: المَعصية، والمُراد بها هنا الكُفْر، كما قال المفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [بكُفْرنا بالبَعْث ﴿فَهَلْ إِلَىٰ خُرُوجٍ مِّن سَبِيلٍ﴾ من النار]، و(هل) هنا للتَّمنِّي، يَعنِي أننا نَتمنَّى الخُروج من النار ولكنه لا يَحصُل لهم ذلك.

قال المفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿فَهَلْ إِلَىٰ خُرُوجٍ﴾ من النار والرُّجوع إلى الدُّنيا لنُطيع رَبَّنا ﴿مِّن سَبِيلٍ﴾ من طَريق؟ وجوابُهم: لا] وهذا من المفَسِّر بِناءً على أن الاستِفْهام على بابه، أنهم يَسألون: هل لنا من طَريق فنَخرُج؟ أمَّا على ما قُلنا: إنه للتَّمنِّي فلا يَحتاج إلى جَواب، فهو كقوله: ﴿فَهَل لَّنَا مِن شُفَعَآءَ فَيَشْفَعُواْ لَنَآ أَوْ نُرَدُّ فَنَعْمَلَ غَيْرَ ٱلَّذِى كُنَّا نَعْمَلُ﴾ [الأعراف:٥٣].

من فوائدِ الآيةِ الكريمةِ:

الْفَائِدَةُ الأُولَى: إثبات اعتِراف هَؤلاءِ المُكذِّبين بأنهم كفَروا بالله، وأنهم مُستَحِقُّون لهذا العِقابِ.

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَةُ: إقرار الكُفَّار بما كانوا يُنكِرونه من قبلُ من البَعْث، وهذا مَعنى قوله: ﴿فَٱعْتَرَفْنَا بِذُنُوبِنَا﴾.

الْفَائِدَةُ الثَّالِثَةُ: أنَّهم في ذلك اليومِ تَبيَّن لهم الحقُّ، وصِحَّة القِياس؛ لأنهم قالوا: ﴿أَمَتَّنَا ٱثۡنَتَيۡنِ وَأَحۡيَيۡتَنَا ٱثۡنَتَيۡنِ﴾، فالمِيتة الأُولى قبلَ أن تُنفَخ فيهم الرُّوحُ قد أقَرُّوا بها، والحياة الدُّنيا قد أَقرُّوا بها في الدنيا وهم أَحياءٌ، لكن أَنكَروا البَعْث بعد الموت، وأمَّا الآنَ فقالوا: نعَمِ البَعْث بعد الموت كنَفْخ الرُّوح في الجَنين. يَعنِي: أنا تَيقَّنا الآنَ أن ما ذكَره الله عَزَّوَجَلَّ من قياس الإعادة على الابتِداء أَمْر حَقيقيٌّ، وأننا أُحْيينا مَرَّتين وأُمِتْنا مرَّتين.

الْفَائِدَةُ الرَّابِعَةُ: شِدَّة حَسْرة هؤلاءِ على ما فعَلوا، وتَمنِّيهم الخُروج ممَّا وقَعوا فيه من العَذاب؛ بقولهم: ﴿فَهَلۡ إِلَىٰ خُرُوجٖ مِّن سَبِيلٖ﴾.

وفي هذه الآيةِ إعرابٌ مُشكِل، وهو أن قوله: ﴿فَهَلۡ إِلَىٰ خُرُوجٖ مِّن سَبِيلٖ﴾ جُمْلة خلَتْ من أحَد الرُّكْنين فيها وهو المُبتَدَأ؛ لأن الذي أمامَنا الآنَ جارٌّ ومَجرورٌ في الخبَر، وفيما هو محَلٌّ للمُبتَدَأ.

إِذَنِ: المُبتَدَأ ﴿سَبِيلٖ﴾ دخَلَت عليه حرف (مِن) الزائِدة إعرابًا، ولهذا نَقول في إعرابها: (مِن) حَرْف جرٍّ زائِدٌ، و﴿سَبِيلٖ﴾ مُبتَدَأ مَرفوع بضَمَّة مُقدَّرة على آخِره، منَع من ظُهورها اشتِغال المَحلِّ بحرَكة حَرْف الجَرِّ الزائِد.

الآية (١٢)

• • ✿ • •

۞ قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿ ذَٰلِكُم بِأَنَّهُۥٓ إِذَا دُعِىَ ٱللَّهُ وَحْدَهُۥ كَفَرْتُمْ ۖ وَإِن يُشْرَكْ بِهِۦ تُؤْمِنُوا۟ ۚ فَٱلْحُكْمُ لِلَّهِ ٱلْعَلِىِّ ٱلْكَبِيرِ ﴾ [غافر:١٢].

• • ✿ • •

قال المفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿ ذَٰلِكُم ﴾ أي: العَـذاب الذي أَنتُم فيه]، فالمُشار إليه مَوْجود، أي: أنَّ العَذاب الذي أنتُم فيه بسببَ كذا وكذا، وهنا قال: ﴿ ذَٰلِكُم ﴾ وتَأتِي أحيانًا بذلك، وتَأْتي أحيانًا بذَلِكُنَّ، وتَأتي أحيانًا بذَلِكُما، فما هو السبَب في تَغيُّر الخِطاب في هذه الإشاراتِ؟ فيُقال: اسم الإشارة بحَسب المُشار إليه، وكاف الخِطاب التي بعدها بحَسب المُخاطَب.

فإذا أَشَرت إلى واحِد مُخاطِبًا اثنَيْن فقُل: «ذلِكُما»، كما قال يُوسُفُ عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ لصاحِبَي السِّجْن: ﴿ذَٰلِكُمَا مِمَّا عَلَّمَنِى رَبِّىٓ ﴾ [يوسف:٣٧].

وإذا أَشَرْت إلى اثنَيْن مُخاطِبًا واحِدًا تَقول: «ذانِك»؛ كقوله تعالى: ﴿فَذَٰنِكَ بُرْهَـٰنَانِ مِن رَّبِّكَ ﴾ [القصص:٣٢].

وإذا أَشَرْت إلى واحِد مُخاطِبًا جماعة ذُكور، تَقول: «ذلِكُمْ»، ومنه قوله تعالى: ﴿ وَذَٰلِكُمْ ظَنُّكُمُ ٱلَّذِى ظَنَنتُم بِرَبِّكُمْ ﴾ [فُصِّلَت:٢٣].

وإذا أَشَرْت إلى واحِد مُخاطِبًا جماعة إناث تَقول: «ذلِكُنَّ»، قالت: ﴿فَذَٰلِكُنَّ ٱلَّذِى لُمْتُنَّنِى فِيهِ﴾ [يوسف:٣٢].

وإذا أَشَرْت إلى اثنَيْن مُخاطِبًا اثنَيْن تَقول: «ذانكما».

وإذا أَشَرْت إلى اثنَيْن مُخاطِبًا جماعة ذُكور تَقول: «ذانِكُم».

وإذا أَشَرْت إلى اثنَيْن مُخاطِبًا جماعة إناث تَقول: «ذانِكُن».

وإذا أَشَرْت إلى جماعة مُخاطبًا جَماعة ذُكور تَقول: «أُولَئِكُم».

وإذا أَشَرْت إلى جَماعة مُخاطِبًا جماعة إناث تَقول: «أُولَئِكُنَّ».

وإذا أَشَرْت إلى جَماعة مُخاطِبًا اثنَيْن تَقول: «أُولَئِكُما».

المُهِمُّ: أنَّ اسم الإشارة بحَسب المُشار إليه، والكاف بحَسب المُخاطَب، إن كان مُفرَدًا مُذكَّرًا فالكاف تَكون مُفرَدة مُذكَّرة، وإن كان مُفرَدًا مُؤنَّثًا فكَذلِك، ومُثنًّى، وجَمْعًا كذلك، هذا هو الأفصَحُ.

وربما تَأتِي الكاف مَفتوحة للمُخاطَب المُذكَّر مُطلَقًا، واحِدًا كان أو مُثنًّى أو جَماعةً، ومَكسورة للمُخاطَب المُؤنَّث مُطلَقًا، واحِدة أو اثنَتان أو جماعة.

وربَّما تَأتِي الكاف مَفتوحة مُفرَدة لكل مُخاطَب، فتَقول: «ذلك». تُخاطِب الرجُل، والمَرْأة، والاثنَيْن، والجَماعة.

فهذه ثلاث لُغات في كاف الخِطاب المُقتَرِن باسم الإشارة، الأَفصَح أن يَكون بحَسب المُخاطَب، ثُم مَفتوحًا في المُذكَّر، ومَكسورًا في المُؤنَّث، ثُم مَفتوحًا على كل حال مُفرَدًا مُذكَّرًا.

هنا يَقول عَزَّوَجَلَّ: ﴿ذَلِكُم بِأَنَّهُۥ﴾ المُشار إليه واحِد، والمُخاطَب جماعة ذُكور ﴿ذَلِكُم﴾: فالمُخاطَبون جَماعة ذُكور.

قال المفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [أي: العَذاب الذي أنتُم فيه ﴿بِأَنَّهُۥ﴾ أي: بسبَب أنه في الدُّنيا ﴿إِذَا دُعِىَ ٱللَّهُ وَحْدَهُۥ كَفَرْتُمْ﴾]، إذا دُعِيَ الله وحدَه كفَرْتم وأَشرَكْتم، وقُلْتم: ﴿أَجَعَلَ ٱلْـَٔالِهَةَ إِلَـٰهًا وَٰحِدًا ۖ إِنَّ هَـٰذَا لَشَىْءٌ عُجَابٌ﴾ [ص:٥].

قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿كَفَرْتُمْ﴾ بتَوْحيده ﴿وَإِن يُشْرَكْ بِهِۦ﴾ يُجعَل له شَريك ﴿تُؤْمِنُوا۟﴾ تُصدِّقوا بالإِشْراك].

وهذا هو الواقِعُ: ﴿وَإِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَحْدَهُ ٱشْمَأَزَّتْ قُلُوبُ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْـَٔاخِرَةِ ۖ وَإِذَا ذُكِرَ ٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦٓ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ﴾ [الزُّمَر:٤٥]، فهُمْ يُصدِّقون بقُلوبهم، ويَستَبشِرون بأَلْسِنتهم، وهذا الإيمانُ في الواقِع قد نَقول: إنه إيمان حَقيقيٌّ، وقد نَقول: إنه إيمان دعَويٌّ، يَعنِي: أنَّه دَعْوة، وأنهم في قَرارة أنفُسِهم يُؤمِنون بالله، وانظُروا إلى أكفَر أهل الأرض فِرعونَ، كيف أنكَر الخالِق، وادَّعى الرُّبوبية، وقال لقَوْمه: ﴿مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَـٰهٍ غَيْرِى﴾ [القصص:٣٨]، ومع ذلك كان مُؤمِنًا في قَرارة نَفْسه، قال له مُوسى وهو يُحاوِرُه: ﴿لَقَدْ عَلِمْتَ مَآ أَنزَلَ هَـٰٓؤُلَآءِ إِلَّا رَبُّ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ بَصَآئِرَ﴾ [الإسراء:١٠٢].

هذه الآيةُ أَقولُ لك: تَدُلُّ على أن فِرعونَ كان مُؤمِنًا برُبوبية الله، وذلك لأنه لَمَّا قال له مُوسى: ﴿لَقَدْ عَلِمْتَ مَآ أَنزَلَ هَـٰٓؤُلَآءِ إِلَّا رَبُّ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ لم يَقُل: لم أَعلَم، وهو في مَقام يَرَى نفسه أعلى من موسى، يَعنِي: يَستَطيع أن يُنكِر دعوى موسى لو كان يُنكِر ذلك، لكنه يُقِرُّ بأن الله أَنزَل التَّوراة على موسى عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ.

ويَدُلُّ لهذا قوله تعالى: ﴿وَجَحَدُوا۟ بِهَا وَٱسْتَيْقَنَتْهَآ أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا﴾ [النمل:١٤]؛ ولهذا لا يُمكِن لأَحَد عاقِل -وأُريد بالعاقِل مَن سِوى المَجنون- أن يُنكِر أنَّ لهذا

العالَمِ خالِقًا أبدًا، كل إنسان عاقِل إذا تَدبَّر أدنى تَدبُّر في هذا الكونِ علِمَ أن له رَبًّا مُدبِّرًا، ولا يُمكِن أن يُنكِر.

فائدة: هُناك قولٌ أن فِرعونَ أَصلُه عرَبيٌّ ويَقولون: اسمُه مُصعَب بنُ رَيَّان. ونَقول: مَن قال هذا؟ فِرعونُ قِبطيٌّ وخَبيث، وهو بَريء من العرَب، والعرَب بَريئون منه، لكن اليَهود من المُمكِن أنهم هم مَن قالوا هذا الكَلامَ؛ لأن اليَهود من بني إسرائيلَ، وفِرعونُ عَدُوُّهم، والعرَب الآنَ أعداؤُهم، فأَرادوا أن يَضعوا آلَ فِرعونَ معَهم.

فقوله هنا: ﴿بِأَنَّهُۥٓ إِذَا دُعِىَ ٱللَّهُ وَحْدَهُۥ كَفَرْتُمْ ۖ وَإِن يُشْرَكْ بِهِۦ تُؤْمِنُوا۟﴾ الذي يَظهَر لنا أنه إيمان دَعوى، يَعنِي يَقول: نُؤمِن بأن هذا شَريك مع الله، يَقولونه بأَلْسِنتهم، أمَّا في قَرارة قُلوبهم فلا نَظُنُّ أن أَحَدًا يُنكِر أنَّ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى واحِد، وقد يُقال: إن المُراد بقوله: ﴿إِذَا دُعِىَ ٱللَّهُ وَحْدَهُۥ كَفَرْتُمْ ۖ وَإِن يُشْرَكْ بِهِۦ تُؤْمِنُوا۟﴾ تَوْحيد الأُلوهية. يَعنِي: يَكفُرون بتَوْحيد الأُلوهية، ويُؤمِنون بالشِّرْك في الأُلوهية؛ لأنهم يُؤمِنون بأن هذه الآلِهـة تُقرِّبهم إلى الله زُلفَى، فإِذَنْ هم مُؤمِنون بالله رَبًّا، ويُؤمِنون بالأصنام شُفَعاءَ.

ولا شَكَّ أنَّ عِبادة الرُّهبان والأحبار بالمَعنى الذي فسَّره الرسول ﷺ ليسَت كعِبادة الأصنام، لأنَّ عِبادة الأصنام عِبادة تَقرُّب وخُضُوع، وعِبادَةُ الأحبار والرُّهْبان عِبادة اتِّباع، ولا شَكَّ أنها عِبادة كما جاء في الحديث.

وقال تعالى: ﴿ٱتَّخَذُوٓا۟ أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَـٰنَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَٱلْمَسِيحَ ٱبْنَ مَرْيَمَ وَمَآ أُمِرُوٓا۟ إِلَّا لِيَعْبُدُوٓا۟ إِلَـٰهًا وَٰحِدًا﴾ [التوبة:٣١]، فإذا كانـت عِبادة الأَحْبار والرُّهبان كعِبادة المَسيحِ ابنِ مَـريمَ، لزِم من هذا أنهم

يَعبُدونهم عِبادة التَّقرُّب، لكن الرسول عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ قال لعَديِّ بنِ حاتِمٍ: «أَلَيْسُوا يُحِلُّونَ مَا حَرَّمَ اللهُ؛ فَتُحِلُّونَهُ، وَيُحَرِّمُونَ مَا أَحَلَّ اللهُ فَتُحَرِّمُونَهُ؟» قال: نعَمْ. قال: «فَتِلْكَ عِبَادَتُهُمْ»(١) فهذه عِبادة اتِّباع، وغالِب عِبادة المُشرِكين تَقرُّب وتَعظيم.

فإن قال قائِل: ماذا يُقصَد بقول بعض المفَسِّرين في قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكُم بِأَنَّهُۥٓ إِذَا دُعِىَ ٱللَّهُ وَحْدَهُۥ كَفَرْتُمْ﴾ يَقول: «فيه مَتروك استُغنِيَ عنه بدَلالة الظاهِر عليه، ومَجازُه ألَّا سبيلَ إلى ذلك»؟

فالجوابُ: هذا قَصْده لَمَّا قالوا: ﴿فَهَلْ إِلَىٰ خُرُوجٍ مِّن سَبِيلٍ﴾ [غافر:١١] كأنه قال: لا سَبيلَ إلى الخُروج؛ لأنكم قدَّمتم لأنفسكم ما لا يُمكِن معه الخُروج، وهو أنه إذا دُعِيَ الله وحدَه كفَرْتم وإن يُشرَك به تُؤمِنوا.

قال المفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿فَٱلْحُكْمُ﴾ في تَعذيبكُم ﴿لِلَّهِ ٱلْعَلِىِّ﴾ على خَلْقه ﴿ٱلْكَبِيرِ﴾ العَظيم]. يَعنِي: فبِناءً على أنَّكم في هذه الحالِ يَكون حُكْمكُم إلى الله، فالفاء حينَئذٍ تَكون؛ إمَّا للاستِئْناف، وإمَّا للتَّفريع على ما سبَق. يَعنِي: فبِناءً على ذلك يَكون الحُكْم في أَمرِكم إلى الله، الحُكْم في تَعذيبكم لله وحدَه، واللَّام تَكون بمَعنَى الغاية أحيانًا، كما تَقول: ولله تُرجَع الأمور. بمَعنى: إلى الله، وهنا الحُكْم لله. أي: إلى الله. أي: أن حُكْمكم يَنتَهي إلى الله، ويُحتَمَل أن يَكون المَعنى: الحُكْم لله. أي: مُستَحِقٌّ له لا يُشارِكه فيه أحَدٌ.

وقول المفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿ٱلْعَلِىِّ﴾ على خَلْقه] عُلوَّ ذات، وعُلوَّ صِفة، فالله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عالٍ على خَلْقه في ذاته فوقَ كل شيء، وعالٍ على خَلْقه في صِفاته، قال

---

(١) أخرجه الترمذي: كتاب تفسير القرآن، باب ومن سورة التوبة، رقم (٣٠٩٥).

الله تعالى: ﴿وَلَهُ ٱلْمَثَلُ ٱلْأَعْلَىٰ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [الروم:٢٧] المَثَل يَعنِي: الوصف الأعلى في السَّموات والأرض.

وعُلوُّ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عُلوًّا مَعنويًّا، وهو عُلوُّ الصِّفة أَمْر مُجمَع عليه، لم يُخالِف فيه أحَد من أهل المِلَّة حتَّى المُعطِّلون الذين يُنكِرون صِفاتِ الله عَزَّوَجَلَّ، إنَّما أَنكَروها بِناءً على تَنزيههم لله عَزَّوَجَلَّ عن مُشابَهة المَخلوقين، وإن كانوا أَخطَؤوا الطريق لكن هم يَقولون: نحن نَقول هذا تَنزيهًا لله؛ ولهذا يُسمُّون الذين يُثبِتون الصِّفات: المُشبِّهة، والمُجَسِّمة، والحَشوية، وما أَشبَهَ ذلك، ويَرَوْن أنفسهم هم أهلَ التَّوْحيد!.

فعُلوُّ الصِّفة لم يُنكِره أحَد من أهل المِلَّة، حتى أهل البِدَع يُقِرُّون بذلك.

وأمَّا عُلوُّ الذات فهو محَلُّ الصِّراع بين أهل السُّنَّة والجماعة، وبين أهل التَّعطيل، فأهل السُّنَّة والجماعة يُؤمِنون بأن الله تعالى عالٍ على خَلْقه بنَفْسه، وأهل التَّعطيل يُنكِرون ذلك، ثُم انقَسَموا إلى قِسْمين:

قِسْم قالوا: إنَّ الله في كل مَكان؛ في السماء، وفي الأرض، وفي الأَسْواق، وفي المَساجِد، وفي البُيوت، وفي كلِّ مَكان.

وقِسْم آخَرُ قالوا: لا يُوصَف أنه في مَكان، فلا يُقال: فوقَ العالَم، ولا في العالَم، ولا تَحتَه، ولا يَمينَه، ولا شِماله، ولا مُتَّصِل بالعالَم، ولا مُماسٌّ له، وهذا هو التَّعطيل المَحْض؛ لأننا لو أَرَدْنا أن نَصِف المَعدوم لم نَجِد أَبلَغَ من هذا الوَصْفِ، إِذَنْ خالَف في عُلوِّ الذات طائِفَتان:

الطائِفة الأُولى، قالت: إنَّ الله في كل مَكان بنَفْسه، وهو قَولٌ قِيل حقيقةً، ولكن لا تَظُنُّوا أنه تَصوُّر، فيُوجَد الآنَ مَن يَعتَقِدون أن الله في كل مَكان، إن جِئْت السُّوق

وجَدْته في السوق، وإذا قالوا: بالجَبْر قالوا: في السُّوق يَبيع ويَشتَري؛ لأن فِعْل العَبْد مَنسوب إلى الله تعالى، فإذا كان الذي في السُّوق هو في السُّوق، وفِعْل العبد فِعْله لصار يَبيع ويَشتَري!! وإذا جِئْت المَسجِد كان في المَسجِد، يُصلِّي أو يَقعُد! لا نَدرِي! إذا أَتَيْت في أي مَكان وجَدْته فيه. نَسأَل الله العافِيَةَ! هذا من لازِم قولهم.

ونحن نَفصِل هذا عن مَسأَلة الجَبْر حتى لا نَصِل إلى نِهاية سَيِّئة جِدًّا، نَقول: هُم يَقولون: إنَّ الله في كل مَكان، حتى قال لهم أَهْل السُّنَّة: كيف يُمكِن أن تَقولوا: إنه في أماكِن القَذَر والأذَى؟ قالوا: نَقول: إذا دخَلْت أنت المَكان صار الله معَك، أيُّ مَكان تَدخُله فالله معَك.

فإن قال قائِل: الذين أنكَروا عُلوَّ الذات يَستَدِلُّون بآية ﴿فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا۟ فَثَمَّ وَجْهُ ٱللَّهِ﴾.

فالجوابُ: ﴿فَثَمَّ وَجْهُ ٱللَّهِ﴾ [البقرة:١١٥] هل هذا يُنافِي العُلوَّ حتى يَكون دليلًا على عَدَمه؟ فيُمكِن أن يَكون الشيء فوقَك وهو أمامَك، هذا في المَخلوق، فكيف بالخالِق المُحيط بكُلِّ شَيْء؟! ثُم كيف نُورِد آية تُحتَمَل على آياتٍ مُحكَمة لا تُحتَمَل وهو العُلوُّ؟ انتَبِهوا لهذا؛ لأن أهل الباطِل يُورِدون المُتَشابِه على المُحكَم، ولا يَحمِلون المُتَشابِه على المُحكَم، يُورِدون المُتَشابِه على المُحكَم؛ ليُناقِضه، وليسوا يَحمِلون المُتَشابِه على المُحكَم ليَكون مُحكَمًا، وهذا هو البَلاء، قالت عائِشةُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا: «إِذا رَأَيْتُمُ الَّذينَ يَتَّبِعونَ ما تَشابَهَ مِنْهُ فَأُولَئِكَ الَّذينَ سَمَّى الله فَاحْذَرُوهُمْ» هكذا روَتْه عن النَّبيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ [(١)].

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب تفسير القرآن، باب ﴿مِنْهُ ءَايَٰتٌ مُّحْكَمَٰتٌ﴾، رقم (٤٥٤٧)، ومسلم: كتاب العلم، باب النهي عن اتباع متشابه القرآن، رقم (٢٦٦٥).

وهذه مَسأَلة أُحِبُّ أن أُنبِّهَكم عليها، وهو أنه إذا ورَدَت آيات مُتعارِضة، وأحادِيثُ مُتعارِضةٌ، فلا تُورِدوها على أَنْفُسكم على أنَّها مُتعارِضة، أَوْرِدوها على أَنفُسِكم على أنكم تَطلُبون الجمع بينها؛ لتُوفَّقوا للجمع، أمَّا إذا أَوْرَدْتم هذه على أنَّها مُتعارِضة بقِيَت مَحَلَّ إشكال، وأنا دائِمًا أَنْهاكم عن هذا، أَقول: لا تُورِدوا الآياتِ المُتَشابِهَةَ التي ظاهِرها التَّعارُض، أو الأحاديث كذلك على أنها مُتعارِضة، أَوْرِدوها على أنَّكم تُريدون الجَمْع بينها، لا أن بَعضَها مُعارِض لبعض، حتى تُهْدَوْا إلى الصِّراط المُستَقيم؛ لأن هُناك فَرْقًا بين الإيراد وبين الرَّدِّ، إيراد المُتَشابِه على المُحكَم مَعناه: أنه يَطلُب التَّعارُض، لكِنْ رَدُّ المُتَشابِه إلى المُحكَم هذا معناه أنه حاوَل الجَمْع دون أن يَتصوَّر التَّعارُض، وهذه المَسأَلةُ كما تَكون في الأُمور العِلْمية تكون أيضًا في الأمور العمَلية.

أحيانًا تَرِد عن النبيِّ ﷺ صِفاتٌ في عِبادة واحِدة، فيَظُنُّ الظانُّ أن هذا تَعارُض، لكن نَقول: لا تَقرَأْها ولا تُورِدْها على نفسك على أنها مُتَعارِضة، لا، أَورِدْها على أنك تَجمَع بينها، فتَحمِل هذه على وجهٍ وهذه على وَجهٍ، وأكثَرُ ما يَكون الشَّكُّ للطالِب أنه يُورِد الآياتِ المُتعارِضة التي ظاهِرُها التَّعارُض، أو الأحاديث التي ظاهِرُها التَّعارُض على أنها مُتعارِضة، لكن لو أَورِدْها على أنه يُرَدُّ بعضُها إلى بعض، ويُضَمُّ بعضُها إلى بعض، لوَجَد وجهًا ومَخرَجًا ممَّا كان يَظُنُّ، وهذا شيء إذا فعَلتموه ستَنْتَفِعون به، إن شاء الله.

فالذين قالوا: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْمَشْرِقُ وَٱلْمَغْرِبُۚ فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا۟ فَثَمَّ وَجْهُ ٱللَّهِ﴾ [البقرة:١١٥] يَدُلُّ على عدَم العُلوِّ فيُعارِض أدِلَّة العُلوِّ. نَقول: مَن قال هذا؟! مَن قال: إنه يَدُلُّ على عدَم العُلوِّ؟! وإذا كان الشيءُ مُقابِلًا لك فلا يَلزَم أن يَكون مُحاذِيًا لك، قد تَقول:

هذا عن يَميني وهو أسفَلُ شيء، لكن مع الجِهة اليُمنَى، وهذا عن يَسارِي وهو أسفَلُ شيء، وهو عن الجِهة اليُسْرى، كما جاء في حَديث المِعراج: «أن على يَمينِ آدَمَ أَسْوِدةٌ وعلى يَسارِهِ أَسْوِدَةٌ، فإذا رَأَى إلى اليَسارِ بَكَى»(١) اليَسار هي نَسَمُ بنِيه الكفَرة في النار، وهذا في الأسفَلُ، فلا يَلزَم من كون الشيء على يَمينك أن يَكون مُحاذِيًا لك، ولا يَلزَم من كون الشيء فوقَك أن يَكون مُحاذِيًا لك، ولا من كونه أَسفَلَ منك أن يَكون مُحاذِيًا لك، هذا ليس بلَازِم، لكن الذين في قُلوبهم زَيْغ يَتَّبِعونَ ما تَشابَهَ منه؛ لإيراد التَّشكيك.

القول الثاني: قالوا: لا يَصِحُّ أن يُوصَف الله بأيِّ مَكان، لا فوقَ، ولا تَحتَ، ولا يَمينَ العالَم، ولا شِمال العالَم، ولا اتِّصال بالعالَم، ولا انفِصال من العالَم.

وقد قال مَحمودُ بنُ سُبُكْتِكِينَ لمُحمَّد بن فورك وهو يُناظِره في هذه المَسأَلة(٢) قال له: إذا قُلت هذا فأَثبِتْ لنا ربَّك، إذا كان لا هو فوقُ ولا تَحتُ، ولا يَمينُ ولا شِمالُ، ولا مُتَّصِلًا ولا مُنفَصِلًا، ولا مُبايِنًا ولا مُحايِثًا أين يَكون؟ لا يَكون، وهذا العدَم تمامًا.

فليس بصحيح أنه ليس بيَمين ولا بشِمال، لكنه وَصَف نَفْسه بما هو أَحسَنُ من هذا؛ لأنه لو قال: لا يَمين ولا شِمال صارَت الصِّفة صِفةً سَلْبية، لكن إذا قال: ﴿وَهُوَ ٱلْعَلِيُّ﴾ انتَفى اليمين والشِّمال بوَصْف ثُبوتيٍّ، لا بوَصْف سَلبيٍّ، والوَصْف الثُّبوتي أَكمَل من الوَصْف السَّلبيِّ؛ لأنَّ دَلالة الوَصْف السَّلْبيِّ على الإثبات دَلالة

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب الصلاة، باب كيف فرضت الصلاة في الإسراء، رقم (٣٤٩)، ومسلم: كتاب الإيمان، باب الإسراء برسول الله ﷺ إلى السماوات، رقم (١٦٣)، من حديث أبي ذر الغفاري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٢) انظر: مجموع الفتاوى (٣/ ٣٧).

التِزام، قد يُنكِرها مُنكِر ولا يَلتَزِم بها.

فإن قال قائِل: نَفيُ العدَم يَعنِي القول بأن الله لا فوقُ ولا تَحتُ، ولا يَمينُ ولا شِمالُ، فبماذا استَدَلَّ القائلون به؟

فالجوابُ: نَقول: لأنك إذا أَثبَتَّ أنه في جِهة فقد جسَّمْت -أي: جعَلْته جِسْمًا- إذا صار فَوقُ مَعناه أنه جِسْم، ويَمينًا وشِمالًا كذلك، كل هذا فِرارًا من التَّجسيم، والسبَب أنَّ الشَّيْطان تَلاعَب بهم في الواقِع، وإلَّا نَقول لهم: ما هو التَّجسيم الذي تُريدون أن تَنفُوه عن الله، تُريدون أن الله ليس بشَيْء؟ فنَحْن لا نُوافِقُكم، تُريدون أن الله تعالى جِسْم مَوْصوف بالصِّفات الكامِلة؟ فهو كذلك هو مَوْصوف بالصِّفات الكامِلة، لكن لا نُطلِق لفظ جِسْم على الله أبَدًا، وقد ورَد في الحَديث ما يَدُلُّ على أنه يُوصَف بالشخص[1]، ومع ذلك لا نَقول: إنه شَخْص كأشخاص المَخلوقين أبَدًا ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ﴾ [الشورى:١١].

فالحاصِلُ: أنَّ العُلوَّ قول المفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿ٱلْعَلِيُّ﴾ على خَلْقه] نَقول: العُلوُّ نَوْعان: عُلوُّ صِفة، وعُلوُّ ذاتٍ.

أمَّا عُلوُّ الصِّفة: فهذا لم يُنكِر أحَد من أهل القِبْلة حتى المُبتَدِعة أنه مَنفيٌّ عن الله، كلُّهم يُثبِتون لله عُلوَّ الصِّفة، لكن أهل التَّعطيل يَرَوْن التَّعْطيل من باب التَّنزيه، ورَفْع الله عَزَّوَجَلَّ، وأَهْل التَّمثيل كذلك يَرَوْن هذا من باب تَعظيم الله عَزَّوَجَلَّ وإثبات حَقيقته.

وأمَّا عُلوُّ الذات: فهو الذي انقَسَم فيه الناس إلى هذه الأقسامِ الثلاثةِ التي سمِعْتُموها.

---

(١) أخرجه مسلم: كتاب اللعان، رقم (١٤٩٩)، بلفظ: «لا شَخْصَ أَغْيَرُ مِنَ الله».

قال المفسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿ٱلْكَبِيرِ﴾ العَظيم] وهذا تَفسير تَقريبيٌّ، ولو قال: الكَبير ذو الكِبْرياء لكان أَقرَبَ، فهو كبير عَزَّوَجَلَّ ذو كِبرياء، وهو كبير أيضًا، كبير باعتِبار ذاته، لا يُحيط به شيء من مَخلوقاته، والسَّموات السَّبْع والأَرَضون السَّبْع في يدِه كخَرْدلة في يَدِ أحَدِنا.

مسألة: هَل يجِب على الإنسانِ أنْ يُبلِّغ الناس أنه يَجِب عليهم أن يَبحَثوا، ثُم كيف نَقول لهم هذا وهُمْ أصلًا كُسالى، لا يَبحَثون وجهَلة؟

فالجوابُ: نحن لا نَتكلَّم عن العرَب، العرَب يَفهَمون الدَّعْوة بمُجرَّد أن تَبلُغهم، بل نَتكَلَّم عن قوم لا يَفهَمون المَعنى، يَجِب عليهم أن يَبحَثوا، أمَّا عوامُّ الناس الآنَ فقَدْ بلَغَتهم وفهِموها؛ ولهذا يَعرِفون مَعنَى لا إلهَ إلَّا الله، ويَعرِفون مَعنى مُحمَّد رسول الله، وما أَشبَهَها.

من فوائدِ الآيةِ الكريمةِ:

الْفَائِدَةُ الأُولَى: إثباتُ الأَسْباب؛ لقوله: ﴿ذَٰلِكُم بِأَنَّهُۥ﴾، فالباء للسَّببية، وقد تقدَّم كثيرًا أنَّ أهل السُّنَّة والجَماعة يُثبِتون الأسباب للمُسَبَّبات، ولكن لا على أنَّها فاعِلة بنَفْسها، بل بما أَوْدَع الله فيها من القُوى المُؤثِّرة، يُؤخَذ ذلك من قوله: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُۥ﴾؛ لأن الباء للسَّببية.

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَةُ: بَيان ما عليه هؤلاءِ الكُفَّارُ من كونِهم إذا دُعِيَ الله وحدَه كفَروا، وإذا أَشرَك به أَقرُّوا هذا الشِّرْكَ؛ لقوله: ﴿بِأَنَّهُۥٓ إِذَا دُعِىَ ٱللَّهُ وَحْدَهُۥ كَفَرْتُمْ ۖ وَإِن يُشْرَكْ بِهِۦ تُؤْمِنُوا۟﴾.

الْفَائِدَةُ الثَّالِثَةُ: أنَّ الحُكْم لله؛ لقوله تعالى: ﴿فَٱلْحُكْمُ لِلَّهِ﴾ وليس لغَيْره.

وحُكْم الله تعالى يَنقَسِم إلى قِسْمين: كَونيٍّ وشَرْعيٍّ.

فالكَوْنيُّ: ما قَضَى به على عِباده كونًا وتَقديرًا.

والشَّرعيُّ: ما قَضَى به على عِباده شَرْعًا وتَنظيمًا.

والحُكْمان مَوْجودان في القُرآن جميعًا، فمِن الحُكْم القَدَريِّ قوله تَبَارَكَ وَتَعَالَى: ﴿فَلَنْ أَبْرَحَ ٱلْأَرْضَ حَتَّىٰ يَأْذَنَ لِيٓ أَبِيٓ أَوْ يَحْكُمَ ٱللَّهُ لِي﴾ [يوسف:٨٠]، ومن الحُكْم الشَّرعيِّ قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكُمْ حُكْمُ ٱللَّهِ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ [الممتحنة:١٠].

والفَرْق بينهما:

الفرق الأوَّل: أنَّ الحُكْم الشَّرعيَّ يَرضاه الله عَزَّوَجَلَّ، والحُكْم الكونيَّ يَتعلَّق بما يَرضاه وبما لا يَرضاه.

والفَرْق الثاني: أن الحُكْم الشَّرعيَّ قد يَقَع من المَحكوم عليه وقد لا يَقَع، وأمَّا الحُكْم الكَوْنيُّ فإنه لا بُدَّ أن يَقَع، فإذا حكَم الله على شخص بمَوْت، أو مرَض، أو فَقْر، أو عاهة، أو غير ذلك وقَع، ولا بُدَّ، وإذا حكَم الله على شخص بأن يُؤمِن ويَعمَل صالحًا فقد يَقَع وقد لا يَقَع.

وقوله: ﴿فَٱلْحُكْمُ﴾ هنا يَشمَل الأمرَيْن جميعًا.

ويُستَفاد من هذا أنه لا يَجوز الحُكْم بالقَوانين المُخالِفة للشريعة؛ لقوله تعالى: ﴿فَٱلْحُكْمُ لِلَّهِ﴾، وهذه الجُملةُ تُفيد الحَصْر؛ أي: الحُكْم لله لا لغيره، والحُكْم بالقوانين المُخالِفة للشريعة قد يَكون كُفْرًا، وقد يَكون ظُلْمًا، وقد يَكون فِسْقًا، كما ذكَره الله عَزَّوَجَلَّ على هذه الوُجوهِ الثلاثة في سورة المائِدة، وهي من آخِر ما نزَل، فإن وُضِع الحُكْم القانوني شرعًا نافِذًا فهذا كُفْر؛ لأنه يَقتَضي رَفْع الحُكْم الشَّرعيَّ وإحلال حُكْم

آخَرَ محلَّه، وهذا كُفْر بما أَنزَل الله مُحبِط للعمَل؛ لأنه لا يُمكِن أن يُرفَع الحُكْم الشَّرعيُّ إلَّا بعد كراهَته إيَّاه، وقد قال الله تَبَارَكَ وَتَعَالَى: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَرِهُوا مَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأَحْبَطَ أَعْمَالَهُمْ﴾ [محمد:٩].

وعلى هذا فالذين يَحكُمون أُممَهم بالقَوانين المُخالِفة للشريعة يُعتبَرون كُفَّارًا، يَجِب عليهم أن يَتوبوا إلى الله، وأن يَحكُموا بشَريعة الله، وإلَّا ماتوا كُفَّارًا -والعِياذُ بالله- ونحن لا نَحكُم بهذا الشيءِ لكل واحد بعَيْنه، إذ قد يَكون بعضُهم مُلبَسًا عليه، أو مُغرَّرًا به، أو تَكلَّم عنده مَن يَثِقُ به فأَضَلَّه، قد يَكون هذا الذي وضَع القانون غرَّه مَن يَقول: إنَّ الحُكْم الشَّرْعيَّ إنما يَكون فيما بين الإنسان وبين رَبِّه في العِبادات والأحوال الشَّخْصية والمَواريث، وأمَّا مَسائِل الدُّنيا فهي لأهل الدنيا، ويُشبِّه بقوله ﷺ: «أَنْتُمْ أَعْلَمُ بِأُمُورِ دُنْيَاكُمْ»(١).

فيَأتي هذا الحاكِمُ المِسكينُ الذي لا يَعرِف عن الأمر شيئًا، والذي خُدِع بمَظاهِر الدنيا وزَخارِفها فيَظُنُّ أن هذا هو الحقُّ، فيَضَع القانون المُخالِف للشَّرْع، فمِثل هذا لا نَحكُم بكُفْره؛ لأنه مُغرَّر به مُؤَوِّل، لكن إذا بُيِّن له ثُمَّ أَصَرَّ حُكِم بكُفْره.

أمَّا الثاني: الحُكْم بغَيْر ما أَنزَل الله الذي يَكون ظُلْمًا، فهو ما كان الحامِلُ عليه حُبُّ الاعتِداء على الغير، لا كراهةَ الشَّرْع، ولا الحُكْم بغير ما أَنزَل الله، لكن لكراهته للغير حكَم على الغير بغَيْر ما أَنزَل الله ظُلْمًا وعُدوانًا، فهذا له حُكْم الظلَمة، وليس له حُكْم الكافِرين؛ لأنَّه لم يَكْفر، يَقول: أَعرِف أن ما جاء به الشَّرْع فهو الحقُّ، لكن أُريد أن أَنتَقِم من هذا الرجُلِ، وأَعتَديَ عليه، فيَكون هذا له حُكْم الظالِمِ:

---

(١) أخرجه مسلم: كتاب الفضائل، باب وجوب امتثال ما قاله شرعًا، رقم (٢٣٦٣)، من حديث عائشة وأنس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.

﴿وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ [المائدة:٤٥].

أمَّا القِسْم الثالِث: فهو الذي حكَم بغَيْر ما أَنزَل الله لهوًى في نفسه، لا كراهةً للحَقِّ، ولا استِبْدالًا له بغيره، لكن يُريد شيئًا في نفسه فحكَم بغير ما أَنزَل الله، مِثْل: أن يَكون يَهوَى، أن تَكون له هذه الأرضُ، أو هذه السَّيَّارةُ، أو ما أَشبَه ذلك فيَحكُم بها لغَرَض، ليس قَصدُه ظُلْمَ المحكوم عليه، ولكن قَصْده اتِّباع الهَوَى، فيَحكُم، فيَكون بهذا من الفاسِقين.

الْفَائِدَةُ الرَّابِعَةُ: أنَّ الحُكْم لله عَزَّوَجَلَّ في الدُّنيا والآخِرة.

ولهذا قسَّم بَعْض العُلَماء الحُكْم إلى ثلاثة أقسام: كَونيٍّ، وشَرعيٍّ، وجَزائيٍّ.

والحُكْم الجَزائيُّ: ما يَكون في الآخِرة، ولكن الصحيح أن الحُكْم الجَزائيَّ لا يَخرُج عن كَوْنه حُكْمًا كونيًّا؛ لأنه فِعْل الله، وحينَئذٍ لا حاجةَ إلى كَثْرة التَّقاسيم؛ لأنه كلَّما أمكَن اختِصار التَّقسيم كان أَوْلى؛ ولهذا -والله أعلَمُ- كان الرسول ﷺ يأتي أحيانًا فيَقول: «**ثَلَاثَةٌ لَا يُكَلِّمُهُمُ الله، وَلَا يَنْظُرُ إِلَيْهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، وَلَا يُزَكِّيهِمْ، وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ**»[1]، مع أن هُناكَ آخَرين لا يُكلِّمهم الله يوم القِيامة، ولا يَنظُر إليهم، ولا يُزكِّيهم ولهم عَذاب أَليم، لكن كون الشيء يُجزَّأ وتُقلَّل أَقسامُه يَكون أقرَبَ إلى الفَهْم.

ولهذا يُفرَّق بين أن تُعطِيَ الماء لشخص عَطشانَ دفعة واحِدة، أو أن تُعطِيَه إيَّاه على دفعات، فالثاني أَهنأُ وأَبرأُ وأَمرأُ، كما جاء في الحديث أنه يَنبَغي للإنسان في شَرابه أن يَتنفَّس ثلاث مرَّات، الكأس مثَلًا إذا كُنتَ عَطْشانَ لا تَشرَبْه جميعًا، تَنفَّس

(١) أخرجه مسلم: كتاب الإيمان، باب بيان غلظ تحريم إسبال الإزار، رقم (١٠٧)، من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

فيه ثلاثَ مرَّات، اشرَبْ، ثُمَّ أَبِنِ الكأسَ عن فمِكَ، ثُم رُدَّه، ثُم أَبِنْه، ثُم رُدَّه، حتى يَكون ذلك أَهنَأَ وأَمرَأَ وأَبرَأَ.

الْفَائِدَةُ الخَامِسَةُ: إثبات العُلوِّ لله عَزَّوَجَلَّ؛ لقوله: ﴿ٱلْعَلِيِّ﴾ وهو عُلوٌّ بنَفْسه، وعُلوٌّ بصِفته، فصِفاته عُليا، وهو نفسه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ فوقَ كل شيء.

وأدِلَّة عُلوِّ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ الذاتيِّ خمسةُ أنواع: الكِتاب، والسُّنَّة، والإجماع، والعَقْل، والفِطْرة.

أمَّا الكِتاب: فمَملوء من ذلك، أي: مِن دَلالته على أن الله فوقَ كل شيء على وجوهٍ مُتنوِّعة، تارةً يُصرِّح بأنه في السَّماء، وتارةً يُصرِّح بأنه استوَى على العَرْش، وتارةً يُصرِّح بأن الأشياء تَنزِل منه، وتارةً يُصرِّح بأن الأشياء تُرفَع إليه، وتَصعَد إليه، وتَعرُج إليه، وكل هذا يَدُلُّ على عُلوِّ الله تعالى بذاته.

والسُّنَّة كذلك جاءت بأَوْجُهها الثلاثة: قولٍ، وفِعْل، وإقرارٍ.

فالقول: ما كان الرسول عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ يَقول: «**رَبُّنَا اللهُ الَّذِي فِي السَّمَاءِ تَقَدَّسَ اسْمُكَ، أَمْرُكَ فِي السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ**»[1]، وما كان يَقول في سُجوده: «**سُبْحَانَ رَبِّيَ الْأَعْلَى**»[2].

والفِعل: إشارته ﷺ إلى السماء حين قال: «**اللَّهُمَّ اشْهَدْ**»[3].

---

(١) أخرجه أبو داود: كتاب الطب، باب كيف الرقى، رقم (٣٨٩٢)، والنسائي في الكبرى رقم (١٠٨٠٩)، من حديث أبي الدرداء رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ.

(٢) أخرجه مسلم: كتاب صلاة المسافرين، باب استحباب تطويل القراءة في صلاة الليل، رقم (٧٧٢)، من حديث حذيفة رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ.

(٣) أخرجه مسلم: كتاب الحج، باب حجة النبي ﷺ، رقم (١٢١٨)، من حديث جابر رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ.

والإقرار: إقراره للجارِية حين قالـت: إنَّ الله في السَّمـاءِ. لَمَّا قال لها: «أَيْنَ الله؟»[١].

وأمَّا الإِجْماع: فقَدْ أَجمَع السَّلَف على أنَّ الله تعالى عالٍ بذاته فوقَ كل شيء، ودَليل هذا الإجماعِ أنه لم يَرِد عنهم حَرْف واحِد يُنافِي ما دلَّ عليه الكِتاب والسُّنَّة من عُلوِّ الله، وهذا يَدُلُّ على أنهم كانوا يَقولون به.

وهذا من الطُّرُق التي ذكَرْناها لكم فيما سبَقَ أنه لو قال قائِل: ائْتُوا لنا بحَرْف واحِد من السلَف يَقول: إن الله عالٍ بذاته. نَقول: لا حاجةَ أن نَأتِيَ لكم بذلك؛ لأن وُرود ذلك في الكِتاب والسُّنَّة من غير أن يَأتِيَ عنهم ما يُعارِضه يَدُلُّ على قولهم به، وهم مُجمِعون على هذا.

وقد ذكَرَ شيخ الإسلام رَحِمَهُ اللَّهُ كلامًا قال فيه: «والله يَعلَم أني بعد البَحْث التامِّ، ومُطالَعَتي ما أَمكَن من كلام السلَف، لم أَجِدْ أحَدًا منهم صرَّح بأن الله ليس في السَّماء، وأن الأشياء لا تَعرُج إليه»[٢] وذكر نَحوَ هذا.

وعلى هذا فنَقول: إن عُلوَّ الله بذاته قد أَجمَعَ عليه السلَف، فمَن قال بغير ذلك فقد شاقَّ الرسولَ، واتَّبَع غيرَ سبيل المُؤمِنين، ولكن الله اشترَط قال: ﴿وَمَن يُشَاقِقِ ٱلرَّسُولَ مِنۢ بَعۡدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ ٱلۡهُدَىٰ﴾ [النساء:١١٥].

وأمَّا العَقْل: فدَلالته على عُلوِّ الله ظاهِرة؛ لأننا لو سأَلْنا: أَيُّهما أعلى صِفةً العالي أو السافِل؟ لقيل باتِّفاق العُقَلاء: إن العاليَ أكمَلُ، وإذا ثبَت أن العُلوَّ كَمال وجَب

---

(١) أخرجه مسلم: كتاب المساجد، باب تحريم الكلام في الصلاة، رقم (٥٣٧)، من حديث معاوية بن الحكم السلمي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٢) مجموع الفتاوى (٥/ ١٥).

أن يَكون ثابتًا لله عَزَّوَجَلَّ؛ لأن الله تعالى مَوْصوف بصِفات الكَمال.

وأمَّا الفِطْرة: فاسأَلْ عنها عجائِز المُسلِمين، لا تَسأَلْ طلَبة العِلْم، اسأَلِ العَجوز: أين الله؟ فتَقول لك: في السَّماء. اسأَلْ كلَّ داعٍ إذا دعا: أين يَطيرُ قَلْبه؟ فيَقول لك: إلى السماء.

وهذه الفِطرةُ هي التي أَجَمَت أبا المَعالي الجُوَيْنيَّ حين قال له أبو جَعفر الهَمَذانيُّ: يا شَيخُ دَعْنا من ذِكْر العَرْش، لمَّا قال أبو المَعالي: إن الله كان ولا شيء يَعنِي: لا عَرْش ولا غيرُه، وهو الآنَ على ما كان عليه. يُريد نَفيَ الاستِواء، إذا كان الله ولا عَرْش وهو الآنَ على ما هو عليه لزِم أَلَّا يَكون مُستَوِيًا على العَرْش، فقال له: يا شيخُ دَعْنا من ذِكْر العَرْش؛ لأنَّ دليله -دليل استِوائِه على العَرْش- دليل سَمْعيٌّ، لكن أَخبِرْنا عن هذه الفِطْرةِ التي نَجِدها في نُفوسِنا، ما قال عارِفٌ قطُّ: يا الله. إلَّا وجَد من قَلْبه ضرورة بطلَب العُلوِّ، فلطَمَ أبو المَعالي على رأسه وقال: حيَّرَني الهَمَذانيُّ[1]، تَحيَّرَ؛ لأنَّ هذا أَمْر فِطْريٌّ لا يُمكِن إنكاره أبَدًا، إن كان الإنسان يُنكِر أن يَكون بشَرًا أنكَر ما دلَّت عليه الفِطْرة.

فالحاصِل: أن عُلوَّ الله بذاته دلَّ عليه الكِتاب، والسُّنَّة، والإِجْماع، والعَقْل، والفِطْرة، وهو -ولله الحمد- لا يَحتاج إلى مُنازَعة، ولولا أنَّ أهل البِدَع والتَّعْطيل أَلجَؤوا أهل السُّنَّة إلى الحَديث عنه ما احتاج أن يَتحدَّث الإنسان عنه؛ لأنه أَمْر فِطْريٌّ لا يَحتاج إلى كبير عَناء، لكن هَؤلاء المُتكَلِّمين المُبتَدِعين المُعطِّلين المُحرِّفين المُنحَرِفين همُ الذين أَلجَؤوا أهل السُّنَّة إلى أن يَقولوا بمثل ذلك، وأن يُحاوِلوا إثبات هذه الأُمور بما يَستَطيعون من الأدِلَّة.

---

(١) انظر: مجموع الفتاوى (٣/ ٢٢٠).

الْفَائِدَةُ السَّادِسَةُ: إثبات الكِبرياء لله والكِبَر؛ لقوله: ﴿ٱلْكَبِيرِ﴾، والله تعالى يَجمَع بين الكبرياء والكِبَر في غير ما آية، قال الله تعالى: ﴿ٱلْكَبِيرُ ٱلْمُتَعَالِ﴾ [الرعد:٩]، وهنا يَقول: ﴿ٱلْعَلِيّ ٱلْكَبِيرِ﴾؛ لأن بذلك يَحصُل الكَمال المُطلَق العُلوُّ والكِبْرياء، والكِبَر فيه كَمال الكَمال.

• ● ۞ ● •

الآية (١٣)

قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿هُوَ ٱلَّذِى يُرِيكُمْ ءَايَٰتِهِۦ وَيُنَزِّلُ لَكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ رِزْقًا ۚ وَمَا يَتَذَكَّرُ إِلَّا مَن يُنِيبُ﴾ [غافر:١٣].

وقوله: ﴿هُوَ ٱلَّذِى يُرِيكُمْ﴾ أي: يُظهِر لكم آياتِه حتى ترَوْها، والضمير يَعود إلى الله، فهو الَّذي له الحُكْم، وهو العليُّ الكَبير، ومع ذلك لم يَدَعْ عِباده همَلًا، بل أَراهُم آياتِه حتى يُؤمِنوا.

فقوله: ﴿هُوَ ٱلَّذِى يُرِيكُمْ ءَايَٰتِهِۦ﴾؛ أي: يُظهِرها لكم حتى ترَوْها عيانًا، والآيات هنا: العلامات الدالَّة على مَعلومها، وهي أبلَغُ من المُعجِزات وما أَشبَهَها.

وآياتُ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ نَوْعان: آياتٌ كَوْنية وآياتٌ شَرْعية.

فالآياتُ الكَوْنية: هي مَخْلوقات الله عَزَّوَجَلَّ.

والآياتُ الشَّرْعية: هي الوَحيُ الذي جاءَت به الرُّسُل.

كل المَخْلوقات آياتٌ من آيات الله: ﴿وَفِى ٱلْأَرْضِ ءَايَٰتٌ لِّلْمُوقِنِينَ ﴿٢٠﴾ وَفِىٓ أَنفُسِكُمْ ۚ أَفَلَا تُبْصِرُونَ﴾ [الذاريات:٢٠-٢١]، ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا لِّتَسْكُنُوٓا۟ إِلَيْهَا﴾ [الروم:٢١]، ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ خَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَثَّ فِيهِمَا مِن دَآبَّةٍ﴾ [الشورى:٢٥].

والأَمْثلة على هذا كَثيرة، كلُّها تَدُلُّ على خالِقها عَزَّوَجَلَّ، وعلى تَفرُّده بالخَلْق، وعلى حِكْمته، وعلى رَحْمته، وعلى عِزَّته إلى غير ذلك من مَعانِي الرُّبوبية التي تَدُلُّ عليها هذه الآياتُ، وقد تَكون آية واحِدة تَدُلُّ على عِدَّة آيات، وعلى عِدَّة أَوْصاف، هذه الآياتُ الكَوْنية شامِلة لكل المَخْلوقات، وفي هذا يَقول القائِلُ:

فَوَاعَجَبًا كَيْفَ يُعْصَى الْإِلَهُ؟! أَوْ كَيْفَ يَجْحَدُهُ الجَاحِدُ
وَفِي كُلِّ شَيْءٍ لَهُ آيَةٌ تَدُلُّ عَلَى أَنَّهُ وَاحِدُ[1]

كل شيء تَتَأمَّل فيه تَجِدُ الدَّلالة الكامِلة على أن له خالِقًا مُدبِّرًا حَكيمًا عليمًا، إلى غير ذلك من مَعانِي الرُّبوبية.

أمَّا الآياتُ الشَّرْعية: فهي ما جاءَت به الرُّسُل وقد أَرانا الله تعالى إيَّاها، وأَعطى الرُّسُل عليهم الصلاة والسلام من الآيات ما يُؤمِن على مِثْله البَشَر، فالرُّسُل لم يَأْتوا هكذا يَقولون للناس: نَحْن رُسُلٌ إليكم. بل أَتَوْا بالآيات الدالَّة على ما أُرسِلوا به، وعلى مُرسِلِهم.

قوله: ﴿هُوَ ٱلَّذِى يُرِيكُمْ ءَايَٰتِهِۦ﴾ إِذَنِ الآياتُ تَشمَل: الكونية والشَّرْعية، البَرْق: آيةٌ كَوْنية: ﴿هُوَ ٱلَّذِى يُرِيكُمُ ٱلْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا﴾ [الرعد:١٢].

وقوله: ﴿وَيُنَزِّلُ لَكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ رِزْقًا﴾ التَّنزيل يَكون من أعلى، وهنا قال: ﴿مِّنَ ٱلسَّمَآءِ﴾ وهو العُلوُّ، وليس المُرادُ بالسماء هنا السماءَ المَحفوظةَ -السَّقْف المَرفوع-، بل المُراد به العُلوُّ؛ لقوله تعالى: ﴿وَٱلسَّحَابِ ٱلْمُسَخَّرِ بَيْنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [البقرة:١٦٤] فالمَطَر ليس يَنزِل من السَّماء السَّقْف المَحفوظ، وإنَّما يَنزِل من العُلوِّ،

(١) من شعر أبي العتاهية. انظر: ديوانه (ص:١٢٢)، ومعاهد التنصيص (٢/ ٢٨٦).

من السَّحاب المُسخَّر بين السماء والأرض، وهذا أمْر مُشاهَد.

وقوله: ﴿رِزْقًا﴾ أي: ماءً يَكون به الرِّزْق، فالذي يَنزِل ماءٌ يَكون به الرِّزْق، فهو نَفْسه رِزْق: ﴿أَفَرَءَيْتُمُ ٱلْمَآءَ ٱلَّذِى تَشْرَبُونَ ﴿٦٨﴾ ءَأَنتُمْ أَنزَلْتُمُوهُ مِنَ ٱلْمُزْنِ أَمْ نَحْنُ ٱلْمُنزِلُونَ﴾ [الواقعة:٦٨-٦٩]، وبه يَكون الرِّزْق ﴿فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ﴾ [الأعراف:٥٧]، والثمَرات أَرْزاق تُؤكَل، والماء رِزْق يُشرَب، فهو رِزْق بكُلِّ حال.

وفي تَقديم الآيات على إنزال الرِّزْق من السماء دَليل على أن النِّعْمة الدِّينية أهَمُّ وأكبَرُ من النِّعْمة الدُّنْيوية.

قوله: ﴿وَيُنَزِّلُ لَكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ رِزْقًا ۚ وَمَا يَتَذَكَّرُ إِلَّا مَن يُنِيبُ﴾ [غافر:١٣].

قال المفَسِّر رَحِمَهُ اللَّهُ: [﴿هُوَ ٱلَّذِى يُرِيكُمْ ءَايَٰتِهِۦ﴾ دَلائِل تَوحيده] يَعنِي: التي تَدُلُّ على تَوحيده وغير ذلك ممَّا تَدُلُّ عليه من مَعاني الرُّبوبية، [﴿وَيُنَزِّلُ لَكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ رِزْقًا﴾ بالمَطَر]، فالمفَسِّر رَحِمَهُ اللَّهُ يَرى أنَّ الرِّزْق هو ما يَخرُج بالمطَر. يَعنِي: النَّبات وما أَشبَه ذلك، ولكن ما ذكَرْناه هو الأصوَبُ، أن المطَر نَفْسه رِزْق؛ لأن الله قال: ﴿أَفَرَءَيْتُمُ ٱلْمَآءَ ٱلَّذِى تَشْرَبُونَ ﴿٦٨﴾ ءَأَنتُمْ أَنزَلْتُمُوهُ مِنَ ٱلْمُزْنِ أَمْ نَحْنُ ٱلْمُنزِلُونَ﴾ [الواقعة:٦٨-٦٩]، وأحيانًا يَكون احتِياج البَدَن إلى الماء أكثَرَ مِن احتياجه إلى الأَكْل.

قال المفَسِّر رَحِمَهُ اللَّهُ: [﴿وَمَا يَتَذَكَّرُ﴾ يَتَّعِظ ﴿إِلَّا مَن يُنِيبُ﴾ يَرجِع عن الشِّرْك]، وقوله: ﴿إِلَّا مَن يُنِيبُ﴾ قال المفَسِّر رَحِمَهُ اللَّهُ: [يَرجِع عن الشِّرْك]، وهذا لا شَكَّ أنه صَحيح لكنه قاصِر، فالصَّواب: ﴿مَن يُنِيبُ﴾ مَن يَرجِع إلى الله عَزَّوَجَلَّ من الشِّرْك وغيره من المَعاصِي والفُسوق، فهو أعَمُّ ممَّا قاله المفَسِّر.

من فوائدِ الآيةِ الكريمةِ:

الْفَائِدَةُ الأُولَى: بيانُ قُدْرة الله عَزَّوَجَلَّ؛ لأَنَّه يُرينا الآياتِ.

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَةُ: أنَّ ما يُرينا الله تعالى من آياتِه حُجَّة مُلزِمة؛ لئَلَّا يَقول قائِل: نحن لم يَأْتِنا آياتٌ حتى نَتَّعِظ بها.

الْفَائِدَةُ الثَّالِثَةُ: أنَّ المَخلوقاتِ والمَشـروعاتِ كلها تَدُلُّ على الخالِق المُشرِّع سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

الْفَائِدَةُ الرَّابِعَةُ: مِنَّة الله عَزَّوَجَلَّ بإنزال المطَر من السماء، وأَنَّه رِزْق لنا.

الْفَائِدَةُ الخَامِسَةُ: الحِكْمة في أنَّ المطَر يَنزِل من السماء، والله عَزَّوَجَلَّ قادِر على أن يَجعَل للأرض أنهارًا تَسير على سَطْح الأرض، وتَسقِي ما شاء الله أن تَسقِيَه، لكن المَطَر أَنفَعُ وأفضَلُ؛ لأنَّ المطَر إذا نزَل من أعلى شمِلَ قِمَم الجِبال، فيَشمَل السهل والوَعْر، والنازِل والعالِيَ، وهذه من الحِكْمة أن يَكون المطَر يَنزِل من فوقُ حتى يَشمَل الأرض كلَّها.

الْفَائِدَةُ السَّادِسَةُ: أنَّ ما تَتَغذَّى به الرُّوح أهمُّ مِمَّا يَتَغذَّى به البدَن؛ لأنه سبحانه قدَّم إِراءة الآياتِ على الرِّزْق الذي يَنزِل من السماء، وهذا يَدُلُّ على أنَّه أَهَمُّ، وهو كذلك، هذا هو الواقِع؛ وذلك لأن فَقْد الغِذاء البدَنيِّ لا يَكون فيه إلَّا شيء لا بُدَّ منه وهو الموت الذي لا بُدَّ منه، حتى لو كان الإنسان في أَنعَم ما يَكون من نَعيم البدَن، وأَترَف ما يَكون فلا بُدَّ أن يَموت، لكن غِذاء الرُّوح هو الذي يَحتاج إلى مُعاناة ومُعالَجة، وبفَقْده يَكون الهَلاك في الدُّنيا والآخِرة.

قال الله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّ ٱلْخَٰسِرِينَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ [الزُّمَر:١٥]،

﴿قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُم بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمَالًا ﴿١٠٣﴾ الَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا ﴿١٠٤﴾ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ وَلِقَائِهِ﴾ [الكهف:١٠٣-١٠٥]، وقال تعالى: ﴿وَالْعَصْرِ ﴿١﴾ إِنَّ الْإِنسَانَ لَفِي خُسْرٍ ﴿٢﴾ إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ﴾ [العصر:١-٣].

إِذَنْ: خَسارة البدَن دون خَسارة الرُّوح بكثير، خَسارة الدُّنيا دون خَسارة الدِّين بكَثير؛ ولهذا قدَّم الله عَزَّوَجَلَّ نِعْمته بإِراءة الآيات على نِعْمته بإنزال المطَر.

الْفَائِدَةُ السَّابِعَةُ: أنَّ الآياتِ والرِّزْقَ والعَطاء لا يَنتَفِع به إلَّا مَن أَناب إلى الله، أمَّا مَن لم يُنِب إلى الله فإن الله يَقول: ﴿وَمَا تُغْنِي الْآيَاتُ وَالنُّذُرُ عَن قَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ﴾ [يونس:١٠١].

الْفَائِدَةُ الثَّامِنَةُ: أنَّه كلَّما كان الإنسان أكثرَ إنابةً إلى الله كان أقوى إيمانًا بالآيات؛ لأنَّ الحُكْم المُعلَّق على وَصْف يَقوَى بقُوَّته ويَضعُف بضَعْفه، فإذا كان التَّذكُّر لمَن يُنيب، فكلَّما كان الإنسان أَقوَى إنابةً كان أَقوى تَذكُّرًا.

الْفَائِدَةُ التَّاسِعَةُ: أنَّ مَن لم يَكُن عنده إنابة فإنه يُحرَم من الانتِفاع بالآيات؛ لأنَّ الله قال: ﴿وَمَا يَتَذَكَّرُ إِلَّا مَن يُنِيبُ﴾.

الْفَائِدَةُ الْعَاشِرَةُ: أنَّ الإنابة إلى الله سبَب لكَثْرة الرِّزْق، ويَدُلُّ لذلك قوله تعالى: ﴿وَمَن يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَل لَّهُ مَخْرَجًا ﴿٢﴾ وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ﴾ [الطلاق:٢-٣] واللهُ أَعلَمُ.

وإذا قال قائِل: كيف نُجيب على مَن يَقول: قولُ الله تَبَارَكَ وَتَعَالَى ﴿وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾ [المائدة:٤٥] ﴿وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾ [المائدة:٤٧] أنَّ المُراد به الكُفْر؟

فنُجيب بأنه غلَط، كيف يُراد به شيء واحِد ويُكرِّره الله بألفاظ مُتعَدِّدة؟! والأصل أنَّ اختِلاف اللَّفْظ يَدُلُّ على اختِلاف المَعنى، لكن بعض العُلَماء قال: إنَّ وَصْف الحاكِم بالكُفْر لا يَمنَع من وَصْفه بالفِسق؛ لأن الله تعالى وصَف الكُفَّار بالفِسْق، فقال تعالى: ﴿وَأَمَّا ٱلَّذِينَ فَسَقُواْ فَمَأْوَىٰهُمُ ٱلنَّارُ كُلَّمَآ أَرَادُوٓاْ أَن يَخْرُجُواْ مِنْهَآ أُعِيدُواْ فِيهَا﴾ [السجدة:٢٠]، ووصَف الكافِرين بالظُّلْم، فقال: ﴿وَٱلْكَٰفِرُونَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ [البقرة:٢٥٤]، فجعَل هذه الأوصافَ الثلاثةَ لمَوْصوف واحِد، ولا مانِعَ من أن يُوصَف الإنسان بعِدَّة أَوْصاف، فالكافِر لا شَكَّ أنه ظالِم، ولا شَكَّ أنه فاسِق خارِج عن الطاعة، بل فِسْقه فِسْق مُطلَق، وفِسْق المُؤمِن العاصِي فِسْق مُقيَّد، ولكننا إذا جعَلْنا اختِلاف هذه الألفاظِ مُنزَّلًا على أحوال كان أَبلَغَ؛ لأننا نَقول: الكُفْر مُتضَمِّن للظُّلْم والفِسق، فدَلالته عليه بالالتِزام، فيَكون مُجرَّد وَصْفنا إِيَّاه بالكُفْر هو وصف له بالظُّلْم والفِسق.

ثُم نَستَفيد فائِدة جديدة بالحُكْم بغير ما أَنزَل الله، حيث يَكون ظُلْمًا محَضًا لا كُفرًا أو فِسْقًا لا كُفرًا.

وأَقول: إن كوننا نَجعَل الاختِلاف في اللفظ اختِلافًا في المَعنى أَحسَنُ؛ لأن هذا هو الأَصْل، وقد قال العُلَماء في هذه المَسأَلةِ: حَمْل الكلام على التَّأْسيس أَوْلى من حَمْله على التوكيد.

فإن قال قائِل: العُلَماء يَقولون في مِثْل مَن لم يَحكُم بما أَنزَل الله ﴿وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾ [المائدة:٤٤]: إذا استَحَلَّه، أَمَّا إذا لم يَستَحِلَّه فهذا غير كافِر؟

فالجوابُ: الذي يَضَع القانون بدَلًا عن القانون السَّماويِّ هل استَحَلَّه أو لا؟

الجواب: بل رآه أفضَلَ، فيَكون كافِرًا، مع أن مَن استَحَلَّ الحُكْم بغير ما أَنزَلَ الله، وإن لم يَحكُم به فهو كافِر، فمَن قال: «إنه يَحِلُّ أن نَحكُم بغير ما أَنزَل الله»، فهو كافِر وإن لم يَحكُم به.

وهذه مُشكِلة، فكثيرًا ما يَلجَأ بعض الناس إلى الاستِحْلال أو إلى الجُحود، فمثَلًا يَقول: مَن ترَك الصلاة جاحِدًا فقد كفَرَ. وهذا تَحريف للكلِم عن مَواضِعه.

وهذه مَسأَلة يَلجَأ إليها المُتعَصِّب لقوله، فيُحاوِل أن يَلوِيَ أعناق النُّصوص إلى ما يَقول؛ فمثَلًا: «مَنْ تَرَكَ الصَّلَاةَ فَقَدْ كَفَرَ»[1] الذين قالوا: لا يَكفُر. قالوا: مَن ترَكَها جاحِدًا لوُجوبها فقد كفَر، نحن نَقول: سُبحان الله! أنتم إذا فعَلْتم ذلك جنَيْتم مرَّتَيْن على كلام رسول الله ﷺ:

المَرَّة الأُولى: حَمْلكم الكلام على غير ظاهِره.

والمَرَّة الثانية: إثبات أَمْر لم يَقُله الرسول عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ.

الرسول ﷺ قال: «مَنْ تَرَكَهَا»، ولم يَقُل: مَن جحَدها، هل في لِسانه عِيٌّ أن يَقول: مَن جَحَدَها.

ثُم نَقول لكم: الجَحْد كُفْر وإن صلَّى، والرسول ﷺ يَقول: «مَنْ تَرَكَ الصَّلَاةَ» لو أن الإنسان قال: إنَّ الصلاة لَيْسَت بواجِبة، ولكنه يُواظِب عليها، وهو أوَّل مَن يَأتِي للمَسجِد، وآخِرُ مَن يَخرُج؛ فإنه يَكفُر، كيف تُلغون وَصْف التَّرْك، وتَأتون بوَصْف جديد تُعلِّقون به الحُكْم؟! وهذه مُشكِلة.

ولَمَّا قيل للإمام أَحمدَ رَحِمَهُ ٱللَّهُ في قوله تعالى: ﴿وَمَن يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُّتَعَمِّدًا

---

(١) أخرجه ابن حبان رقم (١٤٦٣)، من حديث بريدة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ.

فَجَزَآؤُهُۥ جَهَنَّمُ خَٰلِدًا فِيهَا وَغَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُۥ وَأَعَدَّ لَهُۥ عَذَابًا عَظِيمًا﴾ [النساء:٩٣] قالوا له: إنَّ فلانًا يَقول: هذا فيمَنِ استَحَلَّ قَتْل المُؤمن؛ ضحِكَ الإمامُ أحمدُ وقال: «سُبحانَ الله! مَنِ استَحَلَّ قَتْل المُؤمن فهو كافِر، قَتَله أو لم يَقتُله»، وهذا تَحريف لا شَكَّ أنه مُضحِك.

كذلك أيضًا مَنِ استَحَلَّ الحُكْم بغير ما أَنزَل الله فهو كافِر، سواء حكَمَ به أم لم يَحكُم، والآية علَّقَت الحُكْم بالحُكْم، ﴿وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ﴾ وهذه مَسأَلة احذَرُوها، احذَروا تَحريف الكلِم عن مَواضِعه من أَجْل اعتِقاد تَعتَقِدونه، واجعَلوا اعتِقادَكم وحُكْمكم على الشيء تابِعًا للنُّصوص، لا تَجعَلوا النُّصوص تابِعة، إذا جعَلْت النَّصَّ تابِعًا لما تَعتَقِد فإنَّ هذا هو اتِّباع الهوى تَمامًا، اجعَلْ نَفسَك بين يدَيِ النُّصوص كالميت بين يدَيِ الغاسِل، تُقلِّبك النُّصوص ولا تُقلِّبها، هذا هو المُؤمِن، لكن قد يَكون أحيانًا النُّصوص بعضُها يُقيِّد بعضًا، أو يُخصِّص بعضًا، أو الفِقْه بالشريعة يَقتَضي تَقييد المُطلَق، أو تَخصيص العامِّ، وما أَشبَه ذلك، وهذا لا يَخرُج بنا عن اتِّباع النُّصوص.

• • ۞ • •

الآية (١٤)

• ● ● •

❁ قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿فَٱدۡعُواْ ٱللَّهَ مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ وَلَوۡ كَرِهَ ٱلۡكَٰفِرُونَ﴾ [غافر:١٤].

• ● ● •

لَمَّا بيَّن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى أنه أَرانا آياتِه الكونيةَ والشَّرْعية، أمَرَنا أن نَدعوَه وحدَه مُخلِصين له الدِّين.

فقوله: ﴿فَٱدۡعُواْ ٱللَّهَ﴾ قال المفَسِّر رَحِمَهُ اللَّهُ: [فاعبُدوه] وهذا أحَدُ معنيَيْن: الدعاء، والمعنى الثاني: دُعاء المَسأَلة، يَعنِي: اسأَلوه. والصوابُ: أنه شامِل للأَمْرين؛ أي: دُعاء المَسأَلة، ودعاء العِبادة، فالعِبادة تُسمَّى دُعاءً كما في قوله تعالى: ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ٱدۡعُونِيٓ أَسۡتَجِبۡ لَكُمۡۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسۡتَكۡبِرُونَ عَنۡ عِبَادَتِي سَيَدۡخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ﴾ [غافر:٦٠] قال: ﴿ٱدۡعُونِيٓ﴾ ثُمَّ قال: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسۡتَكۡبِرُونَ عَنۡ عِبَادَتِي﴾.

وأمَّا دُعاء العِبادة: فإن كل إنسان يَدعو الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، فإنه لا يَدْعوه إلَّا وهو يُؤمِن أنه بكل شيءٍ عَليم، وأنه على كل شيء قَدير؛ فلهذا دَعاه، فصار بذَلِك عابِدًا له.

وقوله: ﴿فَٱدۡعُواْ ٱللَّهَ مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ﴾ ﴿مُخۡلِصِينَ﴾ حال من الواو في قوله: ﴿فَٱدۡعُواْ ٱللَّهَ﴾، والإخلاص: التَّنْقية، فتَنْقية الشيء تُسمَّى إخلاصًا، والمَعنَى: نَقُّوا دِينكم من الشِّرْك.

وقوله: ﴿لَهُ ٱلدِّينَ﴾، المراد بالدِّين العمَل، سواءٌ كان عِبادة أم دُعاء، والدِّين يُطلَق على العمَل، ويُطلَق على جزاء العمَل، فقوله تعالى: ﴿لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ﴾ [الكافرون:٦] هذا من باب إطلاق الدِّين على العمَل، وقوله تعالى: ﴿مَٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ﴾ [الفاتحة:٤] هذا من باب إطلاق الدِّين على الجزاء.

ويُقال: (كما تَدينُ تُدانُ) أي: كما تَعمَل تُجازَى، فالدِّين هنا ﴿مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ﴾ بمعنى: العمَل.

قال المفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ﴾ من الشِّرْك] كما قال المفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ، أن نَدعوَ الله تعالى مُخلِصين له الدُّعاء، وأن نَعبُده مُخلِصين له العِبادة من الشِّرْك، فلا نُشرِك به غيره، لا في دُعائنا ولا في عِبادتنا.

قال المفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾ إخلاصَكم] يَعني: ادْعُوا الله مُخلِصين على كل حال، سواء رَضِيَ الكافِرون أم سخِطوا، ومن المعلوم أنهم سوف يَسخَطون، لكن لا يُهِمُّ أن يَسخَطوا علينا إذا أَخلَصنا الدِّين لله، وقول المفَسِّر: [﴿وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾ إخلاصَكم] ينبَغي أن يُقال: ولو كرِهوا عمَلكم المُخلَص؛ لأن الإخلاص نِيَّة القَلْب، والكافِر إنما يَكرَه ما يَظهَر من عمَل الإنسان، فالمَعنى: ولو كرِه الكافِرون عمَلكم الذي تُخلِصون فيه لله على رغم أُنوفهم.

من فوائدِ الآيةِ الكريمةِ:

الْفَائِدَةُ الأُولَى: وجوب الإخلاص لله تعالى في الدُّعاء؛ لقوله: ﴿فَٱدْعُوا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ﴾، ودُعاء غير الله فيما لا يَقدِر عليه المَدعوُّ يُعتبَر من الشِّرْك، ثُم قد يَكون شِرْكًا أكبَرَ، وقد يَكون شِرْكًا أصغَرَ بحَسب الحال، فمَن دعا قبرًا فهذا شِرْك أكبَرُ،

ومَن دعا غيره ليَحمِل معه مَتاعَه، وما أَشبَه ذلك والغَيرُ لا يَستَطيع أن يَحمِل فهذا ليس بشِرْك أكبَرَ، بل هو إمَّا عبَث وإمَّا شِرْك أصغَرُ، ومَن دعا غائبًا ليُنقِذه من شِدة فهذا شِرْك أكبَرُ؛ لأن هذا يُسمَّى شِرْك السِّرِّ، إذ إن الغائب لا يُمكِن أن يَدعوَه الإنسان إلَّا وهو يَعتَقِد أن له تَصرُّفًا في الكون، يَتصَرَّف وهو بعيد، بخِلاف مَن دعا قريبًا وقال: يا فُلانُ احمِلْ معِي كذا، أَعنِّي على كذا، فهذا يَدعوه ليَقوم بشَيْء محسوس.

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَةُ: وُجوب إخلاص العِبادة لله؛ لأننا فسَّرنا الدُّعاء بدُعاء المَسأَلة ودُعاء العِبادة، فمَن تَعبَّد لغير الله استِقْلالًا فقد صرَف شيئًا من أنواع العِبادة لغير الله، فيَكون بذلِك مُشرِكًا شِرْكًا أكبَرَ، يَعنِي: مَن صلَّى لشخص فإنه يَكون مُشرِكًا شِركًا أكبَرَ، أو ذَبَح لشخص تَقرُّبًا إليه وتَعظيمًا له، فإنه يَكون مُشرِكًا شِرْكًا أكبَرَ مُخرِجًا عن المِلَّة، وأمَّا إذا فعَل العِبادة لله، لكن راءَى فيها أو سمَّع، فهذا لا يَكون مُشرِكًا شِركًا أكبَرَ، ولكنه مُشرِك شِركًا أصغَرَ، وعِبادته مَردودة عليه؛ لقول النبيِّ ﷺ فيما رَواه عن ربِّه: «أَنَا أَغْنَى الشُّرَكَاءِ عَنِ الشِّرْكِ، مَنْ عَمِلَ عَمَلًا أَشْرَكَ فِيهِ مَعِي غَيْرِي تَرَكْتُهُ وَشِرْكَهُ»(١).

ثُمَّ اعلَمْ أن الرِّياء إذا طرَأ على القَلْب فإن كان قبل الدُّخول في العِبادة أبطَلها من أَصلها؛ لأنه دخَل فيها على شِرْك، وإن كان في أثناء العِبادة فإن كان آخِرها يَنبَني على أوَّلِها بطَلَت، وإن كان لا يَنبَني على أوَّلها؛ بحيث يَصِحُّ أن يُميِّز الأَوَّل عن الثاني فإنه لا يَصِحُّ ما فيه الرِّياء، ويَصِحُّ ما سبَق الرِّياء.

مِثال الأوَّل: إذا دخَله الرِّياء في أثناء الصلاة في الركعة الثانية، فإنَّ الصلاة

---

(١) أخرجه مسلم: كتاب الزهد، باب من أشرك في عمله غير الله، رقم (٢٩٨٥)، من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

تَبطُل كلها؛ لأنه إذا بطَلَت الركعة الثانية لزِم بُطلان الرَّكْعة الأُولى؛ لأن الصلاة لا تَتَبعَّض.

ومِثال الثاني: رجُل أعَدَّ مئة صاعٍ للصدَقة بها، فتَصدَّق بخَمسين صاعًا صدَقةً خالِصة، ثُم دخَله الرِّياء في الأصواع الباقية، فهُنا تَبطُل الأصواع الباقية، أمَّا الأُولى فتَصِحُّ؛ وذلك لأنَّ هذه العِبادةَ -أَعنِي: الصدَقة- تَتبعَّض ولا يَنبَني آخِرُها على أوَّلِها، حتَّى لو فُرِض أنه ممَّا عيَّنه الشَّرْع، كإطعام سِتِّين مِسكينًا مثَلًا في الكَفَّارة، فأَطعَم ثلاثين مِسكينًا بإخلاص، ثُم بعد ذلك دخَله الرِّياء فإن ما سبَقَ الثلاثين الأخيرةَ يَكون مُجْزِيًا؛ هذا إذا استَرسَل مع الرِّياء، وأمَّا إذا طرَأ عليه الرِّياء فدافَع، وما زال جاهِدًا في مُدافَعته فإنه لا يَضُرُّه شيئًا؛ لقول النَّبيِّ ﷺ: «إِنَّ اللهَ تَجَاوَزَ لِأُمَّتِي مَا حَدَّثَتْ بِهِ أَنْفُسَهَا مَا لَمْ تَعْمَلْ أَوْ تَتَكَلَّمْ»[1]، وهذا لم يَعمَل ولم يَتكَلَّم، بل رُبَّما أنه لم يُحدِّث نَفْسه، لكن هاجَمَه الرِّياء.

فصار الآنَ مَن فعَل العِبادة لغير الله -يَعنِي: تَعبَّد لغيـر الله- فحُكْمه شِرْك أكبَرُ، ومَن فعَلَ العِبادة لله لكن دخَلها الرِّياء، إن كان قبل الشُّروع في العِبادة بطَلَت، وإن كان في أثنائها ففيه التَّفْصيل، إن كان آخِرها يَنبَني على أوَّلِها بمَعنى أنَّها لا تَتبعَّض بطَلَت، وإن كان آخِرُها لا يَنبَني على أوَّلِها بأن كانت تَتبعَّض بطَل الجُزء الَّذي وقَعَ فيه الرِّياء وما سبَقَ فهو صحيح، وهذا إذا استَرسَل مع الرِّياء واستَمَرَّ المُرائِي، فإن دافَعه فلا شيءَ عليه، ولا يَضُرُّه ذلك.

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب الأيمان والنذور، باب إذا حنث ناسيًا في الأيمان، رقم (٦٦٦٤)، ومسلم: كتاب الإيمان، باب تجاوز الله عن حديث النفس والخواطر بالقلب، إذا لم تستقر، رقم (١٢٧)، من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

مَسْأَلةٌ: رجُل دخَل في الصلاة مُخلِصًا، فحضَر إنسان فَرَاءَاهُ، ثُمَّ ذهَب الإنسان فعاد إلى الإخلاص؟

فالجوابُ: إذا بطَلَت العِبادة لا تَعود صَحيحة، فهذا تَبطُل عِبادته؛ لأن مُراقَبته لغير الله أشَدُّ من مُراقَبَته لله عَزَّوَجَلَّ، لم يُراقِب الله إلَّا حين ذهَبَت مُراقَبة الناس، فهذا عِبادته باطِلة ولا شَكَّ، ولعَلَّه إن جاء آخَرُ يُحدِث رياء، وإذا ذهَب ذهَب الرِّياء، فإن جاء آخَرُ يَحدُث رِياء.

فإن قال قائِل: إذا دخَل المَرْء في الصلاة مُرائِيًا، ثُم دافَع الرِّياء، فهَلْ تَصِحُّ؟

فالجَوابُ: إذا بدَأ مُطمَئِنًّا للرِّياء فلا تَنعَقِد عِبادته، لكن هنا مَسأَلة لو أن الرجل حسَّن عِبادته لتعليم الناس، لم يَقصِد أن يَمدَحوه على عِبادته، أو يَتقَرَّب إليهم بالعِبادة، لكن من أَجْل أن يَتَّخِذ الناس منه أُسوة، فهذا لا يَدخُل في الرِّياء، هذا يَدخُل في التعليم، وهو مَأْجور على ذلك، لكن فَرْق بين هذا وبين شخص يُريد أن يَمدَحه الناس على صلاته.

فإن قال قائِل: هل من الرِّياء أن يُظهِر الإنسان بعضَ ما عِنده لأَجْل ألَّا يُذَمَّ؟

فالجَوابُ: دَفْع المَلامة فيه حَديث: «رَحِمَ الله امْرَأً كَفَّ الغِيبَةَ عَنْ نَفْسِهِ»[1]، وأيضًا الرَّسول عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ لَمَّا خرَج بصَفيَّةَ ليَقلِبها ليلًا، فمَرَّ به رجُلان من الأنصار فأَسرَعا، فقال النَّبيُّ -صلى الله عليه وعلى آله وسلم-: «عَلَى رِسْلِكُمَا، إِنَّهَا صَفِيَّةُ»[2] دفعًا للمَلامة عن نفسه، هو مُخلِص لله، لكن يُريد مع ذلك أن يَدفَع المَلامة

(١) لا أصل له، وانظر: كشف الخفاء للعجلوني رقم (١٣٦٧).

(٢) أخرجه البخاري: كتاب الاعتكاف، باب زيارة المرأة زوجها في اعتكافه، رقم (٢٠٣٨)، ومسلم: كتاب السلام، باب يستحب لمن رئي خاليا بامرأة ...، رقم (٢١٧٥)، من حديث صفية رَضِيَٱللَّهُعَنْهَا.

عن نَفْسه؛ لئَلَّا يُقال: إنه بَخيل. مثَلًا، أو لئَلَّا يُقال: إنه لا يُصلِّي مع الجماعة. وما أَشبَهَ ذلك، وأصلُ النِّيَّة لله، لكن لدَفْع المَلامة لا ليُمدَح، فبينهما فَرْق بين مَن قَصْده المَدْح، أو مَن قَصْده دَفْع المَلامة.

فإن قال قائِل: التَّمنِّي هل يَدخُل في الرِّياء. يَعنِي مثَلًا لو كان يَقرَأ القُرآن، وتَمنَّى في نَفْسه لو أن فُلانًا يَسمَع قِراءته؟

فالجوابُ: هذا رِياءٌ لا شَكَّ -يَعنِي: ليَقول: إنه قارِئ وإنه عابِد- لأَنَّه هو الآنَ في قَلْبه أنه لو كان فُلان حاضِرًا لرآه، لكن يَجِب أن تَعلَم أن النِّيَّة لا تَصِل إلى درَجة العمَل لا في الثَّواب، ولا في العِقاب.

فإن قال قائِل: بالنِّسبة لرَجُل عمِل لوَجْه الله، لكن بعدَما أَنهَى العمَل مدَحه الناس؛ فأَحبَّ ولم يَقصِده من الأوَّل، وإنما سُرَّ بمَدْح الناس له؟

فالجوابُ: لا يَضُرُّ هذا، بل هذا من عاجِل بُشْرى المُؤمِن أن يَجِد الإنسان ثَوابَ عمَله مُقدَّمًا، والثواب الأُخروِيَّ في الآخِرة.

مسألةٌ: هل يَجوز أن أَذهَب إلى رجُل عاصٍ لأَدعُوَه؟ وكيف إذا ضاق صَدْري؟

فالجَوابُ: اذهَبْ، ما دُمْت تُريد الذَّهاب للدَّعوة، فاذْهَبْ إليه، وإذا ضاق صَدْرك فاصبِرْ؛ فحتى مَن يَدعو الناس في المَسجِد وفي السُّوق، يَضيق صَدْره إذا رآهم على مُنكَر. اصبِرْ ما دُمْت تُريد أن تَدعوَه، أمَّا إذا ذهَبْت تُريد أن تُكرِمه فلا يَجوز.

تنبيه: مِمَّا لا شَكَّ فيه أنَّ الدعوة إلى الله برِفْق أَقرَبُ إلى النَّتائج الطَّيِّبة بالعُنْف؛ لقول النَّبيِّ -صلى الله عليه وعلى آله وسلم-: «**إِنَّ اللهَ رَفِيقٌ يُحِبُّ الرِّفْقَ فِي الْأَمْرِ كُلِّهِ**»

وكذلك قال: «إِنَّ اللهَ يُعْطِي بِالرِّفْقِ مَا لَا يُعْطِي عَلَى الْعُنْفِ»[١] يعني: لو لم يَكُن إلَّا أن استَعْملنا ما هو أَوْلى، وما يُحِبُّه الله عَزَّوَجَلَّ لكَفَى.

ونحن نُشاهِد الآنَ أنَّ النَّتائِج الطَّيِّبة في الدَّعوة إلى الله بِرِفْق، وهناك وقائِعُ كثيرة؛ فالرِّفْق كلُّه خير، وهذا شيء مُجرَّب لكن أحيانًا الإنسان للغَيْرة التي عنده يَثور، ويَعجِز أن يَملِك نَفْسه، نحن نَقول: هدِّئْ؛ لأنك أنت مِثْل الطَّبيب الذي يُريد أن يَشُقَّ الجُرْح، فلا بُدَّ أن تَكون بهدوء، وعلى الوجه الذي يَحصُل به المَطلوب.

الْفَائِدَةُ الثَّالِثَةُ: مُراغَمة الكُفَّار في الإخلاص لله وفي العَمَل؛ لقوله: ﴿وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾، ويَنبَني على ذلك أنه يَجِب على الإنسان أن يَقوم بالواجِب ولو كرِهَ ذلك غيره، ولا يُحابِيَ أحَدًا في هذا، فمثَلًا إذا كرِهَ أبو الشابِّ أن يُصلِّيَ ابنه مع الجماعة -كما يُوجَد الآنَ- فلا يُداهِن أباه في ذلك، يُصلِّي مع الجماعة ولو رغم أَنْف أبيه، ولو كرِه ذلك.

ولو وصَل الشابُّ رحِمَه -كعمِّه وخاله، وما أَشبَه ذلك- وكان بينَه وبين أبيه عَداوة شَخْصية، فكان يَكرَه لابنه أن يَصِل أَقارِبَه الذين يَكرَهُهم أَبوه، فيُواصِلهم ولو كرِه، لكن في هذه الحالِ يُدارِي أباه، بمَعنَى أنه يَكتُم عنه أنه وصَلَهم؛ لتَحصُل المَصلَحة بدون مَفسَدة.

وهناك فَرْق بين المُداراة والمُداهَنة، المُداراة: أن يَفعَل الإنسان ما يَلزَمه مع التَّكتُّم عن الشخص الآخَر الذي يَكرَه؛ ولهذا سُمِّيت مُداراة من الدَّرْء وهو الدَّفْع.

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب الأدب، باب الرفق في الأمر كله، رقم (٦٠٢٤)، ومسلم: كتاب البر والصلة، باب فضل الرفق، رقم (٢٥٩٣)، من حديث عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا.

وأمَّا المُداهَنة: فأن يُوافِقه في تَرْك ما يَجِب مُداهَنة له، مَأخوذة من الدُّهْن؛ لأنه يَلين، فنَقول: يَتفَرَّع على هذه الفائِدةِ: أن الإنسان يَفعَل ما يَلزَمه، ولو كرِهَ ذلك غيره، ولو كان الكارِهُ أقرَبَ أهلِه إليه.

• ● ۞ ● •

الآية (١٥)

• قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿رَفِيعُ ٱلدَّرَجَٰتِ ذُو ٱلۡعَرۡشِ يُلۡقِي ٱلرُّوحَ مِنۡ أَمۡرِهِۦ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنۡ عِبَادِهِۦ لِيُنذِرَ يَوۡمَ ٱلتَّلَاقِ﴾ [غافر:١٥].

ثُم قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿رَفِيعُ ٱلدَّرَجَٰتِ﴾؛ أي: الله عَظيم الصِّفات، أو رافِع درَجات المُؤمِنين في الجَنَّة]، قوله: ﴿رَفِيعُ﴾ من الرِّفْعة وهي العُلوُّ، فسَّرها المفَسِّر - رحمه الله وعفا عنه- بأَحَد مَعنيَيْن:

المعنى الأوَّل: أن المُراد بالرِّفْعة العظَمة، والمُراد بالدرَجات الصِّفات، أي: أنَّ الله تعالى عَظيم الصِّفات.

والمعنى الثاني: رَفيع الدرَجات؛ أي: رافِع درَجات غيره وهُمُ المُؤمِنون في الجَنَّة.

وكِلا المَعنيَيْن تَحريف للكلِم عن مَواضِعه؛ لأنَّ ﴿رَفِيعُ﴾ اسم فاعِل أو صِفة مُشبَّهة، فاعِلها يَعود على الله عَزَّوَجَلَّ المَذكور في قوله: ﴿فَٱدۡعُواْ ٱللَّهَ مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ﴾ وعلى هذا فلا يَصِحُّ أن تُفسَّر بأن المُراد: رافِع درَجات المُؤمِنين؛ لأنه على هذا التَّفسيرِ تكون الدرَجاتُ درَجاتِ غيرِه، درَجات المُؤمِنين.

ولا يَصِحُّ أن تُفسَّر ﴿رَفِيعُ ٱلدَّرَجَٰتِ﴾ بعظيم الصِّفات، لما بينَهما من الفَرْق العظيم، لكن المفَسِّر عفا الله عنه فسَّرها بهذا التَّفسير فِرارًا من إثبات العُلوِّ الذاتيِّ؛

لأنه مِمَّن لا يَرَوْن ذلك أنه عالٍ بذاته، فلهذا حرَّف القُرآن إلى أحَدِ هذين المَعنَيين، وكِلاهما باطِل.

والصوابُ: أنه سُبحانَه رفيعُ الدرجات، ويَدُلُّ لهذا ويُعيِّنه قوله: ﴿ذُو ٱلْعَرْشِ﴾؛ أي: صاحِب العَرْش، والعَرْش هو أعلى المَخلوقات، فكأنَّه قال: رَفيع الدرَجات فوق العَرْش، وهذا هو المُتعيِّن.

وقول المفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿ذُو ٱلْعَرْشِ﴾: خالِقه] فيه أيضًا إشارة إلى إنكار الاستِواء؛ لأنَّ مَعنى ﴿ذُو ٱلْعَرْشِ﴾؛ أي: صاحِبه المُستَوِي عليه، هذا هو المَعنى؛ ولهذا لا يُقال: ذو الأرض، ولا ذو السَّماء، ولا ذو الجِبال، ولا ذو السَّحاب، مع أنه خالِقها، فتَفسيره ﴿ذُو ٱلْعَرْشِ﴾ بخالِقه لا شَكَّ أنه تَحريف للكَلِم عن مَواضِعه فِرارًا من إثبات الاستِواء على العَرْش.

وتَفسير الآية المُتعيِّن أن نَقول: إنه رفيعُ الدرَجات؛ أي: هو نَفْسه عَزَّوَجَلَّ مُرتَفِع، بل رفيع الدرَجات أتَى بالصِّفة المُشبَّهة الدالة على الثبوت والدوام، والدرَجات من الدرَجات المعروفة؛ أي: ما كان بعضُه فوقَ بعض حتى يَصِل إلى الغاية، وأمَّا ﴿ذُو ٱلْعَرْشِ﴾ فمَعناه صاحِب العَرْش المُختَصُّ بالاستِواء عليه، هذا هو المُتعيِّن من الآية.

قال المفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿يُلْقِى ٱلرُّوحَ﴾ الوَحيَ ﴿مِنْ أَمْرِهِۦ﴾؛ أي: قوله ﴿عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ﴾] إلى آخِره. ﴿يُلْقِى ٱلرُّوحَ﴾ الرُّوح: الوَحيُ؛ لقوله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا﴾ [الشورى:٥٢] وسَمَّى الله تعالى الوَحيَ رُوحًا؛ لأن به حَياة القُلوب، وقوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿مِنْ أَمْرِهِۦ﴾ أي: قوله] وهذا جيِّد، هذا التَّفسير يَعنِي أن

الوحيَ من قول الله عَزَّوَجَلَّ، يقول: فيَسمَع جِبريلُ، ثُم يَنزِل به إلى مَن شاء الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

وقوله تعالى: ﴿عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنۡ عِبَادِهِۦ﴾، ولم يُبيِّن مَن هؤلاءِ، ولكننا نَعلَم أنَّهم الأنبياء؛ لأنهم هم الذين يُلقَى إليهم الوَحيُ، سواءٌ كانوا رسُلًا أم غير رُسُل، ثُم إنَّ قوله: ﴿عَلَىٰ مَن يَشَآءُ﴾ إطلاق المَشيئة في كل مَوضِع جاءَت في القُرآن مُقيَّد بالحِكْمة، كلَّما رأَيْت الله يَقول: يَشاء، فإنه مَشيئة مَقرونة بالحِكْمة؛ لقوله تعالى: ﴿لِمَن شَآءَ مِنكُمۡ أَن يَسۡتَقِيمَ ۝٢٨ وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ [التكوير:٢٨-٢٩]؛ ولقوله تعالى: ﴿وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾ [الإنسان:٣٠]، وهؤلاء الذين يَشاء الله تعالى أن يُلقِيَ عليهم الرُّوحَ بيَّنَهم في قوله: ﴿ٱللَّهُ أَعۡلَمُ حَيۡثُ يَجۡعَلُ رِسَالَتَهُۥ﴾ [الأنعام:١٢٤].

وقوله: ﴿مِنۡ عِبَادِهِۦ﴾ المُراد بالعِباد هنا: العُبودية الخاصَّة، وهمُ الذين آمَنوا بالله عَزَّوَجَلَّ، بل ما هو أخَصُّ وهم الرُّسُل.

قوله: ﴿لِيُنذِرَ يَوۡمَ ٱلتَّلَاقِ﴾ قال المفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿لِيُنذِرَ﴾ يُخوِّف المُلقَى عليه الناس] واللام هنا للتَّعليل، والإنذار هو: الإعلام المَقرون بالتَّخويف، ولهذا قال المفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [ليُخوِّف] تفسيرًا بلازِمه، وإلَّا فإن الإنذار إعلام مَقرون بتَخويف، وقوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [المُلقَى عليه الناس] أَفادَنا المفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ أن فاعِل (يُنذِر) هو المُلقَى عليه وهو الرسول، ولا شَكَّ أنه هو المُنذِر مُباشَرة، ويُحتَمَل أنَّ الفاعِل يَعود على فاعِل ﴿يُلۡقِي ٱلرُّوحَ﴾ وهو الله عَزَّوَجَلَّ، أي: ليُنذِر الله، والحِكْمة من عدَم ذِكْر الفاعِل -والله أعلَمُ- ليَصلُح الفِعْل للأَمْرين؛ أي: ليَكون صالِحًا لأن يَعود الإنذار إلى الله،

وأن يَعود إلى الرسول، فإن عاد إلى الله فِلأنَّه الأصل، وإن عاد إلى الرسول فِلأنه المُبلِّغ المُباشِر للإنذار.

وقوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [الناس] هذا تَقدير للمَفعول الأوَّل الذي هو مَفعول (يُنذِر)؛ لأنَّ (يُنذِر) تَنصِب مَفعولين ليس أَصلُهما المُبتدَأ والخبَرَ، المَفعول الأوَّل يَكون مَحذوفًا، أو المَفعول الثاني يَكون مَحذوفًا، قال الله تعالى: ﴿وَأَنذِرْهُمْ يَوْمَ ٱلْـَٔازِفَةِ﴾ [غافر:١٨] هذا مَوْجود فيه المَفعولان جميعًا، ﴿وَأَنذِرِ ٱلنَّاسَ يَوْمَ يَأْتِيهِمُ﴾ [إبراهيم:٤٤] كذلك المَفعولان جميعًا، وقد يُحذَف أحدُهما إمَّا الأوَّل وإمَّا الثاني؛ لدَلالة السِّياق عليه.

قال المفسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿لِيُنذِرَ يَوْمَ ٱلتَّلَاقِ﴾ بحَذْف الياء وإثباتها] أي: أنَّ فيها قِراءَتَيْن «التَّلاقِي» بالياء، و﴿ٱلتَّلَاقِ﴾ بحَذْف الياء، أمَّا إثبات الياء فِلأنَّه الأصل، وأمَّا حَذْف الياء فلِلتَّخفيف، مثل قوله تعالى: ﴿ٱلْكَبِيرُ ٱلْمُتَعَالِ﴾ [الرعد:٩] أصلُها المُتَعالِي، لكن حُذِفت الياء للتَّخفيف، فهنا التَّلاقِ أَصلُها التَّلاقِي وحُذِفت الياء للتَّخفيف، ويوم التَّلاقِ هو يوم القِيامة، وعَلَّل المفَسِّر ذلك بقوله: [لتَلاقِي أهل السماء والأرض، والعابِد والمَعبود، والظالِمِ والمَظلوم فيه] أي: في ذلك اليومِ، ولو قلنا بمَعنى أعَمَّ: لتَلاقِي الخَلائِق في ذلك اليومِ؛ لأن كل شيء يُلاقيه الآخر حتى الوحوش ﴿وَإِذَا ٱلْوُحُوشُ حُشِرَتْ﴾ [التكوير:٥] فسُمِّي يوم التَّلاقِي؛ لتَلاقِي الخَلْق فيه، يَحشُر الله عَزَّوَجَلَّ الخلائِق كلَّها في ذلك اليومِ فيَتَلاقَوْن.

من فوائد الآيةِ الكريمةِ:

الْفَائِدَةُ الأُولَى: إثبات عُلوِّ الله عَزَّوَجَلَّ خِلافًا للمُفسِّر؛ لقوله: ﴿رَفِيعُ ٱلدَّرَجَٰتِ﴾ ونَقصِد بالعُلوِّ عُلوَّ الذات، أمَّا عُلوُّ الصِّفة فقَدْ أَقرَّ به المفَسِّر بقوله: [أي: عظيم الصِّفات] ففي هذه الآيةِ إثباتُ عُلوِّ الذات ذاتِ الله عَزَّوَجَلَّ؛ لقوله: ﴿رَفِيعُ ٱلدَّرَجَٰتِ﴾.

وهذا مرَّ علَيْنا كثيرًا، وبيَّنَّا أنَّ الأدِلَّة الخَمْسة كلُّها تَدُلُّ على عُلوِّ الله: الكِتاب، والسُّنَّة، وإجماع السلَف، والعَقْل، والفِطرة.

فإن قال قائِل: هل هناك حُجَج أُخرى غير السَّمْعية والنظَرية؟

فالجوابُ: مُمكِن أن يُوجَد على سبيل التَّحدِّي، بأن يَتحدَّى الإنسان هَؤلاء بشيء يُغضِب آلِهَتهم يَفعَله ولا يَحدُث شيء، هذا يُمكِن أن يَكون من باب التَّحدِّي.

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَةُ: فَضْل العَرْش؛ لقوله: ﴿ذُو ٱلْعَرْشِ﴾ فإنَّ اختِصاص العَرْش بالله عَزَّوَجَلَّ لا شَكَّ أنه فَضْل عظيم.

الْفَائِدَةُ الثَّالِثَةُ: إثبات العَرْش؛ لقوله: ﴿ذُو ٱلْعَرْشِ﴾.

الْفَائِدَةُ الرَّابِعَةُ: إثبات عظَمة الله؛ لأنَّ العَرْش يَختَصُّ بالمَلِك والسُّلْطان، فلا يُقال للرجُل الجالِس على الكُرسِيِّ أنَّه على عَرْش، لكن يُقال للمَلِك أو السُّلْطان الجالِس على الكُرسيِّ الفَخْم العظيم، يُقال له: صاحِب عَرْش.

الْفَائِدَةُ الخَامِسَةُ: إثبات مِنَّة الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى على مَن يَشاء بالوَحيِ؛ لقوله: ﴿يُلْقِى ٱلرُّوحَ مِنْ أَمْرِهِۦ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ﴾.

الْفَائِدَةُ السَّادِسَةُ: أنَّ الوَحيَ رُوح تَحيا به القُلوب؛ لقوله: ﴿يُلْقِى ٱلرُّوحَ مِنْ أَمْرِهِۦ﴾.

الْفَائِدَةُ السَّابِعَةُ: إثبات القول؛ لقوله: ﴿مِنْ أَمْرِهِۦ﴾، والله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى يقول ويَتكلَّم متى شاء بما شاء كيف شاء، لا نَحجُر على رَبِّنا سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى في الكلام، لا وَقتًا ولا كَيفيَّةً، بل له أَنْ يَتكلَّم بما شاء متى شاء كيف شاء.

الْفَائِدَةُ الثَّامِنَةُ: إثبات المَشيئة؛ لقوله: ﴿عَلَىٰ مَن يَشَآءُ﴾.

الْفَائِدَةُ التَّاسِعَةُ: أنَّ مَرتَبة النُّبوَّة لا تُنال بالكَسْب والفُتوَّة كما قال السَّفَّارينيُّ في العَقيدة(١)، وإنما هي فَضْل من الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى على مَن يَشاء من عِباده.

الْفَائِدَةُ الْعَاشِرَةُ: أنَّ العُلماء لهم حَظٌّ ونَصيب من الرُّوح التي يُلقيها الله تعالى على الرُّسُل؛ لأنهم ورَثة الأنبياء، فلهُمْ حظٌّ ونَصيب من هذه الرُّوحِ التي يُلقيها الله على مَن يَشاء، لكن لهم حَظٌّ من هذه الهِداية -هِداية الدَّلالة والبَيان- ثُم قد يَكون لهم حظٌّ من هِداية التوفيق وقد لا يَكون؛ لأنَّ العالِمِ قد يَعمَل بعِلْمه فيَكون له حظٌّ من الهِدايَتَيْن: هِداية الإرشاد، وهِداية التَّوْفيق، وقد لا يَعمَل بعِلْمه فيَكون له حَظٌّ من هِداية العِلْم والإرشاد، لكنها صارَت وَبالًا عليه؛ حيث خالَفَ مع العِلْم بالحَقِّ، وهذا أَشَدُّ مِمَّن خالَف بدون عِلْم بالحَقِّ.

الْفَائِدَةُ الحَادِيَةَ عَشْرَةَ: أنَّ الوَحيَ الذي يُنزِله الله عَزَّوَجَلَّ على مَن يُنزِله من عِباده الحِكْمة منه إنذارُ الناس يوم القِيامة ﴿لِيُنذِرَ يَوْمَ ٱلتَّلَاقِ﴾.

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَةَ عَشْرَةَ: إثبات الحِكْمة لله، وأن أَفعاله مَقرونة بالحِكْمة؛ لقوله: ﴿لِيُنذِرَ﴾، وما أَكثَرَ لام التعليل و(مِن) التَّعليلية في القُرآن، وكذلك في السُّنَّة، وكلُّها تَدُلُّ على إثبات الحِكْمة لله.

وقد ذكَرَ بعض العُلَماء أن الحِكْمة دلَّ عليها أَلْفُ دَليل من الكِتاب والسُّنَّة، فلا تُحصَى الأدِلَّة المُثبِتة لحِكْمة الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى فيما يَفعَل، خِلافًا لمَن قال: إنه يَفعَل لمُجرَّد المَشيئة لا لحِكْمة، فإن هذا إبطال لصِفة من أَعظَم صِفات الله؛ لأن هذا يَستَلزِم أن يَكون فِعْله عبَثًا لغير غاية مَحمودة.

(١) العقيدة السفارينية (ص:٨٣).

فإن قال قائِل: الذين لا يُثبِتون الحِكْمة لله عَزَّوَجَلَّ؛ هل نَقولُ: هذا إنكار جُحود، أو إنكار تَأوِيل؟

فالجَوابُ: إنكار تَأويل؛ لأنهم يَقولون: إنه لو فعَل لِحِكْمـة لفعَل لغَـرَض، ولا يَفعَل للغَرَض إلَّا مَن كان مُحتاجًا للغرَض، فهذه شُبْهة، فيُقال: هل هذه الحِكْمةُ لأمر يَعود لنَفْسه، أو يَعود لعِباده؟ ثُم إذا كان عائِدًا لنَفْسه، فهو أهل للثَّناء، إذا كانت الحِكْمة صِفة كَمال في نفسه، فهو أهل للثَّناء عَزَّوَجَلَّ، وأيُّهما أَكمَلُ؟ مَن يَفعَل لا لِحِكْمة أو مَن يَفعَل لِحِكْمة؟ لا شَكَّ أن الثانِيَ أكمَلُ.

الْفَائِدَةُ الثَّالِثَةَ عَشْرَةَ: أنَّه يَنبَغي لمَن آتاه الله عِلْمًا أن يَكون مُنذِرًا، يَعنِي: يَجمَع بين العِلْم والتَّفقيه في الدِّين وبين الإنذار؛ لأنه إنِ اقتصَر على مُجرَّد التعليم الفِقْهيِّ مثَلًا، أو التوحيد بدون أن يُحرِّك القلوب لم يَستَفِد الناس منه كثيرًا، فلا بُدَّ أن يَكون هناك إنذار من أَجْل تَحريك القُلوب، وكان النَّبيُّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ إذا خطَب احْمَرَّت عَيْناه، وعلا صوتُه، واشتَدَّ غضَبه، حتى كأنَّه مُنذِرُ جَيْش يَقول: صبَّحَكُمْ ومسَّاكُمْ.

الْفَائِدَةُ الرَّابِعَةَ عَشْرَةَ: التحذير من خِزْيِ يوم القِيامة؛ لأنه يومُ التَّلاقِ، ولا شَكَّ أن العُقوبة إذا كانت لا يَطَّلِع عليها إلَّا القليل أَهوَنُ ممَّا إذا اطَّلَع عليها الكثير، فكيف إذا اطَّلَع عليها الخَلْق كلُّهم؟! تَكون أشَدَّ وأَعظَمَ.

الْفَائِدَةُ الخَامِسَةَ عَشْرَةَ: إثباتُ قُدْرة الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى؛ حيث يَجمَع الله الخَلْق كلَّهم على صَعيد واحِد بعد الموت، والله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى على كل شيء قَديرٌ.

الآية (١٦)

• • ✿ • •

❁ قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿يَوْمَ هُم بَٰرِزُونَۖ لَا يَخْفَىٰ عَلَى ٱللَّهِ مِنْهُمْ شَيْءٌۚ لِّمَنِ ٱلْمُلْكُ ٱلْيَوْمَۖ لِلَّهِ ٱلْوَٰحِدِ ٱلْقَهَّارِ﴾ [غافر:١٦].

• • ✿ • •

قال الله تعالى: ﴿يَوْمَ هُم بَٰرِزُونَۖ لَا يَخْفَىٰ عَلَى ٱللَّهِ مِنْهُمْ شَيْءٌ﴾ ﴿يَوْمَ﴾ هذه بدَل من يَوْم الأُولى: ﴿يَوْمَ ٱلتَّلَاقِ﴾ يومَ هُم بارِزون، وقوله: ﴿هُم بَٰرِزُونَ﴾ مُبتَدأ وخبَر، والجُمْلة في محَلِّ جرٍّ بالإضافة، إضافة ﴿يَوْمَ﴾ إليها.

و﴿بَٰرِزُونَ﴾ قال المفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [خارِجون من قُبورهم]، ولكن المَعنى أخصُّ مِمَّا قال، بل المَعنى ﴿يَوْمَ هُم بَٰرِزُونَ﴾ أي: ظاهِرون، ليس لهم ظِلٌّ يُظِلُّهم، لا من شجَر، ولا حجَر، ولا بيت، ولا غيره؛ لأن البارِز هو الظاهِـر الذي لا يَحجُب دونَه شيء، وهم بارِزون في ذلك اليومِ، وتَدنو الشمس مِنهم مِقدار مِيل، ويَعرَق الناسُ في ذلك اليومِ على قَدْر أعمالهم: مِنهم مَن يَصِل العَرَق إلى كَعْبيه، ومِنهم مَن يَصِل إلى رُكْبتيه، ومِنهم مَن يَصِل إلى حِقْوَيْه، ومنهم مَن يُلجِمه العرَقُ إلجْامًا، على حَسب أعمالهم.

وقوله: ﴿لَا يَخْفَىٰ عَلَى ٱللَّهِ مِنْهُمْ شَيْءٌ﴾ أي: لا يَستَتِر على الله منهم شيء، ولا يُغيب عن عِلْمه منهم شيءٌ، بل هو مُحيط بهم إحاطة تامَّة، كما أنه لا يَخفَى عليه شيء في الأرض ولا في السماء من قبلِ ذلك أيضًا؛ لأن الله تعالى مُحيط بكلِّ شيء عِلْمًا، لكن قال هنا: ﴿لَا يَخْفَىٰ عَلَى ٱللَّهِ مِنْهُمْ شَيْءٌ﴾ لأَجْل تَمام التَّخويف.

قوله: ﴿لِّمَنِ ٱلْمُلْكُ ٱلْيَوْمَ ۖ لِلَّهِ ٱلْوَٰحِدِ ٱلْقَهَّارِ﴾ ﴿لِّمَنِ ٱلْمُلْكُ﴾ هـذه مَقول قَـوْلٍ مَحذوف، التَّقدير: يُقال: لَمِنِ المُلْكُ اليومَ. والقائِل هو الله عَزَّوَجَلَّ، فإنه تعالى يَقبِض السمواتِ بيَمينه وبيَـدِه الأُخرى الأرض، ويَهُزُّهُنَّ ويَقول: أنا الملِك، أين مُلوك الدُّنْيا؟! ويَقول أيضًا: لَمِنِ المُلْك اليومَ؟ فيُجيب نَفْسَه: ﴿لِلَّهِ ٱلْوَٰحِدِ ٱلْقَهَّارِ﴾.

قال المفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [يَقوله الله تعالى ويُجيـب نَفْسه ﴿لِلَّهِ ٱلْوَٰحِدِ ٱلْقَهَّارِ﴾؛ أي: لخَلْقه] فقوله: ﴿لِلَّهِ ٱلْوَٰحِدِ ٱلْقَهَّارِ﴾ خبَرُ مُبتَدَأ محَـذوف، التَّقدير: المُلْك لله الواحِد القهَّار، والواحِد يَعنِي: الذي لا ثانِيَ له، لا في ذاته، ولا في أفعاله، ولا في أَحكامِه، ولا في صِفاتِه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

وقوله: ﴿ٱلْقَهَّارِ﴾ صِيغة مُبالَغة من القَهْر، وهو الغَلَبة، فهو قهَّارٌ لكُلِّ شيء، والمفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ قال: [أي: لخَلْقه].

من فوائدِ الآيةِ الكريمةِ:

الْفَائِدَةُ الأُولَى: أن الناس يَبرُزون يومَ القِيامة لا يُظِلُّهم شجَر، ولا مدَر، ولا بِناء، ولا جبَل، ولا غير ذلك؛ لقوله: ﴿يَوْمَ هُم بَٰرِزُونَ﴾.

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَةُ: أنهم في ذلك اليومِ لا يَخفَى على الله منهم شيء؛ لأنه مُحيط بهِم عِلْمًا وقُدرة وسُلطانًا.

فإن قال قائِل: هل يُستَثنى من قوله: ﴿يَوْمَ هُم بَٰرِزُونَ﴾ أحَدٌ؟

فالجَوابُ: نعَمْ، يُستَثنى مَن يُظِلُّهم الله في ظِلِّه يوم لا ظِلَّ إلَّا ظِلُّه، وهُمْ سبعة، بل هُمْ أكثَرُ، بلَغوا إلى واحِد وعِشرين رجُلًا، لكنَّ النَّبيَّ ﷺ جمَع سبعة في حديث واحِد، وهو حديث مَشهور مَعروف: «سَبْعَةٌ يُظِلُّهُمُ اللهُ فِي ظِلِّهِ يَوْمَ لَا ظِلَّ إِلَّا ظِلُّهُ:

إِمَامٌ عَادِلٌ...»(١) إلى آخِره.

الْفَائِدَةُ الثَّالِثَةُ: أن المُلْك بل جميع الأَمْلاك تَتلاشى في ذلك اليَوْمِ، فلا فرقَ فيه بين مالِك ومَملوك، وسيِّد ومَسود، وحُرٍّ وعبد، وذكَر وأنثى، ليس لأَحَد في ذلك اليومِ مُلْك؛ ولهذا قال: ﴿لِّمَنِ ٱلْمُلْكُ ٱلْيَوْمَ﴾ فيقول: ﴿لِلَّهِ﴾.

الْفَائِدَةُ الرَّابِعَةُ: أن من أسماء الله الواحِد، والواحِد هو المُتفرِّد الذي لا ثانِيَ له، قال الله تعالى: ﴿لَا تَتَّخِذُوٓا۟ إِلَـٰهَيْنِ ٱثْنَيْنِ ۖ إِنَّمَا هُوَ إِلَـٰهٌ وَٰحِدٌ﴾ [النحل:٥١].

الْفَائِدَةُ الخَامِسَةُ: أن من أسماء الله القَهَّار؛ لقوله: ﴿ٱلْقَهَّارِ﴾.

الْفَائِدَةُ السَّادِسَةُ: إثبات صِفتَين من صِفات الله، دلَّ عليهما قوله: ﴿ٱلْوَٰحِدِ ٱلْقَهَّارِ﴾ الصِّفة في الواحِد أنه واحدٌ، وفي القَهَّار القَهْر، ويَترتَّب على ذلك من الناحية المَسلَكية أن الإنسان إذا اعتقَد أن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى واحِد لم يَلتفِت إلى أحَدٍ سِواه، وإذا اعتقَد أن الله قهَّار خافَ من قَهْره، واستَعان بقَهْره على عَدُوِّه؛ فيَستَفيد من هذه العَقيدةِ أن يَخاف من قَهْر الله، وأن يَستَعين بقَهْر الله على عَدُوِّ الله وعَدوِّه.

• • ۞ • •

(١) أخرجه البخاري: كتاب الأذان، باب من جلس في المسجد ينتظر الصلاة، رقم (٦٢٩)، ومسلم: كتاب الزكاة، باب فضل إخفاء الصدقة، رقم (١٠٣١)، من حديث أبي هريرة رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ.

الآية (١٧)

• قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿ٱلْيَوْمَ تُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ ۚ لَا ظُلْمَ ٱلْيَوْمَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ﴾ [غافر:١٧].

ثُمَّ قال تعالى: ﴿ٱلْيَوْمَ تُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ﴾ ﴿ٱلْيَوْمَ﴾: ظَرْف مُتعلِّق بـ﴿تُجْزَىٰ﴾، والظَّرْف والجارُّ والمجرور لا بُدَّ لهما من مُتعلَّق؛ لأنها لا يَقَعان إلَّا مَعمُولَين أو مَعمولًا فيهما؛ لذلك لا بُدَّ لهما من عامِل يَتعلَّقان به.

قال: ﴿ٱلْيَوْمَ تُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ﴾ ﴿تُجْزَىٰ﴾ أي: تُكافَأ؛ لأن الجَزاء بمَعنَى المُكافَأة، جازَيْته على عمَله؛ أي: كافَأْته عليه، فمَعنى ﴿تُجْزَىٰ﴾ أي: تُكافَأ، ﴿كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ﴾ من خَيْر وشَرٍّ، ولكِنَّ هذا الجزاءَ في الآخِرة يَختَلِف عن جزاءات الدنيا التي يُجازَى بها الناس بعضُهم من بعض.

وقوله: ﴿لَا ظُلْمَ ٱلْيَوْمَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ﴾ ﴿لَا ظُلْمَ﴾ (لا) نافِية للجِنْس، و﴿ظُلْمَ﴾ اسمُها، قال أهل النَّحْو: والنَّفيُ للجِنْس يَنفِي هذا الجِنْسَ مُطلَقًا. أي: قليلَهُ وكثيرَهُ، واحِدَهُ ومُتعَدِّدَهُ، ولهم (لا) أُخرى يُسمُّونها نافِيةَ الوحدة، ونافِية الوحدة لا تَعمَل عمَل (إنَّ)، بل تَعمَل عمَل (ليسَ)، تَقول: لا رجُلٌ في الدار؛ أي: ليس في الدار رجُل واحِد، بل ثلاثة رِجال مثلًا، أمَّا إذا أَرَدْت الجِنْس فقُلْ: لا رجُلَ في الدار؛ أي: لا واحِد ولا مُتعَدِّد.

وهي -أي: «لا» النافية للجِنْس- نَصٌّ في العموم؛ أي: أنها دالَّة على العُموم بالنَّصِّ، فيَكون ﴿لَا ظُلْمَ ٱلْيَوْمَ﴾؛ أي: لا ظُلْمَ واقِعٌ من الله، ولا ظُلْمَ واقِع من الخَلْق بعضِهم لبعض، بل كلُّ واحِد من الخَلْق يَفِرُّ من الآخَر، لا ظُلْمَ اليومَ.

وقوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ﴾؛ أي: سَريع مُحاسَبة الخَلائِق على أعمالهم، وبيَّن المفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ هذه السُّرعةَ فقال: [يُحاسِب جميع الخَلْق في قَدْر نِصْف نَهار من أيام الدُّنيا؛ لحَديث ورَد في ذلِكَ] يُحاسِب جميع الخَلائِق كلهم في مِقدار نِصْف يوم، لكن من أيام الدُّنيا. هذا يَحتاج إلى تَحقيق؛ لأن يوم القِيامة يوم مِقْداره خَمْسون ألفَ سَنَةٍ، يفرَغ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ من حِساب الخلائِق في نِصْف ذلك اليَوْمِ؛ ولهذا قال الله تعالى: ﴿أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ يَوْمَئِذٍ خَيْرٌ مُّسْتَقَرًّا وَأَحْسَنُ مَقِيلًا﴾ [الفرقان:٢٤]، ومَعلوم أن القَيْلولة تكون في نِصْف النهار، وهذا يَدُلُّ على أنه لا يَنتَصِف النَّهار إلَّا وقد فرَغَ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ من حِساب الخَلائِق، وصار كلُّ واحِد إلى ما آلَ إليه، لكن هل هو كيَوْم الدُّنيا، أو هو يوم القِيامة الذي مِقْداره خَمْسون ألفَ سَنَةٍ؟

فإن قال قائِل: ما هو الدليل على أن الله يُحاسِب الناس في نِصْف يَوْم؟

فالجَوابُ: أوَّله أحاديثُ ورَدَت في هذا، والثاني قوله تعالى: ﴿أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ يَوْمَئِذٍ خَيْرٌ مُّسْتَقَرًّا وَأَحْسَنُ مَقِيلًا﴾ [الفرقان:٢٤] قال: ﴿يَوْمَئِذٍ خَيْرٌ مُّسْتَقَرًّا وَأَحْسَنُ مَقِيلًا﴾ والمَقيل لا يَكون إلَّا في نِصْف النَّهار بأَطرافه.

من فوائد الآية الكريمة:

الْفَائِدَةُ الأُولَى: إثبات الجَزاء؛ لقوله: ﴿ٱلْيَوْمَ تُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍ﴾.

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَةُ: أن كَمال الجَزاء يَكون ذلك اليومَ، وذلك أن الجَزاء قد يَكون

في الدُّنيا قد يُجازِي الله الإنسانَ في الدنيا؛ فيُعطيه بالحَسَنة حَسَناتٍ، ويُؤاخِذ الظالِمِ بظُلْمه، وهذا واقِع كثيرًا، قال الله تعالى: ﴿وَمَآ أَصَٰبَكُم مِّن مُّصِيبَةٖ فَبِمَا كَسَبَتۡ أَيۡدِيكُمۡ وَيَعۡفُواْ عَن كَثِيرٖ﴾ [الشورى:٣٠]، وهذا يَدُلُّ على أن الإنسان قد يُجازَى في الدُّنيا على عمَله، لكن الجزاء الأكمَل الأَوْفى يَكون يوم القِيامة.

الْفَائِدَةُ الثَّالِثَةُ: أن النَّفس لا تُجازَى إلَّا بما كسَبت، ويَكون الكَسْب إمَّا بالقَوْل، وإمَّا بالعَمَل، أمَّا مُجرَّد النِّيَّة فليسَتْ كسبًا، أو مُجرَّد حديث النَّفْس فليس بكَسْب، فالكَسْب قول أو عمَل؛ لأن الإنسان لم يَركَن إليه، ودليل ذلك قول النبيِّ -صلى الله عليه وعلى آله وسلم-: «إِنَّ اللهَ تَجَاوَزَ عَنْ أُمَّتِي مَا حَدَّثَتْ بِهِ أَنْفُسَهَا مَا لَمْ تَعْمَلْ أَوْ تَتَكَلَّمْ»[1].

الْفَائِدَةُ الرَّابِعَةُ: على قول بعض العُلَماء: أن إهداء القُرَب لا يَصِحُّ، يَعنِي: لو عمِلْت عمَلًا صالِحًا وأَهدَيْته إلي غيرك فإنه لا يَصِحُّ؛ لأن الغير الذي أَهدَيْته له لم يَكسِبه، إلَّا ما دلَّت السُّنَّة عليه، فهو مُستَثنًى، وإلى هذا ذهَب كثير من العُلَماء أنه لا يُهدَى من القُرَب إلَّا ما جاءَت به السُّنَّة، وذهَب آخَرون إلى جَواز إهداء جَميع القُرَب، وقالوا: إن ما ورَدَت به السُّنَّة قضايا أعيان، إذا ثبَت الحُكْم فيها ثبَتَ في نَظيرها؛ لأن الشريعة لا تُفرِّق بين مُتماثِلَيْن، وقد ورَدَت السُّنَّة بإجزاء العِبادات المالِية والبدَنية والمُركَّبة من مال وبدَن.

أمَّا العِبادات المالية: ففي قِصَّة الرجُل الذي قال: يا رَسولَ الله، إن أُمِّي افتُلِتَتْ نَفْسُها، وإنَّها لو تَكَلَّمَتْ لتَصَدَّقَتْ. افتُلِتَت يَعنِي: أُخِذت بَغْتة، وإنها لو تَكلَّمت

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب الطلاق، باب الطلاق في الإغلاق والكره، رقم (٥٢٦٩)، من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

لتَصدَّقت، أفأَتَصدَّق عنها؟ قال: «نَعَمْ»[١].

وكذلك سَعدُ بنُ عُبادةَ رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ كان له مِخرافٌ؛ أي: بُستان يُخرَف، فتَصدَّق به على أُمِّه بإِذْن الرسول -صلى الله عليه وعلى آله وسلم-[٢]، هذه العِبادة المالِية.

أمَّا العِبادة البدَنية: فقول النبيِّ -صلى الله عليه وعلى آله وسلم-: «مَنْ مَاتَ وَعَلَيْهِ صِيَامٌ صَامَ عَنْهُ وَلِيُّهُ»[٣]، وهذه عِبادة بدَنية مَحْضة.

وأمَّا المُركَّبة منهما: فالحَجُّ، وقد قال النبيُّ عَلَيْهِٱلصَّلَاةُوَٱلسَّلَامُ للمَرْأة التي سألَتْه عن أُمِّها أنها ماتَت ولم تَحُجَّ، قال: «حُجِّي عَنْهَا»[٤]، وهذا مَذهَب الإمامِ أحمدَ[٥]. أَعنِي: جوازَ إهداء القُرَب إلى الغير بشَرْط أن يَكون المُهدَى إليه مُسلِمًا، أمَّا إن كان كافِرًا فإنه لو أُهدِيَ إليه لا تُقبَل؛ لأن الكافِر لا يُقبَل له عمَل، لا من نَفْسه، ولا من غيرِه، وهذا القَوْلُ أَقرَبُ إلى الصواب من القول بالمَنْع.

ولكن مع ذلك لا نُحبِّذ أن الإنسان يُهدِي إلى أمواته شيئًا؛ لأن هذا لم يَكُن من عادة السلَف، ولا سِيَّما الإكثار منه، كما يَفعَله بعض الناس اليوم، تَجِد بعض الناس في رَمضانَ يَختِم القُرآن عِدَّة مرَّات، وكل خَتْمة يَجعَلها لواحِد من أَقارِبه، هذه لأُمِّه،

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب الجنائز، باب موت الفجأة البغتة، رقم (١٣٨٨)، ومسلم: كتاب الزكاة، باب وصول ثواب الصدقة عن الميت إليه، رقم (١٠٠٤)، من حديث عائشة رَضِيَٱللَّهُعَنْهَا.

(٢) أخرجه البخاري: كتاب الوصايا، باب إذا قال: أرضي أو بستاني صدقة لله، رقم (٢٧٥٦)، من حديث ابن عباس رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمَا.

(٣) أخرجه البخاري: كتاب الصوم، باب من مات وعليه صوم، رقم (١٩٥٢)، ومسلم: كتاب الصيام، باب قضاء الصيام عن الميت، رقم (١١٤٧)، من حديث عائشة رَضِيَٱللَّهُعَنْهَا.

(٤) أخرجه البخاري: كتاب جزاء الصيد، باب الحج والنذور عن الميت، رقم (١٨٥٢)، من حديث ابن عباس رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمَا.

(٥) انظر: المغني (٢/ ٤٢٣)، والشرح الكبير (٢/ ٤٢٥)، وكشاف القناع (٢/ ١٤٧).

وهذه لأبيه، وهذه لأَخيه، وهذه لعَمِّه، وما أَشبَهَ ذلك، هذا في الحَقيقة خِلاف عادة السَّلَف.

ونَقول: إن أَرَدْت أن تَنفَع مَيتَك نَفعًا مُحقَّقًا فاعمَلْ بما أَرشَد إليه النَّبيُّ -صلى الله عليه وعلى آله وسلم- حيثُ قال: «إِذَا مَاتَ الْإِنْسَانُ انْقَطَعَ عَمَلُهُ إِلَّا مِنْ ثَلَاثٍ: إِلَّا مِنْ صَدَقَـةٍ جَارِيَةٍ، أَوْ عِلْمٍ يُنْتَفَعُ بِهِ، أَوْ وَلَدٍ صَالِحٍ يَدْعُـو لَهُ»[1] هذا هو الذي نُحبِّذه، ونَقول: أَكثِرْ من الدُّعاء لأمواتك، أمَّا إِهداء القُرَب فاجعَلْها لنَفْسك؛ لأن هذا هو السُّنَّة، وأنت أَيُّها الحيُّ سوف تَحتاج إلى هذه الأعمالِ الصالِحة، كما أن الأموات أيضًا يَحتاجون إلى زِيادة الأعمال الصالِحة، كما جاء في الحديث: «مَا مِنْ مَيِّتٍ يَمُوتُ إِلَّا نَدِمَ، إِنْ كَانَ مُحْسِنًا نَدِمَ أَلَّا يَكُونَ ازْدَادَ، وَإِنْ كَانَ مُسِيئًا نَدِمَ أَلَّا يَكُونَ اسْتَعْتَبَ»[2].

إِذَن نَقول: ﴿بِمَا كَسَبَتْ﴾ استَدَلَّ بها بعض العُلَماء على أن مَن أُهدِيَ إليه شيء من القُرَب فإنه لا يَنتَفِع به؛ لأنه ليس من كَسْبه، إلَّا ما جاءَت به السُّنَّة، ولكن الصحيح أنه يَنتَفِع به.

فإذا قلت: إن هذا هو الصَّحيح فالجَواب عن الآية أنها تَدُلُّ على أن النَّفْس تُجزَى بما كسَبَت، لكن لا تَدُلُّ على إنها لا تَنتَفِع بعمَل غيرها، الشيء المَضمون تَمامًا هو ما كَسَبت، وأمَّا ما أَهداه الغَيْر لها فهذا شيء آخَرُ، وله أدِلَّة أُخرى.

الْفَائِدَةُ الخَامِسَةُ: انتِفاء الظُّلْم في ذلك اليوم؛ لقوله: ﴿لَا ظُلْمَ ٱلْيَوْمَ﴾، ولكن الإنسان يُجازَى بحَسَب عمَله، قال الله تعالى: ﴿وَمَن يَعْمَلْ مِنَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ

(١) أخرجه مسلم: كتاب الوصية، باب ما يلحق الإنسان من الثواب بعد وفاته، رقم (١٦٣١)، من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٢) أخرجه الترمذي: كتاب الزهد، رقم (٢٤٠٣)، من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

فَلَا يَخَافُ ظُلْمًا وَلَا هَضْمًا ﴾ [طه:١١٢]، قال المفَسِّرون: ظُلْمًا في زِيادة سَيِّئاته، وهَضمًا في نَقْص حسَناته.

الْفَائِدَةُ السَّادِسَةُ: إثبات المُحاسَبة: أن الله يُحاسِب الخَلائِق، وهذا كما أنه مَدلول النُّصوص فهو مُقتَضى الحِكْمة؛ إذ ليس من الحِكْمة أن يُؤمَر الناس ويُنهَوْا ثُم يَذهَب هذا الأَمْر والنَّهيُ هدَرًا لا يُحاسَب عليه العَبْد، هذا في الحَقيقة لو ثبَت لكان عبَثًا، والله تعالى مُنزَّهٌ عنه، كما قال تعالى: ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ ﴾ [المؤمنون:١١٥]، وقال تعالى: ﴿أَيَحْسَبُ ٱلْإِنسَٰنُ أَن يُتْرَكَ سُدًى﴾ [القيامة:٣٦]، فلا بُدَّ من مُجازاة، لا بُدَّ من مُحاسَبة حتى يَتبيَّن ما للإنسان وما عليه.

الْفَائِدَةُ السَّابِعَةُ: تَمام قُدْرة الله جَلَّ وَعَلَا وقوَّته، مَأخوذة من قوله: ﴿سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ﴾؛ لأن السرعة تَدُلُّ على القُدْرة والقُوَّة، كيف يُحاسِب هذه الخَلائِقَ التي لا يُحصيها إلَّا هو عَزَّوَجَلَّ في نِصْف يوم؟! هذا دَليل على كَمال القُدْرة وكَمال القُوَّة.

فإن قال قائِل: كيف يَكون الحِساب؟

فالجَوابُ: الحِسابُ يَختَلِف باختِلاف المُحاسَب:

أمَّا المُؤمِن: فإن الله تعالى يَضَع عليه كنَفَه؛ أي: سِتْره، ويَخلو به ويُقرِّره بذُنوبه، ويَقول: فعَلْت كذا وكذا في يوم كذا. حتى يُقِرَّ، فإذا أَقرَّ واعترَف، قال الله تعالى: ستَرْتُها عليك في الدنيا، وأنا أَغفِرُها لك اليومَ. فيَذهَب طَليقًا.

أمَّا الكُفَّار: فإنهم لا يُحاسَبون حِساب مَن تُوزَن حَسَناتُه وسَيِّئاته؛ لأنهم ليس لهم حَسَنات، ولكن تُحصَى أعمالهم فيُوقَفون عليها، ويُقرَّرون بها، ويُخزَوْن بها، ويُوبَّخون عليها ﴿أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَذِيرٌ ﴿٨﴾ قَالُوا بَلَىٰ قَدْ جَاءَنَا نَذِيرٌ فَكَذَّبْنَا وَقُلْنَا مَا نَزَّلَ ٱللَّهُ مِن شَيْءٍ

إِن أَنتُمْ إِلَّا فِي ضَلَٰلٍ كَبِيرٍ﴾ [الملك:٨-٩]، فيُوبِّخون زِيادة في حَسْرتهم -والعِياذُ بالله- وبَيان أنهم لم يُظلَموا، فالحِساب إِذَنْ يَختَلِف.

الْفَائِدَةُ الثَّامِنَةُ: يُستَفاد من هذه الآيةِ من الناحِية المَسلَكية: تَحذير الإنسان من المُخالَفة، وحَثُّه على المُوافَقة ويُؤخَذ ذلك من قوله: ﴿ٱلْيَوْمَ تُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍۭ بِمَا كَسَبَتْ﴾ [غافر:١٧]، فهذا يُوجِب للإنسان إذا آمَن به أن يَحرِص على مُوافَقة الأَمْر وعلى طاعة الله؛ لأنه يَكسِب.

وأَنا أَسأَلكم كما أَسأَل نَفْسي: هل نحن إذا صلَّيْنا يَكون في نُفوسنا شُعور بأننا سنَأْخُذ أجرًا على هذه الصلاةِ، أو الشُّعور السائِد أننا أَدَّيْنا ما يَجِب علينا فقَطْ؟ الجوابُ: الثاني، ولهذا لو كان عِندنا الشُّعور الأوَّل؛ إننا سنُجازَى على هذه الصلاةِ وبقَدْر ما أَتْقَنَّا فيها لكنا نُتقِنها جيِّدًا؛ لأننا نَعلَم أن الجَزاء من جِنْس العمَل؛ ابذُلْ دراهِمَ كثيرةً يَأتِك سِلعة طيِّبة، لكِن ابذُلْ قَليلةً يَأتِك سِلعة رَديئة.

لهذا يَنبَغي لنا -ونَسأَل الله أن يُعينَنا ويُعيذَنا من الغَفْلة- أن نَشعُر حين نَعمَل العمَل الصالِح أننا سوف نُجازَى عليه، حتى يَكون ذلك أَشحَذَ لهِمَمِنا في إتقان العمَل؛ لأن الإنسان إذا عِلمَ أن عمَله هذا هو جَزاؤُه فسوف يُتقِن العمَل، سوف يَأتِي به على حَسب ما يَرضَي الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

الآية (١٨)

• • ○ • •

۞ قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَأَنذِرْهُمْ يَوْمَ ٱلْـَٔازِفَةِ إِذِ ٱلْقُلُوبُ لَدَى ٱلْحَنَاجِرِ كَٰظِمِينَ ۚ مَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنْ حَمِيمٍ وَلَا شَفِيعٍ يُطَاعُ﴾ [غافر:١٨].

• • ○ • •

قال تعالى: ﴿وَأَنذِرْهُمْ يَوْمَ ٱلْـَٔازِفَةِ﴾ قال المفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [يومَ القِيامة مِن أَزِف الرَّحيل: قَرُب].

﴿وَأَنذِرْهُمْ﴾ الضَّمير الفاعِل يَعود على الرسول والمَفعول به الناس، يَعنِي: أَنذِر الناس هذا اليومَ، وهذا العامِلُ استَوْفَى مَفعولَيْن الهاء وهي المَفعول الأوَّل، و﴿يَوْمَ ٱلْـَٔازِفَةِ﴾ المَفْعول الثاني.

وقوله: ﴿يَوْمَ ٱلْـَٔازِفَةِ﴾؛ أي: اليوم الآزِف، فهو من باب إضافة المَوْصوف إلى صِفته؛ أي: أَنذِرْهم اليومَ القَريب، وإن شِئْت فقُل: ﴿ٱلْـَٔازِفَةِ﴾ صِفة لمَوْصوف محذوف، والتَّقدير: يوم القِيامة الآزِفة، والآزِفة بمَعنَى: القَريبة، قال الله تعالى: ﴿أَزِفَتِ ٱلْـَٔازِفَةُ ۝٥٧ لَيْسَ لَهَا مِن دُونِ ٱللَّهِ كَاشِفَةٌ﴾ [النجم:٥٧-٥٨]، وقال الشاعِر:

أَزِفَ التَّرَحُّلُ غَيْرَ أَنَّ رِكَابَنَا ... لَمَّا تَزَلْ بِرِحَالِنَا وَكَأَنْ قَدِ[1]

أي: وكأَنْ قد زالَت.

---

(١) البيت للنابغة الذبياني، انظر: ديوانه (ص:٨٩).

فالحاصِلُ: أن الأزف بمعنى القُرْب، فالآزِفة القريبة، وهو يوم القِيامة، قال الله تَبَارَكَ وَتَعَالَى: ﴿وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ ٱلسَّاعَةَ تَكُونُ قَرِيبًا﴾ [الأحزاب:٦٣]، ﴿وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ ٱلسَّاعَةَ قَرِيبٌ﴾ [الشورى:١٧].

فهي قَرِيبة مَهما طال الوَقْت، لو تَبقَى الدنيا مَلايين الملايين من السِّنين فهي قَرِيبة، وإذا شِئْت أن يَتبيَّن لك ذلك فانظُرْ ما تَستَقْبِله الآنَ، إذا أَرَدْت أن تَعرِف ذلك فانظُرْ إلى المُستقبَل، المُستَقبَل تَنظُر إليه نظَر البَعيد فإذا به يَأْتِي وبسُرعة، كأنه بَرْق خاطِف، هكذا مُستقبَل الدنيا كلها قريب، فإن أَدرَكْته أَدرَكْته، وإن لم تُدرِكه قامَت قِيامتُك قبلَها، فقِيامتك قَريبة، وإن بَقِيت إلى القِيامة الكبرى فهي أيضًا قَريبة، إِذَنْ كلُّ آتٍ قريب، وكل ماضٍ بَعيد، الماضِي ولو كان قبلَ وَقْتك بساعة بَعيد؛ لأنه لا يُمكِن أن يَرجِع، والمُستقبَل قريب.

إِذَنْ: سُمِّيَت القِيامة آزِفة لقُربها، ووجهُ قُرْبها -وإن كان بيننا وبينها ما لا يَعلَمه إلَّا الله من السِّنين- أن المُستقبَل مهما بعُدَ قريب.

فإن قال قائِل: ما القَوْل في اليوم الذي كأَلْف سَنَة؟

فالجوابُ: قال الله تعالى: ﴿وَإِنَّ يَوْمًا عِندَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ﴾ [الحج:٤٧]، وقال: ﴿يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ إِلَى ٱلْأَرْضِ ثُمَّ يَعْرُجُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُۥٓ أَلْفَ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ﴾ [السجدة:٥]،لكن يوم القِيامة لم يَرِد فيه إلَّا خمسون ألفَ سَنَة ﴿فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُۥ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ﴾ [المعارج:٤]، وفي الحَديث الصحيح في قِصَّة مانِع الزكاة[1]: ﴿فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُۥ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ﴾ [المعارج:٤]، وعلى هذا فاليَوْمُ الذي عند رَبِّنا كأَلْف سَنَة لا نَدرِي ما هذا اليومُ، فهو يَوْم مجهول لنا.

---

(١) أخرجه مسلم: كتاب الزكاة، باب إثم مانع الزكاة، رقم (٩٨٧)، من حديث أبي هريرة رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ.

أمَّا ﴿يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ إِلَى ٱلْأَرْضِ ثُمَّ يَعْرُجُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُۥٓ أَلْفَ سَنَةٍ﴾ [السجدة:٥]، فهذا لأنَّ ما بين السَّماء والأرض خمسُ مِئة سَنَة، فإذا كان ما بينهما خمسُ مِئة سَنَة؛ فإن صُعود الأمر إلى الله ثُم رُجوعه، يَكون أَلْفَ سَنَة؛ فالأيام ثلاثة: يومٌ مِقدارُه خَمْسون أَلْفَ سَنَة وهذا يومُ القِيامة، ويومٌ عند الله لا نَعلَم ما هو، مِقداره أَلْف سَنَة، ويوم مِقدارُه أَلْف سَنَة في تدبير الأمر من السماء إلى الأرض، ثُم عُروجه إلى الله عَزَّوَجَلَّ.

مسألةٌ: ورَد عن النَّبيِّ ﷺ أن الله يُحاسِب الخَلائِق في ساعة واحِدة[1]، فهل الساعة تَدخُل في نِصْف يوم؟

فالجَوابُ: الساعة تُطلَق على الزمَن القليل والكثير، إلَّا إذا فُصِّلت، مثل: «من جاء في الساعة الأُولى في يوم الجُمُعة.. ومَن جاء في الثانية.. ومَن جاء في الثالثة..».

وقوله: ﴿إِذِ ٱلْقُلُوبُ لَدَى ٱلْحَنَاجِرِ كَٰظِمِينَ مَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنْ حَمِيمٍ وَلَا شَفِيعٍ يُطَاعُ﴾ [غافر:١٨].

وقوله: ﴿إِذِ ٱلْقُلُوبُ﴾ (إذْ): بدَل من ﴿يَوْمَ ٱلْأَزِفَةِ﴾ يَعنِي: أَنذِرْهم يوم الآزِفة، أَنذِرْهم إذِ القُلوب لدى الحَناجِر.

و(إذْ): ظرف لما مَضى من الزَّمان، وتَأتِي ظَرْفًا وتَأتِي تَعليلًا على حَسب ما جاءَت مَعانيها في اللُّغة العَربية.

وقوله: ﴿ٱلْقُلُوبُ﴾ (أل): هنا للاستِغْراق؛ أي: كل القُلوب، وقوله: ﴿لَدَى﴾ يَقول رَحِمَهُ ٱللَّهُ: بمَعنَى: عِندَ.

(١) أخرجه الإمام أحمد (٤/ ١٣)، من حديث لقيط بن عامر رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ.

قال المفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿إِذِ ٱلْقُلُوبُ﴾ ترتَفِع خوفًا ﴿لَدَى﴾ عِنْدَ ﴿ٱلْحَنَاجِرِ كَٰظِمِينَ﴾]، قال الله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ: ﴿وَإِذْ زَاغَتِ ٱلْأَبْصَٰرُ وَبَلَغَتِ ٱلْقُلُوبُ ٱلْحَنَاجِرَ﴾ [الأحزاب:١٠]، وهذا شيء مَعلوم محسوس؛ أن الإنسان كلَّما اشتَدَّ به الخَوْف ارتَفَع قلبُه وانكَمَش وازداد خَفقانًا، فيَوْم القِيامة تَرتَفِع القلوب حتى تَصِل إلى الحَناجِر، والحَنجرة ما بين التَّرْقوتَيْن.

قال المفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿كَٰظِمِينَ﴾ ممتَلِئين غمًّا، حال من ﴿ٱلْقُلُوبُ﴾ عُومِلت بالجمع بالياء والنون مُعامَلة أصحابها]، لم يَقُل: إِذِ القُلوب لدى الحَناجِر كاظِمة، لأنه لو جرَى الوَصْف للقُلوب؛ لقال: إِذِ القُلوب لدَى الحَناجِر كاظِمة، وقال تعالى: ﴿قُلُوبٌ يَوْمَئِذٍ وَاجِفَةٌ﴾ [النازعات:٨] ولا يُجمَع جَمْعَ المُذكَّر السالمِ بالواو والنُّون إلَّا للعاقِل.

وقوله: ﴿إِذِ ٱلْقُلُوبُ لَدَى ٱلْحَنَاجِرِ﴾ القُلوب جَماد، هي نَفْسها جَماد، والجَماد لا يُجمَع بالواو والنون؛ لأنه لا يُجمَع بالواو والنون إلَّا العاقِل، عَلَمًا كان أو وَصْفًا، وقد مَرَّ عليكم في شُروط جمع المُذكَّر السالِم أن يَكون عَلَمًا أو وَصْفًا لعاقِل، فهنا القُلوب ليست عاقِلة، القُلوب جُزء من البدَن ليست عاقِلة، فكيف تَوجيه الحال التي جاءَت منها بجَمْع على صيغة جَمْع المُذكَّر السالِم؟!

يَقول المفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: لأن المُراد بها أصحاب القُلوب، القُلوب لدى الحَناجِر والكاظِم صاحِبها، وهذا حقٌّ أن ﴿كَٰظِمِينَ﴾ حال من القُلوب باعتِبار أصحابها، والكاظِمُ يَقول: المُمتَلِئ غمًّا، ويَمتَلِئون غمًّا لشِدَّة الأَهْوال، والمَخافة قُلوب مُرتَفِعة أَنفُس مُمتَلِئة غمًّا.

قوله: ﴿مَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنْ حَمِيمٍ وَلَا شَفِيعٍ يُطَاعُ﴾ [غافر:١٨] الظالِمون همُ الكافِرون

هنا؛ لقول الله تعالى: ﴿وَٱلْكَٰفِرُونَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ [البقرة:٢٥٤] وليس المُرادُ مُطلقَ الظُّلْم، بلِ المُراد الظُّلْم المُطلَق، وهو ظُلْم الكُفْر، فالظالِمون في ذلك اليومِ ليس لهم حَميم، والحَميم هو: المُحِبُّ، كما قال المفَسِّر، وقيل: القريب، كما قال تعالى: ﴿فَمَا لَنَا مِن شَٰفِعِينَ ۝١٠٠ وَلَا صَدِيقٍ حَمِيمٍ﴾ [الشعراء:١٠٠-١٠١]؛ أي: قَريب، ولا نَقول: ولا صَديق مُحِبٍّ؛ لأنه ما من صَديق إلَّا وهو مُحِبٌّ، ولولا المَحبَّة ما صادَقه.

وعلى هذا فنَقول: إن الأَوْلى أن تُفسَّر الحَميم بالقَريب، والغالِب أن الذي يُحامِي عنك ويُدافِع عنك ويَشفَع لك هو القريب، هذا الغالِبُ.

وقوله: ﴿مَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنْ حَمِيمٍ وَلَا شَفِيعٍ يُطَاعُ﴾ ﴿شَفِيعٍ﴾ بمَعنَى: شافِع، فهي فَعيل بمَعنَى فاعِل، كسَميع بمَعنَى: سامِع، والشافِع: مَن شفَعك؛ أي: صار معَك حتى تكون بعد الفَرْد شَفْعًا؛ ولهذا يُقال: الشافِع هو مَن تَوسَّط لك بجَلْب مَنفَعة، أو دَفْع مَضرَّة، هذا هو الشافِع، التَّوسُّط للغير بجَلْب الخير، أو دَفْع الضَّيْر، يَعنِي: الشفاعة هي التَّوسُّط للغير بجَلْب الخير أو دَفْع الضير، هذا إذا أَرَدْت أن تَأتِيَ بها على سَبيل السَّجْع؛ من أَجْل أن تكون أَريَحَ، ففي يوم القِيامة ليس لهم شَفيع، فلا يَشفَع لهم أحَدٌ؛ لأن مِن شَرْط الشفاعة أن يَكون الله راضِيًا عن الشافِع وعن المَشفوع له.

ولجَأْنا إلى هذا التَّأويلِ لوُجود الآية الثابِتة للشَّفاعة، وهي قوله تعالى: ﴿فَمَا لَنَا مِن شَٰفِعِينَ﴾ [الشعراء:١٠٠]، وانتِفاء الشَّفاعة وهي قوله تعالى: ﴿وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ٱرْتَضَىٰ﴾ وهَؤلاءِ لا يَرتَضيهم الله.

قال المفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿وَلَا شَفِيعٍ يُطَاعُ﴾ لا مَفهومَ للوَصْف، إذ لا شَفيعَ لَهُمْ أصلًا؛ لقوله تعالى: ﴿فَمَا لَنَا مِن شَٰفِعِينَ﴾ أو له مَفهومٌ بِناءً على زَعْمهم أن لَهُمْ شُفَعاءَ،

أي: لو شفَعوا فَرْضًا لم يُقبَلوا].

كلِمة ﴿يُطَاعُ﴾ جُملة فِعْلية في مَحَلِّ جَرٍّ صِفة لـ﴿شَفِيعٍ﴾ ولو حوَّلناها إلى اسمِ فاعِل لكان التَّقدير: ولا شَفيع مُطاع، فهل هذه الصِّفةُ قَيْد، بمعنى: أن لَهُم شَفيعًا لا يُطاع، أو هي بَيان للواقِع والمُراد نَفيُ الشَّفيع؟ ذكَر المفَسِّر احتِمالَيْن:

الأوَّل: أن يَكون المُراد ليس لهم شَفيع مُطلَقًا، واستَدَلَّ لذلك بقوله تعالى عنهم: ﴿فَمَا لَنَا مِن شَافِعِينَ ﴿١٠٠﴾ وَلَا صَدِيقٍ حَمِيمٍ﴾.

أو أن المَعنَى: لو قُدِّر أن لهم شُفَعاءَ، فإن هؤلاءِ الشُّفَعاءَ لا يُطاعون، وهذا بِناءً على قولهم: إن الذي يَعبُدون من دون الله يَكونون شُفَعاءَ لهم، والآية تَحتَمِل ما قال المفَسِّر، أمَّا إذا قُلْنا بالوَجْه الأوَّل، وهو نَفيُ الشفاعة مُطلَقًا فالأمر ظاهِر لا إِشكالَ فيه.

أمَّا الثاني: أن يُقام لهُمْ شُفَعاءُ، ولكن تُرَدُّ شَفاعتهم، فهذا من أَجْل التَّخجيل لهم، أن يَخجَلوا حيث تُقام الشُّفَعاءُ الذين يَدَّعون أنهم شُفَعاءُ لهم، ثُم تُرَدُّ الشفاعة، هذا أَبلَغُ في خَجَلهم، وفي رَدِّهم، وعدَم انتِفاعِهم بآلِهَتهم، والله أَعلَمُ.

فإن قال قائِل: إذا قُلْنا بالوجه الثاني ﴿وَلَا شَفِيعٍ يُطَاعُ﴾ ثُم يُقام ثُم يُرَدُّ، ما حال الشَّفيع الذي يُقام ثُم يُرَدُّ، هل هو مَن تُقبَل شَفاعته، هل أنه مِثْلهم أصلًا؟

فالجَوابُ: لا، بل تُمَثَّل لهم أصنامُهم، حتى الذين يَعبُدون عِيسى، يُمثَّل لهم عِيسى عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ.

من فوائدِ الآيةِ الكريمةِ:

الْفَائِدَةُ الأُولَى: وُجوب الإنذار على رَسول الله -صلى الله عليه وعلى آله وسلم-؛ لقوله: ﴿ وَأَنذِرْهُمْ﴾ والأَصْل في الأَمْر الوُجوب لا سِيَّما أن الرسول ﷺ مُكلَّفٌ بذلك.

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَةُ: أنه يَنبَغي للداعِية أن يَكون مُخوِّفًا أحيانًا ومُبشِّرًا أحيانًا، أمَّا البِشارة أحيانًا ففي آياتٍ كَثيرة، ﴿وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الصف:١٣]، ﴿وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ﴾ وما أَشبَه ذلك، وأمَّا الإنذار فكذَلِك في مثل هذه الآيةِ؛ فالداعِية يَنبَغي أن يَكون مُنذِرًا مُبشِّرًا من أَجْل أن يُحرِّك القُلوب.

الْفَائِدَةُ الثَّالِثَةُ: أنه يَنبَغي في الإنذار أن يُذكِّر الناسَ أحوالَ يوم القِيامة وأهوالَها؛ لقوله: ﴿ وَأَنذِرْهُمْ يَوْمَ ٱلْـَٔازِفَةِ إِذِ ٱلْقُلُوبُ﴾

الْفَائِدَةُ الرَّابِعَةُ: أن القِيامة قَريبة؛ لقوله: ﴿يَوْمَ ٱلْـَٔازِفَةِ﴾ والقُرْب هنا يَعنِي أن الوَقْت يَمضِي بسُرعة؛ حتى لا يَشعُر الإنسان إلَّا وقد قامَت القِيامة، إمَّا قِيامته هو، وتُسمَّى القِيامة الصُّغرى، أو القِيامة العامة.

الْفَائِدَةُ الخَامِسَةُ: بَيان هذا التَّمثيلِ العَظيم في حال الناس ذلك اليومَ، ﴿إِذِ ٱلْقُلُوبُ لَدَى ٱلْحَنَاجِرِ﴾.

الْفَائِدَةُ السَّادِسَةُ: أن هذه الحالِ عامَّة للمُؤمِنين وللكافِرين، دليل ذلك: عُموم قوله: ﴿إِذِ ٱلْقُلُوبُ﴾، ثُم قوله: ﴿مَا لِلظَّـٰلِمِينَ مِنْ حَمِيمٍ﴾؛ فدَلَّ ذلِك على أن الآية عامَّة، ولكن لا يَلحَق المُؤمِنين شَرٌّ من ذلك اليَوْمِ؛ لقول الله تعالى: ﴿فَوَقَىٰهُمُ ٱللَّهُ شَرَّ ذَٰلِكَ ٱلْيَوْمِ﴾ [الإنسان:١١]، ومُجرَّد الغَمِّ والهَمِّ لا يَلزَم منه الشَّرُّ والضرَر.

الْفَائِدَةُ السَّابِعَةُ: أن القُلوب عند شِدة الخَوْف تَرتَفِع حتى تَبلُغ الحناجِر، وهذا يَشهَد به الواقِع، قال الله تَبَارَكَ وَتَعَالَى في سورة الأَحْزاب: ﴿وَإِذْ زَاغَتِ ٱلْأَبْصَٰرُ وَبَلَغَتِ ٱلْقُلُوبُ ٱلْحَنَاجِرَ﴾ [الأحزاب:١٠]، والإنسان في نَفْسه أيضًا يُحِسُّ أنه إذا خاف خوفًا شديدًا، وكأَنَّ قَلْبه قد عُلِّق في حَنجَرته.

الْفَائِدَةُ الثَّامِنَةُ: أن الناس في ذلك اليومِ مع شِدَّة الخَوْف يَمتَلِئون غَمًّا؛ لقوله: ﴿كَٰظِمِينَ﴾، والغَمُّ هو: التَّحزُّن، أو التَّهيُّؤ لما يُستَقبَل، فالغَمُّ في المُستَقبَل، والهَمُّ والحُزْن في الماضِي.

الْفَائِدَةُ التَّاسِعَةُ: تَقطُّع الأسباب بالظالمِين؛ فلا يَجِدون حميمًا ولا شفيعًا؛ لقوله: ﴿مَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنْ حَمِيمٍ وَلَا شَفِيعٍ يُطَاعُ﴾ [غافر:١٨]، والمُراد بالظالمِين ما سبَقَ، وهُمُ الكافِرون.

فإن قال قائِل: الظُّلْم أَعَمُّ من الكُفْر، فكيف فسَّرْتُمُ الظُّلْم هنا بالكُفْر؟

قُلْنا: لأن الله تعالى قال: ﴿وَٱلْكَٰفِرُونَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ [البقرة:٢٥٤]؛ ولأن ما دون الكُفْر من المَعاصِي تُمكِن فيه الشَّفاعة؛ فإن الشَّفاعة ثابِتة لأَهْل الكبائِر من هذه الأُمَّةِ.

فإن قال قائِل: هل تَقَع الكبائر من الأنبياء؟

فالجوابُ: تَقَع، لكن يَتوبون منها، فإن موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ قَتَل نفسًا بغير حَقٍّ، أو لم يُؤذَن له فيها، ويَقَع هذا سواءٌ قبل النُّبوَّة أو بعدها؛ ولهذا فهو عَلَيْهِ السَّلَامُ اعتَذَر بذلك في طلَب الشفاعة.

الْفَائِدَةُ الْعَاشِرَةُ: تَحذير هَـؤلاء الكُفَّار من ذلك اليومِ؛ فإنهم في الدُّنيا يَجِدون مَن يُناصِـرهم ويُواليهم، ويُساعِدهم ويُعاوِنهم، ولكن في الآخِرة لا يَجِدون شيئًا من ذلك.

• ● ۞ ● •

الآية (١٩)

قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿يَعْلَمُ خَآئِنَةَ ٱلْأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِى ٱلصُّدُورُ﴾ [غافر:١٩].

قوله: ﴿يَعْلَمُ﴾ الفاعِل هو الله عَزَّوَجَلَّ.

وقوله: ﴿خَآئِنَةَ ٱلْأَعْيُنِ﴾ هذا من باب إضافة الصِّفة إلى مَوْصوفها؛ أي: الأَعيُن الخائِنة، وخِيانة العَيْن مُسارَقتُها النَّظَر إلى الشيء المُحرَّم، يَعنِي: أن الإنسان قد يَنظُر إلى شيء مُحرَّم، وجليسه إلى جَنْبه لا يَشعُر بذلك؛ لأنه يُسارِقه النَّظَر؛ كأنما يَتحيَّن الفُرَص في غَفْلة صاحِبه؛ حتى يَنظُر إلى ما حرَّم الله عَزَّوَجَلَّ، هذه واحِدة.

ثانيًا: قد يَنظُر الإنسان النظَر بدون مُسارَقة بل بمُجاهَرة، ولا يُحِسُّ جَليسه أنه يَنظُر نظَرًا مُحرَّمًا، لذلك حذَّر الله عَزَّوَجَلَّ من هذه الحالِ.

قال المفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿يَعْلَمُ خَآئِنَةَ ٱلْأَعْيُنِ﴾ بمُسارَقتها النظَر إلى مُحرَّم ﴿وَمَا تُخْفِى ٱلصُّدُورُ﴾: القُلوب].

فسَّر المفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ الصُّدور بالقُلوب؛ لأنَّها في الصُّدور كما قال الله تعالى: ﴿فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى ٱلْأَبْصَـٰرُ وَلَـٰكِن تَعْمَى ٱلْقُلُوبُ ٱلَّتِى فِى ٱلصُّدُورِ﴾ [الحج:٤٦]، فبيَّن الله عَزَّوَجَلَّ هنا دِقَّة عِلْمه، ولُطْف عِلْمه بأنه يَعلَم حتى هذه الحالَ التي لا يَعلَمها الناس الذين يُشاهِدون، يَعلَم خائِنة الأَعيُن وما تُخفِي الصُّدور.

الآية (٢٠)

• • ❊ • •

قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَٱللَّهُ يَقۡضِي بِٱلۡحَقِّۖ وَٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ مِن دُونِهِۦ لَا يَقۡضُونَ بِشَيۡءٍۗ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡبَصِيرُ﴾ [غافر:٢٠].

• • ❊ • •

قوله: ﴿وَٱللَّهُ يَقۡضِي بِٱلۡحَقِّ﴾ الجُمْلة مَعطوفة على قوله: ﴿يَعۡلَمُ﴾ و﴿يَقۡضِي بِٱلۡحَقِّ﴾ أي: يَحكُم به شَرْعًا وقدَرًا؛ لأن القَضاء -أعني: قَضاء الله عَزَّوَجَلَّ- على قِسْمين: قَضاء كَوْنيٍّ؛ كقوله تعالى: ﴿وَقَضَيۡنَآ إِلَىٰ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ فِي ٱلۡكِتَٰبِ لَتُفۡسِدُنَّ فِي ٱلۡأَرۡضِ مَرَّتَيۡنِ وَلَتَعۡلُنَّ عُلُوّٗا كَبِيرٗا﴾ [الإسراء:٤]، وقَضاء شَرْعي؛ كقوله تعالى: ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعۡبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُ﴾ [الإسراء:٢٣]، «قَضى» يَعنِي: قضاءً شَرْعيًّا، ومَعناها: وصَّى ربُّك ألَّا تَعبُدوا إلَّا إيَّاه؛ فهنا يَقول: ﴿وَٱللَّهُ يَقۡضِي بِٱلۡحَقِّ﴾ والمُراد هنا الأَمْران جميعًا؛ أي: أنه يَقضِي قضاءً كَوْنيًّا بالحقِّ؛ فليس في قَضائه الكونيِّ عبَث ولا لَعِب: ﴿وَمَا خَلَقۡنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ وَمَا بَيۡنَهُمَا لَٰعِبِينَ ٣٨ مَا خَلَقۡنَٰهُمَآ إِلَّا بِٱلۡحَقِّ﴾ [الدخان:٣٨-٣٩].

وكذلك يَقضِي قَضاء شَرْعيًّا بالحَقِّ؛ فقَضاؤُه سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ الشَّرْعي كلُّه حقٌّ؛ لأنه خير فيَأمُر به، أو شَرٌّ فيَنهَى عنه، وهذا هو الحقُّ إذَنِ الله يَقضِي بالحَقِّ بالنَّوْعين: القَضاء الكَوْني، والقَضاء الشَّرْعي.

وقوله: ﴿وَٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ مِن دُونِهِۦ﴾ الواو هنا عاطِفة، ويَجوز أن تَكون استِئْنافية.

قال المفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿وَٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ﴾ يعبُدون؛ أي: كُفَّار مَكَّة، بالياء والتاء]،

هنا: تَفسير لكلِمة ﴿يَدْعُونَ﴾، وتَفسير للضَّمير الواو، وقِراءة؛ أمَّا القِراءة فذكَر المفسِّر أن فيها قِراءَتَيْن: القِراءة الأُولى ﴿يَدْعُونَ﴾ [غافر:٢٠] بالياء، والقِراءة الثانية: «تَدْعُونَ» بالتاء على سَبيل المُخاطَبة، وكِلاهما قِراءتان سَبْعيَّتان، وأمَّا ﴿يَدْعُونَ﴾ ففسَّرها بكلِمة [يَعبُدون]، والصواب: أن المُراد بها يَعبُدون ويَسأَلون؛ لأنهم هُمْ يَعبُدون الأصنام ويَسأَلونها، يَسأَلونها جَلْب المَنافِع ودَفْع المَضارِّ، ويَعبُدونها أيضًا بالرُّكوع والسُّجود والنُّذور وغير ذلك.

وأمَّا الواو ففَسَّرها المفسِّر بكُفَّار مكَّةَ؛ فجعَل الضمير عائِدًا إلى كُفَّار مكَّةَ، وهنا نَسأَل: هل لا يُوجَد أحَدٌ يَعبُد الأصنام ويَدعو الأصنام إلَّا كُفَّار مكَّةَ؟ الجَوابُ: يُوجَد مِنهم ومِن غيرهم، وإذا كان كذلِك فإن تَفسير العامِّ بالخاصِّ نَقْص في التَّفسير، فالتَّفسير المُطابِق للواو، أن تَكون عامَّة لكُلِّ مَن يَدعو من دون الله من كُفَّار مكَّةَ، أو كُفَّار المدينة، أو كُفَّار الطائِف، أو كُفَّار العِراق، أو كُفَّار الشام، أو كُفَّار هذه الأُمَّةِ، أو كُفَّار مَن قبلَها، عامَّة، كل مَن يَدعو من دون الله فإنه يَدعو مَن لا يَقضِي بشيء.

فإن قال قائِل: في قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ﴾ حمَلَها المفَسِّر على أهل مكَّةَ، وقد تقدَّم أيضًا أنَّ المُشرِكين دائِمًا يَحمِلها المفَسِّر على أهل مكَّةَ، رُبها أن السُّورة نزَلَت في مكَّةَ، ورُبها المفَسِّر حمَلها على هذا؟

فالجَوابُ: لكن لا يَصِحُّ هذا، فالعِبرة بعُموم اللَّفْظ لا بخُصوص السبب. هو له وجهة نظَر، وأقوى من هذه الوِجهةِ قوله: ﴿أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنظُرُوا﴾ بعد الآية هذه، لكن نحن نَقولُ: العِبْرة بعُموم اللفظ، والسبَب لا يُخصِّص العامَّ، وإذا ذُكِر حُكْم يتعلق ببعض أفراد العامِّ، لا يَقتَضي تَخصيصه أيضًا. كما هي القاعِدة.

وقوله: ﴿مِن دُونِهِۦ﴾؛ أي: من دون الله، والدُّونُ هنا بما سِوى؛ أي: مَا سِوى

الله عَزَّوَجَلَّ وهُمُ الأصنام هنا، قال المفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [وهُمُ الأصنام] وكان مُقتَضى اللُّغة العرَبية أن يَقول: وهي الأَصْنام؛ لأن الجَمْع لغير ما يَعقِل لا يَعود عليه ضَمير ما يَعقِل، و(هم) للعُقَلاء، ولكن المفَسِّر عدَل عن الأصل، وهي الأَصْنام لمُراعاة قوله: ﴿وَٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ﴾ و(الذين) هذه للعاقِل، وذلك أن الله تعالى جعَل هذه المَعبوداتِ نزَّلها مَنزِلة العُقَلاء، ومع كونها مُنزَّلة مَنزِلة العُقَلاء لا تَقضِي بشيء.

قوله: ﴿وَٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ مِن دُونِهِۦ لَا يَقۡضُونَ بِشَيۡءٍ﴾ [غافر:٢٠]، ولم يُقابِل هذه الجُملةَ بالجُمْلة التي قبلَها، بل جعَلَها أعَمَّ، في الجُمْلة الأُولى قال: ﴿وَٱللَّهُ يَقۡضِي بِٱلۡحَقِّ﴾، وهنا قال: ﴿لَا يَقۡضُونَ بِشَيۡءٍ﴾ ولم يَقُل: لا يَقضُون بالحقِّ، إشارة إلى أنها لا تَقضِي لا بحَقٍّ ولا بباطِلٍ؛ فلَيْسَت أهلًا لأن تُعبَد من دون الله عَزَّوَجَلَّ، لا يَقضون بشَيْء أبَدًا، لا شَرْعٍ، ولا قدَرٍ، ولا حقٍّ، ولا باطِلٍ.

قال المفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿لَا يَقۡضُونَ بِشَيۡءٍ﴾ فكيف يَكونون شُركاءَ لله؟!] هذا مَحَطُّ النَّفْي، يَعنِي: إذا كانت هذه الأصنامُ لا تَقضِي بشيء فكيف تُجعَل شَريكةً لله؟! وهذا يَعنِي: تَوْبيخ هؤلاءِ الذين يَعبُدون هذه الأصنامَ من دون الله.

قال المفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلسَّمِيعُ﴾ لأقوالهم ﴿ٱلۡبَصِيرُ﴾ بأَفْعالهم]، و(هو) في قوله: ﴿هُوَ ٱلسَّمِيعُ﴾، يَجوز أن تَكون ضَميرَ فَصْل، ويَجوز أن تَكون مُبتَدَأً، والجُمْلة خبَرَ (إن)، لكن هي ضَمير فَصْل أحسَنُ منها مُبتَدَأً.

من فوائدِ الآيةِ الكريمةِ:

الْفَائِدَةُ الأُولَى: إثباتُ أن قَضاء الله تعالى كلُّه حَقٌّ؛ لقوله: ﴿يَقۡضِي بِٱلۡحَقِّ﴾ سواءٌ كان القَضاء كونيًّا أم شَرْعيًّا.

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَةُ: الثناء على الله عَزَّوَجَلَّ بهذه الصِّفةِ الكامِلة، وهي قَضاء الحَقِّ، وأنه لا يَفعَل شيئًا سُدًى أو عبَثًا، بل كلُّ ما يَقضيه فإنه حقٌّ.

الْفَائِدَةُ الثَّالِثَةُ: التَّنديد بعُبَّاد الأَصْنام؛ حيث عبَدوا مع الله مَن ليس بشيء بالنِّسْبة لله عَزَّوَجَلَّ؛ لقوله: ﴿وَٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ مِن دُونِهِۦ لَا يَقۡضُونَ﴾.

الْفَائِدَةُ الرَّابِعَةُ: أن هَذه الأصنامَ لا تَنفَع عابِديها إطلاقًا؛ لقوله: ﴿لَا يَقۡضُونَ بِشَيۡءٍ﴾ و(شيء) نكِرة في سِياق النَّفي؛ فتَعُمُّ كلَّ شيء.

فإن قال قائِل: إن مِن القَوْم الَّذين يَدْعون مع الله إلهًا آخر مَن إذا دَعَوْا هذه الأصنامَ أَجابَتْهم، فإذا دعَوْها بكَشْف الضُّرِّ انكَشَف الضُّرُّ عنهم، ومن الناس مَن إذا خالَف هذه الأصنامَ أُصيب ببَلاء، فما هو الجَوابُ؟.

فالجَوابُ: أن يُقال: هذا الذي يَحصُل، يَحصُل من الله عَزَّوَجَلَّ، لا من هذه الأصنامِ، ابتِلاءً وامتِحانًا، ويُقال فيه: إنه حصَل عند ذلك لا به، يَعنِي: حصَل هذا القَضاءُ من الله عَزَّوَجَلَّ عند دُعاء هذه الأَصنامِ، لا بدُعاء هذه الأصنامِ.

فان قال قائِلٌ: لماذا تَعدِلون عن السبب الظاهِر إلى سبب آخَرَ لا يُعلَم؟

قلنا: عدَلْنا إلى ذلك؛ لقول الله تَبَارَكَ وَتَعَالَى: ﴿وَٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ مِن دُونِهِۦ لَا يَقۡضُونَ بِشَيۡءٍ﴾ [غافر:٢٠]؛ ولقوله تعالى: ﴿إِن تَدۡعُوهُمۡ لَا يَسۡمَعُواْ دُعَآءَكُمۡ وَلَوۡ سَمِعُواْ مَا ٱسۡتَجَابُواْ لَكُمۡۖ وَيَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ يَكۡفُرُونَ بِشِرۡكِكُمۡۚ وَلَا يُنَبِّئُكَ مِثۡلُ خَبِيرٖ﴾ [فاطر:١٤]، ولقوله تعالى: ﴿وَمَنۡ أَضَلُّ مِمَّن يَدۡعُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَن لَّا يَسۡتَجِيبُ لَهُۥٓ إِلَىٰ يَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِ وَهُمۡ عَن دُعَآئِهِمۡ غَٰفِلُونَ ۝٥ وَإِذَا حُشِرَ ٱلنَّاسُ كَانُواْ لَهُمۡ أَعۡدَآءٗ وَكَانُواْ بِعِبَادَتِهِمۡ كَٰفِرِينَ﴾ [الأحقاف:٥-٦].

وإلَّا فإن العامِّيَّ قد يَأْتي إلى صاحِب القَبْر، ويَقول: يا سَيِّدي، يا وَلِيَّ الله،

يا مَوْلايَ، أَنقِذْني من هذه البَليَّةِ، أَنقِذْني من هذه الضائِقةِ، فيَذهَب إلى بيته ويَجِد أن الأَمْر قدِ انفرَج، وسَوْف يُضيف هذا الانفِراجَ إلى السبب الظاهِر، الذي قام به، وهو دُعاء هذا القَبْر حتى انفرَجت عنه الغُمَّة؛ فنَقول: هذه فِتْنة، ونَعلَم عِلْم اليَقين أنه -أي: صاحِب القَبْر- ليس هو الذي كشَف الضُّرَّ، وإنَّما الذي كشَفه الله عَزَّوَجَلَّ، لكن حصَل الكَشْف عند دُعاء صاحِب القَبْر، لا بدُعائه.

انتَبِهوا لهذا؛ لأنه دائِمًا يُورِد علينا أصحابُ القُبور هذه الشُّبْهةَ، يَقول: أنا دعَوْت السَّيِّد الفُلانيَّ فاستَجاب لي، وانكَشَفتِ الغُمَّة.

فإن قال قائِل: ما يَحصُل لعُبَّاد القبور من الابتِلاء والامتِحان، لو قلنا لهم: إنَّ الله عَزَّوَجَلَّ يَقول كذا، ويَقول كذا؛ لا يَقتَنِعون، والإنسان المُؤمِن بالقُرآن المُقِرُّ هذا يَقتَنِع بالآيات، لكن هؤلاء لا يَقتَنِعون بالقُرآن؟.

فالجوابُ: غالِب أصحاب القُبور مُسلِمين، يَرَوْن أنَّهم على إسلام، ويُؤمِنون بالقُرآن.

المُهِمُّ: أن الله تعالى قد يَجعَل الشِّفاء عَقِب دُعاء صاحِب القَبْر ابتِلاءً وامتِحانًا؛ فيُصدِّق الإنسان بالحِسِّ، ويُكذِّب الشَّرْع، يُصدِّق بالحِسِّ وهو بِناء هذا الأَمْر على الشيء الظاهِر، ويُكذِّب بالشَّرْع.

فإن قال قائل: بعض الناس يدعو ويقول: هذا حصَل بدُعاء الرسول ﷺ؟

فالجواب: أبَدًا لم يَحصُل، الرسول لا يَملِك هذا أبَدًا في حَياته، ربما يُريهم الله آيةً من آيات الرسول فيَحصُل مثل هذا، كما حصَل في عَيْن أبي قَتادةَ أن أُصيبَت فنُدِرت حتى صارَت على خَدِّه؛ فأَدخَلها النبيُّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ في مَكانها، والْتَأَمَت في الحال. وهذه آيَة من آيات الله، لكن هذه في حَياته، أمَّا بعدَ مَماته فلا.

فإن قال قائِل: هل لهذا نَظائِرُ؟

قلنا: نعَمْ، قد يَبتَلِي الله الإنسانَ بتَيْسير أَسباب المَعْصية، ابتِلاءً؛ ليَعلَم الله مَن يَخافُه بالغيب، كما ابتَلى بني إِسرائيلَ بالحِيتان؛ حرَّم الله عليهم صَيْد الحوت في يوم السَّبْت، وابتَلاهم، فكانَتِ الحِيتان في يوم السَّبْت تَأْتِي شُرَّعًا على الماء بكَثْرة، وفي غير يوم السَّبْت لا تَأْتِي، فطال عليهم الأمَدُ، وقالوا: لا بُدَّ أن نَصطاد هذا السمَكَ، ولكن يوم السَّبْت مُحرَّم علينا، فماذا العمَلُ؟ قالوا: هناك حِيلة -واليَهود أصحاب حِيَل- ضَعوا شبَكة يوم الجُمُعة، وتَأْتِي الحِيتان يوم السَّبْت تَدخُل، وخُذوا الحِيتانَ يوم الأحَد، وقولوا لله: إنَّنا لم نَصطَد يوم السَّبْت؛ فماذا عُومِلوا به؟ ﴿وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ ٱلَّذِينَ ٱعْتَدَوْا۟ مِنكُمْ فِى ٱلسَّبْتِ فَقُلْنَا لَهُمْ كُونُوا۟ قِرَدَةً خَٰسِـِٔينَ﴾ [البقرة:٦٥]، قلَبهم الله عَزَّوَجَلَّ إلى شيء يُشبِه الإنسان وليس بإنسان؛ كما صنَعوا شيئًا يُشبِه الحِلَّ وليس بحِلٍّ، جَزاءً وِفاقًا.

هذه الأُمَّةُ حرَّم الله عليهم الصيد في حال الإحرام؛ فابتَلاهُمُ الله، بدَأَت الصُّيود تَأْتِي بكَثْرة، الصيد الطائِر يَناله الرُّمْح، والصيد الزاحِف تَناله اليَدُ ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَيَبْلُوَنَّكُمُ ٱللَّهُ بِشَىْءٍ مِّنَ ٱلصَّيْدِ تَنَالُهُۥٓ أَيْدِيكُمْ وَرِمَاحُكُمْ لِيَعْلَمَ ٱللَّهُ مَن يَخَافُهُۥ بِٱلْغَيْبِ﴾ [المائدة:٩٤] فصارَتِ الصُّيود الطائِر يَنالُه الإنسان برُمْحه، مع أنه لا يُنال الطائِرُ إلَّا بالسَّهْم، والزاحِف باليَدِ؛ فالصحابة رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمْ تَجنَّبوا هذا، لا أَمسَكوا باليَدِ، ولا صادوا بالرُّمْح.

فأَنْت احْذَرْ يا أيُّها المُسلِم، واحذَرْ أن تَنخَدِع، إذا تَيسَّرَت لك أسباب المَعْصية؛ فان الله تعالى قد يَبتَليك، ربَّما يَبتَلي الله الإنسانَ بوَظيفة، يَستَطيع أن يَسرِق فيها من بيت المال، إمَّا سرِقة حَقيقية -يَعنِي: يَأْخُذ دَراهِمَ- وإمَّا سرِقة غير مُباشِرة، بأن

يَتأخَّر عن الدوام، أو يَتعَجَّل في الخُروج؛ لأن مَن فعَل ذلك فهو سارِق.

وإذا قدَّرنا أنه يَتأخَّر عن الدوام بمِقدار السُّدُس، أو يَتعَجَّل بمِقدار السُّدُس، فقد سرَق سُدُسًا؛ لأنه إذا تَأخَّر السُّدُس لا يَستَحِقُّ من الراتِبة إلَّا خمسة أَسداس فقَطْ، والباقِي يَأخُذه بغَيْر حقٍّ، هو مُطمَئِنٌّ لأنه ليس فـوقَه أَحَد، هو المُدير مثَلًا، أو مُطمَئِنٌّ؛ لأن مُديرُه يَتأخَّر، ومَعلوم أن المُدير إذا كان يَتأخَّر وتَأخَّر مَن تَحته أنه لا يَقول لهم شَيئًا؛ لأنه لو قال لهم شَيئًا فضَحَ نَفْسه.

إِذَن: احذَرْ أن تَغترَّ إذا يسَّر الله لك أسباب المَعْصية، فإن الله يَعلَم خائِنة الأعيُن وما تُخفِي الصُّدور، لا تَغترَّ بهذا الشيءِ.

الْفَائِدَةُ الخَامِسَةُ: النِّداء الصارِخ على سَفاهة هَؤلاءِ القَوْمِ الذين يَعبُدون من دون الله؛ لكونهم عدَلوا عن عِبادة مَن يَقضِي بالحَقِّ إلى عِبادة مَن لا يَقضِي بشَيْء، وهذا في غاية السَّفَه.

الْفَائِدَةُ السَّادِسَةُ: إثبات اسمَيْن من أسماء الله، هُما السميع والبصير، وإثبات ما دَلَّا عليه من صِفة، وإثبات ما دَلَّا عليه من أثَرٍ، أو من حُكْم؛ وذلك أن أسماءَ الله عَزَّوَجَلَّ لا يَتِمُّ الإيمان بها إلَّا بالإيمان بأمور ثَلاثة، إذا كانت مُتعدِّية، الأوَّل: إثبات الاسم، والثاني: إثبات ما دَلَّ عليه من الصِّفة. والثالث: إثبات ما دَلَّ عليه من أثَرٍ، أو من حُكْم. هذا إذا كان مُتَعدِّيًا، أمَّا إذا كان لازِمًا، فلا يَتِمُّ الإيمان به إلَّا بأَمْرين: إثبات الاسم، وإثبات ما دَلَّ عليه من صِفة.

فقوله: ﴿ٱلسَّمِيعُ﴾ مُتعَدٍّ، قال الله تعالى: ﴿قَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوْلَ﴾ [المجادلة:١]، ثم قال تعالى: ﴿وَٱللَّهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَآ﴾ مُتعدٍّ.

إِذَنْ: لا بُدَّ أن تُؤمِن بالسَّميع اسمًا من أسماء الله.

فإن قال قائِل: ما الفَرْق بين اللازِم والمُتعدِّي؟

فالجَوابُ: اللازِمُ ما لا يَنصِب المَفعول به، والمُتعدِّي ما يَنصِبُ المَفعول به. فـ(سَمِع) تَنصِب المَفعول، مثل: «عَظُمَ» لا يُمكِن أن تَتَسلَّط عظُم على شيء، عَظُمَ هو بنفسه، أمَّا «عَظَّمَ» صَحيح مُتعدٍّ، لكن «عَظُمَ» لازِمة لا شَكَّ، «جَلَّ» لازِمة، فـ«العظيم» من أسماء الله اللازِمة، و«العَليُّ» من أسماء الله اللازِمة، و«الجَليل» من أسماء الله اللازِمة.

فإن قال قائِل: ما هو الفَرْق بين الأفعال اللازِمة التي تَتَعدَّى بحرف الجَرِّ والتي تَتَعدَّى بنفسها؟

فالجَوابُ: يَقولون: ما تَعدَّى بنفسه فهو مُتَعَدٍّ، وما لم يَتعَدَّ إلَّا بحَرْف جرٍّ فهو لازِمٌ؛ يَعنِي: الذي يَنصِب المَفعول به هو المُتَعَدِّي. وبعضُهم أيضًا قال: هناك علامة ثانية. فهو له عَلامات منها هذه، ومنها أنه يَصِحُّ منه صَوْغ اسم المَفعول المُتعدِّي، وهذا لا يَصِحُّ منه صَوْغ اسم المَفعول إلَّا بمُتعلَّق.

فإن قال قائِل: هل السَّميع صِفة ذاتٍ أو صِفة فِعْل؟

فالجَوابُ: السَّميع صِفة ذاتٍ، لكن الذي يَحدُث المَسموع، أمَّا السَّمْع فلَمْ يَزَل الله ولا يَزال سَميعًا، لا يَتعلَّق بمَشيئته، وإذا أَرَدْت أن تَعرِف الفَرْق؛ فإن كان يُمكِن أن يَتَخلَّى الله عن هذه الصِّفةِ فهي صِفة فِعْل، وإذا كان لا يُمكِن فهي صِفة ذات، ومَعلوم أنه لا يُمكِن أن يَتخلَّى الله عَزَّوَجَلَّ عن صِفة السَّمْع؛ فيَكون أصمَّ، فإنَّ الله مُنزَّهٌ عن ذلك، لكن الذي يَحدُث هو المَسموع.

ولكن هل هُناك أَحَدٌ أَنكَر الأَسماء؟

الجوابُ: نعَمْ، هناك من المُعطِّلة المُنتَسِبين للمِلَّة الإسلامية مَن يُنكِر أسماء الله تعالى.

الأمر الثاني: أن تُؤمِن بما دَلَّ عليه من صِفة وهي السَّمْع، فليس الله تعالى سَميعًا بلا سَمْع، بل هو سَميع بسَمْع، وهل أحَدٌ أثبَتَ الاسم دون الصِّفة؟

الجوابُ: نعَم، المُعتزِلة، وقاعِدتُهم: إثباتُ الأسماء وإنكارُ الصِّفات التي دلَّتْ عليها هذه الأسماءُ؛ فيَقولون: إن الله سَميع بلا سَمْع، بَصير بلا بصَر. سُبحانَ الله! كيف بَصيرٌ بلا بصَرٍ؟! قال: نعَمْ بَصير بلا بصَرٍ، لأنك إذا أثبَتَّ البصَر فالبصَرُ صِفة زائِدة على الذات. أي: نعَمِ الصِّفة غيرُ المَوْصوف زائِدة على الذات.

فإن قلت: إنها قَديمة. أثبَتَّ تعدُّد القُدَماء، وصِرْت أكفَرَ من النَّصارى، فالنصارى أثبَتوا ثلاثة آلِهة، أنتَ الآنَ تُريد أن تُثبِت خَمسين إلهًا أو أكثَرَ، بقَدْر الأسماء التي أثبَتَّ لها الصِّفة، وهذا كُفْر، فإذا كفَّرْنا النَّصرانيَّ بثَلاثة وقُلنا: كافِر. نَقول: أنت كافِر، كافِر، كافِر. اضرِب ثلاثة حتى تَصِل إلى الأسماء، أنت أكفَرُ من النَّصْراني إذا أثبَتَّ صِفة قديمة، وإن أثبَتَّها حادِثة لزِم من ذلك قيام الحَوادِث بالله، والحَوادث لا تَقوم إلَّا بحادِث، فتكون أنت أثبَتَّ أن الله مَخلوق، وأنه حادِث.

فما بالُكم إذا صِيغ هذا الكَلامُ بكلام أفصَحَ من كلامِي وأبلَغَ؛ أفلا يَنخَدِع به الجُهَّال؟ يَنخَدِعون به لا شَكَّ، لكننا نَقول: إن الله تعالى سَميع بسَمْع، ولا يُعقَل أن يَكون مُشتَقٌّ بدون ما اشتُقَّ منه أبَدًا، إذ لا يَصِحُّ أن تَقول للأَصَمِّ: إنه سَميع. ولا للأَعْمى: إنه بَصير. لا يُمكِن أن يُوجَد اسم مُشتَقٌّ في جميع لُغات العالَم إلَّا والأصل المُشتَقُّ منه سابِق عليه.

وأمَّا قولكم: إن الصِّفة غير المَوْصوف، فإننا نَقول: إن الله تعالى لم يَزَل ولا يَزال بصِفاته، ولا يُوجَد ذاتٌ بلا صِفاتٍ إطلاقًا، مَن ادَّعَى أنه يُوجَد ذاتٌ بلا صِفةٍ، فقَدِ ادَّعى المُحال، ما من مَوْجود إلَّا وله صِفة، لو لم يَكُن من صِفاته إلَّا صِفة الوُجود، والقِيام بالذات، وما أَشبَه ذلك، فما من مَوْصوف إلَّا وله صِفة، لكن المَوْصوف صِفاته ليسَت شيئًا بائِنًا منه؛ ولهذا لا نَقول: إن صِفاتِ الله هي الله، ولا نَقول: إنها غيرُ الله. بل نَقول: إن الله بصِفاته. لأنَّك إذا قلتَ: إن الصِّفاتِ هي الله، صار مَعناه: أنه لا صِفةَ له، وإذا قلتَ: إنها غيرُه. أَبَنْتَ الصِّفة عن المَوْصوف، وهذا مُستَحيل.

إذَنِ: الإيمان بالاسم لا بُدَّ أن تُؤمِن بما تَضمَّنه من صِفة، وتَضمَّنه للصِّفة قد يَكون تَضمُّنًا وقد يَكون التِزامًا، فنُؤمِن بالصِّفة التي دلَّ علَيْها تَضمُّنًا والتِزامًا، فمثَلًا: الخالِق اسمٌ دلَّ على صِفة الخَلْق، فدَلالته على صِفة الخَلْق بطَريق التَّضمُّن، ودَلالته على العِلْم التِزام؛ لأنه لا خَلْقَ إلَّا بعِلْم، ودَلالته على القُدرة التِزام أيضًا؛ لأنَّه لا خَلقَ إلَّا بقُدْرة.

إذَنْ: تُؤمِن بما دلَّ عليه الاسم من صِفة سواء كانَت تَضمُّنًا أو التِزامًا.

الأمر الثالِث: إذا كان الاسمُ مُتَعدِّيًا الأثَر أو الحُكْم، فمِثْل السَّميع ذو السَّمع، الذي يَسمَع، لا بُدَّ أن تُؤمِن بسَمْع يَتَعدَّى للغير، فيَسمَع كلَّ قول، البَصير كذلك مُتَعدٍّ، تُؤمِن بالبَصير اسمًا وبالبصَر صِفةً، وبأنه يُبصِر حُكْمًا أو أثَرًا، أمَّا إذا كان الاسم لازِمًا؛ فإنه يُؤمِن بأمرين: الأوَّل الاسم، والثاني: الصِّفة.

الحيُّ: وَصْف لازِم، والحَياة وَصْف لازِم لا يَتعدَّى لغير الله؛ فالحيُّ إذَنِ اسمٌ من الأسماء اللازِمة، فتُؤمِن بالحَيِّ اسمًا من أسماء الله، وتُؤمِن بالصِّفة التي دَلَّ عليها الحيُّ وهي الحياة.

إذا آمَنَّا بهذا خالَفْنا كل أهل التَّعْطيل، خالَفْنا مَن لا يُسمِّي الله باسْمٍ، ولا يَصِفه بصِفة، وهؤلاء غُلاةُ الجَهْمية، وخالَفْنا مَن يُؤمِن بأن لله أسماءً ولكن لا صِفاتِ له، مثل: المُعتزِلة، وخالَفْنا مَن يقول: له أسماءٌ وصِفاتٌ، لكن ليس لها حُكْم، لا يَتعدَّى؛ لأنه لو تَعدَّى إلى الغير لزِم قِيام الحوادِث به، إذْ إنَّ المَسموع حادِث، فإذا تَعلَّق السَّمْع بحادِث صار السَّمْع حادِثًا حُدوث المَسموع، فلزِم قِيام الحوادِث به، إذَنْ قُلْ: هو سَميع له سَمْع، لكن لا يَسمَع به، لئَلَّا تَقوم به الحَوادِث؛ فإذا أَتَيْنا على هذه الشروطِ الثَّلاثة:

١- الإيمان بالاسْمِ.

٢- بما تَضمَّنه من صِفة.

٣- بالأَثَر أو الحُكْم.

صحَّ إيمانُنا بالأسماء.

أمَّا السَّميع والبَصير فقد سبَقَ لنا مَعناهُما، وذكَرْنا أنَّ السَّميع يَدُلُّ على السَّمْع، وأنَّ سَمْع الله تعالى نوعان:

الأول: سَمْع بمَعنَى: الإجابة، مثل قوله تعالى: ﴿إِنَّ رَبِّي لَسَمِيعُ ٱلدُّعَآءِ﴾ [إبراهيم:٣٩]، والسَّمْع يَأتِي بمَعنَى الاستِجابة في اللُّغة العَربية، والدليلُ: ﴿وَلَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ قَالُواْ سَمِعْنَا وَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ﴾ أي: لا يَستَجيبون. ومنه قولُ المُصلِّي -وأنتُمْ كل يَوْم تُصلُّون على الأَقَلِّ سبعَ عشْرَةَ رَكعةً، وتَقولون-: سمِعَ الله لَمِن حَمِدَه. ومَعناها: استَجاب. ليس المعنى مُجرَّد سَماعه لَمِن حَمِده، لأن هذا لا يُفيد شَيْئًا، لكن مَعناها استَجاب، هذا سَمْع بمَعنى الاستِجابة.

الثاني: سَمْع بمَعنى إدراك المَسموع، وهذا يَنقَسِم إلى ثلاثة أقسام: الأوَّل: ما يُراد به التَّهديد، والثاني: ما يُراد به التَّأييد، والثالث: ما يُراد به بَيانُ شمول سَمْع الله؛ يَعنِي: سَمْع الإحاطة.

مِثال الأوَّل الذي يُراد به التَّـهديد: ﴿أَمْ يَحْسَبُونَ أَنَّا لَا نَسْمَعُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَىٰهُم﴾ [الزُّخرُف:٨٠]؛ ولهذا قال: ﴿بَلَىٰ وَرُسُلُنَا لَدَيْهِمْ يَكْتُبُونَ﴾.

ومِثال سَمْع التَّأْييد: قـولُه تعالى لموسى وهارُونَ: ﴿لَا تَخَافَآ إِنَّنِى مَعَكُمَآ أَسْمَعُ وَأَرَىٰ﴾ [طه:٤٦].

ومثال ما يُراد به سَمْع الإحاطة، مِثْل قوله تعالى: ﴿قَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوْلَ ٱلَّتِى تُجَٰدِلُكَ فِى زَوْجِهَا وَتَشْتَكِىٓ إِلَى ٱللَّهِ وَٱللَّهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَآ﴾ [المجادلة:١].

فإن قال قائِل: ألَا يَشمَل قـوله تعالى: ﴿إِنَّنِى مَعَكُمَآ أَسْمَعُ وَأَرَىٰ﴾ سَمْع إحاطة؟

فالجوابُ: السَّمْع هنا سَمْع إحاطة، لكنه يُراد به النَّصْـر والتَّأييد، لأن مُجرَّد الإحاطة حتى فِرعونُ يَسمَعه الله عَزَّوَجَلَّ.

فصار يُقسِّم السَّمْع إلى قِسْمين: سَمْع إجابة وسَمْع إدراك؛ والإدراك ثلاثة أقسام، وإن شِئْت فقُلْ: ثلاثة أنواع؛ لئَلَّا تَتداخَل الأقسام: سَمْعٌ يَقتَضي التَّهديد، وسَمْع يَقتَضي التَّأييد، وسَمْع لبيان الإحاطة. وكلُّ هذا ثابت لله عَزَّوَجَلَّ.

فإن قال قائِل: ما الذي يُعيِّن أنَّ هذا السَّمعَ للتَّأييد أو للتَّهديد أو للإحاطة؟

قُلنا: سِياق الكلام وقـرائِن الأحوال؛ ولهذا يُمكِن أن يُقال في قول الله تعالى لموسى وهارونَ: ﴿لَا تَخَافَآ إِنَّنِى مَعَكُمَآ أَسْمَعُ وَأَرَىٰ﴾ يُمكِن أن يُقال: إن هـذا

السَّمعَ للتَّأييد والتَّهديد؛ تَأييد موسى وهارونَ، وتَهديد فِرعونَ، لكن يَمنَع من القول بأنه من تَهديد فِرعونَ، أنَّ فِرعونَ لم يَكُن يَسمَع هذا الكلامَ من الله، فكيف يُهدَّد مَن لا يَسمَع التَّهديد؟! ولهذا قال العُلَماء: إن السَّمْع في هذه الآيةِ للتَّأييد، ولم أَرَهُم قالوا: إنه للتَّهديد، ولا لتَهديد فِرعونَ، ووَجهُ ذلك أن فِرعونَ الآنَ ليس يَسمَع ما يَقول الله عَزَّوَجَلَّ، فكيف يُهَدَّد مَن لا يَسمَع التَّهديد؟!.

أمَّا البَصير فهو بمَعنى: ذو البَصَر الثاقِب، الذي لا يَغيبُ عن نظَره شيءٌ عَزَّوَجَلَّ أيُّ حرَكة وأيُّ فِعْل فإن الله تعالى يُبصِره.

وإذا كان يُبصِر كلَّ شيء، فكَيْف مَوقِفنا في مثل قوله: «**ثَلَاثَةٌ لَا يُكَلِّمُهُمُ اللهُ، وَلَا يَنْظُرُ إِلَيْهِمْ، وَلَا يُزَكِّيهِمْ**»[1] قال: «وَلَا يَنْظُرُ إِلَيْهِمْ» فنَفَى النظرَ إليهم، نَقول: النظَر المُثبَت غير النظَر المَنفيِّ، المَنفيُّ هو نظَر الرَّحمة، والمُثبَت نظَر الإحاطة؛ فالله تعالى يَنظُر كلَّ شيء نظَر إحاطة، حتى المَغضوب عليهم، مَنْظُورون أمام الله عَزَّوَجَلَّ، لكن نظَر إحاطة، وأمَّا المَنفيُّ فهو نظَر الرَّحمة، «لَا يَنْظُرُ إِلَيْهِمْ» وبهذا تَلتَئِم الأدِلَّة، ويَتبيَّن أنه لا تَعارُض بينها.

وهناك بصَر بمَعنَى العِلْم، لكن المُتبادِر منه الرؤية كما سبَق.

فإن قال قائِل: نظَر الرَّحمة هل هو نَفْس رحمة الله عَزَّوَجَلَّ، وما المَقْصود بالنظَر؟

فالجَوابُ: المَقصود أنَّ الله يَنظُر إليه نظَرًا يَرحَمه به، ليس هو بنَفْس الرَّحمة، ولهذا تُفرِّق الآنَ بين النَّظَر إلى ولَدِك الذي أَرضاك، والنظَر إلى ولَدِك الذي أَغضَبك، ولَدُك الذي أَرضاك تَنظُر إليه نظَرًا بارِدًا، وهو يَشْعُر بأنَّ عينَك قد قرَّت به -قرَّتْ

---

(١) أخرجه مسلم: كتاب الإيمان، باب بيان غلظ تحريم إسبال الإزار، رقم (١٠٧)، من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

من القَرِّ، وليس من القَرار، من القَرِّ وهو البُرودة؛ ولهذا: أَقَرَّ الله عينَك. أي: برَّدها ليسَت من أَقرَّها سكَّنها حتى لا تَتحرَّك-؛ والولَد الذي غضِبْت عليه إذا نظَرْت إليه تكون عينُك حارَّة حَمراءَ، يَظهَر منها الشرَر، يَكاد يُعمِي الولَد.

وإن قيل: ألَا يَجوز التَّعبير إذا قلنا: إن هذا العمَلَ أقرَبُ إلى نظَر رحمة الله.

فالجَوابُ: لا يَصِحُّ «نظَر رحمة الله»، الرحمة لا تُنظَر، والصـوابُ: «أَقرَبُ إلى رحمة الله».

فإن قال قائِل: هل نَفيُ الصِّفات كُفْر؟

فالجَوابُ: لا، نَفيُ الصِّفات يَنقَسِم إلى قِسْمين:

نَفي جُحود، وهذا كُفْر، ونَفْي تَأويل، وهذا منه ما هو كُفْر، ومنه ما هو دون ذلك.

فإذا قال القائِل: إن الله لم يَستَوِ على العَرْش فهذا كُفْر جُحود، جحَد كذَّب الخبَر، وإذا قال: إن الله استوَى على العَرْش، ولكن مَعنى استوَى استوْلى، فهذا جَحْد التَّأْويل، قد يَكون كُفْرًا مُخرِجًا عن المِلَّة، وقد يَكون دون ذلك، حسب ما تَقتَضيه القواعِدُ الشَّرْعية.

مسألَةٌ: ما هي أسماء الكُتُب التي تَتحدَّث عن الأسماء والصِّفات؟

فالجَوابُ: الكُتُـب مُتعدِّدة ومُختَلِفة في المَنهَج، فمثَلًا مُجـرَّد الإثبات -إثبات العَقيدة- من أَحسَـن ما يَكون (العَقيدة الواسِطيـة)؛ لأنها كلها مَبنيَّة على آيات وأَحادِيثَ، أمَّا من جهة المُناقَشة والمُحاجَّة فمن أَحسَن ما رأَيْت (الصواعِق المُرسَلة) لابن القَيِّم، ومُختَصَره، هذا من أَحسَن ما يَكون لطالِب العِلْم في المُناقَشة، فهذا مُفيد

لأنه يَذكُر رَحِمَهُ ٱللَّهُ أُمَّهاتِ المَسائِل التي فيها الخِلاف، ثُم يُجادِل هؤلاء حتى يَتبيَّن الحَقُّ، و(مُختَصَر الصواعِق المُرسَلة)بهذا الاسم، للمَوْصِليِّ.

• ● ● •

الآية (٢١)

قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿أَوَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَـٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ كَانُوا۟ مِن قَبْلِهِمْ ۚ كَانُوا۟ هُمْ أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَءَاثَارًا فِى ٱلْأَرْضِ فَأَخَذَهُمُ ٱللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ وَمَا كَانَ لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مِن وَاقٍ﴾ [غافر:٢١].

قوله: ﴿أَوَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ هذا النَّظْمُ موجود في القرآن كثيرًا، أن تَأْتِيَ أداة الاستِفْهام وبعدها حَرْف العَطْف ثُم الجُملة، وقد اختلَفَ المُعرِبون في كيفية إعراب هذا النَّظْمِ وهذا التَّرْكيبِ، فقال بعضُهم: إن التَّقْدير: وأَلَمْ يَسيروا في الأرض؛ فتكون الواو عاطِفة على ما سبَقَ، وتَكون الهَمزة داخِلة على جُملتها، مُصَدَّرَةً الجُملةُ بها، وهذا القولُ لا يَحتاج إلى تَقدير، لكنه يَرِدُ عليه أنَّ الهمزة مُتقدِّمة على حرف العَطْف، فأَجابوا عن ذلك بأن الهَمْزة مُقدَّمة، وقالوا: إنَّ تَقديمها في مِثْل هذا سائِغ.

والقول الثاني للمُعرِبين: أن الهَمْزة داخِلة على شيء مُقدَّر، وأنَّ حرف العَطْف عاطِف على ذلك المُقدَّرِ، وحينئذٍ نَحتاج إلى تَعْيين ذلك المُقدَّرِ، ولا يُعيِّنه إلَّا السِّياق؛ فيُقدَّر ذلك المَحذوفُ بحَسب ما يَقتَضيه السِّياق، فمثَلًا: يُقال: ﴿أَوَلَمْ يَسِيرُوا۟﴾ أفرَطوا ولم يَسيروا في الأرض، أو: أَغفَلوا ولم يَسيروا في الأرض، أو ما يُؤدِّي إلى هذا المَعنَى.

وقوله: ﴿أَوَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ هل المُراد سَيْرُ القُلوب بالنظَر والتَّأمُّل والتَّفكُّر، أو المُراد سَيْر الأقدام، حتى يَقِف الإنسان على ما حصَل للأُمَم السابِقة بعيني رأْسِه؟

الجوابُ: كِلاهما؛ فمَن لم يَتيَسَّر له أن يَسير بقدَمه فلْيَسِر بقَلْبه، ولكن طريق سَيره بقَلْبه أن يَقرَأ تاريخ الأمَم السَّابِقة، وحينئذٍ يَثبُت هذا التاريخُ بطريقين فقَطْ: الطريق الأوَّل: القُرآن. والطريق الثاني: السُّنَّة الصحيحة عن رسول الله -صلى الله عليه وعلى آله وسلم-.

فإن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ قال فيمَن سبَقَ: ﴿ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكُمۡ قَوۡمِ نُوحٖ وَعَادٖ وَثَمُودَۛ وَٱلَّذِينَ مِنۢ بَعۡدِهِمۡۛ لَا يَعۡلَمُهُمۡ إِلَّا ٱللَّهُ﴾ [إبراهيم:٩] وإذا كان لا يَعلَمهم إلَّا الله؛ فإن مَصدَر التَّلَقِّي لأخبارهم من عند الله، أو من رسوله -صلى الله عليه وعلى آله وسلم-.

أمَّا ما حدَّثَت به بنو إسرائيل عمَّن سبَقَ؛ فهذا يَنقسِم إلى ثلاثة أقسام:

القِسْم الأوَّل: ما شهِد شرْعُنَا به، أو ما شَهِدَ القُرآن والسُّنَّة به؛ فهذا مَقبول، لا لأنه خبَر بني إسرائيلَ، ولكن لأنَّ القُرآن والسُّنَّة شهِدت بصِدْقه.

القِسْم الثاني: ما شهِد القُرآن والسُّنَّة بكذِبه، فهذا مَرفوض، ولا يَجوز التَّحدُّث به إلَّا إذا أَراد الإنسانُ بَيان كذِبه وبُطْلانه.

القِسْم الثالِث: ما لم يَشهَد الوَحيُ بصِدْقه ولا كذِبه؛ أي: ما ليس في القُرآن ولا في السُّنة تَصديقه ولا تَكذيبه، فهذا قال فيه النَّبيُّ -صلى الله عليه وعلى آله وسلم-: «حَدِّثُوا عَنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَلَا حَرَجَ»(١) فيَكون من الكلام الذي يُباح نَقْله، لكن لا فَائِدَةَ منه؛ فلا يُشتَغَل به عمَّا هو أهَمُّ منه.

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب أحاديث الأنبياء، باب ما ذكر عن بني إسرائيل، رقم (٣٤٦١)، من حديث عبد الله بن عمرو رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.

وبِهذا نَعرِف كيف نَسير بقُلوبنا في أخبار مَن سبَق، فصار مَصدَر التَّلقِّي في أخبار مَن سبَق، المَصدَر الأساسيُّ الأكيد هو الكِتاب والسُّنَّة، وأمَّا ما وقَع من أخبار بني إسرائيلَ، فعرَفنا أنه على ثلاثة أقسام.

وقوله: ﴿أَوَلَمْ يَسِيرُواْ فِي ٱلْأَرْضِ﴾ قال بعض المُعرِبين: إنَّ (في) هنا بمَعنَى (على)؛ لأنه لا يُمكِن السير في جوف الأرض، بِناءً على أنَّ (في) للظَّرفية، والظَّرْف مُحيط بالمَظروف، كما إذا قُلت: الماء في الإناء؛ فإنَّ الإناء مُحيط به، والماء في جَوْفه، ولكن رُبَّما يَقولُ قائِلٌ: إنَّ هذا غير مُتعيِّن؛ لأن المُراد ﴿فِي ٱلْأَرْضِ﴾ أي: في مَناكِب الأرض، كما قال تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ ذَلُولًا فَٱمْشُواْ فِي مَنَاكِبِهَا﴾ [الملك:١٥]، وتكون الظَّرْفية هنا ظَرْفية الأجواء؛ أي: في جوِّ الأرض، في أجواء الأرض، والأجواء ظَرْف لِمَن يَسير فيها.

قوله: ﴿فَيَنظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ كَانُواْ مِن قَبْلِهِمْ﴾ ﴿فَيَنظُرُواْ﴾ الفاء هنا قيل: إنَّها عاطِفَة، وعلى هذا فيكون السير مُنتَفِيًا، والنظَر أيضًا مُنتَفٍ، والتَّقديرُ على هذا القول: ﴿أَوَلَمْ يَسِيرُواْ فِي ٱلْأَرْضِ﴾ فألَمْ يَنظُروا في كيف كان عاقِبة الذين كانوا من قَبْلهم، وقيل: إن الفاء للسَّبَبية؛ أي: فبسبَب سَيْرهم يَنظُروا كيف كانَ. والمَعنَيان مُتلازِمان؛ لأنهم إذا لم يَسيروا لم يَنظُروا، وإن ساروا نظَروا.

وقوله: ﴿فَيَنظُرُواْ كَيْفَ كَانَ﴾ هل النَّظَر هنا نظَرُ قَلْب وبَصيرة، أو نظَر عَيْن وبصَر؟

الجواب: يَنبَني على ما سبَقَ في السير، إن كان سَيْر قَلْب فالنَّظَر نظَرُ قلبٍ وبَصِيرَةٍ، وإنْ كانَ سَيرَ قَدَمٍ فالنَّظر نظَر عَيْن وبصَر. وقد قُلنا: إنَّ السَّيْر صالِح لهذا وهذا؛ فيَكون النظَر أيضًا صالِحًا لهذا وهذا.

قوله: ﴿كَيْفَ كَانَ عَـٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ كَانُوا۟ مِن قَبْلِهِمْ﴾ (كيف) اسمُ استِفْهام، وهو في مَحَلِّ نَصْب على أنه خبَر (كان) مُقدَّم، و﴿عَـٰقِبَةُ﴾ اسمُها، ﴿كَيْفَ كَانَ عَـٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ كَانُوا۟ مِن قَبْلِهِمْ﴾؛ أي: مَآلُهم، ماذا كان مَآلُهم؟ سيَأتي ذِكْر المَآل، لكن الله ذكَر حالهم قبل أن يَذكُر مَآلهم، قال: ﴿كَانُوا۟ هُمْ أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً﴾ ﴿أَشَدَّ﴾ من الشِّدَّة، وهي الصلابة والعِظَم.

و﴿مِنْهُمْ﴾ يَقول المفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [وفي قِراءة «مِنْكُمْ»] فيَكون في هذا الْتِفاتٌ من الغيبة إلى الخِطاب، ومَعلوم أنَّ الخِطاب أشَدُّ وَقْعًا في النَّفْس من الحديث بصِيغة الغيبة، يَعنِي إذا كُنتَ تُخاطِبُ الشَّخص مُخاطَبَة فهو أشَدُّ وقعًا في نفسه، ممَّا إذا كُنت تَتَحدَّث بصيغة الغيبة؛ ولهذا جاء قول الله تعالى: ﴿عَبَسَ وَتَوَلَّىٰٓ﴾ [عبس:١] بصيغة الغيبة، والعابِس والمُتولِّي الرَّسُول عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ ولم يَقُل: عبَسْت وتوَلَّيت؛ لأن الخطاب أشَدُّ وَقْعًا من الغيبة. وقوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [وفي قِراءة: «مِنكم»] اعلَمْ أنَّ اصطِلاح المفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ أنه إذا قال: في قِراءة. فهي سَبْعية، وإذا قال: وقُرِئ. فهي شاذَّة ليسَت سَبْعية.

قال المفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿قُوَّةً وَءَاثَارًا فِى ٱلْأَرْضِ﴾ من مَصانِعَ وقُصور] فهُمْ أَقوياء الأبدان، ولهم من الآثار في الأرض أكثرُ ممَّا عِند هؤلاء الذين كذَّبوا رسول الله -صلى الله عليه وعلى آله وسلم- والشَّاهِدُ في هذا ظاهِر في دِيار ثَمودَ، فإن كل مَن شاهَدها تَبيَّن له كيف كانت قُوَّة القوم، وكذلك آثار عاد في الأَحْقاف، التي اطَّلَع عليها، وقال الله فيها: ﴿إِرَمَ ذَاتِ ٱلْعِمَادِ ﴿٧﴾ ٱلَّتِى لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِى ٱلْبِلَـٰدِ﴾ [الفجر:٧-٨] قُوَّة عظيمة، حتى إنَّ عادًا قالوا: ﴿مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً﴾ فماذا كانت حالهُم؟

قال تعالى: ﴿فَأَخَذَهُمُ ٱللَّهُ﴾ قال المفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [أهلكَهم] ﴿بِذُنُوبِهِمْ وَمَا كَانَ

لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مِن وَاقٍ﴾ هؤلاءِ القَوْمُ الأشِدَّاء الذين لهم من الآثار ما يُبهِر العُقول، أَخَذهم الله بذُنوبهم، أَهلَكَهم بسبب ذُنوبهم، وذُنوبهم مكَوَّنَةٌ من شيْئين: التَّكذيب والتَّولِّي، فهُمْ مُكذِّبون للخبَر، مُتولُّون عن الأمر، فكَذَّبوا الأخبار، وخَالَفُوا الأوامِر، وقَعوا فيما نُهوا عنه، وتَركوا ما أُمِروا به، وكذَّبوا ما يَلزَمهم تَصديقه ﴿فَأَخَذَهُمُ ٱللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ﴾ والباء هنا للسَّببية.

وقوله: ﴿وَمَا كَانَ لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مِن وَاقٍ﴾ (مَا) نافِية و(مِن) مُتعلِّقة بـ﴿وَاقٍ﴾، و﴿وَاقٍ﴾ اسمُ (كان) دخلَت عليه (مِن) الزائِدة للتوكيد، وأصل (واقٍ): واقِي، فحُذِفت الياء للتَّخفيف؛ أي: ما كان لهم من أحَد يَقيهم من عَذاب الله.

حتى إنَّ ابنَ نُوحٍ عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ لم يَقِهِ من عذاب الله قُربُه من نوح، ولا دُخوله في العُموم؛ لأن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ ذكَر أنَّه مُنَجِّيه وأهلَه -أَعنِي: نوحًا- فلمَّا أَرسَل الله عليهم الغرَق، دعا ابنه أن يَركَب معه في السفينة، ولكنه أَبى، وقال: ﴿سَـَٔاوِىٓ إِلَىٰ جَبَلٍ يَعْصِمُنِى مِنَ ٱلْمَآءِ﴾ [هود:٤٣] فغَرِق، وقال نوحٌ: ﴿رَبِّ إِنَّ ٱبْنِى مِنْ أَهْلِى﴾ [هود:٤٥] وقَدْ وعَدَه الله أن يُنجِّيَه وأهلَه، فقال الله تعالى: ﴿إِنَّهُۥ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ ۖ إِنَّهُۥ عَمَلٌ غَيْرُ صَٰلِحٍ ۖ فَلَا تَسْـَٔلْنِ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ ۖ إِنِّىٓ أَعِظُكَ أَن تَكُونَ مِنَ ٱلْجَٰهِلِينَ﴾ [هود:٤٦]، فلم يَقِ هذا الابنَ قُربُه من أبيه أحَدِ أُولِي العَزْم من الرُّسُل، ولكنه هلَك فيمَن هلَكَ، كما قال تعالى هنا: ﴿وَمَا كَانَ لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مِن وَاقٍ﴾.

من فوائدِ الآيةِ الكريمةِ:

الْفَائِدَةُ الأُولَى: الحَثُّ على السير في الأرض، لقوله: ﴿أَوَلَمْ يَسِيرُوا۟﴾ بِناءً على أنَّ الاستِفْهام هنا للإنكار والتوبيخ.

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَةُ: أنَّ السير في أرض المُكذِّبين، وبَيان ما أَحَلَّ الله بِهِم من النَّكال،

إذا كان على سبيل العِبْرة فلا بأسَ به، على سَبيل العِبْرَة بما جَـرَى لهم من الهَلاك، لا العِبرة بما كان لهم من القُوَّة، وبِناءً على ذلك نَعرِفُ أنَّ الذين يَذْهَبُون الآنَ إلى ديار ثَمودَ للاطِّلاع على قُوَّتهم، والاعتِبار بصَنْعتهم على خطَأ عظيم؛ لأنهم لم يَسيروا في الأرض السير الذي أمَر الله به، بل ساروا في الأرض السير الذي نَهى عنه رسول الله -صلى الله عليه وعلى آله وسلم-، فقد قال النبيُّ عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ: «**لَا تَدْخُلُوا عَلَى هَؤُلَاءِ المُعَذَّبِينَ، إِلَّا وَأَنْتُمْ بَاكُونَ أَنْ يُصِيبَكُمْ مَا أَصَابَهُمْ، فَإِنْ لَمْ تَكُونُوا بَاكِينَ فَلَا تَدْخُلُوا عَلَيْهِمْ**»(١).

فَمَن الذي يَذهَب الآنَ إلى دِيار ثَمودَ، يَقِفُ يُشَاهِدُ آثارَهم وهو يَبكِي؟

الجواب: لا أحَدَ، إلَّا مَن هَداه الله عَزَّوَجَلَّ وتَبيَّن له الحَقُّ، وإلَّا فإنهم يَذهَبون يَتفرَّجون، والعجَب أنَّ بعض الجُهَّال منا يَرَوْن أنَّ هذا من الآثار المُحترَمة، فيُقال: سُبحانَ الله!! الآثار المُحترَمة! أيُّها الجُهَّال! بل هي الكِتاب والسُّنَّة، آثار الوَحْي، أمَّا آثار المُكذِّبين للرُّسُل فليسَتْ مُحترَمة.

ثُم هل هي آثار آبائِكم وأجدادكم؟! آثار قوم فَنُوا وأَعقَبهم أناسٌ، ثم أناسٌ، ثُم قُرون كثيرة. لكن هذا من الجَهْل والتَّقليد الأعمى، الذي يَجعَل القوم يَتعلَّقون بالآثار المادِّيَّة دون الآثار المَعنَوية.

وإن قال قائِل: هل العِبْرة الإنسان إذا دخَل في مَكان كل قَوْم أُهلِكـوا، أم أن الكُفَّار الذين لم يَتِمَّ عَذابُهم كذلك؟

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب المغازي، باب نزول النبي ﷺ الحِجر، رقم (٤٤١٩)، ومسلم: كتاب الزهد والرقائق، باب لا تدخلوا مساكن الذين ظلموا أنفسهم، رقم (٢٩٨٠)، من حديث ابن عمر رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا.

فالجَوابُ: لا المُراد الذين أُهلِكوا.

والإنسان الذي ذهَب ليَأخُذ العِبْرة لا شَكَّ أنه سيَتَأثَّر، لكن أكثَر الناس -أو كثير من الناس- يَذهَبون ليَعتَبِروا بما عِندهم من القُوَّة، لا بأَخْذ الله لهم.

فإن قال قائِل: هل قُرَى قَوْم لُوط مِثل قُرى ثَمودَ وعادٍ في عدَم جَواز زِيارَتها؟

فالجوابُ: العُلَماء يَقولون: لا فَرْقَ، كل شيء تَذهَب ليَتبيَّن لك آثارُهم وقُوَّتُهم وتُعجَب بهذه القوَّةِ فهو لا يَجوز. أمَّا قول الله تعالى: ﴿وَإِنَّكُمْ لَتَمُرُّونَ عَلَيْهِم مُّصْبِحِينَ ۝١٣٧ وَبِٱلَّيْلِ﴾ [الصافات:١٣٧-١٣٨]، هذه حِكاية عن شيء واقِع، كما قال الرَّسولُ -صلى الله عليه وعلى آله وسلم-: «لَتَتَّبِعُنَّ سَنَنَ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ»[(١)] هل مَعنى ذلك أنَّ الرسول -صلى الله عليه وعلى آله وسلم- يُفسِح لنا المَجال؟ أَخبَر عنه أنه واقِع أو سيأْتي، كما أَخبَر عن المَرأة تَذهَب من صَنْعاءَ إلى حَضرَموت لا تَخشَى إلَّا الله[(٢)].

الْفَائِدَةُ الثَّالِثَةُ: أنَّ عاقِبة الذين كانوا من قَبْلهم عاقِبة سَيِّئة؛ لقوله: ﴿كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ كَانُواْ مِن قَبْلِهِمْ﴾ إلى قوله: ﴿فَأَخَذَهُمُ ٱللَّهُ﴾.

الْفَائِدَةُ الرَّابِعَةُ: أنَّ هَؤلاءِ الذين كانوا من قَبْلهم كانوا أَشَدَّ مِنهم قُوَّة في الأبدان، وقُوَّة في الصناعة، وقُوَّة في الآثار، ومع هذا لم تَمنَعْهم قُوَّتهم هذه من أَخْذ الله لهم.

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب أحاديث الأنبياء، باب ما ذكر عن بني إسرائيل، رقم (٣٤٥٦)، ومسلم: كتاب العلم، باب اتباع سنن اليهود والنصارى، رقم (٢٦٦٩)، من حديث أبي سعيد الخدري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٢) أخرجه البخاري: كتاب المناقب، باب علامات النبوة في الإسلام، رقم (٣٥٩٥)، من حديث عدي بن حاتم رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، بلفظ: «لترين الظعينة ترتحل من الحيرة حتى تطوف بالكعبة لا تخاف أحدًا إلا الله». وأخرجه البخاري: كتاب المناقب، باب علامات النبوة في الإسلام، رقم (٣٦١٢)، من حديث خباب بن الأرت رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ بلفظ: «والله ليتمن هذا الأمر حتى يسير الراكب من صنعاء إلى حضرموت لا يخاف إلا الله أو الذئب على غنمه».

الْفَائِدَةُ الخَامِسَةُ: أن قُوَّة الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى فوقَ كلِّ قوَّة، فإنه قال: ﴿كَانُوٓاْ هُمْ أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً﴾ ومع ذلك أَخَذَهم الله عَزَّ وَجَلَّ ذلك؛ لأن الله تعالى إذا أَراد شيئًا قال له: كُنْ. فيكون، لا يَحتاج إلى أَحَد يُساعِده، ولا يَحتاج إلى صُنْع قَنابِلَ أو مَدافِعَ، بل: كُن فيكون، انظُروا إلى عاد افتخَروا بقُوَّتهم، فأَهلَكهمُ الله تعالى بأَلطَف الأشياء سخَّر عليهم الرِّيح، ولم يُسخِّرْها لهم، بل سخَّرَها عليهم، والرِّيح من أَلطَف الأشياء، فدَمَّرَتهم ﴿تُدَمِّرُ كُلَّ شَىْءٍۭ بِأَمْرِ رَبِّهَا فَأَصْبَحُواْ لَا يُرَىٰٓ إِلَّا مَسَٰكِنُهُمْ﴾ [الأحقاف:٢٥]، حتى كانوا كأَعْجاز نَخْل خاوِية.

يَقولون: إن الرِّيح تَحمِل الواحد منهم حتَّى يَكون في عَنان السماء، ثُم تَرُدُّه إلى الأرض؛ فيَنقَلِبُ مُنحنِيًا كأَنَّه عَجُز نَخْل خاوِية، وأَعجاز النَّخيل إذا رأَيْتُموها تَجِدون النَّخْل قد تَقوَّست.

هؤلاء الذين كانوا أَشِدَّاءَ أَقوياءَ يَقِفون على أقدامهم، أَصبَحوا كأنهم أَعجاز نَخْل خاوِية، والآية الثانية ﴿كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ مُّنقَعِرٍ﴾ [القمر:٢٠].

وهذا فِرعونُ قال لقومه: ﴿يَٰقَوْمِ أَلَيْسَ لِى مُلْكُ مِصْرَ وَهَٰذِهِ ٱلْأَنْهَٰرُ تَجْرِى مِن تَحْتِىٓ أَفَلَا تُبْصِرُونَ﴾ [الزُّخرُف:٥١] أَهلَكه الله بأن أَخرَجه من مِصرَ التي كان يَفتَخِر بها باختِياره، خرَج مُختارًا، بل خرَج وكأنه غانِم، كأنه رابِح في المَعركة، ثُم أَهلَكه الله بجِنْس ما يَفتَخِرُ به، أَهلَكه بالماء؛ ليَتبَيَّن أنَّ القُوَّة قُوَّة الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى وأنَّ الله أَشَدُّ من هَؤُلاء قُوَّة.

الْفَائِدَةُ السَّادِسَةُ: أنَّ الله تعالى إذا أَراد بقَوْم سوءًا فلا مَرَدَّ له؛ لقوله: ﴿وَمَا كَانَ لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مِن وَاقٍ﴾ [غافر:٢١]، وقد بيَّن الله ذلك صَريحًا في قوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنفُسِهِمْ ۗ وَإِذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِقَوْمٍ سُوٓءًا فَلَا مَرَدَّ لَهُۥ﴾ [الرعد:١١]، لا يَقِي

دون ما أَراد الله، لا قُصورٌ، ولا مَدافِعُ، ولا طائِراتٌ، ولا أيُّ شيء ﴿وَمَا كَانَ لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مِن وَاقٍ ﴾.

لكن مِن رحمة الله عَزَّوَجَلَّ أن أَرسَل إلينا رسولًا علَّمَنا كيف نَتوَضَّأ، وكيف نُصلِّي، ثُم يَترَتَّب على هذا الوضوءِ والصلاة مَغْفِرَةُ الذُّنوب، إذا تَوضَّأ الإنسان فإنَّ خطاياه تَخرُج مع آخِر قَطْرة من قَطْر الماء، وإذا صلَّى؛ فالصَّلواتُ الخَمْسُ مُكَفِّرَاتٌ لِمَا بَيْنَهُنَّ، وإذا تَوَضَّأَ في بَيْتِهِ وأَسْبَغَ الوُضُوءَ، وخَرَجَ إلى المَسجِد لا يُخرِجه إلَّا الصَّلاة، لم يَخُطَّ خُطوةً واحِدةً إلَّا رَفَعَ الله لَهُ بِها دَرَجَةً، وَحَطَّ عَنْه بِها خَطِيئَةً، أَحْصِ خُطواتِك من بيتك إلى المَسجِد في اليوم والليلة خمس مرَّات، كل هذا مِن فَضْل الله عَزَّوَجَلَّ ولو لا أنَّ الله هَدانا هِداية إرشاد -ونَسأَل الله تعالى أن يُتِمِّمَها بِهداية التَّوْفيق- لو لا ذلِك لهَلَكنا، ولم نَعرِف كيف نَعبُد الله، وهذا من رحمة الله، أَرسَل الرسُل للناس ليُبيِّنوا لهم.

فإن قال قائِل: هل الإنسانُ مَأْجور على خُطواته إذا جاء إلى المَسجِد، وإذا عاد منه؟

فالجَوابُ: أي نعَمْ، أمَّا إذا جاء إلى المَسجِد، فقَدْ تقدَّم، وأمَّا إذَا رَجَع ففِي قِصَّةِ صَاحِبِ الحَمَّار الذي كان بَعيدًا من المَسجِد، فقيل له: أَلا تَشتَرِي حِمارًا تَركَبه؟! فقال: يا رَسولَ الله، إني أَحتَسِب مَمشايَ إلى المَسجِد ورُجوعِي مِنْه. فقال: «**لَكَ مَا احْتَسَبْتَ**»[1]. فإِذا احتَسَب الإنسان هذا، فله ما احتَسَب.

لكن أَقول: إنه يَفوتنا كثيرًا الاحتِساب، فنُصَلِّي ونُريد أن نُؤدِّيَ الصلاة التي علَيْنا فقَطْ، لكن لا نَشعُر بأننا نَحتَسِب أَجْرها، وأننا سنَجِد أَجْر هذه الصلاةِ،

---

(١) أخرجه مسلم: كتاب المساجد، باب فضل كثرة الخُطا إلى المساجد، رقم (٦٦٣)، من حديث أبي بن كعب رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ.

أو أَجْر هذا الوُضوءِ، أو أَجْر هذه الخَطَأ، هذه تَفوتنا كثيـرًا والاحتِساب له أثَرُه، لا من جهة الثواب، ولا من جهة أنه يَحُـثُّ المَرءَ على العمَل؛ لأنَّ الإنسان إذا عمِل فجُوزِيَ يَزداد عمَلًا؛ لكن إذا عمِل على أنه فَـرْض عليه يُؤدِّيه فقَطْ صار كالذي يَقضِي الدِّين عن نفسه، فيُعطِيه الدَّائِن؛ فلِذلِك أنا أَحُـثُّ نَفْسي وإيَّاكم على هذه المَسأَلةِ، مَسأَلة الاحتِساب.

ومَعنَى الاحتِساب أن يُريد بعمَلـه الأجر والثواب، قال الله تعالى: ﴿مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِۚ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلۡكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيۡنَهُمۡۖ تَرَىٰهُمۡ رُكَّعٗا سُجَّدٗا يَبۡتَغُونَ فَضۡلٗا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضۡوَٰنٗاۖ﴾ [الفتح:٢٩]، احتَسِبِ الأَجْر من الله عَزَّوَجَلَّ، ونَسأَل الله أن يُذكِّرنا ذلك ويُعيننا عليه.

• ● ❁ ● •

الآية (٢٢)

• قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانَت تَّأْتِيهِمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَكَفَرُوا۟ فَأَخَذَهُمُ ٱللَّهُ ۚ إِنَّهُۥ قَوِىٌّ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ﴾ [غافر:٢٢].

قال الله تَبَارَكَ وَتَعَالَى: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانَت تَّأْتِيهِمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ﴾ ذلك المُشار إليه أَخْذ الله تعالى إيَّاهم بذُنوبهم، فهذه الذُّنوبُ أنه ﴿كَانَت تَّأْتِيهِمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ﴾، قال المفسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [بالمُعجِزات الظاهِرات] ﴿تَّأْتِيهِمْ رُسُلُهُم﴾ جمع رَسول، والرَّسول لكل أُمَّة كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِى كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ﴾ [النحل:٣٦]، والرُّسُل جاؤُوهم بالبيِّنات، قال المفَسِّر: [بالمُعْجِزات] والصوابُ أن يُقال: بالآيات؛ لأن الله تعالى يُعبِّر عنها هكذا: ﴿ءَايَٰتُنَا بَيِّنَٰتٍ﴾ والمُراد بالآيات ما يُؤمِن على مِثْله البشَر، وهي نَوْعان: حِسِّية ومَعنَوية وخَلْقية وخُلُقية، كلُّها آياتٌ بَيِّنات، ظاهِرة واضِحة قال النَّبيُّ -صلى الله عليه وعلى آله وسلم-: «مَا بَعَثَ اللهُ نَبِيًّا إِلَّا آتَاهُ مِنَ الْآيَاتِ مَا عَلَى مِثْلِهِ يُؤْمِنُ الْبَشَرُ»(١).

والحِكْمة من هذه الآياتِ أنَّ البشَر لا يُمكِن أن يَقبَلوا دعوةً من شخص عاش بينهم، يَعرِفونه فيَأتِي ويَقول: إنَّه نَبيٌّ أو إنه رَسول، فلا بُدَّ من آيات تَدُلُّ على صِدْقه،

(١) أخرجه البخاري: كتاب الاعتصام، باب قول النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «بعثت بجوامع الكلم»، رقم (٧٢٧٤)، ومسلم: كتاب الإيمان، باب وجوب الإيمان برسالة نبينا محمد صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إلى جميع الناس، رقم (١٥٢)، من حديث أبي هريرة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ.

وكما قلتُ لكم إنَّ الآياتِ نَوْعان: آياتٌ مَعنَوية: وهي ما يَتَضمَّنه الوحيُ الذي جاء به هَؤلاءِ الرُّسُل، وآيات حِسِّية: وهي ما يَظْهَرُ من خَوارِق العادات؛ ولهذا قيل في تَعريف الآية: إنها أَمرٌ خارِقٌ للعَادَةِ يُظهِره الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى على يَدِ الرسول تأييدًا له.

هذه الآياتُ قال العُلَماء -أَعنِي: الآياتِ الحِسِّيَّةَ-: إنها تَكون مُناسِبة للوَقْت الذي بُعِث فيه الرَّسول، واستَشْهَدوا لذلك بأن موسى عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ أُعطِيَ آياتٍ سِحْريةً؛ أي: تُشبِه السِّحْر، لكنها أَقوَى منه تَغلِبه؛ فيَضَع العصا -وهي من خشَب- على الأرض فتَنقَلِب حيَّةً تَسرَح، ويُدخِل يَدَه في جيبه فتَخرُج بَيضاءَ تَلوح من غير عَيْب، أي: من غَيْر برَصٍ؛ وهذا لأنه في وَقْته كان للسِّحْر طَوْر عالٍ مُرتَفِع، فجاء بآيات تَغلِب ذلك السِّحرَ، ويَظهَر هذا حينما اجتَمَع مع السَّحَرةِ في اليوم الذي وعَدهم فيه، فأَلقَوْا حِبالهم وعِصِيَّهم، حتى خُيِّل إليه من سِحْرهم أنها تَسعَى، فأَوْجَس في نفسه خِيفةً مُوسى، فقال له الله تعالى: ﴿لَا تَخَفْ﴾ وأَمَره أن يَضَع العصا، فوَضَعها، فإذا هي حَيَّة تَلقَفُ ما يَأفِكون.

ثُم عِيسَى ابنُ مَريمَ بُعِث في زمَن تَرقَّى فيه الطِّبُّ تَرقِّيًا عظيمًا بالِغًا؛ فجاء بأَمْرٍ يَعجِزُ عنه الأطِبَّاء، يُبرِئ الأكمَه والأَبرَص بإِذْنِ الله، ويُحيِي المَوْتى بإِذْن الله، بل يُخرِج المَوْتى من قُبورهم بإِذْن الله، يَقِف على صاحِب القَبْر ويُخاطِبه فيَقول: اخرُجْ. فيَخرُج، وهذا أَعظَمُ من الطِّبِّ الذي أَتَوْا به.

أَمَّا مُحمَّد عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ فقد بُعِث في وَقْت بلَغت فيه البلاغة أَوَجها، وصار النَّاسُ يَتَفاخَرون أيُّهم أَبلَغُ؛ فيَأتِي الشُّعَراء، ويَأْتِي الخُطَباء إلى أسواق الجاهِلية عُكاظ وغيرِه، يَتَبارَوْن في أشعارهم وخُطَبهم؛ فجاء هذا القُرآنُ قاضِيًا عليها كلها، وأَعجَزَهم، وعجَزوا عن أن يَأْتوا بآية منه، مع أنهم هُمْ أُمَراءُ البلاغة.

المُهِمُّ: أنه لا بُدَّ لكل نَبيٍّ من آية يُؤمِن على مِثْلها البَشَر؛ لأنَّ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى حكيمٌ ورحيمٌ؛ حَكيم لا يُرسِل شخصًا إلى الناس يَقول: أنا رَسولٌ. بدون بيِّنة، ورحيم حيث أَيَّدَ هؤلاءِ الرُّسُلَ بالآيات من وَجْه، ورحِمَ الخَلْق فجعَل مع الرُّسُل آياتٍ؛ من أَجْل أن تكون حُجَّة الرُّسُل مَقبولة لدَيْهم.

قوله: ﴿تَأْتِيهِمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَكَفَرُوا۟﴾ الفاء عاطِفة، وتَدُلُّ على مُبادَرة هؤلاء بالكُفْر، وأنهم لم يَتأمَّلوا ولم يَنظُروا، وجه ذلك أنَّ الفاء تَدُلُّ على التَّرتيب والتَّعقيب، ﴿فَكَفَرُوا۟﴾؛ أي: بالرُّسُل وبالبيِّنات التي جاؤُوا بها، ﴿فَأَخَذَهُمُ ٱللَّهُ﴾؛ أي: أَهلَكهم، ﴿إِنَّهُۥ قَوِىٌّ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ﴾ أَهلَكهم الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى بعامة إلَّا مَن آمَنَ.

ثُم بيَّنَ أنَّ هذا الأَخْذَ شديد؛ لقوله: ﴿إِنَّهُۥ قَوِىٌّ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ﴾ قوِيٌّ أزَلًا وأبَدًا، فلم يَسبِق قوَّته ضَعْف، ولا يَلحَقها ضَعْف، أمَّا البَشَر فإنَّهم ضُعَفاءُ أوَّلًا ونِهايةً، ومُنتَهى قُوَّتهم أيضًا ليس بشيء، حتى وإن بلَغ الإنسان أَشُدَّه وبلَغ غاية قوَّتِه، فإنه ليس بشيء، أمَّا الرَّبُّ عَزَّوَجَلَّ فإنه قوِيٌّ أزَلًا وأبَدًا.

﴿شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ﴾ هذا من باب إضافة الصِّفة إلى مَوْصوفها، المَعنَى عِقابه شَديد، الشديد يَعنِي: الصُّلْب القوِيُّ الذي تحَصُل آثاره على مَن عُوقِب.

من فوائد الآيةِ الكريمةِ:

الْفَائِدَةُ الأُولَى: بيانُ سبَب إهلاك الأُمَم، وأنَّ ذلك بذُنوبهم؛ لقوله: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانَت تَّأْتِيهِمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ﴾.

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَةُ: إثبات عَدْل الله عَزَّوَجَلَّ وأنَّه لا يُؤاخِذ أحَدًا بدون ذَنْب؛ لقَوْله: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانَت تَّأْتِيهِمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ﴾.

الْفَائِدَةُ الثَّالِثَةُ: أنَّه ما من أُمَّة خلَتْ إلَّا وقد جاءَتْها رُسُلها؛ لقوله: ﴿كَانَت تَّأۡتِيهِمۡ رُسُلُهُم بِٱلۡبَيِّنَٰتِ﴾ كُلُّ أُمَّة جاءَها نَذيرٌ وجاءَها رَسولٌ أَنذَرها وبَيَّن لها، وقد أَقرَّت هذه الأُمَمُ بذلك، قال الله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ في سورة المُلْك: ﴿كُلَّمَآ أُلۡقِيَ فِيهَا﴾ أي: في النار ﴿فَوۡجٞ سَأَلَهُمۡ خَزَنَتُهَآ أَلَمۡ يَأۡتِكُمۡ نَذِيرٞ ۝٨ قَالُواْ بَلَىٰ قَدۡ جَآءَنَا نَذِيرٞ فَكَذَّبۡنَا وَقُلۡنَا مَا نَزَّلَ ٱللَّهُ مِن شَيۡءٍ إِنۡ أَنتُمۡ إِلَّا فِي ضَلَٰلٖ كَبِيرٖ﴾ [المُلك:٨-٩] ثُم قالوا: ﴿لَوۡ كُنَّا نَسۡمَعُ أَوۡ نَعۡقِلُ مَا كُنَّا فِيٓ أَصۡحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ﴾ [المُلك:١٠].

وقال تعالى: ﴿وَإِن مِّنۡ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٞ﴾ [فاطر:٢٤]، وهذا من تَمام رحمة الله عَزَّوَجَلَّ وحِكْمته أَنْ أَرسَل الرُّسُل مُبشِّرين ومُنذِرين؛ لئَلَّا يَكون للناس على الله حُجَّة بعد الرُّسُل، ولأَجْل مَصْلَحة الخَلْق، نحن لولا رَسولِ الله عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ أَرسَله الله إلينا، لا نَعرِف كيف نَتوضَّأ، لا نَعرِف كيف نُصلِّي.

الْفَائِدَةُ الرَّابِعَةُ: أنَّ الرُّسُل عليهم الصلاة والسلام بُعِثوا بالآيات البَيِّنة الظاهِرة.

الْفَائِدَةُ الخَامِسَةُ: إقامة الحُجَّة على الخَلْق بإِرْسال الرُّسُل أوَّلًا، ثُمَّ بتَأْييدهم بالآيات البيِّنات، التي لا تَدَعُ مجالًا للشَّكِّ أو للإنكار.

الْفَائِدَةُ السَّادِسَةُ: أنَّ هؤلاء الذين وصَل إليهم، لم يَشكُروا النِّعْمة، بل بادَروا بالكُفْر والتَّكذيب.

الْفَائِدَةُ السَّابِعَةُ: أنه لو تَأمَّل العاقِل ما جاءَت به الرُّسُل، ما أدَّى ذلك إلى كُفْره؛ لكنَّ غالب المُكذِّبين للرُّسل يُبادِرُون بالتكذيب، قال الله تعالى: ﴿وَنُقَلِّبُ أَفۡـِٔدَتَهُمۡ وَأَبۡصَٰرَهُمۡ كَمَا لَمۡ يُؤۡمِنُواْ بِهِۦٓ أَوَّلَ مَرَّةٖ وَنَذَرُهُمۡ فِي طُغۡيَٰنِهِمۡ يَعۡمَهُونَ﴾ [الأنعام:١١٠].

الْفَائِدَةُ الثَّامِنَةُ: إثْبات الأسباب، وأنَّ الله تعالى ربط المُسبَّبات بأسبابها، وهذا

يَدُلُّ على تَمام حِكْمَة الله، وأنه عَزَّوَجَلَّ لم يَفعَل شيئًا عبثًا، ولا لُمجَرَّد المَشيئة، خِلافًا لمَن قال من الجَبْرية وغيرهم: إنَّ الله تعالى يَفعَل ما يَشاء لُمجرَّد المَشيئة، وليس لِحِكْمة. وأَنكَروا حِكْمة الله، وقالوا: إنَّ الحِكْمة تَقتَضي النَّقْص. وهذا من غَرائِب الأفهام، الحِكْمة تَقتَضي النَّقْص!! قالوا: نعَمْ؛ لأن الحِكْمة غرَض، فإذا فعَل لكذا، فإنه مُحتاجٌ لهذا الغرَضِ!!

فيُقال لهم: تبًّا لكم ولأفهامِكُم، الحِكْمَةُ هي غايةُ الحُكْم؛ أي: أنَّ الحِكْمَة أكبرُ ما يَدُلُّ على البُعْد عن السَّفَه واللَّعِب، وأمَّا قولُكم: إنَّ الحِكْمة غرَض؛ فإذا قُلتُمْ: إن الله فعَل كذا لكذا. لزِم من ذلك أن يَكون الله مُحتاجًا إليه، فيُقال: الحِكْمة التي يَشرَع الله الشرائِعَ من أَجْلها لا تَعود إلى نَفْسه، إلَّا من حيثُ الكمال فقَطْ، أمَّا المَصلَحة فالذي يَنتَفِع بها الخَلْق، أمَّا الله عَزَّوَجَلَّ فإنَّ حِكْمَته لا تَعُود إليه بشيء سِوى بيان كَمال صِفاته عَزَّوَجَلَّ.

الْفَائِدَةُ التَّاسِعَةُ: إثبات القَويِّ اسمًا من أسماء الله، وهو من الأسماء اللَّازِمة، وعلى هذا لا بُدَّ من إثباته وإثبات ما دلَّ عليه من الصِّفة وهي القوَّة.

الْفَائِدَةُ الْعَاشِرَةُ: أن الله تعالى شَديد العِقاب، ولكن لمَن عَصاه.

الْفَائِدَةُ الحَادِيَةَ عَشْرَةَ: التَّحذير من مُخالَفة الله؛ لأنَّه قوِيٌّ وشديدُ العِقَاب، فيا وَيحَ مَن خالَف أَمْر ربِّه؛ فإنَّه سيَتعرَّض لشِدَّة العَذاب من ذي قُوَّة لا يَلحَقها ضَعْف ﴿إِنَّهُۥ قَوِىٌّ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ﴾.

الآيتان (٢٣، ٢٤)

قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِـَٔايَـٰتِنَا وَسُلْطَـٰنٍ مُّبِينٍ ﴿٢٣﴾ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَهَـٰمَـٰنَ وَقَـٰرُونَ فَقَالُوا۟ سَـٰحِرٌ كَذَّابٌ﴾ [غافر:٢٣-٢٤].

الجُمْلة هذه مُؤكَّدة بعِدَّة مُؤكِّدات: القسم المقدَّر، واللام، و(قَدْ)، والتقدير: «واللهِ لَقَد».

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِـَٔايَـٰتِنَا وَسُلْطَـٰنٍ مُّبِينٍ﴾ مُوسى هو ابن عِمرانَ، أفضَلُ أنبياء بني إِسرائيلَ، وأعظَمُهم وأشَدُّهم، وهو من أشَدِّ الأنبياء وأقواهم، ويَدُلُّك على ذلك ما فعَله قبل النُّبوَّة، وما فعَله بعد النُّبوَّة.

فقبل النُّبوَّة مَرَّ برجُل من قومه يُخاصِم رجُلًا من عَدوِّه؛ فوكَزه موسى فقَضى عليه، وهذا يَدُلُّ على قوَّته وشِدَّته.

وبعد النُّبوَّة لـمَّا رجَع ورأَى أنهم أشرَكوا بالله غضِب غضَبًا شديدًا؛ فألقى الألواح التي كتَبَ الله بها التَّوراة، ألْقاها قال بعضُهم: فتكسَّرت؛ قال تعالى: ﴿وَأَلْقَى ٱلْأَلْوَاحَ وَأَخَذَ بِرَأْسِ أَخِيهِ﴾ [الأعراف:١٥٠] هارونَ وهو نَبيٌّ من الأنبياء مُشارِك لموسى في النُّبوَّة، ورَسولٌ؛ ألَـمْ يَقولا لفِرعونَ: ﴿إِنَّا رَسُولُ رَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ﴾ [الشعراء:١٦]، أخَذ برَأْس أخيه يجُرُّه إليه، فقال: ﴿يَبْنَؤُمَّ لَا تَأْخُذْ بِلِحْيَتِى وَلَا بِرَأْسِىٓ إِنِّى خَشِيتُ أَن تَقُولَ فَرَّقْتَ بَيْنَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ وَلَمْ تَرْقُبْ قَوْلِى﴾ [طه:٩٤]، ﴿وَلَمَّا سَكَتَ

عَن مُّوسَى ٱلْغَضَبُ أَخَذَ ٱلْأَلْوَاحَ﴾ [الأعراف:١٥٤]، هذا أيضًا يَدُلُّ على قوَّتِه وشِدَّته عَلَيهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ، وهذا من الحِكْمة؛ لأنَّه أُرسِل إلى أعتى أهل الأرض، وهو فِرعونُ؛ ولـهذا قابَله بالقُوَّة؛ قال له: ﴿قَالَ لَقَدْ عَلِمْتَ مَآ أَنزَلَ هَٰٓؤُلَآءِ إِلَّا رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ بَصَآئِرَ وَإِنِّى لَأَظُنُّكَ يَٰفِرْعَوْنُ مَثْبُورًا﴾ [الإسراء:١٠٢].

وهذه قوَّة تَدُلُّ على قوَّتِه عَلَيهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ، أَرْسَله الله تعالى أيضًا إلى قَوْم عُتاة، وهم بنو إسرائيلَ، ولهذا لا يُوجَد شَعْب من الشُّعوب فيما نَعلَم مثل بني إسرائيلَ في العُتوِّ والنُّفور والاستِكْبار، إلى حدٍّ أنه لَمَّا كُتِب عليهم القِتال قالوا لموسى: ﴿فَٱذْهَبْ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَٰتِلَآ﴾ [المائدة:٢٤]، ولَيْتَهم اقتصَروا على ذلك ﴿فَقَٰتِلَآ إِنَّا هَٰهُنَا قَٰعِدُونَ﴾ سنَقعُد على الفُرُش ولا نَتحرَّك، وأنت وربُّك اذهَبْ فقاتِلا ﴿فَٱذْهَبْ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَٰتِلَآ إِنَّا هَٰهُنَا قَٰعِدُونَ﴾.

فلهذا كان من الحِكْمة أن يَكون هذا الرَّسولُ على هذا النَّحوِ من الشِّدَّة؛ لِمُناسَبة مَن أُرْسِلَ إليهم من فِرعونَ وبني إسرائيلَ.

فإن قال قائِلٌ: إذا ورَد بنو إسرائيلَ في القُرآن على سبيل التَّكريم أو ليس على سبيل الذَّمِّ، وإذا ورَد اليَهود فإنه على سَبيل التَّقريع وعلى سبيل الذَّمِّ. فهل هذا مُطَّرِد في القُرآن؟

فالجَوابُ: لا، ليس بصَحيح، الله يَذكُر بني إسرائيلَ بذُنوبهم ويَذُمُّهم ﴿لُعِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنۢ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾ لم يَقُلْ: من اليهود. ﴿يَٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتِىَ ٱلَّتِىٓ أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَنِّى فَضَّلْتُكُمْ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [البقرة:٤٧]، وآيات كثيرة.

وقوله: ﴿بِـَٔايَٰتِنَا وَسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ﴾ «آياتنا» جَمْع، تَدُلُّ على أنَّ مَعَهُ آياتٍ مُتعدِّدَةً

وهو كذلك، قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَىٰ تِسْعَ ءَايَـٰتٍۭ بَيِّنَـٰتٍ ۖ فَسْـَٔلْ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ إِذْ جَآءَهُمْ﴾ [الإسراء:١٠١] إلى آخِره، فهو أُوتِي آياتٍ أَعظَمُها وأَشَدُّها وأبينُها حِسًّا آية العصا؛ فإنَّها من آياتِ الله الحِسِّيَّة العَجيبة الغَريبة، عصًا يَهُشُّ بها على غنمه، وله فيها مَآرِبُ أخرى، ويَتوَكَّأ عليها، إذا أَلْقاها صارَت حيَّة عَظيمة تَلقَف كل ما عمِلوا، وإذا حمَلها عادت عَصًا، وإذا ضَرَب بها الحجَر تَفجَّر ماءً.

هذه العَصا آية من آيات الله عَزَّوَجَلَّ، تَأمَّلِ الآنَ وتَفكَّر مدَى كثرة العِصيِّ والحِبال التي أَلقاها السحَرة وتَنوُّعها، ثُم أَلْقى هذه العصا فصارت تَلقَف كل ما تَعثُر عليه، وأنا أَتعجَّب أين البَطْن الذي يَسَعُ كلَّ هذه الأشياءِ، نعَمْ؛ لكن آيات الله تُبهِر العُقول، وإلَّا فتَقول: كيف أنَّها حَيَّة بمِقدار العَصا تَلقَف كلَّ ما أَفِكوا من الحِبال والعِصيِّ، أين تَذهَب؟! نَقول: لا تَسأَل أين تَذهَب، أنت صدِّق وآمِنْ بهذا، وكيف تَذهَب إلى الله عَزَّوَجَلَّ، ولا مانِعَ من أن تكون هذه الأشياءُ إذا مَضَغَتْها صارت الشيءَ الكبير شيئًا صغيرًا.

فائِدةٌ: التِّسع الآيات التي أُرسِل بها موسى هي: العَصا، واليَد يُدخِلها في جَيْبه، والطُّوفان، والجَراد، والقُمَّل، والضَّفادِع، والدَّم، وانفِلاق البَحْر، والسِّنون ونَقْص من الثَّمَرات، وبعضُهم قال: ضَرب الحَجَر بالعَصا فيَتفجَّر.

أمَّا لبني إسرائيلَ فيَدخُل فَلْق البَحْر، وكذلك انفِجار الماء من الحَجَر، لكِنَّ هذه الثِّنْتَين ليست لآل فِرْعونَ، فآل فرعونَ آيتهم السِّنون ونَقْص من الثَّمَرات، بالإضافة إلى السَّبْع السابِقة.

فإن قال قائِل: يَستَخدِم بعضُ عُلماء الجَرْح والتَّعديل إذا تكلَّموا في رجُل يَقولون: هذا الرجُلُ كعصا مُوسى، تَلقَف ما يَأفِكون. وبعض الإِخْوان يَمزَح بها

فيقول للآخَرِ: أنت كعَصا موسى تَلقَف ما يَأفِكون. فهل يَصِحُّ هذا؟

فالجَوابُ: أنا أَرَى أنه حتَّى المُحدِّثـون يَقولون هذا -نَسأَل الله لهم العَفـوَ- لا يَنبَغي أن يَقولوا هكذا؛ لأنه يُخشَى أن تُستَعمَل استِهْـزاءً، وإن كان المُحدِّثـون لا يُريدون هذا إطلاقًا، فالأَوْلى أنْ يُقال: هذا الرَّجُلُ مِثل آية، وهذا الرجُل واسِع الاطِّلاع، وهذا الرجُلُ واسِع العِلْم، وما أَشبَه ذلك.

وكذلك أيضا مَن يَقول: فُلان يَملِك عصا موسى السِّحرية. فهذا أيضًا لا يَجوز، هذا أَشَرُّ، لأنَّ قوله: عصا موسى السِّحْرية. يَعنِي: أنَّ ما جاءَ به سِحْرٌ، وهذا خَطير.

وقد أَرسَل الله موسى بآياتِنا وسُلْطان مُبين، والسُّلْطان كل ما يَكون للإنسان به سُلْطة؛ أي: حُجَّة وقُوَّة، ويَختَلِف باختِلاف السِّياق؛، فالسُّلْطان في كل مَوْضِع بحَسَبه، فالسُّلْطان بالنِّسبة للأَبِ مع أولاده في التأديب سُلْطان ضَرْب، والسُّلْطان فيمَن دُعُوا إلى الله عَزَّوَجَلَّ سُلْطان بيان، والسُّلْطان أيضًا فيمَن جُودِل سُلطان حُجَّة، وهو يَختَلِف باختِلاف المَواضِع.

المُهِمُّ: أنه ما كان فيه سُلْطة على الغير فهو سُلْطان.

وقوله: ﴿مُّبِينٍ﴾ يُحتَمَل أن تَكون من اللَّازِم ويُحتَمَل أن تَكون من المُتعدِّي، وذلك أنَّ أَبَانَ الرُّباعيَّ يَكون لازِمًا ويَكون مُتعدِّيًا، فتَقول: أَبَنْتُ له الحَقَّ. وتَقول: أَبانَ الصُّبح؛ أي: بانَ وظَهَر، فهي رُبَاعِيَّةٌ صَالحَةٌ للتَّعدِّي واللُّزوم.

فإن قال قائِل: كيف يَكون فِعلًا واحِدًا صالحًا للتَّعدِّي واللُّزوم؟

قلنا: نعَم يَصْلُح، اللُّغة العربية واسِعة، فمثلًا: «رَجَعَ» فِعْل ماضٍ ثلاثيٌّ، يَكون لازِمًا ويَكون مُتعدِّيًا، قال تعالى: ﴿يَقُولُونَ لَئِن رَّجَعْنَآ إِلَى ٱلْمَدِينَةِ﴾ [المنافقون:٨]،

هذا لازِم، وقال تعالى: ﴿فَإِن رَّجَعَكَ ٱللَّهُ إِلَىٰ طَآئِفَةٍ مِّنْهُمْ﴾ [التوبة:٨٣]، هذا مُتعَدٍّ، فلا مانِعَ من أن يَكون الفِعْل الواحِد لازِمًا في سِياق ومُتعدِّيًا في سِياق آخَرَ، ومن ذلك «أَبانَ».

فهل قوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿وَسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ﴾ مَعناها بيِّن، أو مُبين مُظهِر للحَقِّ؟ نَنظُر أيُّهما أَبْلَغُ البيِّن في نَفْسه، أو المُبين لغَيْره؟

الجوابُ: الثاني؛ لأنَّ المُبين لغيره لا بُدَّ أن يَكون بيِّنًا في نفسه، وعلى هذا فكلِمة ﴿مُّبِينٍ﴾ من المُتعدِّي، تكون أَشمَلَ وأَوسَعَ مَعنًى، وما كان أَوسَعَ وأَشمَلَ مَعنًى فإنه يُؤخَذ به، ولا نَقول: يُترَك الثاني؛ لأنَّ الثانيَ داخِل في الأوَّل.

من فوائد الآية الكريمة:

الْفَائِدَةُ الأُولَى: تأكيد رِسالة موسى عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ بالمُؤكِّدات الثلاثة التي ذكَرْناها آنِفًا. ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَآ﴾.

ويَتفرَّع على هذه الفائِدةِ: إقامة الحُجَّة على بني إسرائيلَ، الَّذين كفَروا واعتَدَوْا مع أنَّ الله قد أَرسَل إليهم هذا الرسولَ الكَريمَ.

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَةُ: أنَّ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ يُكرِّر ذِكْر قِصَّة موسى، ويَبسُطها تارَةً، ويَختَصِرها تارَةً، ويُنوِّعها، فهي جمَعَت بين الكَثْرة والتَّنويع من حيث الأُسلوب، والتَّنويع من حيثُ البَسْط والاختِصار؛ لأنَّ النبيَّ ﷺ عاش في قوم مُشرِكين أوَّل الرِّسالة، وفي قوم يَهود بعد الهِجْرة؛ ولهذا جاءَتِ السُّوَر المَكِّية يُذكَر فيها قِصة موسى ببَسْط واختِصار تارة؛ لأَجْل أَنْ يَتهيَّأ النَّبيُّ -صلى الله عليه وعلى آله وسلم- لمُجادَلة اليَهود الذين سَتكُون الهِجرة إلى بلَدٍ هُم سَاكِنون فيه؛ ولهذا لا تَجِد قِصَّة نبيٍّ مثل قِصة مُوسى عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ لا في تَنوُّعها، ولا في تكرارها، ولا في أُسلوبها.

الْفَائِدَةُ الثَّالِثَةُ: فَضيلة موسى ﷺ وذلك بما أكرَمه الله به من الرِّسالة.

الْفَائِدَةُ الرَّابِعَةُ: أنَّ موسى ﷺ أُوتِيَ آياتٍ، وبيَّن الله تعالى في آية أُخرى أنها ﴿تِسۡعَ ءَايَٰتِۭ﴾.

الْفَائِدَةُ الخَامِسَةُ: أنَّ موسى أُوتِيَ سُلْطانًا؛ أي: سُلْطة وقوَّة في إقامة الحُجَّة، وفي غير ذلك؛ لقوله: ﴿وَسُلۡطَٰنٖ مُّبِينٍ﴾، وإذا أَرَدْت أن تَعرِف شيئًا من سُلْطانه الذي آتاه الله، فانظُر إلى مُحاوَرتِهِ في سورة الشُّعَراء مع فِرعونَ، حيثُ أَلجمه وأَلقَمه حجَرًا، وفي النِّهاية تَوعَّده بالقوَّة؛ فقال فِرعونُ: ﴿لَئِنِ ٱتَّخَذۡتَ إِلَٰهًا غَيۡرِي لَأَجۡعَلَنَّكَ مِنَ ٱلۡمَسۡجُونِينَ﴾ [الشعراء:٢٩]، هذه كلِمة إرهاب، ﴿لَأَجۡعَلَنَّكَ مِنَ ٱلۡمَسۡجُونِينَ﴾ أشَدُّ إرهابًا ممَّا لو قال: لأَسجُنَنَّك. كأنه يَقول: عِندي أُناسٌ سُجَناءُ كَثيرون، وأنا قادِرٌ على سَجْنك، وسأَجعَلك من بينهم، فيكون هذا أشَدَّ في الإرهاب ممَّا لو قال: لأَسجُنَنَّك.

الْفَائِدَةُ السَّادِسَةُ: ما أَشَرْنا إليه في الآية التي قبلَها أنه ما من رَسولٍ أُرْسِلَ إلَّا وأُوتِيَ آياتٍ بيِّناتٍ تَدُلُّ على صِدْقه، وهذا من حِكْمة الله، ومن رحمة الله، ويَأتِي -إن شاء الله- بَقيَّة الكَلام على القِصَّة.

وقد أكَّدَ ذلك الحَديثُ الثابِتُ عن النَّبيِّ ﷺ: «**إِنَّ اللهَ مَا بَعَثَ نَبِيًّا إِلَّا آتَاهُ مِنَ الْآيَاتِ مَا يُؤْمِنُ عَلَى مِثْلِهِ الْبَشَرُ**»(١).

ومَعنَى «مِثْله»: أي مثل الآيات التي جاء بها، عدَدًا وكَيْفيةً؛ على مِثْله يُؤمِن البَشَر، بحَسب الذي أُرسِل إليهم. يَعنِي: مَعناها أنَّ الآياتِ التي يَأتِي بها الرُّسُل

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب الاعتصام، باب قول النبي ﷺ: «بعثت بجوامع الكلم»، رقم (٧٢٧٤)، ومسلم: كتاب الإيمان، باب وجوب الإيمان برسالة نبينا محمد ﷺ إلى جميع الناس، رقم (١٥٢)، من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

يُؤمِن البَشَر على مثلها، يَعنِي: أنها آياتٌ مُقنِعة.

الْفَائِدَةُ السَّابِعَةُ: أنَّ الآياتِ سُلطانٌ وحُجَّة على مَن أُرسِلوا إليهم -أَعنِي: الرُّسُل- بدليل قوله: ﴿وَسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ﴾، وعلى هذا فيَكون عَطْف (سُلطان) على (آيات) من باب عَطْف الشيء على نفسه؛ لبَيان فائِدته وثَمَرته، فالآياتُ هي السُّلْطان.

الْفَائِدَةُ الثَّامِنَةُ: أنَّ الآياتِ لا بُدَّ أن تكون مُبيِّنة مُظهِرة للحَقِّ؛ لقوله: ﴿وَسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ﴾ ثُمَّ قال ﴿إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَهَٰمَٰنَ وَقَٰرُونَ﴾ إلى آخِره.

الْفَائِدَةُ التَّاسِعَةُ: أن الزُّعماء يَقومون مَقام الأَتْباع؛ لأنَّ الرِّسالة ليسَتْ إلى هَؤلاء الثلاثة فقَطْ؛ بل إلى آل فِرعونَ كلِّهم، لكن الأسياد يَقومون مَقام الأَتْباع.

الْفَائِدَةُ الْعَاشِرَةُ: أن العُتاة المُعانِدين للرُّسُل تَتنوَّع أسبابُ عِنادِهم ومُعارضتهم للرُّسُل، قد تَكون السلطة، وقد تَكون الوزارة، وقد يَكون المال، وقد تَكون القُوَّة البدَنية؛ ففي هذه الآيةِ ثلاثة أسباب: المُلْك، والثاني: الوَزارة، والثالث: المال. وفي عادٍ: القُوَّة البدَنية، ﴿وَقَالُواْ مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً﴾ [فُصِّلَت:١٥].

الْفَائِدَةُ الحَادِيَةَ عَشْرَةَ: مُكابَرة المُكذِّبين للرُّسُل؛ حيث قالوا لهذا الرَّسولِ الكريم: إنه ساحِر، وإنه كذَّاب.

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَةَ عَشْرَةَ: أن ما قالوه في رَدِّ الدَّعوة مُجرَّد دَعوة؛ لأنهم لم يُقيموا على دَعْواهم أيَّ دليل مُجرَّد قالوا: ﴿سَٰحِرٌ كَذَّابٌ﴾، وهذا يَلجَأ إليه الضُّعَفاء العاجِزون، إذا عجَزوا عن مُدافَعة الحُجَّة بالحُجَّة ذهَبوا إلى السَّبِّ والشَّتْم، وما أَشبَه ذلك.

الْفَائِدَةُ الثَّالِثَةَ عَشْرَةَ: أنَّ الآياتِ التي تَأتِي بها الأنبياء يَعجِز عن مِثْلها عامة

الناس؛ لقوله: ﴿سَـٰحِرٌ﴾ والساحِر مَن يَأتِي بأمور تُعجز الناس، لكن الفَرْق بين الساحِر وبين النَّبيِّ أن النَّبيَّ مُؤيَّد من عند الله عَزَّوَجَلَّ لا بِفِعْله هو، بمَعنى: أنَّ السَّاحِر هو الذي يُعَالِج الشيء حتى يَأتِيَ بالمُعجِزة، أمَّا النَّبيُّ فإن الآياتِ تَأتِيه بدون أيِّ عمَل منه، بل بإرادة الله عَزَّوَجَلَّ.

فإذا قال إنسان: إِذَنْ ما الفَرْق بين الكَرامة وآية النَّبيِّ؟

قلنا: الفَرْق بينهما أنَّ الكرامة تَأتِي لُمتَّبع النَّبيِّ، وأمَّا الآية فتَأتِي للنَّبيِّ نفسه، أي أنَّ مَن آتاه الله كَرامة من الأولياء، ليس يَقول: إنه رَسول، ولا إنه نَبيٌّ. ولكِن الله يُعطيه الكَرامة تَأْييدًا له، أو تَأْييدًا للإسلام، وفي ذلك أيضًا آيةٌ للنَّبيِّ الذي يَتبَعُه.

فإن قال قائِل: هناك مَن يَقول: إنَّ في السَّابِق كانت المُعجِزات الحِسِّيَّة خارِقة للعادة، ثُم حين تَطوَّر العقل البَشَريُّ وبلَغ أَوَجه في عهد النَّبيِّ ﷺ أَتى القُرآن؟

فالجَوابُ: هذا رُبَّما نَقول: هذا صحيح. لكن الرسول عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ محمدٌ أَتى بمُعجِزات حِسِّية، ومُعجِزات مَعنَوية، له مُعجِزات حِسِّية عَظيمة؛ انشِقاق القمَر مُعجِزة، نَبْع الماء من بين أَصابِعه[1] مُعجِزة، فَوَران الماء من البِئْر التي نضَب ماؤُها لمَّا مجَّ فيها شيئًا من فمِه[2]؛ كل هذه مُعجِزات حِسِّية.

أمَّا السِّحْر والشَّعْوذة فهو كل خارِق للعادة يَظهَر على يَدِ مُخالِف الرسول.

وقد أَنكَرت المُعتَزِلة الكراماتِ وقالت: لو أَنَّنا أَثبَتْنا الكراماتِ لاشتَبَه النَّبيُّ

(١) أخرجه البخاري: كتاب الوضوء، باب الوضوء من التور، رقم (٢٠٠)، ومسلم: كتاب الفضائل، باب في معجزات النبي ﷺ، رقم (٢٢٧٩)، من حديث أنس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٢) أخرجه البخاري: كتاب المناقب، باب علامات النبوة في الإسلام، رقم (٣٥٧٧)، من حديث البراء رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

بالوَلِيِّ، والوَلِيُّ بالساحِـر! فيُقال: هذه مُغالَطة؛ لأن النبيَّ يَقول: إنه نبيٌّ. والذي ظهَرَت كرامةٌ على يَدِه يَقول: إنه وليٌّ وليس بنَبيٍّ. والساحِر ليس نَبيًّا ولا وَليًّا، مَعروف بأنه فاسِقٌ مُخالِف للشَّرْع، فلا يُمكِن أن يَكون التِباسٌ.

فإن قال قائِل: بالنِّسبة لبعض الناس الذين يَعتَقِدون في المَشايِخ، وكذا يَقولون: إن الشَّيْخ يَنفَع ويَضُرُّ، ولكن بإِذْن الله تعالى، فنُريد رَدًّا حاسِمًا عليهم، يَقولون: هم يَنفَعون ويَضُرُّون، ولكن بإِذْن الله.

فالجَوابُ: نَقول: أين الدَّليل على أن الله أَذِنَ لهم؟ فإن قيل: الدَّليل الحِسُّ، وهو كَثْرة حُصول هذا الشيءِ. قيل: كَثْرة حُصول هذا الشيءِ إمَّا أن يَكون شيئًا يُدرِكه كل إنسان، فلا مِيزةَ للمَشايِخ مِثْل الدُّعاء يَدعو فيَستَجيب الله، وإمَّا أن يَكون شيئًا لا يُدرِكه الإنسان فهو من الشَّياطين، الشياطين تَخدُم هَؤلاءِ الشيوخ؛ لأنهم يُضِلُّون عن سبيل الله، والشَّيْطان لا يُريد منَّا إلَّا أن يُوقِع بينَنا العَداوة والبَغْضاء، ويَصُدَّنا عن ذِكْر الله فنَقـول هذا، ولا شَكَّ أنهم يُضِلُّـون العوامَّ، فيقولون: تَعالَ تُريد أن تَصير حِمارًا حصانًا، يَدعو الله عَزَّوَجَلَّ ظاهِرًا، والشَّيْطان يُحوِّل هذا الحِمارَ إلى حصان بالرُّؤْية، يعني نوع من السِّحْر نَوْع بالتَّمويه، وهُمْ يَأكُلون أموال الناس بالباطِل.

وأنا سمِعْت من بعض الجِهات في إفريقيا المَشايخ يَقولون: إنه قد رُفِع عنَّا التَّكليف، لا أَحَدَ يَصوم ولا نُصلِّي ولا نُزكِّي ولا شيء، ورُفِع عنَّا كل المُحرَّمات؛ ولهذا يَكون الواحِد منهم مثل التَّيْس يَتزوَّج خَمسين امرأةً أو أكثَر بعَقْد النِّكاح، فهو وليٌّ مَرفوعٌ عنه التَّكاليف، ويَقول: هذه التَّكاليفُ ما هي إلَّا وسائِلُ حتى تَصِل إلى الغاية، إذا وصَلت إلى الغاية بطَلَت التَّكاليفُ، كالرجُل يَتأهَّب إلى السفَر ويَركَب السَّيَّارة، أو يَأخُذ عصا الجمَل، فإذا وصَل إلى البَلَد رَماها -نَسأَل الله العافِيَة-

والشياطين تَخدُمهم، حتى ذكَر شيخ الإسلام رَحِمَهُ ٱللَّهُ[١] أن بعض الناس يَقول: إني رأَيْتك أنت في عرَفةَ، أنت يا ابنَ تيميَّةَ. وهو في الشام لم يَحُجَّ، يَقول: هذا الشَّيْطانُ يَتمَثَّل بي. يَقول: أنا ابنُ تَيميَّةَ. ويَقول للذي يجيء إليه: يَقول ابن تيميَّةَ: هذا حلال، وهذا حرام.

وقول الله تعالى: ﴿إِلَىٰ فِرْعَوْنَ﴾ مُتعلِّق بإرسالنا، وفِرعونُ هو حاكِم مِصرَ، الذي مَلَكها وسُلِّطَ على بني إسـرائيلَ؛ فكان يُقتِّل أَبناءَهُم ويَستَحيِي نِسَاءَهم، قيل: إنه كان يَفعَل ذلك من أَجْل أنه قيل له؛ أو قال له بعضُ الكَهَنة: إنه سيَكون في بني إسرائيلَ رجُل يَكون زوالُ مُلْكِك على يَدِه. هذا قول؛ وقول آخَرُ: إنه فعَل ذلك إِذْلالًا لهم وإهانةً؛ لأنَّه إذا قُتِّل الرِّجال وبقِيَت النِّساء هلكَـتِ الأُمَّةُ، وهذا القول أقوى، وذلك لأنَّ القول الأوَّل مُعتمَدُه النَّقْل عن بني إسرائيلَ، ومَعلوم أنَّ النَّقْل عن بني إسرائيلَ لا يُصدَّق ولا يُكذَّب، والمعنى المَعقول لكونه يُذَبِّح أبناءَهُم ويَستَحْيي نِساءَهم، هو إذلال هذا الشَّعبِ، وهو قِلَّةٌ بالنِّسبة للأَقْباط.

قوله: ﴿إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَهَـٰمَـٰنَ﴾ هامانُ وزيرُ فِرعونَ، وقارونُ تاجِرُ آل فِرعونَ؛ لأن قارونَ كان غنِيًّا غِنًى عظيمًا، حتى قال الله تعالى: ﴿وَءَاتَيْنَـٰهُ مِنَ ٱلْكُنُوزِ﴾ أي: من الذهَب والفِضَّة ﴿مَآ إِنَّ مَفَاتِحَهُۥ﴾ أي: الذي إن مِفاتِحه ﴿لَتَنُوٓأُ بِٱلْعُصْبَةِ أُو۟لِى ٱلْقُوَّةِ﴾ [القصص:٧٦] تَنوء يَعنِي: تَثقُل بهم؛ أي: تَثقُل العَصَبـة؛ أي: الطائِفـة من الناس الأقوياء هذه مَفاتيحه.

إِذَنْ: فالخَزائِن كثيرة وعَظيمة ﴿قَـٰرُونَ﴾ فقالوا: الضَّمير يَعـود على الثلاثة، فِرعونَ وهامانَ وقارونَ ﴿فَقَالُوا۟ سَـٰحِرٌ كَذَّابٌ﴾ ﴿سَـٰحِرٌ﴾ خبَرُ لمُبتَدأ محَذوف،

---

(١) انظر نحوه في: مجموع الفتاوى (١/ ٨٣، ١٣/ ٩٢).

قدَّره المفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ بقوله: [هو ﴿سَٰحِرٌ كَذَّابٌ ﴾].

والساحِرُ اسم فاعِلٍ من السِّحْر، وهو الذي يَسحَر الناس؛ فيُريهم الحقائق على غير ما هي عليه، وليس هو الذي يُغيِّر الحقائِق؛ لأنه لا يُغيِّر الحَقائِق إلَّا الخالِق عَزَّوَجَلَّ، لكن يُرِي الناس الحقائِق على غير ما هي عليه، مثل ما فعَل السحَرة -سحَرة آل فِرعونَ- حين أَلقَوُا الحِبال والعِصيَّ؛ فـرآها الناس وكأنها حيَّاتٌ تَسعى، وهي ليست كذلك.

هؤلاء قالوا: إن موسى ساحِر، كيف يُلقِي العصا فتكون حَيَّة؟! كيف يُدخِل يدَه فتَخرُج بَيْضاءَ من غير سوء؟! ليس هذا إلَّا سِحْر. ﴿كَذَّابٌ ﴾.

وقوله: ﴿كَذَّابٌ ﴾ أي: كاذِب فيما ادَّعى من الرِّسالة، فهو في آياته ساحِر، وفي دَعْواه كاذِب، ثُم قال: ﴿كَذَّابٌ ﴾ صيغة مُبالَغة أو نِسبة، والفَرْق بين صيغة المُبالَغة والنِّسبة أنَّ النِّسبة وَصْفٌ مُلازِم، وصيغة المُبالَغة فِعْل حادِث مُتكرِّر. فكلِمةُ النَّجَّار هذه نِسْبة، وقد تَكون صيغة مُبالَغة لكَثْرة نِجارته. وأمَّا إذا قيل: فُلان أَكَّالٌ للطعام فهذا قد لا يَكون نِسبة، ولكن لكَثْرة أَكْله سمَّيْناه بأنَّه أكَّال.

• • ۞ • •

الآية (٢٥)

• قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿فَلَمَّا جَآءَهُم بِٱلْحَقِّ مِنْ عِندِنَا قَالُواْ ٱقْتُلُوٓاْ أَبْنَآءَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ وَٱسْتَحْيُواْ نِسَآءَهُمْ ۚ وَمَا كَيْدُ ٱلْكَٰفِرِينَ إِلَّا فِى ضَلَٰلٍ﴾ [غافر:٢٥].

قال تعالى: ﴿فَلَمَّا جَآءَهُم بِٱلْحَقِّ﴾ أرسَله الله بالآيات؛ فقالوا: ساحِر كذَّاب. قال المفسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿فَلَمَّا جَآءَهُم بِٱلْحَقِّ﴾ بالصِّدْق] ﴿مِنْ عِندِنَا﴾: من عِند الله عَزَّوَجَلَّ وهو الوَحيُ، حينما قال موسى عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ: إنَّ الله هو ربُّكم، وإن الله واحِد، وما أشبَه ذلك ممَّا جرَت فيه المُحاوَرة بينه وبين فِرْعَونَ، وهذا مَذكور في سورة الشُّعَراء، وفي سورة الإِسْراء وغيرهما.

﴿فَلَمَّا جَآءَهُم بِٱلْحَقِّ﴾ الذي عجَزوا أن يُقابِلوه بالحُجَّة الداحِضة، تَوعَّد فِرعونُ موسى فقال: ﴿لَئِنِ ٱتَّخَذْتَ إِلَٰهًا غَيْرِى لَأَجْعَلَنَّكَ مِنَ ٱلْمَسْجُونِينَ﴾ [الشعراء:٢٩]، وهذا وَعيد، شيء آخَرُ قالوا: ﴿ٱقْتُلُوٓاْ أَبْنَآءَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ وَٱسْتَحْيُواْ﴾ [غافر:٢٥]، قال المفسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [استبْقوا] ﴿نِسَآءَهُمْ﴾ وعلى هذا فيكون القَتْل لأبناء بني إسرائيلَ، واستِحْياء النِّساء يَكون وقَع مرَّتَيْن؛ المرة الأُولى قبل أن يُبعَث موسى، والمرة الثانية بعد أن بُعِث.

﴿قَالُواْ ٱقْتُلُوٓاْ أَبْنَآءَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ وَٱسْتَحْيُواْ نِسَآءَهُمْ﴾؛ لئَلَّا يَبقَى لهم شَوْكة، ولتَزول هَيْبتهم؛ لأنه إذا لم يَبقَ إلَّا النِّساء فالنِّساء ضَعيفات، لا يَدفَعْن عن

أنفُسِهِنَّ، ولا يُدافِعن عن حُقوقِهن، فيَبقَى موسى وقومه على أَسوَأ حال.

ثُمَّ قال الله تعالى: ﴿وَمَا كَيْدُ ٱلْكَٰفِرِينَ إِلَّا فِى ضَلَٰلٍ﴾ قال المفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [هَلاك] (ما) نافِية، و﴿كَيْدُ﴾ مُبتَدأ، ولا يَصِحُّ أن يَكون اسمها؛ لأنَّ مِن شرط عمَل (ما) عمَلَ (ليس) أن لا يُنتَقَض النَّفيُ. قال ابنُ مالِك رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

.... مَعَ بَقَا النَّفْي وَتَرْتِيبٍ زُكِنْ[1]

فإذا انتَقَضَ النَّفيُ؛ فإنَّها لا تَكونُ عَامِلَة عمَل (ما)، وفي القُرآن الكريم كثير من هذا: ﴿مَا هَٰذَآ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ﴾ [المؤمنون:٢٤]، ولم يَقُل: ما هذا إلَّا بشَرًا؛ لأنه انتُقِض النَّفيُ، إِذَنْ: (ما) نافِية، و﴿كَيْدُ﴾ مُبتَدَأ.

وقوله: ﴿كَيْدُ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ الكَيْد والمَكر والخِداع، وما أَشبَهَها، كلُّها كلِمات مُتقارِبة، معناها التَّوصُّل إلى الإيقاع بالخَصْم، من حيثُ لا يَشعُر، يَعنِي: يَتوصَّل إلى الإيقاع بخَصْمه بأسباب خَفيَّة، لا يَشعُر بها الخَصْم؛ لأن الكائِدَ والماكِر والخادِع لا يَأتِي بالشيء علَنًا هكذا، بل بأسبابٍ خَفيَّة، فهي التَّوصُّل إلى الإيقاع بالخَصْم من حيث لا يَشْعُر؛ أي: بأسباب خَفيَّة؛ فالكُفَّار لهم كيدٌ عَظيم، يَكيدون على الإسلام، وليسوا يَكيدون للإسلام؛ لأن هُناك فَرْقًا بين الكَيْد على الشيء، والكيد للشيء، قال الله تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ كِدْنَا لِيُوسُفَ﴾ [يوسف:٧٦]، ولم يَقُل: على. لكن الكَيْد بالعَدوِّ هذا يُسمَّى كَيْدًا عليه، الكافِرون لهم كَيْد على الرُّسُل، يَكيدون كيدًا عظيمًا، ويَفعَلون كل سبَب يُدحِضون به حُجَّة الرُّسُل، ولكن مَهما عمِلوا؛ فالله عَزَّوَجَلَّ يَقولُ: قوله تعالى: ﴿إِلَّا فِى ضَلَٰلٍ﴾ كَيْدُهم في ضَلال؛ أي: في هَلاك وضَياع. كما أنَّ الضالَّ لا يَهتَدِي السَّبيل كذلك كَيْد هَؤلاء الكُفَّارِ لا يُوصِلهم إلى المَقصود.

---

(١) الألفية (ص:٢٠).

من فوائد الآيةِ الكريمة:

الْفَائِدَةُ الأُولَى: أنَّ موسى عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ أتى بالحقِّ إلى فِرعونَ وهامانَ وقارونَ، وهذا يَدُلُّ على أنه صدَع به أمامَهم.

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَةُ: أنَّ هَؤلاءِ المُكذِّبين عجَزوا عن رَدِّ الحَقِّ الذي جاء به؛ فلم يُقابِل الحُجَّة بمِثْلها.

الْفَائِدَةُ الثَّالِثَةُ: أنَّ هؤلاءِ الثلاثةَ لجَؤُوا إلى القَتْل والتهديد، قالوا: ﴿ٱقۡتُلُوٓاْ أَبۡنَآءَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ﴾ [غافر:٢٥].

الْفَائِدَةُ الرَّابِعَةُ: أنَّ الذي يَحمِي الدِّيار ويُدافِع عنها همُ الرِّجال، وأن المرأة ليسَت بذاك الذي يُدافِع عن البلَد، أو يَدفَع العُدوَّ؛ دليل ذلك أنَّ هؤلاءِ قالوا: ﴿ٱقۡتُلُوٓاْ أَبۡنَآءَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ﴾.

الْفَائِدَةُ الخَامِسَةُ: التَّعصُّب التامُّ للكافِرين، يَعنِي: أنهم مُتَعصِّبون، فهم يَقولون: ﴿ٱقۡتُلُوٓاْ أَبۡنَآءَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ﴾ يَعنِي: وغير المُؤمِنين من بني إسرائيلَ لا تَقتُلوهم، اقتُلوا أبناءَ الذين آمَنوا.

الْفَائِدَةُ السَّادِسَةُ: أنَّ الله تعالى قد يُسَلِّط أعداءَه على المُؤمِنين، امتِحانًا وابتِلاءً، والواقِع كذلِك، وقد يَكون الإنسان كلَّما اشتَدَّ إيمانه اشتَدَّ إيذاءُ أعداءِ الله له.

الْفَائِدَةُ السَّابِعَةُ: أنَّ الكُفَّار يَكيدون للمُؤمِنين؛ لقوله: ﴿وَمَا كَيۡدُ ٱلۡكَٰفِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَٰلٖ﴾.

الْفَائِدَةُ الثَّامِنَةُ: الحُكْم على هَؤلاء الثلاثة بأنَّهم كُفَّار، ولهذا لم يَقُل: وما كَيدُهم. بل أَظهَر في مَوضِع الإضمار، إشارة إلى أنَّ هَؤلاءِ كُفَّار، وقد سبَقَ لنا أنَّ الإظهار

في مَقام الإضمار يُستَفاد منه ثلاث فَوائِدُ:

الفائِدة الأُولى: الحُكْم على هؤلاء الذين حَلَّ الضَّمير مَحَلَّ ضَميرهم بهذا الوَصْف.

والثانية: العُموم والشُّمول.

والثالِثة: إفادة التَّعليل ﴿وَمَا كَيْدُ ٱلْكَٰفِرِينَ إِلَّا فِى ضَلَٰلٍ﴾.

الْفَائِدَةُ التَّاسِعَةُ: البُشْرى التامَّة للمُؤمِنين بأن الكُفَّار مَهما كادوا؛ فإن كيدَهم ضائِع وهالِك لن يَنفَعهم ولن يَستَفيدوا منه شَيئًا، وإنِ استَفادوا فإنما يَستَفيدون فائِدة مُؤقَّتة، ﴿وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾ [الأعراف:١٢٨].

• • ۞ • •

الآية (٢٦)

• • ⁂ • •

قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ ذَرُونِيٓ أَقْتُلْ مُوسَىٰ وَلْيَدْعُ رَبَّهُۥٓ إِنِّيٓ أَخَافُ أَن يُبَدِّلَ دِينَكُمْ أَوْ أَن يُظْهِرَ فِي ٱلْأَرْضِ ٱلْفَسَادَ﴾ [غافر:٢٦].

• • ⁂ • •

ثُم قال الله تعالى: ﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ ذَرُونِيٓ أَقْتُلْ مُوسَىٰ وَلْيَدْعُ رَبَّهُۥٓ﴾ أعوذُ بالله! وقد كانوا اقترَحوا أن يَقتُلوا أبناءَ بني إسرائيلَ، ويَستَحوا نِساءَهم، لكِنَّ فِرعونَ قال: ﴿ذَرُونِيٓ أَقْتُلْ مُوسَىٰ وَلْيَدْعُ رَبَّهُۥٓ﴾ اترُكوني أَقتُل موسى. وإنما قال هذا؛ لأن موسى هو زَعيم بني إسرائيلَ، ومَعلوم أنَّ قَتْل الزعيم يُوجِب وهَن الأَتباع وضَعْفهم.

وفي قوله: ﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ ذَرُونِيٓ أَقْتُلْ مُوسَىٰ﴾ اترُكوني، دليلٌ على تَمويه فِرعونَ، وأنه رجُل مُموِّه كائِد، خَبيثٌ كأنَّه يَقول: إن الناس يُمسِكونني عن قَتْل موسى، ولولا أن الناس يُمسِكوني لقَتَلته. فيَقول: اترُكوني عليه، اترُكوني أَقتُله. مع أنه لا أَحدَ يَستَطيع أن يَرُدَّه عن مُراده؛ لأنه يَقول لهم: ﴿أَنَا۠ رَبُّكُمُ ٱلْأَعْلَىٰ﴾ [النازعات:٢٤]، لكن يُموِّه ﴿ذَرُونِيٓ أَقْتُلْ مُوسَىٰ﴾ و﴿أَقْتُلْ﴾ مجزوم على أنه جَوابُ الأمر ﴿ذَرُونِيٓ أَقْتُلْ مُوسَىٰ﴾ وجَوابُ الأمر يَكون مجزومًا، وهل هو مجزوم به، أو بشَرْط مُقدَّر؟ على قولَيْن:

القولُ الأوَّلُ: إنه مجزوم به.

والثاني: إنه مجزومٌ بشَرْط مُقدَّر، والتَّقدير: إن تَذَروني أَقتُل موسى، والقاعِدة

عِندنا في التَّفسير، وفي الحَديث: أنه إذا دار الكَلام بين التَّقدير وعدَمه فالأصل عدَمُ التَّقدير، وعلى هذا فنَقول: ﴿أَقْتُلْ﴾ فِعْل مُضارِع مجزوم على أنه جواب الأمر، وعَلامة جَزْمه السُّكون.

قال المفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿أَقْتُلْ مُوسَىٰ﴾؛ لأنهم كانوا يَكُفُّونه عن قَتْله] بنَى المفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ قوله هذا على ظاهِر اللَّفْظ، أنهم كانوا يَكُفُّونه، ويَقول: ذَروني أَقتُله، ولكن الذي نَرَى: أنَّه كَذَّاب لم يَكُفَّه أحدٌ عن قَتْله، ولا يَستَطيع أحدٌ أن يَكُفَّه عن قَتْله أبدًا، لكن هو أَراد أن يُمَوِّه؛ لأنه لا يَستَطيع أن يَقتُل موسى؛ فادَّعى أنه -أو تَظاهَر بأنه- يُكَفُّ عن قَتْله، ويَقول: ﴿ذَرُونِيٓ أَقْتُلْ مُوسَىٰ﴾.

قال: ﴿وَلْيَدْعُ رَبَّهُۥٓ﴾ تحَدٍّ -والعِياذ بالله-، والواو حَرْف عَطْف، واللَّام لام الأَمْر، و«يَدْعُ»: فِعْل مُضارِع مجزوم بلام الأمر، وعلامة جَزْمه حَذفُ الواو، والضَّمَّة قبلها دليلٌ عليه، وأصلُ «يَدْعُ»: «يَدعو».

وقوله: ﴿أَقْتُلْ﴾ و﴿وَلْيَدْعُ﴾ هذا تحَدٍّ سافِرٌ لموسى ومَن أَرسَله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، يَعنِي: إن كان صادِقًا؛ فلْيَدعُ هذا الربَّ الذي أَرسَله، قال المفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [ليَمْنَعه مِنِّي].

وقوله: ﴿وَلْيَدْعُ رَبَّهُۥٓ﴾ ذكَرْنا لكم أنَّ اللَّام لامُ الأمر، وهي ساكِنة، فبعد الواو والفاء و(ثُم) تكون ساكِنة، قال الله تعالى: ﴿فَلْيَمْدُدْ بِسَبَبٍ إِلَى ٱلسَّمَآءِ ثُمَّ لْيَقْطَعْ﴾ [الحج:١٥]، وقال تعالى: ﴿ثُمَّ لْيَقْضُواْ تَفَثَهُمْ وَلْيُوفُواْ نُذُورَهُمْ﴾ [الحج:٢٩]، وهنا قال: ﴿وَلْيَدْعُ رَبَّهُۥٓ﴾.

وقوله: ﴿رَبَّهُۥٓ﴾ ولم يَقُل: رَبَّنا؛ لأنه لا يَعترِف ظاهِرًا برُبوبية الله، وإنَّما أَضاف

الرُّبوبية إلى مُوسى، من أَجْل التَّبكيت، يَعني: كأنه يَقول: هذا رَبُّك الذي زعَمْت، إن كُنتَ صادِقًا فلْيَمنَعْك مِنِّي.

قال تعالى: ﴿إِنِّيٓ أَخَافُ أَن يُبَدِّلَ دِينَكُمۡ أَوۡ أَن يُظۡهِرَ فِي ٱلۡأَرۡضِ ٱلۡفَسَادَ﴾.

قوله: ﴿إِنِّيٓ أَخَافُ أَن يُبَدِّلَ دِينَكُمۡ﴾ هذا الخَوفُ حَقيقيٌّ، هو يَخاف أن موسى بما معَه من الآيات يُبدِّل دِين هَؤلاءِ؛ لأن دِينهم التَّعبُّد لِفرعونَ، وموسى يَقول: اعبُدوا الله؛ فإذا جاءَ بالآيات واتَّبَعه الناس بَدَّل الدِّين، فصَارَ الناس بدَل أن يَتَّجِهوا إلى فِرعونَ ويَعبُدوه، يَتَّجِهون إلى الله عَزَّوَجَلَّ؛ ولهذا قال المفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿أَن يُبَدِّلَ دِينَكُمۡ﴾ من عِبادتكم إيايَ فتَتَّبِعونه].

إِذَنْ: دِينهم هو عِبادتهم فِرعونَ، فإذا دعاهم موسى إلى عِبادة الله انصَرَفوا إلى الله، فتَبدَّل الدِّين، واتَّبَعوا موسى.

فقوله: «وَأَنْ يَظهَر فى الأَرْض الفَسادُ» الفَساد على زَعْمه هو: صرف الناس عن عِبادته إلى عِبادة الله، هذا وَجهٌ.

وجهٌ آخَرُ: تَفريق الناس بدَل أن كانوا مُتَّفِقين عليه، ما بين خائِف وراغِب، يَختَلِفون؛ فيَكون بعضُهم تابِعًا لُموسى، وبعضُهم لِفرْعون، وتَفرُّق الأُمَّة لا شكَّ أنه فَساد، فصار إظهار الفَساد يَدَّعيه من وجهَيْن: الأوَّل: تَغيِير الدِّين. والثاني: تَفريق الأُمَّة.

قال المفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [«وَأَنْ يَظهَرَ فى الأَرْضِ الفَسادُ» مِنْ قَتْل وغَيْره]، القَتْل هذا غالِبًا من لازِم الاختِلاف، ولازِم الاختِلاف بين الأُمَّة أن يَصِل بهم النِّزاع إلى حَدِّ المُقاتَلة أو غيره، ومنه تَغيُّر عِبادة الناس من عِبادة فِرعونَ إلى عِبادة الله.

قال المفَسِّر رَحِمَهُ اللَّهُ: [وفي قِراءة (أو)] إِذَنِ الشَّارِح شرَح على الواو؛ لأنه قال: [وفي قِراءة (أو)] وهذه القِراءة سَبْعية؛ بِناءً على الاصطِلاح الذي تقدَّم، أنه إذا قال: وفي قِراءَة، أو قال بالضَّمِّ والفَتْح مثَلًا؛ فهي سَبْعية. وإذا قال: قُرِئ فهي شاذَّة.

قال المفَسِّر رَحِمَهُ اللَّهُ: [وفي أُخرَى بفَتْح الياء والهاء وضَمِّ الدال] «وَأَنْ يَظْهَرَ فى الأَرْض الفسادُ» ضمُّ الدال على أنَّ «الفَساد» فاعِل «يَظهَر».

وهذه القِراءات تَختَلِف مَعنى من حيثُ الظاهِر؛ لكنَّ مُؤدَّاها واحِدٌ؛ لأنه إذا أَظهَر موسى الفَساد في الأرض، ظهَر الفَساد، فيكون اختلاف القراءات فيه فائدة: أولًا: الفائدة من (أو) والواو: إذا كانت (أو) صار أنَّه خاف أحَد أَمْرين: أن يُبدِّل الدِّين، أو أن يُظهِر الفَساد، والواو ﴿أَن يُبَدِّلَ دِينَكُمْ﴾ و﴿أَن يُظْهِرَ﴾ يَكون خاف من اجتِماع الأَمْرين؛ تَبديل الدِّين، وظُهور الفَساد.

ولا بُدَّ من أحَدِ الأمرين؛ إمَّا أن يُبدِّل الدِّين، وإمَّا أن يُظهِر الفَساد، وإن لم يُبدِّل الدِّين لا بُدَّ أن يَكون هناك قَتْل ونِزاع، ولا بُدَّ أيضًا من طرَف آخَرَ أن يُجمَع بين الأمرَيْن؛ تَبديل الدِّين، وظُهور الفَساد، بالنِّسْبة (ليَظْهَر) و(يُظْهِر) نَقول: إذا قصَد إظهار الفَساد؛ فقد يَظهَر وقد لا يَظهَر، فإذا كان «وَأَنْ يَظْهَرَ فِى الْأَرْضِ الْفَسَادِ» صار حُصول ما أَرادَه من إظهار الفَساد.

فالقِراءات مُؤدَّاها واحِد «وَأَنْ يَظْهَرَ فِى الْأَرْضِ الْفَسَادُ».

من فوائدِ الآيةِ الكريمةِ:

الْفَائِدَةُ الأُولَى: تَمويه فِرعونَ، وأنه رجُلٌ ماكِر مُخادِع يُظهِر خِلاف الواقِع؛ لقوله: ﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ ذَرُونِىٓ أَقْتُلْ مُوسَىٰ﴾.

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَةُ: شِدَّة حَنَق فِرعونَ على موسى؛ إلى حَدِّ أنه أَراد قَتْله.

الْفَائِدَةُ الثَّالِثَةُ: شِدَّة تَحدِّي فِرعونَ، حيثُ قال: دعَوني أَقتُله، ولْيَدْعُ ربَّه؛ يَعنِي: يَتَحدَّاه إذا دعا رَبَّه هل يُفيده أو لا.

الْفَائِدَةُ الرَّابِعَةُ: خوفُ الكُفَّار من سِلاح المُؤمِنيـن بالدُّعاء؛ لقوله: ﴿وَلْيَدْعُ رَبَّهُۥٓ﴾ وإن كان المَقصودُ التَّحدِّي، لكن لا شَكَّ أنه قد فَهِم أن الدُّعاء سِلاح لموسى عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ.

الْفَائِدَةُ الخَامِسَةُ: تَعصُّب الكُفَّار لدِينهم؛ لقوله: ﴿إِنِّىٓ أَخَافُ أَن يُبَدِّلَ دِينَكُمْ﴾.

الْفَائِدَةُ السَّادِسَةُ: أن قَوْم فِرعونَ يَدينون له بالعِبادة، يَعنِي: يَتَّخِذون تَذلُّلهم له عِبادة؛ لقوله: ﴿إِنِّىٓ أَخَافُ أَن يُبَدِّلَ دِينَكُمْ﴾.

الْفَائِدَةُ السَّابِعَةُ: أنَّ الكُفَّار يَرَوْن أنَّ الإيمانَ فَسادٌ في الأَرْض؛ لقوله: ﴿أَوْ أَن يُظْهِرَ فِى ٱلْأَرْضِ ٱلْفَسَادَ﴾ وإذا كانوا يَرَوْن ذلك، فلا بُدَّ أن يُحوِّلوا بين الناس وبَيْنَه؛ حتى لا تَفسُد الأَرْض على زَعْمهم.

الْفَائِدَةُ الثَّامِنَةُ: أن الكُفَّار يَدَّعون ما هو كَذِب؛ لإِبْقائهم على ما هُمْ عليه، وهو دَعْواه أن الناس إذا دانوا لله ظهَـر في الأرض الفَساد، من أَجْل أن يَبقَى الناس على تَديُّنهم لِفرعونَ. واللهُ أَعلَمُ.

الآية (٢٧)

قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَقَالَ مُوسَىٰٓ إِنِّي عُذْتُ بِرَبِّي وَرَبِّكُم مِّن كُلِّ مُتَكَبِّرٍ لَّا يُؤْمِنُ بِيَوْمِ ٱلْحِسَابِ﴾ [غافر:٢٧].

• • ◦ • •

قال المفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿وَقَالَ مُوسَىٰٓ﴾ لقومه وقد سمع ذلك ﴿إِنِّي عُذْتُ بِرَبِّي وَرَبِّكُم﴾...] إلى آخِره.

قوله: ﴿وَقَالَ مُوسَىٰٓ إِنِّي عُذْتُ﴾ توجيه القَوْل إلى قوم مُوسى ليس بصواب، بل قال مُوسى لِفرعونَ: ﴿إِنِّي عُذْتُ بِرَبِّي وَرَبِّكُم﴾ هذا إن كان فِرعونُ قد قاله له مُواجَهةً، يَعنِي: قال: ﴿ذَرُونِيٓ أَقْتُلْ مُوسَىٰ﴾ مُواجَهةً، فإن موسى قال: ﴿إن إِنِّي عُذْتُ بِرَبِّي وَرَبِّكُم﴾ مِنكم، ولكن قال: ﴿مِّن كُلِّ مُتَكَبِّرٍ﴾، أمَّا إذا كان فِرْعونُ يَتحدَّث مع قومه وسَمِعَ موسى ذلك؛ فعلى ما قال المفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ أنَّ موسى لَمَّا سمِع هذا قال: ﴿إِنِّي عُذْتُ بِرَبِّي وَرَبِّكُم﴾، ولكن الظاهِر -واللهُ أعلَمُ- أنَّ المعنى الأوَّلَ أصَحُّ أنه قاله لِفرعونَ حين قال: ﴿ذَرُونِيٓ أَقْتُلْ مُوسَىٰ﴾.

﴿وَقَالَ مُوسَىٰٓ إِنِّي عُذْتُ بِرَبِّي وَرَبِّكُم﴾ ﴿عُذْتُ﴾ بمعنى: اعْتَصَمْتُ باللهِ؛ لأن عِياذة الشيء الاعتِصام به، قال العُلَماء: ويُقال: العِياذ واللِّياذ الفرق بينهما أنَّ اللياذ فيما يُرجَى، والعِياذ فيما يُخشَى.

فمَعنى ﴿عُذْتُ﴾: اعتَصَمْت بربِّي وربِّكم، بربِّي وربِّكم، هذه الرُّبوبيةُ العامَّة

والخاصَّة، ربِّي هذه رُبوبية خاصَّة وربُّكم ربوبية الله لِفرعونَ وقومه من الربوبية العامَّة.

وقوله تعالى: ﴿مِّن كُلِّ مُتَكَبِّرٍ لَّا يُؤْمِنُ بِيَوْمِ الْحِسَابِ﴾ وهذا الوَصْفُ يَنطَبِق تمامًا على فِرعونَ، فهو مُتكبِّر طاغٍ عاتٍ عالٍ، والمُتكبِّر هو المُترفِّع كِبرياءً عن الحقِّ، وعلى الخَلْق، لأن الكِبْر إمَّا عن الحقِّ وإمَّا على الخَلْق؛ لقول النبيِّ -صلى الله عليه وعلى آله وسلم-: «الْكِبْرُ بَطَرُ الحَقِّ وَغَمْطُ النَّاسِ»[1] «بَطَرُ الحَقِّ» يَعنِي: احتِقارَه وازدِراءَه، وهذا التَّكبُّرُ عن الحقِّ، و«غَمْطُ النَّاسِ» يَعنِي: احتِقارهم، وهذا التَّكبُّر على الخَلْق، وإذا اجتمَع في قَلْب المَرْء تكبُّر على الخَلْق، وتكبُّر عن الحَقِّ فهو الهالِك، والعِياذ بالله.

وقوله: ﴿لَّا يُؤْمِنُ بِيَوْمِ الْحِسَابِ﴾ يَعنِي: يوم القِيامة، وعدَل عن قوله يوم القِيامة إلى يوم الحِساب؛ لأن الحِساب أشَدُّ خَوْفًا من يوم القِيامة، إذا قِيل للإنسان: إنك سَوْف تُحاسَب على ما عمِلْت من خيرٍ وشَرٍّ؛ فإنه سوف يَخاف ويَوجَل ويَستَقيم.

وإنَّما ذكَر الحِساب دون القِيامة؛ لأنه أشَدُّ تَخويفًا؛ فإن الإنسان إذا عَلِم أنه سيُحَاسَب على عمَله، فسَوْف يَرتَدِع عن المَعاصِي، ويَقوم بالأَوامِر.

من فوائدِ الآيةِ الكريمةِ:

الْفَائِدَةُ الأُولَى: قُوَّة موسى عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ وصَراحته؛ حيث أَعلَن أمام مُهدِّديه بالقَتْل بأنه عاذَ بالله ربِّه وربِّهم؛ لقوله: ﴿إِنِّي عُذْتُ بِرَبِّي وَرَبِّكُم﴾ [غافر:٢٧].

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَةُ: قوَّةُ توكُّله عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ، حيث اعتمَد على الله أمام هذا الطاغِيةِ

(١) أخرجه مسلم: كتاب الإيمان، باب تحريم الكبر وبيانه، رقم (٩١)، من حديث ابن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

الذي يَسْهُل عليه أن يُنفِّذ ما توعَّد به.

الْفَائِدَةُ الثَّالِثَةُ: وَصْف فِرعونَ بهذَيْن الوَصْفين الذَّميمَيْن: التَّكبُّر، وأنَّه لا يُؤمِن بيَوْم الحِساب.

الْفَائِدَةُ الرَّابِعَةُ: العُدول إلى العُموم دون الخُصوص؛ لأنه لم يَقُل: إني عُذْت برَبِّي وربِّكم من فِرعونَ، ولكن قال: ﴿مِّن كُلِّ مُتَكَبِّرٍ﴾ [غافر:٢٧]، ليَعُمَّ فِرعونَ وغير فِرعونَ.

الْفَائِدَةُ الخَامِسَةُ: أنَّه إذا جاءَت بصِيغة العُموم وبالوَصْف انطَبَقت على فِرعونَ، وبَيَّنت أنه مُتَّصِف بالاستِكْبار، وكذلك الكُفْر بيَوم الحِساب.

الْفَائِدَةُ السَّادِسَةُ: إثبات يَوْم الحِساب، وهو يوم القِيامة، والحِساب ليس مُناقَشة الإنسان على عمَله؛ لأنَّ النَّبيَّ -صلى الله عليه وعلى آله وسلم- قال: «مَنْ نُوقِشَ الحِسَابَ عُذِّبَ»(١)؛ لأن الله لو ناقَشَك لكانت نِعْمة من نِعَمه تُغطِّي جَميع الحَسَنات التي قُمْت بها، بل إن حَسَناتك التي قُمْت بها نِعْمة من الله عَزَّوَجَلَّ تَحتاج إلى شُكْر، ثُم إذا وُفِّقت لشُكْرها تَحتاج إلى شُكْر آخَرَ للتَّوْفيق إلى الشُّكْر، ثُم هَلُمَّ جرًّا؛ ولهذا قال الشاعِرُ:

إِذَا كَانَ شُكْرِي نِعْمَةَ اللهِ نِعْمَةً ... عَلَيَّ لَهُ فِي مِثْلِهَا يَجِبُ الشُّكْرُ
فَكَيْفَ بُلُوغُ الشُّكْرِ إِلَّا بِفَضْلِهِ ... وَإِنْ طَالَتِ الْأَيَّامُ وَاتَّصَلَ الْعُمْرُ

وهذا صَحيح؛ فالحِساب هو أنَّ الله تعالى يَخلو بعَبْده المُؤمِن، ويُقرِّره بذُنوبه،

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب الرقاق، باب من نوقش الحساب عذب، رقم (٦٥٣٦)، ومسلم: كتاب الجنة، باب إثبات الحساب، رقم (٢٨٧٦)، من حديث عائشة رَضِيَٱللَّهُعَنهَا.

فيَقول: عمِلت كذا، عمِلت كذا؛ فإذا أَقَرَّ قال: قد سَتَرْتها عليك في الدُّنيا، وأنا أَغفِرها لك اليومَ، أمَّا الكُفَّار فإنهم لا يُحاسَبون مُحاسَبة مَن تُوزَن حَسَناته، وسَيِّئاته؛ لأنه ليس لهم حَسَنات، ولكن تُحصَى أعمالهم، ويُوقَفون عليها، ويُخزَوْن بها، يَعنِي: يُذلُّون بها، ويُقال: ﴿هَٰٓؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ كَذَبُواْ عَلَىٰ رَبِّهِمۡۚ أَلَا لَعۡنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [هود:١٨]؛ هذا هو حِساب الكُفَّار، وذاك حِساب المُؤمِنين.

• ● ۞ ● •

الآية (٢٨)

قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَقَالَ رَجُلٌ مُّؤْمِنٌ مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ يَكْتُمُ إِيمَٰنَهُۥٓ أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَن يَقُولَ رَبِّيَ ٱللَّهُ وَقَدْ جَآءَكُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ مِن رَّبِّكُمْ ۖ وَإِن يَكُ كَٰذِبًا فَعَلَيْهِ كَذِبُهُۥ ۖ وَإِن يَكُ صَادِقًا يُصِبْكُم بَعْضُ ٱلَّذِى يَعِدُكُمْ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ كَذَّابٌ﴾ [غافر:٢٨].

قال تعالى: ﴿وَقَالَ رَجُلٌ مُّؤْمِنٌ مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ يَكْتُمُ إِيمَٰنَهُۥٓ أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا﴾ إلى آخِره؛ لمَّا سمِع هذا الرجُلُ المُؤمِن بتَهديد فِرعونَ لموسى بالقَتْل، قال ذلك؛ وتَأمَّل سِياق الآية، ﴿وَقَالَ رَجُلٌ مُّؤْمِنٌ﴾ لم يُعيِّنه باسْمِه، بل قال: ﴿رَجُلٌ مُّؤْمِنٌ﴾ كِتْمانًا له؛ لأنه ليس المَقصود مَعرِفة الاسم، إنَّما المَقصود مَعرِفة القَضيَّة، أمَّا تَعيين الأسماء فهي من فُضول العِلْم، بمَعنَى: إنْ حَصَل فهذا طَيِّب، وإن لم يَحصُل فلَيْس ذا أَهمِّيَة.

قوله: ﴿وَقَالَ رَجُلٌ مُّؤْمِنٌ مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ﴾ مُؤمِن بالله، ورُبما نَقول: مُؤمِن بمُوسى أيضًا. ﴿مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ﴾ يُحتَمَل أنَّ المُراد من قَرابته؛ لأن آل الإنسان قرابته، ويُحتَمَل أن المُراد من أَتْباعه؛ لأن الآل تُطلَق على الأَتْباع، وأيًّا كان فالرَّجُل ليس من بني إسرائيلَ، بل هو من قَوْم فِرعونَ، سواء كان من قَرابته، أو من قَوْمه الذين يَنتَمون إليه، وقول المفسِّر رَحِمَهُ اللَّهُ: [قيل هو ابنُ عَمِّه] هذا قول أشار المفسِّر إلى ضَعْفه بكلِمة: قيل.

قوله: ﴿يَكْتُمُ إِيمَـٰنَهُۥ﴾ أي: يُخفيه ويُسِرُّه خوفًا على نَفْسه، وفي قوله: ﴿رَجُلٌ مُّؤْمِنٌ مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ يَكْتُمُ إِيمَـٰنَهُۥ﴾ هذه ثَلاث صِفات: مُؤمِن، من آل فِرعونَ، يَكتُم إيمانه.

وقد قال عُلَماء النَّحو: إنَّ النَّكِرة إذا وُصِفت أوَّل مرَّة فإن ما بعدَها يَجوز أن يَكون حالًا، ويَجوز أن يَكون صِفَة، وعلى هذا؛ فيَجوزُ أن يَكون ﴿مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ﴾ حال، و﴿يَكْتُمُ إِيمَـٰنَهُۥ﴾ حال، ويَجوز أن يَكون ﴿مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ﴾ صِفة ثانية، و﴿يَكْتُمُ إِيمَـٰنَهُۥ﴾ حال، ويَجوز أن تَكون ﴿مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ﴾ صِفة ثانية، و﴿يَكْتُمُ إِيمَـٰنَهُۥ﴾ صِفة ثالِثة، ﴿يَكْتُمُ إِيمَـٰنَهُۥ﴾؛ أي: يُخفيه عن فِرعونَ وقومِه.

قوله: ﴿أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَن يَقُولَ رَبِّيَ ٱللَّهُ﴾ الاستِفْهام هنا للإنكار، يَعنِي: كيف تَقتُلون رجُلًا لم يَأتِ بشَيْء إلَّا أنه يَقول ربِّي الله؟! وهذا كقوله تعالى: ﴿وَمَا نَقَمُوا۟ مِنْهُمْ إِلَّآ أَن يُؤْمِنُوا۟ بِٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَمِيدِ﴾ [البروج:٨]، وقوله: ﴿أَن يَقُولَ﴾ (أن) هذه مَصدَرية على تَقدير اللَّام، ولهذا قدَّرها المفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ بقوله: [أي: لأن يَقول] فعلى هذا تَكون (أن) مَنزوعة اللَّام، التي للتَّعليل؛ أي: بقوله ربِّي الله، لا فِرعونَ. وهم يَرَوْن أنَّ ربَّهم فِرعونُ.

قال المفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿وَقَدْ جَآءَكُم بِٱلْبَيِّنَـٰتِ﴾ بالمُعجِزات الظاهِرات من ربِّكم]، ﴿وَقَدْ جَآءَكُم بِٱلْبَيِّنَـٰتِ﴾ الباء للمُصاحَبة، والبيِّنات صِفة لمَوصوف محَذوف، وتَقديرها -خِلافًا للمُؤلِّف- الآيات؛ أي: جاءَكم بالآيات البيِّنات؛ أي: الظاهِرات التي تَدُلُّ دَلالة قاطِعة على أنه نَبيٌّ.

قوله: ﴿وَإِن يَكُ كَـٰذِبًا فَعَلَيْهِ كَذِبُهُۥ ۖ وَإِن يَكُ صَادِقًا يُصِبْكُم بَعْضُ ٱلَّذِى يَعِدُكُمْ﴾ هذا يُسمَّى عند عُلَماء المَنطِق (السَّبْر والتَّقْسيم)؛ لأن موسى الآنَ إمَّا

أن يَكون صادِقًا، وإمَّا أن يَكون كاذِبًا، وليس هناك رُتْبة بين الصدَق والكذِب؛ لأنه هو يَقول: إنه رسول الله، فإمَّا أن يَكون صادِقًا في هذا، وإمَّا أن يَكون كاذِبًا، وعلى كلٍّ فإنه لا يَضُرُّكم أن تُصدِّقوه؛ ولهذا قال المفَسِّر رَحِمَهُ اللَّهُ: [﴿وَإِن يَكُ كَٰذِبًا فَعَلَيۡهِ كَذِبُهُۥ﴾ أي: ضرَر كذِبه]، وسوف يُوقِع الله به الخِزيَ والعارَ لو كذَبَ على الله، قال الله تعالى: ﴿فَمَنۡ أَظۡلَمُ مِمَّن كَذَبَ عَلَى ٱللَّهِ وَكَذَّبَ بِٱلصِّدۡقِ إِذۡ جَآءَهُۥٓۚ﴾ [الزُّمَر:٣٢]، والآيات في هذا المَعنَى كَثيرة، وأن الله تعالى يَهتِكُ سِرَّه ويُبيِّن كذِبَه؛ فيَكون كذِبُه عليه.

وقوله: ﴿وَإِن يَكُ صَادِقًا﴾ في أنه رَسول وكذَّبْتُموه أنتم أَصابَكم بعض الذي يَعِدُكم، قال المفَسِّر رَحِمَهُ اللَّهُ: [من العَذاب عاجِلًا]، وكذلك يُصِبْكم في الآخِرة آجِلًا؛ فصار الآنَ الخَطَر عليه إن كان كاذِبًا وأنتُم سَوْف تَسلَمون، والخَطَر عليكم إن كان صادِقًا، وهو سَوْف يَنجو.

وهذا لا شَكَّ أنه من تَمام نُصْحِه أنَّ الرَّجُل تَنزَّل مع آل فِرعونَ إلى هذا التَّنزُّل، لم يَقُل: إنه صادِق مع أنه كان يُؤمِن به، لكن هذا من باب التَّنزُّل.

وهنا قال: ﴿أَتَقۡتُلُونَ رَجُلًا﴾ ولم يَقُل: أَتَقتلون مُوسى، إبعادًا للتُّهمة عن نَفْسه؛ لئَلَّا يَظُنَّ أحَدٌ أنه كان يَعرِفُ مُوسى وأنه يُدافِع عَنْهُ عَنْ مَعرِفة، ولكنه أَتَى بـ﴿رَجُلًا﴾ النَّكِرة إبهامًا للأمر وَشِدَّةً في إِخْفائه.

قوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهۡدِي مَنۡ هُوَ مُسۡرِفٞ كَذَّابٞ﴾ ﴿مُسۡرِفٞ﴾ أي: مُتَجاوِز للحَدِّ، ﴿كَذَّابٞ﴾ أي: ذو كَذِب، وهل هَذه الجُمْلة تَعليلية؟ وهل هي تَعود على مُوسى، أو تَعود على فِرعونَ؟

نَقول: هي صالِحة للأَمْرين، كل مَن كان مُسرِفًا كذَّابًا، فإن الله لا يَهديه، وهذا

الوَصْفُ يَنطَبِق على فِرعونَ، فإنه مُسرِف مُتَجاوِز للحَدِّ، كذَّاب، مُدَّعٍ ما ليس له، يَقول: ﴿أَنَا۠ رَبُّكُمُ ٱلْأَعْلَىٰ﴾ [النازعات:٢٤]، وكذَب في ذلك؛ فهو مُسرِف كذَّاب؛ كذلك أيضًا في مَقام المُجادَلة والتَّنزُّل تَنطَبِق على موسى لو كان كاذِبًا؛ فإنه يَكون مُسرِفًا مُتجاوِزًا للحَدِّ، وادِّعائه الرِّسالة وهو كاذِب، وكذلك كَذَّاب لأنه ادَّعى ما ليس صادِقًا فيه.

وعلى كل حال: فالجُمْلة هنا صالِحة لأن تَكون مُنطَبِقة على فِـرعونَ، وهي مُنطَبِقة على الحَقيقة، أو على موسى من بابِ التَّنزُّل مع الخَصْم.

من فوائدِ الآيةِ الكريمةِ:

الْفَائِدَةُ الأُولَى: أنه يَنبَغي العِناية بمَضمون القِصَّة، دون عَيْن مَن وقَعَت عليه؛ لقوله: ﴿وَقَالَ رَجُلٌ مُّؤْمِنٌ﴾ وإلَّا فنحن نَعلَم أنَّ الله يَعلَم مَن هذا الرجُلُ، ويَعلَم اسمه ونَسَبه، وكل شيء يَتعلَّق به، لكنَّ الله تعالى ذِكْره إبهامًا، إشارة إلى أن المهمَّ مَضمون القِصَّة دون عين مَن وقَعَت عليه، إلَّا إذا كان في تَعْيينه مَصلَحة، فالمَصلَحة ذِكْره وتَعْيينه.

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَةُ: أنه قد يَكون من صُلْب المُعادِين مَن هو من الأَوْلياء؛ لقوله هنا: ﴿مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ﴾ [غافر:٢٨]، سواء قُلْنا: من قَرابته، أو من أَتْباعه على دِينه؛ فإنه يَدُلُّ على أن الله على كل شيء قَدير، وأنه قد يُقيِّض أو يُهيِّئ الإيمان لمَن كان بين قَوْم مُنغَمِسين في الكُفْر.

الْفَائِدَةُ الثَّالِثَةُ: جَواز إخفاء الإيمـان؛ إذا خاف الإنسان على نفسه؛ لقوله: ﴿يَكْتُمُ إِيمَٰنَهُۥٓ﴾ [غافر:٢٨]، ولكن إذا كان الإنسان لا يَستَطيع أن يَعيش مُؤمِنًا إلَّا

بالكِتْمان، فتَجِب عليه الهِجْرة، ففي دِين الإسلام أن مَن كان لا يَستَطيع أن يَعيش إلَّا مُخفيًا دينه؛ فإنه تَجِب عليه الهِجْرة، ولكن بشَرْط أن يَكون قادِرًا عليها، فإن كان عاجزًا فإن الله تعالى قال: ﴿إِلَّا ٱلْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ ٱلرِّجَالِ وَٱلنِّسَآءِ وَٱلْوِلْدَٰنِ لَا يَسْتَطِيعُونَ حِيلَةً وَلَا يَهْتَدُونَ سَبِيلًا ﴿٩٨﴾ فَأُو۟لَٰٓئِكَ عَسَى ٱللَّهُ أَن يَعْفُوَ عَنْهُمْ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَفُوًّا غَفُورًا﴾ [النساء:٩٨-٩٩].

الْفَائِدَةُ الرَّابِعَةُ: شِدَّة إنكار هذا المُؤمِن على فِرعونَ الذي هُدِّد بالقَتْل؛ لقوله: ﴿أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَن يَقُولَ رَبِّىَ ٱللَّهُ﴾ [غافر:٢٨].

الْفَائِدَةُ الخَامِسَةُ: الإنكار على مَن عمِل عمَلًا بدون سبَب يَقتَضيه؛ يُؤخَذ من قوله: ﴿أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَن يَقُولَ رَبِّىَ ٱللَّهُ﴾ وهذا ليس سببًا للقَتْل، بل على الأَقَلِّ يُترَك وشَأْنه، أمَّا أن يُقتَل لهذا السببِ فإن هذا مُنكَر، ولا يَجوز إقرارُه.

الْفَائِدَةُ السَّادِسَةُ: العُدول عن التَّعيين خوفًا من التُّهْمة، أو إن شِئْت فقُلِ: استِعْمال المَعاريض؛ لقوله: ﴿أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا﴾ ولم يَقُل: أَتَقْتُلون موسى؛ لأنه لو عَيَّنه باسمه لاتَّهمه النَّاس بأنَّ له صِلة به، وفسَد ما يُريد، لكِنَّه أَبهَمه وقال: ﴿أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَن يَقُولَ رَبِّىَ ٱللَّهُ﴾ إلى آخِره.

فإن قال قائِل: ما مَعنَى المَعاريض؟

فالجَوابُ: المَعاريض مَعناها: أن تُؤدِّيَ بشيء خِلاف الواقِع، أي: يَعنِي كأن يَقول: متى تَجوز المَعاريضُ؟ تَجوز المَعاريضُ إذا كان فيه مَصلَحة، أو دَفْع مَضرَّة، واستِعْمال المَعارِيض على ثلاثة أَوْجُه: الوَجْه الأَوَّل: الظُّلْم. والثاني: دَفْع الظُّلْم. والثالِث: ما ليس فيه هذا ولا هذا.

الظُّلْم: هو أن يَستَعمِل الإنسان المَعاريض لدَفْع حَقٍّ عليه.

ودَفْع الظُّلْم: أن يَستَعمِل المَعاريض لدَفْع ظُلْم عن نَفْسه.

وما ليس كذلك ولا كذلك: مثل أن يَستَعمِلها في الأمور المُباحة.

مِثال الأوَّل: تَخاصَم زَيدٌ وعَمرٌو عند القاضِي، وكان عند عَمرٍو لزَيْد مِئة دِرهَم؛ فقال القاضي للمُدَّعي: أَلَكَ بَيِّنة؟ قال: لا. قال: لك اليَمين على صاحِبك، فقال المُدَّعَى عليه: والله ما عِندي له شيء. ظَاهِرُ اللَّفْظ النَّفي، لكن هو في قلبه نَوَى الإثبات، ونوَى بـ(ما) الذي، وتَقدير الكَلام على نِيَّته: والله الذي له عِندي شيء. وهذا صَحيح، له عِنده شيء، لكن هو ورَّى بأن (ما) نافِية، وأنه ليس عِنده شيء، فالقاضِي سَوْف يَحكُم بأنَّها نافِية، حَسب ظاهِر الحال، هذا هي المَعروضة، نَقول: إنها حَرامٌ؛ لأنَّه تَوصَّل بها إلى إسقاط حقٍّ عليه.

وكذلِك أيضًا في الدَّعْوة لو قال له خَصْمه: أنا أَرضَى منك أن تَحلِف أن لكَ عِندي شيئًا، فحلَف مُورِّيًا؛ فإنه حرام عليه.

أمَّا دَفْع الظُّلْم: فمثل: أن يَحلِف على دَفْع الظُّلْم عن نَفْسه أو غيره، مِثال ذلك: دَخَل عليه لِصٌّ، أو جُنديٌّ ظالِم، يُريد أن يَأخُذ ماله فقال: افتَحْ لي هذا الصُّندوقَ. فقال والله: ما في هذا الصُّندوقِ شيء، المُخاطَب سوف يَظُنُّ أنَّ الجُمْلة نافِية فيَنصرِف، وهو يُريد بها الإِثْبات، فهذه التَّوْرية لا شَكَّ في جَوازِها، بل إذا كان المالُ للغير مثل أَنْ يَأتِيَ شخص ويَقول: فُلان عِندك له كذا وكذا. فأَقول: والله ما عِندي له شيء، أَعرِف أنه لو أَقرَرْت لأَخَذَها.

الْفَائِدَةُ السَّابِعَةُ: أنَّ موسى عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ أَتَى بالآيات البيِّنة، التي يُؤمِن على

مثلها البَشَر؛ لقوله: ﴿وَقَدْ جَآءَكُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ مِن رَّبِّكُمْ﴾.

الْفَائِدَةُ الثَّامِنَةُ: قُوَّة إيمان هذا الرجُلِ، حيث جابَهَ هؤلاءِ بإنكار رُبوبية فِرعونَ ضِمْنًا، يُؤخَذ من قوله: ﴿مِن رَّبِّكُمْ﴾ فجابَهَهم بأنَّ لهم ربًّا سِوى فِرْعَونَ، وهذا يَدُلُّ على قُـوَّة هذا الرجُلِ؛ أمَّا قوله: ﴿أَن يَقُولَ رَبِّيَ ٱللَّهُ﴾ فلَيْس فيها دليلٌ؛ لأن رُبوبية الله عَزَّوَجَلَّ لمُوسى ليس فيها شيء من الإنكار، لكن ﴿مِن رَّبِّكُمْ﴾ واضِح أنه يُعَرِّض بأن فِرعونَ ليس بربٍّ، وأنَّ الرَّبَّ هو الله، وهذا يَدُلُّ على كَمال شَجاعة هذا الرجُلِ.

الْفَائِدَةُ التَّاسِعَةُ: استِعْمال السَّبْر والتَّقْسيم، يَعني: التَّرديد بين حالَيْن أو أحوال لا يَزيد الأَمْر عليهم، لقوله: ﴿وَإِن يَكُ كَٰذِبًا﴾، و﴿وَإِن يَكُ صَادِقًا﴾.

الْفَائِدَةُ الْعَاشِرَةُ: مُراعاة الخَصْم فيما يُؤلِّفه ويُقرِّبه؛ لأنه بَدَأ بما كانوا يَعتَقِدون، وهو كذِبُ موسى، فبَدَأ بالكَذِب قبل أن يَبدَأ بالصِّدْق من أَجْل تَأْليفهم، وبَيان أنَّ الرجُل ليس عِنده تَعصُّب لمُوسى؛ ولهذا لم يَبدَأ بالصِّدْق الذي هو أحَدُ الاحتِمالين.

الْفَائِدَةُ الحَادِيَةَ عَشْرَةَ: جواز التَّورِية؛ لقوله: ﴿وَإِن يَكُ كَٰذِبًا﴾ وقوله: ﴿وَإِن يَكُ صَادِقًا﴾؛ لأنَّنا نَعلَم أنَّ هذا الرَّجُلَ يَعتَقِد أنه صَادِق، لكنه أَتَى بهـذا الكلامِ تَوْرِية بأنه ليس بمُؤمِن به، وذلك من أَجْل قَبول كلامه؛ لأنهم لو شَعَروا بأنه مُؤمِن به لقَتلوه، مُؤمِن بمُوسى وهُو مِن آلِـهِم، ولكِنه أَتَى بالكَلام الدالِّ على التَّوْرية.

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَةَ عَشْرَةَ: أنَّ شُؤم الكَذِب يَعودُ على الكاذِب، وهو كذلك؛ لقَوْله: ﴿وَإِن يَكُ كَٰذِبًا فَعَلَيْهِ كَذِبُهُۥ﴾ وقد فضَح الله عَزَّوَجَلَّ الكاذِبيـن المُفتَرين عليه، فضَحهم في الدنيا، وسيَفضَحهم في الآخِرة.

الْفَائِدَةُ الثَّالِثَةَ عَشْرَةَ: قُوَّة إيمان هذا الرجُلِ؛ لكَوْنه يَعتَقِد ويُؤمِن بأن بعض الَّذي وعَدَهم موسى عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ سوف يُصيبهم إذا كان صادِقًا وقد كذَّبوه؛ لقوله: ﴿وَإِن يَكُ صَادِقًا يُصِبْكُم بَعْضُ ٱلَّذِى يَعِدُكُمْ﴾.

الْفَائِدَةُ الرَّابِعَةَ عَشْرَةَ: أن المُسرِف الكذَّاب؛ أي: المُتجاوِز للحَدِّ بفِعْله وبقَوْله، فبِقَوْله: لأنه كَذَّاب، وبفِعْله لأنه مُسرِف، فإنه بَعيدٌ من الهِدَاية؛ لقوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ كَذَّابٌ﴾ [غافر:٢٨]، وحينئـذٍ نَسأَل هل المُراد هِـداية التَّوْفيق، أو هِداية البَيان والإِرْشاد؟

الجوابُ: هِداية التَّوْفيق؛ لأن الله تعالى قد بَيَّن للمُسرِف الكَذَّاب ولغيره، لكن وَفَّق مَن شاء من عِباده، وخَذَل مَن شاء.

• ● ۞ ● •

الآية (٢٩)

• ● ༄ ● •

۞ قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿يَٰقَوْمِ لَكُمُ ٱلْمُلْكُ ٱلْيَوْمَ ظَٰهِرِينَ فِى ٱلْأَرْضِ فَمَن يَنصُرُنَا مِنۢ بَأْسِ ٱللَّهِ إِن جَآءَنَا ۚ قَالَ فِرْعَوْنُ مَآ أُرِيكُمْ إِلَّا مَآ أَرَىٰ وَمَآ أَهْدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ ٱلرَّشَادِ﴾ [غافر:٢٩].

• ● ༄ ● •

قال الله تعالى: ﴿يَٰقَوْمِ لَكُمُ ٱلْمُلْكُ ٱلْيَوْمَ ظَٰهِرِينَ فِى ٱلْأَرْضِ﴾، تَأمَّل حُسْن خِطاب هذا الرجُلِ، كان بالأوَّلِ يُنكِر عليهم: ﴿أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَن يَقُولَ رَبِّىَ ٱللَّهُ﴾ ولَمَّا أَراد أن يَتودَّد إليهم، وأن يُبيِّن لهم نِعْمة الله عليهم، تَلطَّف في الخِطاب فقال: ﴿يَٰقَوْمِ﴾ وكأنَّه واحِدٌ منهم، وهذا اللُّطْف في الخِطَاب -في جانِب الدَّعوة- من الأمور التي أَمَر الله بها شَرْعًا، والتي يَهدِي بها الله مَن شاء من عِباده قدَرًا؛ فقَدْ قال الله لُموسى وهارونَ: ﴿ٱذْهَبَآ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ ﴿٤٣﴾ فَقُولَا لَهُۥ قَوْلًا لَّيِّنًا لَّعَلَّهُۥ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَىٰ﴾ [طه:٤٤].

ثُم إن القَدَر يُؤيِّد هذا، فكم من إنسان لانَ بسبَبِ القولِ اللَّيِّن، وكم من إنسان اعتَدَى بسبَب العُدوان في القول؛ ولهذا تَجِدُ هذا الرجُلَ من حِكْمته أنهم لَمَّا هَدَّدوا موسى بالقَتل أنكَر عليهم علَنًا ﴿أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَن يَقُولَ رَبِّىَ ٱللَّهُ﴾ ولَمَّا أَراد أن يُبيِّن لهم النِّعَم ويَدعوهم إلى الحَقِّ، قال: ﴿يَٰقَوْمِ لَكُمُ ٱلْمُلْكُ ٱلْيَوْمَ ظَٰهِرِينَ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ ﴿ظَٰهِرِينَ﴾ أي: غالِبين، عالِين على أَهْلها.

وقوله: ﴿لَكُمُ ٱلْمُلْكُ ٱلْيَوْمَ﴾ يَعنِي: أنتُمُ الآنَ مالِكون، وتَأمَّل أيضًا حُسْن هذا الخِطابِ والتَّحرُّز، ﴿لَكُمُ ٱلْمُلْكُ ٱلْيَوْمَ﴾، يَعنِي: والمُستَقبَل لا يُعلَم، قد يَزول مُلكُكم، لكن اليومَ أنتُمْ في نِعْمة، غالِبين في الأرض، ظاهِرين على أهلِها، فيَجِب أن تَشكُروا هذه النِّعمةَ.

وقوله: ﴿فِى ٱلْأَرْضِ﴾ قال المفسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [أرض مِصرَ] وعلى هذا فـ(أل) في الأرض للعَهْد الذِّهْنِي؛ أي: الأَرْض المَعهودة أَرْضكم.

وقوله: ﴿فَمَن يَنصُرُنَا مِنۢ بَأْسِ ٱللَّهِ﴾ قال المفَسِّـر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [عذابِه إن قَتَلْتم أولياءَه] ﴿إِن جَآءَنَا﴾ ﴿فَمَن يَنصُرُنَا﴾ (مَن) هذه استِفْهام بمَعنى النَّفي؛ أي: لا أَحَدَ يَنْصُرنا، والنَّصْـر هنا بمعنى المَنْع؛ أي: فما الَّذي يَمنَعنا من بأسِ الله، والبَأْس هو العَذاب. وقوله: ﴿إِن جَآءَنَا﴾ يَعنِي: إن نزَل بنا، فهل أَحَدٌ يَنصُـرنا، حتى لو كُنَّا اليومَ ظاهِرين في الأرض، وكُنَّا مُلوكًا فإنه إذا نزَل بنا بَأْس الله فلا أَحَدَ يَمنَعنا.

وقول المفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [إن قتَلْتُم أَوْلياءَه] قد يُقال: إن هذا الذي عيَّنه المفَسِّر يَدُلُّ عليه السِّياق؛ لأنه أَنكَر عليهم أن يَقتُلوا موسى، وقد يُقال: إن المُراد إن بَقِيتُم على الكُفْر والعُدوان ومنه قَتْل مُوسى، وهذا أَصَحُّ وأعَمُّ. يَعنِي: ما الذي يَنصُرنا من بَأْسِ الله إن جاءَنا؟ لكوننا مُستَحِقِّين لهذا العَذابِ بالكُفْر وقَتْل أَوْليائِه.

قال فِرعونُ مُجيبًا لهذا الرجُلِ: ﴿مَآ أُرِيكُمْ إِلَّا مَآ أَرَىٰ وَمَآ أَهْدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ ٱلرَّشَادِ﴾ أَكذَبُ قولٍ في الأرض هو هذا، ﴿مَآ أُرِيكُمْ إِلَّا مَآ أَرَىٰ﴾ يَعنِي: ما أُظهِـر لكم شيئًا حتى تَرَوْه إلَّا ما أرى، إلَّا ما أَرَى أنه الحقُّ، وهذه دَعْوة كاذِبة؛ لأنه يَعلَم أن الحَـقَّ في اتِّباع موسى، كمـا قال له موسى: ﴿لَقَدْ عَلِمْتَ مَآ أَنزَلَ هَٰٓؤُلَآءِ إِلَّا رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ بَصَآئِرَ وَإِنِّى لَأَظُنُّكَ يَٰفِرْعَوْنُ مَثْبُورًا﴾ [الإسراء:١٠٢]، وقال تعالى:

﴿وَجَحَدُوا۟ بِهَا وَٱسْتَيْقَنَتْهَآ أَنفُسُهُمْ﴾ [النمل:١٤]، لكن جحدوا ظُلْمًا وعُلُوًّا.

فهو يَقول: ﴿مَآ أُرِيكُمْ إِلَّا مَآ أَرَىٰ﴾؛ أي: ما أَرَى أنه صَواب وأنه حَقٌّ. وهذه الدَّعوةُ كاذِبة، وإن كان أَراد ما أُرِيكم إلَّا ما أَرَى أنه من مَصلَحتي؛ فهذا صادِقٌ لكنه غاشٌّ.

وعلى كل حال: فالجُمْلة مُؤاخَذ عليها؛ لأنها إمَّا كذِب وإمَّا غِشٌّ، إمَّا كذِب إن كان يَقول: ما أُرِيكم إلَّا ما أَرَى من الصَّواب، وإمَّا غِشٌّ إذا كان يَرَى أنَّ الحَقَّ خِلاف ما أَراهُم لكنه لَمصلَحته أَراهُم ما رَأَى.

قال المفَسِّر رَحِمَهُ اللَّهُ: [ما أُشير عَلَيْكم إلَّا ما أُشير به على نَفْسي وهو قَتْل موسى]، هذا أيضًا تَخصيص في غيـر مَحلِّه؛ لأن فِرعونَ لا يُهِمُّه أن يَقولوا: اقْتُلْ موسى أو لا تَقْتُلْه؛ لأنه مُصمِّم على ما يُريد، لكِنَّ أَهَمَّ شيء أَلَّا يَكفُروا به، وأَلَّا يُبدِّل دِينَهم، وعلى هذا فالمَقصود بقوله: ﴿إِلَّا مَآ أَرَىٰ﴾ في بَقائِكم على دِينكم، هذا مَعنى الآية، لأن أَصْل الإنكار على مُوسى والتَّهديد بقَتْله أَصلُه أنه خاف أن يُبدِّل الدِّين.

قال: ﴿مَآ أُرِيكُمْ إِلَّا مَآ أَرَىٰ وَمَآ أَهْدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ ٱلرَّشَادِ﴾ يَعنِـي: ما أَدُلُّكم إلَّا على سبيل الرَّشاد، والرَّشاد ضِدُّ الغَيِّ؛ ولهذا يُقال: رُشْد وغَيٌّ. ﴿قَد تَّبَيَّنَ ٱلرُّشْدُ مِنَ ٱلْغَيِّ﴾ [البقرة:٢٦٥] فالرَّشاد هو ضِدُّ الغَيِّ، يَعنِي: الصَّواب والسَّداد، وسَبيل بمَعنى: طَريق، وهو أَكذَب الكاذِبين؛ لأنه ليس يَهديهم سَبيل الرَّشاد، بل يَهديهم سَبيل الغَيِّ والعِناد والاستِكْبار والكُفْر؛ فصار كاذِبًا في الجُمْلتين ﴿مَآ أُرِيكُمْ إِلَّا مَآ أَرَىٰ﴾ إذا قُلْنا: إن المَعنَى: إلَّا ما أَرَى أنه صَواب ﴿وَمَآ أَهْدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ ٱلرَّشَادِ﴾ فهو أَيْضًا كاذِب لأنه بلا شَكٍّ يَهديهم سَبيل الغَيِّ والفَساد.

من فوائدِ الآيةِ الكريمةِ:

الْفَائِدَةُ الأُولَى: حُسْن خِطاب هذا الرجُلِ المُؤمِن، حين تَلطَّف في الدَّعوة إلى الله عَزَّوَجَلَّ بقوله: ﴿يَٰقَوۡمِ﴾.

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَةُ: أنه يَنبَغي للداعِية أن يُذكِّر المَدعُوِّين بنِعْمة الله عليهم، حتى يَخضَعوا ويَشكُروا هذه النِّعْمة، بقوله: ﴿لَكُمُ ٱلۡمُلۡكُ ٱلۡيَوۡمَ ظَٰهِرِينَ فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾.

الْفَائِدَةُ الثَّالِثَةُ: حُسْن احتِراز هذا الرجُلِ المُؤمِن؛ لقوله: ﴿لَكُمُ ٱلۡمُلۡكُ ٱلۡيَوۡمَ﴾ يَعنِي: وأمَّا في المُستقبَل قد يَزول مُلكُكم، لكِنِ اشكُروا النِّعْمة الحاضِرة.

الْفَائِدَةُ الرَّابِعَةُ: أنَّ الاعتِبار في الحال بما هي عليه الآنَ، أمَّا المُستقبَل فقد تَتغيَّر الأَحْوال، لكن نحن مُخاطَبون ومَأمورون أن نَنظُر إلى الحال الحاضِرِ الآنَ.

يَتفرَّع على هذه المَسألَةِ مَسألَة اجتِماعية: وهي أنَّ بعض الناس يَخطُب ابنته رجُلٌ غيرُ مُستقيم يَعنِي: ليس كافِرًا؛ لكنْ فاسِق يَشرَب دُخانًا، أو حَلَق لِحْيته، أو رِبًا، أو ما أَشبَه ذلك؛ فيَأخُذه الطَّمَع ويَقبَل الخِطْبة، ثُم يَقول: لعَلَّ الله يَهدِيه، أو لعل هذه البِنتَ المُلتَزِمة تَسعَى في هِدايته، فيُقال: نحن لا نَنظُر للمُستَقبَل، المُستَقبَل له الله، بل رُبما أن هذا الرجُلَ يُغوِي المرأة، لأنَّه هو أَقْوى منها جانِبًا؛ فأنت الآنَ مأمور بالنَّظَر إلى الحال الحاضِرة، أمَّا المُستَقبَل فلَسْت مَأمورًا بالنَّظَر إليه، ولا يَجوز أن تَنظُر إليه؛ لأنه مُستَقبَل وغَيْب، فأنت الآنَ اعرِفِ الحالَ التي أنتَ عليها، وتَصرَّف على ما هي عليه الآنَ، هذه نَأخُذها من قول هذا الرجُلِ المُؤمِن ﴿ٱلۡيَوۡمَ﴾.

فإن قال قائِل: قُلْتم: إن الأَبَ لا يَنبَغي أن يُزوِّج ابنَتَه من فاسِق، فيَقول:

لعَلَّ الله أن يَهدِيَه. فلو حصَل العَكْس أَراد الرَّجُل أن يَتزوَّج من امرأة ليسَت مُستَقيمة، وقال: لعَلَّ الله يَهديها بي وإلَّا طَلَّقْتها؟.

فالجوابُ: نفس الشيء، ليس هو (إلَّا طلَّقتها) فقد يَكون الإنسان عنده عَزْم في هذا أوَّل الأَمْر، ولكن إذا تَزوَّجها ورَغِبَ فيها عصَفَت به بعدُ، يَعنِي: جَذْب النِّساء للرِّجال ليس هو بالهَيِّن.

فإن قال قائِل: فلو ظَنَّ فيها قَبول الدَّعوة؟.

فالجوابُ: كلِمة الظَّنِّ هذه غيرُ وارِدة في الواقِع؛ ولذلك أنت غيرُ مُكلَّف إلَّا فيما بين يَدَيْك، حتى لو أُخلِفت الأُمور فيما بعدُ، فأنت مُجتَهِد ولا لومَ عليك، ولا إثمَ عليك، لكن عليك إثمٌ أنك تُقدِم على شيء تَعرِف الآنَ أنه غير صالِح، لكن رجاءَ أنْ يَصلُح، هذا خطأ. والمَرأةُ رُبَّما تَغلِب الرجُل إذا أَحبَّها حُبًّا شديدًا، ربما تَقول: اسجُدْ لي. فيفعل!! أَلَمْ تَعلَم أنه ذكَر أحَد العُلَماء قال: إنَّ مُؤذِّنًا دعَتْ عليه أُمُّه بدَعْوة وكان رجُلًا صالِحًا، فلَمَّا صَعِدَ إلى المنارة، يُؤذِّن وإذا بامرَأة نَصرانية في سَطْح بيتها جميلة، فأَخَذت بلُبِّه فأَرسَل إليها يَخطُبها فقالَتْ: لا يُمكِن إلَّا إذا كنتَ نَصْرانيًّا. فحاوَلَ، فقالت: أبدًا. فتَنصَّر -والعِياذُ بالله- صار نَصْرانيًّا ارتَدَّ عن الإسلام الآنَ، فأَعاد الخِطْبة، قالَتْ: أنت لسْتَ مُسلِمًا ولا نصرانيًّا فلا أَحِلُّ لك، انظُرْ هذا الرجُلَ -نَسأَل الله العافِيَة- ارتَدَّ عن دِينه وصارت هذه المَرأةُ كيدُها أَعظَمُ من كيده، وقالت له: لستَ مُسلِمًا ولا نصرانيًّا، والنَّصرانية لا تَحِلُّ إلَّا للمُسلِم أو النَّصراني ارجِعْ وراءَك. نَسأَل الله العافِيَةَ.

واعلَموا أَنَّني إذا قُلْت: حُسْن خطابة الرَّجُل، أو احتِرازات، أو ما أَشبَه ذلك،

ليس مَعناه أنِّي أُخبِركم عن قِصَّة مضَت وتاريخ مضَى، لا، بل أُريد أن تَأخُذوا من ذلك عِبْرة تَسيرون عليها؛ لأنه ما دام أننا نُثني على هذا الرجُلِ بخِطابه ومُعالجَته للأُمور؛ فإننا نَحُثُّ على اتِّباع طريقه.

مسألة: هل يَجوز للكافِر أن يَتزوَّج مُؤمِنة؟

فالجَوابُ: لا يَجوز.

فإن قال: فِرعونُ وزَوْجته!.

فالجَوابُ: هذا إشكال صحيح، يَقول: هل يَجوز للكافِر أن يَتزوَّج مُؤمِنة. فنَقول: لا، فأَورَد علينا إشكالًا وهو: أنَّ امرأةَ فِرعونَ كانَت مُؤمِنة لا شكَّ، وهو أَكفرُ الكافِرين.

والجَوابُ: أنَّ هذا شَرْع مَن قَبْلنا، أمَّا شَرْعنا فلا.

وتُعرَف القاعِدة في الأصول: «أن شَرْع مَن قَبْلَنا هو شَرْع لنا، ما لم يَرِد شَرْعنا بخِلافه»، هذا من وَجْه.

ومن وَجْه آخَرَ قد يُقال: إن فِرعونَ أَكرَهَها على ذلك، وإنها لا تُحِبُّه؛ ولهذا تَقول: ﴿رَبِّ ٱبۡنِ لِي عِندَكَ بَيۡتٗا فِي ٱلۡجَنَّةِ وَنَجِّنِي مِن فِرۡعَوۡنَ وَعَمَلِهِۦ وَنَجِّنِي مِنَ ٱلۡقَوۡمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [التحريم:١١] لكن هو ظالِمٌ ولا يُبالي.

مسألة: هل لا يُستَحَبُّ للمُسلِم أن يَتزوَّج المرأة غير مُلتزِمة؛ لأنها قد تَرجِعه إلى طريقتها؟

فالجَوابُ: هذا صحيح؛ ولهذا قال الرسولُ عَلَيْهِٱلصَّلَاةُوَٱلسَّلَامُ: «**تُنْكَحُ المَرْأَةُ لِأَرْبَعَةٍ**»

ثُمَّ قال في النِّهاية: «فَاظْفَرْ بِذَاتِ الدِّينِ تَرِبَتْ يَدَاكَ»[١].

الْفَائِدَةُ الخَامِسَةُ: أن آل فِرعونَ قد غَلَبوا في مِصرَ، وظَهَروا عليها، ولم يَكُن لهم مُنازِع؛ لقوله: ﴿ظَٰهِرِينَ فِي ٱلْأَرْضِ﴾، ومِنْ ثَمَّ تكَبَّرَ فِرْعونُ، ولم يَخضَع لموسى؛ لأن موسى من بني إسرائيلَ، وهم قِلَّة أذِلَّة في مِصرَ، والغلَبة للأَقْباط.

الْفَائِدَةُ السَّادِسَةُ: أنَّ الظُّهور والغلَبة قد يَكونون سببًا للأَشَرِ والبطَر، إلَّا مَن وفَّقَه الله، فبعضُ الناس مَن أَعطاه الله تعالى سَبَبَ رِفْعَة لا يَزيده ذلك إلَّا تَواضُعًا للحَقِّ وللخَلْق، وبعض الناس إذا أَعطاه الله رِفْعَة صار هذا سببًا في تَعاليه على الخَلْق، واستِكباره عن الحَقِّ، وهذه مِحْنة يَجِبُ على المرء أن يُعالِج نفسه فيها، لا إذا أَعطاه الله مالًا يَذُمُّ ويَعلو ويَستَكبِر؛ فإنَّ الذي أَعطاه هذا المالَ قادِرٌ على أن يُتلِفه عليه، لا يَقول: إذا أَعطاه الله عِلْمًا: أنا عالِم، وأنا مَن أنا. ثُم يَتَعلَّى عن الحَقِّ وعلى الخَلْق، بل يَجِبُ على الإنسان كلَّما آتاه الله عِلمًا أن يَزْداد تَواضُعًا.

هذا ما أَقوله، وأَرجو أَنْ أَتَّصِفَ بِه وإيَّاكم، فعلى الإنسان أنْ يَعْرِف هذه المَسأَلةِ، وأن الله قد يَبْتَلِي الإنسان بالشيء الذي يَكون داعِيًا لعُلوِّه واستِكْباره عن الحَقِّ وعلى الخَلْق؛ فلْيَحذَر هذا الأمرَ.

الْفَائِدَةُ السَّابِعَةُ: قوة إيمان هذا الرَّجُلِ؛ وأنه لا دافِعَ ولا مانِعَ لما أَراد الله؛ لقوله: ﴿فَمَن يَنصُرُنَا مِنۢ بَأْسِ ٱللَّهِ إِن جَآءَنَا﴾، وهذا يَدُلُّ على كَمال يَقينه رحمه الله ورضِيَ عنه حيثُ آمَنَ بأنَّه إذا جاء بأسُ الله فإنَّه لا مَرَدَّ له.

الْفَائِدَةُ الثَّامِنَةُ: التَّلطُّف بالخِطاب، حتى يشعر الإنسان المُخاطَب وكأنَّه هو

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب النكاح، باب الأكفاء في الدين، رقم (٥٠٩٠)، ومسلم: كتاب الرضاع، باب استحباب نكاح ذات الدين، رقم (١٤٦٦)، من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

أوَّل مَن يُراد بهذا الأَمرِ، أو بهذا الخِطابِ؛ لقوله: ﴿فَمَن يَنصُرُنَا مِنۢ بَأۡسِ ٱللَّهِ إِن جَآءَنَا﴾ ولم يَقُلْ: فمَن يَنصُركم من بَأس الله إن جاءَكم، كل هذا من باب التَّنزُّل مع هَؤلاء، وإشعارهم بأنه واحِد منهم.

وقد يُقال: إن في هذا إشارةً إلى أنَّ العَذاب إذا نزَل يَعُمُّ الصالِح والفاسِد؛ ويَكون قوله: ﴿فَمَن يَنصُرُنَا مِنۢ بَأۡسِ ٱللَّهِ إِن جَآءَنَا﴾ يُراد به حقيقته؛ أي: أنه هو سيُصيبه ما أَصابَهم، ويَكون هذا شاهِده قول الله تعالى: ﴿وَٱتَّقُواْ فِتۡنَةً لَّا تُصِيبَنَّ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنكُمۡ خَآصَّةً﴾ [الأنفال:٢٥]، وهذا ليس ببَعيد.

الْفَائِدَةُ التَّاسِعَةُ: أنه إذا نزَل بَأْس الله فإنه لا مَرَدَّ له، ويَدُلُّ لهذا قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا رَأَوۡاْ بَأۡسَنَا قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَحۡدَهُۥ وَكَفَرۡنَا بِمَا كُنَّا بِهِۦ مُشۡرِكِينَ ﴿٨٤﴾ فَلَمۡ يَكُ يَنفَعُهُمۡ إِيمَٰنُهُمۡ لَمَّا رَأَوۡاْ بَأۡسَنَا﴾ [غافر:٨٤-٨٥]، ولا يُستَثْنى من هذا أَحدٌ، فكُلُّ مَن أَتاهم بأسُ الله فإنهم لن يَنجوا ولو آمَنوا.

فهل استُثْني من هذا أَحَدٌ؟

قال الله تعالى في قوم يُونُس: ﴿فَلَوۡلَا كَانَتۡ قَرۡيَةٌ ءَامَنَتۡ فَنَفَعَهَآ إِيمَٰنُهَآ﴾ يَعنِي: إذا نزَل بها العَذابُ ﴿إِلَّا قَوۡمَ يُونُسَ لَمَّآ ءَامَنُواْ كَشَفۡنَا عَنۡهُمۡ عَذَابَ ٱلۡخِزۡيِ﴾ [يونس:٩٨]، وخُصَّ قومُ يُونُسَ لِحِكْمة -لأنَّ الله عَزَّوَجَلَّ لا يُمكِن أن يَخُصَّ أحَدًا بشيء إلَّا بحِكْمة، الناس عِنده سَواءٌ ﴿إِنَّ أَكۡرَمَكُمۡ عِندَ ٱللَّهِ أَتۡقَىٰكُمۡ﴾ [الحُجُرات:١٣]- والحِكْمة: أنَّ يُونُسَ عَلَيۡهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ خرَجَ مِنْ قومِهِ مُغاضِبًا قبل أن يُؤذَن له، وكأنه لم يَستكمِل الدَّعْوة، فلم تَقُم عليهمُ الحُجَّة الكامِلة؛ ولهذا نجَوْا حين آمَنوا بعد رُؤْية العَذاب، فصار إنجاؤُهم له حِكْمة، وهو خُروج نبيِّهم مُغاضِبًا قبل أن يُؤذَن له؛ فكأنه لم يَستكمِل إقامة الحُجَّة عليهم، فصار في هذا نوعُ عُذْر لهم؛ فأَنجاهم الله عَزَّوَجَلَّ.

فإن قال قائل: يُشكِل على هذا: أنَّ نوحًا عَلَيْهِ السَّلَامُ قال لقَوْمه: ﴿يَغْفِرْ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُؤَخِّرْكُمْ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّىۚ إِنَّ أَجَلَ ٱللَّهِ إِذَا جَآءَ لَا يُؤَخَّرُ﴾[نوح:٤]، فكيف قال: إنَّهم إذا آمَنوا يَغفِر لهم من ذُنوبهم، ويُؤخِّرهم إلى أجَلٍ مُسمًّى. ثُمَّ قال: ﴿إِنَّ أَجَلَ ٱللَّهِ إِذَا جَآءَ لَا يُؤَخَّرُ﴾ كان من الأوَّل يَقول: ﴿وَيُؤَخِّرْكُمْ إِلَىٰٓ أَجَلٍ﴾ والثاني: يَقول: ﴿إِنَّ أَجَلَ ٱللَّهِ إِذَا جَآءَ لَا يُؤَخَّرُ﴾؟

فالجَوابُ: يَعنِي: أُحذِّركم من العَذاب، فإنه إذا جاء لا يُؤخَّر، لكن إذا آمَنْتم أخَّرَكم إلى أجَلٍ مُسمًّى، وعلى هذا فلا تَناقُضَ في الآية.

الْفَائِدَةُ الْعَاشِرَةُ: قال الله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ: ﴿قَالَ فِرْعَوْنُ﴾ إلى آخِره، في هذه الجُمْلةِ والتي بعدَها: دليلٌ على تَمويه فِرعونَ وغِشِّه وكذِبه وضَلالِه؛ لأنه خَدَع قومَه، بقوله: ﴿مَآ أُرِيكُمْ إِلَّا مَآ أَرَىٰ وَمَآ أَهْدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ ٱلرَّشَادِ﴾ وكذَب في قوله: ﴿وَمَآ أَهْدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ ٱلرَّشَادِ﴾ قَطْعًا، وكذَب في قوله: ﴿مَآ أُرِيكُمْ إِلَّا مَآ أَرَىٰ﴾ على أَحَد الاحتِمالَيْن.

الْفَائِدَةُ الحَادِيَةَ عَشْرَةَ: أنَّ أهل الباطِل قد يَكون لدَيْهم زُخرُف من القَوْل غرور؛ لأنَّ مثل هذا الزَّعيم الذي وصَلَت به الزَّعامة إلى أن جعَلوه رَبًّا إذا قال: ﴿مَآ أُرِيكُمْ إِلَّا مَآ أَرَىٰ وَمَآ أَهْدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ ٱلرَّشَادِ﴾ سوف يَخدَع قومَه بلا شَكٍّ، وعلى هذا فيَجِب علينا الحَذَر من خِداع بعض الناس، إذا قالوا: نحن نُريد كذا، ونُريد كذا من الإِصْلاح؛ فيَجِب أن نَنظُر لأَفْعالهم، هل تَشهَد أفعالُهم لأقوالهم، إن كان الأَمْر كذلك فَهُم صدَقة برَرَة، وإن كانوا بالعَكْس فهم كذَبة غَشَشة، يَخدَعون بزُخْرف القول غُرورًا؛ ولهذا كان الإنسان الذي لدَيْه فِراسة، لا يَغتَرُّ بظاهِر الأقوال، وإنما يَقيس ما يَقوله، أو يَعتَبِر ما يَقوله بما يَفعَله، فإذا رأَى أن أَفعالَه تُخالِف أقواله عَلِم أنه كاذِبٌ غشَّاش، وإذا رأَى أنَّ أَفْعاله تُصدِّق أقواله صار صادِقًا وصار مُخلِصًا لمُوافَقة باطِنه لظاهِره.

الْفَائِدَةُ الحَادِيَةَ عَشْرَةَ: أنَّ كل أحَدٍ يَعرِف أن الرُّشْد مَطلوب، وأن الغَيَّ مَكروهٌ، يُؤخَذ ذلك من قوله: ﴿مَآ أُرِيكُمْ إِلَّا مَآ أَرَىٰ وَمَآ أَهْدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ ٱلرَّشَادِ﴾ قول فِرعونَ لقَوْمه في الجُمْلة الثانية، إِذَنْ هم يَعرِفون أنَّ الرشاد أَمْرٌ مَطْلُوب، كلُّ إنسانٍ -حَتَّى الكَافِر- يَرَى أنَّ الرُّشْد أَمْر مَطلوب، والرُّشْد الحَقيقيُّ هو اتِّباع الهُدَى، لكن التَّمويه مُشكِل.

• ● ۞ ● •

الآيتان (٣٠، ٣١)

• • ◦ • •

❁ قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِىٓ ءَامَنَ يَٰقَوْمِ إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُم مِّثْلَ يَوْمِ ٱلْأَحْزَابِ ﴿٣٠﴾ مِثْلَ دَأْبِ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَٱلَّذِينَ مِنۢ بَعْدِهِمْ ۚ وَمَا ٱللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِّلْعِبَادِ﴾ [غافر: ٣٠-٣١].

• • ◦ • •

ثُمَّ قال: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِىٓ ءَامَنَ يَٰقَوْمِ إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُم﴾ في الأوَّل قال: ﴿وَقَالَ رَجُلٌ مُّؤْمِنٌ مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ يَكْتُمُ إِيمَٰنَهُۥٓ﴾، وهنا قال: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِىٓ ءَامَنَ﴾ فنقولُ: كرَّر هذا الوَصْفَ لهذا الرجُلِ لطول الحَديث والفَصْل، قال: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِىٓ ءَامَنَ﴾ أمَّا اختِلاف الجُمْلتين فإنَّ الثانية تُؤكِّد الأُولى، بأنَّ هذا الرجُلَ قدِ اصطَبَغ بالإيمان، وحَقَّق الإيمان.

وقوله: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِىٓ ءَامَنَ يَٰقَوْمِ إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُم مِّثْلَ يَوْمِ ٱلْأَحْزَابِ﴾ ﴿يَٰقَوْمِ﴾ يَعنِي بذلك: فِرعونَ وقَوْمه، وهذا من باب التَّلطُّف في المَقال، ﴿إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُم مِّثْلَ يَوْمِ ٱلْأَحْزَابِ﴾ يَعنِي: الطَّوائِف السابِقة، وكأنَّ هذا الرجُلَ مُلهَم، عنده عِلْمٌ بأَحْوال الأُمَم السابِقين، وسيَأتِي -إن شاء الله- الكَلام على فائِدةِ هذه الجُمْلةِ.

وقوله: ﴿يَٰقَوْمِ إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُم مِّثْلَ يَوْمِ ٱلْأَحْزَابِ﴾ ﴿يَٰقَوْمِ﴾ معروف أنَّ ياءَ النِّداء إذا دخَلَت على نَكِرة مَقصودة، فإنها تُبنَى على الضَّمِّ، كما إذا دخَلت على مَعرِفة، وهنا لم تَكُن مَبنيَّة على الضَّمِّ، بل آخِرها الكَسْر، فيُقال: إن أَصلَها (يا قَومي)، ولكن

حُذِفت الياءُ للتَّخفيف، وفي قوله: ﴿يَٰقَوۡمِ﴾ تَلطُّف بدعوتهم، وإلَّا فهُمْ مُعادون له؛ لأنهم كُفَّار وهو مُؤمِن، لكن من باب التَّلطُّف في الدَّعْوة إلى الله عَزَّوَجَلَّ قال لهم: ﴿يَٰقَوۡمِ إِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيۡكُم مِّثۡلَ يَوۡمِ ٱلۡأَحۡزَابِ﴾ أكَّد الجُمْلة، وإن كانت مُستَقِرَّة في نفسه، لكن المُخاطَب بها فَعَله فِعْلَ المُنكِر لها.

قال المفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿مِّثۡلَ يَوۡمِ ٱلۡأَحۡزَابِ﴾ أي: يوم حِزْب بَعْد حِزْب]، ثُم أَبْدَل منه قوله: ﴿مِثۡلَ دَأۡبِ قَوۡمِ نُوحٖ﴾: ﴿دَأۡبِ﴾ بمَعنَى: عادة، وذَكَر قوم نُوحٍ؛ لأنه هو أوَّلُ رَسول أُرسِل إلى أهل الأرض، ﴿وَعَادٖ وَثَمُودَ﴾، وكل هَؤلاءِ مُتقدِّمون بَعيدو العَهْد، قبل موسى وقبل فِرعونَ؛ فهُمْ من أوائِل الرُّسُل. ﴿قَوۡمِ نُوحٖ وَعَادٖ﴾، (عاد) مَعطوفة على ﴿قَوۡمِ﴾، ولا يَصِحُّ أَنْ تكون مَعطوفة على ﴿نُوحٖ﴾؛ لأنَّها لو كانت مَعطوفة على ﴿نُوحٖ﴾ لكان المَعنى مِثْل قوم عادٍ، ولا يَستَقيم الكلام، بل مِثْل عاد وهُمْ قَوْم هُود، وثَمودَ قومِ صالِحٍ.

وقوله: ﴿مِثۡلَ دَأۡبِ قَوۡمِ نُوحٖ﴾ (مِثل) هذه بدَل من (مِثْل) التي قَبلَها، ﴿مِّثۡلَ يَوۡمِ ٱلۡأَحۡزَابِ﴾ ﴿مِثۡلَ دَأۡبِ﴾ والبَدَل أحَدُ التَّوابع الأربعة المَعروفة من قول ابنِ مالِكٍ رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

يَتْبَعُ فِي الْإِعْرَابِ الَاسْمَاءَ الْأُوَلْ ... نَعْتٌ وَتَوْكِيدٌ وعَطْفٌ وَبَدَلْ[1]

وَعلامة البدَل أنه يَصِحُّ أن يَحِلَّ مَحَلَّ المُبدَل منه، يَعنِي: يَصِحُّ أن يُحذَف المُبدَل منه ويَحِلُّ مَحلَّه البدَل.

فإن قال قائِل: ما الفائِدةُ من أن نَأتِيَ بالمُبدَل منه ثُم بالبَدَل، لماذا لم نَأْتِ بالبدَل من أوَّل الأمر؟

---

(١) الألفية (ص:٤٤).

فالجَوابُ: لا بُدَّ أن يَكون هناك فائِدة، إمَّا تَفْصيلٌ بعد إجمال، أو تَبيِينٌ بعد إبهام، أو ما أَشبَه ذلك، ولا بُدَّ أن يَكون للبَدَل فائِدة.

وقوله: ﴿مِثْلَ دَأْبِ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ﴾... إلى آخِره. مِثْل دَأْبهم، هو لا يُريد مثل دَأْبهم، يُريد مثل جزاء دَأْبهم؛ لأن هناك دَأْبًا وهناك جَزاءً؛ فالجَزاءُ مِنَ الله، والدَّأْب من الأُمَم، أو من الأحزاب، ﴿مِثْلَ دَأْبِ﴾ يَعنِي مثل جَـزاء دَأْبهم، وبَيَّن الله تعالى دَأْبهم بقوله: ﴿كَدَأْبِ ءَالِ فِرْعَوْنَ وَالَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ كَفَرُوا بِـَٔايَٰتِ اللَّهِ﴾ [الأنفال:٥٢] أو ﴿كَذَّبُوا بِـَٔايَٰتِ﴾ [الأنفال:٥٤] هذا هو دَأْبهم.

وقوله: ﴿مِثْلَ دَأْبِ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ﴾ هَؤلاء كلُّهم دَأْبهم التَّكْذيب بالرُّسُل والكُفْر بهم، ﴿وَالَّذِينَ مِنۢ بَعْدِهِمْ﴾ من بعد قَوْم نُوح، وهم أَوَّل الأُمَم، وعاد، وسيَأْتي أن هُودًا أَشار إلى يُوسُف بنِ يَعقوبَ بنِ إبراهيمَ عليهم الصلاة والسلام.

قال المفَسِّر رَحِمَهُ اللَّهُ: [مِثْل بدَل مِن مِثْل قَبلَه أي: مِثْل جَزاء عادة مَن كَفَر].
فأَفاد المفَسِّر رَحِمَهُ اللَّهُ أن في الكَلام تَقديرًا أي: أن في الكَلام شَيْئًا مَحذوفًا، وهو جَزاء، أي: مِثْل جزاء دَأْبهم؛ لأن هذا هو الذي يُخاف منه أن يَنال هؤلاءِ القَومَ عُقوبةٌ، كما نال هَؤلاءِ.

فإذا قال قائِل: كيف يُطلَق العمَل على الجَزاء؟

قُلنا: لأنه سببُه، وهذا في القُرآن كثير أنَّ الله تعالى يُطلِق العمَل على الجَزاء مِثْل: ﴿ذُوقُوا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [العنكبوت:٥٥]، المَعنَى: ذوقوا جَـزاءَه، لكن يُعبَّر به -أي: بالعمَل- عن الجَزاء، لأن الجَزاء من جِنْس العمَل، وحتى يَحذَر الإنسان من عمَله، كما يَحذَر من عُقوبة عمَله.

يَقول المفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [مِثْل بدَل من مِثْل قبله؛ أي: مِثْل جزاء عادة مَن كفَر قَبلَكم من تَعذيبهم في الدُّنيا]، إذن مِثْل دَأْب ما هي مِثْل عادتهم، إلَّا إذا أُريد إضافتُها إلى المَفعول به؛ أي: مِثْل العادة التي أَوقَعها الله بهم، لكن كان المفَسِّر جعَلها مُضافة إلى الفاعِل، وأنَّها على تَقدير مثل جزاء عادة؛ لأن الجَزاء من الله، والعادة من هَؤلاء الأقوامِ من الأحزابِ، العادة عادة الأحزاب، والعُقوبة عُقوبة الله.

فإمَّا أن نَقول: إنَّ الكلام على تَقدير: مِثْل عُقوبة عادة قَوْم نُوحٍ.. إلى آخِره، أو نَقول: مِثْل دَأْب قوم نُوحٍ؛ أي: مِثْل العادة التي فعَلها الله بهم، والمَعنَى واحِد. والمُراد أنه يَخاف عليهم مِثْل هذه الأيامِ التي هي عُقوبة لهَؤلاء الذين كذَّبوا رُسَله.

وقوله: ﴿وَمَا ٱللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِّلْعِبَادِ﴾ (ما) نافِية وهي حِجازِية؛ لأن هذا القُرآنَ باللُّغة الحِجازِية، انظُروا إلى قوله تعالى: ﴿مَا هَٰذَا بَشَرًا﴾ ولم يَقُل: ما هذا بشَرٌ؛ فنَحْمِل كل ما كان على شاكِلَتها عليها، والصحيح أن ﴿وَمَا ٱللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِّلْعِبَادِ﴾ لا تَتبيَّن أنها حِجازِية أو تَميمية؛ لأن الخَبَر جملة ليس مُفرَدًا، يَظهَر فيه النَّصْب؛ لكن يُحمَل ما لا يَظهَر فيه الإعراب على ما ظهَر فيه الإعراب، وهو قوله: ﴿مَا هَٰذَا بَشَرًا﴾.

ثُم اعلَمْ أنَّ القُرآن إنها كُتِب بلُغة قُرَيْش، كما قال عُثْمانُ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ للذين كتَبوا المَصاحِف قال: إنِ اختَلَفْتُم في شَيْءٍ فاجْعَلوه على حَرْف قُرَيْش[1]. يَعنِي: على لُغتها.

فقوله: ﴿وَمَا ٱللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِّلْعِبَادِ﴾ (ما) نافِية، تَعمَل عمَل ليس لتَمام الشروط، ولفظ الجَلالة اسمِها، ويُريد الجُمْلة جُمْلة هي خبَرها، ولو كانَتِ اسمًا لكان التَّقديرُ: وما الله مُريدًا.

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب المناقب، باب نزل القرآن بلسان قريش، رقم (٣٥٠٦)، من طريق أنس رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ.

وقوله: ﴿وَمَا ٱللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِّلْعِبَادِ﴾ الظُّلْم يَتناوَل شيئين: إمَّا الزِّيادة في الآثام، وإمَّا النَّقْص في الحسَنات. وكلُّه مُمتَنِع بالنِّسبة لله عَزَّوَجَلَّ لا يُمكِن أن يَقَع منه، ولا يُمكِن أن يُريده؛ لكمال عَدْله.

من فوائدِ الآيتين الكريمتين:

الْفَائِدَةُ الأُولَى: شِدَّة خَوْف هذا الرجُلِ من عِقاب الله، وهذا يَدُلُّ على كَمال إيمانه؛ لأنه لا يَخاف أحَدٌ من شيء إلَّا وهو مُؤمِن به.

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَةُ: أنَّ عند هذا الرَّجُل عِلمًا من نَبأ الأوَّلين؛ لقوله: ﴿مِّثْلَ يَوْمِ ٱلْأَحْزَابِ ﴿٣٠﴾ مِثْلَ دَأْبِ قَوْمِ نُوحٍ﴾ إلى آخره.

الْفَائِدَةُ الثَّالِثَةُ: بَيانُ نُصْح هذا الرجُلِ المُؤمِن؛ حيث حذَّر قومَه من عَذاب الله، وفيه دليلٌ على التَّلطُّف في الدعوة إلى الله، وأنَّ الإنسان لا يَستَعمِلُ في الدَّعْوة إلى الله عاطِفته؛ لأنَّه إنِ اسْتَعمَل عاطِفته أَخَذَتْه الغَيرة، ففعَل ما لا يُحْمَد عُقباه، وإنَّما يُحكِّم العَقْل، ويَنظُر إلى العَواقِب والنَّتائج، ولا ضيرَ على الإنسان إذا أَصابَه ذُلٌّ في أوَّل الأَمْـر، إذا كانت النَّتيجة طيِّبة، ولا أَظُنُّه يَخفَـى عليكم ما حصَل للنَّبيِّ ﷺ وأصحابه في غَزوة الحُدَيْبية، من الشُّروط التي ظاهِرها الإهانة، ولكنَّها كانَتْ نَتيجتها طيِّبة، حتى إنَّ الله تعالى سمَّاها فَتْحًا: ﴿لَا يَسْتَوِى مِنكُم مَّنْ أَنفَقَ مِن قَبْلِ ٱلْفَتْحِ وَقَٰتَلَ﴾ [الحديد:١٠].

فالحاصِلُ: أنه يَنبَغي للإنسان عند الدَّعوة إلى الله أن لا يُحكِّم العاطِفة، فتَزِلَّ قدَمه، ولكن يُحكِّم العقْل، ويَنظُر إلى العَواقِب والنَّتائج.

الْفَائِدَةُ الرَّابِعَةُ: بَيان أنَّ ذِكْرَ الأُمم السابِقة يَنتَشِر في الأُمَم اللاحِقة؛ إمَّا بواسِطة

الكتُب المُنزَّلة، وإمَّا بواسِطة التاريخ المَنقول. ويَدُلُّ لذلك قوله: ﴿يَٰقَوۡمِ إِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيۡكُم مِّثۡلَ يَوۡمِ ٱلۡأَحۡزَابِ﴾؛ لأنه لا يُمكِن أن يُخوِّفهم بأَمْر لا يَعرِفونه، ولو كان الأَمْر كذلك، لقالوا: ما هذه الأيامُ؟ أو ما هذا الجزاءُ؟.

الْفَائِدَةُ الخَامِسَةُ: أنَّه يَنبَغي للإنسان أن يَكون عِنده عِلْمٌ بأحوال الأُمَم السابِقة، من أَجْل أن يَكون مُعتَبِرًا بمَن مَضى فيمَن بَقِيَ، وعلى هذا فعِلْم التاريخ عِلْم مُهِمٌّ، ولكن يَجِبُ أن نَعلَم أنَّ التاريخ أَصابه شيء من الوَضْع -أي: من التَّحريف والتَّغيير، والكَذِب، والزِّيادة والنَّقْص- فعلي الإنسان أن يَحتاط في هذا، حتى لا يَنقُل أو لا يَروِيَ إلَّا الصحيح.

الْفَائِدَةُ السَّادِسَةُ: أنَّ قوم نُوحٍ وعادًا وثَمودَ كانوا أوَّلَ الأحزاب؛ لقوله: ﴿وَٱلَّذِينَ مِنۢ بَعۡدِهِمۡ﴾.

الْفَائِدَةُ السَّابِعَةُ: تَحذير اللاحِق أن يُصيبَه ما أَصاب السابِق؛ لقوله: ﴿مِّثۡلَ يَوۡمِ ٱلۡأَحۡزَابِ ﴿٣٠﴾ مِثۡلَ دَأۡبِ قَوۡمِ نُوحٖ﴾.

ووجهُ ذلك: أنَّ الله سُبۡحَانَهُۥ وَتَعَالَىٰ سُنَّته في خَلْقه واحِدة، هو لا يُعذِّب هؤلاء لأنه يَكرَههم شخصيًّا، يُعذِّب هـؤلاءِ لأنه يكرَه عمَلهم، فإذا وجَد عمَلهم في آخرين فالكَراهة حاصِلة، واذْكُرْ قول الله تعالى: ﴿أَفَلَمۡ يَسِيرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَيَنظُرُواْ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡۖ دَمَّرَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِمۡۖ وَلِلۡكَٰفِرِينَ أَمۡثَٰلُهَا﴾ [محمد:١٠].

وحذَّر شعيبٌ عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ قومَه أَنْ يُصيبَهم ما أَصاب مَن قبلَهم.

فالحاصِلُ: أنَّ الأُمَم لَا بُدَّ أَنْ يَتَّعِظ اللاحِق بالسابِق، بِناءً على أن سُنَّة الله واحِدة.

الْفَائِدَةُ الثَّامِنَةُ: انتِفاء إرادة الله الظُّلْم لعِباده، وما الله يُريد ظُلْمًا للعِباد، ومَعلوم

أنَّها إذا انتَفَتِ الإرادة انتَفَى الفِعْل فنَفيُ إرادة الظُّلْم نَفيٌ للظُّلْم من بابِ أَوْلى، كما أنه جاءَت آياتٌ صَريحَةٌ في نَفيِ الظُّلْم عن الله عَزَّوَجَلَّ، فقال: ﴿وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا﴾ [الكهف:٤٩]، وقال: ﴿وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّامٍ لِّلْعَبِيدِ﴾ [فُصِّلَت:٤٦]، وقال: ﴿مَا يُبَدَّلُ الْقَوْلُ لَدَيَّ وَمَا أَنَا بِظَلَّامٍ لِّلْعَبِيدِ﴾ [ق:٢٩].

الْفَائِدَةُ التَّاسِعَةُ: إثبات اتِّصاف الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى بالنَّفيِ؛ أي: أنَّ الله يَتَّصِف بالصِّفات المَنفيَّة التي يُعبِّر عنها بعض العُلَماء بالصِّفات السَّلْبية، لأن النفيَ سَلْب.

ولكن إذا قال قائِل: هل في النَّفيِ ثَناء ومَدْح، مع أنَّ الله عَزَّوَجَلَّ يقول: ﴿وَلِلَّهِ الْمَثَلُ الْأَعْلَىٰ﴾ [النحل:٦٠]، فصِفات الله تعالى كلُّها صِفات كَمال، والنفيُ عدَمٌ فهل يَكون فيه مَدْح وثَناءٌ؟

الجَوابُ: نَقولُ: أمَّا بالنِّسبة لغير الله عَزَّوَجَلَّ، فإنه لا يَدُلُّ على الكَمال، ولا على المَدْح؛ أمَّا بالنِّسبة لله فيَتعيَّن أن يَكون دالًّا على الكَمال؛ لقوله تَعالى: ﴿وَلِلَّهِ الْمَثَلُ الْأَعْلَىٰ﴾ فكلُّ نَفيٍ نَفاه الله عن نفسه، فإنه مُتضَمِّنٌ لكَمال؛ دَليلنا هذه الآيَةُ: ﴿وَلِلَّهِ الْمَثَلُ الْأَعْلَىٰ﴾ وإلَّا فالنَّفيُ المُجرَّد لا يَدُلُّ على الكَمال إطلاقًا، بل أَحيانًا يَدُلُّ على النَّقْص، فقول الشاعِر مثَلًا:

قُبَيِّلَةٌ لا يَغْدِرُونَ بِذِمَّةٍ ... وَلَا يَظْلِمُونَ النَّاسَ حَبَّةَ خَرْدَلِ[1]

وصَفهم بأنهم لا يَغدِرون بالعَهْد، وأنهم لا يَظلِمون، وهذا في ظاهِره مَدْح؛ لكنَّه في الواقِع يَذُمهم بأنهم ناس جُبَناءُ، وضُعَفاءُ، لا يَغدِرون لأنهم لا يَستَطيعون

---

(١) البيت ينسب للنجاشي الحارثي قيس بن عمرو، انظر: الحماسة الصغرى لأبي تمام (ص:٢١٥-٢١٦)، والشعر والشعراء لابن قتيبة (١/ ٣١٩)، وخزانة الأدب للبغدادي (١/ ٢٣٢).

لجُبْنهم، ولا يَظلِمون لا يَستَطيعون لضَعْفهم، وكذلك قولُ الشاعِرِ الآخَر[1]:

لَكِنَّ قَـوْمِي وَإِنْ كَـانُوا ذَوِي عَـدَدٍ لَيْسُوا مِنَ الشَّـرِّ فِي شَيْءٍ وَإِنْ هَانَـا

يَعنِي: ليسوا هُمْ للشَّرِّ إطلاقًا ولو هانَ.

يَجْزُونَ مِنْ ظُلْمِ أَهْلِ الظُّلْـمِ مَغْفِـرَةً وَمِنْ إِسَـاءَةِ أَهْـلِ السُّـوءِ إِحْسَـانَا

ثُم قال:

فَلَيْـتَ لِي بِهِـمُ قَوْمًـا إِذَا رَكِبُـوا شَـنُّوا الْإِغَـارَةَ فُرْسَـانًا وَرُكْبَانَـا

هنا يَذُمُّهم مع أنهم إذا ظُلِموا غفَروا لمَن ظلَمهم، وإذا أُسيءَ إليهم أَحسَنوا لمَن أَساء إليهم، وهذه صِفة قد تَبدو مَطلوبة محمودة، لكن إذا كان السبَب في ذلك أنهم ضُعَفاءُ صارَت مَذمومة.

وقد يَكون النَّفيُ لعدَم صلاحية هذا الوَصْفِ لما نُفِيَ عنه، قد يَكون نَفيُ الشيء عن الشيء؛ لأنه غيرُ قابِل وغير صالِح لأن يُوصَف به، كما إذا قُلت: الجِدار لا يَظلِم. فهذا ليس مَدْحًا للجِدار؛ لأنه غير قادِر ولا صالِح للظُّلْم أو عدَم الظُّلْم، فتَبيَّن بذلك أنَّ الله تعالى لا يَنفِي عن نَفْسه شيئًا إلَّا لكَمال ضِدِّ هذا المَنفيِّ، لا لأنه غير قابِل له، أو غير صالِح في حَقِّه، وما أَشبَه ذلك. من الناحِية العَقْلية.

وهذا الظُّلْمُ المَنفيُّ عن الله لكَمال العَدْل جائِز؛ لكنه مُستَحيل على الله تعالى لكَمـاله؛ خِلافًا للجَهْمية، الذين قالوا: إن الظُّلْم مُستَحيل على الله لذاته -لذات الظُّلْم-؛ لأنه إذا كان مُستَحيلًا لذاته، لم يَكُن مَدْحًا، المُستَحيل لذاته لا يَمدَح من

(١) ذكره أبو تمام في ديوان الحماسة (ص:١١) عن رجل من بَلْعنبر يقال له: قُرَيط بن أُنَيْف.

استَحال عليه على ذلك؛ لأنه مُستَحيل، وهم يَقولون: إنه مُستَحيل لذاته؛ لأنَّ الخَلْق كله مُلْكه ويَفعَل في مُلْكه ما يَشاء، ومَن تَصَرَّف في مُلْكه؛ فإنَّه لا يُقال: إنه ظالِمٌ ولو قدَّم شَيْئًا على شيء، أو نقَص شيئًا عن حَقِّه، ولكنَّا نَقول: إن الله تعالى صرَّح بأنه حَرَّم الظُّلْم على نَفْسه، وهذا يَدُلُّ على أنَّ الظُّلْم في حَقِّه مُمكِن عقلًا، لكنه حَرَّمه على نفسه لكَمالِ عَدْله.

والخُلاصة الآنَ: أنه لا يُمكِن أن يُوجَد في صِفات الله تعالى نَفيٌ مَحْض أبَدًا؛ الدليل: قوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْمَثَلُ ٱلْأَعْلَىٰ﴾ والنَّفيُ المَحْض ليس من المَثَل الأعلى في شيء، ولكن إذا نفَى الله شيئًا عن نفسه، فالمُراد إثباتُ كَمال ضِدِّه، يَعنِي: أنه لثُبوت كَمال ضِدِّه انتَفَى عنه هذا الشيءُ؛ فضِدُّ الظُّلْم العَدْل، إِذَنْ نُثْبِت من نَفيِ الظُّلْم عن الله كَمال عَدْله، وأنه جَلَّوَعَلَا لعَدْله لا يَظلِم، لا لعَجْزه، هو قادِر على أن يَظلِم، لكنَّه لا يَظلِم لكَمال عَدْله.

ولا يُوجَد نَفيٌ في صِفات الله إلَّا لكَمـال ضِدِّه قال تعالى: ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ وَمَا مَسَّنَا مِن لُّغُوبٍ ﴾ [ق:٣٨]؛ لكَمال قُوَّته؛ لا لأن اللُّغوب لا يَلحَقه، لكن لكَمال قُوَّته لا يَلحَقه اللُّغوب، وليس المَعنَى أنَّه ليس مِمَّا يُمكِن أنْ يَلْحَقه اللُّغُوب، لا لكِنَّه مُستَحيل لكَمال قُوَّته.

قال أَهلُ العِلْم رَحِمَهُمُ اللَّهُ: وإنَّما قُلْنا بذلك؛ لأن النَّفيَ المَحْض عدَمٌ مَحْض، النَّفيُ المَحضُ: نفَيْت الشيء مَعناه: أنه غيرُ مَوْجود، والعدَم المَحْض ليس بشيء، فَضْلًا عن أن يَكون مَدْحًا؛ لأنه عَدَم العَدَم لا يُمدَح عليه، وإمَّا أَنْ يَكون النَّفيُ مُتضمِّنًا لإثبات، هذا الإثباتُ قد يَكون عَجْزًا.

ولهذا جاء في الحَديث الصَّحيح القُدسيِّ: «يَا عِبَادِي إِنِّي حَرَّمْتُ الظُّلْمَ عَلَى نَفْسِي»(١) لم يَقُل: يا عِبادي، إنني لا أَستَطيعُ أن أَظلِم. قال: «إِنِّي حَرَّمْتُ الظُّلْمَ عَلَى نَفْسِي» وهذا يَدُلُّ على أنه قادِر على أن يَظلِم، لكنه لا يَظلِم لكَمال عَدْله، ولو كان غير قادِر أن يَظلِم لم يَكُن انتِفاء الظُّلْم عنه مدحًا؛ لأنه عاجِز، لكنه قادِر، ولكنه لا يَظلِم، وأَقولُ هذا؛ لأنَّ الجَهْمية وغيرهم قالوا: إنَّ الله لا يَستَطيعُ أَنْ يَظلِم أَبدًا، وإلى هذا أَشار ابنُ القيِّمِ في النُّونية حين قال(٢):

وَالظُّلْمُ عِنْدَهُمُ المُحَالُ لِذَاتِهِ ....

يَعنِي: أنه مُستَحيل لذاته، لا لكَمال الله لكن لذاته، لا يُمكِن أن يَظلِم، قال: لأنَّ الظُّلم أن يَتَصرَّف الإنسان في مُلْك غيره، والله عَزَّوَجَلَّ يَتَصرَّف في مُلْكه فإذا ظلَم لم يَكُن ظالِمًا؛ لأن هذا مُلْكه، فيُقال: تبًّا لعُقولكم الفاسِدة؛ إذا وعَد المُؤمِن بشيء، ولكن على عمَل مُعيَّن، هو عمِل هذا العمَلَ ولم يُعطِه إيَّاه، يَكون ظُلمًا ولا شكَّ في هذا، وأنتم تَقولون: يَجوز أن يُثيب العاصِيَ الذي يَعصِي الله كل عُمْره، ويُعاقِب المُطيع الذي يَعمَل بطاعة الله كل عُمْره، وأنَّ الأمرين على حدٍّ سواءٍ؛ لأنه لا يَظلِم حيثُ إنه يَتصَرَّف في مُلْكه، فنَقول: هذا لا شَكَّ أنه سَفَه في العَقْل، وضَلالٌ في الدِّين والله عَزَّوَجَلَّ وعَدَ العامِل عملًا صالِحًا بالثَّواب، والمُخالِف بالعِقاب. كيف يَجوز أن يُخلِف الله وَعْده.

المُهِمُّ: هذا قولٌ باطِل، ولا شكَّ في بُطْلانه، ومُجرَّد تَصوُّره يَعرِف الإنسان أنه باطِل.

---

(١) أخرجه مسلم: كتاب البر والصلة، باب تحريم الظلم (٢٥٧٧)، من حديث أبي ذر الغفاري رَضِيَاللَّهُعَنْهُ.
(٢) النونية (ص:٨).

فقوله تعالى: ﴿وَمَا ٱللَّهُ يُرِيدُ ظُلۡمٗا لِّلۡعِبَادِ﴾ نَقول: نَفيُ إرادة الظُّلْم يَستَلزِم كَمال عَدْله، وهو أيضًا يَستَلزِم نَفيَ الظُّلْم؛ لأنَّ مَن لا يُريد الظُّلْم لا يُمكِن أن يَفعَل الظُّلْم.

• ● ❁ ● •

الآيتان (٣٢، ٣٣)

• • ෆ • •

۞ قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَيَٰقَوْمِ إِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ يَوْمَ ٱلتَّنَادِ ﴿٣٢﴾ يَوْمَ تُوَلُّونَ مُدْبِرِينَ مَا لَكُم مِّنَ ٱللَّهِ مِنْ عَاصِمٍۗ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ﴾ [غافر:٣٢-٣٣].

• • ෆ • •

ثُم قال الله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ: ﴿وَيَٰقَوْمِ إِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ يَوْمَ ٱلتَّنَادِ﴾ رضي الله عن هذا الرجُلِ، خـوَّفهم أوَّلًا بالعُقوبة الدُّنيـوية؛ حيـن قال: ﴿إِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيْكُم مِّثْلَ يَوْمِ ٱلْأَحْزَابِ﴾ ثُم خـوَّفَهم من العُقوبة الأُخْروية، فقال: ﴿وَيَٰقَوْمِ إِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ يَوْمَ ٱلتَّنَادِ﴾ قال المفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [بحذْف الياء وإثباتِها] «التَّنادِى» هذا إثباتُها، (التَّنادِ) هذا حَذْفها، أمَّا إثباتها فعلى الأَصْل، وأمَّا حَذْفها فللتَّخفيف، والياء دائمًا تُحذَف للتَّخفيف قِـراءةً، مثل قول الله تعالى: ﴿فَلَا تَسْتَعْجِلُونِ﴾ [الأنبياء:٣٧] أَصلُها: تَستَعجلونِي، وليسَت النُّون هنا نونَ الرَّفْع؛ لأنَّها مَكسورة فهي نون الوِقاية، وحُذِفت الياء تَخفيفًا.

وقوله: ﴿وَيَٰقَوْمِ إِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ يَوْمَ ٱلتَّنَادِ﴾ كلِمة ﴿يَوْمَ﴾ هنا هل هي ظَرْف مَنصوبة على الظَّرْفية، والتَّقدير: إني أَخاف عليكم العَذاب يومَ التَّنادِ، أو أنَّ الفِعْل مُسلَّطٌ عليها فهي مَفعولٌ به؟ الثاني؛ لقوله تعالى: ﴿يَخَافُونَ يَوْمًا تَتَقَلَّبُ فِيهِ ٱلْقُلُوبُ وَٱلْأَبْصَٰرُ﴾ [النور:٣٧].

فجعَل الخَوْف مُسلَّطًا على ﴿يَوْمَ﴾؛ لأن يوم تَصْلُح أن تكون مَفعولًا فيه، وأن تكون مَفعولًا به، وأن تكون مُبتَدأً، وأن تكون خَبَرَ مُبتَدأ تَتصرَّف.

قال المفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿يَوۡمَ ٱلتَّنَادِ﴾ بحَذْف الياء وإثباتها، أي: يَوْم القِيامة]، هذا هو المُراد به، وأَنا أَشَرْتُ في كَلامي على قَواعِد في التَّفسير، أنَّ هُناك تَفسيرًا لفظيًّا، والثاني: مَعنَويًّا، اللَّفظيُّ يُفسِّر اللَّفْظ، والمَعنَويُّ يُفسِّر المُراد[1]؛ فهنا ﴿يَوۡمَ ٱلتَّنَادِ﴾ تَفسيرُها اللَّفظيُّ: أي: يوم يَتنادَى الناس بعضُهم مع بعض، والمُراد بها: يوم القِيامة؛ فإذا قلنا: يومَ التَّنادِ؛ أي: يوم القِيامة، فهذا ليس تَفسيرًا لفظيًّا، بل هو تَفسير مَعنَويٌّ للمُراد بالآية.

يَقول: ﴿يَوۡمَ ٱلتَّنَادِ﴾ [أي: يوم القِيامة؛ يَكثُر فيه نِداء أصحاب الجَنَّة أصحاب النار وبالعَكْس، والنِّداء بالسَّعادة لأهلها والشَّقاوة لأهلها، وغير ذلك]. التَّنادِي يوم القيامة يَكثُـر، فيُنادِي الله الناسَ، والناسُ يُنادِي بعضُهم بعضًا، وأهل النار يَنادُون أهلَ الجَنَّة، وأهل الجَنَّة يُنادون أهل النار، والتَّنادِي الحاصِل يوم القِيامة ليس كالتَّنادِي الحاصِل في الدنيا؛ لأنه بأصوات مُزعِجة، وحَزينة إذا كان أهل النار يُنادون أهل الجَنَّة، وما أَشبَه ذلك.

فهذا اليومُ ذَكَّر هذا المُؤمِنُ قومَه به؛ ليَحذَروا من عذاب يوم القِيامة، ثُم بيَّن ذلك بقوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿يَوۡمَ تُوَلُّونَ مُدۡبِرِينَ﴾ عن مَوقِف الحِساب إلى النار ﴿مَا لَكُم مِّنَ ٱللَّهِ﴾ أي: من عَذابه ﴿مِنۡ عَاصِمٖ﴾ مانِع، ﴿وَمَن يُضۡلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنۡ هَادٖ﴾].

وَصَف هذا اليومَ بأَوْصاف:

أَوَّلًا: أنه يوم التَّنادِ، يُنادِي الناسُ بعضُهم بعضًا، والله تعالى يُنادِيهم أيضًا، ويَتَنادَوْن بنِداءات قد يَكون بعضُها مجهولًا لنا الآنَ.

---

(١) انظر: (ص:٢٠-٢١).

الوَصْف الثاني: ﴿يَوۡمَ تُوَلُّونَ مُدۡبِرِينَ﴾ يومَ هذه بدَل من قوله: ﴿يَوۡمَ ٱلتَّنَادِ﴾ أو عَطْف بَيان، ﴿يَوۡمَ تُوَلُّونَ مُدۡبِرِينَ﴾ مُدْبرين هذه حال، حال مُؤكِّدة لعامِلها؛ لأن التَّولِّيَ هو الإدبار، وعلى هذا فهي حال مُؤكِّدة لعامِلها، يَعنِي: تُولُّون يوم القِيامة حال كَونِكم مُدبِرين، يُولُّون إلى النار -والعِياذُ بالله- قال تعالى: ﴿يَوۡمَ نَحۡشُرُ ٱلۡمُتَّقِينَ إِلَى ٱلرَّحۡمَٰنِ وَفۡدٗا ﴿٨٥﴾ وَنَسُوقُ ٱلۡمُجۡرِمِينَ إِلَىٰ جَهَنَّمَ وِرۡدٗا﴾ [مريم:٨٥-٨٦]، فهُمْ -والعِياذ بالله- يُولُّون مُدبِرين.

وقوله: ﴿مَا لَكُم مِّنَ ٱللَّهِ مِنۡ عَاصِمٖ﴾ الجُمْلة هذه جُمْلة خَبَرية مَبدوءة بـ(ما) النافِية، والمُبتَدأ فيها قوله: ﴿مِنۡ عَاصِمٖ﴾ لكن دخَلَت عليه (مِن) الزائِدة للتَّوكِيد، وتقدير الكلام: لولا مِن ما لَكُم من الله عاصِمٍ. وهنا نَسأَل: هل هي تَميمِيَّة أو حِجازِيَّة؟

والجَوابُ: تَتَّفِق فيها اللُّغتان؛ لأنَّها لا تَكون حِجازِية إلَّا بالتَّرتيب، كما قال ابنُ مالِكٍ:

.... مَعَ بَقَا النَّفْيِ وَتَرْتِيبٍ زُكِنْ[1]

وهنا لا تَرتيبَ؛ لأن الخبَر مُقدَّم، وعلى هذا فنَقول: (ما) هنا اتَّفَقت فيها اللُّغتان، التَّميمية والحِجازِية؛ ﴿مَا لَكُم مِّنَ ٱللَّهِ مِنۡ عَاصِمٖ﴾ [غافر:٣٣]؛ أي: من مانِع.

وقوله: ﴿وَمَن يُضۡلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنۡ هَادٖ﴾ هذه الجُمْلةُ؛ قد تُشْكِل كيف ختَمَ بها الدَّعوة إلى الله عَزَّوَجَلَّ؟ لأن مُقتَضى الحال أن يَقول: وأَسأَل الله لكم الهِداية. فيُقال: هل قوله: ﴿وَمَن يُضۡلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنۡ هَادٖ﴾ من كلام الرجُل أو من كلام الله؟ لا بُدَّ أن نَبحَث قبل كل شيء، هل هِيَ من كلام الله عَزَّوَجَلَّ لِيُبيِّن أنَّ هؤلاءِ القومَ مع قُوَّة الدَّعْوة

(١) الألفية (ص:٢٠).

لم يَستَفيدوا، أو هي من كَلام المُؤمِن؟ إن كانت من كَلام الله فلا إشكالَ، إلَّا أنَّها حالَت بين الكلام أوَّله وآخِره، وهذا لا يَضُرُّ لأنَّ الجُملة الاعتِراضِية تَأتِي كثيرًا، وإن كانت من كلام الرَّجُل فهنا محَلُّ الإشكال.

وقوله: ﴿وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ﴾ (مَنْ) هذه شَرْطية، وفِعْلُ الشَّرْط يُضلِل، وحُرِّك بالكَسْر؛ لالتِقاء الساكِنَيْن، وجواب الشَّرْط جُملة: ﴿فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ﴾ وقُرِن بالفاء؛ لأنه لا يَصلُح أن يَكون فِعْلًا للشَّرْط، وكلُّ جَواب لا يَصلُح أن يَكون فِعْلًا للشَّرْط فإنه يَجِبُ أن يَقتَرِن بالفاء، كما قال ابنُ مالِكٍ:

وَاقْرُنْ بِفَا حَتْمًا جَوَابًا لَوْ جُعِلْ ... شَرْطًا لِإِنْ أَوْ غَيْرِهَا لَمْ يَنْجَعِلْ[1]

وذكَروا له سِتَّة ضَوابِطَ مجموعةً في قوله:

اسْمِيَّةٌ طَلَبِيَّةٌ وَبِجَامِدِ ... وَبِمَا وَقَدْ وَبِلَنْ وَبِالتَّنْفِيسِ[2]

فهذه الجُمَلُ السِّتُّ إذا وقَعَت جوابًا للشَّرْط فإنه يَجِب أن يَقتَرِن بالفاء، وهنا الجُملة هي مُصدَّرة بـ(ما)، وإن شِئْت فقُلْ: إنها جُمْلة اسمِية، ولا مانِعَ من أن يُوجَد سبَبان لحُكْم واحِد.

وقوله: ﴿مِنْ هَادٍ﴾ أَصلُها: من هادِي؛ بالياء، فحُذِفَت الياء للتَّخفيف.

يَقول الله عَزَّوَجَلَّ: إن مَن يُضلِل الله أي: مَن كتَبَ الله إضلالَه فإنه لا أَحَدَ يَهديه؛ لأن الذي يَهدِي ويُضِلُّ هو الله، بيَدِه الأمرُ كلُّه، ولكن ليُعْلَم أنَّه لا يَهدِي أحَدًا إلَّا لحِكْمة، ولا يَضِلُّ أحَدًا إلَّا لحِكْمة، فمَن كان أهلًا للهِداية هَداه، ومَن كان أهلًا

(١) الألفية (ص:٥٨).

(٢) غير منسوب، وانظر النحو الوافي (٤/ ٤٦٣).

للإضلال أَضَلَّه -والعِياذُ بالله- وإلَّا فإن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى لا يَحرِم فَضْله مَن أَراده، إنما يَحرِم فَضْله مَن لم يُرِده، ودليلُ هذا قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا زَاغُوٓا۟ أَزَاغَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمْ﴾ [الصف:٥]، فجعَل إزاغة الله لقُلوبهم مُتَرتِّبًا على زَيْغهم، أمَّا مَن أَراد الهُدَى بجِدٍّ؛ فان الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى يُيسِّره له: ﴿فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ وَٱتَّقَىٰ ﴿٥﴾ وَصَدَّقَ بِٱلْحُسْنَىٰ ﴿٦﴾ فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلْيُسْرَىٰ﴾ [الليل:٥-٧].

إِذَنْ: قوله: ﴿وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ﴾ مُقيَّد بمَن فعَل ما يَقتَضِي إضلاله؛ لأن الله لا يُضِلُّ أحَدًا إلَّا لحِكْمة.

من فوائد الآيتين الكريمتين:

الْفَائِدَةُ الأُولَى: أنَّ هذا المُحذِّر كان مُؤمِنًا باليَوْم الآخِر.

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَةُ: أنَّ ما يَحدُث في اليوم الآخِر كان مَعلومًا للناس من قبل أن يَنزِل القُرآن؛ لقوله: ﴿يَوْمَ ٱلتَّنَادِ﴾ وذلك لأن هذا أَمْر لا بُدَّ منه، أي: لا بُدَّ أن يَعلَم العِباد ما يَحدُث في اليوم الآخِر؛ ليَكونوا على بَصيرة من أمرهم.

الْفَائِدَةُ الثَّالِثَةُ: أن يوم القِيامة له أحوال، فقد قال الله تعالى في سورة طه: ﴿وَخَشَعَتِ ٱلْأَصْوَاتُ لِلرَّحْمَٰنِ فَلَا تَسْمَعُ إِلَّا هَمْسًا﴾ [طه:١٠٨]، وهنا يُذكَر أنه يوم تَنادٍ، والنِّداء هو الصوت الرفيع، وعلى هذا فيَكون الجَمْع بين هذه الآيةِ، وبين قوله: ﴿وَخَشَعَتِ ٱلْأَصْوَاتُ لِلرَّحْمَٰنِ فَلَا تَسْمَعُ إِلَّا هَمْسًا﴾ هو أن يوم القِيامة له أحوال؛ لأن يوم القِيامة مِقدارُه خَمسون ألفَ سَنَةٍ، فلا بُدَّ أن تَتغيَّر أحوال الناس.

الْفَائِدَةُ الرَّابِعَةُ: نُصْح هذا الرجُلِ لقَوْمه؛ حيث يُناديهم بهذا النِّداءِ اللَّطيف ﴿وَيَٰقَوْمِ﴾ ثُم قال الله تَبَارَكَ وَتَعَالَى: مُكمِّلًا لما ذكَره هذا المُحذِّرُ: ﴿يَوْمَ تُوَلُّونَ مُدْبِرِينَ مَا لَكُم مِّنَ ٱللَّهِ مِنْ عَاصِمٍ﴾ هذه مَعروف أنَّ إعرابها بدَل مِمَّا سبَق، ففيها إثبات أنَّ آل

فِرعونَ يُولُّون مُدْبِرين يوم القِيامة إذا لم يُؤمِنوا، وقد بيَّن الله في آية أخرى أنهم يُعرِضون على النار غُـدُوًّا وعشِيًّا، وأنهم يـوم القِيامة يُقال لهم: ﴿أَدْخِلُوٓاْ ءَالَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ ٱلْعَذَابِ﴾ [غافر:٤٦]، فهُمْ -والعِياذُ بالله- سيُولُّون مُدبِرين مُعذَّبين في نار جَهنَّمَ.

الْفَائِدَةُ الخَامِسَةُ: أنه لا أحَدَ يَعصِم من عَذاب الله؛ لقوله: ﴿مَا لَكُم مِّنَ ٱللَّهِ مِنْ عَاصِمٍ﴾ وهذا كقَوْل نُوحٍ لابنه؛ لَمَّا قال: ﴿قَالَ سَـَٔاوِىٓ إِلَىٰ جَبَلٍ يَعْصِمُنِى مِنَ ٱلْمَآءِ ۚ قَالَ لَا عَاصِمَ ٱلْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ إِلَّا مَن رَّحِمَ ۚ وَحَالَ بَيْنَهُمَا ٱلْمَوْجُ فَكَانَ مِنَ ٱلْمُغْرَقِينَ﴾ [هود:٤٣].

الْفَائِدَةُ السَّادِسَةُ: أنه يَجِب على الإنسان إذا أَراد أن يَسأَل الهِداية أن لا يَسأَلها إلَّا من الله، الذي بيَدِه الإضلالُ والهِداية؛ فلا تَسأَل الهِداية من غَيْره، بل اسأَلْها من الله عَزَّوَجَلَّ؛ فيُستَفاد مِنها: تَفويضُ الأَمْر إلى الله تَبَارَكَوَتَعَالَى.

الآية (٣٤)

• • ❊ • •

❁ قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَلَقَدْ جَآءَكُمْ يُوسُفُ مِن قَبْلُ بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَمَا زِلْتُمْ فِى شَكٍّ مِّمَّا جَآءَكُم بِهِۦ حَتَّىٰٓ إِذَا هَلَكَ قُلْتُمْ لَن يَبْعَثَ ٱللَّهُ مِنۢ بَعْدِهِۦ رَسُولًا ۚ كَذَٰلِكَ يُضِلُّ ٱللَّهُ مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ مُّرْتَابٌ﴾ [غافر:٣٤].

• • ❊ • •

ثُمَّ قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ جَآءَكُمْ يُوسُفُ مِن قَبْلُ بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَمَا زِلْتُمْ فِى شَكٍّ مِّمَّا جَآءَكُم بِهِۦ﴾ هذا من كلام الرَّجُل المُؤمِن المُحذِّر، قال: ﴿وَلَقَدْ جَآءَكُمْ﴾ الجُمْلة هنا مُؤكَّدة بثَلاثة مُؤكِّدات؛ باللَّام، و(قَدْ)، والقَسَم، وكلَّما جاءَتْك صيغة كهَذه فإنها مُؤكَّدة بثلاثة مُؤكِّدات، اللَّام و(قد) والقَسَم؛ لأنَّ تَقدير الكَلام: والله لقد جاءَكم. وقوله: ﴿يُوسُفُ﴾ المُراد به يُوسُفُ بنُ يَعقوبَ.

فإن قال الإنسان: كيفَ يُخاطِبهم فيَقول: ﴿جَآءَكُمْ﴾ ويُوسُفُ بنُ يَعقوبَ عليهما الصلاة والسلام قبلهم بأزمان كثيرة؟

فيُقال: إن ما حصَل للأَسلاف فهو للأَخْلاف؛ يَعنِي: أنَّ ما جاء أَسلافَهم فهو كالذي جاءَهُم.

ودليلُ ذلك أنَّ الله يُخاطِب بني إسرائيلَ في عَهْد النَّبيِّ ﷺ بما حصَل لأَسْلافهم في عهد مُوسَى، وبينهم قُرون كَثيرة؛ قال الله تعالى: ﴿وَإِذْ قُلْتُمْ يَٰمُوسَىٰ لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ نَرَى ٱللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْكُمُ ٱلصَّٰعِقَةُ وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ ﴿٥٥﴾ ثُمَّ بَعَثْنَٰكُم مِّنۢ بَعْدِ مَوْتِكُمْ

لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٥٦﴾ وَظَلَّلْنَا عَلَيْكُمُ الْغَمَامَ﴾ [البقرة:٥٥-٥٧]، ومَعلوم أن هذا كلَّه لم يَحصُل لليَهود في عَهْد النَّبيِّ ﷺ، لكنه حصَل لأَسْلافهم؛ فما كان من الأُمَّة من أَوَّلها، فإنه ثابِت للأُمَّة في آخِرها.

إِذَنْ: لا إشكالَ في هذه الآيةِ، ما دُمْنا نَقول: إنه قد جاء أَسـلافَهم، وأن ما يَحصُل من أَسْلافهم فيما سبَق، يَكون مَنْسوبًا إلى الجميع، إذا لم يَخرُجوا عن هذا المِنهاجِ.

قال المفَسِّر رَحِمَهُ اللَّهُ: [﴿وَلَقَدْ جَاءَكُمْ يُوسُفُ مِن قَبْلُ بِالْبَيِّنَاتِ﴾ أي: من قَبْل مُوسى، وهو يُوسُفُ بنُ يَعقوبَ...] إلى آخِره.

قوله: ﴿مِن قَبْلُ﴾ لماذا جرَّها بالضَّمِّ؟ والمَعروف أنَّ (مِن) حَرف جرٍّ إذا دخَلَت على كلِمة جرَّتها -كسَرَتها- تَقول: مِن زَيدٍ. وهنا قال: ﴿مِن قَبْلُ﴾ حُذِف المُضاف إليه ونُوِيَ مَعناه؛ لأنه إمَّا أن يُوجَد المُضاف أو يُحذَف ويُنوَى مَعناه، أو يُحذَف ويُنوَى لفظُه، أو يُحذَف ولا يُنوَى لا لفظُه ولا مَعناه؛ فالأقسام أَربَعة: تُبنَى في واحِد منها، والباقي مُعرَبة تُبنَى إذا حُذِف المُضاف إليه ونُوِيَ مَعناه.

فإن قال قائِلٌ: ما هو الدَّليلُ؟

قلنا: الدَّليلُ أنها تكون مَضمومة لأنها تُبنَى على الضَّمِّ؛ فإذا كلَّمْنا مَن هو عالِمٌ بالعرَبية، وبناها على الضَّمِّ، عرَفْنا أنه حَذَف المُضاف ونَوَى مَعناه.

قال المفَسِّر رَحِمَهُ اللَّهُ: [﴿مِن قَبْلُ﴾ في قول عُمِّر إلى زمَن موسى، أو يُوسُفَ بنِ إبراهيمَ بنِ يُوسُفَ بنِ يَعقوبَ في قولٍ] حكَى المفَسِّر رَحِمَهُ اللَّهُ قولَينْ في المُراد بيُوسُفَ.

فقيل: إنه يُوسُفُ بنُ يَعقوبَ، وأنه عُمِّر إلى زَمَنِ مُوسى، وهذا قولٌ باطِل لا إشكالَ. يَقول: [عُمِّر إلى زمَنِ مُوسَى]، هذا قول ليس بصَحيح، بل هو باطِلٌ؛

لأنَّه لو كان الأمر كذلك لكان يَأتِي مُوسى ويَتَّصِل به؛ لأن كِليهما رَسولٌ.

القولُ الثاني: إنه يُوسُفُ وجَدُّه يُوسُفُ بنُ يَعقوبَ، يُوسفُ بنُ إبراهيمَ بنِ يُوسُفَ، وهذا أيضًا لا دَليلَ له، والصوابُ: أنَّ المُراد به يُوسُفُ بنُ يَعقوبَ، وأنه لم يُعَمَّر إلى زمَن موسى، وأنه مات في زمَنه، لكنه جاء أَسلافَه؛ لأن يُوسُف عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ أَخَذَه المارَّة الذين مَرُّوا بالبِئْر الذي أُلقِيَ فيها، وذَهَبوا به إلى مِصرَ، والقِصَّة مَعروفة في سورة كامِلة.

وقوله: ﴿بِٱلْبَيِّنَٰتِ﴾ البيِّنات من بانَ يَبِينُ إذا ظهَر، ومَعلوم أنها وَصْف لمَوْصوف محَذوف؛ وذلك لأنه يَجوز أن يُحذَف النَّعْت وأن يُحذَف المَنعوت إذا دَلَّ عليه دَليل؛ والمَوْصوف المَحذوف هنا تَقديرُه الآيات، كما يُعبَّر به في القُرآن كثيرًا بالآيات البيِّنات، بـ: ﴿ءَايَٰتِۭ بَيِّنَٰتٍ﴾ [البقرة:٩٩]، وما أَشبَه ذلك.

وأمَّا قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [بالمُعجِزات] فإن هذا تَعبير مُتأخِّر؛ لم يُعرَف في عَهْد السلَف، وهو تَعبير ناقِص؛ لأن كلِمة (مُعجِزة) تَشمَل ما يَفعَله السَّحَرة والمُشعوِذون من الأمور الخارِقة للعادة، فإنها تُعْجِز مَن ليس مِنهم، ولكنه إذا قيل: آية بمَعنى عَلامة، صَارَتْ أبينَ وأَوْضحَ وأَوفقَ لمُوافَقتها للتَّعبير القُرآني، على أنه لا يُمكِن أن تَكون آية لرَسول إلَّا والناس يَعجِزون عنها؛ لأنهم لو كانوا يَستَطيعون أن يَأْتوا بمِثْلها لم تكُن آية للنَّبيِّ، كل واحِد يَأتِي بها.

إذَنْ: تَقدير الكَلام بالآيات البيِّنات، ولكن حُذِف المَوْصوف لدَلالة السِّياق عليه، ومِنه قوله تعالى: ﴿أَنِ ٱعْمَلْ سَٰبِغَٰتٍ وَقَدِّرْ فِى ٱلسَّرْدِ﴾ [سبأ:١١] يَعنِي: أن اعمَلْ دُروعًا سابِغاتٍ.

فإن قال قائِل: هل يَصِحُّ أن يُطلَق لفظ الدَّلائِل على مُعجِزات الأنبياء أو آيات الأنبياء؟

فالجوابُ: أي نعَمْ؛ لأن الدليل ما يَهدِي إلى غيره؛ ولهذا يُسمَّى الرَّجُل الذي يَدُلُّك الطريق يُسمَّى هادِيًا؛ فالآيات لا شَكَّ أنها دَليل وبيِّنات.

ونحن نَقول: الآيةُ دليلٌ، واللُّغة مُترادِفة، فما دام اللَّفْظ مُرادِفًا للآخَر ولا يَتضَمَّن محظورًا فلا مانع أن نُعبِّر به.

قوله: ﴿بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَمَا زِلْتُمْ فِى شَكٍّ مِّمَّا جَآءَكُم بِهِۦ﴾ يَعنِي: من وَقْت يُوسُفَ، إلى وَقْت مُوسى، وآل فِرعونَ، وإن شِئْت فعَبِّر بالقِبْط.

قوله: ﴿فَمَا زِلْتُمْ فِى شَكٍّ مِّمَّا جَآءَكُم بِهِۦ﴾ أي: في شَكٍّ مِمَّا جاء به يُوسُفُ؛ فلم يُؤمِنوا به الإيمان الواجِبَ الخالِيَ من الشَّكِّ.

وقوله: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا هَلَكَ قُلْتُمْ﴾ قال المفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [مِن غَيْر بُرهانٍ] ﴿قُلْتُمْ لَن يَبْعَثَ ٱللَّهُ مِنۢ بَعْدِهِۦ رَسُولًا﴾ يَعنِي: أنهم كانوا في شَكٍّ مِمَّا جاء به يُوسُفُ، ولم يُصدِّقوه، ولمَّا هلَكَ قالت لهم نُفوسُهم: الآنَ استَرَحْتم، فلن يَبعَث الله من بَعدِه رسولًا، كُفِيتم هلك مَن أُرسِل، فكذَّبْتموه فاطْمَئِنُّوا لن يَبعَث الله من بَعده رسولًا، قالوا ذلك بِناءً على أُمنِية كاذِبة؛ لأنهم قالوا: هذا الرسولُ الذي جاءَنا وتَوعَّدنا إن خالَفْناه فإنه مات -هلَك- فلن يَأتِيَ من بعده رَسولٌ، وحِينئذٍ نكون قدِ استَرَحْنا من الرُّسُل ومَشاكِلهم -على زَعْمهم!-.

قال المفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿قُلْتُمْ لَن يَبْعَثَ ٱللَّهُ مِنۢ بَعْدِهِۦ رَسُولًا﴾؛ أي: فلَنْ تَزالوا كافِرين بيُوسُفَ وغَيرِه]؛ لأنهم إذا قرَّروا في أَنفُسهم أنَّ الله لن يَبعَث رسولًا، فسَوْف

يُكذِّبون كل مَن جاء من الرُّسُل بعد يُوسُفَ، بِناءً على هذه العَقيدةِ الفاسِدةِ التي أَصَّلوها.

قال المفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿كَذَٰلِكَ﴾ أي: مِثْل إِضْلالكم ﴿يُضِلُّ ٱللَّهُ مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ﴾ مُشرِك ﴿مُّرْتَابٌ﴾ شاكٌّ فيما شَهِدَت به البيِّنات]، ﴿كَذَٰلِكَ﴾ قال المفَسِّر: [أي: مِثْل إضلالكم ﴿يُضِلُّ ٱللَّهُ﴾]، وعلى هذا فتكون إعرابُها: الكاف اسمٌ بمَعنى (مِثْل)، وهي مَفعول مُطلَق مُضاف إلى اسمِ الإشارة، وعامِله قوله: ﴿يُضِلُّ﴾، عامِله مُتأخِّر عنه، وهذا التَّعبيرُ القُرآنيُّ يَكثُر في كَلام الله عَزَّوَجَلَّ، وإِعْرابه كما سمِعْتم: أن تَقول الكاف اسمُ بمَعنَى (مِثْل) مَنصوبة على المَفْعولية المُطلَقة مُضافة إلى اسم الإشارة، فإن قيل: وهل الكافُ تَأتِي اسمًا؟ قلنا: نعَم، اللُّغَة العرَبية واسِعة، وإلَّا فالأصل أنَّ الكاف حَرْف، لكن تَكون اسمًا.

قال ابنُ مالِكٍ رَحِمَهُ ٱللَّهُ(١):

شَبِّهْ بِكَافٍ وَبِهَا التَّعْلِيلُ قَدْ ... يُعْنَى وَزَائِدًا لِتَوْكِيدٍ وَرَدْ

وَاسْتُعْمِلَ اسْماً وَكَذَا عَنْ وَعَلَى ... .

استُعمِل يَعني: الكافُ اسمًا؛ أي: في اللُّغة العرَبية.

وقوله: ﴿كَذَٰلِكَ﴾ أي: مِثْل ذَلِكم يُضِلُّ الله ﴿مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ مُّرْتَابٌ﴾ لا يُضِل الله تعالى رَجُلًا مُؤمِنًا مُقتَصِدًا مُوقِنًا أبَدًا، يُضِلُّ الله -والعِياذُ بالله- ﴿مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ مُّرْتَابٌ﴾.

---

(١) الألفية (ص:٣٥).

يَقول المفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿مُسۡرِفٌ﴾ مُشرِك] ولا شَكَّ أنَّ الشِّرْك من الإسراف؛ لأنَّ الإسراف مَعناه: تجاوُز الحدِّ، ومَن جعَل لله شَريكًا فقد تجاوَز الحَدَّ بلا شكٍّ؛ لكن مَعنَى الآية أعَمُّ من المُشرِك؛ فالمُسرَف مَن تجاوَز حدَّه -هذا المُسرِف- بإفراط أو تَفْريط؛ لكن الغالِب يَكون بالإفراط؛ لأنه مُجاوَزة الحَدِّ زِيادة، فالمُشرِك لا شَكَّ أنه مُسرِف بلا شَكٍّ، والمُستكبِر مُسرِف، والجاحِدُ مُسرِف، وهلُمَّ جرًّا.

إذَنْ: ﴿مَنۡ هُوَ مُسۡرِفٌ﴾ يَنبَغي أن يُقال في تَفْسيرها: مَن هو مُجاوِز لحَدِّه؛ كالمُشرِك.

وقوله: ﴿مُّرۡتَابٌ﴾؛ أي: شاكٌّ -نسأَل الله أن يُعيذَنا وإيَّاكُم من الشَّكِّ- المُرتاب -والعِياذ بالله- الذي يَطمَئِنُّ للارتِياب، لا يَهتَدِي يَبقَى على ضَلاله -والعِياذُ بالله- أمَّا إذا أَوْقَع الشَّيْطان في قَلْبك شكًّا ثُم حاوَلْت أَنْ تنزِعه من قَلْبك، فإنَّ الله يُعينُك عليه ويَهديك، لكن البَلاء كل البَلاء أَنْ تَركَن إلى هذا الشَّكِّ، وأن لا تُنتَشَل منه؛ والدَّليل على هذا ما شَكاه الصحابة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ إلى رَسول الله ﷺ مِمَّا يَقَع في نُفوسهم، حتى قالوا: نَوَدُّ أن يَكون الواحِد مِنَّا حُمَمًا؛ أي: فَحْمًا مُحتَرِقًا، ولا نَتكَلَّم به؛ فأَخبَرهم النَّبيُّ عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ أنَّ ذلك لا يَضُرُّهم؛ لأنهم لا يَركَنون إلى ما حصَل، أو إلى ما وقَعَ في قُلوبهم[(١)].

ولهذا يَجِب أن تكون شُجاعًا إذا أَلقَى الشَّيْطانُ في قَلْبك مثل هذه الأُمورِ فكُنْ شُجاعًا لا تَركَن، لا تَستَرسِل معها، كُنْ شُجاعًا، استَعمِل معه السلاح الذي أَعطاك إيَّاه مَن هو عالِمٌ به، ومَن عالِمٌ بإِصابته للعَدوِّ، وهو الرسولُ ﷺ، وذلك بأَمْرين

(١) أخرجه الإمام أحمد (١/ ٣٤٠)، وأبو داود: كتاب الأدب، باب في رد الوسوسة، رقم (٥١١٢)، من حديث ابن عباس رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا.

فقَطْ: أن تَستَعيذ بالله من الشيطان الرجيم وتَنتَهي[1]- أي تُعرض- فاستَعِذْ بالله ثُم انتَهِ. وبذلِك يَزول عنك هذا البَلاءُ، أَمَّا إنِ استَرْسَلت معه فالأَمْر خَطير جدًّا؛ لأنه يَتَفاعَل في نفسك، ويَقوَى حتى يَصِل إلى درَجة الشَّكِّ والارتياب، وحينَئِذٍ تُحرَم من الهِداية، وهذا لا شَكَّ أنه من حِكْمة القُرآن، مثل هذا التَّعبيرِ لئَلَّا يَقَع في نَفْسك مثل ما ذكَر الله عَزَّوَجَلَّ، فدَواؤُه بهذَيْن الأَمْرين.

لو أنَّ أَذكَى العالَم حاوَل أن يَجِد دواءً لهذا البَلاءِ ما وجَدَه بهذه العِبارةِ المُختَصَرة السَّهْلة، قال: «فَلْيَستَعِذْ باللهِ ثُمَّ لِيَنْتَهِ» اعرِض عن هذا، اشتَغِلْ بشُؤُونك، وقل: أَعوذُ بالله من الشَّيْطان، فاشتِغالُك بشُؤونك وإعراضُك عنه يُوجِب لك أن تَنساه، وهذا شيْء مُشاهَد ومُجرَّب.

من فوائدِ الآيةِ الكريمةِ:

الْفَائِدَةُ الأُولَى: تَمام نُصْح هذا الرجُلِ حينما ذكَّر قومه بما سلَف.

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَةُ: أنه يَنبَغي للإنسان أن يَكون لدَيْه عِلْم بما سبَقَ؛ فإن التاريخ عِبَر، سواءٌ في هذه المَسأَلةِ الكَبيرة، أو في المَسائِل الصغيرة، اقْرأ التارِيخ يَتبَيَّن لك ما قدَّره الله على العِباد، وأن سُنَّة الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى في السابِقين ستكون في اللاحِقين، أي: أنه يَنبَغي أن يَكون عند الإنسان خِبْرَة بما سبَق.

الْفَائِدَةُ الثَّالِثَةُ: أن أَعظَمَ رَسولٍ أُرسِل إلى آل فِرعونَ -بعدَ مُوسى- هو يُوسُف؛ ولهذا طُوِيَ ذِكْر مَن بعدَه، والظاهِر -والله أَعلَمُ- أنَّ الله تعالى لا يَدَع هذه

(١) أخرجه البخاري: كتاب بدء الخلق، باب صفة إبليس وجنوده، رقم (٣٢٧٦)، ومسلم: كتاب الإيمان، باب بيان الوسوسة في الإيمان وما يقوله من وجدها، رقم (١٣٤)، من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

الأُمَّة -أَعنِي: أُمَّة فِرعونَ- لا يَدَعهم بلا رَسولٍ من بعد مُوسى عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ، الذي له أَزمان كثيرة، لكِنَّهم ليسوا كيُوسُفَ، فنَوَّه بذِكْر يُوسُفَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ.

الْفَائِدَةُ الرَّابِعَةُ: أنَّ الرُّسُل يَأتون بالبَيِّنات الدالَّة على صِدْقهم ونُبوَّتهم؛ لأنَّ هذا من حِكْمة الله لو أَرسَل الله رَسولًا للناس ليس معه آية، وقال: أنا رَسولُ الله إليكم، آمِنوا بي، وإلَّا فلكُمُ النَّار، فلن يُطيعوه أبدًا، نَقول: هذا مجنون، يَعنِي: لا بُدَّ من آية تَدُلُّ على صِدْقه. وقد ثبَتَ عن النبيِّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ أنه قال: «**مَا مِنْ رَسُولٍ بَعَثَهُ الله إِلَّا آتَاهُ مِنَ الْآيَاتِ مَا يُؤْمِنُ عَلَى مِثْلِهِ الْبَشَرُ**»، فلا بُدَّ من ذلك.

الْفَائِدَةُ الْخَامِسَةُ: أنَّ الآياتِ التي جاءَتْ بها الرسُلُ آياتٌ بَيِّنة، لا تخفَى إلَّا على العُميان، ودليلُ ذلك قوله: ﴿بِٱلْبَيِّنَٰتِ﴾ وهُنا ركَّز على الوَصْف دون المَوْصوف؛ لأن الوَصْف أهَمُّ، وهو كون هذه الآياتِ بَيِّنة، لا تخفَى على أحَد.

الْفَائِدَةُ السَّادِسَةُ: أنَّ آل فِرعونَ ما زالوا في شَكٍّ حتى مع وُجود يُوسُفَ فهُمْ في شَكٍّ؛ لأنَّ الله تعالى لم يُقدِّر هِدايتهم، فبَقُوا حَيارى، واستَمَرُّوا على الكُفْر.

الْفَائِدَةُ السَّابِعَةُ: بَيان كَراهة الشعوب المُكذِّبة للرُّسُل، لما جاءَت به الرُّسُل؛ كأنهم انتَهَزوا الفُرصة لَمَّا هلَكَ يُوسُف، فقالوا: ﴿لَن يَبْعَثَ ٱللَّهُ مِنۢ بَعْدِهِۦ رَسُولًا﴾ وهذا يَدُلُّ على أنهم مُتَضايِقون غاية التَّضايُق بوجود يُوسُفَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ.

الْفَائِدَةُ الثَّامِنَةُ: أنَّ الإيمان بوُجود الله لا يَكفِي في التَّوحيد والخَلاص من عَذاب الله، يُؤخَذ ذلك من قولهم: ﴿لَن يَبْعَثَ ٱللَّهُ﴾ فهَؤلاءِ كانوا مُقرِّين بالله ومع ذلك لم يَنفَعهم إقرارُهم بالله، وكذلك الذين بُعِث فيهم الرسول عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ مُقِرُّون بالله ﴿قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ أَمَّن يَمْلِكُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَمَن يُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ ٱلْمَيِّتَ مِنَ ٱلْحَىِّ وَمَن يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ ۚ فَسَيَقُولُونَ ٱللَّهُ﴾ [يونس:٣١] مُؤمِنين

بالرُّبوبية، تمامًا، وبأن المُدبِّر هو الله، ومع ذلك استبَاح النبيُّ ﷺ دِماءَهم، وأموالهم، ونِساءَهم، وذُرِّيَّاتهم، وأرضَهم؛ لأن مُجرَّد الإيمان بالله ليس إيمانًا أبدًا، لا بُدَّ من الإيمان بالله عَزَّوَجَلَّ بوُجوهه الأربعة المَعروفة، وهي: الإيمان بوُجوده، وبرُبوبيته، وبأُلوهِيَّته، وبأَسمائه وصِفاته. لا بُدَّ من هذا، فمَن لم يُؤمِن كذلك فليس مُؤمِنًا بالله.

الْفَائِدَةُ التَّاسِعَةُ: أنَّ إضلال الله عَزَّوَجَلَّ لا يكون إلَّا في محلِّه؛ أي: فيمَن هو أَهْل للإضلال؛ لقوله: ﴿كَذَٰلِكَ يُضِلُّ ٱللَّهُ مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ مُّرْتَابٌ﴾.

الْفَائِدَةُ الْعَاشِرَةُ: أنَّ مَن لزِمَ حدَّه، وأَيقَن بما يَجِب الإيقان به؛ فإنه أَبعَدُ الناس عن الإضلال، يُؤخَذ هذا من المَفْهوم، إذا كان الله يُضِلُّ مَن هو مُسرِف مُرتاب، فإنه يَهدِي مَن لزِمَ حَدَّه وأَيقَنَ في أَمْره، وآمَن بذلك ﴿كَذَٰلِكَ يُضِلُّ ٱللَّهُ مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ مُّرْتَابٌ﴾، واللهُ أَعلَمُ.

فإن قال قائِلٌ: هناك إشكال، وهو قوله: ﴿وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ﴾ لماذا لم يَقُل بعد هذا النُّصْحِ: نَسأَل الله لكُمُ الهِداية، أو شيئًا من هذا؟

فالجَوابُ: جاء في تَفسير (التَّحرير والتَّنوير): قوله: ﴿وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ﴾ عَطْفٌ عَلَى جُمْلَةِ ﴿إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ﴾ لِتَضَمُّنِهَا معنى: إِنِّي أَرْشَدْتكم إِلَى الْحَذَرِ مِنْ يَوْمِ التَّنَادِي. وَفِي الْكَلَامِ إِيجَازٌ بِحَذْفِ جُمَلٍ تَدُلُّ عَلَيْهَا الْجُمْلَةُ الْمَعْطُوفَةُ. وَالتَّقْدِيرُ: هَذَا إِرْشَادٌ لَكُمْ، فَإِنْ هَدَاكُمُ الله عَمِلْتُمْ بِهِ، وَإِنْ أَعْرَضْتُمْ عَنْهُ فَذَلِكَ لِأَنَّ الله أَضَلَّكُمْ ﴿وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ﴾، وَفِي هَذِهِ الْجُمْلَةِ مَعْنَى التَّذْيِيلِ. ولم يَقُل لهم: ﴿وَمَن يَهْدِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن مُّضِلٍّ﴾ [الزمر:٣٧]؛ لِأَنَّهُ أَحَسَّ مِنْهُمُ الْإِعْرَاضَ وَلَمْ يَتَوَسَّمْ فِيهِمْ مَخَائِلَ الِانْتِفَاعِ بِنُصْحِهِ وَمَوْعِظَتِهِ. وقوله هذا تَفسيرٌ.

فإن قال قائِلٌ: قوله: ﴿وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ﴾ يَهدِيه إلى طريق النَّجاة أصلًا، وكأنَّ الرَّجُلَ يَئِس من عدَم قَبولهم النُّصْح. فقال ذلك.

فالجَوابُ: هذا هو الظاهِر، أنَّ الرجُل قد أَيِس، وهذا كقَوْل نُوحٍ عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ: ﴿رَّبِّ لَا تَذَرْ عَلَى ٱلْأَرْضِ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ دَيَّارًا ﴿٢٦﴾ إِنَّكَ إِن تَذَرْهُمْ يُضِلُّوا۟ عِبَادَكَ وَلَا يَلِدُوٓا۟ إِلَّا فَاجِرًا كَفَّارًا﴾ [نوح:٢٦-٢٧].

فإن قال قائِل: في هذه الآيةِ أنَّ الإسراف يَنقَسِم إلى قِسْمَيْن، هنا فسَّر الإسراف بالُمشرِك، وآية أُخرى: ﴿وَكُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ وَلَا تُسْرِفُوٓا۟﴾ [الأعراف:٣١] هنا أيضًا يَنقَسِم إلى قِسْمين؟

فالجَوابُ: غالِب الأشياء تَنقسِم إلى قِسْمين أو أكثَر. يَعنِي: أكبَرَ وأصغَرَ ومُتوسِّطٍ؛ فليس الُمسرِف في الإشراك كالُمسرِف في خُبْزة يأكُلها.

الآية (٣٥)

قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿ٱلَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ فِيٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ بِغَيۡرِ سُلۡطَٰنٍ أَتَىٰهُمۡۖ كَبُرَ مَقۡتًا عِندَ ٱللَّهِ وَعِندَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْۚ كَذَٰلِكَ يَطۡبَعُ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ قَلۡبِ مُتَكَبِّرٖ جَبَّارٖ﴾ [غافر:٣٥].

قوله: ﴿ٱلَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ﴾ المُجادَلة هي: المُخاصَمة، والمُناظَرة من أَجْل إفحام الخَصْم، مَأخوذة من جَدْل الحَبْل، أي: فَتْله؛ فإن الحَبْل إذا فُتِل احتكَم وصار أَقوى، فهذا المُجادِل تَجِده يَحتكِم ويَتَصلَّب من أَجْل أن يَغلِب مُجادِله.

وقوله: ﴿فِيٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ﴾ قال المفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [مُعجِزاته] والصوابُ: أن يُقال: آياتُ الله يَعنِي: العلامات الدالَّة على ما يَستَحِقُّه جَلَّوَعَلَا من الرُّبوبية، والأُلوهية، والأَسْماء والصِّفات، والأحكام، وغير ذلك. هذا هو المُراد، وقد سبَق أنه لا يَنبَغي أن نُسمِّيَ الآياتِ المُعجِزاتِ؛ لأن ذلك نَقْصٌ في التَّعبير، وليس مُحدِّدًا للمَعنى، ورُبَّما يَدخُل عليه فِعلُ المُشعوِذين، والسحَرة؛ لأنه مُعجِز.

وقوله: ﴿يُجَٰدِلُونَ فِيٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ﴾ هل هم يُجادِلون لإثبات الآيات، أو لنَفيِ الآيات؟ الثاني لا شَكَّ؛ ولهذا قال: ﴿بِغَيۡرِ سُلۡطَٰنٍ أَتَىٰهُمۡ﴾؛ لأنهم لو كانوا يُجادِلون لإثبات الآيات، والإقرار بها، لكانوا على سُلْطان.

وقوله: ﴿بِغَيۡرِ سُلۡطَٰنٍ أَتَىٰهُمۡ﴾ قال المفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [بُرهان] أي: بغَيْر دليل،

وذلك لأن السُّلْطان كل ما يَكون به السُّلْطة، ويَختَلِف بحَسب السِّياق؛ فالإمام الأعظم يُسمَّى السُّلْطان؛ لأنه ذو سُلطة. والدليل يُسمَّى سُلْطانًا؛ لأن الآخِذَ به ذو سُلْطة.

وعلى هذا يَكون معنى قوله: ﴿بِغَيۡرِ سُلۡطَٰنٍ﴾ أي: بغَيْر دَليل. وهذا النَّعتُ أو الحالُ؛ لأن جُمْلة: ﴿بِغَيۡرِ سُلۡطَٰنٍ﴾ حال من فاعِل ﴿يُجَٰدِلُونَ﴾ هذا الوَصْفُ وَصْف لبَيان الواقِع، وليس وَصْفًا مُقيَّدًا، والفَرْق: أننا لو قُلْنا: إنه وَصْف مُقيَّد صار الذين يُجادِلون بآيات الله لإِبْطالها أحيانًا يَكون معَهم سُلْطان، وأحيانًا لا يَكون معَهم سُلْطان، والواقِع أنه ليس لهم سُلْطان، والقيد المُبيِّن للواقِع ليس له مَفهوم، وهذا آتٍ في القُرآن كثيرًا، وإنَّما المَقصود به -أي: بالقَيْد المُبيِّن للواقِع- الاستِدْلال؛ يَعنِي: فكأنه تَعليلٌ للمَوْصوف.

وانظُرْ إلى قول الله تعالى: ﴿وَمَن يَدۡعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ لَا بُرۡهَٰنَ لَهُۥ بِهِۦ فَإِنَّمَا حِسَابُهُۥ عِندَ رَبِّهِۦٓ﴾ [المؤمنون:١١٧] فقوله: ﴿لَا بُرۡهَٰنَ لَهُۥ بِهِۦ﴾ مُبيِّن للواقِع وليس قيدًا؛ لأنه لا يُمكِن أن يَدعوَ أحدٌ مع الله إلهًا آخَرَ له فيه بُرهانٌ.

وكذلك قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱسۡتَجِيبُواْ لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمۡ لِمَا يُحۡيِيكُمۡ﴾ [الأنفال:٢٤]، فإنَّ هذا لا يَعنِي أنه قد يَدْعونا لما لا يُحيِينا، بل هو لا يَدعونا إلَّا لما يُحْيِينا، فيَكون هذا كالتَّعليل لمَوْصوفه الذي صار قيدًا فيه.

إِذَنْ: ﴿بِغَيۡرِ سُلۡطَٰنٍ أَتَىٰهُمۡ﴾ هذا نَقولُ: إنه وَصْف لبيان الحال والواقِع، وأنه لا سُلْطانَ لهم بذلك، وعلى هذا فيَكون كالتَّعليل لمَوْصوف، وأَعنِي بالوَصْف هنا ما يَشمَل الحال وغير الحال. وقوله: ﴿أَتَىٰهُمۡ﴾ الجُملة صِفة لـ﴿سُلۡطَٰنٍ﴾.

وقوله: ﴿كَبُرَ مَقْتًا﴾ هذه الجُمْلةُ خبـر المُبتَدَأ. وقوله: ﴿كَبُرَ﴾؛ أي: عَظُمَ، وضُمَّت الباء حتى صار من باب فعُل؛ لأنه أُريد به التَّعجُّب، يَعنِي: ما أكبَرَ مَقتَهم عند الله! قال: ﴿مَقْتًا﴾ هذه تَمييز، تَمييز لـ﴿كَبُرَ﴾ لأن كبُر المراد به الجِدال؛ يَعنِي كبُرَ جِدالهم مَقتًا، فهي مُميِّزة للفاعِل المحذوف، بل الفاعِل المُستَتِر.

وقول المفسِّر رَحِمَهُ اللَّهُ: [﴿كَبُرَ﴾ جِدالُهم ﴿مَقْتًا﴾] الصواب أن يُقال: كبُرَ مَقْتهم مَقْتًا عند الله؛ لأن التَّمييز مُبيِّن للفاعِل المُستَتِر، وقوله: ﴿مَقْتًا﴾ المَقْت هو أشَدُّ البُغض.

وقوله: ﴿عِندَ ٱللَّهِ﴾ مُتعلِّق بـ﴿كَبُرَ﴾.

قوله: ﴿كَبُرَ مَقْتًا عِندَ ٱللَّهِ وَعِندَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ يَعنِي: وكذلك المُؤمِنـون يَكبُر مَقتُهم لهؤلاء المُجادِلين في آيات الله بغير سُلْطان الذين يُريدون إِدْحاض الحَقِّ، وإظهار الباطِل.

وقوله: ﴿وَعِندَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ إذا أُطلِق الإيمان فالمُراد به ما يَشمَل الإسلام، وإذا أُطلِـق الإسلام فالمُراد به ما يَشمَل الإيمان؛ ولهذا لو سُئِلـت وقيل لك: هل الإسلام والإيمان مُترادِفان بمَعنًى واحِدٍ؟ فقُلْ: هُما عند الإفراد مُترادِفان، وأمَّا عند الاقتِران فإنه يُفسَّر الإيمان بأعمال القُلوب، والإسلام بأعمال الجَوارِح؛ مثال ذلك قول الله تَبَارَكَ وَتَعَالَى: ﴿قَالَتِ ٱلْأَعْرَابُ ءَامَنَّا قُل لَّمْ تُؤْمِنُوا۟ وَلَٰكِن قُولُوٓا۟ أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ ٱلْإِيمَٰنُ فِى قُلُوبِكُمْ﴾ [الحجرات:١٤] ففرَّق بين الإيمان والإسلام؛ وبيَّن أنَّ الإيمان لم يَدخُل في قلوبهم، ولكنه قريب الدُّخول؛ لأنَّ (لمَّا) تُفيد القُرْب، وفي حديث جِبريلَ فَرَّق بين الإيمان والإسلام.

ومنه قوله تعالى: ﴿فَأَخْرَجْنَا مَن كَانَ فِيهَا مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٣٥﴾ فَمَا وَجَدْنَا فِيهَا غَيْرَ بَيْتٍ مِّنَ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾ [الذاريات:٣٥-٣٦].

ففَرَّق بين هذا وهذا، المُخرَجون مُؤمِنون، والبيت مُسلِم؛ لأن في البيت امرأةً كافِرةً، وهي امرأةُ لُوطٍ؛ فهي في ظاهِر الحال مُسلِمة، مُستَسلِمة؛ لأنها لا تُظْهِر أنها كافِرة، كما قال تعالى: ﴿فَخَانَتَاهُمَا﴾، ولكن حينما أَراد الله عَزَّوَجَلَّ أن يُنجِيَ مَن يُنجِي من قوم لوط أَنجَى المُؤمِنين فقَطْ، وأمَّا المَرْأة فبَقِيَتْ مع قومها وهلَكَت.

فإن قال قائِل: ما الحِكْمة من بقاء زَوْجاتهم معَهم؟ أي: نوح عَلَيْهِ السَّلَامُ ولوط عَلَيْهِ السَّلَامُ، هل لم يَكونوا يَعلَمون ذلك؟

فالجَوابُ: ما دام أن الله تعالى يَقول: ﴿فَخَانَتَاهُمَا﴾، وقال له: ﴿إِلَّا ٱمْرَأَتَكَ﴾، فهُمْ لم يَكونوا يَعلَمون، وهذه لأَجْل الاعتِبار بالنِّسبة لزَوْجات الرسول عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ، وهذه السورة كلُّها نزَلت شِبْه مُعاتِبة لزوجات الرسول عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: ﴿إِن تَتُوبَآ إِلَى ٱللَّهِ فَقَدْ صَغَتْ قُلُوبُكُمَا ۖ وَإِن تَظَٰهَرَا عَلَيْهِ فَإِنَّ ٱللَّهَ هُوَ مَوْلَىٰهُ وَجِبْرِيلُ وَصَٰلِحُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۖ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ بَعْدَ ذَٰلِكَ ظَهِيرٌ﴾ [التحريم:٤] فالمَقصود بيانُ عِناية الله عَزَّوَجَلَّ برسوله ﷺ، وأنَّكما إن تَظاهَرْتُما عليه؛ فله أَولياءُ: ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ هُوَ مَوْلَىٰهُ وَجِبْرِيلُ وَصَٰلِحُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۖ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ بَعْدَ ذَٰلِكَ ظَهِيرٌ﴾.

وقوله تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ يَطْبَعُ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ قَلْبِ مُتَكَبِّرٍ جَبَّارٍ﴾ نَعوذُ بالله، ﴿كَذَٰلِكَ﴾ تقدمت قريبًا، وقُلْنا: مِثْل هذا التَّرْكيبِ يَكون إعرابُه كالتالي: الكافُ اسمٌ بمَعنى مِثْل، وهي مَفعول مُطلَق للفِعْل الذي بعدها، العامِل فيها الفِعْل الذي بعدَها، و﴿يَطْبَعُ﴾ هو الفِعْل العامِل، وعليه فنَقول: مِثْل هذا الطَّبعِ يَطبَع الله.

وأمَّا قول المفسِّر رَحِمَهُ اللَّهُ: [مِثْل إِضْلالهم] ففيه نظَر، وإن كان يَلزَم من الإضلال الطَّبْع، لكن الأحسن أن يُفسَّر بما يُطابِق العامِل، فيُقال: مِثْل هذا الطَّبْع يَطبَع الله.

قال المفسِّر رَحِمَهُ اللَّهُ: [﴿يَطْبَعُ﴾ يَختِم]، نَعَم؛ الطَّبْع بمَعنى الخَتْم؛ كأن الله جعَل على قُلوبهم غِلافًا ثُم ختَمَ عليه، كما يُختَم على الوثائِق، وقد أَشارَ الله إلى ذلك في قوله: ﴿قُلُوبُنَا غُلْفٌۢ بَلْ طَبَعَ ٱللَّهُ عَلَيْهَا﴾ [النساء:١٥٥].

قال المفسِّر رَحِمَهُ اللَّهُ: [﴿كَذَٰلِكَ يَطْبَعُ ٱللَّهُ﴾ بالضَّلال ﴿عَلَىٰ كُلِّ قَلْبِ مُتَكَبِّرٍ جَبَّارٍ﴾] قوله: [﴿يَطْبَعُ ٱللَّهُ﴾ بالضَّلال] يُقال فيها كما قيل فيما سبَق؛ بأن المُراد يَطبَع الله بالطَّبْع على القُلوب على كل قَلْب مُتكبِّر.

وقوله: [﴿عَلَىٰ كُلِّ قَلْبِ مُتَكَبِّرٍ جَبَّارٍ﴾ بتَنوين قَلْب، ودونَه] على كلِّ قَلْبٍ مُتكبِّر، وعلى كلِّ قلبِ مُتكبِّر، والفَرْق أنه على قِراءة التَّنوين يَكون التَّكبُّر وَصْفًا للقَلْب، وعلى قِراءة الإضافة يَكون الطبع على قَلْب المُتكبِّر، وليس القلبُ هو المُتكبِّر، والمَعنَى واحِد؛ لأنه إذا تكبَّر القَلْب تكبَّرَت النَّفْس؛ لقول النَّبيِّ -صلى الله عليه وعلى آله وسلم-: «أَلَا وَإِنَّ فِي الجَسَدِ مُضْغَةً، إِذَا صَلَحَتْ صَلَحَ الجَسَدُ كُلُّهُ، وَإِذَا فَسَدَتْ فَسَدَ الجَسَدُ كُلُّهُ أَلَا وَهِيَ القَلْبُ»[1].

قوله: ﴿عَلَىٰ كُلِّ قَلْبِ مُتَكَبِّرٍ﴾ أو «قلبٍ مُتكبِّرٍ» التَّكبُّر معناه التَّرفُّع، يَعنِي: أنَّ الإنسان يَترفَّع، وهو نوعان: تَكبُّر على الخَلْق، وتَكبُّر عن الحَقِّ. وإلى هذا يُشير قول النَّبيِّ -صلى الله عليه وعلى آله وسلم-: «الْكِبْرُ بَطَرُ الحَقِّ، وَغَمْطُ النَّاسِ»[2] بطر

(١) أخرجه البخاري: كتاب الإيمان، باب فضل من استبرأ لدينه، رقم (٥٢)، ومسلم: كتاب المساقاة، باب أخذ الحلال وترك الشبهات، رقم (١٥٩٩)، من حديث النعمان بن بشير رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.

(٢) أخرجه مسلم: كتاب الإيمان، باب تحريم الكبر وبيانه، رقم (٩١)، من حديث ابن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

الحَقِّ يَعنِي: رَدُّه، وعدَم الإذعان له. وغَمْط الناس يَعنِي: احتِقارُهم، فيَرَى نفسه أنه فوقَ الناس، هذا هو الكِبْر -والعِياذ بالله- ومَعلومٌ أنَّ مَن غمَطَ الحَقَّ وازدَراه فإنَّه لا يَأخُذ به، إِذْ كيف يَأخُذ بشيءٍ يَرَى أنَّه نقيصة، وكذلك مَن غَمَطَ النَّاسَ فإنه لا يَعْدِل فيه، بل يُعامِلهم بالكِبْرياء -والعِياذُ بالله- فيَكون الطَّبْع حقيقًا بمِثْل هذا القَلْبِ، وقد أَخبَرَ النَّبيُّ -صلى الله عليه وعلى آله وسلم- أنه لا يَدخُل الجَنَّة مَن في قَلْبه مِثْقال حَبَّة خَرْدَل من كِبْر[1].

من فوائدِ الآيةِ الكريمةِ:

الْفَائِدَةُ الأُولَى: كراهةُ الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ للذين يُجادِلون في آيات الله لأَجْل إبطالها؛ لقوله: ﴿ٱلَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ فِيٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ بِغَيۡرِ سُلۡطَٰنٍ أَتَىٰهُمۡۖ كَبُرَ مَقۡتًا عِندَ ٱللَّهِ﴾.

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَةُ: أنَّه لا سُلْطانَ لكل إنسان جَادَل لإِدْحاض الحَقِّ وإظهار الباطِل، يُؤخَذ من قوله: ﴿بِغَيۡرِ سُلۡطَٰنٍ﴾.

الْفَائِدَةُ الثَّالِثَةُ: تَقوية قُلوب المُجادِلين بالحَقِّ؛ لأنَّ الجِدَال يَكون من طرَفَيْن؛ فالمُجادِل في آيات الله لإِبْطالها هذا لا حُجَّةَ له؛ ويَكون الخَصْم المُقابِل للآخَر يَكون له حُجَّة.

فإِذَنْ: إذا عُلِم المُجادل الذي يُريد إثبات الحَقِّ وإبطال الباطِل أنه لا سُلطانَ لخَصْمه، فإنه سوف يَقوَى قلبُه، ويَزداد ثَباتًا؛ فيُستَفاد منه بطريق المَفهوم أنَّ المُجادِل في آيات الله لإثباتها سيَكون معه السُّلْطان والقوَّة، ولكن ليس كل مَن معه حُجَّة يَستَطيع أن يَحتَجَّ بها؛ قد لا يَستَطيع، وهو يَعرِف أنه على حَقٍّ لكن لا يَستَطيع أن يُجادِل

---

(١) أخرجه مسلم: كتاب الإيمان، باب تحريم الكبر وبيانه، رقم (٩١)، من حديث ابن مسعود رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ.

بها؛ ولهذا يَنبَغي للإنسان أن يَعرِف ما عِند الأقوام من الباطِل؛ ليَتمَكَّن من رَدِّه. أمَّا كونُه لا يَقرَأ الباطِل، ويَقول: أنا كل ما ورَدَ عليَّ من باطِل فعِندي قُدْرة على دِفاعه فهذا قد يُخذِّل الإنسان في مَكان يُحِبُّ أن يَنْتَصِر فيه؛ فلا بُدَّ من أن يَعرِف الإنسان الباطِل من أَجْل أن يَرُدَّ عليه.

ولهذا نَرَى العُلَماء المُحقِّقين يَقرَؤُون كتُب المَناطِقة والفلاسِفة وغيرها؛ ثُم يَرُدُّون عليهم، وهذا إنما يَكون في رجُل رَسَخت قدَمُه في العِلم، أمَّا رجُلٌ ابتَدَأ طالِبًا، فهذا لا نُشير عليه أن يَقرَأ كتُب أهل الضَّلال، وذلك لأنه ليس عنده مَنَعة، فيُخشَى أن يَتأثَّر بهذه الكتُبِ فيَضِلَّ؛ لكنَّ الراسِخ في العِلْم نَقول: اقرَأْ حتى تَعرِف كيف تَرُدُّ على هؤلاء.

الْفَائِدَةُ الرَّابِعَةُ: أن مَن جادَلَ بحَقٍّ فليس بمَذموم؛ لقوله: ﴿بِغَيْرِ سُلْطَانٍ﴾ إذ لو كان لهم سُلْطان لكانوا على حَقٍّ، لكن ليس لهم سُلْطان.

الْفَائِدَةُ الخَامِسَةُ: إثبات المَقْت لله عَزَّوَجَلَّ وأنه يَتَفاضَل؛ فيَكون مَقتُه على شخصٍ أو طائِفة أكبَرَ من مَقْته على شخصٍ أو طائِفة آخَرين، يُؤخَذ من قوله: ﴿كَبُرَ مَقْتًا عِندَ ٱللَّهِ﴾ وهل هذا المَقتُ حَقيقة أو يُراد به لازِمه وهو العُقوبة؟

الجَوابُ: الأوَّلُ؛ هذا مَذهَب أهل السُّنَّة والجَماعة؛ أنهم يَقولون: كل ما وصَف الله به نفسه فهو على حقيقته؛ لكنه يَجِب أن نَعلَم أنه لا يُماثِل صِفاتِ المَخلوقين؛ لأن الله أَثبَتَ ونَفَى قال: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ [الشورى:١١]، وهذه خُذْها جادَّة عِندكَ، سِرْ عليها في كل ما وَصَف الله به نَفْسه، لا تَقُل: هذا لا يُراد به ظاهِرُه. كل ما وصَفَ الله به نَفْسه فإنه يُراد به ظاهِرُه، لكن يُنزَّه عن مُماثَلة المَخلوقين.

إِذَنِ: الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى يمقُت، ويُبغِض، ويَكرَه، ويُحِبُّ حَقًّا على حَقيقته، ولكنه لا يُماثِل صِفاتِ المَخْلوقين، وذهَبَ أَهْل التَّعْطيل الذين يَحكُمون على الله بعُقولهم، لا بكَلامه وكلام رسوله؛ ذهَبوا إلى أنَّ مِثْل هذه الأَوْصافِ يَجِبُ وجوبًا أن تُؤَوَّل إلى لوازِمها، فيَقولون مثلًا: المَقْت المُراد به الانتِقام والعُقوبة، وليس البُغْض، أو الكَراهة، أو الأَشَدَّ من ذلك.

فيُقال لهم: إذا فسَّرْتم ذلك بالعُقوبة ارتَكَبْتم مَحظورَيْن:

المَحظور الأوَّل: إخراج كلام الله عن ظاهِره.

والمَحظور الثاني: إثبات مَعنًى لا يُراد به.

وهكذا كلُّ مُحرِّف نَقول: إنه ارتَكَب مَحظورَيْن: المحظور الأوَّل: إخراج الكَلام عن ظاهِره، وهذه جِناية لا شَكَّ؛ حيث سَلَب اللَّفْظ معناه. والثاني: إثبات مَعنًى لا يُراد به؛ أي: لا يُراد باللَّفْظ، وهذا عُدوان أيضًا. فكلُّ مُؤَوِّل فإنه يَرتَكِب هذين المَحظُورَيْن.

والعجَب: أنهم يُسمُّون أَنفُسهم أهل التَّأويل، والصواب أنهم أهل التَّحريف، لكن هم تَسمَّوْا بهذا الاسمِ تَلطيفًا لما هم عليه من الباطِل؛ لأنَّ التأويل يُراد به حَقٌّ، ويُراد به باطِل، إذا أَوَّلْنا الكلام بما يُريده المُتكَلِّم به، فهذا حقٌّ؛ لكن بخِلافه هذا باطِل، وهذا هو الذي هم عليه، ولكن عدَلوا عن اسمِ التَّحريف إلى اسمِ التَّأويل.

وانظُرْ إلى دِقَّة عِبارة شيخ الإسلام ابن تَيميَّة رَحِمَهُ اللَّهُ في العَقيدة الواسِطية قال: «من غير تَحريف ولا تَعطيل»[(١)]. ولم يَقُل: من غير تَأويل، مع أنَّ أكثَر الذين يَتكلَّمون

---

(١) العقيدة الواسطية (ص:٥٧).

في العقائِد، أو يَكتُبون في العقائِد يَقولون: من غير تأويل. ولكن ما قاله هو الصحيح؛ لأن كل تَأويل لا يَدُلُّ عليه الدليلُ فهو تَحْريف.

إِذَنْ: نحن نُثبِت لله بأنه يَمقُتُ ويَكرَه ويُبغِض حقًّا على حَقيقته، وأمَّا العُقوبة فهي من لازِمِ ذلك.

ولهذا قال شيخُ الإسلام[1] وغيرُه: قال: أنتُمْ إذا أَثبَتُّم أنَّ الله تعالى يُعاقِب فقَدْ أَثبَتُّم أنَّ الله يَكرَه، بطريق اللُّزوم. إذ لا يُعاقِب إلَّا مَن يَكرَهه، لا يُمكِن أن يُعاقِب من يُحبُّه، فأنتُم لَمَّا فرَرْتم من إثبات الكراهة أو المَقْت، وقَعْتم فيه من وَجهٍ آخَرَ.

إِذَنْ نَقولُ: إذا أَثبَتُّم العُقوبة فلا عُقوبةَ إلَّا بعد مَقْت وكَراهة، هذا أَمْر ضَروريٌّ؛ لأنه لا يُمكِن لأحَد يُحِبُّ شخصًا أن يَقوم ويَضرِبه.

مسألة: كيف نَجمَع بين قول عُمرَ بنِ الخَطَّاب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: وافَقْت ربي في ثلاث[2]. وقوله: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَيْءٌ﴾؟

فالجَوابُ: يُوافِق حُكْم الله؛ لأنه يَتكلَّم عنه حُكْم الله عَزَّوَجَلَّ.

الْفَائِدَةُ السَّادِسَةُ: إثبات العِنْدية لله عَزَّوَجَلَّ، عِند الله، ثُمَّ العِنْدية نوعان: عِنْدية وَصْف، وعِنْدية قُرْب. فقول الله تَبَارَكَ وَتَعَالَى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِۦ﴾ [الأعراف:٢٠٦]، هذه عِندية قُرْب. وقوله هنا: ﴿كَبُرَ مَقْتًا عِندَ ٱللَّهِ﴾ [غافر:٣٥] عِنْدية وَصْف؛ لأن المَقْت ليس شيئًا مُنفصِلًا بائِنًا عن الله، حتى يَكون عِنْدية قُرْب، بل هذا عِنْدية وَصْف، كما تَقول للشخص: أنت عِنْدي عَزيز. تَقوله

(١) انظر: مجموع الفتاوى (٣/ ٢٧).

(٢) أخرجه البخاري: كتاب الصلاة، باب ما جاء في القِبلة، رقم (٤٠٢)، ومسلم: كتاب فضائل الصحابة رضي الله تعالى عنهم، باب من فضائل عمر رضي الله تعالى عنه، رقم (٢٣٩٩).

وهو بَعيد مِنْك، وليس مَعنَى: أنتَ عِندي عَزيز. يَعنِي: قَريب، لا هذا عِنْدية وَصْف؛ أي: أن عِزَّتك عِندي قائِمة بي.

الْفَائِدَةُ السَّابِعَةُ: أن ما يَكرَهه الله عَزَّوَجَلَّ فإن المُؤمِنين يَكرَهونه؛ لقوله: ﴿وَعِندَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ وهذه عَلامة الإيمان، خُذْها قِياسًا ومِيزان عَدْل، متى رأيتَ من نَفْسك أنك تكرَه ما يَكرَهه الله، وتُحِبُّ ما يُحِبُّه الله؛ فذلِك الإيمانُ دلَّ عليه هذه الآيةُ وغيرها من الآيات والأحاديث، ودلَّ عليه العَقْل أيضًا؛ لأن من كَمال المَحبَّة والإيمان أن تُحِبَّ ما يُحِبُّه مَن تُحِبُّ، وتَكرَه ما يَكرَهه.

الْفَائِدَةُ الثَّامِنَةُ: فضيلة الإيمان؛ حيث يَكون المُؤمِن دائِرًا مع الله عَزَّوَجَلَّ في مَحبَّة ما يُحِبُّ وكَراهة ما يَكرَه.

الْفَائِدَةُ التَّاسِعَةُ: التَّحذير من الكِبْر وأنه سبَبٌ للطَّبع على القَلْب -والعِياذُ بالله-؛ لقوله: ﴿كَذَٰلِكَ يَطۡبَعُ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ قَلۡبِ مُتَكَبِّرٖ﴾.

الْفَائِدَةُ الْعَاشِرَةُ: التَّحذير من الجَبَروت، وهو التَّعاظُم على الغَيْر، والشِّدَّة عليهم، وما أَشبَه ذلك؛ لقوله: ﴿مُتَكَبِّرٖ جَبَّارٖ﴾.

إِذَنْ: في الآية التَّحذيرُ من الكِبْر والجَبَروت.

الْفَائِدَةُ الحَادِيَةَ عَشْرَةَ: الرَّدُّ على مَن قال: الكَمال أن تَتَّصِف بصِفات الكامِل؛ يَعنُون بذلك الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ. ولا أَكمَلُ من الله، ونَقول: لا يُمكِن لإنسان أَنْ يُجارِيَ الله تعالى في أَوْصافه؛ فالتَّكبُّر والجَبروت والتَّعالي والتَّعاظُم بالنِّسبة لله كَمال، وبالنِّسبة لنا نَقْص، نَقْص وعَيْب وسبَب للبَلاء؛ وبهذا بطَلَت هذه القاعِدةُ التي لا أساسَ لها من الصِّحَّة، حتى إنَّ بعضهم وضَع حديثًا قال: تَخلَّقوا بأخلاقِ الله. أَعوذُ بالله،

تخلَّقوا بأَخْلاق الله؟!. هل نُسمِّي أَوْصافَ الله أخلاقًا؟! أبدًا لا نُسمِّيها؛ لأنَّ كلِمة أخلاق قد تَدُلُّ على خَلْق كَسْبي، والأخلاق نَوْعان: غَريزي وكَسْبي، لا إشكالَ في هذا.

ولهذا لَمَّا قال الرسول ﷺ لأَشَجِّ عَبْدِ الْقَيْسِ قال: «إِنَّ فِيكَ لَخُلُقَيْنِ يُحِبُّهُما اللهُ؛ الحِلْمُ وَالْأَنَاةُ» قال: يا رسولَ الله، أَخُلُقان تَخلَّقتُ بهما، أَمْ جَبَلَني الله عليهما؟ قال: «بَلْ جَبَلَكَ اللهُ عَلَيْهِمَا»[1] قال: الحمدُ لله الذي جبَلَني على ما يُحِبُّ أو كلِمة نحوها.

فالأخلاقُ كَسْبيٌّ وغَريزيٌّ، ولا يُمكِن أن نُسمِّيَ أوصاف الله تعالى أخلاقًا له، بل نَقول: أَوْصاف وصِفات وما أَشبَه ذلك، على أنَّ من العُلَماء مَن أَنكَر أن تَقول: لله صِفة، مِثل ابنِ حَزْم رَحِمَهُ اللَّهُ قال: إيَّاك أن تَقول: لله صِفة. الله ليس له صِفة. ولا بأس بالأسماء. لكنه مَحجوج بقول الرجُلِ الذي كان يَقرَأ: ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ﴾ قال: «إنها صِفة الرَّحْمن، وأُحِبُّ أن أَقرَأَها»[2].

ونحن نَقول: إن هذه الآيةَ تَدُلُّ دَلالة واضِحة على كَذِب هذه القاعِدةِ التي قعَّدها مَن قعَّدها من الناس، ونحن نَقول لكل مُؤمِن: تَخلَّق بأخلاق النبيِّ ﷺ؛ لأن نَبيَّنا ﷺ لنا أُسْوَة.

قال المفَسِّر رَحِمَهُ اللَّهُ: [بتَنوين القَلْب ودونَه، ومتى تَكبَّر القَلْب تَكبَّر صاحِبُه

---

(١) أخرجه أبو داود: كتاب الأدب، باب في قبلة الرِّجل، رقم (٥٢٢٥)، من حديث زارع رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وكان في وفد عبد القيس.

(٢) أخرجه البخاري: كتاب التوحيد، باب ما جاء في دعاء النبي ﷺ أمته إلى توحيد الله تَبَارَكَ وَتَعَالَى، رقم (٧٣٧٥)، ومسلم: كتاب صلاة المسافرين، باب فضل قراءة ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ﴾، رقم (٨١٣)، من حديث عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا.

وبالعَكْس]، متى تَكبَّر القَلْب تَكبَّر صاحِبه، وقوله: وبالعَكْس فيها نظَر؛ لأنه يَقتَضي أن يَتكَبَّر صاحِب القَلْب قبل القَلْب؛ لأنك إذا عكَسْت العِبارة متى تَكبَّر القلب تَكبَّر صاحِبه، متى تَكبَّر صاحِب القَلْب تَكبَّر قَلْبه، فهذا ليس بصحيح، لكن مُراده رَحِمَهُ اللَّهُ أن تَكبُّر القَلْب وتَكبُّر النَّفْس مُتلازِمان، إن تَكبَّر القَلْب تَكبَّرت النَّفْس؛ وإن تَكبَّرَت النَّفْس كان ذلك دليلًا على أنَّ القَلْب مُتكبِّر.

قال المفَسِّر رَحِمَهُ اللَّهُ: [و﴿كُلِّ﴾ على القِراءتَيْن لعُموم الضَّلال لجميع القَلْب لا لعُموم القُلوب]

قوله: [لعُموم القُلوب] يَعُمُّ جميع أجزاء القَلْب، أي: جميع أَجزائه، أي: لم يَبقَ فيه مَحلٌّ يَقبَل الاهتِداء. وقولُه: لا لعُموم القُلوب أي: لا لعُموم أفراد القُلوب، وهذا الصَّنيعُ إخراجٌ لها عن مَوْضوعها من أنها إذا دخَلَت على نكِرة مُطلَقة أو على مَعرِفة مجموعة تكون لعُموم الأفراد، وإذا دخَلَت على مَعرِفة مُفرَدة تكون لعُموم الأجزاء، وهنا قد دخَلَت على النَّكِرة، فكان حَقُّها أَنْ تكون لعُموم الأفراد لا لعُموم الأجزاء؛ كما سلَكَه المفَسِّر فلْيُتَأَمَّلْ.

والمفَسِّر يَقول: إن الكُلِّيَّة هنا تَعود على الفَرْد لا على الأفراد، ﴿عَلَىٰ كُلِّ قَلْبِ﴾ يَعنِي: على كل القُلْب، لا بعضِه؛ وليسَت لعُموم القُلوب، يَعنِي: ليسَت لعُموم كل قَلْب على حِدَة، ولكن ما ذهَبَ إليه ليس بصَواب، بل نَقول: على كل القُلوب، والعُموم مُستَفاد من كلِمة يَطْبَع على القَلْب لا على بعضه؛ فإذا قُلنا: إنها لعُموم القُلوب شمِلَت عُموم القَلْب، ولا عكسَ.

ثُم إنَّ ظاهِر السِّياق على كل قَلْبٍ مُتكبِّر، أو على كل قلبِ مُتكبِّر. إذا نظَرْنا إلى السِّياق ماذا نَفهَم؟ هل نَفهَم أنَّ جميع القُلوب المُتكَبِّرة يُطبَع عليها؟ أو نَفهَم أنَّ

القَلْب الواحِد يُطبَع على جميعه لا على بَعْضه؟

الجواب: الأوَّل لا شَكَّ، هذا ظاهِرُ السياق، وهذا كما أنه ظاهِر السِّياق فهو أَشمَلُ في المَعنَى؛ لأنه إذا قيل: كذلك يَطبَع الله على كل القُلوب المُتكَبِّرة الجَبَّارة، والطَّبْع على القلب يَشمَل الطَّبْع على جميعه، ما لم يُوجَدْ دليل على أن المُراد الطبع على بعضِه؛ وحينَئِذٍ يَكون الصواب عَكسَ ما قال المفَسِّر، فالصواب: أنَّ هذا لعُموم القُلوب وليس لعُموم القَلْب.

فإذا قُلنا: إنها لعُموم القَلْب صار المَعنَى: أنَّ الله يَطبَع على القَلْب كُلِّه، يَعنِي: أنَّ معنى الآية أنَّ الله يَطبَع على القَلْب كلِّه لا على جميع القُلوب، فيَخرُج بذلك بعضُ القَلْب، لا يَطبَع على بعض، يَطبَع على القَلْب كُلِّه؛ لكنه مثَلًا على قَلْب فُلان من الناس.

أمَّا إذا قُلْنا: إنها لعُموم القُلوب، صار مَعنَى الآية: أنَّ الله يَطبَع على جميع القلوب المُتكبِّرة في أيِّ واحِد من الناس.

وإذا قُلْنا: لعُموم القَلْب صارت عامَّة للقَلْب الواحِد؛ يَعنِي: والقُلوب الأخرى مَسكوت عنها. هذا وَجْه الفرق، القُلوب الأُخرى مَسكوت عنها، ولكن نَقول: الصَّواب أن مَعنَى قوله: ﴿عَلَىٰ كُلِّ قَلْبِ مُتَكَبِّرٍ﴾ يَعنِي: من جميع الناس، وإذا قال: طَبَع على القَلْب، فالمَعنَى أنه على جَميع القَلْب، ما لم يَنُصَّ على أنَّ المُراد بعضُ القَلْب.

فإن قال قائِل: لكن لماذا يَقول: على جميع القَلْب؟

فالجَوابُ: هذا مَعناه: لا على بعضِه؛ ولذلك كَلام المفَسِّر فيه نظَر من عِدَّة

وجوه؛ كلَّما تأمَّلت عرَفْت أن هناك خَطَأً، والمُحَشِّي -الذي هو الجَمل- يَقول: فيه تَأمُّل. أو قال: فلْيُتأمَّل. وتَأمَّلْناه فوجَدْناه غيرَ صحيح.

فإن قال قائِل: بالنِّسبة لقول الشارِح: [لعُموم القُلوب] لِمَ لَمْ يَقُل: لعُموم القَلْب، والقَلْب هذا كلُّ مَن وُصِف بالتَّكبُّر والجَبروت داخِلٌ؟

فالجَوابُ: ليس هذا مُرادَه، إنما مُرادُه من القَلْب زيد وعَمرو وبَكْر وخالد هذه القُلوب؛ لكن إذا قُلْنا: عُموم القَلْب. صار مَعناه: قَلْب زَيْد فقَطِ، الطَّبْع عامٌّ له.

فإن قال قائِلٌ: وهل كُلُّ مَن وُصِف بهذا الوَصفِ التَّكبُّر مَطبوع عليه؟

فالجَوابُ: نعَمْ، لكن لا نَقولُ: لعُموم القَلْب. نَقول: لعُموم القُلوب؛ هذا عامٌّ في كل قَلْب مُتكبِّر، ففَرْق بين أن تَقول: الكُلِّية هذه للأَجزاء أو للأَفراد. إذا قُلنا: لعُموم الأجزاء. صار لعُموم القَلْب، وإن قُلنا: لعُموم الأَفراد. صار جميع القُلوب، كلُّ القَلْب مُتَّصِف، لو كان مِئات الملايين مُتَّصِفًا بهذا فهو مَطبوع عليه، ولا شَكَّ أن كلام المفَسِّر رَحِمَهُ اللَّهُ ليس له وجه إطلاقًا، ولكن سُبحانَ الله!.

• • ۞ • •

الآيتان (٣٦، ٣٧)

قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَٰهَٰمَٰنُ ٱبْنِ لِى صَرْحًا لَّعَلِّىٓ أَبْلُغُ ٱلْأَسْبَٰبَ ﴿٣٦﴾ أَسْبَٰبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ فَأَطَّلِعَ إِلَىٰٓ إِلَٰهِ مُوسَىٰ وَإِنِّى لَأَظُنُّهُۥ كَٰذِبًا ۚ وَكَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِفِرْعَوْنَ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ وَصُدَّ عَنِ ٱلسَّبِيلِ ۚ وَمَا كَيْدُ فِرْعَوْنَ إِلَّا فِى تَبَابٍ﴾ [غافر:٣٦-٣٧].

• • • •

قال الله تَبَارَكَ وَتَعَالَى في قِصَّة مُوسى مع فِرعونَ: ﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَٰهَٰمَٰنُ ٱبْنِ لِى صَرْحًا لَّعَلِّىٓ أَبْلُغُ ٱلْأَسْبَٰبَ﴾ فِرعونُ هو مَلِك مِصرَ؛ قيل: إنه اسمُ شَخْص، أو إنه عَلَم شَخْص، وقيل: إنه عَلَم جِنْس، فإذا قلنا: إنه علَم شَخْص صار اسمًا لشَخْص مُعيَّن، وإذا قلنا: إنه علَم جِنْس صار اسمًا لكل مَن ملَك مِصرَ كافِرًا.

وهذا هو الذي عليه الأكثرُ؛ لكن فِرعونَ موسى عَلَم شَخْص وعلَم جِنْس أيضًا: ﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَٰهَٰمَٰنُ ٱبْنِ لِى صَرْحًا﴾ هامانُ وزيرُه، وقوله: ﴿ٱبْنِ لِى صَرْحًا﴾ يَعنِي: مُرْ مَن يَبني لي ذلك؛ لأنه من المَعلوم أنَّ الوَزير لن يُباشِر بِناء الصَّرْح، ﴿صَرْحًا﴾ قال المفسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [بِناءً عاليًا] يَعنِي: رفيعًا.

وقوله: ﴿لَّعَلِّىٓ أَبْلُغُ ٱلْأَسْبَٰبَ﴾ (لعَلَّ) هنا للتَّعليل، وهي تَأتِي للتَّعليل تارة وللإِشْفاق تارة، وللتَّرجِّي تارةً؛ فمِن مجَيئها للتَّعليل هذه الآيةُ، وقوله تعالى: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ قُرْءَٰنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ [يوسف:٢] هذه للتَّعليل، وكلَّما جاءَت (لعَلَّ) في حَقِّ الله عَزَّوَجَلَّ فإنها للتَّعليل؛ لأنَّ الربَّ عَزَّوَجَلَّ لا يَترجَّى إذ إنَّ كل شيء عليه هيِّن،

وتَأتِي للإشْفاق؛ مِثل: أن تَقول: لعَلَّ الحَبيبَ هالِكٌ. يَعنِي: أَخشَى أن يَكون هالِكًا.

وتَأتِي للتَّرجِّي: مثل: حضَرْت إلى الدَّرس فلعَلِّي أفهَمُ، لو قلت: لعَلِّي أَفهَم؛ احتَمَل أن تكون للتَّعليل، فإذا قلت: فـ(لَعلِّي) صارَت للتَّرجِّي، وتكون أيضًا للتَّوقُّع، كما لو قُلت لشَخْص تُخاطِبه: لعَلَّك فاهِمٌ.

وهذه المَعاني التي تَأتِي للحروف بَلْ وللأسماء أيضًا وللأَفْعال، إذا كانت مُتعَدِّدة فالذي يُعيِّنها السِّياق وقَرائِن الأحوال.

قال: ﴿لَّعَلِّيٓ أَبۡلُغُ ٱلۡأَسۡبَٰبَ ٣٦ أَسۡبَٰبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ الأسباب جَمْع سبَب، وهو كل ما يُوصِل إلى المَقصود، فالسبَب وَسيلة والمُسبَّب غاية، والأَسباب هنا بيَّنها بقوله: ﴿أَسۡبَٰبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ فـ﴿أَسۡبَٰبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ محَلُّها مِمَّا قبلَها عَطْف بيان، تُبيِّن الإبهام المَوْجود في الأسباب.

فإن قال قائِل: لماذا لم يَقَع الكَلام مُبيَّنًا من أوَّل الخِطاب، فيُقال: لعلِّي أَبلُغ ﴿أَسۡبَٰبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ ؟

قلنا: إن الإبهام أوَّلًا، ثُم التَّفصيل والبيان ثانيًا؛ أَوقَعُ في النَّفْس؛ لأن الشيء إذا جاء مُبهَمًا ثُم بُيِّن صار للبَيان وَقْع عند تَشوُّف النَّفس لمَعرِفة هذا المُبهَم؛ يَعنِي: لو جاء الكَلام مُبيَّنًا من أول الأمر لكان سهلًا على النفوس، لكن إذا جاء أوَّلًا مُبهَمًا تَشوَّفتِ النفس لمَعرِفة هذا المُبهَم، ثُم جاء البَيان والنَّفس مُستعِدَّة لقَبوله مُتشوِّفة إلى الوصول إليه.

قوله: ﴿أَسۡبَٰبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ قال المفسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [طُرُقها المُوصِّلة إليها ﴿فَأَطَّلِعَ﴾ بالرَّفع عطفًا على (أَبلُغ) وبالنَّصب جوابًا لـ(ابْنِ)]، يَعنِي: أنَّ فيها قِراءَتَيْن سَبْعيَّتين

«فأَطَّلِعُ»، ﴿فَأَطَّلِعَ﴾، أمَّا على قِراءة الرَّفْع؛ فإنها مَعطوفة على (أبلَغ) يَعنِي: لعَلِّي أَبلُغ الأسباب، فلَعلِّي أَطَّلِع. وأمَّا على قِراءة النَّصْب؛ فإنَّها وقَعَت جوابًا لـ(ابْنِ) و(ابْنِ) فِعْل أمر، وفِعْل الأمر يَقَع جوابه إذا كان مَقرونًا بالفاء بالنَّصب (فأَطَّلِع) فتكون الفاء هنا للسَّبَبية.

واعلَمْ أنَّ القِراءَتَيْن الوارِدَتَيْن في القُرآن الكريم هما أَحَدُ الحُروف السَّبْعة التي نزَل القُرآن عليها؛ فإن القُرآن أُنزِل على سَبْعة أَحرُف، ولَّما كان في زمَن عُثمانَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَمَر أن يُجعَل القُرآن على حَرْف واحِد هو حَرْف قُرَيْش؛ يَعنِي: لغتها؛ فهذه القِراءاتُ المَوْجودة ليسَت هي الأَحرُف السَّبْعة، بل هي على حَرْف واحِد. هذا واحد.

الثاني: اعلَمْ أنَّ القِراءَتَيْن كِلْتاهما صحَّتْ عن النبيِّ ﷺ؛ لأنَّها نُقِلَت بالتَّواتر.

الثالث: اعلَمْ أنه لا يَنبَغي للإنسان أن يَقرَأ بين العامَّة بقِراءة تُخالِف ما في أيديهم من المَصاحِف؛ لأن ذلك يُوجِب التَّشويش والارتباك، واتِّهام القارِئ، ورُبَّما تَهبِط عظَمة القُرآن في نفوسهم بسبَب هذا الاختِلافِ. أمَّا فيما بينك وبين نَفْسك فالأفضَلُ أن تَقرَأ بهذا تارةً، وبهذا تارةً؛ بشَرْط أن تكون عالِمًا غير مُتخبِّط، وإنما قُلنا: هذا هو الأَفضَل لأن كُلًّا من القِراءَتَيْن قد قرَأ به النَّبيُّ -صلى الله عليه وعلى آله وسلم-، فيكون هذا مِثل العِبادات الوارِدة على وُجوهٍ مُتنوِّعة؛ كالاستِفْتاحات والتَّشهُّد وما أَشبَه ذلك؛ لكن هذا بينك وبين نَفْسك، أو في مَقام التَّعليم إذا كُنت تُعلِّم طلَبة.

قوله: ﴿فَأَطَّلِعَ إِلَىٰٓ إِلَٰهِ مُوسَىٰ﴾ يَعنِي: أَصِلَ إليه وأَنظُر هل هذا حقٌّ أو غير حقٍّ؛ ثُم استَدْرَك خوفًا من أن يَقول أحدٌ من جُنوده: إنه حَقٌّ. فقال: ﴿وَإِنِّي لَأَظُنُّهُۥ كَٰذِبًا﴾.

قال المفسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿لَأَظُنُّهُۥ﴾ أي: موسى ﴿كَٰذِبًا﴾ في أنَّ له إلهًا غيري]؛ قال هذا تمويهًا على أصحابه؛ وخوفًا من أن يَقَع في نفوسهم شيءٌ حين أَمَر وزيرَه أن يَبنيَ له صرحًا، قال: ﴿وَإِنِّي لَأَظُنُّهُۥ كَٰذِبًا﴾.

وفِرعونُ في هذه المَقالةِ كاذِب، هو لا يَظُنُّ أنَّ موسى كاذِب، بل يَعلَم أنه صادِق؛ لقول الله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ عن موسى أنه قال له -أي: لفِرعونَ-: ﴿قَالَ لَقَدۡ عَلِمۡتَ مَآ أَنزَلَ هَٰٓؤُلَآءِ إِلَّا رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ بَصَآئِرَ﴾ [الإسراء:١٠٢]، قال هذا الكَلامَ: ﴿لَقَدۡ عَلِمۡتَ﴾ مُؤكِّدًا إيَّاه بالقَسَم واللام و(قَدْ)، ويُخاطِب هذا الرجُلَ القادِر على إنكار ما قاله موسى لو كان كـذِبًا قال له: ﴿قَالَ لَقَدۡ عَلِمۡتَ مَآ أَنزَلَ هَٰٓؤُلَآءِ إِلَّا رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ بَصَآئِرَ وَإِنِّي لَأَظُنُّكَ يَٰفِرۡعَوۡنُ مَثۡبُورًا﴾ فِرعونُ ليس له مانِع يَمنَعه أن يَقول: لم أَعلَمْ. هو قادِر، لكنه إن قال ذلك يَعلَم أنه ﴿مَآ أَنزَلَ هَٰٓؤُلَآءِ إِلَّا رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ بَصَآئِرَ﴾، وقال الله تعالى: ﴿وَجَحَدُواْ بِهَا وَٱسۡتَيۡقَنَتۡهَآ أَنفُسُهُمۡ ظُلۡمًا﴾ هذه مَفعول من أَجْله لـ﴿وَجَحَدُواْ﴾ بها ظُلْمًا.

المُهِمُّ: أن قـوله: ﴿وَإِنِّي لَأَظُنُّهُۥ كَٰذِبًا﴾ هذه الجُمْلةُ كـذِب، هو يَعلَم أن موسى صادِق، لكنه قال ذلك تَمويهًا لقومه، وخوفًا من أن يَقَع في قُلوبهم شيء من الشَّكِّ، قال عن فِرعونَ: ﴿وَإِنِّي لَأَظُنُّهُۥ كَٰذِبًا﴾ يَقول المُفسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [قال فِرعونُ ذلك تَمويهًا].

قوله: ﴿وَكَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِفِرۡعَوۡنَ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ وَصُدَّ عَنِ ٱلسَّبِيلِ﴾ ﴿وَكَذَٰلِكَ﴾ أي: مثل هذا الفِعْل، أو مثل هذا التَّزيين أيُّهما الذي على القاعِدة؟

الجَوابُ: الثاني. لأننا قُلْنا: إن (كذلك) تَكون مَفعولًا مُطلَقًا للفِعْل الذي بعدَها؛ أي: مثل هذا التَّزيين الذي زُيِّن لفِرعونَ، وهذا التَّمويهُ والتَّرويجُ لقومه

زَيَّنَ لِفرعونَ سوءَ عمَله، والذي زيَّنه الشيطان والنَّفس الأمَّارة بالسوء.

وقد يُقال: والله عَزَّوَجَلَّ؛ لأن الله يُضِلُّ مَن يَشاء، كما قال الله تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ زَيَّنَّا لِكُلِّ أُمَّةٍ عَمَلَهُمْ﴾ [الأنعام:١٠٨]، فالله تعالى زيَّنه قَدَرًا، بمعنى أنه حجَب عنه الهُدَى، ثُم زَيَّن له الشيطان والنَّفْس الأَمَّارة بالسوء أن يَعمَل هذا العمَلَ.

وقوله: ﴿سُوٓءُ عَمَلِهِۦ وَصُدَّ عَنِ ٱلسَّبِيلِ﴾ السبيل هنا فيها (أل) التي للعَهْد الذِّهنيِّ، عن السبيل الذي هو سَبيل الهُدَى؛ ولهذا قال المفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [طريق الهُدَى] وفيها قِراءتان «صَدَّ» [بفَتْح الصاد وضَمِّها] ﴿وَصُدَّ﴾ هذه بضَمِّ الصاد على أنها مَبنيَّة لما لم يُسمَّ فاعِله، أمَّا «صَدَّ» بفَتْح الصاد على أنها مَبنيَّة على ما سُمِّيَ فاعِله، ولكن هل هي مُتعدِّية أو لازِمة، هل مَعناه أنه صُدَّ بنفسه أو صَدَّ غيرَه ؟ تَشمَل المَعنيَيْن؛ لأنها لفظ مشتَرَك صالِح للمَعنيَيْن جميعًا، والقاعِدة في التَّفسير أن كل لفظ يَصلُح لمَعنيَيْن لا يَتنافِيان، فإنه يُحمَل عليهما جميعًا، إلَّا إذا كان في أحدهما ما يُرجِّحه فيَرجُح، فيُعمَل بما يَترَجَّح.

ثم قال الله تَبَارَكَ وَتَعَالَى: ﴿وَمَا كَيْدُ فِرْعَوْنَ إِلَّا فِي تَبَابٍ﴾ ما كَيدُه إلَّا في تَباب، والكيد والمَكْر والخِداع وما أَشبَهَها كلُّها كلِمات مُتقارِبة، ومَعناها: أن يَتوصَّل الإنسان بالأسباب الخَفِيَّة إلى مَقصوده بخَصْمه، كل إنسان يَقصِد من خَصْمه أن يَكون مَغلوبًا، فيَتوصَّل إلى هذا بأسباب خَفيَّة لا يَعلَم بها الخَصْم للوُصول إلى هذا.

فِرعونُ كاد كيدًا في أن يَقول لهامانَ: ابْنِ لي صرحًا من أَجْل أن يَرقَى على هذا الصَّرْحِ، فإذا وصَل غايته نظَر أمام الناس ثُم نزَل، وقال: لم أَجِد ربَّ موسى. وهذا تمَويه، لا سِيَّما على عامة كآلِ فِرعونَ الذين قد بَهَرَهم هذا الظالِمُ الطاغِية، فكل شيء يَكون عِندهم حقيقة، لكن هل هذا الكَيْدُ يَنفَعه؟

قال الله تعالى: ﴿وَمَا كَيْدُ فِرْعَوْنَ إِلَّا فِي تَبَابٍ﴾ أي: إلَّا في خَسارة، و(ما) هنا حِجازية مُهمَلة، يَعنِي: أنها لا تَعمَل، والذي أَبطَل عمَلها الإثبات، وابنُ مالِكٍ يَقول:

إِعْـمَالُ لَـيْسَ أُعْمِلَـتْ مَـا دُونَ إِنْ مَعَ بَقَا النَّفْـيِ.................[1]

والنفيُ هنا لم يَبقَ؛ ولهذا نَقول: هي مُهمَلة لبُطلان النَّفيِ وانتِفائه بـ(إلَّا).

من فوائِدِ الآيتين الكريمتين:

الْفَائِدَةُ الأُولَى: استِعْلاء فِرعونَ وتَرفُّعه، وذلك بتَوْجيه الأمر إلى وَزيره أن يَبنِيَ له صرحًا، وتَأمَّل قوله: ﴿ابْنِ لِي﴾ ولم يَقُل: ابنِ؛ لأن هذا أَعظَمُ في التَّرفُّع والتَّعاظُم؛ إذ لو قال: ابْنِ. لكان لأيِّ أَحَد يَبنِي؟ ففيه إبهام، لكن إذا قال: لي؛ دلَّ هذا على أنه استَخْدَم هذا الرجُلَ الذي هو الوزير استِخْدامًا تامًّا.

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَةُ: أن اتِّخاذ الوُزَراء كان عُرْفًا قديمًا، سواءٌ كان وزيرًا في الخير أو وزيرًا في الشرِّ، فمِن وُزراء الخير قول موسى عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: ﴿وَاجْعَل لِّي وَزِيرًا مِّنْ أَهْلِي ﴿٢٩﴾ هَارُونَ أَخِي﴾ [طه:٢٩-٣٠]، وقول عليِّ بن الحُسَيْن بن عليِّ بن أبي طالب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ حين سأله زُعَماء الشيعة -وهم الرافِضة- عن أبي بَكْر وعُمرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، فتَرحَّم عليهما، وقال في الثَّناء عليهما: هُما وَزيرا جَدِّي[2]. يَعنِي: النَّبيَّ -صلى الله عليه وعلى آله وسلم-، فرَفَضوه؛ لأنهم قد زُيِّن لهم سُوء عمَلهم بأن كل من أَحبَّ أبا بكر وعُمرَ فقد أَبغَض عليًّا، وعلى هذا يَكون النَّبيُّ ﷺ مُبغِضًا لعَليٍّ؛ لأنه سُئِل: أيُّ الرجال

---

(١) الألفية (ص:٢٠).

(٢) انظر: لوامع الأنوار البهية للسفاريني (١/ ٨٥).

أحبُّ إليك؟ قال: «أَبو بَكْرٍ»[1] فعلى قاعِدتهم يَكون الرسول مُبغِضًا لعِليٍّ، فانظُرْ كيف كانت عاقِبة هذه القاعِدةِ الفاسِدة الباطِلة.

الْفَائِدَةُ الثَّالِثَةُ: جواز نِسبة الشيء إلى الآمِر به دون فاعِله، تُؤخَذ من قوله: ﴿ٱبۡنِ لِي صَرۡحٗا﴾ وهو لا يُريد أن هامانَ يَتولَّى البِناءَ بنَفْسه، بل يَأمُر؛ لأنه وزير.

الْفَائِدَةُ الرَّابِعَةُ: إثبات عُلوِّ الله تعالى العلوَّ الذاتي للشَّرائِع السابِقة، يُؤخَذ من قوله: ﴿ٱبۡنِ لِي صَرۡحٗا لَّعَلِّيٓ أَبۡلُغُ ٱلۡأَسۡبَٰبَ ٣٦ أَسۡبَٰبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ فهذا يَدُلُّ على أن موسى -صلى الله عليه وعلى آله وسلم- قد أَبلَغه بأن الله في السماء.

وعُلوَّ الله الذاتي أَمْر لا يُنكَر؛ لأنه دلَّت عليه جميع الدَّلائِل: الكِتاب، والسُّنَّة، والإجماع، والعَقْل، والفِطْرة، كلُّها دلَّت على عُلوِّ الله عَزَّوَجَلَّ العُلوَّ الذاتيَّ، وأنه سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ في السماء، وأنه لا يُمكِن أن يَكون في الأرض، ونحن نُركِّز على هذه النُّقْطةِ لأهميتها؛ لأنها تَتعلَّق بالعَقيدة، أمَّا القُرآن فما أكثَرَ الأدِلَّةَ المُتنوعة الدالَّة دَلالة قاطِعة على علوِّ الله الذاتيِّ! وكذلك السُّنَّة دلَّت على ذلك قولًا وفِعلًا وإقرارًا، فالنَّبيُّ عَلَيْهِٱلصَّلَاةُوَٱلسَّلَامُ أَثبَتَ علوَّ الله الذاتيَّ بقوله وبفِعله وبإقراره.

أمَّا بقوله فإنه عَلَيْهِٱلصَّلَاةُوَٱلسَّلَامُ يَقول في سُجوده: «**سُبحانَ ربِّيَ الأَعْلى**»[2]، وأمَّا في فِعْله فأَشار إلى علوِّ الله تعالى في الوقوف بعرَفة حين خطَب الناس وقال: «**اللَّهُمَّ**

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب أصحاب النبي ﷺ، باب قول النبي ﷺ: «**لو كنت متخذًا خليلًا**»، رقم (٣٦٦٢)، ومسلم: كتاب فضائل الصحابة، باب من فضائل أبي بكر الصديق رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ، رقم (٢٣٨٤)، من حديث عمرو بن العاص رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ.

(٢) أخرجه مسلم: كتاب صلاة المسافرين، باب استحباب تطويل القراءة في صلاة الليل، رقم (٧٧٢)، من حديث حذيفة رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ.

اشْهَدْ»[١]، وأمَّا إقراره فبإقرار الجارِيةَ التي قالت: في السَّماءِ. لَمَّا سأَلَها: «أَيْنَ الله؟»[٢] وأمَّا الإجماع فقد أَجمَعَ السلَف على ذلك، ما منهم أحَدٌ قال: إن الله ليس في السماء. وما مِنهم أحَدٌ قال: إن الله في الأرض. وما منهم أحَدٌ قال: إن الله لا يُوصَف بعُلوٍّ ولا سُفول، ولا مُحايَثة ولا مُجانَبة. يَعنِي: ما منهم أحَدٌ قال: إن الله ليس فوقُ ولا تحتُ، ولا يمينٌ ولا شِمالُ، ولا مُتَّصِلًا بالخَلْق ولا مُنفصِلًا، كما قاله المُعطِّلة.

فإذا قال قائِل: نُسلِّم أنه لم يَرِد عنهم النَّفيُ، فما هو دَليلُ الإثبات؟

فالجَوابُ: دليلُ ذلك أنه كل نَصٍّ في القُرآن والسُّنَّة لم يَأتِ عن الصحابة خِلافُه، فإننا نَعلَم عِلْم اليَقين أنهم يَقولون به؛ لأن القُرآن نزَل بِلُغَتهم ويَعرِفونه، فإذا خوطبوا بهذا ولم يَرِد عنهم خِلافه دلَّ ذلك على أنهم قائِلون به، وهذه نُقطة مُهِمَّة تَنفعُك عند المُناظَرة مع الخُصوم إذا قال لك: أين قال الصحابةُ: إن الله في العُلو مثلًا؟ تَقول: قال الصحابةُ ذلك؛ لأن كل نصٍّ جاء بإثبات العُلوِّ، ولم يَرِد عن الصحابة خِلافُه فإنهم قائِلون به قَطْعًا؛ لأنه نزَل بلُغَتِهم وعرَفوه وفهِموه على ما أَراد الله عَزَّوَجَلَّ.

وأمَّا العَقْل فلو سأَلْت أيَّ إنسان: هل العُلوُّ صِفةُ كَمال أو النُّزول؟ لقال لك: العلوُّ. ولو قلت: العُلوُّ صِفةٌ أكمَلُ أو المُحاذاة؟ لقال: لك العلوُّ.

إِذَنْ: فالعُلوُّ دلَّ العَقْل على ثُبوته لله عَزَّوَجَلَّ.

وأمَّا الفِطْرة فلا تَسأَل، اسأَلْ عَجوزًا من العَجائِز لم تَقرَأ في كلام المُتكلِّمين المُعطِّلين ماذا تَقول لك؟ لو سأَلْتها: أين الله؟ قالت: في السَّماء. ولا تَعرِف إلَّا ذلك،

---

(١) أخرجه مسلم: كتاب الحج، باب حجة النبي ﷺ، رقم (١٢١٨)، من حديث جابر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٢) أخرجه مسلم: كتاب المساجد، باب تحريم الكلام في الصلاة، رقم (٥٣٧)، من حديث معاوية بن الحكم السلمي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

والعجَب أن نَفْس القائِلين بالنفيِ إذا دعَوُا الله عَزَّوَجَلَّ رفَعوا أيديَهم قهرًا عليهم إلى السماء، وهذا شيء مُسلَّم، وادِّعاؤُهم أنهم يَقولون: إن السَّماء قِبلة الداعِي كما أن الكَعْبة قِبلة المُصلِّي. نَقول: إِذَنْ أنتُم تَدْعون السماء فوقَعْتم في الشِّرْك من حيثُ لا تَعلَمون.

فالحَمدُ لله أن عُلوَّ الله أَمْر فِطري لا يَحتاج إلى تَعلُّم ولا إلى تَكلُّف!.

ومع ذلك جميع الأدِلَّة دلَّت عليه، ثُم يَأتِي أقوام أَعمَى الله تعالى بَصائِرهم، فيَقولون: إن الله تعالى ليس في العُلوِّ. ماذا يَقولون؟ استَمِعْ: منهم مَن يَقول: إن الله في كل مَكان، -وهؤلاءِ حُلولية الجَهْمية- الله في كل مَكان، في المَساجِد، في الأسواق، في البُيوت، في الجَوِّ، في السماء، -والعِياذُ بالله- في المَراحيض، في كل مَكان، وهذا باطِل كما تُبطِل الشَّمْس ظُلْمة الليل؛ لأنه يَلزَم منه واحِد من أمرين ولا بُدَّ: إمَّا أن يَكون الله مُتعدِّدًا، وإمَّا أن يَكون الله مُتجزِّئًا؛ بعضُه هنا، وبعضه هناك، أو مُتعدِّدًا واحِدٌ هنا وواحِدٌ هناك، هذا بقَطْع النَّظَر عمَّا يَلزَم عليه من اللَّوازِم الفاسِدة التي تُوجِب أن يَكون الله في أَقذَر الأمكِنة وأَنتَنِ الأمكِنة.

والقول الثاني لَمِن يُنكِرون علوَّ الله الذاتي يَقولون: لا نَقول: إن الله فَوقُ ولا تحتُ، ولا يَمينٌ ولا شِمالٌ، ولا مُتَّصِل بالعالَم ولا مُنفصِل عن العالَم. إِذَنْ هو عدَم، يَعنِي قال بعض العُلَماء: لو قيل: صِفوا لنا العدَم. لم نَجِد وَصْفًا أَشمَلَ من هذا، فحقيقة الأمر أنهم لا يَعبُدون الله، وأنه ليس لهم إلهٌ إطلاقًا.

الْفَائِدَةُ الخَامِسَةُ: أن من بلاغة المُتكلِّم أن يَسلُك أقربَ الطُّرُق إلى جَذْب المُخاطَب، ومنها الإبهام ثُم البيان؛ لقوله: ﴿لَّعَلِّيٓ أَبۡلُغُ ٱلۡأَسۡبَٰبَ ٣٦ أَسۡبَٰبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ وهذا كثير في القُرآن وفي كلام البَشَر.

الْفَائِدَةُ السَّادِسَةُ: أن السَّمواتِ جَمْع وعدَد؛ لقوله: ﴿ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ وهي كما هو مَعروف سَبْعة، قال الله تعالى: ﴿وَبَنَيْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعًا شِدَادًا﴾ [النبأ:١٢]، وقال تعالى: ﴿قُلْ مَن رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ ٱلسَّبْعِ﴾ [المؤمنون:٨٦]، وهذا مُتَّفَق عليه، والسَّموات هذه بَيْنها فجَوات، ويَدُلُّ على ذلك دَلالة قاطِعة حديثُ المِعراج(١)، فإن النبيَّ ﷺ كان يَعرُج من سماء إلى سماء.

الْفَائِدَةُ السَّابِعَةُ: أن رُؤَساء الضَّلال وأئِمَّة الضَّلال يَدْعون الناس إلى الضَّلال بكل ما يَستَطيعون، ويُحاوِلون أن يَحولوا بينهم وبين الحَقِّ؛ لقوله: ﴿وَإِنِّي لَأَظُنُّهُۥ كَٰذِبًا﴾ وقد بيَّنَّا في التفسير لماذا قال هذه الكلِمةَ، فلا تَغتَرَّ برُؤساء الضلال وأئمَّة الضلال وما يَقولون من التَّمويه والدجَل، وليس هذا مَقصورًا على أئِمَّة السُّلْطة الذين لهم السُّلْطة، بل حتى على أَئِمَّـة الدَّعْوة الذين يَدْعون الناس إلى أفكارهم الهدَّامة وأخلاقهم السافِلة، تَجِد عِندهم من التَّمْويه والتَّضْليل ما يُوجِب أن يَكون فخًّا يَقَع فيه مَن ليس له بَصيرة.

الْفَائِدَةُ الثَّامِنَةُ: أن الله عَزَّوَجَلَّ يَبتَلِي العَبد فيُزَيِّن له سُوء عمَله؛ لقوله: ﴿وَكَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِفِرْعَوْنَ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ﴾ ويَدُلُّ لهذا قولُ الله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ: ﴿كَذَٰلِكَ زَيَّنَّا لِكُلِّ أُمَّةٍ عَمَلَهُمْ﴾ [الأنعام:١٠٨]، وقوله تعالى: ﴿أَفَمَن زُيِّنَ لَهُۥ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ فَرَءَاهُ حَسَنًا ۖ فَإِنَّ ٱللَّهَ يُضِلُّ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ ۖ فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسَرَٰتٍ﴾ [فاطر:٨]، فاحرِصْ على الانتِباه لهذه المَسأَلةِ، فإن الإنسان قد يُزيَّن له سوء العمَل، والتَّزيين نَوْعان:

النَّوْع الأَوَّل: أن يَرى الإنسان هذا السيِّئ حسَنًا، وهذا أعظَمُ النَّوْعين.

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب التوحيد، باب قوله: ﴿وَكَلَّمَ ٱللَّهُ مُوسَىٰ تَكْلِيمًا﴾، رقم (٧٥١٧)، ومسلم: كتاب الإيمان، باب الإسراء برسول الله ﷺ إلى السماوات، رقم (١٦٢)، من حديث أنس رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ.

النوع الثاني: أن لا يَراه سَيِّئًا فيَميل إليه بهَواه، ويَقول: هذا سَهْل، وليس فيه شيء، هذا من التَّزْيين في الواقِع؛ لأن مَن لا يَرى السيِّئ سيِّئًا فإنه سيَقَع فيه إمَّا رَغبةً فيه؛ لأنه زُيِّن له، وإمَّا لهَوًى في نَفْسه؛ لأنه لا يَراه سيِّئًا.

الْفَائِدَةُ التَّاسِعَةُ: أن فِرعونَ يَصُدُّ الناس عن سَبيل الله، فهو من أَئِمَّة الصَّدِّ عن سبيل الله تعالى، وقد قال الله تعالى في آية أخرى: ﴿وَجَعَلْنَٰهُمْ أَئِمَّةً يَدْعُونَ إِلَى ٱلنَّارِ ۖ وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ لَا يُنصَرُونَ﴾ [القصص:٤١] فاحذَرْ هؤلاءِ الأَئِمَّة لا يَخدَعونك، فإنهم يَكيدون كيدًا، والله تعالى يَكيد كيدًا لعَبْده المُؤمِن.

الْفَائِدَةُ الْعَاشِرَةُ: أن فِرعونَ أَمَر ببِناء هذا الصَّرْحِ مُكايَدةً لا حَقيقةً، وإلَّا فمِن المَعلوم أنه سوف يَخسَر نَفَقاتٍ كثيرةً على هذا الصَّرْحِ العالي، لكنه لغَرَضه وهَواه لا يَهتَمُّ بذلك.

الْفَائِدَةُ الْحَادِيَةَ عَشْرَةَ: أن كَيْد المُضلِّين -والحمد لله- في خَسارٍ، كل مُضِلٍّ فكَيْده في خَسارة؛ لأنه إذا كان كَيْد هذا الطاغِيةِ في خَسارٍ فمَن دونه مِن بابِ أَوْلى ولا شَكَّ؛ ولهذا حصَر كَيْده في الخَسار ما هو إلَّا في خَسار، وقال الله تَبَارَكَ وَتَعَالَى: ﴿إِنَّهُمْ يَكِيدُونَ كَيْدًا ﴿١٥﴾ وَأَكِيدُ كَيْدًا﴾ [الطارق:١٥-١٦]؛ أي: كيدًا أَعظَمَ من كَيْدهم، وقال تعالى: ﴿أَمْ يُرِيدُونَ كَيْدًا ۖ فَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ هُمُ ٱلْمَكِيدُونَ﴾ [الطور:٤٢]، وهذه من أَعظَم الآيات التي تُفرِح المُؤمِن أن كَيْد الكافِر يَجعَله هو المَكيد، وجاء في الآية بالجُمْلة الاسمية: ﴿فَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ هُمُ ٱلْمَكِيدُونَ﴾ وبضَمير الفَصْل، إشارة إلى ثُبوت ذلك عليهم، وتَأكُّده إلى ثُبوته بكونه جاء بالجُملة الاسمية؛ لأن الجُملة الاسمية كما يَقول أهلُ العِلْم تُفيد الثُّبوت والاستِقْرار، وجاءَ بالحَصْر عن طريق ضمير الفَصْل: ﴿فَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ هُمُ ٱلْمَكِيدُونَ﴾.

وهذه الآياتُ -والحمدُ لله- تُفرِح المُؤمِن، لكن لاحِظوا أن هذا وَعْد الله عَزَّوَجَلَّ

وهو لا يُخلِف المِيعاد، لكِنَّه يَحتاج إلى سبَب أن يَكون من المُؤمِن عمَل مُضادٌّ، وأن المُؤمِن إذا عمِل العمَل المُضادَّ لكَيْد الكافِرين يَثِق بوَعْد الله ويَقول: إن هذا الكَيْدَ سيَكون عليهم وَهُم في خَسارة منه، أمَّا أن نَقول: إن الله يَكيد لهم وهم المَكيدون. ولكننا نَنام على فُرُشنا ونَدَعُ السِّباع تَأكُل الغنَم؛ فهذا غير صَحيح لا بُدَّ من عمَل ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تَنصُرُواْ ٱللَّهَ يَنصُرۡكُمۡ﴾ [محمد:٧]، ﴿وَمَا كَيۡدُ فِرۡعَوۡنَ إِلَّا فِي تَبَابٖ﴾.

فإن قال قائِل: صَحيح أن بعض المفَسِّرين قال: إن هامانَ لم يَبْنِ لِفرعونَ صرحًا؟

فالجَوابُ: هذا لا يَظهَر؛ لأن كونه يَقول: ابْنِ لي صَرْحًا. ولا يَبنِيه هذا بَعيد، إذ إنه سيَقول والناس يَسمَعون، إمَّا أن يَكونوا حاضِرين، أو يَبلُغهم الخبَر وسيَبنِي الصَّرْح.

فإن قال قائِل: لماذا نَقول: إن فِرعونَ استَفاد أن الله سُبۡحَانَهُۥ وَتَعَالَىٰ في السماء من موسى، أوَ لَا يَكون هذا من فِطْرته؟

فالجَوابُ: سَواءٌ كان بِفِطْرته أو بدَعْوة موسى، لكنه إذا قُلْنا: بدَعْوة موسى. لم يَبقَ علينا شيء، أمَّا بِفِطْرته فقد تَكون انحرَفَت كما جاء في الحَديث: «**فَأَبَوَاهُ يُهَوِّدَانِهِ أَوْ يُنَصِّرَانِهِ أَوْ يُمَجِّسَانِهِ**»[1] لكن الشيء المُؤكَّد لدَيْنا الآنَ هو قول موسى وتَقريره بأن الله في السماء.

• • ۞ • •

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب الجنائز، باب إذا أسلم الصبي فمات هل يصلى عليه، رقم (١٣٥٨)، ومسلم: كتاب القدر، باب معنى كل مولود يولد على الفطرة، رقم (٢٦٥٨) من حديث أبي هريرة رَضِيَٱللَّهُعَنۡهُ.

الآيتان (٣٨، ٣٩)

• • ● • •

قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِىٓ ءَامَنَ يَـٰقَوۡمِ ٱتَّبِعُونِ أَهۡدِكُمۡ سَبِيلَ ٱلرَّشَادِ ﴿٣٨﴾ يَـٰقَوۡمِ إِنَّمَا هَـٰذِهِ ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَا مَتَـٰعٌ وَإِنَّ ٱلۡأَخِرَةَ هِىَ دَارُ ٱلۡقَرَارِ﴾ [غافر:٣٨-٣٩].

• • ● • •

قال الله تَبَارَكَوَتَعَالَى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِىٓ ءَامَنَ يَـٰقَوۡمِ ٱتَّبِعُونِ أَهۡدِكُمۡ سَبِيلَ ٱلرَّشَادِ﴾ في أوَّل هذه الآياتِ يقول الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَقَالَ رَجُلٌ مُّؤۡمِنٌ مِّنۡ ءَالِ فِرۡعَوۡنَ﴾ [غافر:٢٨]، وهُنا وما قَبْلها يقول: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِىٓ ءَامَنَ﴾ تحقيقًا لإيمانه وأنه مُؤمِن حقًّا ﴿وَقَالَ ٱلَّذِىٓ ءَامَنَ يَـٰقَوۡمِ ٱتَّبِعُونِ أَهۡدِكُمۡ سَبِيلَ ٱلرَّشَادِ﴾.

قوله: ﴿وَيَـٰقَوۡمِ﴾ سبَق الكَلام على إِعْرابها، وبيَّنَّا أنها مُنادى مَنصوبة مُقدَّرة على ما قبلَ ياء المُتكلِّم المَحذوفة للتخفيف، منَع من ظُهورها اشتِغال المَحلِّ بحرَكة المُناسَبة.

وقوله: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِىٓ ءَامَنَ يَـٰقَوۡمِ ٱتَّبِعُونِ أَهۡدِكُمۡ﴾ قال المفسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [«اتَّبِعُونِي» بإثباتِ الياء وحَذْفها] يَعني أنها قِراءَتان؛ «اتَّبِعُونِي» و﴿ٱتَّبِعُونِ﴾ أمَّا على وجود الياء فالأَمْر ظاهِر؛ لأنها ياء المُتكلِّم، وأمَّا على حَذْفها فهي مَحذوفة للتخفيف، وقوله: ﴿ٱتَّبِعُونِ﴾ فِعْل أَمْر، و﴿أَهۡدِكُمۡ﴾ جَواب فِعْل الأَمْر؛ ولهذا وقَع مجزومًا بحَذْف الياء، والكَسرة قبلَها دليلٌ عليها، وأَصْل ﴿أَهۡدِكُمۡ﴾: أَهدِيكُم، لكن

الفِعْل المُضارِع إذا وقَع جَوابًا للأَمْر فإنه يَكون مجزومًا، قيل: إنه مجزوم به. وقيل: إنه مجزوم بشَرْط مُقدَّر، والتَّقدير: إن تَتَّبِعوني أَهدِكُم. وهكذا يُقال في كل ما جاء على هذا التَّرْكيبِ ﴿أَهْدِكُمْ سَبِيلَ ٱلرَّشَادِ﴾ أي: طريقه، والهِداية هنا هِداية الدَّلالة؛ لأنه لا يُمكِن أن يُراد بها هِداية التَّوْفيق، إذ إن هِداية التَّوْفيق تكون بيد الله عَزَّوَجَلَّ؛ لقوله تَبَارَكَوَتَعَالَى لرسوله مُحمَّدٍ -صلى الله عليه وعلى آله وسلم-: ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِى مَنْ أَحْبَبْتَ﴾ [القصص:٥٦]؛ أي: لا تَهدِي هِداية التَّوْفيق، فقوله: ﴿أَهْدِكُمْ سَبِيلَ ٱلرَّشَادِ﴾ يَعنِي: أَدُلُّكم على سَبيل الرَّشاد، وسبيل الرَّشاد ضِدُّ سَبيل الغَيِّ، والرَّشاد هو حُسْن التَّصرُّف، والغَيُّ هو الضَّلال أو ارتِكاب الخطَأ عن عَمْد.

قوله: ﴿يَٰقَوْمِ إِنَّمَا هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا مَتَٰعٌ وَإِنَّ ٱلْءَاخِرَةَ هِىَ دَارُ ٱلْقَرَارِ﴾ لَمَّا رغَّبهم باتِّباعه زَهَّدهم بالدُّنيا؛ لأن أصل ضَلال بني آدَمَ هو الطَّمَع في الدُّنيا والتَّنافُس إنما يَكون عليها؛ ولهذا قال النَّبيُّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: «وَاللهِ مَا الفَقْرَ أَخْشَى عَلَيْكُمْ، وَإِنَّمَا أَخْشَى أَنْ تُفْتَحَ عَلَيْكُمُ الدُّنْيَا فَتَنَافَسُوهَا كَمَا تَنَافَسُوهَا -أي: مَن قَبلنا- فَتُهْلِكَكُمْ كَمَا أَهْلَكَتْهُمْ»(١) فهو لَمَّا طلَب أن يَتَّبِعوه بيَّن لهم حال الدنيا التي يَتنافَسون فيها والتي صَدُّوا عن سَبيل الله بها.

فقال: ﴿يَٰقَوْمِ إِنَّمَا هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا مَتَٰعٌ﴾ ﴿إِنَّمَا﴾ أداة حَصْر، و﴿هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةُ﴾ مُبتَدَأ، و﴿مَتَٰعٌ﴾ خبَرُه؛ أي: ما هذه الدُّنيا إلَّا مَتاع يَتمتَّع به الإنسان قليلًا ثُم يَزول؛ ولهذا قال المفَسِّر رَحِمَهُ اللَّهُ في التَّفسير: [﴿مَتَٰعٌ﴾ تمَتُّع يَزولُ].

قوله: ﴿وَإِنَّ ٱلْءَاخِرَةَ هِىَ دَارُ ٱلْقَرَارِ﴾ ﴿ٱلْءَاخِرَةَ﴾ ما بعد الدنيا هي دارُ

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب الرقاق، باب ما يحذر من زهرة الدنيا والتنافس فيها، رقم (٦٤٢٥)، ومسلم: كتاب الزهد والرقائق، رقم (٢٩٦١)، من حديث عمرو بن عوف رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

القَرار، (هي) ضَمير فَصْل، و﴿دَارُ ٱلْقَـرَارِ ﴾ خبَر (إن)، واعلَمْ أن ضَمير الفَصْل ضَمير لا محَلَّ له من الإعراب لا يُعرَب مُبتَدَأ ولا خبَرًا، ولا أي شيء، لا محَلَّ له من الإعراب، واعلَمْ أيضًا أن له ثلاثَ فَوائِدَ:

الفائِدة الأُولى: التَّوْكيد.

والفائِدة الثانِية: الحَصْر.

والفائِدة الثالِثة: تَمييز الخبَر من الصِّفة.

ويَظهَر هذا بالمِثال، فإذا قلت: زَيدٌ هو الفاضِلُ. فهو ضَمير فَصْل استَفَدْنا منه ثلاث فَوائِدَ: أوَّلًا: التَّوْكيد حيث أكَّدْنا أن زيدًا هو الفاضِلُ، بل حيث أكَّدنا أن زيدًا فاضِلٌ، ثُم الحَصْر؛ لأنك قُلت: زَيْد هو. أي: لا غير زَيْد هو الفاضِل، الفائِدة الثالِثة: التَّمييز بين الصِّفة والخبَر، فإنك لو قُلت: زَيْدٌ الفاضِل. لاحتُمِل أن يَكون (الفاضِل) صِفة لـ(زَيْد) وأن الخبَر لم يَأتِ بعدُ، فإذا قلتَ: هو الفاضِل. تَعيَّن أن تَكون الفاضِلُ خبَرًا، فبذلِك يَحصُل التَّمييز بين الخبَر وبين الصِّفة.

وضَمير الفَصْل لا محَلَّ له من الإعراب، ودليل ذلك قوله تعالى: ﴿لَعَلَّنَا نَتَّبِعُ ٱلسَّحَرَةَ إِن كَانُوا۟ هُمُ ٱلْغَـٰلِبِينَ ﴾ [الشعراء:٤٠]، فهُنا جاءَت ﴿ٱلْغَـٰلِبِينَ ﴾ خبَرًا لـ(كان)، ولو كان له محَلٌّ من الإعراب لكانت: إن كانوا هُمُ الغالِبون. لكنه ليس له محَلٌّ من الإعراب، إِذَنْ ما هي دار القَرارِ؟

هي الدار الآخِرة، وأكَّد ذلك بالإتيان بضَمير الفَصْل، وأن الدار الآخِرة هي دار القَرار؛ أي: دار المُستَقَرِّ؛ ولهذا يُؤتَى بالمَوْت على صورة كَبْش فيُوقَف بين الجَنَّة والنار، ويُقال: «يَا أَهْلَ النَّارِ! فَيَشْرَئِبُّون ويَطَّلِعون، وكذلك يُقال: يا أَهْل الجَنَّة!

فيَشرَئِبُّون ويَطَّلِعون، فيُقال لهم: هل تَعرِفون هذا؟ فيَقولون: نعَمْ هذا الموتُ، فيُذبَح أمامَهم، ويُقال: يا أَهْل الجَنَّة، خُلودٌ ولا موتٌ ويا أهل النار خُلودٌ ولا موتُ».

إِذَنْ: هذا القَرارُ ما دام ليس فيه انتِقال عن هذه الدارِ فهي دار القَرارُ.

إذا كان هي دارَ القَرار والدنيا مَتاع، فالأولى أن يَعمَل له هي الآخِرة؛ لأنها دار القَرار، أمَّا هذه فهي دار عُبور دار مَتاع «كُنْ فِي الدُّنْيَا كَأَنَّكَ غَرِيبٌ أَوْ عَابِرَ سَبِيلٍ».

من فوائِدِ الآيتين الكريمتين:

الْفَائِدَةُ الأُولَى: أوَّلًا تَلطُّف هذا الداعِي، هذا الرجُلُ المُؤمِن الذي يَدعو إلى الله؛ لقوله: ﴿يَٰقَوۡمِ﴾ فإن هذا لا شَكَّ من أَساليب التَّلطُّف.

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَةُ: قُوَّة جَأْش هذا المُؤمِنِ؛ حيث كان رجُلًا واحِدًا يَقول لهؤلاءِ الجَماعة: ﴿ٱتَّبِعُونِ﴾ وهذا -كما قُلنا في التفسير- فِعْل أَمْر.

الْفَائِدَةُ الثَّالِثَةُ: أنه يَنبَغي للداعِية إذا دعا إلى شيء أن يُبيِّن ما يَكون به التَّرْغيب؛ أي: تَرْغيب المَدعوِّ؛ حتى يَنشَط ويَفعَل؛ لقوله: ﴿أَهۡدِكُمۡ سَبِيلَ ٱلرَّشَادِ﴾ [غافر:٣٨].

الْفَائِدَةُ الرَّابِعَةُ: الإشارة إلى كَذِب فِرعونَ حين قال لقَوْمه: ﴿مَآ أُرِيكُمۡ إِلَّا مَآ أَرَىٰ وَمَآ أَهۡدِيكُمۡ إِلَّا سَبِيلَ ٱلرَّشَادِ﴾ [غافر:٢٩]، ففَرْق بين قول فِرعونَ وقولِ هذا المُؤمِنِ، قول فِرعونَ كذِب، وقول هذا الرجُلِ حَقٌّ لا شَكَّ.

الْفَائِدَةُ الخَامِسَةُ: أن السُّبُل تختَلِف: سُبُل ضَلال، وسُبُل غَيٍّ، وسُبُل رَشاد، فالسَّبيل المُوصِل إلى الله هذا سَبيل الرَّشاد، والسُّبُل المُتفرِّقة هذه سُبُل ضَلال،

قال الله تعالى: ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِى مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ ۖ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِۦ﴾ [الأنعام:١٥٣].

الْفَائِدَةُ السَّادِسَةُ: بَيان حال الدُّنيا، وأنها مَتاع يَتمتَّع بها الإنسان ثُم تَزول، إمَّا بزَوال هذا التَّمتُّع، وإمَّا بزَوال المُتمتِّع؛ ولهذا انظُرْ مَصارِع الدنيا هل فيها أحَدٌ خُلِّد؟ وهل فيها أحَد خُلِّد له ما بين يديه؟ كل ذلك لم يَكُن، فالدنيا إمَّا زائِلة وإمَّا أن يُزال عنها، قال الله تعالى: ﴿وَمَا جَعَلْنَا لِبَشَرٍ مِّن قَبْلِكَ ٱلْخُلْدَ ۖ أَفَإِي۟ن مِّتَّ فَهُمُ ٱلْخَٰلِدُونَ﴾ [الأنبياء:٣٤].

الْفَائِدَةُ السَّابِعَةُ: انحِصار الدُّنْيا في هذه الكلِمةِ القَليلة، وهي ﴿مَتَٰعٌ﴾ كلُّ الدُّنيا مَتاع، لا تَتحمَّل أكثَرَ من ذلك.

الْفَائِدَةُ الثَّامِنَةُ: الاستِعْداد والرَّغْبة في الآخِرة؛ لقوله: ﴿وَإِنَّ ٱلْءَاخِرَةَ هِىَ دَارُ ٱلْقَرَارِ﴾ [غافر:٣٩]، فإذا اجتَمَع هذا إلى ما قَبلَه صار مُتضمِّنًا لفائِدَتَيْن: وهُما الزُّهْد في الدُّنيا، والرَّغْبة في الآخِرة.

الآية (٤٠)

قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿مَنْ عَمِلَ سَيِّئَةً فَلَا يُجْزَىٰٓ إِلَّا مِثْلَهَا ۖ وَمَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُو۟لَٰٓئِكَ يَدْخُلُونَ ٱلْجَنَّةَ يُرْزَقُونَ فِيهَا بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ [غافر: ٤٠].

ثُم قال: ﴿مَنْ عَمِلَ سَيِّئَةً فَلَا يُجْزَىٰٓ إِلَّا مِثْلَهَا وَمَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُو۟لَٰٓئِكَ يَدْخُلُونَ ٱلْجَنَّةَ يُرْزَقُونَ فِيهَا بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ هذا كالبَيان لحال الآخِرة، وكيف يُجازَى الناس فيها، فقال: ﴿مَنْ عَمِلَ سَيِّئَةً فَلَا يُجْزَىٰٓ إِلَّا مِثْلَهَا﴾ ﴿مَنْ﴾ شَرْطية، و﴿عَمِلَ﴾ فِعْل الشَّرْط، وجملة: ﴿فَلَا يُجْزَىٰٓ إِلَّا مِثْلَهَا﴾ هذه جَوابُ الشَّرْط، وقوله: ﴿فَلَا يُجْزَىٰٓ إِلَّا مِثْلَهَا﴾ (مِثْل) مَفعول ﴿يُجْزَىٰٓ﴾ الثاني، والمَفْعول الأوَّل هو نائِبُ الفاعِل المُستَتِر.

قوله: ﴿مَنْ عَمِلَ سَيِّئَةً﴾ السَّيِّئة ما يَسوء حالًا أو مَآلًا، فما أَصاب الإنسانَ من مرَض أو فَقْر أو عاهة أو ما أَشبَه ذلك هذا سُوء، لكنه في الحال، وما أَصاب الإنسان من عُقوبة على أعماله فهذا سُوء، ولكنه في المَآل، وقد يَكون في الحال قد يُعاجَل الإنسانُ بالعُقوبة، فالسَّيِّئة كل ما يَسوء حالًا أو مَآلًا ﴿فَلَا يُجْزَىٰٓ إِلَّا مِثْلَهَا﴾ السَّيِّئة بواحِدة مهما كان، حتى وإن كان الإنسان في مَكَّةَ، أو في المَدينة، أو في المَسجِد، أو في أي مَكان، أو في أيِّ زَمان أيضًا، حتى ولو كان في الأشهُر الحُرُم التي نَصَّ

الله تعالى على النَّهيِ عن الظُّلْم فيها، فقال: ﴿مِنْهَآ أَرْبَعَةٌ حُرُمٌ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ فَلَا تَظْلِمُواْ فِيهِنَّ أَنفُسَكُمْ﴾ [التوبة:٣٦]، فإن السَّيِّئة لا تَزال.

ولكن اعلَموا أنها قد تكون أشَدَّ من حيثُ الكَيْفيَّة لا من حيثُ الكِمِّية. يَعنِي: أننا نَرَى أن ضَرْبة واحِدة قد تكون أشَدَّ على الإنسان من عَشْر ضَربات بشِدَّتها وشِدَّة وَقْعها؛ ولهذا قال الله تعالى في الحرَم المكِّيِّ: ﴿وَمَن يُرِدْ فِيهِ بِإِلْحَادٍ بِظُلْمٍ نُّذِقْهُ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ [الحج:٢٥]، وبهذا التَّقريرِ الذي دلَّ عليه الكِتاب والسُّنَّة تبيَّن أن ما يُذكَر عن ابن عبَّاس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا أنه خرَج من مكَّةَ وقال: لا أَبقَى في بلَد سَيِّئاته وحَسَناتُه سواءٌ. فإن هذا لا يَصِحُّ عن ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وابنُ عباس أفقَهُ وأَعلَمُ من أن يَلتَبِس عليه هذا الأمرُ، مع أن الله قال في سورة الأنعام وهي مكِّيَّة: ﴿مَن جَآءَ بِٱلْحَسَنَةِ فَلَهُۥ عَشْرُ أَمْثَالِهَا ۖ وَمَن جَآءَ بِٱلسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَىٰٓ إِلَّا مِثْلَهَا وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ [الأنعام:١٦٠].

قوله: ﴿وَمَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ﴾ ﴿وَمَنْ﴾ هذه شَرْطية، و﴿صَٰلِحًا﴾ يَجوز أن نُعرِبها صِفة لَمْوصوف محَذوف، والتَّقدير: عمَلًا صالِحًا، ويَجوز أن نَجعَلها مَفعولًا مُطلَقًا؛ لأن وَصْف المَصدَر المحذوف يَصِحُّ أن يَقَع الإعراب عليه على أنه مَفعول مُطلَق، أو على أنه صِفة لَمْوصوف محَذوف، والتَّقدير: عمَلًا صالِحًا.

والعمَل الصالِح ما توافَرت فيه شُروط القَبول، وذلك بأن يَكون خالِصًا لله على شَريعة الله، بأن يَجمَع بين أَمْرين: الإخلاص لله، والمُتابَعة لرُسُله عليهم الصلاة والسلام، هذا العمَلُ الصالِح.

إِذَنْ هو ما توافَرت فيه شُروط القَبول وهُما:

الأول: الإخلاص لله عَزَّوَجَلَّ.

والثاني: المُتابَعة لرُسُل الله سواء مُحَمَّد أو غيره، لكن من المَعلوم أنه بعد بعثة مُحَمَّد ﷺ لا يَصِحُّ اتِّباع غيره.

إذا فُقِدَ الإخلاصُ فليس العمَلُ صالحًا، بل هو مَردود على صاحِبه؛ لقوله تَبَارَكَ وَتَعَالَى في الحديث القُدسيِّ: «أَنَا أَغْنَى الشُّرَكَاءِ عَنِ الشِّرْكِ مَنْ عَمِلَ عَمَلًا أَشْرَكَ مَعِي فِيهِ غَيْرِي تَرَكْتُهُ وَشِرْكَهُ»، وإذا فُقِدت المُتابَعة لم يَكُن العمَل صالحًا وكان مَردودًا؛ لقول النَّبيِّ -صلى الله عليه وعلى آله وسلم-: «مَنْ عَمِلَ عَمَلًا لَيْسَ عَلَيْهِ أَمْرُنَا فَهُوَ رَدٌّ»(١).

وقوله: ﴿مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ﴾ بَيان لـ(مَن) فـ(مِن) هنا بَيانية بَيان لـ(مَن)؛ لأن (مَن) اسمٌ مَوْصول، واسمُ المَوْصول الأصل فيه الإبهام، فإذا وُجِد بعدَه بَيانٌ فإنه يَكون مُبيِّنًا لإبهامه ﴿مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ﴾ هذا الشَّرطُ لا بُدَّ أن يَكون مُؤمِنًا، فإن لم يَكُن مُؤمِنًا فإن عمَله الصالِحَ لا يَنفَعه، حتى وإن كان العمَل ممَّا يَتعدَّى نَفعُه، فإنه لا يَنفَعه؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَا مَنَعَهُمْ أَن تُقْبَلَ مِنْهُمْ نَفَقَٰتُهُمْ إِلَّآ أَنَّهُمْ كَفَرُوا۟ بِٱللَّهِ وَبِرَسُولِهِۦ﴾ [التوبة:٥٤].

فغيرُ المُؤمِن لا يَنفَعه عمَله، لو أن رجُلًا كافِرًا أَصلَح الطُّرُق، ومدَّ أنابيب الماء يَسقِي الناس، وبنَى المساجِد وطَبَع الكُتُب، وكَسا العُريان، وأَطعَم الجائِع فلا يَنفَعه هذا؛ ولهذا فلا يَنفَع المُنافِقين عمَلُهم؛ لأنهم ليسوا مُؤمِنين، وبه نَعرِف أن الإيمان هو الأصل، آمِنْ ثُم اعمَلْ، أمَّا العمَل بدون إيمان هَباءٌ، نَسأَل الله ألَّا يَخلَع عنا وعنكم الإيمان ﴿وَقَدِمْنَآ إِلَىٰ مَا عَمِلُوا۟ مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَٰهُ هَبَآءً مَّنثُورًا﴾ [الفرقان:٢٣]، لا بُدَّ من

---

(١) أخرجه مسلم: كتاب الأقضية، باب نقض الأحكام الباطلة، ورد محدثات الأمور، رقم (١٧١٨)، من حديث عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا.

الإيمان أوَّلًا، ثُم إذا آمَنْت فاعمَل، وإذا عمِلْت فأَخلِص واتَّبعْ.

قوله: ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ يَدْخُلُونَ ٱلْجَنَّةَ﴾ جُملة ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ﴾ جواب الشَّرْط، وهو ﴿وَمَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا﴾، ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ يَدْخُلُونَ ٱلْجَنَّةَ﴾ وهُنا قال: ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ﴾ باسْمِ الإشارة المَوْضوع للبعيد، إشارة إلى عُلوِّ مَرتَبَتهم، كأَنَّك تُشير إليهم وهم فَوقُ ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ يَدْخُلُونَ ٱلْجَنَّةَ﴾، قال المفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [بضَمِّ الياء وفَتْح الخاء «يُدْخَلُونَ»، وبالعَكْس] أي: ﴿يَدْخُلُونَ﴾ فيَجوز «يُدْخَلُونَ» أي: يُدخِلهمُ الله، ويَجوز ﴿يَدْخُلُونَ﴾؛ أي: هُمْ بأَنفُسهم لكن بإِذْن الله.

ومِن المَعلوم أن أهل الجَنَّة لا يَدخُلون الجَنَّة إلَّا بعد الشَّفاعة، بعد شَفاعة مُحمَّد -صلى الله عليه وعلى آله وسلم- في فَتْح الجَنَّة؛ لأنهم يَصِلون إليها وبابها مُغلَق فيَطلُبون مَن يَشفَع لهم إلى الله عَزَّوَجَلَّ أن يَفتَح لهم البابَ، فيَشفَع لهم النَّبيُّ ﷺ وحدَه في أن يُفتَح لهم البابُ فيُفتَح.

قوله: ﴿يُرْزَقُونَ فِيهَا بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ ﴿يُرْزَقُونَ﴾ الرِّزْق بمَعنى: العَطاء، ومنه قوله تعالى: ﴿وَإِذَا حَضَرَ ٱلْقِسْمَةَ أُوْلُواْ ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينُ فَٱرْزُقُوهُم مِّنْهُ﴾؛ أي: أَعطُوهم، فمَعنَى ﴿يُرْزَقُونَ﴾ إذَنْ: يُعطَوْن، وقوله: ﴿بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾؛ أي: بغَيْر تَبْعة، يَعنِي: لا يُحاسَبون عليه، ولا يَنقُدون له ثمَنًا، في الدُّنيا لا تَمِلك رِزْقًا إلَّا بثمَن، لكن في الآخِرة تُعطَى الرِّزْق بغير ثمَن وبغَيْر تَبْعة، لا تُحاسَب عليه؛ لأن الثَّمَن كان مُقدَّمًا سَلَمًا وهو نَقْد الثمَن وتَأْخير المُثمَّن، فهُنا الثمَن مُقدَّم، الثمَن كان في الدنيا حين عمِلوا بطاعة الله، فكان هذا هو العِوَض، فالقوم قد أَسلَموا في هذا المَبيع وقدَّموا ثمَنه؛ ولهذا قال: ﴿يُرْزَقُونَ فِيهَا بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾.

من فوائدِ الآيةِ الكريمةِ:

الْفَائِدَةُ الأُولَى: أن عمَل السَّيِّئة لا يَزداد إثمًا على قَدْر السَّيِّئة؛ لقوله هنا: ﴿مَنْ عَمِلَ سَيِّئَةً فَلَا يُجْزَىٰٓ إِلَّا مِثْلَهَا﴾.

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَةُ: أنه في مَقام التَّهديد يَنبَغي أن يَبدَأ بما يَدُلُّ على التَّهديد قبل أن يَبدَأ بما يَدُلُّ على التَّرْغيب؛ لأنه هنا بَدَأ بالسَّيِّئة، ثُم أَعقَب بالصالِح.

وانظُرْ إلى قول الله تَبَارَكَ وَتَعَالَى في مَقام ذِكْر الأحكام الشَّرْعية قال: ﴿ٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ وَأَنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [المائدة:٩٨]، ولَمَّا أَراد جَلَّ وَعَلَا أن يَتَحدَّث عن نفسه ويُبيِّن كَمال صِفاته قال: ﴿نَبِّئْ عِبَادِىٓ أَنِّىٓ أَنَا ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٤٩﴾ وَأَنَّ عَذَابِى هُوَ ٱلْعَذَابُ ٱلْأَلِيمُ﴾ [الحجر:٤٩-٥٠]، فلكُلِّ مَقام مَقال.

فالإنسان يَنبَغي له أن يُرتِّب المَعانيَ حَسب ما يَقتَضيه الحال، لا يُلقِي الحَديث على عَواهِنه وفَضْل الله يُؤتيه مَن يَشاء، قد يُريد الإنسان هذا الشيءَ، ويُريد أن يُرتِّب كلامه، وأن يَبنِيَه على ما يَقتَضيه الحال؛ ولكن يَخونُه التعبير، إلَّا أن الإنسان إذا استَعان بالله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى واعتَمَد عليه يَسَّر له الأَمْر.

الْفَائِدَةُ الثَّالِثَةُ: أنه لا يُقبَل العمَل إلَّا إذا كان صالِحًا ولا يَنفَع صاحِبَه إلَّا إذا كان صالِحًا، وذكَرْنا أن الصالِح مَن اجتَمَع فيه شُروط القَبول، وهُما الإِخْلاص والمُتابَعة؛ فبِفَقْد الإخلاص يَكون الإنسان مُشرِكًا، وبفَقْد المُتابَعة يَكون الإنسان مُبتَدِعًا؛ ولهذا لا يُقبَل العمَل إلا الخالِص المُوافِق للشَّرْع، فبفَقْد الإخلاص يَقَع الإنسان في الشِّرْك، وبفَقْد المُتابَعة يَقَع الإنسان في البِدْعة.

والأوَّل أَشَدُّ، وقد يَكون الثاني حَسب المُخالَفة، لكن الشِّرْك من حيثُ هو

أَعظَمُ من البِدْعة، وقيل: إن البِدْعة أشَدُّ وأَعظَمُ؛ لأن الله قال: ﴿قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ ٱلْفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَٱلْإِثْمَ وَٱلْبَغْىَ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَأَن تُشْرِكُوا۟ بِٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ سُلْطَٰنًا وَأَن تَقُولُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ [الأعراف:٣٣]، والآية بالتَّدريج من الأدنى إلى الأعلى، وصاحِب البِدْعة يَضُرُّ نَفْسه ويَضُرُّ غيره؛ لأنه يَكون إمامًا يَدعو إلى مُخالَفة الرُّسُل، والذي يَظهَر أن الشِّرْك من حيثُ هو شِرْك أَعظَمُ، لكن قد يَكون الْمُترتِّب على البِدْعة أَشَدَّ من الْمُترتِّب على الشِّرْك.

الْفَائِدَةُ الرَّابِعَةُ: أن الذُّكور والإناث مشتَرِكون في الثواب والعِقاب، بمَعنى أن الله لا يُعاقِب الأنثى أكثَرَ من عُقوبة الرجُل، ولا الرجُل أكثَرَ من عُقوبة الأنثى، وكذلك لا يجَزِي الرجُل أكثَرَ من جَزاء الأنثى، ولا الأنثى أكثَرَ من جزاء الرجُل؛ لقوله في هذه الآيةِ: ﴿مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ﴾، ونَظيرها قوله تعالى: ﴿فَٱسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ أَنِّى لَآ أُضِيعُ عَمَلَ عَٰمِلٍ مِّنكُم مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ﴾ [آل عمران:١٩٥].

الْفَائِدَةُ الخَامِسَةُ: أن العمَل الصالِح لا يَنفَع إلَّا مَبنيًّا على الإيمان؛ لقوله: ﴿وَهُوَ مُؤْمِنٌ﴾ والجُمْلة كما تُعرِبونها أيُّها الْمُعرِبون، الجُمْلة في مَوضِع نَصْب على الحال يَعنِي: والحال أنه مُؤمِن، وبِناءً على هذا نَسأَل: هل عمَل الْمُنافِق يَنفَعه؟

والجَوابُ: لا، لفَقْد الإيمان فهو غير مُؤمِن، وهل الإيمان أن تُؤمِن بالله ومَلائِكته وكتُبه ورُسُله واليوم الآخِر والقَدَر خَيرِه وشَرِّه، أو هو إيمان وراءَ ذلك كلِّه؟

الجوابُ: الثاني، فمن جُملة الإيمان الذي يَجِب أن تَكون الأعمال الصالِحة مَبنِيَّة عليه أن تُؤمِن بالثواب على العمَل؛ ولهذا إذا عمِل الإنسان العمَل الصالِح وهو يَرجو هذا الثَّواب، لا شَكَّ أنه سيَزداد رَغْبة في العمَل، وسيَزداد إحسانًا للعمَل؛ لأنه يَعرِف أن السِّلْعة على قَدْر الثَّمَن، فإذا كنت تَعمَل وأنت تَشعُر بأنك ستُجازَى

على هذا العمَلِ مُجازاة تامَّةً فسَوْف تُحسِن العمَل لأَجْل أن يُحسَن لك الثَّوابُ والجَزاء، وهذه مَسأَلة مُهِمَّة يَغفُل عنها الإنسان كثيرًا؛ أي: يَغفُل الإنسان كثيرًا عن كونه يَنوِي بذلك الثوابِ الذي أَعَدَّه الله لعامِل هذا العمَلِ.

الْفَائِدَةُ السَّادِسَةُ: أن رِزْق الجَنَّة ليس فيه حِساب، يَعنِي: أنه لا يُطلَب من الإنسان عِوَض، ولا يَلحَقه تَبْعة؛ لقوله: ﴿يُرْزَقُونَ فِيهَا بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾.

• ● ۞ ● •

الآيات (٤١-٤٣)

قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَيَٰقَوْمِ مَا لِيَ أَدْعُوكُمْ إِلَى ٱلنَّجَوٰةِ وَتَدْعُونَنِيٓ إِلَى ٱلنَّارِ ۝٤١ تَدْعُونَنِي لِأَكْفُرَ بِٱللَّهِ وَأُشْرِكَ بِهِۦ مَا لَيْسَ لِي بِهِۦ عِلْمٌ وَأَنَا۠ أَدْعُوكُمْ إِلَى ٱلْعَزِيزِ ٱلْغَفَّٰرِ ۝٤٢ لَا جَرَمَ أَنَّمَا تَدْعُونَنِيٓ إِلَيْهِ لَيْسَ لَهُۥ دَعْوَةٌ فِي ٱلدُّنْيَا وَلَا فِي ٱلْأٓخِرَةِ وَأَنَّ مَرَدَّنَآ إِلَى ٱللَّهِ وَأَنَّ ٱلْمُسْرِفِينَ هُمْ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ﴾ [غافر:٤١-٤٣].

ثُم قال هذا الرجُلُ الذي آمَنَ: ﴿وَيَٰقَوْمِ مَا لِيَ أَدْعُوكُمْ إِلَى ٱلنَّجَوٰةِ وَتَدْعُونَنِيٓ إِلَى ٱلنَّارِ﴾.

هذا استِفْهام تَعجُّب وإنكار، كأَنَّه يَقول: عجَبًا لكم أَدعوكم إلى الجَنَّة وتَدْعونَني إلى النار! وهذا والله مَحَلُّ عجَب، محَلُّ العَجَب أن تَدعوَ رجُلًا إلى الجَنَّة وهو يَدعوك إلى النار، فتَأتِي إلى رجُل تَقول: يا فُلانُ اترُكْ شُرْب الخَمْر، شُرْب الخَمْر حرام، ولا يَجوز، من شُرْبه في الدنيا لم يَشرَبْه في الآخِرة، هو أُمُّ الخَبائِث مِفتاح كلِّ شَرٍّ، فيَقول لك: يا ولَدُ لذَّةٌ وطرَب وأُنْس وسُرور، اشرَبْ حتى تَرَى، إذا شرِبْت كأنَّك ملِك الملوك، ثُم يُرغِّبك، ثُم يَقول له أيضًا يُمَنِّيه يَقول: اشرَبْ. وإذا شرِبْت وحصَلَت لك اللَّذَّة والطرب، فاستَغفِرِ الله، الباب مَفتوح، فالأَحَقُّ بالإجابة الأوَّل دون الثاني.

فهذا يَقول: ﴿مَا لِيَ أَدْعُوكُمْ إِلَى ٱلنَّجَوٰةِ وَتَدْعُونَنِيٓ إِلَى ٱلنَّارِ﴾ وهذا الاستِفْهامُ

-كما قلْت لكم- استِفْهام تَعجُّب وإنكار، وهو محَلُّ التَّعجُّب ومحَلُّ الإِنْكار أيضًا، والله أَعلَمُ.

وجُمْلة ﴿وَتَدْعُونَنِىٓ إِلَى ٱلنَّارِ﴾ مَعطوفة على الجُمْلة التي قَبلَها، وليسَتِ استِئْنافية ولا حالِيَّة كما قيل به، بل هي مَعطوفة على ما سبَقَ؛ لأن التَّعجُّب إنما يَكون مِنِ اجتِماع الأمرَيْن أنه يَدْعوهم إلى النَّجاة، وهُمْ يَدْعونه إلى النار.

وقوله: ﴿إِلَى ٱلنَّجَوٰةِ﴾ يَعنِي: النَّجاة إلى النار ولم يَقُل: إلى الجَنَّة مع أنه قال: ﴿وَإِنَّ ٱلْءَاخِرَةَ هِىَ دَارُ ٱلْقَرَارِ﴾؛ لأنَّهم هم يَدْعونه إلى الهلاك، يَدْعونه إلى النار، فقابَل دَعْوته بدَعْوتهم، فكأنه يَقول: أنا أَدعوكم إلى النَّجاة من النار وأنتم تَدْعونَني إلى النار، والدَّعْوة إلى النار ليس أن يَقول القائِل: هلُمُّوا إلى النار أيها الناسُ. لكنها الدَّعْوة إلى عمَل أهل النار، وليُعلَم أن النار حُفَّت بالشَّهَوات، وأن الجَنَّة حُفَّت بالمَكارِم، وعمَل أهل النار مَبنيٌّ على الشَّهَوات أو على الشُّبَهات يَعنِي: إمَّا جَهالات وضَلالات كعمَل النَّصارَى، وإمَّا شَهَوات كعمَل اليَهود، وعلى هَذَيْن يَدور عمَل أهل النار الشُّبُهات والشَّهَوات، والشُّبُهات دواؤُها العِلْم، والشَّهَوات دَواؤُها الحَزْم والإرادة التامَّة لما يُحِبُّه الله ويَرْضاه.

﴿مَا لِىٓ أَدْعُوكُمْ إِلَى ٱلنَّجَوٰةِ وَتَدْعُونَنِىٓ إِلَى ٱلنَّارِ﴾ ثُمَّ بيَّن بعد أن أَجمَل في قوله: ﴿وَتَدْعُونَنِىٓ إِلَى ٱلنَّارِ﴾ بيَّن الأعمال التي يَدْعونه إليها:

وقوله: ﴿تَدْعُونَنِى لِأَكْفُرَ﴾ اللَّام هنا لبَيان المَدعوِّ إليه. يَعنِي: تَدْعونَني لهذا، وعلى هذا فـ﴿لِأَكْفُرَ﴾ مَنصوبة بـ(أن) مُضمَرة بعد اللَّام على مَذهَب البَصْريِّين، أو باللَّام على مَذهَب الكوفِيِّين، ﴿لِأَكْفُرَ بِٱللَّهِ﴾؛ أي: أَجحَده وأُنكِره، والمُراد إنكار وَحْدانيَّته بدَليل قوله: ﴿وَأُشْرِكَ بِهِۦ﴾ وقد يُقال: إن المُراد إنكار وُجوده

بالكُلِّية، أو الإشراك به مع الإقرار به، فيكونون يَدْعونه إلى شَيْئَيْن إمَّا إنكار الخالِق عَزَّوَجَلَّ، وهذا مُستَفاد من قوله: ﴿وَأُشْرِكَ بِهِۦ﴾؛ أي: أَجحَده، أو إثباته مع وُجود شَريك له، وهذا مُستَفاد من قوله: ﴿وَأُشْرِكَ بِهِۦ﴾.

وقوله: ﴿مَا لَيْسَ لِى بِهِۦ عِلْمٌ﴾ هذا قَيْد مُبيِّن للواقِع، وأن كل مَن أَشرَك بالله فإنه مُشرِك بلا عِلْم، بل بما يُعلَم بالفِطْرة خِلافه، ولكن من المَعلوم أن الشَّيْء إذا كان بلا عِلْم فإنه لا ثُبوتَ له ولا أَصلَ له.

فالصِّلة في قوله: ﴿مَا لَيْسَ لِى بِهِۦ عِلْمٌ﴾؛ لبَيان الواقِع، وقد بيَّنَّا أن كل قَيْد لبَيان الواقِع أو الغالِب أو المُبالَغة؛ فإنه لا مَفهومَ له.

وقوله: ﴿وَأُشْرِكَ بِهِۦ مَا لَيْسَ لِى بِهِۦ عِلْمٌ وَأَنَا۠ أَدْعُوكُمْ إِلَى ٱلْعَزِيزِ ٱلْغَفَّٰرِ﴾ بدَأَ هنا باسْمِ العَزيز؛ لأن المَقام يَقتَضيه؛ إذ إن هَؤُلاءِ أَقْباط من آل فِرعونَ يَظُنُّون أن العِزَّة لهم، فقال: ﴿أَدْعُوكُمْ إِلَى ٱلْعَزِيزِ﴾ ولم يَقُلْ: إلى الغَفور الرَّحيم. بل قال: ﴿إِلَى ٱلْعَزِيزِ ٱلْغَفَّٰرِ﴾ يَعني: ﴿ٱلْعَزِيزِ﴾ الغالِب، فيُهلِككم إذا أَنْتم أَشرَكْتم به أو كفَرْتُم به ﴿ٱلْغَفَّٰرِ﴾ يَغفِر لكم ما سبَقَ إن أَنتُم آمَنْتم به، وهذا من تَمام فِقْه هذا الرجُلِ المُؤمِن، فإنه قد يَقول قائِل: إن المَقام يَقتَضِي: وأنا أَدعوكم إلى الغَفور الرَّحيم. لكن الأَمْر بالعَكْس المَقام يَقتَضِي ذِكْر اسمِه العَزيز؛ لأن هَؤُلاءِ يَدَّعون أنهم فَوقَ الناس، وأن ربَّهم فِرعونُ، وأنه لا غالِبَ لهم.

وقوله: ﴿ٱلْعَزِيزِ﴾ اسمٌ من أَسْماء الله، و﴿ٱلْغَفَّٰرِ﴾ اسمٌ من أَسْماء الله، والغَفور اسمٌ من أسماء الله.

وليُعلَم أن أسماء الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ تَنقَسِم إلى قِسْمين: الأوَّل ما كان مُشتَقًّا من وَصْف مُتعدِّد، فهذا لا يَتِمُّ الإيمان به إلَّا بأُمور ثلاثة:

الأَوَّل: إثباتُه اسمًا لله، والثاني: إثباتُ الصِّفة التي دلَّ عليها، والثالِث: إثبات الحُكْم المُترَتِّب على هذه الصِّفةِ.

والقِسْم الثاني غير مُتعَدٍّ، لا يَتِمُّ الإيمان به إلَّا بإثبات اثنَيْن، إثباته اسمًا من أسماء الله، وإثبات الصِّفة التي دَلَّ عليها؛ لأن كلَّ اسمٍ من أسماء الله يَدُلُّ على صِفة ليس لله اسمٌ يَكون جامِدًا، خِلافًا لَمن قال: إن كلِمة (الله) اسمٌ جامِد غير مُشتَقٍّ، وهذا ليس بصحيح، ما من اسمٍ من أسماء الله إلَّا وهو مُشتَقٌّ؛ لأن الله وصَفَ أسماءَه بأنها حُسنَى، وما لا يَتَضمَّن من وَصْف ليس بحَسَن فضلًا عن أن يَكون أحسَنَ.

نَضرِب أمثِلة لهذا: (الحَي) من اللازِم تُؤمِن به اسمًا من أسماء الله، وبالحَياة التي دَلَّ عليها الاسمُ، و(السَّميع) مُتعَدٍّ تُؤمِن بالسميع اسمًا لله، وبالسَّمْع صِفة لله، وبأنه يَسمَع إثباتًا للحُكْم، وهو الأَثَر المُترَتِّب على هذه الصِّفةِ.

ثُمَّ اعلَمْ أن الاسم يَتضَمَّن أحيانًا صِفة وأحيانًا صِفتَيْن، وأحيانًا أَكثَرَ؛ لأن أنواع الدَّلالة ثلاثة: مُطابَقة، وتَضمُّن، والتِزامٌ.

فمَثلًا من أسمـاء الله تعالى الخَلَّاق ﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ ٱلْخَلَّٰقُ ٱلْعَلِيمُ﴾ [الحجر:٨٦] والخَلَّاق والخالِق من أسماء الله، مثل الغَفور وغافِر الذَّنْب والغَفَّار؛ فتُؤمِن بالخَلَّاق اسمًا من أسماء الله، وتُؤمِن بِصِفة الخَلْق التي تَضمَّنها اسمُ الخَلَّاق، وإيمانك بالاسم والصِّفة هذا إيمان بدَلالة المُطابَقة، وإيمانك بالاسم وحدَه أو بالصِّفة وحدَها إيمان بدَلالة التَّضمُّن، ثُم إيمانك بأنه عَليم قَدير، إيمان بدَلالة الالْتِزام؛ لأنه ما من خَلَّاق إلَّا وهو عَليم، وما من خَلَّاق إلَّا وهو قادِر؛ لأنه إن كان جاهِلًا فكيف يَخلُق، وإن كان عاجِزًا فكيف يَخلُق؟! فدَلالة الخَلَّاق على العِلْم والقُدْرة دَلالة التِزام.

وهذه الدَّلالة -أَعنِي: دَلالة الِالْتِزام- يَتفاوَت فيها الناس تَفاوُتًا كثيرًا، فمن الناس مَن يُعطيه الله تعالى فَهْمًا يُدرِك به اللَّوازِم التي تَلزَم على هذا الاسم، ومن الناس مَن هو دون ذلكَ، فتَجِد بعض الناس يَستَنبِط فَوائِدَ عِدَّةً بدَلالة النُّزول، وآخَرُ لا يَقدِر، وفَضْل الله تعالى يُؤتيه مَن يَشاءُ.

والعَزيز بمَعني: ذي العِزَّة ﴿سُبْحَٰنَ رَبِّكَ رَبِّ ٱلْعِزَّةِ﴾ [الصافات:١٨٠]، والعِزَّة قالوا: إنها ثَلاثة أنواع: عِزَّة القَدْر، وعِزَّة القَهْر، وعِزَّة الامتِناع، عِزَّة القَدْر بمَعنى أنه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عَزيز قَدْرًا؛ بحيث لا يَكون مماثِلٌ له، وعِزَّة الامتِناع يَعنِي: أنه عَزَّوَجَلَّ عَزيز، أي: يَمتَنِع أن يَنالَه السوء، والعَزيز يَأتِي بمَعنَى الامتِناع في قوله تعالى: ﴿وَمَا ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ بِعَزِيزٍ﴾ [إبراهيم:٢٠]؛ أي: بمُمتَنِع، والثالث: عِزَّة القَهْر بمَعنى: أنه الغالِب، ومنه قوله تعالى: ﴿يَقُولُونَ لَئِن رَّجَعْنَآ إِلَى ٱلْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ ٱلْأَعَزُّ مِنْهَا ٱلْأَذَلَّ﴾ [المنافقون:٨]، فقال الله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِۦ وَلِلْمُؤْمِنِينَ﴾ [المنافقون:٨] العِزَّة يَعنِي: الغلَبة، إذا كان العَزيز بمَعنَى: الغالِب فهو من الأسماء، عَزَّ أي: غلَب فهو غالِب، ومُقابِله مَغلوب، وإذا كانَتْ عَزَّ بمَعنَى: امتَنَع أو بمَعنَى: كان ذا قَدْر عَظيم فهو لازِم.

إِذَنْ نَقول: العَزيز من جِهة تَكون من الأسماء المُتعَدِّية إذا كانت بمَعنَى: الغالِب، ومن جِهة أُخرى تَكون غير مُتعَدِّية إذا كانَت بمَعنَى: الامتِناع أو بمَعنَى: القَدْر.

وهنا جُملة مُعترِضة؛ قال الله تعالى: ﴿يَقُولُونَ لَئِن رَّجَعْنَآ إِلَى ٱلْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ ٱلْأَعَزُّ مِنْهَا ٱلْأَذَلَّ ۚ وَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِۦ﴾ هل الجَوابُ مُطابِق لقولهم، أو غير مُطابِق؟

الجَوابُ: ﴿لَيُخْرِجَنَّ ٱلْأَعَزُّ مِنْهَا ٱلْأَذَلَّ﴾ قال: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ﴾ المُطابِق أن يَقول: والله أَعزُّ، والله أعزُّ والمُؤمِنون، لكن لم يَذكرُ هذا، بل قال: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ﴾ إشارة إلى

أن المُنافِقين لا عِزَّةَ لهم أصلًا؛ لأنه لو قال: الله أَعزُّ. لأَثبَت للمُنافِقين عِزَّة، ولكنه ليس لهم عِزَّة، حصَر العِزَّة لله ورسوله والمُؤمِنين ﴿وَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِۦ وَلِلْمُؤْمِنِينَ﴾ وهذه من بَلاغة القُرآن، وإذا تأمَّلت القُرآن -سُبْحانَ الله- تبيَّن لك أمور تبهرك في دَلالاته وإشاراته وإيماءاته، فسُبْحانَ الله الذي أَنزَله عَزَّوَجَلَّ.

قوله: ﴿ٱلْغَفَّٰرِ﴾ اسمٌ من أسماء الله المُتعَدِّية؛ لأن الله قال: ﴿يَغْفِرُ لِمَن يَشَآءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ﴾.

إِذَنْ: لا بُدَّ أن نُثبِت الغفَّار اسمًا من أسماء الله، ولا بُدَّ أن نُثبِت الصِّفة وهي المَغفِرة ﴿وَرَبُّكَ ٱلْغَفُورُ ذُو ٱلرَّحْمَةِ﴾ ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ لِّلنَّاسِ عَلَىٰ ظُلْمِهِمْ﴾ [الرعد:٦]، ونُثبِت أنه يَغفِر ويُوصِل المَغفِرة مَن شاءَ.

قوله: ﴿لَا جَرَمَ أَنَّمَا تَدْعُونَنِىٓ إِلَيْهِ﴾ وهو الكُفْر بالله، والإشراك به ﴿لَيْسَ لَهُۥ دَعْوَةٌ﴾؛ أي: ليس له استِجابة دَعْوة ﴿فِى ٱلدُّنْيَا وَلَا فِى ٱلْءَاخِرَةِ﴾ ولا جرَمَ أيضًا أن مَرَدَّنا إلى الله، وأن المُسرِفين هم أَصْحاب النار.

قال المفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿لَا جَرَمَ﴾ حَقًّا]؛ يَعنِي: أن مَعنَى لا جرَمَ حَقٌّ، وعلى هذا فتَكون (لا) زائِدة، و(جرَمَ) بمَعنى: حَقًّا، وهذا ما ذهَب إليه المفَسِّر، والمُعرِبون اختَلَفوا فيها، والصَّواب في إعرابها أن (لا) نافِية للجِنْس، و(جرَمَ) اسمُها، ومَعنَى (لا جَرَمَ): أي لا شَكَّ، أو لا بُدَّ، هذا هو الصواب والتَّرْكيب واضِح، ولا يَحتاج أن يُقدَّر أن (لا) زائِدة و(جرَمَ) بمَعنَى: قطع، وأن مَصير الجُملة إلى أن تَكون مَصدرًا لعامِل محذوف يَعنِي: أحق حقًّا أن ما تَدعونَني إليه، لا حاجةَ إلى هذا، إذا قُلْنا: لا شَكَّ أن ما تَدْعونني إليه إلى آخِره، ليس له دَعْوة في الدُّنيا ولا في الآخِرة زال الإشكال، وعلى هذا تكون (جرَمَ) اسم (لا)، وإنما دخَل في تَأْويل المَصدَر خبَرَ (لا)،

والمَعنَى يَقول: لا شَكَّ ولا ارْتِياب أن الذي تَدْعونني إليه ليس له دَعْوة.

وقوله: ﴿أَنَّمَا تَدْعُونَنِيٓ إِلَيْهِ﴾ (ما) مَربوطة بـ(أن)، والظاهِر وحسب القواعِد المَعروفة أن تكون مَفصولة، لأن المَعنَى: لا جَرَمَ أن الذي تَدْعونني إليه، وإذا كانت (ما) مَوْصولة فإنها تُفصَل عن (أن) كِتابة، لكن رَسْم المصحَف تَمشَّى فيه العُلَماء على الرَّسْم العُثمانيِّ؛ احتِرامًا للقُرآن أن يُغيَّر؛ ولهذا تَجِدون الصلاة في المُصحَف مَكتوبة بالواو، والزكاة بالواو، والرِّبا بالواو، ﴿إِنَّ رَحْمَتَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ [الأعراف:٥٦] بالتاء المَفتوحة، كلُّ هذا اتِّباعًا للرَّسْم العُثمانيِّ؛ احتِرامًا لكِتاب الله أن يَدخُله التَّغيير.

وقدِ اختَلَف العُلَماء: هل يُكتَب القُرآن حَسب القَواعِد وفي كل وَقْت بحَسبه، أو على الرسم العُثمانيِّ؟ فقيل: إنه يَجوز أن يُكتَب على القَواعِد في كل وَقْت بحَسبه؛ لأن المَقصود أن يُتلَى كتاب الله على حَسب ما نزَل لا على حَسب ما كُتِب، والقُرآن نزَل مَقروءًا؛ إذَنِ الكِتابة ما هي إلَّا اصطِلاحات تَخضَع لأعراف الناس.

والقول الثاني: إنه لا يَجوز أن يُغيَّر أبدًا؛ سَدًّا للباب، ومَنْعًا للتغيير؛ حتى لا يَجرُؤ أَحَد أن يُغيِّر في كتاب الله عَزَّوَجَلَّ، وهذا لا شَكَّ أنه يَرمِي إلى قُوَّة احتِرامنا للقُرآن الكريم، والأوَّل يَرمِي إلى قُوَّة إيصال القُرآن إلى الناس على وَجه لا إشكالَ فيه.

والقَول الثالِثُ: إنك إن كتَبْته للدارِسين المُبتَدِئين، فلا بأسَ أن تَكتُبه حسب القَواعِد المَعروفة؛ لأن الدارِسين المُبتَدِئين لا يَعرِفونه، وأمَّا إذا كُنت تُريد أن تَكتَبه ليُقرَأ فهذا يُكتَب على حَسب الرسم العُثمانيِّ.

والظاهِر أن هذا القولَ المُفصَّل أَرجَحُ الأقوال الثلاثة.

قوله: ﴿لَا جَرَمَ أَنَّمَا تَدْعُونَنِيٓ إِلَيْهِ لَيْسَ لَهُۥ دَعْوَةٌ﴾ (أنَّ) حَرْف تَوْكيد يَنصِب المُبتَدَأ ويَرفَع الخبَر، و(ما) اسمُها، و﴿لَيْسَ لَهُۥ دَعْوَةٌ﴾ خبَرُها الجُملة.

قال المفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿أَنَّمَا تَدْعُونَنِيٓ إِلَيْهِ﴾ لأَعبُده]، ولكِنَّ هذا التَّفسيرَ قاصِر، فالذي دعَوْه إليه أن يَكفُر بالله ويُشرِك به، فهُم دَعَوْه إلى أمرين، والمفَسِّر قصَره على أَمْر واحِد، وهو عِبادة غير الله، وهذا إِشْراك.

وقوله: ﴿لَيْسَ لَهُۥ دَعْوَةٌ﴾ أي: ليس له استِجابة دَعْوة، والصواب أنه ليس له دَعْوة يُدعَى بها، ولا دَعوةٌ يُجيبها، فمَعنى ﴿لَيْسَ لَهُۥ دَعْوَةٌ﴾: لا يَستَحِقُّ أن يُدعَى، وهو أيضًا لا يَستَجيب إذا دُعِيَ، كما قال الله تعالى: ﴿إِن تَدْعُوهُمْ لَا يَسْمَعُوا۟ دُعَآءَكُمْ وَلَوْ سَمِعُوا۟ مَا ٱسْتَجَابُوا۟ لَكُمْ ۖ وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يَكْفُرُونَ بِشِرْكِكُمْ ۚ وَلَا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ﴾ [فاطر:١٤].

زِدْ على ذلك أَنَّكم تُريدون أن يَنفَعوكم في الآخِرة، والأمر ليس كذلك؛ قال تعالى: ﴿وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يَكْفُرُونَ بِشِرْكِكُمْ ۚ وَلَا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ﴾، وهذه الآيةُ كقَوْله تعالى: ﴿وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّن يَدْعُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَن لَّا يَسْتَجِيبُ لَهُۥٓ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ [الأحقاف:٥]، هذا الذي تَدْعوه لا يُمكِن أن يَستَجيب لك إلى يوم القِيامة أبَدًا، ﴿وَهُمْ عَن دُعَآئِهِمْ غَٰفِلُونَ﴾ (هُم) يَجوز أن يَكون المَدْعوُّون، ويَجوز أن يَكون الداعُون، والهاء في ﴿دُعَآئِهِمْ﴾ يَجوز عَوْدها لهذا، وهذا حَسب الضَّمير السابِق.

ثم قال تعالى: ﴿وَإِذَا حُشِرَ ٱلنَّاسُ﴾ وهو الوَقْت الذي يُريد الداعون أن يَنتَفِعوا بالمَدْعوِّين ﴿وَإِذَا حُشِرَ ٱلنَّاسُ كَانُوا۟ لَهُمْ أَعْدَآءً وَكَانُوا۟ بِعِبَادَتِهِمْ كَٰفِرِينَ﴾ [الأحقاف:٦]؛ لأن الله يَقول: ﴿إِذْ تَبَرَّأَ ٱلَّذِينَ ٱتُّبِعُوا۟ مِنَ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوا۟ وَرَأَوُا۟ ٱلْعَذَابَ وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ ٱلْأَسْبَابُ﴾ [البقرة:١٦٦] أي: المَودَّة والمَحبَّة التي كانوا يُضمِرونها لهم في الدُّنيا ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوا۟

لَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَتَبَرَّأَ مِنْهُمْ كَمَا تَبَرَّءُوا مِنَّا﴾ [البقرة:١٦٧].

فقوله تعالى: ﴿لَيْسَ لَهُۥ دَعْوَةٌ﴾ يقول المفَسِّر: [ليس له دَعْوة مُستَجابة] يَعنِي: لا يَستَجيب الدَّعْوة، والصواب أن لها مَعنيَيْن: لا يَستَجيب، ولا يَستَحِقُّ، فهو لا يَستَحِقُّ أن يُدعَى، ولو دُعِيَ لم يَستَجِبْ.

وقوله: ﴿لَيْسَ لَهُۥ دَعْوَةٌ فِى ٱلدُّنْيَا وَلَا فِى ٱلْءَاخِرَةِ﴾ لا يَستَطيع هذا لا في الدنيا ولا في الآخِرة، فالأصنام لا تَنفَع عابِديها لا في الدنيا ولا في الآخِرة.

وقوله: ﴿وَأَنَّ مَرَدَّنَآ إِلَى ٱللَّهِ﴾ ذكَّرهم بالحِساب رَحِمَهُ ٱللَّهُ وجَزاه الله خيرًا، قال المفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿وَأَنَّ مَرَدَّنَآ﴾؛ أي: مَرجِعنا] إلى الله عَزَّوَجَلَّ في الدُّنيا والآخِرة ﴿فَإِن تَنَٰزَعْتُمْ فِى شَىْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ﴾ [النساء:٥٩]، فالمَرَدُّ هو الله في الدنيا والآخِرة.

وقوله: ﴿وَأَنَّ ٱلْمُسْرِفِينَ هُمْ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ﴾ يَعنِي: ولا جرَمَ أيضًا أن المُسرِفين هُمْ أصحاب النار. يَعنِي: هذه ثَلاثة أشياءَ كلُّها جُزِم بها جَزْمًا.

أوَّلًا: ﴿أَنَّمَا تَدْعُونَنِىٓ إِلَيْهِ لَيْسَ لَهُۥ دَعْوَةٌ فِى ٱلدُّنْيَا وَلَا فِى ٱلْءَاخِرَةِ﴾.

والثاني: ﴿وَأَنَّ مَرَدَّنَآ إِلَى ٱللَّهِ﴾.

والثالِث: ﴿وَأَنَّ ٱلْمُسْرِفِينَ هُمْ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ﴾.

والمُسرِف اسمُ فاعِلٍ من الإسراف، وهو تَجاوُز الحَدِّ ويَكون كُفْرًا، ويَكون دون الكُفْر، فالإنسان الذي يَملأ بطنَه من الطَّعام والشراب مُسرِف، لكنه ليس بكافِر؛ لأن الله عَزَّوَجَلَّ قال: ﴿وَكُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ وَلَا تُسْرِفُوٓا۟﴾، وكذلك الإسرافُ في اللِّباس وغيره لا يُؤدِّي إلى الكُفْر، لكن الإسراف في عِبادة الله بأن تَتجاوَز عِبادة الله إلى عِبادة غيره، هذا هو الكُفْر، وهذا هو مُراد هذا الرجُلِ المُؤمِن.

وقوله: ﴿وَأَنَّ ٱلْمُسْرِفِينَ هُمْ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ﴾ (هم) ضَمير فَصْل، وقد سبَقَ لنا أن ضَمير الفَصْل من حيث الإعراب لا مَحَلَّ له من الإعراب، فلا يُؤثِّر فيما بَعْده ولا يُؤثِّر فيه ما قَبْله، هذه واحِدة.

وسبَق لنا أن لضمير الفَصْل فَوائِدَ: التَّوْكيد والحَصْر وتَمييز الخَبَر عن الصِّفة، وضَرَبنا لذلك مثَلًا لا حاجةَ للإعادة.

من فوائد الآيات الكريمة:

الْفَائِدَةُ الأُولَى: إنكار هذا الرجُلِ المُؤمِن على قَوْمه بما يَشهَد العقل بصِحَّته؛ حيث قال: ﴿وَيَٰقَوْمِ مَا لِيٓ أَدْعُوكُمْ إِلَى ٱلنَّجَوٰةِ وَتَدْعُونَنِيٓ إِلَى ٱلنَّارِ﴾ [غافر:٤١]، وإذا كان العَقْل يَدُلُّ على صِحَّته فهو مَحلُّ عجَب، كل إنسان عاقِل يَعجَب أن يَكون هذا الشيءُ، رجُل يَدعو قومه إلى النَّجاة ورجُل يَدعوهم إلى النار.

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَةُ: مُراعاة الحال في الخِطاب، وجهُه أنه قال: ﴿إِلَى ٱلنَّجَوٰةِ﴾ مع أنه يَدْعوهم إلى الجَنَّة، لكن لَمَّا كانت دَعْوتهم إيَّاه إلى الهَلاك آثَرَ أن يَقول: إلى النَّجاة؛ ويَلزَم من النَّجاة من النار دُخول الجَنَّة.

مسألة: قولُ موسى لِفرعونَ: ﴿وَإِنِّي لَأَظُنُّكَ يَٰفِرْعَوْنُ مَثْبُورًا﴾ [الإسراء:١٠٢] هل يُستَدَلُّ بذلك على الإغلاظِ في الدَّعْوة؟

فالجَوابُ: هذا الإغلاظُ في مَحلِّه؛ لأنه قال له كلِمة أشَدَّ منها، قال: ﴿إِنِّي لَأَظُنُّكَ يَٰمُوسَىٰ مَسْحُورًا﴾ [الإسراء:١٠١] فهَلْ يُغلِظه بالقَوْل ويَسكُت، وموسى عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ مَعروف بالقُوَّة؟!

فإن قال قائِل: من باب التَّلطُّف الداعِية يَقول أحيانًا: وإني أَكثَرُكم تَقصيرًا،

فيَظُنُّ ضِعاف النُّفوس والجُهَّال أنه ما دام هذا الداعِيةُ أو هذا الشيخُ كثير التقصير، نحن إذن من بابِ أَوْلى، ثُم يُصيبهم ما يُصيبهم.

فالجوابُ: أنَّ هذه الكلِمةِ يَنبَغي للإنسان أن يَنظُر في مَصلَحتها، وإلَّا فقد قالها عُمرُ بنُ عبدِ العزيز رَحِمَهُ اللَّهُ في آخِر خُطبة خطَبها، قال: إنِّي لأَقولُ لكُمْ هذا وما أَعلَمُ أحَدًا عِنده من الذُّنوب أكثَرَ مِمَّا عِندي[1]. هي بالحقيقة يَعنِي قد تَكون مُشجِّعة وقد تَكون مُخذِّلة.

قد يَقول قائِل: إذا كان هذا الرجُلُ الداعِية العابِد مُقصِّرًا فكيف بنا نحن؟ إِذَنْ فلْنُشمِّر عن ساعِد الجِدِّ. وقد تَكون -كما قُلت-: سِلاحًا ذا حَدَّيْن؛ فلْيُنظَر إلى المَصلَحة، والإنسان أحيانًا يَقول مثل هذا؛ لأنه يَخشَى على نَفْسه من العُجْب.

الْفَائِدَةُ الثَّالِثَةُ: أنَّ كلَّ مَن أَشرَك بالله، أو أَنكَره كفَر به، فلَيْس له عِلْم في ذلك مهما كان، يُؤخَذ من قوله تعالى: ﴿وَأُشْرِكَ بِهِۦ مَا لَيْسَ لِى بِهِۦ عِلْمٌ﴾.

الْفَائِدَةُ الرَّابِعَةُ: أن الإشراك بالله كجُحود الله، ويَدُلُّ لذلك قولُ الله تعالى في الحَديث القُدسي: «أَنَا أَغْنَى الشُّرَكَاءِ عَنِ الشِّرْكِ، مَنْ عَمِلَ عَمَلًا أَشْرَكَ فِيهِ مَعِي غَيْرِي تَرَكْتُهُ وَشِرْكَهُ»[2].

الْفَائِدَةُ الخَامِسَةُ: تَذكير هذا الرجُلِ المُؤمِن هؤلاءِ بعِزَّة الله ومَغفِرته؛ تَرغيبًا وتَرهيبًا؛ لقوله: ﴿وَأَنَا۠ أَدْعُوكُمْ إِلَى ٱلْعَزِيزِ ٱلْغَفَّٰرِ﴾ فالتَّرْهيب في قوله: ﴿ٱلْعَزِيزِ﴾ والتَّرْغيب في قوله: ﴿ٱلْغَفَّٰرِ﴾ واللهُ أَعلَمُ.

---

(١) انظر: سيرة عمر بن عبد العزيز لابن عبد الحكم المصري (ص:٤٣)، وتاريخ الطبري (٦/ ٥٧١)، وتاريخ دمشق لابن عساكر (٤٥/ ١٧٤).

(٢) أخرجه مسلم: كتاب الزهد، باب من أشرك في عمله غير الله، رقم (٢٩٨٥)، من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

فإن قال قائِلٌ: هل أَقوال الأنبياء والصالِحين في القُرآن هي بنَصِّها؟

فالجوابُ: ليسَتْ هي بلَفْظها، وإنَّما هي بالمَعنَى؛ ولهذا تَجِد العِبارات مُختَلِفة ممَّا يَدُلُّ على أنَّ الله تعالى يَنقُلها بالمعنى، وإن أَضافَها إليهم قولًا، لكن بالمَعنَى، ثُم هم لُغَتُهم غير عرَبية.

فهي بالمَعنَى لا شكَّ:

أوَّلًا: لأن لُغَة هؤلاءِ ليسَت لُغةً عربية.

وثانيًا: لو كان باللَّفْظ لكان كلام البَشَر مُعجِزًا؛ لأن الإعجاز يَحصُل بالآية والآيَتيْن والثلاثة، وهذا الرجُلُ المُؤمِن تَكلَّم في كم من آية، والله هو الذي صاغه بنَفْسه، فنقَله بالمَعنى.

مسألة: بعض الآيات التي يَحكِي فيها الله عَزَّوَجَلَّ أنَّ إنسانًا أو أحَدًا، مثل قول الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿أَكْثَرُ مِنكَ مَالًا وَأَعَزُّ نَفَرًا﴾ [الكهف:٣٤] فهَلْ يَقول الإنسان: قال الله تعالى حاكِيًا عن رجُلٍ، أو يَقول: قال الله تعالى. على مِثْل ما رَوَيْت؟

فالجوابُ: الأحسَنُ أن يَقول: حاكِيًا؛ لأنه قد يُوهِم أنَّ الضَّمير يَعود على الله.

وهذا يُوصِلنا إلى شيء: هل الحَديثُ القُدسيُّ هو كلام الله بلَفْظه أو مَعناه؟

الجواب: فيه خِلاف: منهم مَن يَقول: تَكلَّم الله به لفظًا. ومنهم مَن يَقول: تَكلَّم به مَعنًى والصِّياغة من الرسول عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ. ومنهم مَن يَقول: قُل: قال الله. ولا تَقُل: لفظًا ولا مَعنًى. ما دُمْت في عافية فاسْلُك طريق العافِية.

لكن أحيانًا يُحرَج الإنسان، يَقول: أَعطِني الفَرْق بين الحديث القُدسيِّ والقُرآن،

وأما إذا أَمكَن الإنسان السلامة فالسلامة خَيْر، لكن يَأتيك بعض الناس، ويَقول لك: أَخبِرْني عن الفَرْق بين الحَديث القُدسيِّ والقُرآن.

فالفَرْق هو هذا: أن الحَديث القُدسيَّ ليس لَفْظ الله عَزَّوَجَلَّ؛ لأنه لو كان لَفْظ الله لكان مُعجِزًا، ولثَبَت له أحكام القُرآن، بحيث لا يَقرَؤُه جُنُب، ولا يُمَسُّ إلَّا بطَهارة، ولا أحَدَ يَقدِر على تَحريفه، وما أَشبَه ذلك، وهذا كلُّه مُنتَهٍ.

فإذا قال قائِل: أَلَيْس الرسولُ يَقول: قال الله؟

قُلْنا: بلى. أَلَيْس الله يَقول: قال فِرعونُ، قال مُوسى. وما أَشبَه ذلك وهو بغَيْر لُغَتهم، هذا لا يَمنَع.

ثُم لو قُلْنا: إنه كلام الله باللَّفْظ، أَشكَل علينا إِشْكال عَظيم، فإمَّا أن يَكون بواسِطة جِبريلَ، أو بغير واسِطة، فإن كان بغَيْر واسِطة كان أعلى سنَدًا من القُرآن؛ لأنَّ القُرآن بواسِطة جِبريلَ، وإن كان بغير واسِطة، فأي إنسانٍ يَقول: بغير واسِطة. فإنَّه ربما نَخنُقه أو نُعطِيَه كفًّا على الرأس.

وإذا جعَله بواسِطة والرسول حذَف الواسِطة صار عِندنا إشكال وهو التَّدليس، والرسول ﷺ مُنزَّهٌ عن هذا.

فالمَسأَلة كما قلت: أحَدٌ يَقول: إنه كلام الله لَفْظًا ومَعنًى. والثاني يَقول: كلام الله مَعنًى لا لَفظًا، والثالث يَسكُت يَقول: نَقول: قال الله. ونَسكُت، وهذا إذا حصَل للإنسان السلامة فهو أَسلَمُ، لكن كما قُلْت لكم، أحيانًا يَقول لك: لازِم! أَعطِني الفَرْق بين القُرآن والحَديث القُدسيِّ، نَقول: هذا الفَرقُ: القُرآن كَلام الله لفظًا ومَعنًى، والحَديث القُدسيُّ كلام الله مَعنًى لا لفظًا.

فإن قال قائِلٌ: وحينَئذٍ نُطالِبكم بالفَرْق بين الحَديث النَّبويِّ والقُدسيِّ؛ لأنَّ الحَديث النَّبويَّ كلام الرسول؟.

فالجواب: هذا سَهْل، الفَرْق بينهما أنَّ الحَديث النَّبويَّ لا يُضيفه الرسولُ إلى الله، والحَديثُ القُدسيُّ يُضيفه إلى الله. فانتَهى الإِشْكال في هذه المَسأَلةِ!.

ثُم اعلَمْ أن هذه المَقاماتِ إذا حصَّلَت السَّلامة فهي أَسلَمُ، ولكن إذا ابتُلِيَ الإنسان فلا بُدَّ أن يُفصِّل.

ومن ذلك مثَلًا لفظ: الجِسْم، معلومٌ أن جميع المُعطِّلة بنَوْا تَعطيلهم على مَسأَلة الجِسْم، حيث ادَّعَوْا أنهم إذا أَثبَتوا الوجه أو اليَدَ أو ما أَشبَه ذلك فإنه يَقتَضِي أن يَكون الله جِسْمًا، حتى الاستِواء يَقول: إذا أَثبَتْنا أن الله استَوَى فهو جِسْم. ونحن نَقول لهم: ما هذا الجِسمُ الذي جعَلْتُموه دَبُّوسًا مُعلَّقًا تَخرِقون به كل سِياج لإثبات الصِّفات؟!

إن أَرَدْتُم أنه جِسْم مُكوَّن مَخلوق يُمكِن انفِصال بعضُه عن بعض، وبانفِصال بعضِه يَنقُص، وربَّما يَهلِك، فالله مُنزَّهٌ عن هذا ولا شَكَّ، ومَنِ اعتَقَد هذا في ربِّه فهو كافِر، وإن أَرَدْتُم بالجِسم أنه ذو ذاتٍ يَفعَل ما يَشاء، ويَتكلَّم، ويَجيء، ويَنزِل، ويَستَوِي، ويَتَّصِف بالصِّفات اللائِقة به فهذا حقٌّ، لكن من جِهة إثبات لَفْظ الجِسْم أو نَفيه فهذا مَمنوع، لا تَقُل إثباتًا: إن الله جِسْم. ولا نَفيًا: إن الله ليس بجِسْم؛ لأنه لم يَرِد إثباتُه ولا نَفيُه.

فهذه مَسائِل يَنبَغي لطالِب العِلْم أن يَفهَمها، فمثَلًا: إذا جادَلَنا إنسان ويَقول: ما تَقول في الجِسْم؟ أَقول: أمَّا باعتِبار لفظه فالواجِبُ الكَفُّ عنه إثباتًا أو نفيًا؛ وأمَّا من جِهة مَعناه فنحن نَستَفصِل.

الْفَائِدَةُ السَّادِسَةُ: أن كل ما يُدعَى من دون الله فلَيْس له دَعْوة استِحْقاقًا ولا استِجابة؛ لقوله تعالى: ﴿لَا جَرَمَ أَنَّمَا تَدْعُونَنِيٓ إِلَيْهِ لَيْسَ لَهُۥ دَعْوَةٌ فِى ٱلدُّنْيَا وَلَا فِى ٱلْأَخِرَةِ﴾.

الْفَائِدَةُ السَّابِعَةُ: أنَّ هذه الأَصنامَ لا تَنفَع عابِدِيها، سواءٌ دعوْها دَعْوة مَسأَلة، أو دعوةَ عِبادة.

والفَرْق بين دَعْوة المَسأَلة ودَعْوة العِبادة: أن المَسأَلة يَطلُب فيها الإنسان حاجةً ما، ودُعاء العِبادة يَتعبَّد لله، وإنما كانَتِ العِبادة دُعاء؛ لأن العابِد يَدعو بلِسان حاله أن يُثاب على هذه العِبادة، ويَدُلُّ على ذلك قوله تعالى: ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ٱدْعُونِىٓ أَسْتَجِبْ لَكُمْ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِى﴾ [غافر:٦٠]، فقال: ﴿ٱدْعُونِىٓ﴾ ثُم قال: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِى﴾ فدَلَّ هذا على أن الدُّعاء عِبادة.

الْفَائِدَةُ الثَّامِنَةُ: إثبات الرُّجوع إلى الله عَزَّوَجَلَّ، وأن مرَدَّ الأمور إليه في قوله: ﴿وَأَنَّ مَرَدَّنَآ إِلَى ٱللَّهِ﴾ وهذه الآيةُ لها نَظائِرُ؛ منها قوله تعالى: ﴿وَإِلَى ٱللَّهِ تُرْجَعُ ٱلْأُمُورُ﴾، ومنها: ﴿إِنَّ إِلَيْنَآ إِيَابَهُمْ ۝٢٥ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا حِسَابَهُم﴾ [الغاشية:٢٥-٢٦]، ومنها: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْإِنسَٰنُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَىٰ رَبِّكَ كَدْحًا فَمُلَٰقِيهِ﴾ [الانشقاق:٦]، ومنها قوله تعالى: ﴿وَأَنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ ٱلْمُنتَهَىٰ﴾ [النجم:٤٢]، والآياتُ في هذا المَعنَى كثيرة، أن مَرجِع الخَلائِق إلى ربها عَزَّوَجَلَّ.

الْفَائِدَةُ التَّاسِعَةُ: تَحريم الإسراف، وَجهُ الدَّلالة من الآية: ﴿وَأَنَّ ٱلْمُسْرِفِينَ هُمْ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ﴾ [غافر:٤٣].

الْفَائِدَةُ الْعَاشِرَةُ: أن الإِسْراف قد يَصِل إلى حدِّ الكُفْر؛ لقوله: ﴿هُمْ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ﴾، ومتى وَجَدت أصحاب النار فهُمُ الذين هم أَهلُها والذين هم مُخلَّدون فيها.

الْفَائِدَةُ الحَادِيَةَ عَشْرَةَ: قُوَّة إيمـان هذا الرجُلِ، يُؤخَذ من أنه دَعاهم إلى الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ وذكَّرهم أنه بعد دَعْوتهم وإرشادِهم صَدَع للحقِّ، فقال: ﴿وَأَنَّ مَرَدَّنَآ إِلَى ٱللَّهِ وَأَنَّ ٱلْمُسْرِفِينَ هُمْ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ﴾.

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَةَ عَشْرَةَ: استِعْمـال التَّعْريض: ﴿وَأَنَّ ٱلْمُسْرِفِينَ هُمْ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ﴾؛ لأنه لا شَكَّ أنه أَوَّل ما يَدخُل في هذه الجُملةِ هَؤلاءِ، لكنه لم يَشَأ أن يَتكلَّم بذلك صريحًا.

ومُمكِن أن نَقول: في هذه الآيةِ إظهار في مَوضِع الإضمار. ومُمكِن أن نَقول: هذا تَوْرية. فالإِظْهار في مَوضِع الإضمار من أساليب اللُّغة العَربية، وهو كَثير في القُرآن، وله فَوائِدُ منها:

أ- إرادة العُموم: يَعنِي: ليَعُمَّ الحُكْم مَن استَعمَل في حَقِّه ومَن لم يَستَعمِل.

ب- ومنها بيان العِلَّة: التَّعليل؛ لأنه إذا جاء الوَصْف مُعلَّقًا عليه حُكْم من الأحكام دلَّ ذلك على عِلِّيَّة هذا الوَصفِ.

ج- ومنها التَّسجيل على هؤلاء الذين كان مُقتَضى السِّياق أن يُذكَروا بالضَّمير بما يَقتَضيه هذا الوَصفُ.

فهذه ثلاثُ فَـوائِدَ: إرادة التَّعميم، بيان العِلَّـة، الحُكْم على هَـؤلاء بأنهم مُستَحِقُّون لهذا الوَصْفِ.

• • ❁ • •

الآية (٤٤)

قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿فَسَتَذْكُرُونَ مَآ أَقُولُ لَكُمْ وَأُفَوِّضُ أَمْرِىٓ إِلَى ٱللَّهِ إِنَّ ٱللَّهَ بَصِيرٌۢ بِٱلْعِبَادِ﴾ [غافر:٤٤].

ثُم قال الله تَبَارَكَ وَتَعَالَى في بَقيَّة كلام هذا الرجُلِ المُؤمِن: ﴿فَسَتَذْكُرُونَ مَآ أَقُولُ لَكُمْ﴾ [غافر:٤٤].

السين وسوف كِلاهما يَختَصَّان بالفِعْل المُضارِع ومن علاماته، وإذا رأَيْت كلِمة تَقبَل السين وسوف فهي فِعْل مُضارِع، لكنَّهما يَفترِقان، السين تَدُلُّ على القُرْب، وسوف تَدُلُّ على المُهلَة، فقوله: ﴿فَسَتَذْكُرُونَ﴾؛ أي: عن قَريب، وهي مع إفادتها القُرْب تُفيد التَّحقُّق؛ يَعنِي: أن هذا أَمْر لا بُدَّ أن يَحصُل.

قال المفَسِّر رَحِمَهُ اللَّهُ: [﴿فَسَتَذْكُرُونَ مَآ أَقُولُ لَكُمْ﴾ إذا عايَنْتم العَذاب]، وهذا ليس ببَعيد؛ لأن غاية ما بينَهم وبينَه أن تَنتَهيَ آجالُهم، وكل آتٍ قَريبٌ، ﴿فَسَتَذْكُرُونَ مَآ أَقُولُ لَكُمْ﴾، وحينئذٍ لا يَنفَعُهم ذلك، كما لو نَصَحَك ناصِحٌ عن فِعْل شيء، ثُم لم تَقبَل نصيحته، وبعد ذلك رأَيْت عاقِبَته وَخيمة، فإنك ستَذكُر قول الناصِح، تَذكُره ندَمًا وحُزْنًا.

قال: ﴿وَأُفَوِّضُ أَمْرِىٓ إِلَى ٱللَّهِ﴾ الواو هنا للاستِئْناف، ولا يَصِحُّ أن تكون عاطِفة؛ لأنها لو كانت عاطِفة لكان المَعنَى: وسأُفوِّض أَمْري إلى الله، ولكن هذا

ليس المَعنَى، بل المَعنَى: وأنا أُفوِّض أَمْري إلى الله، فالواو هنا للاستِئْناف، أُفوِّضه إلى الله؛ أي: أَكِلُه إلى الله عَزَّوَجَلَّ.

وقوله: ﴿أَمۡرِيٓ﴾ هذا مُفرَد مُضاف يَعُمُّ والمُراد به الشَّأْن، أي: شَأْني كلِّه، ﴿إِلَى ٱللَّهِ﴾، وهذا غاية ما يَكون من التَّوكُّل، وسيَأتِي -إن شاء الله- في الفَوائِد.

وقوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ بَصِيرُۢ بِٱلۡعِبَادِ﴾ هذه الجُملةُ التَّعْليلية للحُكْم السابِق، وهو قوله: ﴿وَأُفَوِّضُ أَمۡرِيٓ إِلَى ٱللَّهِ﴾ كأن قائِلًا يَقول: لماذا فوَّض أَمْره إلى الله؟ فأَجاب بأن الله تعالى بَصير بالعِباد.

وقوله: ﴿بَصِيرُۢ بِٱلۡعِبَادِ﴾؛ أي: بأَحْوالهم، وحاضِرهم ومُستَقبَلهم، وجميع شُؤُونهم، فهو جَلَّوَعَلَا يَعلَم ما بين أيديهم وما خَلْفهم، يَعلَم كل أحوالهم.

قال المفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [قال ذلك لمَّا توعَّدوه بمُخالَفة دِينِه] يَعنِي: كأنهم تَوعَّدوه، فقال: أُفوِّض أَمْري إلى الله. ولكِن التَّوعُّد ليس في الآية دَليل عليه، والظاهِر -والله أَعلَمُ- أنه لم يَقُل ذلك حين تَوعَّدوه، ولكنه قال ذلك حين أَيِسَ من أن يَمتَثِلوا لنَصيحته، فقال كالمُودِّع لهم: ﴿فَسَتَذۡكُرُونَ مَآ أَقُولُ لَكُمۡ﴾، وأمَّا أنا فأُفوِّض أَمْري إلى الله؛ لأني قُمْت بما يَلزَمُني من نصيحة، وهذا أكثَرُ ما يَجِب عليَّ.

من فوائِدِ الآيةِ الكريمةِ:

الْفَائِدَةُ الأُولَى: بَيانُ تَحذير هؤلاء الذين يَنصَحُهم المُؤْمِن بأنهم سوف يَذكُرون كلامه، ويَعرِفون أنه الحَقُّ، لكن ذلك في حال لا تَنفَعُهم هذه الذِّكْرى.

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَةُ: قُوَّة تَوكُّل المُؤمِن حيث قال: ﴿وَأُفَوِّضُ أَمۡرِيٓ إِلَى ٱللَّهِ﴾، وهكذا يَجِب على كُلِّ مُؤمِن إذا أَراد أن تُقضَى أُموره وتُسهَّل فلْيُفوِّض أمرَه إلى الله؛ لأن الله

تعالى قال: ﴿وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُۥٓ﴾ [الطلاق:٣]، وقال لنَبيِّه ﷺ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ حَسْبُكَ ٱللَّهُ وَمَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الأنفال:٦٤]، ومَن كان الله حَسْبَه فهو رابِحٌ وناجِحٌ.

الْفَائِدَةُ الثَّالِثَةُ: إثبات عِلْم الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ بكُلِّ عِباده؛ لقوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ بَصِيرُۢ بِٱلْعِبَادِ﴾ [غافر:٤٤]، وهذا -كما سبَقَ- تفسير يَشمَل الأحوال والأعيان.

• ● ۞ ● •

الآيتان (٤٥، ٤٦)

• • ● ● • •

۞ قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿ فَوَقَىٰهُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِ مَا مَكَرُواْۖ وَحَاقَ بِـَٔالِ فِرۡعَوۡنَ سُوٓءُ ٱلۡعَذَابِ ۝٤٥ ٱلنَّارُ يُعۡرَضُونَ عَلَيۡهَا غُدُوّٗا وَعَشِيّٗاۚ وَيَوۡمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ أَدۡخِلُوٓاْ ءَالَ فِرۡعَوۡنَ أَشَدَّ ٱلۡعَذَابِ ﴾ [غافر:٤٥-٤٦].

• • ● ● • •

قال الله تعالى: ﴿ فَوَقَىٰهُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِ مَا مَكَرُواْ ﴾ هذا أيضًا يَدُلُّ على رَدِّ كلام المفَسِّر؛ لأنهم لو توعَّدوه بالقَتْل لم يَكُن هذا مَكرًا، إذ إن المَكْر هو الإيقاع بالغير من حيثُ لا يَشعُر، أمَّا لو توعَّدوه بالقَتْل لم يَكُن هذا مَكْرًا، بل كان هذا صَريحًا واضِحًا.

وقوله: ﴿ فَوَقَىٰهُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِ مَا مَكَرُواْ ﴾ أي: نَجَّاه من مَكْرهم السَّيِّئ، فـ﴿سَيِّـَٔاتِ﴾ هنا من باب إضافة الصِّفة إلى مَوْصوفها؛ أي: المَكر السَّيِّئ، وقد قال الله تعالى: ﴿وَلَا يَحِيقُ ٱلۡمَكۡرُ ٱلسَّيِّئُ إِلَّا بِأَهۡلِهِۦ﴾ [فاطر:٤٣]، وقوله: ﴿مَا مَكَرُواْ﴾ المَكْر والخِداع والغَدْر، وما أَشبَه ذلك؛ كلُّها أَلْفاظ مُتقارِبة تَدور حول شيء واحِد، وهو أن تُوقِع بغَيْرك من حيثُ لا يَشعُر، فالكَيْد والمَكْر والخِداع والغَدْر والمُحال، وما أَشبَهها؛ كل هذه أَلْفاظ مُتقارِبة.

قال المفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿مَا مَكَرُواْ﴾ به من القَتْل] بيَّن في هذا أنَّ العائِد على الصِّلة في قوله: ﴿مَا﴾ مَحذوف، والتَّقدير: ما مكروا به.

قال المفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿وَحَاقَ﴾ نزل ﴿بِـَٔالِ فِرۡعَوۡنَ﴾ قومه مَعَه ﴿سُوٓءُ ٱلۡعَذَابِ﴾

الغرَق] (حاقَ) بمَعنَى: نزَل، لكن تَشعُر بأنها ليسَت بمَعنَى: نزَلَ من كلِّ وَجْه، وأن تَفسيرها بالنُّزول تَفسير تَقريبيٌّ، (حاق): القاف قَريبة من الطاء فكأن المَعنَى: حاط بهم، وهذا أَشَدُّ من نزَلَ، فالظاهِر أن (حاقَ) بمَعنَى: نزَلَ مُحيطًا بهم، وليسَت بمَعنَى: نزَل على وجه مُجرَّد بدون إضافة مَعنًى.

وقوله: ﴿بِـَٔالِ فِرۡعَوۡنَ﴾ قال المفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [قومِه]، وقال غيرُه: أَتباعِه، والظاهِر أنَّ المعنى مُتقارِب؛ لأن الذين اتَّبَعوه إنها هم قَوْمه، وأمَّا بنو إسرائيلَ فإنهم لم يَتَّبِعوه، بل كان يَذبَح أبناءَهُم ويَستَحْيِي نِساءَهم.

وقول المفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [مَعَه] ذكَرَها لئَلَّا يَظُنَّ الظانُّ أن العَذاب نزَل بآل فِرعونَ دونه، ولكن هذا لا يُمكِن أبَدًا، إذا كان آلُ فِرعونَ إنَّما نزَل بهم العَذاب؛ لأنهم كفَروا بالله، ففِرعونُ أكفَرُ بالله من هَؤلاءِ، ثُم إنَّ الظاهِر أن الإنسان إذا قال: أَكرِمْ آل فُلان. فإن فُلانًا هو مُقدَّمهم، ولا بُدَّ أن يَدخُل فيهم لُغة.

وقوله: ﴿سُوٓءُ ٱلۡعَذَابِ﴾ هذا أيضًا من باب إِضافة الصِّفة إلى مَوْصوفها. أيِ المَعنَى: العَذاب السَّيِّئ، وفسَّره المفَسِّر بأنه الغرَق، وهذا لا شَكَّ أنه من سُوء العَذاب، لكن هناك عَذابات أُخرى أُصيب بها آلُ فِرعونَ: ﴿وَلَقَدۡ أَخَذۡنَآ ءَالَ فِرۡعَوۡنَ بِٱلسِّنِينَ وَنَقۡصٖ مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ لَعَلَّهُمۡ يَذَّكَّرُونَ﴾ [الأعراف:١٣٠]، وقال تعالى: ﴿فَأَرۡسَلۡنَا عَلَيۡهِمُ ٱلطُّوفَانَ وَٱلۡجَرَادَ وَٱلۡقُمَّلَ وَٱلضَّفَادِعَ وَٱلدَّمَ﴾ [الأعراف:١٣٣]، كل هذا من سُوء العَذاب؛ الطُّوفان ليُغرِق ما بُذِر من نَباتهم، والقُمَّل لأَجْل أن يَفسُد ما ظَهَر، والضَّفادِع لتُفسِد الماء؛ لأنَّهم صاروا كلَّما أَخَذوا إناءً يَشرَبونه وجَدوا هذه الضِّفادِعَ قد ملَأَتْه، والدم هو نَزيف الدَّمِ إمَّا من الأَنْف أو من غيره، فعُوقِبوا من كل وَجْه، ففي الزُّروع: غَرَق،

وفيما ما ادَّخروه: قُمَّل، وفي الماء: ضَفادِعُ، وبعد أن يَصِل إلى الجِسْم ويَتَغذَّى به الجِسم: يَخرُج يَنزِف دمًا، فهَلكوا.

وهذا فيه التَّرْتيب والدرَجات: الطُّوفان غرَق الزُّروع، والجَراد تَأكُل الزرع، الطوفان يُغرِق ما بُذِر، والجَراد يَأكُل ما ظهَر، والقُمَّل يُفسِد ما ادُّخِر، والضَّفادِع تُفسِد الماء، والدمُ وهو النَّزيف تُذهِب ما حصل من الغِذاء بالطَّعام الذي يُقدَّر أنه سلِمَ من هذه الآفاتِ، فهذا من سوء العَذاب، والنِّهاية هي الغَرَق: أنَّ الله أَغرَق آل فِرعونَ بالبَحْر.

وقوله: ﴿ٱلنَّارُ يُعۡرَضُونَ عَلَيۡهَا غُدُوّٗا وَعَشِيّٗا﴾ هذه الجُملةُ مُستأنَفة، فـ﴿ٱلنَّارُ﴾ مُبتَدَأ، و﴿يُعۡرَضُونَ﴾ الجُمْلة خبَرُها.

وقوله: ﴿يُعۡرَضُونَ عَلَيۡهَا غُدُوّٗا وَعَشِيّٗا﴾، ليس مَعناها أنها تُحرِقهم؛ لأن الله لو أَراد ذلك لقال: النار يَصلَوْنها غُدُوًّا وعَشيًّا، لكنهم يُعرَضون عليها، فيَأتِيهم مِن سَمومها وعَذابها ما لا يُطيقون -والعِياذُ بالله- يُعرَضون عليها غُدُوًّا في الصباح، وعَشِيًّا في المَساء، والظاهِر أنَّ المُراد الدوام، ويُحتَمَل أن المُراد هذان الوَقْتان فقَطْ.

فأمَّا الأوَّل: فقَدْ يُستدَلُّ له بقوْل الله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ: ﴿وَلَهُمۡ رِزۡقُهُمۡ فِيهَا بُكۡرَةٗ وَعَشِيّٗا﴾ [مريم:٦٢] يَعنِي في كل الزَّمَن.

وأمَّا الثاني: فيُمكِن أن يُقال: إن هذا ظاهِر اللَّفْظ؛ أي: في أوَّل النَّهار وآخِره، وأنهم يُعرَضون على النار أوَّل النهار، ثُم إذا صُرِفوا عنها أَمَّلوا أنَّها لا تَعود إليهم فتَعود إليهم، فيَكون هذا أَشَدَّ من الاستِمْرار؛ لأنَّ كون الإنسان يُؤمِّل ارتِفاع العَذاب عنه ثُم يَعود أَشَدَّ من كَوْنه مُستَمِرًّا آيِسًا من زواله؛ ولهذا قال الله تعالى في أصحاب النار: ﴿كُلَّمَآ أَرَادُوٓاْ أَن يَخۡرُجُواْ مِنۡهَآ أُعِيدُواْ فِيهَا﴾ [السجدة:٢٠].

قال المفسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ﴾ يُقال: «ادْخُلوا» يا ﴿ءَالَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ ٱلْعَذَابِ﴾ هذه قِراءَة] ﴿أَدْخِلُوٓا۟﴾ أَمْر والمَقْصود به الإهانة والإِذْلال، بخِلاف قوله تعالى لأهل الجَنَّة: ﴿ ٱدْخُلُوهَا بِسَلَٰمٍ ءَامِنِينَ﴾ [الحجر:٤٦] هذه للإِكْرام، أَمَّا هذه: «ادْخُلُوا آلَ فِرْعَونَ» هذه للإِهانة، والعِياذُ بالله.

وقوله: ﴿ءَالَ﴾ فسَّرها المفَسِّر بقوله: [يا آلَ] إشارة إلى أنها مَنصوبة بـ(يا) النِّداء المحذوفة، ادْخُلوا يا آلَ فِرعونَ، قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [وفي قِراءة بفَتْح الهَمْزة وكَسْر الخاء، أَمْر للمَلائِكة]: ﴿أَدْخِلُوٓا۟ ءَالَ فِرْعَوْنَ﴾، يَعنِي: ويوم القِيامة يُقال للمَلائِكة: ﴿أَدْخِلُوٓا۟ ءَالَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ ٱلْعَذَابِ﴾.

قال المفسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿أَشَدَّ ٱلْعَذَابِ﴾ عَذاب جهنَّمَ] نَسأَل الله العافِيةَ.

من فوائِدِ الآيتين الكريمتين:

الْفَائِدَةُ الأُولَى: أنَّ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ يَكفِي مَن تَوكَّل عليه، فيَحمِيه من عَدوِّه؛ لقول الله تعالى: ﴿ فَوَقَىٰهُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِ مَا مَكَرُوا۟﴾.

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَةُ: التَّحذير من أَعْداء المُسلِمين؛ لقوله: ﴿مَا مَكَرُوا۟﴾، وأن أَعداء المُسلِمين قد لا يُواجِهونهم بالعَداوة، ولكنَّهم يَمكُرون بهم، فلْيَحذَر المُؤمِن مَكر أَعداء الله، وهذا في القُرآن كثير، قال الله تعالى لنَبيِّه ﷺ: ﴿ وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ ۚ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ ٱللَّهُ ۖ وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلْمَٰكِرِينَ﴾ [الأنفال:٣٠]، وقال تعالى: ﴿إِنَّهُمْ يَكِيدُونَ كَيْدًا ﴿١٥﴾ وَأَكِيدُ كَيْدًا ﴿١٦﴾ فَمَهِّلِ ٱلْكَٰفِرِينَ أَمْهِلْهُمْ رُوَيْدًۢا﴾ [الطارق:١٥-١٧].

ومِن مَكْر أعداء الله أنَّهم لا يُجابِهون المُسلِمين بالعَداوة؛ لكنهم يَغزونَهم من

حيثُ لا يَشعُرون؛ بالأفكار المُنحرِفة، والأخلاق السَّيِّئة، كما تُشاهِدون الآنَ وتَسمَعون ما يَفعَل أعداء المُسلِمين بالمُسلِمين، يَجُرُّون إليهم الأخلاق السافِلة من وَسائِل الإعلام المَرئِيَّة والمَقروءَة والمَسموعة، يُوفِدون إليهم كل ما يُخالِف دِين الإسلام في المَلابِس وغير المَلابِس، يُغرُونهم بالأموال الطائِلة؛ لإذهاب أَوْقاتهم سُدًى بلا فائِدةٍ، كمَسأَلة الرِّياضة وما أَشبَهَها.

فالمُهِمُّ: أن أعداء المُسلِمين يَمكُرون بهم مَكْرًا عَظيمًا، والمُسلِمون إمَّا أنهم لا يَهتَمُّون بهذا المَكْرِ، أو أنهم لا يَعرِفونه، ولكن الواجِبُ علينا أن نَحذَر.

الْفَائِدَةُ الثَّالِثَةُ: أن الله تعالى يُجازِي المُحسِن بإحسانه ويُجازِي المُسِيء بإساءَتِه، وتَكون إجازة المُسِيء بإساءَته في الحَقيقة مُجازاة للمُحسِن؛ لأن أَخْذ أعدائِك بالعَذاب هو في الحَقيقة انتِصار لك وأنت تَفرَح بذلك، يُؤخَذ ذلك من قوله: ﴿فَوَقَىٰهُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِ مَا مَكَرُواْۖ وَحَاقَ بِـَٔالِ فِرۡعَوۡنَ سُوٓءُ ٱلۡعَذَابِ﴾ [غافر:٤٥]، فبَيَّن الله تعالى جَزاءَ هذا وجَزاءَ هؤلاءِ.

الْفَائِدَةُ الرَّابِعَةُ: إثبات عَذاب القَبْر؛ لقوله: ﴿ٱلنَّارُ يُعۡرَضُونَ عَلَيۡهَا غُدُوّٗا وَعَشِيّٗا﴾.

وعَذاب القَبْر ثابِت بالقُرآن والسُّنَّة والإِجْماع:

أمَّا القُرآن: ففي مِثل هذه الآيةِ: ﴿ٱلنَّارُ يُعۡرَضُونَ عَلَيۡهَا غُدُوّٗا وَعَشِيّٗا﴾، ثُم قال: ﴿وَيَوۡمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ أَدۡخِلُوٓاْ﴾؛ لأن قوله: (يَوْم) ظَرْف زمان مُتعَلِّق بما بعدَه، المُتعَلِّق بالفِعْل «ادْخُلوا» أو ﴿أَدۡخِلُوٓاْ﴾، وهذا لا يَكون إلَّا بعد يوم القِيامة، وعَرْضهم على النار غُدُوًّا وعَشيًّا يَكون قبل يوم القِيامة، ففيه إثبات عَذاب القَبْر، قلتُ لكم: إنه ثابِت بالقُرآن والسُّنَّة والإجماع، أمَّا القُرآن ففي مثل هذا.

ومن أَدِلَّة القُرآن قولُ الله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ: ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلظَّٰلِمُونَ فِى غَمَرَٰتِ ٱلْمَوْتِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ بَاسِطُوٓاْ أَيْدِيهِمْ أَخْرِجُوٓاْ أَنفُسَكُمُ ۖ ٱلْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ ٱلْهُونِ﴾ [الأنعام:٩٣] (اليَوْمَ) هنا (أل) للعَهْد الحُضوريِّ، يَعنِي: هذا اليومُ الذي هو يوم مَوتِكم، فدَلَّ ذلك على ثُبوت عَذاب القَبْر.

أَمَّا السُّنَّة: فهي مُتَواتِرة في ذلك كثيرة على وُجوهٍ مُتنوِّعة عامَّة وخاصَّة:

فمن الخاصَّة: قولُه ﷺ حين مَرَّ بقَبْرَيْن يُعذَّبان: «إِنَّهُما لَيُعَذَّبَانِ وَمَا يُعَذَّبَانِ فِي كَبِيرٍ»(١).

وأَمَّا الإِجْماع: فكل المُسلِمين يَقولون في صَلَواتهم: أَعوذُ بالله من عَذاب جَهنَّمَ ومن عَذاب القَبْر؛ وهذا أَمْر لا إشكالَ فيه وهو من عَقيدَتِنا.

فإن قال قائِلٌ: هل العَذاب يَكون على البدَن أو على الرُّوح، أو عليهما جميعًا؟

فالجَوابُ: ظاهِر السُّنَّة أن العَذاب يَكون على البدَن حين مُساءَلة المَلَكين، فإن النَّبيَّ ﷺ أَخبَرَ أن المُنافِق والمُرتاب يَقول: «لا أَدرِي سمِعْت الناس يَقولون شَيْئًا فقُلْتُه، فيُضرَب بمِرْزَبَّة من حَديد فيَصيحُ صَيْحة يَسمَعها كُلُّ شَيءٍ إِلَّا الثَّقَلين الإِنسَ والجِنَّ فإنهم لا يَسمَعونه، وكلُّ شيء يَسمَعُه»(٢).

والمُراد بذَلِك من قرُبَ منها بحيث يَسمَع، أمَّا مَن كان في أَقْطار الدنيا البَعيدة فلا، وهذا يَدُلُّ على أن الذي يُعذَّب حين المُساءَلة البَدَن؛ لقوله: (فيُضرَب).

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب الوضوء، باب من الكبائر أن لا يستتر من بوله، رقم (٢١٦)، ومسلم: كتاب الطهارة، باب الدليل على نجاسة البول ووجوب الاستبراء منه، رقم (٢٩٢)، من حديث ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.

(٢) أخرجه الإمام أحمد (٤/ ٢٨٧)، أبو داود: كتاب السنة، باب في المسألة في القبر وعذاب القبر، رقم (٤٧٥٣)، من حديث البراء رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

أمَّا بعد ذلك فالأصل أن العَذاب على الرُّوح، وقد تَتَّصِل بالبدَن، كما قال ذلك شيخُ الإسلام ابنُ تَيميَّةَ[(١)] رَحِمَهُ ٱللَّهُ، وإن شِئْنا قُلْنا: هذا بَحْث لا طائِلَ تَحته، ولم يَسأَل عنه الصحابة، فنُثبِت عَذاب القَبْر على حَسب ما جاء في الكِتاب والسُّنَّة لا نَزيد ولا نَنقُص.

مسألة: بعض النَّصارى أرد أن يضع جهازًا في القبر، ويَقول: نحن نُريد أن نُصدِّق هل كلامُكم صَحيحٌ أيها المُسلِمون حينما تَقولون: إن عَذاب القَبْر ونعيم القَبْر ثابِت؛ فما الرد عليه؟

نَقول: لو أَرادَ الله أن يَسمَعوه بالمُسجِّل لأَسمَعَكم إيَّاه بآذانِكُم، وما أنتم بمُصدِّقين.

الْفَائِدَةُ الخَامِسَةُ: وجود النار؛ لقوله: ﴿ٱلنَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا﴾، ووجودها ثابِت في القُرآن والسُّنَّة، وقد رأَى النَّبيُّ ﷺ النار حين عُرِضت عليه وهو يُصلِّي بالناس صلاةَ الكُسوف[(٢)]، ورأَى فيها مَن يُعذَّب، فالنار مَوْجودة الآنَ.

الْفَائِدَةُ السَّادِسَةُ: إثبات قِيام الساعة؛ لقوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ﴾، ونحن نُؤمِن بالساعة وأنَّها ستَقوم، وسيُبعَث الناس، وبهذا نَعرِف أن ما يَذكُره بعض الناس اليوم حين يَموت الرجُل فيُدفَن يَقولون مثَلًا: إنهم ذهَبوا به إلى مَثواهُ الأخيرِ. هذه الكلِمة كلِمة كُفْر، إذا قلت: إلى مَثواهُ الأَخيرِ. فهذا يَعنِي أنَّه لا بَعثَ بعد ذلك، وأن هذا آخِر مَرحَلة للإنسان، وليس الأمر هكذا؛ ولهذا نَقول: إنَّ مَن قال هذه الكلِمةَ

---

(١) انظر: مجموع الفتاوى (٤/ ٢٨٢).

(٢) أخرجه مسلم: كتاب الكسوف، باب ما عرض على النبي ﷺ في صلاة الكسوف من أمر الجنة والنار، رقم (٩٠٤)، من حديث جابر رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ.

وهو يَعرِف مَعناها ويُريده فإنه كافِر؛ لأنه مُنكِر للبَعْث، أمَّا مَن قالها وقال: إلى مَثواهُ الأخيرِ. باعتِبار الدُّنْيا المُشاهَدة فهذا صحيح، لكن ظاهِر العِبارة الكُفْر؛ ولهذا يَجِب التَّحرُّز منها، ويُقال مثَلًا: ذهَبوا به إلى قَبْره، ذهَبوا به إلى محَلِّ زِيارته.

الواقِعُ أنَّ القَبْر زِيارة، قال الله تعالى: ﴿أَلْهَىٰكُمُ ٱلتَّكَاثُرُ ۝١ حَتَّىٰ زُرْتُمُ ٱلْمَقَابِرَ﴾ [التكاثر:١-٢]، ولَمَّا سمِع أعرابيٌّ رجُلًا يَقرَؤُها قال: والله إن الزائِرَ ليس بمُستَقِرٍّ. يَعنِي أن هُناك شَيْئًا وراءَ هذا القَبرِ، وصدَق، الزائِرُ ليس هو مُستَقِرًّا، يَزور ويَمشِي.

الْفَائِدَةُ السَّابِعَةُ: إهانة الكُفَّار؛ إهانة بدَنية، وإهانة قَلْبية، تُؤخَذ من تَوْبيخهم وإهانَتِهم: ﴿أَدْخِلُوٓاْ ءَالَ فِرْعَوْنَ﴾، ولا شَكَّ أن قُلوبهم تَتَأَثَّر بهذا، وستَجِد الحَسْرة والنَّدامة -والعِياذُ بالله-.

الْفَائِدَةُ الثَّامِنَةُ: التَّبْكيت على آل فِرعونَ، كأنه قال: ادْخُلوا -آلَ فِرعونَ- وانظُروا هل يَنفَعُكم أن تَكونوا من آلِهِ أو لا، ففيها نوعُ تَبكيت لهؤلاءِ.

الْفَائِدَةُ التَّاسِعَةُ: أنَّ النار أَشَدُّ العَذاب، وأن كل ما قَبْلها أَهوَنُ منها؛ لقوله: ﴿أَشَدَّ ٱلْعَذَابِ﴾، ولا شَكَّ أنها أَشَدُّ العَذاب، كذلك نَقول بالنِّسبة للنَّعيم: ما يَجِده المُؤمِن من النَّعيم في القَبْر، فليس بشيء بالنِّسبة لما يَجِده يوم القِيامة، فأَكمَلُ النَّعيم يَكون بدُخول الجَنَّة وما قبلَه فهو كالتَّقدِمة بين يديه.

فإن قال قائِل: هل يُستَدَلُّ على عَذاب القَبْر بما يَراه الإنسان في مَنامه من الأَحلام والمَنامات؟

فالجَوابُ: لا يُستَدَلُّ، لكن يُستَدَلُّ به على دَفْع دَعوى أهل الإِلْحاد؛ حيث قالوا: إنَّكُم تَقولون: إن المَيِّت يُقعَد في قبره ويُعذَّب. ونحن نَحفُر القَبْر ونَجِد أن المَيِّت باقٍ على ما هو عليه.

فنَرُدُّ عليهم بأنَّ هذا النائِمَ يَرَى أنه مُعذَّب، وأنه مُنعَّم، وأنه ذهَبَ، وأنه جاءَ وهو على فِراشِه لم يَتغيَّر، حتى اللِّحاف ما سقَط عن ظَهْره، فنَقول: قِسِ الغائِبَ بالحاضِر، ثُم لو كان عذابُ القَبْر يُدرَك بالاطلاع عليه لم يَكُن إيمانًا بالغَيْب، لكان إيمانًا بالشَّهادة، والإيمان بالشَّهادة لا يَنفَع، يَعنِي: الإنسان إذا عايَن الشيء فإنَّ إيمانه به لا يَنفَع، فتَرَى الكافِرين عند حُضور الأَجَل يُؤمِنون، ولكن لا يَنفَعهم ذلك، فِرعونُ لَمَّا أَدرَكه الغرَقُ قال: ﴿ءَامَنتُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱلَّذِىٓ ءَامَنَتۡ بِهِۦ بَنُوٓاْ إِسۡرَٰٓءِيلَ وَأَنَا۠ مِنَ ٱلۡمُسۡلِمِينَ﴾ [يونس:٩٠].

انظُرْ إلى هذا الحَدِّ: اعترَف الله تعالى بالتَّوحيد، ثُم اعترَف أنه تابعٌ لبَني إسرائيلَ؛ لقوله: ﴿ءَامَنَتۡ بِهِۦ بَنُوٓاْ إِسۡرَٰٓءِيلَ﴾، ولم يَقُل: لا إلهَ إلَّا الله. إشارة إلى أنه ذُلَّ حتى صار تابِعًا لبني إسرائيلَ بعد أن كان مُتجبِّرًا عليهم.

فإن قال قائِلٌ: هل يَجوز تَعزِية المُسلِمين للكُفَّار؟

فالجَوابُ: العُلَماء يَقولون: لا بأسَ أن يُعزَّى الكافِر. وبعضُهم يَقول: لا يَجوز. وبعضُهم فصَّل قال: إن فعَلوا بنا ذلك فعَلْنا اعتِمادًا على قوله تعالى: ﴿وَإِذَا حُيِّيتُم بِتَحِيَّةٍ فَحَيُّواْ بِأَحۡسَنَ مِنۡهَآ أَوۡ رُدُّوهَآ﴾ [النساء:٨٦] وهذا أَقرَبُ: أنهم إن كانوا يَفعَلون بنا ذلك فعَلْنا، ولكن هل نَقول: عظَّمَ الله أَجْرك، وأَحسَنَ الله عَزاءَك، وغَفَر لميِّتك؟ لا نَقول هذا، نَقول: هَداكَ الله إلى الإسلامِ، وجَبَرَ مُصيبَتَك. فقَطْ، ومَيِّته لا نَقول: غفَرَ الله له. لأنه من أَهْل النار.

• • ۞ • •

الآيتان (٤٧، ٤٨)

• • • •

قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَإِذْ يَتَحَآجُّونَ فِى ٱلنَّارِ فَيَقُولُ ٱلضُّعَفَـٰٓؤُا۟ لِلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوٓا۟ إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا فَهَلْ أَنتُم مُّغْنُونَ عَنَّا نَصِيبًا مِّنَ ٱلنَّارِ ﴿٤٧﴾ قَالَ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوٓا۟ إِنَّا كُلٌّ فِيهَآ إِنَّ ٱللَّهَ قَدْ حَكَمَ بَيْنَ ٱلْعِبَادِ﴾ [غافر:٤٧-٤٨].

• • • •

قال الله تَبَارَكَ وَتَعَالَى: ﴿وَإِذْ يَتَحَآجُّونَ فِى ٱلنَّارِ فَيَقُولُ ٱلضُّعَفَـٰٓؤُا۟ لِلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوٓا۟ إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا﴾ ﴿وَإِذْ يَتَحَآجُّونَ﴾ يَعنِي: يَذكُر إذ يَتحاجُّون في النار؛ أي: يُدلِي كلٌّ واحِد منهم بحُجَّته، و(إذ) ظَرْف عامِله محذوف قدَّره المفسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ بقوله: [اذكُرْ إِذْ يَتحاجُّون].

وحَذْف ما يُعلَم كثيرٌ في القُرآن وفي اللُّغة العرَبية، لكن التَّرتيب والزَّحْلقة هذا قليلٌ، إلَّا أني قُلتُ: إن الإِخْلال بالتَّرْتيب هنا أَيسَرُ للإنسان؛ لأنه أحيانًا حَقيقة تَرِد عليك آياتٌ لا تَدرِي بها تُقدِّر، إلَّا أن تَقول: إن عرَفْت التَّقدير فاسلُكِ الأَقعَد، وإن لم تَعرِف فاسلُكِ الأَسهَل؛ لتكون مُتتبِّعًا للرُّخَص -يَعنِي: رُخَص النَّحويين- فلا مانِعَ في هذا، نحن قُلنا قاعِدةً مُفيدة فيها إذا اختَلَف النَّحويُّون في شيء فالصَّواب الأَسهَل.

والمُحاجَّة هي المُخاصَمة وإدلاء كلٍّ بحُجَّته على الآخَر، وقوله: ﴿فِى ٱلنَّارِ﴾ يُفيد أن هَؤلاءِ المُتَخاصِمين هم أهل النار، وهي مُتعلِّقة بـ﴿يَتَحَآجُّونَ﴾.

ثُم بيَّن هذه المُحاجَّةَ فقال: ﴿فَيَقُولُ ٱلضُّعَفَٰٓؤُاْ لِلَّذِينَ ٱسۡتَكۡبَرُوٓاْ إِنَّا كُنَّا لَكُمۡ تَبَعٗا﴾ الضُّعَفاء إمَّا في المال، وإمَّا في الشرَف والسِّيادة، وإمَّا في غير ذلك، مِمَّا يُعَدُّ ضَعْفًا، والغالِب أن الضَّعيف يَتبَع القَويَّ وقوله: ﴿لِلَّذِينَ ٱسۡتَكۡبَرُوٓاْ﴾؛ أي: تَكبَّروا من الكِبْرياء والعظَمة، والسين والتاء فيها للمُبالَغة ﴿إِنَّا كُنَّا﴾ يَعنِي: في الدُّنيا ﴿لَكُمۡ تَبَعٗا﴾ قال المفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [جَمْع تابعٍ] أي: مُتَّبِعين ﴿فَهَلۡ أَنتُم مُّغۡنُونَ عَنَّا نَصِيبٗا مِّنَ ٱلنَّارِ﴾ يَعنِي: هل تُجازونَنا على مُتابَعَتِنا إيَّاكُم بأن تَتحمَّلوا عنَّا شيئًا من النار؟ وقولهم: ﴿فَهَلۡ أَنتُم مُّغۡنُونَ﴾ قال المفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [دافِعون ﴿عَنَّا نَصِيبٗا مِّنَ ٱلنَّارِ﴾ جُزءًا من النار].

انظُرْ كيف يَتوسَّل هؤلاءِ الضُّعفاءُ إلى الذين استكْبَروا، كيف يَتوسَّلون إليهم بما قدَّموا من مُتابَعَتهم؛ ليَتَحمَّلوا عنهم نصيبًا من النار، فكان جَوابُ الذين استكْبَروا:

وقوله: ﴿إِنَّا كُلّٞ فِيهَآ إِنَّ ٱللَّهَ قَدۡ حَكَمَ بَيۡنَ ٱلۡعِبَادِ﴾ وإذا كُنَّا كلًّا فيها فكَيْف نُغنِيكم نصيبًا من النار؟! وهذه حُجَّة ببَيان الواقِع.

وقولهم: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ قَدۡ حَكَمَ بَيۡنَ ٱلۡعِبَادِ﴾ حكَم بينهم بحُكْمه الجَزائِيِّ؛ لأن أَحكام الله عَزَّوَجَلَّ ثلاثة: قدَريٌّ، وشَرعيٌّ، وجَزائيٌّ. والجَزائيُّ من القدَريِّ في الواقِع، لكن بعض العُلَماء يَجعَله مُنفَصِلًا لأهمِّيَّته؛ لأنه هو الغاية، وقوله: ﴿حَكَمَ بَيۡنَ ٱلۡعِبَادِ﴾ يَعنِي: بين الناس عُمومًا، يَعنِي: بين أهل النار وأهل الجَنَّة فالعُبودية هنا بمَعنَى العُبودية العامة الشامِلة؛ لأن العُبودية عامَّة وخاصَّة.

من فوائِدِ الآيتَين الكريمتَين:

الْفَائِدَةُ الأُولَى: تَعادِي الكُفَّارِ بعضِهم مع بعضٍ، وأن القويَّ مِنهم لا يَرحَم الضعيف لقوله: ﴿وَإِذۡ يَتَحَآجُّونَ فِي ٱلنَّارِ﴾.

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَةُ: أن هَؤلاءِ الكُفَّارَ أَدلَوْا بمعروف للمَتبوعين، وهم أنهم كانوا لهم تبَعًا؛ ليَتوَسَّلوا به إلى أن يَأخُذوا عنهم نَصيبًا من النار، ففيه دليلٌ على تَوسُّل الإنسان بجَميل عطائه على الغير، ولكن هل يُعَدُّ هذا من المِنَّة؟

الجواب: الواقِع أن الذي يُبيِّن أنه تَوسُّل أو مِنَّة هو القَرائِن، قد يكون هذا مِنَّة، وقد يَكون هذا تَوسُّلًا مِثلما رَحِمْتك وأَعطَيْتك وأَحسَنت إليك فأَحسِنْ إليَّ، فيَكون هذا من باب التَّوسُّل.

الْفَائِدَةُ الثَّالِثَةُ: أن الضُّعفاء دائِمًا يَكونون أتباعًا للأقوياء؛ لقوله: ﴿فَيَقُولُ ٱلضُّعَفَٰٓؤُاْ لِلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوٓاْ﴾ [غافر:٤٧]؛ ولهذا يتبيَّن لنا الآنَ أن تَقليد المُسلِمين للكُفَّار يعنِي: ضَعفهم أمامهم؛ لأن الضَّعيف دائِمًا يُقلِّد القويَّ؛ لضَعف شَخصيته أمامه، وأنه يَجِب على المُسلِمين أن يَكون لهم مَيْزة خاصَّة، وأن يَكون لهم قوَّة ذاتية؛ لأن القُوَّة معهم، هم أهل الدِّين، هم أهل الحَقِّ، وهم الذين عرَفوا الحياة، وهم أهل الحَياة في الواقِع.

الْفَائِدَةُ الرَّابِعَةُ: أن هَؤلاءِ الأتباعَ يَتمنَّوْن أن يَأخُذ المَتبوعين نَصيبًا، ولو قليلًا من عَذاب النار عنهم، والدليلُ أنه يُريدون ولو قليلًا قولهم: ﴿نَصِيبًا﴾.

الْفَائِدَةُ الخَامِسَةُ: أن المُستكبِرين يَعتَذِرون بأنه لا طاقةَ لهم في ذلك؛ لأن الجَميع في نار جَهنَّمَ فكيف يَأخُذون نصيبًا عنهم، نعَمْ لو كانوا ليسوا في نار جَهنَّمَ ثُم يَسقُطون في النار من أَجْل أن يُغنُوا عن هَؤلاءِ نَصيبًا لأَمكَن، لكن ما دام الجَميعُ في النار فإن طلَبَ تَحقيق ذلك طلَبُ شيء مُستَحيل.

الْفَائِدَةُ السَّادِسَةُ: بَيان خُنوع هؤلاءِ المُستكْبِرين يوم القِيامة؛ لقولهم: ﴿إِنَّا كُلٌّ فِيهَآ﴾ يَعنِي: الآنَ ليس لنا فَضْل عليكم وليس لكم فَضْل علينا كلٌّ في نار جَهنَّم.

الْفَائِدَةُ السَّابِعَةُ: إقرار هَؤلاءِ المُعذَّبين في النار بأن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى قد حكَم بين العِباد حُكْمًا عدلًا؛ لقولهم: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ قَدْ حَكَمَ بَيْنَ ٱلْعِبَادِ﴾.

الْفَائِدَةُ الثَّامِنَةُ: أنه إذا نفَذ حُكْم الله فإنه لا يُمكِن رَفعُه ولا دَفْعه؛ لقولهم: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ قَدْ حَكَمَ﴾ وفي هذا يقول الله عَزَّوَجَلَّ في سورة (ق): ﴿قَالَ لَا تَخْتَصِمُوا لَدَيَّ وَقَدْ قَدَّمْتُ إِلَيْكُم بِٱلْوَعِيدِ ﴿٢٨﴾ مَا يُبَدَّلُ ٱلْقَوْلُ لَدَيَّ وَمَآ أَنَا۠ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ﴾ [ق:٢٨-٢٩]، إذا انتهى حُكْم الله فلا مُعطِّل لحُكْمه.

الْفَائِدَةُ التَّاسِعَةُ: إقرارُ هَؤلاءِ المُعذَّبين في نار جَهنَّمَ أنهم من عِباد الله، لكن المُراد بالعِبادة العِبادة العامَّة، وهي العِبادة الكَوْنية؛ لأن العِبادة نَوْعان: عامَّة وهي العُبودية الكَوْنية، وخاصَّة وهي العُبودية الشَّرْعية.

فمَن خضَع لله شرعًا فهو عابِد شرعًا وكذلك كونًا، ومَن تكبَّر عن عِبادة الله شرعًا فهو عابِد كونًا وليس عابِدًا شرعًا.

قال المفسِّر رَحِمَهُ اللَّهُ: [فأَدخَل المُؤمِنين الجَنَّة، وأَدخَل الكافِرين النار] المَعنى أعَمُّ مِمَّا قاله رَحِمَهُ اللَّهُ، حكَم بين العِباد بين أَهْل الجَنَّة والنار، وبين أَهْل النار بعضِهم البعض، وحكَم حُكْمًا عامًّا.

مسألة: ما هو الدَّليلُ على الشَّهادة لشَخْص بالجَنَّة؟

فالجَوابُ: الدَّليل إذا شَهِد رسول الله له بالجَنَّة شهِدنا له.

ومَن شَهِد له الرسول ﷺ مثل حاطِب بن أبي بَلْتعة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، فهذا نَقول: هو مَغفور له، ولكن لا شَكَّ أنَّه إذا كان حاطِبٌ مَغفورًا له أنَّ أبا بَكْر وعُمرَ وعُثْمانَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ أَوْلى من ذلك.

فإن قال قائِل: ما رأيُكم فيما ذهَب إليه شيخُ الإسلام؟

فالجوابُ: هذا رَأي قُويٌّ لا شَكَّ، يَعني: ما ذهَب إليه شيخ الإسلام مُؤيَّد بالحَديث «أَنْتُمْ شُهَدَاءُ اللهِ فِي الْأَرْضِ»[1] وإذا كانَتِ الأُمَّة -أو غالب الأُمَّة- أَجمَعوا على ذلك، فهو كافٍ، لولا أنه يُخشَى من مسألة، وهو أنه يَأتينا أهل الفِرَق الضالَّة ويَقولون: نحنُ مُجمِعون على الشَّهادة لفُلان بكذا وكذا. وهو رَأس بِدْعة، وهم يَدَّعون أنهم أَهْل حَقٍّ، لكن يُمكِن الانفِكاك عن هذا الإيرادِ، بأن نَقول: هَؤلاءِ لا تُقبَل شهادَتُهم؛ لأنَّهم على باطِل وعلى ضَلال، والمُراد شَهادة أهل الحَقِّ.

فـ«كلُّ الصَّحابة في الجَنَّة» على سَبيل العُموم، قال تعالى: ﴿لَا يَسْتَوِى مِنكُم مَّنْ أَنفَقَ مِن قَبْلِ ٱلْفَتْحِ وَقَـٰتَلَ ۚ أُولَـٰٓئِكَ أَعْظَمُ دَرَجَةً مِّنَ ٱلَّذِينَ أَنفَقُوا۟ مِنۢ بَعْدُ وَقَـٰتَلُوا۟ ۚ وَكُلًّا وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْحُسْنَىٰ﴾ [الحديد:١٠].

مسألة: إذا قال قائل: إذا قُتِل المُسلِم في المَعركة قُلْنا: إنَّنا نَحسَبه شَهيدًا ولا نُزكِّي على الله أحدًا؟

فالجَوابُ: لا تَقُل: أَحسَبه شَهيدًا. قُلْ: مَن قُتِل في سبيل الله فهو شَهيد، كما قال عُمرُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، عُمرُ خطَب الناس قال: إنَّكم تَقولون: فُلان شَهيدٌ، وفُلان شَهيدٌ. ورُبَّما يكون فعَل كذا وكذا، ولكن قولوا: مَن قُتِل -أو مات- في سَبيل الله فهو شَهيد[2].

• • ❁ • •

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب الجنائز، باب ثناء الناس على الميت، رقم (١٣٦٧)، ومسلم: كتاب الجنائز، باب فيمن يثنى عليه خيرًا أو شرًّا من الموتى، رقم (٩٤٩)، من حديث أنس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٢) أخرجه سعيد بن منصور في سننه، كتاب النكاح، باب ما جاء في الصداق، رقم (٥٩٥، ٥٩٦). وأخرجه الإمام أحمد (١/ ٤٠-٤١)، والنسائي: كتاب النكاح، باب القسط في الأصدقة، رقم (٣٣٤٩)، ولفظه عندهما: «فهو في الجنة».

الآيتان (٤٩، ٥٠)

• • ● • •

۞ قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ فِى ٱلنَّارِ لِخَزَنَةِ جَهَنَّمَ ٱدْعُوا۟ رَبَّكُمْ يُخَفِّفْ عَنَّا يَوْمًا مِّنَ ٱلْعَذَابِ ﴿٤٩﴾ قَالُوٓا۟ أَوَلَمْ تَكُ تَأْتِيكُمْ رُسُلُكُم بِٱلْبَيِّنَـٰتِ ۖ قَالُوا۟ بَلَىٰ ۚ قَالُوا۟ فَٱدْعُوا۟ ۗ وَمَا دُعَـٰٓؤُا۟ ٱلْكَـٰفِرِينَ إِلَّا فِى ضَلَـٰلٍ﴾ [غافر:٤٩-٥٠].

• • ● • •

قال المفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [أي: قَدْر يَوْم ﴿مِّنَ ٱلْعَذَابِ﴾]، استَمِعْ إلى هذا النِّداءِ الدالِّ على البُؤْس واليَأْس: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ فِى ٱلنَّارِ لِخَزَنَةِ جَهَنَّمَ﴾ جَمْع خازِن، وهمُ الذين قاموا على خِزانتها وحِمايتها وحِفْظها؛ لأن النار لها خزَنة، وكذلِك الجَنَّة لها خزَنة، وكل أَمْر مُحكَم، ويُؤتَى بجَهنَّم يوم القِيامة تُقاد بسَبعينَ ألفَ زِمامٍ، كل زِمامٍ يَقودُه سَبعون ألفَ ملَكٍ، وما أَدراكَ ما الملائِكة وما قُوَّتهم، فهذه النارُ مُحكَمة لها خزَنة، ولها قُوَّاد يَقودونها يوم القِيامة.

وقوله: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ فِى ٱلنَّارِ لِخَزَنَةِ جَهَنَّمَ﴾ وجَهنَّمُ اسمٌ من أسماء النار، قيل: إنها عرَبية. وقيل: إنها عجَمية. فعلى القَوْل بأنها عربية تَكون مَأخوذة من الجهمة وهي الظُّلْمة؛ لأن النار سَوداءُ مُظلِمة -أَعاذَنا الله وإيَّاكم منها- وعلى القول بأنها أَعجَميَّة يُقال بأن أَصلَها: كَهَنَّام، ولكِنَّها عُرِّبت حتى صارَت: جَهنَّم، وهي من أسماء النار.

يَقول: ﴿ٱدْعُوا۟ رَبَّكُمْ يُخَفِّفْ عَنَّا يَوْمًا مِّنَ ٱلْعَذَابِ﴾ ويَقولون هذا -والله أعلَمُ-

حين يَقولون لربِّهم عَزَّوَجَلَّ: ﴿رَبَّنَآ أَخْرِجْنَا مِنْهَا فَإِنْ عُدْنَا فَإِنَّا ظَٰلِمُونَ ﴿١٠٧﴾ قَالَ اخْسَـُٔوا۟ فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونِ﴾ [المؤمنون:١٠٧-١٠٨] حينَئِذٍ يَتوسَّلون بغَيْرهم أن يُكلِّموا الله، يَقولون: ﴿ادْعُوا۟ رَبَّكُمْ﴾ ولم يَقولوا: ادْعُوا ربَّنا؛ لأنهم قد كُسِروا من جِهة ربِّهم، قال لهم: ﴿اخْسَـُٔوا۟ فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونِ﴾ لكِن تَوسَّلوا بعد ذلك بدُعاء بطلَب من المَلائكة أن يَدْعوا الله لهم ﴿ادْعُوا۟ رَبَّكُمْ يُخَفِّفْ عَنَّا يَوْمًا مِّنَ الْعَذَابِ﴾.

قوله: ﴿يُخَفِّفْ﴾ بالجَزْم جَوابًا للأَمْر وهو قوله: ﴿ادْعُوا۟﴾ وأَقول: للأَمْر باعتِبار صِيغته، وإلَّا فهو في الحَقيقة دُعاءٌ وسُؤال ﴿ادْعُوا۟ رَبَّكُمْ يُخَفِّفْ عَنَّا يَوْمًا مِّنَ الْعَذَابِ﴾ طلَبوا تخفيفًا لا رَفْعًا، وطلَبوا يومًا لا دوامًا؛ لأنهم آيِسون، لكن قال: لعَلَّ المَسأَلة تَنفَع ولو بتَخفيف يوم من العَذاب، نَسأَل الله العافِيَةَ.

ومُقتَضى هذا أنَّهم في أشَدِّ ما يَكون من العَذاب، وأنهم طلَبوا أن يَستَريحوا ولو يومًا.

قوله: ﴿يُخَفِّفْ عَنَّا يَوْمًا﴾ قال: المفسِّر رَحِمَهُ اللَّهُ: [أي: قَدْر يَوْم] وإنَّما قال [قَدْر يَوْم من العَذاب]؛ لأنه في يوم القِيامة ليس هناك يوم ولا ليل، الشمس والقمَر مُكوَّران في نار جَهنَّمَ وكل شيء من أُمور الدنيا مُنتَهٍ ليس هناك إلَّا أَمْر الآخرة، سُبحانَ الله!.

﴿قَالُوٓا۟﴾ قال المفسِّر رَحِمَهُ اللَّهُ: [أيِ: الخَزَنة تهكُّمًا] هكذا قال المفسِّر [تهكُّمًا] ويُحتَمَل أنهم قالوا ذلك تَقريعًا وتَوْبيخًا وتَنديمًا، ليس تَهكُّمًا؛ لأن الأمر واقِع فهم يُقرِّرونهم بشيء حاصِل تَنديمًا لهم؛ ليَزدادوا حُزنًا.

فإن قال قائِلٌ: ما الفَرْق بين التَّوْبيخ والتَّقْريع؟

فالجَوابُ: لا أَعرِفُ بينهما فَـرْقًا، اللَّهُمَّ إلَّا أن يَكون فَـرْقًا قليلًا، أو يُقال: التَّوْبيخ على أَمْر مَضَى، والتَّقريع هو التَّنديم هو على أَمْر حاضِرٍ.

﴿أَوَلَمْ تَكُ تَأْتِيكُمْ رُسُلُكُم بِالْبَيِّنَاتِ﴾ [غافر:٥٠] قال المفَسِّر رَحِمَهُ اللَّهُ: [بالمُعجِزات الظاهِرات] لَيْتَه قال: «بالآيات الظاهِرات»؛ لأن الرسُل جاؤُوا بالآيات لا بالمُعجِزات، لكِنَّ الآياتِ أَمْر خارِق للعادة، فهي مُعجِزة، وقد بيَّنَّا في كرامات الأَوْلياء في التَّوْحيد أن الأَوْلى أن يُسمَّى ما جاءَت به الرُّسُل من الدَّلالة على وَصْف رِسالتهم آيات.

قوله: ﴿بِالْبَيِّنَاتِ قَالُوا بَلَى﴾ قال المفَسِّر رَحِمَهُ اللَّهُ: [أي: فكَفَروا بهم] ﴿قَالُوا فَادْعُوا﴾ هذا التَّهكُّمُ.

قوله: ﴿أَوَلَمْ تَكُ تَأْتِيكُمْ رُسُلُكُم بِالْبَيِّنَاتِ﴾ مثل هذا التَّعبيرِ يَقَع كثيرًا في القُرآن؛ أي أن الهَمْزة تَأْتِي ثُم يَأْتِي بعدها حرف عطف، مثل ﴿أَوَلَمْ يَسِيرُوا﴾، ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا﴾ ﴿أَثُمَّ إِذَا مَا وَقَعَ آمَنتُم بِهِ﴾ وما أَشبَهَ ذلك، فكَيْف نَقول: في إعرابها؟

نَقول: في إعرابها وَجْهان للنَّحوِيِّين:

الوَجهُ الأوَّل: أن الجُملة مَعطوفة على ما سبَق، وأن الواو مُقدَّمة على محَلِّها، وأن التَّقدير في ﴿أَوَلَمْ تَكُ﴾: وأَلَمْ تَكُ، وهذا الوَجهُ ليس فيه إلَّا دعوى التَّقديم والتَّأخير، لكنه سَهْل يَعنِي: يَسهُل أن تَقول: هذا مَعطوف على ما سبَق.

وقال بعضُهم: إن الهَمْزة داخِلة على جُملة محَذوفة، فالجُملة مُستَأنَفة هذه الجُملةُ يَكون تَقديرها بحَسب السِّياق، ففي قوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَسِيرُوا﴾ [الروم:٩]، التَّقدير: أَغفَلوا ولم يَسيروا، وهذا من حيثُ القَواعِد أَقعَدُ، ولكن تواجهك أحيانًا

آيات لا تَستَطيع أن تَعرِف ما هو المُقدَّر، فصار هذا أَقعَدَ، وذاك أَسهَلَ.

وقوله: ﴿أَوَلَمْ تَكُ تَأْتِيكُمْ﴾ الاستِفْهام هنا للتَّقرير، ويُقال: كلَّما دخَل الاستِفْهام على نَفيٍ فهو للتَّقرير، كقوله تعالى: ﴿أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ﴾ [الشَّرح:١]، ﴿أَلَمْ يَكُ نُطْفَةً مِّن مَّنِيٍّ يُمْنَىٰ﴾ [القيامة:٣٧]، ﴿أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِعَزِيزٍ ذِى ٱنتِقَامٍ﴾ [الزُّمَر:٣٧] وما أَشبَه ذلك، يَقولون: كلَّما دخَل الاستِفْهام على النَّفي فهو للتَّقرير، إِذَنْ نحن نَقول: للتَّقرير، لكن هل يَخرُج عن مَعنى التَّقرير، أو يَضُمُّ إلى مَعنَى التَّقرير مَعنًى آخَرَ بحَسب السِّياق؟

الجوابُ: نعَمْ، ففي قوله: ﴿أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ﴾ هو للتَّقرير؛ إظهارًا لِمِنَّة الله عليه، وقوله: ﴿أَوَلَمْ تَكُ تَأْتِيكُمْ رُسُلُكُم﴾ [غافر:٥٠] للتَّقرير تَوْبيخًا وتَنْديمًا.

قوله: ﴿قَالُواْ بَلَىٰ﴾ جَوابُ الاستِفْهام المَقرون بالنَّفيِ، الإثبات بـ(بلى) وجَوابُ الاستِفْهام غير المَقرون بالنَّفيِ الإثبات بنعَمْ، وجوابُ الاستِفْهام المَقرون بالنَّفي في حال النَّفيِ نعَمْ، وجَواب الاستِفْهام المَقرون بالإثبات في حال النَّفيِ لا، اعرِفوا الفَرْق يُقال: إن ابن عبَّاس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وعن أبيه قال في قول الله تَبَارَكَ وَتَعَالَى: ﴿أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُواْ بَلَىٰ﴾ [الأعراف:١٧٢] قال: لو قالوا: نعَمْ. لكَفَروا.

قال الفُقَهاء: لو قيل للرجُل: أَلَسْت قد طلَّقْتَ امرَأَتك؟ قال: نعَمْ. لم تُطلَّق، وإن قال: بلَى. طُلِّقت.

فقول ابن عباس: لو قالوا: نعَمْ. لكَفَروا، وهذا مُسلَّمٌ فيما إذا كان الإنسان يَعرِف اللُّغة العرَبية جيدًا، وأمَّا العامِّيُّ فعِنده (نعَمْ) و(بلَى) سَواءُ؛ ولهذا لو قيل للعامِّي: أَلَسْت طلَّقْت امرأَتك؟ قال: نعَمْ. فعلى القول الصَّحيح تُطلَّق، فالعِبْرة

بالمَعاني على أنه جاءَ في اللُّغة العرَبية جواب هذا بـ(نعَمْ)، ومنه قول العاشِق:

أَلَــيْسَ اللَّيْــلُ يَجْمَــعُ أَمَّ عَمْــرٍو وَإِيَّانَــا فَــذَاكَ لَنَــا تَــدَانِي

نَعَــمْ وَتَــرَى الهِــلَالَ كَــمَا أَرَاهُ وَيَعْلُوهَــا النَّهَــارُ كَــمَا عَــلَانِي[1]

فقال: نعَمْ، لكن هذا الرجُل قَنوع، اكتَفى أن يَجمَعه الليل مع مَعشوقته ولو كانت في المَشرِق وهو بالمَغرِب، وكذلك النهار، وتَرَى الهِلال كما يَراه، هي في المَشرِق تَرَى الهِلال، وهو في المَغرِب يَرَى الهِلال.

فجوابُ الاستِفْهام المَقرون بالنَّفيِ إثباتًا (بَلَى) ونَفيًا (نعَمْ)، والاستِفْهام مَقرون بالإِثْبات إثباتًا (نَعَمْ) ونَفيًا (لا)، بارَكَ الله فيكُم.

فإن قال قائِل: هل يُوجَد حديث يَدُلُّ على ما جاء به البَيْت هذا من الشِّعْر على أن (نعَمْ) تَكون في مَكان (بلى)؟

فالجوابُ: هل يُطلَب الحديث دَليلًا على إثبات مَسأَلة لُغوِيَّة؟ فإن قيل: نعَمْ؛ لأن خَيْر مَن تَكلَّم بالفُصحى الرسول ﷺ.

قيل: إذا جاء عن العرَب فلا يَحتاج دَليلًا؛ لأن قول العرَب هو الدَّليل، أَلَمْ تَعلَم أن بعض النَّحويِّين يَقول: لا نَستَدِلُّ بالحَديث على اللُّغة العرَبية.

إِذَنْ: قال بعض النَّحويِّين: إنه لا يَستَدِلُّ بالحديث النَّبويِّ على اللُّغة العرَبية؛ لأن الرُّواة يُجوِّزون رِواية الحديث بالمَعنَى، ومن المَعلوم أن من بين الرُّواة مَن تَغيَّرت لُغَته، الإمامُ أحمدُ قديم ومن أَئِمَّة الحَديث وسمِعْتُموه -وفي قواعِد اللُّغَة العرَبية-

(١) البيتان من شعر جحدر العُكْلي، انظر: الأمالي للقالي (١/ ٢٨٢)، وخزانة الأدب (١١/ ٢٠٩).

يَقول في أي شيء: نعَمْ. وهكذا الرُّواة ربَّما نقَلوا بالمعنَى على لُغَتهم التي يَتكلَّمون بها، فحصَل خطَأ، أمَّا القُرآن فنعَمْ؛ لأنه مُتواتِر مَنقول بالتَّواتُر، لكن كثيرًا من عُلَماء النَّحْو يقولون: إنه يُحتَجُّ بالأحاديث على اللُّغة العرَبية؛ لأن الأصل عدَمُ التَّغيير.

وقوله: ﴿قَالُواْ بَلَىٰ﴾ بلى يَعنِي: قد أَتَتْنا، ولكِنَّهم -والعِياذُ بالله- كفَروا ﴿قَالُواْ فَٱدۡعُواْ﴾ هذا الأَمْرُ للتَّهَكُّم؛ لأن المَلائِكة تَعلَم أنه لا يُقبَل منهم، فقوله: ادْعُوا تَهكُّم بهم، والتَّهكُّم هو الذي يُسمَّى عِندنا في العامِّيَّة «الهكّ»، «هكَكْت عليه» يَعنِي: لعِبَت بعَقْله.

فهنا ﴿قَالُواْ فَٱدۡعُواْ﴾ تَهكُّمًا بهم؛ لأن المَلائِكة تَعلَم أنهم لن يُجابوا ﴿قَالُواْ فَٱدۡعُواْ﴾ أنتُمْ فإنَّا لا نَشفَع للكافِرين؛ لأن الشَّفاعة للكافِرين مَضيَعة وَقْت، إذ إن الكافِر لا تَنفَع فيه الشَّفاعة، إلَّا كافِرًا واحِدًا نفَعَت فيه الشفاعة بالتَّخفيف عنه، وهو أبو طالِبٍ نفَعت شَفاعة الرسول عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ فيه فقط، لو جاء أبو بَكْر أو عُمرُ يَشفَع في أبي طالب رُدَّ، لكِن النَّبيَّ ﷺ قُبِلت شَفاعته في عمِّه أبي طالِب فخُفِّف عنه العَذاب[1]؛ لأن أبا طالِب حصَل منه خيرٌ كثير للرسول ﷺ، وحصَل منه ما يُسمَّى بالدِّعاية العَظيمة له حتى قال:

وَلَقَـدْ عَلِمْـتُ بِـأَنَّ دِيـنَ مُحَمَّـدٍ ... مِـنْ خَـيْرِ أَدْيَـانِ البَرِيَّـةِ دِينَـا[2]

هذا قاله في الدِّين. وقال في الرَّسولِ ﷺ:

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب الرقاق، باب صفة الجنة والنار، رقم (٦٥٦٤)، ومسلم: كتاب الإيمان، باب شفاعة النبي ﷺ لأبي طالب، رقم (٢١٠)، من حديث أبي سعيد الخدري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٢) انظر: تهذيب اللغة (١٠/ ١١١)، وخزانة الأدب (٢/ ٧٦)، وديوان أبي طالب (ص:٨٧، ١٨٩).

لَقَدْ عَلِمُوا أَنَّ ابْنَنَا لَا مُكَذَّبٌ لَدَيْنَا وَلَا يُعْنَى بِقَوْلِ الْأَبَاطِلِ[(١)]

ودافَعَ عنه، وحُوصِر معه في الشِّعْب؛ فلِذلِك قبِل الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ شَفاعة الرسول ﷺ فيه أن يُخفَّف عنه.

أمَّا شَفاعة الرسول ﷺ في أُمِّه فمَنَعه الله في أُمِّه[(٢)]، وهي أَقرَبُ من عمِّه، لَّما استَأْذَنَ الله أن يَستَغفِر لها قال: لا. ولَّما استَأْذَنه أن يَزور قَبْرها أَذِنَ له فزار النَّبيُّ ﷺ قَبْر أُمِّه، ووقَفَ عليه وجعَل يَبكِي، لكن لا يَدعو لها، وأَبكَى مَن معَه.

فالكُفَّار لا تَنفَع فيهم الشَّفاعة؛ لأن الشَّفاعة مَضيَعة بلا فائِدةٍ، ثُم هي لم يُؤذَن فيها من قِبَل الله، ولا يُمكِن أبدًا شَفاعة بدون إِذْن الله.

قال تعالى: ﴿وَمَا دُعَآءُ ٱلْكَٰفِرِينَ إِلَّا فِى ضَلَٰلٍ﴾ [الرعد:١٤] ﴿وَمَا دُعَآءُ﴾ (ما) نافِية، و﴿دُعَآءُ﴾ اسمُها، و(ما) هنا ليسَتْ حِجازيةً؛ لاتِّفاق اللُّغَتَين لُغة التَّميميِّين ولُغة الحِجازِيِّين فيها، وأنها لا تَعمَل في هذا الحالِ.

قوله: ﴿وَمَا دُعَآءُ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾؛ أي: وما طلَبُ الكافِرين ﴿إِلَّا فِى ضَلَٰلٍ﴾؛ أي: في ضَياع، وقول المفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [انعِدام] فيه نظَر، فالضَّلال الضَّياع وعدَم الاهتِداء، فـ﴿مَا دُعَآءُ ٱلْكَٰفِرِينَ إِلَّا فِى ضَلَٰلٍ﴾، فلا تُقبَل دعوة الكافِر أبدًا إلَّا في حالَيْن:

الحال الأُولى: إذا كان مُضطَرًّا؛ لقوله تعالى: ﴿أَمَّن يُجِيبُ ٱلْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ ٱلسُّوٓءَ﴾ [النمل:٦٢]، ولقوله تعالى: ﴿وَإِذَا غَشِيَهُم مَّوْجٌ كَٱلظُّلَلِ دَعَوُا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ فَلَمَّا نَجَّىٰهُمْ إِلَى ٱلْبَرِّ﴾ [لقمان:٣٢]، وإنَّما أُجيبَت دَعْوة المُضطَرِّ لِصِدْق

(١) انظر: سيرة ابن هشام (١/ ٢٨٠)، وديوان أبي طالب (ص:٨٤).

(٢) أخرجه مسلم: كتاب الجنائز، باب استئذان النبي ﷺ ربه عَزَّوَجَلَّ في زيارة قبر أمه، رقم (٩٧٦)، من حديث أبي هريرة رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ.

لُجوئه إلى الله؛ لأن المُضْطَرَّ صادِق اللُّجوء إلى الله.

الحال الثانية: إذا كان مَظلومًا فإنها تُقبَل دَعْوته على ظالِمه؛ لقول الرسول ﷺ: «اتَّقِ دَعْوَةَ المَظْلُومِ فَإِنَّهَا لَيْسَ بَيْنَهَا وَبَيْنَ اللهِ حِجَابٌ»[1]، وهذا وإن كان يُخاطِبه في قوم أَسلَموا لكنها عامَّة، وإنها أُجِيبت دَعوة الكافِر إذا كان مَظلومًا؛ إقامة للعَدْل؛ لأن الله لم يُجِبِ الكافِـر محبَّة له، ولكِن إقامة للعَدْل؛ لأنه الآنَ هُناكَ خَصْمان مَظلوم وظالِمٌ، فلإقامة العَدْل يَستَجيب الله تعالى لدَعْوة الكافِر.

من فوائِدِ الآيتينِ الكريمتين:

الْفَائِدَةُ الأُولَى: بَيان شِدَّة حَسْـرة أهل النار؛ لقـوله: ﴿يُخَفِّفْ عَنَّا يَوْمًا مِّنَ ٱلْعَذَابِ﴾.

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَةُ: أن أهل النار يَتحاجُّون ويُحاجُّون أيضًا، يَتحاجُّون فيما سبَقَ فيما بينهم، وكذلك يُحاجُّـون غيرهم، أو يَسأَلون غيرهم؛ لقـوله: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ فِى ٱلنَّارِ﴾.

الْفَائِدَةُ الثَّالِثَةُ: بَيانُ إحكام الله عَزَّوَجَلَّ لَمخْلوقاته كما أَحكَم مَشروعاتِه، حيث جعَل للنار خزَنة يَحفَظونها ويَقومون عليها.

الْفَائِدَةُ الرَّابِعَةُ: شِدَّة خجَل أهل النار من مُخاطَبة الله عَزَّوَجَلَّ؛ لأنَّهم تَوسَّلوا بقول الخزَنة أن يَدْعوا ربَّهم ولم يَقولوا: ادْعُوا ربَّنا. هذا يَدُلُّ على أن هذا بعدَ أن قال الله لهم: ﴿قَالَ ٱخْسَـُٔواْ فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونِ﴾.

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب الزكاة، باب أخذ الصدقة من الأغنياء، رقم (١٤٩٦)، ومسلم: كتاب الإيمان، باب الدعاء إلى الشهادتين وشرائع الإسلام، رقم (١٩)، من حديث ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.

الْفَائِدَةُ الخَامِسَةُ: أن أهل النار في أشَدِّ ما يَكون من العَذاب، يُؤخَذ من قوله: ﴿يُخَفِّفْ عَنَّا يَوْمًا مِّنَ ٱلْعَذَابِ﴾ فهو يَدُلُّ على أن عليهم شِدَّةً، وأنهم يَتمنَّون يومًا واحِدًا فقَطْ.

الْفَائِدَةُ السَّادِسَةُ: أن أهل النار يُعذَّبون عَذابًا بدَنيًّا وعَذابًا قلبيًّا، يُؤخَذ من التَّقريع والتَّوْبيخ لهم: ﴿أَوَلَمْ تَكُ تَأْتِيكُمْ رُسُلُكُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ﴾، فهذا يَكون أشَدَّ عليهم من عَذاب البدَن؛ ولهذا يَقولون كما في سورة تَبارَك: ﴿وَقَالُواْ لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِىٓ أَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ﴾ [المُلك:١٠]، قال تعالى: ﴿فَٱعْتَرَفُواْ بِذَنۢبِهِمْ﴾ [المُلك:١١].

الْفَائِدَةُ السَّابِعَةُ: أن لكُل أُمَّة من أَهْل النار رسولًا؛ لقوله: ﴿قَالُوٓاْ أَوَلَمْ تَكُ تَأْتِيكُمْ رُسُلُكُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ ۖ قَالُواْ بَلَىٰ ۚ قَالُواْ فَٱدْعُواْ﴾، فكل أُمَّة لها رَسولٌ.

الْفَائِدَةُ الثَّامِنَةُ: أن الله تعالى لم يُرسِل رسولًا إلَّا بآيات تَدُلُّ على أنه رسول الله حقًّا؛ لقوله: ﴿بِٱلْبَيِّنَٰتِ﴾.

الْفَائِدَةُ التَّاسِعَةُ: أن الاهتِمام بالوَصْف أَشَدُّ من الاهتِمام من بالأَصْل؛ لأن الوَصْف هو الذي يُبيِّن الأشياء، يُؤخَذ من قوله: ﴿بِٱلْبَيِّنَٰتِ﴾ حيث أَتَى بالوَصْف وطوَى ذِكْر المَوْصوف؛ لأن المُهِمَّ هو الوَصْف.

الْفَائِدَةُ الْعَاشِرَةُ: تهكُّم الرُّسُل بهؤلاء -أي: بأَهْل النار- يُؤخَذ من قوله: ﴿قَالُواْ فَٱدْعُواْ﴾ هذا من باب التَّهكُّم منهم؛ لأن المَلائِكة يَعرِفون أنهم لن يُجابوا.

الْفَائِدَةُ الحَادِيَةَ عَشْرَةَ: أنه لا قَبول لدُعاء الكافِرين؛ لقوله: ﴿وَمَا دُعَٰٓؤُاْ ٱلْكَٰفِرِينَ إِلَّا فِى ضَلَٰلٍ﴾ وذلك يَشمَل دُعاء المَسأَلة ودُعاء العِبادة، والذي يُستَثنَى من دُعاء المَسأَلة في إجابة الكافِر المُضطَرِّ والمظلوم، والدَّليل على استِثْناء المُضطَرِّ أنه

يُجاب ولو كان كافِرًا قوله تعالى: ﴿ فَإِذَا رَكِبُوا فِي الْفُلْكِ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ فَلَمَّا نَجَّاهُمْ إِلَى الْبَرِّ إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ ﴾ والحِكْمة من إجابة الكافِر في حال الضَّرورة أنه في هذه الحال يَكون مُخْلِصًا لله في الدُّعاء مُظهِرًا للافتِقار إليه فيُجيبه الله.

أمَّا الدليل على أنه يُجيب دَعْوة الكافِر المَظلوم أن مُعاذَ بنَ جبَل رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ لَمَّا بعَثَه النبيُّ ﷺ لأَهْل اليمَن... الحديثَ، قال له: «وَاتَّقِ دَعْوَةَ المَظْلُومِ فَإِنَّهَا لَيْسَ بَيْنَهَا وَبَيْنَ اللهِ حِجَابٌ»[1]. وَالحِكْمَةُ مِن إجابة دَعْوة المَظلوم الكافِر طالب: لإقامة العَدْل.

• ● ۞ ● •

(١) أخرجه البخاري: كتاب الزكاة، باب أخذ الصدقة من الأغنياء، رقم (١٤٩٦)، ومسلم: كتاب الإيمان، باب الدعاء إلى الشهادتين وشرائع الإسلام، رقم (١٩)، من حديث ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.

الآية (٥١)

• قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ ٱلْأَشْهَٰدُ﴾ [غافر:٥١].

ثُم قال الله تَبَارَكَوَتَعَالَى: ﴿إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا﴾ إلى آخِره الجُمْلة هذه مُؤكَّدة بمُؤكِّدين أحدُهما (إنَّ) والثاني اللَّام، وقوله: ﴿إِنَّا لَنَنصُرُ﴾ أَتَى بصيغة التَّعظيم؛ لأن المَقام يَقتَضيه إِذْ إن النَّصْر لا بُدَّ أن يَكون من قويٍّ، ولم يَقُل جَلَّوَعَلَا: أنا أَنصُر. قال: ﴿إِنَّا لَنَنصُرُ﴾؛ لأن المَقام يَقتَضي العظَمة والقُدْرة والقُوَّة ﴿إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ [غافر:٥١] رُسُلنا جمع رَسول، وهم كل الرُّسُل؛ لأن (رُسُل) جَمْع مُضاف، وجمع المُضاف يَكون للعُموم.

وقوله: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ مَعطوف على ﴿رُسُلَنَا﴾؛ أي: ونَنصُر الذين آمَنوا بما يَجِب الإيمان به، والإيمان هو الإقرار المُستَلزِم للقَبول والإِذْعان.

فمَن أَنكَر فليس بمُؤمِن، ومَن أَقرَّ ولم يَقبَل فليس بمُؤمِن، ومَن أَقرَّ ولم يُذعِن فليس بمُؤمِن، فأبو طالِب مثَلًا مُقِرٌّ بِرِسالة الرسول عَلَيْهِالصَّلَاةُوَالسَّلَامُ، ولكنه لم يَقبَل ولم يُذعِن فلا يَكون مُؤمِنًا، فالذين آمَنوا همُ الذين أَقرُّوا بقُلوبهم وأَذعَنوا واستَسْلَموا بجَوارِحهم وقبِلوا ما أَخبَرَت به الرُّسُل، هؤلاءِ هُمُ المُؤمِنون.

وقوله: ﴿فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ مُتعَلِّق بـ(نَنصُر) أي: نَنصُرهم في الحياة الدنيا.

﴿وَيَوْمَ يَقُومُ ٱلْأَشْهَٰدُ﴾ ﴿وَيَوْمَ﴾ هذه مَعطوفة على ما سبَقَ وهي مُتعلِّقة بـ(نَنصُر) أي: ونَنصُرهم يوم يَقوم الأَشْهاد وذلك يوم القِيامة.

قال المفسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿ٱلْأَشْهَٰدُ﴾ جمع شاهِد، وهُمُ المَلائِكة يَشهَدون للرُّسُل بالبَلاغ وعلى الكُفَّار بالتَّكذيب]، هكذا قال المفسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ خصَّها بالمَلائِكة، والصحيح أنها أَعَمُّ من المَلائِكة، فالمَلائِكة يَشهَدون وهذه الأُمَّةُ تَشهَد على مَن سَبَق، كما قال تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ﴾ [البقرة:١٤٣]، والجُلود تَشهَد، والجَوارِح تَشهَد، فكلُّ ما ثَبَتت شَهادته فإنه داخِل في قوله: ﴿وَيَوْمَ يَقُومُ ٱلْأَشْهَٰدُ﴾ وذلِك يوم القِيامة.

من فوائدِ الآيةِ الكريمةِ:

الْفَائِدَةُ الأُولَى: تَأكيد نَصْر الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ للرُّسُل والذين آمَنوا؛ لقوله: ﴿إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا﴾.

وفي هَذه الآيةِ شُبْهة استَدَلَّ بها النَّصْرانيُّ يَقول: إن الله ثالِث ثَلاثة. ولي علَيْكم دَليل وهو قوله: ﴿إِنَّا﴾ وقوله: ﴿نَحْنُ﴾ وقوله: ﴿نُرِيهِمْ﴾، وما أَشبَهها، مِمَّا يَدُلُّ على الجَمْع، فإِذَن أنا أَقولُ: يَقولُ النَّصرانيُّ: إن الله ثالِث ثَلاثة ولِي حُجَّة. فنُجيبه بقولنا: إنَّك مِمَّن زاغَ قَلْبه؛ لأنك اتَّبَعْت المُتَشابِه، والله عَزَّوَجَلَّ يَقولُ: ﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَٰبَهَ مِنْهُ﴾ [آل عمران:٧] وترَكْت المُحكَم المُؤكِّد بأن الله واحِد لا شَريكَ له، مِثْل قوله تعالى: ﴿وَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ ۖ لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلرَّحْمَٰنُ ٱلرَّحِيمُ﴾ [البقرة:١٦٣]، ومِثْل قوله في تَكذيب هَؤلاءِ النَّصارَى: ﴿لَّقَدْ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ ثَالِثُ ثَلَٰثَةٍ ۘ وَمَا مِنْ إِلَٰهٍ إِلَّآ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ ۚ وَإِن لَّمْ يَنتَهُوا۟ عَمَّا يَقُولُونَ لَيَمَسَّنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [المائدة:٧٣].

فهذا النَّصرانيُّ اتَّبَع المُتَشابِه، وكذلك كل مُبطِل يَحتَجُّ بآية فإنه يكون مِمَّن اتَّبَع المُتَشابِه، والله عَزَّوَجَلَّ حَكيم جعَل في آياته الشَّـرْعية وآياته الكَوْنية أيضًا ما يَكون مُتَشابِهًا؛ ابتِلاءً وامتِحانًا للذين آمَنوا والذين في قُلوبهم زَيْغ، الآنَ انظُرْ إلى القُرآن وانظُر إلى السُّنَّة تَجِد في بعض الأحاديث، وفي بعض الآيات ما ظاهِرُه التَّعارُض، أو في بعض الأحاديث أو في بعض الآيات ما ظاهِرُه باطِل مثَلًا، هذا إن سلَّمْنا، وأن ليس في القُرآن ولا في السُّنَّة الصحيحة ما ظاهِرُه باطِل إطلاقًا، لكن هذا من باب التَّنزُّل مع الخَصْم، نَقول هذا من بابِ الابتِلاء والامتِحان.

كذلك في الآياتِ الكَوْنية نَجِد أن الله تعالى يُصيب الناس بكَوارِثَ عَظيمةٍ تَموت بها الأَنفُس، تُدمَّر بها البِلاد يُفسَد بها الحَرْث والنَّسْل؛ حتى يَبلوَ العِباد ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّىٰ نَعْلَمَ ٱلْمُجَٰهِدِينَ مِنكُمْ وَٱلصَّٰبِرِينَ﴾ [محمد:٣١]، وانتَبِهْ لهذه النُّقْطةِ، وهي امتِحان الله تعالى للعِباد بما يَأتِي من الآيات الشَّرْعية والآيات الكَوْنية، إِذَنْ ردَدْنا على النَّصرانيِّ الذي ادَّعَى تَعدُّد الآلهة مُحتَجًّا بمِثْل قوله تعالى: ﴿إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا...﴾ إلى آخِره.

وفي الآية إِشْكال، وهو أن الله تعالى ذكَر أن من الناس مَن يَقتُلون الأنبياء بغَيْر حقٍّ، فأين النَّصْر في الحياة الدنيا لَمن قُتِل؟

والجوابُ من أَحَد وَجْهين:

أ- إمَّا أن يَكون المُراد بالنَّصْر نَصْر ما جاؤُوا به من الشَّرْع، وبيان أنه حَقٌّ، وهذا ثابِت لكل رَسول، وتَأْييد ما جاء به الرَّسولُ لا شَكَّ أنه نَصْر له، وحينَئِذٍ لا يُستَثْنى من الرُّسُل أحَدٌ إذا قُلْنا: إن المُراد بالنَّصْر نَصْر ما جاؤُوا به من الحقِّ.

ب- وإمَّا أن يُراد بـ﴿رُسُلَنَا﴾ الذين أُمِـروا بالجِهاد؛ لأن النَّصْر يَقتَضِي أن يَكون هناك جِهاد يَنتَصِر فيه أحَدُ الطرَفَيْن على الآخَر، فيَكون المُراد بالرُّسُل هنا

ليس جميع الرُّسُل، بل مَن أُمِروا بالجِهاد.

وحِينَئِذٍ يَزول الإشكال، هذا باعتِبار النَّصْر في الحياة الدنيا، أمَّا باعتِبار النَّصْر يوم يَقومُ الأَشهاد، فلا يُستَثْنى أحَدٌ ولا إشكالَ فيه.

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَةُ: أن نَصْر الله العَبْدَ في الدنيا نِعْمة، يَعنِي: للإنسان أن يَفرَح بما أَعطاه الله تعالى من النَّصْر، سواء نَصْرًا فِعْليًّا أو قَوليًّا.

المُهِمُّ: أن الإنسان إذا نصَره الله عَزَّوَجَلَّ على مَن ناوَأَه يُعتَبَر هذا نِعْمة ومِنَّة من الله عَزَّوَجَلَّ؛ فليَفرَح به الإنسان لقَوْل الله تعالى: ﴿قُلْ بِفَضْلِ ٱللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِۦ فَبِذَٰلِكَ فَلْيَفْرَحُواْ﴾ [يونس:٥٨].

الْفَائِدَةُ الثَّالِثَةُ: إثبات الأَشْهاد يوم القِيامة؛ لقوله: ﴿وَيَوْمَ يَقُومُ ٱلْأَشْهَٰدُ﴾.

الْفَائِدَةُ الرَّابِعَةُ: التَّحْذير من مُخالَفة الرُّسُل من ذلك اليومِ الذي يَقوم فيه الأَشْهاد؛ لأن في ذلك اليومِ لا يَستَطيع أحَدٌ أن يَكذِب. يَعنِي: لو أن الإنسان أَنكَر وكذَّب فستَشهَد عليه جَوارِحه، قال الله تعالى: ﴿ثُمَّ لَمْ تَكُن فِتْنَتُهُمْ إِلَّآ أَن قَالُواْ وَٱللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ﴾ [الأنعام:٢٣]، يَقولون هذا؛ لأنَّهم يُشاهِدون المُخلِصين يُنصَرون يومَ القِيامة، فيَقولون: ﴿وَٱللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ﴾ رجاءَ أن ينجوا معهم، يَقول الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿ٱنظُرْ كَيْفَ كَذَبُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ﴾ [الأنعام:٢٤]، هم كذَبوا على أَنفُسهم؛ لأنهم يَقولون: ﴿وَٱللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ﴾ وهُم مُشرِكون، بل قال الله تعالى: ﴿وَلَوْ رُدُّواْ لَعَادُواْ لِمَا نُهُواْ عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ﴾ [الأنعام:٢٨].

الآنَ استَدْرَكْنا على المفسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ قَصْره: ﴿ٱلْأَشْهَٰدُ﴾ على المَلائِكة، وقُلْنا: إنها أَعَمُّ.

الآية (٥٢)

• قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿يَوْمَ لَا يَنفَعُ ٱلظَّٰلِمِينَ مَعْذِرَتُهُمْ ۖ وَلَهُمُ ٱللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوٓءُ ٱلدَّارِ﴾ [غافر:٥٢].

ثُمَّ قال تعالى: ﴿يَوْمَ لَا يَنفَعُ﴾ قال المفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [بالياء والتاء] بالياء ﴿يَنفَعُ﴾ بالتاء «تَنْفَعُ»، إِذَنْ هُما قِراءَتان سَبْعِيَّتان؛ لأن المفَسِّر إذا أَتى بصيغة القِراءة على هذا الوَجهِ فمَعناه أنهما قِراءتان سَبْعيَّتان، أمَّا إذا قال: وقُرِئَ. فهو للشاذِّ قِراءة شاذَّة، بالتاء لأن (مَعذِرة) مُؤنَّث، فالفِعْل يَكون معها مُؤنَّثًا، لكن بالياء نَقول أوَّلًا: إنه فَصْل بين الفِعْل والفاعِل، وثانيًا أن التَّأْنيث هنا ليس حَقيقيًّا. وابنُ مالِكٍ يَقول:

وَإِنَّمَا تَلْزَمُ فِعْلَ مُضْمَرِ مُتَّصِلٍ أَوْ مُفْهِمٍ ذَاتِ حِرِ[1]

قوله: ﴿يَوْمَ لَا يَنفَعُ ٱلظَّٰلِمِينَ مَعْذِرَتُهُمْ﴾ المُراد بالظالِمين هنا الكافِرون، قال الله تعالى: ﴿وَٱلْكَٰفِرُونَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾.

وقوله: ﴿مَعْذِرَتُهُمْ﴾ يَعنِي: عُذْرهم، قال المفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [عُذْرهم لوِ اعتَذَروا] يَعنِي: عُذْرهم فيما سبَقَ، أو اعتِذارُهم فيما لَحِق في ذلك اليومِ، هم يَعتَذِرون لكن لا يُقبَل، لا يُؤذَن لهم فيَعتَذِرون.

(١) الألفية (ص:٢٥).

وقوله: ﴿وَلَهُمُ ٱللَّعۡنَةُ﴾ قال المفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [أيِ: البُعْد من الرَّحْمة] ولهم سُوء الدار، لهُمُ اللَّعْنة، كيف قال: لهُمُ اللَّعْنة. هل اللَّعْنة مَطلوبة حتى تَأتِي باللَّام؟

قيل: إن اللَّام هنا بمَعنَى (على) كقوله تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ عَلَيۡهِمۡ لَعۡنَةُ ٱللَّهِ﴾ [البقرة:١٦١] عليهم فاللَّام هنا بمَعنَى (على)، والصَّواب أن اللَّام على بابها، وأنها ليسَتْ بمَعنى (على)، بل هي بمَعنَى الاستِحْقاق، يَعنِي: أنهم يُلعَنون لَعْنًا يَستَحِقُّونه، فهي أَبلَغُ من قوله: علَيْهم. من وَجْه، وتِلْك أَبلَغُ من وَجهٍ آخَرَ.

المُهِمُّ: أن اللَّام هنا بمَعنَى (على) مَعناها الأَصْل الاستِحْقاق.

وهنا نَقول لكم: إذا ورَد تَفْسيران في كِتاب الله العزيز أَحَدهما يُؤيِّده اللَّفْظ والثاني لا يُؤيِّده اللَّفْظ فنَأخُذ بالأوَّل، وإن كان كلٌّ من المَعنيَيْن مُكتمِلًا، ولكن ما يُوافِق ظاهِر اللَّفْظ هو الأَوْلى.

قوله: ﴿وَلَهُمُ ٱللَّعۡنَةُ وَلَهُمۡ سُوٓءُ ٱلدَّارِ﴾ أي: البُعْد عن الرحمة، وقوله: اللَّعْنة. لم يُبيِّن مِمَّن فتَعُمُّ ﴿أُوْلَٰٓئِكَ عَلَيۡهِمۡ لَعۡنَةُ ٱللَّهِ وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلنَّاسِ أَجۡمَعِينَ﴾ [البقرة:١٦١]، وفي آية أُخرَى: ﴿وَيَلۡعَنُهُمُ ٱللَّٰعِنُونَ﴾ [البقرة:١٥٩]، فكُلُّ شيء يَلعَنهم نَسأَل الله العافِيَةَ.

قوله: ﴿وَلَهُمۡ سُوٓءُ ٱلدَّارِ﴾ قال المفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [الآخِرة؛ أي: شِدَّة عَذابها] ﴿وَلَهُمۡ سُوٓءُ ٱلدَّارِ﴾ يُحتَمَل أن تكون من باب إضافة الصِّفة إلى المَوْصوف؛ أي: الدار السُّوء، ويُحتَمَل أن يَكون على بابها، والمَعنَى: لهم سُوء الدار؛ أي: السَّيِّئ في الدار.

وعلى كل حال: المُراد بسُوء الدار؛ يَقول المفَسِّر: شِدَّة عَذابها، ولكن لو قيل: إن سُوء الدار ما يَسوء من العَذاب الشديد وغير الشديد لكان أعَمَّ.

ثُمَّ ﴿يَوْمَ لَا يَنفَعُ ٱلظَّٰلِمِينَ مَعْذِرَتُهُمْ ۖ وَلَهُمُ ٱللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوٓءُ ٱلدَّارِ﴾ [غافر:٥٢] إلى آخره، موضع ﴿يَوْمَ لَا يَنفَعُ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ مِمَّا قَبْلُ نقول: هي بَيان يَعنِي: عَطْف بَيان من قوله: ﴿وَيَوْمَ يَقُومُ ٱلْأَشْهَٰدُ﴾.

من فوائدِ الآيةِ الكريمةِ:

الْفَائِدَةُ الأُولَى: أن الظالِين لا يَنفَعُهم العُذْر ولا الاعتِذار يوم يَقوم الأَشْهاد؛ لقوله: ﴿يَوْمَ لَا يَنفَعُ ٱلظَّٰلِمِينَ مَعْذِرَتُهُمْ﴾.

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَةُ: أن الكافِرين ظَلَمةٌ، وهو كذلك، والشِّرْك بالله أَظلَمُ الظُّلْم، كما قال النبيُّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ حين سُئِل أيُّ الذَّنْب أَعظَمُ؟ قال: «**أَنْ تَجْعَلَ لله نِدًّا وَهُوَ خَلَقَكَ**»(١)؛ وهذا حقٌّ، فالذي خَلَقك وأَعَدَّك وأَمدَّك ثُم تُشرِك به، هذا أَظلَمُ ظُلْم، إن الإنسان لو أَهدَى إليه شَخْص عشَرة ريالاتٍ لاستَحْيَى أن يَناله بسوء، فكيف بمَن أَهدَى إليك حياتَك كلَّها، كيف تُشرِك به وتكفُر به؟! إِذَنْ هو -أَعنِي: الشِّرْك- أَظلَمُ الظُّلْم.

الْفَائِدَةُ الثَّالِثَةُ: أن الكافِرين يوم القِيامة يَعتَذِرون، ولكن لا يُقبَل؛ لقوله: ﴿يَوْمَ لَا يَنفَعُ ٱلظَّٰلِمِينَ مَعْذِرَتُهُمْ﴾.

فإن قال قائِل: كيف الجَمْع بين هذه الآيةِ وبين قوله تعالى: ﴿هَٰذَا يَوْمُ لَا يَنطِقُونَ ۝٣٥ وَلَا يُؤْذَنُ لَهُمْ فَيَعْتَذِرُونَ﴾ [المرسلات:٣٥-٣٦]؟

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب تفسير القرآن، باب قوله تعالى: ﴿فَلَا تَجْعَلُوا۟ لِلَّهِ أَندَادًا وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾، رقم (٤٤٧٧)، ومسلم: كتاب الإيمان، باب كون الشرك أقبح الذنوب وبيان أعظمها بعده، رقم (٨٦)، من حديث عبد الله بن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

فالجَوابُ بصِفة عامَّة: أن ما ورَد عليك مِمَّا يَكون يوم القِيامة، أو من أَوْصاف يوم القِيامة مِمَّا ظاهِرُه التَّعارُض فاعلَمْ أنه لا تَعارُضَ فيه، سواءٌ كان ذلك في وَصْف اليوم، أو في وَصْف المَحشورين، أو في وَصْف العَذاب؛ فإنه لا يُمكِن أن يَكون فيه التَّعارُض أبَدًا؛ لأن اليوم طَويل مِقدارُه خَمْسون ألفَ سَنَةٍ، فيُمكِن أن تَتغيَّر فيه الأحوال، يَكون أوَّله للناس حالًا وآخِره للناس حالًا، وما أَشبَه ذلك.

فمَثَلًا قوله تعالى: ﴿هَٰذَا يَوْمُ لَا يَنطِقُونَ ۝٣٥ وَلَا يُؤْذَنُ لَهُمْ فَيَعْتَذِرُونَ﴾، هذا يَدُلُّ على أنهم في ذلك اليومِ سُكوت لا يُؤذَن لهم بأيِّ كلام فيَنتَهِزوا الفُرْصة بالاعتِذار، لكن في مَوقِف آخَرَ يَعتَذِرون ولكن لا يَنفَعهم الاعتِذار، وهذا أَوْلى من قول بعض العُلَماء: ﴿يَوْمَ لَا يَنفَعُ ٱلظَّٰلِمِينَ مَعْذِرَتُهُمْ﴾ لوِ اعتَذَروا؛ لأنه على هذا التَّقديرِ يَكون الكلام كلامًا فَرضيًّا لا واقِعيًّا لا يَنفَعهم لوِ اعتَذَروا.

فأيُّهما أَوْلى أن نَحمِل الكلام على أنه واقِع، أو على أنه مَفروض؟ الأوَّل؛ على أنه واقِع نحن نَقول: يَعتَذِرون في وَقْت ولا يَعتَذِرون في وَقْت آخَرَ.

الْفَائِدَةُ الرَّابِعَةُ: أن الكافِرين مُستَحِقُّون للَعْنة الله، فهل يَعنِي: ذلك أنه يَجوز أن نَلعَن الكافِرين؟

الجَوابُ: أمَّا على سَبيل العُموم فنعَمْ لنا أن نَقولَ: لَعْنة الله على كل كافِر، وكان من قُنوت أبي هُرَيْرةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أنه يَلعَن الكَفَرة في قُنوت الوَتْر[(١)]: اللَّهُمَّ الْعَنِ الكَفَرَةَ الَّذِينَ كَذَّبُوكَ وَكَذَّبُوا رَسُولَكَ. هذا لا بأسَ به، وهل نَلعَن نوعًا مُعيَّنًا من الكفَرة، كاليَهود والنَّصارى؟ نَقولُ: اللَّهُمَّ الْعَنِ اليَهُودَ، اللَّهُمَّ الْعَنِ النَّصَارَى؟

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب الأذان، باب فضل اللهم ربنا لك الحمد، رقم (٧٩٧)، ومسلم: كتاب المساجد، باب استحباب القنوت في جميع الصلاة، رقم (٦٧٦)، دون ذكر الوتر.

قال ﷺ: «لَعْنَةُ الله عَلَى الْيَهُودِ وَالنَّصَارَى اتَّخَذُوا قُبُورَ أَنْبِيَائِهِمْ مَسَاجِدَ»[(١)]. لكن قال بعض الناس -إمَّا اجتِهادًا وإمَّا مُحاباةً لليَهود والنَّصارى-، قال: إن الرسول دعا عليهم باللَّعْنة في حال مُعيَّنة، حين اتَّخَذوا قبور أنبيائِهم مَساجِدَ لَعَنَهم، كأنه يَقول: لأنَّهم اتَّخذوا. فيُقال: التَّعليل لا يَقتَضي تَخْصيص المَعلول، العِلَّة لا تَقتَضي التَّخصيص، هُم لُعِنوا من أَجْل هذا ومن أَجْل غيرِه أيضًا.

فالصحيحُ أنه يَجوز أن نَلعَن اليَهود والنَّصارى على سبيل التَّخْصيص، فنَقول: لَعْنَةُ الله على اليَهود والنَّصارَى. سواءٌ قرَنَّا ذلك بِفِعْل من أفعالهم يَقتَضي اللَّعْن أو لا.

إِذَنْ: لنا أن نَلعَن الكُفَّار على سبيل العُموم.

وهل نَلعَنُهم على سبيل التَّعيِين؟

الجَوابُ: إن كان حَيًّا فلا يَجوز، لا يَجوز أن أَلعَن شخصًا مُعيَّنًا، ولو كان أكثَر الكُفَّار ما دام حيًّا، والدليل أن النَّبيَّ ﷺ لَمَّا صار يَقول: «اللَّهُمَّ الْعَنْ فُلَانًا وَفُلَانًا»[(٢)] مِمَّن عيَّنهم من أئِمَّة الكُفْر، قال الله تَبَارَكَ وَتَعَالَى: ﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ ٱلْأَمْرِ شَىْءٌ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ أَوْ يُعَذِّبَهُمْ فَإِنَّهُمْ ظَٰلِمُونَ﴾ [آل عمران:١٢٨] فنَهاه وقال: ﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ ٱلْأَمْرِ شَىْءٌ﴾، وإذا كان رَسول الله ﷺ ليس له من الأَمْر شيء فما بالُك بمَن دُونَه؟!

وأمَّا التَّعليل فإننا نَقول: لا تَلعَنه، ادْعُ الله له بالهِداية؛ لأنَّك لا تَدرِي ربَّما

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب الصلاة، باب الصلاة في البيعة، رقم (٤٣٥، ٤٣٦)، ومسلم: كتاب المساجد، باب النهي عن بناء المساجد على القبور، رقم (٥٣١)، من حديث عائشة وابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُم.

(٢) أخرجه البخاري: كتاب المغازي، باب ﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ ٱلْأَمْرِ شَىْءٌ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ أَوْ يُعَذِّبَهُمْ فَإِنَّهُمْ ظَٰلِمُونَ﴾، رقم (٤٠٦٩)، من حديث ابن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.

يَكون هذا العَدوُّ للإسلام اليومَ هو وليَّ الإسلام في يومٍ آخَرَ، ألَمْ يَكُن عُمَرُ من أعداء الإسلام؟ ألَمْ يَكُن خالِدُ بنُ الوَليد وعِكْرمةُ بنُ أبي جَهْل مِمَّن اقتَحَموا الجبَل في أُحُد ليَقتُلوا الرسول وأصحابَه؟ ثم كانوا من قُوَّاد المُسلِمين، وكان عُمَرُ خليفةَ الخَليفةِ الثاني في هذه الأُمَّةِ.

إِذَنْ: يا أخي لا تَدعُ على شخص مُعيَّن من الكُفَّار باللَّعْنة، لكن هل يَجوز أن أَدعُوَ الله له بالهِداية؟

الجَوابُ: يَجوز، يَدعو لفُلان وفُلان، لا نُريد أن نُعيِّن أن الله يَهدِيه.

إِذَنِ: الهِداية لا بأسَ بها، أمَّا اللَّعْن فلا.

فإن قال قائِل: قلنا: إن الكافِر لا يُدعَى عليه إذا كان حيًّا. فما القولُ إن كان ميِّتًا؟

فالجَوابُ: إذا كان ميتًا فإنه يُنظَر هل في ذلك مَصلَحة، إن كان فيه مَصلَحة فلا بأسَ. يَعنِي: إذا كان فيه مَصلَحة وأنك ستُغيظ أَتباعَه فلا بأسَ، وإلَّا فقَدْ قال: النبيُّ ﷺ: «لَا تَسُبُّوا الْأَمْوَاتَ فَإِنَّهُمْ أَفْضَوْا إِلَى مَا قَدَّمُوا»[1].

فإن قال قائِلٌ: هل يَجوز الدُّعاء على الكافِرين بالهَلاك؟

فالجَوابُ: الآنَ دُعاء بالهَلاك، ودُعاء باللَّعْنة، ودُعاء بالهِداية، وأَحسَنهم الهِداية، والإنسان الذي يَقول: اللَّهُمَّ أَهلِكه. بدَل: اللَّهُمْ اهْدِ. لا يَقوله إلَّا من شِدَّة الغَيْرة أو الغَضَب عليه، ونحن نَقولُ له: اهْدَأْ!.

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب الجنائز، باب ما ينهى من سب الأموات، رقم (١٣٩٣)، من حديث عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا.

الْفَائِدَةُ الخَامِسَةُ: أن الظالِمِين -وهُمُ الكافِرون- لهم سُوء الدار يوم القِيامة، وهي جَهنَّمُ -والعِياذُ بالله-؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَهُمْ سُوٓءُ ٱلدَّارِ﴾.

الْفَائِدَةُ السَّادِسَةُ: أن هذا العَذابَ -أي: هذا اللَّعْنَ وهذا السُّوءَ- كان هَؤلاءِ مُستَحِقِّين له؛ لقوله: ﴿لَهُمُ ٱللَّعۡنَةُ وَلَهُمۡ سُوٓءُ ٱلدَّارِ﴾ والله أَعلَمُ.

• • ۞ • •

الآيتان (٥٣، ٥٤)

• • • •

۞ قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْهُدَىٰ وَأَوْرَثْنَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱلْكِتَٰبَ ۝ هُدًى وَذِكْرَىٰ لِأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ [غافر:٥٣-٥٤].

• • • •

قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْهُدَىٰ وَأَوْرَثْنَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱلْكِتَٰبَ﴾؛ هَذه الجُملةُ ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا﴾ مُؤكَّدة بثَلاثة مُؤكِّدات: الأوَّل: القِسْم الَّذي دلَّتْ عليه اللَّام. والثاني: اللَّام. والثالِث: قَدْ. وهذه الصِّيغة تَأْتِي في القُرآن كثيرًا.

وقوله: ﴿ءَاتَيْنَا﴾ بمَعنَى: أَعطَيْنا، يُقال: أَتَيْنا. ويُقال: آتَيْنا. أَتَيْنا بمَعنى: جِئْنا، وآتَيْنا بمَعنَى: أَعطَيْنا، وهي تَنصِب مَفعولين ليس أَصلُهما المُبتَدَأ والخَبَر، المَفعول الأَوَّل هنا موسى، والثاني الهُدَى، موسى هو ابنُ عِمرانَ أحَدُ أُولى العَزْم الخَمْسة، وهم: مُحَمَّد، وإبراهيمُ، وموسى، ونوحٌ، وعِيسى.

وقوله: ﴿ٱلْهُدَىٰ﴾؛ أي: ما به الهُدى، وهذا يَشمَل الهُدى الذي أُوتِيَه حتى اهتَدَى، والهُدَى الذي يَهتَدِي به الناس فيكون موسى عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ هادِيًا مَهدِيًّا.

قال المفَسِّر رَحِمَهُ اللَّهُ: [التَّوْراة والمُعجِزات]، أمَّا التَّوْراة فظاهِر أنه هُدًى؛ لأنها كِتاب شَرعيٌّ فيه الهُدَى، وأمَّا المُعجِزات -والصواب أن يُقال: البَيِّنات أو الآيات- فإنها هُدًى؛ لأنه يَهتَدِي به الناس، إذ إن الناس إذا رَأَوُا الآياتِ اهتَدَوْا.

وقوله: ﴿وَأَوْرَثْنَا بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾ أي: جعلْناهم وارِثين. ويَقول المفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [أي: من بَعْد مُوسَى] ويُمكِن أن نَقول: أَوْرَثْناه من بعد مُوسى ومن بعد فِرعونَ، فيَكون الله تعالى أَورَثَ بني إسرائيلَ الكِتاب من بعد نَبيِّهم ومن بعد فِرعونَ، كما قال الله تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ وَأَوْرَثْنَٰهَا بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾ [الشعراء:٥٩].

﴿ٱلْكِتَٰبَ﴾ قال المفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [التوراة] وسُمِّيت كِتابًا؛ لأنها مَكتوبة، وعلى هذا يَكون كِتاب بمعنى: مَكتوب، وهذه الصِّيغةُ -أَعنِي: فعالًا- تَأتِي في اللُّغة العرَبية بمَعنَى: مَفعول في مَواضِعَ كَثيرةٍ، مِثل بِناء بمَعنَى: مَبنيٍّ، وغِراس بمَعنى: مَغروسٍ، وفِراش بمَعنَى: مَفروشٍ، وهلُمَّ جرًّا.

﴿هُدًى﴾ يُحتَمَل أن تَكون كما قال المفَسِّر مَصدَرًا بمَعنى اسم فاعِل مَنصوبًا على الحال؛ حيث قدَّرها بقوله: [هادِيًا]، ويُحتَمَل أن تَكون مَفْعولًا من أَجْله، أي: من أَجْل ﴿هُدًى﴾ أي: من أَجْل اهتِداء الناس.

قال المفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿هُدًى وَذِكْرَىٰ لِأُولِي ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ تذكِرة لأَصْحاب العُقول] فهي هُدًى، وهي تَذكِرة، هُدًى يَهتَدِي بها الناس، وتَذكِرة يَتذكَّر بها، ولكن لا يَتذكَّر بها إلَّا أُولو الأَلْباب، فأُولو الأَلْباب، يَعنِي: أصحاب العُقول، وسُمِّيَ العَقْل لُبًّا بمَنزِلة اللُّبِّ من الحَبِّ؛ لأنه هو المَقصود، وهو رُوح الإنسان.

وقوله: ﴿وَذِكْرَىٰ لِأُولِي ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ اجْمَعْها إلى قوله تعالى: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ لَءَايَٰتٍ لِّأُولِي ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ [آل عمران:١٩٠] يَتبَيَّن لك أن الذين يَنتَفِعون بالآيات الكونية كخَلْق السَّموات والأرض والآيات الشَّرْعية هم أَصْحاب العُقول؛ لأنهم يَنظُرون، ويَتفكَّرون، ويَقيسون الأشياءَ حتى يَهتَدوا.

من فوائد الآيتين الكريمتين:

الْفَائِدَةُ الأُولَى: مِنَّة الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ على موسى ﷺ؛ حيثُ آتاه الهُدَى، وهذه أَعظَمُ مِنَّة يَمُنُّ الله بها على العَبْد أن يُعطِيَه الهُدَى يَهتَدِي به بنَفْسه ويَهدِي به غيره.

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَةُ: تَأكيد رِسالة مُوسى من قوله: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا﴾ وعلى هذا فيَجِب علينا أن نُؤمِن بأن مُوسى رسول الله ﷺ، لكن إلى قَوْمه كما قال النَّبيُّ ﷺ: «وَكَانَ النَّبِيُّ يُبْعَثُ إِلَى قَوْمِهِ خَاصَّةً»(١) لكن نُؤمِن بأنه رسول حقٍّ، وأنه جاء بالهُدَى والنُّور.

الْفَائِدَةُ الثَّالِثَةُ: مِنَّة الله على بني إسرائيلَ؛ حيث قال: ﴿وَأَوْرَثْنَا بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱلْكِتَٰبَ﴾، ولكن هل هَؤلاءِ الَّذين أُورِثوا الكِتاب قاموا به؟

الجَوابُ: لا، لم يَقوموا به، بل كانوا عُتاةً ظَلَمة، حتى في عَهْد نَبيِّهم لم يَقوموا به، لَمَّا قال لهم: ﴿يَٰقَوْمِ ٱدْخُلُوا۟ ٱلْأَرْضَ ٱلْمُقَدَّسَةَ ٱلَّتِى كَتَبَ ٱللَّهُ لَكُمْ وَلَا تَرْتَدُّوا۟ عَلَىٰٓ أَدْبَارِكُمْ فَتَنقَلِبُوا۟ خَٰسِرِينَ﴾ [المائدة:٢١] ماذا قالوا؟ ﴿قَالُوا۟ يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّ فِيهَا قَوْمًا جَبَّارِينَ﴾ [المائدة:٢٢] إلى أن قالوا: ﴿فَٱذْهَبْ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَٰتِلَآ﴾ [المائدة:٢٤]، أمَّا نحن فإنَّا قاعِدون، مع أنه وَعَدهم بها، قال الأرض التي كتَب الله لكم، لكِنَّهم كذَّبوا الخَبَر واستكْبَروا عن الأَمْر، فهم -أَعنِي: بني إسرائيلَ، ولا سِيَّما اليَهود منهم- أَخبَثُ أهل الأرض، وأَعتَى أهل الكُفْر، لم يَشكُروا نِعْمة الله عليهم بهذه النِّعْمةِ، أمَّا هذه الأُمَّةُ فقال الله تعالى: ﴿ثُمَّ أَوْرَثْنَا ٱلْكِتَٰبَ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا﴾ وهُم هذه الأُمَّةُ

(١) أخرجه البخاري: كتاب الصلاة، باب قول النبي ﷺ: «جعلت لي الأرض مسجدًا وطهورًا»، رقم (٤٣٨)، ومسلم: كتاب المساجد، باب جعلت لي الأرض مسجدًا وطهورًا، رقم (٥٢١)، من حديث جابر رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ.

﴿فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ وَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌۢ بِٱلْخَيْرَٰتِ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَضْلُ ٱلْكَبِيرُ﴾ [فاطر:٣٢].

الْفَائِدَةُ الرَّابِعَةُ: أن التَّوْراة مَكتوبة؛ لقوله: ﴿ٱلْكِتَٰبَ﴾؛ كيف كِتابتها؟ اقرَأْ قول الله تعالى: ﴿وَكَتَبْنَا لَهُۥ فِى ٱلْأَلْوَاحِ مِن كُلِّ شَىْءٍ مَّوْعِظَةً وَتَفْصِيلًا لِّكُلِّ شَىْءٍ فَخُذْهَا بِقُوَّةٍ وَأْمُرْ قَوْمَكَ يَأْخُذُوا۟ بِأَحْسَنِهَا ۚ سَأُو۟رِيكُمْ دَارَ ٱلْفَٰسِقِينَ﴾ [الأعراف:١٤٥].

الْفَائِدَةُ الخَامِسَةُ: أن التَّوْراة ذِكْرى، لكن ليس لكل أَحَد، بل لأُولِي الأَلْباب.

الْفَائِدَةُ السَّادِسَةُ: أنه لا يَتذَكَّر بالآيات الشرعية إلَّا أُولو الأَلْباب وكذلك الآيات الكَوْنية.

الْفَائِدَةُ السَّابِعَةُ: الثَّناء على العَقْل؛ لأن أَهلَه أهل تَذكُّر الذين يَنتَفِعون بما سمِعوا، والمُراد بالعَقْل هنا هل هو عَقْل الإدراك أو عَقْل الرُّشْد؟

الثاني عَقْل الرُّشْد، أمَّا عَقْل الإدراك فهو الذي يُناط به التَّكليف الذي تَجِدونه في كتُب الفُقَهاء من شُروط الطَّهارة العَقْل هذا عَقْل الإدراك الذي يُناط به التَّكْليف، أَمَّا عَقْل الرُّشْد الذي به الاهتِداء فقَلَّ مَن يَحصُل عليه.

الْفَائِدَةُ الثَّامِنَةُ: أن كل مَن لم يَتذَكَّر بآيات الله فإنه ليس ذا عَقْل.

فإن قال قائِل: يَرِد عليكم أنَّا نَجِد في أَئِمَّة الكُفْر مَن هو على جانِب كبير من الدَّهاء والذَّكاء.

فالجَوابُ: أن هناك فَرْقًا بين العَقْل والذَّكاء؛ لأن العَقْل يَعقِل صاحِبه عمَّا يَضُرُّه؛ ولهذا سُمِّيَ بمَنزِلة العِقال للبَعير، لكِن الذَّكاء ليس كذلك، فالذَّكاء غَريزة، أو كَسْب يَجعَله الله تعالى في الإنسان، وربَّما يَكون بعض الحَيوانات أَذكَى من

الإنسان، فالغُراب مثَلًا أَذكَى من ابنِ آدَمَ الذي قتَلَ أَخاه؛ لأنه علَّمَه كيف يُوارِي سَوءَة أَخيه، في الحَيوانات ما هو أَذكَى من بني آدَمَ، النَّمْل هذا الذي تُشاهِدون من أذكى الحَيوانات إذا كان في أَيَّام ثِمار الحُبوب حَفَرَت لها جُحورًا وأَوْدَعت فيها الحُبوب، ولكِنَّها لا تُودِع الحَبَّة على ما هو عليه، بل تَأكُل رأس الحَبَّة؛ لئَلَّا تَنبُت؛ لأنها تَعرِف إذا بَقِيَت الحَبَّة على ما هي عليه نَبَتَت وخَرِبت على نَفْسها فتَأكُل رأسَها حتى لا تَنبُت، فإذا قدَّر الله عَزَّوَجَلَّ ونزَل المَطَر وخافَت أن يُعفِّن ويَفسُد أَخرَجَتْه إلى الشمس حتى يَيْبَس ويَجِفَّ، ثُم أَدخَلَتْه، وأَشياءُ تُذكَر عن بعض الحَيَوانات غَريبة.

إِذَنِ: الذَّكاء شيء والعَقْل شيء آخَـرُ، وكم من ذَكيٍّ قادَه الذَّكاء إلى النار -والعِياذ بالله- وهذا شيء مُشاهَد، الذَّكاء إذا لم يَكُن مُقتَرِنًا بعَقْل وإيمان، فالغالِب أن صاحِبه يُدمَّر ويَهلِك، وكم من أُناسٍ كانوا أَذكياءَ وتَوقَّع فيهم بعض العُلَماء أن هؤلاءِ سَوْف يَنحَرِفون فصار الأَمْر كذلك.

إِذَنْ: لا يَرِد علينا أننا نَجِد من أَئِمَّة الكُفْر مَن هو على جانِب كبير من الذَّكاء والدَّهاء؛ لأن الذَّكاء شيءٌ والعَقْل شيءٌ آخَرُ، قال العُلَماء: ولذلك لا يَجوز أن تَقول: إن الله عاقِلٌ؛ لأن العَقْل يَحجِز صاحِبَه عمَّا يَضُرُّه، والربُّ عَزَّوَجَلَّ لا يُمكِن أن يَضُرَّه شيء، ولا يُمكِن أن يَنقُصه شيء.

ومِن ثَمَّ ذهَب بعض النَّحوِيِّين إلى التَّعبير بقولهم: (مَن) للعالِم و(مَا) لغير العالِم. قال: لا يُمكِن أن تَقول: للعاقِل؛ لأنها تَأتِي عائِدةً إلى الله عَزَّوَجَلَّ فقُلْ: (مَنْ) للعالِم، و(ما) لغَيْر العالِم. وقد يُناقَش في هذه المَسأَلةِ، ولكِنِّي قُلْت لكم هذا لتَعلَموا أنه لا يَجوز أن يُوصَف الله بأنه العاقِل؛ لأن العَقْل يَحجِز صاحِبه عمَّا يَضُرُّه والله عَزَّوَجَلَّ لا يَضُرُّه شيء.

الآية (٥٥)

• • ∞ • •

۞ قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَاسْتَغْفِرْ لِذَنبِكَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ بِالْعَشِيِّ وَالْإِبْكَارِ﴾ [غافر:٥٥].

• • ∞ • •

ثُم قال الله تَبَارَكَ وَتَعَالَى: ﴿فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ﴾ (اصْبِر) الخِطاب للرَّسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ اصْبِرْ على أيِّ شيء، اصْبِرْ على حُكْم الله الكَونيِّ والشَّرْعيِّ؛ لأن الله تَبَارَكَ وَتَعَالَى قال: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ تَنزِيلًا ﴿٢٣﴾ فَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ﴾ [الإنسان:٢٣-٢٤] وتَأمَّلوا لَمَّا مَنَّ الله عليه بأنه نزَّلَ عليه الكِتاب تَنزيلًا هل قال: فاشْكُرْ نِعْمة ربِّك؟ بل قال: ﴿فَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ﴾.

ومَعناه أنك كُلِّفْت أمرًا عظيمًا يَحتاج إلى صَبْر، اصبِرْ لحُكْم ربِّك الشَّرعيِّ، والثاني الكَونيِّ، وقد لَقِيَ النَّبيُّ ﷺ العَناء الكبير من الصَّبْر على أذى قَوْمه.

وقوله: ﴿فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ﴾ هنا في الآية حَذْف. والمَحذوف تُفسِّره الآياتُ الأُخرى ﴿فَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ﴾ الكَوْنيِّ والشَّرْعيِّ، ولا نَجِد أحَدًا أَصبرَ من رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ على حُكْم الله، يُوعَك -يَعنِي: يُمرَض- كما يُمرَض الرَّجُلان منَّا، يشُدَّد عليه، شُدِّد عليه عند الموت وهو يُحتَضَر، شُدِّد عليه، كما قالت ذلك عائِشةُ أُمُّ المُؤمِنين رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا: لَمْ يُشَدَّدْ على أَحَدٍ[1].

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب المرضى، باب شدة المرض، رقم (٥٦٤٦)، ومسلم: كتاب البر والصلة، باب ثواب المؤمن فيما يصيبه من مرض، رقم (٢٥٧٠).

أُوذِيَ في الله عَزَّوَجَلَّ فَصبَرَ وَاحْتَسَبَ، وقِصَّة إيذاء المُشرِكين له في مكَّةَ وغير مكَّةَ أَمْر مَشهور عِندكم ومَعلوم ﴿فَٱصۡبِرۡ إِنَّ وَعۡدَ ٱللَّهِ حَقٌّ﴾ [الروم:٦٠] أي: والله ﴿إِنَّ وَعۡدَ ٱللَّهِ حَقٌّ﴾ هذه الجُملةُ خبَرية مُؤكَّدة بـ(أن) وَعْد الله حَقٌّ، وَعَد الله بنَصْر أَوْليائه وخَذْل أَعدائِه.

فإن قال قائِلٌ: قول الله تعالى: ﴿فَٱصۡبِرۡ إِنَّ وَعۡدَ ٱللَّهِ حَقٌّ﴾ [الروم:٦٠] بعضُهم يَقولون: إن الإيذاء والبَلاء في دِين الله دَلالة على أن هذا الدِّينَ باطِل. كيفَ نَرُدُّ عليهم؟

فالجَوابُ: لا، فهذه غَيْرُ، فالرَّسول لولا أن دِينَه حَقٌّ ما أُوذِيَ عليه، لولا أن دِينَه حقٌّ ما أُوذِيَ عليه، لو تَبع ما عليه قومُه ما أُوذِيَ؛ ولهذا كان من حِكْمة الله أن أعمام الرسول عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ أربعة الذين أَدركوا زَمانَه أربعة: اثنانِ كافِران أَحَدُهما أَذاه والثاني ساعَدَه وآواه، واثنان أَسلَما أحدُهما تَقدَّم إسلامه وله مَقام صِدْق، وكان شهيدًا، والثاني بالعَكْس تَأخَّر إسلامه، لكن لا شَكَّ أن له مَقامَ صِدْق. الذي كَفَر وآذاه أبو لَهَبٍ، والَّذي كفَر وآواه أبو طالِب، والذي له مَقامُ صِدْق وسَبْق حَمزَةُ، والرابع العَبَّاس بنُ عبدِ المُطَّلِب، فالله حَكِيمٌ عَزَّوَجَلَّ.

وقوله: ﴿حَقٌّ﴾ والحَقُّ هو الشيء الثابت الذي لا يَتغيَّر.

قال المفَسِّر رَحِمَهُ اللَّهُ: [﴿إِنَّ وَعۡدَ ٱللَّهِ﴾ بنَصْر أَوْليائه ﴿حَقٌّ﴾، وأنت ومَن تَبِعَك مِنْهم] نعَمْ هم على قِمَّة الأَوْلياء، مُحَمَّد رسول الله والذين معَه قِمَّة الأَوْلياء وَصَفَهم الله بأنهم ﴿أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلۡكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيۡنَهُمۡۖ تَرَىٰهُمۡ رُكَّعٗا سُجَّدٗا يَبۡتَغُونَ فَضۡلٗا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضۡوَٰنٗاۖ﴾ انظُرْ كيفَ مُعامَلة بعضِهم مع بعضٍ، ومُعامَلتهم مع الله عَزَّوَجَلَّ.

وقوله: ﴿وَٱسۡتَغۡفِرۡ لِذَنۢبِكَ﴾ قال المفَسِّر رَحِمَهُ اللَّهُ: [لِيُسْتَنَّ بِكَ] «استغفِرْ

لذَنْبِك» أي: اطلُبْ من الله المَغفِرة للذَّنب وهو الإِثْم أو المَعصِية، استَغفِر: اطلُبِ المَغفِرة.

والمَغفِرة مُشتَقَّة من المِغفَر، وهو الذي يُوضَع على الرأس أثناء القِتال؛ ليَتَّقِيَ به المُقاتِل سِهام المُقاتِلين، هذا هو المِغفَر.

إِذَنْ: فالمَغفِرة سَتْر الذَّنْب والتَّجاوُز عنه، ليس مُجرَّد السَّتْر، ويَدُلُّ لهذا قولُه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى إذا حاسَب عبدَه المُؤمِن: «قَدْ سَتَرْتُهَا عَلَيْكَ فِي الدُّنْيَا وَأَنَا أَغْفِرُهَا لَكَ الْيَوْمَ»[1].

وقوله رَحِمَهُ اللَّهُ: [لِيُسْتَنَّ بِكَ] إشارة إلى أنه لا ذَنْبَ للرسول، لكن أُمِر بالاستِغْفار لتَستَنَّ به الأُمَّة فتَستَغفِر لذنوبها، وهذا بِناءً على أن الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ لا يُذنِب وكذلك الرُّسُل، ولكِنْ في هذا نظَرٌ، هذا من الغُلوِّ بالنِّسْبة للرسول عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ ورُبَّ مُذنِبٍ تابَ من ذَنْبه فكان خيرًا منه قبل الذَّنْب.

آدمُ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ عَصَى ربَّه وغَوَى، ﴿ثُمَّ اجْتَبَاهُ رَبُّهُ فَتَابَ عَلَيْهِ وَهَدَى﴾ [طه:١٢٢]، قبل ذلك هل حصَل له الاجتِباء؟ لا، فصار بعد التَّوْبة من الذَّنْب خيرًا منه قَبْل الذَّنب، والذَّنب لا يَخدِش في الإنسان، الذَّنْب إذا عرَف الإنسان نَفْسه وعرَف قَدْر ربِّه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى ثُم رجَع إلى الله وتابَ وندِمَ يَجِد في قلبه إيمانًا لم يَكُن من قبلُ، يَكون عنده حَياءٌ من الله وخَجَل، ولهذا جاء في الحَديث الصَّحيح الذي

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب المظالم، باب قول الله تعالى: ﴿أَلَا لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ﴾، رقم (٢٤٤١)، ومسلم: كتاب التوبة، باب قبول توبة القاتل وإن كثر قتله، رقم (٢٧٦٨)، من حديث ابن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.

أَخرَجه مُسلِم: «لَوْلَا أَنْ تُذْنِبُوا لَذَهَبَ الله بِكُمْ وَجَاءَ بِقَوْمٍ يُذْنِبُونَ وَيَسْتَغْفِرُونَ الله وَيَغْفِرُ لَهُمْ»[1].

وعلى هذا فنَقولُ للمُؤلِّف: عفا الله عَنْك؛ حيث ادَّعَيْت ما ليس بصَحيح إذا كان الله يَقول للرسول ﷺ: ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا ۝١ لِّيَغْفِرَ لَكَ ٱللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنۢبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ﴾ [الفتح:١-٢] كيف نَقول: إنه أَمَره بالاستِغْفار من أَجل أن يُستَنَّ به، لا من أَجْل أن له ذَنْبًا والله يَقول صراحةً: ﴿لِّيَغْفِرَ لَكَ ٱللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنۢبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ﴾ ويَقول سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿فَٱعْلَمْ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ وَٱسْتَغْفِرْ لِذَنۢبِكَ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ﴾ [محمد:١٩]؟!

ليس له ذَنْب، لكن استغفِرْ؛ ليُسْتَنَّ به، كيف يَقول: الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ لَكَ ۖ تَبْتَغِى مَرْضَاتَ أَزْوَٰجِكَ ۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ۝١ قَدْ فَرَضَ ٱللَّهُ لَكُمْ تَحِلَّةَ أَيْمَٰنِكُمْ﴾ [التحريم:١-٢] ﴿تَبْتَغِى مَرْضَاتَ أَزْوَٰجِكَ ۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ غفَرَ الله لكَ ذلكَ، كيف يَقول الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿عَفَا ٱللَّهُ عَنكَ لِمَ أَذِنتَ لَهُمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُوا۟ وَتَعْلَمَ ٱلْكَٰذِبِينَ﴾ [التوبة:٤٣]؟!

كل هذا يَدُلُّ على أن مِثْل هذه الأُمورِ تَقَع على الرسول صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَىٰ آلِهِ وَسَلَّمَ، لكن لا شَكَّ أن ما يُخِلُّ بالأَخْلاق أو يُخِلُّ بالرِّسالة لا يُمكِن أن يَقَع منه، هذا شيء مَعلوم، لا يُمكِن أن يَقَع منه فاحِشة، ولا يَقَع منه خِيانة، ولا يَقَع منه كذِب، هذا مُستَحيل؛ لأن هذا يُخِلُّ بالشَّرَف ويُخِلُّ بمَقام النُّبُوَّة، أمَّا المَعاصِي البَعيدة عن هذا فتَقَع، أَلَيْس مُوسى ﷺ قتَل نَفْسًا لم يُؤمَر بقَتْلها وهو من أُولي العَزْم؟

---

(١) أخرجه مسلم: كتاب التوبة، باب سقوط الذنوب بالاستغفار توبة، رقم (٢٧٤٩)، من حديث أبي هريرة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ.

فالحاصِلُ: أن قول المفَسِّر: [لِيُسْتَنَّ بِكَ] خطَأ، ولكن «استَغْفِرْ لذَنْبك» لأن لك ذنبًا لكنه مَغفور، ومن أَسباب مَغفِرة ذَنْبك أن تَستَغفِر، فالاستِغْفار من أسباب المَغفِرة، والطاعات من أَسباب المَغفِرة، تَغلِب الطاعات على المَعاصِي وغير ذلك.

قوله: ﴿وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ بِٱلْعَشِيِّ وَٱلْإِبْكَـٰرِ﴾ ﴿وَسَبِّحْ﴾ يقول: المفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [صَلِّ] ولا شَكَّ أن الصلاة تُسمَّى تَسبيحًا، ومنه حديثُ: صلَّى النبيُّ ﷺ في بَيْته سُبْحة الضُّحى[1]. ومنه قولُ ابنِ عُمرَ: «لَوْ كُنْتُ مُسَبِّحًا لَأَتْمَمْتُ»[2] يَعنِي: مُصلِّيًا نافِلًا لأَتمَمْت. فلا شَكَّ أن الصلاة تُسمَّى تَسبيحًا.

ومِن الأدِلَّة على ذلك سابِقًا ما ذُكِر -لكِن أَخَّرْناه تَرتيبًا أو نِسيانًا- قولُه عَزَّوَجَلَّ: ﴿فَسُبْحَـٰنَ ٱللَّهِ حِينَ تُمْسُونَ وَحِينَ تُصْبِحُونَ ﴿١٧﴾ وَلَهُ ٱلْحَمْدُ فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَعَشِيًّا وَحِينَ تُظْهِرُونَ﴾ [الروم:١٧-١٨] حيث قال بعضُ العُلَماء: إن هـذه إشارةٌ إلى أَوْقات الصلَوات الخَمْس. لكن هل يَتَعيَّن أن يَكون التَّسبيح في كل مَكان بمَعنَى الصلاة؟ لا؛ ولهذا نَرى أن قوله تعالى هنا: ﴿وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ﴾ أَشمَلُ وأَعمُّ من إرادة الصلاة، يَقول: ﴿وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ﴾ أي: تَسبيحًا مَقرونًا بالحَمْد، فالتَّسبيح زوال الصِّفـات التي لا تَليق بالله، وفي الحمد إثبات صِفـات الكَمال لله، فيَكون ﴿وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ﴾ جامِعًا بين التَّنزيه والإثْبات، تَنزيه الله عمَّا لا يَليق به، وإثبات ما هو أَهله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ من الكَمال في صِفاته وأَفْعاله ﴿وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ بِٱلْعَشِيِّ وَٱلْإِبْكَـٰرِ﴾ العَشيِّ ما بعد الزَّوال، ومنه حديثُ أبي هُرَيْرَةَ في قِصَّة ذي اليَدَيْن:

---

(١) أخرجه مسلم: كتاب الحيض، باب تستر المغتسل بثوب، رقم (٣٣٦)، من حديث أم هانئ بنت أبي طالب رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهَا.

(٢) أخرجه مسلم: كتاب صلاة المسافرين وقصرها، صلاة المسافرين وقصرها، رقم (٦٨٩).

«صلَّى بِنا رَسولُ الله صَلَّاللَّهُعَلَيْهِوَعَلَىآلِهِوَسَلَّمَ إِحْدى صَلاتَي العَشِيِّ»(١)؛ فالعَشيُّ ما بعد الزَّوال، والإِبْكار ما قبل الزَّوال.

قال المفَسِّر رَحِمَهُاللَّهُ: [الصَّلَوات الخَمْس]؛ لأن العَشيَّ يَشمَل الظُّهْر والعَصْر والمَغرِب والعِشاء، والإبكار الفَجْر ﴿وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ بِٱلْعَشِيِّ وَٱلْإِبْكَٰرِ﴾ والصَّواب ما قُلنا: أن المُراد بالتَّسبيح هنا ما هو أَعَمُّ من الصلَوات.

من فوائدِ الآيةِ الكريمةِ:

الْفَائِدَةُ الأُولَى: الأَمْر بالصَّبْر، وهو هـنا للوُجوب، والصَّبْر ثلاثة أنواع -كما قالَه العُلَماء رَحِمَهُمُاللَّهُ-: صَبْر على طاعة الله، وصَبْر عن مَعْصية الله، وصَبْر على أقدار الله المُؤلِمة؛ والأوَّل هو الأكمَلُ، ثُم الثاني، ثُم الثالِث.

فالصَّبْر على طاعة الله أن يَفعَل الإنسان الطاعة على الوَجْه الذي شرَعه الله عَزَّوَجَلَّ بدون تَضجُّر وبدون تَكرُّهٍ، بل ومُستَسْلِم لها غاية الاستِسْلام، هذا الصَّبْرُ على طاعة الله.

أمَّا الصَّبْر عن مَعصية الله أن يَحبِس نفسَه عن مُباشَرة المَعاصِي فلا يَفعَلها، بل يَصبِر ولو شَقَّ عليه ذلك.

والثالث الصَّبْر على أَقْدار الله؛ يَعنِي: على ما يُقدِّره الله عليه من البَلاء في بدَنه، أو عَقْله، أو فِكْره، أو أَهْله، أو ماله، أو مُجتَمَعه يَصبِر ويَحبِس نَفْسه عن التَّسخُّط بالقَوْل، عن التَّسخُّط بالأَرْكان أو اللِّسان أو بالجَنان، التَّسخُّط بالجَنان أن يَكون

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب الصلاة، باب تشبيك الأصابع في المسجد، رقم (٤٨٢)، ومسلم: كتاب المساجد، باب السهو في الصلاة والسجود له، رقم (٥٧٣).

في قَلْبه نوع اعتِراض على الله عَزَّوَجَلَّ: لماذا قدَّر عليَّ كذا ولم يُقدِّر على فُلان؟! ولماذا ابتَلاني الله؟! ثُم بعد ذلك ربما يَكفُر، نَسأَل الله العافِيةَ.

كما قال تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَعۡبُدُ ٱللَّهَ عَلَىٰ حَرۡفٖۖ فَإِنۡ أَصَابَهُۥ خَيۡرٌ ٱطۡمَأَنَّ بِهِۦۖ وَإِنۡ أَصَابَتۡهُ فِتۡنَةٌ ٱنقَلَبَ عَلَىٰ وَجۡهِهِۦ خَسِرَ ٱلدُّنۡيَا وَٱلۡأٓخِرَةَ﴾ [الحج:١١]، التَّسخُّط باللِّسان أن يَدعوَ بالوَيل والثُّبور، وما أَشبَهَ ذلك من دَعوى الجاهِلية، والتَّسخُّط بالأركان بضَرْب الخُدود وشَقِّ الجُيوب، وما أَشبَه ذلك؛ فصار الصَّبْر على أقدار الله يَتَضمَّن حَبْس القَلْب واللِّسان والجَوارِح.

فإن قال قائِل: إن التَّسخُّط القَلبيَّ من أَشَدِّ الأمور، يَقول بعضُهم: إن هذا أَمْر خارِج عن طاقَتي، أنا أَكرَه هذا لكن أَجِده في نَفْسي وأُدافِعه وأَجِده وأَجِده؟!

فالجَوابُ: هناك فَرْق بين كراهة المَقدور وكَراهة التَّقدير، كَراهة المَقدور من طَبيعة الإنسان، كلٌّ يَكرَه أن يُصاب بأذًى، لكن كَراهة التَّقدير هذا هو المُراد، أن تكرَه تقدير الله من حيثُ هو فِعْل الله، فيُولِّد لك ذلك أنك رُبَّما تُبغِض الله عَزَّوَجَلَّ -أَعوذُ بالله- ربَّما تُبغِض الله، كيف يُقدِّر عليَّ هذا الربُّ هذا التَّقديرَ؟! أمَّا كراهة المَقدور فلا بُدَّ منها، كل إنسان يُصاب بما لا يُلائِم طَبْعه سوف يَكرَه هذا الشيءَ.

فإن قال قائِلٌ: هذه الكَراهةُ تَقَع في القَلْب مع كَراهة الإنسان ظاهِرًا لها، هو يُدافِعها لكن يَجِدها في قَلْبه.

فالجَوابُ: لا أَظُنُّ، لا يُوجَد إنسان مُؤمِن يَكرَه ما قدَّر الله من حيثُ هو تَقديرٌ لله، أَبَدًا، وماذا يَكرَه؟! أنت مَملوك لله، كيف تَكرَه هذا الشيءَ؟ هل أنت تَذبَح بَعيرَك لتأكُله والبَعير يَكرَه هذا الشيءَ؟! هو مِلْكك، فالله عَزَّوَجَلَّ احذَرْ أن تَكرَه تَقديرَه

من حيثُ هو تَقديرٌ، أمَّا من حيثُ هو مَقدور -كما قُلْت لك- شيءٌ لا بُدَّ منه.

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَةُ: تَسلية النَّبيِّ ﷺ بقوله: ﴿إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ﴾.

الْفَائِدَةُ الثَّالِثَةُ: تحذير المُعارِضين له؛ لأن الله وعَدَه بالنَّصْر وخِذلان أَعدائِه ومُعارِضيه، فقوله: ﴿إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ﴾ كما أن فيه تَسليةً له فيه أيضًا تحذير لأَعْدائه.

الْفَائِدَةُ الرَّابِعَةُ: أن وَعْد الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى لا بُدَّ أن يَقَع؛ لقَوْله: ﴿حَقٌّ﴾ والحَقُّ هو الثابِت الواقِع، ويَدُلُّ لهذا قولُه تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُخْلِفُ ٱلْمِيعَادَ﴾ وذلِكَ لتَمام قُدْرته وصِدْق وَعْده لا يُخلِف الميعاد؛ لأن إخلاف الوَعْد ناشِئٌ عن كذِب الواعِد، أو عن عَجْزه عن الوفاء به، وكل ذلك مُحال في حَقِّ الله عَزَّوَجَلَّ.

الْفَائِدَةُ الخَامِسَةُ: وُجوبُ الاستِغْفار؛ لقوله: ﴿وَٱسْتَغْفِرْ لِذَنۢبِكَ﴾.

الْفَائِدَةُ السَّادِسَةُ: جَوازُ الذُّنوب على الأنبياء عليهم الصلاة والسلام؛ لقوله: ﴿لِذَنۢبِكَ﴾ والخِطاب للرسول صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَىٰ آلِهِ وَسَلَّمَ وإذا جاز الذَّنْب على الرسول وهو أَشرَف الرُّسُل فعَلَى غيرِه من بابِ أَوْلى.

فإن قال قائِلٌ: أَليس الأنبياء مَعصومِين عن الذُّنُوب؟

فالجَوابُ: هذه الآيةُ وأَمثالها تَدُلُّ على أن الجَواب بالنَّفْي، لكنهم يُفارِقون غيرَهُم في ذلك في وَجْهَيْن:

الوجهُ الأَوَّلُ: أنهم مَعْصومون من الكَذِب والخِيانة، وما أَشبَهَ ذلك مِمَّا يُؤثِّر على الرِّسالة.

والثاني: أَنَّهم مَعْصومون عن كل ذَنْب يُخِلُّ بالشَّرَف.

الثالث: أنهم مَعصومون من الإِقْرار عن الذُّنوب، لا بُدَّ أن يُنبَّهوا عليها حتى يُوفَّقوا للتَّوْبة منها.

فهذه فُروق ثَلاثة بينهم وبين غيرِهم من الناس، أمَّا غيرُهم من الناس فإنَّهم ليسوا مَعصومين مِمَّا يُخِلُّ بالشَّرَف، وما يُخِلُّ بالأمانة، وليسوا مَعصومين عن الإصرار على المَعاصِي.

الْفَائِدَةُ السَّابِعَةُ: الأَمْر بالتَّسْبيح بحَمْد الله صَباحًا ومَساءً؛ لقوله: ﴿وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ بِٱلْعَشِيِّ وَٱلْإِبْكَـٰرِ﴾، فإن كان المُراد بذلِك الصَّلواتِ الخَمْسَ فالأَمْر هنا للوُجوب، وإن كان المُراد به التَّسبيحَ الذي هو الذِّكْر المَعروف، فإن الأَمْر هنا للاسْتِحباب.

الآية (٥٦)

• ● ● •

❁ قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ فِىٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَٰنٍ أَتَىٰهُمْ ۙ إِن فِى صُدُورِهِمْ إِلَّا كِبْرٌ مَّا هُم بِبَٰلِغِيهِ ۚ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ ۖ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ [غافر:٥٦].

• ● ● •

ثُم قال عَزَّوَجَلَّ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ فِىٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَٰنٍ أَتَىٰهُمْ ۙ إِن فِى صُدُورِهِمْ إِلَّا كِبْرٌ﴾ ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ﴾ هذه (إِنَّ) واسمُها وخبرُها قوله: ﴿إِن فِى صُدُورِهِمْ إِلَّا كِبْرٌ﴾؛ أي: ما في صُدورهم إلَّا كِبْر.

قوله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ فِىٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ﴾ المُجادَلة: المُخاصَمة، وسُمِّيت المُخاصَمة مُجادَلة؛ لأن كُل خَصْمٍ يَجدُل الحُجَّة؛ ليَغلِب صاحِبه كجَدْل الحَبْل وهو شَدُّه، كل واحِد من الخَصْمين يَجدُل الحُجَّة لنَفْسه ليُفحِم خَصْمه.

وقوله: ﴿يُجَٰدِلُونَ﴾ المُفاعَلة تَأتِي في الغالِب بين اثنَيْن، وقد تَأتِي (فاعَلَ) بدون مُشارِك مثل سافَرَ، سافَرَ على وَزْن فاعَلَ، على وَزْن جادَلَ، لكنها ليسَت بين اثنَيْن، لكن الغالِب أن (فاعَلَ) يَعنِي: المُفاعَلة تَأتِي مِن اثنَيْن ﴿يُجَٰدِلُونَ فِىٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ﴾ يُجادِلون أهل الحقِّ ويُناظِرونهم، ولقد علِمْتم المُناظَرة التي وقَعت بين إبراهيمَ وقَوْمه ووقَعت بين إبراهيمَ والذي حاجَّهُ في رَبِّه، ومُجادَلات كثيرة في القُرآن وفي السُّنَّة، وإلى يومِنا هذا.

قوله: ﴿فِيٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ﴾ قال المفسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [القُرآن]، وهذا التَّفسيرُ قاصِر؛ لأن آياتِ الله تَشمَل الكَوْنية والشَّرْعية، ثُم تَشمَل أيضًا مَن يُجادِل في هذه الأُمَّةِ، ومَن يُجادِل فيمَن سَبَق، والذين يُجادِلون فيمَن سَبَق لا يُجادِلون في القُرآن، فالأَوْلى أن نَجعَل الآية على العُموم، يُجادِلون في آيات الله الكَوْنية والشَّرْعية إن كانوا في هذه الأُمَّةِ، فالشَّرْعية هي القُرآن والسُّنَّة أيضًا، وإن كانوا من قَبْل الأُمَّة فالمُجادَلة في التَّوْراة من قوم مُوسى، وهكذا.

إِذَنْ: تَفسير المفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ قاصِر؛ لأنه لم يُحِط بالمَعنَى، بل قصَره على بعضه، لكن لو ادَّعى مُدَّعٍ أن المفَسِّر ذكَر القُرآن من باب التَّمثيل، لوِ ادَّعى مُدَّعٍ ذلك لقُلْنا: هذا مُمكِن مُحتَمَل، لكنه أَخطَأَ في التَّعبير، إذ إن المُراد يُقال: آياته الشرعية كالقُرآن، حتى يَكون الأمر واضِحًا.

وقوله: ﴿يُجَٰدِلُونَ فِيٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ﴾، المُجادَلة في الآيات الشَّرْعية، منها اتِّباع المُتَشابِه، فيَأتِي مثلًا بآية من القُرآن فيها اشتِباه تَحتَمِل مَعنًى حقًّا، ومَعنًى باطِلًا، وهي في الحقِّ أَظهَرُ كما هو مَعلوم، فيُريد أن يَحمِلها على المعنى الباطِل المَرجوح، يَأتِي بآيات من القُرآن ظاهِرها التَّعارُض يَقول: القُرآن مُتناقِض كيف يَقول: كذا، ثُم يَقول: كذا.

فمثَلًا يَقول: إن الله تعالى قال: ﴿يَوۡمَئِذٖ يَوَدُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَعَصَوُاْ ٱلرَّسُولَ لَوۡ تُسَوَّىٰ بِهِمُ ٱلۡأَرۡضُ وَلَا يَكۡتُمُونَ ٱللَّهَ حَدِيثٗا﴾ [النساء:٤٢] يَوَدُّون ﴿وَلَا يَكۡتُمُونَ ٱللَّهَ حَدِيثٗا﴾ وفي آية أُخرَى: ﴿ثُمَّ لَمۡ تَكُن فِتۡنَتُهُمۡ إِلَّآ أَن قَالُواْ وَٱللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشۡرِكِينَ﴾ [الأنعام:٢٣] فكتَموا، قالوا: ﴿وَٱللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشۡرِكِينَ﴾ كانوا في الأَوَّل مُقرِّين تمامًا، فيَأتِي يَقول: هذا القُرآنُ مُتناقِض، كيف يُثبِت في مَكان أنهم لا يَكتُمون الله حديثًا وفي مَكان

أنهم يُنكِرون؟

فيُجادِل بمِثْل هذا، إذا لم يَكُن لدَى الإنسان سَيْف يَقطَع حُجَّة هذا، بَقِيَ الإنسان مُرتَبِكًا، فما هو السَّيْف الذي يَقطَع حُجَّته؟ أن نَقول: إن يوم القِيامة ليس ساعة من زمَن مِقداره خَمْسون أَلفَ سَنَة، فأَقَرُّوا بالأوَّل، ولَمَّا رأَوْا أن المُؤمِنين يَنْجون قالوا: نَكتُم لعَلَّنا نَنْتَفِع. أو أنهم كتَموا في الأوَّل، ثُم لَمَّا رأَوْا جَوارِحهم تَشهَد عليهم أَقَرُّوا واعترَفوا.

وأنا أَقولُ: المُجادَلة في الآيات في القُرآن منها اتِّباع المُتَشابِه، هذه المُجادَلةُ لا شَكَّ.

وكذلِكَ أيضًا المُجادَلة في الآيات الكَوْنية، يَأتِي مثَلًا بأشياءَ من مَخلوقات الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى فيَقول: لماذا خلَقَ الله هذا الشيءَ؟ لماذا خلَق الله العَقْرب؟ لماذا خلَقَ الله الحَيَّة؟ لماذا خلَقَ الله الأسَدَ؟ وما أَشبَهَ ذلك، إِذَنْ ما أَراد الله إلَّا إضرار الخَلْق وإيذاء الخَلْق، انتَبِهْ عندما يُورَد هذا السُّؤالُ على عامِّيٍّ ماذا يَقول؟ يَقول: والله ما يَدرِي يُمكِن، فيُجادِل مع أننا نَعلَم أن خَلْق هذه المَخلوقاتِ من مَصلَحة العِباد، وقد ذكَرْنا في مجالِس سبَقَت أن في خَلْق هذه المُؤْذِيات ثَمانِ فَوائِدَ تَظهَر للمُتأمِّل، وبذلك نَعرِف المُجادَلة في الآيات تَكون في الآيات الكونية والآيات الشَّرْعية وذكَرْنا مِثالَيْن على ذلك.

يَقول الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿بِغَيْرِ سُلْطَٰنٍ﴾ قال المفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [بُرْهان] ﴿أَتَىٰهُمْ﴾ هذه صِفة لـ﴿سُلْطَٰنٍ﴾ والسُّلْطان يَقول المفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: هُو البُرْهان.

وذكَرْنا فيما سَبَق أن السُّلْطان ما يَكون به سُلْطة، سواءٌ كان دَليلًا إذا كانت

المَسأَلة تَحتاج إلى دَليل، أو سُلْطة تَدْبير كالسُّلْطان الأَعظَم، وما أَشبَه ذلك، أو قوَّة وقُدْرة، كما في قوله تعالى: ﴿لَا تَنفُذُونَ إِلَّا بِسُلْطَٰنٍ﴾ [الرحمن:٣٣].

المُهِمُّ: أن السُّلْطان ما يَكون به السُّلْطة للإنسان، وفسَّره في كل مَكان بحَسبه.

وقوله: ﴿بِغَيْرِ سُلْطَٰنٍ﴾ هل يَعني: أنه لا يُمكِن أن نُجادِل الإنسان بالباطِل بسُلْطان.

إِذَنْ: هذا القَيْدُ بَيان للواقِع، وليس قيدًا احتِرازِيًّا، بل هو قَيْد مُبيِّن للواقِع أن كل مَن جادَل في آيات الله، فإنه مُجادِل بغَيْر سُلْطان ولا يُمكِن أن يَأتِيَه سُلْطان بذلك.

وقوله: ﴿إِن فِي صُدُورِهِمْ إِلَّا كِبْرٌ﴾ (إِنْ) يَقول المفَسِّر رَحِمَهُ اللَّهُ: [ما] يَعنِي: أنها نافِية، وذلك أن (إِنْ) في اللُّغة العرَبية مُشترَكة بين عِدَّة مَعانٍ، وما أكثَرَ الكلِماتِ التي يَكون لها عِدَّة مَعانٍ، ولكن الذي يُعيِّن المَعنَى السِّياق وقَرائِنُ الأَحْوال، ومن ذلك: أنَّك متى وجَدْت إثباتًا بعد (إِنْ) فهِيَ نافِية ﴿إِن نَّحْنُ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ﴾، ﴿إِنْ أَنتُمْ إِلَّا مُفْتَرُونَ﴾، ﴿إِن فِي صُدُورِهِمْ إِلَّا كِبْرٌ﴾ وهلُمَّ جرًّا، فمتى وجَدْت الإثبات في سِياق (إن) فاعْلَمْ أنها نافِية، ويَأتِي -إن شاءَ الله- الكَلامُ على بقِيَّة مَعانيها، لكن هنا يَقول: ﴿إِن فِي صُدُورِهِمْ إِلَّا كِبْرٌ﴾ قال: ﴿فِي صُدُورِهِمْ﴾، والذي في الصُّدور هو القَلْب، قال الله تعالى: ﴿فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى ٱلْأَبْصَٰرُ وَلَٰكِن تَعْمَى ٱلْقُلُوبُ ٱلَّتِي فِي ٱلصُّدُورِ﴾ [الحج:٤٦].

وإذا تَكبَّر القلب -والعِياذُ بالله- تَكبَّر البَدَن، وإذا ذُلَّ القلب لله ذُلَّ البَدَن، قال النَّبيُّ ﷺ: «أَلَا وَإِنَّ فِي الجَسَدِ مُضْغَةً إِذَا صَلَحَتْ صَلَحَ الجَسَدُ كُلُّهُ، وَإِذَا

فَسَدَتْ فَسَدَ الجَسَدُ كُلُّهُ؛ أَلَا وَهِيَ الْقَلْبُ»[1] وصدَق الرسول عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ، ومثَّل أبو هُرَيْرةَ ذلك بالمَلِك له جُنود يَأمُر الجُنود فيأتَمِرون[2]، ولكن شيخ الإسلام ابن تيمِيَّةَ[3] قال: إن تمْثيل الرسول ﷺ أَبلَغُ؛ لأن المَلِك قد يتمرَّد عليه الجُنودُ؛ لكن القَلْب هل يُمكِن تَتمرَّد عليه الجَوارِحُ، أبدًا لا يُمكِن، فجعَل الكِبْر في الصُّدور؛ أي: في القُلوب؛ لأن الصُّدور محلُّها.

قال المفسِّر رَحِمَهُ اللَّهُ: [﴿إِلَّا كِبْرٌ﴾ تكبُّر وطمَع أن يَعلوا عليكَ].

﴿مَّا هُم بِبَٰلِغِيهِ﴾ جُمْلة ﴿مَّا هُم بِبَٰلِغِيهِ﴾ الظاهِر أنها مُستَأنَفة، وليست صِفة لـ﴿كِبْرٌ﴾ ﴿إِن فِى صُدُورِهِمْ إِلَّا كِبْرٌ﴾؛ ولهذا نَقول: إذا قرَأْت فقُلْ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ فِىٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَٰنٍ أَتَىٰهُمْ ۙ إِن فِى صُدُورِهِمْ إِلَّا كِبْرٌ﴾ هذا المَوْقِفُ الصحيح، ولا تَقِفْ على قوله: ﴿بِغَيْرِ سُلْطَٰنٍ أَتَىٰهُمْ﴾ لا تَقِفْ عليه؛ لأَنَّك إذا وقَفْت على ﴿بِغَيْرِ سُلْطَٰنٍ أَتَىٰهُمْ﴾ فمَعناه أنك وقَفْت على الكلام قبل التَّمام، ولكن قُلْ: ﴿إِن فِى صُدُورِهِمْ إِلَّا كِبْرٌ﴾، ثُم قِفْ وقُلْ: ﴿مَّا هُم بِبَٰلِغِيهِ﴾؛ لأنك إذا وصَلْت ﴿إِلَّا كِبْرٌ مَّا هُم بِبَٰلِغِيهِ﴾ صارَت جُمْلة ﴿مَّا هُم بِبَٰلِغِيهِ﴾ حَسب القِراءة صِفة لكِبْر، وليس الأَمْر كذلك، بل هي جُمْلة مُستَأنَفة من الله عَزَّوَجَلَّ يَقول: إنهم لن يَبلُغوا ما في صُدورهم من التَّكبُّر عليك والعُلوِّ عليك، وقوله: ﴿مَّا هُم بِبَٰلِغِيهِ﴾ أَصْله ببالِغِينَه، لكن أين ذهَبَتِ النون؟

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب الإيمان، باب فضل من استبرأ لدينه، رقم (٥٢)، ومسلم: كتاب المساقاة، باب أخذ الحلال وترك الشبهات، رقم (١٥٩٩)، من حديث النعمان بن بشير رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.

(٢) أخرجه معمر في جامعه (١١/ ٢٢١)، والبيهقي في الشعب رقم (١٠٨).

(٣) مجموع الفتاوى (٧/ ١٨٧).

حُذِفَت النُّون للإضافة؛ لأن النون والتَّنوين لا يَجتَمِعان مع الإضافة؛ ولهذا قال أحَدُ الناس يَصِف تَباعُدَه مع صاحِبه:

كَـأَنِّي تَنْـوِينٌ وَأَنْـتَ إِضَـافَةٌ فَـأَيْنَ تَـرَانِي لَا تَحِـلُّ مَكَـانِي[1]

والنُّون كالتَّنوين تُحذَف مع الإضافة ﴿مَّا هُم بِبَٰلِغِيهِ﴾.

قال المفَسِّر رَحِمَهُ اللَّهُ: [﴿فَٱسْتَعِذْ﴾ من شَرِّهم ﴿بِٱللَّهِ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ﴾ لأَقْوالهم ﴿ٱلْبَصِيرُ﴾ لأَحْوالهم]، ﴿فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ﴾ (استَعِذْ) بمَعنَى: استَجِرْ به واعتَصِمْ به فإنه جَلَّوَعَلَا نِعْمَ المَعاذُ؛ ولهذا لَمَّا دخَل النَّبيُّ ﷺ على امرأةٍ تَزوَّجها فقالت: أَعوذُ بالله مِنْك. قال: «لَقَدْ عُذْتِ بِمَعَاذٍ الحُقِي بِأَهْلِكِ»[2] وتَركها مع أنه تَزوَّجها راغِبًا فيها، لكنَّها استعاذَت بمَن لا يُمكِن أن يُخفَر جِوارُه أبدًا، قال: «الحُقِي بِأَهْلِكِ».

فاستَعِذْ بالله؛ مِن أيِّ شيء؟ يَقول المفَسِّر رَحِمَهُ اللَّهُ: [مِن شَرِّهم] والأَوْلى أن يَكون الأمر أعَمَّ. أي: استَعِذ بالله من كل مَكروهٍ، فلا مَلجَأَ للإنسان إلَّا إلى الله عَزَّوَجَلَّ ولا عِياذَ إلَّا به، ولا لِياذَ إلَّا به أيضًا، فهو عَزَّوَجَلَّ نفَر منه إليه.

وقوله: ﴿فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ ختَمَ الآية بالسَّمْع والبصَر؛ لأن ما يُؤذون به النَّبيَّ ﷺ إمَّا قول فيُدرَك بالسَّمْع، أو فِعْل فيُدرَك بالبصَر. يَعني: آذَوْك بالقول فنَحن نَسمَع، بالفِعْل فنحن نُبصِر، وهذا فيه من تَطمين الرَّسول ﷺ ما يُعلَم -إن شاءَ الله- في ذِكْر الفَوائِد والله أَعلَمُ.

---

(١) انظر: ذكريات علي طنطاوي (٢/ ٣٤١).

(٢) أخرجه البخاري: كتاب الطلاق، باب من طلق، رقم (٥٢٥٤)، من حديث عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، ورقم (٥٢٥٥)، من حديث أبي أسيد رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

فإن قال قائل: صحيح ما ذهَب إليه بعض المفَسِّرين في قوله تعالى: ﴿لِّيَغْفِرَ لَكَ ٱللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنۢبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ﴾ ما تَقدَّم قبلَ الرِّسالة، وأمَّا المُتأخِّر هو تَرْك الأَوْلى من الرسول؟

فالجوابُ: هذا غيرُ صَحيح، الرسول عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ فعَل أَشياءَ عاتَبه الله فيها بعدَ الرِّسالة ﴿وَإِذْ تَقُولُ لِلَّذِىٓ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ وَٱتَّقِ ٱللَّهَ وَتُخْفِى فِى نَفْسِكَ مَا ٱللَّهُ مُبْدِيهِ وَتَخْشَى ٱلنَّاسَ وَٱللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَىٰهُ﴾ [الأحزاب:٣٧].

فلا نُنزِّهُ الرسول إلَّا عمَّا نزَّهَهُ الله عنه، ثُم قُلتُ قبلَ قليل: قد يَكون الإنسان بعد التَّوْبة من المَعصِية خيرًا منه قَبْلها وضرَبْنا لكم مثَلًا بقِصَّة آدَمَ، فدعُوا النُّصوص على ما هي عليه، والله عَزَّوَجَلَّ لا يَظلِم أحَدًا أبدًا.

فلمَّا قالوا: إن قول الله تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا ۖ فَلَمَّا تَغَشَّىٰهَا حَمَلَتْ حَمْلًا خَفِيفًا فَمَرَّتْ بِهِۦ ۖ فَلَمَّآ أَثْقَلَت دَّعَوَا ٱللَّهَ رَبَّهُمَا لَئِنْ ءَاتَيْتَنَا صَٰلِحًا لَّنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴿١٨٩﴾ فَلَمَّآ ءَاتَىٰهُمَا صَٰلِحًا جَعَلَا لَهُۥ شُرَكَآءَ فِيمَآ ءَاتَىٰهُمَا﴾ [الأعراف:١٨٩-١٩٠] قالوا: إن هَذِه الآيَةَ نزَلَت في آدَمَ وحَوَّاءَ أنها حمَلَت فجاءَها الشَّيْطان فقال: سَمِّيَا ولَدَكما عبدَ الحارِث. فأَبَيا أن يُطيعاه فخَرَج مَيْتًا، ثُمَّ حمَلَت ثانيةً فجاءَهُما وقال: لَتُطيعانِّي أو لأَجْعَلنَّ له قرنَيْ أيل -والأيل نوع من الغُزلان قَرنُه قويٌّ كالحربة- فيَخرُج من بَطنك فيَشُقُّك، فأَدركَهما حُبُّ الولَد فسَمَّياه عبدَ الحارِث[1] عبَّداه لغَيْر الله، لا يُمكِن أن يَقَع هذا من آدَمَ عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ.

---

(١) أخرجه الإمام أحمد (٥/ ١١)، والترمذي: كتاب تفسير القرآن، باب ومن سورة الأعراف، رقم (٣٠٧٧)، من حديث سمرة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ.

ثُم لو فُرِض أنه وقَعَ هل يُمكِن أن يَذكُر الله السُّوءَ ولا يَذكُر التَّوْبة منه؛ لأنَّا نَقـول: إذا وقَعَ فإمَّا أن يَكون قد تاب منه أو لم يَتُب، فإن لم يَتُب فقـد مات على الشِّرْك، فإن تاب فلَيْس من عَدْل الله عَزَّوَجَلَّ أن يَذكُر السُّوء ولا يَذكُر الخَلاص مِنه.

فنحن نَقولُ: بعضُ العُلَماء -عفا الله عنَّا وعَنْهم- يَتَحايَلون أو يَتمحَّلون على العِبارة الصحيحة، يَتَمحَّلون في تَنزيه الرسُل عمَّا وصَفَهم الله به، لكن نحن نُؤمِن بأن الرسول يَختَلِف مع غيره في مَسأَلَتَيْن:

المَسأَلة الأُولى: أنه لا يُمكِن أن يَفعَل ما يُخِلُّ بالرِّسالة أو بالشَّرَف.

المَسأَلة الثانِية: إذا فعَل مَعصية فلا يُمكِن إلَّا أن يَتوب منها، لا يُقِرُّه الله على مَعصية، نحن الآنَ جائِز على بني آدَمَ أن يَفعَلوا ما يُخِلُّ بالشَّرَف، يَأتون الفاحِشة، يَزنون، جائِزٌ عليهم أيضًا إذا فعَلوا أن لا يَتـوب، فالرُّسُل يَختَلِفـون عن غيرهم بهذَيْن الأَمْرين.

فالخُلاصةُ: أن بعض العُلَماء رَحِمَهُمُ اللَّهُ يَتمحَّلون بالنِّسبة للرُّسُل عليهم الصلاة والسلام ونحن نَقول: لا نَتَعدَّى القُرآن والحديث أبَدًا: «نبيٌّ مِن الأَنْبياءِ قَرَصَتْه نَمْلةٌ -النَّمْلة مَعروف- فأَحرَق قَرْيَة النَّمْل كُلَّها -شبَّ عليها نارًا- فأَوْحى الله إليه هَلَّا نَمْلة واحِدة، تَقرُصُك نَمْلة وتَروح إلى كل القَرْية فتُحرِقَها بسبَبِ ذَنْب واحِدٍ»[1]؟

وهذا إشارة إلى أن الإنسان يَجِب عليه أن يَتحَرَّى، ثُم هذا النَّملُ لا يُمكِن أن يَتأدَّب، هل تَظُنُّون أن إذا سمِعَت النَّمْلة الأُخرى بهذه القِصَّةِ أن تَتُوبَ عن قَرْص

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب الجهاد والسير، باب إذا حرق المشرك المسلم هل يحرق، رقم (٣٠١٩)، ومسلم: كتاب السلام، باب النهي عن قتل النمل، رقم (٢٢٤١)، من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

الناس؟ لا، وأقول لكم هذا؛ لِئَلَّا تُورِدوا على أن الله تعالى قد يُهلِك الطائِعِين بذَنْب العُصاة ﴿وَٱتَّقُواْ فِتْنَةً لَّا تُصِيبَنَّ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنكُمْ خَآصَّةً﴾ [الأنفال:٢٥]؛ لأن هَؤلاءِ الطائِعين مُكلَّفون بإنكار المُنكَر، ثُم إذا أُهلِكوا تَأدَّب بِهِم مَن سِواهم بخِلاف مَسأَلة قرية النَّمْل.

من فوائدِ الآيةِ الكريمةِ:

الْفَائِدَةُ الأُولَى: بَيان حال الذين يُجادِلون في آيات الله، وأنه ليس لهُمْ دَليل فيما يُجادِلون به، ثُم إن الجِدال في آيات الله يَنقَسِم إلى قِسْمين:

جِدال لإثبات الحَقِّ وإبطال الباطِل وهذا مَأمور به؛ لقوله تعالى: ﴿وَجَٰدِلْهُم بِٱلَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾ [النحل:١٢٥].

وجِدالٌ بالعَكْس لإثبات الباطِل وإبطال الحَقِّ، وهذا هو المَذْموم، وعليه تَتنزَّل مِثْل هذه الآياتِ الكَريمةِ.

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَةُ: إثباتُ آيات الله عَزَّوَجَلَّ وهي كما قُلْنا في التَّفْسير شَرْعية وكَوْنية.

الْفَائِدَةُ الثَّالِثَةُ: أن الحامِلَ لهؤلاءِ المُجادِلين هو الكِبْر والتَّعالي؛ لقوله: ﴿إِن فِي صُدُورِهِمْ إِلَّا كِبْرٌ﴾.

الْفَائِدَةُ الرَّابِعَةُ: أن هَؤلاءِ لم يَبلُغوا مُرادَهم بما يُجادِلون به؛ لقوله: ﴿مَّا هُم بِبَٰلِغِيهِ﴾ وقد أَشارَ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ إلى هـذا في قوله: ﴿بَلْ نَقْذِفُ بِٱلْحَقِّ عَلَى ٱلْبَٰطِلِ فَيَدْمَغُهُۥ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ ۚ وَلَكُمُ ٱلْوَيْلُ مِمَّا تَصِفُونَ﴾ [الأنبياء:١٨]، فتَأمَّل هذه العِباراتِ القَوِيَّةَ ﴿بَلْ نَقْذِفُ بِٱلْحَقِّ عَلَى ٱلْبَٰطِلِ﴾ قَذْف وهو الرَّميُ بشِدَّة ﴿فَيَدْمَغُهُۥ﴾؛ أي: يَصِل إلى أُمِّ دِماغه فإذا هو زاهِق فيَموت في الحال؛ لأن (إذا) فُجائِيَّة، و(إذا) الفُجائِيَّة

تَدُلُّ على مُفاجأة الشَّيْء.

وهذا يَدُلُّ على أن الحَقَّ غالِب للباطِل ولا مَحالةَ.

فإن قيل: إنَّنا نَجِد المُجادَلة من الكُفَّار أحيانًا لا تُدفَع، يَعجِز الإنسان عن دَفْعها.

فالجواب: نعَمْ هذا ربما يَكون، لكن ليسَتِ العِلَّة من الحُجَّة، بل مِن المُحتَجِّ، فالعِلَّة ليست من الحُجَّة، الحُجَّة قائِمة والحقُّ غالِب، لكن العِلَّة من المُحتَجِّ قد يَكون قليلَ العِلْم؛ ولهذا لا يَنبَغي أن تَدخُل في مُجادَلة غيرِك إلَّا ومعَك عِلْم، وقد يَكون قاصِرَ الفَهْم لا يَفهَم، هو عِنده عِلْم لكن لا يَفهَم، وقد يَكون سَيِّئَ القَصْد يُريد الغلَبة فقَط انتِصارًا لقوله، لا انتِصارًا للحَقِّ، وهذا يَخذُل، وقد يَكون لِعِيِّه، ومَعنى العِيِّ أنه ليس عِنده من البَيان والفَصاحة ما يُؤدِّي إلى الغَلَبة؛ لأن البَيان والفَصاحة لَهُما تَأثير كبير في إثبات الحَقِّ، بل قد قال النَّبيُّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: «إنَّ مِنَ البَيَانِ لَسِحْرًا»(١).

فهَذه الأُمورُ الأَربَعة هي الَّتي قد تَجعَل الباطِل يَعلُو ظاهِرًا على الحَقِّ والأربعة هي واحِد.

أمَّا قِلَّة العِلْم هذه فهي الجَهْل، أو عِيِّه عن التَّعبير عَمَّا في نَفْسه، سُوء القَصْد، الرابع قُصور فَهْمه. هذه الأَرْبعة هي التي تَجعَل من الباطِل مَنارًا يَعلو ظاهِرًا على الحَقِّ، وأمَّا الحَقُّ نَفْسه فلا يُمكِن إطلاقًا أن يَغلِبه الباطِلُ.

الْفَائِدَةُ الخَامِسَةُ: أن الكِبْر سبَب لكُلِّ شَرٍّ؛ ولهذا لا يَدخُل الجَنَّة مَن في قَلْبه

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب النكاح، باب الخطبة، رقم (٥١٤٦)، من حديث ابن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.

مِثقال حَبَّة خَردَلٍ من كِبْر، ونوع هذا الكِبْرِ الذي في هَؤلاءِ المُجادِلين هل هو بطَر الحَقِّ وغَمْط الناس، هـذا الكِبرُ -والعِياذُ بالله- جمَعَ نوعَي الكِبْر، وهو غَمْط الحَقِّ ورَدُّه، والثاني ازدِراء الناس بطَر الحَقِّ وغَمْط الناس.

الْفَائِدَةُ السَّادِسَةُ: تَثبيت النَّبيِّ ﷺ؛ لقوله: ﴿مَّا هُم بِبَٰلِغِيهِ﴾.

الْفَائِدَةُ السَّابِعَةُ: تَيْئيس هَؤلاءِ المُجادِلين بأنهم لن يَبلُغوا مُرادَهم.

الْفَائِدَةُ الثَّامِنَةُ: أن الاسْتِعاذة بالله في مَقام المُجادَلة مَشروعة؛ لقوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ﴾ وذلك أن المُجادِل سيُورِد من الشُّبَه ما يُخشَى أن تُؤثِّر عليه، فإذا استَعاذ بالله واعتَصَم به أَنجاهُ الله من ذلك؛ ولهذا قال: ﴿فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ﴾ في المُجادَلة أَمَر بالاستِعاذة بالله، وعِند الحُكْم أَمَر بالاستِغْفار ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ ٱلنَّاسِ بِمَآ أَرَىٰكَ ٱللَّهُ ۚ وَلَا تَكُن لِّلْخَآئِنِينَ خَصِيمًا ۝١٠٥ وَٱسْتَغْفِرِ ٱللَّهَ﴾ [النساء:١٠٦]، وذلك لأن الذُّنوب تَحول بين الإنسان وبين تَبيُّن الحَقِّ، وأمَّا في مَقام المُجادَلة فالإنسان مُحتاج إلى مَن يَلتَجِئ إليه ويَعتَصِم به؛ فلهذا قال: ﴿فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ﴾.

الْفَائِدَةُ التَّاسِعَةُ: إثبات السَّمْع لله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ؛ لقوله: ﴿إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ﴾ وإثبات البصَر؛ لقوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿ٱلْبَصِيرُ﴾ والسَّمْع ذكَرَ العُلَماء رَحِمَهُمُ ٱللَّهُ أنه يَنقَسِم إلى قِسْمَيْن: الأوَّل: إدراك المَسموع، والثاني: الاستِجابة.

فأمَّا إدراك المَسموع فيَرِد لمَعانٍ مُتَعدِّدة:

أوَّلًا: بَيانُ سَعة سَمْع الله عَزَّوَجَلَّ، مِثاله قول الله تعالى: ﴿قَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوْلَ ٱلَّتِى تُجَٰدِلُكَ فِى زَوْجِهَا وَتَشْتَكِىٓ إِلَى ٱللَّهِ وَٱللَّهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَآ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌۢ بَصِيرٌ﴾ [المجادلة:١]؛

ولهذا قالَتْ عائِشةُ: «الحَمْدُ للهِ الَّذِي وَسِعَ سَمْعُهُ الْأَصْواتَ»[(١)].

الثاني: التَّهديد كقوله تعـالى: ﴿أَمْ يَحْسَبُونَ أَنَّا لَا نَسْمَعُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَىٰهُم ۚ بَلَىٰ وَرُسُلُنَا لَدَيْهِمْ يَكْتُبُونَ﴾ [الزخرف:٨٠].

الثالِث: التَّأييد كقوله تعالى لِمُوسى وهارونَ: ﴿قَالَ لَا تَخَافَآ ۖ إِنَّنِي مَعَكُمَآ أَسْمَعُ وَأَرَىٰ﴾ [طه:٤٦].

أمَّا السَّمْع الذي بمَعنى الاستِجابة فكَقَوْله تعالى: ﴿إِنَّ رَبِّي لَسَمِيعُ ٱلدُّعَآءِ﴾ [إبراهيم:٣٩]؛ أي: مُجيبُه، وكقول المُصلِّي: سمِعَ الله لَمن حَمِدَه. أي: استَجاب لَمنْ حَمِده، وأمَّا البَصيرُ فلها مَعنَيان: المَعنَى الأوَّل: المُدرِك ببَصَره كلَّ شيء فيكون بمَعنَى الرُّؤْية؛ والثاني: العِلْم، يَعنِي: أنه عليم بكُلِّ شَيْء.

الْفَائِدَةُ الْعَاشِرَةُ: إثبـات السَّمْع والبصَر مَعًا، وهو أدَلُّ على الكَمال من انفِراد أحدِهما، وذلك لأن المُجادِل قد يَقـول وقد يَفعَل، فهدَّده الله عَزَّوَجَلَّ بهذا ﴿إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾؛ لأن المُستَعيذ بالله إمَّا أن يَستَعيذ من أَقوال، وإمَّا أن يَستَعيـذ من أَفْعال.

• • ۞ • •

(١) علقه البخاري: كتاب التوحيد، باب قول الله تعالى: ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ سَمِيعًۢا بَصِيرًا﴾ (٩/ ١١٧). ووصله الإمام أحمد (٦/ ٤٦)، والنسائي: كتاب الطلاق، باب الظهار، رقم (٣٤٦٠)، وابن ماجه: في المقدمة، باب فيما أنكرت الجهمية، رقم (١٨٨).

الآية (٥٧)

• ● ◌ ● •

۞ قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿لَخَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [غافر:٥٧].

• ● ◌ ● •

ثُم قال الله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ: ﴿لَخَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ ٱلنَّاسِ﴾ اللَّام هنا لامُ الابتِداء، وتُفيد التَّوْكيد، و﴿لَخَلْقُ﴾ مُبتَدأ، و﴿أَكْبَرُ﴾ خبَر المُبتَدأ، ﴿ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ هي السَّبْع الطِّباق ﴿وَٱلْأَرْضِ﴾ هي الأَرْض التي نحن عليها، وقد جاءَتِ السُّنَّة بأنها سَبْع تصريحًا، كما في قول النَّبيِّ ﷺ: «مَنِ اقْتَطَعَ شِبْرًا مِنَ الْأَرْضِ ظُلْمًا طَوَّقَهُ الله بِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مِنْ سَبْعِ أَرَضِينَ»(١) وأَوْمَأ القُرآن إلى ذلك في قوله: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ وَمِنَ ٱلْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ﴾ [الطلاق:١٢]؛ لأن المُماثَلة هنا لا يُمكِن أن تَكون في الصِّفة؛ لظُهور المُماثَلة في السَّموات والأرض، لكنها مِثْلها في العدَد.

وقوله: ﴿أَكْبَرُ﴾ خبَرُ المُبتَدأ؛ أي: ﴿أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ ٱلنَّاسِ﴾ يَعنِي: من إيجاد الناس ابتِداء، أو إعادة ابتِداء، وإعادة إيجاد السَّموات والأرض أكبَرُ من إيجاد الناس ابتِداء وإعادة.

يَقولُ: ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ يقول المفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [ونزَلَ في

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب المظالم، باب إثم من ظلم شيئًا من الأرض، رقم (٢٤٥٢، ٢٤٥٣)، ومسلم: كتاب المساقاة، باب تحريم الظلم وغصب الأرض وغيرها، رقم (١٦١٠)، من حديث سعيد بن زيد رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ.

مُنكِرِي البَعْـث: ﴿لَخَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ ابتِداءً ﴿أَكْبَرُ﴾ من خَلْق الناس مرَّة ثانِيةً] فقَيَّد خَلْق الناس بالمَرَّة الثانية [وهي الإِعادة] بِناءً على أن الآية نزَلَت في مُنكِرِي البَعْث، والصَّواب أن الآية نزَلَت فيما هو أَعَمُّ، نزَلَت في مُنكِرِي البَعْث وفي بَيان قُدْرة الله عَزَّوَجَلَّ.

وعلى هذا فنَقول: ﴿لَخَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ ابتِداءً ﴿أَكْبَرُ﴾ من خَلْق الناس ابتِـداءً وإعادةً ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ﴾ قال المفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [أي: كُـفَّار مَكَّةَ] ﴿لَا يَعْلَمُونَ﴾ وفي هـذا التَّفسيرِ قُصور؛ لأن أكثَرَ الناس أعَمُّ من كونهم من مكَّةَ أو غيرهم ﴿أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾؛ لأنهم لا يَتفكَّرون في خَلْق السَّمَوات والأرض فهُمْ جاهِلون لا يَعلَمون.

من فوائدِ الآيةِ الكريمةِ:

الْفَائِدَةُ الأُولَى: في هـذا إثبات أن السَّمواتِ والأَرْضَ أعظَمُ من البَشَر وهذا واضِحٌ، بل إن البَشَر جُزْء من الأرض؛ لأنهم خُلِقوا من طين.

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَةُ: إقامة الحُجَّة على مُنكِرِ البَعْث بأنكم إذا أَقرَرْتم بأن الله خالِق السَّمَوات والأرض؛ لزِمَكم أن تُقِرُّوا بأنه قادِر على خَلْق الناس؛ لأن مَن قَدَر على الأَعْظم فهو على ما دونَه أقدَرُ، وقد أَقام الله أيضًا أدِلَّة كَثيرةً على إثبات البَعْث منها هذه الآيةُ، وهي الاستِدْلال بالأَعظَم على الأدنى، ومنها قولُه تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ﴾ [الروم:٢٧]، ﴿وَهُوَ﴾ الضمير يَعود على الإعادة ﴿أَهْوَنُ عَلَيْهِ﴾ من الابتِداء وهذا شيء مَعلوم بالحِسِّ وبالعَقْل.

الْفَائِدَةُ الثَّالِثَةُ: إثبات البَعْث، وجهُ الدَّلالة قولُه: ﴿أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ ٱلنَّاسِ﴾؛ لأن المَقْصود من الآية تَقرير البَعْث.

الْفَائِدَةُ الرَّابِعَةُ: أن أَكثَر الناس في غَفْلة وجَهْل؛ لقوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ وهذا يُشبِه قوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿وَإِن تُطِعْ أَكْثَرَ مَن فِي ٱلْأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِۚ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ﴾ [الأنعام:١١٦]، فاحْرِصْ على أَلَّا تَكون من هَؤلاءِ الذين لا يَعلَمون.

الْفَائِدَةُ الخَامِسَةُ: أن العِلْم في الناس قَليلٌ؛ لأنه إذا كان أَكثَرُهم لا يَعلَم؛ لزِمَ أن يَكون الذي يَعلَم هو الأَقلَّ.

فإن قال قائِلٌ: هل المُراد نَفْيُ العِلْم أو نَفيُ فائِدة العِلْم؟

فالجَوابُ: المُرادُ الأَمْران فأكثَرُ الناس في جَهْل وأَكثَرُ الناس أيضًا، وعِندهم عِلْم لم يَنتَفِعوا بعِلْمهم، ولم يَستَفيدوا منه.

الآية (٥٨)

• • ∽ • •

❁ قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَمَا يَسْتَوِى ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَلَا ٱلْمُسِىٓءُ قَلِيلًا مَّا تَتَذَكَّرُونَ﴾ [غافر:٥٨].

• • ∽ • •

قال تعالى: ﴿وَمَا يَسْتَوِى ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَلَا ٱلْمُسِىٓءُ﴾ هذان المَثَلان بيَّنَهما الله عَزَّوَجَلَّ: الأَوَّل: الأَعْمى والبَصير لا يَستَوِيان، ولا أَحَدَ من الناس يَقول: إنَّهما يَستَويان، ولا الذين آمَنوا وعمِلوا الصالِحاتِ ولا المُسيءُ. يَعنِي: إذا تَقرَّر أنه لا يَستَوِي الأعمى والبَصيرُ، فكذلِكَ لا يَستَوِي الَّذين آمَنوا وعمِلوا الصالحاتِ والمُسِيءُ، لا يُمكِن.

تنبيه: ليس المُرادُ ذمَّ الأَعْمى والبَصير حتى يُقال: إنَّهما ليس لهما إِرادة، المُرادُ بَيان حالِهم أنهما لا يَستَوِيان بالاتِّفاق.

قال المفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [فهُمْ] أيِ: الَّذين لا يَهتَدون [كالأَعْمى ومَن يعلمه كالبَصير] جاء بذلِك المفَسِّر توطِئةً لبيان مُناسَبة الآية لما قَبْلها، ولكن قد يُقال: إنها استِئْناف، بيَّن الله بها أنه لا يَستَوِي هَؤلاءِ وهَؤلاءِ ﴿وَمَا يَسْتَوِى ٱلْأَعْمَىٰ﴾؛ أي: لا يَتَساوَيان ﴿ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ قال المفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [وهُوَ المُحسِن ﴿وَلَا ٱلْمُسِىٓءُ﴾ فيه زِيادة اللَّام]، وكأن التَّقدير على كَلام المفَسِّر: ولا الَّذين آمَنوا وعمِلوا الصالِحات والمُسيء، وهذا المَعنَى واضِح، لكن قوله:

[وهُوَ المُحسِن] يَعنِي: أن الذي آمَن وعمِل الصالِحاتِ مُحسِن؛ لقوله ﷺ: «**الْإِحْسَانُ أَنْ تَعْبُدَ اللهَ كَأَنَّكَ تَرَاهُ فَإِنْ لَمْ تَكُنْ تَرَاهُ فَإِنَّهُ يَرَاكَ**»[1].

وقوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ ﴿ءَامَنُواْ﴾ بالقَلْب ﴿وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ بالجَوارِح، وذلك أن الإيمان مَتى وقَر في القَلْب صدَّقَته الأَعْمال، وقوله: ﴿ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ وَصْف لمَوْصوف مَحذوف، والتَّقدير: الأَعْمال الصالِحات، والعمَل الصالِح ما اجتَمَع فيه أَمْران:

الأَوَّل: الإِخْلاص لله عَزَّوَجَلَّ.

والثاني: المُتابَعة لرسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ.

فبفَقْد الأَوَّل يَكون الشِّرْك، وبفَقْد الثاني تَكون البِدْعة، والله عَزَّوَجَلَّ لا يَقبَل عَمَلًا أُشرِك فيه معَه غيرُه، ولا يَقبَل بِدْعة ابتَدَعها أَحَد في دِينه.

قال الله تَبَارَكَ وَتَعَالَى في الحَديث القُدسيِّ: «**أَنَا أَغْنَى الشُّرَكَاءِ عَنِ الشِّرْكِ، مَنْ عَمِلَ عَمَلًا أَشْرَكَ فِيهِ مَعِي غَيْرِي تَرَكْتُهُ وَشِرْكَهُ**»[2] وقال النَّبيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ: «**مَنْ عَمِلَ عَمَلًا لَيْسَ عَلَيْهِ أَمْرُنَا فَهُوَ رَدٌّ**»[3].

إِذَنْ: فلا بُدَّ من إخلاص لا شِرْكَ معه، ومُتابَعةٍ لا ابتِداعَ معَها، وبذلِك يَكون العمَل صالِحًا.

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب الإيمان، باب سؤال جبريل النبي ﷺ عن الإيمان، رقم (٥٠)، ومسلم: كتاب الإيمان، باب معرفة الإيمان، رقم (٩)، من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٢) أخرجه مسلم: كتاب الزهد، باب من أشرك في عمله غير الله، رقم (٢٩٨٥)، من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٣) أخرجه مسلم: كتاب الأقضية، باب نقض الأحكام الباطلة، ورد محدثات الأمور، رقم (١٧١٨)، من حديث عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا.

وقوله: ﴿وَلَا ٱلْمُسِيٓءُ﴾ يَعنِي: فاعِل السَّيِّئات، والسَّيِّئات هي إمَّا تَفريط أو إفراط؛ أي: إمَّا تَفريط بالنَّقْص والقُصور وإمَّا إفراط بالزِّيادة، وكِلاهما إساءة.

ثُم قال عَزَّوَجَلَّ: ﴿قَلِيلًا مَّا نَتَذَكَّرُونَ﴾ قال المفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [يَتَّعِظون؛ بالياء والتاء؛ أي: تَذكُّرُهم قليلٌ جِدًّا] قوله: ﴿نَتَذَكَّرُونَ﴾؛ أي: يَتَّعِظون وفيها قِراءَتان: «يَتَذَكَّرُونَ» و﴿نَتَذَكَّرُونَ﴾، وكِلاهما صَحيحتان سَبْعيتان.

ثُمَّ أَشار المفَسِّر إلى إعراب هذا التَّرْكيبِ، وهو كَثير في القُرآن، فقال رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [أي: تَذكُّرهم قَليـلٌ جِدًّا] وعلى هـذا تكون (ما) مَصدَرية، أي: تَذكُّرهم تَذكُّرٌ قَليلٌ، ولكن الذي يَظهَر أن ﴿قَلِيلًا﴾ صِفة لمَوْصوف محَذوف مَفعول مُطلَق؛ أي: يَتَذكَّرون تَذكُّرًا قليلًا و﴿مَّا﴾ هذه زائِدة للتَّوْكيد، تَوْكيد القِلَّة؛ يَعنِي: قَليلًا قَليلًا، وعلى هذا فتكون الجُمْلة مُركَّبة من فِعْـل وفاعِل ومن مَفعول مُطلَق الذي هو (قَليلًا)؛ لأنه صِفة لمَصدَر محَذوف، ومن (ما) الزائِدةِ للتَّوْكيد.

من فوائِدِ الآيةِ الكريمةِ:

الْفَائِدَةُ الأُولَى: ضَرْب الأَمْثال، وهو إلحاق المَعقول بالمَحْسوس، وجهُ ذلك أن انتِـفاء الاستِواء في الأعمى والبصير أَمْر مَعلوم بالحِسِّ، وانتِفاء استِواء الذين آمَنوا وعمِلوا الصالِحاتِ والمُسيءِ أَمْر مَعلوم بالعَقْل.

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَةُ: أنه يَنبَغي لمُعـلِّم الناس أن يَربِط المَعقولات بالمَحْسـوسات؛ لأن ذلك أَقرَبُ إلى الفَهْم وأَدعَى إلى التَّصديق؛ إذ إن المَحسوس لا يُنكَر، لكن المَعقول قد يُكابِر فيه مَن يُكابِر ويُنكِره.

الْفَائِدَةُ الثَّالِثَةُ: نَفيُ المُساواة بين الأمور المُختَلِفة وهذا من قَواعِد الشريعة أنها

لا تُساوِي بين مُختَلِفين، ولا تَجمَع بين مُفترِقين.

الْفَائِدَةُ الرَّابِعَةُ: أن من الناس مَن يُطَنْطِن ويَقول: إن الدِّين الإسلاميَّ دِين المُساواة، وهـذا خطَأ، الدِّين الإسلاميُّ دِين العَـدْل وليس دِين المُساواة، الذين يَقولون: إنه دِين المُساواة يُريدون أن يَتحوَّلوا من هذا إلى التَّسوية بين الرجُل والمرأة، وبين الشَّريف والوَضيع، وهذا خطَأ، فإن الله تعالى جعَل لكل إنسان ما يَليق به شَرْعًا وقَدَرًا؛ ولهذا لم يَأتِ حَرْف واحِد في القُرآن فيه أن الناس سواءٌ أبَدًا، أكثَرُ ما يُوجَد في القرآن نفيُ الاستِواء أي: نَفيُ المُساواة، لكن العَدْل جاء في القُرآن ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأۡمُرُ بِٱلۡعَدۡلِ وَٱلۡإِحۡسَٰنِ﴾ [النحل:٩٠]، ﴿وَإِذَا حَكَمۡتُم بَيۡنَ ٱلنَّاسِ أَن تَحۡكُمُواْ بِٱلۡعَدۡلِ﴾ [النساء:٥٨]، ﴿ٱعۡدِلُواْ هُوَ أَقۡرَبُ لِلتَّقۡوَىٰ﴾ [المائدة:٨]، إلى غير ذلك من الآيات.

وذلك لأن العَدْل يَعنِي: أن نُنزِل كل إنسان مَنزِلته فإذا استَوَى إنسانان في مَنزِلة سَوَّيْناهما في الحُكْم، أو ساوَيْنا بينهما في الحُكْم، وإذا اختَلَفا فرَّقْنا بينهما.

والعجَبُ أن كثيرًا من كُتُب المُتأخِّرين يَقـولون بذلك، وهـذا أَمْر قد يَدعو أيضًا إلى التَّسوية بين المُسلِم والكافِر؛ لأن كُلًّا منهما إنسـان بشَر، لكن إذا قُلْنا: العَدْل صار الكافِر لا يُمكِن أن يَلحَق بالمُسلِم؛ لأن ذلك جَوْر وظُلْم في حَقِّ المُسلِم، وغُلوٌّ وإفراط في حقِّ الكافِر.

الْفَائِدَةُ الخَامِسَةُ: فضيلة الإيمان والعمَل الصالِح وسُوء العمَل السَّيِّئ؛ لقوله: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَلَا ٱلۡمُسِيٓءُ﴾.

الْفَائِدَةُ السَّادِسَةُ: أن كثيرًا من الناس لا يَتذكَّرون إلَّا قليلًا؛ لقوله سُبۡحَانَهُۥ وَتَعَالَىٰ: ﴿قَلِيلٗا مَّا تَتَذَكَّرُونَ﴾.

الْفَائِدَةُ السَّابِعَةُ: أن في هذه الآيةِ شاهِدًا؛ لقول الله تَبَارَكَ وَتَعَالَى: ﴿وَإِن تُطِعْ أَكْثَرَ مَن فِي الْأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ﴾ [الأنعام:١١٦]، وقوله: ﴿وَمَا أَكْثَرُ النَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ﴾ [يوسف:١٠٣].

• ● ● •

الآية (٥٩)

• • ❀ • •

❁ قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿إِنَّ ٱلسَّاعَةَ لَأٓتِيَةٌ لَّا رَيْبَ فِيهَا وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ [غافر:٥٩].

• • ❀ • •

ثُم قال الله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ: ﴿إِنَّ ٱلسَّاعَةَ لَأٓتِيَةٌ لَّا رَيْبَ فِيهَا﴾ هذه الجُملةُ مُؤكَّدة بمُؤكِّدين هما: (إنَّ) واللَّام، ثُم أَكَّد هذا التَّأكيد وهو تَأكيد مَعنَويٌّ، والأوَّل تَأكيد لَفْظيٌّ ﴿لَّا رَيْبَ﴾ قال المفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [شَكَّ] ﴿فِيهَا﴾ أي: في إتيانها ووقوعها، والمُراد بالساعة اليوم الذي يُبعَث فيه الناس، وسُمِّيَ ساعة؛ لأن الناس يُطلِقون الساعة على الأَمْر الذي يَدهى الناس ويَفجَعهم حتى لا يَشعُرون به.

والرَّيْب فسَّره المفَسِّر بالشَّكِّ، وهو تَفسير قريب، لكن تَجِد فَرْقًا يَسيرًا لطيفًا بينهما؛ أي: بين الرَّيْب والشكِّ، وهو أن الرَّيْب شكٌّ بافتِراض وتَردُّد، فقول القائِل: ارْتَاب ليس بالتَّحديد كقوله: شكَّ، بل الِارْتِياب يَحمِل قلَقًا واضطِرابًا، فهو إِذَنْ أَخصُّ من الشكِّ، فكُلُّ رَيْب شكٌّ، وليس كل شَكٍّ رَيبًا، لكن العُلماء رَحِمَهُمُ ٱللَّهُ يُفسِّرون الشيء بمُقارِبه.

وقوله: ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ لا يُؤمِن بإتيان الساعة؛ ولهذا أَكَّد لهم إتيانها، ولَمَّا كان أَكثَر الناس لا يُؤمِنون بها كان أكثَرُ الناس كافِرين؛ لأن الإيمان بالساعة له أثَرٌ عَظيم في تَحقيق الإيمان، فإن مَن لا يُؤمِن بالساعة لا يَعمَل،

لأيِّ شيء يَعمَل وهو لا يُؤمِن بيوم الحِساب؟ ومَن آمَن بيَوْم الحِساب كان حَريصًا على أن يَنْجوَ من وَبال هذا اليَوْمِ ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ﴾.

من فوائدِ الآيةِ الكريمةِ:

الْفَائِدَةُ الأُولَى: ثُبوت قيام الساعة ثُبوتًا مُؤكَّدًا؛ لقوله: ﴿إِنَّ ٱلسَّاعَةَ لَآتِيَةٌ لَّا رَيْبَ فِيهَا﴾.

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَةُ: التَّحذير من إهمال هذه الساعةِ وعدَم العمَل لها؛ لقوله: ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ﴾.

الْفَائِدَةُ الثَّالِثَةُ: وُجوبُ الإيمان بالبَعْث؛ لأنه خبَرٌ من الله مُؤكَّد، وكل أخبار الله تعالى صِدْق، وكلُّ وَعْد الله حقٌّ.

الْفَائِدَةُ الرَّابِعَةُ: النَّهيُ عن الارْتِياب في هذه الساعةِ؛ لأن قوله: ﴿لَا رَيْبَ﴾ فيها يُحتَمَل أن يَكون خبَرًا مُجرَّدًا للتأكيد، ويُحتَمَل أن يَكون خبرًا بمَعنى الأَمْر؛ أي: فلا تَرْتابوا فيها، ويُحتَمَل أن يَكون خبَرًا بمَعنَى النَّهيِ؛ أي: فلا تَرْتابوا فيها، ونَظيرُ ذلك قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ ٱلْكِتَٰبُ لَا رَيْبَ فِيهِ﴾ [البقرة:٢] فإن فيه تَفسيرَيْن: الأَوَّل: أنه خبَرٌ مَحْض، والثاني: أنه خبَر بمَعنى النَّهيِ؛ أي: لا تَرْتابوا فيه.

الْفَائِدَةُ الخَامِسَةُ: أن أكثَر الناس لا يُؤمِنون بهذه الساعةِ ويُنكِرونها، يَقولون: ﴿مَن يُحْيِ ٱلْعِظَٰمَ وَهِىَ رَمِيمٌ﴾ [يس:٧٨]، ﴿مَا هِىَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَآ إِلَّا ٱلدَّهْرُ﴾ [الجاثية:٢٤].

الْفَائِدَةُ السَّادِسَةُ: الرَّدُّ على كَلِمة مَشهورة، بل إبطال الكلِمة المَشهورة، وهي أن الإنسان إذا مات قالوا: عاد إلى مَثواهُ الأَخيرِ. فإن هذه الجُملةَ باطِلة؛ لأن القَبْر

ليس المَثْوَى الأخيرَ، المَثْوَى الأخيرُ هو الجَنَّة والنار، أمَّا القَبْر فإنه زِيارة مَعبَر كما أن الدنيا مَعبَر كذلك القبر مَعبَر؛ ولهذا سَمِع أعرابيٌّ قارِئًا يَقرَأ قول الله تعالى: ﴿أَلْهَىٰكُمُ ٱلتَّكَاثُرُ ۝١ حَتَّىٰ زُرْتُمُ ٱلْمَقَابِرَ﴾ [التكاثر:١-٢] فقال الإعرابيُّ: (واللهِ ما الزائِرُ بمُقيم، وإن هُناكَ شَيْئًا وراءَ القُبورِ)؛ يُستَنبَط من قوله: ﴿زُرْتُمُ﴾، فالزائِرُ يَبقَي مُدَّة، ثُم يَرتَحِل.

إِذَنْ: إذا سمِعنا مَن يَقول: إن هذا دُفِن في مَثواهُ الأَخيرِ. أو ما أَشبَه ذلك، فإننا نُنكِر عليه ونَقول: اعدِلْ عن هذه الكلِمةِ؛ لأنها كلِمة مَضمونها لو اعتَقَده القائِل لكان كافِرًا.

• • ۞ • •

الآية (٦٠)

• • • •

قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ﴾ [غافر: ٦٠].

• • • •

﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾ لَمّا ذكَر الساعة ذكَر ما يَكون به الوِقاية من وَبالِها، وهو دُعاء الله، فقال: ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ادْعُونِي﴾ وأَتى بجُملة بصيغة الغَيْبة تَعظيمًا له عَزَّوَجَلَّ ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ﴾ ولم يَقُل: أَقولُ، أو قُلْنا. أو ما أَشبَهَ ذلك تَعظيمًا لله.

وقوله: ﴿ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾ ﴿ادْعُونِي﴾ أَمْر، و﴿أَسْتَجِبْ﴾ جوابُه جَواب الطلَب، والدَّعْوة هنا تَشمَل دُعاء المَسأَلة ودُعاء العِبادة، فدُعاء المَسأَلة أن يَقول الإنسان: يا رَبِّ اغفِرْ لي. ودُعاء العِبادة أن يَتعبَّد لله سُبْحَانَهُوَتَعَالَى بما شرَع، وإنما كانَتِ العِبادة دُعاءً؛ لأنها مُتضَمِّنةٌ لطلَب الإنسان النَّجاة من النار ودُخول الجَنَّة، لو سأَلْت كلَّ عابِد: لِمَ تَدعُو الله؟ قال: أُريد أن أَنجوَ من النار وأَدخُل في رحمة الله، إِذَنْ فهو مُتضمِّن للدُّعاء بلِسان الحال.

وقوله: ﴿أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾ نُفسِّرها في مُقابِل دُعاء المَسأَلة بإعطائكم ما سأَلْتم، ونُفسِّرها بدُعاء العِبادة بالقَبول. يَعنِي: أَتقبَّل منكم. فاستِجابة الله تعالى لدُعاء المَسأَلة أن يُعطِيَ السائِل ما سأَل، واستِجابته لدُعاء العِبادة أن يَتقبَّل من العابِد.

قال المفَسِّر رَحِمَهُ اللَّهُ: [أيِ: ادْعُوني أُثِبْكم بقَرينة ما بعدَه] وهذا التَّفسيرُ بِناءً على تقـدُّم يُعتبَر تَفسيرًا قاصِرًا، وأمَّا ما بعـده فليس قَرينة لتَخصيص هذا، بل نَقول: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي﴾ تَدُلُّ على أن الدُّعاء عِبادة؛ لأنه قال: ﴿ٱدْعُونِيٓ﴾، ثُمَّ قال: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي﴾ ولا شَكَّ أن الذي يَستكبِر عن دُعـاء الله ويَرَى أنه غَنيٌّ عن الله وليس مُحتـاجًا إليه لا شَكَّ أنه مُستَحِقٌّ لهذا الوَعيدِ، وهو أنه سيَدخُل جَهنَّمَ صاغِرًا.

قوله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي﴾ هذا من جُملة المَقول ﴿سَيَدْخُلُونَ﴾ قال المفَسِّر رَحِمَهُ اللَّهُ: [بفَتْح الياء وضَمِّ الخاء وبالعَكْس] «يُدخَلون» وهُما قِراءَتان سَبْعيتان صَحيحتان.

﴿جَهَنَّمَ﴾ اسمٌ للنار، وهو اسمٌ مُعرَب وأَصلُه -على ما قيل- كهَنَّام، وقيل: بل هـو عرَبيٌّ، والنون فيه زائِدة وأَصلُه من الجهمة يَعنِي: الظُّلْمة، وأَيًّا كان فهو علَمٌ على النار، أَجارَنا الله وإيَّاكُم منها.

وقوله: ﴿دَاخِرِينَ﴾ قال المفَسِّر رَحِمَهُ اللَّهُ: [صاغِرين] الداخِر: الصاغِر.

من فوائد الآية الكريمة:

الْفَائِدَةُ الأُولَى: إثباتُ القَوْل لله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، وهذا القولُ هل هو قولٌ نَفسيٌّ لا يَظهَر أو هو قَوْل ظاهِر؟

الثـاني قول ظاهِر؛ لأن القولَ النَّفسيَّ إذا أُريد قُيِّـد كما في قوله تَبَارَكَ وَتَعَالَى: ﴿وَيَقُولُونَ فِىٓ أَنفُسِهِمْ لَوْلَا يُعَذِّبُنَا ٱللَّهُ بِمَا نَقُولُ﴾ [المجادلة:٨]، ﴿يُخْفُونَ فِىٓ أَنفُسِهِم مَّا لَا يُبْدُونَ لَكَ﴾ [آل عمران:١٥٤]، فإذا أُطلِق القولُ صار المُراد به الكَلامَ المَسموعَ، وهذا

قول السلَف، وأَئِمَّة الخلَف أن الله يَتكَلَّم، ويَقول بقَوْل مَسموع وبحَرْف: أنك إذا ادْعُوني سأَستَجِب لكم؛ وهذه كلِماتٌ مُركَّبة من حروف، إِذَنْ يَتكَلَّم بحرف وصوت عَزَّوَجَلَّ.

وقول مَن قال: إن كَلام الله هو المَعنَى القائِم بالنَّفْس، وإن ما يُسمَع عِبارة عن كلام الله، خلَقه الله ليَسمَعه الناس، وإلَّا فإن كلامه في نَفْسه فقَطْ، باطِل؛ أي: هذا قول باطِل؛ لأَنَّنا إذا فسَّرْنا القول بهذا صار مَعناه العِلْم وليس القول.

والآنَ نُريد أن نُقارِن بين قولَيْن، قول يَقول: الذي في المُصحَف فهو كَلام الله مخلوق. وقول آخَرُ يَقـول: الذي في المُصحَف فهو عِبارة عن كلام الله مخلوق. أيُّهما أقرَبُ إلى الصَّواب؟

الجوابُ: الأوَّل، الأوَّل قول الجَهمية والمُعتزِلة، والثاني قول الأشاعِرة، فتَبيَّن الآنَ أن قول المُعتزِلة والجَهْمية في كلام الله خير من قول الأشاعِرة، مع أنهم يَدَّعون؛ أي: الأشاعِرة أنهم من أهل السُّنَّة والجَماعة، وكيف يَكون هذا؟!

إِذَنْ: نُثبِت من هذه الآيةِ القولَ لله تعالى، والقول لا يَكون إلَّا بنُطْق مَسموع وبحُروف.

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَةُ: بَيان عظَمة الربِّ وتَعاظُمه من قوله: ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ﴾، فإن هذا الصِّيغةَ تَدُلُّ على عظَمة القائِل عَزَّوَجَلَّ.

الْفَائِدَةُ الثَّالِثَةُ: إثبات الرُّبوبية لله، وهي تَنقَسِم إلى قِسْمَيْن عامَّة وخاصَّة، فالعامَّة: الشامِلة للخَلْق، وهي تربية الخَلْق بالنِّعَم وتَغذيتهم بالنِّعَم، والخاصَّة: هي تربية عِباد الله المُؤمنين؛ حيث ربَّاهم الله عَزَّوَجَلَّ على ما يُحِبُّ، وقدِ اجتَمَع النَّوْعان

في قوله تعالى عن السَّحَرة آل فِرعونَ: ﴿قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٢١﴾ رَبِّ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ﴾ [الأعراف:١٢١-١٢٢] فالعامَّة ﴿بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾، والخاصة: ﴿رَبِّ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ﴾.

الْفَائِدَةُ الرَّابِعَةُ: وُجوب دُعاء الله تعالى، تُؤخَذ من قوله: ﴿ٱدْعُونِىٓ أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾؛ لأنها تَتضَمَّن: لا تَدعوا غَيري.

الْفَائِدَةُ الخَامِسَةُ: أن الله تَكفَّل ووعَد الداعِيَ بأنه يُجاب؛ لقوله: ﴿أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾.

فإن قال قائِلٌ: نَدعو كثيرًا ولا نَرى إجابةً ونَعمَل كثيرًا، ولا نُحِسُّ بقَبول، فما الجَوابُ؟

الجوابُ أن نَقول: الأسباب لا تُؤثِّر إلَّا إذا وَجدت مَحلًّا قابِلًا، أرَأَيْتم السِّكِّين إذا قَدَدْت بها اللَّحْم فإنه يَنقَطِع، وإذا قدَدْت بها الحَديد لا يَنقطِع مع أنها في اللَّحْم بتَّارة، وفي الحَديد لا تَعمَل شيئًا، فالسبَب لا بُدَّ أن يَكون له مَحَلٌّ قابِل، وإلَّا فلا أثَر له.

ففي العِبادة يَعبُد الإنسان ربَّه ولا يَشعُر بقَبول؛ لوجود سبَب يَمنَع ذلك، إمَّا فواتُ شَرْط أو رُكْن أو واجِب، أو حُدوث مُفسِد، وإلَّا لو أنَّا أَقَمْنا العِباداتِ على ما طُلِب منا لوجَدْنا لها أثَرًا، قال الله تعالى: ﴿وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ ۖ إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ تَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ﴾ [العنكبوت:٤٥] مَن مِنَّا يَشعُر إذا صلَّى بكَراهة الفَحشاء والمُنكَر؟ والصلاة تَنهَى عن الفَحْشاء، فلِماذا لا نَشعُر بهذا؟

الجواب: لأنَّنا مُقصِّرون.

ففي الدُّعاء دائِمًا نَدعو الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى ولا نَرى إجابة؛ فنَقول فيها كما قُلْنا

في الأوَّل-: أن السَّبب لا بُدَّ له من محلٍّ قابِل، فإذا دعا الإنسانُ ربَّه لكن قد فاتَه شيء من آداب الدُّعاء الواجِبة أو المُستَحبَّة، أو وُجِد مانِع يَمنَع من قَبول الدُّعاء، فليس الخلَل في الدُّعاء، بل الخلَل في الداعِي والمَحَلِّ.

ولْنَضرِب مثَلًا بإنسان دعا وهو لا يَشعُر بالافتِقار إلى الله عَزَّوَجَلَّ ولا يَشعُر بالفِرار إلى الله، فهذا دُعاؤُه ناقِص جِدًّا، إذا قلت: رَبِّ اغفِرْ لي. مثَلًا لا بُدَّ أن تَشعُر أن هُناك ذُنوبًا تَحتاج إلى المَغفِرة، وأنك في أشَدِّ ما يَكون من الضَّرورة إلى مَغفِرة هذه الذُّنوبِ؛ لأن هذه الذُّنوبَ إذا لم تُغفَر فيا وَيلَكَ! ذَنْب مع ذَنْب يَكون كبيرة؛ ولهذا نَهى الرَّسول عَلَيهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ عن مُحقَّرات الذُّنوب، وقال: «**إِنَّ مَثَلَهَا كَمَثَلِ قَوْمٍ نَزَلُوا أَرْضًا، فَأَتَى كُلُّ وَاحِدٍ مِنْهُمْ بِعُودٍ فَجَمَعُوا حَطَبًا كَثِيرًا وَأَضْرَمُوا نَارًا كَبِيرَةً**»(١) مع أن الواحِد منهم أَتى بعُود واحِد.

فالمُهِمُّ: أنك لا بُدَّ أن تَشعُر حين الدُّعاء أنك في غاية الضَّرورة إلى الله عَزَّوَجَلَّ.

ثانيًا: من الآداب التي فَقْدُها سببٌ لمَنْع الإجابة أن يَكون عندك شَكٌّ في قَبول الله عَزَّوَجَلَّ لدُعائك، أو في استِجابة الله لدُعائِك، مِثْل أن تَستَعظِم المَدعوَّ به، تَقول: هذا لا يَحصُل. هذا غلَط هذا مِمَّا يَمنَع الإجابة، ولهذا نَهى النبيُّ ﷺ عن قول القائِل: اللهُمَّ اغفِرْ لي إنْ شِئْتَ. وقال: «**لِيَعْزِمِ المَسْأَلَةَ وَلْيُعْظِمِ الرَّغْبَةَ، فَإِنَّ اللهَ لَا يَتَعَاظَمُ عَلَيْهِ شَيْءٌ أَعْطَاهُ**»(٢).

---

(١) أخرجه الإمام أحمد (١/ ٤٠٢)، من حديث عبد الله بن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٢) أخرجه البخاري: كتاب الدعوات، باب ليعزم المسألة فإنه لا مكره له، رقم (٦٣٣٩). ومسلم: كتاب الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار، باب العزم بالدعاء ولا يقل إن شئت، رقم (٢٦٧٩)، من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

كذلك أيضًا من أَسْباب مَنْع الإجابة أن يَدعوَ الإنسان بإثمٍ أو قَطيعة رَحِم، فيَدعو بإِثْم، مثل أن يَدعوَ على شخص لا يَستَحقُّ الدُّعاء عليه، فهذا إِثْم، كأَنْ يَدعوَ على وليِّ أَمْر أَساء في مَسأَلة من المَسائِل فيَقول: اللَّهُمَّ لا تُوفِّقْه. وما أَشبَه ذلك اعتِداء في الدُّعاء، إذا رأَيْت وليَّ أَمْر صغيرًا كان أم كبيرًا أَخطَأ فليس عِلاجه: اللَّهُمَّ لا تُوفِّقْه. عِلاجه أن تَقول: اللَّهُمَّ وَفِّقْه. يُصلِح ويُصلِح الله به، هذا من الاعتِداء في الدُّعاء الذي لا يُقبَل.

من الاعتِداء في الدعاء قَطيعة الرحِم أن تَدعوَ بقَطيعة الرحِم أيضًا لا يُقبَل. دُعاء الظالِمِ على مَظلومه لا يُقبَل؛ لأنه إِثْم.

ومثال الاعتداء في الدعاء: لو قال: اللَّهُمَّ إني أَسأَلُك أن تَجعَلني من الرُّسُل الكرام. هذا مُعتَدٍ في الدعاء، اللَّهُمَّ اجعَلني لا أُذنِبُ ذنبًا. عُدوان في الدُّعاء، أما أن يقول: اللَّهُم إني أَسأَلُك أن تَقلِب هذا المَسجِدَ من ذهَب وزُمُرُّد. فهذا الله على كل شيء قديرٌ: كُنْ فيَكون، لكن هذا خِلاف العادة، وهو أيضًا في الغالِب لا فائِدةَ منه.

وممَّا هُو مُمكِن لا شيءَ فيه: الله يَجعَلُك كسِيبَوَيْهِ في النَّحْو، وكابن تَيميَّةَ في العِلْم، يقولون: إنه سُمِع واحِد يَطوف في الكعبة فسمِعه شخص وهو يَقول: اللهُمَّ إني أَسأَلُك نَحوًا كنَحْو ابن هِشام، وفِقهًا كفِقْه شيخ الإسلام. فالله على كل شيء قَديرٌ لعله يُعلِّمك.

رابِعًا: أَكْل الحَرام من مَوانِع القَبول؛ لأن النَّبيَّ صَلَّاَللَّهُعَلَيْهِوَعَلَىٰآلِهِوَسَلَّمَ ذكَر الرجُل يُطيل السفَر أَشعَثَ أَغبَرَ يَمُدُّ يَدَيْه إلى السَّماء يا ربِّ يا ربِّ. كلُّ هذه الوجوهِ الأَرْبعة من أسباب إجابة الدُّعاء ومَطعَمه حرام ومَلبَسه حَرام وغُذِّيَ بالحَرام قال النَّبيُّ

صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ: «**فَأَنَّى يُسْتَجَابُ لِذَلِكَ**»[١] هذه كلُّها تَمنَع، أو تَحول بين الإنسان وبين قَبول دُعائه واستِجابة الله له، فإذا لم يُوجَد المَوانِع، وكان المَحلُّ صالِحًا وقابلًا بَقِيَ، لكن بَقِيَ شيء وراءَ ذلك، وهو مَشيئة الله عَزَّوَجَلَّ قد يَدفَع الله عن الإنسان من الشَّرِّ ما هو أَعظَمُ مِمَّا طلَب، وقد يُجيب ما طلَب، وقد يَدَّخِر ذلك له أَجْرًا يوم القيامة كما جاء في الحديث، وإلَّا فنحن واثِقون غاية الثِّقة من صِدق قوله تعالى: ﴿أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾ وأنه لا بُدَّ أن يَكون.

فإن قال قائِلٌ: هل ما يَقول به بالقَلْب أو بالنَّفْس يُسمَّى قولًا؟

فالجَوابُ: لا، إلَّا إذا قُيِّد.

فإن قال قائِل: إذا نطَقْنا به؟

فالجَوابُ: لا، إلَّا إذا قُيِّد فقيل: قال في نَفْسه ما حَدَّثت به أَنفُسنا.

فإن قال قائِل: قول الأشاعِرة: ما يَقول بالنَّفس. هل هذا صَحيح؟

فالجَوابُ: لا، ليس صحيحًا، هذا كلام باطِل؛ ولهذا الآنَ وازَنَّا بين قولهم وبين قول المُعتَزِلة فصار قول المُعتَزِلة أقرَبَ إلى الصواب منهم؛ لأنهم يَقولون: هذا الذي في المُصحَف كلام الله مَخلوق، وهو كَلام الله حَقيقةً، ولكنه مَخلوق، وأُولَئِك يَقولون: مَخلوق وعِبارة عن كلام الله.

فإن قال قائِل: قول عُمرَ بنِ الخَطَّاب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: لا أَحمِل هَمَّ الإجابة، ولكن أَحمِل هَمَّ الدُّعاء[٢] هل يَقصِد أن الإنسان قد لا تَتوفَّر له أسباب القَبول؟

---

(١) أخرجه مسلم: كتاب الزكاة، باب قبول الصدقة من الكسب الطيب، رقم (١٠١٥) من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٢) ذكره ابن تيمية في مجموع الفتاوى (٨/ ١٩٣).

فالجوابُ: نعَمْ؛ يَقصِد أن الإنسان قد لا تَتَوفَّر له أسباب القَبول، وأنتم الآنَ حاسِبوا أَنفُسكم هل أنت إذا كنت في الصلاة وقُلت: ربِّ اغفِرْ لي وارْحَمْني بين السَّجْدتَيْن، هل تَشعُر بأن هناك ذُنوبًا ثَقيلة تَسأَل الله الخَلاصَ منها، أو أنها كلِمة تَقولُها لتَأتِيَ بالواجِب؟ الواقِع أننا إذا حاسَبْنا أنفُسنا وجَدْنا عِندنا نقصًا عظيمًا، الإنسان إذا دعا الله عَزَّوَجَلَّ بمُجرَّد دعاء الله يَستَنير قلبه؛ لأن الدُّعاء عِبادة، ولكن نَسأَل الله أن يُعينَنا وإيَّاكم على ذِكْره وشُكْره وحُسْن عِبادته.

الْفَائِدَةُ السَّادِسَةُ: أن الذين يَستكبِرون عن عِبادة الله سيَدخُلون جَهنَّمَ على وجهِ الذُّلِّ والصَّغار؛ لقوله: ﴿سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ﴾.

الْفَائِدَةُ السَّابِعَةُ: أن الجَزاء من جِنْس العمَل يَعنِي: العُقوبة تُقابِل الجُرْم؛ لأنهم لَمَّا استكْبروا في الدنيا أُدخِلوا النار صاغِرين، وفي الآخِرة سيَدخُلون جَهنَّمَ داخِرين.

الْفَائِدَةُ الثَّامِنَةُ: إثبات النار؛ لقوله: ﴿جَهَنَّمَ﴾.

الْفَائِدَةُ التَّاسِعَةُ: أن الدُّعاء من العِبادة؛ لقوله: ﴿ٱدْعُونِيٓ﴾، ثُم قال: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي﴾.

• • ۞ • •

الآية (٦١)

قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ لِتَسْكُنُوا۟ فِيهِ وَٱلنَّهَارَ مُبْصِرًا ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ﴾ [غافر:٦١].

• • • •

ثُم قال الله تعالى مُبيِّنًا نِعمَته على عِباده: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ لِتَسْكُنُوا۟ فِيهِ﴾ ﴿ٱللَّهُ﴾ مُبتَدَأ، و﴿ٱلَّذِى﴾ خبَرُه، و﴿جَعَلَ﴾ بمَعنى: صيَّر، ونَصَبت مَفعولَيْن الأوَّل: ﴿ٱلَّيْلَ﴾، والثاني: ﴿لَكُمُ﴾، والجَعْل هنا جَعْل قدَريٌّ وليس جَعْلًا شَرعيًّا ﴿جَعَلَ لَكُمُ﴾ اللَّام هنا للتَّعدِية مع التعليل، وقوله: ﴿لِتَسْكُنُوا۟ فِيهِ﴾ اللَّام للتَّعليل والسكون ضِدُّ الحرَكة وضِدُّ العمَل، وهو شامِل لسُكون الجَوارِح، وسُكون القَلْب، وسُكون النَّفْس؛ ولهذا يَجِد الإنسان إذا تَعِب ثُم نام يَجِد أن نَشاطه يَستَجدُّ ويَزداد.

وقوله: ﴿وَٱلنَّهَارَ مُبْصِرًا﴾ يَعنِي: وجعَل النهار مُبصِرًا، هذه مَعطوفة على ﴿ٱلَّيْلَ﴾؛ أي: جعَل النَّهار مُبصِرًا، وإسناد الإبصار إلى النهار؛ لأنه مَوْضِعه؛ أي: مَوضِع إبصار الناس؛ ولهذا قال المفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [إسناد الإِبْصار إليه مجازِيٌّ؛ لأنه يُبصَر فيه] فهو زمَن الإِبْصار ﴿وَٱلنَّهَارَ﴾ محَلُّ عمَل وبصَرها.

ثُم قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلنَّاسِ﴾ أكَّد الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ كونه ذا

فَضْل على الناس بـ﴿إِنَّ﴾ واللَّام، و(ذو) بمَعنَى: صاحِب، ﴿لَذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلنَّاسِ﴾ ﴿فَضْلٍ﴾ بمَعنَى: إفضال، فالله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ هو المُتفضِّل على العِباد، ومنه أي: من فَضْله جعَل الليل سكَنًا والنهار مُبصِرًا.

وقوله: ﴿عَلَى ٱلنَّاسِ﴾ عامَّة تَشمَل المُؤمِن والكافِر، وهذا هو الواقِعُ؛ لأن الليل سكَن للمُؤمِنين والكافِرين، والنهار مُبصِر للمُؤمِنين والكافِرين ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ﴾ يَعنِي: مع كون الله ذا فَضْل على الناس أكثَرهم لا يَشكُر -والعِياذ بالله- أَكثَرُهم كافِر.

ولهذه الآيةِ نَظائِرُ منها قوله تعالى: ﴿وَمَآ أَكْثَرُ ٱلنَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ﴾ [يوسف:١٠٣]، وجاءَت السُّنَّة بمِثْل ذلك؛ حيث أَخبَر النبيُّ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أن الله يُنادِي يوم القِيامة: «يَا آدَمُ أَخْرِجْ مِنْ ذُرِّيَّتِكَ بَعْثًا إِلَى النَّارِ. فَيُخْرِجُ مِنْ كُلِّ أَلْفٍ تِسْعَ مِئَةٍ وَتِسْعَةً وَتِسْعِينَ كُلُّهُمْ فِي النَّارِ»(١) من الألْف واحِد يَنجو.

والشُّكْر هو الاعتِراف للمُنعِم بالنِّعمة بالقَلْب واللِّسان والجَوارِح، الاعتِراف بالشُّكْر، والاعتِراف للمُنعِم بالنِّعْمة بالقَلْب واللِّسان والجَوارِح، قال الشاعِر:

أَفَادَتْكُمُ النَّعْمَاءُ مِنِّي ثَلَاثَةً ... يَدِي وَلِسَانِي وَالضَّمِيرَ المُحَجَّبَا(٢)

«أَفَادَتْكُمُ النَّعْمَاءُ مِنِّي ثَلَاثَةً»؛ يَعنِي: أَنَّكم ملَكْتم مِنِّي ثلاثة بسبب نَعمائِكم، يَدي ولِساني والضَّمير المُحَجَّب.

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب أحاديث الأنبياء، باب قصة يأجوج، ومأجوج، رقم (٣٣٤٨)، ومسلم: كتاب الإيمان، باب قوله: يقول الله لآدم: أخرج بعث النار من كل ألف تسع مِئة وتسعة وتسعين، رقم (٢٢٢)، من حديث أبي سعيد الخدري رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ.

(٢) انظره في غريب الحديث للخطابي (١/ ٣٤٦)، والفائق للزمخشري (١/ ٣١٤) غير منسوب.

أمَّا الشُّكْر بالقَلْب فهو أن تَعتَرِف بقلبك أن كل نِعْمة بك فإنها من الله، كما قال تعالى: ﴿وَمَا بِكُم مِّن نِّعْمَةٍ﴾ [النحل:٥٣]، وأكبَرُ النِّعَم نِعَم الدِّين، ثُم العقل، ثُم تَتلوها النِّعَم شيئًا فشيئًا بحَسب حاجتها والضرورة إليها. وأمَّا باليد يَعنِي: بالجَوارِح اليد أو الرِّجْل أو السَّمْع أو البصَر، فاستِعْمال هذه في طاعة الله، شُكْر الجوارِح أن تَستعمِلها لطاعة الله، اللِّسان كذلك، شُكْر الله باللِّسان أن تعتَرِف بلِسانك بأن ما بك من نِعْمة فمن الله، وأن تُحدِّث بنِعْمته عليك، لا فخرًا واختِيالًا، ولكن افتِقارًا إلى الله عَزَّوَجَلَّ واعتِرافًا بفَضْله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى؛ لقوله: ﴿وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ﴾ [الضحى:١١]، ثُم تَستَعمِل هذا اللسانَ لطاعة المُنعِم.

إذَنْ: صار الشُّكْر حقيقةً هو الدِّين كله: القَلْب، واللِّسان، والجَوارِح؛ ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ﴾ ثُم إن الشُّكْر يَتبعَّض، قد يَشكُر الإنسان ربَّه على نِعْمة من النِّعَم دون نِعْمة أخرى، قد يُنعِم الله عليه بالمال فيَشكُر، ويُنفِق في سبيل الله، ويُنعِم الله عليه بالعِلْم فيكتُم، وقد يُنعِم الله عليه بالعِلْم فيَنشُر العِلْم، وبالمال فيَبخَل، فالشُّكْر يَتنوَّع كما أن الكُفْر يَتنوَّع.

من فوائد الآية الكريمة:

الْفَائِدَةُ الأُولَى: كَمال قُدْرة الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى بإيجاد اللَّيْل والنهار، فإن هذا من عَظيم قُدْرته جَلَّوَعَلَا، هل يَستَطيع البشَر إذا طلَعَت الشَّمْس أن يَرُدُّوها فتَغرُب، وإذا غابت أن يُرجِعوها فتَرجِع؟ أبدًا، ولِهذا قال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ الَّيْلَ سَرْمَدًا إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَٰمَةِ مَنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُم بِضِيَآءٍ أَفَلَا تَسْمَعُونَ ﴿٧١﴾ قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ النَّهَارَ سَرْمَدًا إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَٰمَةِ مَنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُم بِلَيْلٍ تَسْكُنُونَ فِيهِ أَفَلَا تُبْصِرُونَ﴾ فأقولُ: الليل والنَّهار الذي جعله الله

للعِباد لا يُمكِن لأحَد أن يُغيِّره إطلاقًا. ثُم إذا نظَرنا أيضًا إلى هـذا الليلِ والنَّهار وتُعاقِبه ووُلوجه بعضه ببعـض فهو آية أخرى، أحيانًا يَزيد الليل، وأحيـانًا يَزيد النهار، مَن يَستَطيع أن يَفعَل ذلك إلَّا الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَةُ: تَعليل أحكام الله القَدَرية، كما هو ثابِت في الأحكام الشرعية يَعنِي: أن أحكام الله الكَوْنية لا يُمكِن أن تَكون إلَّا لِحِكْمة، يُؤخَذ ذلك من قوله: ﴿لِتَسْكُنُوا﴾ واللَّام قُلت لكم: إنها للتَّعليل. إِذَنْ جعَل الله ذلك لنَسكُن.

ذكَرْنا أن أحكام الله الكونيـة مُعلَّلة كأحكامه الشرعية، لكن هل يَلزَم من تَعليلها أن نَعلَم بالعِلَّة؟ لا يَلزَم، إن فتَـح الله علينا ما فتَحَ من ذلك فهذا خَيْر منه وفَضْل، وإن حُرِمنا ذلك بذُنوبنا فنحن المُخطِئُون، وما من شيء إلَّا وله حِكْمة.

الْفَائِدَةُ الثَّالِثَةُ: بَيان مِنَّة الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ بالليل والنهار؛ حيث جعَل الليل سكَنًا وجعَل النهار مُبصِرًا، يُؤخَذ من قوله: ﴿لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَالنَّهَارَ مُبْصِرًا﴾ لولا هذا ما سكَن الناس؛ ولهذا تَجِد الإنسان بطَبيعته إذا جاء الليل أَحَبَّ السُّكون، ولولا أنه في عَصْرنا هذا شاعَت الأنوار، وشاعَت الأضواء، وصار الليل كالنهار لوجَدْت لليل لذَّة عَظيمة، ونحن أَدْرَكنا ذلك، تَجِد لذَّة ومحبَّة للسُّكون وسُكون قَلْب وسُكون بدَن وسُكون نَفْس، ثُم إذا طلَع الفجر وإذا هو كالرُّطَب يَأتِي بعدَ التَّمر نَفرَح به، جاءَ النهار.

الآنَ ما كأنَّ هناك ليلًا ولا نهارًا؛ ولذلك لا نَجِد اللَّذَّة التي كُنَّا نَعرِفها من قبلُ، ولعل منكم مَن أَدرَكَ ذلك، واخرُجوا إلى البادِية، وخُذوا لكم أُسبوعًا، ابعُدوا عن الأنوار تَجِدوا هذا، وهذا من فَضْل الله عَزَّوَجَلَّ أن جعَل الليل للسكَن والنهار للعمَل.

الْفَائِدَةُ الرَّابِعَةُ: إن الله ذو فَضْل على الناس، يُؤخَذ ذلك من قوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ

لَذُو فَضۡلٍ عَلَى ٱلنَّاسِ﴾ وفي آية أُخرى: ﴿وَٱللَّهُ ذُو فَضۡلٍ عَلَى ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ [آل عمران:١٥٢]، فكَيْف نَجمَع بين التَّعميم والتَّخصيص؟

الجَوابُ: أن نَقول: الفَضْل نَوْعان؛ عامٌّ وخاصٌّ، فالعامُّ لجميع الناس والخاصُّ للمُؤمِنين.

الْفَائِدَةُ الخَامِسَةُ: أن أكثَرَ عِباد الله لا يَشكُرون الله؛ لقوله: ﴿وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَشۡكُرُونَ﴾.

الْفَائِدَةُ السَّادِسَةُ: التَّحذير من قِياس الأحكام الشرعية بأعمال العِباد؛ بمَعنَى: أننا إذا قُلْنا لشخص: هـذا حَرام. قال: كل الناس يَفعَلونه. فيَجعَل المِعيار أعمال الناس، وهذا خطَأ كل الناس يَعمَلونه، ليسَتْ حُجَّة، ﴿وَإِن تُطِعۡ أَكۡثَرَ مَن فِي ٱلۡأَرۡضِ يُضِلُّوكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ [الأنعام:١١٦]، الحُجَّة فيما قال الله ورسوله ﴿فَإِن تَنَٰزَعۡتُمۡ فِي شَيۡءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ﴾ [النساء:٥٩]، سواءٌ كان الطائِفة الأخرى أكثَرَ من التي قبلَها أو العكس.

إِذَنْ: لا يَجوز أن نَجعَل أعمال الله مِعيارًا للأَحْكام الشرعية.

الْفَائِدَةُ السَّابِعَةُ: وجوبُ شُكْر الله عَزَّوَجَلَّ والإشارة إلى أن يَكون هذا الشُّكْرُ من جِنْس الفَضْل، الشُّكْر يَكون من جِنْس الفضل، فشُكْر صاحِب المال أن يُنفِقَه في سبيل الله، وشُكْر العِلْم نَشْره وتعليمه للجاهِلين، وشُكْر مَن أَعطاه الله شجاعة وقوَّة بدَنية والجِهاد قائِم أن يُجاهِد في سبيل الله.

إِذَنِ: الشُّكْر من جِنْس النِّعَم؛ لأنه قال: ﴿لَذُو فَضۡلٍ﴾؛ لأن الله قال: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَذُو فَضۡلٍ عَلَى ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَهُمۡ لَا يَشۡكُرُونَ﴾ [يونس:٦٠].

• ● ۞ ● •

الآيتان (٦٢، ٦٣)

• • • •

قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ خَٰلِقُ كُلِّ شَيْءٍ لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ ﴿٦٢﴾ كَذَٰلِكَ يُؤْفَكُ ٱلَّذِينَ كَانُوا۟ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ يَجْحَدُونَ﴾ [غافر:٦٢-٦٣].

• • • •

وقوله: ﴿ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ خَٰلِقُ كُلِّ شَيْءٍ﴾ هذه الجُمْلة نُريد أن نُعرِبها أوَّلًا (ذا) لا شَكَّ أنها مُبتَدَأ، واللَّام للبُعد، والكاف للخِطاب، والميم للجَمْع. ﴿ٱللَّهُ﴾ هل نَقول: إنها بَدَل، أو عَطْف بَيان من اسم إشارة، أو أنها خَبَر؟ الظاهِر أنها الأوَّل ﴿رَبُّكُمْ﴾ خبَر المُبتَدَأ، و﴿خَٰلِقُ كُلِّ شَيْءٍ﴾ خبَر آخَرُ؛ لأن الخَبَر يَتَعدَّد؛ إذ إن الخبَر وَصْف للمُخبَر عنه، وإذا كان وَصْفًا له فالأَوْصاف يَجوز أن تَتعدَّد، قال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿وَهُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلْوَدُودُ ﴿١٤﴾ ذُو ٱلْعَرْشِ ٱلْمَجِيدُ ﴿١٥﴾ فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ﴾ [البروج:١٤-١٦] خمسة أَخبار، فالخَبَر يَتَعدَّد؛ لأن الخَبَر وَصْف للمُخبَر عنه، فإذا قلت: زَيْد قائِمٌ. مَعناه وَصْف القِيام، والأَوْصاف يَجوز أن تَتَعدَّد على مَوْصوف واحِد.

إِذَنْ نَقول: ﴿خَٰلِقُ كُلِّ شَيْءٍ﴾ خبَر ثانٍ ﴿خَٰلِقُ كُلِّ شَيْءٍ﴾ لا يَشِذُّ عن هذه الجُملةِ شيء أبَدًا، كُلِّية عامة خالِق كل شيء من العَيان والأَوْصاف والأحوال، كل شيء فالله خالِقه من الأعيان والأَوْصاف والأَحْوال، العبد مَخلوق، أحوال العَبْد من مَرَض وصِحَّة ومَرَض وجُنون، وما أَشبَه ذلك مَخلوقة، أَفعاله

مَخلوقة، كل شيء فإنه مَخلوق لله عَزَّوَجَلَّ لا يَشِذُّ عنه- عن هذه الجُملةِ- شيء أبَدًا حتى العَجْز والكَيْس، وهـو من الأَوْصاف، العَجْز يَعنِي: أن الإنسان يَكون غـير حازِم، والكَيْس أن يَكون حازِمًا.

وقوله: ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ لَمَّا بيَّن أنه خالِق كل شيء، وأنه لا خالِقَ معه بِناءً على هذه الجُملةِ الكُلِّية بيَّن أنه ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾؛ أي: لا مَعبودَ حَقٌّ إلَّا الله عَزَّوَجَلَّ كما أنه مُنفَرِد في الخَلْق، فيَجِب أن يُفرَد بالعِبادة.

«إلهٌ» بمَعنَى: مَألوهٍ، وفِعال تَأتِي بمَعنَى: مَفعول في اللُّغة العَربية كثيرًا، ومنه غِراس بِناء فِراش كِتاب لِباس، وَعُدَّ ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾.

إذا قال قائِل: كيف تَصِحُّ هذه الجُمْلةُ مع قوله تعالى: ﴿لَّا تَجْعَلْ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ﴾ [الإسراء:٢٢]، وقـوله: ﴿فَمَآ أَغْنَتْ عَنْهُمْ ءَالِهَتُهُمُ﴾ [هود:١٠١]، فأَثبَت آلِهَة دون الله؟

الجَوابُ: تَصِحُّ هذه العِبارةُ إذا عرَفنا الخَبَر المُقدَّر، وهو: لا إلهَ حَقٌّ إلَّا الله، دليل هذا ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ هُوَ ٱلْبَٰطِلُ وَأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْعَلِيُّ ٱلْكَبِيرُ﴾ [الحج:٦٢]، ﴿فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ﴾ [غافر:٦٢] الاستِفْهام هنا للتَّعجُّب والإنكار.

قال المفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ﴾ فكيف تُصرَفون عن الإيمان مع قِيام البُرْهان].

ثُم قال تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ يُؤْفَكُ﴾ هذا التَّكْييف يَأتِي كثيرًا في القُرآن الكريم، وقد تقدم كيف نُعرِبه، وقُلنا: إن الكاف اسمٌ بمَعنى: مِثْل، وهو مَفعول مُطلَق

للعامِل بعدَه؛ أي: مِثْل ذلك الإِثْم يُؤفَك، والإِفْك بمَعنى: الصَّرْف، كذلك، أي: مثل ذلك الإِفْكِ -وهو الإشراك بالله وعدَم شُكْر النِّعَم- يُؤفَك.

قال المفَسِّر رَحِمَهُ اللَّهُ: [أي: مِثْل إِفْك هَؤلاءِ إِفْك].

وقوله: ﴿الَّذِينَ كَانُوا بِآيَاتِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ﴾ وقوله: ﴿الَّذِينَ﴾ إعرابها على أنها نائِب فاعِل ﴿الَّذِينَ كَانُوا بِآيَاتِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ﴾؛ أي: كانوا يَكفُرون بآيات الله. أي: يَكفُرون. والجَحْد هنا بمَعنى الكُفْر؛ بدليل أنه تَعدَّى بالباء، وقول المفَسِّر: [﴿بِآيَاتِ اللَّهِ﴾ مُعجِزاته] هذا لا شَكَّ أنه خطَأ، بل نَقول: ﴿بِآيَاتِ اللَّهِ﴾ دَلالاته التي تَدُلُّ على كَماله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى واستِحْقاقه للعُبودية، فهي آيات وليسَت مُعجِزاتٍ ﴿بِآيَاتِ اللَّهِ﴾؛ أي: بالدَّلالات التي تَدُلُّ على كَماله وعلى استِحْقاقه للعُبودية وحدَه، وآيات الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى نَوْعان: كونية وشرعية، فالمَخلوقات كلُّها كَوْنية آياتٌ تَدُلُّ على كَماله:

وَفِي كُلِّ شَيْءٍ لَهُ آيَةٌ تَدُلُّ عَلَى أَنَّهُ وَاحِدُ[1]

فكل ما في الكَوْن فإنه شاهِد بكَمال الله عَزَّوَجَلَّ وقُدْرته وعِزَّته وسُلطانه وغير ذلك.

المُهِمُّ: أن جميع المخلوقات آياتٌ كَوْنية تَدُلُّ على خالِقها وحِكْمته ورحمته، وغير ذلك من كمال الصِّفات.

وآيات شرعية وهي ما جاءَت به الرُّسُل من أحكام عادِلة، وأخبار صادِقة وقِصص نادِرة. هذه آياتٌ شَرْعية التَّكليفات والأوامِر والنواهِي كلُّها عادِلة،

(١) من شعر أبي العتاهية، انظر: ديوانه (ص:١٢٢)، ومعاهد التنصيص (٢/ ٢٨٦).

الأَخْبار كلُّها صادِقة ليس فيها شيء كذِب، القِصَص كلُّها نافِعة ﴿ نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ ٱلْقَصَصِ بِمَآ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ ﴾ [يوسف:٣].

من فوائدِ الآيتين الكريمتين:

الْفَائِدَةُ الأُولَى: إثبات الرُّبوبية لله عَزَّوَجَلَّ على كل شيء، أنه رَبُّ كل شيء؛ لقَوْله: ﴿ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ﴾.

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَةُ: الإشارة إلى وُجوب طاعته وعِبادته؛ لقوله: ﴿رَبُّكُمْ﴾ وإذا كان هو الربَّ فهو السَّيِّد، وإذا كان هو الربَّ فهو الذي له السُّلْطان، وإذا كان هو الربَّ فهو الذي له الحَقُّ أن يُعبَد، كل ما يُثبِت الرُّبوبية فهو دَليل على وُجوب الأُلوهية؛ ولهذا يُستَدَلُّ الله عَزَّوَجَلَّ على المُشرِكين بكَوْنهم يُثبِتون الربوبية ويُنكِرون الأُلوهية، فكُلُّ مَن أَثبَت الرُّبوبية لزِمه أن يُثبِت الأُلوهية.

إذن: تَوْحيد الرُّبوبية مُستَلزِم لتَوْحيد الأُلوهية، وتَوْحيد الأُلوهية مُتضَمِّن لتَوْحيد الربوبية، إذ لا يُمكِن لأحَدٍ أن يَعبُد الله إلَّا وهو يَعلَم أنه ربٌّ أَهْل للعِبادة؛ ولهذا لو قال لك قائِل: هل التَّوْحيدان مُتلازِمان؟ فقل: أمَّا توحيد الرُّبوبية فمُستَلزِم لتَوْحيد الأُلوهية، وأمَّا تَوْحيد الأُلوهية فمُتضَمِّن لتَوْحيد الربوبية.

الْفَائِدَةُ الثَّالِثَةُ: إثبات خَلْق الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ لكل شيء؛ لقوله: ﴿خَٰلِقُ كُلِّ شَيْءٍ﴾ فلو قال قائِل: استَثْنى العَقْل نفسه فليس خالِقًا لها، فلا يَصِحُّ هذا القولُ؛ لأن نفسه لم تَدخُل أصلًا؛ لأن هناك فاعِلًا ومَفعولًا، والفاعِل لا يُمكِن أن يَدخُل في المَفعول حتى يُستَثْنى منه، فنحن نَقول: الرب سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ لم يَدخُل في قوله: ﴿كُلِّ شَيْءٍ﴾ أصلًا في هذه الآيةِ؛ لأن الخَلْق، أو إن شِئْت فقُلْ: لأن المخلوق

بائِنٌ من الخالِق، فلا يُمكِن أن يَدخُل الخالِق في المَخلوق حتى نَقول: استَثْنى العَقْل، والاستِثْناء إخراج الشيء من الشيء، وهنا لم يَدخُل أصلًا.

وفي هذه الآية: ﴿ٱللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَيۡءٖ﴾ هل نَقول: إلَّا ذاته بدليل العَقْل؟

نَقول: لا؛ لأن الأصل لم يَدخُل، فهو خالِق كل شيء، هو فاعِل وغيره مَفعول، فهو لم يَدخُل أصلًا حتى نَقول: أَخرَج ما يَستَثْنيه العقل في هذا البابِ، وقد استَدَلَّ الجَهْمية والمُعتَزِلة بأن كلام الله مَخلوق لأن كَلام الله شيء، فيَكون داخِلًا في العُموم، ونَقول: إِذَنْ يَلزَمكم أن تَقولوا: إن الله مَخلوق؛ لأن الله شيء ﴿قُلۡ أَيُّ شَيۡءٍ أَكۡبَرُ شَهَٰدَةٗۖ قُلِ ٱللَّهُ﴾.

إِذَنْ قولوا: إن الله مَخلوق أيضًا. فإن قالوا: لا يُمكِن أن نَقول؛ لأن الفاعِل غير المَفعول، قُلْنا: وصِفات الفاعِل كالفاعِل، الصِّفات يُحذَى بها حَذوَ الذات، فإذا كان الربُّ عَزَّوَجَلَّ خالِقًا وغيرَ مَخلوق، فصِفاته أيضًا غيرُ مَخلوقة، فالقُرآن ليس بمَخلوق؛ لأنه كلام الله، وكلام الله من صِفاته، وصِفات الله كلها غير مَخلوقة.

فإن قال قائِل: إن الخَلْق ثابت للعَبْد، قال الله تَبَارَكَ وَتَعَالَى: ﴿فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحۡسَنُ ٱلۡخَٰلِقِينَ﴾ [المؤمنون:١٤]، فأَثبَت أن هُناك خالِقِين، وقال الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ في المُصوِّرين: «أَحْيُوا مَا خَلَقْتُمْ»[(١)] فأَثبَتَ أنهم خالِقون.

فالجَوابُ: أن الخَلْق الثابِت لله عَزَّوَجَلَّ ليس كالخَلْق الذي أُثبِت للمَخلوق، خَلْق المخلوق للشيء تَحويله من حال إلى حال، وليس إيجادَه، فالنَّجَّار إذا صنَع

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب البيوع، باب التجارة فيما يكره لبسه للرجال والنساء، رقم (٢١٠٥)، ومسلم: كتاب اللباس والزينة، باب تحريم تصوير صورة الحيوان، رقم (٢١٠٧/ ٩٦) من حديث عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا.

الخَشَبة بابًا هل يُقال: إنه خلَق الخَشَبة؟ حوَّلها من خشَبة إلى باب، ولم يَخلُقْها، حتى لو قُلنا: إن صُنْعه هذا خَلْق. فهو في الحقيقة بمَعنَى: تَغيير وتَحويل، وليس بمَعنى: الإيجاد.

وقد تَحدَّى الله عَزَّوَجَلَّ الأصنام التي تُعبَد من دون الله والذي يُدَّعى أنها آلِهة قال: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَن يَخْلُقُوا۟ ذُبَابًا وَلَوِ ٱجْتَمَعُوا۟ لَهُۥ﴾ [الحج:٧٣].

الْفَائِدَةُ الرَّابِعَةُ: بِناءُ تَوْحيد الأُلوهية على تَوْحيد الرُّبوبية؛ لقوله عَزَّوَجَلَّ بعد: ﴿ٱللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَىْءٍ﴾: ﴿لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾؛ أي: لا مَعبودَ إلَّا هو، أي: لا تَعبُدوا إلَّا إيَّاه؛ لقوله: ﴿لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾.

الْفَائِدَةُ الخَامِسَةُ: الإنكارُ والتَّعجُّب على أولئك الذين صُرِفوا عن الحَقِّ مع وُضوحه وبَيانه؛ لقوله: ﴿فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ﴾.

الْفَائِدَةُ السَّادِسَةُ: أن المُكذِّبين بآيات الله يَصدُر منهم ما يُقضَى به العَجَب؛ لقوله: ﴿كَذَٰلِكَ يُؤْفَكُ ٱلَّذِينَ كَانُوا۟ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ يَجْحَدُونَ﴾ [غافر:٦٣].

الْفَائِدَةُ السَّابِعَةُ: أن الذُّنوب تَحول بين الإنسان وبين رُؤْية الحَقِّ؛ لأن هؤلاءِ لَمَّا جحَدوا بآيات الله صُرِفوا عنها وهذا واقِع، الذُّنوب تَحول بين الإنسان وبين رُؤْية الحَقِّ، قال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ءَايَٰتُنَا قَالَ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ [المطففين:١٣]، هل أَحَدٌ يُمكِن أن يَقول: هذا القُرآنُ العَظيم أساطيرُ الأوَّلين، يَقول الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿كَلَّا ۖ بَلْ ۜ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ﴾ [المطففين:١٤] من الأعمال السَّيِّئة، حتى رأَوْا هذا الحقَّ المُنير فجعَلوه أساطيرَ؛ ولهذا يَجِب أن نُعالِج أَنفُسنا إذا رأَيْنا أننا نَقرَأ القُرآن وكأنه حُروف تُتلى، نَرجو برَكَتها وثوابها، إذا لم تُؤثِّر على القَلْب

باللِّين والخُشوع، والرُّجوع إلى الله عَزَّوَجَلَّ فإن ذلك دَليل على مرَض القَلْب، وربما نَقول: على موت القَلْب. نَسأَل الله العافيةَ، ﴿ كَذَٰلِكَ يُؤْفَكُ ٱلَّذِينَ كَانُوا۟ بِـَٔايَـٰتِ ٱللَّهِ يَجْحَدُونَ﴾ نَسأَل الله أن يَجعَلنا وإيَّاكم من المُؤمِنين بآياته المُتَّبِعين لمَرْضاته.

• ● ● •

الآية (٦٤)

قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ قَرَارًا وَٱلسَّمَآءَ بِنَآءً وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ وَرَزَقَكُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [غافر:٦٤].

قال الله تَبَارَكَ وَتَعَالَى: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ قَرَارًا﴾ الجُمْلة ﴿ٱللَّهُ﴾ مُبتَدأ، و﴿ٱلَّذِى﴾ خبرُه يَعنِي: الله هو الذي ﴿جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ قَرَارًا وَٱلسَّمَآءَ بِنَآءً﴾ إلى آخِره ﴿جَعَلَ لَكُمُ﴾ هذه من أفعال التَّصْيير؛ أي: صيَّر لكم، و﴿قَرَارًا﴾ بمَعنَى: ذات قَرار؛ أي: مُستقَرٌّ ﴿وَٱلسَّمَآءَ بِنَآءً﴾؛ أي: فوقُ، وقد بيَّن الله تعالى في آية أخرى أنه سَقْف، فالله جعَل الأرض قَرارًا؛ أي: مُستقَرَّة.

وهل مَعنَى هذا القَرارِ أنها لا تَتحرَّك أو أنها لا تَميد بنا؟

يُقال: القُرآن يُفسِّر بعضُه بعضًا فقد قال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿وَأَلْقَىٰ فِى ٱلْأَرْضِ رَوَٰسِىَ أَن تَمِيدَ بِكُمْ وَأَنْهَٰرًا وَسُبُلًا﴾ [النحل:١٥]، فبيَّن أن المُراد بالقَرار أنها لا تَميد بساكِنيها؛ أي: لا تَضطَرِب، وليس المَعنَى أنها قارَّة لا تَتحرَّك، كما سيأتِي -إن شاءَ الله- في الفَوائِد.

وقوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَٱلسَّمَآءَ بِنَآءً﴾؛ أي: سقفًا عاليًا، والمُراد بالسَّماء هنا أي: السموات ذات الأجرام، وذلك؛ لأن السماء يُطلَق على مَعنيَيْن، المعنى الأوَّل العُلوُّ،

والمَعنَى الثاني السماء السَّقْف، والذي يُعيِّن أحد المَعنيَيْن هو السياق.

فقول الله تعالى: ﴿أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةُۢ بِقَدَرِهَا﴾ [الرعد:١٧] المُراد بالسَّماء هنا العُلوُّ؛ لأن المطَر ليس يَنزِل من ذات السَّماء السَّقْف، بل يَنزِل من العُلوِّ، ويَدُلُّ لذلِك قولُه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿وَٱلسَّحَابِ ٱلْمُسَخَّرِ بَيْنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [البقرة:١٦٤]، فالسَّماء هنا بمَعنى ذات السَّقْف، والمطَر يَنزِل من السَّحاب، فإذا كان مُسخَّرًا بين السماء والأرض اقتَضى ذلك ألَّا يكون المطَر يَنزِل من السماء ذات السَّقف، ولكنه يَنزِل من السماء التي بمَعنى العُلوِّ، والذي معَنا هنا ﴿وَٱلسَّمَآءَ بِنَآءً﴾ المُراد به السَّماء ذات السَّقْف ﴿وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ﴾؛ أي: جعَلكم على صورة مُعيَّنة، والصورة هي الشَّكْل، فشَكْل الآدميِّ هو أَحسَنُ شَكْل في المخلوقات، وأَحسَنُه وأَقومُه ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ فِى كَبَدٍ﴾ [البلد:٤]، ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ فِىٓ أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ﴾ [التين:٤]، فلا صورةَ أحسَنُ من صورة الآدميِّ، ولا شَكلَ أحسَنُ من شَكْله؛ ولهذا قال: ﴿فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ وَرَزَقَكُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ﴾ فبيَّن الله في هذه الآيةِ أربعةَ أشياءَ، الأرض التي هي مَحَلُّ السُّكنى، والسماء التي هي مَحَلُّ الظِّل، والتَّصوير الذي هو الهَيْكل الإنساني، والإمداد لهذا الهَيْكلِ وهو قوله: ﴿وَرَزَقَكُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ﴾.

وقوله: ﴿وَرَزَقَكُم﴾؛ أي: أَعطاكم و﴿ٱلطَّيِّبَٰتِ﴾ هنا ما طاب ولَذَّ، واعلَمْ أن الطيِّب تارةً يُراد به الحَلالُ، وتارةً يُراد به الحَسَن، وتارةً يُراد به اللذيذ، ويُعيِّن ذلك السِّياقُ، فقول الله تعالى: ﴿لِيَمِيزَ ٱللَّهُ ٱلْخَبِيثَ مِنَ ٱلطَّيِّبِ﴾ المُراد بـ﴿ٱلطَّيِّبِ﴾ هنا الحَسَن، والمُراد بـ﴿ٱلْخَبِيثَ﴾ الرَّديءُ، والمُراد بقوله تعالى: ﴿كُلُوا۟ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقْنَٰكُمْ﴾ المُراد بها الحلال؛ لقوله: ﴿وَٱشْكُرُوا۟ لِلَّهِ﴾؛ لأنه لو قِيل: المُرادُ اللَّذيذ لكان قوله: ﴿وَٱشْكُرُوا۟ لِلَّهِ﴾ لا مَعنَى له، ولا يُمكِن إقامة الشُّكْر إلَّا إذا تَناوَل الإنسان

الشيء الحَلال، والمُرادُ بقوله هنا: ﴿مِنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ﴾ المُراد بها ما طاب ولَذَّ، وإنما قُلْنا بذلك؛ لأن رِزْق الله عَزَّوَجَلَّ بالمَعنى العامِّ يَشمَل الحلال والحَرام؛ ولهذا نَقول: إن الإنسان إذا اكتَسَب مالًا مُحرَّمًا عن طريق الرِّبا مثَلًا فإنه مَرزوق لا شَكَّ، لكنه رِزْق فيه التَّبِعَة.

وقوله: ﴿ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ﴾ ﴿ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ﴾ اسم الإشارة مُبتَدَأ، وما بعدَه عَطْف بَيان أو نَعْت، و(رب) خبَر المُبتَدَأ يَعنِي: هذا الذي أَمَدَّكم بهذه الأشياءِ الأربَعِ هو الله لا أَحَدَ غيرُه، وقوله: ﴿رَبُّكُمْ﴾ يَعنِي: جل وعلا ربُّ عِباده الذي هو الخالِق المالِك المُدبِّر؛ لأن الربَّ يَجمَع ثلاثة أَوْصاف: الخَلْق، والمِلْك، والتَّدبير.

وقوله: ﴿فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ ﴿فَتَبَارَكَ﴾ قيل: مَعناه: تَعالى وتَعاظَم، وهذا المَعنَى قَريب، ولكن فيه أن (تَبارَك) أَخصُّ من ذلك، ومَعنَى (تَبارَك)؛ أي: أنه ذو البرَكة العظيمة الثابتة؛ ولهذا لا يُطلَق على غير الله بهذا المَعنَى أي: بمَعنى أنه ذو البَرَكة العَظيمة الثابِتة؛ لأن هذا الوَصفَ لا يَليق إلَّا بالله عَزَّوَجَلَّ، وأمَّا ما يَقوله بعض الناس -كما سيأْتي إن شاءَ الله في الفَوائِد- فسنَتكلَّم عليه.

وقوله: ﴿رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ ﴿رَبُّ﴾ هذه عَطْف بَيان أو صِفة للَفْظ الجلالة، والعالَمون كلُّ مَن سِوى الله، كل الخَلْق عالَمون، وسُمُّوا بذلك؛ لأنهم عالَمَ على خالِقهم، ففي كلِّ الخَلْق آية من آيات الله، كما قيل:

وَفِي كُلِّ شَيْءٍ لَهُ آيَةٌ تَدُلُّ عَلَى أَنَّهُ وَاحِدُ[1]

والربوبية هنا الربوبية العامَّة؛ لأنه أَضافها إلى العالَمين، فهي عامَّة شامِلة.

---

(١) من شعر أبي العتاهية، انظر: ديوانه (ص:١٢٢)، ومعاهد التنصيص (٢/ ٢٨٦).

من فوائدِ الآيةِ الكريمةِ:

الْفَائِدَةُ الأُولَى: أن الله تعالى هو خالِق الأرض؛ لقوله: ﴿ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ﴾.

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَةُ: نِعْمة الله عَزَّوَجَلَّ علينا؛ لكون الأرض ذاتَ قَرار؛ أي: مُستَقِرَّة لا تَميد.

الْفَائِدَةُ الثَّالِثَةُ: أن الأرض لا تَتحرَّك؛ لقوله: ﴿قَرَارًا﴾، هكذا قال بعض العُلَماء، ولكن إذا قارَنَّا هذه الآيَةَ بقوله تعالى: ﴿وَأَلْقَىٰ فِى ٱلْأَرْضِ رَوَٰسِىَ أَن تَمِيدَ بِكُمْ﴾ [النحل:١٥] تَبيَّن أن الاستِدْلال بهذه الآيةِ على أن الأرض لا تَتحرَّك فيه نظر فيُقال: إِذَنْ من فَوائِد هذه الآيةِ أن نِعْمة الله عَزَّوَجَلَّ علينا بكَوْن الأرض لا تَميد بنا ولا تَضطَرِب بنا.

ومِن ثَمَّ نَعرِف الحُكْم على اختِلاف الناس اليوم ما بين مُؤيِّد ومُفنِّد، هل الأرض تَتحرَّك أو لا تَتحرَّك، فمن المَعروف عند عُلَماء الفَلَك أنها تَتحرَّك، وهذا عِندهم بمَنزِلة الأمور البَدَهيات اليَقينيَّات التي لا تَقبَل الجدَل، يَقولون: إن الأرض تَتحرَّك وتَدور بذاتها دَورانًا يَختَلِف به الليل والنهار، وتَدور دَورانًا مِحوَرِيًّا، به تَختَلِف الفُصول، وليس عندهم في ذلك شَكٌّ، ولا يُجادِلون في هذا، ومن العُلَماء مَن قال: لا، إنها لا تَدور، بل هي ساكِنة قارَّة، وإن اختِلاف الليل والنهار إنما يَكون بسبب دوران الشَّمْس على الأرض لا بسبَب دَوران الأرض.

والذي يَظهَر لي أن القُرآن الكريم ليس فيه شيءٌ صَريح بأنها تَدور أو لا تَدور، وهو إلى كونها تَدور أقرَبُ من كونها لا تَدور؛ لأن نفَي الأخصِّ في قوله: ﴿أَن

تَمِيدَ بِكُمْ ﴾ يقتضي وجود الأعَمِّ؛ كما قُلنا في قوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿ لَّا تُدْرِكُهُ ٱلْأَبْصَٰرُ ﴾: إن هذه الآيَةَ تَدُلُّ على ثُبوت رُؤية الله عَزَّوَجَلَّ؛ لأن نَفيَ الإدراك يَدُلُّ على ثُبوت أصل الرؤية، نَفي المَيَدان يَدُلُّ على وجود أصل الحَرَكة.

لكن الأمر خَطير فيما أَرَى، هل الشمس هي التي تَدور على الأرض عند الطُّلوع والغُروب أو لا؟ نحن نَعتَقِد أنها هي التي تَدور، ولا مانِعَ من أن يَكون هُناك دَوَران للأرض ودَوَران للشمس؛ لأن ظواهِر الكِتاب والسُّنَّة كلها تَدُلُّ على أن الشمس هي التي تَطلُع وتَغرُب وتَميل وتَزول وتَزيغ، وما أَشْبَهَ ذلك، فقد قال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿وَتَرَى ٱلشَّمْسَ إِذَا طَلَعَت تَّزَٰوَرُ عَن كَهْفِهِمْ ذَاتَ ٱلْيَمِينِ وَإِذَا غَرَبَت تَّقْرِضُهُمْ ذَاتَ ٱلشِّمَالِ﴾ [الكهف:١٧] فهذه أربعة أَفْعال كلُّها أُضيفَت إلى الشمس، والأصل أن ما أُضيف إلى الشيء فهو فِعْله، وقال الله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ في سورة (ص): ﴿إِنِّىٓ أَحْبَبْتُ حُبَّ ٱلْخَيْرِ عَن ذِكْرِ رَبِّى حَتَّىٰ تَوَارَتْ بِٱلْحِجَابِ ﴾ [ص:٣٢]، وقال تعالى في سورة الكَهْف: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ مَغْرِبَ ٱلشَّمْسِ﴾ [الكهف:٨٦]. وقال النبيُّ ﷺ لأبي ذَرٍّ حين غرَبت الشمس قال: «أَتَدْرِي أَيْنَ ذَهَبَتْ؟» قال: الله ورسوله أعلَمُ[1].

فكُلُّ هذه الأفعالِ مُضافة إلى الشمس نَفْسها، فكيف نَعدِل عن ظاهِر هذا اللَّفْظ إلى مَعنًى آخَرَ بدون أَمْر قَطعيٍّ يَكون لنا حُجَّة عند الله عَزَّوَجَلَّ أن نُخالِف ظاهِر كلامه.

لكن مَن تَبيَّن له الأمر تَبيُّنًا واضِحًا ورأى أنه أَمْر قَطعيٌّ يَقينيٌّ بدَهيٌّ كما يَقولون؛ فإنه يُمكِن أن تُؤوَّل الآيات بأن نِسبة الطلوع إلى الشمس والغُروب

(١) أخرجه البخاري: كتاب بدء الخلق، باب صفة الشمس والقمر بحسبان، رقم (٣١٩٩)، ومسلم: كتاب الإيمان، باب بيان الزمن الذي لا يقبل فيه الإيمان، رقم (١٥٩).

والذَّهاب باعتِبار رَأْي العَيْن، لا باعتِبار الواقِع، لكنِّي إلى الآنَ لم يَتبيَّن لي أن اختِلاف الليل والنهار يَكون بدوَران الأرض، بل هو يَكون بدوَران الشَّمْس، والله على كل شيء قَديرٌ.

فإن قال قائِل: ما الجَمْع بين قول النبيِّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: «**بِأَنَّ الشَّمْسَ تَسْجُدُ كُلَّ غُرُوبٍ عِنْدَ الْعَرْشِ، ثُمَّ بَعْدَ ذَلِكَ تَسْتَأْذِنُ رَبَّهَا فِي أَنْ تُشْرِقَ فَيَأْذَنَ لَهَا**»[1]، ومِمَّا قرَّره العِلْم الحَديث أن الشمس لا يُمكِن أن تَغـرُب أبَدًا، فهي كل لحظة إمَّا أن تُشرِق على ناس، أو تَغرُب على آخَرين، وأن في شَمال الكُرَة الأرضية الشمس سِتة أَشهُر كامِلة لا تَغرُب، وسِتة أَشهُر كامِلة غير مَوْجودة.

فالجَوابُ: نحن ذكَرْنا قاعِدة، أن الأمور الغَيْبية التي لا يُدرِكها الحِسُّ تَبقَى على ظاهِرها، ولا يُقال: كيف نَجمَع؛ لأن هذا أمر لا نُدرِكه حتى نَجمَع، فنَقول كما قال الرسول عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: «**أَنَّهَا إِذَا غَرَبَتْ تَسْجُدُ**»، ولم يَقُل الرسول كلَّما غرَبَت في أي مَكان، قد يَكون سُجودها إذا غرَبَت عن هذا الوجهِ -وجهِ الأَرْض- الذي فيه الحِرمان، بخِلاف ما إذا غابت على وَجْهٍ آخَرَ، لا نَدرِي، فنحن نَقول كما قال الرسول عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ، ونُقيِّد الزمَن بما قيَّده الرسول، يَعنِي: إذا غابَت عن المَدينة حصَل هذا، وهذا أَمْر مُمكِن مُحتَمَل؛ لأن أَفضَلَ وجه الأرض هو هذا الوَجهُ الذي فيه المَسجِد الحرام، والمَسجِد النبويُّ، والمَسجِد الأقصى.

الْفَائِدَةُ الرَّابِعَةُ: أن السماء مَبنيّـة؛ لقوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿وَٱلسَّمَآءَ بِنَآءً﴾ وهو كذلك قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿ءَأَنتُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَمِ ٱلسَّمَآءُ ۚ بَنَىٰهَا﴾ [النازعات:٢٧]، وقال: ﴿وَٱلسَّمَآءَ

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب بدء الخلق، باب صفة الشمس والقمر بحسبان، رقم (٣١٩٩)، ومسلم: كتاب الإيمان، باب الزمن الذي لا يقبل فيه الإيمان، رقم (١٥٩)، من حديث أبي ذر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

بَنَيْنَٰهَا بِأَيْيْدٍ﴾ [الذاريات:٤٧] إِذَنْ فهِي أَجرامٌ، ولا شـكَّ في هذا، وهي أجرام محفوظة لا يُمكِن الوُلوج إليها إلَّا بعد إِذْن، ويَدُلُّ لهذا أن أَفضَل الرُّسُل البشَرية مُحَمَّدًا ﷺ، وأَفضَلَ الرُّسُل الملَكية جِبريلَ؛ كِلاهُما لم يَدخُـل السماء الدنيا وما بعدَها إلَّا بعـد استِئْذان، مِمَّا يَدُلُّ على كَمال حِفْظها.

الْفَائِدَةُ الخَامِسَةُ: مِنَّة الله تعالى علينا نحن البَشَر أن صوَّرنا هذا التَّصويرَ البَديع الذي هو أحسَن الصُّوَر فقال: ﴿وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ﴾ [التغابن:٣].

الْفَائِدَةُ السَّادِسَةُ: تَحريم التصوير، نَقول: إن مَن صوَّر فقد نازَع الله تعالى فيما هو من اختِصاصه وهو الخَلْق؛ ولهذا جاء في الحَديثِ: «**يُقَالُ لِلْمُصَوِّرِينَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ: أَحْيُوا مَا خَلَقْتُمْ**»(١) وهذا هو الصحيح أن التَّصوير حرام، بل هو من كَبائِر الذُّنوب؛ لأن النبيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ لعَنَ فاعِله(٢).

ولكن هنا ثلاثة أُمور:

الأمر الأول: الصُّورة التِّمثالية بمَعنى أن يَخلُق الإنسان من الطين، أو الخَشَب، أو الحديد شيئًا على شَكْل صورة، هذه لا شَكَّ في تَحريمها؛ ولهذا قال في حديث عليِّ بنِ أبي طالب الذي رواه مُسلِم أنه قال: لأبي الهياجِ: «أَلَا أَبعَثُكَ على ما بعثَني عليه رسول الله ﷺ؟ أن لا تَدَعَ قَبْرًا مُشرِفًا إلَّا سَوَّيْتَهُ، ولا تِمْثالًا إلَّا طَمَسْتَه»(٣)

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب البيوع، باب التجارة فيما يكره لبسه للرجال والنساء، رقم (٢١٠٥)، ومسلم: كتاب اللباس والزينة، باب تحريم تصوير صورة الحيوان، رقم (٢١٠٧/٩٦) من حديث عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا.

(٢) أخرجه البخاري: كتاب اللباس، باب من لعن المصور، رقم (٥٩٦٢)، من حديث أبي جحيفة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٣) أخرجه مسلم: كتاب الجنائز، باب الأمر بتسوية القبر، رقم (٩٦٩).

ولا أَعلَمُ نِزاعًا بين العلماء في تحريم ذلك.

الثاني: ما كان بالرقْم -أي: التصوير بالرقْم- بمَعنى أن الإنسان يُصوِّر بيَدِه صُورة، فهذه اختَلَف فيها السلَف والخلَف، فمِنهم مَن قال: إنها لا تَحرُم؛ لقوله في الحديث الصحيح الذي رواه البُخاريُّ: «إِلَّا رَقْمًا فِي ثَوْبٍ»(١) وهذا رقْم في ثوب، فلا يَحرُم؛ ولأن هذا ليس شَيْئًا مُجسَّمًا حتى يُطابِق ما خلَق الله عَزَّوَجَلَّ، إنَّما هو شَكْل فقَطْ، والصورة التي صوَّرها الله هي جِسْم محسوس مَلموس يُشاهَد بالعين، وأمَّا هذا فهو مُجرَّد تَلوين، فلا يَدخُل في الحديث، ولكن الجُمهور على أنه داخِل في الحديث، بدليل حَديث النُّمرُقة حديث عائِشةَ رَضِيَٱللَّهُعَنْهَا: أن الرسول ﷺ جاءَ إلى بَيْتِه فلم يَدخُل من أَجْل صورة كانت في نُمرَقة جعَلَتها للنبيِّ صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ(٢).

وهذا هو الصَّحيح أن التَّصوير برَسْم اليد حرام، وداخِل في اللَّعْن، ولا يَحِلُّ لأَحَد أن يَقوم به.

الثالث: ما كان تَصويرًا بالالتِقاط، وليس باليـد، وذلك ما يُعرَف بالتصوير الفُوتوغرافيِّ الذي ليس للإنسان فيه أي عمَل، بل هو شيء يَتمثَّل أمام هذا الضوءِ المُعيَّن فيَنطَبِع، وليس للإنسان فيه أيُّ عمَل سِوى تحريك الآلة التي تَقوم بالْتِقاط هذه الصُّورةِ، فهذا مُختَلَف فيه اختِلافًا كبيرًا بين المُتأخِّرين؛ لأنه لم يَظهَر إلَّا أخيرًا، فاختَلَفوا فيه، والذي يَتبيَّن لي أنه لا يَدخُل في التصوير؛ لأن هذا لم يَخلُق بيَده كما

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب اللباس، باب من كره القعود على الصورة، رقم (٥٩٥٨)، ومسلم: كتاب اللباس، باب تحريم تصوير صورة الحيوان، رقم (٢١٠٦)، من حديث أبي طلحة رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ.

(٢) أخرجه البخاري: كتاب البيوع، باب التجارة فيما يكره لبسه للرجال والنساء، رقم (٢١٠٥)، ومسلم: كتاب اللباس والزينة، باب تحريم تصوير صورة الحيوان، رقم (٢١٠٧/ ٩٦) من حديث عائشة رَضِيَٱللَّهُعَنْهَا.

خلَق الله عَزَّوَجَلَّ لم يُشكِّل العَـيْن، ولا الأَنْف، ولا الفَـمَ، ولا الشَّفَة، ولا أي شيء، غاية ما هنالك أن هـذا الضوءَ انعكَس على هذه الصورةِ، فانطَبَعت فهو بمَنزِلة ما لو شاهَـدْت المِرآة فرأَيْت صورتَك فيها، إلَّا أن الفَرْق أن هـذا يَثبُت، وما في المِرآة يَزول بزوالِكَ، ولهـذا نُسمِّي صورة الناظِر في المِرآة نُسمِّيها صورة، وهي بالاتِّفاق لا تَدخُل في التصوير المَنهيِّ عنه، لكن يَبقَى النَّظَر لماذا صوَّر هذه الصورةَ؟

إذَنِ الآنَ: تَقرَّر عندي هذا التَّصويرُ مُباح.

لكن لماذا صوَّر؟ نَقول: نُجرِي على هذا ما نُجرِيه على سائِر المُباحات، وهو أنه إذا كان لغَرَض مَقصود فهو مُباح، وإذا كان لغَرَض مُحرَّم فهو حرام، فلو أن إنسانًا صوَّر صورة امرَأة أَجنَبيَّة من أَجْل أن يَتلَذَّذ برؤيتها كلَّما سنَحَت له الفُرصة؛ لقُلنا: هذا حرام لا شَكَّ. ولو أَراد أن يُصوِّر صورة عَظيم ليُعلِّقها في بيته؛ قلنا: هذا حرام. ولو أَراد أن يُصوِّر صورة أبيه أو أخيه أو عمِّه أو صديقه من أَجْل أن يَتَسلَّى به عند المَصائِب؛ قلنا: هـذا حرام. فيَكون هذا المُباحُ حُكْمُه حُكْم الغرَض الذي من أَجْله صُوِّر، هـذا ما يَظهَر لي حول هذه المَسأَلةِ، والناس فيها بين مُتهاوِن وبين مُتَشدِّد، والذي يَظهَر -والله أَعلَمُ- هو هذا.

فإن قال قائِل: أحيانًا لا يَتمكَّن الخاطِب من رُؤْية مَخطوبته، وفي الغالِب صورة لها فهل تقوم مقام النظر؟

فالجَوابُ: من السُّنَّة أن يَنظُر الخاطِب إلى مَخطوبته بالشُّروط المَرعيَّة المَعروفة عند العُلَماء، والصورة لا تَقوم مَقام النظَر، ولا فائِدةَ منها؛ أوَّلًا لأنك كثيرًا ما تَرَى صورة شخص ما في مَجلَّة أو صَحيفة، ثُم إذا رأَيْت الرجُل نفسه وجَدْته يَختلِف، وهذا شيء مُجرَّب ومُشاهَد، هذه واحِدة.

الشيء الثاني: ربما تكون هذه المَرأةُ عند التِقاط الصُّورة لها على أحسَن تَجميل بمكياج وكُحْل، وما أَشبَه ذلك، فتُصوَّر على هذا الوجهِ وتُعطَى الخاطِب، فإذا نظَرها على الطبيعة -كما يَقولون- وجَد خِلاف ذلك، وجَد أن لا عينَ ولا وجهَ، وحينَئِذٍ يَحصُل البَلاء، فالذي نَرَى أنه يَحرُم أن يَتبادَل الخَطيبان الصوَر، ثُم إن هذه الصورةَ قد تَبقَى عند الخاطِب أو عند المخطوبة أيضًا، ولو بعد إطلاق الخِطبة، يَتمتَّع بالنظَر إليها متى شاء، وهي أيضًا تَتمتَّع بالنظَر إليه متى شاءَتْ.

مسألة: بالنسبة لحَبْس الضوء في الكاميرا، هناك عمَلية تُسمَّى بالرتوش، وهذه العمَلية يَدخُل فيها المُصوِّر بقلَم رَصاص يُغيِّر في الصورة إذا أَراد؛ فما حكمها؟

فالجَوابُ: الظاهِر أن هذه تَدخُل في التَّحريم؛ لأن له عمَلًا في شَكْل الصورة.

فإن قال قائِل: بعض صِغار السِّنِّ يَعنِي: غير المُكلَّفين يَرسُمون رُسوماتٍ للناس، هل لنا أن نُحرِّم هذا عليهم كما يَحرُم على الكِبار، على القاعِدة المُطَّرِدة؟

فالجوابُ: أي نعَمْ، فما يَحرُم على الكِبار يَحرُم على الصِّغار، لكن الصغير لا يُؤاخَذ عليه، وإنما يُؤاخَذ عليه وليُّه؛ حيث لم يَمنَعه منه، ثُم هناك أشياءُ يُمكِن أن يَتسلَّى بها الإنسان غير صوَر الحَيوان: شجَر، جِبال، نُجوم، شمس، أنهار، بِناء، مُمكِن، لكن الشَّيْطان زَيَّن للناس سوء العمَل، أمَرهم أن يَصنَعوا هذا الشيءَ المُشتَبِه، أو الذي هو مُحرَّم بالاشتِباه، ويَعدِلوا عن شيء مُباح.

الآنَ في بعض المَصنوعات ما هو جميل، والإنسان يَتمتَّع بالنظَر إليه وهو مَصنوع: سيَّارة، قلَم، ساعة، وغير ذلك، فلماذا نَعدِل إلى الشيء الذي فيه اشتِباهٌ، أو إلى شَيءٍ مُحرَّم لا اشتِباهَ فيه عن شيء مُباح؟!

تنبيه: نحن نَتكلَّم عن التصوير من حيثُ هو تَصويرٌ، لا عن المُصوِّر، المُصوِّر هو ونِيَّته، إذا كانت نِيَّته سَيِّئة فهو حرام وإذا كانت غير سَيِّئة فهو حلال.

الْفَائِدَةُ السَّابِعَةُ: مِنَّة الله عَزَّوَجَلَّ علَيْنا برِزْقه إيَّانا من الطَّيِّبات؛ لقوله: ﴿وَرَزَقَكُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ﴾ ذكَرْنا أن المُراد بـ﴿ٱلطَّيِّبَٰتِ﴾ هنا اللَّذائِذ؛ ليَشمَل الرِّزْق العامَّ والخاصَّ، وليُعلَم أن الرِّزق يَنقَسِم إلى قِسْمين: رِزْق عامٍّ، ورِزْق خاصٍّ. فالعامُّ كل ما يَنتَفِع به الإنسان فهو رِزْق، كما قال السَّفَّارينيُّ رَحِمَهُٱللَّهُ:

والـرِّزْق مـا يَنفَـع مـن حَـلال أَوْ ضِده......................[1]

وهو الحَرام، هـذا رِزْق عامٌّ يَستَوي فيـه المُؤمِن والكافِر، والبَرُّ والفـاجِر، والمُكتَسَب عن طريق حلال والمُكتَسَب عن طريق الحَرام، كل هذا رِزْق، وعلى هذا فالمَسروق بالنِّسبة للسارِق رِزْق، لكنـه رِزْق، وإن تَمتَّع به في الدنيا فسيَكون عليه وَبالًا في الآخِرة.

أمَّا النوع الثاني من الرِّزْق فهو الرِّزْق الطَّيِّب الحَلال، وهذا هو الرِّزْق الخاصُّ، وهو الطَّيِّب الحلال، وهو خاصٌّ بالمُؤمِن، وعلى هذا فالكافِر ليس له رِزْق خاصٌّ إطلاقًا حتى لو اكتَسَبه عن طريق الحـلال، فليس رِزْقًا خاصًّا، بل هو داخِـل في العُموم؛ لقول الله تَبَارَكَوَتَعَالَى: ﴿قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِىٓ أَخْرَجَ لِعِبَادِهِۦ وَٱلطَّيِّبَٰتِ مِنَ ٱلرِّزْقِ ۚ قُلْ هِىَ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ [الأعراف:٣٢]، ولغير الَّذين آمَنـوا ليسَتْ لهم؛ ولهذا نَقول: الكافِرُ يُحاسَب على كل لُقْمة وكل شَرْبة، كل لُقْمة أَكَلها وكل شَرْبة شَرِبها يُحاسَب عليه يوم القِيامة، بل إن مِن الخطَر أن يُحاسَب

(١) العقيدة السفارينية (ص:٦٤).

المُؤمِن على الطَّيِّبات إلَّا بالشُّروط التي ذكَرَ الله ﴿لَيْسَ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جُنَاحٌ فِيمَا طَعِمُوٓا۟ إِذَا مَا ٱتَّقَوا۟ وَّءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ ثُمَّ ٱتَّقَوا۟ وَّءَامَنُوا۟ ثُمَّ ٱتَّقَوا۟ وَّأَحْسَنُوا۟﴾ [المائدة:٩٣]، شُروط ثَقيلة بِحِلِّ الرِّزْق، مع أنه طَيِّبٌ، نَسأَل الله أن يُعينَنا على تحقيق هذه الشُّروطِ.

إِذَنِ: الكافِرُ لا يُمكِن أن يَكون في حَقِّه رِزْق خاصٌّ، كل الرِّزْق وإن كان طيِّبًا فهو عامٌّ بالنِّسبة له؛ لأنه يُحاسَب عليه، أمَّا المُؤمِن فينقَسِم الرِّزْق في حَقِّه إلى خاصٍّ وعامٍّ، فما أَثِمَ به فهو من العامِّ، وما لم يَأْثم به فهو من الخاصِّ.

الْفَائِدَةُ الثَّامِنَةُ: بَيان أن رُبوبية الله عَزَّوَجَلَّ مَبنيَّة على الرحمة؛ لقوله: ﴿ذَٰلِكُمُ﴾؛ أي: الذي أَعطاكُم هذه الأشياءَ الأَرْبعة ﴿ٱللَّهُ رَبُّكُمْ﴾ فرُبوبية الله عَزَّوَجَلَّ مَبنيَّة على الرحمة، ويَدُلُّ على ذلك قولُه في سورة الفاتِحة: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٢ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾ [الفاتحة:٢-٣]، فرُبوبية الله عَزَّوَجَلَّ مَبنيَّة على الرحمة والرَّأْفة.

فإن قال قائِلٌ: يَنتَقِض عليكم هذا بما يَحصُل في الحياة الدنيا من المُنغِّصات التي تُؤذِي الإنسان، وربَّما تَضُرُّه؟!

قلنا: هذه بالنِّسْبة للمُؤمِن رَحمة؛ لأنها مُكفِّرة للذُّنوب، لَا يُصِيبُ المُؤْمِنَ شَيْءٌ مِنْ هَمٍّ أَوْ غَمٍّ أَوْ أَذًى إِلَّا كَفَّرَ الله بِهِ عَنْهُ حَتَّى الشَّوْكَةُ يُشَاكُهَا، إِذَنْ هي رحمة؛ لأنها تُكفِّر السَّيِّئات، ومع احتِساب الأَجْر مع الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى تكون حسَنات؛ لأن تَرقُّب ثواب الله، واحتِساب الأَجْر على الله عمَل صالِح يُثاب عليه المَرْء، وهذا الأذى، أو هذا الضرَرُ الذي يَنال العَبد عرَض يَزول؛ ولهذا لو رجَعْت إلى الوَراء في تَفكيرك لوَجَدْت أنه مَرَّ بك أشياءُ كَثيرة من الأذى، وأَشياءُ كثيرة من الضرَر، فزالَت وكأنها لم تكُن.

إِذَنِ: الثَّواب الذي حصَل وتَكفير السَّيِّئات الذي حصَل هو خَيْر من هـذه الأَذايا وهذه الأَضرارِ، فتكون بذلك رَحْمة، فلا تَخرُج عن نِطاق الرَّحمة والرُّبوبية.

الْفَائِدَةُ التَّاسِعَةُ: بيان عظَمة الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى في قوله: ﴿فَتَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾، وقدِ استَنْبط بعض العُلَماء من هذا أن اسمَ الله عَزَّوَجَلَّ تُنال به البركة واستَشهَد لذلك بقوله: «**كُلُّ أَمْرٍ ذِي بَالٍ لَا يُبْدَأُ بِبِاسْمِ الله فَهُوَ أَبْتَرُ**»(١) وهذا ليس ببَعيد، وإن كان فيه شَيْءٌ من الرَّكاكة.

الْفَائِدَةُ الْعَاشِرَةُ: عُموم رُبوبية الله عَزَّوَجَلَّ؛ لقوله: ﴿رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾.

ويَتفرَّع على ذلك: أنه يَجِب أن يَقوَى اعتِماد الإنسان على الله في جَلْب المَنافِع، ودَفْع المَضارِّ؛ لأنه إذا كان ربَّ العالَمِين عَزَّوَجَلَّ، فهو مُسيطِر على كل العالَمِين، وله السُّلْطان على كل العالَمِين.

ويَتفرَّع على ذلك أيضًا مَسأَلة أُخرى، وهي: اللُّجوء إلى الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عند حُصول المُضايَقات من بني آدَمَ أو غير بني آدَمَ؛ لأنه سبحانه رب العالَمِين بيَـدِه الأَمْر، فهو القادِر على أن يَعـصِم الإنسان من الأسَد الضارِي المُهاجِـم، وإن كان الإنسان لا يَستَطيع بمُجرَّد قُدْرته، لكن الله تعالى قد يَصرِفه عنه.

الْفَائِدَةُ الحَادِيَةَ عَشْرَةَ: إثبـات رُبوبية العامة؛ لقـوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾، وهناك رُبوبية خاصَّة، ورُبوبية أخصُّ، وقدِ اجتَمَع النوعان في قوله تعـالى عن سحَرة آل فِرعونَ: ﴿قَالُوا آمَنَّا بِرَبِّ الْعَالَمِينَ (١٢١) رَبِّ مُوسَىٰ وَهَارُونَ﴾ [الأعراف:١٢١-١٢٢].

---

(١) أخرجه الإمام أحمد (٢/ ٣٥٩)، من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، بلفظ: «بذكر الله».

إِذَنْ: رُبوبية الله العامَّة شامِلة للمُؤمِن والكافِر، والبَرِّ والفاجِر، الرُّبوبية الخاصَّة للمُؤمِنين، الرُّبوبية التي هي أخصُّ للرُّسُل وللأَنبياء عليهم الصلاة والسلام؛ ولهذا نَعرِف أن من صِفات الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى ما يَكون عامًّا، وخاصًّا، وأخصَّ.

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَةَ عَشْرَةَ: أن كل المَخلوقات آيَة على الله؛ لقوله: ﴿ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ وقد قُلْنا: إنهم سُمُّوا بذلك لأنهم علَمٌ على خالِقهم جَلَّ وَعَلَا، والله أَعلَمُ.

• • ۞ • •

الآية (٦٥)

• ● ✥ ● •

قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿هُوَ ٱلْحَىُّ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَٱدْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ ۗ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [غافر:٦٥].

• ● ✥ ● •

قال الله تَبَارَكَ وَتَعَالَى: ﴿هُوَ ٱلْحَىُّ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ ﴿هُوَ ٱلْحَىُّ﴾ جملة خبَرية تُفيد الحَصْر وهذا الحَصرُ حَصرٌ إضافيٌّ؛ لأن المُرادَ بـ﴿ٱلْحَىُّ﴾ هنا الحيُّ حياةً كامِلةً، أمَّا مُطلَق الحياة فيكون فيه وفي غيره؛ كما قال تعالى: ﴿ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْمَوْتَ وَٱلْحَيَوٰةَ﴾ [المُلك:٢]، أمَّا الحَياة الكامِلة فهي لله عَزَّوَجَلَّ.

وقوله: ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ (لا) نافية للجِنْس، و(لا) النافِية للجِنْس نصٌّ في العُموم، و﴿إِلَٰهَ﴾ بمَعنى: مَألوهٍ؛ لأن فِعالًا يَأتِي بمَعنَى: مَفعول في اللُّغة العربية، وله شَواهِدُ كثيرة: مثل: غِراس، وبِناء، وفِراش، وما أَشبَهها.

إِذَنْ: ﴿إِلَٰهَ﴾ بمَعنَى: مَألوهٍ، والمَأْلوه مَعناه: الذي تَألَهُه القُلوب محَبَّةً وتَعظيمًا؛ أي: تَهواه وتَميل إليه؛ محَبَّة له وتعظيمًا له، فبالمَحبَّة يَكون فِعْل المأمور، وبالتَّعْظيم يَكون تَرْك المَحظور.

وقوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿إِلَّا هُوَ﴾ (إلَّا) أداة حَصْر، والحَصْر إثبات الحُكْم في المحصور فيه، ونَفيُه عمَّا سِواه، وإذا كان الأمر كذلك بَقِيَ فيه إشكال؛ أنك إذا قلتَ: ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ وقلت: إن ذلك للحَصْر، ورَدَ على قَلْبِك، أو أُورِد عليه أن هُناك آلهةً

دون الله بنصِّ القُرآن، كما قال تعالى: ﴿فَمَآ أَغْنَتْ عَنْهُمْ ءَالِهَتُهُمُ ٱلَّتِى يَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ [هود:١٠١]، وقال تعالى: ﴿وَلَا تَدْعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ﴾ [القصص:٨٨].

والجَوابُ عن ذلك أن يُقال: إن خبَرَ (لا) محذوف، وتَقديرُه (حَقٌّ)؛ أي: لا إلهَ حقٌّ إلَّا الله، وإذا كان هذا هو التَّقديرَ لم يَرِد الإشكال الذي ذكَرْنا؛ لأن الآلِهة التي سِوى الله كلُّها باطِلة، كما قال تعالى: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِ ٱلْبَٰطِلُ وَأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْعَلِىُّ ٱلْكَبِيرُ﴾ [الحج:٦٢].

وما قرَّرْناه هنا في هـذه الكلِمةِ -كلِمة الإخلاص- هو الذي تَطمَئِنُّ إليه النَّفس، وإلَّا قد اختَلَف فيه العُلَماء -عُلَماء العَربية، وعُلَماء التوحيد- على أقوال مُتعدِّدة تَبلُغ نحو سِتَّة أقوال، ومِمَّا ذُكِر أن الخبر محذوف تَقديره مَوجودٌ، لا إلهَ مَوجـودٌ، وهذا لا شَكَّ أنه باطِل؛ لأنك إذا قلتَ: لا إلهَ مَوْجـودٌ إلَّا الله. لزِمَ من ذلك أن تَكون الآلِهة التي تُعبَـد من دون الله هي الله، وأن تَكون عِبـادتها حَقًّا، وأُلوهيَّتها حقًّا.

إذَنِ: المُتعيِّن ما دَلَّ عليه القُرآن أن الخبَر محذوف تقديرُه (حَقٌّ)؛ لقوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ هُوَ ٱلْبَٰطِلُ﴾.

قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿فَٱدْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ﴾ [غافر:٦٥].

قال المفسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿فَٱدْعُوهُ﴾ اعبُدُوه ﴿مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ﴾] وهذا التَّفسيرُ يُعتبَر قاصِرًا؛ لأن المُراد بالدُّعاء هنـا دُعاء العِبادة ودُعاء المَسأَلة، فالذي يُدعَى دُعاءَ مَسأَلة هو الله، والذي يُدعَى دُعاءَ عِبادة هو الله.

كأن المفسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ اقتَصَر على العِبـادة؛ لقوله: ﴿مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ﴾؛ لأن

الدِّين هو العمَل، ولكن يُقال: إن الدُّعاء من العمَل، ولا بُدَّ فيه من إخلاص، فالصواب أن قوله: ﴿فَٱدْعُوهُ﴾؛ أيِ: اعبُدوه واسأَلوه، فهو دُعاء عِبادة ودُعاء مَسأَلة.

إذا قال قائِل: دُعاء المَسأَلة واضِح أنه دُعاء، تَقول مثلًا: يا ربِّ اغفِرْ لي، يا ربِّ يَسِّرْ أَمري وإخواني المُسلِمين؛ لكن كيف كانت العِبادة دُعاء؟.

فالجَوابُ: العابِد يَدعو الله بلِسان الحال؛ لأَنَّك لو سأَلته لماذا عبَدْتَ الله لقال: أَرجو ثَوابه، وأَخشَى عِقابه. إِذَنْ فهو داعٍ بلِسان الحال، ﴿فَٱدْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ﴾ ﴿مُخْلِصِينَ﴾ اسم فاعِل، وفِعْله: أَخلَص، ومَعنَى أَخلَص؛ أي: نَقَّى الشيء من غيره، أَخلَصه يَعنِي: جعَله خالِصًا لا شائِبَةَ فيه، إِذَنْ فمَعنَى مُخلِصين؛ أي: مُنقِّين العِبادة والدعوة له وحدَه.

فإن قال قائِل: التَّفريق بين دُعاء المَسأَلة ودعاء العِبادة، أليس جميع الدُّعاء يُعتبَر من العِبادة؟

فالجَوابُ: بلى، لكن فَرْق بين أن أَقوم أُصلِّي، أو أَقول: يا ربِّ اغفِرْ لي، الثاني سُؤال صريح.

والعِبادة سُمِّيت دُعاءً؛ لأن العابِد يُريد الثواب والنَّجاة من العِقاب، فهو داعٍ بلِسان الحال. أمَّا الدُّعاء الصريح فهو بلِسان المَقال: اللَّهُمَّ اغفِرْ لي وارحَمْني، وما أَشبَهَ ذلك.

والكل يُطلَق على العِبادة، لكن هذا عِبادة، والدُّعاء عِبادة؛ لأنك تَتعبَّد لله، وتَتذلَّل له بالسُّؤال، والعِبادة مَعروفة، وكلُّها أيضًا يُسمَّى مَسأَلة؛ لأن العابِد سائِل.

قوله: ﴿لَهُ ٱلدِّينَ﴾، الدِّين يُطلَق في القُرآن الكريم على معنَيَيْن: المَعنَى الأوَّل العمَل، والمعنى الثاني الجزاء، فمن الأوَّل قوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿لَكُمۡ دِينُكُمۡ وَلِيَ دِينِ﴾ [الكافرون:٦]، ومن الثاني قوله تعالى: ﴿مَٰلِكِ يَوۡمِ ٱلدِّينِ﴾ [الفاتحة:٤]؛ لأن يوم القِيامة لا عمَلَ فيه، فيَوْم الدِّين يَعنِي: يوم الجَزاء، والمُراد به هنـا ﴿مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ﴾ العمَل ﴿مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ﴾؛ أي: مُخلِصين له عمَلَكم، وهو الدُّعاء.

وقول المفَسِّر رَحِمَهُ اللَّهُ: [من الشِّرْك] مُتعلِّق بـ﴿مُخۡلِصِينَ﴾؛ أي: مُنقِّين له من الشِّرْك؛ بحيث لا يَكون في عمَلكم إشراك.

وقوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ هذه جُملة تَتضمَّن الثناء على الله عَزَّوَجَلَّ بعُمـوم رُبوبيته، والحمد مَصدَر حمِد يَحمَـد حَمْدًا، وهو -أَعنِي: الحمدَ- وَصْف المَحمود بالكَمال على وجه المَحبَّة والتَّعظيم.

فقولنا: «وَصْف المَحمود بالكَمال» خرَج به القَدْح؛ لأن القَدْح وَصْف المَوْصوف بالنَّقْص.

وقـولنا: «على وجهِ المَحبَّـة والتَّعْظيم خرَج به المَدْح»؛ لأن المَدْح المُجرَّد قـد لا يَكون للمَحبَّـة ولا للتَّعْظيم، قد يَكون للخَـوْف، فربَّما يَمدَح الرجُل سُلطانًا جائِرًا لا لَمحبَّته ولا لتَعظيمه، ولكن للخَوْف منه، أمَّا الحمد فلا يَصدُر إلَّا عن مَحبَّةٍ وتَعظيم.

وقوله عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: «لَيْسَ أَحَدٌ أَحَبَّ إِلَيْهِ المَدْحُ مِنَ اللهِ»[1] المُراد بالمَدْح هنا الحَمْد.

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب النكاح، باب الغيرة، رقم (٥٢٢٠)، ومسلم: كتاب التوبة، باب غيرة الله تعالى وتحريم الفواحش، رقم (٢٧٦٠)، من حديث ابن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

وقوله: ﴿لِلَّهِ﴾ اللَّام هنا للاختِصاص والاستِحْقاق، للاختِصاص لأن الحمد المُطلَق لا يَصِحُّ إلَّا لله وحدَه، والاستِحْقاق لأن المُستَحِقَّ للحمد حَقيقة هو الله عَزَّوَجَلَّ، المخلوق وإن استَحَقَّ الحمد لكنه ليس استِحْقاقًا حَقيقيًّا؛ لأن كلَّ شيء يَأتيك من المَخلوق، أو كلَّ كَمال في المخلوق فمِن الله، فأنا أَحمَد المَخلوق عندما يُحسِن إليَّ، أو عندما أَرَى فيه صِفاتِ كَمال أَحمَدُه، لا لأنه هو المُستَقِلُّ بذلك ولكن لأنه السبَب.

إِذَنِ: اللَّام هنا ﴿لِلَّهِ﴾ للاستِحْقاق والاختِصاص.

وقوله: ﴿رَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ﴾ الرَّبُّ هو الخالِق المالِك المُدبِّر، يَعنِي: كلِمة (رب) المُضافة إلى الله عَزَّوَجَلَّ أو التي وُصِف بها الله تَتَضمَّن ثلاثة مَعانٍ: الخَلْق، والمُلْك، والتَّدْبير، فالله عَزَّوَجَلَّ هو الخالِق لكل شيء، وهو المالِك لكل شيء، وهو المُدبِّر لكل شيء، حتى المُشرِكون يُقِرُّون بهذا ﴿قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ أَمَّن يَمْلِكُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَـٰرَ وَمَن يُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ ٱلْمَيِّتَ مِنَ ٱلْحَىِّ وَمَن يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ ۚ فَسَيَقُولُونَ ٱللَّهُ﴾ [يونس:٣١].

وقوله: ﴿ٱلْعَـٰلَمِينَ﴾ قال العُلَماء: العالَم كلُّ مَن سِوى الله، وسُمُّوا عالَمًا؛ لأنهم علَم على خالِقهم جَلَّوَعَلَا، إِذْ إن في كل شيء من هذه المَخلوقاتِ آية تَدُلُّ على عظَمة الربِّ وقُدْرته، وغير ذلك ممَّا تَقتَضيه مَعاني الرُّبوبية.

من فوائدِ الآيةِ الكريمةِ:

الْفَائِدَةُ الأُولَى: ثُبوت الحَياة المُطلَقة لله عَزَّوَجَلَّ؛ لقوله: ﴿هُوَ ٱلْحَىُّ﴾، وحَياة الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَى كامِلة من كل الوُجوه، فهي كامِلة؛ لأنها لم يَسبِقْها عدَم، كامِلة

لأنها لا يَلحَقها فَناءٌ، كامِلة لأنها مُتضَمِّنة لجميع أوصاف الكَمال، كامِلة لأنها مُنزَّهة عن كل صِفات النَّقْص، فكَمالها من وُجوه أربَعة: من جهة أنه ليست تُسبَق بعدَم، ومن جهة أنه لا يَعترِيها الفَناء، ومن جهة أنها كامِلة مُتضمِّنة لجميع أَوْصاف الكَمال، ومن جهة رابِعة مُنزَّهة عن كل نَقْص، كما قال تعالى: ﴿ٱلۡحَيُّ ٱلۡقَيُّومُۚ لَا تَأۡخُذُهُۥ سِنَةٞ وَلَا نَوۡمٞ﴾ [البقرة:٢٥٥]، انظُرِ ﴿ٱلۡقَيُّومُۚ لَا تَأۡخُذُهُۥ سِنَةٞ وَلَا نَوۡمٞ﴾ صِفة كَمال، ونَفيُ نَقْص.

فإن قال قائِل: الحيُّ من الأسماء اللازِمة أو المُتعدِّية؟

فالجوابُ: من الأسماء اللازِمة، وقد ذكَر العُلَماء في كتُب التَّوْحيد أن أسماء الله عَزَّوَجَلَّ إن كانت مُتَعدِّية فإنه لا يَتِمُّ الإيمان بها إلَّا بأمور ثلاثة: إثباتها اسم لله، وإثبات ما دلَّتْ عليه من الصِّفات، وإثبات ما يَترتَّب على هذه الصِّفاتِ.

وأمَّا إذا كان الاسم لازِمًا فإنه يَتَضمَّن شَيْئَيْن: إثبات ذلك الاسمِ لله عَزَّوَجَلَّ، والثاني إثباتُ ما دلَّ عليه من الصِّفات فقَطْ.

مسألةٌ: هناك قاعِدة عِلْمية أن المادَّة لا تَفنَى ولا تُستَحْدَث من العدَم، ورأَيْنا أن الذي يَعتَقِد مَدلولها فهذا كُفْر، كلُّ شيء فانٍ إلَّا وجهَ الله، كل شيء هالِك إلَّا وجهَه، ومَعنى هالِك: قابِل للهَلاك، وقد يَجعَله الله مُؤَبَّدًا كالجَنَّة والنار، لكن الذي أَوجَد قادِر على الإعدام، والإعدام أهوَنُ من الإيجاد، وقولهم أيضًا: لا تُستَحْدَث، مَعناه: حكَموا بأنها أَزَليَّة، أَزَليَّة أبَدية، لا يَقول هذا مُؤمِن.

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَةُ: انتِفاء الأُلوهية عمَّا سِوى الله؛ لقوله تعالى: ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ وهي تَألُّه العبد لله عَزَّوَجَلَّ محبَّةً وتعظيمًا.

الْفَائِدَةُ الثَّالِثَةُ: وُجوب الإخلاص لله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ في العِبادة والدُّعاء؛ لقوله:

﴿فَادْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ﴾ [غافر:٦٥].

الْفَائِدَةُ الرَّابِعَةُ: إثبات كمال الله عَزَّوَجَلَّ في ذاته وفي إنعامه؛ لقوله: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ فالله أَثنى على نَفْسه بذلك لكمال صِفاته.

الْفَائِدَةُ الخَامِسَةُ: عُموم رُبوبية الله عَزَّوَجَلَّ لكل شيء؛ لقوله: ﴿رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾.

الْفَائِدَةُ السَّادِسَةُ: أن المُستَحِقَّ للحَمْد هو الله عَزَّوَجَلَّ، والمُختَصَّ بالحَمْد المُطلَق هو الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

الآية (٦٦)

قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿قُلْ إِنِّي نُهِيتُ أَنْ أَعْبُدَ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَمَّا جَآءَنِيَ ٱلْبَيِّنَٰتُ مِن رَّبِّي وَأُمِرْتُ أَنْ أُسْلِمَ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [غافر:٦٦].

ثُم قال تعالى: ﴿قُلْ إِنِّي نُهِيتُ أَنْ أَعْبُدَ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ [غافر:٦٦] إلى آخِره.

﴿قُلْ﴾ الخِطاب للنَّبيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ، يُخاطِب المُشرِكين، أُمِر أن يُخاطِب المُشرِكين فيقول: ﴿إِنِّي نُهِيتُ أَنْ أَعْبُدَ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾، وقوله: ﴿إِنِّي نُهِيتُ﴾ الجُملة هنا مُؤكَّدة بـ(إنَّ)، و﴿نُهِيتُ﴾ فِعْل ماضٍ مَبنيٌّ لما لَمْ يُسمَّ فاعِله، وحُذِف الفاعِل للعِلْم به، كما قال تعالى: ﴿وَخُلِقَ ٱلْإِنسَٰنُ ضَعِيفًا﴾ [النساء:٢٨]، حُذِف الفاعِل للعِلْم به؛ لأنه لا أَحَدَ يُنازِع في أن الخالِق هو الله.

وهنا المَسأَلة مَسأَلة شَرْعية نَهيٌّ، فلا نِزاعَ في أن الذي له الأمر والنَّهيُ هو الله، كما أنه الذي له الخَلْق. إِذَنْ يَكون الناهِي هو الله عَزَّوَجَلَّ، والنَّهيُ: طلَب الكفِّ على وجهِ الاستِعْلاء بصيغة المُضارِع المَقرون بـ(لا) الناهِيةِ، هذا تَعريف النَّهي في أُصول الفِقْه.

فقَوْلنا: «طلَب الكفِّ» خرَج به الأَمْر، وخرَج به المُباح.

وقولنا: «على وَجْه الاستِعْلاء» خرَج به الدُّعاء، مثل: ﴿رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَآ﴾؛

لأَنَّنا لا نَدعو الله على وجه الاستِعْلاء، بل على وَجهِ الاستِضْعاف، نَستَضْعِف أنفسنا أمام الله عَزَّوَجَلَّ.

وخرَج بقولنا: «بصِيغة المُضارِع المَقرون بـ(لا) الناهِيةِ» خرَج به نحوُ قولِك: انتَهِ عن كذا، اجتَنِبْ كذا، هذا نَهيٌ لكِنه ليس نَهيًا اصطِلاحيًّا، بل هو أَمْر بالاجتِناب.

فلو قال لك قائِل: اجتَنِبِ الرِّجْس من الأوثان. فهذا أَمر باجتِنابه الرِّجْس من الأوثان، لكن إذا قلت: لا تَقربِ الرِّجْس من الأوثان. صار نَهيًا.

فائدة: النهيُ المَعنويُّ غير النَّهي الاصطِلاحيِّ، ﴿فَاجْتَنِبُوا الرِّجْسَ مِنَ الْأَوْثَانِ﴾ [الحج:٣٠] هذا ليس نهيًا اصطِلاحيًّا، فالنَّهيُ في الاصطِلاح هو طلَب الكفِّ على وَجْه الاستِعْلاء بصيغة المُضارِع المَقرون بـ(لا) الناهِية، هذا تَعريفه عِند العُلَماء، أمَّا النَّهيُ بمَعنى العامِّ فهو ما دلَّ على نَهيٍ، حتى الاستِفْهام بمَعنى الإِنْكار يَدُلُّ على النهيِ، حتى لو قلت لواحِد فعَل شيئًا غيرَ مَرغوب فيه: أَتَفْعَل هذا؟ مع أنك مُستَفهِم الآنَ، لكنه مُتضَمِّن للنَّهيِ، نحن لا نَتكلَّم عن الاصطِلاح، تَعريفه اصطِلاحًا وارِد، ولَسْنا نَتكلَّم عمَّا يُفيد النهيَ، ﴿فَاجْتَنِبُوا الرِّجْسَ﴾ لو قُلت: إن هذا نهيٌ. قلنا: غلَط، بل نَقول: هذا أَمْر بالاجتِناب.

فقوله: ﴿نُهِيتُ﴾ هذه صِيغة فِعْل ماضٍ، لكن ليسَت صِيغة نهيٍ، إخبار بأنه نُهي، فما صِيغة النَّهيِ؟! فالنهيُ بالصِّيغة المُصطَلَح عليه هو طلَب الكفِّ على وَجْه الاستِعْلاء بصيغة المُضارِع المَقرون بـ(لا) الناهيةِ، هذا النهيُ، وأمَّا ما دلَّ على النهيِ بغير هذه الصِّيغةِ فهو لا يُسمَّى نَهيًا اصطِلاحًا، وإن كان نهيًا بالمَعنَى، ولكن ليس نَهيًا بالاصطِلاح.

وقوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿نُهِيتُ أَنْ أَعْبُدَ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ﴾ ﴿أَنْ أَعْبُدَ﴾ العِبادة

هي التَّذلُّل للمَعبود محبَّة وتَعظيمًا.

وقوله: ﴿ٱلَّذِينَ تَدۡعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾.

قال المفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [تَعبُدون ﴿مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾] وهذا أيضًا فيه شيء من القُصور، والصَّواب أن المُراد تَدْعون؛ أي: تَعبُدون وتَسألون؛ لأن من المُشرِكين مَن يَسأَلون أصنامَهم، ويَتَذلَّلون لها بالسُّؤال، فهي أعَمُّ مِمَّا ذكَره المفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: ﴿نُهِيتُ أَنۡ أَعۡبُدَ ٱلَّذِينَ تَدۡعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾.

وقوله: ﴿مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾؛ أي: مِن سِوى الله.

وقوله: ﴿لَمَّا جَآءَنِيَ ٱلۡبَيِّنَٰتُ مِن رَّبِّي﴾ ﴿لَمَّا﴾ ظَرْف زَمان بمَعنَى: حين، و(لَمَّا) تَأتِي في اللُّغة العرَبية على أربعة أَوْجهٍ:

الوجه الأوَّل: أن تَكون بمَعنى (حين) كما في هذه الآيةِ.

والوجه الثاني: أن تَكون بمَعنَى (إلَّا) كما في قوله تعـالى: ﴿إِن كُلُّ نَفۡسٖ لَّمَّا عَلَيۡهَا حَافِظٞ﴾ [الطارق:٤]، مَعنَى ﴿لَّمَّا عَلَيۡهَا حَافِظٞ﴾: إلَّا علَيْها حافِظ.

الوجه الثالِث: أن تَكون أداة جَزْم كقوله تعالى: ﴿بَل لَّمَّا يَذُوقُواْ عَذَابِ﴾ [ص:٨] أي: بَلْ لم يَذوقوا عَذابي، ولكنه قَريب.

الوجه الرابع: أن تكون حَرْف وجود لوجود؛ كقولك: لَمَّا جاءَ زَيْد جاء عَمرٌو.

وقوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿لَمَّا جَآءَنِيَ ٱلۡبَيِّنَٰتُ مِن رَّبِّي﴾ أي: حين جاءَني، والبَيِّنات صِفة لمَوصوف محَذوف للعِلْم به، والتَّقدير: الآياتُ البيِّنات.

قال المفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [دَلائِل التَّوْحيـد] والمَعنَى أعَمُّ مِمَّا قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ، بل هي دَلائِل التوحيد، ودَلائِل القُدْرة، ودَلائِل السَّمْع والبصَر، وغير ذلك.

المُهِمُّ: أنه جاءَه البيِّنات من الله سُبۡحَانَهُۥوَتَعَالَىٰ وأنتم ترَوْن في القُرآن العزيز كلِمة البيِّنات دائِمًا مَحذوف مَوْصوفها، وذلك للعِلْم به، والشيء المَعلوم يَجوز حَذْفه كما قال ابنُ مالِكٍ في الأَلْفية:

وَحَــذْفُ مَــا يُعْلَــمُ جَــائِزٌ ....[1]

وهذه قاعِدة عامَّة في كل شيء، ليس في المُبتَدَأ والخبَر فقَطْ، بل في كل شيء.

وقوله: ﴿مِن رَّبِّي﴾ مُتعَلِّق بـ(جاءَ) أي: جاءَني من الله عَزَّوَجَلَّ، ولكنه ذكَره باسمِ رُبوبية؛ لأن هذه رُبوبية خاصَّة يُربِّي بها الله عَزَّوَجَلَّ أنبياءَه ورُسُله.

﴿وَأُمِرْتُ﴾ مُقابِل: ﴿نُهِيتُ﴾، ﴿نُهِيتُ أَنْ أَعْبُدَ﴾ ﴿وَأُمِرْتُ أَنْ أُسْلِمَ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ الآمِر الله، والأَمْر طلَب الفِعْل على وجه الاستِعْلاء بصيغة الأَمْر، أو غيرها مِمَّا يَدُلُّ على الأَمْر.

وقوله: ﴿أَنْ أُسْلِمَ﴾ ﴿أَنْ﴾ مَصدَرية، و﴿أُسْلِمَ﴾ فِعْل مُضارِع مَنصوب بها، ومَعنى ﴿أُسْلِمَ﴾: أَستَسْلِم لربِّ العالَمين، والمُراد بالإسلام هنا الإسلام الشرعيُّ؛ لأنه هو الذي بِطاقتنا، وهو الذي يُمكِن أن نَفعَله أو لا نَفعَله، وهو الذي لا يَكون إلَّا من المُؤمِن.

أمَّا الإسلام الكَونيُّ فليس بطاقَتِنا ولا يُمكِنُنا أن نُدافِعه، ويَكون من المُؤمِن والكافِر.

إِذَنْ: يَتبيَّن لنا أن الإسلام يَأتِي على وَجْهين أو له مَعنيَان:

المعنى الأَوَّل: الإسلام الكَونيُّ.

---

(١) الألفية (ص:١٨).

والثاني: الإسلام الشرعيُّ، فالإسلام الكونيُّ القَدريُّ، والثاني الإسلام الشرعيُّ الدِّينيُّ.

فمِن الأوَّل قوله سُبْحَانَهُوَتَعَالَى: ﴿أَفَغَيْرَ دِينِ ٱللَّهِ يَبْغُونَ وَلَهُۥٓ أَسْلَمَ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَإِلَيْهِ يُرْجَعُونَ﴾ [آل عمران:٨٣] الإسلام هنا كَونيٌّ؛ لأنه قال: ﴿طَوْعًا وَكَرْهًا﴾ والإسلام الشرعيُّ لا يَكون بالإكراه، والإسلام الشرعيُّ لا يَكون عامًّا لكل شيء، فالإِسْلام هنا كَوْنيٌّ قَدَريٌّ، وهنا قوله: ﴿أَنْ أُسْلِمَ﴾ المُراد به الإسلام الشرعيُّ الدِّينيُّ، يَعنِي: ﴿أَنْ أُسْلِمَ﴾؛ أي: أَستَسْلِم تَعبُّدًا وتَذلُّلًا لله عَزَّوَجَلَّ.

وقوله: ﴿لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ نَقول فيها ما قُلْنا في مِثل الآيات السابِقة، لكن لو قال قائِل: لماذا لم يَقُل: أن أُسلِمَ لله؟ قُلنا: ليَكون ذلك دليلًا على وجهِ الإِسلام يَعنِي: لماذا أَسلَمْت؟ لأن الله ربُّ العالَمِين، وربُّ العالَمِين أحَقُّ أن يُسلَم له، وأن يُتعَبَّد له عَزَّوَجَلَّ، فهو كالدليل للحُكْم السابِق الذي هو الإسلام.

من فوائِدِ الآيةِ الكريمةِ:

الْفَائِدَةُ الأُولَى: أن النبيَّ ﷺ عَبْد مَأْمور مَنهيٌّ، يُؤخَذ ذلك من قوله: ﴿أَنْ أُسْلِمَ﴾.

ويَتفرَّع على هذه الفائِدةِ: بُطلان دَعْوى مَن يَقول: إن النبيَّ ﷺ له الأَمْر والنَّهيُ في السمَوات والأرض؛ لأنه لا يُمكِن أن يَكون كذلك وهو مَأمور مَنهيٌّ.

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَةُ: وجوب الإِخْلاص لله سُبْحَانَهُوَتَعَالَى؛ لقوله: ﴿نُهِيتُ أَنْ أَعْبُدَ﴾، ﴿وَأُمِرْتُ أَنْ أُسْلِمَ﴾ وهذا حَقيقة الإِخْلاص.

الْفَائِدَةُ الثَّالِثَةُ: الإشارة إلى القاعِدة المَشهورة، وهي أن التَّخلِية قبلَ التَّحلِية، ليسَت تَحلية الماء، التَّحلية يَعنِي: التَّزيين، التَّخْلية قبل التَّحْلية، تُؤخَذ من قوله: ﴿نُهِيتُ أَنْ أَعْبُدَ﴾ فهذه تَخْلية، ﴿وَأُمِرْتُ أَنْ أُسْلِمَ﴾ هذه تَحلِية، ووجهُ كون التَّخْلية قبل التَّحْلية أن التَّحْلية إذا ورَدَت على مَحَلٍّ غيرِ نَظيف صارَت ناقِصة مُتلوِّثة، فأنت طهِّر المَحلَّ أوَّلًا ثُم حَلِّهِ ثانيًا. وهكذا كلِمة الإخلاص (لا إلهَ) نَفيٌ (إلَّا الله) إثباتٌ، الأوَّل تَخلية والثاني تَحلِية.

الْفَائِدَةُ الرَّابِعَةُ: بُطلان عِبادة ما سِوى الله؛ لأن النهيَ يَقتَضِي البُطلان والفَساد، فلمَّا نُهينا عن عِبادة ما سِوى الله دلَّ ذلك على أنها باطِلة.

الْفَائِدَةُ الخَامِسَةُ: أن النبيَّ صَلَّاللَّهُعَلَيْهِوَعَلَىٰآلِهِوَسَلَّمَ كغَيْره يَحتاج إلى العِلْم؛ لقوله: ﴿لَمَّا جَآءَنِيَ ٱلْبَيِّنَٰتُ مِن رَّبِّي﴾.

فإن قال قائِل: في هذا إشكال كبير، وهو كيف يَكون الرسول عَلَيْهِالصَّلَاةُوَالسَّلَامُ لم يَعلَم ببُطْلان هذه الآلهِة إلَّا حين جاءَه النَّهيُ، مع أن بُطلان هذه الآلِهة مَركوز في الفِطَر والعُقول؛ أمَّا كونه مَركوز في الفِطَر فلِقوله ﷺ: «**مَا مِنْ مَوْلُودٍ يُولَدُ إِلَّا عَلَى الفِطْرَةِ**»(١)، والفِطْرة هي عِبادة الله وحدَه؛ وأمَّا العَقْل فلأنَّ إبراهيمَ عَلَيْهِالصَّلَاةُوَالسَّلَامُ استَدَلَّ على بُطلان الآلِهة بدَليل عَقْليٍّ، حين قال لأبيه: ﴿لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِي عَنكَ شَيْـًٔا﴾ [مريم:٤٢]؟

قُلنا: إن الرسول عَلَيْهِالصَّلَاةُوَالسَّلَامُ يَعلَم هذه الآلِهَة، لكنه أَسنَد هذا العِلْم إلى

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب الجنائز، باب إذا أسلم الصبي فمات هل يصلى عليه، رقم (١٣٥٨)، ومسلم: كتاب القدر، باب معنى كل مولود يولد على الفطرة، رقم (٢٦٥٨) من حديث أبي هريرة رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ.

الآيات البيِّنات؛ لإثبات الرِّسالة، فتكون الرِّسالة مُؤيِّدة لما تَقتَضيه الفِطْرة، ويَدُلُّ عليه العَقْل.

الْفَائِدَةُ السَّادِسَةُ: أن ما جاء به الرسولُ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ فهو آياتٌ بيِّناتٌ ليس فيها خَفاءٌ؛ لقوله: ﴿ٱلْبَيِّنَٰتُ﴾، والعجَب أن المُشرِكين كانوا يَتَردَّدون إلى مَنزِل الرسول عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ خِفْية يَستَمِعون القُرآن؛ لأنه أَخَذ بألبابهم وعُقولهم، لكِنهم -والعِياذ بالله- يُنكِرون استِكْبارًا ومُكابَرة.

الْفَائِدَةُ السَّابِعَةُ: التَّحذيرُ من خَفاء ما جاء به الرسول عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ، بمعنى أن الذي لا يَرَى ما جاء به الرسولُ مُتضَمِّن للآيات البيِّنات فلْيَعلَم أن على قَلْبه غِشاوة؛ لأن القَلْب النَّظيف النَّزيهَ لا بُدَّ أن يَعرِف أن ما جاء به الرسول حقٌّ بيِّن، لكن قد تَتَراكَم الذُّنوب -والعِياذ بالله- على القُلوب، فلا تَعرِف الحقَّ، قال الله تعالى: ﴿إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ءَايَٰتُنَا قَالَ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٣﴾ كَلَّا ۖ بَلْ ۜ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ﴾ [المطففين:١٣-١٤]، فصاروا يَرَوْن هذا القُرآنَ الكَريمَ يَرَوْنه أساطيرَ الأوَّلين، نَسأَل الله أن لا يُعمِيَ قُلوبَنا وقلوبَكم، فالمَسأَلة خطيرة، إذا لم تَجِد قلبَك مُستَنيرًا بهذا القُرآنِ، أو بعِبارة أعمَّ بما جاء به الرسولُ، فاعلَمْ أن في القَلْب بَلاءً، فداوِ القَلْب ما دام في أوَّل المَرَض، حتى لا يَستَشرِيَ المَرَض فيَقضِي على القَلْب، فلا تَتَمكَّن من إصلاحه بعدُ.

الْفَائِدَةُ الثَّامِنَةُ: عِناية الله تعالى برسوله محمَّدٍ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ، وذلك في إثبات رُبوبيته الخاصَّة في قوله: ﴿مِن رَّبِّى﴾.

الْفَائِدَةُ التَّاسِعَةُ: وُجوب الإسلام لله عَزَّ وَجَلَّ؛ لقوله: ﴿وَأُمِرْتُ أَنْ أُسْلِمَ﴾.

الْفَائِدَةُ الْعَاشِرَةُ: الإشارة إلى أنه لا بُدَّ للقَلْب من حركة، فإمَّا إلى باطِل وإمَّا

إلى حَقٍّ؛ لقوله: ﴿نُهِيتُ﴾، وهذا تَفريغ، فهذا الفَراغ لا بُدَّ أن يَكون له ما يَملَؤُه وهو الإسلام؛ لأن كـل شيء إذا لم يَكُن له بَديل سيَبقَى الأمر خاوِيًا، فإذا خَـلا المَكان من الباطِل وجَبَ أن يُملَأ بالحَقِّ، وهكذا أيضًا إذا تَأمَّلت وجَدْت كل شيء باطِلًا، إذا لم يَخلُفه حقٌّ بَقِيَ الأمر خاوِيًا فيتَذبذب الإنسان، لَمَّا قال الله تعالى: ﴿لَا تَقُولُوا۟ رَٰعِنَا﴾ ماذا قال؟ ﴿وَقُولُوا۟ ٱنظُرْنَا﴾ [البقرة:١٠٤] فلا بُدَّ من قول، فإذا أُبطِل الباطِل فلا بُدَّ أن يَخلُفه حقٌّ.

الْفَائِدَةُ الحَادِيَةَ عَشْرَةَ: أن ما سِوى الله لا يَستَحِقُّ أن يُسلَم له؛ لقوله: ﴿لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ فمَن كان ربَّ العالَمين فهو الأحَقُّ بالإسلام له، ولا يُوصَف بربِّ العالَمين إلَّا الله عَزَّوَجَلَّ.

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَةَ عَشْرَةَ: إثبات عُموم الرُّبوبية لله؛ لقوله: ﴿لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾.

الْفَائِدَةُ الثَّالِثَةَ عَشْرَةَ: مُراعاة الوَصْف المُناسِب وإن كان فيه عُدول عن الأشهَرِ؛ لقوله: ﴿لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ عُدولًا عن (لله) مع أن الله هو الأَشهَر، لكن اعتِبار الوَصْف المُناسِب أَوْلى، والله أَعلَمُ.

الآية (٦٧)

قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ يُخْرِجُكُمْ طِفْلًا ثُمَّ لِتَبْلُغُوٓا۟ أَشُدَّكُمْ ثُمَّ لِتَكُونُوا۟ شُيُوخًا ۚ وَمِنكُم مَّن يُتَوَفَّىٰ مِن قَبْلُ ۖ وَلِتَبْلُغُوٓا۟ أَجَلًا مُّسَمًّى وَلَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ [غافر:٦٧].

قال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ﴾ إلى آخره ﴿خَلَقَكُم﴾ أي: ابتدأ خَلْقكم، والخَلْق بمعنَى: الإيجاد مع التَّقدير، قال الشاعِرُ:

فَلأَنْتَ تَخْلُقُ مَا تَقُولُ وَبَعْضُ النَّاسِ يَخْلُقُ ثُمَّ لَا يَفْرِي(١)

فهو إيجاد بتَقدير.

﴿مِّن تُرَابٍ﴾ قال المفسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [بخَلْق أبيكُم آدمَ مِنه]، فالأصل أنَّنا من تُراب من هذه الأَرْضِ ﴿مِنْهَا خَلَقْنَٰكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَىٰ﴾ [طه:٥٥]، فالأَرْض هي الأوَّل والآخِر بالنِّسبة لبني آدمَ إلى يوم البَعْث.

﴿ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ﴾ قال المفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [مَنِيٍّ]، وهذا باعتِبار نَسْل آدمَ عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ ﴿ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ﴾ هذا الطورُ الثالِثُ، والثاني باعتِبار نَسْل آدَمَ، والعلَقة قال المفسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [دَمٌ غليظ]، مثل الخَيْط ﴿ثُمَّ يُخْرِجُكُمْ طِفْلًا﴾، وطوَى الله تعالى ذكر المُضْغة،

(١) البيت لزهير بن أبي سلمى، انظر: ديوانه (ص:٣٢).

وإنشاء الخَلْق الآخر إلى قوله: ﴿ثُمَّ يُخْرِجُكُمْ طِفْلًا﴾؛ قال المفسِّر رَحِمَهُ اللَّهُ: [بمعنى: أطفالًا]، وإنَّما قال: [بمَعنى: أَطْفالًا]؛ لأنها حال من الكاف في ﴿يُخْرِجُكُمْ﴾ وهي جَمْع، وطِفْل مُفرَد، وعلى هذا فيَتعيَّن أن يَكون (طِفل) بمَعنَى: (أطفالًا)، وقيل: إن ﴿طِفْلًا﴾ بمَعنَى المُفرَد، وأن المعنى: ثُم يَخرُج كل واحِد مِنكم طِفلًا. فيَكون ﴿يُخْرِجُكُمْ﴾ جَمعًا باعتِبار المَجموع؛ أي: أن كل واحِد منَّا يَخرُج طِفلًا، وعلى هذا فلا حاجةَ إلى تَأْويل طِفل بمَعنَى: أطفال.

﴿ثُمَّ لِتَبْلُغُوا أَشُدَّكُمْ﴾ قال المفَسِّر رَحِمَهُ اللَّهُ: [ثُم يُبقِيكم لتبلُغوا] وإنَّما قدَّر ذلك؛ لأن اللَّام تَحتاج إلى مُتعلَّق، وعلى هذا فمُتَعلَّقها محذوف، والتَّقدير: ثُم يُبقِيكم ﴿لِتَبْلُغُوا أَشُدَّكُمْ﴾ قال المفَسِّر رَحِمَهُ اللَّهُ: [تَتكامَل قُوَّتُكم من الثلاثين سَنَةً إلى الأَرْبَعين]، هذا بُلوغ الأَشَدِّ، أَقْوى ما يَكون الإنسان من ثلاثِينَ سَنَةً إلى أَربَعين، ثُم يَبدَأ بالانحِدار شيئًا فشيئًا، ولكن قد يَكون هناك عوامِلُ تُوجِب أن تَبقَى قوَّته مُدَّة من الزمَن أكثَرَ، وقد تَكون هناك عوامِلُ تُوجِب أن تَنهَدِم قوَّته قبل تَمام الأربَعين، لكن في الأصل أنه إذا تَمَّ الإنسان أربَعين سَنَةً بَدَأَ بالضَّعْف.

﴿ثُمَّ لِتَبْلُغُوا أَشُدَّكُمْ﴾ أي: كامِل قُوَّتكم، ﴿ثُمَّ لِتَكُونُوا شُيُوخًا﴾ قال المفَسِّر رَحِمَهُ اللَّهُ: [بضَمِّ الشين وكَسْرها] يَعنِي: ﴿شُيُوخًا﴾ و«شِيُوخًا» والقِراءتان سَبْعيَّتان. وهذه طريق المفَسِّر إذا ذكَر الوَجْهين جميعًا فمَعناه أن القِراءتَيْن سَبْعيَّتان.

﴿ثُمَّ لِتَكُونُوا شُيُوخًا﴾ يَعنِي: كبارًا. يَعنِي: تَبلُغوا سِنَّ الشَّيْخوخة، ﴿وَمِنكُم مَّن يُتَوَفَّىٰ مِن قَبْلُ﴾. قال المفسِّر رَحِمَهُ اللَّهُ: [أي: قبلَ الأَشدِّ والشُّيخوخة، فعَل ذلك بكم لتَعيشوا ﴿وَلِتَبْلُغُوا أَجَلًا مُّسَمًّى﴾]. والمفَسِّر رَحِمَهُ اللَّهُ يُقدِّر ذلك لوُجود حَرْف العَطْف، وهو قوله: ﴿وَلِتَبْلُغُوا أَجَلًا مُّسَمًّى﴾، ولعلَّ ﴿أَجَلًا مُّسَمًّى﴾ قال المفَسِّر: [وَقْتًا

محدودًا]، والمُسمَّى بمَعنى: المُعيَّن، وهو بمَعنَى: المَحدود ﴿وَلَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾؛ أي: تَكونوا من ذَوِي العُقول، وتَفهَموا حِكْمة الله عَزَّوَجَلَّ في تَقديره وتَشريعه.

فأَنْتُم تَرَوْن الآنَ أن القَدَر يَكون فيه المُقدَّر شيئًا فشيئًا حتى يَكمُل، وهكذا الشَّرْع تكون فيه الشرائِع شيئًا فشيئًا حتى تَكمُل، وهذه من سُنَّة الله تعالى الكونية وسُنَّته الشرعية؛ أن الأُمور لا تَأتِي دَفْعة واحِدة، بل تَتطوَّر حتى تَبلُغ الكَمال، وهذا من حِكْمته البالِغة.

وقوله: ﴿وَلَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ ليس المُراد بذلك عَقْل الإدراك، بلِ المُراد بذلك عَقْل التَّدبير والرُّشْد؛ لأن العَقْل عَقْلان: عَقْل إدراك تَتوقَّف عليه التَّكاليف الشَّرْعية؛ ولهذا يُقال: من شُروط صِحَّة الصلاة العَقْل، والمُراد به عَقْل الإدراك، وعَقْل التَّدْبير والرُّشْد، وهو حُسْن التَّصرُّف؛ ولهذا نَقول: إن الكُفَّار لا يَعقِلون، مع أنهم بالنِّسبة لعَقْل الإدراك أقوياءُ أشِدَّاءُ أذكياءُ، لكن عَقْل التدبير والتَّصرُّف هم خالون منه.

قوله: ﴿وَلِتَبْلُغُوٓا۟ أَجَلًا مُّسَمًّى وَلَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ في هذه الآياتِ بيَّن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى مَنشأ بني آدَمَ، وغاية بني آدَمَ.

من فوائدِ الآيةِ الكريمةِ:

الْفَائِدَةُ الأُولَى: بَيانُ أن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى هو الذي خلَقَنا وحدَه، وأنه لا خالِقَ إلَّا الله، وقد قال الله عَزَّوَجَلَّ في سورة الطُّور: ﴿أَمْ خُلِقُوا۟ مِنْ غَيْرِ شَىْءٍ أَمْ هُمُ ٱلْخَٰلِقُونَ﴾ [الطور:٣٥] جوابُنا أنه لم يُخلَق من غير شيء، وليس هُمُ الخالِقين، إذَنْ فلَهُم خالِق.

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَةُ: بَيان أن أصل بني آدَمَ هو التُّراب؛ لقوله: ﴿مِن تُرَابٍ﴾ والتُّراب

مَعروف أنه يَختَلِف، ومن ثَم اختَلَـفَت طبائِعُ بني آدَمَ، واختَلَفت ألوان بني آدَمَ، واختَلَفَت أَلْسِنة بني آدَمَ كما اختَلَف أَصْلُهم، فالتُّراب منه الرَّمْل والطين والسِّباخ، وغير ذلك.

الْفَائِدَةُ الثَّالِثَةُ: انتِقال هذا الأصلِ إلى أصلٍ آخَرَ، وهو الماء النُّطْفة المَنيُّ؛ قال تعالى: ﴿فَلْيَنظُرِ ٱلْإِنسَٰنُ مِمَّ خُلِقَ ۝٥ خُلِقَ مِن مَّآءٍ دَافِقٍ ۝٦ يَخْرُجُ مِنۢ بَيْنِ ٱلصُّلْبِ وَٱلتَّرَآئِبِ﴾ [الطارق:٥-٧]، وفي آيةٍ أُخرى: ﴿مِّن مَّآءٍ مَّهِينٍ﴾ يَعنِي: غَليظ، لا يَندَفِع ولا يَجرِي؛ لأنه غير سائِل ليس كالماء المائِع الذي يَسيل، بل هو ﴿مَّآءٍ مَّهِينٍ﴾ أي: ضَعيف لا يَتحرَّك.

الْفَائِدَةُ الرَّابِعَةُ: تَطوُّر خَلْق الإنسان في بطن أُمِّه، وهنا لم يَذكُر الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ إلَّا النُّطْفة والعلَقة؛ لأن النُّطْفة هي الأصل والعلَقة هي الأصل، والعَلَقة هي أصل مادَّة الحَياة، إذْ إن الحَياة لا تكون إلَّا بالدَّمِ، وهو أصل المادَّة، ولهذا لو تَفرَّغ دمُ الإنسان لهلَكَ.

الْفَائِدَةُ الخَامِسَةُ: بَيانُ قُدرة الله عَزَّوَجَلَّ أنه بعد هذا الجَنينِ، أو بعد هذه الحالِ في بَطْن أُمِّه يَخرُج طِفلًا مُتكامِلًا.

الْفَائِدَةُ السَّادِسَةُ: أن الله تعالى قَسَم الناس بعد خُروجهم أطفالًا إلى أقسام:

القِسْم الأوَّل: أن يَبلُغ الإنسان أَشُدَّه ثُم يَموت.

والثاني: أن يَبلُغ الشيخوخة.

والثالث: أن يَموت قبل ذلك؛ أي: قبل أن يَبلُغ وقبل الشيخوخة، وعلى أيِّ أَساس يَكون هذا؟ نَقول: هذا مَحْض مَشيئة الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، ليس له أساس مَعلوم، لكنه مَحْضُ المَشيئة، لكن مع كونه مَحْض المَشيئة قد يُقدِّر الله تعالى أسبابًا كونية

وأسبابًا شرعية بها يَطول العُمر، وتَبقَى الصِّحَّة، وقد يُقدِّر الله أسبابًا على العكس من ذلك.

فمن أَسْباب الشَّرْعية ما ذكَره النبيُّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ في قوله: «**مَنْ أَحَبَّ أَنْ يُنْسَأَ لَهُ فِي أَثَرِهِ، وَيُبْسَطَ لَهُ فِي رِزْقِهِ، فَلْيَصِلْ رَحِمَهُ**»[1] فهذا دليل على أن صِلة الرحِم من أسباب سَعة الرِّزْق، وطول العُمر، فيُيسِّر الله تعالى لهذا العبدِ أن يَصِل رحمه فيَطول عُمره، وهذا شيء مَكتوب، ولكنَّنا لا عِلمَ لنا به، فحثَّنا النبيُّ ﷺ عليه بهذه الطَّريقةِ.

وأمَّا الأسباب الكونية فهو تَوقِّي الأسباب الضارَّة في الصِّحَّة، وهذا شيء لا نِهايةَ له، وهو أَمْر مَعلوم وأكثَرُ مَن يَعرِفه الأطِبَّاء، فيُيسِّر الله تعالى للإنسان من أسباب الصِّحَّة من دواء وغِذاء وهواء ما يَكون به طول العُمر.

الْفَائِدَةُ السَّابِعَةُ: أن الأَجَل مَهما طال بالإنسان فإنه محَدود، له غاية مع أن الإنسان في نَفْسه يَمُدُّ أمَلًا بعيدًا جدًّا، يَظُنُّ أنه سيَبقَى عشَرات المِئات، ولكنه في الواقِع مَهما بلَغ فإن الأجَل محَدود، والشيء المَحدود المعدود غايَتُه النِّهاية؛ لأن كل يوم يَمضِي يَنقُص العُمر، قال الشاعِرُ:

وَالمَــرْءُ يَفْــرَحُ بِالْأَيَّــامِ يَقْطَعُهَــا وَكُلُّ يَوْمٍ مَضَى يُدْنِي مِـنَ الْأَجَـلِ[2]

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب الأدب، باب من بسط له في الرزق بصلة الرحم، رقم (٥٩٨٥)، من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٢) ذكره الأصمعي في قصة له مع أعرابي، انظر: نثر الدر في المحاضرات (٦/ ٣٧)، وزهر الآداب (٢/ ٤٥٦). وقريب منه بيت أبي العتاهية:

تظــلّ تفــرح بالأيــام تقطعهــا وكلّ يوم مضى يدني من الأجـل

انظر: محاضرات الأدباء للراغب الأصفهاني (٢/ ٣٩٦).

وهذا صَحيح، فالمَرْء يَفرَح بالأيام يَقطَعها، يَقول: ما شاء الله عُمري طويل، ومُتِّعْت كثيرًا. لكن كل يوم يَمضِي وكل يوم مضَى يُدنِي من الأَجَل، إِذَنْ يَطول من وَجْه ويَقصُر من وجهٍ آخَرَ، ثُم عند انتِهاء الأجَلِ ﴿كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَهَا لَمْ يَلْبَثُوٓاْ إِلَّا عَشِيَّةً أَوْ ضُحَىٰهَا﴾ [النازعات:٤٦].

وقِسْ ما يُستَقبَل بما مَضَى الآنَ، مِنَّا مَن عُمِّر سِتِّين سَنَةً، أو خَمسين، أو عِشرين سَنَةً، أو ما أَشبَه ذلك، هذه الأيامُ التي مضَت كأنها ساعة. يَعنِي: أنت اليوم كأَنْت بالأَمْس، وأنت بالأَمْس كأَنْت قبل أَمْسِ، كأنها ساعة، كأنها أحلام؛ ولذلك ﴿وَلِتَبْلُغُوٓاْ أَجَلًا مُّسَمًّى﴾.

الْفَائِدَةُ الثَّامِنَةُ: بَيانُ نِعْمة الله علينا بالعِلْم والبَيان؛ لأن ذلك سبَب لبُلوغ الغاية في العَقْل، وذلك لقوله: ﴿وَلَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾.

الْفَائِدَةُ التَّاسِعَةُ: إثبات تَعليل أَحْكام الله؛ أي: أن أحكام الله تعالى مُعلَّلة بحِكْمة، وهل هذا مُقتَصِر على الأحكام الشرعية، أو على الأحكام الشَّرْعية والكَوْنية؟

الجوابُ: الثاني، فكُلُّ أحكام الله الكَوْنية والشَّرْعية كلُّها مُعلَّلة، كلُّها لحِكْمة، لكِنَّ هذه الحِكْمةَ قد تكون مَعلومة لنا، والناس يَختَلِفون في هذا الاختِلافًا عَظيمًا مُتبايِنًا، مِنهم مَن يُطلِعه الله عَزَّوَجَلَّ على أسرار خَلْقه وأسرار شَرْعه، ومنهم مَن لا يُطلِعه، ومِنهم مَن بَيْنَ ذلك.

وكذلك أحكام الله الشَّرْعيةُ كلُّها لحِكْمة، كلُّها مُعلَّلة، وما يَذكُره الفُقَهاء من أن هذا الحُكمَ تَعبُّديٌّ لا يَعنُون بذلك أنه ليس له عِلَّة، وإنما يَعنون بذلك أن عِلَّته غير مَعلومة لنا، فنحن ليس لنا إلَّا مُجرَّد التَّعبُّد؛ ولهذا لمَّا سأَلَتِ المرأة أُمَّ المُؤمنين عائِشةَ رَضِيَٱللَّهُعَنهَا قالت: ما بَالُ الحائِضِ تَقضِي الصَّوْمَ ولا تَقْضِي الصَّلاةَ؟ قالَتْ:

كانَ يُصيبُنا ذَلِكَ فنُؤْمَرُ بِقَضاءِ الصَّوْمِ ولا نُؤْمَرُ بقَضاءِ الصَّلاةِ[1]. هذه الحِكْمةُ، إِذَنِ الحِكْمة شَرْع الله، شَرْع الله كلُّه حِكْمة، لكن لو أَراد إنسان أن يَلتَمِس لذلك حِكْمة مَعقولة فلا حرَجَ عليه.

الْفَائِدَةُ الْعَاشِرَةُ: الثَّناء على أهل العَقْل؛ أي: على العُقَلاء؛ لأن الله تعالى جعَله غاية فقال: ﴿وَلَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ ذكَرْنا الآنَ أن أحكام الله الكَوْنية والشَّرْعية لها حِكمة.

فإن قال قائِل: ماذا تُجيبون عن قوله سُبْحَانَهُوَتَعَالَى: ﴿لَا يُسْئَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْئَلُونَ﴾ [الأنبياء:٢٣]؟

الجَوابُ: إنه لا مُنافاةَ؛ لأن الله لم يَقُل: لا حِكمةَ لما يَفعَل. بل قال: ﴿لَا يُسْئَلُ عَمَّا يَفْعَلُ﴾؛ لأن كل ما يَفعَله فهو حِكْمة لا يُسأَل عنه، نَعلَم أنه ما فعَله إلَّا لحِكْمة فلا يُسأَل عنه.

• • ۞ • •

(١) أخرجه البخاري: كتاب الحيض، باب لا تقضي الحائض الصلاة، رقم (٣٢١)، ومسلم: كتاب الحيض، باب وجوب قضاء الصوم على الحائض دون الصلاة، رقم (٣٣٥).

الآية (٦٨)

• ● ● •

قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿هُوَ ٱلَّذِى يُحْيِۦ وَيُمِيتُ فَإِذَا قَضَىٰٓ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾ [غافر:٦٨].

• ● ● •

ثُم قال تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى يُحْيِۦ وَيُمِيتُ فَإِذَا قَضَىٰٓ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾ هذا كالأوَّلِ جُملة استِئْنافية تُبيِّن كَمال قُدْرة الله عَزَّوَجَلَّ ﴿هُوَ ٱلَّذِى يُحْيِۦ وَيُمِيتُ﴾؛ أي: يجعَل الحياة في الميت، والموت في الحيِّ، هـو الذي يُحيِي ويُميت وحدَه، لا أحَدَ يُحيِي ويُميت؛ ولهذا قال إبراهيمُ عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ للَّذي حاجَّه في ربِّه: ﴿قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ رَبِّىَ ٱلَّذِى يُحْيِۦ وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا۠ أُحْيِۦ وَأُمِيتُ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ فَإِنَّ ٱللَّهَ يَأْتِى بِٱلشَّمْسِ مِنَ ٱلْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ ٱلْمَغْرِبِ﴾ [البقرة:٢٥٨].

فلا يُمكِن أن يُحيِيَ أحَدٌ ميتًا، ولا أن يُميت حيًّا، فإن قيل: أَلَيْس عِيسى ابنُ مَريمَ يُحيِي الموتى؟ قُلنا: بلى، ولكن بإِذْنِ الله بنَفْس الآية يُحيِي المَوْتى بإِذْن الله، فإن قيل: أَلَيْس الرجُل يَقتُل الآخَر وهو حيٌّ فيموت؟ قلنا: بلى، لكن ما فعَله فهو سبَب الموت، وليس هو الإِماتة، وكثيرًا ما تُقطَع أوداجُ الإنسان ويُشَقُّ بَطْنه ثُم يَبقَى حيًّا ويَحيا.

فالحاصِلُ: أن الإِحياء والإماتة بيَدِ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، فإذا قضَى أَمْرًا أَراد إيجاد شيء فيقول له: كُنْ. فيكونُ، أمرًا هنا بمَعنى: شَأْن؛ أي: فهو واحِد الأمور، وليس

واحِد الأَوامِر أي: إذا قضَى شَأْنًا من الشُّؤون فقَدَّره فإنه لا يُعجِزه أن يُوجِده.

ونُجيبُه بالكلِمة: ﴿كُن فَيَكُونُ﴾ ﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ ٱللَّهِ كَمَثَلِ ءَادَمَ خَلَقَهُۥ مِن تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾؛ ولهذا فعِيسى يُوصَف بأنه كلِمة الله؛ أي: كان بكَلِمَته.

فالحاصِلُ: أنه إذا أَراد شيئًا، إذا قضَى أمرًا وقدَّره قال له: ﴿كُن فَيَكُونُ﴾، وهل المُراد المَوْجوداتُ أو المَعْدوماتُ أو الكُلُّ؟

الجَوابُ: الكل حتى لو أَراد إعدامَ شيءٍ قال له: ﴿كُن﴾ فينعَدِم، فقول المفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [إيجاد شَيْءٍ] لو زادها: «أو إعدامه» لكان خَيْرًا؛ لأنه إذا قضَى أمرًا من إيجاد أو إعدام قال له: ﴿كُن فَيَكُونُ﴾.

أمَّا غير الله عَزَّوَجَلَّ فلو أَرَدْت أن تَهدِم بيتًا تَبقَى أيامًا وأنت تَهدِمه، لكن الله إذا أَراد أن يُهدَم هذا البَيْتُ أو القَريةُ كلُّها بكامِلها ماذا يَقول: كُنْ. فيَكون تَنهَدِم، تكون هَباءً.

فإِذَنْ نَقول: إذا قضَى أمرًا بإيجاد شيءٍ أو إعْدامه، ﴿فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾، قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَٰهُ بِقَدَرٍ﴾ [القمر:٤٩] كلُّ شيء بقَدَر، الصغير والكبير، المُتعلِّق بأفعاله وأفعال عِباده، كلُّ شيء خلَقه فهو بقَدَر ﴿وَمَآ أَمْرُنَآ إِلَّا وَٰحِدَةٌ﴾ ويَتأَخَّر المأمور؟

الجواب: ﴿كَلَمْحٍۭ بِٱلْبَصَرِ﴾ لَمح البَصَر ليس شيءٌ أسرَعَ منه واحِدة بدون تكرار.

﴿كُن فَيَكُونُ﴾ الفاء للتَّعقيب، وقال تعالى في بَعْث الناس: ﴿فَإِنَّمَا هِىَ زَجْرَةٌ

وَحِدَةٌ ﴿١٣﴾ فَإِذَا هُم بِٱلسَّاهِرَةِ﴾ [النازعات:١٣-١٤] سُبحانَ الله! ما أَعظَمَ قُدرةَ الله! كلِمة واحِدة بها تَكون الأشياءُ كلُّها، كما أَراد الله عَزَّوَجَلَّ تَكون كما أَراد الله، وليُنْتَبه للنُّقْطة الأخيرة: «تَكون كما أَراد الله» وإن كان هذا المَأمورُ لا يَعلَم به لكِن لا بُدَّ أن يَكون كما أَراد الله؛ فلَمَّا قال القلَمُ: ربِّي ماذا أَكتُبُ؟ قال: اكْتُبْ مَا هُوَ كائِنٌ إِلى يَوْمِ القِيامَةِ، وماذا فعَل؟ كتَبَ ما هو كائِن إلى يوم القِيامة، لأنه لا يَعلَم، لكن أُمِر فلا بُدَّ أن يَمتَثِل؛ قال تعالى: ﴿ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ وَهِىَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ٱئْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَآ أَتَيْنَا طَآئِعِينَ﴾ [فُصِّلت:١١]، لا إكراهَ، بل طَوْع.

إِذَنْ نَقول: ﴿وَإِذَا قَضَىٰٓ أَمْرًا﴾ أي: بإيجاد شيء، أو إِعْدام شيء ﴿فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾ الفاء في قول: ﴿فَإِنَّمَا﴾ رابِطة للجَواب -جَواب إذا- وهي تَدُلُّ على التَّعقيب، وقوله: ﴿كُن فَيَكُونُ﴾ بدون تَأْخير؛ لأن الفاء هنا للتَّعْقيب، قال المفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [بضَمِّ النُّون وفَتْحها بتَقْدير (أَنْ)].

إِذَنْ فيها قِراءَتان: ﴿كُن فَيَكُونُ﴾ «كُن فَيَكونَ» فعَلى القِراءة الأُولى تَكون الفاء للاستِئْناف، وعلى الثاني تَكون الفاء فاءَ السَّبَبية التي يَنتَصِب بعدها الفِعْل، وهي مَعروفة في عِلْم النَّحْو، قال المفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [بتَقْدير (أن) أي: يُوجَد عَقِب الإرادة التي هي مَعنَى القَوْل المَذكور]، اللَّهُمَّ اعفُ عن هذا المفَسِّر، يَقول: عقِب الإرادة التي هي بمَعنَى القول المَذكور، يُريد أن يَنفيَ بذلك القولَ يَعنِي: أن قوله: ﴿فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن﴾ إِنَّما يُريد أن يَقول؛ لأنه عفا الله عنه. يُريد أن يَنفِيَ قول الله عَزَّوَجَلَّ فإن مَذهَبه مَذهَبُ الأشاعِرة الذين يَقولون: إن الكلام هو المَعنَى القائِم بالنَّفْس، وليس شيئًا يُسمَع، وليس تَوجيـهًا يُصدَر إلى المُوجَّه إليـه، مع أن الآية صَريحة ﴿فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ﴾ قـول صَريح مَصدَر، نعَمْ ﴿كُن فَيَكُونُ﴾ نقـول: مَعنَى

﴿يَقُولُ لَهُۥ﴾ على كلامِه. أي: يُريد أن يَكون فكان، ولا شَكَّ أن هذا تَحريف للكلِمِ عن مَواضِعه، نَسأَل الله تعالى أن يَعفُوَ عمَّن حرَّفه بحُسْن نِيَّة، والمفَسِّر لا نَعتَقِد فيه -إن شاءَ الله- إلَّا الخيرَ، لكنه أَخطَأَ في هذا، والصواب أنه يَقول قولًا مَسموعًا يَسمَعه الْمُوجَّهُ إليه، فيَمتَثِل أَمْر الله عَزَّوَجَلَّ.

فإن قال قائِل: البعض يَقول: سُبحانَ مَن أَمْره بين الكاف والنون، فهل هذا صحيح؟.

فالجوابُ: ليس بصحيح، فأَمْره بعد الكاف والنون ﴿كُنْ﴾ فهو يَكون بعد الكاف والنون. يَعنِي: أَمْره هنا بمعنى: مَأمور، فإن كان الأَمْر هو الفِعْل فهو قبل الكاف والنون، وإن كان الأَمْر هو مَأموره فهو بعد الكاف والنون.

من فوائدِ الآيةِ الكريمةِ:

الْفَائِدَةُ الأُولَى: بَيانُ أن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى هو الذي يُحيِي ويُميت، وهذا من تَمام رُبوبيته.

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَةُ: أن الإحياء والإماتة ليسَتْ صَعْبة عليه؛ لقوله: ﴿وَإِذَا قَضَىٰٓ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾.

الْفَائِدَةُ الثَّالِثَةُ: الرَّدُّ على مُنكِري البَعْث الذين قالوا: ﴿مَن يُحْيِ ٱلْعِظَٰمَ وَهِىَ رَمِيمٌ﴾ وجهُه أنه إذا قَضى البَعْث يَقول: ﴿كُن فَيَكُونُ﴾؛ ولهذا قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿أَوَلَمْ يَرَ ٱلْإِنسَٰنُ أَنَّا خَلَقْنَٰهُ مِن نُّطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ ﴿٧٧﴾ وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِىَ خَلْقَهُۥ ۖ قَالَ مَن يُحْىِ ٱلْعِظَٰمَ وَهِىَ رَمِيمٌ ﴿٧٨﴾ قُلْ يُحْيِيهَا ٱلَّذِىٓ أَنشَأَهَآ أَوَّلَ مَرَّةٍ ۖ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ ﴿٧٩﴾ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلشَّجَرِ ٱلْأَخْضَرِ نَارًا﴾ [يس:٧٧-٨٠]،

إلى أن قال: ﴿فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾.

ولنأتِ على بَيان الأدِلّة الدالَّة على قُدْرة الله عَزَّوَجَلَّ على إحياء المَوْتى في هذه الآياتِ، لقَد ذكَر الله تعالى ثَمانية أَوْجُه على قُدْرته على إحياء المَوْتى:

الدليلُ الأوَّل: قوله: ﴿قُلْ يُحْيِيهَا ٱلَّذِىٓ أَنشَأَهَآ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ وجهُ الدَّلالة على قُدْرته على إِحياء المَوْتى من هذه الجُملةِ؛ لأن الذي قدَرَ على إِنْشائها أوَّلَ مرَّة قادِر على إعادتها؛ لأن الإعادة أَهوَنُ ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ﴾ [الروم:٢٧].

الدليلُ الثاني: ﴿وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ﴾ وجهُ الدَّلالة: الذي يَخلُق المَخلوقاتِ عالِمٌ بما خلَقَ. يَعنِي: هو لا يَخفَى عليه الخَلْق، فإذا كان لا يَخفَى عليه الخَلْق فما الذي يُعجِزه وهو على كل شيء قَديرٌ.

الدليل الثالث: ﴿ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلشَّجَرِ ٱلْأَخْضَرِ نَارًا﴾ وجهُ دَلالة هذه الجُمْلةِ على قُدْرة الله على إِحياء الموتى أنه يُوجَد شجَر مَعروف في الحِجاز إذا ضرَبْته بالقَدَح هكذا اشتعَل نارًا فخرَجَت النار من ضِدِّها، فالذي أَخرَج الضِّدَّ من ضِدِّه قادِر على أن يُحيِيَ الموتى، فالشجَر الأخضَر فيه الرُّطوبة والبُرودة، والنار فيها اليُبوسة والحرارة، فيُخرِج هذه المادَّةَ الحارَّة اليابِسة من مادة رَطْبة بارِدة، وهذا من تَمام القُدْرة، وقوله: ﴿فَإِذَآ أَنتُم مِّنْهُ تُوقِدُونَ﴾ هذا للتَّأْكيد، لتأكيد أنه خرج هذا وأَوْقَدْتُموه.

الدليل الرابع: ﴿أَوَلَيْسَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُمۚ بَلَىٰ﴾ الذي خلَق السمواتِ والأرضَ يَقدِر على إحيـاء المَوْتى، وجهُ الدَّلالة كما أنه خلَق السمواتِ والأرضَ على عظَمَتها فخَلْق الإنسانِ من بابِ أَوْلى أو إعادته؛

لأن خَلْق السمَواتِ والأرضِ أكبَرُ من خَلْق الناس، فالقادِر على الأكبَرَ قادِرٌ على ما دونَه.

الدليل الخامس: ﴿وَهُوَ ٱلْخَلَّٰقُ ٱلْعَلِيمُ﴾ فإذا كان الخَلَّاق العليم فهو قادِرٌ على أن يَخْلُق كلَّ شيء، ومنه إعادة الموتى.

الدليل السادس: ﴿إِنَّمَآ أَمْرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾ وجهُ الدَّلالة أن (شيئًا) نكِرَة في سِياق الشَّرْط فتَعُمُّ كل شيء حتَّى إحياء الموتى، أن يَقول له: كُنْ. فيَكون لا يَحتاج إلى أعوان، ولا إلى تَردُّد.

الدليل السابع: ﴿فَسُبْحَٰنَ ٱلَّذِى بِيَدِهِۦ مَلَكُوتُ كُلِّ شَىْءٍ﴾ هذه الجُملةُ، وجهُ الدَّلالة منها:

الوجهُ الأوَّلُ: إذا كان مالِكًا لكل شيء -من عُموم ﴿كُلِّ﴾-، فإنه إذا كان مالِكًا لكل شيء فالبَعْث يَدخُل ضِمْن العُموم.

الوجهُ الثاني: (سُبحان) تَنزيهُ الله عن النَّقائِص.

الوجهُ الثالِثُ: كون الله تعالى مالِك كل شيء هو خالِقه، خالِق كل شيء، وخالِق الشيءِ مالِكٌ له.

الدليل الثامن: قوله: ﴿وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ وجهُ الدَّلالة فيه: لو لا هذا الرُّجوعُ لكان الخَلْق عبَثًا، فكونُنا لا بُدَّ أن نَرجِع إلى الله، إِذَنْ فلا بُدَّ من الإحياء، وإلَّا لكانت الحياة كلُّها عبَثًا، فانظُرْ إلى تَقرير الله عَزَّوَجَلَّ الإحياءَ بعد الموت؛ لأنه يَنبَني عليه العمَل، لو أن أحَدًا لا يُؤمِن بيَوْم الحِساب لم يَعمَل، ما دام ليس في إلَّا الحياة الدنيا نَموت ونَحيا فلأيِّ شيءٍ يَعمَل، إِذَنْ إنسان يَعمَل في الدنيا يَنهَب، ويَسرِق، ويَزنِي،

ويَشرَب الخَمْر، ويَعمَل كل شيء؛ لأنه ليس وراءَ هذه الدُّنيا شيء.

فلا يُمكِن أن نَستَقيم إلَّا بالإيمان باليومِ الآخِر؛ ولهذا تَجِدون الله عَزَّوَجَلَّ يَقرُن الإيمان باليوم الآخِر بالإيمان به في مَواضِعَ كَثيرةٍ، ربما لو أَحصَيْناها لوجَدْناها أكثَرَ من الإيمان به وبالرُّسُل؛ لأن الإيمان باليومِ الآخِرِ عليه أساس العمَل، ونحن لولا أننا نَعتَـقِد ونُؤمِن بأن أعمالنا أمامَنا يوم القِيامة، ما حرَصْنا على العمَل الصالِح؛ لأنه يَذهَب هَباءً؛ فلهـذا الإيمانُ باليوم الآخِر من أعظَمِ البواعِث على الاستِقْرار، أمَّا مَن لا يُؤمِن باليَوْم الآخِر -والعِياذ بالله- ولا بالبَعْث، فهذا سيَكون عمَله كلُّه هَباءً.

• ● ۞ ● •

الآية (٦٩)

• قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ فِىٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ أَنَّىٰ يُصْرَفُونَ ﴾ [غافر:٦٩].

﴿ أَلَمْ تَرَ ﴾ هـذا الاستِفْهامُ للتَّقْرير؛ لأن هَمْزة الاستِفْهام إذا دخَلَت على النَّفيِ صارَت مُقـرِّرة له، فمَعنَى ﴿ أَلَمْ تَرَ ﴾ أي: رأَيْت، والخِـطاب إمَّا للرسول صَلَّاللَّهُعَلَيْهِوَعَلَىآلِهِوَسَلَّمَ، أو لكُلِّ مَن يَصِحُّ أن يَتـوَجَّه إليه الخِطاب، وهذا الخِـطاب يَرِد كثيرًا في القُرآن.

وقد بيَّنَّا أن الخِطاب المُوجَّـه إلى الرسول عَلَيْهِالصَّلَاةُوَالسَّلَامُ أو الذي ظاهِره أنه مُوجَّه إلى الرسول عَلَيْهِالصَّلَاةُوَالسَّلَامُ ينقَسِم إلى ثلاثة أقسامٍ:

القِسْم الأوَّل: ما هو مُختَصٌّ به قطعًا.

القِسْم الثاني: ما هو عامٌّ له وللأُمَّة قطعًا.

والقِسْم الثالِث: ما لا يَتبيَّن فيه هذا ولا هذا.

أمَّا الأوَّل: وهو الخاصُّ بالرَّسول قَطعًا، فهو خاصٌّ به، ولا إشكالَ في ذلك مِثْل قوله تعالى: ﴿أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ ۝١ وَوَضَعْنَا عَنكَ وِزْرَكَ﴾ [الشرح:١-٢]، ﴿أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَـَٔاوَىٰ ۝٦ وَوَجَدَكَ ضَآلًّا فَهَدَىٰ﴾ [الضحى:٦-٧]، وما أَشبَهها، الخِطاب هنا للرَّسول عَلَيْهِالصَّلَاةُوَالسَّلَامُ خاصَّةً ولا يَشمَل الأُمَّة.

وأمَّا الذي له ولغَيْره قَطْعًا، فمِثْل قوله تعـالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ إِذَا طَلَّقْتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَطَلِّقُوهُنَّ﴾ [الطلاق:١]، ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ إِذَا طَلَّقْتُمُ ٱلنِّسَآءَ﴾ لم يَقُـل: إذا طلَّقْتَ النِّساء. فدَلَّ هـذا على أن الخِطاب الخاصَّ به له وللأُمَّة؛ لأنه خاطَبه أوَّلًا بالنِّداء، ثُم وجَّه الخِطاب إلى الأُمَّة عُمومًا فقال: ﴿إِذَا طَلَّقْتُمُ﴾ فدَلَّ هذا على أن الخِطاب الخاصَّ به بالنِّداء ليس خاصًّا به، بل هو له وللأُمَّة.

وأمَّا ما ليـس كذلك -يَعنِي: ما ليس هذا ولا هذا- فقـد اختَلَف فيه العُلَماء رَحِمَهُمُ ٱللَّهُ هل هو خِطاب خاصٌّ بالرَّسول عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ، ولا يَشمَل الأُمَّة إلَّا حُكْمًا على سَبيل التَّأسِّي به، أو أنه عامٌّ للرَّسول ﷺ ولغَيْره، ويَكون الخِطاب فيه لمَن يَصِحُّ خِطابه، والخِلاف في مِثْل هذا يَكاد يَكون لَفْظيًّا؛ لأن الجميع مُتَّفِقون على أن هذا الحُكْم ثابِت للرسول ولغيره، لكن إذا قُلْنا: إنه خاصٌّ. به صار بالنِّسبة لغَيْره عامًّا على وجهِ التَّأسِّي والقُدْوة، لكن الحُكْم لا يَختَلِف في الواقِع؛ لأنه إن لم يَشمَل الأُمَّة لفظًا فقـد شمِلها حُكْمًا؛ للأَمْر بالتَّأسِّي به صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَىٰ آلِهِ وَسَلَّمَ، فهُنـا: ﴿أَلَمْ تَـرَ إِلَى ٱلَّذِينَ يُجَـٰدِلُونَ﴾ ممَّا يَدخُله الاحتِمال أنه خاصٌّ بالرَّسول عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ، أو عامٌّ لكل مَن يَتوجَّه إليه الخِطاب.

﴿أَلَمْ تَـرَ إِلَى ٱلَّذِينَ يُجَـٰدِلُونَ فِىٓ ءَايَـٰتِ ٱللَّهِ﴾ قال المفسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [القُرآن] وهذا التَّفسيرُ يُعتبَر قاصِرًا؛ لأن آياتِ الله أَعظَمُ من كونِها كَوْنية أو شَرْعية، وأعظَمُ من كونها في القُرآن، أو التَّوراة، أو الإنجيل، أو غيرها من الكُتُب المُنـزَّلة على الرُّسُل، فالصواب أن نَقول: في آيات الله الكَوْنية والشَّرْعية، وأَوْلَى ما يَدخُل فيها القُرآن.

والمُجادَلة هي المُنازَعة مع الخَصْم من أَجْل صَرْفه عمَّا كان عليه من المُجادَلة، مَأخوذة من الجَدَل، وهو فَتْل الحَبْل حتى يَحتكِم ويَكون قويًّا، هؤلاء الذين يُجادِلون

في آيات الله يُجادِلون الرُّسُل وأَتْباعَهم، فالمُجادَلة بين الرُّسُل وأتباعهم كانت مُنذُ أن أُرسِل الرُّسُل إلى يَوْمنا هذا، ولا تَستَغرِب أن يُوجَد مَن يُجادِل في آيات الله عَزَّوَجَلَّ في هذا الزمَن؛ لأن هذا سُنَّة الله عَزَّوَجَلَّ مُنذُ أَرسَلَ الرُّسُل؛ قال الله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا مِّنَ ٱلْمُجْرِمِينَ﴾ [الفرقان:٣١]، ﴿لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا مِّنَ ٱلْمُجْرِمِينَ﴾، وإذا كان له عَدوٌّ من المُجرِمين فلا بُدَّ أن يُجادِل، وبالتالي أن يُجالِد بالسُّيوف، المُجادَلة في آيات الله الكَوْنية أن يُنكِر أن يَقول: الله هو الخالِق. وقد وُجِد هذا فِعلًا، وُجِد مَن يَنسُب ما يَحدُث للكَوْن إلى الأمور الطَّبيعية دون أن يَكون لها مُدبِّر وقال: هذه طَبيعةٌ تَتَفاعَل ويَنتُج منها ما يُشاهَد.

ويُوجَد مَن يُجادِل في آيات الله الكونية بالأمور التي دون ذلك مِثْل أن يُثبِت شيئًا من الأَسْباب لم يَجعَله الله سببًا؛ كما يَحدُث لأهل الجاهِلية من التَّشاؤُم بالطيور والأماكن والأزمان، وما أَشبَه ذلك، فهُمْ يَتَشاءَمون في الأزمان بشَهْر صفَر، يَقولون: إن هذا الشَّهرَ شَهْر شَرٍّ. يَتَشاءَمون أيضًا بالطَّيْر: بنوع الطير، أو بكَيْفية طَيَرانه، أو باتِّجاهه، أو ما أَشبَه ذلك، يَتَشاءَمون أيضًا بالأشخاص، يَرَى الإنسان الرجُلَ أوَّل ما يَرَى فيَتَشاءَم به؛ حتى كان هذا مَوْجودًا إلى قريب عَصْرنا فيما يَظهَر؛ بعض الناس في جِهة ما من المَمْلكة إذا أَتَى ليَفتَح دُكَّانه ثُم قابَلَه شَخْص قبيحُ المَنظَر مثَلًا قال: اليَوْم شُؤْم ليس هناك بَيْع ولا شِرَاء، هذا تَشاؤُم بالأَشْخاص. هذا أيضًا من المُجادَلة في آيات الله الكَوْنية.

أمَّا المُجادَلة في آيات الشَّرْعية فحدِّثْ ولا حرَجَ، يُكذِّبون بآيات الله الشرعية، يُنكِرونها، يُجادِلون في بعض الأُمور فيها يَقولون: فيها تَناقُض، وفيها كذا، وفيها كذا. وأنواع الجَدَل كَثيرةٌ.

يَقـول: ﴿أَنَّىٰ يُصۡرَفُونَ﴾ قال المفَـسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿أَنَّىٰ﴾ كيفَ ﴿يُصۡرَفُونَ﴾ عن الإِيمان] يَعنِي: كأن هذا استِفْهام تَعجُّب وإنكارٍ، كيف يُصرَفون عن الإيمان مع أنه واضِحٌ بين، فهُمْ يُصرَفون عنه، ويُجادِلون فيه.

• ● ۞ ● •

الآيات (٧٠-٧٢)

• قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِٱلْكِتَٰبِ وَبِمَآ أَرْسَلْنَا بِهِۦ رُسُلَنَا فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ۝٧٠ إِذِ ٱلْأَغْلَٰلُ فِىٓ أَعْنَٰقِهِمْ وَٱلسَّلَٰسِلُ يُسْحَبُونَ ۝٧١ فِى ٱلْحَمِيمِ ثُمَّ فِى ٱلنَّارِ يُسْجَرُونَ﴾ [غافر: ٧٠-٧٢].

ثُم قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِٱلْكِتَٰبِ وَبِمَآ أَرْسَلْنَا بِهِۦ رُسُلَنَا﴾ هذا بدَل من قوله: ﴿ٱلَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ﴾ أو عَطْف بَيان، والفَرْق بينهما أن عَطْف البَيان يُشبِه الصِّفة في بَيان المُبدَل منه، وأمَّا البدَل فقد يَكون بدَلًا مُجرَّدًا عن الصِّفة، فمثَلًا إذا قُلْت: جاء زَيْد أَخوك. أخوكَ هنا بدَل لم يَستَفِد منها شيئًا كثيرًا، لكن إذا جاء عَطْف البيان مِثْل هذه الآيةِ: ﴿ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِٱلْكِتَٰبِ﴾ فقَدِ استَفَدْنا منها مَعنًى هو إلى الصِّفة أَقرَبُ منه إلى البدَلية؛ فلهذا يُسمُّونه عطفَ بَيان ﴿ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِٱلْكِتَٰبِ﴾؛ أي: قالوا إنَّه كذِبٌ. والكِتاب هنا مُحلًّى بـ(أل)، فهل هي للعَهْد، أو للاستِقْرار، أو للجِنْس؟ أَقرَبُ شيء أنها للجِنْس، والمفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ جعَلها للعَهْد فقال: [القُرآن] ولا شَكَّ أنه لا يَجوز العُدول عن الجِنْس أو بَيان الحَقيقة، لا يَجوز العُدول عن ذلك إلَّا بدَليل.

فما هو الأصل في (أل) أن تَكون لبَيان الحَقيقة أو لبيان الجِنْس أو للعَهْد؟

الجواب: لبَيان الجِنْس؛ لأن بيان الجِنْس يَعنِي: الاستِغْراق، وهذا هو الأصل،

فإذا جعَلْتها للعهد فقَدْ عدَلْت بمَعناها العامِّ إلى مَعنًى خاصٍّ، وكذلك إذا جعَلْتها للحَقيقة، ونحن نَضرِب ثلاثة أمثِلة؛ ليَتبيَّن الأمر، إذا قلت: الرجُل خَيْر من المرأة. فهي ليسَتْ للعُموم؛ لأن من النِّساء من هو خَيْر من الرِّجال؛ إِذَنْ: هذا لبَيان الحَقيقة.

فإذا أَورَد عليك مُورِد ﴿وَخُلِقَ ٱلْإِنسَـٰنُ ضَعِيفًا﴾ لأيِّ شيءٍ هذا؟ للجِنْس -يَعنِي: للعُموم، يَعنِي: خُلِق كلُّ إنسان ضَعيفًا-.

وإذا أَورَد عليك قولَ الله تعالى: ﴿كَمَآ أَرْسَلْنَآ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ رَسُولًا ﴿١٥﴾ فَعَصَىٰ فِرْعَوْنُ ٱلرَّسُولَ﴾ [المزمل:١٥-١٦] فهي للعَهْد الذِّكريِّ.

قوله: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَكُمُ ٱلرَّسُولُ بِٱلْحَقِّ مِن رَّبِّكُمْ﴾ هذا أيضًا للعَهْد؛ أي: العَهْد الذِّهنيِّ.

هنا قال المفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: حمَل قولَه: «الكِتاب» على العَهْد الذِّهنيِّ، وقال: إنَّه [القُرآن]، والصَّواب أنه عامٌّ، وأن المُراد به جِنْس الكِتاب، وذلك لأن التَّوراة كَذَّبت بها أُناسٌ، والإِنْجيل كذَّب به أُناس، وكذلك الزَّبور وبَقيَّة الكُتُب، وآخِرُها القُرآن.

﴿ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِٱلْكِتَـٰبِ وَبِمَآ أَرْسَلْنَا بِهِۦ رُسُلَنَا﴾ قال المفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [مِن التَّوْحيد والبَعْث وهُمْ كُفَّارُ مكَّةَ ﴿فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ﴾].

قوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَبِمَآ أَرْسَلْنَا بِهِۦ رُسُلَنَا﴾ عَطَفها على قوله: ﴿بِٱلْكِتَـٰبِ﴾ بإعادة العامِل؛ لأن العَطْف يَكون بإعادة العامِل وبغَيْر إعادة العامِل، فتَقول: مرَرْت بزَيدٍ وعَمرٍو. هذا عَطْف بدون إعادة العامِل، مرَرْت بزَيْد وبعَمْرٍو هذا عَطْف

بإعادة العامِل، ويُفيد إعادة العامِل استِقْلال المعطوف عن المعطوف عليه؛ لأنه ليس تابعًا له من كل وَجْه بدليل إعادة العامِل، فقوله: ﴿وَبِمَآ أَرْسَلْنَا بِهِۦ رُسُلَنَا﴾ يَدُلُّ على أن ما أُرسِلَت به الرُّسُل كأنه مُستَقِلٌّ عن الكِتاب؛ ولهذا كانَتِ السُّنَّة بمَثابة الكِتاب في الدَّلالة بوُجوب العَمَل بها.

وقوله: ﴿وَبِمَآ أَرْسَلْنَا بِهِۦ رُسُلَنَا﴾ قال المفَسِّر رَحِمَهُ اللَّهُ: [من التَّوْحيد والبَعْث وهُمْ كُفَّار مكَّةَ] التَّوْحيد يَعنِي: تَوْحيد الله عَزَّوَجَلَّ بما يَستَحِقُّ من الأسماء والصِّفات والعِبادة والربوبية، وأمَّا البَعْث فهو إخراج الناس من قُبورهم يومَ القِيامة.

وقوله: [وهُمْ كُفَّارُ مكَّةَ] هذا لا وَجهَ له؛ لأن هذا الوَصفَ التَّكذيب بالكِتاب، وبما أُرسِل به الرُّسُل لا يَختَصُّ بأَهْل مكَّةَ هم وغيرهم، فالأَوْلى أن يُجعَل هذا عامًّا في كل مَن كذَّب بمُحمَّد ﷺ، بل قُلْ: عامًّا لكل مَن كذَّب الرُّسُل انتبِهْ.

لكن إذا قال قـائِلٌ: ﴿فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ﴾ أَلَا تَدُلُّ بذلك على أن المُراد بذلِكَ الكُفَّار الذين كذَّبوا مُحَمَّدًا ﷺ؟

الجَوابُ: لا؛ لأن قوله: ﴿فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ﴾ تَهديد بما سيَكون في الدُّنيا، وما سيَكون في الآخِرة بدليـل قوله: ﴿إِذِ ٱلْأَغْلَٰلُ فِىٓ أَعْنَٰقِهِمْ﴾ والأغلال لا تَكون في الأَعْناق إلَّا يوم القِيامة.

قال المفَسِّر: [﴿فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ﴾ عُقوبةَ تَكذيبِهم ﴿إِذِ ٱلْأَغْلَٰلُ فِىٓ أَعْنَٰقِهِمْ﴾ ﴿إِذِ﴾ بمَعنَى: إذا، ﴿وَٱلسَّلَٰسِلُ﴾ عَطْف على ﴿ٱلْأَغْلَٰلُ﴾ فتكون في الأَعْناق، أو مُبتَدَأ خبَرُه محَذوف؛ أي: في أَرجُلِهم، أو خبَرُه ﴿يُسْحَبُونَ﴾ أي: يُجَرُّون بها].

قوله: ﴿فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ﴾ هو تَهديد بلا شَكٍّ؛ كقوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ ۝٣ ثُمَّ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾، فقوله: ﴿فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ۝٧٠ إِذِ ٱلْأَغْلَٰلُ فِىٓ

أَعْنَٰقِهِمْ﴾ فيقول المفسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: إن [﴿إِذِ﴾ بمَعنَى: إذا]، ومِن المعلوم أن (إِذْ) تَأتِي للحاضِر وتَأتِي للماضِي، و(إذا) تَكون للمُستقبَل، فما الذي جعَل المفسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ يَصرِف مَعناها إلى المُستقبَل؟

الذي جعَله يَصرِف ذلك إلى المُستقبَل أن الأَغلال لا تَكون إلَّا يوم القِيامة، وهو مُستقبَل.

ولكنَّنا نَقول: لا حاجةَ إلى ذلك، بل هي (إِذْ) على بابها، ولكنَّها حِكاية حال، وحِكاية الحال هي التي تَجعَل المُستقبَل كأنه حاضِر، وهذا أَبلَغُ في التَّهديد. يَعنِي: كأن الأَغْلال الآنَ حاضِرة؛ لأنها أمر مُؤكَّد، ولا بُدَّ أن تَكون الأَغْلال في الأَيْدي، كما قال الله تعالى: ﴿غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ وَلُعِنُوا۟ بِمَا قَالُوا۟﴾ [المائدة:٦٤]، والسلاسل تكون في الأَرجُل، كما قال الله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ: ﴿مُقَرَّنِينَ فِى ٱلْأَصْفَادِ ﴿٤٩﴾ سَرَابِيلُهُم مِّن قَطِرَانٍ﴾ [إبراهيم:٤٩-٥٠]، لكن هنا يَقول: ﴿إِذِ ٱلْأَغْلَٰلُ فِىٓ أَعْنَٰقِهِمْ وَٱلسَّلَٰسِلُ﴾ تَقتَضِي أن يَكون ﴿وَٱلسَّلَٰسِلُ﴾ في الأعناق في مَحلِّ الأَغْلال، ولكن في احتِمال آخَرَ بيَّنه رَحِمَهُ ٱللَّهُ بقَوْله: [عَطْف على ﴿ٱلْأَغْلَٰلُ﴾ تكون في الأعناقِ] أي: مُبتَدَأ خبَرُه محذوف؛ أي: في أَرجُلهم، وإذا كانت مُبتَدَأ نَقول: الواو للاستِئْناف، و(السلاسل): مُبتَدَأ وخبَرُه محذوف؛ أي: في أَرجُلهم، أو خبره ﴿يُسْحَبُونَ﴾ ويَكون العائِد محذوفًا، والتَّقديرُ: يُسحَبون بها ﴿وَٱلسَّلَٰسِلُ يُسْحَبُونَ﴾ بها، فهُنا صار في إعراب (السَّلاسِل) ثَلاثةُ أَوْجُهٍ:

الوجه الأَوَّل: أنها مَعطوفة على ﴿ٱلْأَغْلَٰلُ﴾ فتكون والسلاسِل في الأعناق يَعنِي: مَعناه: تُغَلُّ أيديهم إلى أَعْناقهم بسَلاسِلَ.

والثاني: أن تَكون السلاسِل بالأَرْجُل، والخبَر محذوف؛ أي: في أَرجُلهم.

والثالِث: أن تكون السلاسِل في الأَرجُل، والخَبَر قوله: ﴿يُسۡحَبُونَ ﴾، والمَعنَى: أنهم يُسحَبون بهذه السلاسِلِ، وهذا المَعنَى هو أقرَبُها لظاهِر القُرآن كما قال تعالى: ﴿يَوۡمَ يُسۡحَبُونَ فِي ٱلنَّارِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمۡ﴾ [القمر:٤٨]، فهُمْ إذا سُحِبوا على وُجوههم فتكون السلاسِلُ في الأَرجُل، فهذا أَقرَبُ الاحتِمالات التي ذكَرَها المفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ.

وقال المفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿فِي ٱلۡحَمِيمِ﴾؛ أي: جَهَنَّمَ] ووُصِفَت بذلك لأَنَّها شَديدةُ الحَرارة، [﴿ثُمَّ فِي ٱلنَّارِ يُسۡجَرُونَ ﴾ يُوقَدون]؛ لأن النار وَقودُها الناسُ والحِجارةُ.

من فوائدِ الآياتِ الكريمة:

الْفَائِدَةُ الأُولَى: العَجَب من حال هَؤلاءِ المُكذِّبين بالكِتاب وبما جاءَت به الرُّسُل؛ لقوله: ﴿ أَلَمۡ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ فِيٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ﴾ وهُمْ -واللهِ- عجَب؛ كما قال تعالى: ﴿وَإِن تَعۡجَبۡ فَعَجَبٞ قَوۡلُهُمۡ أَءِذَا كُنَّا تُرَٰبًا أَءِنَّا لَفِي خَلۡقٖ جَدِيدٍ﴾ [الرعد:٥].

وإن قال قائِلٌ: في ﴿ أَلَمۡ تَرَ﴾ فسَّرْتم الاستِفْهام أنه استِفْهام تَقريريٌّ، ثُم قُلْتم: من فَوائِده التَّعجُّب، فهل هذا التَّعجُّبُ ليس استِفْهامًا؟

فالجَوابُ: من قوله: ﴿أَنَّىٰ يُصۡرَفُونَ ﴾، فقَوْله: ﴿أَنَّىٰ يُصۡرَفُونَ ﴾ استِفْهام.

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَةُ: أن الإنسان يُصرَف عن الحَقِّ مع بَيانه ووُضوحه، وهذا يُؤدِّي إلى فائِدة أُخرى، وهي خَوْف الإنسان من أن يُصرَف عن الحَقِّ، ويَنتُج عن ذلك فائِدة ثالِثة، وهي سُؤال الإنسان ربَّه دائِمًا أن يُثبِّته؛ ولهذا كان من دُعاء المُؤمِنين: ﴿رَبَّنَا لَا تُزِغۡ قُلُوبَنَا بَعۡدَ إِذۡ هَدَيۡتَنَا﴾ [آل عمران:٨]، فيَنبَغي للإِنْسان أن يَكون دائِمًا على خَوْف وأن يَسأَل الله الثَّباتَ دائِمًا.

الْفَائِدَةُ الثَّالِثَةُ: تَهديد هَؤلاءِ المُكذِّبين بهذه العُقوبةِ، أن تُغَلَّ أيديهم يوم القِيامة،

وأن تُسلسَل أَرجُلهم، وأن يُسحَبوا في النار على وُجوههم، وكل هذا يُوجِب للإنسان أن يُصدِّق بالكُتُب وبما جاءَتْ به الرُّسُل عليهم الصلاة والسلام.

الْفَائِدَةُ الرَّابِعَةُ: أن الإنسان لا يَعلَم عِلْم اليَقين حتى يُشاهِد ما أَخبَرَت به الرُّسُل؛ لقوله: ﴿فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴿٧٠﴾ إِذِ ٱلْأَغْلَـٰلُ﴾ وفي ذلك الوقتِ يُقِرُّون بالحقِّ ويَقولون: ﴿قَدْ جَآءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِٱلْحَقِّ فَهَل لَّنَا مِن شُفَعَآءَ فَيَشْفَعُوا۟ لَنَآ أَوْ نُرَدُّ فَنَعْمَلَ غَيْرَ ٱلَّذِى كُنَّا نَعْمَلُ﴾ [الأعراف:٥٣]، لكن هذا لا يُمكِنهم ولا يُمهَل لهم في ذلك، بل قال الله تعالى: ﴿وَلَوْ رُدُّوا۟ لَعَادُوا۟ لِمَا نُهُوا۟ عَنْهُ﴾ [الأنعام:٢٨].

الْفَائِدَةُ الخَامِسَةُ: إثبات النار، وأنها في أَشَدِّ ما يَكون من الحرارة؛ لقوله: ﴿فِى ٱلْحَمِيمِ ثُمَّ فِى ٱلنَّارِ يُسْجَرُونَ﴾ هذا العَذابُ لا يَخفَى علينا جميعًا أنه عَذاب بدَنيٌّ جسَديٌّ.

الآيتان (٧٣، ٧٤)

• • ꧁ • •

۞ قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿ ثُمَّ قِيلَ لَهُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ تُشْرِكُونَ ﴿٧٣﴾ مِن دُونِ ٱللَّهِ قَالُوا۟ ضَلُّوا۟ عَنَّا بَل لَّمْ نَكُن نَّدْعُوا۟ مِن قَبْلُ شَيْـًٔا ۚ كَذَٰلِكَ يُضِلُّ ٱللَّهُ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴾ [غافر:٧٣-٧٤].

• • ꧁ • •

هناك عذاب قَلبيٌّ بيَّنه في قوله رَحِمَهُ اللَّهُ: [﴿ ثُمَّ قِيلَ لَهُمْ ﴾ تبكيتًا ﴿أَيْنَ مَا كُنتُمْ تُشْرِكُونَ ﴿٧٣﴾ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ معه وهي الأَصْنام]، والاستِفْهام هنا لا شكَّ أنه للتَّوْبيخ والتَّنْديم والتَّعْجيز، كلُّها يَتضمَّنها هذا الاستِفْهامُ وهذا أَلَمٌ قلبيٌّ؛ لأن الإنسان يَندم أشَدَّ الندَم إذا كانت هذه الأصنامُ التي كان يَعبُدها لتُقرِّبه إلى الله عَزَّوَجَلَّ كما يَدَّعي، ثُم تَضِلُّ عنها الآنَ ولا تُوجَد، كما لو أَمسَكْت عبدًا الآنَ وعذَّبْته وقلت: أين سيِّدُك الذي تَدَّعي أنه يَحميك؟ هذا يَكون أشَدَّ ندَمًا له.

إذَنْ: هَؤلاء يَندَمون هذا التَّنديمَ فيُقال: ﴿أَيْنَ مَا كُنتُمْ تُشْرِكُونَ ﴿٧٣﴾ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ أي: مع الله وهي الأصنامُ، وحينَئذٍ يَتحَسَّرون حسرةً ليس فوقَها حَسْرة؛ ولهذا يَقولون إقرارًا، إقرار المُكرَه في الواقِع: [﴿قَالُوا۟ ضَلُّوا۟﴾ غابوا ﴿عَنَّا﴾ فلا نَراهُم]، إِذَنْ عرَفوا أنها لن تَنفَعهم وأنها غابت عنهم في أشَدِّ ما يَحتاجون إليها فيه، بل قالوا: ﴿بَل لَّمْ نَكُن نَّدْعُوا۟ مِن قَبْلُ شَيْـًٔا ﴾ سُبحانَ الله! يَعني: أَنكَروا أن يَكونوا أَشرَكوا؛ كما قال تعالى في آيةٍ أُخرى: ﴿ثُمَّ لَمْ تَكُن فِتْنَتُهُمْ إِلَّآ أَن قَالُوا۟ وَٱللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ ﴿٢٣﴾ ٱنظُرْ كَيْفَ كَذَبُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ ۚ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ ﴾ [الأنعام:٢٣-٢٤].

فالحاصِلُ: أنهم يَندَمون هذا الندَمَ العَظيم ثُم يُنكِرون يقول عَزَّوَجَلَّ: ﴿بَل لَّمْ نَكُن نَّدْعُواْ مِن قَبْلُ شَيْـًٔا ﴾ ﴿نَّدْعُواْ﴾ بمَعنى نَعبُد؛ لأن الدُّعاء يَنقَسِم إلى قِسْمَين: دُعاء مَسألة، ودُعاء عِبادة، وكِلاهما مُتلازِمان فدُعاء المَسأَلة عِبادة، كما جاء في الحَديث: «الدُّعَاءُ عِبَادَةٌ»(١) ودُعاءُ العِبادة دُعاء مَسأَلة؛ لأنك لو سأَلْت العابِد لماذا عبَدْت الله؟ لقال: رجاءَ ثَوابِه وخوفَ عِقابه. فهو داعٍ بلِسان الحال؛ ولذلك صار الدُّعاء بمَعنَى العِبادة، والعِبادة بمَعنى الدُّعاء، وانظُرْ إلى ذلك في قوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ٱدْعُونِىٓ أَسْتَجِبْ لَكُمْ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِى سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ ﴾ [غافر:٦٠].

لكن دُعاء المَسأَلة دُعاء صَريح في السُّؤال يَقول القائِل: ربِّ اغفِرْ لي وارْحَمْني.. إلى آخِره، ودُعاء العِبادة دُعاء باللَّازِم؛ لأن الإنسان إنما يَعبُد الله خوفًا من عِقابه ورجاءً لثَوابه.

ودُعاء المَسأَلة عِبادة باللَّازِم؛ لأن السائِل مُتذَلِّل للمَسؤول، فهو مُتعَبِّد له.

قال المفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿بَل لَّمْ نَكُن نَّدْعُواْ مِن قَبْلُ شَيْـًٔا ﴾ أنكَروا عِبادتهم إيَّاها ثُم أُحضِرت، فقال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ﴾؛ أي: وَقودها].

وتَمام الآية: ﴿أَنتُمْ لَهَا وَٰرِدُونَ ﴿٩٨﴾ لَوْ كَانَ هَٰٓؤُلَآءِ ءَالِهَةً مَّا وَرَدُوهَا ۖ وَكُلٌّ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾ [الأنبياء:٩٩]، فهَؤلاءِ أنكَروا، كَذَبوا على أَنفُسهم، ظَنُّوا أن

(١) أخرجه الإمام أحمد (٤/ ٢٦٧)، وأبو داود: كتاب الصلاة، باب الدعاء، رقم (١٤٧٩)، والترمذي: كتاب تفسير القرآن، باب ومن سورة البقرة، رقم (٢٩٦٩)، وابن ماجه: كتاب الدعاء، باب فضل الدعاء، رقم (٣٨٢٨)، من حديث النعمان بن بشير رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا.

هذا سينفعُهم، كما لو أن الجانِيَ في الدنيا أنكَر جِنايته ربما يَنفَعه ذلك، لكن في الآخِرة لا يَنفَع، حتى إنهم إذا أنكَروا خُتِم على أَفْواهِهم، فتتكلَّم الأيدي والأَرجُل والجُلود والأَلْسُن بما تعمَل، وحينئذٍ ﴿لَا يَسْتَطِيعُونَ حِيلَةً وَلَا يَهْتَدُونَ سَبِيلًا﴾.

قال سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ: ﴿كَذَٰلِكَ يُضِلُّ ٱللَّهُ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾، ﴿كَذَٰلِكَ﴾ الكاف حَرْف، لكنها اسمٌ في الواقِع، فهي مَفعول مُطلَق، وتَقديرُ الكَلام: مثل ذلك الإِضلالِ يُضِلُّ الله الكافِرين، فهي حَرْف صورةً، لكِنَّها بالمَعنى اسمٌ، هذا الاسمُ مَحلُّه من الإعراب مَفعول مُطلَق للفِعْل الآتِي بعده، ومِثْل هذا التَّعبيرِ يَأتِي كثيرًا في القُرآن، وإعرابه كما سمِعْتم أن الكاف حَرْفٌ بمَعنَى (مِثْل)، وأن إعرابها مَفعول مُطلَق للفِعْل الذي بعدَها، والتَّقدير في كل سِياق بحَسبه، لكن في الآية التي معَنا: مثل ذلك الإِضلالِ يُضِلُّ الله الكافِرين.

وقوله: ﴿كَذَٰلِكَ يُضِلُّ ٱللَّهُ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾؛ أي: يَجعَلهم في ضَلال يَقول المفَسِّر رَحِمَهُٱللَّهُ: [﴿كَذَٰلِكَ﴾؛ أي: مِثل إِضلال هَؤلاءِ المُكذِّبين ﴿يُضِلُّ ٱللَّهُ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾].

من فوائِدِ الآيتين الكريمتين:

الْفَائِدَةُ الأُولَى: أن هَؤلاءِ المُكذِّبين بالكِتاب وبما أَرسَل الله به الرُّسُل يُعذَّبون عذابًا جَسَديًّا بالسلاسل والأغلال والسَّحْب في النار، ويُعذَّبون عذابًا قَلْبيًّا بالتَّوْبيخ والتَّقْريع والتَّنْديم، فيُقال: ﴿أَيْنَ مَا كُنتُمْ تُشْرِكُونَ ﴿٧٣﴾ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾.

مسألة: إثبات القَوْل لله عَزَّوَجَلَّ هل يُمكِن أن يُؤخَذ من الآية؟

الجَوابُ: الآية لا تَدُلُّ على هذا؛ لأن القائِل لم يُبيِّن، بل قيل لهم، ولكِنها في آية أُخرَى تَدُلُّ على أن الله يقول لهم ذلك: ﴿وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَآءِىَ ٱلَّذِينَ كُنتُمْ

تَزْعُمُونَ ﴾ الذي يُنادِيهم الله؛ لأنه قال: ﴿أَيْنَ شُرَكَآءِيَ ٱلَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ ﴾، ويُمكِن أن يُقال: إنهم يُنادَوْن من قِبَل الله، ويُنادَوْن أيضًا من قِبَل الملائِكة الذين وكَّلَهم الله عَزَّوَجَلَّ. أو يُقال: إن المَلائِكة تُناديهم، ولكن مُناداتهم أُضيفَت إلى الله؛ لأنه الآمِر بها كما أَضاف الله الوَفاةَ إليه؛ مع أن التي تَتَوفَّى الأَنفُس مُباشَرةً هي الرُّسُل، ولكن نَقول: هذه احتِمالات لا نُورِدها مع وجود الظاهِر؛ لأن الكلام يُحمَل على ظاهِره حتى يَقوم دَليلٌ على صَرْفه عن الظاهِر، فإذا كان الله يَقول: ﴿ وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَآءِيَ ٱلَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ ﴾ صَريح بأن المُنادِيَ هو الله، ويَبقَى على ما هو عليه، ويُحمَل ما كان مَبنيًّا للمَفعول على أن المُنادِيَ هو الله عَزَّوَجَلَّ.

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَةُ: أن الله تعالى يُضِلُّ الكافِر لكُفْره، وجهُ الدَّلالة: أن الحُكْم إذا عُلِّق على وَصْف كان ذلك الوصفُ عِلَّةً له، فما الذي عُلِّق على الكُفر هُنا؟ الإضلالُ.

إِذَنْ: الكُفْر سبَب الإضلال، ويُؤيِّد هذا قولُ الله تعالى: ﴿فَلَمَّا زَاغُوٓاْ أَزَاغَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمْ﴾ [الصف:٥].

يَتفرَّع على ذلك: أن الضالَّ إذا ضلَّ فإنه هو السبَب في ضَلاله؛ لأن الله تعالى لو عَلِم فيه خيرًا لأَسمَعه؛ ولهذا يقول عَزَّوَجَلَّ: ﴿ٱللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُۥ﴾، وهذه الآيةُ ﴿ٱللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُۥ﴾ تَعنِي أن الله أَعلَمُ حيث تكون الرِّسالة في شخص مُعيَّن، وكذلك حيث يَكون أَثَرُ الرِّسالة في شخص مُعيَّن، وأَثَر الرِّسالة الهِداية.

الْفَائِدَةُ الثَّالِثَةُ: الرَّدُّ على القدَرية: ﴿كَذَٰلِكَ يُضِلُّ ٱللَّهُ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ وجهُ ذلك: أن القَدَرية يَقولون: إن أَفعال العِباد ليسَت مَخلوقة لله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، ولا عَلاقةَ لله به، لكنَّ الآيةَ تَدُلُّ على أن الله عَزَّوَجَلَّ هو الذي يُضِلُّهم، فيَكون في ذلك رَدٌّ على القَدَرية.

يَنبَغي بهذه المُناسَبة أن نَقول: إن الناس انقَسَموا في هذا البابِ إلى طرَفَيْن ووسط، -أي: في أَفْعال العِباد-:

فمِنهم مَن يَقول: إن أَفْعال العِباد مَخلوقة لله، والعَبْد مَجبور عليها وليس له إرادة؛ لأن الله خالِقُ كل شيء، وإذا كان الله هو الخالِقَ فالإنسان ليس له تَدْبير.

ومنهم مَن قال بالعَكس: إن الإنسان فاعِل باختِياره وليس لله عَلاقةٌ به.

هذان طرَفان.

ومِنهم مَن قال: إن الإنسان فاعِل باختِياره لكن فِعْله مَقرون بمَشيئة الله، وهذا هو الوَسَط.

واعلَموا أن أسباب الضَّلال في مِثْل هذه الأُمورِ أن من الناس مَن يَنظُر إلى النُّصوص من زاوِية واحِدة، بمَعنى أنه يَأخُذ نَصًّا ويَدَع نصًّا:

فالجَبْرية رأَوْا عُموم مَشيئة الله وعُموم خَلْق الله، وأن الإنسان فَقير إلى الله، وما أَشبَه ذلك فقالوا: إِذَنْ الإنسان ليس له إرادة ولا اختِيار، وفِعْله على وَجْه الإجبار.

والقدَرية رأَوْا أن الإنسان يَفعَل ولا يُحِسُّ أن أحَدًا مُكرِهٌ له، والله تعالى قد أَضاف الفِعْل إليه فقال: ﴿وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُا۟ ٱلزَّكَوٰةَ﴾ وما أَشبَهَ ذلك، فإِذَنْ هو مُستَقِلٌّ بعمَله ليس لله فيه عَلاقة، فأَخَذوا من جانَب وترَكوا من جانبٍ آخَرَ.

وهكذا جميع خِلاف العُلَماء إذا رأَيْت العُلَماء مُختَلِفين على طرَفَيْن ووسَط، فاعلَمْ أن الطَّرَفين كل واحد مِنهما أَخَذ بجانِب من الأدِلَّة وترَك جانِبًا آخَرَ.

• • ❁ • •

الآية (٧٥)

• قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿ذَٰلِكُم بِمَا كُنتُمْ تَفْرَحُونَ فِي ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَبِمَا كُنتُمْ تَمْرَحُونَ﴾ [غافر:٧٥].

• • • •

قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [ويُقال لهم أيضًا: ﴿ذَٰلِكُم﴾ العَذاب ﴿بِمَا كُنتُمْ تَفْرَحُونَ فِي ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَبِمَا كُنتُمْ تَمْرَحُونَ﴾] ﴿ذَٰلِكُم﴾ المُشار إليه العَذاب، والمُخاطَب أُولئِك الكافِرون؛ ولهذا جاءَتِ الكاف بضَمير للجَماعة، وجاءَتِ اسمَ إشارة بالإشارة لمُفرَد مُذكَّر؛ لأن العَذاب مُفرَد مُذكَّر، واعلَمْ أن اسمَ الإشارة وكاف الخِطاب تارةً يَتَّفقان وتارةً يَختَلِفان، فاسمُ الإشارة يَكون بحَسب المُشار إليه، وكاف الخِطاب بحَسب المُخاطَب، ولْيُنتَبه للقاعدة.

فإذا قيل لك: أَشِرْ إلى مُفرَد مُذكَّر مُخاطِبًا جماعةَ نِساءٍ. تَقول: ﴿فَذَٰلِكُنَّ ٱلَّذِى لُمْتُنَّنِى فِيهِ﴾، وإذا قيل: أَشِرْ إلى مُثنًّى مُذكَّر مُخاطِبًا مُثنًّى مُؤنَّثًا تَقول: ذانِكما. وإذا قيل: أَشِرْ إلى مُفرَدة مُؤنَّثة مُخاطِبًا جماعةَ ذُكور. تقول كما في القُرآن: ﴿تِلْكُمُ ٱلْجَنَّةُ أُورِثْتُمُوهَا﴾ [الأعراف:٤٣].

المُهِمُّ هذه القاعِدةُ: اسمُ الإشارة بحَسب المُشار إليه وكاف الخِطاب بحَسب المُخاطَب قد يَتَّفِقان وقد يَختَلِفان.

وقوله: ﴿ذَٰلِكُم بِمَا كُنتُمْ﴾ الباء للسَّببية، و(ما) مَصدَرية، وعَلامة (ما) المَصدَرية

أن يَصِحَّ تَحويلُ ما بَعدها إلى مَصدَر، فمثَلًا قوله: ﴿ذَٰلِكُم بِمَا كُنتُمْ﴾ إذا حوَّلْنا ما بعدَها إلى مَصدَر يَكون التقدير: ذلِكُم بكَوْنِكم تفرَحون في الأرض بغير الحقّ.

وقوله: ﴿بِمَا كُنتُمْ﴾ مَعلوم أن (كان) هذه للماضِي أي: قبل المَوْت ﴿كُنتُمْ تَفْرَحُونَ فِي ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ﴾ أي: تَفرَحون بالباطِل؛ وذلك لأنهم يَفرَحون بالشِّرْك والكُفْر، وكلُّ مَن شارَكهم في إثمهم فإنَّهم يَفرَحون به.

وقوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ﴾ مِن الإشْراك وإنكار البَعْث]، وهذا في الواقِع قُصور، إلَّا إذا كان يُريد به التَّمثيل، وإلَّا فإن قوله: ﴿بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ﴾ أعَمُّ من الشِّرْك وإنكار البَعْث، فهم يَفرَحون في الأرض بغير الحَقِّ من الشِّرْك وإنكار البَعْث، والعُدوان، وتَحليل الحَرام، وتَحريم الحَلال، كالسائِبة، والوَصيلة، والحامِي، وما أَشبَه ذلك.

المُهِمُّ: أن قول المفسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [بالإشراكِ وإنكار البَعْث] هذا قُصور ما لم يُرِدِ التَّمثيل، فإن أَراد التَّمثيل فإن التَّمثيل لا يُفيد الحَصْر.

قال المفسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿وَبِمَا كُنتُمْ تَمْرَحُونَ﴾ تَتوسَّعون في الفَرَح]، الواو حرف عَطْف والباء للسببية، وهذه الجُملةُ مَعطوفة على ما قَبلَها بإعادة العامِل الذي هو الباء، والعَطْف بإعادة العامِل يَعنِي: أن الثانيَ مُستَقِلٌّ عن الأوَّل، فهُمْ يُعذَّبون بالأمرَيْن جميعًا: يُعذَّبون عَذابًا خاصًّا بالفرَح، وعذابًا خاصًّا بالمَرَح، والباء للسببية ﴿وَبِمَا كُنتُمْ تَمْرَحُونَ﴾ تَتَوسَّعون في الفرَح.

من فوائد الآيةِ الكريمةِ:

الْفَائِدَةُ الأُولَى: إثبات الأَسْباب، يُؤخَذ من قوله: ﴿بِمَا كُنتُمْ تَفْرَحُونَ﴾؛ لأن الباء هنا للسبَبية.

واعلَمْ أيضًا أن الناس اختلَفوا في الأسباب على ثلاثة أقوال: طرَفان ووسَط، طرَف من الناس أثبتَ الأسباب، وأنها فاعِلة بنَفْسها يَعنِي: أنه إذا وُجِد السبَب لزِمَ وُجود المُسبَّب ولا بُدَّ، وطائِفة أُخرى أنكَرت تأثير الأسباب وقالوا: الأَسْباب لا تُؤثِّر؛ لأنك لو جعلْت هذا مُتأثِّرًا بسبب لأَثبتَّ لله شريكًا في الإيجاد، وهذا شِرْك.

الطائِفة الثالِثة: قالتِ: الأسباب مُؤثِّرة بلا شَكٍّ، لكن لا بنَفْسها، بل بما أَودَع الله فيها من القُوَّة التي صارت بها مُؤثِّرة، ما هي بنَفْسها غير مُؤثِّرة، لكن الله تعالى أَودَع فيها قُوًى تُؤثِّر، ولو شاء الله تعالى لسلَب تِلْك القُوَى فلم تُؤثِّر.

وهذا قَوْل وسَط، وهو مَذهَب أهل السُّنَّة والجماعة، وهو الذي يُوافِق السَّمْع والعَقْل.

وأَضرِب لك مثَلًا: رجُل رَمَى زُجاجة بحجَر فانكَسَرت، مُثبِتو الأسبابِ يَقولون: الذي كسَرها الحجَرُ بذاته. ونافو الأَسبابِ يَقولون: الحَجَر لم يَكسِر الزُّجاجةَ، لكِن انكَسَرت الزُّجاجة عند رَمْيها بالحجَر، وليس بالحجَر، وإنما الحَجَر أَمارة فقَطْ، أَمارة حصَل الشيء عِندها، وكَذلِك بَقيَّة الأسباب. والوسَط يَقولون: الحجَر كَسَر الزُّجاجة، فهو السبَب بما جعَلَ الله تعالى في الحجَر من قُوَّة، وبما جعَل في الزُّجاجة من قابِلية تَقبَل الانكِسار، وهذا هو الحَقُّ.

ثُم إذَا أَلقَيْنا في النـار ورَقة فاحتَرَقَت، مُثبِتو الأسباب الذين يَقـولون: إن الأسباب تُؤثِّر بنَفْسها. يَقولون: النـار أَحرَقَت الورَقة، ولا بُدَّ. ونافـو الأسبابِ يَقولون: إن النار لم تُحرِق الورَقَ ولكِن احتَرَقَت الورَقة عند إلقائِها في النار لا بالنار. والوَسَط يَقولون: احتَرَقَت الورَقة بالنار بما جعَل الله تعالى في النار من قُوَّة الإِحْراق،

وبما جعَلَ في الورَق من قابِلية ذلك.

ولهذا يُوجَد الآنَ مَوادُّ تُضادُّ النار، تُلقَى في النار ولا تَحترِق؛ لأن هُناك مانِعًا يَمنَع من تأثير السبَب، وهذا القولُ هو الراجِح، ألَمْ ترَوْا أن إبراهيمَ عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ أُلقِيَ في النار العَظيمة التي لم يَستَطِع مُلقوه أن يَقرَبوا منها حتى ألقَوْه في المَنجَنيق ورمَوْه فيها رَمْيًا؛ لم يَحترِق مع أن النار سبَب للإحْراق، لكن الله قال لها: ﴿كُونِي بَرْدًا وَسَلَٰمًا عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ﴾ فكانت بَرْدًا وسَلامًا عليه، قال العُلَماء: لو قال الله كوني بَرْدًا، ولم يَقُل: كُوني سَلامًا. لكانت بَرْدًا مُهلِكًا، لكن الله قال: ﴿بَرْدًا وَسَلَٰمًا﴾، فكانت بَرْدًا وسَلامًا وكأنه لم يَكُن في نار.

إِذَنْ نَقول: الأصَحُّ من أقوال العُلَماء في تأثير الأسباب أنها مُؤثِّرة لا لذاتها، ولكن بما جعَل الله فيها من القُوى المُؤثِّرة في المَحلَّات القابِلة.

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَةُ: أن الفرَح بغير الحَقِّ سبَب للعَذاب والإضلال، يُؤخَذ من قوله: ﴿تَفْرَحُونَ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ﴾.

الْفَائِدَةُ الثَّالِثَةُ: أن الفرَح بالحَقِّ محمود؛ ولهذا جاء في الحَديث عن النبيِّ ﷺ: «مَنْ سَرَّتْهُ حَسَنَتُهُ وَسَاءَتْهُ سَيِّئَتُهُ فَذَلِكَ المُؤْمِنُ»[1]، وقال الله تعالى: ﴿قُلْ بِفَضْلِ ٱللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِۦ فَبِذَٰلِكَ فَلْيَفْرَحُوا۟ هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ﴾ [يونس:٥٨]، فالفرَح بالحَقِّ محمود، والفرَح بغير الحَقِّ مَذموم، والفرَح بما ليس حَقًّا ولا باطِلًا ليس محمودًا ولا مَذمومًا؛ لأنه من اللَّغْو، ولكن عِباد الرحمن إذا مَرُّوا باللَّغْو مَرُّوا كِرامًا.

ثُم اعلَمْ أن الفرَح يَكون طبيعيًّا، الإنسان إذا أَتاه ما يَسُرُّه لا بُدَّ أن يَفرَح

(١) أخرجه الإمام أحمد (١/ ١٨)، والترمذي: كتاب الفتن، باب ما جاء في لزوم الجماعة، رقم (٢١٦٥)، من حديث عمر رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ.

يَنفعِل بدون إرادة، ومَعلوم أن هذا لا يُؤاخَذ به الإنسان إلَّا إذا كانَت طَبيعته مُنحَرِفة بحيث يَفرَح بالسُّوء دون الخَيْر.

فإن قال قائِل: قُلنا: الفرَح بالحَقِّ مَمدوح، فما ضابِط الحَقِّ الذي يُفرَح به؟

فالجوابُ: إذا فعَل الإنسان خيرًا فهذا حَقٌّ، فإذا فرِح بذلك فهو حَقٌّ، إذا فرِح بالمَطَر فهذا حقٌّ، إذا فرِحَ بأن الله أيَّدَه بشيء فهذا حقٌّ؛ ولهذا فرِحَ ابنُ عباس رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمَا حين أَفتَى الرجُلَ بالتَّمتُّع في الحَجِّ فرأَى في مَنامه رجُلًا يَقول له: عُمْرة مُتَقبَّلة وحَجٌّ مَبرور. فأَخبَر بذلك ابنَ عبَّاس ففَرِح بها، وقال: انتظِرْ حتَّى نُعطِيَك مِن العَطاءِ[1] أو كلِمة نَحوَها.

فإن قال قائِل: فَرَح قارونَ الذي ذُمَّ عليه، هل هو بالبَغيِ أو بالمال الذي أُوتِيَ؟

فالجوابُ: بكِلا الأَمْرَيْن

فإن قال قائِل: لكن الفرَح بالمال ذاته ليس مَذمومًا.

فالجَوابُ: لا، قد يَكون مَذمومًا وقد يَكون مَمدوحًا، إذا فرِح بالمال ليَستَعين به على حَقٍّ، يَعنِي: إنسان يُريد أن يَشتَرِيَ كُتُبًا وليس عنده مال فرَزَقه الله المال فيَفرَح ليَشتَرِيَ الكُتُب، لكن إنسان يُريد أن يَشتَرِيَ آلةَ لَهْوٍ وليس عِنده مال فرَزَقه الله المالَ فاشتَرَى به آلةَ لَهْوٍ، فالفرَح هنا مَذموم.

فإن قال قائِل: هل يُثاب الإنسان على الفَرَح؟

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب الحج، باب ﴿فَمَن تَمَتَّعَ بِٱلْعُمْرَةِ إِلَى ٱلْحَجِّ فَمَا ٱسْتَيْسَرَ مِنَ ٱلْهَدْيِ﴾، رقم (١٦٨٨)، ومسلم: كتاب الحج، باب جواز العمرة في أشهر الحج، رقم (١٢٤٢). وقوله أنه أعطاه عطية أخرجه الطيالسي في مسنده رقم (٢٨٧٢).

فالجوابُ: أي نعَمْ؛ لأنه يَدُلُّ على حُسْن نِيَّة وقَصْد، إذا فرِح بالحَقِّ فإنه يُثاب على ذلك؛ لأنه يَدُلُّ على أنه يُريد الحَقَّ.

الْفَائِدَةُ الرَّابِعَةُ: أن الأسباب تَتَوارَد، بمَعنى أنه قد يَرِد على الشيء سببٌ، يُؤخَذ من قوله: ﴿وَبِمَا كُنتُمْ تَمْرَحُونَ﴾، والمَرَح أشَدُّ الفَرَح، وهكذا الأسبابُ الشَّرعية تَتَوارَد، بمَعنَى أنه قد يَكون في الإنسان سَببان، واحِد مِنهما يُوجِب الحُكْم، فإذا اجتَمَعا صار كل واحِد يُقوِّي الآخَرَ.

فإنِ اختَلَف مُوجِب السبَبَيْن فهل نَقول: إننا نَأخُذ بأَحَد السبَبَيْن دون الآخِر، أو نَأخُذ بالسبَبَيْن ونَعمَل بمُوجبهما؟

الجوابُ: الثاني ما لم يَكُن أحدُهما أقوى فيَندَرِج به الأصغَرُ، فإذا اجتَمَع سببان واختَلَف مُوجبهما، أَخَذْنا بمُوجب كل منهما ما لم يَكُن أحدُهما أقوى فيُؤخَذ بالأَقْوى.

مثال ذلك: ابنُ عَمٍّ هو زَوْج ماتت امرَأَتُه، هنا اجتَمَع في حقِّ هذا الزَّوْجِ جِهة فَرْض وجِهة تَعصيب، فهل يَرِث بالفَرْض أو بالتَّعصيب أو بهما؟

الجَوابُ: بِهما، فنَقول: هذا الزَّوجُ له النِّصْف فَرْضًا، والباقِي تعصيبًا، فهُنا وَرِث بالفَرْض وبالتَّعصيب.

ورجُل ملَكَ أَمَةً ثُمَّ تَزوَّجها فهل يَصِحُّ هذا الزواجُ ليَملِك بُضْعها أو لا يَصِحُّ؟

الجوابُ: لا يَصِحُّ؛ لأن المِلْك أَقوى؛ ولهذا لا يَصِحُّ على السَّيِّد أن يَعقِد النِّكاح على أَمَته، لكن يَستَمتِع بها بمِلْك اليمين.

ورجُل بالَ وتَغوَّطَ، هنا سببان مُوجِبان للوُضوء هل نَأخُذ بكُلِّ واحِد منهما؟

الجَوابُ: هنا لم يَختَلِف المُوجِب هنا؛ لأن المُوجِب هو الوضوء فلا يَختَلِف،

لكن يَقوَى المُوجِب بتَعـدُّد المُوجَب، لكن لَمَّا لم يَختَلِف فنقـول: نَأخُذ بهما جميعًا؛ لأن لا فائِدةَ من ذلك.

إِذَنْ: إذا اجتَمَع مُوجِبان فإذا اتَّحَد مُوجِبهما أَخَذْنا بواحِد وكفَى، وإن اختَلَف المُوجِب أخَذْنا بهما ما لم يَكُن أحدُهما أقوى، فيُؤخَذ بالأقوى ويُترَك الأَضْعَف

• ● ۞ ● •

الآية (٧٦)

• قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿ ٱدْخُلُوٓاْ أَبْوَٰبَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۖ فَبِئْسَ مَثْوَى ٱلْمُتَكَبِّرِينَ ﴾ [غافر:٧٦].

قال تعالى: ﴿ ٱدْخُلُوٓاْ أَبْوَٰبَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَا ﴾ ﴿ ٱدْخُلُوٓاْ ﴾ فِعْل أَمْـر، والآمِر هُمُ المَلائِكة، والأَمْر يُراد به لإهانة، ليس أَمْر إكرام، ولكِنه أَمْر إهانة وإِلْزام؛ لأنه لا بُدَّ أن يَدخُل. وقوله: ﴿أَبْوَٰبَ جَهَنَّمَ﴾ جَمْع، وعدَد أبواب جهنَّمَ سَبْعة كما قال الله تعالى: ﴿لَهَا سَبْعَةُ أَبْوَٰبٍ لِّكُلِّ بَابٍ مِّنْهُمْ جُزْءٌ مَّقْسُومٌ﴾ [الحجر:٤٤]، و﴿جَهَنَّمَ﴾ اسمٌ من أَسْماء النـار، وسُمِّيَت بذلك لأنها ذاتُ جُهْمة، إذا قُلْنا: إن جَهنَّـمَ اسمٌ عَرَبيٌّ زِيدت فيه النون. وإن قُلنـا: إنه اسمٌ غيرُ عرَبيٍّ ولكنه عُرِّب، فلا حاجـةَ أن نَقول: إنه مُشتَقٌّ من الجُهمة التي هي الظُّلْمة أو القَعْر، وأيًّا كان فهو اسم من أَسْماء النار، أَعاذَنا الله وإيَّاكم منها.

فإن قال قائِل: قُلْتم: إن العدَدَ لا مَفهومَ له في قوله ﷺ: «إِنَّ للهِ تِسْعَةً وَتِسْعِينَ اسْمًا مَنْ أَحْصَاهَا دَخَلَ الجَنَّةَ»(١) قُلْتم: هذا العددُ لا يَدُلُّ على الحَصْر، وإن لله أَسْماءَ أُخرى فلِماذا نَقولُ بالحَصْر، أو بإفادة العدَد الحَصْر في أبواب جَهنَّمَ وأبواب الجَنَّة؟

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب التوحيد، باب إن لله مائة اسم إلا واحدًا، رقم (٧٣٩٢)، ومسلم: كتاب الذكر والدعاء والتوبة، باب في أسماء الله تعالى وفضل من أحصاها، رقم (٢٦٧٧)، من حديث أبي هريرة رَضِيَالله عَنهُ.

فالجوابُ: نَقول: أمَّا الأوَّلُ وهو قوله: «إِنَّ للهِ تِسْعَةً وَتِسْعِينَ اسْمًا» فإنَّما قُلنا: إنها لَيْسَت للحَصْر بدليلٍ وهو حَديث عبد الله بن مَسعود في حَديث الهَمِّ والغَمِّ، قال: «أَسْأَلُكَ بِكُلِّ اسْمٍ هُوَ لَكَ سَمَّيْتَ بِهِ نَفْسَكَ، أَوْ أَنْزَلْتَهُ فِي كِتَابِكَ، أَوْ عَلَّمْتَهُ أَحَدًا مِنْ خَلْقِكَ، أَوِ اسْتَأْثَرْتَ بِهِ فِي عِلْمِ الْغَيْبِ عِنْدَكَ»[1]، وإذا كان الله مُستَأْثِرًا به في عِلْم الغَيْب عنده، فإنه لا يُمكِن للإنسان أن يُدرِكه؛ لأن الله استَأْثَر به، فمن ثَم قُلنا: إن العَـدَد لا مَفهومَ له في قوله: «إِنَّ للهِ تِسْعَةً وَتِسْعِينَ اسْمًا» وأن المعنى أن مِن أَسماء الله تِسْعة وتِسْعين اسمًا مَن أَحصاها دخَل الجَنَّة.

فإن قال قائِل: إذا قُلنا: ﴿ٱدْخُلُوٓا۟﴾ تَأْتِي للإهانة وتَأْتِي للإكرام أَفَلا يَكون فيها رَدٌّ على مَن قال: إن القُرآن فيه مَجاز، وذلك لأَنَّنا نَقول: كلُّ كلِمة في مَوْضِعها فهي حَقيقة فيها.

فالجوابُ: نعَمْ، ربما يَكون في ذلك دَلالة على نَفيِ المَجاز؛ ولهذا كان الصوابُ ما اختـارَه شَيْخُ الإسلام ابنُ تَيميَّةَ[2] رَحِمَهُ ٱللَّهُ «أَنَّه لا مَجازَ في اللُّغـة ولا في القُرآن».

والعُلَماء اختَلَفـوا على هذا في أَقْوال: فمِنْهم مَن قال: لا مَجـازَ لا في القُرْآن ولا في غيره. ومِنهم مَن قال: لا مَجـازَ في القُرآن ويَجوزُ في اللُّغة. ومِنهم مَن قال: المَجاز في القُرآن واللُّغة. ومِنهم مَن قال: كلُّ الكَلام مَجاز. وأَظُنُّ هـذا رَأْيُ ابن جِنِّي[3]، أن جميع الكلام كله مَجاز، حتى إذا قال: ضَرَبْت زَيْدًا. قال: هذا مَجاز. قُلتُ: خيرًا. قال: هذا مَجاز. وهَكذا، لكن الراجِح أن لا مَجازَ؛ وذلك لأن الذي يُعيِّن مَعنى

---

(١) أخرجه الإمام أحمد (١/ ٣٩١) من حديث عبد الله بن مسعود رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ.

(٢) انظر: كتاب الإيمان (ص:٧٣).

(٣) انظر: المزهر في علوم اللغة للسيوطي (١/ ٢٨٧)، ومنع جواز المجاز للشنقيطي (ص:٥).

الكلِمة هو السِّياق والقَرائِن؛ ولهذا ﴿ ٱدْخُلُوٓاْ أَبْوَٰبَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ﴾ القَرينة تَدُلُّ على أن الأَمْر للإِهانة ﴿ ٱدْخُلُوهَا بِسَلَٰمٍ ءَامِنِينَ ﴾ القَرينـة تَدُلُّ على أنه للإكرام.

فائِدةٌ: قول الله تَبَارَكَ وَتَعَالَى في أَهْل النار يُقال لهم: ﴿ فَٱدْخُلُوٓاْ أَبْوَٰبَ جَهَنَّمَ ﴾ الأمر بدُخول النار أَمْر الله عَزَّوَجَلَّ، والمُراد به يومَ القيامة هو الإِهانة، وقوله تعالى في أهل الجَنَّة: ﴿ ٱدْخُلُوهَا بِسَلَٰمٍ ءَامِنِينَ ﴾ المُراد بالأَمْر الإكرام؛ إِذَنْ نَأخُذ من هذا أن الكلِمات يَختَلِـف مَعناها باختِلاف السِّياق، وهذه فائِدة عَظيـمة لطالِب العِلْم أن الكلِمات يَختَلِف مَعناها باختِلاف السِّياق، فكَمْ كلِمةٍ كان لها مَعنًى في سِياق ولها مَعنًى آخَرَ في سِياقٍ آخَرَ.

وقوله: ﴿خَٰلِدِينَ ﴾ هذه حالٌ من الفاعِل في قوله: ﴿ ٱدْخُلُوٓاْ ﴾ والخُلودُ هل هو طُول المُكْث أو هو التَّأْبيد؟

نَقـول: اللُّغة العرَبية يَأتِي فيها الخُـلود مُرادًا به طول المُكْث، ويَأتِي مُرادًا به التَّأبيد، والمُراد به هنا الثاني يَعني: أنهم خالِدون فيها أبدًا.

ودليلُ ذلك أن الله تعالى صرَّح في القُرآن الكريم بأن أَهْل النار خالِدين فيها أبدًا في ثلاثة مَواضِعَ:

المَوضِع الأوَّل: قول الله تَبَارَكَ وَتَعَالَى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَظَلَمُواْ لَمْ يَكُنِ ٱللَّهُ لِيَغْفِرَ لَهُمْ وَلَا لِيَهْدِيَهُمْ طَرِيقًا ﴿١٦٨﴾ إِلَّا طَرِيقَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًاۚ وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرًا ﴾ [النساء:١٦٨-١٦٩].

والآيةُ الثانية: قولُه تعالى: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَعَنَ ٱلْكَٰفِرِينَ وَأَعَدَّ لَهُمْ سَعِيرًا ﴿٦٤﴾ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ﴾ [الأحزاب:٦٤-٦٥].

والآيةُ الثالِثةُ: قول الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَإِنَّ لَهُۥ نَارَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا﴾ [الجن:٢٣].

وبهذه الآياتِ الثلاثِ يَتبيَّن ضَعْف -بَلْ بُطلان- قولِ مَن يَقول: إن النار ليسَتْ مُؤبَّدة، وإنها تَفنَى. فإن هذا القَوْلَ مُنكَر؛ لأنه مُخالِف لصريح القُرآن، ولا يُمكِن لإنسان يُخالِف صريح القُرآن لُمجرَّد تَعليلات يُعلِّلها، مثل أن يَقول: إن رحمة الله تعالى سبقَت غَضَبَه، وإن هَؤلاءِ مَآلُهم إلى أن يَفنَوْا هم والنار. يُقال: نعَمْ رحمة الله سبقَت غَضَبَه، لكن وَعْد الله حَقٌّ، وإذا كان وَعْد الله حقًّا، فإنهم يُخلَّدون فيها أبدًا.

فإن قال قائِل: نحن قُلنا بأن القولَ: إن النار ليسَتْ مُؤبَّدة مُخالِفٌ لصَريح القُرآن؛ فإن قيل: هذا وعيد، وإخلاف الوَعيد جائِز!.

فالجَوابُ: نَقولُ: هذا لا يُمكِن؛ لأنَّنا لا نَقول: إخلاف الوَعيد جائِز، إلَّا في أَمْر ضَروريٍّ لا بُدَّ منه مِثْل: ﴿وَمَن يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُّتَعَمِّدًا فَجَزَآؤُهُۥ جَهَنَّمُ خَٰلِدًا فِيهَا وَغَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ﴾ [النساء:٩٣].

وهذه بعضُ الأَجْوبة التي أُجيب عن هذه الآيَةِ بها، أن هذا الوَعيدُ، وإخلافُ الوعيد كرَمٌ، وهو ثَناء ومَدْح للمُخلِف، لكِنْ هذا الجَوابُ في الواقِع جَواب يُهزُّ ليس جَوابًا راسِخًا؛ لأنَّنا نَقول: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُخْلِفُ ٱلْمِيعَادَ﴾ [الرعد:٣١] أي: ما وعَدَ به من عُقوبة أو كرامة، وأمَّا الآية: ﴿خَٰلِدِينَ فِيهَا﴾ في آية القَتْل فيُحمَل الخُلود على المَعنَى الثاني وهو المُكْث الطويل، وبهذا ليس هناك تَناقُضٌ.

فإن قال قائِل: التَّخليد الأبديُّ في هذا العذابِ الأَليم كيف يَكون جَزاء لإنسان لم يَبقَ في الدُّنيا إلَّا مِئة سَنَة، أو مِئتي سَنَة، أو أَلْف سَنَة، فيَكون هنا العَذاب أكثَرَ

من زمَن العمَل؛ لأنه لا أَحَدَ بَقِيَ في الدنيا أَبَدَ الآبِدين فيَقتَضي هذا أن يَكون فيه ظُلْم؛ لأن الجَزاء صار أكثَرَ من العمَل بكثير، ولا يُنسَب له، كما قُلت لكم يَعنِي: لنَفرِض أن أحَدًا من الناس عاشَ أَلْفَ سَنَة، أو أَلفَيْ سَنةٍ، أو عشَرة آلاف سَنَة، لكنه عاش إلى أَمَد ثُم نَقول: عَذابه مُؤبَّد. يَكون هذا ظُلمًا؟

فيُقال: إن هـذا أَمضَى حَياته الدُّنيا كُلَّها في مُحادَّة الله ورُسُله فيُمضِي حَياته الأخرى كلَّها في العَذاب، وهذا عَدْل، ثُم إن هذا الذي عُذِّب أبدًا قد قيل له في الدُّنيا وبُيِّن له أن جزاءَه العَذاب الأبديُّ، فلماذا يُقدِم على شَيْء يَعرِف أن هذا جَزاءَه، وحينَئِذٍ لا ظُلمَ، ولا عُذْرَ للكافِرين.

فالمُهِمُّ: أن قوله تعالى: ﴿خَٰلِدِينَ فِيهَا﴾ يُراد به الخُلود الأبديُّ.

فإن قال قائِل: ما قولكم في ما ورَد: «يَبْلغ المرءُ بنِيَّته ما لَا يَبْلغ بعَمَله»؟

فالجَوابُ: أوَّلًا هذا ليس حَديثًا صحيحًا عن الرسول ﷺ، وثانيًا مُرادُ قائِله أن الإنسان يُدرِك بنِيَّتِه ما لا يُدرِك بعمَله، هذا المَعنَى، فالإنسان المَريض الذي يَتمَنَّي أنه صحيح يَقوم بما أَوْجَب الله عليه، هذا أَدرَكَ بالنِّيَّة ما لم يُدرِك بالعمَل، وكذلك أيضًا بالنِّسبة للشَّرِّ، الإنسان إذا نوَى الشرَّ وهو عاجِز عنه يُعاقَب مُعاقَبة الفاعِل لكن بالنِّيَّة، دَليل ذلك قول النَّبيِّ عَلَيهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ في الرجُل الفَقير الذي ليس عِندَه مال، وكان هناك رَجُل آخَرُ يُنفِق المال في غير مَرضاة الله فقال الرجُل: «لَوْ أَنَّ لِي مَالَ فُلَانٍ لَعَمِلْتُ فِيهِ عَمَلَ فُلَانٍ» قال النَّبيُّ ﷺ: «**فَهُوَ بِنِيَّتِهِ فَهُمَا فِي الوِزْرِ سَوَاءٌ**»[1].

---

(١) أخرجه أحمد (٤/ ٢٣٠)، والترمذي: كتاب الزهد، باب ما جاء مثل الدنيا مثل أربعة نفر، رقم (٢٣٢٥)، وابن ماجه: كتاب الزهد، باب النية، رقم (٤٢٢٨)، من حديث أبي كبشة الأنماري.

وقـولـه: ﴿فَبِئْسَ مَثْوَى ٱلْمُتَكَبِّرِينَ﴾ هذه الجُملةُ جُملةٌ إنشائيـةٌ يُراد بها الذَّمُّ، ويُقابِل هـذا في المَدْح: ﴿وَلَنِعْمَ دَارُ ٱلْمُتَّقِينَ﴾ ﴿فَبِئْسَ﴾ هنا فِعْل إنشائِيٌّ يُراد به الذَّمُّ، والمَعنى: أن هذه الدارَ كلُّها ذَمٌّ كلُّها بلاءٌ؛ ولهذا وُصِفت بأنها ﴿فَبِئْسَ مَثْوَى ٱلْمُتَكَبِّرِينَ﴾.

من فوائدِ الآيةِ الكريمةِ:

الْفَائِدَةُ الأُولَى: إهانةُ الكُفَّار، وهو عَذاب قَلْبِيٌّ؛ لأن العَذاب القَلبيَّ قد يَكون أشَدَّ من العَذاب البدَنيِّ.

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَةُ: أن لجَهنَّمَ أبوابًا؛ لقوله: ﴿أَبْوَابَ﴾ وقد جاء في القُرآن الكَريم: ﴿لَهَا سَبْعَةُ أَبْوَابٍ لِّكُلِّ بَابٍ مِّنْهُمْ جُزْءٌ مَّقْسُومٌ﴾.

الْفَائِدَةُ الثَّالِثَةُ: خُلود أهل النار فيها؛ لقوله: ﴿خَٰلِدِينَ فِيهَا﴾ والصواب الذي لا شَكَّ فيه أن الخُلود مُؤبَّد للآيات الثلاث التي سُقْناها قبلَ قَليل.

الْفَائِدَةُ الرَّابِعَةُ: تَناوُل القَدْح على نار جَهنَّمَ؛ لقوله: ﴿فَبِئْسَ مَثْوَى﴾.

الْفَائِدَةُ الخَامِسَةُ: التَّحذير من التَّكبُّر؛ لقوله: ﴿فَبِئْسَ مَثْوَى ٱلْمُتَكَبِّرِينَ﴾؛ ولهذا قال النبيُّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: «**لَا يَدْخُلُ الجَنَّةَ مَنْ فِي قَلْبِهِ مِثْقَالُ حَبَّةِ خَرْدَلٍ مِنْ كِبْرٍ**»(١) فالكِبْر -والعِياذُ بالله- سبَب لدُخول النار.

لكن قد يَكون سببًا لدُخولها مع الخُلود، وقد يَكون سببًا لدُخولها للتَّطهير فقَـطْ، فإن كان هذا التَّكبُّرُ تكبُّرًا عن الحقِّ ورَدًّا له فهذا سبَب لدُخـول النار على

---

(١) أخرجه مسلم: كتاب الإيمان، باب تحريم الكبر وبيانه، رقم (٩١)، من حديث ابن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

التأبيد، وإن كان التَّكبُّر دون ذلك، مثل أن يَتكبَّر على الخَلْق مع القِيام بحقِّ الخالِق أو يَتكبَّر عن بعض الأشياء ولا أَظُنُّ أحَدًا يَتكبَّر عن أَمْر من أَمْر الله إلَّا وهو كافِر كُفْرًا مُطلَقًا؛ لأن إبليسَ تَكبَّر عن شيء واحِد وكفَر وهو السُّجود، لكن مَن تَكبَّر على الخَلْق دون الحقِّ فهذا لا يُخلَّد في النار، يُعاقَب بمِثْل ما فعَل من ذَنْب.

تنبيه: أنا أُحِبُّ من طالِب العِلْم أن يَكون قويًّا في استِنْباط الأَحْكام من الأَدِلَّة؛ لأن القادِر على استِنْباط الأحكام من الأدِلَّة يَحصُل على عِلْم كثير من أدِلَّة قليلة، كم من إنسان يَستَنبِط من آية واحِدة عِشرين فائِدةً ويَأتِي إنسان آخَرُ ولا يَستَنبِط إلَّا خمسَ فوائِدَ مثَلًا، الأوَّلُ حصَل على ثلاثة أضعاف ما حصَل عليه الثاني، وذلك بالاستِنْباط، ولكن هنا مَسأَلة، لا تُفْرط في الاستِنْباط؛ لأنك إن أَفْرَطتَ فيه حمَّلْت النُّصوص ما لا تَحتَمِل، فكُن وسَطًا وإذا دار الأَمْر بين أن يَكون هذا الحُكْمُ مُستَنبَطًا من آية أو حَديث أو لا يَكون فما هي السَّلامةُ؟

إن قلت: لا يَكون. قال لك الآخَرُ: السَّلامة أن يَكون؛ حتى لا نُبطِل دَلالة النَّصِّ، لكن نَقول: الأوَّلُ أرجَحُ؛ لأنك إذا لم تَتيَقَّن أن الآية دلَّت عليه وسَكَتَّ فقد سلِمْت؛ لأنَّك لم تَنفِ.

والسكوتُ درَجة بين النَّفي والإثبات فأنت إذا سكَتَّ لم تَكُن قلتَ على الله بغير حَقٍّ، لكن إذا أَثبَتَّ في النصِّ ما لا يَدُلُّ عليه فقد قُلتَ على الله بغير حَقٍّ.

إِذَنْ: فالسَّلامة فيما إذا شكَكْت هل النَّصُّ دلَّ على هذا أو لا، السَّلامة أن تَسكُت، ولكن لا تَنفِ؛ لأنه قد يَكون دالًّا عليه في نَفْس الأمر، ولكن فَهْمك لم يُدرِكه.

• • ❁ • •

الآية (٧٧)

• • • •

۞ قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿ فَٱصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ فَإِمَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ ٱلَّذِى نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِلَيْنَا يُرْجَعُونَ ﴾ [غافر:٧٧].

• • • •

قال تعالى: ﴿ فَٱصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ ﴾ ﴿ فَٱصْبِرْ ﴾ الخِطاب هنا للرسول صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ، وهو فِعْل أَمْر، والأَمْر الأصل فيه الوُجوب كما سيأتِي، أمَّا مَعنَى الصَّبْر لُغة فهو الحَبْس، ومنه قولهم: قُتِل فُلان صبرًا. أي: حَبْسًا؛ أي: أُمسِكَ ثُم قُتِل، لكنه في الاصطِلاح الشرعيِّ أخَصُّ من مُطلَق الحَبْس، فهو حَبْس النَّفْس عمَّا يُسخِط الله تعالى فيما يُرضِي الله.

ومن ثَم قال العُلماء: إن الصَّبْر يَنقَسِم إلى ثلاثة أقسام: صَبْر على طاعة الله وهو أعلى الأقسام، وصَبْر عن مَعْصية الله وهو الثاني في المَرتَبة، وصَبْر على أقدار الله المُؤلِمة وهو الثالِث في المَرتَبة أيضًا.

الأوَّل: صَبْر على طاعة الله، بأن يَصبِر الإنسان نَفْسه على طاعة الله بأن يَقوم بالواجِب، وأن يُكمِل ذلك بالمُستَحَبِّ، وهذا يَحتاج إلى صَبْر وإلى عَناء، ولا سِيَّما مع ضَعْف الإيمان، فإن ضَعيف الإيمان يَشُقُّ عليه فِعْل الطاعات، فيَحتاج إلى أن يَصبِر وأن يَحبِس نفسه على فِعْل الطاعة، ويَعِدَها بالخير والثواب، ويَقول: إن الوَقْت ماضٍ وذاهِبٌ، فإمَّا أن يَكون في طاعة الله، وإمَّا أن يَكون في مَعْصية الله،

وإمَّا أن يَكون لَغْوًا فيَحمِلها ذلك على القيامِ بطاعة الله.

والصَّبْر على طاعة الله شاقٌّ من وَجْهين: من وَجْه إلزام النَّفْس بالقِيام به، ومن وَجْه تعَب البدَن بالقِيام به، فهنا عَناءان: الآنَ الأوَّل مع النَّفْس، والثاني مع الجَوارِح؛ ولهذا كان هو أعلى أَقْسام الصَّبْر، مثال ذلك الصَّبرُ في الجِهاد، هذا صَبْر على طاعة الله، وهو أَشَقُّ أنواع الطاعة التي يُصبَر عليها؛ ولهذا جعَلها النبيُّ ﷺ ذُروة سَنام الإسلام؛ لأَنَّه أَشَقُّ ما يكون.

الثاني: صَبْر عن مَعصية الله؛ يَعنِي: أن الإنسان قد يَهوَى المَعْصية، ولكن يَحبِس نفسه عنها، فهذا صَبْر عن مَعْصية الله عَزَّوَجَلَّ ويَتَضمَّن هذا الصَّبرُ حَبْس النَّفْس مع الكفِّ، ففيه عَناءٌ واحِد، وهو حَبْس النَّفْس عن المعصية، لكن ليس فيه تعَب بدَنيٌّ؛ إذ إنه كفٌّ بلا فِعْل، والكفُّ بلا فِعْل أَهوَنُ من الفِعْل؛ يَعنِي: ليس فيه مَشقَّة بدَنية، غاية ما فيه أن مُعاناة قلبية للصَّبْر عن هذه المَعصيةِ.

والقِسْم الثالِث: الصَّبْر على أقدار الله عَزَّوَجَلَّ المُؤلِمة، هي التي لا تُلائِم النَّفْس إمَّا بوَفاة مَحبوب، وإمَّا بحُصول مَكروهٍ فيَحبِس الإنسان نَفْسه في هذا الأَمرِ، وهو أقلُّ أقسام الصَّبْر رُتبةً؛ لأنه يَأتِي بغير اختيار الإنسان. انتبِه الصَّبْر على الطاعة باختيار الإنسان، وعن المَعصية باختِياره، لكن على الأقدار لا، ليس بمَلْكك أن تمنَع ما قـدَّر الله عليك من وَفاة مَحبوب، أو حُصول مَكروهٍ؛ ولهـذا قال بعضُ السلَف: عند حُلول المَصائِب إمَّا أن تَصبِر صَبْر الكِرام، وإمَّا أن تَسلوَ سَلوَ البَهائِم. وقِس نَفْسـك إذ تَأتيك المُصيبة اليومَ أَكبَرَ من الجِبال وأَحرَّ من النِّيران، ثُم تَخِفُّ شيئًا فشيئًا حتى لا تَكاد تَذكُرها.

إِذَنْ: إمَّا أن تَصبِر وتَحتَسِب، وإمَّا أن تَسكُت حتى لو تَسخَّطْت، فالمَآل إلى نِسيانها، وإما أن يَسلوَ الإنسان سَلوَ البَهائِم.

فإن قال قائِلٌ: قوله ﷺ: «إِنَّ اللهَ تَجَاوَزَ عَنْ أُمَّتِي مَا حَدَّثَتْ بِهِ أَنْفُسَهَا»[1] ما يَقَع في القَلْب أثناء المصائِب، وما أَشبَه ذلك هل هذا يُنافِي الصبر؟

فالجَوابُ: لا، الحُزْن على الشيء لا يُنافِي الصَّبْر، الذي يُنافيه أن يَقَع في قلبه التَّسخُّط على الله، وما يقَعُ فتَجِب مُدافَعته، وأن يَعلَم أن الله عَزَّوَجَلَّ حكيم، وقد يُريد الله بالإنسان خيرًا إذا ابتَلاه، فإذا كان هجَم على قلبه فالواجِب أن يُدافِع، لكن لا أَعتَقِد أن مُؤمِنًا يَتَسخَّط على ربه، نعَمْ يَكرَه ما حصَل، صحيح كل إنسان يَكرَه ما يَحصُل له من البَلاء، لكن كونه يَعتَقِد أن الله ظلَمَه، وأن هذا عُدوان من الله عليه، وما أَشبَهَ هذا لا أَظُنُّ أحَدًا يَفعَله.

فإن قال قائِلٌ: ما عَلامة الإنسان الذي لم يَبلُغ الصَّبْر؟.

فالجَوابُ: إذا وجَد في نَفْسه التَّسخُّط، وفي قلبه التَّسخُّط.

وهذا القِسْمُ الثالث من أقسام الصَّبْر: الصَّبْر على أقدار الله عَزَّوَجَلَّ المُؤلِمة؛ يَكون بالأمور الآتِية: حَبْس اللِّسان عن التَّسخُّط، لا تَسخَط تَقول: أَصابَني الله بكذا، ولم يُصِب فلانًا، أَصابَني بالفَقْر والناسُ أغنياءُ، أَصابَني بالمَرَض والناسُ أَصِحَّاءُ. وما أَشبَه ذلك ما يَقول هذا، لا يَقول: واوَيْلاه واثُبوراه وانقِطاع ظَهْراه. وما أَشبَه ذلك لا يَقول هذا؛ لأن هذا مُنافٍ للصَّبْر، الإخبار بما أَصاب الإنسانَ

(١) أخرجه البخاري: كتاب الأيمان والنذور، باب إذا حنث ناسيا في الأيمان، رقم (٦٦٦٤)، ومسلم: كتاب الإيمان، باب تجاوز الله عن حديث النفس والخواطر بالقلب، إذا لم تستقر، رقم (١٢٧)، من حديث أبي هريرة رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ.

من مُصيبة دون التَّشكِّي، وقعَ هذا من النَّبيِّ ﷺ؛ حيثُ قال: «بَلْ أَنَا وَارَأْسَاهُ»[١] ولا حرَجَ؛ يَعنِي هناك فَرْق بين شخص يَتكلَّم بما أصابَه تَسخُّطًا أو شِكاية لمخلوق، وبين شخص يُخبِر عمَّا أصابه، فقَطْ مُجرَّد خبَر، والأعمال بالنِّيَّات.

الثاني: حَبْس الجَوارِح عند المُصيبة عن فِعْل ما لا يَجوز وما يُنبِئ عن الغَضَب؛ مثل: شَقِّ الجُيوب، لَطْم الخُدود، نَتْف الشُّعور، وما أَشبَه ذلك. هذا أيضًا مُنافٍ للصَّبْر؛ ولهذا تَبرَّأ النبيُّ ﷺ من فاعِله فقال: «لَيْسَ مِنَّا مَنْ شَقَّ الجُيُوبَ، وَلَطَمَ الخُدُودَ، وَدَعَا بِدَعْوَى الجَاهِلِيَّةِ»[٢].

الثالِثُ: وهو حَبْس القَلْب عن كراهة ما قَدَّر الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى وهذا أَعظَمها وأَدَقُّها، قد يَرَى الإنسان الضعيف المَخلوق المَمْلوك المُدبَّر، قد يَرَى أن ربَّه ظلَمه -والعِياذُ بالله- دون أن يَتكلَّم ودون أن يَفعَل، لكن قَلْبه مَملوء على الله سُخْطًا، مِن السُّخْط ورُؤْيةِ أنَّ الله تعالى ظلَمه، أو ما أَشبَه ذلك. هذا يَجِب أيضًا أن يَتخلَّى القلب عنه، وهذا أَخطَرُ ما يَكون بالنِّسبة للصَّبْر على الأقدار، اتْلُ قولَ الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَعۡبُدُ ٱللَّهَ عَلَىٰ حَرۡفٖ﴾ [الحج:١١] ﴿حَرۡفٖ﴾ يَعنِي: طرَفٍ، ليسَت عِبادةً راسِخة ﴿فَإِنۡ أَصَابَهُۥ خَيۡرٌ ٱطۡمَأَنَّ بِهِۦۖ وَإِنۡ أَصَابَتۡهُ فِتۡنَةٌ ٱنقَلَبَ عَلَىٰ وَجۡهِهِۦ خَسِرَ ٱلدُّنۡيَا وَٱلۡأٓخِرَةَۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلۡخُسۡرَانُ ٱلۡمُبِينُ﴾ [الحج:١١].

وهذا يَشمَل فِتْنة المَصائِب وفِتْنة الشُّبُهات، من الناس مَن يُؤمِن بالله واليوم

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب المرضى، باب قول المريض: إني وجع، رقم (٥٦٦٦)، من حديث عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا.

(٢) أخرجه البخاري: كتاب الجنائز، باب ليس منا من شق الجيوب، رقم (١٢٩٤)، ومسلم: كتاب الإيمان، باب تحريم ضرب الخدود وشق الجيوب والدعاء بدعوى الجاهلية، رقم (١٠٣)، من حديث عبد الله بن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

الآخِر، لكنه على طرَف إن أَصابَه خَيْرٌ ولم يُناقِشه أَحَد أو يُجادِله أحَدٌ مَشَى، وإن جاء أَحَد يُشكِّكه في هذا الأَمْرِ شكٌ، فانقَلَب على وَجْهه؛ خسِر الدنيا والآخِرة.

ومن الناس أيضًا مَن يَكون في نِعْمة، قد أَنعَم الله عليه بالأموال والأولاد وما يَحتاج إليه من الدُّنيا أو يُكمِلها، فأُصيب بحادِث فقَدَ أَهلَه به كلَّهم.

فمن الناس مَن إذا كان يَعبُد الله على حَرْف يَسخَط على الله، ويَكرَه قضاء الله، كَراهة سَخَط، ليس كَراهة أنه يَتمَنَّى ما لم يُصِبْه، لا، إنما يَتَسخَّط على ربِّه، وهذا من جَهْل الإنسان، أنت مِلْك لله عَزَّوَجَلَّ هذا الربِّ الكَريمِ الذي إذا أَصابَك بسَرَّاء فشَكَرْت أَثابَك، وإن أَصابَك بضَرَّاءَ فصبَرْت أَثابَك. كيف تَسخَط على هذا الربِّ الكَريم وأنت مِلْكه وعَبْده، يَتَصرَّف فيك بما شاء، وله الحِكْمة فيما فعَل؟! وظيفتك الصَّبْر عند البَلاء، والشُّكْر عند الرَّخاء.

فالمُهِمُّ: أن الصَّبْر الآنَ تَبيَّن أنه ثلاثة أقسام:

الأوَّل -أَعلاها وأَتمُّها-: وهو الصبر على طاعة الله.

الثاني: الصَّبْر عن مَعْصية الله.

الثالث: الصَّبْر على أَقْدار الله.

فأَفضَلها الأوَّل، ثُم الثاني، ثُم الثالِث.

يُوسُف عَلَيهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ أُصيب ببَلاء في خُلُقه وبَلاء في جَسَده، صبَرَ على هذا وهذا، دعَتْه امرأةُ العَزيز في مَكان مُغلَق، وهي امرأة العَزيز عِندها من الحُلِيِّ والزِّينة -وربَّما من الجَمال- ما ليس عند غيرها، وهو فَتاها أيضًا، ليس هو أكبَرَ منها شرَفًا عِندها، دَعَتْه إلى نفسها في مَكان خالٍ وهَمَّ أن يَفعَل؛ لأن النَّفْس البَشَرية قد يَغيب

عنها مُلاحَظة أَمْر الرُّبوبية، فهَمَّ بها لكِنْ هي السابِقة: همَّتْ به وهَمَّ بها، لكن بعد أن هَمَّ رأى بُرهانَ الله عَزَّوَجَلَّ، أراه الله البُرهانَ الآيَةَ، كأنها رُؤْية عَيْن، فامتَنَع وقال: ﴿رَبِّ ٱلسِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِيٓ إِلَيْهِ﴾ هـذا صَبْر عن المَعْصية، وصَبْر عَظيم، فتًى شابٌّ مع سَيِّدته الجَميلة، في مَكان لا يَطَّلِع عليه أَحَدٌ، ومع هذا كفَّ عنها.

وأُوذِيَ في جَسَده، فحُبِس، سُجِن ولَبِث في السِّجْن بِضْع سِنين، ومع ذلك صَبَر؛ حتى إن الملِك لَمَّا قال: ﴿ٱئْتُونِى بِهِۦ﴾ أَبى أن يَخرُج حتى تُسأَل النِّسْوة ماذا حصَل؛ ليَتبَيَّن براءَتَه قبل أن يَخرُج، وهذا لا شَكَّ صَبْر عَظيم، لكن أيُّ الصَّبْرين أعظَمُ؟

الجَوابُ: الأَوَّل الصَّبْر عن المَعصية؛ لأن السَّجْن حاصِل حاصِل، صبَر أو لم يَصبِر، وليس باختِياره.

فإن قال قائِل: ما هو الفَرْق إذا أَصاب الإنسانَ شيءٌ من الخَوْف قال: قدَّر الله ما شاء فعَل. وبعضُهم يَقول: قدَرُ الله وما شاءَ فعَلَ؟

فالجوابُ: يَجوز هذا وهذا، قدَّر الله. هذا فِعْل ماضٍ، وقدَرُ الله. خبَرٌ لمُبتَدَأ مَحذوف، التَّقديرُ: هذا قدَرُ الله.

فقول الله تعالى لرسوله عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ: ﴿ فَٱصْبِرْ﴾ يَتضمَّن كل الأَقْسام؛ ولهذا كان نَبيُّنا ﷺ أصبَرَ الناس في أَحْكام الله، وأَصبَرَ الناس على أَحْكام الله.

فإن قال قائِل: بعضُ العُلَماء، قال: إن ما أَصاب الرُّسُل من التَّكْذيب والتَّعْذيب أَشَدُّ مِمَّا أَصاب يُوسُفَ من اتِّهامه بما اتُّهِمَ به؟

فالجَوابُ: لكل شيء حُكْم، فيُوسُفُ عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ اتُّهِمَ بما اتُّهِمَ به، وعُذِّب

عليه، وسُجِن مع بَراءَته وظُهور براءَته في النِّهاية، وهؤلاء المُكذِّبين بعضُهم فُعِل به أكثَرَ مِمَّا فُعِل بيُوسُفَ، من التعذيب، بل بعضُهم قُتِل، فلكل شيء وجهٌ، ولا يُمكِن المُقارَنة بين هذا وهذا.

فإن قال قائِلٌ: علِمْنا أنَّ فِرعونَ وهامانَ وقارونَ قد أَهلَكهم الله عَزَّوَجَلَّ هل هلَكوا كلُّهم مرَّة واحِدة، أم كل واحِد على حِدَة؟

فالجوابُ: أمَّا قارونُ فالله عَزَّوَجَلَّ بيَّن أنه خُسِف به وبداره الأرض، فليس مِمَّن هلَك بالغرَق، وأمَّا هامانُ فالظاهِرُ أنه هلَك مع فِرعونَ.

فإن قال قائِل: هل سبب هَلك قارونَ أنه أَتَى بامْرأة غانِية فافترَت على مُوسى عَلَيْهِ السَّلَامُ أنه زنَى بها؟

فالجَوابُ: افتِخاره بماله هو الذي خسَفَ به الأرض.

وقوله: ﴿إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ﴾ هذه جُمْلة مُؤَّدة بـ(إنَّ) وَعْـد الله حَقٌّ. ويَقول المفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [إنَّ وَعْد الله بعَذابِهم حَقٌّ] وهذا قُصور من المفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ، بل إن وَعْد الله بعَذابهم ونَصْرك حَقٌّ، بل لو قُلْنا بأنه أعَمُّ من ذلك أيضًا، لولا أنه في سِياق المُحاجَّة مع الكُفَّار لقُلْنا: إنه أَعَـمُّ. إن وَعْد الله حَقٌّ في كل شيء؛ في عَذاب هَؤلاءِ، ونَصْره، وفي الجَنَّة، وفي كل شيء.

وقوله: ﴿حَقٌّ﴾؛ أي: أَمْر ثابِت واقِع، فكُلُّ ما وعَد الله به فهو حَقٌّ ثابِت واقِع؛ لكَمال صِدْقه وكَمال قُدْرته؛ لأن إخلاف الوَعْد يَأتِي من أَحَد أَمْرين: إمَّا كَذِب الواعِد، وإمَّا عَجْزه عن تَنفيذ ما وَعَد به، والله عَزَّوَجَلَّ لا يُخلِف المِيعاد؛ لكَمال صِدْقه وكَمال قُدْرته تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ.

﴿فَـإِمَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ ٱلَّذِى نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِلَيْنَا يُرْجَعُونَ﴾ ﴿فَـإِمَّا نُرِيَنَّكَ﴾ يَقول المفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ في إعرابها: [فيه (إنِ) الشَّرطية مُدغَمة و(ما) زائِدة تُؤكِّد مَعنى الشَّرْط أوَّل الفِعْل والنون تُؤكِّد آخره...] إلى آخِره.

﴿فَـإِمَّا نُرِيَنَّكَ﴾ الفاء هذه عاطِفة، و(إنْ) شَرطية، و(ما) زائِدة للتَّوْكيد، وهي كزِيادتها في قوله تعالى: ﴿أَيًّا مَّا تَدْعُواْ فَلَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ﴾ [الإسراء:١١٠]، ﴿أَيًّا مَّا﴾ (ما) زائِدة، لو حُذِفت: وقيل: أيًّا تَدْعو. استَقام الكلام، لكن يُؤتَى بحُروف الزِّيادة للتَّوْكيد. ﴿فَـإِمَّا نُرِيَنَّكَ﴾ لو حُذِفت (ما) وقال: إن نُرِيَنَّك. استَقام، لكنها تَأتِي للتَّوْكيد.

﴿فَـإِمَّا نُرِيَنَّكَ﴾ (نُرِي) فِعْل مُضارِع، لكنه بُنِيَ على فَتْح آخِره، وهي الياء؛ لاتِّصاله بنون التَّوْكيد، والنون للتَّوْكيد، والكاف مَفعول به. التَّوْكيد هنا في آخِر الفِعْل، و(ما) في أوَّله، فصار هذا الفِعلُ -الذي هو الإِراءَة- مُؤكَّدًا بمُؤكِّدين: (ما) الزائِدة في أوَّله، ونون التَّوْكيـد في آخِره، والكاف هذه مَفعول أوَّل، و﴿بَعْضَ﴾ مَفعولٌ ثانٍ، و(نُرِي) الرُّؤْية هنا بَصَرية، لكن لَمَّا دخَلت علَيْها همزة التَّعْدية صارت ناصِبة مَفعولين، تَقول: فُلان رأَى النَّجـمة. نصَبَت مَفعولًا واحِـدًا. فلان أَرَيْته النَّجْمة. مَفعـولين. من أَجْل دُخول الهَمْزة، على (رأَى). هـذه مَثْلها؛ لأن (نُرِي) رُباعيٌّ أَصْلها أَرَى يُرِي ونُرِي.

﴿فَـإِمَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ ٱلَّذِى نَعِدُهُمْ﴾ يَعـنِي: فأنت تَراه. قال المفَسِّر: [﴿فَـإِمَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ ٱلَّذِى نَعِدُهُمْ﴾ به من العَذاب في حَياتك، وجَواب الشَّرْط مَحذوف أي: فذاكَ]، أين جواب الشَّرْط (إن) في قوله: ﴿فَـإِمَّا نُرِيَنَّكَ﴾ ؟ يَعنِي: إن أَرَيْناك بعض الذي نَعِدهم فقد رأَيْته بعَيْنك وأَقَرَّ الله عَيْنك به، وهذا هو المَطلوب.

﴿أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ﴾ يعني: قبل أن نُرِيَنَّك ﴿فَإِلَيْنَا يُرْجَعُونَ﴾ وسنُريك بهم، هذا تهديد عظيم. وقوله: ﴿أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ﴾ هذه معطوفة على ﴿نُرِيَنَّكَ﴾ وهي قَسيم قوله: ﴿فَإِمَّا نُرِيَنَّكَ﴾ يَعنِي: إمَّا أن تَرَى العَذاب قبل مَوْتك، وإمَّا أن نَتوفَّاكَ ثُم نُعذِّبهم بعد الرجوع إلينا، وهذا أشَدُّ؛ فإن عَذاب الآخِرة أشَدُّ وأَبقى؛ ولهذا جاء في الحَديث: «إِنَّ اللهَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى إِذَا أَحَبَّ شَخْصًا عَجَّلَ لَهُ بِالْعُقُوبَةِ فِي الدُّنْيَا»(١) عُوقِب في الدنيا بماله أو بدَنه أو أَهْله أو مُجتَمَعه، وإلَّا ترَكه حتى يُوافَى به يوم القِيامة، نَسأَل الله أن يَقيَنا وإيَّاكم عَذاب الدُّنيا والآخِرة، ويَرزُقنا العافِية.

قال المفَسِّر: [﴿أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِلَيْنَا يُرْجَعُونَ﴾ فنُعذِّبهم أشَدَّ العَذاب، فالجَواب المَذكور للمَحذوف فقَطْ]، أين المَحذوفُ ﴿أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ﴾ يَعنِي: إذا تَوفَّيْناك فإلينا يُرجَعون.

من فوائد الآيةِ الكريمةِ:

الْفَائِدَةُ الأُولَى: وُجوب الصَّبْر؛ لأن الله تعالى أمَر به في قوله: ﴿فَاصْبِرْ﴾ ووجهُ كَوْنه واجِبًا: الأصل في الأَمْر الوجوب، وهذه المَسأَلةُ اختَلَف فيها الأُصوليون: هل الأَصْل في الأَمْر في كِتاب الله وسُنَّة رسوله ﷺ الوُجوب أو الأَصْل النَّدْب؟ إن قُلْنا: الأصل الوُجوب كان هذا المأمورُ به مُلزَمًا به، وإذا قلنا: النَّدْب؛ صار الإنسان بالخِيار: إن فعَله فهو خَيْر، وإن ترَكه فلا شَيءَ عليه.

وهذا محَلُّ إشكال في الواقِع: عند التَّطبيق، وعند التدليل أيضًا فيه نظَر.

(١) أخرجه الإمام أحمد (٤/ ٨٧)، وابن حبان رقم (٢٩١١)، من حديث عبد الله بن المغفل رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ. وأخرجه الترمذي: كتاب الزهد، باب ما جاء في الصبر على البلاء، رقم (٢٣٩٦)، من حديث أنس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

أَقول: الأُصوليُّون اختَلَفوا في هذه الأمرِ هل هو للوُجوب أو للنَّدْب؟ يَعنِي: هو المُرادُ الأمر المُطلَق المُجرَّد عن القَرينة، أَمَّا ما دلَّت عليه القَرينة؟ فالأمر فيه واضِحٌ، إن دلَّت على الوُجوب فهو واجِب، وإن دلَّت على الاستِحْباب فهو مُستَحَبٌّ، وإن دلَّت على الإباحة فهو مُباح، وإن دلَّتْ على التَّهديد فهو للتَّهْديد.

قوله: ﴿ٱعْمَلُوا۟ مَا شِئْتُمْ﴾ هل المَعنَى أن الإنسان يَعمَل ما يَشاءُ، أو أن هذا تَهديد؟ الجَوابُ: تَهديد. ﴿فَمَن شَآءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَآءَ فَلْيَكْفُرْ﴾، لكن المُراد الأَمْر المُجرَّد عن كل قَرينة؛ هل هو للوُجوب أو للاستِحْباب؟ من العُلَماء مَن قال: إنه للوُجوب، ولهم أدِلَّة. ومنهم مَن قال: إنه للاستِحْباب، ولهم أدِلَّة.

القائِلون بالوُجوب يَستَدِلُّون بمِثْل قوله تعالى: ﴿فَلْيَحْذَرِ ٱلَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِۦٓ أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [النور:٦٣] قالوا: هذا يَدُلُّ على الوَعيد فيمَن خالَف أَمْر الله عَزَّوَجَلَّ فيَدُلُّ إذَنْ على أن الأَمْر للوُجوب. وقالوا أيضًا: إن الرَّسول عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ قال: «مَا أَمَرْتُكُمْ بِهِ فَأْتُوا مِنْهُ مَا اسْتَطَعْتُمْ، وَمَا نَهَيْتُكُمْ عَنْهُ فَاجْتَنِبُوهُ»[1] وهذا أيضًا يَدُلُّ على الوُجوب؛ لأنه قال: «فَأْتُوا مَا اسْتَطَعْتُمْ» مثل هذا التَّعبيرِ إنَّما يَكون في الواجِب «وَمَا نَهَيْتُكُمْ عَنْهُ فَاجْتَنِبُوهُ»؛ ولأنه يَقبُح عادةً أن يَقول السَّيِّد لعَبْده: افعَلْ كذا. ثُم يُخالِف، فتَكون مُخالَفة الأمر قَبيحة، والقبيح مَنهيٌّ عنه مَكروهٌ.

أَمَّا القائِلون بأن الأَصل في الأَمر الاستِحْباب فيَقولون: إن كونه مَأمورًا به يَدُلُّ على فِعْله، والأَصل بَراءَة الذِّمَّة، فلا نُؤثِّم الإنسان إذا تَرَك ما أُمِر به إلَّا بدَليل؛

(١) أخرجه البخاري: كتاب الاعتصام، باب الاقتداء بسنن رسول الله ﷺ، رقم (٧٢٨٨)، ومسلم: كتاب الحج، باب فرض الحج مرة في العمر، رقم (١٣٣٧)، من حديث أبي هريرة رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ.

لأن الأصل بَراءَة الذِّمَّة، ولأنَّنا وجَدْنا مَسائِلَ كَثيرةً وأدِلَّة كثيرة فيها الأَمْر، أَجمَع العُلَماء على أنها للاستِحْباب، وهذا يُوهِن القول بأن الأَمْر للوُجوب.

تَوسَّط قوم فقالوا: إذا كان الأَمْر في عِبادة فهو للوُجوب، وإذا كان في آداب فهو للاستِحْباب. وهذا أَقرَبُ من الإطلاق بأنه للوُجوب، أو الإِطْلاق بأنه للاستِحْباب. يَعنِي: هذا التَّفسيرُ هو أَقرَبُ ما يَكون، ومع هذا فليس بمُنضَبِط، بل قد تَأتِي أَوامِرُ في الآداب وهي واجِبة.

فنَقول: الأصل أَقرَبُ ما يُقال في هذه المَسأَلةِ: أن الأصل في الأوامِر في التَّعبُّد الوُجوب؛ لأننا خُلِقنا للعِبادة وأُمِرنا بها فنَتعَبَّد. والأصل في الأَوامِر في غير العِبادة -كالآداب مثَلًا- للاستِحْباب، ومثل ذلك يُقال في النَّهيِ: هل هو للتَّحريم أو للكَراهة؟

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَةُ: إثبات وُقوع وَعْد الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى وأنه حَقٌّ، ولا بُدَّ أن يَقَع؛ لقوله: ﴿إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ﴾ وهذه جُمْلة مُؤكَّدة بـ﴿إِنَّ﴾ تَدُلُّ على أن وَعْد الله لا بُدَّ أن يَقَع، ووَعيده كذلِك حَقٌّ، ولا بُدَّ أن يَقَع، إلَّا أن يَمُنَّ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى بالعَفْو، وإلَّا فالأصل أن وَعيده واقِع. لا يُقال كما يَقول بعض الناس: الوَعيدُ ليس بواقِع، وليس بحَقٍّ، وأمَّا الوَعْد فهو حَقٌّ، نَقول: كلُّه حَقٌّ، لكِن الوَعيد قد يَعفو الله عَزَّوَجَلَّ عنه، والعفو كرَم.

الْفَائِدَةُ الثَّالِثَةُ: أن وَعْد الله حَقٌّ ثابِت لا بُدَّ أن يَقَع، وهو كذلك، ولقد صرَّح الله بذلك في قوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُخْلِفُ ٱلْمِيعَادَ﴾.

الْفَائِدَةُ الرَّابِعَةُ: تَهديد هَؤلاءِ المُكذِّبين للرسول عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ بأَحَد أمرَيْن: إمَّا بعُقوبة عاجِلة قبل أن يُتوفَّى، وإمَّا بعُقوبة آجِلة في يوم القِيامة؛ لقوله: ﴿فَإِمَّا

نُرِيَنَّكَ بَعْضَ ٱلَّذِى نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِلَيْنَا يُرْجَعُونَ ﴾.

الْفَائِدَةُ الخَامِسَةُ: أن مَرجع الأُمور كلِّها إلى الله، وليسَتْ باختِيار أحَدٍ، فهو الذي يُقدِّر ما شاء، سَواءٌ في الدُّنيا أو في الآخِرة؛ لقوله: ﴿فَإِمَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ ٱلَّذِى نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ﴾.

الْفَائِدَةُ السَّادِسَةُ: أن عَذاب العَدوِّ يَشفِي غَليل عَدوِّه؛ لقوله: ﴿فَإِمَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ ٱلَّذِى نَعِدُهُمْ﴾ فإن الإنسان إذا رأَى عَذاب الله تعالى لعَدوِّه فلا شَكَّ أنه يَشفِي غَليلَه.

الْفَائِدَةُ السَّابِعَةُ: أنه لا بَأسَ أن نَفرَح إذا أَصاب الله عَدُوَّنا بمُصيبة؛ لأن الظاهِر أن قوله تعالى: ﴿فَإِمَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ ٱلَّذِى نَعِدُهُمْ﴾ لأَجْل أن تَقرَّ عَينُه بذلك، فإذا أُصيب أَعداؤُنا بخَسْف أو صَواعِقَ أو فَيضانات، أو ما أَشبَه ذلك، وفرِحنا بهذا، فلا لومَ علينا؛ لأنهم أَعداؤُنا يَفرَحون بما يُصيبنا، فالجَزاء مِن جِنْس العمَل.

الْفَائِدَةُ الثَّامِنَةُ: إثبات رُجوع الخَلْق إلى الله؛ لقوله: ﴿فَإِلَيْنَا يُرْجَعُونَ﴾ وهذا عامٌّ في كلِّ شيء، في الأَحْوال، والأَوْقات، وفي كل شيء، المَرجِع إلى الله وحدَه.

الْفَائِدَةُ التَّاسِعَةُ: إثبات كَلام الله، أن الله يَتكَلَّم، يُؤخَذ من قوله: ﴿وَعْدَ ٱللَّهِ﴾؛ لأن الوَعْد يَكون بالقَوْل، ولا شَكَّ أن الله تعالى يَتكَلَّم، وأنه لا نَفادَ لكلِماته، قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿قُل لَّوْ كَانَ ٱلْبَحْرُ مِدَادًا لِّكَلِمَٰتِ رَبِّى لَنَفِدَ ٱلْبَحْرُ قَبْلَ أَن تَنفَدَ كَلِمَٰتُ رَبِّى﴾ [الكهف:١٠٩] ﴿ٱلْبَحْرُ﴾ اسمُ جِنْس يَعُمُّ كل البِحار، لنَفِد البَحْر قبل أن تَنفَد كلِمات الله، سُبحان الله، لو كان حِبْرًا يُكتَب به البِحار كلُّها لنَفِدت قبل أن تَنفَد كلِماتُ الله.

وقال تعالى: ﴿ وَلَوْ أَنَّمَا فِى ٱلْأَرْضِ مِن شَجَرَةٍ أَقْلَٰمٌ ﴾ يَعنِي: لو أن الذي في

الأَرْض من الشَّجَر كان أقلامًا ﴿وَٱلْبَحْرُ يَمُدُّهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ﴾ يَعنِي: وكُتِب بالأقلام بمِداد البَحْر، قال: ﴿مَّا نَفِدَتْ كَلِمَٰتُ ٱللَّهِ﴾ [لقمان:٢٧] وهذا يَدُلُّ على عظَمة الربِّ عَزَّوَجَلَّ؛ لأنه مُدبِّر الكون، وإذا أَراد أَمْرًا فإنها يقول له: كُنْ فيكون، ولا مُنتَهى لإرادة الله.

وهل قول الله عَزَّوَجَلَّ قول مَسموع بصَوْت، قول الله تعالى بصَوْت؛ لأن الله تعالى قال: ﴿وَنَٰدَيْنَٰهُ مِن جَانِبِ ٱلطُّورِ ٱلْأَيْمَنِ وَقَرَّبْنَٰهُ نَجِيًّا﴾ [مريم:٥٢]، ولا نِداءَ ومُناجاةَ إلَّا بصَوْت، وورَد الصوت صريحًا فيما ثبَت عن النبيِّ ﷺ أن الله تعالى يَقول: «يا آدمُ -يَوْمَ القِيَامَةِ- فَيَقُولُ: لَبَّيْكَ وَسَعْدَيْكَ. فَيَقُولُ الله: أَخْرِجْ مِنْ ذُرِّيَّتِكَ بَعْثًا إِلَى النَّارِ. فَيُنَادِي بِصَوْتٍ: إِنَّ اللهَ يَأْمُرُكَ أَنْ تُخْرِجَ مِنْ ذُرِّيَّتِكَ بَعْثًا إِلَى النَّارِ. قالَ: يا رَبِّ وَمَا بَعْثُ النَّارِ...» إلى آخِره(١). هذا صريحٌ بأن الله يَتكلَّم بصَوْت.

وهنا في هذه المَسأَلةِ مَذاهِبُ، نَذكُر منها المَذاهِب المَشهورة الثلاثة:

الأوَّل: أنه يَتكلَّم بصَوْت مَسموع وحَرْف غير مَخلوق؛ لأنه كلامُه، وهذا مَذهَب السلَف وأئِمَّة الخلَف أن الله يَتكلَّم بصَوْت مَسموع وحَرْف غير مَخلوق، فكَلامه عَزَّوَجَلَّ هو اللَّفْظ والمَعنَى.

والقول الثاني: أن الله تعالى يَتكلَّم بصَوْت مَسموع وحَرْف مَخلوق، والكَلام كلامه، وهذا مَذهَب الجَهْمية الذين يَقولون: إن القُرآن كَلام الله ولكنه مَخلوق؛ لأن كل كَلام الله عِندَهم مَخلوق.

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب أحاديث الأنبياء، باب قصة يأجوج، ومأجوج، رقم (٣٣٤٨)، ومسلم: كتاب الإيمان، باب قوله: يقول الله لآدم: أخرج بعث النار من كل ألف تسع مِئة وتسعة وتسعين، رقم (٢٢٢)، من حديث أبي سعيد الخدري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

والثالِث: مَن يَقولون: إنه لا يَتكلَّم بصَوْت ولا بحَرْف مَخلوق، إنَّما كلامه هو المَعنى القائِم في نَفْسه، لكن يَخلُق شيئًا يُعبِّر عن هذا الذي في نَفْسه، فيُسمَع هذا المَخلوقُ، ويُضاف إلى الله عَزَّوَجَلَّ إضافةَ تَكريم وتَشريف، وهذا مَذهَب الأشاعِرة الذين هُمْ أهل الكَلام.

والذين يَقولون: همُ الذين دافَعوا المُعتَزِلة عن الباطِل، وهمُ الذين انتَصَروا للإسلام، وهم في الحقيقة لا للإسلام انتَصَروا، ولا لحَرْب الإسلام كسَروا، بل قد نَقول: قولهم في الكَلام شَرٌّ من قول الجَهْمية؛ لأنهم اتَّفَقوا على أن ما يُسمَع من كَلام الله مَخلوق، وعلى أن القُرآن مَخلوق؛ لكن الجَهْمية يَقولون: مَخلوق، وهو كَلام الله. وهَؤلاء يَقولون: مَخلوقٌ، وليس كَلامَ الله، بل هو عِبارة عنه.

إِذَنْ: أين كَلامُ الله؟ قال: المَعنَى القائِم بنَفْسه، والحَقيقة أن المَعنَى القائِم بالنَّفْس ليس كلامًا وإنما هـو عِلْم، عِلْم بما سيُخلَـق من كلام، فيَقول: هـذا هو كلامُه. والعَجيب أنهم استَدَلُّوا بآية وشِعْر نَظْم، أمَّا الآية فقالوا: إن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى يَقول: ﴿وَيَقُولُونَ فِىٓ أَنفُسِهِمْ لَوْلَا يُعَذِّبُنَا ٱللَّهُ بِمَا نَقُولُ﴾ [المجادلة:٨] فأَثبَت القَوْل النَّفْسيَّ. أمَّا الشِّعْر فقالوا: إن الشاعِر قال:

إِنَّ الْكَـلَامَ لَفِـي الْفُـؤَادِ وَإِنَّـمَا ... جُعِلَ اللِّسَانُ عَـلَى الْفُـؤَادِ دَلِـيلَا[1]

الفُؤادُ يَعنِي: القلب.

فنَقول لهم: أمَّا الآية فلا دَلالة فيها لكم، بل هي على رُؤُوسكم؛ لأن الله تعالى

---

(١) البيت نسبه البعض إلى الأخطل، وليس في ديوانه، انظر: الموشى لأبي الطيب الوشاء (ص:٨)، وتمهيد الأوائل لأبي بكر الباقلاني (ص:٢٨٤)، والفصل في الملل والنحل للشهرستاني (٣/ ١٢٢)، ومجموع الفتاوى (٧/ ١٣٨).

لم يُطلِق القول، بل قَيَّد فقال: ﴿وَيَقُولُونَ فِىٓ أَنفُسِهِمْ﴾ وهـذا كقَوْل الرسول ﷺ: «إِنَّ اللهَ تَجَاوَزَ عَنْ أُمَّتِي مَا حَدَّثَتْ بِهِ أَنْفُسُهَا»[1] وحَـديث النَّفْس لا يُمكِن أن يُقال: إنه حَـديث. ولا أن يُقال: إنه قَوْل إلَّا بقَيْـد؛ ولهذا لو حُـذِفت ﴿فِىٓ أَنفُسِهِمْ﴾ وقيل: ويَقولون: لولا يُعذِّبنا الله. يُفهَم منه أنه كَلامُ اللِّسان. لكن هم بأَنفُسهم يُقدِّرون، يَقول الواحِد مِنهم: ﴿لَوْلَا يُعَذِّبُنَا ٱللَّهُ بِمَا نَقُولُ﴾ إِذَنْ ما نَقوله حَقٌّ؛ لأن الله لم يُعذِّبْنا، هذا يُقدِّره الإنسان في نَفْسه.

أمَّا الشِّعْر فـ«إن الكَلام لَفِي الفُؤاد» فهو قول الأَخطَل الشاعِر النَّصرانيِّ، قاله بعد تَغيُّر الأَلْسُن، وعلى فَرْض أنه يُوافِق فإنه يَجِب أن يُحمَل على أن المَعنى أن الكلام المُعتبَر هو ما يُقدَّر أوَّلًا في الفُؤاد ثُم يَنطِق به اللِّسان؛ ولهذا لا يُعتبَر الكلام الذي يَسبِق على اللِّسان كَلامًا، ولا يُؤاخَذ به، فالكَلام الحَقيقيُّ الرَّصين المُعتبَر هو الذي يَكون أوَّلًا في القَلْب ثُم يُعبَّر عنه باللسان، هذا مَعنى البَيْت الذي لا يَحتمِل غيرَه.

فإن قال قائِل: هل يَلزَم أن يَتكَلَّم بمُخاطَبة المَخلوق؟

فالجواب: لا، قد يَتكَلَّم بما يُثنِي به على نَفْسه، مثل أن يَقول: أنا الله الواحِد الأحَدُ، وما أَشبَه ذلك، كما يَقول الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ يومَ القِيامة: ﴿لِّمَنِ ٱلْمُلْكُ ٱلْيَوْمَ ۖ لِلَّهِ﴾ لا يُجيب أحَدٌ، فيَقول: ﴿لِلَّهِ ٱلْوَٰحِدِ ٱلْقَهَّارِ﴾ [غافر:١٦].

ونَقول: الكَلام صِفة كَمال، والله تعالى مَوْصوف بالكَمال أزَلًا وأبَدًا، وإذا كان كذلك فإن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ لم يَزَل مَوْصوفًا به، ولا يَلزَم من هذا أن يَكون هُناك

(١) أخرجه البخاري: كتاب الأيمان والنذور، باب إذا حنث ناسيا في الأيمان، رقم (٦٦٦٤)، ومسلم: كتاب الإيمان، باب تجاوز الله عن حديث النفس والخواطر بالقلب، إذا لم تستقر، رقم (١٢٧)، من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

مُخاطَب، وكذلك الأفعال، فالذين أَثاروا مثَلًا مَسأَلة التَّسلسُل، وما أَشبَه ذلك، هم بَعيـدون عن النُّصوص في الواقِع، وإلَّا لعلِمـوا أن الله تعالى لم يَزَل ولا يَزال فَعَّالًا، وأنه لم يَكُن في وقت من الأَوْقات مُعطَّلًا عن الفِعْل، ولا يَلزَم من الفِعْل المَفعول؟ حتى نَحـن لا يَلزَم من فِعْلنا أن يَكون هناك مَفعول، قد يَتحرَّك الإنسان ولا يُنتِج شيئًا، لكن الفِعْل يُقال: لا يُمكِن أن يَمُرَّ على الله تعالى زَمانٌ من الأَزمِنة وهو مُعطَّل عن الفِعْل؛ لأنه إمَّا أن يُقال: تَعطَّل هذا عن عَجْز، أو عن غير عَجْز. فإن قلنا: عن عَجْز. فهذا بَليَّة، وإن قُلنا: عن غير عَجْز. نَقول: ما الذي يَمنَعه؟

إِذَنْ: فالتَّسلسُل ليس بمَمنوع في الماضِي، كما أنه ليس مَمنوعًا في المُستَقبَل، مع أَنِّي أنا أَكرَه أن يَتكَلَّم الناس في هذا؛ لأنه كَلام لا فائِدةَ فيه، ولم يَكُن السَّلَف يَقولون به، لكن جاءَنا أهل الكَلام وأَدخَلونا في هذه المَعمَعةِ، وصار ما كان.

• ● ۞ ● •

الآية (٧٨)

• قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِّن قَبْلِكَ مِنْهُم مَّن قَصَصْنَا عَلَيْكَ وَمِنْهُم مَّن لَّمْ نَقْصُصْ عَلَيْكَ وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَن يَأْتِيَ بِآيَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ فَإِذَا جَاءَ أَمْرُ اللَّهِ قُضِيَ بِالْحَقِّ وَخَسِرَ هُنَالِكَ الْمُبْطِلُونَ﴾ [غافر:٧٨].

قال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِّن قَبْلِكَ مِنْهُم مَّن قَصَصْنَا عَلَيْكَ﴾ إلى آخِره. الجُملةُ هـذه مُؤكَّدة بثَلاثة مُؤكِّدات: اللَّام، و(قد)، والقَسَم المَحذوف، والتَّقدير: والله لقَـدْ أَرسَلْنا رُسُلًا من قَبلِك، والرسولُ هو بشَرٌ، يُوحَى إليه بشَرْع، ويُؤمَر بتَبليغه؛ ولهذا سُمِّي رسولًا؛ أي: مَدفوعًا من قِبَل الله عَزَّوَجَلَّ ليُبلِّغ، وأمَّا النبيُّ فإنه بشَرٌ أُوحِيَ إليه بشَرْع، ولكنه لم يُكلَّف بتَبليغه، بمَعنَى: أنه يُجدِّد شَرْع مَن قَبلَه إن كان قَبْله رَسولٌ حتى يُحيِيَ هِمَم الناس فيقتَدُوا به، وإذا لم يَحتجِ الناس إلى رسول لم يُرسِل إليهم أحَدًا، فإن آدمَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ كان نَبيًّا ولم يَكُن رسولًا، هو نَبيٌّ يَتعَبَّد لله تعالى بما أَوْحاه الله إليه، ولكن لم يُرسَل؛ لأن الناس لم يَختَلِفوا بعدُ، كما قال الله تعالى: ﴿كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً فَبَعَثَ اللَّهُ النَّبِيِّينَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ وَأَنزَلَ مَعَهُمُ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ فِيمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ﴾ [البقرة:٢١٣]، فالرُّسُل إنَّما أُرسِلوا بعد الاختِلاف؛ ولهـذا قال بعضُ أَهْل العِلْم: إن تَقـدير الآية الكَريمة: كان الناس أُمَّة واحِدة فاختَلَفوا فبعَثَ الله النَّبيِّين مُبشِّرين. وقال: إن في الآية إيجـاز حَذْف؛ أي: حُذِف منها ما دَلَّ السِّياق على حَذْفه.

فالرَّسولُ بشَر أُوحِيَ إليه بشَرْع وأُمِر بتَبليغه.

فإن قال قائِل: في تَعريف النَّبيِّ أنَّه الذي أُمِر بوَحْي ولم يُبلِّغه؛ فكيف نُوفِّق بينه وبين قول النَّبيِّ ﷺ: «مَا مِنْ نَبِيٍّ بَعَثَهُ الله إِلَّا كَانَ حَقًّا عَلَيْهِ أَنْ يُبَيِّنَ لِأُمَّتِهِ خَيْرَ مَا يَعْرِفُهُ وَيُحَذِّرُهُمْ شَرَّ مَا يَعْرِفُهُ»[1]؟

فالجَوابُ: هذا المُراد بالنَّبيِّ الرسول، المُراد به الرَّسول؛ ولهذا تَجِد الآنَ في القُرآن الكَريم أنبياءَ هُمْ رُسُل، لكِن تُذكَر بلَفْظ الأنبياء ﴿إِنَّآ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ كَمَآ أَوۡحَيۡنَآ إِلَىٰ نُوحٖ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ مِنۢ بَعۡدِهِۦ﴾ [النساء:١٦٣]، ثُم قال في الأَخير: ﴿رُّسُلٗا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ﴾ وقال: ﴿إِنَّهُۥ كَانَ صِدِّيقٗا نَّبِيًّا﴾.

وقوله: ﴿وَلَقَدۡ أَرۡسَلۡنَا رُسُلٗا مِّن قَبۡلِكَ﴾ وهؤلاءِ الرُّسُل كان يُرسَلون إلى أُمَمِهم فقَطْ، كما ثبَتَ ذلك في الصَّحيحَيْن من حديث جابِرٍ: «وَكَانَ النَّبِيُّ يُبْعَثُ إِلَى قَوْمِهِ خَاصَّةً وَبُعِثْتُ إِلَى النَّاسِ عَامَّةً»[2] ﴿وَإِن مِّنۡ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٞ﴾ كما قال الله عَزَّوَجَلَّ كلُّ أُمَّة أَرسَل الله إليها رَسولًا لتَقوم الحُجَّة.

قوله: ﴿مِنۡهُم مَّن قَصَصۡنَا عَلَيۡكَ وَمِنۡهُم مَّن لَّمۡ نَقۡصُصۡ عَلَيۡكَ﴾ (مِن) هَذه تَبعيضِيَّة؛ أي: بعضُهم قصَصْناهم عليك وأَخبَرْناك بهم، وبعضُهم لم نَقصُصْهم عليك. قال أَهلُ العِلْم: وإنما قَصَّ الله على رسوله ﷺ مَن كانوا من الجَزيرة العَربية وما حَولَها؛ لأن أَخبار هَؤلاءِ له بَقيَّة في العرَب؛ فلِهذا قَصَّه الله، أمَّا مَن كانوا في

(١) أخرجه مسلم: كتاب الإمارة، باب الأمر بالوفاء ببيعة الخلفاء، رقم (١٨٤٤)، من حديث عبد الله بن عمرو بن العاص رَضِيَاللَّهُعَنْهُمَا.

(٢) أخرجه البخاري: كتاب الصلاة، باب قول النبي ﷺ: «جعلت لي الأرض مسجدًا وطهورًا»، رقم (٤٣٨)، ومسلم: كتاب المساجد، باب جعلت لي الأرض مسجدًا وطهورًا، رقم (٥٢١)، من حديث جابر رَضِيَاللَّهُعَنْهُ.

أَمْريكا، أو في شَرْق آسيا، أو ما أَشبَه ذلك من الأماكِن البَعيدة فهَؤُلاءِ لم يَقُصَّ علينا من نَبئِهم شَيئًا.

قال المفَسِّر رَحِمَهُ اللَّهُ: [﴿مِنْهُم مَّن قَصَصْنَا عَلَيْكَ وَمِنْهُم مَّن لَّمْ نَقْصُصْ عَلَيْكَ﴾ رُوِيَ أنه تعالى بعَث ثَمانية آلاف نَبيٍّ؛ أربعة آلافٍ من بَني إسرائيلَ، وأربَعة آلافٍ من سائِر الناسِ] وجَديرٌ بالمفَسِّر رَحِمَهُ اللَّهُ أن يَقول: [رُوِيَ] بصيغة التَّمْريض؛ لأن هذا لا يَصِحُّ، كيف يَكون من بني إسرائيلَ وهم مُتَأَخِّرون عن أُمَمٍ كَثيرة أربَعة آلاف، ومن سائِر الناس أَرْبعة آلافٍ؟! هذا بَعيدٌ، بل إن الله أَرسَل في كُلِّ وَقْت وحين ما تَقوم به الحُجَّة، وليس لنا أن نَبحَث عن عدَد هَؤلاءِ، وإن قُلْنا: لنا فإنه ليس عَلَيْنا، يَعنِي: لو قيل لنا أن نَبحَث للاطِّلاع لم يَكُن سائِغًا أن نَقول: علينا أن نَبحَث. بل نَقول: آمَنَّا بالله وبرُسُله، مَن علِمنا مِنهم ومَن لم نَعلَم.

قال المفَسِّر رَحِمَهُ اللَّهُ: [﴿وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ﴾ مِنْهم ﴿أَن يَأْتِيَ بِآيَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ﴾؛ لأنَّهم عَبيد مَربوبون]. قوله: ﴿وَمَا كَانَ﴾ ﴿ما﴾ نافية، و﴿كَانَ﴾ فِعْل ماضٍ ناقِص، و﴿لِرَسُولٍ﴾ خبَرُه، و﴿أَن يَأْتِيَ بِآيَةٍ﴾ اسمُ (كانَ)؛ أي: وما كان إتيان أَحدهم بآيَة إلَّا بإِذْن الله، ﴿وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَن يَأْتِيَ بِآيَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ﴾ يَعنِي: أن الرُّسُل عليهم الصلاة والسلام آتاهُم آياتٍ، لكن هل هُمُ الذين يَملِكون هذا؟

الجواب: لا، هذا من عِند الله، ولكن الله تعالى بَيَّن أنه ما من رَسولٍ إلَّا وأُوتِيَ آية.

وقوله: ﴿بِالْبَيِّنَاتِ﴾ يَعنِي: بالآيات البيِّنات، حتى يُؤمِن البَشر، وحتى لا يَكون لهم حُجَّة عِند الله؛ لأن الله لو بَعَث رسولًا هكذا إلى الناس وقال: إنِّي رَسول الله، ولم يَأتِ بآية، فإن الناس لن يَقبَلوا منه، وإلَّا لأَمكَن كلَّ كاذِب أن يَدَّعِيَ الرِّسالة،

لكن لا بُدَّ من آيات، آيات بيِّنات واضِحة على أنه رَسولٌ، ومعَ هذا لا يُمكِن لرَسول أن يَأتِيَ بآية إلَّا بإذْن الله.

وقوله: ﴿إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾ الإِذْن الكَونيّ، فإذا أَذِن الله كَوْنًا أن يَأتِيَ الرسول بآية أَتَى بآيَة، والرَّسول قد يَأتِي بآيَة ابتِداءً وقد يَأتِي بآيَة بطلَب من المُرسَل إليهم، كما قِيل: بل قد جاء في الحَديث الصحيح: إِنَّ قُرَيْشًا قالوا للرَّسولِ -صلى الله عليه وعلى آله وسلم-: أَرِنا آيَةً. فأَشارَ إلى القَمَر، فانفَلَق فِلْقَتَيْن، إِحْداهُما على الصَّفا، والثانية على المَرْوةِ[1]، وشاهَدَ الناسُ ذلِكَ، ولكِن مع ذلك ﴿وَإِن يَرَوۡاْ ءَايَةً يُعۡرِضُواْ وَيَقُولُواْ سِحۡرٞ مُّسۡتَمِرّٞ﴾ [القمر:٢] قالوا: إن مُحمَّدًا سحَرَنا، والقَمَر لم يَتصَدَّع، ولكن لَمَّا لم يُعيِّنوا الآيَةَ التي طلَبوها لم يُؤاخَذوا بالعِقاب؛ لأن الأُمَم إذا عيَّنوا الآية التي طلَبوها ثُم لم يُؤمِنوا عاجَلَهم الله بالعُقوبة.

وقوله: ﴿وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَن يَأۡتِيَ بِـَٔايَةٍ﴾ ﴿بِـَٔايَةٍ﴾ أي: عَلامة على صِدْقه ﴿إِلَّا بِإِذۡنِ ٱللَّهِ﴾ وهنا قال: (آية) ولم يَقُل: بمُعجِزة، وقد جَرَى على أَلسِنة كثيرٍ من العُلَماء رَحِمَهُمُ ٱللَّهُ تَسمية آيات الأَنْبياء بالمُعجِزات، ولكن هذه التَّسمية غير سَديدة، بل الأَوْلى أن نُعبِّر بآيَة، نَقول: آية النَّبيِّ، ولا نَقول: مُعجِزة؛ أوَّلًا لأن هذا هو التَّعبير القُرآنيُّ، وثانيًا لأن المُعجِزة تَأتِي من الرسول، وتَأتِي من الساحِر، وتَأتِي من الشَّياطِين، يَأتِي من هَؤلاء ما يَعجِز عنه البَشَر.

فالتَّعبير السَّليم أن نُعبِّر بآيَة:

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب المناقب، باب سؤال المشركين أن يريهم النبي ﷺ آية، رقم (٣٦٣٦)، ومسلم: كتاب صفة القيامة، باب انشقاق القمر، رقم (٢٨٠٠)، من حديث عبد الله بن مسعود رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ.

الأوَّل: لمُوافقة القُرآن.

والثاني: لأن المُعجِزة تكون من الرسول وغيرِه.

والثالث: أن كلِمة (آية) فيها إشارة إلى أن ما جاء به هذا الرسولُ مِمَّا يَعجِز البَشَر آية، عَلامة.

فهذه ثلاثة أَشياءَ تُبيِّن رُجْحان التَّعْبير بآية على التَّعبير بمُعجِزة.

قال المفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿فَإِذَا جَآءَ أَمۡرُ ٱللَّهِ﴾ بنُزول العَذاب على الكُفَّار ﴿قُضِيَ﴾ بين الرُّسُل ومُكذِّبيها ﴿بِٱلۡحَقِّ وَخَسِرَ هُنَالِكَ ٱلۡمُبۡطِلُونَ﴾ [غافر:٧٨] أي: ظهَر القَضاء والخُسران للناس، وهم خاسِرون في كل وقت قبل ذلِك].

قوله: ﴿فَإِذَا جَآءَ أَمۡرُ ٱللَّهِ﴾ أَمْر الله تعالى الكَونيُّ؛ لأن أَمْر الله يَنقسِم إلى قِسْمين: كونيٍّ، وشَرعيٍّ، كما سنَذكُره إن شاء الله.

قوله: ﴿فَإِذَا جَآءَ أَمۡرُ ٱللَّهِ﴾ بنُزول العَذاب على الكافِرين، ونُزول النَّصْر للرُّسُل وأتباعهم.

وقوله: ﴿قُضِيَ بِٱلۡحَقِّ﴾ والقاضِي هو الله عَزَّوَجَلَّ، وحُذِف الفاعِل هنا للعِلْم به؛ لأن الله تعالى هنا هو الذي يَقضِي بالحقِّ؛ كما قال تعالى: ﴿وَٱللَّهُ يَقۡضِي بِٱلۡحَقِّۖ وَٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ مِن دُونِهِۦ لَا يَقۡضُونَ بِشَيۡءٍ﴾ [غافر:٢٠]، ويُحذَف الفاعِل أحيانًا للعِلْم به، كما في قوله: ﴿وَخُلِقَ ٱلۡإِنسَٰنُ ضَعِيفًا﴾ [النساء:٢٨]، وكما في هذه الآيةِ، وقد يُقال: إنه حُذِف الفاعِل هنا للتَّعْميم؛ ليَكون القاضِي هو الله، وكذلك القاضِي بالحَقِّ هم الرُّسُل وأتباعُهم؛ لأنهم قضَوْا بالحَقِّ بالانتِصار على عَدوِّهم، لكن الأَوَّل أَوْلى، أن يَكون الفاعِل واحِدًا، ولكن حُذِف للعِلْم به: ﴿قُضِيَ بِٱلۡحَقِّ﴾.

﴿وَخَسِرَ هُنَالِكَ ٱلْمُبْطِلُونَ﴾ هنا الخُسْران: فواتُ الرِّبْح، و(هنا) اسمُ إشارة للمَكان، والمُراد به الزَّمان؛ ولهذا قال المفَسِّر: [في كل وقت] المَعنَى: خَسِر في ذلك الوقتِ المُبطِلون.

فإذا قال قائِل: أَلَسْتُم تَقولون: إن (هنا) إشارة إلى المَكان؟

قُلنا: بلى، لكن قد تُستَعار إشارة للزَّمان. واللَّام في قوله: ﴿هُنَالِكَ﴾ للبُعْد، والكاف حَرْف خِطاب ﴿ٱلْمُبْطِلُونَ﴾ أي: الذين وقَعوا في الباطِل؛ لأن القَضاء بالحَقِّ يَقتَضي زوال الباطِل، وإذا زال الباطِل خسِرَ أهله، والباطِل ضِدُّ الحَقِّ، ويُفسَّر في كل مَوضِع بحَسبه، فالباطِل في الكلام الخَبَريِّ هو الكذِب، والباطِل في الحُكْم الجَوْر، والباطِل في المُعامَلة الغِشُّ، وما أَشبهَ ذلك.

المُهِمُّ: أن الباطِل يُفسَّر في كل مَوْضِع بحَسبه.

وقول المفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [وهم خاسِرون في كلِّ وَقْت] احتِرازًا من الإشارة في قوله: ﴿هُنَالِكَ﴾؛ لئَلَّا يَظُنَّ ظانٌّ أنهم خاسِرون حين نُزول العَذاب فقَطْ، مع أنهم خاسِرون كلَّ وقت، وقد يُقال: لا حاجةَ إلى ذلك -يَعنِي: لا حاجةَ إلى ما قال المفَسِّر- لأن المَقصود: وخَسِر هنالِكَ، أي: ظهَرَت خَسارتهم وبانَتْ؛ لأنه قبل أن يُؤتَوْا بالعَذاب ربما يَقول القائِل: إنَّهم ربِحوا، كما قال أبو سُفْيانَ في يوم أُحُد، قال: يَوْمٌ بِيَوْمِ بَدْرٍ، والحَرْب سِجالٌ[1]. فظَنَّ أنه ربِح في ذلك اليوم، فالأَوْلى أن تَبقَى الآية على ظاهِرها، وألَّا يُستَدرَك القُرآن، فيُقال: ﴿خَسِرَ هُنَالِكَ﴾ أي: ظهَر خُسْرانهم وبانَ.

أمَّا خُسْرانهم قبل نُزول العَذاب فهو ليس ببيِّن، إذ قد يَقول القائِل: إنهم

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب الجهاد والسير، باب ما يكره من التنازع والاختلاف في الحرب، رقم (٣٠٣٩)، من حديث البراء رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ.

يَربَحون فيها إذا أَدَالَ لهم الله تعالى على الإسلام إدالة غير مُستَقِرَّة؛ لأنه لا يَجوز أن نَعتَقِد أن الله يُديل الكُفْر على الإسلام إدالةً مُستَقِرَّة، بل مَن ظَنَّ بالله هذا فقَدْ ظَنَّ به ظنَّ السَّوْء، لكن الله تعالى يَقول: ﴿وَتِلْكَ ٱلْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ ٱلنَّاسِ﴾.

من فوائدِ الآيةِ الكريمةِ:

الْفَائِدَةُ الأُولَى: إثباتُ الرُّسُل السابِقين؛ لقوله: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِّن قَبْلِكَ﴾.

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَةُ: عَـدْل الله عَزَّوَجَلَّ في عِباده؛ حيـث لم يُعاقِبهم إلَّا بعدَ إرسال الرُّسُل، وتَكذيب هَؤلاءِ القَوْمِ الذين أُرسِل إليهم.

الْفَائِدَةُ الثَّالِثَةُ: الإشارة إلى أنَّه لا رسولَ بعدَ مُحمَّد؛ لقوله: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِّن قَبْلِكَ﴾ ولم يَقُل: سنُرسِل. وهذه الفائِدةُ في الواقِع ليسَـت بتِلْك القَويَّةِ؛ يَعنِي: مَأخوذة من الآية، لولا الواقِع ما أَخَذْناه من الآية؛ لأن الله إنها يَتحدَّث عن شيء مضَى.

الْفَائِدَةُ الرَّابِعَةُ: أن من الرُّسُل مَن قَصَّهم الله على محمد ﷺ، ومِنهم مَن لم يَقُصَّه؛ لقوله: ﴿مِنْهُم مَّن قَصَصْنَا عَلَيْكَ وَمِنْهُم مَّن لَّمْ نَقْصُصْ عَلَيْكَ﴾.

الْفَائِدَةُ الخَامِسَةُ: إثبات كـلام الله؛ لقوله: ﴿مِنْهُم مَّن قَصَصْنَا﴾ والقَصُّ في الأصل: تَتَبُّع الأثر، وأمَّا في الكلام فهو ذِكْر أخبار مَن سلَف، وهذا يَدُلُّ على أن الله يَتكلَّم عَزَّوَجَلَّ، وهذا هو ما دلَّ عليه الكِتاب والسُّنَّة وإجماع السَّلَف، ولكن هل يَتكلَّم بصَوْت يُسمَع أو لا؟ نعَمْ، يَتكلَّم بصَوْت يُسمَع.

الْفَائِدَةُ السَّادِسَةُ: إثباتُ حِكْمة الله عَزَّوَجَلَّ في حَديثه عن الأُمَم السابِقة؛ حيث قسَّم إلى مَن قُصَّ علينا نبَؤُهم ومَن لم يُقَصَّ، وما ذلِك إلَّا لِحكْمة عَظيمة بالِغة.

الْفَائِدَةُ السَّابِعَةُ: أن الرُّسُل عليهم الصلاة والسلام أَيَّدَهم الله تعالى بالآيات؛ لقوله: ﴿وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَن يَأْتِيَ بِـَٔايَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾.

الْفَائِدَةُ الثَّامِنَةُ: أن الرُّسُل لا يَملِكون إيجاد الآيات مَهما بلَغت مَنزِلتهم؛ فإنهم لا يَملِكون أن يَأْتوا بآية واحِدة؛ لقوله: ﴿وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَن يَأْتِيَ بِـَٔايَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾.

الْفَائِدَةُ التَّاسِعَةُ: تَسْلية الرَّسول عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ فإن الكُفَّار يَطلُبون منه آياتٍ، ولكن الله تعالى يَقول: ﴿وَقَالُوا۟ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ ءَايَٰتٌ مِّن رَّبِّهِۦ ۖ قُلْ إِنَّمَا ٱلْـَٔايَٰتُ عِندَ ٱللَّهِ﴾ يُسلِّي الرسول عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ، وأن هذا الأمرَ ليس إليك، بل هو إلى الله، إذا شاءَ أن يُؤتِيَك آيةً أتاكَ، وإلَّا فهو الحَكيمُ.

الْفَائِدَةُ الْعَاشِرَةُ: إثبات الإِذْن لله عَزَّوَجَلَّ، والإِذْن نَوْعان: إِذْن شَرعيٌّ، وإِذْن كَونيٌّ، فالإِذْن الكَونيُّ ما يَتعلَّق بالمَخلوقات، وإِيجادُها، وإِعدامُها، وتَغيُّرها، وما أَشبَه ذلك. والإِذْن الشَّرْعيُّ ما يَتعلَّق بالمَشروعات؛ فلْنَنظُر إلى قوله تعالى: ﴿قُلْ ءَآللَّهُ أَذِنَ لَكُمْ ۖ أَمْ عَلَى ٱللَّهِ تَفْتَرُونَ﴾ [يونس:٥٩]، شَرعيٌّ، ولا يَصِحُّ أن يَكون كونيًّا، لأنَّنا نَعلَم أنه إذا فعَلوه فقَدْ أَذِنَ الله فيه.

وقوله تعالى: ﴿أَمْ لَهُمْ شُرَكَٰٓؤُا۟ شَرَعُوا۟ لَهُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَنۢ بِهِ ٱللَّهُ﴾ [الشورى:٢١] أي: لم يَأذَن به شرعًا، ولا يَجوز أن يَكون الإِذْنُ هُنا إِذْنًا كونيًّا؛ لأنه وقَع فقَدْ أَذِن الله تعالى فيما شَرَع هَؤلاءِ إذنًا كونيًّا.

وقال الله تعالى: ﴿مَن ذَا ٱلَّذِى يَشْفَعُ عِندَهُۥٓ إِلَّا بِإِذْنِهِۦ﴾ [البقرة:٢٥٥]. هو يوم القِيامة، لكن أين الشَّرْع؟

الجواب: الشَّفاعة؛ إذ يَطلُب من الله عَزَّوَجَلَّ أن يُخفِّف العَذاب عن شخص أو ما أَشبَه ذلك، أو يَرفَع درَجاتِه، وهذا إِذْن كَوْنيٌّ لا شَكَّ.

الْفَائِدَةُ الحَادِيَةَ عَشْرَةَ: إثبات أَفْعال الله الاختِيارية؛ يَعنِي: أن الله تعالى قد يُحدِث من أَمْره ما شاء؛ لقوله: ﴿فَإِذَا جَآءَ أَمْرُ ٱللَّهِ﴾ و(إذا) هنا شَرْطية للمُستقبَل، إِذَنِ الأَمْر لم يَأتِ بعدُ.

وهذا يَـدُلُّ على أن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ مُتَّصِف بالأفعـال الاختِياريـة خِـلافًا للأشاعِرة ونحوهم الذين قالوا: إن الله تعالى لا يُوصَف بالأَفْعال الاختِيارية، كيف يُوصَف بالأفعال الاختِيارية؟! إذا قُلْنا: يُوصَف، قالوا: هذا يَقتَضِي أَحَدَ أَمْرين: إمَّا أن يَكون الله حادِثًا، وإمَّا أن يَكون ناقِصًا.

أَمَّا كونه يَستَلزِم أن يَكون الله حادِثًا فلأَنَّ الحَوادِث لا تَقوم إلَّا بحادِث، فإذا أَثبَتُّم أن الحَـوادِث تَقوم به لزِمَكم أن يَكون الله حادِثًا؛ لأن الحـوادِث لا تَقوم إلَّا بحادِث، هذه واحِدة.

أمَّا النَّقْص فنَقول: إذا كان هذا الفِعْل الذي فعَله الآنَ كمالًا فلماذا لم يَتَّصِف به من قَبلُ؟ إذا كان كَمالًا فلماذا يَحدُث بعد أن لم يَكُن؟ وإن لم يَكُن كمالًا فهو نَقْص يَجِب أن يُنزَّهَ الله عنه. وهذا لا شَكَّ أنه تَلْبيس. أمَّا الأوَّل فقولهم: إن الحَوادِث لا تقوم إلَّا بحادِث. نَقول: من أين أَتاكُم هذا؟ أَمِنْ جُيوبِكم، أم من آرائِكم الفاسِدة؟

مَن قال: إن الحَوادِث لا تَقوم إلَّا بحادِث؟ الحَوادِث تَحدُث قبل أن تَكون ونحن سابِقون عليها، فكذلك ما يُحدِثه الله عَزَّوَجَلَّ يُحدِثه وهو سابِق عليه، وسَبْقه أَزَليٌّ، فدَعْواكم هذه باطِلة تَحتاج إلى دَليل، ولا دَليلَ، بل الدليلُ على نَقْضها.

وأمَّا قولُكم: إن كان كمالًا فلماذا لم يَتَّصِف به من قبلُ؟ وإن لم يَكُن كَمالًا فهو نَقْص، فيَجِب نفيُه، نَقول: هذا أيضًا باطِل؛ لأننا نَقول: إن فِعْل الله الذي يُحدِثه هو

كَمال حال إحداثه، وليس كَمالًا حالَ عدَمه؛ لأن الله تعالى مُتَّصِف بالكَمال، ففي حال عدَمه لا يَكون كمالًا، وفي حال وُجوده يَكون هو الكَمال، وهذا واضِح، فِعْل الإنسان أحيانًا يَكون مُناسِبًا وفي محَلِّه، وأحيانًا يَكون غير مُناسِب وتَكون الحِكْمة ألَّا يَفعَله.

وبذلك نَعرِف أن الرُّجوع إلى العَقْل فيما يَتَعلَّق بالله باطِل وضَلال؛ لأن العَقْل قد يَزِلُّ وقد يَهِن، فالرُّجوع فيما يَتَعلَّق بالله عَزَّوَجَلَّ إلى الكِتاب والسُّنَّة، لا ثالِثَ لهما، اللَّهُمَّ إلَّا أن يُقال: إجماعُ السلَف أيضًا يُرجَع إليه، فيَكون مَصدَر التَّلقِّي في العَقيدة وفيما يَتعلَّق بذات الله عَزَّوَجَلَّ وبأسمائه وصِفاته ثلاثة: القُرآن، والسُّنَّة، وإجماع السَّلَف، لكننا نَقول: لا حاجةَ إلى قول إجماع السَّلَف؛ لأن إجماع السَّلَف لا يَكون إلَّا عن كِتاب أو سُنَّة.

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَةَ عَشْرَةَ: تَهديد هؤلاءِ المُشرِكين الذين كذَّبوا الرسول عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ لقوله: ﴿فَإِذَا جَآءَ أَمْرُ ٱللَّهِ قُضِىَ بِٱلْحَقِّ﴾ ووَجهُ التَّهديد أن عُلماء البلاغة يَقولون: إن (إذا) تُفيد وقوعَ الشَّرْط في المُستَقبَل، كما إذا قلت لك: إذا جاء زَيْدٌ فأكرِمْه. تَفهَم من هذا أن زَيْدًا سوف يَأتِي، لكنه بشَرْط أن يكون مُتأخِّرًا، بخِلاف (إنْ)، فإن (إنْ) شَـرْطية لكن للمُحتَمَل: إن جاء زَيْد فأكرِمْه. إذْ مَجيئُه ليس مُحقَّقًا، لكن: إذا جاء فأَكرِمه، يَكون المَجيءُ مُحقَّقًا، لكنه مَربوط بزمَن مُستقبَل. هذه ﴿فَإِذَا جَآءَ أَمْرُ ٱللَّهِ﴾ تُفيد أن أَمْر الله لا بُدَّ أن يَأتِيَ.

وأَمْر الله يَنقَسِم إلى قِسْمين: كَونيٍّ، وشَرعيٍّ؛ فقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تُؤَدُّوا۟ ٱلْأَمَـٰنَـٰتِ إِلَىٰٓ أَهْلِهَا﴾ [النساء:٥٨] شَرْعيٌّ، وليس كونيًّا؛ لأنه لو كان كونيًّا لكان كل الناس يُؤدُّون الأمانة إلى أهلها، إِذَنْ هو شَرعيٌّ؛ وقوله: ﴿إِذَا قَضَىٰٓ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ

لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾ كَونيٌّ، فصار الأَمْر الآنَ يكون كونيًّا ويَكون شرعيًّا.

الْفَائِدَةُ الثَّالِثَةَ عَشْرَةَ: أن ما قضَى الله تعالى من عِقاب أو عَذاب فإنه حَقٌّ؛ لقوله: ﴿قُضِىَ بِٱلْحَقِّ﴾ وعلى هذا يَنتَفِي بذلك أن يَكون الله تعالى ظالِمًا لمَن عاقَبه.

فإن قال قائِل: أَلَيْسَت العُقوبة تَنزِل بالأُمَّة وفيهم الصالِحون؟

فالجَوابُ: بلى، تَنزِل العُقوبة على الأُمَّة وفيهم الصالِحون؛ لكنها تَكون عُقوبة على المُسيء ورِفْعة درَجات وتَكفير سَيِّئات على الصالِح؛ ولهذا لَمَّا قالت إحدى أُمَّهات المُؤمِنين: أَنَهْلِكُ وَفينا الصالِحُونَ؟ قال: «**نَعَمْ، إِذَا كَثُرَ الخَبَثُ**»[(١)] فإذا غلَب الخَبَثُ على الطَّيِّب حلَّت العُقوبة على الجَميع.

الْفَائِدَةُ الرَّابِعَةَ عَشْرَةَ: أن المُبطِل خاسِر إذا نزَل به العَذاب؛ لقوله: ﴿وَخَسِرَ هُنَالِكَ ٱلْمُبْطِلُونَ﴾ وإذا كان المُبطِل خاسِرًا فالمُصلِح رابِح؛ ولهذا قال تعالى: ﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ ٱلْقُرَىٰ بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا مُصْلِحُونَ﴾ [هود:١١٧]؛ ولهذا إذا كان الأَهْل مُصلِحين فإن الله لا يُهلِك الأُمَّة، لكن إذا كانوا صالِحين فقَدْ تَهلِك الأُمَّة إذا كثُر الخَبَث، وهذه نُقطة قد لا يَتَفطَّن لها كثير من الطلَبة، انتِفاء الإِهْلاك إذا كان الأهل مُصلِحين ومُحاوِلين للإصلاح، أَمَّا إذا كانوا صالِحين فإنه قد يَقَع الإهلاك إذا كثُرَ الخَبَث، أمَّا مع الإصلاح ولو كثُرَ الخَبَث ما دامَتِ الأُمَّة تُحاوِل الإصلاح وتَسعَى به فإنها لن تَهلِك، وهذه نُقْطة -كما قُلت لكم- قد لا يَتَفطَّن لها كثير من الناس، نَسأَل الله أن يُصلِح أحوالَنا وأحوالَكُم.

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب الفتن، باب يأجوج ومأجوج، رقم (٧١٣٥)، ومسلم: كتاب الفتن، باب اقتراب الفتن، رقم (٢٨٨٠)، من حديث زينب بنت جحش رَضِيَالله عَنها.

فإن قال قائِل: قلنا: مِن عَدْل الله عَزَّوَجَلَّ أنه لا يُعذِّب العِباد إلَّا بعد أن أَرسَل إليهم الرُّسُل، في هذه الأيامِ هل هناك ضابِط للعُذْر بالجَهْل في الذين يَقَعون في الباطِل وعلى اعتِقادهم أن هذا صوابٌ؛ فهل يُعذَرون بجَهْلهم هذه الأيامِ؟

فالجوابُ: والله، قد يُعذَرون بجَهْلهم؛ لأن من العوامِّ مَن لا يَعرِف الحَقَّ إلَّا عن طريق ناس مُعيَّنِين، وهؤلاء الأناسُ المُعيَّنون مُنحَرِفون، فيُعذَرون، وربما أُناس في الغابات البَعيدة لا يَسمَعون إذاعاتٍ، ولا يَقرَؤُون صُحُفًا، ولا يَعرِفون شيئًا.

فإن قال قائِل: أَورَد بعض المُستَشْرِقين على قول الله تعالى: ﴿وَإِن مِّنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ﴾ [فاطر:٢٤] على أن هُناكَ فتَراتٍ بين الأنبياء.

فالجوابُ: لا، هذا غلَط؛ لأنه إذا جاء النَّذيرُ ليس مَعناه أن النَّذير يَبقَى نذيرًا ما دام حَيًّا فقَطْ، قد تَبقَى الرِّسالة، أليسَتْ رِسالةُ إسماعيلَ وإبراهيمَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ بقِيَت في العرَب إلى قُرْب بعثة الرُّسول عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ أوَّل ما دخَل الشِّرْك على العرَب من عَمرِو بنِ لُحَيٍّ فهو متأخِّر.

• • ● • •

الآيتان (٧٩، ٨٠)

❁ قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَنْعَٰمَ لِتَرْكَبُوا۟ مِنْهَا وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ﴿٧٩﴾ وَلَكُمْ فِيهَا مَنَٰفِعُ وَلِتَبْلُغُوا۟ عَلَيْهَا حَاجَةً فِى صُدُورِكُمْ وَعَلَيْهَا وَعَلَى ٱلْفُلْكِ تُحْمَلُونَ﴾ [غافر:٧٩-٨٠].

قال الله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَنْعَٰمَ﴾ قال المفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [قيل: الإِبِل خاصَّة هنا، والظاهِر: والبقر والغَنَم].

قوله: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَنْعَٰمَ﴾، ﴿جَعَلَ﴾؛ أي: سيَّرها مُسخَّرة لكم، والجَعْل هنا جَعْل كَونيٌّ؛ لأن الجَعْل المُضاف إلى الله عَزَّوَجَلَّ يكون كونًا ويكون قدَرًا، يَعنِي: يَكون جَعْلًا كونيًّا ويَكون جَعْلًا قدَريًّا شرعيًّا؛ ففي قوله تعالى: ﴿مَا جَعَلَ ٱللَّهُ مِنۢ بَحِيرَةٍ وَلَا سَآئِبَةٍ وَلَا وَصِيلَةٍ وَلَا حَامٍ﴾ [المائدة:١٠٣]، هذا الجَعْل شَرعيٌّ، وفي قوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَٰكُمْ أَكْثَرَ نَفِيرًا﴾ هذا جَعْل كونيٌّ. وفي قوله تعالى هنا: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَنْعَٰمَ﴾ جَعْل كَوْنيٌّ.

والأنعام جَمْع نَعَمٍ. قال المفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [قيل: الإِبِل خاصَّةً. والظاهِر والبَقَر والغَنَم]، بل والظاهِر ما هو أَعَمُّ من ذلك، وهو ما أَنعَم الله به علينا من الحَيوان الذي سخَّره لنا من إِبِل وبقَر وغَنَم وفِيَلة وغيرها، وكل شيء.

وقوله: ﴿لِتَرْكَبُوا۟ مِنْهَا وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ﴾ قسَّم الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ هذه الأَنْعام

إلى قِسْمين: قِسْم تُركَب، وقِسْم تُؤكَل ولا تُركَب. وعلى هذا تكون ﴿مِنْ﴾ في المَوْضِعين للتَّبْعيض، وعلامة (مِنَ) الَّتي للتبعيض أن يَحِلَّ محلَّها كلِمة (بَعْض)، فهُنا احذِفْ ﴿مِنْ﴾ وقُلْ: «لترْكَبوا بعضَها، وبعضَها تأكُلون» يَستَقيم الكَلام، فهذه عَلامة (مِنَ) التَّبْعيضية، أن يَحِلَّ محلَّها كلِمة (بعْض).

وقوله: ﴿مِنْهَا وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ﴾ هذا التَّقْسيمُ لا يَعنِي الانقِسامَ، بمَعنى أنه يُمكِن أن يُوجَد من الأنعام ما يُؤكَل وما يُركَب؛ مثل: الإِبِل؛ فإنها تُؤكَل وتُركَب.

وقوله: ﴿وَلَكُمْ فِيهَا مَنَافِعُ﴾ قال المفَسِّر رَحِمَهُ اللَّهُ: [مِن الدَّرِّ والنَّسْل والوبَر والصُّوف]، يَعنِي: والشَّعر، وغير ذلك من المَنافِع، كنَقْل البَضائِع وغيرها؛ ولهذا جاءَت كلِمة ﴿مَنَافِعُ﴾ جمْع (مَنْفَعة) بصِيغة مُنتَهى الجُموع، وصِيغة مُنتَهى الجُموع ما كانَت على وَزْن (مَفاعِل) أو (مَفاعِيل).

قوله: ﴿وَلِتَبْلُغُوا عَلَيْهَا حَاجَةً فِي صُدُورِكُمْ﴾ قال المفَسِّر رَحِمَهُ اللَّهُ: [هي حَمْل الأَثْقال إلى البِلاد] ﴿وَعَلَيْهَا وَعَلَى الْفُلْكِ تُحْمَلُونَ﴾.

قوله: ﴿وَلِتَبْلُغُوا عَلَيْهَا حَاجَةً فِي صُدُورِكُمْ﴾ فسَّرَها المفَسِّر رَحِمَهُ اللَّهُ بأنها حَمْل الأَثْقال، ولكن الذي يَظهَر أنها غيرُ ذلك، وأنها قوله تعالى: ﴿وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرِيحُونَ وَحِينَ تَسْرَحُونَ ۝٦ وَتَحْمِلُ أَثْقَالَكُمْ إِلَىٰ بَلَدٍ﴾ يَعنِي: ما يَكون في قَلْب الإنسان من محبَّة الفَخْر والخُيَلاء وغيرها، وإن كانت هذه الحاجاتُ قد تكون ممنوعةً كالفَخْر والخُيَلاء، لكن لا شَكَّ أن هذه حاجةٌ لكل إنسان، أنه يَجِد فرَحًا وسُرورًا إذا غَنِم كثيرًا من المَواشِي، من الإِبِل والبَقَر والغَنَم والظِّباء والأرانِب، وغيرها، يَجِد الإنسان لهذا طَعْمًا في نفسه، ويُمكِن أن يُقال أيضًا: ومن الحاجات في النَّفْس الاتِّجار

بها، فإن بعض الناس يَتَّجِر بهذه الأنعام، والله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ لم يَذكُر نوع الحاجة، فيَشمَل كل ما يَقَع في القَلْب من مِثْل هذه الأُمورِ.

وقوله: ﴿وَعَلَيْهَا وَعَلَى ٱلْفُلْكِ تُحْمَلُونَ﴾ قال المفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿وَعَلَيْهَا﴾ في البَرِّ، ﴿وَعَلَى ٱلْفُلْكِ﴾ السُّفُن في البَحْر: ﴿تُحْمَلُونَ﴾]. بيَّن الله عَزَّوَجَلَّ أن هذه الأَنعامَ نُحمَل عليها، وكذلك السُّفُن كما في قوله تعالى: ﴿وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلْفُلْكِ وَٱلْأَنْعَٰمِ مَا تَرْكَبُونَ ﴿١٢﴾ لِتَسْتَوُۥا عَلَىٰ ظُهُورِهِۦ ثُمَّ تَذْكُرُوا نِعْمَةَ رَبِّكُمْ إِذَا ٱسْتَوَيْتُمْ عَلَيْهِ وَتَقُولُوا سُبْحَٰنَ ٱلَّذِى سَخَّرَ لَنَا هَٰذَا وَمَا كُنَّا لَهُۥ مُقْرِنِينَ﴾ [الزخرف:١٢-١٤].

من فوائِدِ الآيتين الكريمتين:

الْفَائِدَةُ الأُولَى: بَيانُ نِعْمة الله عَزَّوَجَلَّ علَيْنا بهذه الأنعامِ؛ حيث جعلَها لنا مُسخَّرة مُذلَّلَة.

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَةُ: جَواز رُكوب الأنعام وأَكْلها، ومن المَعلوم أن هذا ليس على إطلاقه؛ فإن الذي يُركَب لا يُركَب على وَجْه يَشُقُّ عليه، لو أَراد إنسان أن يَركَب على بَهيمة وهي لا تُطيق أَكثَرَ من واحِد فأَردَف عليها، قلنا: هذا لا يَجوز؛ لما في ذلك من المَشقَّة. وكذلك أيضًا: ﴿وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ﴾، ليس على إطلاقه؛ إذ مِن هذه الأَنعامِ ما لا نَأكُله؛ مثل: الحُمُر؛ فإنها لا تُؤكَل، ولكنها تُحمَل عليها وتُركَب.

الْفَائِدَةُ الثَّالِثَةُ: أن الأصل جَواز كل ما يُنتَفَع به من وُجوه الانتِفاع في هذه الأَنعامِ ﴿وَلَكُمْ فِيهَا مَنَٰفِعُ﴾ وبِناءً على ذلك يَجوز أن يُركَب ما لا يُركَب عادة إذا لم يَشُقَّ عليه؛ لأن ذلك من المَنافِع، فلو كان مع الإنسان بقَرَة واحتاج إلى أن يَركَب عليها -لأن بعض الحَيوان الذي لم يَعتَد أن يُركَب يَشُقُّ عليه هذا، حتى وإن كان

يَستَطيع أن يَحمِله- قُلْنا له: اركَبْ؛ لأن هذه من المَنافِع، والله تعالى أَطلَق المَنافِع ما لم يَشُقَّ عليها، فإن شَقَّ عليها كان مَمنوعًا؛ لأن إيذاء الحَيوان مُحرَّم.

فإن قال قائِل: بعض الناس يَستَخدِمون هذه الأنعامَ في ما يُسمَّى بالسِّيرك أو الأَلْعاب البَهْلوانية، وما أَشبَه ذلك، مِمَّا يَكون فيه المُوسيقى وأَشياءُ أخرى، هل هَؤلاء الناس آثِمون؟

فالجوابُ: مِمَّا لا شَكَّ فيه أن استِعْمال هذه الحَيواناتِ فيما هو مُحرَّم قصدًا أو ذاتًا؛ هذا لا يَجوز، حتى لو رَكِب هذه الأنعامَ ليَصِل إلى بلَد يُفعَل فيه الفواحِش، أو يُلعَب فيه القِمار؛ كان هذا حَرامًا.

الْفَائِدَةُ الرَّابِعَةُ: جَواز ما يَقَع في قَلْب العبد من الفرَح والسرور بهذه الأنعامِ؛ بشَرْط ألَّا يُؤدِّيَ ذلك إلى الكِبرياء والخُيَلاء، فما دام هذا الفرَحُ في نِطاق الأَمْر المُباح فإن الإنسان لا يُلام عليه، بل هو مِمَّا جعَله الله له.

الْفَائِدَةُ الخَامِسَةُ: بَيان نِعْمة الله عَزَّوَجَلَّ بحَمْلنا على هذه الأَنعامِ وعلى الفُلْك؛ يَعنِي: أن الله سَخَّر لنا ما نَركَبه في الماء وما نَركَبه في البَرِّ. وهنا تَسخير ثالِث حدَث بعد نُزول القُرآن، وهو ما نُحمَل عليه في الجَوِّ، فيَكون الله عَزَّوَجَلَّ أَنعَم علَيْنا بمَراكِبَ جَوِّيَّة وبَحرية وبَرِّيَّة.

• • ۞ • •

الآية (٨١)

قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَيُرِيكُمْ ءَايَٰتِهِۦ فَأَيَّ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ تُنكِرُونَ﴾ [غافر:٨١].

﴿وَيُرِيكُمْ﴾؛ أي: يُظهِرها لكم حتَّى تَرَوْها، وعلى هذا فـ(يُرِي) من الرُّباعي لا من الثُّلاثيِّ؛ لأنها مِن (أَرَى) (يُرِي)؛ أي: أَظهَر الشيء حتَّى يَراه الإنسان. وقوله: ﴿ءَايَٰتِهِۦ﴾ جَمْع (آية)، والآية هي العَلامة على الشيء، كما قال تعالى: ﴿وَءَايَةٌ لَّهُمْ أَنَّا حَمَلْنَا ذُرِّيَّتَهُمْ فِي ٱلْفُلْكِ ٱلْمَشْحُونِ﴾ [يس:٤١]، قال تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَكُن لَّهُمْ ءَايَةً أَن يَعْلَمَهُۥ عُلَمَٰٓؤُاْ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾ [الشعراء:١٩٧]، أي: عَلامة. فما هي العَلامة؟ الآية عَلامة على ما يَختَصُّ بها من صِفة؛ فمثَلًا: إذا نزَل الغَيْث وأَنبَتَتِ الأرض فهو آية على رحمة الله عَزَّوَجَلَّ، إذا اهتَزَّتِ الأَرْض بأهلها، أو خُسِفت بأَهْلها فهو آية على سَخَط الله وعِقابه وعلى قُدْرته؛ حيث يُزلزِل هذه الأرضَ الكَبيرةَ العَظيمة فيَكون هذا آيةً على ما يَختَصُّ به.

فالآياتُ إِذَنْ آياتٌ على ما تَختَصُّ به من صِفة، لا نَقول: إنها كلها آية على شَيْءٍ واحِد، بل نَقول: منها ما يَكون آيةً على الرحمة، وآيةً على العِزَّة، وآيةً على الحِكْمة، وآيةً على القُدْرة، وهَلُمَّ جرًّا.

إذن: ﴿ءَايَٰتِ﴾ نَقول: جَمْع (آيَة) وهي العَلامة، وهذه الآياتُ لا تَدُلُّ كلُّها على شيء مُعيَّن، بل لكُلِّ آية ما يَختَصُّ بها.

﴿فَأَيَّ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ تُنكِرُونَ﴾ ﴿فَأَيَّ﴾ هنا استِفْهامية مَنصوبة على أنها مَفعول

مُقدَّم لقوله: ﴿تُنكِرُونَ﴾. وأَسأَلكم: لو كانَت الآية تُنكِرونها أو تُنكِرونه فهل نَنصِب (أيَّ) أو نَرفَعها؟

الجَوابُ: نَرفَعها، ويَجوز النَّصب؛ لأن هذا يَكون من باب الاشتِغال، وأَضرِب لكم مثَلًا من عِندي حتى لا نَتصَرَّف في كلام الله، لو قُلت: (زَيْدًا أَكرَمْت) هنا يَتعَيَّن النَّصْب على أنه مَفعول مُقدَّم، ولو قُلت: (زَيْدٌ أَكرَمْتُه) فهنا يَجوز الوَجْهان، والرَّفْع أَرجَح؛ لأنه الأصل، أمَّا النَّصْب فيَكـون على سبيل الاشتِغال، وعليه فإذا جاء مَعمولٌ مُقدَّم وعامِل مُؤخَّر لم يَستَوفِ عمَله فإنه يَجِب أن يَكون هذا المَعمولُ السابِق حَسبما يَقتَضِيه هذا العامِلُ.

قال المفَسِّر رَحِمَهُ اللَّهُ: [﴿فَأَيَّ ءَايَـٰتِ ٱللَّهِ﴾ الدالَّة على وَحْدانيَّته] يَعنِي: لو قال المفَسِّر: ما هو أَعَمُّ. لكان أَحسَنَ؛ لأنها ليسَـتْ آياتٍ دالَّةً على وَحْدانيَّة فقَطْ، بل على الوَحْدانية وعلى ما يَختَصُّ بتِلْك الآيةِ.

قال المفَسِّر رَحِمَهُ اللَّهُ: [﴿تُنكِرُونَ﴾ استِفْهام تَوْبيخ] يَعنِي: قوله: ﴿فَأَيَّ ءَايَـٰتِ ٱللَّهِ تُنكِرُونَ﴾ وهو أيضًا استِفْهام تَحَدٍّ، فهو جامِع بين التَّوْبيخ والتَّحدِّي، يَعنِي: هذه آياتٌ ظاهِرة لا يُمكِنكم أن تُنكِروها، قال رَحِمَهُ اللَّهُ: [وتَذكيرُ (أي) أَشهَر من تَأْنيثها]؛ لأَنَّه يُقال: (أَيَّة) ويُقال: (أي) وعلى كلام المفَسِّر يَكون التَّذكيـرُ أَشهَرَ من التَّأْنيـث ولو كان المُشارُ إليه مُؤنَّثًا؛ ولهذا قال: ﴿فَأَيَّ ءَايَـٰتِ ٱللَّهِ﴾، و﴿ءَايَـٰتِ﴾ مُؤنَّث، ولم يَقُل: (فأَيَّة آيات الله) لكن في غير القُرآن لو قيل: (فأَيَّة آيات الله) لكان هذا سائِغًا، إلَّا أنه مَرجوح.

من فوائد الآيةِ الكريمةِ:

الْفَائِدَةُ الأُولَى: نِعْمة الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى على عِباده بإِراءَتِهم الآياتِ الدالَّةَ عليه، ولو شاءَ الله لأَخفَى عنَّا ذلك، ووكَلَنا إلى ما في نُفوسِنا وفِطَرنا، ولكن مِن رَحْمته أنه يُظهِر الآياتِ حتى يَكون هذا عَوْنًا على ما في الفِطْرة من مَعرِفة آيات الله عَزَّوَجَلَّ.

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَةُ: جَواز تَحدِّي الإنسان بما يَعتَرِف به لولا الجَحْد؛ لقوله: ﴿فَأَيَّ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ تُنكِرُونَ﴾.

وهَلْ تَعرِف أن أحَدًا جَحَد الآياتِ مع تَيقُّنه بها؟

الجَوابُ: فِرعونُ وقومُه؛ فإنهم جَحَدوا بآيات الله مع أن أَنفُسهم مُستَيْقِنة بها.

• ● ۞ ● •

الآية (٨٢)

قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ كَانُوا أَكْثَرَ مِنْهُمْ وَأَشَدَّ قُوَّةً وَآثَارًا فِي الْأَرْضِ فَمَا أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ [غافر:٨٢].

ثُم قال: ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ كَانُوا أَكْثَرَ مِنْهُمْ وَأَشَدَّ قُوَّةً﴾ إلى آخِرِه.

قوله: ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ﴾ هذا الاستِفْهام يُحتَمَل أن يَكون للحَثِّ؛ وعليه فيَكون بمَعنَى الأَمْر؛ أي: سِيروا في الأرض، ويُؤيِّد هذا قولُ الله تعالى: ﴿قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ﴾. ويُحتَمَل أن يَكون للتَّوْبيخ؛ أي: تَوْبيخ هَؤلاءِ عن عدَم السَّيْر في الأرض.

والسَّيْر هنا يَشمَل السَّيْر بالقدَم، والسَّيْر بالقَلْب، أمَّا السَّيْر بالقَلْب فمَرجِعه إلى الأخبار الصادِقة؛ بحَيثُ يَقرَأ الإنسان عن الأُمَم السابِقة ولا شيءَ أصَحُّ من كِتاب الله عَزَّوَجَلَّ في الحَديث عن الأُمَم السابِقة؛ لقول الله تَبَارَكَ وَتَعَالَى: ﴿أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَؤُا الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَالَّذِينَ مِنْ بَعْدِهِمْ لَا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا اللَّهُ﴾ [إبراهيم:٩]، فلا شيءَ أصَحُّ في الأخبار مِمَّا جاء به الكِتاب العَزيز وصحَّت به السُّنَّة، نَقول: هذا سَيْر بالقَلْب. والسَّيْر بالقَدَم أن يَمشِيَ الإنسان ليَنظُر ما صنَع الله تعالى بالمُكذِّبين.

مِثال ذلك: أن يَسير الإنسان إلى دِيار ثَمودَ؛ ليَنظُر ماذا صنَعَ الله بهم، ولكن كما قال النَّبيُّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: «لَا يَجُوزُ أَنْ يَدْخُلَهَا إِلَّا وَهُوَ بَاكٍ»[1] خَوْفَ أَنْ يُصِيبَهُ مَا أَصَابَ هَؤُلَاءِ المُكَذِّبِينَ.

وأمَّا مَن ذهَب إليها للتَّنزُّه والفُرْجة فإن ذلِك لا يَجوز، كما يَصنَع كثير من الناس اليومَ، يَذهَبون إليها لا على سَبيل العِظة والاعتِبار، ولا يَدخُلونها وهم باكُونَ، بل على سبيل الاطِّلاع فقَطْ على آثار السابِقين، وعلى سبيل النُّزْهة، وهذا حَرام ولا يَحِلُّ.

فإن قال قائِل: مَن ذَهَب إلى دِيارِ ثَمود للعِبْرة ولكنه لم يَستَطِع أن يَبكِيَ فهل يَتَباكَى؟

فالجَوابُ: لا، وفي الحَديث: «فَإِنْ لَمْ تَكُونُوا بَاكِينَ فَلَا تَدْخُلُوهَا»، ورسول الله ﷺ لَمَّا مَرَّ بها قَنَّع رَأسَه يَعنِي: غطَّاه وخَفَضه وأَسرَع ناقتَه.

فإن قال قائِل: إِذَنْ نَقول: ابْكِ أو ارجِعْ.

فالجَوابُ: نعَمْ، نَقول: ابْكِ أو ارجِعْ، إمَّا أن تَبكِيَ وإمَّا أن تَرجِع، فإن لم تَبكِ وأنت مرَرْت بالبلَد فعَجِّل وقَنِّع رَأْسك، كما فعَل الرسول عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ.

فإن قال قائِل: إِذَنْ نَقول بعدَم جَواز مَن يُصوِّر هذه الصُّوَرَ ويُريها الناس يَنشُرها؟

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب المغازي، باب نزول النبي ﷺ الحِجر، رقم (٤٤١٩)، ومسلم: كتاب الزهد والرقائق، باب لا تدخلوا مساكن الذين ظلموا أنفسهم، رقم (٢٩٨٠)، من حديث ابن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.

فالجَوابُ: أي نعَم، الظاهِر أنه للمَنْع أَقرَبُ؛ وذلك لأنه إنَّما يُريهم إيَّاها لبَيان قُوَّة القَوْم، لا لِبَيان أن الله أَهلَكهم مع قُوَّتهم، هذا هو الظاهِر من هَؤلاء المُصوِّرين.

فإن قال قائِل: هل يَشمَل هذا كلَّ الآثار القَديمة أو التي عُذِّبت فَقَطْ؟

فالجَوابُ: نَحنُ قرَأْنا آية تَدُلُّ على المُراد ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ دَمَّرَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَلِلْكَافِرِينَ أَمْثَالُهَا﴾.

فإن قال قائِلٌ: بعض القَوْم السابِقين دمَّرهم الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى خارِجَ دِيارِهم، مثل الفَراعِنة، هل نَقول: لا نَدخُل آثارَهُم كدِيار ثَمودَ؟

فالجوابُ: لا، وعلى هذا نَقول: لنا أن نَدخُل المَكان الذي أُغرِق فيه فِرعونُ، ولنا أن نَدخُل مِصرَ أيضًا؛ لأنه لم يُهلَك فِرعونُ في مِصرَ.

وقوله: ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ﴾ إِعْراب الجُمْلتين أن نَقول: إن (لَمْ) حَرْف نَفيٍ وجَزْم وقَلْب، حرف نَفيٍ؛ لأَنَّها تَنفِي، وجَزْم لأنها تَجزِم، قَلْب لأنها تُحوِّل المُضارِع إلى الماضِي، والفاء في قوله: ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا﴾ عاطِفة لا شَكَّ، لكن: هل هي عاطِفة على مُقدَّر محذوف، أو عاطِفة على ما قَبلَها من الجُمَل؟

في ذلك قَوْلان:

القول الأوَّل: أنها عاطِفة على محَذوف مُقدَّر بعد الهَمْزة، ويُقدَّر بما يُناسِب المَقام، وعلى هذا فترَتِيبُها بعد الهَمْزة تَرتيب طَبيعيٌّ.

والثاني: أنها عاطِفة على الجُمْلة السابِقة، وبِناءً على ذلك تَكون الفاءُ هنا مُزَحْلَقة عن مَوضِعها؛ إذ إن مَوضِعها يَكون قبل الهَمْزة.

والقَوْلان مَعروفان لأَهْل العِلْم بالنَّحوِ، على التَّقدير الأَوَّل أنها عاطِفة على

مُقدَّر بعد الهَمْزة يَكون المَعنَى: أَغفَلوا فلَمْ يَسيروا في الأَرْض.

وقوله: ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ﴾ أي: على الأَرْض؛ لأن ﴿فِي﴾ للظَّرْفية، ولو جعَلنا ﴿فِي﴾ للظَّرْفية في هذا السِّياقِ لكان مَعنى الآية: أن يَدخُلوا في جوف الأَرْض، وهذا غير مُرادٍ قَطْعًا، فتكون ﴿فِي﴾ بمَعنَى (على)؛ كقوله تعالى: ﴿ءَأَمِنتُم مَّن فِي السَّمَاءِ﴾ [الملك:١٦] أي: مَن على السَّماء، وليس المُراد أن الله في جَوْف السماء؛ لأن ذلك مُستَحيل فقد وَسِع كُرسِيُّه السمَواتِ والأرضَ.

وقوله: ﴿فَيَنظُرُوا﴾ الفاء عاطِفة على ﴿يَسِيرُوا﴾ وعلى هذا يَكون المَعنى: أفلَمْ يَسيروا فلَمْ يَنظُروا. ويُحتَمَل أن تَكون مَنصوبة بعد فاء السببية؛ أيِ: انتَفَى سَيْرهم ﴿فَيَنظُرُوا﴾، كما تَقول: لم تَزُرْني فأُكْرِمَك... وما أَشبَه ذلك من الكلام.

وقوله: ﴿كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾ ﴿كَيْفَ﴾ هَذه اسمُ استِفْهام، وهي محَلُّ نَصْب خبَر ﴿كَانَ﴾ مُقدَّمًا، و﴿عَاقِبَةُ﴾ اسمُها. ﴿عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾، والعاقِبة ذكَرها الله تعالى في سورة القِتال في قوله: ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ دَمَّرَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ ۖ وَلِلْكَافِرِينَ أَمْثَالُهَا﴾ [محمد:١٠].

هذا هو فائِدة النَّظَر: أن هَؤلاء القَوْمَ المُكذِّبين كانوا أَشَدَّ من هَؤلاء قُوَّةً، ومع ذلِك دمَّرهمُ الله عَزَّوَجَلَّ ﴿كَانُوا أَكْثَرَ مِنْهُمْ﴾ أي: في العدَد. ﴿وَأَشَدَّ قُوَّةً﴾ أي: في الكيفية. فصاروا مُتمَيِّزين عنهُم في العدَد والكَيْفية.

﴿وَآثَارًا فِي الْأَرْضِ﴾ يَعنِي: من العُمران والقُصور وغيرها، ومع ذلك لم تَنفَعْهم هذه الكَثرةُ ولا هذه القُوَّةُ، قال المفَسِّر رَحِمَهُ اللَّهُ: [أي: المَصانِع والقُصور]، ﴿فَمَا أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ (ما) نافِية، و﴿أَغْنَىٰ﴾ فِعل ماضٍ ﴿مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ (ما) اسمُ مَوْصول فاعِل ﴿كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ صِلة المَوْصول، ويُحتَمَل أن

تَكون (ما) استِفْهامية والمَعنى: فما الذي أَغنَى عنهم ما كَسَبوا، والاستِفْهامية أَبلَغُ؛ لأنها تَتَضمَّن النَّفيَ مع التَّحدِّي؛ أي: أي شيء أَغنَى عنهم كَسْبهم حين دمَّرَهم الله؟

إن كانت نافِية فالمَعنَى: ما أَغنَى عنهم كَسْبهم شيئًا، وإن كانت استِفْهامية، فالتَّقدير: ما الذي أَغنَى عنهم ما كانوا يَكسِبون، ونظيرُ ذلك قوله تَبَارَكَ وَتَعَالَى: ﴿أَفَرَءَيْتَ إِن مَّتَّعْنَٰهُمْ سِنِينَ ﴿٢٠٥﴾ ثُمَّ جَآءَهُم مَّا كَانُوا۟ يُوعَدُونَ ﴿٢٠٦﴾ مَآ أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يُمَتَّعُونَ﴾ [الشعراء:٢٠٥-٢٠٧]؛ أي: أيُّ شيء أَغنَى عنهم، أو أن المَعنَى نَفيُ الإِغْناء.

من فوائد الآية الكريمة:

الْفَائِدَةُ الأُولَى: الحثُّ على النظَر في أحوال الأُمَم السابِقة، يُؤخَذ من قوله: ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ وَجهُ الدَّلالة أن الله وبَّخَهم على عدَم السَّيْر.

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَةُ: أن السَّيْر في الأرض بالقدَم إذا لم يَصحَبْه النظَر والاعتِبار فإنه لا يَنفَع؛ لقوله: ﴿يَسِيرُوا۟﴾ ﴿فَيَنظُرُوا۟﴾.

يَتفرَّع على هذا: ما يَفعَله كثير من الناس اليومَ من السَّيْر إلى ديار ثَمودَ؛ حيث يَسيرون بأَبْدانهم، لكن لا يَسيرون بقُلوبهم، ولا يَعتَبِرون، بل يَذهَبون إلى هُنالِك للاطِّلاع على مَآثِر القَوْم، بل على آثار القَوْم الدالَّة على قُوَّتهم، وهذا لا يَجوز، الواجِب على مَن سار إلى تِلك الدِّيارِ أن يَدخُلها وهو باكٍ؛ لقول النبيِّ -صلى الله عليه وعلى آله وسلم-: «فَإِنْ لَمْ تَكُونُوا بَاكِينَ فَلَا تَدْخُلُوهَا»[1] ولا يَنفَع التَّباكي؛ لقَوْله: «فَإِنْ لَمْ تَكُونُوا بَاكِينَ فَلَا تَدْخُلُوهَا»، ولم يَقُل: فتَباكَوْا.

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب المغازي، باب نزول النبي ﷺ الحِجر، رقم (٤٤١٩)، ومسلم: كتاب الزهد والرقائق، باب لا تدخلوا مساكن الذين ظلموا أنفسهم، رقم (٢٩٨٠)، من حديث ابن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.

إِذَنْ: مَن لم يُوطِّن نَفْسه على هذا الوصفِ الذي رخَّص فيه النبيُّ ﷺ للدُّخول في ديارِ ثَمودَ فإنه لا يَجوز أن يَدخُل، وغالِبُ الناس الذين يَذهَبون الآنَ إنَّما يَذهبون للفرجة والنُّزْهة فقَطْ، وهذا حرام.

الْفَائِدَةُ الثَّالِثَةُ: أن من الأُمَم مَن هو أَشَدُّ قُوَّةً وآثارًا ممَّا كانت عليه قُرَيْش؛ لقوله: ﴿كَانُوٓاْ أَكۡثَرَ مِنۡهُمۡ وَأَشَدَّ قُوَّةٗ وَءَاثَارٗا فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾.

الْفَائِدَةُ الرَّابِعَةُ: أن الله تعالى لا يُعجِزه قُوَّة العَدوِّ، ولا كَثرة العَدوِّ، فإن الله تعالى أَهلَكهم مع كَثْرتهم وقُوَّته، وهل الله عَزَّوَجَلَّ إذا أَراد إهلاكَهم يَكون إهلاكُهم مُمتَدًّا لُمدَّة من الزمَن حتى يَقضِيَ عليهم؟

الجَوابُ: لا، قال الله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ: ﴿إِنَّآ أَرۡسَلۡنَا عَلَيۡهِمۡ صَيۡحَةٗ وَٰحِدَةٗ فَكَانُواْ كَهَشِيمِ ٱلۡمُحۡتَظِرِ﴾ [القمر:٣١]، ﴿صَيۡحَةٗ وَٰحِدَةٗ فَكَانُواْ كَهَشِيمِ ٱلۡمُحۡتَظِرِ﴾ ﴿ٱلۡمُحۡتَظِرِ﴾ يَعنِي: الذي أَحاط أَرضَه بحظار، والحظار مُركَّب من أعواد خَفيفة أو من سعَف النَّخْل، وتَأكُله الشمس والهواء بسُرْعة.

الْفَائِدَةُ الخَامِسَةُ: أن قُوَّة الإنسان وكَثْرة عدَده لا تُغنِي عنه شيئًا من عَذاب الله؛ لقول الله تعالى: ﴿فَمَآ أَغۡنَىٰ عَنۡهُم مَّا كَانُواْ يَكۡسِبُونَ﴾.

• • ۞ • •

الآية (٨٣)

قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿فَلَمَّا جَآءَتۡهُمۡ رُسُلُهُم بِٱلۡبَيِّنَٰتِ فَرِحُواْ بِمَا عِندَهُم مِّنَ ٱلۡعِلۡمِ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسۡتَهۡزِءُونَ﴾ [غافر:٨٣].

ثم قال تعالى: ﴿فَلَمَّا جَآءَتۡهُمۡ رُسُلُهُم بِٱلۡبَيِّنَٰتِ﴾ هـذا الذي أَتى بعد ذِكْر تَدميرهم هو في الحقيقة عَوْد إلى شَرْح ما حصَل، فإن الله أَرسَل إليهم الرُّسُل بالبيِّنات الواضِحة، وأَنزَل الكُتُب، ولكن ﴿فَلَمَّا جَآءَتۡهُمۡ رُسُلُهُم بِٱلۡبَيِّنَٰتِ﴾ قال المفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [المُعجِزات الظاهِرات]، والصواب أن يَقول: الآيات البيِّنات. هو رَحِمَهُ ٱللَّهُ جعَلَ البيِّنات بمَعنَى: الظاهِرات، وهذا حَقٌّ، وجعَل البيِّنات صِفة لمَوصوف محَذوف تَقديرُه: المُعجِزات، وهذا فيه نظَرٌ، بل يُقدَّر: الآيات، وذلك لأن المُعجِزات لم تَرِد في الكِتاب والسُّنَّة محَلَّ الآيات أبدًا.

وأيضًا المُعجِزات تَكون من الرُّسُل وغير الرُّسُل، فالسحَرة مثَلًا تَأتِي لهم الشَّياطين بالمُعجِزات، لكن الآيات يَعنِي: العَلامات الدالَّة على صِدْقهم. هذه أَبلَغ؛ ولهذا إذا وجَدْتم في الكُتُب -وما أكثَرَ ما تَجِدون المُعجِزاتِ، أو مُعجِزات الأنبياء، أو ما أَشبَه ذلك- فاضرِبوا عنها صَفْحًا وقولوا بدَلها: الآيات. كما قال الله عَزَّوَجَلَّ: الآيات. والآياتُ -كما قُلْت- أَدَقُّ من كلِمة المُعجِزات؛ لأن المُعجِزاتِ يَدخُل فيها ما يَعجِز البشَر ممَّا تَصنَعه الشياطينُ مع السحَرة وغيرهم.

قال المفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿فَرِحُوا۟﴾ أي: الكُفَّار ﴿بِمَا عِندَهُم﴾ أي: الرُّسُل من العِلْم فرَح استِهْزاء وضَحِك مُنكِرين لها].

﴿فَلَمَّا جَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَرِحُوا۟﴾ الواو فاعِل فمَن الفارِحُ؟ يَقول رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [أي: الكُفَّار]، وهذا صَحيح فَرِحَ الكُفَّار ﴿بِمَا عِندَهُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ﴾.

وقوله: ﴿بِمَا عِندَهُم﴾ الضمير يَعود على الرُّسُل على حدِّ تَفسير المفَسِّر بما عند الرُّسُل من العِلْم؛أي: بما جاؤُوا به من البيِّنات، لكن هل هذا الفَرَحُ فرَحُ استِبْشار أو فرَحُ استِهْزاء؟ يَقول المفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: إنه فرَحُ استِهْزاء وضَحِك وسُخْرية؛ ولكِنْ هذا التَّفسيرُ إذا تَأَمَّلْته وجَدْتَه تَحريفًا وليس تَفسيرًا؛ لما فيه من البُعْد المَعَنويِّ واللَّفْظيِّ.

أَمَّا البُعْد اللَّفظيُّ فلأَنَّ فيه تَشتيتَ الضَّمائِر؛ لأن قوله: ﴿فَرِحُوا۟﴾ الواو للكُفَّار ﴿بِمَا عِندَهُم﴾ الهاء للرُّسُل، هذا تَشتيت للضَّمائِر، والهاء في قوله: ﴿بِمَا عِندَهُم﴾ إذا جعَلْنا الكلام نَسَقًا واحِدًا لا شَكَّ أنها تَعود على الكُفَّار؛ أي: بما عِند الكُفَّار من العِلْم.

وأَمَّا البُعْد المَعنويُّ؛ فِلأَن الفَرَح في الأصل استِبْشار، فإذا صرَفْناه عن مَعناه الظاهِر إلى أن يَكون فرَحَ استِهْزاء كان هذا إخراجًا للمَعنَى عمَّا يَدُلُّ عليه ظاهِر اللَّفْظ.

والحاصِلُ: أن هذا التَّفسيرَ الذي ذكَره المفَسِّر تَفسير ضَعيف جدًّا، بل هو تَحريف، والصَّواب أن المَعنَى: فَرِح الكُفَّار بما عِندهم؛ أي: بما عِند الكُفَّار من العِلْم، وقالوا: نحن أَعلَمُ بما يُصلِحنا وما يُصلِح دُنيانا ودِينَنا الذي نحن عليه، فأنتم أيها

الرُّسُل سحَرة مَجانينُ، كما قال تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ مَآ أَتَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا قَالُواْ سَاحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ﴾ [الذريات:٥٢]، وإذا كانوا يَعتَقِدون بقُلوبهم، أو يَقولون بأَلْسِنَتهم ما لا يَعتَقِدون من أن الرُّسُل سحَرة مَجانينُ فإنَّهم لا شَكَّ سيَجْعَلون ما عِندهم من العِلْم هو العِلْم الحَقيقيَّ فيَفرَحون به.

وعلى هذا فنَقول: الفرَح هنا فرَح بطَر واستِبْشار فيما يَظُنُّون أنهم على عِلْم أعلى من عِلْم الأنبياء عليهم الصلاة والسلام ﴿فَرِحُواْ بِمَا عِندَهُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ﴾، ويَعجَب الإنسان أحيانًا فيما يَذهَب إليه بعضُ العُلَماء من تَفسير الآياتِ أو الأحاديث، الآنَ لو قرَأْت هذه الآيةَ على إنسان عاميٍّ ﴿فَلَمَّا جَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَرِحُواْ بِمَا عِندَهُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ﴾ فعلى أيِّ شيء يَتنزَّل الضمير في قوله: ﴿بِمَا عِندَهُم﴾ عِند هذا العاميِّ؟

الجَوابُ: على الكُفَّار ﴿فَرِحُواْ بِمَا عِندَهُم﴾ والإنسان يَفرَح بما عِندَه لا بما عِند غَيْره.

قوله: ﴿وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ﴾ ﴿وَحَاقَ﴾ قال المفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [نزَلَ]، لكِنها -أَعنِي: ﴿حاق﴾- ليسَتْ كـ(نَزَل) من كُلِّ وَجْه؛ لأن (نزَل) تَكون بالخَيْر وبالشَّرِّ ﴿نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ ﴿١٩٣﴾ عَلَىٰ قَلْبِكَ﴾ هذا خير، لكن (حاقَ) لا تَأتِي إلَّا في الشَّرِّ، فلا يُقال: حاقَ به القُرآن، أو حاقَ عليه القُرآن. كما يقال: نزَلَ عليه. فـ(حاقَ) هنا بمَعنَى: (نزل)، لكنها لا تُستَعمَل إلَّا في نُزول الشَّرِّ، وهو شَرٌّ بالنِّسْبة لَمِن نزَل به، وقد يَكون خيرًا بالنِّسْبة لغيره.

﴿وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ﴾ ﴿مَّا﴾ فاعِل ﴿حاق﴾، و﴿كَانُواْ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ﴾ يَعنِي: فيما سبَق؛ أي: أنهم لَمَّا جاءَهُم بَأْس الله عَزَّوَجَلَّ ونزَل بهم حاقَ

بهم ما كانوا يَستَهزِئون به فيما سَبَق، حيث كانوا يَستَهْزِئون بالرُّسُل، وبما جاؤُوا به، وبالشَّرائِع، بل ربما يَستَهْزِئون بالله عَزَّوَجَلَّ.

انظُرْ إلى قول الله تعالى: ﴿قُلْ أَبِاللَّهِ وَءَايَٰتِهِۦ وَرَسُولِهِۦ كُنتُمْ تَسْتَهْزِءُونَ﴾ [التوبة:٦٥]، يَتبَيَّنْ لك أن الكُفَّار يَستَهْزِئون بالله، ويَستَهزِئون بآيات الله، ويَستَهزِئون بالرُّسُل.

وقوله: ﴿وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ﴾ [أي: العَذاب] أي: حاق بِهِمُ العَذاب الذين كانوا يَستَهزِئون به حين تَوعَّدَتْهم الرُّسُل به، فجعَلوا يَستَهزِئون: أين العَذابُ الذي تَقولون؟ أي: كانوا يَستَفهِمون استِهزاء.

من فوائدِ الآيةِ الكريمةِ:

الْفَائِدَةُ الأُولَى: إثبات حِكْمة الله ورَحْمته، وذلك أنه جعَل الآياتِ التي تَأتِي بها الرُّسُل آياتٍ بيِّناتٍ؛ حتَّى لا يَبقَى حُجَّة.

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَةُ: أن الكُفَّار يَفخَرون بما عِندهم من العِلْم، ولو كان باطِلًا؛ لقوله: ﴿فَرِحُوا۟ بِمَا عِندَهُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ﴾ وهذا الذي كان فيما سبَقَ مَوْجود الآنَ، فإن بعض أُولَئِك القومِ الذين آتاهم الله من عِلْم الدنيا ما آتاهم تَجِدهم يَفرَحون بها ويَقولون: هي خَيْر من عِلْم أُولَئِك الْمُوقِعِين على أَنفُسهم، ويَعنُون بهم عُلماء الشَّريعة.

الْفَائِدَةُ الثَّالِثَةُ: التَّحذير البالِغ من رَدِّ ما جاءَت به الرُّسُل؛ لقوله: ﴿وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ﴾.

الْفَائِدَةُ الرَّابِعَةُ: أن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ أَرسَل الرُّسُل بالآياتِ البيِّنات الدالَّة على صِدْقهم.

ويَتفرَّع على هذا فائِدتان أو أكثرُ، وهُما: رحمة الله بالعِباد، وحِكْمة الله تعالى في فِعْله:

أمَّا رحمة الله بالعِباد فلأن الله تعالى لو أَرسَل إليهم رُسُلًا بدون آيات؛ لكان في ذلك تَكليفٌ بما لا يُطاق؛ لأن الإنسان لا يُمكِن أن يُصدِّق برسول بدون آياتٍ تَدُلُّ على صِدْقه وإلَّا لأَمكَن كلَّ كاذِب أن يَقول: إنه رسولٌ.

وأمَّا الحِكْمة فظاهِرة أن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى لَمَّا أَرسَل الرُّسُل لم يَترُكْهم همَلًا، بل أَعطاهم ما على مِثْله يُؤمِن البَشَر كما أَخبَر بذلك نبيُّنا ﷺ أن الله ما بعَث رسولًا إلَّا آتاه ما يُؤمِن على مِثْله البَشَر، والذي أُوتِيَه الرسول عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ هو الوَحيُ القُرآن؛ ولهذا قال: «فَأَرْجُو أَنْ أَكُونَ أَكْثَرَهُمْ تَابِعًا يَوْمَ الْقِيَامَةِ»(١)؛ لأن القُرآن آية باقِية إلى يوم القِيامة، أو إلى أن يَأذَن الله تعالى بفَساد العالَم، أمَّا آيات الرُّسُل فغالِبُها تَنقَضِي في زمانهم، لكن آية الرَّسول باقِية.

الْفَائِدَةُ الخَامِسَةُ: أن آياتِ الرُّسُل بيِّنة لا تَحتَمِل الشَّكَّ؛ لقوله: ﴿بِٱلْبَيِّنَٰتِ﴾.

ويَتفرَّع على ذلك: أنه يَنبَغي للعالِمِ الذي يَنشُر شريعة الله عَزَّوَجَلَّ إذا نشَرها بين الناس أن يَكون نَشْره إيَّاها على وَجهٍ بيِّن لا اشتِباهَ فيه:

أوَّلًا: اقتِداءً بالرُّسُل. وثانيًا: ليَزداد المُخاطَب طُمأنينة؛ لأن الطُّمأنينة لها أثَرٌ في قَبول ما يُلقَى وفي القِيام به، فإن الإنسان إذا لم يُبيَّن له الحقُّ على وَجْه تَحصُل به الطُّمَأنينة تَجِده يَمشِي، أو يَأخُذ بالحقِّ وهو مُتردِّد، لكن إذا زِيد طُمَأْنينة انتَفَع بذَلِك.

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب الاعتصام، باب قول النبي ﷺ: «بعثت بجوامع الكلم»، رقم (٧٢٧٤)، ومسلم: كتاب الإيمان، باب وجوب الإيمان برسالة نبينا محمد ﷺ إلى جميع الناس، رقم (١٥٢)، من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

فإن قال قائِل: هل النَّبيُّ لا بُدَّ له من أَتْباع؟

فالجَوابُ: لا، قال الرسولُ ﷺ: «وَالنَّبِيُّ لَيْسَ مَعَهُ أَحَدٌ»[1].

مسألةٌ: عادَ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى أَمَدَّ لهم في العَذاب؛ لأنهم يَقولون: ﴿مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً﴾ ؟! فأَرسَل الله عليهم الرِّيح التي هي أَخَفُّ وأَلطَفُ ما يَكون، فأَهلَكَتْهم، قال: ﴿سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَٰنِيَةَ أَيَّامٍ حُسُومًا فَتَرَى ٱلْقَوْمَ فِيهَا صَرْعَىٰ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ﴾ [الحاقة:٧]، «فيها»: هذه المُدَّةِ قد يَكون بعضُهم هلَك في أَوَّل يَوْم، وبعضُهم في ثاني يوم، تبَعًا لما يَكون من المَلاجِئ أو غيره.

فإن قال قائِلٌ: هل هذا مُستَثنًى من العُقوبة؟

فالجَوابُ: لا؛ لأنه أَرسَل عليهم العُقوبة على هذا الشَّكلِ. ويُقال: إن هَذه وإن امتَدَّتْ فهي من حين ابتَدَأ العَذاب هلَك مَن هلَكَ.

فإن قال قائِلٌ: ما ورَد عن الأُمَم السابِقة مِمَّا ذكَره الله أنهم كانوا يَتَّخِذون من الجِبال بُيوتًا، هل يُقال: إن عِندهم آلاتٍ يَصنَعون بها هذه الأشياءَ؟

فالجَوابُ: يُحتَمَل أنها آلاتٌ، أو يُحتَمَل أنها لكَثْرتهم كل واحِد يُمسِك عمَلًا ويَقوم به، وتَعرِف أن الإنسان إذا اعتاد على عمَل مُعيَّن ولو كان شاقًّا صار سهلًا عليه.

• • ۞ • •

(١) أخرجه البخاري: كتاب الرقاق، باب يدخل الجنة سبعون ألفًا بغير حساب، رقم (٦٥٤١)، ومسلم: كتاب الإيمان، باب الدليل على دخول طوائف من المسلمين الجنة بغير حساب ولا عذاب، رقم (٢٢٠)، من حديث ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.

الآيتان (٨٤، ٨٥)

قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿فَلَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا قَالُوٓا ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَحْدَهُۥ وَكَفَرْنَا بِمَا كُنَّا بِهِۦ مُشْرِكِينَ ﴿٨٤﴾ فَلَمْ يَكُ يَنفَعُهُمْ إِيمَٰنُهُمْ لَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا ۖ سُنَّتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى قَدْ خَلَتْ فِى عِبَادِهِۦ ۖ وَخَسِرَ هُنَالِكَ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾ [غافر:٨٤-٨٥].

﴿فَلَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا﴾ قال المفسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [أي: شِدَّة عَذابنا]. ﴿رَأَوْا﴾ يَعنِي بأَبْصارهم، يَعنِي: رأَوْه رُؤية العَيْن، والبَأْس أشَدُّ العَذاب.

﴿قَالُوٓا ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَحْدَهُۥ﴾؛ أي: دون شُركائنا ودون ما كُنَّا نَعبُده، وهذا غاية الإِخْلاص، ثُم أَكَّدوا هذا بقولهم: ﴿وَكَفَرْنَا بِمَا كُنَّا بِهِۦ مُشْرِكِينَ﴾ ﴿بِمَا﴾ الباء حَرْف جَرٍّ مُتعَلِّقة بـ﴿وَكَفَرْنَا﴾، و﴿بِهِۦ﴾ يُحتَمَل أن تكون للسببية؛ أي: بما كُنَّا بسبَبه مُشرِكين، وأن تكون مُتعلِّقة بـ﴿مُشْرِكِينَ﴾ تَعلُّق الجارِّ بعامِله، المَعنى: أنهم لَمَّا رأَوْا عَذاب الله آمَنوا، ولكن هل يَنفَعُهم هذا الإيمانُ؟ لا، إن فِرعونَ لمَّا غرِق وأَدرَكه الغَرَق قال: ﴿ءَامَنتُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱلَّذِىٓ ءَامَنَتْ بِهِۦ بَنُوٓا إِسْرَٰٓءِيلَ﴾ [يونس:٩٠]، ولكن قيل له: ﴿ءَآلْـَٰٔنَ﴾ يَعنِي: أتُؤمِن الآنَ؟! ﴿وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنتَ مِنَ ٱلْمُفْسِدِينَ﴾، فلَمْ يَنفَعه إيمانُه، وقال الله تعالى: ﴿وَلَيْسَتِ ٱلتَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ حَتَّىٰٓ إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ ٱلْمَوْتُ قَالَ إِنِّى تُبْتُ ٱلْـَٰٔنَ﴾ [النساء:١٨]، هذا لا تَنفَعه التَّوْبة؛ لأنه رأَى وشاهَدَ، شاهَدَ ما كان غَيْبًا يَكفُر به، والإيمان عن مُشاهَدة لا يُفيد؛ لأن

كل إنسان يُؤمِن بما يُشاهِد، ولو كان أكفرَ الناس، وإنما الذي يُحمَد عليه الإنسان ويُنجِيه من عَذاب الله أن يُؤمِن بالغَيْب، كما قال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱلْغَيْبِ﴾.

ثم قال الله تعالى: ﴿فَلَمْ يَكُ يَنفَعُهُمْ إِيمَٰنُهُمْ لَمَّا رَأَوْا۟ بَأْسَنَا﴾ ﴿فَلَمْ يَكُ﴾ أَصلُها: (لَمْ يَكُن)، لكِن حُذِفت النون تخفيفًا، وقد جاء الحَذْف والإبقاء في آيَتَيْن من كِتاب الله، فقال تعالى في إبراهيم: ﴿وَلَمْ يَكُ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ [النحل:١٢٠]، وهذا الحَذْفُ تخفيف، وله شُروط مَعروفة في كتُب النَّحوِ.

﴿فَلَمْ يَكُ يَنفَعُهُمْ إِيمَٰنُهُمْ لَمَّا رَأَوْا۟ بَأْسَنَا﴾ إيمان هل تُعرِبونها على أنها اسمُ (يَكُن) مُؤخَّر، أو على أنها فاعِل (يَنفَع) واسمُها مُستَتِر؟

الجَوابُ: الثاني، والتَّقدير على هذا: فلم يَكُ إيمانُهم يَنفَعهم. أمَّا على الأوَّل فيكون (ينفع) ﴿فَلَمْ يَكُ يَنفَعُهُمْ إِيمَٰنُهُمْ﴾، فيكون اسمُها ضَميرَ الشَّأْن اسمَ ﴿يَكُ﴾ محذوف.

وقوله: ﴿لَمَّا رَأَوْا۟ بَأْسَنَا﴾ ﴿لَمَّا﴾ هنا ظَرْف بمَعنى: حِين، واعلَمْ أن (لمَّا) تَأتِي في اللُّغة العَرَبية على أَوجُه:

الأوَّلُ: أن تكون ظرفًا بمَعنَى (حين) كما في هذه الآيةِ، فإن مَعنَى ﴿فَلَمَّا رَأَوْا۟ بَأْسَنَا﴾ أي: حينَ رأَوْا بأْسنا. وتَأتِي جازِمة، مثل قوله تعالى: ﴿بَل لَّمَّا يَذُوقُوا۟ عَذَابِ﴾، وهي للنَّفْيِ أيضًا ﴿لَّمَّا يَذُوقُوا۟ عَذَابِ﴾ جازِمة ونافِية، لكن الفَرْق بينها وبين (لَمْ) أن ﴿لَّمَّا﴾ تُفيد قُرْب مَدخولها ﴿لَّمَّا يَذُوقُوا۟ عَذَابِ﴾، ولكن سيَذوقونه قريبًا، بخِلاف (لَمْ) فتَأتِي للنَّفْيِ المُطلَق، وتَأتِي (لمَّا) شَرْطية، كقوله تعالى: ﴿فَلَمَّا جَآءَهُم مَّا عَرَفُوا۟ كَفَرُوا۟ بِهِۦ﴾، وتَأتِي بمَعنَى: (إلَّا) كما في قوله تعالى: ﴿إِن كُلُّ نَفْسٍ لَّمَّا عَلَيْهَا حَافِظٌ﴾، وكذلك قوله: ﴿وَإِن كُلٌّ لَّمَّا جَمِيعٌ لَّدَيْنَا مُحْضَرُونَ﴾ فهَذه أَرْبعة مَعانٍ في (لمَّا).

قال تعالى: ﴿سُنَّتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى قَدْ خَلَتْ فِى عِبَادِهِۦ﴾ ﴿سُنَّتَ﴾ يقول المفسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [نَصبُه على المَصدَر بفِعْل مُقدَّر من لَفْظه] ﴿سُنَّتَ﴾ بمَعنَى: طَريقة؛ أي: هذه طَريقةُ الله، و﴿سُنَّتَ﴾ في مِثْل هذا التَّركيبِ يَجوز أن تَكون مَرفوعة؛ أي: «سُنَّة الله» على أنها خَبَر مُبتَدَأ مَحذوف؛ أي: هذه سُنَّة الله، ويَجوز أن تَكون مَنصوبة، والمَفسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ يَقول: إنها مَنصوبة على المَصدَر بفِعْل مُقدَّر من لَفْظه؛ أي: سَنَّ الله بهم سُنَّة الله، ويَجوز أن تَكون مَصدَرًا عامِله مَحذوف، لكنه مُقدَّر من الجُمْلة التي قَبلَه؛ لأن هذه العِبارةَ بمَعنَى ما قَبلَها تمامًا، يَعنِي: سُنَّة الله، بمَعنَى ما قبلَها وهي أَخْذُ المُكذِّبين بالعَذاب، فتَكون مَنصوبة بمَضمون الجُمْلة لا بفِعْل مُقدَّر، وما ذكَره المفسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ وَجهٌ لا شَكَّ، والمُهِمُّ أن السُّنَّة بمَعنَى: الطريقة، وطَريقة الله تعالى إِهلاكُ المُكذِّبين وتَعذيبهم، وأنَّهم لو آمَنوا بعد نُزول العَذاب لم يَنفَعْهم.

فإن قال قائِل: في رَسْم القُرآن هنا ﴿سُنَّتَ﴾ التاء فيها مَفتوحة والقاعِدة أنها مَربوطة؛ لأنها لُمفرَد.

فالجَوابُ: إن الرَّسْم العُثمانيَّ ليس على القَواعِد المَعروفة الآنَ، بل هو تَوْقيف، وقد اختَلَف العُلَماء رَحِمَهُمُ ٱللَّهُ: هل يَجِب أن يُرسَم القُرآن بالرَّسْم العُثمانيِّ أو لا يَجِب، أو يُفصَّل بين أن يُلقَّن التلاميذ الصِّغار أو الكِبار؟ على ثلاثة أَقوال:

القَوْل الأوَّل: إنه لا يَجوز أن يُرسَم القُرآن إلَّا بالرَّسْم العُثمانيِّ على كل حال، حتى وإن كُنتَ تُعلِّم الصِّبيان فعلى الرَّسْم العُثمانيِّ، فتكتُب: ﴿إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ كَانَتْ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ كِتَٰبًا مَّوْقُوتًا﴾ [النساء:١٠٣] تُكتَب: ﴿ٱلصَّلَوٰةَ﴾ بالواو، حتى وإن كُنتَ تُدرِّس صَبِيًّا اتِّباعًا للرَّسْم ﴿وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ﴾ فـ﴿ٱلزَّكَوٰةَ﴾ بالواو، و﴿ٱلصَّلَوٰةَ﴾ بالواو؛ لأن هذا هو الرَّسْم العُثمانيُّ.

وقال بعضُهم: بل لا يَجِب؛ لأن الرَّسْم العُثمانيَّ حين رُسِم المُصحَف صادَف أنه على هذا الوَجهِ، ولو كان الرَّسْم العُثمانيُّ على غير هذه القاعِدةِ لكُتِب بحَسب القاعِدة التي كانت في ذلك الوَقتِ، فالمَسأَلةُ ليسَت تَوفيقيةً، لكن صادَف أن الرَّسْم في ذلك الوَقْتِ على هذا الوَجهِ فرُسِم القُرآن عليه؛ وذلك لأن القُرآن لم يَنزِل مَكتوبًا حتى نَقول: لا بُدَّ أن يَكون كما كُتِب. بل نَزَل مَقروءًا، وقاعِدة الرَّسْم تَختَلِف من حينٍ لآخَر، وهذا القولُ له وَجهٌ قَويٌّ؛ لأنا نَعلَم عِلْم اليَقين أنه لو كانت قاعِدة الرَّسْم على غير هذا الوَجهِ في ذلك العَهْدِ؛ لكُتِب بمُقتَضى القاعِدة المَعروفة في ذلِكَ العَهْدِ.

والقول الثالِثُ: يَقول: إن كان القُرآن مَكتوبًا للصِّبيان للتَّعلُّم فاكْتُبْه على القاعِدة المَعروفة بينَهم، وإن كان للكِبار يَعنِي: يَكتُب الإنسان مُصحَفًا فلْيَكتُبْه على حَسب الرَّسْم العُثمانيِّ، وهذا فيه جَمْع بين القَوْلين؛ لأنك لو تَرسُم القُرآن للصَّبيِّ على حَسب الرَّسْم العُثمانيِّ لحَرَّفه؛ لأن القاعِدة التي بين يَدَيْه تُخالِف الرسم فيُحرِّفه، فيَقرَأ مثلًا: ﴿ٱلزَّكَوٰةَ﴾ الزَّكوت، و﴿ٱلصَّلَوٰةَ﴾ الصلوات، و﴿ٱلرِّبَوٰاْ﴾ الربو، وهَلُمَّ جرًّا.

فأنا أَميل إلى أنه لا بَأْس أن يُكتَب بمُقتَضى القاعِدة الحاضِرة بالنِّسْبة للمُتعَلِّم، لا شَكَّ في ذلك بالنِّسْبة لغيره في احتِمال، ولكن القَوْل بالمَنْع فيه نظَرٌ.

﴿ٱلَّتِى قَدْ خَلَتْ فِى عِبَادِهِۦ﴾ قال المفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [في الأُمَم أن لا يَنفَعهم الإيمانُ وقتَ نُزولِ العَذابِ]، هذه واحِدة، والثانية: أن يُعذِّب المُكذِّبين. فالسُّنَّة التي استَفَدْناها من هذه الآيةِ شَيْئان:

أوَّلًا: إهلاكُ المُكذِّبين، والثاني: أنه لا يَنفَعُهم إيمانهم إذا رأَوُا العَذابَ.

قوله: ﴿وَخَسِرَ هُنَالِكَ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾ ﴿وَخَسِرَ﴾ فسَّرَها المفسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ بمَعنَى: [تبيَّن خُسْرانهم لكُلِّ أحَدٍ، وهُم خاسِرون في كلِّ وَقْت قبلَ ذلك].

﴿وَخَسِرَ هُنَالِكَ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾ مَعلوم أن ﴿هُنَالِكَ﴾ ظَرْف مَكان، هذا هو الأصل، فهي اسْمُ إشارة إلى المَكان.

وقد تُستَعار إشارةً للزَّمان، فتَقول هُنالِك؛ أي: في ذلِكَ الوَقْتِ، ومِنه هذه الآيةُ انتبِه، الآنَ إذا قُلْت: فُلان هناك. هذا ظَرْف مَكان، وهذا هو الأصل، ولو قُلْت مثَلًا: قَدِم فُلان هُناك. تُشير إلى الوَقْت صارَت إشارةً للزَّمان، لكن هذا خِلاف الأَصْل، بَقِيَ علينا أن يُقال: خَسِرَ في ذلك الوَقتِ الكافِرون. أليسَ الكافِرون خاسِرين في كُلِّ وَقْت؟ بلى، لكن تَبيَّن خُسْرانهم وظهَر؛ لأنَّهم كانوا قبل أن يَنزِل عليهم العَذاب يَظُنُّون أنهم رابِحون؛ ولهذا فرِحوا بما عِندهم من العِلْم، لكن إذا نزَلَ بهم العَذابُ ظهَرَ لهم الخُسْران.

فإن قال قائِلٌ: الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ قال في الآيةِ الأُولى: ﴿وَخَسِرَ هُنَالِكَ ٱلْمُبْطِلُونَ﴾ [غافر:٧٨] وفي آخِرِ السُّورة قال: ﴿وَخَسِرَ هُنَالِكَ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾ فما فائِدةُ التَّغيير؟

فالجَوابُ: الفائِدةُ من هذا هو بَيان أن كُلَّ كافِر هو مُبطِل ليس معه حَقٌّ، وكل مُبطِل لا يَقول إلَّا الباطِل فهو كافِر يَعنِي: المُبطِل في كل أحواله فهو كافِر ليس معه شيء من الحَقِّ، والكافِر مُبطِل ليس معه شيء من الحَقِّ أيضًا، فاختِلاف التَّعبير لزِيادة المَعنَى، كما يَكون أيضًا في اختِلاف القِراءات أَحْيانًا، كقول الله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ: ﴿لَا تَدْخُلُوا۟ بُيُوتًا غَيْرَ بُيُوتِكُمْ حَتَّىٰ تَسْتَأْنِسُوا۟﴾، وفي قِراءة أُخرى: «تَسْتَأْذِنُوا»، ﴿إِن جَآءَكُمْ فَاسِقٌۢ بِنَبَإٍ فَتَبَيَّنُوٓا۟﴾، وفي قِراءةٍ: «فَتَثَبَّتُوا»، فتكون القِراءة هَذه مُفسِّرةً للقِراءة الثانية.

من فوائد الآيتين الكريمتين:

الْفَائِدَةُ الأُولَى: أن أُولَئِك القومَ المُكذِّبين للرُّسُل إذا رأَوُا العَذاب قالوا: آمَنَّا، والمِثال على ذلِك: فِرعونُ لَمَّا أَدركَه الغرَقُ قال: ﴿ءَامَنتُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱلَّذِىٓ ءَامَنَتْ بِهِۦ بَنُوٓاْ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾.

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَةُ: أن هَؤلاءِ الذين يُؤمِنون بعد أن نزَلَ بهِمُ العَذابُ لا يَستَفيدون من إيمانهم شيئًا؛ لقوله: ﴿فَلَمْ يَكُ يَنفَعُهُمْ إِيمَٰنُهُمْ لَمَّا رَأَوْاْ بَأْسَنَا﴾.

الْفَائِدَةُ الثَّالِثَةُ: أن سُنَّة الله عَزَّوَجَلَّ في العِباد واحِدة، فإنه لا يُحابِي أحَدًا لغِناه، أو لفَقْره، أو لغير ذلك، بل إن أكرَم الخَلْق عِند الله أَتقاهُم؛ لقوله: ﴿سُنَّتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى قَدْ خَلَتْ فِى عِبَادِهِۦ﴾.

الْفَائِدَةُ الرَّابِعَةُ: التَّحذير من تكذيب الرُّسُل، وأن مَن كذَّب الرُّسُل فإنه سيَناله ما نالَهُم من العَذاب سيَناله ما نالَهم؛ أي: ما نال الأُمَم السابِقة من العَذاب.

الْفَائِدَةُ الخَامِسَةُ: ظُهور الخُسْران لهَؤلاءِ المُكذِّبين قبلَ أن يَموتوا؛ لقوله: ﴿وَخَسِرَ هُنَالِكَ﴾؛ أي: حين جاءَهُم البَأْس تبيَّن لهم الخُسْران ﴿وَخَسِرَ هُنَالِكَ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾.

• ● ۞ ● •

فهرس الأحاديث والآثار

الحديث	الصفحة
«مَنْ يُرِدِ الله بِهِ خَيْرًا يُفَقِّهْهُ فِي الدِّينِ»	٩
«مَنْ سَلَكَ طَرِيقًا يَلْتَمِسُ فِيهِ عِلْمًا، سَهَّلَ الله لَهُ بِهِ طَرِيقًا إِلَى الجَنَّةِ»	١٠
«إِنَّ الله لَا يَقْبِضُ الْعِلْمَ انْتِزَاعًا مِنْ صُدُورِ الرِّجَالِ، وَلَكِنْ يَقْبِضُهُ بِمَوْتِ الْعُلَمَاءِ»	١١
«مِنْ حُسْنِ إِسْلَامِ المَرْءِ تَرْكُهُ مَا لَا يَعْنِيهِ»	١٥
«مَنْ يُـرِدِ الله بِهِ خَيْرًا يُفَقِّهْهُ فِي الدِّينِ»	١٦
«إِنَّ القُوَّةَ الرَّمْيُ»	٢١
«مَنْ قَالَ فِي الْقُرْآنِ بِرَأْيِهِ فَلْيَتَبَوَّأْ مَقْعَدَهُ مِنَ النَّارِ»	٢٦
«الْقُرْآنُ حُجَّةٌ لَكَ أَوْ عَلَيْكَ»	٢٨
«إذا اجتهد فأصاب...»	٣٣
«أَسْأَلُكَ بِكُلِّ اسْمٍ هُوَ لَكَ، سَمَّيْتَ بِهِ نَفْسَكَ، أَوْ أَنْزَلْتَهُ فِي كِتَابِكَ، أَوْ عَلَّمْتَهُ أَحَدًا مِنْ خَلْقِكَ، أَوِ اسْتَأْثَرْتَ بِهِ فِي عِلْمِ الْغَيْبِ عِنْدَكَ»	٣٦، ٤٩
«كُلُّ أَمْرٍ ذِي شَأْنٍ لَا يُبْدَأُ فِيهِ بِبِسْمِ الله فَهُوَ أَبْتَرُ»	٣٧
«إِنَّ للهِ تِسْعَةً وَتِسْعِينَ اسْمًا مَنْ أَحْصَاهَا دَخَلَ الجَنَّةَ»	٤٩
«إِنَّ الله تَجَاوَزَ عَنْ أُمَّتِي مَا حَدَّثَتْ بِهِ أَنْفُسُهَا»	٨١
«مَنْ عَمِلَ عَمَلًا لَيْسَ عَلَيْهِ أَمْرُنَا فَهُوَ رَدٌّ»	٥٣
«كَفَّارَةُ مَنِ اغْتَبْتَهُ أَنْ تَسْتَغْفِرَ لَهُ»	٥٥

«أن رجُلًا أَذنَب ذَنْبًا فتابَ، ثُم أَذنَب فتابَ، ثُم أَذنَب فتابَ، ثُم قال الله عَزَّوَجَلَّ: عَلِمَ عَبْدِي أنَّ لَهُ رَبًّا يَغفِرُ الذَّنبَ ويأْخُذُ بِهِ، قَدْ غفَرْتُ لِعَبْدِي فَلْيَعْمَلْ مَا شَاءَ»..... ٥٧
«اعْمَلُوا مَا شِئْتُمْ فَقَدْ غفَرْتُ لَكُمْ» ٥٨
«لَا تَنْقَطِعُ الهِجْرَةُ حَتَّى تَنْقَطِعَ التَّوْبَةُ، وَلَا تَنْقَطِعُ التَّوْبَةُ حَتَّى تَخْرُجَ الشَّمْسُ مِنْ مَغْرِبِهَا»........ ٥٩
«مَا مِنْكُمْ أَحَدٌ إِلَّا وَقَدْ كُتِبَ مَقْعَدُهُ مِنَ الجَنَّةِ وَمَقْعَدُهُ مِنَ النَّارِ» ٦١
«اعْمَلُوا فَكُلٌّ مُيَسَّرٌ لِمَا خُلِقَ لَهُ»........ ٦١
«لَا يَمُوتَنَّ أَحَدُكُمْ إِلَّا وَهُوَ يُحْسِنُ الظَّنَّ بِاللهِ» ٦٤
«إِنَّ الدُّنْيَا سِجْنُ المُؤْمِنِ وَجَنَّةُ الْكَافِرِ» ٧١
«إِنَّ الله لَيَرْضَى عَنِ الْعَبْدِ يَأْكُلُ الْأَكْلَةَ فَيَحْمَدُهُ عَلَيْهَا، وَيَشْرَبُ الشَّرْبَةَ فَيَحْمَدُهُ عَلَيْهَا» ٩٢
«اللَّهُمَّ بِعِلْمِكَ الْغَيْبَ، وَقُدْرَتِكَ عَلَى الخَلْقِ أَحْيِنِي إِذَا عَلِمْتَ الحَيَاةَ خَيْرًا لِي»....... ٩٥
«اللَّهُمَّ صَلِّ عَلَى مُحَمَّدٍ وَعَلَى آلِ مُحَمَّدٍ كَمَا صَلَّيْتَ عَلَى إِبْرَاهِيمَ وَعَلَى آلِ إِبْرَاهِيمَ» ٩٥
«فَأَنَّى يُسْتَجَابُ لِذَلِكَ» ٩٨
«رَغِمَ أَنْفُ امْرِئٍ ذُكِرْتُ عِنْدَهُ فَلَمْ يُصَلِّ عَلَيْكَ قُلْ: آمِينَ. فَقُلْتُ: آمِينَ» ١٠٢
«حَوْلَهَا نُدَنْدِنُ»........ ١١٤
«اعْمَلُوا فَكُلٌّ مُيَسَّرٌ لِمَا خُلِقَ لَهُ»........ ١١٤
«اللَّهُمَّ اغْفِرْ لِي ذَنْبِي كُلَّهُ، دِقَّهُ وَجِلَّهُ، عَلَانِيَتَهُ وَسِرَّهُ، وَأَوَّلَهُ وَآخِرَهُ» ١١٦
«أَخْبِرْنِي عَنِ الْإِيمَانِ؟ قَالَ: أَنْ تُؤْمِنَ بِاللهِ...» ١١٩
«أَلَيْسُوا يُحِلُّونَ مَا حَرَّمَ اللهُ؛ فَتُحِلُّونَهُ، وَيُحَرِّمُونَ مَا أَحَلَّ اللهُ فَتُحَرِّمُونَهُ؟» ١٢٩
«إِذَا رَأَيْتُمُ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ فَأُولَئِكَ الَّذِينَ سَمَّى اللهُ فَاحْذَرُوهُمْ» ١٣١

«أن على يَمينِ آدَمَ أَسْوِدةٌ وعلى يَسارِهِ أَسْوِدَةٌ، فإذا رَأى إلى اليَسارِ بَكَى»........... ١٣٣
«أَنْتُمْ أَعْلَمُ بِأُمُورِ دُنْيَاكُمْ» ١٣٧
«ثَلَاثَةٌ لَا يُكَلِّمُهُمُ الله، وَلَا يَنْظُرُ إِلَيْهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، وَلَا يُزَكِّيهِمْ، وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ» ... ١٣٨
«رَبَّنَا الله الَّذِي فِي السَّمَاءِ تَقَدَّسَ اسْمُكَ، أَمْرُكَ فِي السَّمَـاءِ وَالْأَرْضِ»............ ١٣٩
«سُبْحَانَ رَبِّيَ الْأَعْلَى»........................ ١٣٩
«اللَّهُمَّ اشْهَدْ» ١٣٩
«أَيْنَ الله؟» ١٤٠
«مَنْ تَرَكَ الصَّلَاةَ فَقَدْ كَفَرَ»........................ ١٤٩
«أَنَا أَغْنَى الشُّرَكَاءِ عَنِ الشِّرْكِ، مَنْ عَمِـلَ عَمَـلًا أَشْرَكَ فِيـهِ مَعِـي غَـيْرِي تَرَكْتُـهُ وَشِرْكَهُ»........................ ١٥٣، ٣١٨، ٣٣٣، ٤٠٧
«إِنَّ الله تَجَاوَزَ لِأُمَّتِي مَا حَدَّثَتْ بِهِ أَنْفُسَهَا مَا لَمْ تَعْمَلْ أَوْ تَتَكَلَّمْ» ١٥٤
«رَحِمَ الله امْرَأً كَفَّ الغِيبَةَ عَنْ نَفْسِهِ» ١٥٥
«عَلَى رِسْلِكُمَا، إِنَّهَا صَفِيَّةُ»........................ ١٥٥
«إِنَّ الله رَفِيقٌ يُحِبُّ الرِّفْقَ فِي الْأَمْرِ كُلِّهِ»........................ ١٥٦
«إِنَّ الله يُعْطِي بِالرِّفْقِ مَا لَا يُعْطِي عَلَى الْعُنْفِ»........................ ١٥٧
«سَبْعَةٌ يُظِلُّهُمُ الله فِي ظِلِّهِ يَوْمَ لَا ظِلَّ إِلَّا ظِلُّهُ: إِمَامٌ عَادِلٌ...»................ ١٦٧
«إِنَّ الله تَجَاوَزَ عَنْ أُمَّتِي مَا حَدَّثَتْ بِهِ أَنْفُسَهَا مَا لَمْ تَعْمَلْ أَوْ تَتَكَلَّمْ»............. ١٧١
«مَنْ مَاتَ وَعَلَيْهِ صِيَامٌ صَامَ عَنْهُ وَلِيُّهُ»........................ ١٧٢
«حُجِّي عَنْهَا»........................ ١٧٢
«إِذَا مَاتَ الْإِنْسَانُ انْقَطَعَ عَمَلُهُ إِلَّا مِنْ ثَلَاثٍ: إِلَّا مِنْ صَدَقَـةٍ جَارِيَةٍ، أَوْ عِلْمٍ يُنْتَفَعُ بِهِ، أَوْ وَلَدٍ صَالِحٍ يَدْعُـو لَهُ»........................ ١٧٣

«مَا مِنْ مَيِّتٍ يَمُوتُ إِلَّا نَدِمَ، إِنْ كَانَ مُحْسِنًا نَدِمَ أَلَّا يَكُونَ ازْدَادَ، وَإِنْ كَانَ مُسِيئًا نَدِمَ أَلَّا يَكُونَ اسْتَعْتَبَ» ١٧٣
«من جاء في الساعة الأُولى في يوم الجُمُعة» ١٧٨
«ثَلَاثَةٌ لَا يُكَلِّمُهُمُ الله، وَلَا يَنْظُرُ إِلَيْهِمْ، وَلَا يُزَكِّيهِمْ» ١٩٨
«حَدِّثُوا عَنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَلَا حَرَجَ» ٢٠٢
«لَا تَدْخُلُوا عَلَى هَؤُلَاءِ المُعَذَّبِينَ، إِلَّا وَأَنْتُمْ بَاكُونَ أَنْ يُصِيبَكُمْ مَا أَصَابَهُمْ، فَإِنْ لَمْ تَكُونُوا بَاكِينَ فَلَا تَدْخُلُوا عَلَيْهِمْ» ٢٠٦
«لَتَتَّبِعُنَّ سَنَنَ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ» ٢٠٧
«لَكَ مَا احْتَسَبْتَ» ٢٠٩
«مَا بَعَثَ الله نَبِيًّا إِلَّا آتَاهُ مِنَ الْآيَاتِ مَا عَلَى مِثْلِهِ يُؤْمِنُ الْبَشَرُ» .... ٢١١، ٢٢١
«الْكِبْرُ بَطَرُ الحَقِّ وَغَمْطُ النَّاسِ» ٢٣٧
«مَنْ نُوقِشَ الحِسَابَ عُذِّبَ» ٢٣٨
«تُنْكَحُ المَرْأَةُ لِأَرْبَعَةٍ» ٢٥٤
«يَا عِبَادِي إِنِّي حَرَّمْتُ الظُّلْمَ عَلَى نَفْسِي» ٢٦٧
«إِنِّي حَرَّمْتُ الظُّلْمَ عَلَى نَفْسِي» ٢٦٧
«فَلْيَستَعِذْ بالله ثُمَّ لْيَنْتَهِ» ٢٨٨
«مَا مِنْ رَسُولٍ بَعَثَهُ الله إِلَّا آتَاهُ مِنَ الْآيَاتِ مَا يُؤْمِنُ عَلَى مِثْلِهِ الْبَشَرُ» ٢٨٢
«أَلَا وَإِنَّ فِي الجَسَدِ مُضْغَةً، إِذَا صَلَحَتْ صَلَحَ الجَسَدُ كُلُّهُ، وَإِذَا فَسَدَتْ فَسَدَ الجَسَدُ كُلُّهُ أَلَا وَهِيَ القَلْبُ» ٢٨٩
«الْكِبْرُ بَطَرُ الحَقِّ، وَغَمْطُ النَّاسِ» ٢٨٩
«إِنَّ فِيكَ لَخُلُقَيْنِ يُحِبُّهُمَا الله: الحِلْمُ وَالْأَنَاةُ» ٢٩٥

«إنها صِفة الرَّحْمن، وأُحِبُّ أن أَقرَأَها» ٢٩٥
«أيُّ الرِّجال أحب إليك؟ قال: أَبُو بَكْرٍ» ٣٠٥
«سُبحانَ ربِّيَ الأَعْلى» ٣٠٥
«اللَّهُمَّ اشْهَدْ» ٣٠٥
«أَيْنَ الله؟» ٣٠٦
«فَأَبَوَاهُ يُهَوِّدَانِهِ أَوْ يُنَصِّرَانِهِ أَوْ يُمَجِّسَانِهِ» ٣١٠
«وَاللهِ مَا الفَقْرَ أَخْشَى عَلَيْكُمْ» ٣١٢
«يا أَهْل الجَنَّة، خُلودٌ ولا موتٌ ويا أهل النار خُلودٌ ولا موتُ» ٣١٣
«كُنْ فِي الدُّنْيَا كَأَنَّكَ غَرِيبٌ أَوْ عَابِرَ سَبِيلٍ» ٣١٤
«مَنْ عَمِلَ عَمَلًا لَيْسَ عَلَيْهِ أَمْرُنَا فَهُوَ رَدٌّ» ٣١٨
«إِنَّهُمَا لَيُعَذَّبَانِ وَمَا يُعَذَّبَانِ فِي كَبِيرٍ» ٣٤٧
«لا أَدرِي سمِعْت الناس يَقولون شَيْئًا فقُلْتُه، فيُضرَب بمِرْزَبَّة من حَديد فيَصيحُ صَيْحة يَسمَعها كُلُّ شَيءٍ إلَّا الثَّقَلين الإِنسَ والجِنَّ فإنهم لا يَسمَعونه، وكلُّ شيء يَسمَعُه» ٣٤٧
«أَنْتُمْ شُهَدَاءُ اللهِ فِي الْأَرْضِ» ٣٥٥
«اتَّقِ دَعْوَةَ المَظْلُومِ فَإِنَّهَا لَيْسَ بَيْنَهَا وَبَيْنَ اللهِ حِجَابٌ» .... ٣٦٣، ٣٦٥
«أَنْ تَجْعَلَ للهِ نِدًّا وَهُوَ خَلَقَكَ» ٣٧٢
«لَعْنَةُ اللهِ عَلَى الْيَهُودِ وَالنَّصَارَى اتَّخَذُوا قُبُورَ أَنْبِيَائِهِمْ مَسَاجِدَ» ٣٧٤
«اللَّهُمَّ الْعَنْ فُلَانًا وَفُلَانًا» ٣٧٤
«لَا تَسُبُّوا الْأَمْوَاتَ فَإِنَّهُمْ أَفْضَوْا إِلَى مَا قَدَّمُوا» ٣٧٥

«وَكَانَ النَّبِيُّ يُبْعَثُ إِلَى قَوْمِهِ خَاصَّةً» ٣٧٩
«قَدْ سَتَرْتُهَا عَلَيْكَ فِي الدُّنْيَا وَأَنَا أَغْفِرُهَا لَكَ الْيَوْمَ» ٣٨٤
«لَوْلَا أَنْ تُذْنِبُوا لَذَهَبَ اللهُ بِكُمْ وَجَاءَ بِقَوْمٍ يُذْنِبُونَ وَيَسْتَغْفِرُونَ اللهَ وَيَغْفِرُ لَهُمْ» ... ٣٨٥
«لَوْ كُنْتُ مُسَبِّحًا لَأَتْمَمْتُ» ٣٨٦
«صلَّى بنا رَسولُ الله صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَعَلَىآلِهِوَسَلَّمَ إِحْدى صَلاتَيِ العَشِيِّ» ٣٨٧
«أَلَا وَإِنَّ فِي الجَسَدِ مُضْغَةً إِذَا صَلَحَتْ صَلَحَ الجَسَدُ كُلُّهُ، وَإِذَا فَسَدَتْ فَسَدَ الجَسَدُ كُلُّهُ؛ أَلَا وَهِيَ الْقَلْبُ» ٣٩٤
«لَقَدْ عُذْتِ بِمَعَاذٍ الحَقِي بِأَهْلِكِ» ٣٩٦
«نبيٌّ مِن الأَنْبياءِ قَرَصَتْه نَمْلةٌ، فأَحرَق قَرْيَة النَّمْل كُلَّها، فأَوْحى الله إليه هَلَّا نَمْلة واحِدة، تَقرُصُك نَمْلة وتَروح إلى كل القَرْية فتُحرِقها بسبَبِ ذَنْب واحِدٍ» ٣٩٨
«إِنَّ مِنَ البَيَانِ لَسِحْرًا» ٤٠٠
«الحَمْدُ للهِ الَّذِي وَسِعَ سَمْعُهُ الْأَصْواتَ» ٤٠٢
«مَنِ اقْتَطَعَ شِبْرًا مِنَ الْأَرْضِ ظُلْمًا طَوَّقَهُ اللهُ بِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مِنْ سَبْعِ أَرَضِينَ» ٤٠٣
«الْإِحْسَانُ أَنْ تَعْبُدَ اللهَ كَأَنَّكَ تَرَاهُ فَإِنْ لَمْ تَكُنْ تَرَاهُ فَإِنَّهُ يَرَاكَ» ٤٠٧
«مَنْ عَمِلَ عَمَلًا لَيْسَ عَلَيْهِ أَمْرُنَا فَهُوَ رَدٌّ» ٤٠٧
«إِنَّ مَثَلَهَا كَمَثَلِ قَوْمٍ نَزَلُوا أَرْضًا، فَأَتَى كُلُّ وَاحِدٍ مِنْهُمْ بِعُودٍ فَجَمَعُوا حَطَبًا كَثِيرًا وَأَضْرَمُوا نَارًا كَبِيرَةً» ٤١٨
«لِيَعْزِمِ الْمَسْأَلَةَ وَلْيُعْظِمِ الرَّغْبَةَ، فَإِنَّ اللهَ لَا يَتَعَاظَمُ عَلَيْهِ شَيْءٌ أَعْطَاهُ» ٤١٨
«فَأَنَّى يُسْتَجَابُ لِذَلِكَ» ٤٢٠
«يَا آدَمُ أَخْرِجْ مِنْ ذُرِّيَّتِكَ بَعْثًا إِلَى النَّارِ. فَيُخْرِجُ مِنْ كُلِّ أَلْفٍ تِسْعَ مِئَةٍ وَتِسْعَةً وَتِسْعِينَ كُلُّهُمْ فِي النَّارِ» ٤٢٣

«أَحْيُوا مَا خَلَقْتُمْ» .... ٤٣١، ٤٤٠
«أَتَدْرِي أَيْنَ ذَهَبَتْ؟» ٤٣٨
«أَنَّ الشَّمْسَ تَسْجُدُ كُلَّ غُرُوبٍ عِنْدَ الْعَرْشِ، ثُمَّ بَعْدَ ذَلِكَ تَسْتَأْذِنُ رَبَّهَا فِي أَنْ تُشْرِقَ فَيَأْذَنَ لَـهَا» ٤٣٩
«أَلَا أَبعثُكَ على ما بعثَني عليه رسول الله ﷺ؟ أن لا تَدَعَ قَبْرًا مُشْرِفًا إِلَّا سَوَّيْتَهُ، ولا تِمثالًا إلَّا طَمَسْتَه» ٤٤٠
«إِلَّا رَقْمًا فِي ثَوْبٍ» ٤٤١
«كُلُّ أَمْرٍ ذِي بَالٍ لَا يُبْدَأُ بِبِاسْمِ الله فَهُوَ أَبْتَرُ» ٤٤٦
«لَيْسَ أَحَدٌ أَحَبَّ إِلَيْهِ الْمَدْحُ مِنَ الله» ٤٥١
«مَا مِنْ مَوْلُودٍ يُولَدُ إِلَّا عَلَى الفِطْرَةِ» ٤٦٠
«مَنْ أَحَبَّ أَنْ يُنْسَأَ لَهُ فِي أَثَرِهِ، وَيُبْسَطَ لَهُ فِي رِزْقِهِ، فَلْيَصِلْ رَحِمَهُ» ٤٦٧
«الدُّعَاءُ عِبَادَةٌ» ٤٨٨
«مَنْ سَرَّتْهُ حَسَنَتُهُ وَسَاءَتْهُ سَيِّئَتُهُ فَذَلِكَ الْمُؤْمِنُ» ٤٩٥
«إِنَّ للهِ تِسْعَةً وَتِسْعِينَ اسْمًا مَنْ أَحْصَاهَا دَخَلَ الْجَنَّةَ» .... ٤٩٩، ٥٠٠
«أَسْأَلُكَ بِكُلِّ اسْمٍ هُوَ لَكَ سَمَّيْتَ بِهِ نَفْسَكَ، أَوْ أَنْزَلْتَهُ فِي كِتَابِكَ، أَوْ عَلَّمْتَهُ أَحَدًا مِنْ خَلْقِكَ، أَوِ اسْتَأْثَرْتَ بِهِ فِي عِلْمِ الْغَيْبِ عِنْدَكَ» ٥٠٠
«يَبْلغ المرءُ بنيَّته ما لَا يَبْلغ بعَمَله» ٥٠٣
«لَوْ أَنَّ لِي مَالَ فُلَانٍ لَعَمِلْتُ فِيهِ عَمَلَ فُلَانٍ» ٥٠٣
«لَا يَدْخُلُ الْجَنَّةَ مَنْ فِي قَلْبِهِ مِثْقَالُ حَبَّةِ خَرْدَلٍ مِنْ كِبْرٍ» ٥٠٤
«إِنَّ اللهَ تَجَاوَزَ عَنْ أُمَّتِي مَا حَدَّثَتْ بِهِ أَنْفُسَهَا» ٥٠٨

«بَلْ أَنَا وَارَأْسَاهُ» ٥٠٩
«لَيْسَ مِنَّا مَنْ شَقَّ الجُيُوبَ، وَلَطَمَ الخُدُودَ، وَدَعَا بِدَعْوَى الجَاهِلِيَّةِ» ٥٠٩
«إِنَّ اللهَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ إِذَا أَحَبَّ شَخْصًا عَجَّلَ لَهُ بِالْعُقُوبَةِ فِي الدُّنْيَا» ٥١٤
«مَا أَمَرْتُكُمْ بِهِ فَأْتُوا مِنْهُ مَا اسْتَطَعْتُمْ، وَمَا نَهَيْتُكُمْ عَنْهُ فَاجْتَنِبُوهُ» ٥١٥
«إِنَّ اللهَ يَأْمُرُكَ أَنْ تُخْرِجَ مِنْ ذُرِّيَّتِكَ بَعْثًا إِلَى النَّارِ» ٥١٨
«إِنَّ اللهَ تَجَاوَزَ عَنْ أُمَّتِي مَا حَدَّثَتْ بِهِ أَنْفُسُهَا» ٥٢٠
«مَا مِنْ نَبِيٍّ بَعَثَهُ اللهُ إِلَّا كَانَ حَقًّا عَلَيْهِ أَنْ يُبَيِّنَ لِأُمَّتِهِ خَيْرَ مَا يَعْرِفُهُ وَيُحَذِّرُهُمْ شَرَّ مَا يَعْرِفُهُ» ٥٢٣
«وَكَانَ النَّبِيُّ يُبْعَثُ إِلَى قَوْمِهِ خَاصَّةً وَبُعِثْتُ إِلَى النَّاسِ عَامَّةً» ٥٢٣
«نَعَمْ، إِذَا كَثُرَ الخَبَثُ» ٥٣٢
«لَا يَجُوزُ أَنْ يَدْخُلَهَا إِلَّا وَهُوَ بَاكٍ» ٥٤٢
«فَإِنْ لَمْ تَكُونُوا بَاكِينَ فَلَا تَدْخُلُوهَا» .... ٥٤٢، ٥٤٥
«فَأَرْجُو أَنْ أَكُونَ أَكْثَرَهُمْ تَابِعًا يَوْمَ الْقِيَامَةِ» ٥٥١
«وَالنَّبِيُّ لَيْسَ مَعَهُ أَحَدٌ» ٥٥٢

فهرس الفوائد

الفائدة	الصفحة
الإنسان في طلَب العِلْم كالمُجاهِد في سبيل الله في إعداد العُدَّة	٧
مِنْ نِعْمَة الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى على العَبْد أن يُحبِّب إليه العِلْم	٩
الحِرْص على نَشْر العِلْم بالوَسائِل المُناسِبة	١٣
يَنبَغي لطالِب العِلْم أن يَحفَظ وَقْته عن الضَّياع	١٥
العُلوم التي يَحسُن لطالِب العِلْم البَدْء بها	١٧
القُرآن كُنوز عَظيمة، كُلَّما أَخَذْت آية وصِرْت تَتَأمَّلها انفتَح لك من العُلوم فيها ما لا يَعلَمه إلَّا الله	٢٠
إلى مَن يُرجَع في تَفسير القُرآن؟	٢٢
إن اختَلَفَتِ الحَقيقة اللُّغَوية والحَقيقة الشَّرْعية، رجَعْنا إلى الحَقيقة الشَّرْعية	٢٥
هل يَجوزُ لنا أن نُفسِّر القُرآن دون الرُّجوع إلى كلام العُلَماء؟	٢٦
التَّفسير بالرَّأْي مُحرَّم ومن كبائر الذُّنوب	٢٦
أهمِّيَّة التَّفسير	٢٧
المراد بكون المَغازِي، والسِّيَر، والتَّفْسير ليس لها سنَد	٢٩
التَّقليد لا يَجوز إلَّا عِند الضَّرورة وعِند العَجْز	٣٢
أحسَنُ شيء فيما أَرَى من التَّفاسير التي تَعتَني بالأثَر، تَفسير ابن كَثير	٣٢
إذا وجَدْنا كلِمة لم تُفسَّر بالقُرآن ولا بالسُّنَّة، ولا بأَقْوال الصَّحابة، نَرجِع إلى اللغة	٣٣

الذي يُفسِّر القُرآن برَأْيه لم يَجتَهد ٣٣
كل السُّوَر المُبتَدَأة بحروف الهِجاء مَكِّية إلَّا البقَرةَ وآلَ عِمران........ ٣٤
المَكِّيُّ ما نزَل قبل الهِجرة، وما نزَل بعدها فهو مدَنيٌّ........ ٣٤
البَسْملة: آية من كِتاب الله عَزَّوَجَلَّ مُستَقِلَّة ٣٤
أسماء الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ غيرُ محصورة بعدَد........ ٣٦
قال النَّحويُّون: «الله هو أَعرَف المَعارِف»........ ٣٧
أحكام البسملة ٣٧
الحروف المقطعة ليس لها مَعنًى ٣٩
عِزَّة الله تَنقَسِم إلى ثلاثة أقسام........ ٤١
القاعِدة المُتَّبَعة عندنا فيما إذا ورَد خِلاف بين النَّحويِّين أن نَتَّبع الأسهَل ٤٨
كيف نَجمَع بين القول بأنَّ أسماء الله تعالى لا تُحصى، وبين قول النبيِّ ﷺ: «إنَّ لله تِسْعَةً وَتِسْعِينَ اسْمًا»........ ٤٩
ما ذكَر الله أنه نزَّله يَنقَسِم إلى قِسْمين........ ٥١
لماذا وصفُ القُرآن الكريم بالكِتاب؟........ ٥١
الله جَلَّوَعَلَا يَذكُر من أسمائه ما يُناسب المَقام........ ٥٢
الأسباب التي تكون بها المَغفِرة........ ٥٣
التوبة الجارِية على مُقتَضى الشريعة هي ما جمَعَت خمسة أُمور ٥٣
الغالِب أن الصدَقة أَوْلى من بيت المال........ ٥٤
من اغتبته لا يَلزَم استِحْلاله بل يَكفِي أن تَستَغفِر له ٥٥
من يَكون عليه حقٌّ ماليٌّ لشخص، ثُم يَتوب الفاعِلُ، ويَذهَب إلى صاحِب الحَقِّ، ويَقول: خُذْ حقَّكَ. فيَأبى أن يَأخُذه، فماذا يَصنَع؟........ ٥٦

إن مات صاحب الحق هل يَلزَمه أن يُعطيَه الورَثة؟ ٥٦
الإنسان إذا تكرَّر منه الذَّنْب وهو يَستَغفِر يُغفَر له ٥٨
التوبة من ذَنْب مع الإصرار على ذَنْب آخَرَ ٥٩
الزِّنا يَشتَرِك فيه الفاعِل والمَفعول به ٦٠
ورَد في حَديث النَّبيِّ ﷺ أن الإنسان يَكتُب في بَطْن أُمِّه شَقِيٌّ أو سَعيد، فلماذا يعمل؟ ٦١
أقسام التوحيد ثلاثة: تَوْحيد الرُّبوبية، والأُلوهية، والأَسْماء والصِّفات ٦٢
وُجوب التَّحاكُم إلى شريعة الله ٦٣
الجَمْع بين الخَوْف والرجاء في السَّيْر إلى الله ٦٣
يَنبَغي لنا أن نَعرِف مَعايِب الكُفَّار وأقوالهم حتى يُمكِننا أن نُجادِلهم ٦٩
كلُّ كافِر في النار، لكن مَن لم تَبلُغه الدَّعوةُ فلا نَجزِم له بجَنَّة ولا نار ٧٢
مَسألة فِعْل ما يُكفِّر ٧٣
ليس في القُرآن ولا في السُّنَّة تَقسيم الدِّين إلى أَصْل وفَرْع ٧٣
الذين ذُكِروا من الأنبياء في القُرآن كلُّهُم رُسُل ٧٥
نُوح هو أوَّلُ الرُّسُل، ومَن زعَم أن إدريسَ قبل نُوحٍ فإنه خاطِئ ٧٨
الناس في الأسباب ثلاثة أقسام: طرَفان ووسَط ٧٩
من عَقيدة أهل السُّنَّة والجماعة: أن الله تعالى يَتكَلَّم بكلام مَسموع وبحَرْف ٨٣
هل يَكفُر مَن يَقول: إن القرآن مُحدَث؟ ٨٤
ليس هناك دَليل قَطعيٌّ يَطمَئِن الإنسان إليه بأن القُرآن كُتِب في اللَّوح المَحفوظ ٨٤
أخصّ رُبوبية تَكون للمَربوبين هي رُبوبية الرُّسُل، ولا سِيَّما أُولي العَزْم منهم ٨٥

العَرْش: هو أَكبَرُ المَخلوقات، وأعظَمُها، وأَوْسَعها، وأَشرَفُها فيما عدا المُكلَّفين ٨٧
الإقرار بالقَلْب واللِّسان وليس هو مُجرَّد التَّصديق فقط ٨٨
الصِّراط يُضيفه تعالى أحيانًا لنفسه وأَحيانًا للمُؤمِنين ٩٠
المَلائِكة مُكلَّفون ٩٣
معنى الوَسيلة وحُكْمها ٩٤
الوسائِل لا بُدَّ أن تَكون مَعلومة: إمَّا بالشَّرْع، وإمَّا بالحِسِّ ٩٤
سَبْعة أقسام من التَّوسُّل الجائِز.. ٩٥
الوَسائِل ليسَت هي الوَسائِطَ.. ٩٨
التوَسُّل بمَحبَّة الرسول ﷺ ٩٨
حُكْم التَّوسُّل إلى الله بمَحبَّة الصالِحين والعُلَماء.. ٩٩
حُكْم تخصيص العالِم بعَيْنه في التوسل بمحبته ٩٩
التَّوسُّل المَمنوع ٩٩
الضابِط في الفرق بين الوَسيلة الشِّرْكية والوَسيلة البِدْعية ١٠٠
شِرْك الطاعة وشِرْك الاتِّباع ١٠٠
أحسَنُ ما يُقال في حد الطاغوت.. ١٠
الإنسان مَأمور بالصلاة على النَّبيِّ ﷺ، إمَّا وجوبًا، وإمَّا استِحْبابًا ١٠٢
الذُّرِّيَّة الذين لم يَبلُغوا مَنازِل آبائهم أنَّهم يُرفَعون حتى يَكونوا في مَنازِل آبائِهم ١٠٩
يَنبَغي للإنسان في الدُّعاء أن يَحتَرِز من التَّعميم الذي قد يَتَناوَل مَن لا يَستَحِقُّ الدُّعاء.. ١٠٩
إذا خالَف الوَصْف الدعاء، هل يَكون اعتِداءً ١١٠

التَّرتيب الوُجودي في الأشياء ١١٠
الفعل المِثال هو: الذي أوَّله حَرْف عِلَّة، والناقِص: الذي آخِره حَرْف عِلَّة ١١١
ضَمير الفَصْل من حيثُ الإعرابُ لا مَحَلَّ له من الإعراب، أمَّا من حَيثُ المَعنَى فله ثَلاثُ فَوائِدُ ١١٣
مَقام الدُّعاء يَنبَغي فيه البَسْط لثلاثة أَسْباب ١١٥
النِّداء: هو الكَلام من بعيد، والمُناجاة الكَلام من قَريب ١١٨
﴿فَهَلْ إِلَىٰ خُرُوجٍ مِّن سَبِيلٍ﴾ في هذه الآيةِ إعرابٌ مُشكِل ١٢٤
(ذلك) اسم الإشارة بحَسب المُشار إليه، والكاف بحَسب المُخاطَب ١٢٥
لا يُمكِن لأحَد عاقِل -وأُريد بالعاقِل مَن سِوى المَجنون- أن يُنكِر أنَّ لهذا العالَمِ خالِقًا أبدًا ١٢٧
عُلوُّ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عُلوًّا مَعنويًّا، وهو عُلوُّ الصِّفة أَمْر مُجمَع عليه ١٣٠
عُلوُّ الذات هو مَحَلُّ الصِّراع بين أهل السُّنَّة والجماعة، وبين أهل التَّعطيل ١٣٠
إذا ورَدَت آيات مُتعارِضة، وأحاديثُ مُتعارِضةٌ، فلا تُورِدوها على أَنْفُسكم على أنَّها مُتعارِضة ١٣٢
هَل يجِب على الإنسانِ أنْ يُبلِّغ الناس أنه يَجِب عليهم أن يَبحَثوا؟ ١٣٥
حُكْم الله تعالى يَنقَسِم إلى قِسْمين: كَونيٍّ وشَرْعيٍّ ١٣٦
الحُكْم بالقوانين المُخالِفة للشريعة قد يَكون كُفْرًا، وقد يَكون ظُلْمًا، وقد يَكون فِسْقًا ١٣٦
أدِلَّة عُلوِّ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى الذاتيِّ خمسةُ أنواع: الكِتاب، والسُّنَّة، والإجماع، والعَقْل، والفِطْرة ١٣٩
آياتُ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى نَوْعان: آياتٌ كَوْنية وآياتٌ شَرْعية ١٤٣

ما تَتَغذَّى به الرُّوح أهمُّ ممَّا يَتَغذَّى به البدَن........................ ١٤٦
الإنابة إلى الله سبَب لكَثْرة الرِّزْق ١٤٧
مَنِ استَحَلَّ الحُكْم بغير ما أَنزَل الله فهو كافِر، سواء حكَمَ به أم لم يَحكُم.......... ١٤٨
اجعَلوا اعتِقادَكم وحُكْمكم على الشيء تابِعًا للنُّصوص، لا تَجعَلوا النُّصوص تابِعة ١٥٠
وجوب الإخلاص لله تعالى في الدُّعاء ١٥٢
لو أن الرجل حسَّن عِبادته لتعليم الناس، وأن يَتَّخِذوا منه أُسوة، فهذا لا يَدخُل في الرِّياء... ١٥٥
هل من الرِّياء أن يُظهِر الإنسان بعضَ ما عِنده لأَجْل أَلَّا يُذَمَّ؟ ١٥٥
التَّمنِّي هل يَدخُل في الرِّياء؟.. ١٥٦
هل يَجوز أن أذهَب إلى رجُل عاصٍ لأَدعُوَه؟........................ ١٥٦
يَجِب على الإنسان أن يَقوم بالواجِب ولو كرِهَ ذلك غيره، ولا يُحابِيَ أحَدًا في هذا
الفَرْق بين المُداراة والمُداهَنة.. ١٥٧
العُلَماء لهم حَظٌّ ونَصيب من الرُّوح التي يُلقيها الله تعالى على الرُّسُل.......... ١٦٤
الأدِلَّة المُثبِتة لِحكْمة الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى فيما يَفعَل لا تُحصَى ١٦٤
يَنبَغي لِمَن آتاه الله عِلْمًا أن يَكون مُنذِرًا.. ١٦٥
هل يُستَثنى من قوله: ﴿يَوْمَ هُم بَٰرِزُونَ﴾ أحَدٌ؟.................................... ١٦٧
(لا) نافِيَةَ الوحدة، ونافِية الوحدة تَعمَل عمَل (ليسَ) ١٦٩
إهداء القُرَب للغير.. ١٧١
كيف يَكون الحِساب يوم القيامة؟ ١٧٤

يَنبَغي لنا أن نَشعُر حين نَعمَل العمَل الصالِح أننا سوف نُجازَى عليه ١٧٥
الساعة تُطلَق على الزمَن القليل والكثير، إلَّا إذا فُصِّلت ١٧٨
الله تعالى قد يَجعَل الشِّفاء عَقِب دُعاء صاحِب القَبْر ابتِلاءً وامتِحانًا............ ١٩٠
ربَّما يَبتَلي الله الإنسانَ بوَظيفة، يَستَطيع أن يَسرِق فيها من بيت المال، إمَّا سرِقة حَقيقية وإمَّا سرِقة غير مُباشِرة.......................... ١٩١
الفَرْق بين الفعل اللازِم والمُتعدِّي.......................... ١٩٣
السَّميع صِفة ذاتٍ، لكن الذي يَحدُث المَسموع ١٩٣
هل هُناك أحَدٌ أَنكَر الأسماء؟.......................... ١٩٣
قاعِدة المُعتَزِلة إثباتُ الأسماء وإنكارُ الصِّفات التي دلَّتْ عليها هذه الأسماءُ ١٩٤
الله تعالى لم يَزَل ولا يَزال بصِفاته، ولا يُوجَد ذاتٌ بلا صِفاتٍ إطلاقًا............ ١٩٥
إذا كان الاسمُ مُتَعدِّيًا الأثَر أو الحُكْم، فمِثْل السَّميع، لا بُدَّ أن تُؤمِن بسَمْع يَتَعدَّى للغير.......................... ١٩٥
نظَر الرَّحمة هل هو نَفْس رحمة الله عَزَّوَجَلَّ؟ ١٩٨
نَفيُ الصِّفات يَنقَسِم إلى قِسْمين: نَفي جُحود، وهذا كُفْر، ونَفْي تَأويل ١٩٩
الكُتُب التي تَتَحدَّث عن الأسماء والصِّفات.......................... ١٩٩
ما حدَّثَت به بنو إسرائيل عمَّن سبَقَ؛ فهذا يَنقَسِم إلى ثلاثة أقسام ٢٠٢
السير في أرض المُكذِّبين، وبَيان ما أَحَلَّ الله بهم من النَّكال، إذا كان على سبيل العِبْرة فلا بأس به ٢٠٥
هل قُرَى قَوْم لُوط مِثل قُرى ثَمودَ وعادٍ في عدَم جَواز زِيارَتها؟ ٢٠٧
يَفوتنا كثيرًا الاحتِساب، فنُصَلِّي ونُريد أن نُؤدِّيَ الصلاة التي علَيْنا فقَطْ، لكن لا نَشعُر بأننا نَحتَسِب أَجْرها.......................... ٢٠٩

لا بُدَّ لكل نَبيٍّ من آية يُؤمِن على مِثْلها البَشَر ٢١٣
أنَّ الله تعالى ربَط المُسبَّبات بأسبابها.. ٢١٤
التِّسْع الآيات التي أُرسِل بها موسى ٢١٨
بعضُ عُلماء الجَرْح والتَّعديل إذا تَكلَّموا في رجُل يَقولون: هذا الرجُلُ كعصا مُوسى ٢١٨
مَن يَقول: فُلان يَملِك عصا موسى السِّحرية! ٢١٩
كيف يَكون فِعلًا واحِدًا صالِحًا للتَّعدِّي واللُّزوم؟................................ ٢١٩
الفَرْق بين الكَرامة وآية النَّبيِّ... ٢٢٣
الذي يَحمِي الدِّيار ويُدافِع عنها همُ الرِّجال، وأن المرأة ليسَت بذاك الذي يُدافِع عن البلَد ٢٢٩
أحكامُ التَّورِية.. ٢٤٦
شُؤم الكَذِب يَعودُ على الكاذِب ٢٤٦
نحن مُخاطَبون ومَأمورون أن نَنظُر إلى الحال الحاضِرِ الآنَ......................... ٢٥١
الظُّهور والغلَبة قد يَكونون سببًا للأَشَرِ والبطَر.................................... ٢٥٤
أهل الباطِل قد يَكون لدَيْهم زُخرُف من القَوْل غرور ٢٥٦
كل أحَدٍ يَعرِف أن الرُّشْد مَطلوب، وأن الغيَّ مَكروهٌ.............................. ٢٥٧
علامة البدَل أنه يَصِحُّ أن يَحِلَّ مَحَلَّ المُبدَل منه................................. ٢٥٩
أنَّ القُرآن إنها كُتِب بلُغة قُرَيْش ٢٦١
انتِفاء إرادة الظُّلْم عن الله عَزَّوَجَلَّ.. ٢٦٢
مِن قَواعِد الأَسماء والصِّفات أنه لا يُوجَد النَّفيُ المَحض في صِفات الله.......... ٢٦٦
يَجِب على الإنسان إذا أَراد أن يَسأَل الهِداية أن لا يَسأَلها إلَّا من الله............. ٢٧٤

يَنبَغي للإنسان أن يَكون لدَيْه عِلْم بما سبَقَ؛ فإن التاريخ عِبَر ٢٨١
أَعظَم رَسولٍ أُرسِل إلى آل فِرعونَ -بعدَ مُوسى- هو يُوسُف ٢٨١
الإيمان بوُجود الله لا يَكفِي في التَّوْحيد والخَلاص من عَذاب الله ٢٨٢
الإنسان يَترفَّع، وهو نوعان: تَكبُّر على الخَلْق، وتَكبُّر عن الحَقِّ ٢٨٩
العُلَماء المُحقِّقون يَقرَؤُون كتُب المَناطِقة والفلاسِفة وغيرها؛ ثُم يَرُدُّون عليهم، وهذا إنما يَكون لمن رَسَخت قدَمُه في العِلم ٢٩١
كل ما وصَف الله به نفسه فهو على حقيقته ٢٩١
دِقَّة عِبارة شيخ الإسلام ابن تَيميَّة رَحِمَهُ اللَّهُ في العَقيدة الواسِطية قال: من غير تَحريف ولا تَعطيل ٢٩٢
إثبات العِنْدية لله، عِند الله، وهي نوعان: عِنْدية وَصْف، وعِنْدية قُرْب ٢٩٣
الرَّدُّ على مَن قال: الكَمال أن تَتَّصِف بصِفات الكامِل ٢٩٤
الأخلاقُ كَسْبيٌّ وغَريزيٌّ، ولا يُمكِن أن نُسمِّيَ أوصاف الله تعالى أخلاقًا له ٢٩٥
هل كُلُّ مَن وُصِف بهذا الوَصفِ التَّكبُّر مَطبوع عليه؟ ٢٩٨
لا يَنبَغي للإنسان أن يَقرَأ بين العامَّة بقِراءة تُخالِف ما في أيديهم من المَصاحِف ٣٠١
جواز نِسبة الشيء إلى الآمِر به دون فاعِله ٣٠٥
كل نَصٍّ في القُرآن والسُّنَّة لم يَأتِ عن الصحابة خِلافُه، فإننا نَعلَم عِلْم اليَقين أنهم يَقولون به ٣٠٦
الإنسان قد يُزيَّن له سوء العمَل، والتَّزيين نَوْعان ٣٠٨
ضَمير الفَصْل ضَمير لا مَحَلَّ له من الإعراب، وله ثلاثَ فَوائِدَ ٣٠٩
العمَل الصالِح ما تَوافَرت فيه شُروط القَبول ٣١٧

الذُّكور والإناث مشتَرِكون في الثواب والعِقاب ٣٢١
أسماء الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى تنقَسِم إلى قِسْمين ٣٢٥
هل يُكتَب القُرآن حَسب القَواعِد وفي كل وَقْت بحَسبه، أو على الرسم العُثمانيِّ؟ . ٣٢٩
هل الحَديثُ القُدسيُّ هو كلام الله بلَفْظه أو مَعناه؟ ٣٣٥
ما يَنقُله الله عَزَّوَجَلَّ عن الأُمَم السابِقة هل هو بالمَعنَى أو باللَّفْظ؟ ٣٣٥
الفَرْق بين الحَديث النَّبويِّ والقُدسيِّ ٣٣٦
الفَرْق بين دَعْوة المَسأَلة ودَعْوة العِبادة ٣٣٧
استِعْمال التَّعْريض ٣٣٨
الإِظْهار في مَوضِع الإضمار من أساليب اللُّغة العرَبية، وله فَوائِدُ ٣٣٨
عَذاب القَبْر ثابِت بالقُرآن والسُّنَّة والإِجْماع ٣٤٦
هل العَذاب يَكون على البدَن أو على الرُّوح، أو عليهما جميعًا؟ ٣٤٧
هل يَجوز تَعزِية المُسلِمين للكُفَّار؟ ٣٥٠
هل يُطلَب الحديث دَليلًا على إثبات مَسأَلة لُغوِيَّة؟ ٣٦٠
لا تُقبَل دعوة الكافِر أبَدًا إلَّا في حالَيْن ٣٦٢
أين النَّصْر في الحياة الدنيا لَمن قُتِل من الأنبياء؟ ٣٦٨
هل يَجوز أن نَلعَن الكافِرين؟ ٣٧٤
هل يَجوز أن أَدعُوَ الله للكافر بالهِداية؟ ٣٧٥
كل مَن لم يَتذكَّر بآيات الله فإنه ليس ذا عَقْل ٣٨٠
هناك فَرْق بين العَقْل والذَّكاء ٣٨٠
الصَّبْر ثلاثة أنواع: صَبْر على طاعة الله، وصَبْر عن مَعْصية الله، وصَبْر على أقدار الله المُؤلِمة ٣٨٧

جَوازُ الذُّنوب على الأنبياء عليهم الصلاة والسلام ٣٨٩
إذا تكبَّر القلب تكبَّر البَدَن، وإذا ذُلَّ القلب لله ذُلَّ البَدَن ٣٩٤
الرسول يَختلِف مع غيره في مَسألَتَيْن ٣٩٨
أَرْبعة أمور تَجعَل من الباطِل مَنارًا يَعلو ظاهِرًا على الحقِّ، وأمَّا الحَقُّ نَفْسه فلا يُمكِن إطلاقًا أن يَغلِبه الباطِلُ ٤٠٠
الكِبْر سبَب لكُلِّ شَرٍّ ٤٠٠
إدراك المَسموع فيَرِد لَمعانٍ مُتعدِّدة ٤٠١
العمَل الصالِح ما اجتَمَع فيه أَمْران ٤٠٧
ضَرْب الأَمْثال، وهو إلحاق المَعقول بالمَحْسوس ٤٠٨
نَفيُ المُساواة بين الأمور المُختَلِفة وهذا من قَواعِد الشريعة ٤٠٨
إبطال الكلِمة المَشهورة، وهي أن الإنسان إذا مات قالوا: عاد إلى مَثواهُ الأَخيرِ.... ٤١٢
إثباتُ القَوْل لله عَزَّوَجَلَّ ٤١٥
لا بُدَّ أن تَشعُر حين الدُّعاء أنك في غاية الضَّرورة إلى الله عَزَّوَجَلَّ ٤١٨
من الآداب التي فَقْدُها سببٌ لَمْنع الإجابة ٤١٨
من مَوانِع القَبول ٤١٩
الشُّكْر هو الاعتِراف للمُنعِم بالنِّعمة بالقَلْب واللِّسان والجَوارِح ٤٢٣
التَّحذير من قِياس الأحكام الشرعية بأعمال العِباد ٤٢٦
الذُّنوب تَحول بين الإنسان وبين رُؤْية الحَقِّ ٤٢٦
أحكامُ التصوير ٤٤٠
التصوير الفُوتوغرافي ٤٤١

الرِّزق يَنقَسِم إلى قِسْمين: رِزْق عامٍّ، ورِزْق خاصٍّ ٤٤٤
رُبوبية الله عَزَّوَجَلَّ مَبنيَّة على الرحمة ٤٤٥
رُبوبية العامة؛ لقوله: ﴿رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾، وهناك رُبوبية خاصَّة، ورُبوبية أخصُّ ٤٤٦
النَّهيُ: طلَب الكفِّ على وجهِ الاستِعْلاء بصيغة المُضارِع المَقرون بـ(لا) الناهِيَةِ ... ٤٥٥
(لمَّا) تَأتِي في اللُّغة العرَبية على أربعة أَوْجهٍ ٤٥٧
الإسلام يَأتِي على وَجْهين أو له مَعنيَان: المعنى الأَوَّل: الإسلام الكَونيُّ، والثاني: الإسلام الشرعيُّ ٤٥٨
التَّخلِية قبلَ التَّحلِية ٤٦٠
قَسَّم الله تعالى الناس بعد خُروجهم أطفالًا إلى أقسام ٤٦٦
أحكام الله تعالى مُعلَّلة بحِكْمة ٤٦٨
الخِطاب الذي ظاهِره أنه مُوجَّه إلى الرسول عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ يَنقَسِم إلى ثلاثة أقسامٍ ٤٧٧
يَنبَغي للإِنْسان أن يَكون دائِمًا على خَوْف وأن يَسأَل الله الثَّبات دائِمًا ٤٨٥
دُعاء المَسأَلة عِبادة باللَّازِم ٤٨٨
الناس انقَسَموا في أَفْعال العِباد إلى طرَفَيْن ووسط ٤٩١
إذا رأَيْت العُلَماء مُختَلِفين على طرَفَيْن ووسَط، فاعلَمْ أن الطَّرَفين كل واحد مِنهما أَخَذ بجانِب من الأدِلَّة وترَك جانِبًا آخَرَ ٤٩١
اسمُ الإشارة بحَسب المُشار إليه وكاف الخِطاب بحَسب المُخاطَب قد يَتَّفِقان وقد يختَلِفان ٤٩٢
الناس اختَلَفوا في الأَسباب على ثلاثة أقوال: طرَفان ووسَط ٤٩٤

الفرَح بالحقِّ محمود، والفَرَح بغير الحقِّ مَذموم، والفرَح بما ليس حَقًّا ولا باطِلًا ليس محمودًا ولا مَذمومًا ٤٩٤
صرَّح في القُرآن الكريم بأن أَهْل النار خالِدين فيها أبدًا في ثلاثة مَواضِعَ ٥٠١
الصَّبْر يَنقَسِم إلى ثلاثة أقسام ٥٠٦
هل قول الله عَزَّوَجَلَّ قول مَسموع بصَوْت؟ ٥١٨
الآياتُ أدَقُّ من كلِمة المُعجِزات ٥٤٧
السَّيْر في الأرض بالقدَم إذا لم يَصحَبْه النظَر والاعتِبار فإنه لا يَنفَع ٥٤٥
يَنبَغي للعالِم الذي يَنشُر شريعة الله عَزَّوَجَلَّ إذا نشَرَها بين الناس أن يَكون نَشْره إيَّاها على وَجهٍ بَيِّن لا اشتِباهَ فيه ٥٥١

فهرس آيات السورة

الآية	الصفحة

تقديم ٥

مقدمة ٧

سورة غافر ٣٤

" قَالَ الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿حمٓ ۝١ تَنزِيلُ ٱلۡكِتَٰبِ مِنَ ٱللَّهِ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡعَلِيمِ ۝٢ غَافِرِ ٱلذَّنۢبِ وَقَابِلِ ٱلتَّوۡبِ شَدِيدِ ٱلۡعِقَابِ ذِي ٱلطَّوۡلِۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۖ إِلَيۡهِ ٱلۡمَصِيرُ ۝٣﴾ ٣٩

" قَالَ الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿مَا يُجَٰدِلُ فِيٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فَلَا يَغۡرُرۡكَ تَقَلُّبُهُمۡ فِي ٱلۡبِلَٰدِ ۝٤﴾ ٦٦

" قَالَ الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿كَذَّبَتۡ قَبۡلَهُمۡ قَوۡمُ نُوحٖ وَٱلۡأَحۡزَابُ مِنۢ بَعۡدِهِمۡۖ وَهَمَّتۡ كُلُّ أُمَّةِۭ بِرَسُولِهِمۡ لِيَأۡخُذُوهُۖ وَجَٰدَلُواْ بِٱلۡبَٰطِلِ لِيُدۡحِضُواْ بِهِ ٱلۡحَقَّ فَأَخَذۡتُهُمۡۖ فَكَيۡفَ كَانَ عِقَابِ ۝٥﴾ ٧٤

" قَالَ الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَكَذَٰلِكَ حَقَّتۡ كَلِمَتُ رَبِّكَ عَلَى ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَنَّهُمۡ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِ ۝٦﴾ ٨٢

" قَالَ الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿ٱلَّذِينَ يَحۡمِلُونَ ٱلۡعَرۡشَ وَمَنۡ حَوۡلَهُۥ يُسَبِّحُونَ بِحَمۡدِ رَبِّهِمۡ وَيُؤۡمِنُونَ بِهِۦ وَيَسۡتَغۡفِرُونَ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ رَبَّنَا وَسِعۡتَ كُلَّ شَيۡءٖ رَّحۡمَةٗ وَعِلۡمٗا فَٱغۡفِرۡ لِلَّذِينَ تَابُواْ وَٱتَّبَعُواْ سَبِيلَكَ وَقِهِمۡ عَذَابَ ٱلۡجَحِيمِ ۝٧﴾ ٨٧

" قَالَ الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿رَبَّنَا وَأَدۡخِلۡهُمۡ جَنَّٰتِ عَدۡنٍ ٱلَّتِي وَعَدتَّهُمۡ وَمَن صَلَحَ مِنۡ ءَابَآئِهِمۡ وَأَزۡوَٰجِهِمۡ وَذُرِّيَّٰتِهِمۡۚ إِنَّكَ أَنتَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ ۝٨﴾ ١٠٥

" قَالَ الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿ وَقِهِمُ ٱلسَّيِّـَٔاتِۚ وَمَن تَقِ ٱلسَّيِّـَٔاتِ يَوْمَئِذٍ فَقَدْ رَحِمْتَهُۥۚ وَذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿٩﴾ ﴾ ١١١

" قَالَ الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ يُنَادَوْنَ لَمَقْتُ ٱللَّهِ أَكْبَرُ مِن مَّقْتِكُمْ أَنفُسَكُمْ إِذْ تُدْعَوْنَ إِلَى ٱلْإِيمَٰنِ فَتَكْفُرُونَ ﴿١٠﴾ ﴾ ١١٨

" قَالَ الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿قَالُوا۟ رَبَّنَآ أَمَتَّنَا ٱثْنَتَيْنِ وَأَحْيَيْتَنَا ٱثْنَتَيْنِ فَٱعْتَرَفْنَا بِذُنُوبِنَا فَهَلْ إِلَىٰ خُرُوجٍ مِّن سَبِيلٍ ﴿١١﴾ ﴾ ١٢٢

" قَالَ الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿ ذَٰلِكُم بِأَنَّهُۥٓ إِذَا دُعِىَ ٱللَّهُ وَحْدَهُۥ كَفَرْتُمْۖ وَإِن يُشْرَكْ بِهِۦ تُؤْمِنُوا۟ۚ فَٱلْحُكْمُ لِلَّهِ ٱلْعَلِىِّ ٱلْكَبِيرِ ﴿١٢﴾ ﴾ ١٢٥

" قَالَ الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿ هُوَ ٱلَّذِى يُرِيكُمْ ءَايَٰتِهِۦ وَيُنَزِّلُ لَكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ رِزْقًاۚ وَمَا يَتَذَكَّرُ إِلَّا مَن يُنِيبُ ﴿١٣﴾ ﴾ ١٤٣

" قَالَ الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿فَٱدْعُوا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿١٤﴾ ﴾ ١٥١

" قَالَ الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿رَفِيعُ ٱلدَّرَجَٰتِ ذُو ٱلْعَرْشِ يُلْقِى ٱلرُّوحَ مِنْ أَمْرِهِۦ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ لِيُنذِرَ يَوْمَ ٱلتَّلَاقِ ﴿١٥﴾ ﴾ ١٥٩

" قَالَ الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿يَوْمَ هُم بَٰرِزُونَۖ لَا يَخْفَىٰ عَلَى ٱللَّهِ مِنْهُمْ شَىْءٌۚ لِّمَنِ ٱلْمُلْكُ ٱلْيَوْمَۖ لِلَّهِ ٱلْوَٰحِدِ ٱلْقَهَّارِ ﴿١٦﴾ ﴾ ١٦٦

" قَالَ الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿ٱلْيَوْمَ تُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍۭ بِمَا كَسَبَتْۚ لَا ظُلْمَ ٱلْيَوْمَۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ﴿١٧﴾ ﴾ ١٦٩

" قَالَ الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿ وَأَنذِرْهُمْ يَوْمَ ٱلْـَٔازِفَةِ إِذِ ٱلْقُلُوبُ لَدَى ٱلْحَنَاجِرِ كَٰظِمِينَۚ مَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنْ حَمِيمٍ وَلَا شَفِيعٍ يُطَاعُ ﴿١٨﴾ ﴾ ١٧٦

" قَالَ الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿ يَعْلَمُ خَآئِنَةَ ٱلْأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِى ٱلصُّدُورُ ﴿١٩﴾ ﴾ ١٨٥

" قَالَ الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَٱللَّهُ يَقْضِى بِٱلْحَقِّۖ وَٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ لَا يَقْضُونَ بِشَىْءٍۗ

إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴿٢٠﴾ ١٨٦

" قَالَ الله عزّوجلّ: ﴿ أَوَلَمْ يَسِيرُواْ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَـٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ كَانُواْ مِن قَبْلِهِمْ ۚ كَانُواْ هُمْ أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَءَاثَارًا فِى ٱلْأَرْضِ فَأَخَذَهُمُ ٱللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ وَمَا كَانَ لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مِن وَاقٍ ﴿٢١﴾ ٢٠١

" قَالَ الله عزّوجلّ: ﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانَت تَّأْتِيهِمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَـٰتِ فَكَفَرُواْ فَأَخَذَهُمُ ٱللَّهُ ۚ إِنَّهُۥ قَوِىٌّ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿٢٢﴾ ٢١١

" قَالَ الله عزّوجلّ: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِـَٔايَـٰتِنَا وَسُلْطَـٰنٍ مُّبِينٍ ﴿٢٣﴾ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَهَـٰمَـٰنَ وَقَـٰرُونَ فَقَالُواْ سَـٰحِرٌ كَذَّابٌ ﴿٢٤﴾ ٢١٦

" قَالَ الله عزّوجلّ: ﴿ فَلَمَّا جَآءَهُم بِٱلْحَقِّ مِنْ عِندِنَا قَالُواْ ٱقْتُلُوٓاْ أَبْنَآءَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ وَٱسْتَحْيُواْ نِسَآءَهُمْ ۚ وَمَا كَيْدُ ٱلْكَـٰفِرِينَ إِلَّا فِى ضَلَـٰلٍ ﴿٢٥﴾ ... ٢٢٧

" قَالَ الله عزّوجلّ: ﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ ذَرُونِىٓ أَقْتُلْ مُوسَىٰ وَلْيَدْعُ رَبَّهُۥٓ ۖ إِنِّىٓ أَخَافُ أَن يُبَدِّلَ دِينَكُمْ أَوْ أَن يُظْهِرَ فِى ٱلْأَرْضِ ٱلْفَسَادَ ﴿٢٦﴾ ٢٣١

" قَالَ الله عزّوجلّ: ﴿وَقَالَ مُوسَىٰٓ إِنِّى عُذْتُ بِرَبِّى وَرَبِّكُم مِّن كُلِّ مُتَكَبِّرٍ لَّا يُؤْمِنُ بِيَوْمِ ٱلْحِسَابِ ﴿٢٧﴾ ٢٣٦

" قَالَ الله عزّوجلّ: ﴿ وَقَالَ رَجُلٌ مُّؤْمِنٌ مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ يَكْتُمُ إِيمَـٰنَهُۥٓ أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَن يَقُولَ رَبِّىَ ٱللَّهُ وَقَدْ جَآءَكُم بِٱلْبَيِّنَـٰتِ مِن رَّبِّكُمْ ۖ وَإِن يَكُ كَـٰذِبًا فَعَلَيْهِ كَذِبُهُۥ ۖ وَإِن يَكُ صَادِقًا يُصِبْكُم بَعْضُ ٱلَّذِى يَعِدُكُمْ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ كَذَّابٌ ﴿٢٨﴾ ٢٤٠

" قَالَ الله عزّوجلّ: ﴿يَـٰقَوْمِ لَكُمُ ٱلْمُلْكُ ٱلْيَوْمَ ظَـٰهِرِينَ فِى ٱلْأَرْضِ فَمَن يَنصُرُنَا مِنۢ بَأْسِ ٱللَّهِ إِن جَآءَنَا ۚ قَالَ فِرْعَوْنُ مَآ أُرِيكُمْ إِلَّا مَآ أَرَىٰ وَمَآ أَهْدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ ٱلرَّشَادِ ﴿٢٩﴾ ٢٤٨

” قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِيٓ ءَامَنَ يَٰقَوۡمِ إِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيۡكُم مِّثۡلَ يَوۡمِ ٱلۡأَحۡزَابِ (٣٠) مِثۡلَ دَأۡبِ قَوۡمِ نُوحٖ وَعَادٖ وَثَمُودَ وَٱلَّذِينَ مِنۢ بَعۡدِهِمۡۚ وَمَا ٱللَّهُ يُرِيدُ ظُلۡمٗا لِّلۡعِبَادِ (٣١)﴾ . ٢٥٨

” قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَيَٰقَوۡمِ إِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيۡكُمۡ يَوۡمَ ٱلتَّنَادِ (٣٢) يَوۡمَ تُوَلُّونَ مُدۡبِرِينَ مَا لَكُم مِّنَ ٱللَّهِ مِنۡ عَاصِمٖۗ وَمَن يُضۡلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنۡ هَادٖ (٣٣)﴾ ٢٦٩

” قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَلَقَدۡ جَآءَكُمۡ يُوسُفُ مِن قَبۡلُ بِٱلۡبَيِّنَٰتِ فَمَا زِلۡتُمۡ فِي شَكّٖ مِّمَّا جَآءَكُم بِهِۦۖ حَتَّىٰٓ إِذَا هَلَكَ قُلۡتُمۡ لَن يَبۡعَثَ ٱللَّهُ مِنۢ بَعۡدِهِۦ رَسُولٗاۚ كَذَٰلِكَ يُضِلُّ ٱللَّهُ مَنۡ هُوَ مُسۡرِفٞ مُّرۡتَابٌ (٣٤)﴾ ٢٧٥

” قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿ٱلَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ فِيٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ بِغَيۡرِ سُلۡطَٰنٍ أَتَىٰهُمۡۖ كَبُرَ مَقۡتًا عِندَ ٱللَّهِ وَعِندَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْۚ كَذَٰلِكَ يَطۡبَعُ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ قَلۡبِ مُتَكَبِّرٖ جَبَّارٖ (٣٥)﴾ ٢٨٥

” قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَقَالَ فِرۡعَوۡنُ يَٰهَٰمَٰنُ ٱبۡنِ لِي صَرۡحٗا لَّعَلِّيٓ أَبۡلُغُ ٱلۡأَسۡبَٰبَ (٣٦) أَسۡبَٰبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ فَأَطَّلِعَ إِلَىٰٓ إِلَٰهِ مُوسَىٰ وَإِنِّي لَأَظُنُّهُۥ كَٰذِبٗاۚ وَكَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِفِرۡعَوۡنَ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ وَصُدَّ عَنِ ٱلسَّبِيلِۚ وَمَا كَيۡدُ فِرۡعَوۡنَ إِلَّا فِي تَبَابٖ (٣٧)﴾ ٢٩٩

” قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِيٓ ءَامَنَ يَٰقَوۡمِ ٱتَّبِعُونِ أَهۡدِكُمۡ سَبِيلَ ٱلرَّشَادِ (٣٨) يَٰقَوۡمِ إِنَّمَا هَٰذِهِ ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَا مَتَٰعٞ وَإِنَّ ٱلۡأٓخِرَةَ هِيَ دَارُ ٱلۡقَرَارِ (٣٩)﴾ .. ٣١١

” قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿مَنۡ عَمِلَ سَيِّئَةٗ فَلَا يُجۡزَىٰٓ إِلَّا مِثۡلَهَاۖ وَمَنۡ عَمِلَ صَٰلِحٗا مِّن ذَكَرٍ أَوۡ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤۡمِنٞ فَأُوْلَٰٓئِكَ يَدۡخُلُونَ ٱلۡجَنَّةَ يُرۡزَقُونَ فِيهَا بِغَيۡرِ حِسَابٖ (٤٠)﴾ ٣١٦

” قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَيَٰقَوۡمِ مَا لِيٓ أَدۡعُوكُمۡ إِلَى ٱلنَّجَوٰةِ وَتَدۡعُونَنِيٓ إِلَى ٱلنَّارِ (٤١) تَدۡعُونَنِي لِأَكۡفُرَ بِٱللَّهِ وَأُشۡرِكَ بِهِۦ مَا لَيۡسَ لِي بِهِۦ عِلۡمٞ وَأَنَا۠ أَدۡعُوكُمۡ إِلَى

ٱلْعَزِيزِ ٱلْغَفَّٰرِ ﴿٤٢﴾ لَا جَرَمَ أَنَّمَا تَدْعُونَنِىٓ إِلَيْهِ لَيْسَ لَهُۥ دَعْوَةٌ فِى ٱلدُّنْيَا وَلَا فِى
ٱلْءَاخِرَةِ وَأَنَّ مَرَدَّنَآ إِلَى ٱللَّهِ وَأَنَّ ٱلْمُسْرِفِينَ هُمْ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ﴿٤٣﴾ ﴾ ٣٢٣

" قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿ فَسَتَذْكُرُونَ مَآ أَقُولُ لَكُمْ ۚ وَأُفَوِّضُ أَمْرِىٓ إِلَى ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ
بَصِيرٌۢ بِٱلْعِبَادِ ﴿٤٤﴾ ﴾ ٣٣٩

" قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿ فَوَقَىٰهُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِ مَا مَكَرُوا۟ ۖ وَحَاقَ بِـَٔالِ فِرْعَوْنَ سُوٓءُ
ٱلْعَذَابِ ﴿٤٥﴾ ٱلنَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا ۖ وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ أَدْخِلُوٓا۟ ءَالَ
فِرْعَوْنَ أَشَدَّ ٱلْعَذَابِ ﴿٤٦﴾ ﴾ ٣٤٢

" قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿ وَإِذْ يَتَحَآجُّونَ فِى ٱلنَّارِ فَيَقُولُ ٱلضُّعَفَٰٓؤُا۟ لِلَّذِينَ
ٱسْتَكْبَرُوٓا۟ إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا فَهَلْ أَنتُم مُّغْنُونَ عَنَّا نَصِيبًا مِّنَ ٱلنَّارِ ﴿٤٧﴾
قَالَ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوٓا۟ إِنَّا كُلٌّ فِيهَآ إِنَّ ٱللَّهَ قَدْ حَكَمَ بَيْنَ ٱلْعِبَادِ ﴿٤٨﴾ ﴾.. ٣٥١

" قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ فِى ٱلنَّارِ لِخَزَنَةِ جَهَنَّمَ ٱدْعُوا۟ رَبَّكُمْ يُخَفِّفْ عَنَّا
يَوْمًا مِّنَ ٱلْعَذَابِ ﴿٤٩﴾ قَالُوٓا۟ أَوَلَمْ تَكُ تَأْتِيكُمْ رُسُلُكُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ ۖ قَالُوا۟ بَلَىٰ ۚ
قَالُوا۟ فَٱدْعُوا۟ ۗ وَمَا دُعَٰٓؤُا۟ ٱلْكَٰفِرِينَ إِلَّا فِى ضَلَٰلٍ ﴿٥٠﴾ ﴾.......... ٣٥٦

" قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿ إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ
ٱلْأَشْهَٰدُ ﴿٥١﴾ ﴾ ٣٦٦

" قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿ يَوْمَ لَا يَنفَعُ ٱلظَّٰلِمِينَ مَعْذِرَتُهُمْ ۖ وَلَهُمُ ٱللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوٓءُ ٱلدَّارِ
﴿٥٢﴾ ﴾.. ٣٧٠

" قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْهُدَىٰ وَأَوْرَثْنَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱلْكِتَٰبَ
﴿٥٣﴾ هُدًى وَذِكْرَىٰ لِأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٥٤﴾ ﴾ ٣٧٧

" قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿ فَٱصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ وَٱسْتَغْفِرْ لِذَنۢبِكَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ
رَبِّكَ بِٱلْعَشِىِّ وَٱلْإِبْكَٰرِ ﴿٥٥﴾ ﴾ ٣٨٢

" قَالَ الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ فِيٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ بِغَيۡرِ سُلۡطَٰنٍ أَتَىٰهُمۡ إِن فِي صُدُورِهِمۡ إِلَّا كِبۡرٞ مَّا هُم بِبَٰلِغِيهِۚ فَٱسۡتَعِذۡ بِٱللَّهِۖ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡبَصِيرُ ﴿٥٦﴾﴾ ٣٩١

" قَالَ الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿لَخَلۡقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ أَكۡبَرُ مِنۡ خَلۡقِ ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعۡلَمُونَ ﴿٥٧﴾﴾ ٤٠٣

" قَالَ الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَمَا يَسۡتَوِي ٱلۡأَعۡمَىٰ وَٱلۡبَصِيرُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَلَا ٱلۡمُسِيٓءُۚ قَلِيلٗا مَّا تَتَذَكَّرُونَ ﴿٥٨﴾﴾ ٤٠٦

" قَالَ الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿إِنَّ ٱلسَّاعَةَ لَأٓتِيَةٞ لَّا رَيۡبَ فِيهَا وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يُؤۡمِنُونَ ﴿٥٩﴾﴾ ٤١١

" قَالَ الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ٱدۡعُونِيٓ أَسۡتَجِبۡ لَكُمۡۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسۡتَكۡبِرُونَ عَنۡ عِبَادَتِي سَيَدۡخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ ﴿٦٠﴾﴾ ٤١٤

" قَالَ الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِي جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيۡلَ لِتَسۡكُنُواْ فِيهِ وَٱلنَّهَارَ مُبۡصِرًاۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَذُو فَضۡلٍ عَلَى ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَشۡكُرُونَ ﴿٦١﴾﴾ ٤٢٢

" قَالَ الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمۡ خَٰلِقُ كُلِّ شَيۡءٖ لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۖ فَأَنَّىٰ تُؤۡفَكُونَ ﴿٦٢﴾ كَذَٰلِكَ يُؤۡفَكُ ٱلَّذِينَ كَانُواْ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ يَجۡحَدُونَ ﴿٦٣﴾﴾ ٤٢٧

" قَالَ الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِي جَعَلَ لَكُمُ ٱلۡأَرۡضَ قَرَارٗا وَٱلسَّمَآءَ بِنَآءٗ وَصَوَّرَكُمۡ فَأَحۡسَنَ صُوَرَكُمۡ وَرَزَقَكُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِۚ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمۡۖ فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴿٦٤﴾﴾ ٤٣٤

" قَالَ الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿هُوَ ٱلۡحَيُّ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَٱدۡعُوهُ مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَۗ ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴿٦٥﴾﴾ ٤٤٨

" قَالَ الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿۞ قُلۡ إِنِّي نُهِيتُ أَنۡ أَعۡبُدَ ٱلَّذِينَ تَدۡعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَمَّا جَآءَنِيَ

ٱلْبَيِّنَٰتُ مِن رَّبِّى وَأُمِرْتُ أَنْ أُسْلِمَ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٦٦﴾ ٤٥٥

» قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ يُخْرِجُكُمْ طِفْلًا ثُمَّ لِتَبْلُغُوٓاْ أَشُدَّكُمْ ثُمَّ لِتَكُونُواْ شُيُوخًا ۚ وَمِنكُم مَّن يُتَوَفَّىٰ مِن قَبْلُ ۖ وَلِتَبْلُغُوٓاْ أَجَلًا مُّسَمًّى وَلَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٦٧﴾ ٤٦٣

» قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿هُوَ ٱلَّذِى يُحْىِۦ وَيُمِيتُ ۖ فَإِذَا قَضَىٰٓ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٦٨﴾ ٤٧٠

» قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ فِىٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ أَنَّىٰ يُصْرَفُونَ ﴿٦٩﴾ ... ٤٧٧

» قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِٱلْكِتَٰبِ وَبِمَآ أَرْسَلْنَا بِهِۦ رُسُلَنَا ۖ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴿٧٠﴾ إِذِ ٱلْأَغْلَٰلُ فِىٓ أَعْنَٰقِهِمْ وَٱلسَّلَٰسِلُ يُسْحَبُونَ ﴿٧١﴾ فِى ٱلْحَمِيمِ ثُمَّ فِى ٱلنَّارِ يُسْجَرُونَ ﴿٧٢﴾ ٤٨١

» قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿ثُمَّ قِيلَ لَهُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ تُشْرِكُونَ ﴿٧٣﴾ مِن دُونِ ٱللَّهِ ۖ قَالُواْ ضَلُّواْ عَنَّا بَل لَّمْ نَكُن نَّدْعُواْ مِن قَبْلُ شَيْـًٔا ۚ كَذَٰلِكَ يُضِلُّ ٱللَّهُ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٧٤﴾ ٤٨٧

» قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿ذَٰلِكُم بِمَا كُنتُمْ تَفْرَحُونَ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَبِمَا كُنتُمْ تَمْرَحُونَ ﴿٧٥﴾ ٤٩٢

» قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿ٱدْخُلُوٓاْ أَبْوَٰبَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۖ فَبِئْسَ مَثْوَى ٱلْمُتَكَبِّرِينَ ﴿٧٦﴾ ٤٩٩

» قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿فَٱصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ ۚ فَإِمَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ ٱلَّذِى نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِلَيْنَا يُرْجَعُونَ ﴿٧٧﴾ ٥٠٦

» قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِّن قَبْلِكَ مِنْهُم مَّن قَصَصْنَا عَلَيْكَ وَمِنْهُم مَّن لَّمْ نَقْصُصْ عَلَيْكَ ۗ وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَن يَأْتِىَ بِـَٔايَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۚ فَإِذَا جَآءَ أَمْرُ ٱللَّهِ قُضِىَ بِٱلْحَقِّ وَخَسِرَ هُنَالِكَ ٱلْمُبْطِلُونَ ﴿٧٨﴾ ٥٢٢

قَالَ الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَنْعَٰمَ لِتَرْكَبُوا۟ مِنْهَا وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ﴿٧٩﴾ وَلَكُمْ فِيهَا مَنَٰفِعُ وَلِتَبْلُغُوا۟ عَلَيْهَا حَاجَةً فِى صُدُورِكُمْ وَعَلَيْهَا وَعَلَى ٱلْفُلْكِ تُحْمَلُونَ ﴿٨٠﴾﴾ ٥٣٤

قَالَ الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَيُرِيكُمْ ءَايَٰتِهِۦ فَأَىَّ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ تُنكِرُونَ ﴿٨١﴾﴾ ٥٣٨

قَالَ الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ كَانُوٓا۟ أَكْثَرَ مِنْهُمْ وَأَشَدَّ قُوَّةً وَءَاثَارًا فِى ٱلْأَرْضِ فَمَآ أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿٨٢﴾﴾ ٥٤١

قَالَ الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿فَلَمَّا جَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَرِحُوا۟ بِمَا عِندَهُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٨٣﴾﴾ ٥٤٧

قَالَ الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿فَلَمَّا رَأَوْا۟ بَأْسَنَا قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَحْدَهُۥ وَكَفَرْنَا بِمَا كُنَّا بِهِۦ مُشْرِكِينَ ﴿٨٤﴾ فَلَمْ يَكُ يَنفَعُهُمْ إِيمَٰنُهُمْ لَمَّا رَأَوْا۟ بَأْسَنَا ۖ سُنَّتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى قَدْ خَلَتْ فِى عِبَادِهِۦ ۖ وَخَسِرَ هُنَالِكَ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿٨٥﴾﴾ ٥٥٣

فهرس الأحاديث والآثار ٥٥٩

فهرس الفوائد ٥٦٧

فهرس آيات السورة ٥٨١

سلسلة مؤلفات فضيلة الشيخ (١٥١)

تفسير

القرآن الكريم

سورة فصلت

لفضيلة الشيخ العلامة

محمد بن صالح العثيمين

غفر الله له ولوالديه وللمسلمين

من إصدارات
مؤسسة الشيخ محمد بن صالح العثيمين الخيرية

سلسلة مؤلفات فضيلة الشيخ (١٥١)

تفسير القرآن الكريم

سورة فصلت

لفضيلة الشيخ العلامة

محمد بن صالح العثيمين

غفر الله له ولوالديه وللمسلمين

من إصدارات

مؤسسة الشيخ محمد بن صالح العثيمين الخيرية

بسم الله الرحمن الرحيم

ح مؤسسة الشيخ محمد بن صالح العثيمين الخيرية، ١٤٣٧ هـ
فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية أثناء النشر
العثيمين، محمد بن صالح
تفسير سورة فصلت. / محمد بن صالح العثيمين ـ ط ١ ـ القصيم، ١٤٣٧هـ
٣٥٧ ص؛ ١٧ × ٢٤ سم (سلسلة مؤلفات الشيخ ابن عثيمين؛ ١٥١)
ردمك: ٣ ـ ٧٣ ـ ٨١٦٣ ـ ٦٠٣ ـ ٩٧٨
١ ـ القرآن ـ سورة فصلت ـ تفسير.
أ ـ العنوان
ديوي: ٢٢٧،٦ ١٤٣٧/١٨٥٠

رقم الإيداع: ١٤٣٧/١٨٥٠
ردمك: ٣ ـ ٧٣ ـ ٨١٦٣ ـ ٦٠٣ ـ ٩٧٨

حقوق الطبع محفوظة
لِمؤسسةِ الشيخ محمد بن صالح العثيمين الخيرية
إلا لمن أراد طبع الكتاب لتوزيعه خيريًا بعد مراجعة المؤسسة

الطبعة الأولى
١٤٣٧ هـ

يُطلب الكتاب من:
مُؤسسةِ الشيخ محمد بن صالح العثيمين الخيرية
المملكة العربية السعودية
القصيم ـ عنيزة ـ ٥١٩١١ ص.ب: ١٩٢٩
هاتف: ٠١٦/٣٦٤٢١٠٧ ـ ناسوخ: ٠١٦/٣٦٤٢٠٠٩
جوّال: ٠٥٥٣٦٤٢١٠٧
www.ibnothaimeen.com
info@binothaimeen.com

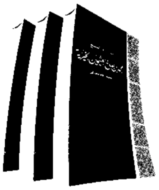

الموزع المعتمد والحصري في جمهورية مصر العربية
دار الدُّرة للنشر والتوزيع ـ شارع محمد مقلد ـ متفرع من مصطفى النحاس
بجوار سوبر ماركت أولاد رجب
هاتف وفاكس: ٢٢٧٢٠٥٥٢ ـ محمول: ٠١٠١٠٥٥٧٠٤٤

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

تقديم

إنَّ الحمدَ لله، نحمدُهُ ونَسْتعينُه ونَسْتغفرُه، ونَعوذُ بالله مِن شُرور أَنْفُسنا ومِن سيِّئات أعمالِنا، مَن يَهْده اللهُ فلا مُضِلَّ له، ومَن يُضْلِلْ فَلا هادِيَ له، وأَشْهَد أنْ لا إلَهَ إلا اللهُ وحدَه لا شريكَ لَه، وأَشْهَد أنَّ محمَّدًا عبدُه ورسولُه، أرسلَه اللهُ بالهُدَى ودِين الحقِّ؛ فبلَّغَ الرِّسالةَ، وأدَّى الأمانةَ، ونَصَح الأمَّةَ، وجاهَد في الله حَقَّ جِهادِه ، حتَّى أتاهُ اليقينُ ، فصَلواتُ اللهِ وسلامُه عليهِ وعلَى آلِه وأصحابِه ومَن تَبِعهم بإحسانٍ إلَى يومِ الدِّين.

أَمَّا بَعْدُ: فمِنَ الدُّروسِ العِلميَّة المُسجَّلَة صَوتيًّا، والَّتِي كانَ يَعقِدُها صاحِبُ الفَضِيلةِ شَيخُنا العلَّامةُ الوالِدُ محمَّدُ بنُ صالحٍ العُثَيْمِين -رَحِمَهُ اللهُ تَعالَى- في جامِعِهِ بمَدِينَةِ عُنَيْزَةَ صَباحَ كُلِّ يومٍ أَثْناءَ الإِجازاتِ الصَّيْفيَّة؛ حَلقاتٌ فِي تَفْسير القُرآن الكَريم كانَت بِدَايَةُ التَّسْجِيلِ الصَّوتيِّ لَـهَا مِن سُورة النُّور وَمَا بَعدَها؛ حتَّى بلَغ فَضيلتُه قَولَه تَعالَى في سُورة الزُّخرف: ﴿وَسْـَٔلْ مَنْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رُّسُلِنَآ أَجَعَلْنَا مِن دُونِ ٱلرَّحْمَٰنِ ءَالِهَةً يُعْبَدُونَ ﴿٤٥﴾﴾.

وقَدِ اعتَمدَ رَحِمَهُ اللهُ تَعالَى في تَفْسيرِه لتِلْكَ السُّور كِتابًا بَيْن يَدَي الطُّلَّاب هُو (تَفْسير الجَلالَيْنِ) للعلَّامة جَلال الدِّين محمَّد بنِ أَحْمَدَ بنِ محمَّدِ بنِ إبراهيمَ المَحَلِّيِّ،

المُتوفَّى سَنَةَ (٨٦٤هـ)[١]، والعلَّامة جَلال الدِّين عبد الرَّحمن بن أَبِي بَكْر بنِ محمَّد ابنِ سابِق الدِّين الخُضَيْرِيِّ السُّيُوطِيِّ، المُتوفَّى سنة (٩١١هـ)[٢]. تغمَّدهما الله بواسِع رَحمته ورِضوانه، وأَسْكنهما فَسِيحَ جنَّاتِه، وجَزاهُما عَنِ الإِسْلام والمُسلِمِينَ خَيرَ الجَزاءِ.

وسَعْيًا -بإِذْنِ اللهِ تَعالَى- لِتَعْمِيمِ النَّفْع بتِلْكَ الجُهُود المُبارَكة فِي هَذا المَيْدَان العَظِيم باشَر القِسْمُ العِلْمِيُّ بِمُؤسَّسةِ الشَّيخِ مُحمَّد بنِ صالِحِ العُثَيْمِين الخَيْرِيَّةِ واجِباتِه فِي شَرَفِ الإِعْدادِ والتَّجْهِيز للطِّباعةِ والنَّشْر لِإِخْراجِ ذَلِكَ التُّراث العِلمِي؛ إنفاذًا للقَواعِدِ والضَّوابِط والتَّوْجِيهاتِ الَّتِي قَرَّرها فَضِيلةُ الشَّيخِ رَحِمَهُ اللهُ تَعالَى فِي هَذا الشَّأْنِ.

نَسْأل اللهَ تعالَى أنْ يَجْعلَ هَذا العَمَلَ خالصًا لِوجهِه الكَريم؛ نافِعًا لعِبادِه، وأنْ يَجزِيَ فَضِيلةَ شيخِنا عَنِ الإسلامِ والمسلمِينَ خَيْرَ الجَزاء، ويُضاعِفَ لهُ المَثُوبَةَ والأَجْرَ، ويُعْلِيَ دَرَجَتَهُ في المَهْدِيِّينَ، إِنَّه سَمِيعٌ قَرِيبٌ مُجِيبٌ.

وَصَلَّى اللهُ وسلَّم وبارَكَ علَى عبدِه ورَسولِه، خاتَمِ النَّبيِّينَ، وإِمامِ المُتَّقِينَ، وسيِّدِ الأَوَّلينَ والآخِرينَ، نبيِّنا محمَّدٍ، وعلَى آلِه وأَصْحابِه والتَّابعينَ لَهُمْ بِإِحْسانٍ إِلَى يَوْمِ الدِّين.

القِسْمُ العِلْمِيُّ
فِي مُؤَسَّسَةِ الشَّيْخِ مُحَمَّدِ بْنِ صَالِحٍ العُثَيْمِين الخَيْرِيَّةِ
١٤ مُحَرَّم ١٤٣٧هـ

(١) انظر ترجمته في: الضوء اللامع (٧/ ٣٩)، حُسن المحاضرة (١/ ٤٤٣).
(٢) انظر ترجمته في: الأعلام للزركلي (٣/ ٣٠١).

سورة فصلت

الحمدُ للهِ ربِّ العالمين، وصلَّى الله وسلَّم على نبيِّنا محمَّدٍ، وعلى آلِهِ وأصحابِهِ ومَن تَبِعَهم بإحْسانٍ إلى يومِ الدِّين.

أمَّا بَعْدُ؛ فلا رَيْبَ أنَّ القرآنَ الكريمَ نزَلَ ليتَعَبَّد النَّاسُ بتِلاوَتِه ولِيَتدبَّرُوا آياتِه، ولِيتذكَّرَ أُولو الألْبابِ؛ قال اللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: ﴿كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ مُبَٰرَكٌ لِّيَدَّبَّرُوٓا۟ ءَايَٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ [ص:٢٩].

وإذا كان الإنْسانُ لو قرَأَ متْنًا أَلَّفَهُ إنسانٌ منَ البَشَرِ، فلا بُدَّ أنْ يَتدبَّر مَعانيَه ويَتفَهَّمَها، فكذَلِك كَلامُ اللهِ عَزَّوَجَلَّ مِن باب أوْلَى أنْ يَتدبَّر الإنسانُ مَعانيَه ويَتفَهَّمها؛ لأنَّ قِراءةً بلا معنًى ليستْ قِراءةً، فالقارئُ الذي لا يَفهمُ المعنى؛ بمنزِلةِ الأُمِّيِّ الذي لا يَقرأُ.

ودليلُ ذلك قـولُه تعالى: ﴿وَمِنْهُمْ أُمِّيُّونَ لَا يَعْلَمُونَ ٱلْكِتَٰبَ إِلَّآ أَمَانِىَّ﴾ [البقرة:٧٨]، يعني إلَّا قِراءةً، فوصَـفَهمُ اللهُ بأنَّهمْ أُمِّيُّون؛ لأنَّهم لا يَعلَمون الكِتابَ إلا قِراءةً فقطْ.

وقد ذَكَر العلماءُ رَحِمَهُمُ اللَّهُ لتفسيرِ كلامِ اللهِ عَزَّوَجَلَّ قواعدَ مهمَّةً، نَذكرُ مِنها ما يَلي:

١ - أَوْلى ما يُفسَّرُ به القرآنُ أنْ يُفسَّر القُرآنُ بالقُرآنِ؛ لأنَّ الَّذي فسَّرهُ هُو الَّذي أَنزَلَه، وهُو أعلَمُ بمُرادِه، فنُفسِّر القرآنَ بالقرآنِ ما وجَدْنا إلى ذلك سبِيلًا، ولِهذا

أمثلةٌ كثيرةٌ؛ مِثلُ قولِه تَعالى: ﴿وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا يَوۡمُ ٱلدِّينِ ۝١٧ ثُمَّ مَآ أَدۡرَىٰكَ مَا يَوۡمُ ٱلدِّينِ﴾ [الانفِطار:١٨]، فسَّر اللهُ ذلك اليومَ بقولِه: ﴿يَوۡمَ لَا تَمۡلِكُ نَفۡسٞ لِّنَفۡسٖ شَيۡـٔٗاۖ وَٱلۡأَمۡرُ يَوۡمَئِذٖ لِّلَّهِ﴾ [الانفِطار:١٩].

فلو سألَنا سائلٌ: ما هو يومُ الدِّينِ؟

نَقولُ: ﴿يَوۡمَ لَا تَمۡلِكُ نَفۡسٞ لِّنَفۡسٖ شَيۡـٔٗاۖ وَٱلۡأَمۡرُ يَوۡمَئِذٖ لِّلَّهِ﴾، وقال تعالى: ﴿ٱلۡقَارِعَةُ ۝١ مَا ٱلۡقَارِعَةُ ۝٢ وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا ٱلۡقَارِعَةُ ۝٣ يَوۡمَ يَكُونُ ٱلنَّاسُ كَٱلۡفَرَاشِ ٱلۡمَبۡثُوثِ ۝٤ وَتَكُونُ ٱلۡجِبَالُ كَٱلۡعِهۡنِ ٱلۡمَنفُوشِ﴾ [القارِعةِ:١-٥]، ولِهذا أمثلةٌ كثيرةٌ.

٢- ثمَّ نفسِّرُ القُرآنَ بتَفسيرِ أعلَمِ الناسِ به، وهو رسولُ اللهِ ﷺ ولِهذا أمثلةٌ:

منها: قولُه تَعالى: ﴿لِّلَّذِينَ أَحۡسَنُواْ ٱلۡحُسۡنَىٰ وَزِيَادَةٞ﴾ [يونس:٢٦]، الزِّيادةُ لمْ يُبيِّنْها الله عَزَّوَجَلَّ ولكِنْ بيَّنَها الرَّسولُ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ بقولِه: «النَّظَرُ إلى وجْهِ اللهِ»(١).

وكذَلِك مِثالٌ آخرُ: قولُ اللهِ تَعالى: ﴿وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا ٱسۡتَطَعۡتُم مِّن قُوَّةٖ﴾ [الأنفالِ:٦٠]، فسَّرَها النَّبيُّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ بقولِه: «ألا إنَّ القُوةَ الرَّميُ»(٢)، وكرَّرَها.

وكَما يكونُ تفسيرُ النَّبيِّ -صلَّى اللهُ عليهِ وعلى آلِهِ وسلَّمَ- للْقُرآنِ بلفظِه، يَكُونُ كذَلِك بفعلِه؛ فقولُه تعالى: ﴿وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ [البقرةِ:٤٣]، لمْ يُبيِّنِ اللهُ تَعالَى كيفيَّةَ هذه الإقامةِ الَّتي أمَرَ بها، لكنْ فسَّرَها النبيُّ ﷺ بفِعلِه، فَقامَ ورَكَعَ وسَجدَ وقَعدَ، وقالَ:

---

(١) أخرجه مسلم: كتاب الإيمان، باب إثبات رؤية المؤمنين في الآخرة ربهم سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، رقم (١٨١)، من حديث صهيب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٢) أخرجه مسلم: كتاب الإمارة، باب فضل الرمي، رقم (١٩١٧)، من حديث عقبة بن عامر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

«صلُّوا كما رأيتُموني أصلِّي»(١).

إذَن: أوَّلُ ما نُفسِّرُ القرآنَ به هو القرآنُ؛ لأنَّ الَّذي فسَّره هو الَّذي تكلَّم به وهو أعلمُ بمُرادِه، ثمَّ بسُنَّة النبيِّ -صلَّى اللهُ علَيهِ وعلى آلِهِ وسلَّمَ- القوليَّة والفعليَّة؛ لأنَّ النَّبِيَّ -صلَّى اللهُ علَيهِ وعلى آلِهِ وسلَّمَ- أعلمُ الناسِ بكلامِ اللهِ؛ لأنَّه رسولُه.

٣- ثُمَّ بعدَ ذلكَ بتفسيرِ الصَّحابَةِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ، وتفسيرُ الصَّحابةِ لا شكَّ أنَّه أَوْلى مِن غيرِه؛ لأنَّ الصَّحابةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ أعلمُ النَّاسِ بِلُغَةِ القرآنِ بلا مُنازِعٍ؛ ولأنَّ القرآنَ نزلَ في عَصرِهم وفي الأَحْوالِ الَّتي يعرِفونها.

ولا ريبَ أنَّ المعنَى يُعرَف في الزَّمنِ والحالِ الَّتي نزلَ بها؛ ولهذا يَنقُلون إلَيْنا أسبابَ النُّزولِ في الآياتِ التي نزَلَتْ على سببٍ؛ لأنَّهُمْ كانوا يَعلَمون ذلك.

فيُرجَعُ في تفسيرِ القرآنِ -إذا لمْ يُوجَدْ في كتابِ اللهِ أو سنةِ رسولِه- إلى أقوالِ الصَّحابةِ.

والصَّحابةُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ يَختلِفون في فَهْمِ القرآنِ اختِلافًا ظاهرًا، كما يَختَلِفون في مَراتِبهم في الفَضائلِ، كذَلِك أيضًا يَختلِفون في العلمِ وفي تَفسيرِ القرآنِ، ومِنْ أعلَمِهم بالتَّفسيرِ ابنُ عبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا لأنَّ النَّبيَّ -صلَّى اللهُ علَيهِ وعلى آلِهِ وسلَّمَ- دعا له، وقال: «اللَّهمَّ فقِّهْهُ في الدِّينِ وعلِّمْهُ التَّأويلَ»(٢)، يعني: التَّفسيرَ.

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب الأذان، باب الأذان للمسافر إذا كانوا جماعة، رقم (٦٣١)، من حديث مالك بن الحويرث رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٢) أخرجه البخاري: كتاب الوضوء، باب وضع الماء عند الخلاء، رقم (١٤٣)، ومسلم: كتاب فضائل الصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ، باب من فضائل عبد الله بن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، رقم (٢٤٧٧)، من حديث ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا. دون قوله: «وعلمه التأويل»، وأخرجه أحمد (١/ ٢٦٦) بلفظه.

٤- وبعْد هذا في المَرتَبة الرَّابعة: الرُّجوعُ إلى كلامِ التَّابعين الَّذين أخَذوا عنِ الصَّحابةِ رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمْ وليسَ كلّ التَّابعين، بلِ الَّذين اشتُهِرَ عنهمُ الأخْذُ عنِ الصَّحابةِ.

وعلى رأسِهم مُجاهِدُ بنُ جبرٍ رَحِمَهُٱللَّهُ الذي أخذَ تفسيرَ القرآنِ عن عبدِاللهِ بنِ عبَّاسٍ رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمَا فكانَ يَقرأُ القرآنَ على ابنِ عبَّاسٍ، ويقِفُ عندَ كلِّ آيةٍ، يَسألُهُ عنْ تفسِيرِها[1].

٥- ثمَّ بعدَ ذلكَ يُؤخَذُ بالأمْثلِ فالأمْثلِ من أقوالِ أئمةِ هذهِ الأمَّةِ وعلمائِها.

ثمَّ اعْلَمْ أنَّ تفسيرَ القرآنِ لا يقتَصرُ على تَفسِيرِ الصَّحابةِ والتَّابعين؛ لأنَّه قدْ يَخرجُ للآياتِ معانٍ لم تكنْ تَطْرَأُ على البالِ فيما سبَقَ، كما تُشيرُ بعضُ الآياتِ إلى المختَرَعاتِ الحديثةِ الَّتي وقعَتْ في زمانِنا هذا، وكما تُشيرُ بعضُ الآياتِ إلى ما عُلِم في عِلْمِ الأحياءِ والكائناتِ؛ وذلك لأنَّ القرآنَ كتابٌ عالَـمِيٌّ لا يَزالُ النَّاسُ يَستخْرِجون كُنوزَه وفَوائِدَه إلى يومِ القِيامةِ.

وبِناءً على ذلك: يجبُ علينا أنْ نعتَنيَ بكلامِ اللهِ عَزَّوَجَلَّ وأنْ نتَدبَّرَه ونتفَهَّمَه؛ حتَّى نلْحقَ بالرَّكْبِ.

• • ۞ • •

(١) أخرجه الطبري في تفسيره (١/ ٨٥)، والطبراني في المعجم الكبير (١١/ ٧٧، رقم ١١٠٩٧).

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

• • • •

۞ قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ﴾.

• • • •

البَسمَلةُ تَقدَّمَ الكَلامُ عليها كثيرًا، وبيَّنَّا أنَّها آيةٌ مِنْ كِتابِ الله، ولكِنَّها ليستْ آيةً تابِعةً للسُّورةِ الَّتي بَعدَها ولا الَّتي قَبلَها، بلْ هيَ آيةٌ يُؤتَى بها لابتِداءِ السُّوَرِ، ما عدا سُورةَ (بَراءةَ).

أمَّا مَعناها: فإنَّ الإنْسان يَقولُ: أبتَدئُ بكلِّ اسمٍ مِنْ أسماءِ اللهِ، وإنَّما جعَلْنا المَعنَى بكلِّ اسمٍ مِن أسماءِ اللهِ؛ لأنَّ كلمةَ «اسم» مفردٌ مضافٌ، وكلُّ مفردٍ مضافٍ إلى معرفةٍ فإنَّه يُفيدُ العُمومَ؛ ألَمْ ترَوْا إلى قولِ اللهِ تعالى: ﴿وَإِن تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا﴾ [النَّحل:١٨] ﴿نِعْمَةَ اللَّهِ﴾ لو نَظَرْنا إلى لفظِها لقُلْنا: إنَّها واحِدةٌ، لكنَّها كثيرةٌ لا تُحصَى؛ فيكونُ هذا المفردُ الَّذي أُضِيفَ: للعُمومِ.

وهذه هي القاعِدةُ: كلُّ مُفردٍ مُضافٍ لَمعرفةٍ فإنَّهُ مُفيدٌ للعُمومِ؛ ولِهذا قُلنا: بكلِّ اسْمٍ مِن أسْماءِ اللهِ.

و«الرَّحْمنِ الرَّحِيم» صِفتان للفظِ الجَلالةِ، لكنَّ الأُولى رُوعيَ فيها الوَصفُ، والثَّانيةَ رُوعي فيها الفِعلُ، وهو إيصالُ الرَّحمةِ.

أمَّا مُتعلِّق هذا الجارِّ والمَجرورِ فإنَّه مَحذوفٌ، ويُقدَّرُ مُؤخَّرًا مُناسِبًا للمَقام، فإذا كنتَ تُريدُ أنْ تَقرأَ فقُلتَ: بِسمِ اللهِ الرَّحمنِ الرَّحيمِ فقَدِّرْ: أقرَأُ، وإنَّما اختِيرَ أنْ

يكونَ فعْلًا لأنَّ الأصْلَ في العمَلِ الأفْعالُ؛ ولهذا يَعملُ الفِعلُ بلا شَرطٍ، والأسْماءُ الَّتي تَعمَلُ عمَلَ الفِعلِ لا بُدَّ لها مِن شُروطٍ- كما هو مَعروفٌ في عِلمِ النَّحوِ.

وإنَّما اخْتَرنا أنْ يَكونَ مُتأخِّرًا لفائِدتيْنِ:

الفائِدةُ الأولى: تيَمُّنًا بذِكْرِ اسمِ اللهِ.

والفائِدةُ الثَّانيةُ: إرادةُ الحَصْرِ؛ لأَنَّه إذا تأخَّرَ العامِلُ كانَ ذلك حَصْرًا، فإذا قُلتَ: زيدًا أكرِمْ، فالمعنى: لا تُكرِم غيرَه، لكنْ لو قلتَ: أكرِمْ زيدًا، لم يمتنعْ أنْ تُكرمَ غيرَه.

وقدَّرْناه مُناسِبًا؛ لأَنَّه أَبْيَنُ للمَقصودِ، فلو قال قائلٌ: «بسمِ اللهِ أبتدئُ»، قلنا: صحيحٌ، لكنَّها لا تُبيِّنُ المرادَ كما تُبيِّنُه: «بسمِ اللهِ أقرأُ»؛ وذلك لأنَّ الاِبتِداءَ يكونُ للقِراءةِ ولغيرِ القِراءةِ، فلهذا اختِيرَ أنْ يكونَ مناسبًا للمَقامِ.

والخُلاصَةُ: أنَّ مُتعلقَ الجارِّ والمَجْرورِ محذوفٌ، وهو فِعلٌ مُتأخِّرٌ مُناسِبٌ للمَقامِ.

فإنْ قال قائِل: هَلْ صَحِيحٌ ما يَروي بعضُهم عنْ أبي هُريرةَ أنَّ النَّبيَّ -صلَّى اللهُ علَيهِ وعلى آلِهِ وسلَّمَ- قال: «**إذا قرأْتُم: الحمدُ للهِ ربِّ العالَمِين فاقرؤُوا: «بسمِ اللهِ الرَّحمنِ الرَّحيمِ»** فإنَّها إحدى آياتِها»[1]؟

فالجوابُ: هذا الحديثُ ليس بصحيحٍ، ويدُلُّ على ذلك:

أوَّلًا: حديثُ أبي هريرة رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ الثَّابتُ في الصَّحيحِ، أنَّ اللهَ تعالى قالَ: «**قَسمتُ الصَّلاةَ بيني وبينَ عبدي نِصفَينِ**» -يعني الفاتِحةَ -«**فإذا قالَ: الحمدُ للهِ ربِّ العالَمِين،**

---

(١) أخرجه الدارقطني (١/ ٣١٢)، والبيهقي (٢/ ٤٥).

قالَ: حمِدني عبدي...» إلى آخرِ الحديثِ[1]؛ فبَدأ بقولِه: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾.

ثانيًا: أنَّ الرَّسول ﷺ كانَ لا يَجهرُ بها في القِراءةِ الجهْريَّةِ على القولِ الرَّاجِحِ، ولو كانتْ منَ الفاتِحةِ لجَهَرَ بها، كما يَجهرُ ببقيةِ الآياتِ.

ثالِثًا: أنَّ بقيَّةَ سوَرِ القرآنِ ليستِ البسْملةُ منها، فنحتاجُ إلى دليلٍ قويٍّ يُبيِّنُ أنَّها منَ الفاتِحةِ.

رابِعًا: أنَّ قولَه تَعالى: «قَسمْتُ الصَّلاةَ بيني وبين عَبْدي نِصفيْن»، هي نِصفٌ في السِّياقِ ونِصفٌ في المعنى، ولا يتِمُّ ذلك إذا جعلْنا البسْملةَ منها؛ فقولُه: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ هذِه للهِ، و﴿ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ۝٣ مَٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ﴾ ثلاثُ آياتٍ للهِ؛ و﴿ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ﴾ للعبدِ ﴿صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ﴾ للعبدِ ﴿غَيْرِ ٱلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ﴾ للعبدِ؛ إذَن: ثَلاثٌ وثَلاثٌ.

وقولُه تعالى: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ صارتْ بينهما كما جاء في الحَديثِ: «هَذا بيني وبين عبدي»، فصارتْ ثَلاثَ آياتٍ ونصفًا مِنْها للهِ، وثلاثَ آياتٍ ونصفًا للعبد، ولو قُلنا: إنَّ البَسْمَلةَ مِنْها، ما اسْتَقامَ هذا.

خامِسًا: أنَّك إذا جَعلْت البَسْمَلة مِنَ الفاتِحةِ صارتِ الآيَةُ الأخيرةُ طويلةً لا تتَناسَبُ مَع ما قبلَها؛ لأنَّه ستكونُ الآياتُ الأخيرةُ ﴿صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ ٱلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ﴾، وهذه لا تتَناسَبُ مَع قولِه: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ أو ﴿ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ﴾، فهو خِلافُ البلاغةِ.

فصارَ عندنا خمسةُ أوجُهٍ كلُّها تدُلُّ على أنَّ البسْملةَ ليستْ منَ الفاتِحةِ.

---

(١) أخرجه مسلم: كتاب الصلاة، باب وجوب قراءة الفاتحة في كل ركعة، رقم (٣٩٥)، من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

الآية (١)

۞ قالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿حمٓ﴾ [فصلت:١].

قالَ المُفسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ[1]: [اللهُ أعلمُ بمُرادِه به]، وهذا هوَ الأدبُ مَع كِتابِ اللهِ وسنَّةِ رسُولِه -صلَّى اللهُ علَيهِ وعلى آلِهِ وسلَّمَ- أنَّ الَّذي لا تَعرِفُ معناهُ قلْ: اللهُ أعلمُ بمُرادِه به؛ لقولِ اللهِ تعالى: ﴿وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ ۚ إِنَّ ٱلسَّمْعَ وَٱلْبَصَرَ وَٱلْفُؤَادَ كُلُّ أُو۟لَٰٓئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْـُٔولًا﴾ [الإسراء:٣٦].

ولكن قد يَقول قائِل: إنَّنا نعلَم أنَّه لا معنى لهذه الحُروف الهِجائيَّة الَّتي تُوجَد في كثير منَ السُّوَر؛ ونعلمُ ذلك بدَلالَةِ القرآنِ، فقدْ قالَ اللهُ تعالى: ﴿نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ ﴿١٩٣﴾ عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُنذِرِينَ ﴿١٩٤﴾ بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُّبِينٍ﴾ [الشُّعراء:١٩٣-١٩٥]، واللِّسانُ العرَبيُّ لا يكونُ التَّعبيرُ بمثلِ هذهِ الحُروفِ لهُ معنًى في حدِّ ذاتِهِ لوْ قُلتَ: «أ، ب، ج، ح، خ»؛ فلَيسَت لها معنًى، فإذا لم يكنْ لها معنًى بمُقتضَى اللِّسانِ العَربيِّ، قُلْنا: إنَّ قولَه: ﴿حمٓ﴾ و﴿الٓمٓ﴾ و﴿الٓر﴾، وما أشبهَها، ليسَ لها معنًى في حدِّ ذاتِها.

ويَرِدُ على هذا: إذا لم يكُنْ لها معنًى صارتْ لَغوًا، وكـلامُ اللهِ تعالى لا لَغوَ فيهِ!!

---

(١) المقصود بـ(المُفسِّر) هنا: محمد بن أحمد بن محمد بن إبراهيم جلال الدين المحلي، المتوفى سنة (٨٦٤هـ) رحمه الله تعالى، ترجمته في: الضوء اللامع (٧/ ٣٩)، حسن المحاضرة (١/ ٤٤٣).

فيُقالُ: إنَّها ليستْ لَغوًا، وإنَّما المُرادُ إقامةُ الحُجَّةِ على أولئك المُشرِكين؛ حيثُ عجَزوا عنِ الإتْيانِ بمِثلِ القرآنِ، ولا بآيةٍ واحِدةٍ، مَع أنَّ هذا القرآنَ: هل أتى بحُروفٍ لا يَعرِفونها حتَّى يَعتذِروا ويَقولوا: إنَّه جاءَ بحرُوف ليستْ مَعروفةً لنا؟

الجَوابُ: لا؛ فالقرآنُ جاءَ بحُروف يَعرِفونها، قالَ شيخُ الإسلامِ[1] رَحِمَهُ ٱللَّهُ: ولذلِك لا تَكادُ تَرى سُورةً مَبدوءةً بهذِهِ الحُروفِ إلَّا وبعدَها ذُكِرَ القرآنُ، وابْدأْ مِنْ أوَّلِ البقرةِ إلى أنْ تأتيَ إلى آخِرِ السُّوَرِ المَبدوءةِ بهذه الحروفِ، تَجِدُ أنَّ بعدَها ذِكرَ القُرآنِ؛ وذلكَ إشارةٌ إلى أنَّ هذا القرآنَ الَّذي أَعجزَكم -مَعْشَرَ العرَبِ- كانَ مِن هذهِ الحُروفِ الَّتي تُكوِّنون مِنها كلامَكم، وهذا الَّذي ذَهبَ إليهِ شيخُ الإسْلامِ رَحِمَهُ ٱللَّهُ واضِحٌ جدًّا.

وأمَّا القولُ بأنَّه ليسَ لها معنًى؛ فقدْ قالَه مُجاهِدُ بنُ جبرٍ[2] رَحِمَهُ ٱللَّهُ أعلمُ التَّابِعين بكِتابِ اللهِ عَزَّوَجَلَّ.

---

(١) انظر: تفسير ابن كثير (١/ ٧١).

(٢) أخرجه الطبري في تفسيره (١/ ٢٠٩)، وانظر: تفسير ابن كثير (١/ ٧٠).

الآيتان (٢، ٣)

• ● ◆ ● •

قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿تَنزِيلٌ مِّنَ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ۝٢ كِتَٰبٌ فُصِّلَتْ ءَايَٰتُهُۥ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ [فصلت:٢-٣].

• ● ◆ ● •

قَولُه تَعالى: ﴿تَنزِيلٌ مِّنَ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ۝٢ كِتَٰبٌ فُصِّلَتْ ءَايَٰتُهُۥ﴾، قالَ المُفسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿تَنزِيلٌ﴾ مُبتدأٌ، و﴿كِتَٰبٌ﴾ خبرُهُ]، وَلَوْ قِيلَ بِالْعكسِ -في غَيرِ القُرآن- لَكانَ أوضحَ، لو قِيلَ: كِتابٌ فُصِّلتْ آياتُهُ تنْزيلٌ مِنَ الرَّحمنِ الرَّحيم؛ لأنَّهُ يُخبرُ بالمعنى عنِ الذَّاتِ، ولا يُخبرُ بالذاتِ عنِ المعنَى؛ وهذا هو الأصلُ، فتقولُ: زيدٌ قائمٌ، قائمٌ خبرٌ، ولا تَقُلْ: زيدٌ خبرٌ، لكنْ ما ذهبَ إلَيهِ المُفسِّر من الإعْراب له وجْهٌ، فليسَ باطِلًا، لكنْ لو قِيلَ: إنَّ ﴿تَنزِيلٌ﴾ هوَ خبرُ مقدَّمٌ و﴿كِتَٰبٌ﴾ مُبتَدأٌ مُؤخرٌ لكانَ أوْضحَ وأبْينَ.

وقوله: ﴿تَنزِيلٌ مِّنَ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾ يَعني به الرَّبَّ عَزَّوَجَلَّ أيْ تنـزيلٌ منَ اللهِ الرَّحمنِ الرَّحيمِ، لكنَّه أَتى بهذَيْنِ الِاسمَينِ الكَريمَينِ إشارةً إلى أنَّ القُرآنَ رحمةٌ؛ لأنَّ إنزالَه منْ مُقتَضى رحمةِ اللهِ عَزَّوَجَلَّ أليسَ منَ الممكنِ أنْ يُقالَ: تنزيلٌ منَ اللهِ؟ بلَى، كما جاءَ في آياتٍ أخرى، لكنَّه قالَ: ﴿مِّنَ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾، إشارةً إلى أنَّ هذا القرآنَ نزلَ بمُقتَضى رَحمةِ اللهِ عَزَّوَجَلَّ وأنَّ اللهَ رحِمَ بِهِ العِبادَ.

والرَّحمنُ الرَّحيمُ: اسمانِ منْ أسْماءِ اللهِ، منْ أشرفِ أسماءِ اللهِ عَزَّوَجَلَّ ويأتيانِ

مُقترِنين، ويأتِيانِ مُنفصلَيْنِ بعضُهما عنْ بعضٍ؛ فإنِ انفصلَا فكلٌّ واحدٍ مُتضمِّنٌ معنَى الآخرِ.

فقولُه: ﴿ٱلرَّحۡمَٰنُ عَلَى ٱلۡعَرۡشِ ٱسۡتَوَىٰ﴾ [طه:٥]، هذا مُنفرِدٌ عنِ الرَّحيمِ، فيتَضمَّن الصِّفَةَ والفِعلَ؛ أيْ: أنَّ اللهَ تَعالى مَوصوفٌ بِالرَّحمةِ الواسِعةِ، وهوَ سُبۡحَانَهُۥ وَتَعَالَىٰ يَرحَم -بهذِه الرَّحمةِ- مَنْ شاءَ مِن عِبادِه.

وفي قَولِه: ﴿وَهُوَ ٱلۡغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ﴾ [يُونُس:١٠٧]، أيضًا نَقولُ: الرَّحيمُ هُنا تشْملُ الوَصفَ والفِعلَ؛ لِأنَّها انفردتْ عنِ الرَّحمنِ.

أمَّا إذا اجْتَمعَ (الرَّحمنُ والرَّحيمُ) كانتِ الرَّحمنُ للصِّفةِ والرَّحيمُ للفِعلِ؛ ولهذا جاءتِ الرَّحمن على وزنِ «فَعلان»، وهذا الوزنُ في اللُّغةِ العَربيَّةِ يَقتَضي الِامتِلاءَ وكَمالَ وتَمامَ الوصفِ الَّذي كانَ مُرادًا؛ فَمثلًا يُقالُ: غضبانُ لِمَنِ امْتلأَ غضَبًا، ويُقالُ: غاضِبٌ لمَنْ كانَ غضَبُه خفِيفًا، وكذَلِك سكْران للمُمتَلِئ سُكْرًا، فكلُّ هذا الوَزنِ يُفيدُ الِامْتِلاءَ والسَّعَةَ.

أمَّا الرَّحيمُ فغُلِّبَ فيها جانبُ الفِعلِ؛ أيْ: إيْصالُ الرَّحمةِ إلى المَرحومِ؛ ولهذا جاءتْ في القُرآنِ الكَريمِ: ﴿وَكَانَ بِٱلۡمُؤۡمِنِينَ رَحِيمٗا﴾ [الأحزاب:٤٣]؛ أي: قدْ وَصلَت رحْمتُه إلى المؤمِنين على وجْهٍ مُطلقٍ، أمَّا غيرُ المؤمنينَ فإنَّهُ يَرحَمُهُم بالمعنَى العامّ.

وقد ذَكَر بعضُ المُفسِّرينَ: أنَّ الرَّحمنَ أعمُّ منَ الرَّحيمِ، فتَشملُ الكُفَّارَ، أمَّا الرَّحيمُ فهيَ خاصَّةٌ بِالمؤمنينَ، لكنَّ ما ذَكَرتُه أحسن، وقدْ نبَّهَ عليهِ ابنُ القيِّمِ[1] رَحِمَهُ ٱللَّهُ.

وخُلاصةُ ما قُلنا في «الرَّحمنِ الرَّحيمِ»: إمَّا أنْ يُذكَرَ الرَّحمنُ مَع الرَّحيمِ، أو يُفردُ

---

(١) انظر: مدارج السالكين (١/ ٥٦).

أحدُهُما عنِ الآخَرِ، فإنْ أُفرِدَ أحدُهما عنِ الآخَرِ تضمَّنَ الثَّاني، وإنْ ذُكِرَا جميعًا غُلِّبَ في الرَّحمَنِ جانِبِ الصِّفَةِ، وفي الرَّحيمِ جانِبُ الفِعْلِ.

واعلَمْ أنَّ هذَينِ الاِسمَينِ الكَريمَينِ يدلَّانِ على أنَّ اللهَ تعالَى مَوصوفٌ بالرَّحمةِ، كما قالَ تَعالى: ﴿وَرَبُّكَ ٱلْغَفُورُ ذُو ٱلرَّحْمَةِ﴾ [الكَهْفِ:٥٨] ﴿وَرَبُّكَ ٱلْغَنِيُّ ذُو ٱلرَّحْمَةِ﴾ [الأنعامِ:١٣٣]، فالرَّحمةُ صِفتُهُ والرَّحيمُ اسمُهُ، وهل هذا الاسْمُ ممَّا يتَعدَّى أو منَ المَصادِرِ اللَّازِمةِ؟

الجَوابُ: يَتعدَّى؛ لقولِه تَعالى: ﴿وَيَرْحَمُ مَن يَشَآءُ﴾ [العَنكَبوتِ:٢١]؛ والقاعِدةُ في العَقيدَةِ: أنَّه إذا كانَ الِاسمُ لازِمًا لا يَتعدَّى، فإنَّهُ يَتضمَّنُ أمرَيْنِ: إثْباتَ الِاسمِ، وإثْباتَ الصِّفَةِ، وإذا كانَ يَتعدَّى فإنَّه يَتضمَّنُ ثلاثةَ أشياءَ: إثْباتَ الِاسمِ، وإثْباتَ الصِّفَةِ، وإثْباتَ الفِعْلِ.

فكلِمةُ العَظيمِ اسمٌ منْ أسْماءِ اللهِ لازِمٌ؛ ولهذا يُقالُ: عَظُمَ؛ أي: صارَ عَظيمًا؛ والإيمانُ بهِ يَتضمَّنُ الإيمانَ بالعَظيمِ، على أنَّه اسمٌ منْ أسْماءِ اللهِ، ويَتضمَّنُ أيضًا ثُبوتَ العظَمةِ للهِ عَزَّوَجَلَّ.

وكلِمة الرَّحمنِ تَتضمَّنُ ثلاثةَ أشياءَ: تَتضمَّنُ «الرَّحمنَ»، اسمٌ من أسماءِ اللهِ، والثَّاني: الرَّحْمةُ؛ صِفةٌ مِن صِفاتِهِ، والثَّالثُ: الفِعلُ؛ أيْ: أنَّهُ يَرحمُ مَن يَشاءُ، وعلى هذا فقِسْ.

فالإيْمانُ بالأسْماءِ: إنْ كانتْ مُتعدِّيةً لزِمَ أنْ تُؤمِنَ بالاسمِ والصِّفةِ والفِعلِ، وإنْ كانتْ لازِمةً وجَبَ أنْ تُؤمنَ بالِاسمِ والصِّفَةِ.

وقولُه: ﴿كِتَٰبٌ فُصِّلَتْ ءَايَٰتُهُۥ﴾ كِتابٌ فِعالٌ بمعْنَى مَفعُولٍ؛ أي: مَكتوبٌ،

وهو مَكتوبٌ في اللَّوْحِ المَحفوظِ، ومَكتوبٌ بالصُّحُفِ الَّتي بأيدِي الملائكَةِ، ومَكتوبٌ بِالصُّحُفِ الَّتي بأيْدِينا.

أمَّا الأوَّلُ فدَليلُه قولُه تَعالَى: ﴿بَلْ هُوَ قُرْءَانٌ مَّجِيدٌ ﴿٢١﴾ فِي لَوْحٍ مَّحْفُوظٍۭ﴾ [البُروج:٢٢].

وأمَّا الثاني فدَليلُه قولُه تَعالى: ﴿فَمَن شَآءَ ذَكَرَهُۥ ﴿١٢﴾ فِي صُحُفٍ مُّكَرَّمَةٍ ﴿١٣﴾ مَّرْفُوعَةٍ مُّطَهَّرَةٍۭ ﴿١٤﴾ بِأَيْدِي سَفَرَةٍ ﴿١٥﴾ كِرَامٍۭ بَرَرَةٍ﴾ [عبس:١٦].

وأمَّا الثَّالثُ فواضِحٌ؛ فكلُّ ما جاءَ من كِتابٍ فهوَ يتَضمَّنُ هذه المعاني الثَّلاثةِ.

قَولُهُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿فُصِّلَتْ ءَايَٰتُهُۥ﴾ بُيِّنتِ بالأحْكامِ والقصَصِ والمَواعِظِ] التَّفْصيلُ ضدُّ الإجْمالِ، يَعنِي: أنَّ آياتِ القُرآنِ مُفصَّلةٌ، لكِنَّها تأتي أحْيانًا مُجملةً، وتأتي أحْيانًا مُفصَّلةً، وإذا فُصِّلَ المُجملُ صارَ الجَميعُ مُفصَّلًا.

وقولُه: ﴿ءَايَٰتُهُۥ﴾ جَمعُ آيةٍ، والآيةُ في القرآنِ هي كلُّ ما فُصِلَ بينها وبين ما سبقَها ولحِقَها بفاصلٍ؛ ولهذا تَسمَعون في كلامِ العُلَماءِ: «فَواصِلُ الآياتِ»، يعنِي الأماكنَ الَّتي تُفصَلُ فيها الآيةُ عمَّا قبلَها وعمَّا بعدَها.

والآياتُ الكَريمةُ مِنها ما هو طَويلٌ، ومنها ما هو قَصيرٌ، ومنها ما هو مُتوسِّطٌ؛ فأطوَلُ آيةٍ في كِتابِ اللهِ آيةُ الدَّينِ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِذَا تَدَايَنتُم بِدَيْنٍ﴾ [البقرة:٢٨٢]، وأقْصرُ آيةٍ: ﴿طه﴾ [طه:١]، لكنَّ هذه منَ الحُروفِ الَّتي ليسَ لها معنًى، كما قرَّرْنا. فقولُه: ﴿ثُمَّ نَظَرَ﴾ [المُدَّثر:٢١] أقصرُ آيةٍ في كِتابِ اللهِ، والباقي مُتوسِّطٌ منهُ ما يَميلُ إلى الطُّولِ، ومنهُ ما يَميلُ إلى القِصَرِ.

والسُّنَّةُ في الآياتِ: أنْ تَقرَأها حسْبَ ما فُصِّلَتْ؛ فتُقرَأ: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢﴾ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴿٣﴾ مَٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ ﴿٤﴾ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴿٥﴾

﴿ٱهۡدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلۡمُسۡتَقِيمَ ۝٦ صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنۡعَمۡتَ عَلَيۡهِمۡ غَيۡرِ ٱلۡمَغۡضُوبِ عَلَيۡهِمۡ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ﴾ [الفاتحة:١-٧].

فهذه سبعُ آياتٍ، تَقرؤها هَكَذا مُفصَّلَةً، وإنْ أُدرِجَتْ فلا بأسَ؛ لأنَّه لم يرِدِ النَّهْيُ عن ذلك، إلَّا أنَّه لا يَنْبغِي للإنسانِ أنْ يَهُذَّ القُرآنَ هَذًّا، تخْفَى معه الحُروفُ، بل قد يَحرُمُ عليهِ إذا لَزِمَ أن تَخفى بعضُ الحُروفِ. أمَّا الهذُّ الذي يَستكمِلُ فيهِ الإنسانُ الحُروفَ فلا بأسَ، لكنَّ الأفْضلَ الوقوفُ على كلِّ آيةٍ.

فإنْ قالَ قائلٌ: هل تقِف على قولِه تَعالى: ﴿فَوَيۡلٌ لِّلۡمُصَلِّينَ﴾ [الماعُون:٤]؟

فالجَوابُ: يقـفُ؛ لأنَّها آيةٌ؛ لأنَّ اللهَ عَزَّوَجَلَّ هو الَّذي أنزَلَها، وجعَلَ هذه آيةً مُنفصِلةً عنِ الأُخرى، وربَّما يَكونُ في الوُقوفِ على الآيةِ هكذا حتَّى يَندهِشَ القلبُ، فيترَقَّبَ بشغَفٍ المعنى المُبيَّنَ لهذا، فتَقولُ: ﴿ٱلَّذِينَ هُمۡ عَن صَلَاتِهِمۡ سَاهُونَ﴾ [الماعون:٥]، فكَأنَّها مطَرٌ على أرْضٍ قاحِلةٍ، إذَنْ: نقِفُ على هذا ولا مانِعَ.

أمَّا قولُه: ﴿لَا تَقۡرَبُواْ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ فهذِه لا نقِفُ عليها؛ لأنَّها ليستْ رأسَ آيةٍ بَلْ نَقولُ: ﴿لَا تَقۡرَبُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنتُمۡ سُكَٰرَىٰ﴾ [النِّساء:٤٣].

إذَنْ: فقَـولُه تَعالى: ﴿فُصِّلَتۡ ءَايَٰتُهُۥ﴾، يَشْملُ التَّفصِـيلَ اللَّفْظِيَّ والمعنَوِيَّ؛ فالتَّفْصيلُ اللَّفْظيُّ: أنَّ اللهَ جعَلَ كلَّ آيةٍ مُستقِلَّةً عنِ الأُخرَى، مَفصولًا بعضُها عن بعضٍ، والمَعنوِيُّ: التَّبْيينُ والإيضاحُ لِـما كانَ مُجْملًا؛ ولهذا أَشارَ المُفسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ إلى التَّفْصِيلِ الْمعنَوِيِّ فقطْ؛ فقالَ: [بُيِّنَتْ بالأحْكامِ والقَصَصِ والمَواعِظِ]، ولكنْ ينْبَغِي أنْ يُقالَ: إنَّها فُصِّلَتْ مِن وَجْهَينِ: لفظِيٍّ ومَعنوِيٍّ. فاللَّفظِيُّ: أنَّ كلَّ آيةٍ فُصِلَتْ عنِ الأُخرَى، والمعنَوِيُّ: أنَّها بُيِّنتْ وبُيِّنَ ما أُجمِلَ منها، سَواءٌ مِنَ الأحكامِ أو غيرِها.

فقولُه تعالى: ﴿وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا يَوۡمُ ٱلدِّينِ ۝١٧ ثُمَّ مَآ أَدۡرَىٰكَ مَا يَوۡمُ ٱلدِّينِ﴾ [الانفطار:١٧-١٨]، هذا مُجمَلٌ فصَّلَهُ بِقولِه: ﴿يَوۡمَ لَا تَمۡلِكُ نَفۡسٞ لِّنَفۡسٖ شَيۡـٔٗاۖ وَٱلۡأَمۡرُ يَوۡمَئِذٖ لِّلَّهِ﴾ [الانفطار:١٩].

وقَولُه تَعالى: ﴿ٱلۡقَارِعَةُ ۝١ مَا ٱلۡقَارِعَةُ ۝٢ وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا ٱلۡقَارِعَةُ﴾ [القارعة:١-٣] مُجمَلٌ فصَّلَه بِقولِه: ﴿يَوۡمَ يَكُونُ ٱلنَّاسُ كَٱلۡفَرَاشِ ٱلۡمَبۡثُوثِ﴾. فالتَّفْصيلُ هُنا -أي: التَّفْصيلُ المعنويُّ- يعني بيانَ القرآنِ أنَّه بيَّنَ ووضَّحَ، حتَّى لو جاءَ مُجملًا فلا بدَّ أنْ يُبيَّنَ.

فإذا قالَ قائلٌ: قالَ اللهُ تَعالى: ﴿كِتَٰبٞ فُصِّلَتۡ ءَايَٰتُهُۥ﴾، وفي آيةٍ أُخرى قالَ: ﴿ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحۡسَنَ ٱلۡحَدِيثِ كِتَٰبٗا مُّتَشَٰبِهٗا مَّثَانِيَ﴾ [الزُّمَر:٢٣]، فأين الجمعُ بينَ هذِه الآياتِ؟

الجَوابُ: لا تَعارُضَ؛ لأنَّ قولَه: «مَثانيَ» بمعنى «فُصِّلَتْ»، حيثُ إنَّ معناها تُثنَّى فيه المَعاني، فيَذكُرُ الخَيرَ ثمَّ الشَّرَّ، يَذكُرُ أهلَ الخَيرِ وأهلَ الشَّرِّ، والجنَّةَ والنَّارَ وما أشبَهَ ذلِكَ؛ هذا هوَ المُرادُ بِقولِه: «مَثانيَ».

أمَّا قولُه: «مُتشابِهًا»، فمَعناه: أنَّه يُشبِهُ بعضُهُ بعضًا في الكَمالِ والحُسْنِ والجَودَةِ.

فإنْ قِيلَ: ما الجمعُ بينَ ثَناءِ اللهِ على القُرآنِ بأنَّه مُتَشابِهٌ وبيْنَ قولِه تَعالى: ﴿مِنۡهُ ءَايَٰتٞ مُّحۡكَمَٰتٌ هُنَّ أُمُّ ٱلۡكِتَٰبِ وَأُخَرُ مُتَشَٰبِهَٰتٞۖ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمۡ زَيۡغٞ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَٰبَهَ مِنۡهُ﴾ [آلِ عمرانَ:٧]؟

قُلْنا: الجمعُ بينهما أنَّه مُتشابِهٌ في الحُسْنِ، يُشبِهُ بَعضُه بَعضًا، وأمَّا مُحكَماتٌ ومُتَشابِهاتٌ، فالمُحكَماتُ هي: ما اتَّضحَ مَعناها، والمُتَشابِهاتُ هي: ما خفِيَ مَعناها.

وقولُه رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿قُرۡءَانًا عَرَبِيّٗا﴾ حالٌ مِنْ «كتابٌ» بصفَتِه].

مفسِّرُ الجلالَيْنِ رَحِمَهُ ٱللَّهُ جيد جدًّا، حيث قالَ: إنَّ ﴿قُرۡءَانًا﴾ [حالٌ]، فكأنَّ

إنسانًا أورَدَ عليهِ كيفَ تَقولُ: إنَّه قُرآنٌ، والحالُ وصفٌ، والقرآنُ ليسَ وصفًا، فقالَ: بصِفتِه، وصفْتُه: ﴿عَرَبِيًّا﴾؛ يَعني: لو كانتْ في الآيةِ الكريمةِ قُرآنًا فقطْ، لـما صحَّ أنْ تَكونَ حالًا؛ لأنَّ الحالَ لا بُدَّ أنْ تكونَ مُشتقَّةً: اسمَ فاعلٍ، أوِ اسمَ مَفعولٍ، أو ما أشبهَ ذلكَ، وقرآنٌ غيرُ مشتقٍّ؛ فلهذا قالَ: إنَّها [حالٌ مِن «كتابٌ» بصِفتِه].

إذَن: [بصِفَتـه] عائِدٌ على «قـرآنٍ»، كأنَّه قالَ: صـحَّ أن يَكونَ حالًا لأنَّه مَوصوفٌ.

فإذا قالَ قائِلٌ: كيفَ تجعَلونَهُ حالًا مِنْ كتابٍ وكتابٌ نكرةٌ وصاحبُ الحالِ لا بُدَّ أنْ يكونَ مَعرِفةً؟

قُلنا: إنَّ هذهِ النَّكرةَ خُصِّصَتْ في قولِه: ﴿كِتَٰبٌ فُصِّلَتۡ ءَايَٰتُهُۥ﴾، خُصِّصتْ بالصِّفةِ، والنَّكِرَةُ إذا خُصِّصتْ صارتْ قريبةً منَ المَعرِفةِ؛ فلِذلك جازَ وقوعُ الحالِ منها.

فلدَينا الآنَ إشْكالانِ:

الإشْكالُ الأوَّلُ: كيفَ جاءتِ الحالُ مِن كِتابٍ وهوَ نكِرةٌ؟

وجَوابُه: أنَّ كِـتابًا الَّذي هو النَّكِـرةُ وُصِفَ بقولِه: ﴿فُصِّلَتۡ ءَايَٰتُهُۥ﴾، وإذا وُصِفتِ النَّكِرة جازتِ الحالُ منها.

الإشْكالُ الثَّاني: الحالُ ﴿قُرۡءَانًا عَرَبِيًّا﴾ إذا أعرَبْنا قُرآنًا حالًا، فكيفَ صحَّ أنْ يكونَ حالًا وليسَ بمُشْتقٍّ؟

فالجوابُ: أنَّه مَوصوفٌ مُشتقٌّ؛ فلذلكَ جازتِ الحالُ منه.

وقولُه: ﴿قُرۡءَانًا عَرَبِيًّا﴾ معنَى كونِه عربيًّا: أوَّلًا: كلِمةُ «قُرآن» على وزنِ فُعْلانٍ،

كشُكرانٍ وغُفرانٍ وما أشبهَ ذلكَ. فهلْ هو بمعنى قارئٍ أو بمعنى مَقروءٍ؟ قِيلَ: إنَّه بمعنى مَقروءٍ، ومَقروءٌ هلْ هو منَ الجَمْعِ أو منَ التِّلاوَةِ؟ قِيلَ: إنَّه مِنْ قَرى يَقري بمعنى جَمَع، ومنه اسمُ القريةِ؛ لأنَّها جامعةٌ للنَّاسِ، وقِيلَ: مِن قرَأَ بمعنى تَلا.

والصَّوابُ: أنَّه جائزٌ أنْ يَكونَ مِنْ هذا ومِن هذا؛ لأنَّه ما دامَ اللَّفظُ صالحًا للمعنيَّينَ ولا مُنافاةَ بينَهما، فإنَّه يُحمَلُ عليهما جَميعًا؛ وهذا إذا قُلنا: إنَّ ﴿قُرْءَانًا﴾ بمعنى مَقرُوءٍ.

ويَجوزُ أنْ تَكونَ بمعنى اسمِ الفاعِلِ «قارِئ»؛ فَقُرآنُ بمَعنى قارِئ؛ أي: جامِعٌ؛ جامِع للأحكام والتَّوْحيد وغير ذلك.

أمَّا «عرَبيًّا» فهو نِسبة للعَرَب؛ لأنَّه جاءَ بلُغَتِهم.

وقولُه تعالى: [﴿لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ يَفهَمون ذلك، وهم العرَب]، يعنِي: أنَّ الله جعلَه قرْآنًا عربيًّا لقَوْم يعلَمونَه ويفهَمُونه، ولا حُجَّة لهم في مُعارَضَته والكُفرِ به؛ لأنَّهم يَعلَمُونه، كما قالَ تعالى في آية أُخْرى: ﴿إِنَّا جَعَلْنَٰهُ قُرْءَٰنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ [الزُّخرُف:٣]؛ أي: تَفهَمون معناه، حيثُ جاء بلِسان العَرَب.

فائِدة: ورَدت في القرآنِ آيات تَجرِي على سبيل المَثَل، مِثل: ﴿وَتِلْكَ ٱلْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ ٱلنَّاسِ﴾ [آل عمران:١٤٠] فهل صحيحٌ أنَّه وردَ النَّهي عن استِعمالها في غير مَكانها؟

الجَواب: للاستِشهاد بها لا بأسَ به؛ أمَّا أنْ تَجعَل القرآنَ بدلًا عن الكلامِ فهذا حَرام.

وقد ذَكَر صاحبُ (جواهِرِ الأدَب) قِصَّة عَنونَها بقولِه: «المُتكلِّمةُ بالقرآنِ

الكريمِ بدَلًا عن الكَلام»(١)، وجاءَ بقِصَّة امْرأةٍ تُخاطِب أولادَها بالقُرآن، إذا قالَت: تَغدُّوا، قالَت: ﴿ءَاتِنَا غَدَآءَنَا﴾، ولو أمَرَتهم يَشترون حاجَة منَ السُّوق قالَت: ﴿فَٱبۡعَثُوٓاْ أَحَدَكُم بِوَرِقِكُمۡ هَٰذِهِۦٓ إِلَى ٱلۡمَدِينَةِ﴾ [الكهف:١٩]، وما أشبه ذلك.

ثُمَّ قالَ في آخر القِصَّة: هذه امْرَأة لها كذا من السِّنين تَتكلَّم بالقرآن مَخافَة أنْ تَزِلَّ، فيغضَب عليها الرَّحمَن. والواقِع أنَّها زَلَّت تمامًا، فقد جعلَت تُنزِّل آيات القرآن الكريمِ على أغراضِها الخاصَّة، وهذا لا يَجوز.

أمَّا الاسْتِشهاد بالقُرآن مِثل أنْ تَرى رَجُلًا مَفْتُونًا بالدُّنيا، تَقُول: ﴿ٱلۡمَالُ وَٱلۡبَنُونَ زِينَةُ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَاۖ وَٱلۡبَٰقِيَٰتُ ٱلصَّٰلِحَٰتُ خَيۡرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَابٗا وَخَيۡرٌ أَمَلٗا﴾ [الكهف:٤٦] هذا لا بأْس به، وقَد جاء في الحَديثِ أنَّ الرَّسُول عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ لـمَّا رَأى الحسنَ والحُسَينَ وهُما يَعثُران بثَوبٍ جديدٍ نَزَل وأخذَهُما وقالَ: صدَق اللهُ: «﴿إِنَّمَآ أَمۡوَٰلُكُمۡ وَأَوۡلَٰدُكُمۡ فِتۡنَةٞ﴾ [التَّغابُن:١٥]»(٢).

مِن فَوائدِ الآيتَيْن الكَريمتَيْن:

الْفَائِدَة الأُولَى: أنَّ نُزول القرآنِ من عندِ الله؛ لِقولِه: ﴿تَنزِيلٞ مِّنَ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾.

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَةُ: أنَّ إنزالَ القُرآنِ من آثارِ رحمةِ الله؛ حيثُ قالَ: ﴿مِّنَ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾.

---

(١) جواهر الأدب في أدبيات وإنشاء لغة العرب لأحمد الهاشمي (١/ ٤٠٤).

(٢) أخرجه الإمام أحمد (٥/ ٣٥٤)، وأبو داود: كتاب الصلاة، باب الإمام يقطع الخطبة للأمر يحدث، رقم (١١٠٩)، والترمذي: كتاب المناقب، باب مناقب الحسن والحسين رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، رقم (٣٧٧٤)، والنسائي: كتاب صلاة العيدين، باب نزول الإمام عن المنبر قبل فراغه من الخطبة، رقم (١٥٨٥)، وابن ماجه: كتاب اللباس، باب لبس الأحمر للرجال، رقم (٣٦٠٠)، من حديث بريدة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

الْفَائِدَةُ الثَّالِثَةُ: إثباتُ اسمَين من أسماءِ اللهِ، وهما: الرَّحمنُ الرَّحيمُ.

الْفَائِدَةُ الرَّابِعَةُ: إثباتُ ما دلَّ عليه هذانِ الاسْمان مِن صِفة الرَّحمةِ، وقد ذَكَرْنا في التَّفسير: أنَّ أهلَ التَّعطيلِ نفَوْا أن يَكونَ للهِ رَحمةٌ، وقُلنا: إنَّهم يُفسِّرون الرَّحمةَ إمَّا بالإحْسانِ والثَّوابِ، وهو مُنفصِلٌ، وإمَّا بإرادَة الإحْسانِ والثَّوابِ؛ لأنَّهم كانوا يُقرُّون بالإرادَة، وبيَّنَّا بُطلان هذا القَول، وأنَّ الصَّواب أنَّها -الرَّحمةُ- من صِفاتِ اللهِ عَزَّوَجَلَّ ولكنَّها ليْست كرَحمةِ المَخلوقِ.

الْفَائِدَةُ الخَامِسَةُ: أنَّ القُرآنَ فُصِّلتْ آياتُه، والتَّفصيلُ: تَفصيلٌ لفظيٌّ ومَعنويٌّ؛ فالتَّفصيلُ اللَّفظيُّ بالفَواصِل بينَ الآياتِ، والمَعنويُّ بالتَّفصيل في المَعنى، فإذا ذَكَرَ الله تَعالى أمْرًا ذَكَر نهيًا، وإذا ذَكَرَ ثَوابًا ذكرَ عِقابًا، وإذا ذَكَرَ أهلَ الخيرِ ذَكَرَ أهلَ الشَّرِّ، وهكذا «مَثاني».

الْفَائِدَةُ السَّادِسَةُ: أنَّ القرآنَ كلُّ آيةٍ منه تُعتَبر آيةً على صِدق الرَّسول عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ لِقولِه تَعالى: ﴿فُصِّلَتْ ءَايَٰتُهُۥ﴾، وآياته جَمعٌ يعُمُّ كلَّ فردٍ على حِدتِه ويَعمُّ المَجموعَ.

الْفَائِدَةُ السَّابِعَةُ: أنَّ القُرآنَ نَزلَ باللُّغةِ العَربيَّةِ، ففيه مَنقَبةٌ للعرَبِ؛ لأنَّ هذا القُرآنَ نَزلَ بلغَتِهم، وفيهِ إحياءٌ للُّغةِ العَربيَّةِ؛ لأنَّ هذا القُرآنَ سيبقى إلى أنْ يأذَنَ الله بخَرابِ العالَمِ. ومنَ المَعلومِ أنَّه إذا بقِي باللِّسانِ العَربيِّ فسوف تَحيَا اللُّغةُ العَربيَّة وتَبقى، وهذا من آثارِ القُرآنِ.

الْفَائِدَةُ الثَّامِنَةُ: أنَّه لا يَفقَه هذا القُرآنَ -ولَو كان باللُّغةِ العَربيَّةِ- إلَّا ذَوُو العِلمِ؛ لِقولِه: ﴿لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾، أمَّا مَن ليْسَ مِن أهلِ العِلمِ فإنَّه لا يَستَفيدُ مِن هذا الكِتابِ شيئًا؛ لأنَّه أمِّيٌّ.

والَّذي يَقرأُ القُرآنَ بلا فَهمٍ للمَعنى فهو أُمِّيٌّ وإنْ تلاهُ؛ لِقولِ اللهِ تَعالى: ﴿وَمِنْهُمْ أُمِّيُّونَ لَا يَعْلَمُونَ ٱلْكِتَٰبَ إِلَّآ أَمَانِيَّ﴾ [البقرة:٧٨]، فالَّذي لا يَعلمُ القُرآنَ إلَّا قراءةً فقطْ؛ فهوَ كالَّذي لا يَقرأُ القُرآنَ ولا فرقَ.

• ● ❁ ● •

الآية (٤)

• ● ○ ● •

۞ قالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿بَشِيرًا وَنَذِيرًا فَأَعْرَضَ أَكْثَرُهُمْ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ﴾ [فُصِّلت:٤].

• ● ○ ● •

قولُه رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿بَشِيرًا﴾ صِفة «قرآنًا»]، يعني: جعَلْناه قرآنًا عربيًّا؛ بَشِيرًا لِمَن آمَن به، كما قالَ تعالى: ﴿وَهُدًى وَبُشْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ [البقرة:٩٧]، ونذِيرًا لمَن كفر به، وإن شِئْتَ فقُل: إنَّه نذِير لجَميع العالمَين، كما قال تعالى: ﴿تَبَارَكَ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِۦ لِيَكُونَ لِلْعَٰلَمِينَ نَذِيرًا﴾ [الفرقان:١].

المُهِمُّ: أنَّ البِشارة خاصَّــة والإنْذار عامٌّ، ورُبَّما يَكون خاصًّا كما قال تعالى: ﴿وَتُنذِرَ بِهِۦ قَوْمًا لُّدًّا﴾ [مريم:٩٧] يعني: الَّذين كَفروا به، فصارَت (البَشيرُ) خاصَّة بمَن آمنَ، و(النَّذيرُ) تَكونُ عامَّة، وتَكونُ خاصَّة.

والبَشيرُ هو المُخبِرُ بِما يسُــرُّ، وسُمِّي خَبَرُه بِشارَة؛ لأنَّ أثَرَه يَظْهر على بَشَــرَة الإنْسان؛ ولهذا تَبْرُق أسارِيرُ وجْهِه منَ الفرَحِ.

وقوْلُه: ﴿وَنَذِيرًا﴾ الإنْذار: هو الإعْلام المَقْرون بالتَّخوِيف.

وقولُه: ﴿فَأَعْرَضَ أَكْثَرُهُمْ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ﴾ الفاءُ عاطِفَة، و«أعرَضَ» مَعْطوفة على «فُصِّلت» يَعنِي: كتابٌ فُصِّلــت آياتُه، ومعَ ذلِك أعرَضَ أكثرُهم، ويَحتَمل أن تَكون الفاء للاستِئناف؛ يَعنِي: أنَّها جُملة مُستأنَفة لا تُعطَف على ما قبْلَها: ﴿فَأَعْرَضَ أَكْثَرُهُمْ﴾ أي: أكثَرُ الَّذين بَلَغَهم.

وقولُه رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿فَهُمۡ لَا يَسۡمَعُونَ﴾ سَماعَ قَبُولٍ]، وهذا نَتيجةُ الإعْراضِ: أنَّهم صارُوا لا يَسْمَعون، ونَفْيِ السَّماعِ عنْهم؛ لانتِفاءِ فائِدتِه، وهي الاتِّعاظُ والقَبولُ.

واعْلَم أنَّ السَّمعَ يُنفَى تارَةً لِعدَم أصْلِه، وتارَة لعدَمِ ثمرَتِه؛ فقولُه تعالى: ﴿إِنَّكَ لَا تُسۡمِعُ ٱلۡمَوۡتَىٰ﴾ هذا نَفيٌ لأصلٍ، فالميْتُ لا يَسمَعُ، وقولُه تعالى: ﴿وَلَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ قَالُواْ سَمِعۡنَا وَهُمۡ لَا يَسۡمَعُونَ﴾ [الأنفال:٢١] لانتِفاءِ ثمَرتِه؛ لأنَّ السَّمعَ الَّذي لا ثمرَةَ له كالمَعدُومِ.

مِن فَوائِدِ الآيَةِ الكَرِيمَةِ:

الْفَائِدَة الأُولَى: أنَّ القُرآنَ فيه البِشارَةُ والنّذارَةُ؛ لكنْ هلْ هذا مُوزَّعٌ، أم يُمكِنُ أنْ يَكونَ بَشيرًا ونَذيرًا في آنٍ واحدٍ؟

الجَوابُ: يُمكِن هذا وهذا؛ أمَّا عنِ الأوَّل -﴿بَشِيرًا وَنَذِيرًا﴾- فنجِدُ مِن آياتِه ما هو بِشارةٌ للمُؤمِنين، ونجِدُ مِن آياتِه ما هو إنْذارٌ. وأمَّا على الثَّاني -أنَّ الآيةَ الواحِدةَ قد ينتَفِعُ بها أقوامٌ ويتضرَّرُ بها آخرون- قال تَعالى: ﴿وَإِذَا مَآ أُنزِلَتۡ سُورَةٞ فَمِنۡهُم مَّن يَقُولُ أَيُّكُمۡ زَادَتۡهُ هَٰذِهِۦٓ إِيمَٰنٗاۚ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ فَزَادَتۡهُمۡ إِيمَٰنٗا وَهُمۡ يَسۡتَبۡشِرُونَ ١٢٤ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٞ فَزَادَتۡهُمۡ رِجۡسًا إِلَىٰ رِجۡسِهِمۡ وَمَاتُواْ وَهُمۡ كَٰفِرُونَ﴾ [التوبة:١٢٤-١٢٥].

ولا تَستَغرِبْ أنْ يكونَ الشَّيءُ الواحِدُ ضارًّا بوجهٍ ونافعًا من وجْهٍ آخرَ، فالقُرآنُ نافعٌ للمُؤمنين ضارٌّ لغيرِ المؤمِنين، ولا تستَغرِبْ هذا.

وأضرِب لَك مثلًا حِسِّيًّا بالتَّمرِ؛ حُلوُ المذاقِ: فاكِهةٌ، وغِذاءٌ، وقوتٌ يأكلُه واحدٌ فيتضرَّر به، ويأكله آخرُ فينْمو به، مَع أنَّه شيءٌ واحدٌ!.. هكذا القُرآنُ.

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَةُ: أنَّه مَع وصْفِ القُرآنِ بهذا الوصْـفِ الجلِيلِ بتفصِيلِ الآياتِ، وأنَّه بلسانٍ عربيٍّ، وأنَّه بشيرٌ ونذِيرٌ، لم يَسلَمْ مِنَ المُعارَضةِ والإعْراضِ؛ لِقولِه: ﴿فَأَعۡرَضَ أَكۡثَرُهُمۡ﴾.

الْفَائِدَةُ الثَّالِثَةُ: جَوازُ نفيِ السَّـمعِ لمَن لا ينتَفِعُ به؛ لِقولِه: ﴿فَهُمۡ لَا يَسۡمَعُونَ﴾، وكذَلِك يُقالُ في بَقِيَّة الحَـواسِّ، لمَن لمْ ينتَفِعْ بها، نقول: إنَّ وجودَها كالعدَم؛ فمَن لمْ ينتفِع بما رَأى نَقول: هذا لا يُبصرُ ولو كان لهُ عيْنانِ.

• • ۞ • •

الآية (٥)

قال اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَقَالُوا قُلُوبُنَا فِي أَكِنَّةٍ مِّمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ وَفِي ءَاذَانِنَا وَقْرٌ وَمِنْ بَيْنِنَا وَبَيْنِكَ حِجَابٌ فَاعْمَلْ إِنَّنَا عَامِلُونَ﴾ [فصلت:٥].

وقولُه: ﴿وَقَالُوا﴾: مَعطوفةٌ على ﴿فَأَعْرَضَ﴾، قالَ رَحِمَهُ اللَّهُ: [﴿وَقَالُوا﴾ للنَّبيِّ ﷺ ﴿قُلُوبُنَا فِي أَكِنَّةٍ﴾ أغطِيةٌ] ﴿مِّمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ وَفِي ءَاذَانِنَا وَقْرٌ وَمِنْ بَيْنِنَا وَبَيْنِكَ حِجَابٌ فَاعْمَلْ إِنَّنَا عَامِلُونَ﴾ هذا -والعِياذُ باللهِ- من شِدَّة عِنادِهم وكُفرِهم؛ فقالوا للنَّبيِّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ وهو يَدعُوهم: ﴿قُلُوبُنَا فِي أَكِنَّةٍ مِّمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ﴾ كقولِهم: ﴿وَقَالُوا قُلُوبُنَا غُلْفٌ﴾ يعني: الأكِنَّة جمْع كِنٍّ، وهو ما يُستَترُ به.

وقولُه: ﴿مِّمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ﴾ أي: مِن التَّوحِيد والطَّاعة، والشَّهادةِ لله تَعالى بالوحدانيَّةِ وللنَّبيِّ بالرِّسالةِ، وإنَّما ذَكروا القُلوبَ وبدؤُوا بِها؛ لأنَّها محَلُّ الوعْي.

وقولُه رَحِمَهُ اللَّهُ: [﴿وَفِي ءَاذَانِنَا وَقْرٌ﴾ ثِقَل] يعني فلا نَسمَع، يَعني أنَّنا نستَمِع إليكَ على كَراهَةٍ وبُغضٍ، فكأنَّ في آذاننا ثِقَلَ سمْعٍ.

وقولُه تَعالى: ﴿وَمِنْ بَيْنِنَا وَبَيْنِكَ حِجَابٌ﴾ أي: حائِل يحُول بيننا وبينك فلا نَراك، فأتَوْا على كلِّ مَدارِك الإحاطَةِ؛ فالمُدرِك الأوَّل: القلْبُ، والثَّاني: السَّمْعُ، والثَّالِثُ: البَصَرُ، وانتِفاء البصَرِ عنهم؛ لقَوْله: ﴿وَمِنْ بَيْنِنَا وَبَيْنِكَ حِجَابٌ﴾.

وقدْ جمَع اللهُ تَعالى بَين هَذه الثَّلاثَةِ في قولِه: ﴿إِنَّ ٱلسَّمْعَ وَٱلْبَصَرَ وَٱلْفُؤَادَ كُلُّ أُوْلَٰٓئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْـُٔولًا﴾ [الإسراء:٣٦]، وتَأمَّل قولَـهم: ﴿وَمِنۢ بَيْنِنَا وَبَيْنِكَ حِجَابٌ﴾ لم يَقولوا: «وبينَنا وبينَك حِجاب» إشارَة إلى أنَّ هذا الحِجابَ مُمتدٌّ من عِندِنا إلَيك، وعلَى هَذا فكُلَّما تَباعَدنا عَنك غَلُظَ هذا الحِجابُ؛ لأنَّه إذا كان ابتِداؤه مِن عِنْدهم إلَى الرَّسول، صار كلَّما زادَت المَسافَةُ ازدادَ غِلَظُه؛ لأنَّ (مِنْ) هُنا للابتِداء، فتُفيد أنَّ هذا الحِجاب مُباشِرٌ منهم إلى الرَّسول ﷺ لكنْ لو قالوا: «وبينَنا وبيْنَك حِجاب» لأمكَن أن يَكونَ الحِجاب في الوَسَط، ولو كان بينَه وبينَهم مَسافَة، وهَذا يدلُّ على غِلَظ ما بينَهم وبينَ الرَّسول عَلَيۡهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ وبُعدِه.

وقولُه: ﴿فَٱعْمَلْ إِنَّنَا عَٰمِلُونَ﴾ هذا -والعِياذُ بالله- التَّحدِّي للرَّسول ﷺ فيما يَظْهرُ، وليس من بابِ الإباحَةِ، بل من بابِ التَّحدِّي، قال المُفسِّرُ: [﴿فَٱعْمَلْ﴾ على دِينِك ﴿إِنَّنَا عَٰمِلُونَ﴾ على دينِنا]، ويَحتَمِل: اعمَل لمُجاهدَتِنا فإنَّنا عامِلون لمُجاهدتِك، وهذا القَول ممَّا ذَهبَ إليه المُفسِّر؛ فكأنَّهم يَقولون: اعمَلْ ونَحن سنَعْملُ.

مِن فَوائِد الآيَةِ الكَرِيمَةِ:

الْفَائِدَةُ الأُولَى: شِدَّة كَراهةِ المُشرِكين لِـما نَزل مِن الحَقِّ، والدَّليلُ قولُهم: ﴿قُلُوبُنَا فِىٓ أَكِنَّةٍ مِّمَّا تَدْعُونَآ إِلَيْهِ وَفِىٓ ءَاذَانِنَا وَقْرٌ وَمِنۢ بَيْنِنَا وَبَيْنِكَ حِجَابٌ فَٱعْمَلْ إِنَّنَا عَٰمِلُونَ﴾.

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَةُ: شِدَّةُ مُعانَدةِ المُعارِضين ومُعارَضتِهم لهِذه الأَوْصافِ.

الْفَائِدَةُ الثَّالِثَةُ: تحدِّي هؤلاءِ المُبطِلين على باطِلِهم.

ويَتفرَّع علَيْها: أنَّ مِنْ أهلِ الباطِل مَن يَتحدَّى أهْلَ الحَقِّ إلَى يومِنا هَذا، ولَكِن على أهلِ الحقِّ أنْ يَستَعِينوا بالله عَزَّوَجَلَّ في مُقاوَمةِ هَؤلاء، وأنْ يعلَموا أنَّ كَلِمةَ حقٍّ

تغلِبُ ألْفَ كلِمةِ باطلٍ، لكِنَّ السَّيفَ بِضارِبِه، ربَّما يكونُ السَّيفُ بيَدِ جبانٍ، فإذا رأى العدُوَّ مُقبلًا سقَط السَّيـف مِن يَدِه، فَلا يَنتَفِعُ بالسَّيْـفِ، ولو كان سيفٌ بيدِ شُجاعٍ مُثلَّمًا لَقَرَعَ به هامَ الأعْداءِ.

فالحَقيقَةُ: أنَّ السَّيفَ بِضارِبِه، فكَمْ مِن إنسانٍ يَحمِلُ مِنَ الشَّريعَةِ أشياءَ كثيرةً، لكنْ لا ينتَفِعُ بها ولا يَنفَعُ، وكمْ مِن إنسانٍ دُونَ ذلِك بكثيرٍ لكِنْ نفَعَ اللهُ به؛ لأنَّه مُجاهِدٌ، يُجاهِدُ أهلَ الباطِلِ بما معَه مِنَ الحقِّ.

• ● ۞ ● •

الآيتان (٦، ٧)

قال اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿قُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰٓ إِلَىَّ أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ فَٱسْتَقِيمُوٓا۟ إِلَيْهِ وَٱسْتَغْفِرُوهُ ۗ وَوَيْلٌ لِّلْمُشْرِكِينَ ﴿٦﴾ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَهُم بِٱلْءَاخِرَةِ هُمْ كَٰفِرُونَ﴾ [فصلت:٦-٧].

• • ◦ • •

قالَ الله تَعالَى: ﴿قُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ﴾ [فُصِّلَت:٦]؛ يَعني: فلَسْتُ غَريبًا علَيكُم؛ لِماذا تَكفُرون بِي؟! أنا بَشَر مِثلُكم لسْتُ جِنِّيًّا فتَنفِروا مِنْه، وَلا مَلِكًا فتَنفِروا مِنه، وإنَّما أنا بَشرٌ مِثلُكم.

والبَشَر هُم بَنُو آدَم، وسُمُّوا بَشَرًا؛ لِظُهورِ بَشَرَتهم؛ حيثُ بدَتْ أجْسامُهم عارِيةً غيرَ مَكسُوَّة، وهَذا مِن نِعمَة اللهِ عَزَّوَجَلَّ علَينا، ومِنْ رَحمَتِه جَعَلَ اللهُ الإنْسانَ عارِيًا إلَّا بِكُسْوَة؛ حتَّى يتَذكَّر أنَّه عارٍ مِنَ الإيمان إلَّا بِكُسْوَة، وكُسْوَة الإيمان هيَ التَّقوى؛ لِقوْل اللهِ تَعالَى: ﴿وَلِبَاسُ ٱلتَّقْوَىٰ ذَٰلِكَ خَيْرٌ﴾ [الأعراف:٢٦]؛ فإنَّ الله جَعَلنا نفتَقِر إلى السِّترِ الحسِّيِّ حتَّى نعْلَم أنَّنا أيضًا مُفتَقِرون إلى السِّتْر المعنَوِيِّ، فأنتَ عارٍ مِنَ الإيمان إلَّا بِلِباسِ التَّقوى.

إذَن: البَشَر هُم بَنُو آدَمَ، سُمُّوا بِذلِك لِظُهور بَشْرَتِهم عارِيةً لا غِطاءَ عليها، بِخِلافِ الحَيَواناتِ الأُخرى، فإنَّه مُغطًّى إمَّا بالوَبَر أو بِالصُّوفِ أو بالشَّعْرِ أو بالرِّيشِ أو بغَيْرِ ذلك.

وقَوْله: ﴿مِّثْلُكُمْ﴾ هذِه توكِيدٌ لِمعْنى البَشَرِيَّةِ، وإلَّا لَوِ اقتصَر على إنَّما أنا بشَرٌ لكانَ مُقتَضى ذلِك أنْ يَكونَ مِثلَنا ولا مُخالِفَ، لكِنَّه أكَّدَ هذا المَعنَى بِقوْلِه: ﴿مِّثْلُكُمْ﴾ لَكِنَّه يَمتازُ بأنَّه: ﴿يُوحَىٰٓ إِلَيَّ أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ﴾ ...إلخ، هذا هُو المَيْزَةُ، والفرْقُ أنَّ مُحمَّدًا ﷺ بشَرٌ يُوحَى إلَيْهِ.

وقَوْلُه: ﴿يُوحَىٰٓ﴾ المُوحِي هُو اللهُ؛ لِقولِ اللهِ تَعالَى: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا لِّتُنذِرَ أُمَّ ٱلْقُرَىٰ وَمَنْ حَوْلَهَا﴾، [الشُّورَى:٧] فالمُوحِي هُو اللهُ، وحُذِفَ لِلْعِلْم به، ورُبَّما يُقالُ: حُذِفَ لِلْعِلم به وَلِلتَّعْميمِ؛ لِأنَّ اللهَ تَعالَى قدْ يُوحِي لنَبِيِّه ﷺ بِواسِطَةِ جِبريلَ، وقدْ يُوحِي إلَيْه بِدُونِ واسِطةٍ.

والإيحاءُ هُو الإعْلامُ بسُرعةٍ وخَفاءٍ، يُسمَّى إيحاءً؛ ولِذلِك إذا كان إلى جَنْبك واحِدٌ، وأرَدْتَ أنْ تَسْألَه والدَّرْسُ مكْتَظٌّ بالطلَبةِ -وخِفْتَ أنْ يُسْمعَ إليكَ- فتكلِّمه ببطءٍ وخُفْيةٍ؛ لِئَلَّا يُتفطَّنَ لَكَ؛ فكُلُّ إعْلام بسُرْعة وخُفية يُسمَّى وَحْيًا، وإنَّما كان كذَلِك؛ لأنَّ النَّبيَّ ﷺ يُوحَى إلَيْه وعِنْدَه النَّاسُ جالِسُون لا يَدْرون ماذا قالَ الرَّسولُ.

وقَوْله: ﴿يُوحَىٰٓ إِلَيَّ أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ﴾ هَذه الجُملَة في محلِّ رفْع نائِبِ فاعِلٍ؛ أي يُوحَى إلَيَّ هذا الخَبَر.

وقَولُه: ﴿أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ﴾ ﴿أَنَّمَآ﴾ أداةُ حَصْرٍ، وعلَى هَذا تَكون الجُمْلةُ مُتضَمِّنةٌ لنَفْيٍ وإثْباتٍ؛ لأنَّ الحَصْرَ هُو إثْباتُ الحُكْمِ في المَذْكورِ ونَفيُه عَن ما سِواه.

ومِنْ طُرُقِ الحَصْرِ:

الأوَّلُ: الحَصْرُ بـ«إنَّما».

الثَّاني: النَّفيُ والإثْباتُ، مِثْلَ: لا قائِمَ إلَّا مُحمَّدٌ.

الثَّالِثُ: تَقْديمُ ما حقُّه التَّأخيرُ، مِثْلَ: ﴿لِّلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾ [البقرة:٢٨٤].

الرَّابعُ: دُخولُ ضَميرِ الفَصْلِ، مِثْلَ أنْ تَقولَ: زيْدٌ هُوَ الفاضِلُ، فإنَّ ضَميرَ الفَصْلِ يُفيدُ الحَصْرَ.

هَذِه أرْبعَةُ طُرُقٍ، وهِي الأكْثَرُ دَوَرانًا.

وقَوْلُه: ﴿فَٱسْتَقِيمُوٓاْ إِلَيْهِ وَٱسْتَغْفِرُوهُ وَوَيْلٌ لِّلْمُشْرِكِينَ﴾ ﴿فَٱسْتَقِيمُوٓاْ إِلَيْهِ﴾ الظَّاهِرُ أنَّها مِنْ تَتِمَّةِ قَوْلِ الرَّسولِ -صلَّى اللهُ علَيهِ وعلَى آلِهِ وسلَّمَ- الَّذي أمَرَ أنْ يَقولَه، ومَعْنى «استَقِيموا إلَيْهِ»: أيِ اسْتَقِيمُوا على دِينِه قاصِدين إلَيْه؛ فهِي تُفيدُ الإخْلاصَ في الْعَملِ.

فقَوْلُه: «استَقِيموا إلَيْه»؛ أي: اقْصُدُوا، ولهِذا لمْ يَقُلْ: استَقِيموا لَه، بلْ قالَ: «إلَيْه»، فضَمَّنَ «استَقِيموا» مَعْنى اقْصُدوا إلَيْه، فتكونُ أبْلَغ مِن «استَقِيموا لَه»؛ لأنَّ المُستَقيمَ لِلشَّيءِ قدْ يَستَقيمُ لَه وهُوَ في مَكانِه دُونَ أنْ يَسْعى إلَيْه؛ أمَّا إذا قِيلَ: «اسْتَقيموا إلَيْه» فتُفيدُ السَّعْيَ إلى اللهِ عَزَّوَجَلَّ وقَصْدِه؛ فلِهذا عُدِّيَت بـ«إلى»؛ فهَل هُنا نابَ حَرْفٌ عَن حَرْفٍ، أو إنَّ الحَرْفَ على مَعْناه، ولكنْ ضُمِّنَ الفِعلُ ما يُناسِبُ الحَرْفَ؟

الجَوابُ: فيها قَولانِ:

أحدُهما: أنَّ الاِستِعارَة في الحَرْفِ، يَعنِي: أنَّ الباءَ بِمعْنى «مِن» أي: يَشْرَبُ مِنها عِبادُ اللهِ، والعَينُ يُشرَبُ مِنها باليَدِ، أو بالإناءِ، أو بأيِ وسيلةٍ.

القولُ الثَّاني: أنَّ الاستِعارَة في الفِعلِ؛ أي: أنَّ «يشْرَبُ» ضُمِّنَ فِعلًا يُناسِبُ

الباءَ، والَّذي يُناسِبُ الباءَ هُنا: يَرْوَى بِها عِبادُ اللهِ، يَعنِي: أنَّها عَينٌ تَروِي.

وأيُّها أحسَنُ وأسْهَلُ؟

الجَوابُ: أمَّا إذا قُلْنا إنَّ الباءَ بِمَعنى (مِن) فَهي سَهْلةٌ؛ لأنَّكَ تَقدِّرُ أيَّ حرْفٍ مُناسِبٍ ويَنْتَهي المَوضُوعُ، لكِنَّا إذا قُلنا إنَّ الباءَ على بابِها، وإنَّ الفِعْلَ ضُمِّنَ مَعْنًى يَتناسَبُ مَعها، فحِينَئذٍ قد يَصْعُبُ على الإنسانِ أنْ يُقدِّرَ الفِعْلَ المُناسِبَ، لكنْ نَقولُ: إنَّ تَضْمينَ الفِعلِ مَعنًى مُناسِبًا للْحَرفِ أوْلَى.

وبَيانُ ذلِك: إذا قُلْنا: يَشْرَبُ بها عِبادُ اللهِ، فإنَّ الباءَ بِمعنى (مِن)، لم نستفِدْ فائِدة لاستِعارةِ الباءِ بدَلَ «مِن»، إذَنْ: فإتيانُنا بهذا الحرْفِ يُوجبُ بعْضَ الإشْكالِ، فنكُونُ قدْ تضرَّرْنا، فضْلًا عن كَونِنا لم نسْتَفِد؛ لأنَّ كَوْنكَ تضَعُ حرْفًا بدلَ حرْفٍ بِدُونِ مُوجِبٍ، فإنَّ هذا يُوجِبُ التَّشْويشَ والإيْهامَ، لكنْ إذا ضَمَّنَّا الفِعْلَ معْنًى يَتَناسَبُ مَع الحَرْفِ ازدَدْنا فائِدةً، فإنَّ قولَك: إنَّ التَّقديرَ «يَرْوَى» بِها، يتَضمَّنُ الشُّربَ الَّذي ذُكِرَ، ويتَضمَّنُ الرِّيَّ، فاسْتَفَدنا فائِدَةً.

وهَذا الرَّأيُ -أعنِي: أنَّ الفِعْل يتَضمَّن معنًى يُناسِبُ الحرْفَ- هُو الَّذي ذهَبَ إلَيْهِ البَصْرِيُّون، وهو اختِيارَ شيْخِ الإسْلامِ ابنِ تيْمِيَةَ[1] رَحِمَهُ اللَّهُ لِهذِه الفائِدة الَّتي ذَكَرنا.

وأرْجُو دائِمًا منَ الطَّلابِ أنْ يَفهَموا هذِه الفُروقَ الدَّقيقةَ؛ لأنَّها تَشْحَذُ الذِّهنَ مِن وَجْهٍ، وتَفْتَحُ آفاقًا بَعيدَةً لِفَهمِ المَعاني، وزِيادَةِ الاستِفادةِ مِن وَجهٍ آخَرَ.

وقَوْلُه: ﴿وَٱسْتَغْفِرُوهُ﴾ اطْلُبوا مِنه المَغْفِرةَ، والمَغفِرةُ تَتضَمَّنُ شيئَيْنِ: سَتْرَ الذَّنْبِ، والعَفوَ عَنه؛ لأنَّها مَأخُوذَةٌ منَ المِغْفرِ وهُو ما يَلبَسُه المُقاتِلُ على رأسِه يتَّقي به السَّلاحَ،

---

(١) انظر: مجموع الفتاوى (٢١/ ١٢٤).

وأنَّ يَغفِرَ مُتضمِّن لِلوِقايةِ والسَّترِ.

وعلَى هذا فكُلَّما طَلَبتَ المَغفِرةَ استَحضِرْ أنَّكَ تُريدُ مِنَ اللهِ عَزَّوَجَلَّ أنْ يَتجاوزَ عَنك فَلا يُعاقِبكَ، وأنْ يستُرَ ذَنْبكَ؛ إذنْ: قولُه: ﴿وَٱسْتَغْفِرُوهُ﴾ أيِ اطْلُبوا مِنه المَغْفِرةَ، وهِي سَتْرُ الذَّنبِ والتَّجاوزُ عنه.

وقولُه رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿وَوَيْلٌ﴾ كلمةُ عذابٍ ﴿لِّلْمُشْرِكِينَ﴾] «ويلٌ» هذِه مُبتَدأٌ، وسوَّغَ الابْتِداءَ بِها وهِي نَكِرة أنَّها للتَّهدِيدِ، فهِي كلِمةُ وعيدٍ وتهديدٍ، وقِيلَ: إنَّها وادٍ في جَهنَّمَ، ولكنَّ الأصحَّ الأوَّلُ: أنَّها كلِمةُ تَهديدٍ ووعيدٍ لكلِّ مَن خالَفَ.

وقولُه: ﴿لِّلْمُشْرِكِينَ﴾؛ أي: المُشرِكين باللهِ عَزَّوَجَلَّ سواءٌ كانَ إشْراكُهم في العُبُوديَّةِ أو في الأُلُوهيَّةِ، أو في الأسْماءِ والصِّفاتِ؛ فمَنِ ادَّعى أنَّ مَع اللهِ خالقًا أو مُعينًا أو مُستَقِلًّا بِخلْقِ بعضِ الأشياءِ فَهُو مُشرِكٌ، ومَنْ عَبَدَ مَع اللهِ غَيرَه أو راءَى بِعِبادتِه غيرَه فهُو مُشرِكٌ، ومَن زَعَمَ أنَّ صِفاتِ اللهِ عَزَّوَجَلَّ مُماثِلةٌ لِصفاتِ المَخْلُوقين فهُو مُشرِكٌ.

واعْلَمْ أنَّ الشِّركَ يَنْقسِمُ إلى قِسْمين: أصْغَرَ وأكْبَرَ. ومِن وجْهٍ آخرَ إلَى: خفِيٍّ وجلِيٍّ، وكلُّ هذا معلُومٌ في كُتُبِ التَّوحِيدِ والعَقائدِ.

وقولُه تَعالَى: ﴿ٱلَّذِينَ لَا يُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ﴾ [فُصِّلَت:٧] هذه صِفةٌ للمُشرِكين، وقولُه: ﴿ٱلَّذِينَ لَا يُؤْتُونَ﴾؛ أيْ: لا يُعطُون الزَّكاةَ، والزَّكاةُ هُنا يَحتَمِلُ أنْ تكونَ زَكاةَ النَّفْسِ، ويَحتَمِلُ أنْ تكونَ زَكاةَ المالِ، فإنْ كانتْ زكاةَ المالِ فِفيه إشْكالٌ؛ لأنَّ ظاهِرَها يَقْتضي أنَّ الكُفَّار يلزَمُهم إخْراجُ الزَّكاةِ، ومَعْلُومٌ أنَّ إخراجَ الزَّكاةِ لا يُطالَبُ به العَبْدُ حتَّى يُسلِمَ؛ لِقَوْل النَّبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لِمُعاذٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «**إنَّكَ تَأتِي قومًا أهلَ كِتابٍ، فَلْيَكُن أوَّلَ ما تَدْعُوهم إلَيْه تَوحيدُ اللهِ، ثُمَّ ادْعُهم إلى الصَّلاةِ، ثُمَّ ادْعُهم إلى**

الزَّكاةِ...»[1]، وهَذا يدُلُّ على أنَّ الزَّكاةَ لا يُخاطَبُ بأدائِها الإنسانُ إلَّا بعْدَ أنْ يُسلِمَ.

أمَّا إذا قُلنا: إنَّ المُرادَ بالزَّكاةِ زكاةُ النَّفسِ، فإنَّه لا يَرِدُ على هذا إشْكالٌ، لكنْ يَرِدُ على هذا إشْكالٌ مِن جِهةِ اللَّفْظِ، وهُو قولُه: ﴿لَا يُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ﴾ فهَلْ زكاةُ النَّفسِ شيْءٌ يُعطَى؟ هذا محَلُّ نظَرٍ؛ ولِذَلك الآيةُ فِيها إشْكالٌ، سَواءٌ فسَّرْتها على هَذا أو على هذا، وإذا كانَ فيها إشْكالٌ بيْن معنيَيْن، فإنَّنا نَطْلُبُ المُرجِّحَ. والرَّاجِحُ: أنَّ المُرادَ بها زَكاةُ النَّفسِ، والمَعْنَى: لا يُؤتُون أنفُسَهم زَكاتَها، وفِي الحَديثِ: «آتِ نفسِي تقْواها، وزَكِّها أنت خيرُ مَن زَكَّاها»[2]؛ فعلى هذا نُرَجِّحُ أنَّ المُرادَ بالزَّكاةِ زكاةُ النَّفْسِ، ويَكونُ المَعْنى: لا يُؤتُون أنْفُسَهم زَكاتَها، بلْ يُهمِلُونها ويَغفُلُون عنْها.

وقولُه: ﴿وَهُم بِٱلْءَاخِرَةِ هُمْ كَٰفِرُونَ﴾ «هُم بالآخِرَة»: «بالآخِرَةِ» جارٌّ ومجْرُورٌ مُتعلِّقٌ بـ«كافِرُون»، و«هُم»: مُبتَدَأٌ؛ و«هُمْ» هي الثَّانِيَةُ، ويقُولُ المُفسِّرُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [تَأْكيدٌ]؛ أي تَأكِيدٌ لفظِيٌّ لـ«هم» الأولَى، والتَّأكِيدُ اللَّفْظيُّ أنْ تُعادَ الكَلِمةُ بِلفْظِها، كما قالَ ابنُ مالِكٍ رَحِمَهُ ٱللَّهُ[3]:

ومَا مِنَ التَّوكيدِ لفظِيٌّ يَجِي مُكَرَّرًا كقَوْلِكَ ادْرُجي ادْرُجي

وقولُه: ﴿وَهُم بِٱلْءَاخِرَةِ هُمْ كَٰفِرُونَ﴾ أي: جاحِدُون لها غيرُ مُؤمِنين بِها، يَقولُون: ﴿مَا هِىَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَآ إِلَّا ٱلدَّهْرُ﴾ [الجاثية:٢٤] يعنِي: يَمُوتُ قَومٌ ويَحيا آخرُون وما يُهلِكنا إلَّا الدَّهرُ ولا بَعْثَ ولا حِسابَ.

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب الزكاة، باب وجوب الزكاة، رقم (١٣٩٥)، ومسلم: كتاب الإيمان، باب الدعاء إلى الشهادتين وشرائع الإسلام، رقم (١٩)، من حديث ابن عباس رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا.

(٢) أخرجه الإمام أحمد (٦/ ٢٠٩)، من حديث عائشة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهَا.

(٣) الألفية (ص:٤٦).

فإنْ قالَ قائِلٌ: إنَّ هُناك أُناسًا مِنَ المُسلمين يُصلُّون ويُزكُّون، لكنْ إذا ذكَّرتَهم مَثلًا بِعَذابِ القَبْرِ وبِأهوالِ يومِ القِيامَةِ يَقولُون: هلْ رأيتَ عذابَ القَبْرِ؟ وهلْ رأيتَ أهوالَ يومِ القِيامةِ؟ وهلْ رأيْتَ الجَنَّةَ؟ فما حُكْمُ هَؤُلاءِ؟

فالجَوابُ: إذا قُلْتَ لَهم هَكذا قالَ اللهُ ورَسُولُه؛ فَإن قالُوا: لا نُصَدِّق إلَّا ما نَرى فهَؤلاء كُفَّارٌ، ولو يَرْكَعون باللَّيلِ والنَّهارِ، ويُخْرِجون جَميعَ ما في صَنادِيقهم مِن النَّفقةِ فهُم كفَّارٌ؛ لأنَّهم يُكذِّبون، فهذا كُفر تَكذِيبٍ!

مِن فَوائدِ الآيتَيْنِ الكَرِيمَتيْنِ:

الْفَائِدَة الأُولَى: وُجوبُ إعْلامِ النَّبيِّ ﷺ أُمَّتَه بأنَّه بَشَرٌ مِثْلُهم؛ لِقَولِه تَعالى: ﴿قُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٌ﴾.

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَةُ: آكديةُ هذا الإعْلانِ؛ حيثُ أُمِرَ النَّبي -صلَّى اللهُ علَيهِ وعلى آلِهِ وسلَّمَ- أنْ يُبلِّغَه على وجْه خاصٍّ، وذَلِك أنَّ القُرآنَ كلَّه أُمِرَ الرَّسُولُ عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ أنْ يُبلِّغه؛ قالَ تَعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغْ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ﴾ [المائدة:٦٧].

لكِنْ -في بعْضِ الأحْيان- يمرُّ بك آياتٌ يُؤمر النَّبي ﷺ بتبلِيغها بذاتِها؛ فيكونُ هذا دليلًا على الاعتِناءِ بها وأهميتِها، وهو كثيرٌ، مثل قولِه تعالى: ﴿قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا۟ مِنْ أَبْصَٰرِهِمْ﴾ [النور:٣٠]، وقوله: ﴿وَقُل لِّلْمُؤْمِنَٰتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَٰرِهِنَّ﴾ [النور:٣١] وما أشبهَ ذلك، فيكونُ في هذا توصيةٌ خاصَّةٌ بتبليغه، وهو دالٌّ على العِنايةِ به والاهتِمامِ به.

الخُلاصَةُ: أنَّ القُرآنَ كلَّه قدْ أُمِرَ النَّبيُّ ﷺ بتَبْلِيغه، والدَّلِيلُ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغْ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ﴾ [المائدة:٦٧]، وهُناكَ بعضُ الآياتِ يُؤمَرُ النبيُّ ﷺ بتَبلِيغها على وجْهٍ خاصٍّ؛ فَيُقالُ: «قلْ كذا»، وهَذا يدُلُّ على العِنايةِ بها والاِهتِمامِ بها، وأنَّها ذاتُ

شأنٍ خاصٍّ، وهُنا قال: ﴿قُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ﴾، أُمِرَ أن يُبلِّغَ ويُعلِنَ بأنَّه بشَرٌ مِثلُنا.

الْفَائِدَةُ الثَّالِثَةُ: الرَّدُّ على مَن قال: إنَّ النَّبيَّ -صلَّى اللهُ علَيهِ وعلى آلِهِ وسلَّمَ- خُلِقَ مِن نُور لِقولِه: ﴿إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ﴾ وأنَّه لا ظِلَّ له: يَمشِي في الشَّمسِ؛ فلا يَكونُ لَه ظلٌّ.

وجْهُ ذلِك: تحقِيقُ البَشَريَّةِ بالمُماثَلَةِ؛ قال تَعالى: ﴿قُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ﴾ فأيُّ أحادِيثَ تَأتي بِمثْلِ هَذه الأمُور الَّتي تُوجِب أنْ يَخْرُجَ النبيُّ ﷺ عَن نِطاق البَشَريَّة، فإنَّها مَوضُوعَةٌ مَكذُوبَةٌ؛ لأنَّه بشرٌ مِثْلُنا.

الْفَائِدَةُ الرَّابِعَةُ: أنَّ النَّبيَّ ﷺ يلْحَقُه الحَرُّ والبرْدُ والجُوعُ والعَطَشُ والخَوْفُ والأمْنُ، وغيرُ ذلِك منْ مُقتَضَيات البشَريَّة؛ لِعُموم قولِه: ﴿إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ﴾، وتَحقِيقُ البَشَريَّة بالمِثْليَّةِ حتَّى لا يَقولَ قائِلٌ: إنَّ هذا مَجازٌ، فأكَّد هذِه البشَريَّةَ بالمِثليَّةِ.

الْفَائِدَةُ الخَامِسَةُ: أنَّ النَّبيَّ -صلَّى اللهُ علَيهِ وعلى آلِهِ وسلَّمَ- لا يعلمُ الغَيبَ إلَّا ما أُوحِي إليه؛ لأنَّنا نحن لا نَعلَم الغَيبَ وهُو بشَرٌ مِثلُنا.

الْفَائِدَةُ السَّادِسَةُ: أنَّ النَّبيَّ -صلَّى اللهُ علَيهِ وعلى آلِهِ وسلَّمَ- لا يَملِك لنَفسه نَفعًا ولا ضَرًّا ولا لِغَيْرِه.

وجْهُ ذلِك: أنَّه مِثلُنا، وإذا كُنَّا نحن لا نَمْلِك لأنفُسِنا نفْعًا ولا ضَرًّا ولا لِغَيرنا، فكذَلِك النَّبيُّ -صلَّى اللهُ علَيهِ وعلى آلِهِ وسلَّمَ-.

الْفَائِدَةُ السَّابِعَةُ: أنَّ موْتَ النَّبيِّ -صلَّى اللهُ علَيهِ وعلى آلِهِ وسلَّمَ- مَوتٌ حقيقيٌّ، وأنَّه بمَوْتِه انقَطَعَ عملُه إلَّا ما يأتِيه مِن ثواب أجُورِ أمَّتِه؛ لِقولِه: ﴿إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ﴾، والمُماثَلةُ تَقتَضي المُساواةَ مِن كلِّ وجْهٍ إلَّا ما خصَّه الدَّليلُ، وبه ينْقَطِعُ أمَلُ

كلِّ مَن طلَبَ منَ الرَّسولِ -صلَّى اللهُ علَيهِ وعلى آلِهِ وسلَّمَ- أنْ يَشفَعَ له، فيقِفُ عِندَ قبرِه ويقُولُ: يا رسُول الله، اشْفَعْ لِي!! فإنَّ هذا لا يجُوزُ؛ لأنَّه اعْتِداءٌ في الدُّعاءِ، حيثُ يَطلُبُ الإنْسانُ ما ليْسَ له، ولا يُمكِنُ للرَّسُولِ أنْ يَفعَلَه -صلَّى اللهُ علَيهِ وعلى آلِهِ وسلَّمَ- لأنَّه ماتَ، وإذا ماتَ ابنُ آدَم انقَطَعَ عمَلُه، لا بالدُّعاءِ ولا غيْرِه.

فإنْ قالَ قائِلٌ: بعضُ النَّاس يَذهَبون إلَى قبْرِ النَّبي ﷺ ويدْعُون اللهَ هُناك وَيَستَدِلُّون بِقول اللهِ تَعالَى: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذ ظَّلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمْ جَآءُوكَ فَٱسْتَغْفَرُواْ ٱللَّهَ وَٱسْتَغْفَرَ لَهُمُ ٱلرَّسُولُ لَوَجَدُواْ ٱللَّهَ تَوَّابًا رَّحِيمًا﴾، وَيَقولُونَ: إنَّ هذِه الآيَةَ لا تدلُّ على الخُصُوصيةِ، وما ذَنبُ مَن يَأتُون مِن بَعْده أنَّه لا يَستَغفِرُ لهُم النَّبيُّ، ﷺ؟

فالجَوابُ: هذا داخِلٌ في قولِه تعالَى: ﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَٰبَهَ مِنْهُ﴾ [آلِ عِمران:٧] إنَّ الَّذي قال له: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذ ظَّلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمْ﴾ [النِّساءِ:٦٤]، يتحدَّث عَن قومٍ معيَّنين، بِدليلِ قولِه: ﴿إِذ ظَّلَمُوٓاْ﴾، و«إذ» لِـما مَضَى، وقولُه: ﴿جَآءُوكَ فَٱسْتَغْفَرُواْ ٱللَّهَ وَٱسْتَغْفَرَ لَهُمُ ٱلرَّسُولُ﴾ يعني استَغْفَرتَ لهم، لكنْهُنا أظْهَرَ في مَقام الإضْمارِ؛ تَعظِيمًا لشَأنِ الرَّسولِ عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ وبيانًا لأنَّه أقربُ مِنهم إجابَةً، ثمَّ قال: ﴿لَوَجَدُواْ ٱللَّهَ تَوَّابًا رَّحِيمًا ﴿٦٤﴾ فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ﴾ [النساء:٦٤-٦٥] إلى آخرِه؛ ولم يقلْ:

ولو أنَّهم إذا ظَلَموا أنفُسَهم، فإنَّه لو قال: إذا ظَلَموا قُلْنا: هَذه لَهم ولِغَيرِهم، ولكِن قال: ﴿إِذ ظَّلَمُوٓاْ﴾.

ثمَّ إنَّ استِغفارَ الرَّسُولِ عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ بَعْد مَوْتِه مُستَحيلٌ؛ لأنَّ الِاسْتغفارَ عَملٌ، والعَمَلُ قدِ انقطَعَ بموْتِه.

ثمَّ إنَّ هؤُلاء ليْسُوا أفقَهَ في كِتابِ اللهِ، وليْسُوا أعلَمَ بِحالِ رسُولِ اللهِ ﷺ مِنَ

الصَّحابةِ رَضِوَاللَّهُعَنْهُمْ فهل أحدٌ مِنهُم جاءَ إلَى قبْرِ الرَّسُولِ، قال: يا رَسُول الله استغْفِر لي؟.. أبدًا! بلْ إنَّهم لـمَّا أُصِيبُوا بالجَدْب لم يَقولوا: يا رسُول الله، هلكَتِ الأمْوالُ وانقَطَعتِ السَّبلُ، فادْعُوا اللهَ يُغيثُنا، مَع أنَّهم إلى جَنْبِه، بل هُم استَغاثُوا، ودعَوُا الله، وطلَبَ عمَرُ منَ العبَّاسِ، أنْ يدعُوَ اللهَ عَزَّوَجَلَّ(١).

ولكِنْ لا بدَّ لكلِّ ذي باطِلٍ أنْ يجِدَ شُبهةً في الكِتابِ والسُّنَّةِ، وهَـذا مِن حِكمةِ الله عَزَّوَجَلَّ وابتلائه وامتِحانِه، ولكِن كما قال شَيْخُ الإسْلامِ رَحِمَهُٱللَّهُ في كِتابِه (دَرْء تَعارضِ العَقْلِ والنَّقْلِ) وفي (فتاواه) أيضًا؛ يقولُ: «كلُّ إنْسانٍ يَستدِلُّ بدَليلٍ صَحيحٍ مِنْ كِتابٍ أو سُنَّةٍ على باطِلٍ، فإنَّ هذا الدَّليلَ دَليلٌ على إبْطالِ باطِله لا على إثْباتِ باطِله»؛ والدَّليلُ قَولُ اللهِ تَعالى: ﴿لَّا يَأْتِيهِ ٱلْبَٰطِلُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِۦ ۖ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ﴾ [فُصِّلَت:٤٢].

الْفَائِدَةُ الثَّامِنَةُ: أنَّ النَّبيَّ ﷺ قدْ يَنْسى؛ لأنَّ هذا مُقتَضى البَشَريَّةِ، وكما حقَّقَ ذلِك في قولِه: «إنَّما أنا بشرٌ مِثْلُكم أنْسى كما تَنسَوْن»(٢) إثْباتِ باطِله.

الْفَائِدَةُ التَّاسِعَةُ: أنَّ النَّبيَّ -صلى اللهُ علَيْه وعلَى آلِه وسلَّم- يجتَهِدُ، ورُبَّما يُخطِئ في اجتِهاده؛ لأنَّ هذا مُقتَضى البَشرية، وكما هُو الواقِعُ في مِثلِ قوْلِ اللهِ تَعالى: ﴿عَفَا ٱللَّهُ عَنكَ لِمَ أَذِنتَ لَهُمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُوا۟ وَتَعْلَمَ ٱلْكَٰذِبِينَ﴾ [التوبة:٤٣]، وفي قولِه تعالى: ﴿عَبَسَ وَتَوَلَّىٰٓ ۝١ أَن جَآءَهُ ٱلْأَعْمَىٰ ۝٢ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّهُۥ يَزَّكَّىٰٓ ۝٣ أَوْ

(١) أخرجه البخاري: كتاب الاستسقاء، باب سؤال الناس الإمام الاستسقاء إذا قحطوا، رقم (١٠١٠)، من حديث أنس بن مالك رَضِوَاللَّهُعَنْهُ.

(٢) أخرجه البخاري: كتاب الصلاة، باب التوجه إلى القبلة، رقم (٤٠١)، ومسلم: كتاب المساجد ومواضع الصلاة، باب السهو في الصلاة والسجود له، رقم (٥٧٢) من حديث عبد الله بن مسعود رَضِوَاللَّهُعَنْهُ.

يَذَّكَّرُ فَتَنفَعَهُ ٱلذِّكْرَىٰٓ ﴿٤﴾ أَمَّا مَنِ ٱسْتَغْنَىٰ ﴿٥﴾ فَأَنتَ لَهُۥ تَصَدَّىٰ ﴿٦﴾ وَمَا عَلَيْكَ أَلَّا يَزَّكَّىٰ ﴿٧﴾ وَأَمَّا مَن جَآءَكَ يَسْعَىٰ ﴿٨﴾ وَهُوَ يَخْشَىٰ ﴿٩﴾ فَأَنتَ عَنْهُ تَلَهَّىٰ﴾ [عبس:١-١٠].

ولكنه ﷺ يمتازُ عن غيرِه: في أنَّه لا يُقَرُّ على خطأٍ -ولو بالاجتِهادِ- بخلافِ غيرِه، فقدْ لا يُذكَّرُ ولا يَذْكُرُ إذا نَسِي، وقد لا يُعلَّمُ ولا يَعْلَمُ إذا جهِلَ، يعني: خطؤُنا نحنُ قد نَستمرُّ عليه دون أن نُنبَّه له أو أن نَنْتبِه، لكنَّ الرَّسولَ ﷺ لا يُمكنُ أنْ يُقَرَّ على خطأٍ، ولا يمكنُ أن يُقَرَّ على نِسيانِ ما يجبُ، بل لا بدَّ أن يَتنبه أو يُنبَّه.

الْفَائِدَةُ الْعَاشِرَةُ: إثباتُ رِسالَةِ النَّبيِّ -صلَّى اللهُ عليهِ وعلى آلِهِ وسلَّمَ- تُؤخَذُ مِن قولِه: ﴿يُوحَىٰٓ إِلَىَّ﴾؛ لأنَّ الوَحْيَ لا يكون إلَّا لنبيٍّ.

فإنْ قالَ قائلٌ: كَيفَ تَقولُون: إنَّ الوَحيَ لا يَكون إلَّا لِنبيٍّ، وقدْ أوحَى الله تَعالَى إلَى غيرِ الإنسانِ فقال الله تَعالَى: ﴿وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى ٱلنَّحْلِ أَنِ ٱتَّخِذِى مِنَ ٱلْجِبَالِ بُيُوتًا﴾ وقال تَعالَى في غيْرِ الأنْبياءِ: ﴿وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ أُمِّ مُوسَىٰٓ أَنْ أَرْضِعِيهِ ۖ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِى ٱلْيَمِّ﴾ [القصص:٧]؟

قُلنا: هَذا الإشْكالُ لا يَرِدُ إلَّا على مَنْ لا يُفرِّق بينَ مَعاني الوَحيِ، فأمَّا مَن فرَّقَ بينَها، وقالَ: إنَّ الوحْي إمَّا أنْ يَكونَ بشَرْعٍ، وإمَّا أنْ يَكونَ بغيْرِه، فإنْ كان بشَرْعٍ فهَذا لا يكُونُ إلَّا للرُّسُلِ أوِ الأنْبياءِ، وإنْ كانَ بغَيْرِ الشَّرعِ فإنَّه يكُونُ مِن بابِ الإلْهامِ، فيَكونُ قولُه تَعالى: ﴿وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى ٱلنَّحْلِ﴾ [النحل:٦٨] أي: ألْهمَها أنْ تتَّخِذَ مِنَ الجِبالِ بُيوتًا.. إلَى آخِره، وكذَلِك قوْلُه تعالى: ﴿وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ أُمِّ مُوسَىٰٓ﴾ يَعنِي: وحْي إلْهامٍ، وبذلِك يَزولُ الإشْكالُ.

مسْألة: في تَعريفِ النَّبيِّ أنَّه مَنْ أُوْحي إليْه ولَم يُؤمَرْ بالتَّبْليغ، فَإذا قال قائِلٌ: كَيف ونَحنُ -أُمَّةَ النَّبيِّ ﷺ- لمْ يُبلَّغ إلَيْهم، ومَع ذلِكَ أُمِروا بالتَّبْليغِ؟

الجَوابُ: هذِه مسْألة تنْبَني على اختلافِ العلماءِ، في مَن هو «النَّبيُّ» ومَن هو «الرَّسول»؛ فجُمهورُ العُلَماءِ على أنَّ الرَّسولَ هُو مَن أُوحي إلَيه بالشَّرعِ وأُرسِلَ به، وأُمِرَ أنْ يُبلِّغَه؛ وأمَّا النَّبيُّ فهُو مَنْ نُبِّئَ أي: أُخبِرَ، والإخْبارُ لا يلْزَمُ مِنه التَّكلِيفُ بالإبْلاغِ؛ فهُو مَن أُوحِيَ إلَيْه بشَرْعٍ ولَم يُؤمَرْ بتَبلِيغِه، بلْ أُمِرَ أنْ يفْعلَه بنَفْسِه، فيَكونُ هذا الإنْباءُ تجديدًا للرِّسالَةِ السَّابقةِ، أو إنْشاءً لِشرِيعة لَم تكن قائِمةً.

وهَذا هو الَّذي قالَه الجُمهورُ وهو الصَّحيحُ؛ لأنَّنا لو قُلنا: إنَّ النَّبيَّ هو من جدَّدَ شريعةً سابِقةً وأمَرَ أنْ يُبلِّغَ النَّاسَ وأنْ يُوقِظَهم. لو قُلنا: النَّبيُّ هو هَذا لَأَشْكَلَ علينا نُبوَّةُ آدَمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ، فإنَّ آدمَ نبيٌّ مُكلَّمٌ، ومع ذلِك لم يَسبِقْه رسُولٌ.

فإنْ قال قائلٌ: ما الفائدَةُ إذنْ؟

قُلنا: الفائدةُ؛ **أوَّلًا**: مَصلَحةُ هَذا النَّبيِّ هو بنفْسِه فإنَّه أوحِيَ إليه بشَرْعٍ.

ثانيًا: أنَّه إنْ كانَ في شَريعةٍ سابقةٍ، فهُو عِبارةٌ عَن تَجديدِ تِلكَ الشَّريعةِ، وإنْ كان في غيرِ شريعةٍ سابقةٍ كآدمَ، فإنَّ النَّاسَ في عهدِه بدائيُّون لم يكثروا ولم يختلفوا ولم تُفتَحْ عليهِم الدَّنيا، فكانوا يَنظُرون إلى ما يَفعَلُه أبُوهم فيَفعَلونه، دُون الحاجَةِ إلى أنْ يُرسَلَ إلَيهم؛ ولهَذا قالَ الله تَعالى: ﴿كَانَ ٱلنَّاسُ أُمَّةً وَٰحِدَةً فَبَعَثَ ٱللَّهُ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ﴾ [البقرة:٢١٣] يَعني فاختَلَفوا؛ ﴿وَأَنزَلَ مَعَهُمُ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ ٱلنَّاسِ فِيمَا ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ﴾.

فيَتَرجَّحُ عندي قولُ جمهُورِ العلَماءِ: أنَّ «النَّبيَّ» هو مَن أُوحِي إليه بالشَّرعِ، ولم يُؤمَرْ بتَبْلِيغِه؛ وأمَّا نحْن فلمَّا لم يَكُنْ بعدَ رسولِ الله ﷺ نبيٌّ صِرْنا مأمُورين بإبْلاغِ رِسالتِه، فنَحن -في الحَقِيقةِ- رُسلُ رسُولِ الله؛ ولِهذا جاءَ في الحَديثِ: «أنَّ العُلَماء

ورَثَة الأنْبياء»(١).

الْفَائِدَةُ الحَادِيَةَ عَشْرَةَ: أهميَّةُ التَّوحيدِ؛ حيثُ حُصِرَ الوَحيُ بالتَّوْحيدِ؛ قالَ تَعالى: ﴿يُوحَىٰٓ إِلَيَّ أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمْ﴾ مَع أنَّه يُوحى إلَيهِ أشْياءُ أُخرَى كالصَّلاةِ والزَّكاةِ وغَيرِ ذَلِك، لكِن لـمَّا كانَ أهمُّ ما جاء به ﷺ التَّوحيدُ حُصِرَ الوحْيُ بِه؛ فقالَ: ﴿أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٞ وَٰحِدٞ﴾ [الأنبياء:١٠٨].

وإنِّي أقُول: مَتى حقَّق الإنْسانُ التَّوحيدَ فلا بُدَّ أنْ يَقومَ بشَرائِعِ الإسْلامِ؛ لأنَّه إذا وحَّدَ الله بالقَصْدِ وجَعلَه هو حَياتَه، فلا بُدَّ أنْ يتَّجِه إلَيه، بالطَّرِيقِ الَّذي شرَعَه مُوصِلًا إلَيه؛ ولِهذا نَقولُ: إنَّ حَدِيثَ عَتْبانَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «**إنَّ الله حرَّم على النَّارِ مَنْ قال لا إلَه إلَّا الله يَبْتَغي بذَلِك وجْهَ اللهِ**»(٢)، هُو على ظاهِرِه، فمَنْ قال: لا إلَهَ إلَّا اللهُ يَبْتغي بذلِك وجْهَ الله، فإنَّه محرَّمٌ على النَّارِ، ومُقتَضى تَحْرِيمِه على النَّار ألَّا يَعْملَ كَبيرَةً تُوجِبُ دُخُولَه النَّارَ، أو تَقتَضي دُخولَه النَّارَ.

فكلُّ مَن قال: لا إلَه إلَّا الله يَبْتغي وجْهَ اللهِ، فلَن يَعملَ ما يُغضِبُ اللهَ؛ إذْ كيف تُريدُ وَجْهَه ثمَّ تَعمَلُ ما يُغضِبُه؟! فإنَّ عمِلَ ما يُغضِبُه يصُدُّك عنِ الوُصُولِ إلَى وجْهِه، وإذا كانَ يَصدُّك وأنتَ تبتَغِي وجْهَه فلا بُدَّ أنْ تَعدِلَ عنه، إمَّا بالكفافِ مُطْلَقًا وإمَّا بالتَّوبةِ مِنْه إنْ وقَعتَ فِيه. ولْيُنْتبَهَ لِهذه النُّقْطةِ؛ لأنَّ بعضَ النَّاسِ يَقولُ لَنا: أنتُم

(١) أخرجه الإمام أحمد (٥/ ١٩٦)، وأبو داود: كتاب العلم، باب الحث على طلب العلم، رقم (٣٦٤١)، والترمذي: كتاب العلم، باب ما جاء في فضل الفقه على العبادة، رقم (٢٦٨٢)، وابن ماجه: كتاب المقدمة، باب فضل العلماء والحث على طلب العلم، رقم (٢٢٣)، من حديث أبي الدرداء رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٢) أخرجه البخاري: كتاب الصلاة، باب المساجد في البيوت، رقم (٤٢٥)، ومسلم: كتاب المساجد ومواضع الصلاة، باب الرخصة في التخلف عن الجماعة لعذر، رقم (٣٣).

تُكفِّرون تاركَ الصَّـلاةِ، وقد قالَ النبيُّ ﷺ: «إنَّ اللهَ قَد حـرَّمَ على النار مَن قالَ: لا إلَهَ إلَّا اللهِ يَبْتَغي بِذلِك وجْهَ اللهِ»(١) ولَم يَذكُرِ الصَّلاةَ، قُلنا له: بلْ ذَكَرَ الصَّلاةَ وذَكَرَ ما دُون الصَّلاةِ أيضًا في قَولِه: «يَبتَغي بذلِك وجْهَ اللهِ».

ونَحْن نَقُـولُ: لا يُمكِنُ بأيِّ حالٍ منَ الأحْـوالِ أنْ يكُونَ رجُلٌ يَقـولُ: لا إلَهَ إلَّا اللهَ يَبْتَغي بذَلك وجْهَ الله، أنْ يُحافِظَ على تَرْكِ الصَّلاةِ أبدًا، وإنَّ مَن حاوَلَ أنْ يَجمَعَ بيْن ذلِك وبيْن ترْكِ الصَّلاةِ، فقَد حاوَلَ أنْ يجْمَع بيْن الماءِ والنَّارِ، وهَذا أمرٌ ظاهرٌ.

وسأَضرِبُ مَثلًا -ولله المَثَلُ الأعْلَى-: لو كُنتَ تُريد أنْ تَصِلَ إلَى شخْصٍ منَ النَّاسِ، وتَسْعى بكلِّ وَسِيلةٍ أنْ تَصِلَ إلَيه، هلْ تَفْعلْ ما يَحُولُ بينَك وبيْن الوُصُولِ إلَيه مِنْ مَعصِيَتِه؟ أبدًا! بلْ تَنْظرُ ماذا يُحبُّ فتفْعَلُه مِن أجْلِ أنْ تصِلَ إلَيْه، ومِن أجلِ أنْ يكُونَ مُستقبِلًا لك بالتَّرْحيبِ.

أمَّا أنْ تَقولَ: واللهِ أنا أُحِبُّ فُلانًا وأُحِبُّ أنْ أصِلَ إلَيْه، وفُلانٌ يَقولُ: لا تَمْشِ مَع هذا الطَّرِيقِ، وإذا أرَدْتَ أنْ تأْتِي إليَّ فائتِني مَع الطَّرِيقِ الأَيْمَنِ؛ فقُلتَ: واللهِ أنا أحِبُّ فُلانًا، وأحِبُّ أنْ أصِل إلَيْه، ولكِن مَع الطَّرِيقِ الأيْسَرِ، فتَمْشي فيه وأَنْت تقُولُ: واللهِ أنا أحِبُّ هذا وأعَظِّمُه، وهُو أحَبُّ إلَيَّ مِن نَفْسي. فهَذا كذِبٌ لا شكَّ.

إذَنْ: كلُّ مَن قال: لا إلَه إلَّا الله يَبْتَغي بذلِك وجْه الله، فإنَّه سوْف يَتحاشى المَعاصِي ولَو صَغِيرة؛ ولِهذا جاء حصْرُ الوَحْيِ في هذِه الآيَةِ بالتَّوحِيدِ: ﴿يُوحَىٰٓ إِلَيَّ أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمۡ إِلَٰهٞ وَٰحِدٞ﴾ وَهُو الله عَزَّوَجَلَّ.

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب الصلاة، باب المساجد في البيوت، رقم (٤٢٥)، ومسلم: كتاب المساجد ومواضع الصلاة، باب الرخصة في التخلف عن الجماعة لعذر، رقم (٣٣).

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَةَ عَشْرَةَ: وُجُوبُ الإخْلاصِ للهِ والاِسْتِقامَةِ على دِينِه؛ لِقَولِه: ﴿فَٱسْتَقِيمُوٓاْ إِلَيْهِ﴾؛ فـ«استَقِيموا» هَذا الْعَمَلُ، و«إلَيْه» هَذا الإخْلاصُ.

الْفَائِدَةُ الثَّالِثَةَ عَشْرَةَ: تَهديدُ الْمُشركين؛ لِقولِه: ﴿وَوَيْلٌ لِّلْمُشْرِكِينَ﴾، وهَذا النَّوعُ مِنَ التَّهديدِ يَكونُ فيما هُو شِركٌ، ويَكون فيما هُو دُون ذلِك؛ فقَد قال الله تَعالَى: ﴿وَيْلٌ لِّلْمُطَفِّفِينَ ۝١ ٱلَّذِينَ إِذَا ٱكْتَالُواْ عَلَى ٱلنَّاسِ يَسْتَوْفُونَ﴾ [المطففين:١-٢] وَهَؤلاء لَيسُوا بمُشرِكين، يعْني أنَّ عمَلَهم هَذا لا يُوصلُ إِلَى الشِّرك، وقال النبيُّ ﷺ: «**ويْلٌ لِمن حدَّث فكذَبَ ليُضحِكَ به القَوْم، ويلٌ له! ثمَّ ويلٌ له!**»[1]، وهَذا أيضًا ليسَ منَ الشِّركِ.

وعَلى هَذا فَلا يُقالُ: إنَّ كلَّ وعِيد كان بهذه الكَلِمةِ يُفِيدُ أنَّ الفِعلَ شِركٌ، بَل قَد يَكونُ شِركًا أو ما دُونَه.

الْفَائِدَةُ الرَّابِعَةَ عَشْرَةَ: أنَّ التَّوحيدَ تَزْكِيةٌ للنَّفسِ؛ لِقَولِه: ﴿ٱلَّذِينَ لَا يُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ﴾، ولا شكَّ أنَّ التَّوحيدَ تَزْكِيةٌ للنَّفْسِ؛ لأنَّك تَقْطعُ العَلائقَ مَع غَيرِ اللهِ إلَّا فيما يُحبُّ اللهُ.

فالمُوحِّدُ حقِيقةُ قلْبِه دائمًا مَع اللهِ عَزَّوَجَلَّ دائمًا يَتقلَّبُ في قضائِه الكَونِيِّ راضِيًا به كَما يتقلَّبُ في قضائِه الشَّرعيِّ راضيًا به؛ ولِهذا تَجِدُه إذا أصابَته سرَّاءُ شكَرَ ولَم يَبطَرْ، وإذا أصابَتْه ضرَّاءُ صبرَ ولَم يتسَخَّطْ؛ فهو دائمًا مَع اللهِ، يَقولُ لنَفْسِه: أنا عبْدُ اللهِ يَفْعلُ بِي ما شاء، أنا عبْدُ اللهِ إنْ أصابَني بالسَّرَّاءِ شكَرْتُ فكان خيْرًا لِي، وإنْ أصابَني بالضَّرَّاءِ صبَرْتُ فكان خيْرًا لي، أنا عبْدُ اللهِ لا يُمكِنُ أنْ أُعارِض قضاءَ اللهِ، يَقضِي

---

(١) أخرجه الإمام أحمد (٥/ ٢)، وأبو داود: كتاب الأدب، باب في التشديد في الكذب، رقم (٤٩٩٠)، والترمذي: كتاب الزهد، باب فيمن تكلم بكلمة يضحك بها الناس، رقم (٢٣١٥)، من حديث معاوية بن حيدة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

عليَّ اليومَ بالسُّرورِ فأُسَرُّ، وغَدًا بالسُّوءِ فأَسْتاءُ؛ فيَمْشِي مَع اللهِ مَع قضائه وقَدَرِه، وهَذا هو الَّذي يجِدُ الرَّاحةَ تمامًا.

ولهذا مِن ثمَراتِ الإيمانِ بالقدَرِ: أنَّ الإنْسانَ يَكونُ دائمًا مُطمَئنًّا لَيس به قَلَقٌ ولا حُزْنٌ، وإنْ كان ربَّما في الصَّدمةِ الأولى يجِدُ الإنسانُ الحُزْنَ، لكِن بالتَّصْبيرِ -تَصْبير نفسِه- ومُشاهَدةِ القَدَرِ يُسَهِّلُ علَيه الأمْرَ، وإلَّا فمِن المَعلُومِ أنَّ الإنسانَ ليسَ حدِيدًا ولا حِجارةً فَلا يَتَأَثَّرُ! لكِنَّه عِندما يُصَبِّرُ نفْسَه ويَحمِلُها يَصبِرُ فيَطمِئنُّ.

فالمهمُّ: أنَّ التَّوحيدَ كلَّه خيرٌ، وكلَّه زَكاةٌ؛ تَزكِية للنَّفسِ وتَطْهيرًا لها.

الْفَائِدَةُ الخَامِسَةَ عَشْرَةَ: أنَّ المُشرِكين لا يُؤمِنون بالآخِرةِ؛ ولهذا إذا قِيلَ له: وحِّدِ اللهَ تنْجُ مِن عَذابِه، قال: لَيسَ هُناك عَذابٌ؛ فيَكفُرون بالآخِرَةِ.

الْفَائِدَةُ السَّادِسَةَ عَشْرَةَ: أنَّ الإيمانَ بالآخِرةِ يدْعُو إلَى التَّوحِيدِ وتحقِيقِه، وهذا حقٌّ وواقِعٌ، فكلُّ إنسانٍ يُؤمِنُ بأنَّه سَوف يُحشَرُ يومَ القِيامةِ في أرضٍ قاعٍ صفصفٍ، لا يرى فيها عِوجًا ولا أمْتًا، وأنَّه سيُجازَى على عمَلِه، وكلُّ إنسان عاقِل سَوف يستَعِدُّ لِهذا اليَومِ؛ ولِذلك يَنْبغي لَنا مَع كَون قُلوبِنا مَع الله عَزَّوَجَلَّ أنْ نتَذكَّرَ السَّاعةَ وقِيامَ النَّاسِ، ولَيس بيْنَ الإنْسانِ وبين هذِه الحالِ وقْتٌ محُدَّدٌ مَعلُومٌ أبدًا. ولا يَصِلَ إلى هذا إذا مات ومَتى يَمُوتُ ولا يعْلَمُ؛ فقدْ يَخرجُ الإنسانُ مِن بَيْتِه ولا يَرجِعُ إلَيه، قدْ ينامُ على فِراشِه ويُحمَلُ مَيتًا، قدْ يركَبُ سيَّارَته ولا يَنزِلُ مِنها.

فإذن تَذكَّرْ -يا أخِي- عِنْدما تَستَولي على قلْبِك الغَفْلةُ هذا اليَوْمَ الَّذي تُحشَرُ فيه أنْت وسائِرَ الخَلْقِ حافيًا عارِيًا أغْرَلَ، لَيس عِندَك مالٌ ولا بَنون وَلا أحدٌ يَحمِيك، تَذكَّرْ هَذا! فإذا تَذكَّرتَه فَسَوف تَعمَلُ لِهذا اليَومِ، وإنَّ إخْوانَك وأوْلادَك وآباءَك

الَّذِين فقَدتَهم في الحْياةِ ستَجتَمعُ بهم في هذا اليَومِ، ولَيس هُناك اجْتِماعٌ إلَّا في هذا اليَومِ.

إذن: استعِدَّ لِهذا اليَومِ، فاعْمل صالحًا ولا يفُتكَ الرَّكبُ، وكُن في مُقَدِّمَتِه، واجْعَلِ الدُّنيا وراءَ ظَهْرِك، اجْعَلها تابِعةً لك ولا تَجْعلْ نَفسك تابعًا لَها حتَّى تنْجُوَ، فكُلُّ إنْسانٍ يُؤمِنُ بالآخِرةِ فإنَّه إذا تَذَكَّرها سَوف يَعْمَلُ لها؛ لِقولِ الله تَعالى: ﴿لِمِثْلِ هَٰذَا فَلْيَعْمَلِ ٱلْعَٰمِلُونَ﴾ [الصَّافَّات:٦١]، أَسْألِ اللهَ تَعالى أنْ يَجْعلَني وإيَّاكُم مِنَ المُتَّقِين الَّذِين يُؤمِنون بالآخِرةِ ويَعْمَلون لها.

• ● ۞ ● •

الآية (٨)

• قالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ﴾ [فُصِّلَت:٨].

لَـمَّا ذَكَرَ عُقُوبَةَ المُشْركين بَيَّن ثَوابَ المُؤمنين؛ لأنَّ اللهَ تَعالى أَنْزَل هَذا الكِتابَ مَثانيَ، وإنَّما كان الأمْرُ كذَلِك؛ لِيَكونَ الإنْسانُ سائِرًا إِلَى ربِّه بين الخَوفِ والرَّجاءِ، فإنَّه إذا سمِعَ عُقوبَةَ المُكذِّبين خاف، وإذا سمِعَ ثوابَ المُؤمنين رجَعَ، وهكذا يَنْبَغي للإنْسانِ أنْ يَكونَ سائِرًا إِلَى الله عَزَّوَجَلَّ بيْن الخَوفِ والرَّجاءِ، كما قال تَعالى: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا۟ يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا﴾ [الأنبياء:٩٠].

ولكِن في بعضِ الأحيانِ، قد يَكونُ مِن المَصلَحةِ تغْليبُ الرَّجاءِ، أو مِن المصلَحةِ تغلِيبُ الخوْفِ، فإذا اشتَدَّتْ رَغْبةُ الإنْسانِ في المَعْصيةِ فلْيُغلِّبْ جانِبَ الخَوفِ حتَّى يرتَدِعَ عنها، وإذا فعَلَ الإنسانُ عِبادةً فلْيغلِّبْ جانِبَ الرَّجاءِ، وهو قَبُولُ الله تَبَارَكَ وَتَعَالَى إياها، وكذَلِك أيضًا يَنْبَغي له في حالِ المَرَضِ أنْ يَرجِعَ إلى اللهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى وأنْ يُحسِنَ الظَّنَّ به، كما جاء في الحَديثِ: «لا يموتَنَّ أحدُكم إلَّا وهُو يُحسِنُ الظَّنَّ بربِّه تَبَارَكَ وَتَعَالَى»(١).

---

(١) أخرجه مسلم: كتاب الجنة وصفة نعيمها وأهلها، باب الأمر بحسن الظن بالله تعالى عند الموت، رقم (٢٨٧٧)، من حديث جابر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

قولُه تَعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ جَمَعَ اللهُ تَعالى بيْن العَقِيدةِ والعَمَلِ، بيْن الإيمانِ والإسْلامِ، فـ﴿ءَامَنُواْ﴾: العَقيدَةُ، و«عمِلوا الصَّالحاتِ»: الإسْلامُ. وهَذا يقَعُ في القُرآنِ كثيرًا؛ فالإيمانُ وحدَه لا يَكفِي، بل لا بُدَّ مِن عمَلٍ صالِحٍ حتَّى يَحصُلَ الثَّوابُ، وكلَّما جاءَت «آمَنُوا» فالمُرادُ: آمَنُوا بما يَجِبُ الإيمانُ به منَ الأُصُولِ السِّتةِ الَّتي بيَّنها الرَّسولُ -صلَّى اللهُ عليهِ وعلى آلِهِ وسلَّمَ- لجبريلَ عَلَيْهِ السَّلَامُ حِينَ قال: «الإيمانُ أنْ تُؤمِنَ باللهِ وبمَلائِكتِه وكُتُبِه ورُسُلِه واليَومِ الآخِرِ وتُؤمِنَ بالقَدَرِ خيْرِه وشرِّه»(١)؛ وذَلِك لأنَّ الإيمانَ المُجمَلَ في القُرآنِ يُفسِّرُه تَفصِيلُ السُّنَّةِ؛ لأنَّه لا أحدَ أعْلَمُ بكِتابِ اللهِ مِن رسُولِ اللهِ ﷺ.

أمَّا قوْلُه: ﴿وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾، فمَعلومٌ أنَّ «الصَّالحاتِ» وَصْفٌ لمَوصُوفٍ محذُوف، والتَّقدير: الأعمالُ الصَّالحات؛ فما هي الأعْمالُ الصَّالحاتُ؟

الجَوابُ: الأعمالُ الصَّالحاتُ هي ما جمَعَتْ شرطَين:

الأوَّلُ: الإخْلاصُ لله عَزَّوَجَلَّ.

والثَّاني: المُتابعةُ لرسُولِ اللهِ -صلَّى اللهُ عليهِ وعلى آلِهِ وسلَّمَ-.

فكُلُّ عمَلٍ فيه شِرْكٌ، فإنَّه ليْس بصالِحٍ، وهُو مردُودٌ على صاحبِه؛ لقَولِ اللهِ تَعالى في الحَديثِ القُدسيِّ: «أنا أغنَى الشُّركاءِ عنِ الشِّركِ، مَن عمِلَ عمَلًا أشرَكَ فيه معِي غيرِي ترَكتُه وشِركَه»(٢).

وكذَلِك أيضًا فلا بُدَّ مِن اتِّباعِ الرَّسولِ، فالعَمَلُ البِدعيُّ غيرُ مقبُولٍ وإنْ

---

(١) أخرجه مسلم: كتاب الإيمان، باب بيان الإيمان والإسلام، رقم (٨)، من حديث عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٢) أخرجه مسلم: كتاب الزهد، باب من أشرك في عمله غير الله، رقم (٢٩٨٥)، من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

أخلَصَ الإنسانُ فِيه؛ لِقوْلِ النَّبيِّ -صلَّى اللهُ علَيهِ وعلى آلِهِ وسلَّمَ-: **«مَن عمِلَ عمَلًا ليْس علَيه أمرُنا فهُو ردٌّ»**[1].

إذنْ: الأعمالُ الصَّالحاتُ لا بُدَّ أنْ تتضمَّـن شيئين، وهُما: الإخْلاصُ للهِ، والمُتابَعةُ لرَسولِ اللهِ -صلَّى اللهُ علَيهِ وعلى آلِهِ وسلَّمَ-.

وقولُه تعالى: ﴿لَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ﴾ هذِه الجُملَةُ خبَرُ إنَّ؛ وقدْ نقولُ: إنَّ تقدِيمَ الجارِّ يدُلُّ على الحَصْرِ؛ أيْ: لهُم لا لِغيرِهم مِن المُكذِّبين أو الفاسِقين أجْرٌ؛ أي: ثوابٌ. ﴿غَيْرُ مَمْنُونٍ﴾ يَقولُ المُفسِّرُ رَحِمَهُ اللَّهُ: [غيرَ مَقطُوعٍ] بلْ هُو دائِمٌ كَما قال تَعالى: ﴿وَلَهُمْ رِزْقُهُمْ فِيهَا بُكْرَةً وَعَشِيًّا﴾ [مريم:٦٢] وقِيلَ: ﴿غَيْرُ مَمْنُونٍ﴾ غيـر ممْنُونٍ بِه؛ أي: يُعطُونه بلا مِنَّةٍ، وهَذا مُحتَملٌ.

وإذا كان مُحتَملًا ولا يُنافي المَعنَى الأوَّلَ كان المُرادُ بالآيَةِ المَعنيَيْن جمِيعًا؛ إذْ لديْنا قاعِدةٌ في التَّفسيرِ -وكذَلِك في الحدِيثِ- مُهِمَّةٌ، وهِي إذا كان النَّصُّ يحتَمِلُ معنيَين لا يُنافي أحدُهُما الآخَرُ فإنَّ النَّصَّ يُحمَلُ عليهِما جميعًا؛ وذلِك لأنَّ اللهَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى يَعْلَم ما يحتَمِلُه كلامُه، وكذَلِك الرَّسولُ -صلَّى اللهُ علَيهِ وعلى آلِهِ وسلَّمَ- فلَمَّا لم يُعيِّن أحدُ الاحتِمالَين وجَبَ أنْ يكُونَ شامِلًا لهُما، لكِن إذا كان أحدُهما أرجَحَ منَ الآخَرَ فإنَّه يتْبَعُ الأرْجَحَ؛ ولِهذا نقُولُ: يُقدَّمُ ظاهِرُ النَّصِّ على تأويلِ النَّصِّ، والتَّأويلُ هو اتِّباعُ المَعنَى المَرجُوحِ.

إذنْ: قَولُه تَعالى: ﴿لَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ﴾؛ أي: ثَوابٌ غيرُ مقْطُوعٍ، وثوابٌ غيرُ ممْنُونٍ به.

---

(١) أخرجه مسلم: كتاب الأقضية، باب نقض الأحكام الباطلة، ورد محدثات الأمور، رقم (١٧١٨)، من حديث عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا.

مِن فوائدِ الآيةِ الكَرِيمةِ:

الْفَائِدَة الأُولَى: تَحقِيقُ أنَّ القُرآنَ مثانٍ، تُثنَّى فيه المَعاني المُتقابِلَة، فإذا ذُكِرَ ثوابُ المُجرِمين ذُكِرَ ثَوابُ المُتَّقِين، وإذا ذُكِرتِ الجَنَّة ذُكِرتِ النَّارُ، وهلُمَّ جرًّا؛ مِن أجلِ أنْ يَكونَ الإنسانُ سائِرًا إلَى ربِّه بيْن الخوْفِ والرَّجاءِ، وهكَذا يَنبَغي للإنْسانِ في سَيرِه إلى ربِّه أنْ يكُونَ خائِفًا راجِيًا؛ لِقولِه تَعالى: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا۟ يُسَـٰرِعُونَ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا﴾ [الأنبياء:٩٠] فما سببُ (الرَّهَب) والخَوفِ؟

الجَوابُ: سببُ الخوفِ ذُنوبُ الإنسانِ، فإذا نَظَرَ إلى ذُنوبِه وتَقصِيرِه خافَ كَما قال تَعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يُؤْتُونَ مَآ ءَاتَوا۟ وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ﴾ [المؤمنون:٦٠] أي: يَخافون ألَّا يُقبَل منهم. والرَّجاءِ، إذا نَظَرَ إلى عفوِ اللهِ وفضْلِه، وأنَّه جَلَّوَعَلَا حلِيمٌ رَجاهُ، وقوِيَ رجاؤه، فيكُونُ دائرًا بينَ الخَوفِ والرَّجاءِ.

وقال بعضُ أهْلِ العِلمِ رَحِمَهُمُاللَّهُ: في الطَّاعةِ يُغلَّبُ جانِبَ الرَّجاءِ، وفي المَعصِيةِ يُغلِّبُ جانِبَ الخوْفِ، وهَذا لَه نظَرٌ قوِيٌّ؛ لأنَّ الإنسانَ إذا فعَلَ الطَّاعةَ فينْبَغي أنْ يُحسِنَ الظَّنَّ باللهِ، وأنَّ اللهَ سيقبَلُ مِنه فيقْوَى رجاؤه. أمَّا إذا همَّ بالمَعصِيةِ فينَبَغي أنْ يُغلِّبَ جانِبَ الخَوفِ حتَّى لا يَقعَ في المَعصِيةِ.

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَةُ: أنَّ الإيمانَ وحْدَه لا يَكفِي حتَّى يقتَرِنَ بعمَلٍ، لكِن إذا أُطلِقَ الإيمانُ شمِلَ العمَلَ، وإنْ ذُكِرَ معه العمَلُ صارَ العَمَلُ علانيةً والإيمانُ سِرًّا؛ مِثل قولِه تَعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ﴾ هُنا جمَعَ بيْن الإيمانِ والعمَلِ؛ فيكون الإيمانُ في القَلْبِ، والعَمَلُ في الجَوارحِ.

فإنْ قال قائلٌ: في قَولِ اللهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ﴾

هل هذه الآيَةُ ومَثيلاتُها تَصلُحُ دلِيلًا لِمن أخْرجَ العَمَلَ الصَّالحَ من الإيمانِ بِمُقتَضى أنَّ العَطْفَ يَقْتَضي المُغايرَةَ؟

الجَوابُ: هذا لا يصِحُّ؛ لأنَّ العمَلَ الصَّالحَ دلَّتِ النَّصوصُ على أنَّه مِنَ الإيمانِ، لكِن لا مانعَ أنْ يكُونَ الشَّيءُ الواحدُ مُنقَسِمًا إلَى أنْواعٍ، فالإيمانُ تَدخُلُ فِيه الأعْمالُ لا شكَّ، لكِنَّه يَتَنوَّع؛ فمِنه ما هُو عقِيدةٌ، ومِنه ما هو عمَلٌ قوليٌّ، ومِنه ما هُو عمَلٌ فِعليٌّ.

الْفَائِدَةُ الثَّالِثَةُ: دوامُ نَعيمِ المُؤمنين العامِلين الصَّالِحاتِ؛ لِقولِه: ﴿لَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ﴾؛ أي لا يُقطَعُ، كما قال تَعالى: ﴿وَلَهُمْ رِزْقُهُمْ فِيهَا بُكْرَةً وَعَشِيًّا﴾ [مريم:٦٢].

الْفَائِدَةُ الرَّابِعَةُ: أنَّ أجْرَ الآخِرة خيْرٌ مِن أجْرِ الدُّنيا وثوابِها، وجْه ذلِك: أنَّ أجْرَ الآخِرَة غيرُ مقطوعٍ، بلْ هُو مستمِرٌّ دائِمًا وغيرَ ممْنُونٍ به أيْضًا، بلْ يُعطَى الإنسانُ بِدون مِنَّةٍ. وأمَّا ثوابُ الدُّنيا فإنَّه بالعَكْسِ.

الآية (٩)

• ● ● •

❁ قالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿ ۞ قُلْ أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِالَّذِي خَلَقَ الْأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُ أَندَادًا ذَلِكَ رَبُّ الْعَالَمِينَ ﴾ [فصلت:٩].

• ● ● •

ثمَّ قال تَعالى: ﴿قُلْ أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ﴾ قُل: أيْ يا مُحمَّدُ لِهؤُلاءِ المُكذِّبين: ﴿أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ ...﴾.

وقولُه: ﴿أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ﴾ الجُملَةُ هذِه استِفْهامٌ، بِمعنَى التَّقريرِ، يَعني: إنَّكم لتكفُرون، و«إنَّ» للتَّوكِيدِ، و﴿لَتَكْفُرُونَ﴾ للتَّوكِيدِ أيضًا؛ وذلِك لأنَّ اللَّامَ الواقِعَةَ في خبَرِ «إنَّ» أو اسْمَها المُؤخَّرَ تَكون للتَّوكِيدِ؛ فـ«إنَّ» تنْصِبُ المُبتَدأَ وتَرْفَعُ الخَبَرَ، والكافُ اسْمُها، وجُملَةُ ﴿لَتَكْفُرُونَ﴾ خبَرُها.

أمَّا مِن حَيثُ القِراءاتِ فيَقولُ المُفسِّر: [بتَحقِيقِ الهَمْزةِ الثَّانيَةِ وتسهِيلِها] تَحقِيقُها أنْ تقولَ: «أإنَّكم»، وتَسهيلُها أنْ تقُولَ: «أَإنَّكم» فتمُرَّ بها بسُرعةٍ، [وإدْخال ألِف بينَهما بوَجهَيها وبيْن الأُولى]، والوجْهان هُما التَّحقِيق والتَّسهِيل، فأدْخَل أَلِفَيْن بينَهُما على القِراءتَين، فتكونُ القِراءاتُ أرْبَعًا: إدْخال الألِفِ تَقُول: «آإنَّكم» هذا في التَّحقيقِ، «آإنكم» هذا بالتسهيل.

إذَن: تحقيقٌ وتَسهِيلٌ بألِف، وبدُونِها: اثْنتان في اثنَتيْن: بأرْبَعِ قِراءاتٍ.

مَسْألةٌ: قِيلَ في قَولِه تَعالى: ﴿قُلْ أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ﴾: إنَّهم يَقرَؤُونها: «أهِنَّكُم»؛ فَإذا ثَبتتِ القِراءةُ بالهاءِ، فَهذا يُعتبَرُ إبْدالًا ولَيس بتَسهِيلٍ، إبْدال الهَمزَةِ هاءً.

فإنْ قِيلَ: بعضُ النَّاسِ يَنطِقون التَّسْهيلَ كأنَّه هاءٌ!

فالجَوابُ: بعضُ النَّاسِ يَتشدَّدُ في التَّسهيلِ حتَّى تكونَ هاءً، وربَّما يَتشدَّدُ آخَرُ حتَّى تَكونَ حاءً حقِيقةً؛ لأنَّ بعضَ النَّاس -الله يهدِينا وإيَّاهم- يَفعَلُ هذا عِندَ القِراءَةِ وقَد أنكَر هَذا شَيخُ الإسْلامِ رَحِمَهُ اللَّهُ في (فتاواه)[1] وغيرِها هَذا التَّشدُّدَ في تَحقِيقِ بعْضِ القِراءاتِ، فبَعْضُ النَّاسِ -مثَلًا في القَلقَلةِ-: يُقلْقِلُ كأنَّه يُقلقِلُ حصاةً أو حَجرًا؛ يَعني يُؤكِّدُ على الحَرفِ كَثيرًا.

والحَقيقَةُ: أنَّ التَّنطُّعَ ليسَ بحَسَنٍ، والإهْمال ليس بحَسَنٍ، وخَيرُ الأمُورِ الوَسَطُ.

وقولُه تَعالى: ﴿لَتَكْفُرُونَ بِالَّذِي خَلَقَ الْأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ﴾ تكفُرون به؛ أي: تَجحَدونَه وتَستكبِرون عن عِبادَتِه؛ لأنَّ الكُفرَ كلَّه يدُورُ على شيئَينِ: إمَّا جَحدٌ، وإمَّا استِكبارٌ، فمَثلًا الشَّيطانُ إنَّما كفَرَ بالاستِكبارِ، وإلَّا فهُو مُقرٌّ باللهِ وبعِزَّةِ الله وبقُدرَةِ الله، لكِنه استكبَرَ، وآلُ فِرعَونَ ومَن شابَهَهم كَفروا بالجُحودِ، فمَدارُ الكُفرِ كلِّه على هَذين الأمْرين: الجَحدِ أو الاسْتِكبارِ، فقَوله: ﴿لَتَكْفُرُونَ﴾ يَشمَلُ المعنيَيْن؛ لأنَّهم جَحدوا تَوحِيدَ اللهِ عَزَّوَجَلَّ واستكبَروا عَن عِبادَتِه.

وقال تَعالى: ﴿بِالَّذِي خَلَقَ الْأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ﴾ ولم يَقُلْ: بالله، بلْ أتَى بفِعلٍ مِن أفعالِه جَلَّوَعَلَا بفِعْلٍ لا تَقدِرُ علَيه هَذه الأصْنامُ، والإتْيانُ بالفِعلِ الَّذي لا تَقدِرُ علَيه الأصْنامُ،

(١) انظر: جامع المسائل لابن تيمية (٣/ ٣٠٣-٣٠٥)، والآداب الشرعية (٢/ ٣١١، ٣١٥).

هُو إقامةٌ للحُجَّةِ في نفْسِ الوَقتِ؛ أي: تَكفُرون بِهذا مَع أنَّ أصْنامَكم لا تَفْعَلُه.

وقولُه: ﴿لَتَكْفُرُونَ بِٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْأَرْضَ فِى يَوْمَيْنِ﴾ قال المُفسِّرُ: [الأحَد والاثنين]؛ لأنَّ أوَّلَ يومٍ ابتَدأ فيه اللهُ الخَلْقَ الأحَدُ.

وقولُه: ﴿وَتَجْعَلُونَ لَهُۥٓ أَندَادًا﴾ الواوُ حرْفُ عطْفٍ، و«تَجعَلُون» مَعطُوفةٌ على «تَكفُرون»، لا على الصِّلةِ يَعني: لا على «خَلَقَ».

وقولُه: [﴿وَتَجْعَلُونَ لَهُۥٓ أَندَادًا﴾ شركاء]، أنْدادًا جَمْع نِدٍّ، والنِدُّ في الأصْلِ هُو المُساوي والمُماثِلُ، يُقالُ: هَذا نِدُّ هَذا؛ أيْ: مُماثِلٌ له ونَظيرٌ له، والمُرادُ بِهم هُنا: الشُّركاءُ الَّذين يعبُدُونهم كما يَعبُدون اللهَ، والعَجَبُ أنَّ هؤُلاء المُشرِكين مِن سَفَهِهم يَقولون: إنَّما نعْبُدُهم لِيُقرِّبونا إلَى اللهِ، تَعبُدُونهم مَع اللهِ وتَقُولون: يُقرِّبونا إلَى اللهِ؟! إنَّ اللهَ غنِيٌّ عنْ هذا، وهَذا لا يَزيدُكم مِن اللهِ إلَّا بُعدًا.

وقولُه تَعالَى: ﴿ذَٰلِكَ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾، ذلِك، أتَى باسِم الإشارة دُون الضَّمِير، ثمَّ جعَلَها إشارةَ بُعدٍ للتَّعْظيمِ والتَّفخيمِ والتَّعلِيةِ؛ لأنَّ البُعدَ هُنا إشارةٌ إلَى المَكانِ العالي ﴿ذَٰلِكَ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾، ولَو قال: «هُو ربُّ العالَمِين» استَقام الكَلامُ، لكِن لمْ يَحصُل ما تدلُّ علَيْه الإشارةُ مِنَ التَّعظيمِ، ثمَّ ما يدُلُّ علَيْه صِيغَةُ البُعدِ منَ العُلُوِّ. ونظِيرُ ذلِك: ﴿الٓمٓ ۝١ ذَٰلِكَ ٱلْكِتَٰبُ﴾ [البقرة:١-٢] ولمْ يَقُلْ: «هوَ الكِتابُ»، ولا: «هَذا الكِتابُ»، إشارةً إلَى ما ذكَرنا.

قولُه: ﴿ذَٰلِكَ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ قال المُفسِّرُ: [مالِك] وفِي هَذا التَّفسيرِ قُصورٌ، بلْ نقُولُ: خالِقٌ ومالِكٌ ومدبِّرٌ؛ لأنَّ الرُّبوبيَّةَ هِي الخَلْقُ والمُلكُ والتَّدبِيرُ، فإذا قُلنا: مالِكٌ، صار في هذا قُصورٌ؛ فقَولُه: ﴿ذَٰلِكَ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ أي: خالِقُهم ومالِكُهم ومدبِّرُ أمُورِهم.

وقولُه: [﴿رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ جمْعُ عالَمٍ وهُو ما سِوى اللهِ] عَزَّوَجَلَّ فكلُّ ما سِوى اللهِ فهُو عالَمٌ، وسمِّي عالمًا؛ لأنّه عَلَم على خالِقِه جَلَّوَعَلَا، فإنَّ كلَّ شيْءٍ فِيه آيَةٌ تدلُّ على وَحْدانيَّة الله وقُدرَتِه وحِكمَتِه وعِزَّتِه، وغيرِ ذلِك.

قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [وجمَعَ لاختِلافِ أنْواعِه] يَعنِي: لمْ يَقُلْ: العالَمِ، بلِ أتى بالعالَمِين [بالياءِ والنُّونِ تغْلِيبًا لِلعُقلاءِ]، فإنْ قال قائلٌ: هلِ العُقَلاءُ أكثَرُ أو غيرُ العُقلاءِ؟

فالجَوابُ: إنْ قِيلَ: إنَّ العُقَلاءَ أكثَر، فيُحتاجُ إلَى دلِيلٍ، ورُبَّما يَكونُ دلِيلُه أنَّ النَّبيَّ ﷺ قالَ: «أطَّتِ السَّماءُ وحُقَّ لَـها أنْ تَئِطَّ، ما مِن مَوضِعِ أربَعِ أصابعَ مِنها إلَّا وفِيه مَلَكٌ قائمٌ للهِ أو راكِعٌ أو ساجِدٌ»(١)، والسَّماءُ واسِعةٌ عظِيمةٌ، كلُّ سماءٍ أوسَعُ ممَّا تحْتَها، فمَن يُحصي هؤُلاء! هَذا شيْءٌ عظِيم، والبَيْت المَعمُور في السَّماء السَّابعةِ يدْخُلُه كلَّ يومٍ منَ المَلائِكةِ سبعُون ألْف مَلكٍ لا يعُودُون إلَيه، فمَن يُحصِي الأيَّامَ، كُلُّ يومٍ يُضرَبُ في سَبعِين ألفِ مَلَكٍ! فإذا رأَينا هَذا قُلْنا: العُقلاءُ أكثَرُ.

وإنْ نظَرْنا إلى ما في الأرْضِ قُلنا: غيرُ العُقَلاءِ أكثَرُ؛ فعلى هَذا التَّقدِيرِ -أنَّ المرادَ مثلًا من في الأرضِ- نقولُ: إنه غلَّبَ العُقلاءَ لشرَفِهم، والحاصِلُ: أنَّ تغلِيبَ العُقلاءِ إنْ كانَ العُقلاءُ أكثَرُ فغُلِّبوا لِكثرَتِهم، وإنْ قُلنا: غيرُ العُقلاءِ أكثرُ، فغُلِّبَ العُقلاءُ، يُغلَّبُ مَن لَيس بمُميِّزٍ لِشرَفِهم.

مِن فوائِدِ الآيةِ الكَريمَةِ:

الْفَائِدَة الأُولَى: في هَذا دَلِيلٌ على وُجُوبِ إعْلانِ المُؤمِنِ ما علَيه الكُفَّارُ مِنَ الكُفرِ باللهِ؛ لِقولِه: ﴿قُلْ أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ﴾.

---

(١) أخرجه الإمام أحمد (٥/ ١٧٣)، والترمذي: كتاب الزهد، باب في قول النبي ﷺ: «لو تعلمون ما أعلم لضحكتم قليلا»، رقم (٢٣١٢)، من حديث أبي ذر الغفاري رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ.

ويتفرَّعُ على هَذه الفائدَةِ: أنَّه لا تجُوزُ مُداهَنةُ الكُفَّارِ، وإنْ كانَت المُداراةُ تَجُوزُ لكِنَّ المُداهَنةَ لا تجُوزُ.

والفَرقُ بينَهما: أنَّ المُداهَنةَ سُكوتُ الإنسانِ عَن مَعصِيةِ العاصِي، كأَنَّه يَقولُ: لَك مَعصِيتُك ولِي طاعَتي، فأنتَ اعْمَلْ وأنا أعمَلُ، فهَذه مُداهَنةٌ ومُصانعةٌ لا تَجُوزُ؛ قال اللهُ تَعالى: ﴿وَدُّوا لَوْ تُدْهِنُ فَيُدْهِنُونَ﴾ [القلم:٩]، ولَكِن لا يَجُوزُ لِلمُؤمنِ أنْ يُداهِنَ.

أمَّا المُداراةُ فمَعناها: أنْ يَنقُلَ الإنْسانَ ممَّا هُو عليْه مِن المَعصِيةِ شيئًا فشَيئًا وهُو غيرُ راضٍ بها، بلْ هُو كارِهٌ، ولا يَرى أنَّه يَجُوزُ إقْرارُها، بِخلافِ المُداهِنِ.

وأمَّا المُداهَنةُ في الحَقِيقةِ فأشْبَه ما لَها في وقتِنا الحاضِـرِ ما يُسمُّونه بالمُجامَلةِ أو بالعَلمَنة، فإنَّ العلمانيِّين يقُولُون: دَعْ كلَّ إنسانٍ وشأنَه، الدَّولةُ دولَةٌ، والدِّينُ دِينٌ، فالدَّولةُ لا بُدَّ أن تتَّحِدَ، وأما الدِّينُ فلكلٍّ دِينُه، فلا تُنكِر على الكافِرِ ولا على الفاسِقِ، دعْ كلَّ إنسانٍ يعمَلُ ما شاء!!

المُهمُّ: أنَّ هذِه الآيَةَ صرِيحَةٌ في أنَّه يجِبُ أنْ نُنكِرَ على الكافرين كُفرَهم، وَألَّا نُداهِنهم.

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَةُ: أنَّه يَنبَغي تأكِيدُ ما يُمكِنُ أنْ يُنْفَى أو يُشَكَّ فِيه؛ وجْهُه: أنَّه أكَّد ذلِك بقَولِه: ﴿أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ﴾، وإلَّا فيكْفي أنْ يقُولَ: قلْ لقَد كفرْتُم، أو قلْ كفرْتُم، لكِن لـمَّا كان هَذا أمْر يُشَكُّ فِيه ويُقالُ: هؤُلاء لمْ يكفُـروا باللهِ بلْ آمَنوا به؛ لأنَّهم يؤمِنُون بأنَّ اللهَ مَوجُودٌ وبأنَّ اللهَ خالِقُ السَّمواتِ والأرْضِ، لكِن إذا لمْ يتَّبِعوا شَرعَه فهُم كافِرون به، ولَو أقرُّوا بِوجُودِه.

الْفَائِدَةُ الثَّالِثَةُ: بيانُ قُدرَةِ اللهِ عَزَّوَجَلَّ وبيانُ حِكمَتِه في خلْقِ السَّمواتِ والأرْضِ، حيثُ خلَقَ هذِه الأجْرامَ العَظيمَةَ الكَبيرَةَ الواسِعةَ في خِلال ستَّةِ أيَّامٍ.

أَمَّا الحِكمَةُ فوجْهُها: أنَّ اللهَ جَلَّوَعَلَا كان قادِرًا على أنْ يخْلُقها بلَحظَةٍ واحِدَةٍ: كُن فيكُونُ، لكنَّه جَلَّوَعَلَا ربطَ الأسبابَ والمُسبَّبات، وجَعلَها تتفاعَلُ شيئًا فشَيئًا حتَّى تنتَهِي، هَذا مِن وجْهٍ.

ومِن وجْهٍ آخرَ: أنَّه أخَّرَ ذلِك لِيُعَلِّم عِبادَه التَّأنِّي في الأُمُورِ.

الْفَائِدَةُ الرَّابِعَةُ: أنَّ خلْقَ الأرْضِ قبْل خلْقِ السَّماءِ؛ لأنَّه لـمَّا ذكرَ خلْقَ الأرْضِ في أربعَةِ أيَّامٍ قالَ: ﴿ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ﴾ وهَذا كقَوْلِه تَعالى في سُورةِ البَقَرةِ: ﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ لَكُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ فَسَوَّىٰهُنَّ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ ۚ وَهُوَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ﴾ [البَقرة:٢٩].

ولكِن هَذا يُعارِضُه ظاهِرُ قولِه تَعالى: ﴿ءَأَنتُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَمِ ٱلسَّمَآءُ ۚ بَنَىٰهَا ﴿٢٧﴾ رَفَعَ سَمْكَهَا فَسَوَّىٰهَا ﴿٢٨﴾ وَأَغْطَشَ لَيْلَهَا وَأَخْرَجَ ضُحَىٰهَا ﴿٢٩﴾ وَٱلْأَرْضَ بَعْدَ ذَٰلِكَ دَحَىٰهَآ﴾ [النَّازِعات:٢٧-٣٠] فهُنا ذكَرَ أنَّ الأرْضَ دُحِيت بَعدَ خلْقِ السَّماءِ، فهلِ المُرادُ بالدَّحْوِ شَيءٌ سِوى الخلْقِ، أو أنَّ البَعْدِيَّةَ هُنا بَعدِيةُ ذِكرٍ؛ يعنِي كما يَقولُون: هَذا تَرتِيبٌ ذِكريٌّ، ولَيس ترتِيبًا زمَنِيًّا؟

الجَوابُ: في هَذا وجْهان:

الوَجْهُ الأوَّلُ: أنَّ الدَّحْو ليْس الخلْقَ، بلْ هُو شَيْءٌ آخرُ، فسَّره اللهُ بِقولِه: ﴿أَخْرَجَ مِنْهَا مَآءَهَا وَمَرْعَىٰهَا﴾ [النَّازِعات:٣١] فهَذا الدَّحوُ، وإخْراجُ الماءِ والمَرْعى شَيءٌ زائِدٌ على الخلْقِ والتَّكْوينِ.

وأمَّا الوجْهُ الثَّاني: فإنَّ البَعدِيةَ هُنا بَعديَّةُ ذِكرٍ، وهُو ما يُعرفُ عِند عُلَماءِ النَّحوِ بالتَّرتِيبِ الذِّكريِّ، ومِنه قَولُ الشَّاعِرِ(١):

---

(١) البيت لأبي نواس الحسن بن هانئ، يمدح به العباس بن عبيد الله بن أبي جعفر. انظر: ديوانه ط. آصاف (ص:١٢٢)، وخزانة الأدب (١١/ ٤٠).

إنَّ مَن سادَ ثُمَّ سادَ أَبُوه ... ثمَّ سادَ مِن بعْدِ ذلِك جَدُّه

فتجِدُ أنَّ التَّرتيبَ على خِلافِ التَّرتيبِ الزَّمنيِّ، لكِنَّ هَذا يُسمَّى ترتيبًا ذِكريًّا، يَحتَمِلُ الوَجهَين.

ولكنَّ الوجْهَ الأوَّلَ أوْلَى؛ أنْ يُقالَ: إنَّ الدَّحوَ ليْس الخَلْقَ، الخلْقُ والتَّكوِينُ شيْءٌ، والدَّحْوُ شيْءٌ آخَرُ.

والدَّلِيلُ: أنَّ اللهَ تَعالى قال في الدَّحوِ مُفسِّرًا إيَّاه: ﴿أَخْرَجَ مِنْهَا مَآءَهَا وَمَرْعَىٰهَا﴾.

إذَنْ: لا مُعارَضةَ بيْن الآيتَين؛ لتَنزِل كلُّ واحِدةٍ مِنهُما على وجْهٍ لا يُعارِضُ الوجْهَ الآخَرَ.

واعْلَمْ أنَّه ينبَغي للإنسانِ إذا رأى آيتَيْن ظاهِرُهما التَّعارُض ألَّا يُسرِعَ في الحُكْمِ بالتَّعارُضِ؛ لأنَّه لا يُمكِنُ أنْ تَتعارَضَ آيتان مِن كلِّ وجْهٍ -كما ذكَرْنا ذلِك في أصُولِ التَّفسِيرِ- ولكِن ليَتأنَّى وليَتأمَّل وليُفكِّرْن، فإنَّ أدرَك أنْ لا تَعارُضَ فهَذا المَطْلُوبُ، وإلَّا وجَب أنْ يَسْألَ أهلَ العِلْم، فإنْ لمْ يَتبيَّن لَه الأمْرُ وجَب علَيه التَّوقُّفُ، وصارَتْ هَذه مِن الآياتِ المُتشابِهاتِ الَّتي يجِبُ أنْ يقُولَ فِيها: ﴿ءَامَنَّا بِهِۦ كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا﴾ [آلِ عِمران:٧].

وقد ذكَرنا لكُم فِيما مَضَى أنَّ مِن العُلماءِ مَن ألَّف في الآياتِ الَّتي ظاهِرُها التَّعارُض وجَمع بينْها، وذَكَرْتُ لكُم أنَّ مِن أحْسنِ ما رأيْتُ ما ألَّفه الشَّيخُ الشّنقِيطيُّ (دَفْع إيْهام الاضْطِراب عَن آيِ الكِتاب).

الْفَائِدَةُ الخَامِسَةُ: أنَّ نوْعَ الكُفرِ الَّذي حصَل مِن هؤُلاء المُخاطَبين هو الشَّركُ؛ لِقولِه: ﴿وَتَجْعَلُونَ لَهُۥٓ أَندَادًا﴾ [فُصِّلت:٩]، وجعَلوا الأندادَ لَه أنواعًا كثيرَةً؛ إمَّا أنْ يجعَل

لَه أندادًا في الذَّاتِ، فيَقولَ: إنَّ اللهَ لَه مَثِيلٌ كما فعلَتِ النَّصارَى، حيثُ قالُوا: ﴿قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ ثَالِثُ ثَلَٰثَةٖ﴾ [المائدة:٧٣]، وكما فعَلَ المُمَثِّلَةُ الَّذِين مَثَّلوا صِفاتِ الله بصِفاتِ خَلْقه، فإنَّ هَذا مِن الشِّركِ.

وقدْ يَكون نِدًّا في العِبادةِ يَعبُده وإنْ كان لا يَرى أنَّه مِثل اللهِ عَزَّوَجَلَّ لكِن يَعبُده، ويدَّعي أنَّه إنَّما عبَده لِيُقرِّبَه إلى الله عَزَّوَجَلَّ وقَد يَكون هُناك أنْداد في المَحبَّة بأنْ يُحِبَّ الشَّيءَ كما يُحِبُّ اللهَ.

والعَجَبُ أنَّ الشَّيطانَ يَجرِي مِن ابْن آدَم مجرَى الدَّم، فيُحِبُّ الشَّخصَ، ويتَعلَّقُ به كَثيرًا، ويَقولُ: أنا أُحِبُّه للهِ، والحَقيقةُ أنَّه يُحِبُّه مَع اللهِ ولَيسَ للهِ. فالَّذِي يُحِبُّ الشَّخْصَ لله تكونُ المَحبَّةُ الأصلِيَّةُ هي محَبَّةَ اللهِ؛ فهَذا أحبَّه؛ لِأنَّه يُحِبُّ اللهَ، لكِنَّ الَّذي يجعَلُ قَلْبه مُنْصرفًا إلى هَذا المَحبُوبِ لا يُفكِّرُ إلَّا به، ولا ينامُ إلَّا على ذِكْره، ولا يَستَيقِظُ إلَّا بذِكْرِه؛ هَذا لَم يُحِبَّه للهِ، بَلْ أحبَّه مَع اللهِ، وهَذا شِركٌ كَما قال تَعالى: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَندَادٗا يُحِبُّونَهُمۡ كَحُبِّ ٱللَّهِ﴾ [البقرة:١٦٥].

وكذَلِك مِن النِّدِّ أنْ يَتعلَّقَ قَلْبُ الإنْسانِ بِالمَخْلُوقِ خَوفًا ورَجاءً، لا محَبَّةَ خوفٍ ورَجاءٍ، بِحَيثُ يَعتَمِدُ علَيه في تَحصِيلِ مَعاشِه، أو في دَفْعِ الضَّرَرِ عنه، وهَذا يَقَعُ كثِيرًا ولا سِيَّما بعْد فتْحِ المُستَشفَياتِ؛ فإنَّ أكثَرَ النَّاسِ يَتَعلَّقُ قلبُه بالمُستَشفى، تَجِدُه إذا مرِضَ أخَذ حبَّةً أو حبَّتَيْن، ولا يَقُولُ: يا ربِّ عافِنِي! أو يلْجَأُ إلَى اللهِ، مَع أنَّه رُبَّما يَكون هَذا الطَّبِيبُ الَّذي اعتَمدَ علَيه ورَجاه كافِرًا مُلْحدًا، فهَذا أيْضًا مِن اتِّخاذِ النِّدِّ لله.

ولهَذا كان ضَرَرُ بعضِ المُستشفِياتِ الآن -مَع ما فِيها مِن النفْعِ والخَيرِ الكَثِيرِ والحَمدُ للهِ-: أنَّ النَّاسَ صاروا يُعلِّقون آمالَهم، ويجُرُّون آلامَهم إلَيْها، فلَو تُصيبُ الإنْسانَ الشَّوكةُ، أو المَرْأةُ إذا جاءَها الطَّلْقُ، وصارَت تُطلق طلْقًا عاديًّا -واللهِ هذِه

مَسألَةٌ خَطيرَةٌ- قالُوا: لا بُدَّ مِن قيْصَريَّة، والقَيصَريَّةُ تعنِي شَقَّ البَطْنِ، ثمَّ إذا وَلَدتْ عَشرَةَ أولادٍ يَكون في بَطنِها عشْـرَةُ شُقوقٍ؛ فلا يَتَحمَّل هذا البطنُ أيَّ حمل، بلْ لو حمَلت لانفجر.

وكلُّ هذا مِن نوعٍ مِن الشِّركِ، فلا تَلجَأُ إلى المُستَشفى إلَّا لِلضَّرُورةِ القُصوى، اجْعَلْ رجاءَكَ دائمًا مُعلَّقًا بِاللهِ، وقُلْ: إنَّ الَّذي خلَقنِي وأوجَدَني أوَّلَ مرَّة قادِرٌ على أنْ يُزيلَ ما بِي مِن مرَضٍ، وهُو أقدَرُ مِن كُلِّ أحَدٍ يُزيلُها عَزَّوَجَلَّ بدُون أيِّ عمَليَّة، وبدُون حُبوب، وبدُون مِياه، وبدُون إبَرٍ.

المهِمُّ: أنَّ اتِّخاذَ الأنْدادِ لَيْس خاصًّا بشَيْءٍ مُعيَّنٍ، بل يَكونُ في أشْياءَ كَثيرَةٍ، فإيَّاك أنْ يَكونَ لكَ نِدٌّ، حتَّى إنَّ الرَّسُولَ ﷺ قال: «**تعِسَ عبْدُ الدِّينارِ، تعِسَ عبْدُ الدِّرهَمِ، تعِسَ عبْدُ الخَميصَةِ، تعِسَ عبْدُ القَطِيفة**»[1]؛ وهلِ الإنْسانُ يضَعُ الدِّينارَ فَوقَه ويَسجُدُ له ويَركَعُ؟!

الجوابُ: لا، وكذَلِك الدِّرهَمُ والخَمِيصةُ والخَمِيلةُ، لكِن لـمَّا كان قلْبُه معلَّقًا بهَذا الشَّيءِ؛ إنْ أُعطِي رضِيَ، وإنْ لمْ يُعطَ سخِطَ، صارَ عَبدًا لها، نَسْألُ اللهَ أنْ يُعيذَنا وإيَّاكم مِن ذلِك.

الْفَائِدَةُ السَّادِسَةُ: بيانُ امتِناعِ النِّدِّ للهِ عَزَّوَجَلَّ؛ لِقولِه: ﴿ذَٰلِكَ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [فُصِّلَت:٩] وجْهُ الِامتِناعِ أنَّه ربُّ العالَمِين وأيُّ نِدٍّ لا بدَّ أن يكُونَ ربَّ العالَمِين؛ فلا أحدَ يُمكِنُ أنْ يُقالَ: إنَّه ربُّ العالَمِينَ؛ فهُو ربٌّ وما سِواه مرْبُوبٌ؛ إذَن: ما سِواه لا يصِحُّ أنْ يكُونَ نِدًّا له.

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب الجهاد، باب الحراسة في الغزو في سبيل الله، رقم (٢٨٨٦، ٢٨٨٧) من حديث أبي هريرة رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ.

الْفَائِدَةُ السَّابِعَةُ: عُمومُ ربُوبيَّةِ اللهِ عَزَّوَجَلَّ لكلِّ العالَمِ؛ لِقولِه: ﴿ذَٰلِكَ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾.

الْفَائِدَةُ الثَّامِنَةُ: وُجوبُ الخُضوعِ له شَرعًا كما أنَّنا نخْضعُ لَه قدَرًا؛ لأنَّ هَذا مُقتَضى الرَّبوبيَّةِ أنْ تخضَعَ لِهذا الرَّبِّ شَرعًا كما أنَّك خاضِعٌ لَه قدَرًا، فكلٌّ خاضِعٌ للهِ قدَرًا، قال تَعالَى: ﴿وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا﴾ [الرَّعد:١٥]، وهَذا السُّجودُ قَدَريٌّ؛ فيجِبُ أنْ تَخضَع لَه شرعًا، وأنْ تتذلَّلَ لَه، فتكونَ أمامَه ذلِيلًا كما كُنت أمامه ذلِيلًا في قَدَرِه.

• • ۞ • •

الآية (١٠)

قال اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ مِن فَوْقِهَا وَبَٰرَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَآ أَقْوَٰتَهَا فِىٓ أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَآءً لِّلسَّآئِلِينَ﴾ [فصلت:١٠].

قولُه رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿وَجَعَلَ﴾ مُستأنفٌ] يعني: وليْس معطُوفًا على خلَق، والعَجَبُ أنَّه يقُولُ: [ولا يجُوزُ عطْفُه على صِلَةِ «الَّذي» لِلفاصلِ الأجنَبِيِّ]، هَذا ما ذهَب إلَيْه المُفسِّرُ: أنَّ قوْلَه: ﴿وَجَعَلَ﴾ مُستأنَفٌ، ولا شكَّ أنَّنا إذا جعلْناه مُستأنفًا لَم يكُن الكَلامُ مُنتَظِمًا.

والصَّوابُ: أنَّه على خِلافِ ما قال المُفسِّرُ: أنَّ «جَعَل» مَعطُوفةٌ على ﴿خَلَقَ﴾، يعنِي: بالَّذي خلَق الأرْضَ في يومَيْن وجعَل فِيها رواسيَ. والفاصِلُ الأجنَبيُّ هُنا لا يضُرُّ؛ إمَّا أنَّه لا يضُرُّ مُطلَقًا، كما قِيل به، وإمَّا أنَّه لا يضُرُّ؛ لأنَّه في مَضمُونِ الكَلامِ والكَلامُ واحِدٌ.

فالصَّوابُ: أنَّ قولَه: ﴿وَجَعَلَ﴾ مَعطُوف على ﴿خَلَقَ﴾؛ أي: بالَّذي خلَق الأرْضَ في يومَيْن، وجعَل فيها رواسِي.

وقولُه: ﴿وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ﴾ قال المُفسِّرُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [جِبالًا ثوابِت] أوَّلًا: «جعَل» هُنا هلْ هِي مِن أفعالِ التَّصيِيرِ، أو مِن أفعالِ الإيْجادِ؟

يَحتَملُ المعنَى: وأوجَد فِيها رواسيَ، ويَحتَملُ أنْ تكُونَ مِن أفعالِ التَّصيِيرِ، أي:

صَيَّر فِيها رواسيَ. والمَعنَى لا يختَلِفُ، لكنَّ الإعْرابَ يختلِفُ، إذا قُلنا «مِن أفعالِ التَّصييرِ» صارَتْ تنصِبَ مفعُولَين، وإذا قُلنا «مِن أفعالِ الإيجادِ» صارَتْ تنْصِبَ مَفعُولًا واحِدًا.

وقولُ المُفسِّرِ: [جبالًا ثوابِتَ] أفادَنا رَحِمَهُ ٱللَّهُ أنَّ ﴿رَوَٰسِيَ﴾ صِفةٌ لَموصُوفٍ محذُوفٍ، والتَّقدِيرُ: جِبالًا رواسيَ، و﴿رَوَٰسِيَ﴾ بمَعنَى ثوابِتَ، وهلْ يجُوزُ أنْ يُحذَفَ المنعُوتُ؟ الجَوابُ: نعَم، وهُو كثِيرٌ، كثِيرٌ جِدًّا.

وما مِنَ المنْعوتِ والنَّعْتِ عُقِل ... يجوزُ حَذْفُه وفِي النَّعْتِ يَقِلّ (١)

أي: في المَنعُوتِ يَكثُرُ؛ قال تَعالَى: ﴿أَنِ ٱعْمَلْ سَٰبِغَٰتٍ﴾ [سبأ:١١]؛ أي: دُرُوعًا سابِغاتٍ، وقولُه: ﴿وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾؛ المُهِمُّ أنَّها كثِيرةٌ كما تَقدَّم، فإنَّ المَقصُودَ الصِّفةُ، والصِّفةُ تَكونُ بالنَّعْتِ وهُو موجُودٌ.

وقولُه: ﴿مِّن فَوْقِهَا﴾ أي: هذِه الرَّواسي مِن فوْق؛ يعنِي: صيَّرَ فِيها رواسيَ، فالمَفعُولُ الأوَّلُ هُو ﴿رَوَٰسِيَ﴾، والثَّاني الجارُّ والمَجرُورُ.

وقولُه: ﴿مِّن فَوْقِهَا﴾ انتبِه لهذِه الكَلِمةِ؛ فلَها فائِدةٌ عظِيمةٌ! إذِ الرَّواسِي قد تكُونُ مِن أسفَلَ، وقدْ تَكونُ مِن فوْق؛ فقَد تكُونُ مِن أسفَلَ، يعنِي يكُونُ مَثلًا يَحفِرُ في الأرْضِ قواعِدَ تُرسِي، وتَكونُ راسِيةً، لكِن هُنا قال: ﴿مِّن فَوْقِهَا﴾؛ وذلِك لفَوائِدَ:

الفائِدةُ الأُولى: ظُهورُ هذِه الرَّواسي وبيانُها للنَّاسِ؛ حتَّى يعرِفوا بذلِك حِكْمةَ اللهِ عَزَّوَجَلَّ ورُبَّما لا تَكونُ رواسِيَ إلَّا إذا كانَتْ مِن فوْق؛ بِناءً على أنَّ الأرْضَ تدُور حتَّى تحفَظَ توازُنَها.

(١) الألفية (ص:٤٥).

الفائِدةُ الثَّانيةُ: هذِه الرَّواسِي إذا كانَت مِن فوْق حصَل فِيها مِن المَنافِعِ في درْءِ العَواصِفِ وفِي الملاجئِ شَيْءٌ كثِيرٌ، كما هُو معْرُوفٌ في المَغاراتِ، وكما يُعرَفُ مِن سُفوحِ الجِبالِ وخُدودِ الجِبالِ ورُؤوس الجِبالِ، مِن نَوابِتَ لا تُوجَدُ لولا هذِه المُرتَفعاتُ.

الفائِدةُ الثَّالِثةُ: أنَّها تُوجِبُ أنْ تنْدَفعَ مِياهُ الأمْطارِ بشِدَّةٍ حتَّى تصِلَ إِلَى أراضٍ صالِحةٍ للنَّباتِ؛ لأنَّكم تعْرفون أنَّ بعضَ الأرضٍ سبَخاتٌ ليْس فيها خيْرٌ وبعضُها رِياضٌ تُنبتُ، فإِذا نَزَل الماءُ على هذِه الجِبالِ على قِمَمِها وعلَى خُدودِها نزَلَ إِلَى الأرْضِ بشِدَّةٍ عظيمَةٍ حتَّى يصِلَ إِلَى ما أرادَ اللهُ إيْصالَه.

الفائِدةُ الرَّابِعةُ: أنَّ في قِمَمِ الجِبالِ مِن المَعادنِ الجيِّدةِ أكثَرُ مِمَّا في الأرْضِ السُّفلَى؛ ولِهذا قال تَعالَى: ﴿وَأَنزَلْنَا ٱلْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ﴾ [الحديد:٢٥] أنْزَلْناه مِن قِمَمِ الجِبالِ؛ ولِهذا يَقولُ العُلَماءُ رَحِمَهُمُاللَّهُ: «إنَّ الحَدِيدَ الَّذي يَكونُ مِن قِممِ الجِبالِ أعلَى وأقوَى مِن الَّذي يَكونُ مِن الأسْفَلِ».

هَذا ما نَعْلَمُه، وما لا نعْلَمُه أكْثَرُ.

المُهِمُّ: أنَّ كلِمةَ ﴿مِن فَوْقِهَا﴾ لَها فائِدةٌ عظِيمَةٌ ذكَرْنا مِنها أربَعَ فوائِدَ.

وقولُه: ﴿وَجَعَلَ فِيهَا رَوَٰسِىَ مِن فَوْقِهَا وَبَٰرَكَ فِيهَا﴾، قال المُفسِّرُ: [بِكثْرةِ المِياهِ والزُّرُوعِ والضُّـروعِ] «بارَكَ فِيها» أي في الأرْضِ، وما أعظَمَ برَكاتِ الأرْضِ مِنَ الزُّروعِ والأشْجارِ والأنْهارِ والمَعادِنِ، وغيرِها مِن برَكاتِ الأرْضِ!

وقوْلُ المُفسِّرِ: [الضُّرُوع] يعنِي ضُروعَ البَهائِمِ؛ لأنَّ البَهائِمَ كلَّما شبِعتْ مِن الرَّبِيعِ ازدادَ دَرُّها، ومَن يتأمَّلْ يجِدْ أنَّ في الأرْضِ برَكاتٍ عظِيمَةٍ؛ فقَد حمَلتِ الأحْياءَ

والأَمْواتَ والوُحوشَ والسِّباعَ والبَهائِمَ والحَشَراتِ والآدمِيِّين، وكانَت واسِعةً أيْضًا مَع كَثْرَةِ ما فِيها؛ فلَو أنَّ هـؤُلاء الأحْياءَ الَّذِين على ظَهْرِ الأرْضِ يَحيَون إِلَى الآنَ، لرَأيْتَ أمْرًا بَشِعًا وصَعبًا، لكِنْ جعَلَ اللهُ الأرْضَ كِفاتًا أحياءً وأمْواتًا، وهَذِه مِن برَكاتِها.

وقوْلُه: ﴿وَقَدَّرَ فِيهَآ أَقْوَٰتَهَا﴾ «قدَّر» قال المُفسِّرُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [قَسَّم ﴿فِيهَآ أَقْوَٰتَهَا﴾ للنَّاس والبَهائِم...] إلخ، قـدَّر فِيها الأقْواتَ؛ يَقولُ: إنَّ «قدَّر» مِن التَّقـدِيرِ وهُو التَّقسِيمُ، قدَّر الأقواتَ ولَم يَجْعَل القُوتَ في جانِبٍ واحِدٍ مِنَ الأرْضِ، إذْ لو كان في جانِـبٍ واحِدٍ مِن الأرْضِ لشَقَّ هَذا على النَّاسِ كَثِيرًا؛ لَو قُدِّر مَثلًا أنَّ الأقْواتَ لا تكونُ إلَّا في غربِ الكُرَةِ الأرْضِيَّةِ، فكَيْف يعِيشُ أهْلُ الشَّرقِ، أو بالعَكْسِ: كيْف يعِيشُ أهلُ الغرْبِ؟ لكنَّه مُقدَّرٌ.

ثمَّ قدَّره مِن ناحِيةٍ أُخرَى: جعَل في هذِه الأراضِي ما لا يصْلُحُ في الأراضِي الأُخرَى والعَكْسَ.

والحِكْمَةُ: مِن أجْلِ أنْ يتَبادَلَ النَّاسُ الأقْواتَ، فيَأتي النَّاسُ الَّذِينَ ليس عِندَهم هَذا النَّوْعُ مِن القُوتِ يَذهَبُون إِلَى الأراضِي الَّتي فِيها هَذا القُوتُ فيَجلِبونه إِلَى الأرْضِ الخالِيةِ مِنْه، وكذَلِك العَكْسُ، ففِي بعْضِ الجِهاتِ مِن الأرْضِ يَكْثُرُ فِيها النَّخِيلُ والعِنَبُ، لكِن تقِلُّ فِيها الحَمْضِيَّاتُ وأشباهُها، وفِيه أيْضًا أشْياءُ كثِيرَةٌ -وأنا لسْتُ مِن أهْلِ الزِّراعَةِ- تصْلُحُ في مكانٍ دُون مكانٍ مِن أجْلِ أنْ يقَعَ التَّبادُلُ بيْن النَّاسِ والضَّرْبُ في الأرْضِ ابْتِغاءَ الرِّزْقِ، وهَذا مِن الحِكمَةِ في قوْلِه: ﴿وَقَدَّرَ فِيهَآ أَقْوَٰتَهَا﴾.

وقولُه: ﴿فِيٓ أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ﴾ قال المُفسِّرُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿فِيٓ﴾ تمام ﴿أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ﴾ أي الجَعْلُ، وما ذُكِرَ معَه في يوْمِ الثُّلاثاءِ والأرْبِعاءِ] إذا كانَ خلْقُ الأرْضِ أوَّلُه الأحَدُ والاثْنَينُ،

ثُمَّ قال: ﴿فِىٓ أَرۡبَعَةِ أَيَّامٍ﴾ فيكونُ الباقِي؛ الثُّلاثاء والأرْبِعاء، فتكونُ الأرْضُ خُلِقتْ وقُدِّر فِيها الأقْواتُ في أرْبعَةِ أيَّامٍ.

قال الله تَعالى: ﴿سَوَآءً لِّلسَّآئِلِينَ﴾ [مَنْصُوبَةٌ على المَصْدَرِ؛ أيِ: اسْتوَتِ الأربَعَةُ اسْتِواءً لا تَزِيدُ ولا تنْقُصُ]، فأفادَنا بقَوْلِه: «استوَتِ استِواءً»؛ أنَّ سواءً مَنصُوبةٌ على المَصدَرِ؛ وفِيه تجوُّزٌ لأنَّنا إذا قُلنا «سَواءً» مَصْدرُ «اسْتَوى»، فإنَّه لا يَستَقِيمُ مَع القاعِدةِ؛ لأنَّ القاعِدةَ: أنَّ المَصدَرَ ما وافَقَ الفِعْلَ في حروفِه، وهنا «استوى» لا توافقها «سواء»، بَلِ الَّذي يُوافِقُها «اسْتِواء».

إذَنْ «فسَواء» تَكونُ اسْمَ مَصْدرٍ، مِثْل: (كَلَّم)، والمَصْدَرُ (تكلِيمٌ)، واسْمُ المَصْدَر (كَلام)؛ فَهُنا (اسْتَوى)، والمَصْدَر (اسْتِواءٌ)، واسْم المَصْدَر (سَواءٌ).

المُهِمُّ أنَّ قوْلَه: «سواء» يَعنِي: أنَّ هَذا الخَلْقَ استوْعَب الأرْبَعةَ كلَّها، فلَم يَكُن في يوْمَين أو ثلاثَةٍ، بلْ في الأيَّامِ الأرْبَعةِ كلِّها، فعلى هَذا يَكونُ قوْلُه: [مَنصُوبٌ على المَصْدرِ] الصَّوابُ: أنْ يُقالَ على أنَّه مَفعُـولٌ مُطلَقٌ؛ أيِ: استـوَتِ الأرْبَعَةُ استِواءً لا تَزيدُ ولا تنْقُصُ.

وقَولُه: [﴿لِّلسَّآئِلِينَ﴾ عَن خَلْقِ الأرْضِ بِمـا فِيها]. قوْلُه: [﴿لِّلسَّآئِلِينَ﴾ هـذِه لا تظُنَّ أنَّها مُتعلِّقةً بسَواءٍ، بَلْ هِي جوابٌ لخَبَرٍ مَحْذُوفٍ؛ أيْ: هَذا جوابٌ للسَّائِلِين، أوْ نحْوٍ مِن هذِه الكَلِمةِ.

المُهِمُّ أنَّ قوْلَه: ﴿لِّلسَّآئِلِينَ﴾ يُفِيدُ أنَّ ما ذُكِر جوابٌ لِمَن سَأَل عَن خلْقِ الأرْضِ وتَقْدِيرِ أقواتِها: بأنَّها في أرْبَعَةِ أيَّامٍ سواءً.

مَسْأَلَةٌ: ما الحِكْمَةُ فِي: أنَّ الله عَزَّوَجَلَّ ذَكَرَ السَّماءَ والأرْضَ وقَدَّمَ السَّمـاءَ على الأرْضِ؟

الجَوابُ: الحِكْمةُ في أنَّ اللهَ تَعالَى يَذْكُرُ الأعْلَى قَبلَ الأسْفَلِ، أمَّا التَّحدُّثُ عنِ خلْقِ السَّماءِ فقَدْ بيَّن اللهُ تَعالَى أنَّ الأسْفَلَ يُخْلَقُ قبْلَ الأعلَى كالبِناءِ، فعِندَما تُريدُ أنْ تبْنِيَ شَيئًا فلَن تبْنِيَ السَّقْفَ قبْل أنْ تبْنِيَ العمُودَ، فعِنْدَ الذِّكْرِ والتَّحدُّثِ يبِينُ الأشْرَفُ والأعْلَى؛ يُقدَّمُ، وعِنْد التَّكوِينِ والبِناءِ يُبْدأُ بالأسْفَلِ؛ لأنَّه هُو الأصْلُ.

مِن فوائدِ الآيَةِ الكَرِيمَةِ:

الْفَائِدَة الأُولَى: مِنَّةُ اللهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ على عِبادِه؛ حيْثُ جعَلَ في الأرْض رواسِي، أيْ: ثوابِتَ، والحِكْمَةُ ذَكَرها اللهُ تعالَى في قوْلِه: ﴿أَن تَمِيدَ بِكُمْ﴾ [لقمان:١٠]؛ لوْلا هذِه الرَّواسِي لمادَتْ بنا الأرْضُ، فيستفاد من ذلك: أنَّ الأرْضَ تدُورُ؛ لِقوْلِه: ﴿أَن تَمِيدَ بِكُمْ﴾؛ لأنَّ نفْي المَيَدانِ دلِيلٌ على وُجُودِ أصْلِ الحَرَكةِ؛ إذْ لَم يَقُلْ: أنْ تتحرَّكَ بِكَم، ونَفْيُ الأخَصِّ يَقْتَضِي وُجُودَ الأعمِّ، كما قُلْنا في قَوْلِ الله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ: ﴿لَّا تُدْرِكُهُ ٱلْأَبْصَٰرُ﴾ [الأنعام:١٠٣]، إنَّه دلِيلٌ على أنَّ اللهَ يُرَى لِكن لا يُدْرَكُ؛ إذْ لَو كان لا يُرى لوَجَبَ أنْ يَقولَ: لا تَراه الأبْصارُ، فلَمَّا نفَى الأخَصَّ صار دَلِيلًا على وُجُودِ الأَعمِّ. هَكَذا قرَّرها بعضُهم، وقال: إنَّ في الآيَةِ دَلِيلًا على أنَّ الأرْضَ تَدُورُ؛ لِأنَّ اللهَ ألْقَى هَذه الرَّواسِيَ؛ لِتكون دَوْرتُها مُتَّزِنةً، لا تَرْتَجُّ فتَضْطَرِبُ بالنَّاسِ.

ولكِنَّ هَذا -وإنْ كان قَوِيًّا مِن حَيْث النَّظر- لَكِنَّه ليس مُتعَيِّنًا؛ إذْ يَجُوزُ أنْ يَكونَ مَعنَى «أنْ تَميدَ بِكُم»: تضطَرِبَ ولَو كانَت واقِفَةً، فالسَّفِينَةُ مَثلًا على الماءِ تضْطَرِبُ ولَو كانَتْ واقِفةً، فيَكونُ معنى «أنْ تَميدَ بِكُم»: أنْ تضْطرِبَ بِكُم، وسواءٌ كانَتْ تدُورُ أو لا تَدُورُ؛ ولِهذا ليس في الآيَةِ دَلالَةٌ قَطعِيَّةٌ على أنَّ الأرْضَ تدُورُ.

فإنْ قال قائِلٌ: إذا قُلْت: إنَّه يَحتَمِلُ أنْ تَكونَ دالَّةً على أنَّ الأرْضَ تُدُورُ؛ فما جوابُك عنْ آياتٍ كثِيرَةٍ تدُلُّ على أنَّ الشَّمْسَ تجْري وتَطْلُعُ وتَغرُبُ وتَزاوَرُ وتَوارَى

وتذهَبُ؛ فكُلُّ هذِه الأفْعالِ أُسْنِدت إلَى الشَّمْسِ، والأصْلُ أنَّ الفِعْلَ إذا أُسنِدَ إلَى شيْءٍ أنْ يَكونَ قائِمًا بِه، فيَكونُ ظاهِرُ القُرْآنِ أنَّ الشَّمسَ هِي الَّتي تَدُورُ على الأرْضِ: ﴿وَتَرَى ٱلشَّمْسَ إِذَا طَلَعَت﴾ [الكهف:١٧]، إذَنْ مَعناها هِي الَّتي كانَت مُختَفيةً ثُمَّ طَلَعت علَينا، وهؤُلاءِ الَّذِين يقُولُون: الأرْضُ تدُورُ فيَكون معْنَى ﴿إِذَا طَلَعَت﴾ أيْ إذا طلَعنا علَيْها؛ لأنَّنا نحْن الَّذِين نأتِي إلَيها، أمَّا الشَّمسُ فهِي ثابِتةٌ قارَّةٌ؟

قُلنا: يَجُوز أنْ تَكونَ الأرْضُ تَدُورُ والشَّمْسُ أيْضًا تدُورُ، وإذا كان الدَّورانُ بِالعَكْسِ فظاهِرٌ أنَّه يَتعاقَبُ اللَّيلُ والنَّهارُ، يعْنِي: إذا كانَتِ الأرْضُ تَدُورُ نحْوَ الشَّرْقِ والشَّمْسُ تَدُورُ نحْو الغَرْبِ، فهَذا مُمكِنٌ بكُلِّ سُهُولةٍ، فإن كانَتا تَدُوران إلَى اتِّجاهٍ واحِدٍ فإنَّ إحْداهُما إذا كانَت أسْرَعَ مِنَ الأُخْرَى تَحقَّقَ اخْتِلافُ اللَّيْلِ والنَّهارِ، ومَن قال: إنَّه لا يُمكِنُ أنْ نَقولَ: إنَّ الشَّمسَ تجْرِي إلَّا إذا قُلْنا: إنَّ الأرْضَ ثابِتةٌ لا تَدُورُ.

فأمَّا إثْباتُ دَورانِ الأرْضِ مَع دَورانِ الشَّمْسِ فإنَّ هَذا لا يُمكِنُ، فإنَّه قوْلٌ غيْر صَحِيح، أمَّا الإمْكانُ فمُمكِنٌ، ولَو قُلْنا بِدَورانِهما جَمِيعًا، لكِنَّ الشَّيْء الَّذي نَعْتَقِدُه الآنَ: أنَّ اللَّيْلَ والنَّهارَ يَحصُلُ بتَعاقُبِ الشَّمْسِ على الكُرَةِ الأرْضِيَّةِ، لا بِتَعاقُبِ الكُرَةِ على الشَّمْسِ؛ لأنَّ هَذا هُو ظاهِرُ القُرْآنِ والقُرْآنُ صَدَر عَن الخالِقِ عَزَّوَجَلَّ وهُو أعلَمُ بِما خلَقَ، ولا يُمكِنُ أنْ نَحِيدَ عَن هَذا قِيدَ أُنْمُلةٍ ما دام لَمْ يَظْهرْ لنا أمْرٌ حِسِّيٌّ لا يُمْكِنُ التَّكْذِيبُ بِه.

وعِنْد بعْضِهم -أيْ: بَعْضِ الَّذِين يَقولُون بِدَوران الأرْض- يَقولُون: عِندنا أمْرٌ قَطعِيٌّ بِدلِيلِ الصَّوارِيخِ العابِرةِ لِلقَّارَّاتِ؛ فإنَّها تُقدَّرُ بتَقْدِيرٍ مُعيَّنٍ بِحَيثُ يَتَماشَى مَع دَورانِ الأرْضِ، فيُصِيبُ الهَدَفَ وإلَّا لَما أمْكَنَ.

وعلى كلِّ حالٍ: فهَذِه المَسْألَة -في يوْمٍ مِن الأيَّامِ- كانَت مَثارًا لِلْجَدَلِ بيْن

النَّاسِ بيْن طلَبةِ العِلمِ وبيْن عامَّةِ النَّاسِ، وبيْن الَّذِين لمْ يَتمكَّنوا منَ العِلمِ كَثيرًا؛ فنَحْن نَقُولُ:

أوَّلًا: البَحْثُ العَمِيقُ في هَذا والجَدَلُ في هَذا، أمْر لا ينْبَغي ولا فائِدةَ مِنه.

ثانيًا: عِندما نُريدُ أنْ نُحقِّقَ المَسْألةَ تَحقِيقًا عِلْميًّا نَظرِيًّا نَنظُر إلَى الآياتِ، فإذا كان ظاهِرُ قَولِه تَعالَى: ﴿أَن تَمِيدَ بِكُمْ﴾ يَقتَضِي أنَّها تدُور قُلْنا بذلِك ولا حَرَجَ، ولا مانِعَ أنْ نَقُولَ: هِي تَدُورُ، وكذَلِك الشَّمْسُ، فنكُونُ أخذْنا بظاهِرِ القُرْآنِ في الشَّمْسِ وبظاهِرِ ﴿أَن تَمِيدَ بِكُمْ﴾ في الأرْضِ، وإذا كان قَولُه: ﴿أَن تَمِيدَ بِكُمْ﴾ لا يَتعيَّنُ أنْ يَكونَ بِحرَكَتِها، وإنَّما قَد تَضْطَرِبُ وهِي ساكِنَةٌ قارَّةٌ؛ فَلا يَبْقى في الآيَةِ دَلِيلٌ على أنَّ الأرْضَ تَدُورُ.

فَإنْ قال قائِلٌ: ألَا يُمكِن أنْ نُقرَّهم على قَولِهم بأنَّ الشَّمْسَ ثابِتَةٌ؟

فالجَوابُ: نحْن نَقُولُ: لا نُقرُّهم على أنَّ اختِلافَ اللَّيلِ والنَّهارِ يكُونُ باخْتِلافِ دَورَةِ الأرْضِ، بلْ نَقُولُ بِاخْتِلافِ طُلُوعِ الشَّمْسِ على الأرْضِ، ولا يَمْنعُ أنْ تكونَ الأرْضُ تَدُورُ، لكِن لَو فُرِضَ أنَّه جاءَنا دَلِيلٌ حِسِّيٌّ مَلمُوسٌ على أنَّ اختِلافَ اللَّيلِ والنَّهارِ بِسَبَبِ دَورَةِ الأرْضِ لَقُلنا بِه، ويَكونُ إضافةُ الأفْعالِ هذِه إلَى الشَّمْسِ على حسْبِ رُؤيَةِ الإنْسانِ لَها.

والآنَ إذا قَرأْنا قوْلَه تَعالَى: ﴿۞ وَتَرَى ٱلشَّمْسَ إِذَا طَلَعَت تَّزَٰوَرُ عَن كَهْفِهِمْ ذَاتَ ٱلْيَمِينِ وَإِذَا غَرَبَت تَّقْرِضُهُمْ ذَاتَ ٱلشِّمَالِ﴾ [الكهف:١٧]، هَذه فِيها أرْبعَةُ أفْعالٍ أُضِيفَت كلُّها إلَى الشَّمسِ. والأصْلُ أنَّ الأفْعالَ مُضافةٌ إلَى الشَّيْءِ أنَّها قائِمةٌ بِه، فالشَّمسُ هِي الَّتي تَطْلُع، وهُم يَقولون: لا، الشَّمْسُ لا تَطْلُع علَيْنا، بلْ نَحن الَّذِين نَطلُعُ علَيْها بِسببِ دَورانِ الأرْضِ، فالقُرْآنُ لا يُخالِفُ الحِسَّ أبَدًا، وتُفَسَّرُ الأفْعالُ المُضافَةُ إلَى

الشَّمْسِ بِحَسْبِ رُؤيَةِ الرَّائِي.

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَةُ: أنَّ اللهَ تَعالَى جعَلَ الرَّواسِيَ فوْقَ الأرْضِ لِما في ذلِكَ مِنَ المَنافِعِ ودَفْعِ المَضارِّ، وأشَرْنا إلَيه في أثْناءِ التَّفسِيرِ.

الْفَائِدَةُ الثَّالِثَةُ: أنَّ اللهَ تَعالى بارَكَ في الأرْضِ، ووَجْهُ البَرَكَةِ ظاهِرٌ، فقَد حَمَلتِ الأحْياءَ والأمْواتَ، وحمَلَتْ مِنَ الدَّوابِّ ما لا يَعْلَم أجْناسَه -فَضْلًا عَن أنْواعه، فَضْلًا عَن أفرادِه- إلَّا اللهُ، عَزَّوَجَلَّ.

الْفَائِدَةُ الرَّابِعَةُ: أنَّ اللهَ تَعالَى قدَّر في الأرْضِ أقْواتَها؛ أي جعَلها مُقَدَّرةً بِقَدَرٍ مَعلُومٍ، ومِن ذلك التَّقدير: أنْ جعَلَ في جِهاتٍ مِن الأرْضِ مِنَ الأقْواتِ ما ليْس في جِهاتٍ أُخْرى، حتَّى يتَبادلَ النَّاسُ هَذه الأقْواتَ وتتَحرَّكَ التِّجارةُ...، إلَى غيْرِ ذلِكَ مِن الفَوائِدِ، ولعلَّه يُشِيرُ إلَى هَذا قَولُ الله تَبَارَكَوَتَعَالَى: ﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَٰهُ بَيْنَهُمْ﴾ يَعنِي: المَطَر ﴿لِيَذَّكَّرُوا﴾ [الفرقان:٥٠].

الْفَائِدَةُ الخَامِسَةُ: أنَّ خلْقَ الأرْضِ تمَّ في أرْبعَةِ أيَّامٍ؛ لِقولِه تَعالَى: ﴿فِيٓ أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَآءً﴾.

الْفَائِدَةُ السَّادِسَةُ: أنَّ الله تَبَارَكَوَتَعَالَى يُجيبُ السَّائِلين أسْئِلَتَهم، سَواءٌ سَألُوا بِلِسانِ الحالِ أو بِلِسانِ المَقالِ؛ فالْإنْسانُ مُتَشوِّفٌ إلَى عِلْم المَسْألةِ دُون أنْ يَنْطقَ بِلِسانه، فَيُقالُ: إنَّه سائِلٌ بلِسانِ الحالِ، والإنْسانُ الَّذي يَتكلَّمُ باللِّسانِ سائِلٌ بلِسانِ المَقالِ، والسُّؤالُ عَن خلْق السَّمواتِ والأرْضِ؛ فهَذا يَكونُ بلِسانِ الحالِ، ويَكونُ بلِسانِ المَقالِ.

الآية (١١)

• • ◆ • •

قال اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ وَهِىَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ٱئْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَآ أَتَيْنَا طَآئِعِينَ﴾ [فصلت:١١].

• • ◆ • •

﴿ثُمَّ﴾ أيْ: بعْد خلْقِ الأرْضِ وتقْدِيرِ أقواتِها، اسْتَوى إلَى السَّماءِ.

قال المُفسِّرُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [قصد ﴿إِلَى ٱلسَّمَآءِ﴾]، وهَذا أحَدُ القَوْلَيْن في هَذه الجُملَة: أنَّها بِمعنَى قصَد، لكِن قصْدًا كامِلًا؛ وذلِك لأنَّ «استَوى» تدُلُّ على الكَمالِ، كما قال تَعالَى: ﴿وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُۥ وَٱسْتَوَىٰٓ﴾ [القصص:١٤].

والقَوْلُ الثَّاني: أنَّ «استَوَى إِلَى السَّماء» بمَعنَى «استَوى على السَّماء»؛ أيْ عَلا علَيها، ولكِنَّ المَعنَى الَّذي سلَكَه المُفسِّرُ أرْجَحُ، أنَّه قصَد إلَى السَّماءِ بإرادةٍ تامَّةٍ مُستَويَةٍ؛ لأنَّ «إلَى» تُفِيدُ الغايَةَ، و«على» تُفِيدُ الاِسْتِعلاءَ.

ومَعلُومٌ أنَّ السَّمواتِ لَم تَكُنْ خُلِقتْ في تِلك السَّاعَةِ، ثمَّ إنَّنا لو قُلْنا: إنَّ اسْتَوى بِمَعنَى عَلا: «ثُمَّ اسْتَوى على السَّماء»، كان قَبْل ذلِك حِينَ خلَق الأرْضَ ليْس عاليًا على السَّماءِ، مَع أنَّ عُلُوَّ اللهِ تَعالَى وَصْفٌ لازِمٌ لِذاتِه.

وقَولُه: [﴿ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ وَهِىَ دُخَانٌ﴾ بُخارٌ مُرتَفِعٌ]؛ جُمْلَةُ ﴿وَهِىَ دُخَانٌ﴾ حالِيَّةٌ، والسَّماءُ هُنا بمَعنَى العُلُوِّ؛ لأنَّها لَم تَكُنْ خُلِقتْ بعْدُ، لَكنَّها كالدُّخانِ، أيِ: البُخارُ المُرتَفعُ؛ قِيل: إنَّ هَذا البُخارَ المُرتَفِعَ تَصاعَدَ مِن الماءِ الَّذي كان قَبلَ أنْ تُخلَق

الأرْضُ؛ لأنَّ اللهَ تَعالَى قال: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ وَكَانَ عَرْشُهُۥ عَلَى ٱلْمَآءِ﴾ [هود:٧]، فكان قَبْلَ خلْقِ السَّمواتِ والأرْضِ ماءٌ فوْقه عرْشُ الرَّحمَنِ عَزَّوَجَلَّ ثمَّ خُلِقتِ الأرْضُ، وقدِ انْدفعَ مِن هَذا الماءِ بُخارٌ مُتصاعِدٌ كَثِيفٌ صار مِثلَ الدُّخانِ.

وقولُه: [﴿فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ٱئْتِيَا﴾ إلَى مُرادي مِنكُما ﴿طَوْعًا أَوْ كَرْهًا﴾ في مَوضِعِ الحالِ أيْ: طائِعتَيْن أو مُكرَهتيْن ﴿قَالَتَآ أَتَيْنَا﴾ بمَن فِينا ﴿طَآئِعِينَ﴾] إلَى آخِرِه. قوْله: ﴿فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ٱئْتِيَا﴾ هَذا الأمْرُ هَل هُو أمْرُ تَكوِينٍ أو أمْرُ تَكلِيفٍ؟

الجَوابُ: إنْ قُلْنا: إنَّه تكلِيفٌ، لَم يَكُن هُناكَ فرْقٌ بيْن أنْ يكُونا طائِعتَيْنِ أو مُكرهتَيْن؛ وظاهِرٌ أنَّه أمْرُ تكلِيفٍ؛ ولِهَذا قال: ﴿طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَآ أَتَيْنَا طَآئِعِينَ﴾.

وإنْ قُلنا: إنَّه أمْرُ تَكوِينٍ فإنَّه لا يسْتَقيمُ أنْ يكُونَ طوْعًا أو كرْهًا؛ لأنَّ أمْرَ التَّكوينِ كائِنٌ لا مَحالةَ.

فالظاهِرُ -واللهُ أعلم- أنَّه أمْرُ تكلِيفٍ، ولله تَعالَى أنْ يُكلِّفَ ما شاء مِن خلْقِه.

يَقولُ المُفسِّرُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿قَالَتَآ أَتَيْنَا﴾ بمَن فِينا﴿طَآئِعِينَ﴾] احْتاجَ المُفسِّرُ إلَى أنْ يُقدِّرَ «بمَن فِينا» لِوَجهيْن:

الوَجْهُ الأوَّلُ: أنَّ ﴿طَآئِعِينَ﴾ جمْعٌ، و﴿قَالَتَآ﴾ مُثنًى، ولا مُطابَقةَ بيْن المُثنَّى والجَمْعِ، ولَو أرادَ المُطابَقةَ لقال: «قالَتا أتيْنا طائِعتيْن».

الوَجْهُ الثَّاني: أنَّه جمَعَه بالمُذكَّرِ العاقِلِ، فكان لا بُدَّ أنْ يُقدَّرَ بـ«مَن فِينا» لِيَدخُلَ فِيهِ العُقَلاءُ، ويَكونُ هَذا مِن بابِ التَّغليبِ.

وقولُه رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [فِيه تَغلِيبُ المُذكَّرِ العاقِلِ] ذَكَرْنا فِيما سبَقَ أنَّه غلَّبَ المُذكَّرَ

لشَرَفِه، أو لكَثْرَتِه إذا قُلْنا: إنَّ العاقِلَ أكْثَرُ.

وقَولُه رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [أَوْ أُنْزِلَتا لِخطابِهِما مَنْزِلَته] يَعنِي: أن المَسْألَةَ فِيها إمَّا تَغليبُ، وإمَّا أنَّ الأرْضَ والسَّماءَ أُنزِلَتا مَنزِلَةَ العاقِلِ لِخطابِهما؛ أي: لِكَونِهما خُوطِبا، ولا يُخاطَبُ غالِبًا إلَّا العاقِلُ.

مِنَ فوائِدِ الآيَةِ الكَرِيمَةِ:

الْفَائِدَةُ الأُولَى: أنَّ السَّماءَ كانَتْ قبْلَ أنْ تُخلَقَ دُخانًا، ثمَّ حَوَّلَ اللهُ هَذا الدُّخانَ إلَى سَمواتٍ؛ لِقَوْلِه تَعالى: ﴿ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ وَهِىَ دُخَانٌ﴾.

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَةُ: إثْباتُ علُوِّ اللهِ عَزَّوَجَلَّ على أحَدِ القَوْلَين في تَفسِيرِ «اسْتَوى»، وهُما قصَدَ أو ارتَفَعَ.

الْفَائِدَةُ الثَّالِثَةُ: أنَّ كلَّ شَيْءٍ قابِلٌ لمُخاطَبةِ اللهِ عَزَّوَجَلَّ أيْ: قابِلٌ أنَّ اللهَ يُخاطِبُه؛ لأنَّ اللهَ خاطَبَ السَّماءَ والأرْضَ -وهِي جَماد- فقالَ: ﴿ٱئْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا﴾، لكِنَّنا لَو خاطَبْنا الجَمادَ لَعُدَّ ذلِك سَفَهًا ونَوعًا مِن الجُنونِ؛ أمَّا الرَّبُّ عَزَّوَجَلَّ فإنَّه يُخاطِبُ ما شاءَ مِن عِبادِه مِن عاقِلٍ وغَيره وجَمادٍ وغَيرِه؛ لأنَّ كلَّ مَن خاطَبه اللهُ فإنَّه يَفْهمُ خِطابَ اللهِ.

الْفَائِدَةُ الرَّابِعَةُ: أنَّ كلَّ شَيْءٍ خاضِعٌ للهِ عَزَّوَجَلَّ سَواءٌ كَرِه أمْ رَضِيَ؛ لِقَولِه تَعالى: ﴿ٱئْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا﴾.

الْفَائِدَةُ الخَامِسَةُ: كَمالُ خُضُوعِ الأرْضِ والسَّمواتِ للهِ عَزَّوَجَلَّ حَيثُ قالَتا: ﴿أَتَيْنَا طَآئِعِينَ﴾.

الْفَائِدَةُ السَّادِسَةُ: أنَّهُ يصِحُّ أنْ يُعبَّرَ عَن غيْرِ العاقِلِ بما يُعبَّرُ به عَن العاقِلِ،

إذا نُزِّلَ غيْرُ العاقِلِ مَنزلةَ العاقِلِ لِقَولِه: ﴿طَآيِعِينَ﴾، فإنَّ هَذا الجَمْعَ جمْعُ المُذكَّرِ السَّالِمِ لا يَصْدُرُ إلَّا مِنَ العاقِلِ وغيْرِه، يُقالُ: «طائِعاتٍ»، وما أشْبَهَ هَذا، لَكِنْ إذا نُزِّلَ غيْرُ العاقِلِ مَنزِلتَه بالخِطابِ صحَّ أنْ يُعامَلَ مُعامَلةَ العاقِلِ.

الْفَائِدَةُ السَّابِعَةُ: إثْباتُ الطَّواعِيةِ والكراهيَةِ لغيْرِ العاقِلِ؛ لقَولِه تَعالَى: ﴿ٱئْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا﴾، فهَلْ هَذا يَعنِي أنَّ لغَيْرِ العاقِلِ إرادةً؟ الجوابُ: نعَمْ؛ لأنَّ الطَّائِعَ لَه إرادةٌ، ومَنْ يُتَصوَّرُ إكْراهُه فلَه إرادةٌ أيْضًا، وإرادةُ كلِّ شيْءٍ بحَسَبِه، وقَد ورَدَ أنَّ الحَصَى تَسبِّحُ بيْنَ يدَي الرَّسُولِ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ ولا تسْبيحَ إلَّا بَعْدَ إرادَةٍ، وثبُتَ عَنِ النَّبيِّ -صلَّى اللهُ علَيهِ وعلى آلِهِ وسلَّمَ- أنَّه قالَ في أُحُدٍ: «**يُحِبُّنا ونُحِبُّه**»[1]، والمَحبَّةُ أخَصُّ مِنَ الإرادَةِ؛ وعلَى هذا: فهَذه الجَماداتُ الَّتي نحْن لا نفْقَه تسْبِيحَها لها إرادَة، وتسَبِّحُ اللهَ عَزَّوَجَلَّ.

• • ۞ • •

(١) أخرجه البخاري: كتاب الجهاد، باب فضل الخدمة في الغزو، رقم (٢٨٨٩)، ومسلم: كتاب الحج، باب أحد جبل يحبنا ونحبه، رقم (١٣٩٣)، من حديث أنس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

الآية (١٢)

• • • •

قالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿فَقَضَىٰهُنَّ سَبْعَ سَمَٰوَاتٍ فِى يَوْمَيْنِ وَأَوْحَىٰ فِى كُلِّ سَمَآءٍ أَمْرَهَاۚ وَزَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِمَصَٰبِيحَ وَحِفْظًاۚ ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ﴾ [فصلت:١٢].

• • • •

قولُه: ﴿فَقَضَىٰهُنَّ سَبْعَ سَمَٰوَاتٍ فِى يَوْمَيْنِ﴾ ﴿فَقَضَىٰهُنَّ﴾ يقول المُفسِّرُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [الضَّميرُ يَرجِعُ إِلَى السَّماءِ؛ لأنَّها في معنَى الجمعِ الآيلَةِ إلَيْه؛ أي صيَّرَها ﴿سَبْعَ سَمَٰوَاتٍ﴾]؛ قولُه: [﴿فَقَضَىٰهُنَّ﴾، الضَّمير يَرجِع إِلَى السَّماءِ] حِينَئذٍ يرِدُ إشْكالٌ، فإنَّ السَّماءَ مُفرَدٌ و«قَضاهُنَّ»، الضَّميرُ جمْعٌ، فكيْف كان الأمْرُ كذلِك؟

يَقولُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [يرجِعُ إِلَى السَّماءِ؛ لأنَّها في معنَى الجمْعِ الآيلةِ إليه]؛ لأنَّ هَذه السَّماءَ المُفرَدَ يَؤُولُ إِلَى جمْعٍ، ومِقدارُه: سبْعُ سَمواتٍ، فكأنَّه عبَّرَ عَنِ السَّماءِ باعْتِبارِ مَآلِها أنَّها ستكونُ سبْعَ سَمواتٍ.

وقوْلُه: ﴿فَقَضَىٰهُنَّ﴾ أيْ صيَّرهُنَّ، وعلَى هَذا فيكونُ الضَّميرُ في «قَضاهُنَّ» المَفْعولُ الأوَّلُ، و﴿سَبْعَ سَمَٰوَاتٍ﴾ المَفْعولُ الثَّاني، ويَحتَمِلُ أنْ تكونَ «قَضاهُنَّ» بمَعنَى: فَرَغَ مِنهُنَّ، وعلَى هَذا فيكونُ الضَّميرُ الأوَّلُ مَفعُولًا بِه و﴿سَبْعَ سَمَٰوَاتٍ﴾ حالًا؛ أيْ: حالَ كَونِها سبْعَ سَمواتٍ.

وعلَى كلٍّ: فَإنَّ السَّمواتِ كانتْ سَبْعًا.

وقَولُه: ﴿فِى يَوْمَيْنِ﴾ قال المُفسِّرُ: [الخَميسُ والجُمُعةُ فُرِغَ مِنها في آخِرِ ساعةٍ

مِنه، وفِيها خُلِقَ آدَمُ؛ ولِذلِك لمْ يَقُلْ هُنا: «سَواءٌ»، ووافَقَ ما هُنا آياتُ خَلْقِ السَّمواتِ والأرْضِ في سِتَّـةِ أيَّام]؛ أيْ: قَضاهُنَّ سَبْع سَمـواتٍ في يَومَيْنِ، و«فِي» للظَّرفِيَّةِ، والظَّرْفُ يَكونُ أوْسَعَ مِنَ المَظْرُوفِ، فيَحتَمِلُ أنَّه قضاهُنَّ في يومَيْن مِن أوَّلِ اليومَيْنِ إلَى آخِرِهُما، ويَحتَمِلُ أنَّه قَضاهُنَّ في يومَيْن؛ أي: في هَذا الظَّرْفِ، وإنْ كانَ القَضاءُ لَم يَستوعبْ هَذا الظَّرْفَ، وهَذا هُو الَّذي مَشى علَيه المُفسِّرُ، وسيَتبيَّن ما فِيه إنْ شاءَ اللهُ.

وقَولُه رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [فُرِغَ مِنها في آخِر ساعَةٍ مِنه، وفِيها -أيْ في آخِرِ ساعَةٍ خُلِق آدَمُ- ولِذلِك لمْ يَقُلْ سَواءً]، بينَما قال في خَلْقِ الأرْضِ: ﴿فِىٓ أَرۡبَعَةِ أَيَّامٖ سَوَآءٗ﴾، وهُنا لمْ يَقُلْ: «في يومَيْن سَواءً»؛ لِأنَّ بَعْضَ اليومَيْنِ خُلِقَ فِيه آدَمُ، هَذا ما ذَهَب إلَيْه المُفسِّرُ، وفِيه نَظَرٌ ظاهِرٌ؛ لِأنَّ هَذا يَقتَضِي أنَّ آدَمَ خُلِقَ حِينَ خَلَقَ السَّمواتِ والأرْضَ، يَعنِي في الأيَّام السِّتَّة الَّتي خُلِقتْ فِيها السَّمواتُ والأرْضُ، وهَذا لا شكَّ أنَّه خَطَأٌ، بلْ إنَّه خُلِقَ بَعد ذلِك، لا أقُول: بمَلايِينَ، بَلْ بِمِئاتِ السِّنِين؛ لأنَّ آدَمَ عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ -كَما هُو مَعلُومٌ- جَعلَه اللهُ تَعالَى خَلِيفَةً لأُناسٍ قَبْلَه أو لِلجِنِّ الَّذين سَكَنُوا الأرْضَ قَبْلَه، ولِهَذا لَـمَّا قال: ﴿إِنِّي جَاعِلٞ فِي ٱلۡأَرۡضِ خَلِيفَةٗ﴾ [البقرة:٣٠]، قالَتِ المَلائِكةُ: ﴿أَتَجۡعَلُ فِيهَا مَن يُفۡسِدُ فِيهَا وَيَسۡفِكُ ٱلدِّمَآءَ﴾ [البقرة:٣٠]إلَى آخِره.

فدَعْوَى المُفسِّرِ رَحِمَهُ ٱللَّهُ أنَّ آدَمَ خُلِقَ في آخِرِ ساعَةٍ مِن يَوْمِ الجُمُعةِ الَّتي تمَّ فِيها خَلْقُ السَّمواتِ والأرْضِ غيْرُ صَحِيحٍ.

نَعم؛ خُلِقَ آدَمُ يوْمَ الجُمُعةِ لا شكَّ في هَذا، كَما ثبُتَ عَنِ النَّبيِّ[1] عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ لكِنَّها لَيْسَتِ الجُمُعة الَّتي تَمَّ بها خلْقُ السَّمواتِ والأرْضِ؛ إذَنْ: خلَقَهنَّ في يومَيْن؛ يَقُولُ المُفسِّرُ: [ووافَقَ هُنا آياتُ خلْقِ السَّمواتِ والأرْضِ في ستَّةِ أيَّامٍ] لأنَّ أرْبعَةَ

(١) أخرجه مسلم: كتاب الجمعة، باب فضل يوم الجمعة، رقم (٨٥٤)، من حديث أبي هريرة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ.

أَيَّامٍ كانَتْ لِخَلْقِ الأَرْضِ، ويَومَيْن كانَتْ لخَلْقِ السَّماء، فيَكونُ المَجمُوعُ ستَّة أَيَّامٍ، وهَذا أمْرٌ مُتَّفقٌ عليه بيْنَ المُسلِمين أنَّ خلْقَ السَّمواتِ والأرْضِ في ستَّةِ أَيَّامٍ.

وفِي بعْضِ الآياتِ يَقولُ: ﴿وَمَا بَيْنَهُمَا﴾؛ لِأنَّ بيْن السَّمواتِ والأرْضِ مِنَ الآياتِ العَظِيمةِ ما اسْتَحقَّ أنْ يَكونَ قَسِيمًا لِخَلْقِ السَّمواتِ والأرْضِ، قال تَعالى: ﴿خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا﴾؛ وقَد كُنَّا نَقولُ: كَيْف يَكونُ خَلْقُ ما بيْن السَّماءِ والأرْضِ قَسِيمًا لخَلْقِ السَّمواتِ والأرْضِ مَع أنَّه في نَظَرِنا لا يُساوي شَيئًا بالنِّسبَةِ إلَى خلْقِ السَّمواتِ والأرْضِ، إذْ كُنَّا لا نَعْلَمُ إلَّا أنَّ الَّذي بيْن السَّماءِ والأرْضِ هُو الغُيُومُ والهَواءُ فقَطْ، وكُنَّا نَقولُ: إنَّ القَمَرَ والنُّجُومَ والشَّمسَ كانَت في السَّماءِ. وكُنَّا نَقولُ: القَمَرُ في السَّماءِ الدَّنيا، والشَّمْسُ في السَّماءِ الرَّابعةِ وزُحَلُ في السَّماءِ السَّابعةِ، وكُنَّا نُنْشِدُ قوْلَ الشَّاعِرِ[1]:

زُحلُ شَرَى مِرِّيخَه مِن شَمْسِه ... فتَزاهَـرَت بِعُطـارِد الأقْـمارُ

هَذه الكَواكِبُ السَّبْعةُ؛ والمَعنَى: مِن أعْلى إلَى أسْفَل، فـ«زُحَل» هَذا أعْلاها، «شَرى» المُشْتَرى، «مِرِّيخَه» المِرِّيخ، «مِن شَمسِه» الشَّمسُ، «فتَزاهَرت» الزّهرة، «بِعُطارد» عُطارد، «الأقْمار» القَمَر هُو الأخِيرُ، وعَلى هذا فتكونُ الشَّمْسُ في السَّماءِ الرَّابعةِ، وكُنَّا نَظُنُّ أنَّ هَذه مُرَصَّعةً بالسَّماءِ كَما يُرَصَّعُ المِسْمارُ على الخَشَبةِ!

لكِن تَبيَّنَ الآنَ أنَّ هَذه في أَجْواءٍ بيْنَ السَّماءِ والأرْضِ ولَيْسـت مُرَصَّعةً في السَّمواتِ والأرْضِ، وأنَّ السَّماءَ مِن فَوقِها بأمَدٍ بَعِيدٍ، وحِينَئِذٍ تَبين الحِكْمَةُ مِن كَوْنِ اللهِ عَزَّوَجَلَّ يَجْعَلُ خَلْقَ ما بيْنَ السَّماءِ والأرْضِ عَدِيلًا لِخَلْقِ السَّماءِ والأرْضِ.

---

(١) غير منسوب، وانظره في: الفروق للقرافي (٢/ ١٨٣)، المواعظ والاعتبار للمقريزي (١/ ١٣)، حاشية ابن عابدين (١/ ٢٩).

ثمَّ قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿وَأَوْحَىٰ فِي كُلِّ سَمَآءٍ أَمْرَهَا﴾ الَّذي أمَر به مَن فِيها مِن الطَّاعةِ والعِبادةِ] «أوْحَى في كلِّ سَماءٍ أمْرَها»، يَعنِي: قدَّرَ بما أوحاه في كلِّ سماءٍ أمْرَها، فكُلُّ سَماء لَها مَلائكةٌ خاصَّةٌ، وعِباداتٌ خاصَّةٌ، وأجْواءٌ خاصَّةٌ، وكُلُّ سَماءٍ تَخْتَلِفُ عَنِ السَّماءِ الأُخْرَى، حتَّى إنَّ بَعْضَهم يَقولُ -وَهُو مِن الإسْرائِيلِيَّاتِ الَّتي لا تُصَدَّقُ وَلا تُكذَّبُ-: إنَّ جِرْمَ السَّماءِ الدَّنيا يَخْتَلِفُ عَن جِرْمِ السَّماءِ الثَّانيَةِ، والثَّانيةُ عَنِ الثَّالِثةِ، كُلُّ واحِدةٍ مِن مادَّةٍ أُخرَى غَيرِ مادَّةِ السَّماءِ الأُخْرَى، والله أعْلَمُ.

وقَولُه: ﴿أَمْرَهَا﴾ مُفْرَدٌ مُضافٌ فيَعُمُّ جَمِيعَ الأُمُورِ، فجمِيعُ ما يَتعلَّق بكُلِّ سماءٍ قَد أوْحاه اللهُ بِها.

وَقولُه رَحِمَهُ ٱللَّهُ [﴿وَأَوْحَىٰ فِي كُلِّ سَمَآءٍ أَمْرَهَا﴾ الَّذي أَمَرَ بِه مَن فِيها مِنَ الطَّاعَةِ والعِبادَةِ] صَرَفَ المُفسِّرُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ الأمْرَ هُنا إلَى الأمْرِ الشَّرْعيِّ لا الأمْرَ الكَوْنيِّ؛ ولِذلِكَ قال: [﴿أَمْرَهَا﴾ الَّذي أمَرَ بِه مَن فِيها مِنَ الطَّاعَةِ والعِبادَةِ] ويَحتَملُ أنْ يَكونَ المُرادُ بِالأمْرِ هُنا الشَّأنُ، أيْ أوْحَى في كُلِّ سماءٍ شَأنَها، فيَشْمَلُ أحْوالَ السَّماءِ وأحْوالَ مَن فِيها، وهَذا أعَمُّ مِمَّا ذَكَره المُفسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ وإنَّنا نُقرِّرُ قاعِدةً في التَّفسِيرِ: إذا ورَدَ تَفْسِيرانِ في الآيَةِ أحَدُهما أعمُّ أخَذْنا بالأعمِّ؛ لأنَّ الأعمَّ يدْخُلُ فِيه الأخصُّ ولَا عَكْسَ؛ فَإذا قُلْنا: «شَأنُها» صارَ أعمَّ مِن أنْ نَقُولَ: «إنَّه أمْرُها الشَّرْعيُّ»؛ لأنَّ هَذا أخصُّ، فالحَمْلُ على الأعمِّ أوْلَى.

وقَولُه: ﴿وَزَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا﴾ انْظُرْ إلَى خَصائِصِ السَّمـاءِ الدَّنْيا ﴿وَزَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِمَصَٰبِيحَ﴾ [بنُجُوم] ﴿وَحِفْظًا﴾ [مَنْصُوبٌ بِفعلِه المُقدَّرِ؛ أي: حَفِظْناها مِنِ استِراقِ الشَّياطِين السَّمْعَ بالشُّهُبِ] «زيَّنَّا السَّماءَ الدَّنيا»، «الدُّنيا» يَعنِي: القُربَى، وسُمِّيَتْ دُنيا لأنَّها قَريبَةٌ مِنَ الأرْضِ، فهِي أقْرَبُ السَّمـواتِ، زيَّنَها بمَصابِيحَ،

والمَصابِيحُ هِي النَّجُومُ، وسُمِّيتْ مَصابِيحَ؛ لأنَّها بمَنزِلةِ القَنادِيلِ المُعلَّقةِ بالسَّقْفِ، فإنْ قال قائِلٌ: ظاهِرُ الآيَةِ أنَّ هَذه المَصابِيح مُرصَّعةٌ بالسَّماءِ!

قُلْنا: إنْ كان هَذا ظاهِرُها فالواقِعُ خِلافُ ذلِك؛ ولا مانِعَ مِن أنْ تُزيَّنَ بمَصابِيحَ وإنْ لمْ تَكُنْ مُلتَصِقةً بها، أرَأيْتَ لَو أنَّك دَلَّيْتَ مَصابِيحَ مِن سَقْفٍ عالٍ، ثُمَّ كُنْت تَحْت هَذه المَصابِيحِ، أفَلا تَكونُ هَذه المَصابِيحُ زِينَةً لِلسَّقْفِ، وإنْ كانتْ غيْرَ لاصِقةٍ به، بَل جِهتَها -أي جِهةَ هَذا السَّقف- مُزيَّنةً بِهَذه المَصابِيحِ، فلا يَلزَمُ مِن قوْلِه: «زيَّنَّا السَّماءَ الدَّنْيا بمَصابِيحَ» أنْ تكونَ مُرصَّعةً بالسَّماءِ، بلْ نَقولُ: هِي مُزيَّنةٌ بِها وإنْ كان بَينَها وبيْن السَّماءِ مَسافةٌ.

وقَولُه: ﴿وَحِفۡظًا﴾ أي: حَفِظْناها حِفْظًا، فالسَّماءُ مَحفُوظَةٌ، كما قال تَعالَى: ﴿وَجَعَلۡنَا ٱلسَّمَآءَ سَقۡفٗا مَّحۡفُوظٗا﴾ [الأنبياء:٣٢]، ولِهَذا لمْ يَستَطِعْ جِبريلُ أنْ يَدْخُلَ مِن السَّمواتِ مَع أنَّه نازِلٌ مِنها حِين كان مَعه مُحمَّدٌ ﷺ حتَّى استأذَن له، ففي حدِيثِ المِعْراج[1]: «إنَّ جِبرِيلَ لـمَّا وصَل بالنَّبيِّ ﷺ إلَى السَّماءِ الدُّنيا اسْتَفتَح؛ فقِيل: مَن هذا؟ قال: جِبرِيلُ، قِيل ومَن مَعَك؟ قال: مُحمَّد، فقِيل لَه: هَل أُوحِي إليْه؟ قال: نَعَم، ففُتِح لَه»؛ لِأنَّ السَّماءَ مَحفُوظةٌ، لا يُمكِن أنْ يَدخُل أحَدٌ فيها إلَّا بإذْنِ الله؛ فإنَّ جِبْريلَ قال: «مَعِي مُحمَّدٌ، فقِيلَ: له: وقَد أُرسِلَ إليه؟ قال: نعَم، قالوا: مَرْحبًا بِه؛ فنِعْم المَجيءُ جاء»، ثمَّ فَتَحوا لَه، فدَخَل السَّماءَ الدَّنيا ثمَّ الثَّانيَةَ والثَّالِثةَ...، وهكَذا، ممَّا يدُلُّ على إتْقانِ حِفْظِ اللهِ سُبۡحَانَهُۥ وَتَعَالَىٰ للسَّمواتِ، وأنَّها مُتقَنةٌ، علَيْها مَلائِكةٌ لا يُمكِنُ أنْ يَتجاوَزها أحَدٌ.

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب بدء الخلق، باب ذكر الملائكة، رقم (٣٢٠٧)، ومسلم: كتاب الإيمان، باب الإسراء برسول الله ﷺ إلى السماوات، رقم (١٦٤)، من حديث مالك بن صعصعة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

وقَولُه رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿وَحِفْظًا﴾ مَنْصُوبٌ بِفِعلِه المُقدَّرِ؛ أي: حَفِظناها حِفْظًا مِنِ اسْتِراقِ الشَّياطِينِ السَّمْعَ بالشُّهُبِ...] إلَى آخِرِه؛ فقَوْله: ﴿وَحِفْظًا﴾ مَصْدرٌ عامِلُه محَذُوفٌ، والتَّقدِيرُ: حَفِظْناها حِفْظًا؛ ومِن أيِّ شَيْءٍ حَفِظْناها؟ قال الله تَبَارَكَ وَتَعَالَى: ﴿وَلَقَدْ جَعَلْنَا فِي ٱلسَّمَآءِ بُرُوجًا وَزَيَّنَّـٰهَا لِلنَّـٰظِرِينَ ﴿١٦﴾ وَحَفِظْنَـٰهَا مِن كُلِّ شَيْطَـٰنٍ رَّجِيمٍ﴾ [الحجر:١٦-١٧]، فَيَكونُ المُرادُ بالحِفْظِ حَفِظُها مِنَ الشَّياطِينِ؛ لِأَنَّ القُرْآنَ يُفسِّرُ بَعضُه بَعضًا.

وأمَّا شَأنُ الشَّياطِينِ بالنِّسْبةِ للسَّمْعِ فإنَّها تَصْعَدُ فيَرْكَبُ بعضُها بعْضًا، إلَى أنْ تَصِلَ إلَى السَّماءِ، فتَستَمِعُ إلَى أخبارِ السَّماءِ، وما تَتحدَّثُ به المَلائِكةُ، ثمَّ تنْزِلُ بِه إلَى الأرْضِ، وتُلقِيه إلَى الكُهَّانِ الَّذين لكُلِّ واحِدٌ مِنهُم رَئِيٌّ مِن الجِنِّ، والكاهِنُ يأخُذُ هَذا الخَبرَ ويُضِيفُ إلَيهِ أخْبارًا أُخرَى، ثمَّ يُحدِّثُ النَّاسَ بذلِك؛ ومِن المَعلُومِ أنَّ ما سُمِعَ في السَّماءِ لا بُدَّ أنْ يكونَ، فتكونُ هَذه الكَلِمةُ الواحِدة -التي هي صدق- مَثارًا لإعْجابِ النَّاسِ بالكُهَّانِ والرُّجوعِ إليهم؛ ولِهَذا كانُوا بالجاهِلِيَّةِ يَتحاكَمُون إلَى الكُهَّان؛ فهَذه هِي قَضِيَّةُ استِراقِ السَّمْعِ.

ثمَّ إنَّ اللهَ تعالَى حَفِظ السَّماءَ وقْتَ بَعثَةِ النَّبيِّ -صلَّى اللهُ علَيهِ وعلى آلِهِ وسلَّمَ- وصارَتِ الشَّياطِينُ إذا حاولَت الاستِماعَ أرْسَلَ اللهُ تعالى عليها شهابًا يحرقُها وتهلِكُ.

وهَل بَقِي هَذا الحِفْظُ بعْد موْتِ الرَّسُولِ -صلَّى اللهُ علَيهِ وعلى آلِهِ وسلَّمَ- أو لا؟

الجَوابُ أنْ يُقالَ: اللهُ أعْلَمُ، وَلا نَدرِي، لكِنَّها حُفِظتْ في عَهْدِ النُّبوَّةِ مِنِ اسْتِراقِ السَّمْعِ، أمَّا الآنَ فاللهُ أعْلَمُ فقَدْ يَكونُ ذلِك وقَد لا يَكونُ؛ لأنَّه ليْس هُناك نبِيٌّ حتَّى يَختلِطَ المَسمُوعُ المُسترَقُ بالوَحْيِ الصَّحِيحِ.

وقولُه تعالَى: ﴿ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ﴾ ﴿ذَٰلِكَ﴾ المُشارُ إِلَيْه ما سَبَق مِن قولِه: ﴿قُلْ أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْأَرْضَ﴾ إلى آخره؛ قولُه: ﴿تَقْدِيرُ﴾ أي مُقدَّرُ ﴿ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ﴾، أو ﴿تَقْدِيرُ﴾ مَصدَرٌ على بابه، ويَكونُ المُشارُ إِلَيْه فِعْلُ اللهِ لِهذا الشَّيْءِ، فعِندَنا الآن كَلِمةُ ﴿تَقْدِيرُ﴾ مَصْدَرٌ، يَجُوزُ أنْ تكونَ بمَعنَى اسْمِ المَفعُولِ، ويَكونُ المَعنَى: ذلِك مُقدَّرُ العَزِيزِ، ويَجُوزُ أنْ تكونَ مَصْدرًا وهُو فِعْلُ اللهِ عَزَّوَجَلَّ ويَكونُ هَذا أيْضًا مَعنًى صَحيحًا وكِلاهما مُتلازِمان؛ لِأنَّه إذا كان هَذا الشَّيْءَ مُقدَّرُ اللهِ فَهُو مِن تَقدِيرِه يَعنِي ناتِجٌ عَن تَقدِيرِه.

فقَولُه: ﴿ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ﴾ أي: الَّذي قَدَّره هُو ﴿ٱلْعَزِيزِ﴾ عَزَّوَجَلَّ ﴿ٱلْعَلِيمِ﴾، و﴿ٱلْعَزِيزِ﴾ هُنا مُناسَبتُها، أنَّ المَسْأَلَةَ تَحتاجُ إلَى عِزَّةٍ وقُوَّةٍ.

والعِزَّةُ؛ يَقولُ المُفسِّرُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿ٱلْعَزِيزِ﴾ في مُلْكه] يَعنِي الَّذي لَه العِزَّةُ التَّامَّةُ في مُلْكه، وفِيه شَيْء مِن القُصُورِ، فلَم يُبيِّن لنا ما هِي العِزَّةُ، والعِزَّةُ قال العُلَماءُ رَحِمَهُمُ ٱللَّهُ: إنَّها تَنْقسِمُ إلَى ثَلاثَةِ أقْسامٍ: عِزَّةُ القَدْرِ، وعِزَّةُ القَهْرِ، وعِزَّة الِامْتِناعِ؛ ثَلاثَة مَعانٍ.

١- أمَّا عِزَّةُ القَدْرِ فمَعناها الشَّرفُ، يَعنِي: أنَّه ذُو قَدْرٍ عَظيمٍ بالِغِ العِظَمِ.

٢- وعِزَّةُ القَهْرِ يَعنِي: أنَّه قاهِرٌ ولا يُغلَبُ.

٣- وعِزَّةُ الِامْتِناعِ؛ أيْ يَمتَنِعَ أنْ ينالَه سُوءٌ جَلَّوَعَلَا بأيِّ حالٍ مِن الأحْوالِ.

ولِمُلاحَظةِ هَذا المَعنَى الثَّالِثِ نَقولُ: إنَّه مُشتَقٌّ مِن قَولِه: أرْضٌ عَزازٌ، عَزازٌ يَعنِي: قَوِيَّةٌ صُلْبَةٌ، ونَحْن نُسمِّيها باللُّغَةِ العامِّيَّةِ: «الأرْض عزا»، يَعنِي: صُلْبَةٌ لَيْست لَيِّنةً كالرَّمْلِ والرَّوْضِ، ولكِنَّها صُلْبَةٌ.

أمَّا ﴿ٱلْعَلِيمِ﴾ فهِي صِفَةٌ مُشبَّهةٌ، ويَجُوزُ أنْ تكونَ مِن بابِ المُبالَغةِ؛ لِأنَّ فَعِيلٌ

يَصِحُّ أنْ تَكونَ صِفَةً مُشبَّهةً، ويَصِحُّ أنْ تكونَ صِيغَةَ مُبالَغةٍ، ومَعناها ذُو العِلْمِ، فهُو ذُو العِلمِ، وعِلْمُ اللهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى واسِعٌ؛ قال اللهُ تَعالَى: ﴿لِتَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ ٱللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَىْءٍ عِلْمًۢا﴾ [الطَّلاق:١٢]، فعِلْمُه تَعالَى واسِعٌ شامِلٌ لكُلِّ شَيْءٍ، يَعلَمُ ما كان فَلا يَنْساهُ، ويَعلَمُ ما يَكون فَلا يَجْهلُه، ويَعْلم مَا لم يَكُن لو كانَ كيفَ كانَ يكُونُ، يَعنِي لَيس يَعلَمُ أنَّ هَذا الشَّيءَ يَقَعُ فقَطْ، بلْ يَعلَمُ أنَّه يَقَعُ ومَتَى يَقَعُ وكَيف يَقَعُ وأينَ يَقَعُ، مِن كلِّ جِهَةٍ.

وقَد فصَّل اللهُ تَعالَى دَقائِقَ العِلْمِ في قَولِه تَعالَى: ﴿وَعِندَهُۥ مَفَاتِحُ ٱلْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَآ إِلَّا هُوَ ۚ وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ ۚ وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٍ فِى ظُلُمَٰتِ ٱلْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مُّبِينٍ﴾ [الأنعام:٥٩].

وعِلْمُنا بأنَّه عَلِيمٌ يَستَوجِبُ مِنَ النَّاحِيةِ المَسلَكِيَّةِ بالنِّسبَةِ للْعَبدِ: أنَّه إذا عَلِم أنَّ اللهَ بكُلِّ شَيْءٍ عليم: أنْ يَخافَ اللهَ عَزَّوَجَلَّ وأنْ يَقومَ بِطاعَتِه وأنْ يَدَعَ مَعصِيَتَه؛ لأنَّه يعْلَمُ أنَّ اللهَ تَعالَى عالِمٌ به، حتَّى وإنْ خَفِيتَ على النَّاسِ؛ فإنَّك لَن تَخفَى على اللهِ، بَلْ إنَّ اللهَ يَعلَمُ مِنْ نَفْسِك ما لا تَعْلَمُه أنْت، فأَنْت تَعْلَم مِن نَفسِك ما يُمكِنُ أنْ تُحِيطَ به، لكِنَّ اللهَ يَعلَمُ مِن نَفسِك ما لا تُحِيط بِه، فيَعلَم مُستَقبَلَك ومَآلَك وحالَك وأنْت لا تَعلَمُ، وهَذا يُوجِبُ لِلعَبدِ المُؤمِنِ بذلِك: أنْ يَخافَ ربَّه في السِّرِّ والعَلَنِ، حتَّى لَو كُنْت بِحُجرَةٍ مُظلِمةٍ لَيس عِندَك أحَدٌ، وأرَدْتَ أنْ تُغضِبَ اللهَ، فاعلَم أنَّ اللهَ تَعالَى يَراك.

مِن فوائِدِ الآيَةِ الكَرِيمَةِ:

الْفَائِدَة الأُولَى: أنَّ مُدَّةَ خَلْقِ السَّمـواتِ أقلُّ مِن مُدَّةِ خلْـقِ الأرْضِ مَع أنَّ السَّمواتِ أعظَمُ، لكِن لـمَّا كانَت الأرْضُ مَوضُوعةً لِلأنامِ- كَما قال تَعالَى: ﴿وَٱلْأَرْضَ

وَضَعَهَا لِلْأَنَامِ ﴾ [الرحمن:١٠] -كان خَلْقُها أكثَرَ مُدَّةً؛ لبَيانِ عِنايةِ اللهِ تَعالَى بِهَذه الأَرْضِ الَّتي وضَعَها لِلأنام، ولِيعلَمَ الأنامُ الَّذِين على الأرْضِ أنَّ العِبرَةَ بالإِتْقانِ لا بِالسُّرْعةِ.

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَةُ: أنَّ اللهَ أتمَّ خَلْقَ السَّموَاتِ حِين أوْحَى في كلِّ سَماءٍ أمْرَها، ورتَّبَها التَّرتِيبَ المُحكَمَ المُتقَنَ.

الْفَائِدَةُ الثَّالِثَةُ: أنَّ اللهَ تَعالَى خَلَقَ هَذه النُّجومَ لثَلاثِ فوائدَ:

الفائِدةُ الأُولَى: زِينَةُ السَّماءِ.

والفائِدةُ الثَّانيَةِ: حِفْظُ السَّمواتِ مِنَ الشَّياطِينِ.

والفائِدةُ الثالِثة: ذَكَرَها اللهُ تَعالَى في سُورَةِ النَّحْلِ في قَولِه تَعالَى: ﴿ وَعَلَٰمَٰتٍۚ وَبِٱلنَّجۡمِ هُمۡ يَهۡتَدُونَ ﴾ [النحل:١٦]؛ ولِهَذا قال قَتادةُ -وهُو مِن أئِمَّةِ التَّابِعِين رَحِمَهُمُاللَّهُ: خَلَق الله هَذه النُّجُومَ لِثَلاثٍ؛ زِينَةً لِلسَّماءِ، ورُجومًا لِلشَّياطِينِ، وعَلاماتٍ يُهتَدى بِها(١).

الْفَائِدَةُ الرَّابِعَةُ: كَمالُ إِتْقانِ اللهِ عَزَّوَجَلَّ لِمَخْلُوقاتِه؛ لِقَولِه: ﴿ذَٰلِكَ تَقۡدِيرُ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡعَلِيمِ ﴾، وهَذا التَّقْدِيرُ لا شكَّ أنَّه تَقْدِيرٌ مُحكَمٌ مُتْقَنٌ مِن جَمِيعِ الوُجُوهِ.

الْفَائِدَةُ الخَامِسَةُ: إِثْباتُ اسمَيْن مِن أسْماءِ اللهِ وهُما «العَزِيزُ، العَلِيمُ»، وهَذان الاِسْمان يَتَضمَّنان صِفتَيْن، هُما العِزَّةُ والعِلْمُ.

وهَلْ في «العَزِيز» ما يُسمَّى بالحُكْمِ أوْ بِالأَثَرِ؟

الجَوابُ: نَعَم، بِناءً على أنَّ مِن مَعناه عِزَّةِ القَهْرِ، والقاهِرُ لا بُدَّ مِن شَيْءٍ مَقْهُورٍ

---

(١) أخرجه الطبري في تفسيره (١٤/ ١٩٣)، وابن أبي حاتم في تفسيره (٩/ ٢٩١٣)، وعبد بن حميد كما في فتح الباري (٦/ ٢٩٥)، وعلقه البخاري: كتاب بدء الخلق، باب في النجوم.

حتَّى يتِمَّ بِه القَهْرُ، فعلى هَذا يَكونُ الإيهانُ بهَذين الِاسْمَيْن يَتَضَمَّنُ ثلاثَةَ أُمُورٍ:

الأَوَّلُ: الإيْمانُ بِالِاسْمِ اسْمًا للهِ.

والثَّاني: الإيمانُ بِالصِّفَةِ.

والثَّالِثُ: الإيمانُ بالأَثَرِ، وإنْ شِئْتَ فَقُلْ: بِالحُكْمِ.

••❁••

الآيتان (١٣، ١٤)

قالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿ فَإِنْ أَعْرَضُوا فَقُلْ أَنذَرْتُكُمْ صَٰعِقَةً مِّثْلَ صَٰعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ ﴿١٣﴾ إِذْ جَآءَتْهُمُ ٱلرُّسُلُ مِنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّا ٱللَّهَ قَالُوا۟ لَوْ شَآءَ رَبُّنَا لَأَنزَلَ مَلَٰٓئِكَةً فَإِنَّا بِمَآ أُرْسِلْتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ ﴾ [فُصِّلَت:١٣-١٤].

قال المُفسِّرُ رَحِمَهُ اللَّهُ: [﴿ فَإِنْ أَعْرَضُوا ﴾ أيْ كُفَّارُ مَكَّةَ]، ومَعلُومٌ أنَّ الآيَةَ لمْ تَنُصَّ على كُفَّارِ مَكَّةَ، لكِنَّ السِّياقَ يدُلُّ على ذلِك، حيْثُ قال: ﴿فَقُلْ أَنذَرْتُكُمْ صَٰعِقَةً مِّثْلَ صَٰعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ ﴾ [﴿ فَإِنْ أَعْرَضُوا ﴾؛ أي: كُفَّارُ مَكَّةَ عَنِ الإيمانِ بعْد هَذا البَيانِ ﴿فَقُلْ أَنذَرْتُكُمْ﴾ خَوَّفْتُكم ﴿صَٰعِقَةً مِّثْلَ صَٰعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ ﴾؛ أيْ: عَذابًا يُهلِكُكم مِثْلَ الَّذي أهْلَكَهم].

قَولُه تَعالَى: ﴿أَنذَرْتُكُمْ﴾ الإنْذارُ فَسَّره المُفسِّرُ بأنَّه [التَّخوِيفُ]، وهُو كذَلِك؛ لِأنَّ المُنْذِرَ هُو مَن تكلَّم بِكلامٍ يُخوِّفُ به غَيْرَه؛ ولِهَذا قِيل: إنَّ الإنْذارَ هُو الإعْلامُ المُتضَمِّنُ للتَّخوِيفِ.

وقَولُه: ﴿صَٰعِقَةً﴾ الصَّاعِقةُ ما يَصْعَقُ المَرْءَ؛ أي: يُهلِكُه ﴿مِّثْلَ صَٰعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ ﴾. والمِثْلِيَّةُ هُنا لا تَقتَضِي -واللهُ أعْلَمُ- المُماثَلةَ مِن كُلِّ وَجْهٍ، بَلْ مِثْليَّةٌ في أصْلِ الإهْلاكِ، أو في مَآلِ العَذابِ، ويَحتَمِلُ أنَّ اللهَ تَعالَى أنْذَرَهم مِثْلَ صاعِقَةِ عادٍ وثَمُودَ.

وصاعِقَةُ عادٍ وثَمُودَ نَوعان؛ الرَّجْفَةُ، والرِّيحُ الشَّدِيدةُ، الَّذِين أُهلِكوا بالرِّيحِ الشَّدِيدَةِ هُم عادٌ، والَّذِين أُهلِكوا بالرَّجْفَةِ والصَّيحَةِ هُم ثَمُودُ، وإنَّما ذَكَرَ اللهُ عادًا

وَثَمُودَ لِأَنَّ العَرَبَ يَعرِفُونَهما، فَهُم يَمُرُّون بدِيارِ ثَمودَ إذا ذَهَبوا إِلَى الشَّامِ، وهُم كذَلِك يَعرِفون مَحلَّ عادٍ بالأَحْقافِ، ويَذْكُرون ويَتَناقَلون ما جَرى لَهم مِن العَذابِ، وإِلَّا فَهُناك أُناسٌ أيضًا أهلَكهم اللهُ عَزَّوَجَلَّ ولَكِن لـمَّا كان هؤلاءِ القَومُ -أَعْنِي: عادًا وَثَمُودَ- هُم الَّذِين تَعرِفُهم العَرَبُ؛ أي: كُفَّارُ مكَّةَ، نَصَّ علَيْهم.

قَولُه: ﴿مِّثۡلَ صَٰعِقَةِ عَادٖ وَثَمُودَ﴾، عادٌ هُم قَومُ هُودٍ، وثَمُودُ هُم قَومُ صالِحٍ؛ فَأُهلِكتْ عادٌ بالرِّيحِ. والحِكْمَةُ مِن ذلِك أنْ يُريَهم اللهُ عَزَّوَجَلَّ ضَعْفَهم، وكانُوا قَد افْتَخَروا بِقُوَّتهم فَقالوا: ﴿مَنۡ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً﴾، فَقالَ اللهُ تَعالى: ﴿أَوَلَمۡ يَرَوۡاْ أَنَّ ٱللَّهَ ٱلَّذِي خَلَقَهُمۡ هُوَ أَشَدُّ مِنۡهُمۡ قُوَّةٗ﴾. وَأَمَّا ثَمُودُ فأَهْلَكَهم اللهُ عَزَّوَجَلَّ بِرَجْفَةٍ وصَيحَةٍ، صِيحَ بِهم ورَجَفَتْ بِهم الأَرْضُ فهَلَكوا.

وقَولُه: ﴿إِذۡ جَآءَتۡهُمُ ٱلرُّسُلُ مِنۢ بَيۡنِ أَيۡدِيهِمۡ وَمِنۡ خَلۡفِهِمۡ﴾ [فُصِّلَت:١٤] إلَى آخِرِه، ﴿إِذۡ﴾ هَذه ظَرْف للتَّعليل، يَعنِي أنَّ تَعليلَ الصَّاعِقةِ الَّتي، أَهْلَكَتْهم سَببُ ذلِك أنَّ الرُّسُلَ جاءَتْهم مِن بَيْن أَيدِيهِم ومِن خَلْفِهم، قال المُفسِّرُ: [أيْ مُقبِلين علَيْهم ومُدبِرين عَنْهم فكَفَروا- كَما سيأتِي- والإِهْلاكُ في زَمَنِه فقَط].

وقَولُه: ﴿مِنۢ بَيۡنِ أَيۡدِيهِمۡ وَمِنۡ خَلۡفِهِمۡ﴾ يَقولُ المُفسِّرُ: [أيْ مُقبِلين علَيْهم ومُدبِرين عَنْهم] يَعنِي: تارَةً يُقبِلُون فيَدعُون وتارَةً يُدبِرون فيُهدِّدون إذا لمْ يُؤمِنوا، ويَحتَمِلُ أنْ يَكونَ المُرادُ: ﴿مِنۢ بَيۡنِ أَيۡدِيهِمۡ وَمِنۡ خَلۡفِهِمۡ﴾؛ أي: أَتَوْهم بِالآياتِ الماضِيةِ والآياتِ المُستَقبَلةِ، فلمْ يُقصِّروا في بَيانِ الحَقِّ، بلْ جاؤُوا بِبَيانِ الحَقِّ مِن كُلِّ وجْهٍ.

وقَولُه رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [فكَفَروا] هَذا هُو المَقْصودُ مِنَ الإِنْذارِ، أنَّهم كَفَروا فَأُهلِكوا؛ ولِهَذا قال: [والإِهْلاكُ في زَمَنِه فقَط]؛ أيْ: في زَمَنِ الكُفْرِ ولَيْس في زَمَنِ المَجِيءِ؛ لِأنَّ الرُّسُلَ جاءَتْ أَوَّلًا ثُمَّ دَعَتْ ودَعَتْ، فلَمَّا أصَرُّوا على كُفرِهم أُهلِكُوا.

وقولُه رَحِمَهُ اللَّهُ: [أيْ بِأنْ لا ﴿تَعْبُدُوٓاْ إِلَّا ٱللَّهَ قَالُوٓاْ﴾] أفادَنا المُفسِّرُ رَحِمَهُ اللَّهُ أنَّ (أنْ) هُنا مَصْدَرِيَّةٌ، والتَّقدِيرُ: أنْ لا تعبُدوا، أي: جاءَتْهم بِعَدمِ عِبادةِ غيرِ اللهِ. ويَحتمِلُ أنْ تكونَ (أنْ) تفسِيرِيَّةً؛ لِأنَّه سَبقَها مَعنَى القَولِ دُون حُرُوفِه؛ لِأنَّ الرُّسُلَ جاؤُوا بكَلامٍ وَوَحْيٍ يَتكلَّمون به، ففِيه مَعنَى القَولِ دُون حُرُوفِه، وكُلَّما جاءَتْ (أنْ) بَعْد ما فِيه مَعنَى القَولِ دُون حُرُوفِه، فَإنَّهم يُسمُّونَها تَفْسِيرِيَّةً، مِثْل قَولِه تعالَى: ﴿فَأَوْحَيْنَآ إِلَيْهِ أَنِ ٱصْنَعِ ٱلْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا﴾ [المؤمنون:٢٧] أَوْحَينا أنِ اصْنَعِ الفُلْكَ ﴿وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى ٱلنَّحْلِ أَنِ ٱتَّخِذِى﴾ [النَّحل:٦٨]، فـ(أنْ) هُنا تَفْسِيرِيَّةٌ، فكُلَّما جاءَتْ بَعد ما تَضمَّن مَعنَى القَوْلِ دُون حُروفِه؛ فإنَّها تكونُ تَفسِيرِيَّةً.

إذَنْ: (أنْ) هُنا يَحتمِلُ أنْ تكونَ مَصدَرِيَّةً كَما مَشَى عَلَيها المُفسِّرُ، وأنْ تَكونَ تَفسِيرِيَّةً، يَنبَنِي على هَذا الخِلافِ كَيف نُعربُ (لا)، إنْ أعْرَبْنا (أن) مَصدَرِيَّةً فـ(لا) نافِيَةٌ والفِعْلُ مَنصُوبٌ بأنْ، وإنْ أعرَبْناها تَفسِيرِيَّةً فـ(لا) ناهِيةٌ، والفِعْلُ مجزُومٌ بـ(لا)، فإعْرابُ (تَعْبُد) إذَن يَتنزَّلُ على الخلافِ في (أنْ)، إذا جَعلْناها تفسِيرِيَّةً يَكونُ الفِعلُ مجزُومًا بـ(لا) النَّاهِيَةِ، وإذا أعرَبْنا (أنْ) مَصدرِيَّةً فـ(تَعْبُد) مَنصُوبةٌ بـ(أنْ)، وتَكونُ على هَذا (لا) نافِيةً بالفِعْلِ، وعلى الأوَّلِ تَكونُ ناهِيةً.

قال اللهُ تَعالَى: ﴿أَلَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّا ٱللَّهَ قَالُوٓاْ﴾ إلَى آخِره، لا تَعبُدوا إلَّا اللهَ هُو مَعنَى قَولِ: لا إلَهَ إلَّا اللهُ؛ لِأنَّ (لا إلَه) بمَعنَى لا مَعبُودَ حَقٌّ إلَّا اللهُ، وهَؤُلاء يقولُونَ: لا تَعبُدوا إلَّا اللهَ فهِي بمَعنَى لا إلَهَ إلَّا اللهُ، وهِي بمَعنَى قَولِه تَعالَى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِىٓ إِلَيْهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدُونِ﴾ [الأنبياء:٢٥]، ومتَى حقَّقَ الإنْسانُ هَذه الكَلِمةَ؛ لا إلَهَ إلَّا اللهُ، فلا بُدَّ أنْ يَقومَ بطاعَةِ اللهِ، لا بُدَّ، ما دُمْتَ تَشْهدُ بأنَّه لا إلَهَ إلَّا اللهُ فَلا بُدَّ أنْ تَتَّخِذَ الوَسائِلَ الَّتي تُوصِلُكَ إلَى هَذا الإلَه الَّذي شَهِدْتَ أنَّه لا إلَهَ سِواه.

قال اللهُ تعالَى: ﴿قَالُوا۟﴾ الفاعِلُ قومُ عادٍ وثَمُودَ.

يَقولُ المُفسِّرُ رَحِمَهُ اللَّهُ: [﴿قَالُوا۟ لَوْ شَآءَ رَبُّنَا لَأَنزَلَ﴾ علَيْنا ﴿مَلَٰٓئِكَةً فَإِنَّا بِمَآ أُرْسِلْتُم بِهِۦ﴾ علَى زَعمِكم ﴿كَٰفِرُونَ﴾ [فُصِّلَت:١٤]]، هَذا الجَوابُ جَوابٌ غايَةٌ في السُّقُوطِ، لَو شاءَ رَبُّنا أنْ نَهتَدِيَ وألَّا نَعبُدَ إلَّا اللهَ لَأنْزَلَ مَلائِكَةً، وعلَى هَذا التَّقديرِ الَّذي قُلْتُ لكُم يَكونُ مَفعُولُ شاء مَحْذُوفًا؛ أيْ: لَو شاءَ ربُّنا ألَّا نَعْبُدَ إلَّا إيَّاه لَأنْزَلَ مَلائِكَةً. فـ﴿لَوْ﴾ شَرْطِيَّةٌ، و﴿شَآءَ﴾ فِعْلُ الشَّرْطِ، وجَوابُ الشَّرْطِ ﴿لَأَنزَلَ مَلَٰٓئِكَةً﴾، ومَفعُولُ شاء مَحذُوفٌ، التَّقْدِيرُ: لَو شاءَ ألَّا نَعبُدَ إلَّا إيَّاهُ لَأنْزَلَ مَلائكةً، هَذه الحُجَّةُ حُجَّةٌ باطِلةٌ؛ لِأنَّ المُرسَلَ إلَيْهم بَشَرٌ فكَيف يُنزِلُ اللهُ مَلائكةً على بَشَرٍ؟!

ثُمَّ إنَّ اللهَ قالَ في جَوابِ هَذا: ﴿وَلَوْ جَعَلْنَٰهُ مَلَكًا لَّجَعَلْنَٰهُ رَجُلًا﴾ [الأنعام:٩]، يَعنِي بِصُورَة رَجُلٍ، فَلا يُمكِنُ أنْ نُنزِّل مَلَكًا بِصُورَةِ المَلَك على بَشرٍ، ولَو فُرِضَ أنَّ اللهَ أنْزَلَ مَلَكًا لَجَعلَه بصُورَةِ البَشَرِ، وحِينَئذٍ تَعُودُ الشُّبْهةُ ﴿وَلَلَبَسْنَا عَلَيْهِم مَّا يَلْبِسُونَ﴾ [الأنعام:٩]، أرَأيْتُم لَو أَرسَلَ الله إلَى بَنِي آدَمَ جِبريلَ ولَه سِتُّ مِائةِ جَناحٍ قَدْ سدَّ الأُفُقَ، أيَتطابَقُ هَذا مَع النَّاسِ؟ أبدًا، بلْ يَهرَبون مِنه ولا يَقِفون أمامَه، فَإذا كان كذَلِك بَطَلَتْ هَذه الحُجَّةُ؛ لأنَّنا نَقولُ لِهَؤُلاء ولِمَن قال مِثلَ قَولِهم: لَو أنْزَل اللهُ مَلَكًا لَجعلَه رجُلًا، وحِينَئذٍ تَعودُ الشُّبهَةُ، إذَن الحُجَّةُ باطِلةٌ.

وقَولُه: ﴿قَالُوا۟ لَوْ شَآءَ رَبُّنَا لَأَنزَلَ مَلَٰٓئِكَةً فَإِنَّا بِمَآ أُرْسِلْتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ﴾ الفاءُ هُنا للتَّفريعِ؛ أيْ: فبِناءً على أنَّه لمْ يُنزِلْ مَلائِكةً إنَّا بما أُرسِلْتم به كافِرون -نَسْألُ اللهَ العافِيَةَ!- أكَّدُوا كُفرَهم وقالُوا: ﴿بِمَآ أُرْسِلْتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ﴾، فقَدَّم المَفعُولَ؛ لأنَّ ﴿بِمَآ أُرْسِلْتُم﴾ مُتعلِّقٌ بـ﴿كَٰفِرُونَ﴾، وقُدِّمَ علَيه؛ لِوجهَيْن:

الوَجْهُ الأوَّلُ: مُراعاةُ فَواصِلِ الآياتِ؛ فلَو قال: فإنَّا كافِرُون بما أُرسِلْتم بِه

لم تَتناسَبِ الفَواصِلَ، ولَمَّا قال: ﴿بِمَآ أُرۡسِلۡتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ﴾ تَناسَبتِ الفَواصِلُ، ومُراعاةُ المُناسَبةِ أمْرٌ ثابتٌ؛ أرَأيتُم مُوسَى وهارُون؟ الأفْضَلُ مُوسَى عَلَيۡهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ وهُو الَّذي يُقدَّمُ في القُرآنِ إلَّا في آيَةٍ واحِدةٍ مِن أجْلِ التَّناسُبِ في سُورةِ طه، ذَكَرَ اللهُ عَن السَّحَرةِ أنَّهم قالوا: ﴿ءَامَنَّا بِرَبِّ هَٰرُونَ وَمُوسَىٰ﴾ [طه:٧٠]، مَع أنَّهم كَانوا قالوا: «آمَنَّا برَبِّ مُوسى وهارُون»، هَذا قَولُ السَّحَرةِ، لكِن لـمَّا نقلَه اللهُ عَنْهم في سُورَةِ طه، قَدَّم ذِكْرَ هارُون لِتَناسُبِ الآياتِ مَع أنَّ مُوسى أفْضَلُ، ومُوسَى هُو الَّذي نَطَقَ بتَقدِيمِه السَّحَرةُ، كَما في آياتٍ عدَّةٍ، لكِن الله عَزَّوَجَلَّ نَقَل كَلامَهم في سُورَةِ طه مُقدِّمًا هارُون على مُوسى لِتَناسُب الفَواصِلِ هُنا.

الوَجْهُ الثَّاني: الحَصْرُ، كَأنَّ هؤُلاءِ المُكذِّبين المُعانِدين قالُوا: لَو أنَّا آمنَّا بكُلِّ شَيءٍ لكَفَرنا بما أُرسِلتُم به، فكَأنَّهم يَقولُون: لا نَكفُرُ بأيِّ شَيْءٍ إلَّا بما أُرسِلتُم به، وتَقدِيمُ ما حقُّه التَّأخِيرُ يُفِيدُ الحَصْرَ، انْظُر إلَى العِنادِ، قالُوا: ﴿بِمَآ أُرۡسِلۡتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ﴾ كَأنَّهم قالُوا: لا نكفُر إلَّا بما أُرسِلتُم به، هَذا مَعنَى الحَصْر، فيَكونُ هَذا أبْلَغُ في العِنادِ، كأنَّهم يَقولُون: لو آمنَّا بكلِّ شَيْءٍ، فلَن نُؤمِن بما أُرْسِلتم به.

ثُمَّ إنَّ قَولَه: ﴿بِمَآ أُرۡسِلۡتُم بِهِۦ﴾، قالُوه على سَبيل التَّنزُّلِ؛ ولِهَذا قال المُفسِّرُ: [على زَعمِكُم]، وإنَّما قُلْنا: إنَّهم قالُوه على سَبِيلِ التَّنزُّلِ؛ لأنَّهم لَو قالُوه على سَبيلِ الإقْرارِ لكانُوا مُؤمِنين.

في هَذه الآيَةِ أُمِرَ النَّبيُّ -صلَّى اللهُ علَيهِ وعلى آلِهِ وسلَّمَ- أنْ يُنذِرَ هَؤلاءِ المُكذِّبين بِعذابِ مَن قَبْلِهم لِقَولِه: ﴿فَقُلۡ أَنذَرۡتُكُمۡ﴾ [فصلت:١٣].

فإنْ قالَ قائِلٌ: كَلامُ الله عَنْ قَومِ عادٍ وثَمُودَ ﴿فَإِنَّا بِمَآ أُرۡسِلۡتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ﴾؛ هَل هُو اللَّفْظُ الَّذي قالَه القَومُ أمْ أنَّ هذا لِسانُ حالِهِم؟

فالجَوابُ: لا، قالُوه هُم ولُغتُهم غيرُ عربيَّةٍ، لكِنَّ اللهَ يَنقُلُ عنهم بالمَعنَى.

وقولُهم هَذا كما يُقالُ: تَصوُّرُ هَذا القَولِ كافٍ في ردِّه وإبْطالِه، يَعنِي حتَّى كُفَّارُ قُريشٍ قالُوا هَكذا في سُورةِ الأنْعامِ: ﴿وَقَالُوا۟ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ مَلَكٌ ۖ وَلَوْ أَنزَلْنَا مَلَكًا لَّقُضِىَ ٱلْأَمْرُ ثُمَّ لَا يُنظَرُونَ ﴿٨﴾ وَلَوْ جَعَلْنَٰهُ مَلَكًا لَّجَعَلْنَٰهُ رَجُلًا وَلَلَبَسْنَا عَلَيْهِم مَّا يَلْبِسُونَ ﴿٩﴾ وَلَقَدِ ٱسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ﴾ [الأنعام:٨-١٠].

مِن فَوائِدِ الآيتَين الكَريمتَين:

الْفَائِدَة الأُولَى: إثْباتُ القِياسِ؛ لِأنَّ إنْذارَ المُكذِّبين إذا لمْ يَكُنِ المُرادُ بذَلِك قِياسُ حالِ المُكذِّبين للرَّسُولِ ﷺ على حالِ المُكذِّبين لِهُودٍ وصالِحٍ لمْ يكُنِ لِهَذا الإنْذارِ فائِدةٌ، لَولا القِياسِ ما كان لِهذا الإنْذارِ فائِدةٌ.

إذَن فِفيه جَوازُ القِياسِ والِاعتِبارِ بالنَّظِيرِ والمُماثِلِ، ولقَد قال اللهُ تَعالَى في آيَةٍ أُخرَى: ﴿لَقَدْ كَانَ فِى قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ [يوسف:١١١] وإثْباتُ القِياسِ دَلِيلًا، مِن محَاسِنِ الشَّريعَةِ؛ لِأنَّ إثْباتَ القِياسِ دَلِيلًا، هُو مُقتَضى العَقلِ السَّلِيمِ إذْ إنَّ العَقْلَ لا يُمكِنُ أبدًا أنْ يُفرِّقَ بيْن مُتَماثِلَيْن، وعلَى هَذا، فالَّذِين أنْكَروا القِياسَ وقالوا: لا قِياسَ في الشَّريعةِ خالَفوا الدَّلِيلَ السَّمعِيَّ والدَّلِيلَ العَقليَّ.

وسُبحان اللهِ! القُرآنُ كلُّه يُشِيرُ إلَى هَذا، كُلُّ الأمْثالَ المَضْرُوبةُ في القُرْآنِ كُلُّها دَلِيلٌ على القِياسِ لا شكَّ، وإلَّا لمْ تَكُنْ فائِدةٌ في المَثَلِ، السُّنَّةُ أيضًا أتَـتْ بالقِياسِ: «أرَأيْتَ لَو كان على أُمِّك دَيْن أكُنتِ قاضِيتِه؟... اقضُوا اللهَ فاللهُ أحَقُّ بالْوَفاءِ»(١).

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب جزاء الصيد، باب الحج والنذور عن الميت، رقم (١٨٥٢)، من حديث ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.

هُم أيْضًا مُخالِفون لِلعَقلِ؛ لِأنَّه لَولا ثُبُوتُ القِياسِ لَكانتِ الشَّريعةُ ناقِصةً، حَيْث لَم تَجمَعْ بيْن المُتماثِلين. إذَن في الآيَةِ إثْبات القِياسِ.

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَةُ: أنَّ الرُّسُلَ أَتوا قَومَهم مِن كُلِّ جانِبٍ، مُقبِلين ومُدبِرين، يُرونَهم الآياتِ الماضِيةِ والآياتِ المُستقبَلةِ، ولكِن لا فائِدةَ.

الْفَائِدَةُ الثَّالِثَةُ: أنَّ الرُّسُلَ صَلَواتُ اللهِ وسَلامُه علَيْهم أَتَوا بتَحقِيقِ التَّوحِيدِ لِقَولِه: ﴿أَلَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّا ٱللَّهَ﴾، وهَذِه هِي الأصْلُ الأصِيلُ الَّذي دَعَت إلَيْه الرُّسُلُ جَمِيعًا، والدَّليلُ على ذَلِك ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِى كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ وَٱجْتَنِبُواْ ٱلطَّـٰغُوتَ﴾ [النَّحل:٣٦]. وآيَةٌ أصْرَح مِنْها: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِىٓ إِلَيْهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَـٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدُونِ﴾ [الأنبياء:٢٥].

الْفَائِدَةُ الرَّابِعَةُ: أنَّ أَهْلَ الباطِلِ يُشبِّهون بما لَيس لَه حَقِيقةٌ، وذَلِك حِين رَدُّوا دَعْوةَ الرُّسُلِ بما لا يَصِحُّ أنْ يَكونَ رَدًّا، فـ﴿قَالُواْ لَوْ شَآءَ رَبُّنَا لَأَنزَلَ مَلَـٰٓئِكَةً﴾، فَهَذه الشُّبهَةُ لَيست بِحُجَّةٍ، بِدَليلِ أنَّ اللهَ عَزَّوَجَلَّ يقولُ في آيَةٍ أُخرَى: ﴿وَلَوْ جَعَلْنَـٰهُ مَلَكًا لَّجَعَلْنَـٰهُ رَجُلًا وَلَلَبَسْنَا عَلَيْهِم مَّا يَلْبِسُونَ﴾ [الأنعام:٩]، وحِينَئذٍ لَو أنْزَلَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ مَلَكًا لَجَعلَه رَجُلًا ولَعادَتِ الشُّبْهةُ.

الْفَائِدَةُ الخَامِسَةُ: شِدَّةُ عِنادِ المُكذِّبين لِصالِحٍ وعادٍ وهُودٍ، ووَجْهُه: أنَّهم حتَّى مَع إثْباتِ الرِّسالةِ لَهُم، فهُم مُصِرُّون على عِنادِهم، وعَدَم إيمانِهم بهَؤُلاء الرُّسُلِ، ووَجْهٌ آخَرَ كَأنَّهم يَقولون لِعِنادِهم: لَو آمَنَّا بكُلِّ شَيءٍ، لم نُؤمِن بما أُرسِلْتم بِه، يَعنِي: بما أُرسِلتُم به خاصَّة، ووَجْه الخُصوصِيَّةِ تَقدِيمُ الجارِّ والمَجْرُورِ على مُتعلَّقه، وأيْضًا مِن مَظاهِر العِنادِ لِهؤُلاء أنَّهم أكَّدُوا كُفرَهم بـ«إنَّ» ﴿فَإِنَّا بِمَآ أُرْسِلْتُم بِهِۦ كَـٰفِرُونَ﴾، فَصارَ

تَأكِيدُهم لِكُفرِهم وعِنادِهم مِن عِدَّة أوجُهٍ:

أوَّلًا: التَّأكِيدُ بـ«إنَّ».

وثانيًا: الحَصْرُ، وذَلِك بتقديمِ ما حقُّه التَّأخيرُ؛ أي: بتقديمِ الجارِّ والمجرورِ على متعلِّقه.

وثالثًا: أنَّهُم أتَوا بِه بالجُملَةِ الاسْمِيَّةِ الدَّالَّةِ على الثُّبوتِ والاِستِمرارِ، بِخِلافِ الفِعلِيَّةِ؛ فهِي دالَّةٌ على الحُدُوثِ وعَدَمِ الاِستِمرارِ.

الْفَائِدَةُ السَّادِسَةُ: أنَّ المُكذِّبين للرُّسُلِ -وهُم كُفَّارٌ- يُؤمِنون بالمَلائِكةِ؛ لِقولِه: ﴿لَأَنزَلَ مَلَـٰٓئِكَةً﴾.

الْفَائِدَةُ السَّابِعَةُ: أنَّ المُقرَّ بالرُّبوبيَّةِ لا يُعتبَر مُؤمِنًا حتَّى يُقِرَّ بالأُلوهيَّةِ؛ لِقَولِهِم: ﴿لَوْ شَآءَ رَبُّنَا لَأَنزَلَ مَلَـٰٓئِكَةً﴾، وهكَذا الكُفَّارُ الَّذِين بُعِثَ فِيهم الرَّسُولُ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ كانوا مُقِرِّين بالرُّبُوبيَّةِ ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ خَلَقَهُنَّ ٱلْعَزِيزُ ٱلْعَلِيمُ﴾ [الزُّخرُف:٩] ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ﴾ [الزخرف:٨٧].

ولكِنَّ الإيمانَ بالرُّبُوبيَّةِ لا يكفِي في كَوْنِ الإنسانِ مُسلمًا، لا بُدَّ مِنَ الإيمانِ بالأُلوهِيَّةِ إضافَةً إلَى الإيْمانِ بالرُّبوبيَّةِ، فهُما مُستَلزِمٌ أحَدُهُما للآخَرِ ومُتضمِّنٌ، المُستلزِمُ للآخَرِ مَن آمَنَ بالرُّبُوبيَّةِ لَزِمَه أنْ يُؤمِنَ بالألُوهيَّةِ، إذَن المُستَلْزَمُ هُو الرَّبُوبيَّةُ، ومَن آمَنَ بالأُلُوهيَّةِ فقَد تضَمَّنَ إيمـانُه بالأُلوهيَّةِ الإيمانَ بالرُّبُوبيَّةِ، فأحَدُهما مُتضمِّنٌ للآخَرِ، والثَّاني مُستلزِمٌ للآخَرِ.

فَإنْ قالَ قائِلٌ: هَلْ قَـولُه: ﴿خَلَقَهُنَّ ٱلْعَزِيزُ ٱلْعَلِيمُ﴾ [الزخرف:٩]، **يَدُلُّ** على أنَّ الكُفَّارَ كانُوا يُوقِّرُون اللهَ في الأَسْماءِ والصِّفاتِ؟

فالجَوابُ: لا، قَد يَكونُ ذَلِك، وقَد يَكونُون أقرُّوا ببَعضِ الأسْماءِ والصِّفاتِ، وهُم يُنكِرُون الرَّحْمَنَ، أيْ: أنَّ البَعْضَ يُثبِتُونها لا شكَّ.

• • ❁ • •

الآيتان (١٥، ١٦)

• قالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿ فَأَمَّا عَادٌ فَٱسْتَكْبَرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَقَالُوا۟ مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً ۖ أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّ ٱللَّهَ ٱلَّذِى خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً ۖ وَكَانُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَا يَجْحَدُونَ ﴿١٥﴾ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِىٓ أَيَّامٍ نَّحِسَاتٍ لِّنُذِيقَهُمْ عَذَابَ ٱلْخِزْىِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَلَعَذَابُ ٱلْـَٔاخِرَةِ أَخْزَىٰ ۖ وَهُمْ لَا يُنصَرُونَ ﴾ [فصلت:١٥-١٦].

لـمَّا ذَكَرَ اللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى أمْرَ النَّبيِّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ أنْ يُنذِرَ قُريشًا بصاعِقةٍ مِثل صاعِقةِ عادٍ وثَمُودَ، بَيَّن ماذا كان مِن عادٍ، وماذا كان مِن ثَمُودَ، قال جَلَّ وَعَلَا: ﴿ فَأَمَّا عَادٌ فَٱسْتَكْبَرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ ﴾.

(أمَّا) أداةُ شَرْطٍ وتَفصِيلٍ؛ أمَّا كَونُها أداةَ شَرْطٍ؛ فَلِأنَّ لها شَرْطًا وجَزاءً؛ ﴿ فَأَمَّا عَادٌ فَٱسْتَكْبَرُوا۟ ﴾، وأمَّا كَونُها أداةَ تَفصِيلٍ؛ فلأنَّها تَأتِي كذلِك في التَّفصِيلِ؛ ﴿ فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ وَٱتَّقَىٰ ﴿٥﴾ وَصَدَّقَ بِٱلْحُسْنَىٰ ﴾ [اللَّيل:٥-٦] ﴿ وَأَمَّا مَنۢ بَخِلَ وَٱسْتَغْنَىٰ ﴿٨﴾ وَكَذَّبَ بِٱلْحُسْنَىٰ ﴾ [اللَّيل:٨-٩]. فَهِي إذَنْ حَرْفُ شَرْطٍ وتَفصِيلٍ.

قَولُه تَعالَى: ﴿ فَأَمَّا عَادٌ فَٱسْتَكْبَرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ ﴾ اسْتكبَروا أيْ أصابَهم الكِبْرُ، وإنَّما أتَتِ السِّينُ والتَّاءُ لِلمُبالَغةِ؛ أيْ: تَكبَّروا تَكبُّرًا عَظِيمًا.

وقَولُه: ﴿ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ ﴾ هَذه لَيستْ صِفةً مُقيِّدةً، ولَكِنَّها صِفةٌ كاشِفةٌ؛ لأنَّ كُلَّ استِكْبارٍ في الأرْضِ فإنَّه بغَيْرِ الحَقِّ، فالِاستِكبارُ لا يَنقَسِمُ إلَى قِسمَين، بل هُو قِسْمٌ

واحِدٌ، فكُلُّ استِكبارٍ فإنَّه بغَيْـرِ حقٍّ، ويُسمَّى مِثْلُ هَذا القَيْدِ صِفةً كاشِفةً؛ أيْ: تَكشِفُ ما سَبَقَ وتُبيِّنُ حقيقَتَه.

فإنْ قالَ قائِلٌ: هَل مِثلُه قَولُه تَعالَى: ﴿وَٱلۡإِثۡمَ وَٱلۡبَغۡيَ بِغَيۡرِ ٱلۡحَقِّ﴾ [الأعراف:٣٣]؟

فالجَوابُ: نَعَم مِثلُها، فهِي صِفَةٌ كاشِفَةٌ.

إذَن: فحَقِيقَةُ الِاستِكبارِ أنَّه بغَيْرِ حقٍّ، والحقُّ ضِـدُّ الباطِلِ، والباطِلُ إمَّا أنْ يَكونَ في الخَبَرِ، وإمَّا أنْ يَكونَ في الطَّلَبِ. فأمَّا الباطِلُ في الخَبَرِ فَأنْ يَكونَ كَذِبًا، وأمَّا الباطِلُ في الحُكم فَأنْ يَكونَ جَوْرًا، وقَولُه تَعالَى: ﴿وَأَنَّ مَا يَدۡعُونَ مِن دُونِهِۦ هُوَ ٱلۡبَٰطِلُ﴾ [الحج:٦٢]، يَشمَلُ الأمْرَيْن؛ يَشْمَلُ دَعْواهم أنَّ هَذه آلِهةٌ وهَذه دَعوَى كاذِبَةٌ، ويَشمَلُ عَمَلَهم لِهذِه الآلِهَةِ، وهُو جَورٌ وظُلمٌ، حَيثُ يَعدِلون المَخلُوقَ بالخالِقِ.

وقولُه: ﴿وَقَالُواْ﴾ يَعنِـي: مِن جُملَةِ ما اسْتَـكبَروا بِه؛ يَقولُ المُفـسِّرُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿وَقَالُواْ﴾ لـمَّا خُوِّفُوا بالعَذابِ ﴿مَنۡ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً﴾، أي: لا أحد]، و﴿مَنۡ﴾ هُنا استِفْهامٌ بمَعنَى النَّفْيِ والإنْكارِ.

وقَدْ كرَّرْنا مِرارًا أنَّ الِاسْتِفهامَ إذا كان بمَعنَى الإنْكارِ والنَّفيِ صارَ أبْلَغَ مِن النَّفيِ المُجرَّدِ؛ لأنَّه يَتضمَّنُ التَّحدِّيَ.

﴿مَنۡ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً﴾ ﴿مَنۡ﴾ اسْمُ استِفْهامٍ مُبتَدأٌ، و﴿أَشَدُّ﴾ خَبَرُ مُبتَدأٍ، و﴿قُوَّةً﴾ تَمييزٌ لـ﴿أَشَدُّ﴾، ومِنَ الضَّوابِطِ الغالِبةِ: أنَّه إذا أتَى الِاسْمُ مَنصُوبًا بَعْدَ اسْمِ التَّفضِيلِ كان تَمييزًا.

يَقولُ المُفَسِّرُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿مَنۡ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً﴾؛ أي: لا أحَدَ]، ثُمَّ ذَكَرَ المُفَسِّرُ نَمُوذَجًا مِن قُوَّتِهم، فقال: [كان واحِدُهم يَقلَعُ الصَّخْرةَ العَظِيمةَ مِن الجَبَلِ يَجعَلُها حَيثُ

يَشاءُ]، وهَذا المِثالُ قَد يكونُ حَقًّا وقَد يَكونُ إسْرائِيليًّا؛ لأنَّه مِنَ المَعْرُوفِ أنَّ عادًا كانُوا يَعمَلُون بالنَّحت، وإذا ثَبَتَ فيمكِن أنْ يَحمِلُوا الجَبَلَ؛ ﴿وَٱذْكُرْ أَخَا عَادٍ إِذْ أَنذَرَ قَوْمَهُۥ بِٱلْأَحْقَافِ﴾ [الأحقاف:٢١]، والمَعرُوف أنَّ الأحْقافَ كُلُّها جِبالٌ رَملِيَّةٌ.

لَكِن سَواءٌ صَحَّ هَذا المِثالُ أوْ لَمْ يَصِحَّ، فإنَّهم كانوا -بلا شكٍّ- أقوِياءَ أشِدَّاءَ.

﴿وَقَالُوا۟ مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً﴾ قال اللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ رادًّا عَلَيهم: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا۟﴾، يقولُ المُفَسِّرُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: أيْ: [يعلَموا ﴿أَنَّ ٱللَّهَ ٱلَّذِى خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً﴾]، وَهَذا تَقرِيرٌ لِكَونِ اللهِ تَعالَى هُو أشَدَّ مِنْهُم قُوَّةً.

قال تَعالَى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّ ٱللَّهَ ٱلَّذِى خَلَقَهُمْ﴾ ولَمْ يَقُلْ: (إنَّ اللهَ أشَدُّ)، بلْ قالَ: ﴿خَلَقَهُمْ﴾؛ لِيُبيِّن ضَعفَهم، وأنَّهم مَخلُوقُون، وأنَّ الخالِقَ سَوفَ يَكونُ أقْوى مِنهم، فالَّذِي خَلَقهم أشَدُّ مِنْهُم قُوَّةً؛ لِأنَّه هُو الَّذي أعْطاهم القُوَّةَ، ومُعْطِي الكَمالَ أوْلَى به، وهَذه هِي الحِكمَةُ مِن كَونِه تَعالَى قال: ﴿أَنَّ ٱللَّهَ ٱلَّذِى خَلَقَهُمْ﴾، ولَم يَقُل: أولَم يَعلَموا أنَّ اللهَ الَّذي خَلَقَ السَّمواتِ والأرْضَ، أوْ أنَّ اللهَ هُو أشَدُّ مِنْهم قُوَّةً لِيُبيِّن ضَعفَهم وأنَّهم مَخلُوقُون ضُعفاءُ.

قال اللهُ تَعالَى: ﴿وَكَانُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا يَجْحَدُونَ﴾، قَولُه: ﴿وَكَانُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا يَجْحَدُونَ﴾ مَعطُوفةٌ على قَولِه: ﴿فَٱسْتَكْبَرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ﴾.

يَقولُ المُفسِّرُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿بِـَٔايَٰتِنَا﴾ المُعجِزات ﴿يَجْحَدُونَ﴾] يَعنِي يُكذِّبون؛ لأنَّ الجَحْدَ هُو التَّكذِيبُ والإنْكارُ، لا سيَّما وهُو مُعدًّى بالباءِ الدَّالَّةِ على ذلِك. وقَولُ المُفسِرِ: [﴿بِـَٔايَٰتِنَا﴾ المُعجِزات] فِيه نَظَرٌ؛ لأنَّ الآياتِ هِي العَلاماتُ والدَّلالاتُ على الخالِقِ عَزَّوَجَلَّ ولَيْست مُعجِزاتٍ.

وقد ذكَرنا أنَّ المُعجزاتِ تَأتِي آياتٌ، وتَأتِي مِن الشَّياطِينِ بِواسِطةِ السَّحَرةِ وغَيْرِ ذلِك، لكِن إذا قُلْنا: «آياتٍ» صار معناها علاماتٌ دالَّةٌ على الحَقِّ.

يَقولُ المُفَسِّرُ رَحِمَهُ اللَّهُ: [﴿فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا﴾، بارِدةٌ شَديدَةُ الصَّوْتِ بِلا مَطَرٍ].

قَولُه تَعالَى: ﴿رِيحًا صَرْصَرًا﴾، ﴿رِيحًا﴾ هُنا نكِرةٌ يُرادُ بِها التَّعظِيمُ؛ أيْ: رِيحٌ عَظِيمةٌ صَرْصرٌ شَدِيدَةُ الصَّوْتِ، تَسْمَعُ لها صَوتًا كالرَّعدِ مْن شِدَّتِها وشِدَّةِ اصْطِدامِها بالهَواءِ والأشْجارِ والأحْجارِ والبُيوتِ.

وقَولُ المُفَسِّرِ: [بِلا مَطرٍ] الظَّاهِرُ أنَّها لا يَدُلُّ علَيْها السِّياقُ المَوجُودُ الآنَ، المَوجُودُ في هَذه الآيَةِ لا يدُلُّ على أنَّها بِلا مَطرٍ -فِيما ظَهَر لِي- لَكِنَّه قَدْ دَلَّ علَيْه قَولُه تَعالَى: ﴿وَفِي عَادٍ إِذْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الرِّيحَ الْعَقِيمَ﴾ [الذَّاريات:٤١]، يَعنِي: الَّتي لَيسَ فيها مَطرٌ؛ لأنَّ المَطرَ مِن أسْبابِ الرِّياحِ، يُرسِلُها اللهُ تَعالَى ﴿فَتُثِيرُ سَحَابًا فَيَبْسُطُهُ فِي السَّمَاءِ كَيْفَ يَشَاءُ وَيَجْعَلُهُ كِسَفًا فَتَرَى الْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَالِهِ﴾ [الرُّوم:٤٨]، لَكِنَّ رِيحَ عادٍ لَيسَ فِيها ذَلِك.

يَقولُ المُفَسِّر رَحِمَهُ اللَّهُ: [﴿فِي أَيَّامٍ نَحِسَاتٍ﴾ بِكَسر الحاءِ وسُكُونِها، مَشؤُوماتٌ عَلَيهِم].

قَولُه تَعالَى: ﴿فِي أَيَّامٍ﴾ هَذِه الأيَّامُ بيَّن اللهُ قَدْرَها في آياتٍ أُخرَى في قَولِه: ﴿سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَانِيَةَ أَيَّامٍ حُسُومًا﴾ [الحاقَّة:٧]، ابْتدَأت بِالفَجْرِ، وانْتَهت بِه أو بِالغُرُوب. ابْتدَأتْ بِالفَجرِ، فانْظُرْ: الأوَّلُ والثَّاني والثَّالثُ والرَّابعُ والخامِسُ والسَّادِسُ والسَّابعُ، سَبْعُ لَيالٍ وثَمانيةُ أيَّامٍ تَنتَهي بالغُرُوبِ، وسَبْعُ لَيالٍ؛ لِأنَّ اللَّيلَةَ الأُولَى حُذِفَت.

فإِنْ قالَ قائِلٌ: قَولُ اللهِ عَزَّوَجَلَّ: ﴿فِىٓ أَيَّامٍ نَّحِسَاتٍ﴾ فِيه إضافَةُ النَّحْسِ إلَى الأَيَّامِ؟

فالجَوابُ: لا بَأْس بِه، كَما قال لُوطٌ عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ: ﴿هَٰذَا يَوْمٌ عَصِيبٌ﴾ [هُود:٧٧]، وَهَذا إذا كان المُرادُ بِه مُجَرَّدُ الخَبَرِ، كَما هُنا، وأَمَّا إذا كان المُرادُ بِه العَيْبَ والسَّبَّ فإِنَّه لا يَجُوزُ. فَإِذَن يَكونُ هَذا السَّبُّ أوِ العَيْبُ إمَّا أنْ يَكونَ على سَبِيلِ الإِخْبارِ أو على سَبِيلِ السَّبِّ، على الأَوَّلِ جائِزٌ وعلى الثَّاني غَيْرُ جائِزٍ.

نَظِيرُ ذلِك: إِخْبارُ المَرِيضِ بما يَجِدُ، فأَحْيانًا يَسْأَلُه الصَّاحِبُ: كَيف أَنْتَ البارِحةَ؟ فَيَتَشكى ويَقولُ: واللهِ ما نِمْتُ البارِحةَ؛ آلامٌ في الرَّأسِ، في الرَّقبةِ، في الظَّهْرِ، في البَطْنِ، في الرِّجلَيْن، هَذا إذا قالَه على سَبِيلِ التَّشَكِّي فَلا يَجُوزُ؛ لأَنَّه يُنافي الصَّبْرَ، وإذا قالَه على سَبيلِ الإِخْبارِ فَلا بَأسَ بِه؛ ولِهَذا بَعْضُ المَرضَى يُقدمُ فَيَقولُ إخْبارًا لا شَكوى: حَصَلَ لِي كَذا وكَذا.

يَقولُ المُفَسِّرُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿لِّنُذِيقَهُمْ عَذَابَ ٱلْخِزْىِ﴾ الذُّلِّ ﴿فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾]، اللَّام لِلعاقِبةِ، ويَحتَمِلُ أنْ تَكون للتَّعلِيلِ وكِلاهُما صَحِيحٌ، فإِنَّ اللهَ تَعالى أَرْسَل علَيْهِمُ الرِّيحَ العَقِيمَ لِهَذا الغَرَضِ، أَوْ أَرْسَلَ علَيهِمُ الرِّيحَ العَقِيمَ حتَّى كانَتْ عاقِبَتُهم أنْ ذاقُوا ﴿عَذَابَ ٱلْخِزْىِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾؛ يَعنِي: هَذه الحَياةُ الَّتي نَحياها، وسُمِّيَتْ دُنيا لِوَجهَيْن:

الوَجْهُ الأَوَّل: لدَناءَتِها وحَقارَتِها بالنِّسْبَةِ للآخِرَةِ؛ لأَنَّ مَوضِعَ سَوْطِ الإِنْسانِ في الجَنَّةِ خيْرٌ مِن الدُّنْيا وما فِيها؛ ولِأَنَّها أَيْضًا دُنْيا مُنَغِّصةٌ لا تَكادُ يَمُرُّ بِكَ الشَّهْرُ إِلَّا وقَد وَجَدتَ تَنْغِيصًا، بَلْ أَقَلَّ مِن ذَلِك، كَما قال الشَّاعِرُ(١):

(١) البيت للنمر بن تولب، انظر: الكتاب لسيبويه (١/ ٨٦)، وشرح الكافية الشافية لابن مالك (١/ ٣٤٦).

فَيَــومٌ عَلَينــا ويَــوْمٌ لَنــا ويَــوْم نُســاءُ ويَــوْم نُسَــرُّ

الوَجْهُ الثَّانِي: لدُنُوِّها لأنَّها سابِقَة للآخِرَةِ فهِي أدْنَى إِلَى المَخْلُوقاتِ مِن الآخِرَةِ، كما قال تَعالَى: ﴿قُطُوفُهَا دَانِيَةٌ﴾ [الحاقة:٢٣]؛ أي قَرِيبَةٌ.

يَقولُ المُفَسِّرُ رَحِمَهُ اللَّهُ: [﴿وَلَعَذَابُ ٱلْآخِرَةِ أَخْزَىٰ﴾ أشَدّ ﴿وَهُمْ لَا يُنصَرُونَ﴾، بِمَنْعه عَنْهم]، اللَّام في قَولِه: ﴿وَلَعَذَابُ ٱلْآخِرَةِ﴾ يُسمُّونها لامَ الابْتِداءِ وهِي للتَّوكِيدِ؛ ولِذلِك إذا جاءَتْ (إنَّ) تُزَحْلِقُ اللَّامَ فتؤَخَّرُ عَن مَكانِها وتَكونُ في المُتأخِّرِ مِن اسْمِ (إنَّ) أوْ لِخَبَرِها، وإنَّما زَحلَقْناها لِئَلَّا يَجْتَمِعَ في أوَّلِ الكَلامِ مُؤكِّدان مُتَوالِيان؛ ولِهَذا نَقولُ: إنَّ اللامَ في قَولِه: ﴿وَلَعَذَابُ﴾ هِي لامُ الإبْتِداءِ وتُفِيدُ التَّوكِيدَ، ويَدُلُّ هَذا على أنَّها مَع (إنَّ) تُزَحْلَق حتَّى تَبْعُد عَنْها.

قال اللهُ تَعالَى: ﴿وَلَعَذَابُ ٱلْآخِرَةِ أَخْزَىٰ﴾ يَعنِي: أشَدَّ خِزْيًا والعِياذُ باللهِ؛ لِأنَّ عَذابَ الدُّنْيا لا يَسْمَعُ به مَن سَبَقَ، ولا يَراه مَن لَحِقَ، لا يَسْمَعُ بِه مَن سَبَقَ؛ لِأنَّه جاء بَعْدَهم، فالقَوْمُ الَّذِين قَبْلَ عادٍ ما عَلِموا بذَلِك، والقَوْم الَّذِين بَعْدَهم ما رَأَوْه، سَمِعوا بِه ولَم يَرَوه، لَكِن في الآخِرَةِ سَماعٌ ورُؤيَةٌ والعِياذُ باللهِ، الَّذي يُعَذَّب في الآخِرَةِ سَماعًا ورُؤيَةً يَسمَعُه كُلُّ أحَدٍ؛ السَّابِقُ واللَّاحِقُ، ولِهَذا قال: ﴿أَخْزَىٰ﴾، ثُمَّ هُو أيْضًا ﴿أَشَدُّ﴾ كَما قال تَعالَى في آيَةٍ أُخْرَى: ﴿وَلَعَذَابُ ٱلْآخِرَةِ أَشَدُّ وَأَبْقَىٰٓ﴾ [طه:١٢٧] أشَدُّ وأعْظَمُ مِن عَذابِ النَّارِ، أعاذَنا اللهُ وَإِيَّاكم مِنْها.

قالَ اللهُ تَعالَى: ﴿وَهُمْ لَا يُنصَرُونَ﴾، هَذِه استِئْنافِيَّةٌ يَعنِي: إنَّهم في الآخِرَةِ لا أحَدَ يَنْصُرُهم، فِفِي الدُّنيا رُبَّما يُنصَرُ الإنْسانُ مِن العَذابِ بِدَفْعِه قَبْل وُقُوعِه أوْ رَفْعِه بَعْد وُقُوعِه، لَكِن في الآخِرَةِ لا ناصِرَ.

مِنْ فوائِدِ الآيَتينِ الكَرِيمتينِ:

الْفَائِدَةُ الأُولَى: بَيانُ عِظَمِ استِكْبارِ هَؤلاء المُكذِّبين لنَبيِّهم، أعْني: عادًا؛ لِقَولِه: ﴿فَٱسْتَكْبَرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَقَالُوا۟ مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً﴾.

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَةُ: بَيانُ طُغيانِ الإنْسانِ وأنَّ الإنْسانَ لا حَدَّ لِطُغيانِه؛ لأنَّ وُصولَه إلَى هَذِه الدَّرَجةِ ﴿مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً﴾ يَدُلُّ على الطُّغيانِ العَظِيمِ والكِبْرِياءِ.

الْفَائِدَةُ الثَّالِثَةُ: حِكْمَةُ اللهِ عَزَّوَجَلَّ بأخْذِهم بِالعَذابِ؛ حَيْثُ أُخِذوا بِما هُو أَلْطَفُ الأشْياءِ وَهُو الرِّيحُ، الرِّيحُ اللَّطِيفةُ الَّتي يَكونُ بِها إنْعاشُ البَدَنِ وتَقْوِيَتُه ونَشاطُه، هِي الَّتي أُهْلَكَ بِها عادًا؛ لِأنَّهم قالُوا: ﴿مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً﴾، وانْظُر إلَى فِرعَونَ حِينَ قال: ﴿أَلَيْسَ لِى مُلْكُ مِصْرَ وَهَٰذِهِ ٱلْأَنْهَٰرُ تَجْرِى مِن تَحْتِىٓ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ۝٥١ أَمْ أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْ هَٰذَا ٱلَّذِى هُوَ مَهِينٌ وَلَا يَكَادُ يُبِينُ﴾ [الزُّخرُف:٥١-٥٢]، عُذِّبَ بِالماءِ الَّذي كان بالأمْسِ يَفْتَخِرُ به.

الْفَائِدَةُ الرَّابِعَةُ: بَلاغَةُ القُرآنِ في الإقْناعِ وإقامَةِ الحُجَّةِ؛ لقَوْلِه: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّ ٱللَّهَ ٱلَّذِى خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً﴾، وجْهُ ذلِك أنَّه قال: ﴿ٱلَّذِى خَلَقَهُمْ﴾.

الْفَائِدَةُ الخَامِسَةُ: جَوازُ عَقْدِ المُفاضَلَةِ بَيْن الخالِقِ والمَخْلوقِ؛ لِقَولِه: ﴿أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً﴾ مَع أنَّه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ أشَدُّ مِن كُلِّ أحدٍ، لَكِن المَقامَ مَقامُ مُحاجَّةٍ، ومَقامُ المُحاجَّةِ لا بَأس أنْ تُذْكرَ فِيه المُفاضَلةُ بيْن المُفَضَّلِ والمُفَضَّلِ عَلَيه، ونَظِيرُ هَذا -بلْ أبْلَغ مِنه- قَولُ اللهِ تَعالَى: ﴿ءَآللَّهُ خَيْرٌ أَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [النمل:٥٩]، لَيس في أصْنامِهم خَيرٌ، لَكِنَّ هَذا مِن بابِ المُحاجَّةِ، وأنَّ الإنْسانَ يُحاجُّ الخَصْمَ بِما يُقِرُّ به.

يَتفرَّعُ على هذا مِن الفوائِدِ: خطأُ مَن يُفسِّرُ قَولَ اللهِ تَعالى: ﴿ٱللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُۥ﴾ [الأنعام:١٢٤] ﴿وَرَبُّكَ أَعْلَمُ بِمَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [الإسراء:٥٥]

﴿وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ﴾ [النحل:١٢٥] وما أَشْبهَ ذلك؛ حيثُ يُفسِّر أعلمَ بعالم -كالجلالَين رَحِمَهُمَاٱللَّهُ- هذا خَطأٌ عَظيمٌ وتَحريفٌ لِلقُرآنِ، أَعْلَمُ أبلغُ من عالمٍ؛ لأنَّ أَعْلمَ يَمنعُ المُشاركَةَ، وعالِمٍ لا يَمنعُ المُشاركَةَ، تَقولُ: فُلانٌ عالمٌ، وفُلانٌ عالمٌ، وفُلانٌ عالمٌ، لكن إذا قُلتَ: فُلانٌ أَعلمُ، معناها أنَّه لا يُساويه أحدٌ في دَرجتِه، فتَفسيرُ أَعلم بعالمٍ لا شكَّ أنَّه تَحريفٌ للقُرآنِ وقُصورٌ عَظيمٌ.

الْفَائِدَةُ السَّادِسَةُ: بَيانُ أنَّ هؤلاءِ المُكذِّبين لهُودَ عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ وهم عادٌ جَمَعوا بينَ الأمرَينِ، جَمَعوا بين الاستِكبارِ وبَينَ التَّكذيبِ، الاسْتِكْبارُ في قولِه: ﴿فَٱسْتَكْبَرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ [فُصِّلَت:١٥]، والتَّكذيبُ في قولِه: ﴿وَكَانُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا يَجْحَدُونَ﴾ [فُصِّلَت:١٥].

الْفَائِدَةُ السَّابِعَةُ: أنَّ اللهَ عَزَّوَجَلَّ أَرسَلَ الرُّسلَ بالآياتِ وأَقامَ البيِّناتِ والبَراهينَ على أنَّه الحقُّ، وأنَّ رَسولَه حقٌّ؛ لقولِه: ﴿بِـَٔايَٰتِنَا﴾.

الْفَائِدَةُ الثَّامِنَةُ: أنَّ الرِّياحَ تَجري بأَمرِ اللهِ؛ لقولِه: ﴿فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا﴾[فُصِّلَت:١٦]، ولا شكَّ أنَّ كلَّ شَيءٍ يَجري بأَمْرِ اللهِ، حتَّى أَفعالُ البَشرِ تكونُ بأَمْر اللهِ عَزَّوَجَلَّ كما هو مَذهَبُ أهلِ السُّنَّةِ والجَماعَةِ، فكُلُّ شيءٍ يَسيرُ بأَمْرِ اللهِ عَزَّوَجَلَّ الرِّياحُ السَّحابُ البِحارُ الأنْهارُ، كُلُّها تَجْري بأمرِ اللهِ عَزَّوَجَلَّ.

الْفَائِدَةُ التَّاسِعَةُ: بَيانُ حال هـذه الرِّيحِ الَّتي أَهلكَ اللهُ بها عادًا، وأنَّها ريحٌ صَرْصَرٌ شَديدةٌ، وفي آياتٍ أُخرَى ما يَدُلُّ على أنَّها ليس فيها مَطَرٌ وليس فيها خَيرٌ، بل هي عَقيمَةٌ مِن الخَيرِ كُلِّه.

الْفَائِدَةُ الْعَاشِرَةُ: حِكمَةُ اللهِ عَزَّوَجَلَّ في مُجازاةِ مَن يستَحِقُّ الجَزاءَ؛ حيثُ يُجازَى بمِثلِ عَملِه، ولـهذا يَقولُ العُلماءُ: الجَـزاءُ مِن جِنسِ العَمَلِ، ووَجهُ ذلك أنَّ اللهَ

أَرسلَ على هَؤلاءِ المستكبِرين الَّذين يَقولون مَن أَشَدُّ منَّا قُوَّةً الرِّيحَ اللَّيِّنة الهَيِّنَةَ، ومن حِكمةِ اللهَ عَزَّوَجَلَّ في هذا العَذابِ أنَّها لم تَكُنْ تَجرُفُهم في آنٍ واحدٍ، بل سُلِّطت عليهم سبعَ لَيالٍ وثَمانيَةَ أيَّامٍ؛ لِيَكونَ هذا أَشَدَّ في استِمْرارِ العُقوبَةِ؛ لأنَّ الإنْسانَ المُعاقَبَ لو عوقِبَ بما يُهلِكُه فورًا لكان ينتهي من العُقوبَةِ، لَكِنْ إذا كانت العُقوبَةُ تأتي عليه في ساعاتٍ أو أيَّامٍ صار هذا أَشَدَّ.

الْفَائِدَةُ الحَادِيَةَ عَشْرَةَ: بَيانُ أنَّ أفعالَ اللهِ تَعالَى مَقرونَةٌ بالحِكمةِ؛ لقوله: ﴿لِّنُذِيقَهُمْ﴾ [فُصِّلَت:١٦]، وهذا مَذهبُ أهلِ السُّنَّة والجماعَةِ: أنَّ أفعَالَ اللهِ تَعالَى مَقرونَةٌ بالحِكمةِ، وأنَّ شرعَه مَقرونٌ بالحِكمةِ، فكُلُّ ما شَرَعه أو قدَّرَه، فإنَّه لِحِكمةٍ، منها ما هو مَعلومٌ، ومنها ما ليس بمَعلوم، مِثْلَ: الصَّلواتِ الخَمسِ ما نعلمُ الحِكمَةَ في أنَّها خَمسٌ؛ لأنَّ عُقولَنا قاصِرةٌ، لكنَّنا نعلمُ أنَّ اللهَ لا يَفعلُ شيئًا إلَّا لِحِكمةٍ، ولهذا كان جَوابُ عائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا لمُعاذَةَ أن قالت: «**كان يُصيبُنا ذلك فنُؤمَرُ بقضاءِ الصَّومِ ولا نُؤمَرُ بقضاءِ الصَّلاةِ**»[1] يعني: وإذا كان الأَمرُ كذلك نُؤمَرُ بقَضاءِ هذا دون هذا فهذا لا بُدَّ أن يَكونَ لِحِكْمةٍ.

ومن عُلماءِ الأُمَّة وفِرَقِها مَن يَقولُ: إنَّ أفعالَ اللهِ لا تُعَلَّلُ، ليس لها حِكمةٌ، وشَرْعَه ليس له حِكمَةٌ، يُفعلُ لمجرَّدِ المَشيئَةِ، يُحكَمُ بالشَّرعِ لمُجرَّد المَشيئَةِ، وهؤلاء لا شكَّ أنَّهم وَصَفوا اللهَ بالنَّقصِ والسَّفَهِ، وقد أَنكَرَ اللهُ على ذلك بقولِه تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَآءَ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَٰطِلًا ۚ ذَٰلِكَ ظَنُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ۚ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنَ ٱلنَّارِ﴾ [ص:٢٧] وقال: ﴿وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَٰعِبِينَ﴾[الدخان:٣٨] وقال: ﴿أَفَحَسِبْتُمْ

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب الحيض، باب لا تقضي الحائض الصلاة، رقم (٣٢١)، ومسلم: كتاب الحيض، باب وجوب قضاء الصوم على الحائض دون الصلاة، رقم (٣٣٥).

أَنَّمَا خَلَقْنَٰكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ﴾[المؤمنون:١١٥]، والآياتُ في هذا كَثيرةٌ، وكُلُّ آيةٍ فيها لامُ التَّعليلِ فإنَّها تَدُلُّ على الحِكمةِ.

وآخَرونَ عَكَسوا وقالوا: إنَّ أفعالَ اللهِ مُعلَّلةٌ بحِكمةٍ، وأنَّه يَجبُ عليه أن يَفعلَ ما تَقتَضيه الحِكمةُ، وأن يُشرِّعَ ما تقتَضيه الحِكمَةُ، وهؤلاء أصابوا مِن وَجهٍ وأَخطَؤوا مِن وَجهٍ، فإنْ أَرادوا بذلك أنَّنا نُوجبُ على اللهِ أن يَفعلَ ما تَقتَضي عُقولُنا أنَّه الحِكمةُ فهذا غَلطٌ، وإنْ أرادوا أنَّ اللهَ أَوجَبَ على نَفسِه أن يَفعلَ ما بِه الحِكمةُ؛ لأنَّه حَكيمٌ، فهذا صَحيحٌ.

ونحنُ لا نشكُّ أنَّ الحكمَةَ هي مُرادُ اللهِ عَزَّوَجَلَّ وأنَّه لا يَفعلُ شيئًا ولا يَحكُمُ شيئًا إلَّا لِحِكمَةٍ، لكن هل نحنُ الَّذين نُقدِّر الحكمةَ ثمَّ نُوجبُ على اللهِ أن يَفعلَ؟ هذا هو الخَطأُ.

فالثَّاني هذا مَذهَبُ المُعتزِلَة، والأَوَّل مَذهبُ الأشاعِرَةِ وأَتْباعِهم.

والصَّوابُ الوَسَطُ، ودائمًا خيرُ الأُمورِ الوَسَطُ، وهو أنَّ اللهَ يَجِبُ عليه أن يَفعلَ لإيجابِه على نفسِه الحِكمَةَ؛ لأنَّه نفى أن يَكونَ فعلُه عبثًا أو لَعِبًا أو باطلًا، وهذا يَقتَضي أنَّه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ يَفعلُ الأَشْياءَ لِحِكمَةٍ، لكنَّنا لَسنا نَحنُ الَّذينَ نوجبُها على اللهِ.

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَةَ عَشْرَةَ: أنَّ عذابَ الآخِرَةِ أَشدُّ من عَذابِ الدُّنيا؛ لقولِهِ: ﴿لِّنُذِيقَهُمْ عَذَابَ ٱلْخِزْيِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾.

الْفَائِدَةُ الثَّالِثَةَ عَشْرَةَ: أنَّ الكافِرَ يُعاقَبُ بالعُقوبتَينِ: عُقوبَةِ الدُّنيا وعُقوبَةِ الآخِرَةِ؛ لقولِه: ﴿لِّنُذِيقَهُمْ عَذَابَ ٱلْخِزْيِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَلَعَذَابُ ٱلْـَٔاخِرَةِ أَخْزَىٰ﴾. أَمَّا المُؤمنُ فإنَّ اللهَ تَعالَى لا يَجمعُ عليه عُقوبتَينِ، إذا عوقِبَ بالذَّنبِ في الدُّنيا لم يُعاقَبْ به في الْآخِرَةِ؛

لقولِه تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ: ﴿ وَمَآ أَصَٰبَكُم مِّن مُّصِيبَةٖ فَبِمَا كَسَبَتۡ أَيۡدِيكُمۡ وَيَعۡفُواْ عَن كَثِيرٖ ﴾ [الشورى:٣٠]؛ ولأنَّ النَّبيَّ -صلَّى اللهُ عليه وعلَى آلِه وسلَّم- «أَخبَرَ أنَّ مَن أتى شيئًا مِن هذه القَاذوراتِ -يَعني المَعاصي-، فعوقِبَ به في الدُّنيا لَمْ يُعذَّبْ به في الْآخرَةِ»(١)، فالمُؤمنُ إذا عوقِبَ في الدُّنيا على عَمَلِه لَمْ يُعاقَبْ في الآخِرَةِ، والكافر يُعاقَبُ بهذا وهذا.

وانظُرْ إلى قولِه تَعالَى: ﴿وَٱلَّذِينَ لَا يَدۡعُونَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ وَلَا يَقۡتُلُونَ ٱلنَّفۡسَ ٱلَّتِي حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلۡحَقِّ وَلَا يَزۡنُونَۚ وَمَن يَفۡعَلۡ ذَٰلِكَ يَلۡقَ أَثَامٗا ﴿٦٨﴾ يُضَٰعَفۡ لَهُ ٱلۡعَذَابُ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ﴾ [الفرقان:٦٨-٦٩] حيثُ قال: ﴿ يُضَٰعَفۡ لَهُ ٱلۡعَذَابُ ﴾ فإمَّا أنْ يَكونَ المُرادُ أنَّ عَذابَ الآخِرَةِ أَشدُّ فيَكونُ بالنِّسبَةِ لشِدَّتِه مُضاعفًا، وإمَّا أنْ يَكونَ هو الجَمعُ له بَينَ عَذابِ الدُّنيا وعَذابِ الآخِرَةِ.

وقولُنا: «إنَّه يَجمعُ له بَينَ عَذابينِ» ليس مَعْناه أنَّه حتميٌّ، لكن نَقولُ: إنَّه إذا عُذِّب بذَنْبِه في الدُّنيا لم يَسلَمْ من تَعذيبِه به في الآخِرَةِ، حتَّى لا يَرِدُ علينا أنَّ الكُفَّار الآنَ يَموتون وهم في غايةِ ما يَكونُ من السُّرورِ والعافيةِ والأَمْوالِ والأَولادِ ولم يَجِدوا عذابًا، والمَعنى أنَّهم لم يَجِدوا عذابًا يُشاهدُ لكنَّ العَذابَ القَلبيَّ عندهُمْ لا شكَّ أنَّه مَوجودٌ، فأَشَدُّ النَّاس عذابًا قَلبيًّا وقلقًا هم الكُفَّار، وكلَّما كان الإنسانُ أَعْصى لربِّه كان أَشدَّ قلقًا وأقلَّ راحةً، وكُلَّما كان أَشدَّ إيمانًا وعملًا صالحًا كان أَشدَّ طُمأنينَةً.

واستمعْ إلى قَولِه تعالى: ﴿ مَنۡ عَمِلَ صَٰلِحٗا مِّن ذَكَرٍ أَوۡ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤۡمِنٞ فَلَنُحۡيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةٗ طَيِّبَةٗۖ وَلَنَجۡزِيَنَّهُمۡ أَجۡرَهُم بِأَحۡسَنِ مَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ﴾[النحل:٩٧] ولم يَقُلْ عَزَّوَجَلَّ:

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب مناقب الأنصار، باب وفود الأنصار إلى النبي ﷺ بمكة، رقم (٣٨٩٢)، ومسلم: كتاب الحدود، باب الحدود كفارات لأهلها، رقم (١٧٠٩)، من حديث عبادة بن الصامت رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

لنُعطينَّهم مالًا كثيرًا، لا لنُحيينَّه حياةً طيِّبةً ولو كان فقيرًا، فتَجِدُ حياتَه طيِّبةً مُطمئِنَّ البالِ مستريحًا لا يَهتمُّ بشيءٍ إلَّا بما يُرضي اللهَ عَزَّوَجَلَّ.

فإنْ قال قائلٌ: هل مُعاقَبَةُ المُؤمنِ على الذَّنْبِ في الدُّنيا دون الآخِرَةِ يَشملُ حتَّى ولو لم يَتُبْ فعوقِبَ وهو مُصِرٌّ على ذَنْبِه كالزَّاني مَثلًا؟

فالجَوابُ: نَعَمْ، لأنَّه إذا تاب فلا يُعاقَبُ لا في الدُّنيا ولا في الآخِرَةِ.

وإن قيل: أليس التَّائبُ مِن الذَّنْب كمَنْ لا ذَنْبَ له، عَكْسُها أنَّه كَمَنْ عليه ذَنْبٌ، يعني ما استفاد مِن هذه العُقوبَةِ وما ارتدع؟

فالجَوابُ: أنَّه إذا عوقِبَ مُحِيَ عنه إثْمُ ما سَبَقَ؛ لأنَّه أَخَذَ جزاءَه وانتهى، لكن قد يُؤَخَّرُ له العَذابُ إلى يوم القيامة، ولهذا إذا أَحَبَّ اللهُ قومًا عجَّل لهم العُقوبَةَ في الدُّنيا حتَّى لا يُخزَونَ بها يومَ القيامَةِ.

وإن قيل: لو عوقب الآنَ ثُمَّ مات مُباشرةً قبل أن يَفعلَ الذَّنبَ الآخَرَ هل يُعاقبُ بنِيَّةِ عدمِ التَّوبَةِ؟

فالجَوابُ: إنِ استمرَّت النِّيَّةُ بعدَ العُقوبَةِ، فهذا رُبَّما يُعاقَبُ على نِيَّته لا على فعله.

وإن قيل: الَّذي يُعاقَبُ في نيَّته هل يُعاقَبُ إذا لم يُباشِرِ الفِعلَ؟

فالجَوابُ: لا، العِقابُ على النِّيَّة إذا نوى الإنسانُ فِعْلَ المَعصيَةِ، إمَّا أن يُدافِعَ هذهِ النِّيَّةَ ويَدَعُ المَعصيَةَ لله عَزَّوَجَلَّ فهذا يُثابُ، وإمَّا أن يستمرَّ على نِيَّته ويَعزِمُ ولكنَّه يَعجَزُ فهذا يُعاقَبُ على نِيَّتِهِ.

وإنْ قال قائلٌ: هل عَذابُ القبرِ مُتَّصِلٌ إلى يوم القِيامَةِ؟

فالجَوابُ: عَذابُ القَبرِ بالنِّسبَةِ للمُؤمنِ قد يَنقطِعُ، فيُعذَّبُ بقَدْرِ ذُنوبِه ثُمَّ يَنقطِعُ، وبالنِّسبَةِ للكافِرِ فإِنَّ الظَّاهرَ استمرارُهُ.

الْفَائِدَةُ الرَّابِعَةَ عَشْرَةَ: أنَّه لا ناصِرَ للمُعذَّبين يومَ القيامَةِ؛ لقولِه: ﴿وَهُمْ لَا يُنصَرُونَ﴾ وهذه لها شواهِدُ، ومنها قولُه تعالى: ﴿يَوْمَ تُبْلَى ٱلسَّرَآئِرُ ۝٩ فَمَا لَهُۥ مِن قُوَّةٍ وَلَا نَاصِرٍ﴾ [الطارق:٩-١٠]، وكذلك هم يُقرُّون: ﴿فَمَا لَنَا مِن شَٰفِعِينَ ۝١٠٠ وَلَا صَدِيقٍ حَمِيمٍ﴾ [الشعراء:١٠٠-١٠١]، ثم قال: ﴿وَهُمْ لَا يُنصَرُونَ﴾.

• • ❁ • •

الآية (١٧)

• ● ∞ ● •

قالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَاهُمْ فَاسْتَحَبُّوا الْعَمَىٰ عَلَى الْهُدَىٰ فَأَخَذَتْهُمْ صَاعِقَةُ الْعَذَابِ الْهُونِ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ [فصلت:١٧].

• ● ∞ ● •

أمَّا التَّقسيمُ الثَّاني فقال: ﴿وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَاهُمْ﴾ بيَّنَّا لهم طَريقَ الهُدى.

﴿ثَمُودُ﴾ بِلا تَنوينٍ و(عادٌ) بتَنوينٍ؛ لأنَّ (ثمودَ) مَمْنوعَةٌ مِن الصَّرفِ و(عاد) ليست مَمْنوعَةً مِنَ الصَّرفِ، والصَّرفُ جرُّ ما لا يَنْصرِفُ بالفَتْحةِ أو عَدمُ التَّنوينِ، قال ابنُ مالكٍ[1]:

الصَّرفُ تَنوينٌ أتى مُبيِّنًا مَعْنى بِه يكونُ اسمٌ أَمْكَنا

يَقولُ المفسِّرُ رَحِمَهُ اللَّهُ: [﴿وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَاهُمْ﴾ بيَّنَّا لهم طَريقَ الهُدى]، فالهِدايَةُ هنا هِدايَةُ بيانٍ، يعني بَيَّنَ لهمُ الحقَّ.

واعلم أنَّ كُلَّ مَن كَفَرَ فإنَّه كَفَرَ بعدَ أن تبيَّنَ له الحقُّ إذا جاءَه الرَّسولُ؛ لأنَّ الرُّسلَ -عليهم الصَّلاةُ والسَّلامُ- يُبيِّنون الحقَّ لا يَدعونَ شيئًا يَحتاجُ إلى بيانٍ إلَّا بيَّنوه، قال هُنا: ﴿فَهَدَيْنَاهُمْ﴾ أي: بيَّنَّا لهم طَريقَ الحقِّ، فالهِدايَةُ هُنا هِدايَةُ بيانٍ وإِرْشادٍ.

يَقولُ المفسِّرُ رَحِمَهُ اللَّهُ: [﴿فَاسْتَحَبُّوا الْعَمَىٰ﴾ اختاروا الكُفرَ عَلى الهُدى]؛ أي:

---

(١) الألفية (ص:٥٥).

هِدايَةُ التَّوفيقِ، يَعني على الاهْتِداءِ، استحبُّوا العَمَى الَّذي هو الكُفْرُ على الهُدَى الَّذي هو الإسلامُ.

قال اللهُ تعالى: ﴿فَأَخَذَتْهُمْ صَٰعِقَةُ ٱلْعَذَابِ ٱلْهُونِ بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ﴾ [فُصِّلَت:١٧]، أَخَذَتْهم صاعِقَةُ العَذابِ يَعني عَذابَ الصَّاعقَةِ؛ لأنَّ ثَمودَ صِيحَ بهم ورُجِفَ بهم، فصُعِقوا هَلَكوا هَلَكَةَ رَجلٍ واحدٍ ﴿فَأَصْبَحُوا۟ فِى دِيَٰرِهِمْ جَٰثِمِينَ﴾[هود:٦٧] والعِياذُ باللهِ على رُكَبِهِمْ هامِدينَ.

وقولُهُ: ﴿ٱلْعَذَابِ ٱلْهُونِ﴾ أيِ العَذابُ [المُهينُ] لأنَّ الهونَ هو الإذلالُ.

وقولُهُ: ﴿بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ﴾ (الباءُ) للسَّببيَّة، و(ما) إمَّا موصولَةٌ، وعليه فيَكونُ عائدُها محذوفًا، التَّقديرُ: بما كانوا يَكسِبونَهُ، وإمَّا أن تَكونَ مَصدريَّةً فلا تَحتاجُ إلى عائدٍ، ويَكونُ التَّقديرُ: بِكَسْبِهِمْ.

مِن فوائدِ الآيَةِ الكريمَةِ:

الْفَائِدَة الأُولَى: أنَّ اللهَ تعالَى أَبْلغَ رِسالاتِه كُلَّ أحدٍ ولم يَدَعْ أحدًا بلا هِدايةٍ دَلالَةً؛ لقولِهِ: ﴿وَأَمَّا ثَمُودُ﴾ وهذه الجُملةُ التَّفصيليَّةُ كما سبق في التَّفسيرِ معطوفةٌ عَلَى ﴿فَأَمَّا عَادٌ فَٱسْتَكْبَرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ﴾.

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَةُ: أنَّ الهِدايَةَ ليست مَقْصورَةً على هِدايةِ التَّوفيقِ، ولكنَّها تُطلَقُ على هِدايةِ الدَّلالَةِ والبَيانِ؛ لقولِهِ: ﴿وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَٰهُمْ﴾ أي: دَلَّلناهُمْ على الحَقِّ.

الْفَائِدَةُ الثَّالِثَةُ: الرَّدُّ على الجَبريَّةِ الَّذين قالوا: إنَّ الإنسانَ مُجْبَرٌ على عَمَلِهِ، يُؤخَذُ من قَولِ اللهِ تَعالَى: ﴿فَٱسْتَحَبُّوا۟ ٱلْعَمَىٰ﴾ لأنَّ استَحبُّوا تَدُلُّ على اخْتيارِهِمْ لهذا الشَّيءِ، وأنَّهُمْ آثَروه على الهُدَى.

الْفَائِدَةُ الرَّابِعَةُ: أنَّ من لم يَتَمَسَّ على هُدَى اللهِ فإنَّه أَعْمى، يُؤخَذُ من قول اللهِ تَعالَى: ﴿فَٱسْتَحَبُّواْ ٱلْعَمَىٰ﴾، وإذا كانوا مُبْصرينَ بأَعينِهِمْ فهُمْ عُمْيُ البَصائِرِ، إذن نَأخُذُ من ذلك فائدةً، وهي أنَّ العَمى نَوعانِ: عَمَى بَصَرٍ وعَمَى بَصيرَةٍ، وأَشدُّهُما عَمَى البَصيرَةِ، فكم مِن إنسانٍ أَعْمى البَصَرِ، لكنَّه مُبْصِرُ البَصيرَةِ، وكم من إنسانٍ مُبْصِرِ البَصَرِ لكنَّه أَعْمى البَصيرَةِ.

الْفَائِدَةُ الخَامِسَةُ: تَعجيلُ العُقوبةِ لِمَنْ آثَرَ العَمَى على الهُدَى، يُؤخَذُ مِن قولِه تَعالَى: ﴿فَأَخَذَتْهُمْ صَٰعِقَةُ ٱلْعَذَابِ ٱلْهُونِ بِمَا كَانُواْ يَكْسِبُونَ﴾ أنَّ الفاءَ للتَّرتيبِ والتَّعقيبِ هذا وَجْهٌ، ووَجْهٌ آخَرَ أنَّ الفاءَ هنا للسَّببيَّةِ والمُسبَّبُ يَعْقُبُ السَّببَ.

الْفَائِدَةُ السَّادِسَةُ: التَّحذيرُ من إيثارِ العَمَى على الهُدَى، وأنَّ الإنسانَ إذا بُيِّنَ له الحقُّ، ولكنَّه عَمِيَ عنْه فإنَّه جَديرٌ بأن يُعاقِبَه اللهُ عَزَّوَجَلَّ لأنَّ اللهَ أَخبـرنا بأَخْذِهِمْ لنَحْذَرَ من ذلك، فأَخبَرنا اللهُ تَعالى بعُقُوبتهمْ حينَ خالفوا لِنَحْذَرَ من ذلك، ودَليلُ ذلك قولُه تعالى: ﴿ لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُوْلِي ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ [يوسف:١١١] هذا دَليلٌ، ودَليلٌ آخَرُ ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُواْ فِي ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ دَمَّرَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ وَلِلْكَٰفِرِينَ أَمْثَٰلُهَا﴾ [محمد:١٠].

الْفَائِدَةُ السَّابِعَةُ: أنَّ ثَمودَ أُهلِكوا بِصاعِقَةٍ أي بشيء صُعِقوا به، وهَلَكوا، وقد بَيَّنَ اللهُ في آيَةٍ أُخْرَى أنَّهم أَخذَتْهمُ الرَّجفَةُ، فيَكونُ أُخِذوا بالرَّجفَةِ، حتَّى صُعِقوا وهَلَكوا.

الْفَائِدَةُ الثَّامِنَةُ: أنَّ هؤلاءِ الَّذين غَرَّهم الكِبْرُ أُهينوا وأُذِلُّوا، نَأْخُذُها مِن قولِه تَعالَى: ﴿فَأَخَذَتْهُمْ صَٰعِقَةُ ٱلْعَذَابِ ٱلْهُونِ﴾ يَعني: عَذاب الذُّلِّ.

الْفَائِدَةُ التَّاسِعَةُ: إثباتُ الأَسبابِ، لقولِه: ﴿بِمَا كَانُواْ يَكْسِبُونَ﴾ والباءُ هنا للسَّببيَّةِ.

واعلمْ أنَّ اللهَ تعالى لن يَحكمَ حُكمًا شرعيًّا ولا حُكمًا قَدريًّا ولا حُكمًا جزائيًّا إلَّا لسببٍ، هذه خُذْها قاعِدَةً لن يَحْكُمَ حُكمًا شرعيًّا كالإيجاب والتَّحريمِ والإباحَةِ، ولا قَدَريًّا كالخَلْقِ والتَّكوينِ، ولا جَزائيًّا إلا لسببٍ نعلمُ ذلك عِلْمَ اليَقينِ، ونَأخُذُه من أنَّ اللهَ تَعالَى حَكيمٌ، والحَكيمُ هو الَّذي يَضَعُ الأشياءَ مَواضعَها لا يُمكنُ أن يَكونَ فعلُ اللهِ فَلتةً ولا صُدفةً ولا لَغوًا ولا لَعِبًا، بل لا بُدَّ له من سَببٍ اقتَضاه، لكن هل كُلُّ سببٍ اقتَضى حُكمَ اللهِ يَكونُ مَعلومًا للخَلقِ؟

الجواب: لا، لأنَّ الخَلقَ أَعجزُ مِن أن يُدْرِكوا حِكمةَ اللهِ عَزَّوَجَلَّ وكم من أَحْكامٍ شَرعيَّةٍ وكَونيَّةٍ وجَزائيَّةٍ لا نَعلمُ حِكمتَها؛ لأنَّنا أَقْصرُ من أنْ نُحيطَ بحِكمةِ اللهِ عَزَّوَجَلَّ.

الْفَائِدَةُ الْعَاشِرَةُ: إثباتُ أنَّ العَمَلَ كَسْبٌ للإنسانِ؛ لقَولِهِ: ﴿بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ﴾.

ويَتَفَرَّعُ على هَذِهِ الفائِدَةِ: أنَّه إذا كان العَمَلُ كَسْبًا للإنسانِ، فإنَّه يَجِبُ عليه بمُقْتَضى العَقْلِ كَما هو مُقْتَضى الشَّرعِ أنْ يَسعَى إلى الكَسْبِ المُفيدِ لا إلى الكَسْبِ الضَّارِّ، كما كان يَفعلُ في الدُّنيا، أليس الواحِدُ منَّا في الدُّنيا يَسعَى إلى الكَسْبِ النَّافعِ، بَلَى، إذن يَجِبُ أن تَسعَى إلى الكَسْبِ النَّافعِ في الآخِرَةِ، ولهذا ضَلَّ مَنْ ضَلَّ في عَقلِه ودينِه مَن احتَجَّ بالقَدَر على مَعاصي اللهِ، ولم يَحتَجَّ بالقَدَر على أُمورِ الدُّنيا، ففي أُمور الدُّنيا يعمَلُ ويَكْدَحُ ويَسعَى لِـما فيه المَنْفَعةُ والمَصلحَةُ، لكن في أُمورِ الآخِرَةِ يَتكاسلُ، ثُمَّ يَقولُ هذا القَدَرُ، فنَقولُ: قد ضَلَلْتَ، كيف تَحتَجُّ بالقَدَر على كَسْبِ الآخِرَةِ ولا تَحتَجَّ به عَلَى كَسْبِ الدُّنيا.

الآية (١٨)

• ● ● •

قال اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَنَجَّيْنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَكَانُوا۟ يَتَّقُونَ﴾ [فصلت:١٨].

• ● ● •

يَقولُ المفسِّرُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿وَنَجَّيْنَا﴾ منها] أي: من صاعِقَةِ العَذابِ الهونِ ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَكَانُوا۟ يَتَّقُونَ﴾[فُصِّلَت:١٨] نَجَّينا من هذا العَذابِ الَّذين آمَنوا، وكانوا يَتَّقونَ، جَمَعوا بَينَ الإيمانِ والتَّقْوى، وهذا هو سَبَبُ النَّجاةِ.

من فوائِدِ الآيَةِ الكريمَةِ:

الْفَائِدَةُ الأُولَى: عَدْلُ اللهِ عَزَّوَجَلَّ يُؤخَذُ من قولِه: ﴿وَنَجَّيْنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَكَانُوا۟ يَتَّقُونَ﴾ فيها إِثباتُ العَدْلِ لله عَزَّوَجَلَّ والعَدْلُ مَعناه عَدَمُ الجَوْرِ وعَدَمُ الظُّلمِ، ووَجهُ الدَّلالَةِ في الآيَةِ والَّتي قَبلَها إِثباتُ النَّجاةِ لِلمُؤمِنينَ والعَذابُ لِلمُعرضينَ هذا دَليلٌ على الْعَدْلِ؛ لأَنَّه أَعْطى سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ كلَّ إنسانٍ ما يَستحِقُّ، ولا شكَّ أنَّ اللهَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ أحكمُ الحاكِمينَ، ومن كونِه أَحكم الحاكمينَ لازِمٌ أنْ يكونَ أَعْدلَهم؛ لأَنَّه كُلَّما كان الحُكْمُ أعدلَ كان أَحْكمَ.

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَةُ: أنَّ الإيمانَ والتَّقْوى سببٌ للنَّجاةِ؛ لقولِه: ﴿وَنَجَّيْنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَكَانُوا۟ يَتَّقُونَ﴾ ومثلُه قولُه تَعالَى: ﴿وَيُنَجِّى ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ بِمَفَازَتِهِمْ﴾[الزُّمَر:٦١].

الْفَائِدَةُ الثَّالِثَةُ: أنَّ الإيمانَ وَحدَه لا يَكفي بَلْ لا بدَّ من إيمانٍ وتَقْوى؛ لقولِه: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَكَانُوا۟ يَتَّقُونَ﴾ ووَجْهُ الْمُقارَنَةِ بَيْنَ هذِهِ الآيَةِ وبَيْنَ قولِه تعالى:

﴿أَلَآ إِنَّ أَوْلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ [يونس:٦٢] أنَّ الَّذين آمَنوا وكانوا يَتَّقونَ والَّذينَ يُنَجِّيهُمُ اللهُ هم أولياءُ اللهِ؛ لأنَّ قولَهُ: ﴿أَلَآ إِنَّ أَوْلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ۝٦٢ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَكَانُوا۟ يَتَّقُونَ﴾ يُطابِقُ تمامًا هذِهِ الآيَةَ حتَّى في اللَّفظِ هُناكَ ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَكَانُوا۟ يَتَّقُونَ﴾ وهذه ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَكَانُوا۟ يَتَّقُونَ﴾.

الْفَائِدَةُ الرَّابِعَةُ: جَوازُ حَذْفِ ما يُعلمُ، يُؤخَذُ مِن قولِهِ: ﴿وَكَانُوا۟ يَتَّقُونَ﴾ والمَحذوفُ مَفعولُ ﴿يَتَّقُونَ﴾؛ أي: وكانوا يَتَّقون اللهَ، وإن شِئتَ فقُلْ: وكانوا يَتَّقونَ ما يَجِبُ اتِّقاؤُهُ؛ لأنَّ اللهَ تَعالَى أحيانًا يَقولُ: ﴿وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ﴾، وأحيانًا يَقولُ: ﴿وَٱتَّقُوا۟ يَوْمًا لَّا تَجْزِى نَفْسٌ عَن نَّفْسٍ﴾ [البقرة:٤٨]، ﴿وَٱتَّقُوا۟ ٱلنَّارَ ٱلَّتِىٓ أُعِدَّتْ لِلْكَٰفِرِينَ﴾ [آل عمران:١٣١] فإذا قُلنا: وكانوا يتَّقون ما أُمِروا باتِّقائِه صار ذلك أَعَمَّ، وقد أَمَرنا بتَقْوى اللهِ، وتَقْوى النَّار وتَقْوَى يَوم القيامَةِ.

الْفَائِدَةُ الخَامِسَةُ: فَضيلَةُ الإيمانِ والتَّقوَى وأنَّه سَببٌ للنَّجاةِ؛ لقولِهِ: ﴿وَنَجَّيْنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَكَانُوا۟ يَتَّقُونَ﴾ فإذا قال قائلٌ: أَلَيْسَ اللهُ تعالَى يُنزِلُ عُقوبَةً أحيانًا في أَقْوامٍ فيهم المُتَّقي وفيهم غَيْرُ المُتَّقي؟

فالجَوابُ: أنَّ اللهَ تعالى يَأخُذُ المُتَّقيَ بذَنْبِ غير المُتَّقي في الدُّنيا، ففي الدُّنيا يُعذَّبون جَميعًا ويُبْعَثون في الآخِرَةِ على نِيَّاتهم وأعمالِهِمْ، دَليلُ هذا قولُه تعالى: ﴿وَٱتَّقُوا۟ فِتْنَةً لَّا تُصِيبَنَّ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مِنكُمْ خَآصَّةً﴾ [الأنفال:٢٥] يعني: احْذَروا هذه الفِتْنَةَ، وهذا يَعني أنَّنا نَأمُرُ بالمَعروفِ ونَنْهى عن المُنْكَرِ لنتَّقِيَ بها ﴿وَٱتَّقُوا۟ فِتْنَةً لَّا تُصِيبَنَّ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مِنكُمْ خَآصَّةً ۖ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ﴾.

• • ❊ • •

الآيات (١٩-٢٤)

قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿ وَيَوْمَ يُحْشَرُ أَعْدَآءُ ٱللَّهِ إِلَى ٱلنَّارِ فَهُمْ يُوزَعُونَ ﴿١٩﴾ حَتَّىٰٓ إِذَا مَا
جَآءُوهَا شَهِدَ عَلَيْهِمْ سَمْعُهُمْ وَأَبْصَٰرُهُمْ وَجُلُودُهُم بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٢٠﴾ وَقَالُوا۟ لِجُلُودِهِمْ لِمَ
شَهِدتُّمْ عَلَيْنَا ۖ قَالُوٓا۟ أَنطَقَنَا ٱللَّهُ ٱلَّذِىٓ أَنطَقَ كُلَّ شَىْءٍ وَهُوَ خَلَقَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٢١﴾
وَمَا كُنتُمْ تَسْتَتِرُونَ أَن يَشْهَدَ عَلَيْكُمْ سَمْعُكُمْ وَلَآ أَبْصَٰرُكُمْ وَلَا جُلُودُكُمْ وَلَٰكِن ظَنَنتُمْ أَنَّ ٱللَّهَ لَا
يَعْلَمُ كَثِيرًا مِّمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٢٢﴾ وَذَٰلِكُمْ ظَنُّكُمُ ٱلَّذِى ظَنَنتُم بِرَبِّكُمْ أَرْدَىٰكُمْ فَأَصْبَحْتُم مِّنَ ٱلْخَٰسِرِينَ
﴿٢٣﴾ فَإِن يَصْبِرُوا۟ فَٱلنَّارُ مَثْوًى لَّهُمْ ۖ وَإِن يَسْتَعْتِبُوا۟ فَمَا هُم مِّنَ ٱلْمُعْتَبِينَ ﴾ [فُصِّلَت:١٩-٢٤].

قوله تعالى: ﴿يُحْشَرُ﴾ فيها قِراءتانِ: ﴿يُحْشَرُ أَعْدَآءُ ٱللَّهِ﴾ وعلى هذه القِراءةِ يَكونُ الفِعلُ مَبنيًّا لِـما لَمْ يُسَمَّ فاعلُهُ، ﴿يُحْشَرُ﴾ يكونُ مبنيًّا لـما لم يُسَمَّ فاعلُهُ، وكلَّما رأيتَ فِعلًا مُضارعًا مَضمومَ الأوَّل مَفتوحَ ما قَبْلَ الآخِرِ فهو مَبنيٌّ لِـما لم يُسَمَّ فاعلُهُ، فإنْ رأيتَه مَضمومَ الأوَّل فقط فلا يَكونُ مبنيًّا لِـما لم يُسَمَّ فاعلُهُ؛ لأنَّ المُضارعَ من الرُّباعيِّ يَكونُ مَضمومَ الأوَّل مثل: يُقْدِمُ الرَّجلُ، يُكرِمُ الرَّجلَ وما أَشْبَهَ ذلك.

إذن هذا اللَّفظُ إِحْدى القِراءتَينِ ﴿ وَيَوْمَ يُحْشَرُ أَعْدَآءُ ٱللَّهِ ﴾ وعلى هذا فيَكونُ ﴿يُحْشَرُ﴾ فِعلًا مُضارعًا مبنيًّا لِـما لم يُسَمَّ فاعلُهُ، ولاحِظْ أنَّ قولَنا لـما لَمْ يُسمَّ فاعلُه أولى من قولنا مبنيٌّ للمَجهولِ؛ لأنَّه قد يَكونُ الفاعِلُ معلومًا كقولِه تعالى: ﴿وَخُلِقَ ٱلْإِنسَٰنُ ضَعِيفًا ﴾ الخالقُ اللهُ، مَعلومٌ مع أنَّ الفِعلَ مبنيٌّ لِـما لم يُسَمَّ فاعلُهُ، ولهذا

فالتَّعبيرُ بقولِكَ: (خُلِقَ) فِعلٌ ماضٍ مبنيٌّ لِـما لم يُسَمَّ فاعلُهُ، أَولَى مِن قولِكَ: (خلَقَ) فِعلٌ ماضٍ مبنيٌّ للمَجهولِ، وكذلك ﴿يُحْشَرُ﴾ فِعلٌ مُضارعٌ مَبنيٌّ لِـما لم يُسَمَّ فاعلُهُ، وقولُهُ: ﴿أَعْدَآءُ ٱللَّهِ﴾ ﴿أَعْدَآءُ﴾ نائبُ فاعلٍ.

وفيها قِـراءةٌ أُخْرى: «ويَومَ نَحْشُرُ أَعداءَ اللهِ» أشار إليه المفسِّر ما حاجَةٌ للتَّعليقِ، ويومَ نَحشُرُ أَعداءَ اللهِ، وعلى هذه القِراءةِ تَكونُ (نَحشُرُ) فعلًا مضارعًا مبنيًّا للفاعلِ، والفاعلُ هنا مُستتِرٌ وُجوبًا، و(أعداءَ) مَفعولٌ به مَنصوبٌ.

والفاعلُ إذا كان تَقديرُه أنا أو أنت أو نحن فهو مُستتِرٌ وجوبًا، وإذا كان تَقديرُه هو أو هي فهو مستتِرٌ جوازًا. مَثَلًا: (أَقُومُ) مُستتِرٌ وجوبًا تَقديرُه: أنا، (تَقُومُ) تُخاطِبُ رجلًا تَقولُ أنت تَقومُ وجوبًا؛ لأنَّ تَقديرَه أنت، (نَقومُ) وجوبًا؛ لأنَّ تَقديرَه: نحن، (قام) جوازًا؛ لأنَّ تَقديرَه: هو، (قامت) جوازًا؛ لأنَّ تَقديرَه هي، (تقوم) إذا كان تَتحدَّث عن امرأةٍ فقلت: هندُ تَقومُ فهو مستتِرٌ جوازًا؛ لأنَّ التَّقديرَ: هي، وإذا كنت تُخاطِبُ رجلًا فهو مُستتِرٌ وجوبًا؛ لأنَّ التَّقديرَ: أنت، إذن هذا الضَّابطُ ما كان تَقديرُه هو أو نحن أو أنت فهو مستتِرٌ وجوبًا، وما كان تَقديرُه هو أو هي فهو مستتِرٌ جوازًا.

وقوله تعالى: ﴿ وَيَوْمَ يُحْشَرُ﴾ (يوم) ظرفٌ، وكُلُّ ظرفٍ لا بدَّ له من مُتعلِّقٍ؛ لأنَّ الظَّرفَ اسمُ مفعولٍ فيه، فلا بدَّ من فِعلٍ، ولهذا قال ناظمُ الجُمَلِ:

لا بـدَّ للجـارِ مِـن التَّعلُّـق ... بفِعلٍ أو معنـاه نحـو مُرتَقـي

والعامِلُ في (يوم) مَحذوفٌ، التَّقديرُ كما قال المفسِّر: [واذكر يومَ يُحشَرُ] ﴿أَعْدَآءُ ٱللَّهِ﴾ و﴿يُحْشَرُ﴾ بمعنى يُجمَعُ ويُساقُ، وفيها قِراءتانِ: بالياءِ والنُّون المَفتوحَةِ، يَعني يُحشَرُ بالياءِ والنُّونِ المَفتوحَةِ وضَمِّ الشِّينِ. يَقولُ المفسِّرُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [بالياءِ والنُّون المَفتوحَةِ وضَمِّ الشِّينِ وفَتحِ الهَمْزَةِ].

لم يُكمِلِ المفسِّر في الواقِعِ القِراءةَ الثَّانيةَ، ﴿يُحْشَرُ﴾ فيها قِراءتانِ: الأُولَى ضَمُّ الياءِ وفتحِ الشِّينِ، وعلى هذه القِراءةِ يَجِبُ أن تكونَ ﴿أَعْدَآءُ﴾ مَرفوعَةً على أَنَّها نائبُ فاعِلٍ.

القِراءَةُ الثَّانيةُ: بفَتحِ النُّون (نَحشُرُ) وضَمِّ الشِّين وعلى هذِهِ القراءِةِ فيَجِبُ أن تَكونَ (أعداءَ) مَنصوبَةً على أَنَّها مَفعولٌ به، «ويَومَ نَحشُرُ أعداءَ اللهِ».

والقِراءتانِ اللَّتانِ تَكونانِ في القُرآنِ الَّذي بَيْنَ أَيدينا ليس هما الحُروفَ السَّبعةَ، فالحُروفُ السَّبعَةُ الآنَ غَيرُ مَعلومَةٍ؛ لأَنَّه قُضِيَ عليها بتَوحيدِ المُصحفِ في عَهدِ عُثمانَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، لكنَّ القِراءاتِ السَّبعَ المَوجودَةَ في حَرفٍ واحدٍ وهو حَرفُ قُريشٍ الَّذي تَوحَّدت المَصاحِفُ عليه في عَهْدِ عُثمانَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، ولهذا لا حاجَةَ إلى التَّفتيشِ والتَّنقيبِ عن الحُروفِ السَّبعَةِ في وقتنا هذا؛ لأنَّها انتهت وقُضِيَ عليها.

قال اللهُ تَعالَى: ﴿وَيَوْمَ يُحْشَرُ أَعْدَآءُ ٱللَّهِ إِلَى ٱلنَّارِ فَهُمْ يُوزَعُونَ﴾ ﴿أَعْدَآءُ ٱللَّهِ﴾ يُمكنُ أن نَعرفَهم بمَعرِفَةِ أولياءِ اللهِ، وأَوْلياءُ اللهِ تعالَى قال اللهُ في بَيانِهِمْ: ﴿أَلَآ إِنَّ أَوْلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦٢﴾ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَكَانُوا۟ يَتَّقُونَ﴾ [يونس:٦٢-٦٣]، ضِدُّ الإيمانِ الكُفْرُ، وضِدُّ التَّقوى المَعاصي والفُسوقُ، فأعداءُ اللهِ إذن هُمُ الكُفَّارُ والفَسَقَةُ يُحشَرونَ ﴿إِلَى ٱلنَّارِ﴾؛ أي: يُساقونَ إليها ويُجمَعون إليها.

يَقولُ المفسِّرُ رَحِمَهُ اللَّهُ: [﴿إِلَى ٱلنَّارِ فَهُمْ يُوزَعُونَ﴾: يُساقونَ] ولها معنًى آخَرَ أيضًا: يُساقونَ بالتَّوزيعِ؛ يَعني أنَّهم طَوائِفُ وأُمَمٌ كُلَّما دَخَلت أُمَّةٌ لعنت أُخْتَها، فهم يُوزَعونَ بالسِّياقِ أي يُساقونَ، ويُوزَعونَ أيضًا بالتَّفريقِ، كُلُّ أُمَّةٍ وَحْدَها فهُمْ يُوزَعونَ.

قال اللهُ تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا مَا جَآءُوهَا شَهِدَ عَلَيْهِمْ سَمْعُهُمْ﴾ إلخ [فُصِّلَت:٢٠].

يَقولُ المُفسِّرُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿حَتَّىٰٓ إِذَا مَا جَآءُوهَا﴾ زائدَةٌ] يَعني: كَلِمَةَ ﴿مَا﴾ زائدَةٌ؛ لأنَّها وقعت بَعْدَ ﴿إِذَا﴾، وكُلَّما وقعت (ما) بعدَ (إذا) فهي زائدَةٌ، وعليك بحِفْظِ البيتِ:

يـا طالبًـا خُـذْ فائـدَه (مـا) بَعـدَ (إذا) زائـدَه

قولُه تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا مَا جَآءُوهَا﴾ ﴿جَآءُوهَا﴾ أي وصلوا إليها ﴿شَهِدَ عَلَيۡهِمۡ سَمۡعُهُمۡ وَأَبۡصَٰرُهُمۡ وَجُلُودُهُم بِمَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ﴾ قَبْلَ أن يَدخُلوها تَستَشْهِدُ عليهم هذه الجَوارحُ حتَّى يَدخُلوا وهم موقِنونَ أنَّهم عومِلوا بالعَدْلِ والإنصافِ.

ويَشْهَدُ عليهم سَمْعُهم، فهل يَشْهَدُ بما سَمِعوا مِن اللَّغوِ والكَلامِ المُحرَّمِ، أو يَشهدُ السَّمْعُ بجَميعِ الأعمالِ؟ يَحتَمِلُ وَجْهَينِ: إمَّا أن يَكونَ المَعنَى: شَهِدَ عليهم سَمْعُهم بما سَمِعوا مِنَ الباطِلِ، وأبصارُهُم بما شاهَدوه مِن الباطِلِ، وجُلودُهم بما لَمَسوا مِنَ الباطِلِ، أو أنَّ هذه الأعضاءَ تَشْهَدُ على كُلِّ عَمَلٍ عَمِلوه، يَحتَمِلُ هذا وهذا، والثَّاني أَعظَمُ، أن يَكونَ السَّمعُ يَشهَدُ بما حَصَلَ عن طَريقِهِ، وبما حَصَلَ عن طَريقِ البَصَرِ، وبما حَصَلَ عن طَريقِ اللَّمْسِ، هذا أعظَمُ مِمَّا لو شَهِدَ بما حَصَلَ منه فقط.

وهَلْ هذا الإِشْهادُ بعد إنكارٍ أو لِلتَّحقيقِ والتَّوكيدِ؟

الجواب: ليس في الآيَةِ ما يَدُلُّ على ذلك، لكن قيلَ -كما في آيَةٍ أُخْرَى- أنَّ هذا إنَّما يَكونُ بعدَ إنكارِهِم أن يَكونوا أَشْركوا كما قال تَعالَى: ﴿ثُمَّ لَمۡ تَكُن فِتۡنَتُهُمۡ إِلَّآ أَن قَالُواْ وَٱللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشۡرِكِينَ﴾ [الأنعام:٢٣].

وقولُهُ: ﴿وَجُلُودُهُم﴾ بما مَسَّت، وهي أَعَمُّ من شَهادَةِ السَّمعِ والبَصَرِ؛ لأنَّه يَدْخُلُ في ذلكَ اليدُ والرِّجلُ والشَّمُّ وغيرُ ذلك، كُلُّ هذا عَن طَريقِ المُلامَسَةِ.

قال اللهُ تعالى: ﴿وَقَالُوا۟ لِجُلُودِهِمْ لِمَ شَهِدتُّمْ عَلَيْنَا﴾ ولم يَقُلْ: لأبصارِهِم؛ لأنَّ شَهادَةَ الجُلودِ أَعْظَمُ وأعَمُّ، ﴿وَقَالُوا۟﴾ أي: أعداءَ اللهِ، ﴿لِجُلُودِهِمْ لِمَ شَهِدتُّمْ عَلَيْنَا﴾ وهذا الاسْتِفهامُ اسْتِفهامُ إنكارٍ، كأنَّهم يَقولونَ: نَحنُ نُجادِلُ عنكم فكيفَ تَشهدونَ علينا.

﴿قَالُوٓا۟ أَنطَقَنَا ٱللَّهُ ٱلَّذِىٓ أَنطَقَ كُلَّ شَىْءٍ﴾ يَعني أنْ شَهِدْنا؛ لأنَّ اللهَ أَنطَقَنا واللهُ عَزَّوَجَلَّ بيدِه مَلكوتُ السَّمواتِ والأَرْضِ يُنْطِقُ كُلَّ شيءٍ.

يَقولُ المُفسِّرُ رَحِمَهُ اللَّهُ: [أي: أراد نُطقَهُ] ولا حاجَةَ إلى هذا القَيدِ؛ لأنَّ اللهَ تَعالَى لا يَكرهُه أحدٌ حتَّى نَقولَ إنَّ هذا الفِعْلَ مُقَيَّدٌ بالإرادَةِ، ونَقولُ: أَنْطقَ كُلَّ شيءٍ ولا نَقولُ أراد نُطْقَه لأنَّه لا يُمكِنُ أن يَنطِقَ الشَّيءُ إلَّا بعدَ إرادَةِ اللهِ، ومثل هذا القَيْدِ غيرُ مُناسبٍ؛ لأنَّنا لو اعتبَرناه لقلنا: كُلُّ فِعلٍ ذَكَرَه اللهُ عن نَفْسِه يَجِبُ أن نُقيِّدَه بالإرادَةِ، وهذا أَمْرٌ مُستكرَهٌ إذ إنَّنا نَعلَمُ أنَّ كلَّ فِعلٍ فَعلَه اللهُ فإنَّما هو عن إرادةٍ، كما قال تَعالَى: ﴿إِنَّمَآ أَمْرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾ [يس:٨٢].

فاللهُ تعالى أَنْطَقَ كلَّ شيءٍ، أنطَقَ الحَجَرَ والشَّجَرَ، وسُمِعَ تَسبيحُ الحَصا والطَّعامِ بين يَدَيِ النَّبيِّ[1] -صلَّى اللهُ عليه وعلى آله وسلَّم-، بل قال تعالى: ﴿تُسَبِّحُ لَهُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ ٱلسَّبْعُ وَٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ ۚ وَإِن مِّن شَىْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِۦ وَلَٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ﴾ [الإسراء:٤٤] كُلُّ شيءٍ يُسبِّحُ اللهَ بِلسانِ المَقالِ إلَّا الكافِرَ فإنَّه لا يُسَبِّحُ اللهَ بلسانِ المَقالِ؛ لأنَّه كافِرٌ يَصِفُ اللهَ تعالى بكُلِّ نَقصٍ وعَيبٍ، وكُلُّ شيءٍ يُسَبِّحُ اللهَ بِلسانِ الحالِ حتَّى الكافِرُ يُسبِّحُ اللهَ بلسانِ الحالِ، بما أودَعَ اللهُ فيه مِنَ الآياتِ في الخِلقَةِ والخَلْقِ وما أَشْبَهَ

(١) أخرجه البزار في مسنده رقم (٤٠٤٠)، والطبراني في الأوسط رقم (١٢٤٤)، والبيهقي في دلائل النبوة (٦/ ٦٤)، من حديث أبي ذر الغفاري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

ذلكَ، كُلُّه يُسبِّحُ اللهَ عَزَّوَجَلَّ؛ أي: يُستَدَلُّ به على تنزيهِ اللهِ عن كُلِّ نقصٍ وعَيبٍ.

فإنْ قال قائلٌ: هل عُمومُ قولِه تَعالَى: ﴿وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ﴾ ينطبق على قول الصحابة أن الطعام كان يسبح بين أيديهم ﴿وَلَٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ﴾ بأن يَكونَ سَبَّحَ ولكن لم يَفقَهوا تَسبيحه إلَّا بإخبارِ النَّبيِّ ﷺ، أو أنَّه سَبَّحَ حَقيقةً يَفهمُه أيُّ أحدٍ.

فالجَوابُ: ظاهرُ النُّصوصِ أنَّه يُسبِّحُ حَقيقةً، لكنَّ التَّسبيحَ ﴿لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ﴾ باعتِبارِ المَجموعِ لا بِاعتِبارِ كُلِّ فردٍ، فإنَّ مِنَ الأشياءِ ما نَسمَعُ تَسبيحَه يُسبِّحُ تمامًا ﴿إِنَّا سَخَّرْنَا الْجِبَالَ مَعَهُ يُسَبِّحْنَ بِالْعَشِيِّ وَالْإِشْرَاقِ﴾ [ص:١٨] فالظَّاهرُ أنَّها تُردِّدُ كما قال تعالى: ﴿يَا جِبَالُ أَوِّبِي مَعَهُ وَالطَّيْرَ﴾ [سبأ:١٠].

فإن قيلَ: هل التَّسبيحُ كما نقولُ نَحنُ أو خاصٌّ بها؟

فالجَوابُ: أنَّه تَقولُ سبحانَ اللهِ.

وإن قيل: هل صوتُ غَديرِ الماءِ هو تَسبيحُهُ؟

فالجَوابُ: لَا، هذا خطأٌ، فخَريرُ الماءِ ليس صوتَ تَسبيحٍ، بل هذا طَبيعيٌّ، فهل نَقولُ حركةُ الإنسانِ بالأرضِ إذا وَطِئت أقدامُه الأرضَ وسَمِعَ لها الصَّوتَ هذا تَسبيحٌ؟!

يَقولُ المفسِّرُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿وَهُوَ خَلَقَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ قيل: هو مِن كلامِ الجلودِ، وقيل هو مِن كَلامِ اللهِ تَعالَى كالَّذي بَعدَهُ، وموقِعُه قَريبٌ مِمَّا قَبلَه، بأنَّ القادِرَ على إنشائِكم ابتداءً وإِعادَتِكم بعدَ الموتِ أَحياءً قادرٌ على إنطاقِ جُلودِكم وأَعضائِكم].

وقولُهُ: ﴿خَلَقَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ يحتَمِلُ أنَّه مِن كَلام اللهِ يُخاطِبُ به هَؤلاءِ المكذِّبينَ والأعداءَ، ويَحتَمِلُ أنَّه تَتِمَّةُ كَلام الجلودِ، يعني أنَّ الجلودَ تَستدِلُّ على قُدرةِ الله تعالى على إنطاقِها بأنَّه خلَقَهم أوَّل مَرَّة.

يَقولُ المُفسِّرُ رَحِمَهُ اللَّهُ في بيان ذلك: [قيل: هو مِن كَلامِ الجُلودِ، وقيل: هو مِن كَلامِ اللهِ]، وإذا قال المُؤَلِّفونَ: قيل كذا وقيل كذا، فالخِلافُ هنا مُطلَقٌ لا تَقديمَ فيه ولا تَأخيرَ، وإذا قيل: هو مِن كَلامِ الجُلودِ، وقيل: مِن كَلام الله هنا يَكونُ قَدَّمَ الأَوَّلَ، أمَّا إذا قال المُؤَلِّفون: قيل وقيل، فهذا لَيسَ فيه تَقديمٌ، بل هو نَقْلُ خِلافٍ على وَجهِ الإطْلاقِ.

وعلى هذا فالقَولانِ لَدى المفسِّر مُتساويانِ؛ وأَن نَجعلَه من كَلامِ الجُلودِ حتَّى يَتَّصِلَ الكَلامُ بَعضُه ببَعضٍ: أَقْربُ من حيثُ اللَّفظِ، أَقْربُ أنَّ الجُلودَ تَقولُ: ﴿أَنطَقَنَا ٱللَّهُ ٱلَّذِىٓ أَنطَقَ كُلَّ شَىْءٍ﴾، وتَقولُ لِهؤلاءِ: هو الَّذي خَلَقَكم أَوَّل مَرَّةٍ وإليه تُرجَعونَ.

لكنَّ القَولَ الثَّاني أَقوَمُ للمَعْنى، يَعني: أنَّ اللهَ لـمَّا بَيَّنَ أنَّ هؤلاءِ يُعادونَ يومَ القيامَةِ ويُحاسَبونَ وتَشهَدُ عليهمُ السَّمعُ والأبصارُ والجُلودُ بَيَّنَ عَزَّوَجَلَّ أنَّه قادرٌ على الإعادَةِ؛ لأنَّ هؤلاءِ الَّذينَ كَذَّبوا يُنكِرونَ البَعْثَ فقال: ﴿وَهُوَ خَلَقَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾، والقادِرُ على الخَلْقِ أَوَّلَ مَرَّةٍ قادرٌ على إعادتِهِ، دَليلُ ذلك قولُه تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ﴾ [الروم:٢٧] فهو يَقولُ: ﴿وَهُوَ خَلَقَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾، والقادِرُ على ذلك قادِرٌ على الإعادَةِ.

وقولُهُ: ﴿وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ هذا فيه أيضًا إشارَةٌ إلى الحِكْمةِ مِن خَلْقِ الخَلْقِ أنَّهم يُبتَلونَ فيُؤمَرونَ ويُنهَونَ، ومَآلُهُم إلى اللهِ عَزَّوَجَلَّ، يُجازيهم بِحَسَبِ أعمالِهم الَّتي كَلَّفهم بها.

فإنْ قال قائلٌ: هَلِ العَذابُ الواقعُ على الأعضاءِ تَأثيرُه في نَفْسِ الأعضاءِ؟

فالجَوابُ: لا، الواقعُ أنَّ العذابَ على أَهْلِ النَّارِ واقعٌ على كُلِّ البَدَنِ، ولـهذا قال اللهُ تعالى: ﴿كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُم بَدَّلْنَهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا لِيَذُوقُوا الْعَذَابَ﴾ [النساء:٥٦] لكن هم يتَعَجَّبون، ويُوَبِّخون السَّمعَ والأبصارَ والجُلودَ، لِمَ شَهِدْتُم علينا ونحن نُجادِلُ عنكم.

ثُمَّ قال اللهُ تعالى: ﴿وَمَا كُنتُمْ تَسْتَتِرُونَ﴾.. إلى آخرِه، هذا هو معنى قولِ المفَسِّر: [كالَّذي بعده]، وهذا لا شكَّ أنَّه من كَلامِ اللهِ ولَيْسَ من كَلامِ الجُلودِ، وقولُ المفسِّرِ رَحِمَهُ اللَّهُ: [ومَوقعُه قَريبٌ مِمَّا قَبْلَه] يعني: مَوقعُ هذا الكَلامِ ﴿وَهُوَ خَلَقَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ قَريبٌ مِمَّا قَبلَهُ، يعني: يُبيِّنُ مُناسَبَةَ هذه الجُملَةِ لِـما قَبلَها، وهو أنَّ القادِرَ على إنشائِكُم ابتداءً وإعادَتِكم بَعدَ المَوتِ أحياءً قادرٌ على إنْطاقِ جُلودِكم وأَعْضائِكم.

يَقولُ المفسِّرُ رَحِمَهُ اللَّهُ: [﴿وَمَا كُنتُمْ تَسْتَتِرُونَ﴾ عنِ ارتكابِكم الفَواحِشَ من ﴿أَن يَشْهَدَ عَلَيْكُمْ سَمْعُكُمْ وَلَا أَبْصَرُكُمْ وَلَا جُلُودُكُمْ﴾]، يعني: ما كُنتُم تَستَخفونَ في مَعاصيكُم وكُفرِكم، وغَيرُ ذلك مِمَّا يَستَترونَ به خوفًا من: ﴿أَن يَشْهَدَ عَلَيْكُمْ سَمْعُكُمْ وَلَا أَبْصَرُكُمْ وَلَا جُلُودُكُمْ﴾، يعني: أنَّ الكُفَّارَ يَستتِرونَ أحيانًا بِالمَعاصي لكن لا يَستَتِرونَ خوفًا مِن أن تَشهَدَ عليهم سَمْعُهم وأبصارُهُم وجُلودُهُم؛ لأنَّ هذه الأشياءَ لا استِتارَ عنها إطلاقًا إذ إنَّها هي الإنسانُ، ولا يُمكِنُ الاستِتارُ عنها، وأيضًا هُم لا يُؤمنـونَ بأنَّها سوف تَشهَدُ عليهم يومًا من الأيَّامِ، فصاروا لا يَستَتِرونَ عن هذه الأشياءِ لوَجهينِ:

الأوَّلُ: أنه لا انفكاكَ عنها، وَجهُه أنَّها هي مُكوِّناتُهم.

الوَجهُ الثَّاني: أنَّه ما كان يَطرأُ على بالِهم يومًا مِن الأيَّام أنَّ هذه سوف تَشهدُ عليهم؛ لأنَّهم يُنكِرونَ البعثَ، وإنكارُ البَعْثِ يَستلزِمُ ألَّا يُؤمنوا بأنَّها تَشهَدُ عليهم.

قولُه تعالى: ﴿وَمَا كُنتُمْ تَسْتَتِرُونَ﴾ معنى ﴿تَسْتَتِرُونَ﴾: تستخفون، وقولُهُ: ﴿أَن يَشْهَدَ﴾ هي على تَقديرِ محذوفٍ، التَّقديرُ: خَوفَ أن يَشهَدَ عليكُمْ سَمْعُكم وأَبصارُكم.. إلى آخِرِه.

يَقولُ المفسِّرُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [لأنَّكم لم توقِنوا بالبَعثِ]، هذا التَّعليلُ أضفنا إليه تعليلًا آخَرَ، وهو عَدَمُ انْفِكاكِ جُلودِهِمْ وسَمْعِهم وأبصارِهِم.

يَقولُ المفسِّرُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿وَلَٰكِن ظَنَنتُمْ﴾ عند استِتارِكم ﴿أَنَّ ٱللَّهَ لَا يَعْلَمُ كَثِيرًا مِّمَّا تَعْمَلُونَ﴾] هذا الَّذي ظَنُّوه باللهِ فظَنُّوا باللهِ تَعالَى ظَنَّ السَّوءِ، وأنَّهم إذا استَتَروا عَنِ الخَلْقِ استَتَروا عن اللهِ، ولهذا قال: ﴿كَثِيرًا مِّمَّا تَعْمَلُونَ﴾ والكَثيرُ الثَّاني: ما يَفعَلونه عَلانيَةً ولا يَهتمُّون به.

يَقولُ المفسِّرُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿وَذَٰلِكُمْ﴾ مبتدأٌ ﴿ظَنُّكُمُ﴾ بَدَلٌ منه ﴿ٱلَّذِى ظَنَنتُم بِرَبِّكُمْ﴾ نَعتٌ والخَبَرُ ﴿أَرْدَىٰكُمْ﴾] المفسِّر أعرَبَ الآيَةَ على وَجْهِ التَّفصيلِ.

﴿وَذَٰلِكُمْ﴾: (ذا) اسْمُ إشارَةٍ و(اللَّام) للبُعْدِ و(الكافُ) حَرفُ خِطابٍ وجاءت بالجَمْعِ؛ لأنَّ المُخاطَبَ جماعَةٌ.

وهنا يَجِبُ أن نَعرِفَ أنَّ اسمَ الإشارَةِ يَعودُ إلى المُشارِ إليه، و(الكافُ) تَعودُ إلى المُخاطَبِ، فإذا خاطبت ذَكَرًا تُشيرُ إلى شيءٍ مُذكَّرٍ تَقولُ: ذلك، وإذا أشرت إلى اثنين مُخاطبًا ذَكَرًا تَقولُ: ذانِكَ، وإذا أشرت إلى واحدٍ تُخاطِبُ اثنين تَقولُ: ذلكما، وإذا أشرت إلى واحدٍ تُخاطِبُ جماعَةَ نساءٍ تَقولُ: ذلكن، وإذا أشرت إلى واحدةٍ تُخاطِبُ جماعةَ إناثٍ، تَقولُ: تِلْكُنَّ، وإذا أشرت إلى جَماعَةٍ مُخاطِبًا جماعَةَ ذُكورٍ، تَقولُ: أولئكم، ففي القُرآنِ: ﴿وَأُوْلَٰٓئِكُمْ جَعَلْنَا لَكُمْ عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنًا مُّبِينًا﴾ [النساء:٩١]، وإذا أَشَرت إلى مُؤنَّثتينِ تُخاطِبُ اثنتَينِ، تَقولُ: تانِكُما، والأمثِلَةُ كَثيرةٌ، لكنَّ المُهِمَّ ألَّا يَلتَبِسَ المُشارُ

إليه بالمُخاطَبِ، فاسْمُ الإشارَةِ يَكونُ بِحَسَبِ المُشارِ إليه، والكافُ بِحَسَبِ المُخاطَبِ.

وفي (كافِ المُخاطَبِ) في الإشارَةِ أَقوالُ ثَلاثَةٌ وكُلُّها لُغاتٌ:

١- نُلزِمُها طَريقةً واحدَةً بالإفرادِ والفَتْحِ، فنقول: ذلكَ تانكَ ذانكَ.

٢- أو نُلزِمُها الإفرادَ مع الفَتْحِ للمُذكَّر والكَسرِ للمُؤنَّث، هذانِ وَجهانِ.

٣- أو نَقولُ: هي حَسَبُ المُخاطَبِ المُفرَدِ المُذكَّر له كافٌ مفتوحةٌ والمُفردَةُ المُؤنَّثَةُ كافٌ مكسورةٌ، والمُثَنَّى كافٌ مَقرونَةٌ بعَلَم التَّثنيَةِ، وجماعَةُ النِّساءِ كافٌ مقرونَةٌ بنونِ النِّسوَةِ، وجماعَةُ الذُّكورِ كافٌ مقرونَةٌ بميمِ الجَمْعِ، الأخيرِ هو الأفصَحُ، لكن يَجوزُ الوَجهانِ الآخرانِ.

يَقولُ المفسِّرُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿وَذَٰلِكُمْ﴾ مبتدأٌ ﴿ظَنُّكُمُ﴾ بدلٌ منه ﴿ٱلَّذِى ظَنَنتُم بِرَبِّكُمْ﴾ نعتٌ، والخَبَرُ ﴿أَرْدَىٰكُمْ﴾]، يعني مَعناه أنَّ قولَه: ﴿وَذَٰلِكُمْ﴾ وما عُطِفَ عليها أو صار صِفَةً لها في مقامِ المبتَدَأِ، و﴿أَرْدَىٰكُمْ﴾ في مقامِ الخَبَرِ.

ويُمكِنُ احتِمالَ وَجْهٍ آخَرَ أن نَجعلَ (ذا) مُبتدأٌ و﴿ظَنُّكُمُ﴾ خَبرُهُ، و﴿أَرْدَىٰكُمْ﴾ خَبَرٌ ثانٍ، وهذا الوَجهُ أَقْوَى في المعنَى، يعني: ذلكم ظَنُّكُم الَّذي ظَنَنتم بـرَبِّكم -ولم تَظنُّوا به سـواه- أنَّه لن يُعيدَكم، ثُمَّ أخبَرَ عن هذا الظَّنِّ خبـرًا آخرَ فقال: ﴿أَرْدَىٰكُمْ﴾، فهذا المعنى أَقْوى من قَولِ المفسِّر رَحِمَه اللهُ تعالَى.

قال اللهُ تَعالَى: ﴿وَذَٰلِكُمْ ظَنُّكُمُ ٱلَّذِى ظَنَنتُم بِرَبِّكُمْ﴾ وهو اللهُ عَزَّوَجَلَّ وأَضـافَ الرُّبوبيَّة إليهم؛ لأنَّهم يُقِرُّون بربوبيَّة اللهِ لا يُنكِرونها ﴿قُلْ مَن رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ ٱلسَّبْعِ وَرَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ ۝٨٦ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ﴾ [المؤمنون:٨٦-٨٧] وفي قِراءةٍ أُخْرَى سَبعيَّةٍ: «سيقولون الله».

يَقولُ المفسِّرُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: ﴿أَرْدَىٰكُمْ﴾ أي [أَهْلَكَكُمْ].

وقولُه تعالى: ﴿فَأَصْبَحْتُم مِّنَ ٱلْخَـٰسِرِينَ﴾ أي: صِرتُمْ مِن الخاسِرينَ، وهُنا (أَصْبَحَ) لو نَظَرنا إلى مُجَرَّدِ لَفْظِها لكانت دَالَّةً على الإِصْباحِ، لكنَّها تُستَعْمَلُ في اللُّغة العربيَّة بمعنى الصَّيرورَةِ، تَقولُ: أصبَحَ لا يَعلَمُ شيئًا أي صار لا يَعلَمُ شيئًا، وهُنا أصبحتم مِنَ الخاسِرينَ ليس المَعْنى دَخَلْتم في الصَّباح خاسِرينَ، ولكنَّ المَعْنَى: صِرتُمْ مِن الخاسِرينَ، والخاسِرُ ضِدُّ الرَّابحِ، وإنَّما قال: ﴿مِّنَ ٱلْخَـٰسِرِينَ﴾ لأنَّ هؤلاءِ الَّذين أنْكَروا البَعثَ خَسِروا الدُّنيا والآخِرَةَ في الواقِعِ، فدُنياهُمْ لم تَنفَعْهم وهُمْ في الآخِرَةِ في النَّار، وهذا غايةُ الخُسْرانِ.

يَقولُ المفسِّرُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿فَإِن يَصْبِرُوا۟﴾ على العَذابِ ﴿فَٱلنَّارُ مَثْوًى﴾ مأوى ﴿لَّهُمْ وَإِن يَسْتَعْتِبُوا۟﴾ يطلُبوا العُتْبى؛ أَيِ: الرِّضا ﴿فَمَا هُم مِّنَ ٱلْمُعْتَبِينَ﴾ المَرضِيِّين].

﴿فَمَا هُم مِّنَ ٱلْمُعْتَبِينَ﴾ (الفاءُ) رابطَةٌ لجوابِ الشَّرطِ، (ما) نافيةٌ تعمَلُ عَمَلَ (ليس)، واسم (ما): (هم) مَبنيٌّ على السُّكونِ، ﴿مِّنَ ٱلْمُعْتَبِينَ﴾ جارٌّ ومَجرورٌ مُتعلِّقٌ بالمَحذوفِ خبرُ (ما).

وهنا تَتَّفِقُ اللُّغتانِ الحِجازِيَّةُ والتَّميمِيَّةُ من حيثُ اللَّفظِ، وتختلفان من حيثُ الإعرابُ، أمَّا في قولِه تعالى: ﴿مَا هَـٰذَا بَشَرًا﴾ [يوسف:٣١] فلا تَتَّفِقُ اللُّغتانِ، فلُغةُ تميمٍ أن يُقالَ: (ما هذا بَشَرٌ)؛ لأنَّ (ما) مُهمَلَةٌ عند التَّميميِّينَ، وعامِلَةٌ عَمَلَ (ليس) عند الحِجازيِّينَ، فتَقولُ مَثَلًا: (ما زَيدٌ قائمًا)، وإذا كُنْتَ خاطبت إنسانًا وقلت: (ما زَيْدٌ قائمًا) عرفنا أنَّك حِجازِيٌّ، وإذا خاطبت إنسانًا وقلت: (ما زَيْدٌ قائمٌ) عرفنا أنَّك تَميميٌّ؛ ولهذا قال الشَّاعِرُ[1]:

---

(١) غير منسوب، وانظر: نفح الطيب للمقري التلمساني (٥/ ٢٢٧).

ومُهفهَف الأعطافِ قلت له انتسب ... فأجـابَ مـا قَتْـلُ المُحِـبِّ حـرامٌ

قوله: «انتسب» يعني: مِنْ أين أنت؟؛ فأخبَرَه بنَسَبه أنَّه تَميميٌّ إذ لو كان غيرَ تَميميٍّ لقال: (ما قَتْلُ المُحِبِّ حَرامًا).

والاستِعتابُ طَلَبُ العُتْبَى، والعُتْبَى مَعناها قَبولُ العُذْرِ والرِّضا، فالمفسِّر فَسَّرها في النِّهايَةِ بالغايَةِ الَّتي هي الرِّضا؛ لأنَّ الإنسانَ إذا استُعْتِبَ وقُبِلَ عُذْرُه رَضِيَ عنه المُستَعتِبُ.

وهُنا وَعيدٌ شَديدٌ، إن يَصْبِروا فَالنَّارُ مَثوًى لهم، لم يَقُلْ إن يَصْبِروا فلْيَنْتَظِروا الفَرَجَ، بل قال: ﴿فَٱلنَّارُ مَثْوًى لَّهُمْ﴾، أي: لَيْسَ لهم إلَّا النَّارُ، وهذا كقولِه تعالى: ﴿ٱصْلَوْهَا فَٱصْبِرُوٓاْ أَوْ لَا تَصْبِرُواْ سَوَآءٌ عَلَيْكُمْ﴾ [الطور:١٦] فَالعَذابُ سِوَى عَذابِ الآخِرَةِ يُنتظَرُ الفَرَجُ له؛ لأنَّ دوامَ الحالِ مِنَ المُحالِ، فإذا صَبَرَ الإنسانُ على البَلاءِ فَالنِّهايَةُ الزَّوالُ، لكن في الآخِرَةِ إن يَصبِروا فلن يَسلَموا مِنَ العذابِ ﴿فَٱلنَّارُ مَثْوًى لَّهُمْ﴾، وهي مَثوًى لهم قَبْلَ الصَّبرِ وبعد الصَّبرِ، لكنَّ هذا من بابِ التَّيئيسِ لهم، وأنَّ صَبرَهم لا يُفيدُهم شيئًا.

ومُناسَبَةُ جَوابِ الشَّرطِ لفعل الشَّرطِ هنا تَيئيسُ هؤلاءِ مِنَ الفَرَجِ، وقد تخفى مُناسبَتُه إذ إنَّ الإنسانُ يَتوقَّعُ أن يَكونَ الجَوابُ خِلافَ ذلك؛ لأنَّ ظاهِرَ الحالِ أن يَقولَ: فإن يَصبِروا فَالفَرَجُ قَريبٌ مَثَلًا، لكنَّه قال: فالنَّارُ مثوًى لهم، أي: فلن يَتخلَّصوا منها.

يَقولُ المُفسِّرُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿وَإِن يَسْتَعْتِبُواْ﴾ يطلُبوا العُتْبى أي: الرِّضا ﴿فَمَا هُم مِّنَ ٱلْمُعْتَبِينَ﴾] لأنَّهم يَسألونَ الله تعالى فيقولون: ﴿رَبَّنَآ أَخْرِجْنَا مِنْهَا فَإِنْ عُدْنَا فَإِنَّا ظَٰلِمُونَ﴾ [المؤمنون:١٠٧]، والجَوابُ: ﴿ٱخْسَـُٔواْ فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونِ﴾ [المؤمنون:١٠٨]، في الدُّنيا لو طالَبوا

العُتْبى وتابوا إلى اللهِ لحَصَلَ لهم ذلك، لكن في الآخِرَةِ قد فات الأَوانُ، وقولُهُ: ﴿فَٱلنَّارُ مَثْوًى لَّهُمْ﴾ أي: مأوى، وكُلُّ إنسانٍ مأواه النَّارُ فلا حَظَّ له في الجَنَّةِ.

مسألة: إِخبارُ الله عَزَّوَجَلَّ عن نفسِه في القُرآنِ بصيغَةِ الغائِبِ يَقولُ: قال اللهُ قال اللهُ..، أليسَ الأَفْضَلُ في اللُّغةِ الإِخْبارَ بصيغَةِ المُخاطَبِ؟

الجَوابُ: لا هذا له أَحْوالٌ، لكن يَقولُ العُلَماءُ إِنَّ المُتكلِّمَ إذا عَبَّرَ عن نفسِه بصيغَةِ الغائِبِ، فهذا دَليلٌ على العَظَمَةِ والتَّعظيمِ، ففَرْقٌ بَينَ أن يَقولَ المَلِكُ مَلِكُ الدُّنيا: إنَّ المَلِكَ يَأمُرُكم أن تَفعَلوا كذا، أو يَقولَ: إنِّي آمُرُكم، الأَوَّلُ أَعْظَمُ في التَّفخيمِ، وهذا من قَواعِدِ البَلاغَةِ تَعبيرُ المُخاطِبِ عن نفسِه بصيغَةِ الغائِبِ يدُلُّ على التَّعظيمِ لا سِيَّما إذا كان بوَصْفٍ يَقتَضي ذلك.

من فوائدِ الآياتِ الكريمَةِ:

الْفَائِدَةُ الأُولَى: إِثباتُ حَقيقَةِ النَّارِ؛ لقولِهِ: ﴿ وَيَوْمَ يُحْشَرُ أَعْدَآءُ ٱللَّهِ إِلَى ٱلنَّارِ﴾.

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَةُ: إِثباتُ أعداءٍ للهِ كما أنَّ له أَولياءَ، وعَدُوُّ اللهِ عَزَّوَجَلَّ مَن كان كافِرًا فاجِرًا.

الْفَائِدَةُ الثَّالِثَةُ: أنَّ أهلَ النَّارِ والعياذُ باللهِ يُساقونَ إلى النَّارِ أَوْزاعًا؛ أي مُتفرِّقينَ أُممًا؛ لقولِهِ: ﴿فَهُمْ يُوزَعُونَ﴾.

الْفَائِدَةُ الرَّابِعَةُ: إِثباتُ حَقيقَةِ النَّارِ وأنَّ هؤلاءِ يَصلونَ إليها حَقيقَةً؛ لقولِهِ: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا مَا جَآءُوهَا﴾.

الْفَائِدَةُ الخَامِسَةُ: دُخولُ التَّوكيدِ في كَلامِ اللهِ عَزَّوَجَلَّ؛ لقولِه: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا مَا جَآءُوهَا﴾ لأَنَّنا قلنا: (ما) زائدَةٌ لكنَّها للتَّوكيدِ، فإن قال قائِلٌ: كَلامُ اللهِ عَزَّوَجَلَّ مُؤَكَّدٌ بدونِ أداةِ

تَوكيدٍ، فما الفائدةُ مِن أنَّ اللهَ تعالَى يأتي كَثيرًا في كلامِه بأدواتِ التَّوكيدِ؟

فالجَوابُ: القُرآنُ لا شكَّ أنَّه مؤكَّدٌ، وأنَّ أخبارَه لا تحتاجُ إلى توكيدٍ، لكنَّ القُرآنَ نَزَلَ بلسانٍ عَربيٍّ مُبينٍ واللِّسانُ العَربيُّ يَقتضي أن يَكونَ الكَلامُ الهامُّ مُؤكَّدًا بأنواعٍ مِنَ التَّأكيداتِ؛ إذن تَأكيدُ ما يُؤَكَّدُ في القُرآنِ دَليلٌ على بُلوغِ القُرآنِ الفَصاحَةُ في أَعلَى مَعانيها؛ لأنَّه مُتمشٍّ على قواعِدَ اللُّغةِ العَربيَّةِ الفُصحى.

الْفَائِدَةُ السَّادِسَةُ: إِثباتُ النُّطقِ للسَّمعِ والبَصَرِ والجُلودِ؛ لقولِهِ: ﴿شَهِدَ عَلَيْهِمْ﴾ والشَّهادَةُ تَكونُ بالنُّطقِ، وقد تَكونُ بغَيْرِ النُّطقِ، ولكنَّها في الأَصْلِ بالنُّطقِ، ولذلك قالوا لجُلودِهِمْ ﴿لِمَ شَهِدتُّمْ عَلَيْنَا قَالُوٓاْ أَنطَقَنَا ٱللَّهُ﴾.

الْفَائِدَةُ السَّابِعَةُ: أنَّ أعضاءَ الْإِنسانِ تَكونُ يومَ القيامَةِ خُصومًا لَهُ، وَجهُ ذلك أنَّ هؤلاءِ أَنكَروا على سَمعِهم وأَبصارِهم وجُلودِهم أن شَهِدوا عليهم.

وما ظَنُّك بأعضاءٍ تَكونُ يومَ القيامَةِ خُصومًا لك؛ فيَتَفَرَّعُ على هذه الفائدَةِ أنَّ الواجِبَ على الإنسانِ أنْ يَرعى هذه الأعضاءَ حَقَّ رِعايتِها، وأَلَّا يُورِّطَها فيما تَكونُ خَصمًا له به يَومَ القيامَةِ.

الْفَائِدَةُ الثَّامِنَةُ: أنَّ الأعضاءَ مُنفرِدةٌ تَعرِفُ رَبَّها عَزَّوَجَلَّ؛ لقولِها: ﴿أَنطَقَنَا ٱللَّهُ ٱلَّذِىٓ أَنطَقَ كُلَّ شَىْءٍ﴾.

الْفَائِدَةُ التَّاسِعَةُ: عُمومُ قُدرَةِ اللهِ تعالى؛ لقَولِها: ﴿أَنطَقَ كُلَّ شَىْءٍ﴾.

الْفَائِدَةُ الْعَاشِرَةُ: أنَّ ابتِداءَ الخَلْقِ مِنَ اللهِ لم يُشْرِكْ أحدٌ رَبَّ العالَمينَ في الخَلْقِ لا أُمٌّ ولا أَبٌ ولا سُلطانٌ ولا رَئيسٌ ولا وَزيرٌ، المُنْفَرِدُ بالخَلْقِ هو اللهُ عَزَّوَجَلَّ.

الْفَائِدَةُ الحَادِيَةَ عَشْرَةَ: جوازُ استعمالِ الأدِلَّةِ العَقليَّةِ، يُؤخَذُ مِن استِدلالِ اللهِ

تَعالى بالمَبْدَأِ على المَعادِ، فَإِنَّ هذا دَليلٌ عَقليٌّ.

فإن قال قائلٌ: وهل تُقدَّمُ الأدِلَّةُ العَقليَّةُ على الأدِلَّةِ السَّمعيَّةِ؟

فالجَوابُ: لا؛ لأنَّ العَقلَ قد يُخطِئ، فيَظنُّ الإنسانُ أنَّ هذا عَقلٌ وليس بعَقْلٍ، وأمَّا الأدِلَّةُ السَّمعيَّةُ الثَّابتَةُ عن اللهِ ورَسولِه فهذه لا تُخطِئُ، ولهذا أَخْطَأَ مَن استعْمَلَ العَقلَ، بل قَدَّمَه على السَّمعِ والنَّقلِ فيما يَتعلَّقُ باللهِ واليَوْمِ الآخِرِ، وحَكَموا بعُقولِهم القاصِرَةِ على أُمورِ الغَيبِ استحالةً أو وجوبًا أو جوازًا، وأَعْرَضوا عن نُصوصِ الكِتابِ والسُّنَّةِ، ومن هؤلاء جَميعُ المُتكلِّمينَ مِنَ الأشاعِرَةِ والمُعتزِلَةِ والجَهمِيَّةِ وغيرِهم؛ حيثُ جَعلوا التَّلقِّي فيما يَتعلَّقُ بأسماءِ اللهِ وصِفاتِه على الاعتِمادِ على العَقْلِ.

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَةَ عَشْرَةَ: إثباتُ الرُّجوعِ إلى اللهِ عَزَّوَجَلَّ، فاستَعِدَّ لهذا الرُّجوعِ واعْلَمْ أنَّك مُلاقٍ ربَّك، ولكن أَبْشِرْ إن كُنتَ مُؤمنًا، قال اللهُ تعالى: ﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّكُم مُّلَٰقُوهُۗ وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [البقرة:٢٢٣] يعني لا يَخافُ المُؤمنُ من هذه المُلاقاةِ، بل له البِشارَةُ في الدُّنيا قَبْلَ الآخِرَةِ، لكنَّ حَقيقَةَ هذه البِشارَةِ لِلْمُؤمنِ خاصَّةٌ.

الْفَائِدَةُ الثَّالِثَةَ عَشْرَةَ: أنَّ هؤلاءِ المُجرِمينَ لا يُؤمنونَ بالبَعثِ؛ لقولِهِ: ﴿وَمَا كُنتُمْ تَسْتَتِرُونَ أَن يَشْهَدَ عَلَيْكُمْ﴾.

الْفَائِدَةُ الرَّابِعَةَ عَشْرَةَ: تَمامُ قُدرَةِ اللهِ عَزَّوَجَلَّ وأنَّه قادرٌ على إنطاقِ كُلِّ شيءٍ حيثُ أَنطَقَ السَّمعَ والأبصارَ والجُلودَ.

الْفَائِدَةُ الخَامِسَةَ عَشْرَةَ: أنَّ هؤلاءِ المُجرِمينَ يَظنُّون أنَّ اللهَ لا يَعلَمُ كَثيرًا مِمَّا يَعمَلونَ، وهو الَّذي يُخفونَه، فلهذا كانوا يُخفونَ عن اللهِ عَزَّوَجَلَّ ما يَقعونَ فيه مِنَ الكُفرِ.

الْفَائِدَةُ السَّادِسَةَ عَشْرَةَ: أنَّ مثلَ هذا الظَّنِّ سببٌ لهلاكِ المَرْءِ -أن يظُنَّ أنَّه لن يُبْعَثَ- بل هو هَلاكُه حَقيقَةً؛ لأنَّ الَّذي يُنكِرُ البَعثَ كافِرٌ، والكافِرُ لا حظَّ له لا في الدُّنيا ولا في الآخِرةِ لقولِ اللهِ تعالى: ﴿قُلْ إِنَّ ٱلْخَٰسِرِينَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ [الزُّمَر:١٥].

الْفَائِدَةُ السَّابِعَةَ عَشْرَةَ: أنَّ هؤلاءِ المُجرِمينَ يظُنُّونَ أنَّهم رَبِحوا المَعركَةَ باستِخفائِهم، وهذا يَنْطَبِقُ تمامًا على المُنافِقينَ، ولكنَّ حَقيقَةَ الأَمْرِ أنَّهم خَسِروا؛ لقولِه تعالى: ﴿فَأَصْبَحْتُم مِّنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾.

الْفَائِدَةُ الثَّامِنَةَ عَشْرَةَ: أنَّ أهلَ النَّارِ لن يَخرُجوا منها سَواءٌ صَبَروا أم لم يَصْبِروا؛ لقولِه: ﴿فَإِن يَصْبِرُوا۟ فَٱلنَّارُ مَثْوًى لَّهُمْ﴾ ويُبيِّنُه قولُه تعالى: ﴿ٱصْلَوْهَا فَٱصْبِرُوٓا۟ أَوْ لَا تَصْبِرُوا۟ سَوَآءٌ عَلَيْكُمْ ۖ إِنَّمَا تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [الطور:١٦] وقولُه تعالى: ﴿سَوَآءٌ عَلَيْنَآ أَجَزِعْنَآ أَمْ صَبَرْنَا مَا لَنَا مِن مَّحِيصٍ﴾ [إبراهيم:٢١].

الْفَائِدَةُ التَّاسِعَةَ عَشْرَةَ: الإشارَةُ إلى أنَّ النَّار لا تَفنى؛ لقولِه: ﴿فَإِن يَصْبِرُوا۟ فَٱلنَّارُ مَثْوًى لَّهُمْ﴾ وهذا -أعني أنَّ النَّار لا تَفنى- هو قَولُ أهلِ السُّنَّةِ والجَماعَةِ كما أنَّ الجَنَّةَ أيضًا لا تفنى.

وقد زَعَمَ بعضُ العُلَماءِ أنَّ النَّارَ تفنى في آخِرِ النِّهايَةِ، لكنَّ هذا الزَّعْمَ باطلٌ، يعني لا يَستَحِقُّ مَنزلَةً أن نَقولَ: إنَّه ضعيفٌ، بل نَقولُ إنَّه باطلٌ لا يَنْبَغي أن تُسوَّدَ به الصَّحائفُ، وذلك لأنَّ كَلامَ اللهِ عَزَّوَجَلَّ الَّذي خَلَقَ النَّارَ، وهو عالمٌ بها وبمَصيرِها فيه التَّصريحُ بالتَّأبيدِ في ثَلاثَةِ مَواضِعَ من كتابِ اللهِ عَزَّوَجَلَّ:

المَوضِعُ الأَوَّلُ في سورَةِ النِّساءِ قولُه تعالَى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ثُمَّ كَفَرُوا۟ ثُمَّ ءَامَنُوا۟ ثُمَّ كَفَرُوا۟ ثُمَّ ٱزْدَادُوا۟ كُفْرًا لَّمْ يَكُنِ ٱللَّهُ لِيَغْفِرَ لَهُمْ وَلَا لِيَهْدِيَهُمْ سَبِيلًا﴾ [النساء:١٣٧].

والمَوضِعُ الثَّاني في سورةِ الأحزابِ قولُه تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَعَنَ ٱلْكَٰفِرِينَ وَأَعَدَّ لَهُمْ سَعِيرًا ﴿٦٤﴾ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۖ لَّا يَجِدُونَ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا﴾ [الأحزاب:٦٤-٦٥].

والمَوضِعُ الثَّالثُ في سورةِ الجِنِّ قولُه تعالى: ﴿وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَإِنَّ لَهُۥ نَارَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا﴾ [الجن:٢٣].

ولهذا الإنسان يَعجَبُ أن يَقَعَ من بعضِ العُلماءِ القَولُ بأنَّ النَّارَ تفنى مع وُجودِ الآياتِ الثَّلاثِ.

وقولُه: ﴿وَإِن يَسْتَعْتِبُوا۟ فَمَا هُم مِّنَ ٱلْمُعْتَبِينَ﴾ قد يَكونُ فيها إشارَةٌ إلى أنَّها ستَبقى أَبَدَ الآبِدينَ لأنَّه لو كان لها مُنتَهى فسوف يَعْتَبون في النِّهايَةِ.

فإنْ قال قائلٌ: هل يَثبُتُ عن ابنِ القَيِّمِ القَولُ بفَناءِ النَّارِ؟

فالجَوابُ: ابنُ القَيِّمِ رَحِمَهُ ٱللَّهُ تَجِدُ كَلامَه في (مِفتاحِ دارِ السَّعادَةِ) وفي (شِفاءُ العَليلِ)[1] تَشَمُّ منه رائحَةَ أنَّه يُرَجِّحُ ذلك بأنَّه ذَكَرَ القَولَينِ وذَكَرَ الأَدِلَّةَ، وهو رَحِمَهُ ٱللَّهُ إذا تَكَلَّمَ يشفي ويُطيلُ النَّفَسَ، فكَلامُه في هذين الكِتابَينِ تَشَمُّ منه رائحَةَ أنَّه يَميلُ إلى ذلك، لكن له كَلامٌ آخَرُ في (الوابلُ الصَّيِّبُ)[2] يدُلُّ على أنَّه يَرى أنَّ النَّارَ نارانِ؛ نارُ الكُفَّارِ هذه لا تفنى لأنَّهم خالدين فيها أبدًا، ونارُ العُصاةِ الَّذينَ يُعذَّبونَ بقَدْرِ ذُنوبِهم ثُمَّ يُخرَجون تفنى؛ لأنَّ أهلَها خَرَجوا منها، فإذا خَرَجوا منها ما بَقِيَ لبَقائِها فائدَةٌ.

وهذا التَّقسيمُ مِن النَّاحيَةِ العَقليَّةِ تَقسيمٌ قَوِيٌّ -أن يَميلَ إليه الإنسانُ من النَّاحيَةِ العَقليَّةِ-، لكن قد يبقى النَّظَرُ بأَنْ يَقولَ القائِلُ ما الدَّليلُ على أنَّ هناك نارين؟

---

(١) شفاء العليل (ص:٢٦٤).

(٢) الوابل الصيب (ص:٢٠).

الجواب: هذا يَحتاجُ إلى دَليلٍ، والَّذي يَظهَرُ مِنَ الأدِلَّةِ أنَّ النَّارَ واحدةٌ، وأنَّ العُصاةَ يُعذَّبونَ بالنَّارِ الَّتي يُعذَّبُ بها الكُفَّارُ، لكن عقلًا كَلامُه رَحِمَهُ ٱللَّهُ هذا التَّفصيليُّ كَلامٌ جَيِّدٌ، حتَّى لو قال قائِلٌ أيضًا: العَقْلُ يَدُلُّ على أنَّه لا بُدَّ أن تكونَ النَّارُ نارين؛ لأنَّه لا يُمكنُ أن يُعَذَّبَ المُؤمنُ الفاسِقُ بنارٍ شَديدةِ الحَرارَةِ كُلَّما نَضَجَ جِلدُه بُدِّلَ جلدًا آخَرَ كما تَكونُ نارُ الكُفَّارِ مِنَ النَّاحيَةِ العَقليَّةِ يُوافِقُ العَقْلَ تمامًا، فإن كان صوابًا فمِنَ اللهِ وإن كان خطأً فاللهُ يَعفو عنه.

ولا يَجوزُ أبدًا أن نَعرِفَ الحَقَّ بالرِّجالِ، يَجِبُ أن نَعرِفَ الحَقَّ بالدَّليلِ، فما دام بين أيدينا كَلامُ اللهِ عَزَّوَجَلَّ كيف نُفكِّرُ أن نُرَجِّحَ أو أن نَقولَ: قال فُلانٌ أو قال فُلانٌ، لو قال أَكبَرُ النَّاسِ ما عدا الرَّسولَ عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ قلنا: لا سَمْعَ ولا طاعَةَ ولا تَصديقَ ولا إيمانَ، بين أيدينا كَلامُ اللهِ عَزَّوَجَلَّ وهو الخالِقُ عَزَّوَجَلَّ والعالِمُ بكُلِّ شيءٍ.

الْفَائِدَةُ العِشْرُونَ: إثباتُ النَّارِ؛ لقولِه: ﴿فَٱلنَّارُ مَثْوًى لَّهُمْ﴾، وأنَّها هي المَثْوى وليس كما يَزْعُمُ بعضُ الكُتَّابِ اليومَ يَقولون: إنَّ المَيِّتَ إذا مات صار إلى مَثْواه الأخيرِ، وقد بَيَّنَّا أنَّ هذه الكَلِمَةَ كَلِمَةُ كُفْرٍ لو اعتَقَدَ الإنسانُ مَدلولَها، يعني لو اعتَقَدَ أنَّ القَبْرَ هو المَثْوى ولا قِيامَ بَعدَه لكان كافِرًا، فيُقالُ: إنَّ القَبْرَ ليس المَثْوى الأخيرَ.

••❁••

الآية (٢٥)

قال اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿ ۞ وَقَيَّضْنَا لَهُمْ قُرَنَاءَ فَزَيَّنُوا لَهُم مَّا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَحَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ فِي أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِم مِّنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ إِنَّهُمْ كَانُوا خَاسِرِينَ ﴾ [فصلت:٢٥].

يَقولُ المفسِّرُ رَحِمَهُ اللَّهُ: [﴿وَقَيَّضْنَا﴾ سببنا] والصَّوابُ: أنَّ معناها هَيَّأنا؛ أي هَيَّأْنا لهم قُرناءَ، وذُكِرَ الفاعِلُ بضَميرِ الجَمْعِ للتَّعظيمِ؛ لأنَّ ضَميرَ الجَمْعِ يُرادُ به تارَةً التَّعظيمُ وتارَةً التَّعدُّدَ، وهُنا لا يُمكِنُ أن يَكونَ المُرادُ به التَّعدُّدَ؛ لأنَّ اللهَ إلَهٌ واحدٌ.

﴿وَقَيَّضْنَا لَهُمْ قُرَنَاءَ﴾ يَقولُ المفسِّرُ رَحِمَهُ اللَّهُ: [من الشَّياطينَ]، والمُرادُ شَياطينُ الإنسِ وشَياطينُ الجِنِّ؛ لأنَّ هُناك قَرينًا خَفيًّا وهو قَرينُ الجِنِّ يَأمُرُ الإنسانَ بالسُّوءِ ويَنهاه عنِ الخَيرِ، وهُناكَ قَرينُ سوءٍ مِنَ الإنسِ، ولهذا مَثَّل النَّبيُّ -صلَّى اللهُ عليه وعلى آلِه وسلَّم- قَرينَ السُّوءِ بأنَّه كَنافِخِ الكيرِ، إمَّا أن يَحرِقَ ثِيابَك وإمَّا أن تَجِدَ منه رائِحَةً كريهَةً(١).

قال اللهُ تعالى: ﴿فَزَيَّنُوا لَهُم مَّا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ﴾ [فُصِّلَت:٢٥] زَيَّنوا أي القُرناءُ، ﴿لَهُم﴾ أي للمُقْتَرِنينَ بهم، ﴿مَّا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ﴾ يقولُ المفسِّرُ رَحِمَهُ اللَّهُ:

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب الذبائح والصيد، باب المسك، رقم (٥٥٣٤)، ومسلم: كتاب البر والصلة، باب استحباب مجالسة الصالحين، رقم (٢٦٢٨)، من حديث أبي موسى الأشعري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

[﴿مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ﴾ من أَمْـرِ الدُّنيا واتِّباعِ الشَّهواتِ ﴿وَمَا خَلْفَهُمْ﴾ مِن أمْرِ الآخِـرَةِ بقَولِهِم: لا بَعْثَ ولا حِسابَ] هؤلاءِ القُرناءُ حَسَّنوا لهم ما بين أيديهم مِنْ أمْرِ الدُّنيا، وقالوا لهم: اتَّبِعوا الشَّهواتِ، كَيِّفوا كما شِئْتُمْ، أَتْرِفوا كما شئتم، كما قال تعالى: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا قَبْلَ ذَٰلِكَ مُتْرَفِينَ﴾ [الواقعة:٤٥] ومَنُّوهم وما خَلْفَهم، أي: ما أمامهم؛ لأنَّ الخَلْفَ والوَراءَ قد يُرادُ به الأَمامُ كما في قولِه تعالى: ﴿وَكَانَ وَرَاءَهُم مَّلِكٌ يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصْبًا﴾ [الكهف:٧٩] يعني: أمامَهم.

إذن: زَيَّنوا لهم الآخِرَةَ أيضًا بأنْ مَنُّوهم بأَحَدِ أَمْرينِ: إمَّا بالنَّجاةِ منَ العَذابِ في قولِهِم: لا بَعْثَ ولا حِسابَ، وإمَّا أن يَنْتَقِلوا إلى خَيرٍ من ذَلِكَ، ويقولوا: إنَّ الَّذي أَتْرَفَنا في الدنيا سوف يُتْرِفُنا في الآخِرَةِ، كقول بعضهم: ﴿هَٰذَا لِي وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً وَلَئِن رُّجِعْتُ إِلَىٰ رَبِّي إِنَّ لِي عِندَهُ لَلْحُسْنَىٰ﴾ [فُصِّلَت:٥٠]، وكقولِ صاحِبِ الجَنَّتينِ: ﴿وَلَئِن رُّدِدتُّ إِلَىٰ رَبِّي لَأَجِدَنَّ خَيْرًا مِّنْهَا مُنقَلَبًا﴾ [الكهف:٣٦]، فهكذا يُمَنِّي الشَّيطانُ أولياءَه يَقولُ: انبَسِطوا بالدُّنيا أَتْرِفوا أنفُسَكم، وفي الآخِرَةِ سوف تَنْتَقِلونَ إلى ما هو أَفْضَلُ، زَيَّنوا لهم ما بين أيديهم وما خَلْفَهم ومَنَّوا لهمُ الأمانِيَّ.

قال تعالى: ﴿وَحَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ فِي أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِم مِّنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ ۖ إِنَّهُمْ كَانُوا خَاسِرِينَ﴾ [فُصِّلَت:٢٥]، حقَّ عليهم أي: وَجَبَ القولُ، قَولُ الله تَبَارَكَ وَتَعَالَى، والقَولُ الَّذي حَقَّ فَسَّرَه المفَسِّرُ رَحِمَهُ اللَّهُ بقوله: [وهو ﴿لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ﴾ السجدة:١٣]. وقيل: القَولُ: هو قولُه تَعالَى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٩٦﴾ وَلَوْ جَاءَتْهُمْ كُلُّ آيَةٍ حَتَّىٰ يَرَوُا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ﴾ [يونس:٩٦-٩٧].

ونَقولُ -كما أَسْلَفنا في القاعِدَةِ في التَّفسيرِ- أنَّ الآيَةَ إذا كانت تَحتَمِلُ مَعنيينِ لا مُرَجِّحَ لأَحَدِهما على الآخَرِ، ولا مُنافاةَ بينهما، فإنَّها تُحمَلُ على المَعنَيينِ جميعًا،

نَقولُ: حقَّ عليهم قَولُ اللهِ تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ حَقَّتۡ عَلَيۡهِمۡ كَلِمَتُ رَبِّكَ لَا يُؤۡمِنُونَ ﴿٩٦﴾ وَلَوۡ جَآءَتۡهُمۡ كُلُّ ءَايَةٍ حَتَّىٰ يَرَوُاْ ٱلۡعَذَابَ ٱلۡأَلِيمَ﴾ وهذا في الدُّنيا، يعني: مهما عالجت الإنسانَ الَّذي حَقَّت عليه كَلِمَةُ اللهِ، فلن يهتَديَ، وحَقَّت عليهم كَلِمَةُ اللهِ في الآخِرَةِ وهي: ﴿لَأَمۡلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ ٱلۡجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ أَجۡمَعِينَ﴾، إذن لا فائِدَةَ.

إنَّ أَبْرَزَ مَثَلٍ لنا في هذا ما حَصَلَ للنَّبيِّ ﷺ مع عَمِّه أبي طالِبٍ الَّذي كان -أعني: عَمَّه- يُدافِعُ عنه أَشَدَّ المُدافَعَةِ ويُؤويه ويَنْصُرُه ويَشْهَدُ أنَّه حقٌّ، لكنَّه لم يَنقاد لذلك ولم يَتَّبِعْ، فما أَغْنَى عنه مِنَ اللهِ شيئًا، عند موتِه يَقولُ: «يا عَمِّ، قل: لا إلَهَ إلَّا اللهُ كَلِمَةً أُحاجُّ لك بها عِنْدَ اللهِ»[1]، ولم يَنْفَعْه ذلك كان آخِرَ ما قال: أنَّه على مِلَّةِ عَبدِ المُطَّلِبِ؛ لأنَّ أبا طالِبٍ عِندَ مَوتِه حَضَرَه النَّبيُّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ وحَضَرَه رجُلانِ من كِبارِ قُريشٍ، فكان الرَّسولُ يَقولُ: «يا عَمِّ قُلْ: لا إلَهَ إلَّا اللهُ وهما يقولانِ له: أَتَرْغَبُ عن مِلَّةِ عَبدِ المُطَّلبِ يَعني عن مِلَّةِ الكُفْرِ»، فآخِرُ ما قال هو على مِلَّةِ عَبدِ المُطَّلِب، وأبى أن يَقولَ: لا إلَهَ إلَّا اللهُ مع العِلْمِ بأنَّه يُقِرُّ ويَعترِفُ بأنَّ الرَّسولَ حَقٌّ، يَقولُ[2]:

ولقد عَلِمْتُ بأنَّ دِينَ مُحَمَّدٍ ... مِن خَيرِ أَديانِ البَرِيَّةِ دِينًا

ويقولُ في لامِيَّتِه المَشهورةِ[3]:

لقد عَلِموا أنَّ ابْنَنا لا مُكَذَّبٌ ... لَدَينا ولا يُعنى بقَولِ الأباطِلِ

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب الجنائز، باب إذا قال المشرك عند الموت: لا إله إلا الله، رقم (١٣٦٠)، ومسلم: كتاب الإيمان، باب أول الإيمان قول لا إله إلا الله، رقم (٢٤)، من حديث المسيب بن حزن رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٢) انظر: تهذيب اللغة (١٠/ ١١١)، وخزانة الأدب (٢/ ٧٦)، وديوان أبي طالب (ص:٨٧، ١٨٩).

(٣) انظر: سيرة ابن هشام (١/ ٢٨٠)، وديوان أبي طالب (ص:٨٤).

أي: بقولِ السَّحَرَةِ، يعني: ليس بِساحِرٍ، ومع ذلك فقد حَقَّتْ عليه الكَلِمَةُ نَسأَلُ اللهَ العافِيَةَ، وأن يُحسِنَ لنا ولكم الخاتِمَةَ، حَقَّت عليه الكَلِمَةُ فلم يُؤمِنْ.

يَقولُ المُفسِّرُ رَحِمَهُ اللَّهُ: [﴿فِيٓ﴾ جُمْلَةِ ﴿أُمَمٍ﴾] يَعني في جُمْلَتِها، واحتَجْنا إلى قَولِ في جُمْلَةٍ، يعني: إِدخالَ جُمْلَةٍ مع أنَّها مَعروفَةٌ في السِّياقِ، لأنَّه لو قال: في أُمَمٍ، لكان هؤلاءِ مُشارِكينَ لكُلِّ الأُمَمِ الماضيةِ والمُستَقْبَلَةِ مع أنَّهم في أُمَّتِهم وَحدَهم، فيكونُ المعنى: ﴿فِيٓ أُمَمٍ﴾ أيْ [﴿فِيٓ﴾ جُمْلَةَ ﴿أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ﴾ هَلَكَتْ ﴿مِن قَبْلِهِم مِّنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ﴾.. إلخ].

قولُه تعالى: ﴿مِن قَبْلِهِم﴾؛ أي: قَبْلَ هؤلاءِ المُكذِّبينَ، ﴿مِّنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ﴾، الجِنُّ هم عالَمٌ غيبيٌّ خَلَقَهمُ اللهُ تعالى من نارٍ؛ لأنَّ أباهم إبليسَ كان مِن نارٍ، ولهذا كان شأنُهم، أو كانت حالُهم الطَّيْشَ والسُّرعَةَ والاندِفاعَ كالنَّارِ في لَهَبِها، فهم خُلِقوا مِنَ النَّارِ، وهم مُكلَّفون بالإيمانِ باللهِ ومَلائِكتِه وكُتُبِه ورُسُلِه واليومِ الآخِرِ، ولكن هل الأعمالُ الَّتي كُلِّفوا بها، هَلْ هي الأَعْمالُ الَّتي كُلِّفتْ بها الإنسُ أو غيرُها؟

إن نَظَرنا إلى عُموماتِ الأدِلَّةِ قُلنا: إنَّ الجِنَّ مُكلَّفَةٌ بما كُلِّفَ به الإنسُ؛ لأنَّ الشَّريعَةَ الَّتي بين أيدينا لم تأتِ بشَريعَةٍ للجِنِّ، بَلِ الشَّريعَةُ واحدَةٌ والرَّسولُ واحدٌ، فهم مُكلَّفون مَثلًا بصَلاةٍ كصَلاتِنا ووُضوءٍ كوُضوئِنا وحَجٍّ كحَجِّنا وصَومٍ كَصَومِنا وصَدَقَةٍ كصَدَقَتِنا، كُلُّ ما نَحنُ مُكلَّفون به فَهُمْ مُكلَّفون به، إذ إنَّنا لا نَرى في الشَّريعَةِ الَّتي بينَ أيدينا تَشريعاتٍ لِلجِنِّ هذا إذا نظرنا إلى عُمومِ الأدِلَّةِ.

وإذا نَظَرنا إلى حِكْمَةِ اللهِ تعالى في شَرْعِه قُلنا: إنَّهم مُكلَّفون بِشَريعَةٍ تَليقُ بهم، فكما أنَّ الإنسَ إذا اختَلَفوا يُجعَلُ لكُلِّ صِنفٍ ما يَليقُ به فكذلك الجِنُّ، والجِنُّ مُخالِفونَ تَمامًا للإنسِ في الحَدِّ والحَقيقَةِ، فتكونُ شَريعَتُهُمْ خاصَّةً تَلِيقُ بهم، لكنَّ

تَحريمَ الشِّركِ والظُّلم والعُدوانِ وما أَشْبَهَ ذلك هذا عامٌّ على الجِنِّ والإنسِ، إنَّما أُريدَ التَّكليفاتُ البَدَنيَّةُ كالصَّلاةِ مثلًا، هل صَلاتُهُمْ كصَلاتِنا أو صِيامُهم كصِيامِنا، هذا هو مَحَلُّ الخِلافِ بينَ العُلَماءِ.

فمنهم مَنْ يَقولُ: إنَّ الجِنَّ مُكلَّفونَ كما كُلِّف الإنسُ تمامًا، وحُجَّةُ هَؤلاءِ عُمومُ الأَدِلَّةِ الَّتي بين أَيدينا الَّتي أُرسِلَ بها الرَّسولُ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ لا نَجِدُ فيها أحكامًا تَخُصُّ الجِنَّ، فالأصلُ العُمومُ، وَالأصلُ أنَّ كُلَّ ما كُلِّفَ بِهِ الإنسُ هو ما كُلِّفَ به الجِنُّ.

فإنْ قال قائلٌ: حُجَّتُهم أنَّهم خَلْقٌ من خَلْقِ اللهِ! **قلنا**: تَرِدُ عليه المَلائِكَةُ.

القَولُ الثَّاني: أنَّ الجِنَّ يَختَلِفونَ عن الإنسِ في العِبادَةِ وما كُلِّفوا به، ووَجهُ ذلك أنَّنا نَجِدُ مِن حِكمَةِ اللهِ أنَّ التَّشريعاتِ مُناسِبَةٌ للمُكَلَّف بها، فالمَريضُ يُصلِّي قاعدًا، والمُسافِرُ يُؤخِّرُ الصَّومَ، والَّذي لا يَستطيعُ الرُّكوبَ على الرَّحلِ لا يَحُجُّ، فإذا كانت هذه الِاختِلافاتُ تَكونُ بين الإنسِ لاختلافِ أحوالِهم، فما بين الإنسِ والجِنِّ من باب أَوْلَى.

لكنَّ هُناك أشياءَ لا إِشكالَ فيها وهي: تَحريمُ الشِّركِ والظُّلمِ والعُدوانِ وما أَشْبَهَ ذلك؛ ولذلك نَجِدُ كَثيرًا مِنَ العُلَماءِ الَّذين يَقْرَؤونَ على مَنْ مَسَّهم الشَّيطانُ يُذَكِّرونهم بتَحريمِ الظُّلمِ، وأنَّه حَرامٌ، وأنَّهم مُعتَدونَ، وما أَشْبَهَ ذلك ممَّا يدُلُّ على أنَّهم مُلتَزِمون بهذا.

فإنْ قال قائلٌ: مِنَ المَعلومِ أنَّ العِباداتِ تَوقِيفِيَّةٌ فكيفَ سيَعْبُدون اللهَ عَزَّوَجَلَّ إذن؟

فالجوابُ: يَعْبُدونه بشَريعَةٍ مِنَ اللهِ يَكونُ الرَّسولُ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ قد عَلَّمَهُمْ؛ لأنَّهُ اجتَمَعَ بهم وعَلَّمَهم ما يَلْزَمُهم.

يَقولُ اللهُ تَعالَى: ﴿مِّنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ﴾، إذن الجِنُّ عالَمٌ غَيبيٌّ، خُلِقوا مِن نارٍ، مُكلَّفون بشَريعَةِ النَّبيِّ ﷺ إلزامًا؛ لأنَّه مُرسَلٌ إلى الجِنِّ والإنسِ، لكنَّ غَيْرَ الرَّسولِ لا نَعلَمُ هل هُمْ مُلْزَمونَ بذلك أو لا، لكنَّهم مَأذونٌ لهم أن يَعْمَلوا بها كما قال تَعالَى: ﴿وَإِذْ صَرَفْنَآ إِلَيْكَ نَفَرًا مِّنَ ٱلْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ ٱلْقُرْءَانَ فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوٓا۟ أَنصِتُوا۟ ۖ فَلَمَّا قُضِىَ وَلَّوْا۟ إِلَىٰ قَوْمِهِم مُّنذِرِينَ ﴿٢٩﴾ قَالُوا۟ يَٰقَوْمَنَآ إِنَّا سَمِعْنَا كِتَٰبًا أُنزِلَ مِنۢ بَعْدِ مُوسَىٰ﴾ [الأحقاف:٢٩-٣٠] ممَّا يدُلُّ على أنَّهم انْتَفَعوا بكِتابِ موسى: ﴿أُنزِلَ مِنۢ بَعْدِ مُوسَىٰ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ يَهْدِىٓ إِلَى ٱلْحَقِّ وَإِلَىٰ طَرِيقٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [الأحقاف:٣٠]، فهم مُلْزَمون بالعَمَلِ بِشَريعَةِ مُحَمَّدٍ ﷺ.

قُلنا: إنَّهم عالَمٌ غَيبيٌّ، لكن رُبَّما يَبْرُزونَ لبَعضِ النَّاسِ يَتَلَوَّنونَ، فقد يَتَراءَى الجِنُّ للإنسيِّ بصورَةِ إنسانٍ فَخْمٍ كَبيرٍ عَظيمٍ، أو بصورَةِ هيكلٍ له قُرونٌ وله آذانٌ وله أَرْجُلٌ طَويلَةٌ وما أشبه ذلك، وأمَّا ما زَعَمَ بَعضُ النَّاسِ أنَّهم أَجسادٌ ليس فيها عِظامٌ، وأنَّهم إذا لَمَسْتَه وَجَدتَه رَقيقًا جدًّا، وأنَّ أعينَهم مَشقوقَةٌ طولًا هكذا، فهذا لا أَصْلَ له.

إذن؛ نَقولُ: هُمْ عالَمٌ غَيبيٌّ، ويَدُلُّ لذلك المادَّةُ الَّتي يوصَفونَ بها يعني: الجِنَّ؛ لأنَّ الجيمَ والنُّونَ تَدُلُّ على الاِستِتارِ والخَفاءِ، أرأيتم الجَنَّةَ، الجَنَّةُ: هي البُستانُ الكَثيرُ الأشجارِ، والجِنَّةُ: الجِنُّ، والجُنَّةُ: ما يَتَّخِذُه المُقاتِلُ لحِمايَةِ نَفسِه مِنَ السِّهامِ يَستَتِرُ به.

فإنْ قال قائِلٌ: الجِنُّ هل فيهم رَسولٌ؟

فالجَوابُ: يَقولُ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُّوحِىٓ إِلَيْهِمْ﴾ [النحل:٤٣] وقال العُلماءُ: إنَّ الرِّجالَ لا يَكونونَ مِنَ الجِنِّ، لكن في هذا التَّعليلِ نَظَرٌ؛

لأنَّ اللهَ يقولُ في سورةِ الجنِّ: ﴿وَأَنَّهُۥ كَانَ رِجَالٌ مِّنَ ٱلْإِنسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِّنَ ٱلْجِنِّ﴾ [الجن:٦]، قالوا: الآيَةُ الأُخرى: ﴿إِلَّا رِجَالًا نُّوحِىٓ إِلَيْهِم مِّنْ أَهْلِ ٱلْقُرَىٰٓ﴾ [يوسف:١٠٩]، فيُقالُ: الجِنُّ أيضًا من أَهْلِ القُرى، لكنَّ الأحقَّ بالأرضِ الإنسُ لا شكَّ، ولهذا لو اعتَدى أحدٌ مِنَ الجِنِّ ونزل بيتَكَ فلك أن تُخرِجَهُ، والدَّليلُ هو أنَّ الرَّسولَ -صلَّى اللهُ عليه وعلى آله وسلَّم- جعَلَ الأرضَ لمالكِها: «مَنِ اقتَطَع شِبرًا مِنَ الأرضِ ظُلمًا طَوَّقه اللهُ بها يومَ القِيامَةِ من سَبْعِ أَرَضِينَ»(١).

فأنا أَستطيعُ أن أَحْرُثَ في الأَرْضِ وأَزرَعَ وأَبني وأَعْمَلَ ما شِئتُ ولا مُعارِضَ لي، ولكن: كيف لو جاءوا واعتدوا على بَيتِك وحَفَروا فيه وأصبحت، وإذا السَّطْحُ مملوءٌ مِنَ الزَّرعِ والمَجالِسُ مملوءةٌ مِنَ النَّخيلِ!

قال اللهُ تعالَى: ﴿وَٱلْإِنسِ﴾ هُم هَؤلاءِ البَشَرِ مِن بَني آدَمَ وسُمُّوا إنسًا؛ لأنَّ بَعضَهم يأنسُ ببَعضٍ، ولهذا قيل: إنَّ الإنسانَ مَدنيٌّ بالطَّبْعِ.

وقال تعالى: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا۟ خَٰسِرِينَ﴾ ﴿إِنَّهُمْ﴾، أيِ الَّذين حَقَّ عليهم القَولُ ﴿كَانُوا۟ خَٰسِرِينَ﴾ كانوا في عِلمِ اللهِ وليس يَومَ القيامَةِ؛ لأنَّه لو كان كذلك لقال: يَكونون، لكن ﴿كَانُوا۟﴾ في عِلمِ اللهِ عَزَّوَجَلَّ وتَقديرُهُ: ﴿خَٰسِرِينَ﴾.

فإنْ قال قائِلٌ: ألا يَجوزُ أن يَكونَ قولُه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا۟ خَٰسِرِينَ﴾ على أنَّه يومُ القيامَةِ من باب قولِهِ تَعالَى: ﴿أَتَىٰٓ أَمْرُ ٱللَّهِ فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ﴾ [النحل:١]؟

فالجَوابُ: لا، ﴿أَتَىٰٓ أَمْرُ ٱللَّهِ فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ﴾ لو لا أنَّهُ قال: ﴿فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ﴾ لكان على ظاهِرِه.

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب المظالم، باب إثم من ظلم شيئًا من الأرض، رقم (٢٤٥٢، ٢٤٥٣)، ومسلم: كتاب المساقاة، باب تحريم الظلم وغصب الأرض وغيرها، رقم (١٦١٠)، من حديث سعيد بن زيد رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

ولكن اعْلَموا بارَكَ اللهُ فيكم أنَّه لا يُمكِنُ لأحدٍ أن يَضِلَّ إلَّا وهو السَّببُ في ضلالِ نفسِه، لَدينا آيَةٌ من كِتابِ اللهِ حاكِمَةٌ على كُلِّ ذلك، على كُلِّ مَن يَتوهَّمُ أنَّ الضَّلالَ مُقدَّرٌ من عِندِ اللهِ تَعالَى ابتلاءً وامتحانًا، وإن كان الأَمْرُ كذلك، لكان سَببُ ضَلالِ الإنسانِ هو نَفسُهُ، قال اللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: ﴿فَلَمَّا زَاغُوٓا۟ أَزَاغَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمْ﴾ [الصف:٥]، وقال تَعالَى: ﴿وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ٱلَّذِىٓ ءَاتَيْنَٰهُ ءَايَٰتِنَا فَٱنسَلَخَ مِنْهَا فَأَتْبَعَهُ ٱلشَّيْطَٰنُ فَكَانَ مِنَ ٱلْغَاوِينَ ﴿١٧٥﴾ وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَٰهُ بِهَا وَلَٰكِنَّهُۥٓ أَخْلَدَ إِلَى ٱلْأَرْضِ﴾ [الأعراف:١٧٥-١٧٦]، فماذا نَفعَلُ إذا كان هو الَّذي أَخلَدَ إلى الأَرضِ واتَّبَعَ هَواهُ فماذا نَفعلُ؟

فاعْلَمْ أنَّ كُلَّ شيءٍ مِنَ المَعاصي فأنت سَببُه، وإن شِئتَ فاقْرَأْ قولَ اللهِ تعالى: ﴿فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَٱعْلَمْ أَنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُصِيبَهُم بِبَعْضِ ذُنُوبِهِمْ﴾ [المائدة:٤٩] يا لها من مَوعِظَةٍ في هذه الآيةِ، أنَّك إذا تَولَّيت عن أَمْرِ اللهِ فاعْلَمْ أنَّ ذلك مِن ذَنبِك، فاعْلَمْ أنَّ اللهَ إنَّما يُريدُ أن يُصيبَهم ببَعْضِ ذُنوبِهم، فصار الإِعْراضُ عُقوبَةً، وهذا أَمْرٌ قد لا يَتَفَطَّنُ له بَعضُ النَّاسِ، إعراضُك عَنِ اللهِ وعن دينِ اللهِ هو عُقوبَةٌ منَ اللهِ عَزَّوَجَلَّ لقولِهِ: ﴿فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَٱعْلَمْ أَنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُصِيبَهُم بِبَعْضِ ذُنُوبِهِمْ ۗ وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ لَفَٰسِقُونَ﴾ [المائدة:٤٩].

من فوائِدِ الآيَةِ الكريمَةِ:

الْفَائِدَةُ الأُولَى: بيانُ عَظمَةِ اللهِ عَزَّوَجَلَّ لقوله: ﴿وَقَيَّضْنَا﴾، لأنَّ (نا) تُفيدُ العَظَمَةَ.

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَةُ: الرَّدُّ على المُعتزِلَةِ الَّذين يَقولون: إنَّ الإنسانَ مُستَقِلٌّ بعَمَلِه، وأنَّه لا عِلاقَةَ للهِ تَعالَى به.

والنَّاسُ في هذا البابِ على ثَلاثَةِ أقسامٍ:

القِسْمُ الأَوَّلُ: مَن قال: إنَّ الإنسانَ مُجبَرٌ على عَمَلِه وليس له إِرادَةٌ ولا اختيارٌ،

وأنَّ فِعلَه الاختِياريَّ كفِعْلِه الاضْطِراريِّ، فالَّذي يَذهَبُ ويَجيءُ باختِيارِهِ كالَّذي يَرتَعِشُ أو يَمْشي مجنونًا في الأرضِ، وهذا مَذهبُ الجَبْرِيَّةِ وزَعيمُهم الجَهْمُ بنُ صَفوانَ الَّذي تَتَلمَذَ على الجَعْدِ بنِ دِرهَمٍ.

القِسْمُ الثَّاني: مَن قال: إنَّ العَبدَ مُستقِلٌّ بعَمَلِه وليس للهِ فيه عَلاقَةٌ، فالإنسانُ مُريدٌ مُختارٌ ولا لأَحدٍ عليه سُلطَةٌ، وهذا مَذهَبُ القَدريَّةِ وهم المُعتَزِلَةُ، والقَدَريَّةُ يُسَمَّونَ مَجوسَ هذه الأُمَّةِ؛ لأنَّهم ادَّعَوْا أنَّ للحَوادثِ خالِقَينِ، فالحَوادثُ الَّتي هي من فِعْلِ اللهِ هي مِن فِعلِهِ، والحَوادثُ الَّتي هي مِن فِعلِ العَبدِ هي مِن فِعلِه استقلالًا، وهؤلاء هُمُ المُعتزِلَةُ ومَن ظاهَرَهم، وزُعماؤُهم عَمْرُو بنُ عُبَيْدٍ وواصِلُ بنُ عَطاءٍ.

القِسم الثَّالثُ: مَن قالوا: إنَّ العَبدَ له إرادةٌ واختيارٌ، ولكنَّ إرادتَه واختيارَهُ تَابعَةٌ لإرادَةِ اللهِ تَعالَى ومَشيئتِهِ، وهَؤلاءِ هُمُ السَّلَفُ الصَّالحُ أَهْلُ السُّنَّةِ والجَماعةِ، فقالوا: إنَّ العَبدَ هو الصَّائمُ القائمُ الرَّاكعُ السَّاجدُ الذَّاهبُ الجَائي هو العَبدُ وليس اللهُ، وقالوا: إنَّ هذه الأفعالَ تُنسَبُ إليه، وما أَكثرَ ما في القُرآنِ: ﴿جَزَآءَۢ بِمَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ﴾ [الأحقاف:١٤]، ﴿جَزَآءَۢ بِمَا كَانُواْ يَكۡسِبُونَ﴾ [التوبة:٨٢]، وما أَشبَهَ ذلك؛ ولكنَّها لم تَقعْ خارجَةً عن قُدرةِ اللهِ تعالى ومَشيئتِهِ، بل هي تَحتَ قُدرَةِ اللهِ تعالى ومَشيئَتِه، وفائِدَةُ ذلك أنَّه إذا وَقعَ الفِعلُ مِنَّا عَلِمْنا أنَّ اللهَ قد شاءَه وأَرادَه، ولسنا مُستقِلِّين به.

وهذه الآيـةُ: ﴿وَقَيَّضۡنَا لَهُمۡ قُرَنَآءَ فَزَيَّنُواْ لَهُم﴾ تَـرُدُّ على الطَّائفتَيـنِ جميعًا. ﴿وَقَيَّضۡنَا﴾ تَرُدُّ على القَدريَّةِ، و﴿فَزَيَّنُواْ﴾ نَسبَت الفِعلَ إليهم تَرُدُّ على الجَبريَّةِ.

الْفَائِدَةُ الثَّالِثَةُ: الحَـذَرُ مِنَ الوَساوسِ الَّتي يُلقيها الشَّيطانُ لفاعلِ المَعصيَـةِ ويُزيِّنُها له، ويَقولُ: هذه سَهلَةٌ، اللهُ غَفورٌ رَحيمٌ، افعَلْ هذا ثُمَّ تُبْ وما أَشْبَهَ ذلك، احذَرْ من هذا، فإنَّ هذا وَعدُ الشَّيطانِ، ﴿وَمَا يَعِدُهُمُ ٱلشَّيۡطَٰنُ إِلَّا غُرُورًا﴾ [النساء:١٢٠].

الْفَائِدَةُ الرَّابِعَةُ: أنَّ هؤلاءِ الَّذين تابَعوا القُرناءَ قد خَسِروا؛ لقولِهِ: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا۟ خَٰسِرِينَ﴾[فُصِّلَت:٢٥].

الْفَائِدَةُ الخَامِسَةُ: أنَّ هؤلاءِ الَّذين استَحْسَنوا ما زَيَّنَه لهمُ القُرناءُ حَقَّ عليهم القَولُ، وسَبَقَ أنَّ القَولَ على رَأيِ المفسِّر هو: ﴿لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ﴾ [الأعراف:١٨]، وهو على ما ذَكَرْناه هو قَولُه: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ﴾[يونس:٩٦]، ولا يَبعُدُ أن يَكونَ المُرادُ به بذلك الأَمْرانِ جميعًا.

الْفَائِدَةُ السَّادِسَةُ: كَثرةُ الضَّالِّينَ مِن هؤلاء القُرَناءِ؛ لقولِه: ﴿وَحَقَّ عَلَيْهِمُ ٱلْقَوْلُ فِىٓ أُمَمٍ﴾.

• ● ۞ ● •

الآية (٢٦)

• ● ● •

قال اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَا تَسْمَعُواْ لِهَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ وَٱلْغَوْاْ فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ﴾ [فصلت:٢٦].

• ● ● •

يَقولُ المُفسِّرُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ عِندَ قِراءَةِ النَّبيِّ ﷺ] يعني: للقُرآنِ: ﴿لَا تَسْمَعُواْ لِهَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ﴾ يعني: أنَّ بَعضَهم يوصي بَعضًا يقولُ: لا تَسْمَعوا لهذا القُرآنِ، أي: لا تُنْصِتوا له ولا تَستَمِعوا إليه، وابتَعِدوا عنه؛ وذلك لأنَّ القُرآنَ يُؤثِّرُ في قَلبِ مَنْ يَسمعُه، حتَّى إنَّ بَعضَ المُشرِكينَ مِن كُبَرائِهم يَأتونَ إلى النَّبيِّ ﷺ يَستَمِعون قِراءَتَه اختِفاءً في اللَّيلِ لئلَّا يَطَّلِع عليهم؛ لأنَّهم يَسمَعون قَولًا يَسلُبُ العُقولَ ويَأخُذُ بالنُّفوسِ، فهُم يوصي بَعضُهم بعضًا يَقولُ: ﴿لَا تَسْمَعُواْ لِهَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ﴾.

و﴿ٱلْقُرْءَانِ﴾ هو كَلامُ اللهِ وهو على وَزنِ فَعلانَ، وفَعْلانُ مَصدَرٌ كالغُفْرانِ والشُّكرانِ.

وهل هو مِنْ قَرَأَ أو مِن قَرَى أو منهما جَميعًا؟ نَقولُ: هو صالِحٌ للجَميعِ، فإنْ كان مِن (قَرَأَ) فهو مِنَ القِراءةِ وهي التِّلاوَةُ، وإن كان مِنْ (قَرَى) يَقري بمعنى جَمَعَ، ومنه القَرْيَةُ لأنَّها تَجمَعُ أقوامًا، فالقُرآنُ جامِعٌ.

ثُمَّ هل هو فاعِلٌ أو مَفعولٌ؟ نَقولُ: إذا كان مِنْ (قَرَأَ) فهو مَفعولٌ؛ لأنَّه قُرآنٌ مَقروءٌ، فهو مَصدرٌ بمعنى مَفعولٍ، وإن كان مِن (قَرَى) فهو بمَعنى فاعِلٍ وبمعنى

مَفعولٍ؛ أي: إنَّه مُشتَرِكٌ بين فاعِلٍ ومَفعولٍ، فهو جامِعٌ وهو مجموعٌ؛ لأنَّه يُكتَبُ وتُجمَعُ حُروفُه بَعضُها إلى بَعضٍ، والمُرادُ به ما نَزَلَ على مُحمَّدٍ -صلَّى اللهُ عليه وعلى آلِه وسلَّم-.

﴿لَا تَسْمَعُوا لِهَٰذَا الْقُرْآنِ وَالْغَوْا فِيهِ﴾ ﴿لِهَٰذَا الْقُرْآنِ﴾، المُرادُ بالإشارَةِ هنا التَّحقيرُ يعني: هذا لا يُساوي شيئًا لا تَسمَعوا إليه، ويُشْبِهُ هذا مِن بَعضِ الوُجوهِ: ﴿أَهَٰذَا الَّذِي يَذْكُرُ آلِهَتَكُمْ﴾ [الأنبياء:٣٦] احتِقارٌ، يعني: أهذا الَّذي يَسُبُّها مَنْ هو، ﴿أَهَٰذَا الَّذِي بَعَثَ اللَّهُ رَسُولًا﴾ [الفرقان:٤١]، وهذا للاحتِقارِ لكنَّه مُستَفادٌ مِنْ الاستِفهامِ. أمَّا هُنا فهو مُستَفادٌ مِنَ الإشارَةِ الدَّالَّةِ على التَّحقيرِ.

يَقولُ المفسِّرُ رَحِمَهُ اللَّهُ: [﴿وَالْغَوْا فِيهِ﴾ ائتوا باللَّغطِ ونَحْوِه وصيحوا في زَمَنِ قِراءتِه].

﴿وَالْغَوْا فِيهِ﴾ يعني: عِندَما تَسمَعون رَسولَ اللهِ ﷺ يَقرأُ صَوِّتوا وتَصايَحوا؛ لأَجْلِ أن تَخْلِطوا عليه قِراءَتَه وتَحولوا بينَهُ وبينَ السَّماعِ.

يَعني: فَهُمْ يَفْعَلون ذلك لأَمْرينِ:

الأَوَّلُ: التَّخليطُ على النَّبيِّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ في قِراءتِهِ.

والثَّاني: أَلَّا يَسمَعَ أحدٌ قِراءتَه من أَجْلِ الضَّوضاءِ واللَّغَطِ.

﴿وَالْغَوْا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ﴾ [فُصِّلَت:٢٦] (لعلَّ) للتَّعليلِ، وتَأتي لِلإشفاقِ، وللتَّرجِّي، وللتَّمنِّي. كُلُّ هذه المَعاني تَختَلِفُ بِحَسَبِ السِّياقِ؛ لأنَّ السِّياقَ هو الَّذي يُعَيِّنُ مَعاني الكَلِماتِ.

يَقولُ المفسِّرُ رَحِمَهُ اللَّهُ: [﴿لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ﴾ فيَسكُتُ عنِ القِراءةِ]؛ لأنَّه إذا سَمِعَ

الأصواتَ والضَّجَّةَ والضَّوضاءَ واختَلَطَت عليه قِراءَتُهُ؛ فإنَّه لا يَرى فائدَةً مِنَ القِراءَةِ، وحينَئذٍ يَسكُتُ هذا ما يَفعَلُه هَؤلاءِ المُشركونَ.

فإنْ قال قائلٌ: إنَّ كثيرًا مِنَ النَّاسِ يَشغَلونَ القُرآنَ في المَنازِلِ والمَتاجِرِ، ولم يَعتادوا اللَّغَطَ والسَّبَّ والشَّتمَ، لكن رُبَّما حَدَّثوا أَحاديثَ جانِبيَّةً كأن يَكونَ في المَطبَخِ مثلًا أو ما أشبه ذلك.

ثُمَّ إنَّ القُرآنَ على إذاعَةِ القُرآنِ الَّتي يَأتي مَرَّةً حَديثٌ ومرةً قرآنٌ، وهم يُحِبُّون القُرآنَ ويَأنَسونَ به ويَستفيدونَ فوائِدَ كَثيرةً، ويَقولون: إذا لم نُشَغِّلِ القُرآنَ تَأتي هَواجِسُ؟

فالجَوابُ: المَحظورُ اللَّغو فقط، أمَّا إن كانوا لا يَنْتَبِهون أحيانًا فإنَّ الإنسانَ الَّذي يَقرأُ والمُصحَفُ بين يديه أحيانًا يَقْرَأُ بفَمِه وقَلْبه ليس بِقارِئٍ، فالمَحظورُ مثلًا أنَّ ناسًا مَشغُولونَ بدُنياهم والقُرآنُ يُقْرَأُ، أمَّا مثلًا امْرأَةٌ تَطْبُخُ أو تَغسِلُ ثِيابَها وتَستَمِعُ لِلقُرآنِ، فهذا لا يوجِبُ التَّلَهِّي عنه.

فإنْ قال قائِلٌ: ما حُكْمُ مَن يُشَغِّلُ القُرآنَ في المُسَجِّلِ ويُرَدِّدُ معه للتَّحفُّظِ وتَحسينِ النُّطْقِ؟

فالجَوابُ: لا بَأسَ به، ليس هناك مانِعٌ.

فإنْ قال قائِلٌ: بالنِّسبَةِ لِمَنْ يَقرأُ القُرآنَ في غَيرِ الصَّلاةِ، هل يَجِبُ الاستِماعُ إليه أم لا؟

فالجَوابُ: لا، الصَّحيحُ لا يَجِبُ الاستِماعُ، لكن لا يَجوزُ اللَّغَطُ، ولهذا قال الإمامُ أَحْمَدُ في قولِهِ تَعالَى: ﴿وَإِذَا قُرِئَ الْقُرْآنُ فَاسْتَمِعُوا لَهُ وَأَنصِتُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾

[الأعراف:٢٠٤] قال: أَجْمَعوا على أنَّ هذه في الصَّلاةِ، أمَّا غيرُ الصَّلاةِ فلا يَجِبُ أن نَستَمِعَ؛ لأنَّنا لو قُلنا بِوجوبِ الإستِماعِ لقُلنا: إذا شَرَعَ قارئٌ يَقرَأُ وأنت إلى جَنْبِه حَرُمَ عليك أن تَقومَ؛ لِوجوبِ الإستِماعِ، وهذا ما أَظُنُّ أحدًا مِنَ العُلماءِ يَقولُ به، المَمنوعُ اللَّغو واللَّغَطُ.

من فوائِدِ الآيةِ الكريمَةِ:

الْفَائِدَةُ الأُولَى: خَوفُ المُشرِكِينَ وانزِعاجُهم مِن تَأثيرِ قِراءَةِ النَّبيِّ -صلَّى اللهُ عليه وعلى آله وسلَّم-، وَجهُ ذلك أنَّ بَعضَهم يوصي بَعضًا أن لا يَسمَعوا لهذا القُرآنِ.

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَةُ: قُوَّةُ تَأثيرِ القُرآنِ على سامِعِه، وهذا هو الواقِعُ؛ لقولِهِ تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُۥ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى ٱلسَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ﴾ [ق:٣٧]، لكنَّ القُرآنَ إنَّما يُؤَثِّرُ على مَن يَفهمُ اللُّغةَ العَربيَّةَ ومَعاني الكَلِماتِ، وأمَّا الأَعْجَميُّ حَقيقَةً أو حُكْمًا فإنَّه لا يَتأَثَّرُ بها، ثانيًا: إنَّما يُؤَثِّرُ القُرآنُ وهو كَمالُ التَّأثيرِ على المُؤمِنِ به، أمَّا المُكَذِّبُ المُستكْبِرُ فلا، حتَّى إنَّه يَقولُ: ﴿إِنْ هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ [الأنعام:٢٥].

الْفَائِدَةُ الثَّالِثَةُ: أنَّه لا يَجوزُ اللَّغطُ والضَّوضاءُ حينَ قِراءَةِ القُرآنِ، فإمَّا أن تَستَمِعَ إليه وإمَّا أن تَقومَ، أمَّا أن تَجلِسَ إلى قارِئِ القُرآنِ وتُثيرُ الأصواتَ واللَّغَطَ والضَّوضاءَ، فهذا أَقَلُّ ما فيه أنَّه شَبيهٌ بصَنيعِ المُشرِكينَ، يعني: لو قَدَّرنا أنَّ هَؤلاءِ القَومَ الَّذين عِندَهم اللَّغَطُ والضَّوضاءُ لا يُريدونَ أن يُشَوِّشوا على القارئِ، ولا يُريدون أَلَّا يَسمَعَ قِراءتَه أحدٌ، لكن نقول: أدنى ما فيه أنَّه مُشابِهٌ لعَمَلِ المُشرِكينَ.

ويَتفَرَّعُ على ذلك: ما يَفعَلُه بعضُ النَّاسِ في مَتاجِرِهم ومَساكِنِهم، حيث يَفتحونَ القُرآنَ على المُسَجِّلِ ويَجعَلونَه يَقرَأُ وتَجِدُهم في ضَوضاءَ وفي كَلامٍ قبيحٍ وفي كَذِبٍ، وهذا إِهانَةٌ للقُرآنِ.

فنَقولُ: إمَّا أن تَستَمِعَ إلى كَلامِ اللهِ، وإمَّا أن تَغلِقَه أمَّا أن يَبْقى يَقرَأُ وهذا يَشْتُمُ وهذا يَلعَنُ وهذا يَغِشُّ، فهذا في غايَةِ الامتِهانِ لكَلامِ اللهِ عَزَّوَجَلَّ وإن لم يُرِدِ الإنسانُ، فإنَّ صورَتَه صورَةُ الامتِهانِ.

الْفَائِدَةُ الرَّابِعَةُ: أنَّ التَّشويشَ على الدَّاعيَةِ قد يَظُنُّ فاعلُهُ أنَّه يَغلِبُ، ويَصِلُ إلى مَقصودِهِ، ولكن ليس الأمرُ كذلك، وَجهُ الدَّلالَةِ مِنْ هذا أنَّ هؤلاء المُشرِكينَ لم يَحصُلْ لهم مَطلوبُهم مِنَ الغَلَبَةِ.

• • ۞ • •

الآية (٢٧)

• قالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿ فَلَنُذِيقَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ عَذَابًا شَدِيدًا وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَسْوَأَ ٱلَّذِى كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴾ [فُصِّلَت:٢٧].

• • • •

﴿ فَلَنُذِيقَنَّ ﴾، الجُملَةُ هذه مُؤكَّدَةٌ بثَلاثَةِ مُؤكِّداتٍ: القَسَمُ المُقَدَّرُ، ويَدُلُّنا على القَسَمِ توكيدُ الفِعلِ واللَّامُ أيضًا، والثَّاني: اللَّامُ، والثَّالثُ: النُّونُ.

﴿ فَلَنُذِيقَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ عَذَابًا شَدِيدًا ﴾ أي: لَنُعذِّبَنَّهم عذابًا يَذوقونَ أَلَمَه، وهو كِنايَةٌ عن شِدَّةِ هذا العَذابِ الَّذي يَصِلُ إلى مَذاقِهم حتَّى كأنَّه شَيءٌ محسوسٌ يَتَذَوَّقونه بأفواهِهم.

﴿ فَلَنُذِيقَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ﴾، المُرادُ بـ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ﴾ مَن سَبَقَ، وهُم الَّذين قالوا: ﴿لَا تَسْمَعُواْ لِهَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ﴾، وحينَئذٍ قد يَقولُ قائل: لماذا لم يُضْمِرْ فيقول: «فلَنُذيقَنَّهم»، نَقولُ: هُنا إظهارٌ في مَوضِعِ الإضمارِ، والإظهارُ في مَوضِعِ الإضْمارِ له فَوائِدُ:

الفائِدَةُ الأُولى: تَنبيهُ المُخاطَبِ؛ لأنَّه جَرَت العادَةُ أنَّ الكَلامَ إذا كان السِّياقُ يَقتَضي الإضمارَ، فإنَّه يَأتي الإِضْمارُ، فإذا جاء الإِظْهارُ صار هذا على خِلافِ العادَةِ، فَالعادَةُ أنَّ الكَلامَ إذا كان في سياقِ الإِضْمارِ، فإنَّ الَّذي يَأتي هو الإِضْمارُ، يَعني: الضَّميرُ، فإذا جاء الظَّاهِرُ مَوضِعَ الضَّميرِ فسوف يَتوقَّفُ الإنسانُ، لماذا جاء الظَّاهِرُ مَوضِعَ الضَّميرِ؟ فيكون في ذلك انتباهٌ له هذه فائدَةٌ.

الفائدَةُ الثَّانيَةُ: الحُكْمُ على مَرجِعِ الضَّميرِ بمُقْتَضى هذا الاسمِ الظَّاهِرِ، ففي الآيَةِ الَّتي معنا: ﴿فَلَنُذِيقَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾، إذن تَكونُ الفائِدَةُ الحُكمَ عليهم بالكُفرِ، وهكذا كُلَّما جاء الإظْهارُ في مَوضِعِ الإضْمارِ فاحكُمْ عليه بهذه الفائِدَةِ.

الفائدَةُ الثَّالثَةُ: العُمومُ لو قال: فلَنُذيقَنَّهم، صار هذا الوَعيدُ خاصًّا بالَّذين قالوا: ﴿لَا تَسۡمَعُواْ لِهَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانِ﴾، فإذا قال: ﴿فَلَنُذِيقَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ صار عامًّا لهم ولغيرهم.

قال اللهُ تعالى: ﴿فَلَنُذِيقَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ عَذَابٗا شَدِيدٗا﴾ هنا ﴿عَذَابٗا شَدِيدٗا﴾ مَنصوبٌ نَصبَهُ ﴿فَلَنُذِيقَنَّ﴾ وهي تَنْصِبُ مَفعولَينِ؛ لأنَّ لَدينا قاعِدَةً: أنَّ الفِعلَ إذا تَعَدَّى لواحِدٍ فأُدخلت عليه هَمْزَةُ التَّعدِيَةِ تَعَدَّى لاثنَينِ، وإذا كان يَتَعَدَّى لاثنينِ فأُدْخِلت عليه الهَمْزَةُ تَعَدَّى إلى ثَلاثَةٍ، مِثالُ ذلك مثلًا (ذاق) تَتَعَدَّى إلى واحِدٍ، (ذاقَ طَعمَ الإيمانِ ورَضِيَ باللهِ ربًّا)، فإذا أُدخِلت عليها الهَمْزَةُ تَعَدَّت إلى مَفعولَينِ.

و(رأى) تَقولُ: (رَأيتُ الرَّجُلَ قائمًا) تَنْصِبُ مَفعولَينِ، فإذا أُدخِلت عليه الهَمْزَةُ تَعَدَّت إلى ثَلاثَةٍ، تَقولُ: (أَريتُ زيدًا الرَّجُلَ قائمًا). هذه قاعِدَةٌ عَربيَّةٌ مُطَّرِدَةٌ، أنَّ الفِعلَ إذا كان لازمًا فدَخَلَت عليه الهَمْزَةُ تَعَدَّى لواحِدٍ، وإذا كان مُتَعَدِّيًا لواحِدٍ فدَخَلَت عليه الهَمْزَةُ تَعَدَّى لاثنينِ، وإذا كان متعدِّيًا لاثنينِ فدَخَلت عليه الهَمْزَةُ تَعَدَّى لثَلاثَةٍ.

قال اللهُ تعالى: ﴿فَلَنُذِيقَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ عَذَابٗا شَدِيدٗا﴾، ﴿عَذَابٗا﴾ أي: عُقوبَةً، ﴿شَدِيدٗا﴾: قويًّا.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَلَنَجۡزِيَنَّهُمۡ﴾ معطوفَةٌ على ﴿فَلَنُذِيقَنَّ﴾، ﴿أَسۡوَأَ ٱلَّذِي كَانُواْ يَعۡمَلُونَ﴾ ﴿وَلَنَجۡزِيَنَّهُمۡ﴾ هذه تَنْصِبُ مَفعولَينِ؛ الأَوَّلُ الهاءُ والثَّاني ﴿أَسۡوَأَ﴾.

يَقولُ المُفسِّرُ رَحِمَهُ اللَّهُ: [﴿أَسْوَأَ الَّذِي كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ أي: أَقْبَح جَزاءِ عَمَلِهم].

فهم يُجزَونَ الجزاءَ، أمَّا العَمَلُ منهم فليسوا مُجْزِيِّين به، هُمُ الَّذين عَمِلوا، فإذا قال: ﴿أَسْوَأَ الَّذِي كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ صار المُرادُ بذلك: أَسوَأَ الجزاءِ، وليس المُرادُ: أَسوَأَ العَمَلِ؛ لأنَّ العَمَلَ فِعْلُ العَبدِ، والجَزاءُ فِعلُ اللهِ بهم، والمُرادُ هنا فِعلُ اللهِ بهم، ولهذا قال: ﴿وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ﴾.

فإذا قال قائلٌ: لماذا عَبَّرَ بالعَمَلِ عن جَزائِهم؟

نَقولُ: إشارةٌ إلى أَنَّ الجَزاءَ بِقَدْرِ العَمَلِ، ولهذا قالَ العُلَماءُ: «الجَزاءُ مِن جِنسِ العَمَلِ»، لكنَّه بالنِّسبَةِ للسَّيِّئاتِ عَدْلٌ، وبالنِّسبَةِ للحَسَناتِ فَضْلُ الحَسَنَةِ بعَشْرِ أَمثالِها إلى سَبعِ مئَةِ ضِعفٍ إلى أضعافٍ كَثيرةٍ، والسَّيِّئةُ بمِثلِها.

وقولُهُ: ﴿أَسْوَأَ الَّذِي كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ ظاهِرُ الآيةِ أنَّ اللهَ يَجزيهم أَسوَأَ أعمالِهم، وغَيرُ الأَسـوَأِ ما دون الأَسْـوأِ، يَعني: السَّيِّئ، فهل يُجازَى الكافِرُ بأَقْبَحِ أعمالِه أو بِكُلِّ أعمالِهِ؟ هذا يَنْبَني على: هلِ الكافِرُ مُخاطَبٌ بالفُروعِ أو لا؟ يعني: مثلًا الكافِرُ هل هو مُخاطَبٌ بِصِلَـةِ الرَّحمِ؟ هل هو مُخاطَبٌ بالصِّدْقِ؟ هل هو مُخاطَبٌ بالصَّلاةِ؟ هل هو مُخاطَبٌ بالزَّكاةِ؟ وما أَشبَهَ ذلك، في هذا خِلافٌ بينَ العُلَماءِ، والصَّحيحُ أنَّه مُخاطَبٌ، مُخاطَبٌ بِفُروعِ الأعمالِ؛ لأنَّه إذا كان المُسلِمُ مُخاطَبًا بها، فالكَافِرُ من باب أَوْلى، كيف نَقولُ: إنَّ المُسلِمَ يُجازَى ويُعاقَبُ على عُقوقِ الوالِدينِ والكَافِرُ لا يُعاقَبُ، لا يُمكِنُ هذا، فالصَّوابُ أنَّهم مُخاطَبونَ بِفُروعِ الشَّريعَةِ، لكنَّهم غَيرُ مُخاطَبينَ بفعلِها. يَعني لا يُقالُ للكافِرِ مثلًا: لماذا تَشرَبُ الدُّخانَ؟ حَرامٌ عليكَ، هذا غَيرُ لائِقٍ، هذا كافِرٌ، ادعُه أَوَّلًا للإسلامِ ثُمَّ كَلِّمْهُ.

إذن يُخاطَبُ بفُروعِ الشَّريعَةِ ليس مَعناها أنَّه يُؤمَرُ بِفعلِها، ولا يَعني أنَّه يَقضيها إذا أَسلَمَ؛ لأنَّ اللهَ قال: ﴿قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِن يَنتَهُواْ يُغۡفَرۡ لَهُم مَّا قَدۡ سَلَفَ﴾ [الأنفال:٣٨].

إذن ما الفائِدَةُ؟ قال العُلماءُ الفائِدَةُ بقولنا: إنَّ الكافِرَ مُخاطَبٌ بفُروعِ الشَّريعَةِ هو زيادَةُ عُقوبَتِهم في الآخِرَةِ أنَّهم يُعاقَبونَ عَليها، وهذا حَقٌّ، أصحابُ اليَمينِ يَتَساءلونَ عَنِ المُجرِمينَ: ﴿مَا سَلَكَكُمۡ فِي سَقَرَ﴾ [المدّثر:٤٢] يعني: ما الَّذي أَدْخلَكم في النَّارِ؟ ﴿قَالُواْ لَمۡ نَكُ مِنَ ٱلۡمُصَلِّينَ ﴿٤٣﴾ وَلَمۡ نَكُ نُطۡعِمُ ٱلۡمِسۡكِينَ ﴿٤٤﴾ وَكُنَّا نَخُوضُ مَعَ ٱلۡخَآئِضِينَ ﴿٤٥﴾ وَكُنَّا نُكَذِّبُ بِيَوۡمِ ٱلدِّينِ ﴿٤٦﴾ حَتَّىٰٓ أَتَىٰنَا ٱلۡيَقِينُ﴾ [المدثر:٤٣-٤٧] فذَكَروا الصَّلاةَ وإطعامَ المِسكينِ، وهما مِن فُروعِ الشَّريعَةِ، فعلى القَولِ بأنَّهم لا يُجازَونَ بفُروعِ الشَّريعَةِ نَقولُ: نعم، يَومَ القِيامَةِ لا يُجازَون إلَّا على أَسوَأِ أعمالِهم وهو الكُفْرُ، ولكن على القَولِ الرَّاجحِ أنَّهم يُخاطَبون بفُروعِ الشَّريعَةِ ويُعاقَبونَ عليها، ويَكونُ هنا ذِكْرُ الأَسوَأِ؛ لأنَّه هو الأَشَدُّ، والمَقصودُ هُنا التَّهديدُ، وهل الإنسانُ يُهدَّدُ بالأَشَدِّ، هذا هو الظَّاهِرُ واللهُ أعلَمُ.

يَقولُ المفسِّرُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿ٱلَّذِي كَانُواْ يَعۡمَلُونَ﴾ أي: أَقبَحُ جَزاءِ عَمَلِهم].

في الآيَة الكَريمَةِ هُنا وَعيدٌ لهؤلاءِ الكُفَّارِ بالعَذابِ الشَّديدِ، وهذا مِن أَساليبِ القُرآنِ، أنَّ اللهَ تعالى يُهَدِّدُ الكافِرَ والمُجرِمَ وغَيرِهما مِمَّن أَساؤوا، وفيه دَليلٌ على أنَّه ليس مِنَ القَدْحِ أنْ يَقومَ الإنسانُ بطاعَةِ اللهِ خوفًا من عَذابِ اللهِ، أنَّه لا حَرَجَ، وليس مِنَ القَدْحِ أن يَتَجنَّبَ الإنسانُ مَعصيَةَ اللهِ خوفًا من عِقابِهِ، خِلافًا لمَن قال: أَعبُدُ اللهَ لا طَمَعًا في ثَوابِهِ ولا خوفًا من عِقابِهِ، وهَؤلاءِ تَرُدُّ عليهم النُّصوصُ كُلُّها، بل إنَّ اللهَ تعالى جَعَلَ عُقوبَةَ الدُّنيا سَببًا للرَّدعِ عَنِ المَعاصي، قال اللهُ تعالَى في قَضيَّةِ السَّارِقِ

﴿فَٱقۡطَعُوٓاْ أَيۡدِيَهُمَا جَزَآءَۢ بِمَا كَسَبَا نَكَٰلٗا مِّنَ ٱللَّهِ﴾ [المائدة:٣٨]، فلم يُشَرِّعِ اللهَ الحُدودَ إلَّا من أَجْلِ أن يَخافَ النَّاسُ منها ويَجتَنِبوا المَعاصي، والقَريَةُ الَّتي دَمَّرت قَريَةَ بَني إسرائيلَ حتَّى صار أَهْلُها قِرَدَةً خاسِئينَ لِماذا: ﴿فَجَعَلۡنَٰهَا نَكَٰلٗا لِّمَا بَيۡنَ يَدَيۡهَا وَمَا خَلۡفَهَا﴾ [البقرة:٦٦].

فالحاصِلُ: أنَّه لا حَرَجَ على الإنسانِ أن يَدَعَ المَعاصيَ خوفًا مِن عُقوبَةِ اللهِ الدُّنيويَّةِ والأُخْرويَّةِ، ولا يُعَدُّ ذلك قَدْحًا في سُلوكِهِ ومَنهجِهِ.

من فوائِدِ الآيةِ الكريمَةِ:

الْفَائِدَة الأُولَى: إثباتُ العَذابِ، ويَكونُ في الدُّنيا وفي القبرِ وفي الآخرَةِ، في الجميعِ قال اللهُ تعالى: ﴿وَلَنُذِيقَنَّهُم مِّنَ ٱلۡعَذَابِ ٱلۡأَدۡنَىٰ﴾ [السجدة:٢١]، وهو عذابُ الدُّنيا: ﴿دُونَ ٱلۡعَذَابِ ٱلۡأَكۡبَرِ﴾ وهو عَذابُ الآخِرَةِ ﴿لَعَلَّهُمۡ يَرۡجِعُونَ﴾، وهذا يَتعَيَّنُ أن يَكونُ المُرادُ بـ﴿ٱلۡعَذَابِ ٱلۡأَدۡنَىٰ﴾، ليس عَذابُ القَبرِ كما قيل، بل هُو عَذابُ الدُّنيا؛ لأنَّ عَذابَ القَبرِ لا يُمْكنُ فيه الرُّجوعُ، فإذن: ﴿ٱلۡعَذَابِ ٱلۡأَدۡنَىٰ﴾ هو عَذابُ الدُّنيا و﴿ٱلۡعَذَابِ ٱلۡأَكۡبَرِ﴾ هو عَذابُ الآخِرَةِ، ولهذا جاء في الحَديثِ حَديثِ المُتلاعِنينِ أنَّ الرَّسولَ قال: «عَذابُ الدُّنيا أَهونُ من عَذابِ الآخِرَةِ»(١).

فإنْ قال قَائلٌ: بَعضُ أَهلِ العِلمِ استَدَلَّ بقولِهِ تَعالى: ﴿وَلَنُذِيقَنَّهُم مِّنَ ٱلۡعَذَابِ ٱلۡأَدۡنَىٰ﴾ [السجدة:٢١] على عَذابِ القَبرِ، ما وَجهُ استِدْلالِهِم؟

فالجَوابُ: ظَنُّهم أنَّ العَذابَ هُنا عَذابُ عُقوبَةِ الآخِرَةِ وقالوا: إنَّ عُقوبَةَ القَبرِ قَبْلَ عُقوبَةِ يومِ القِيامَةِ.

---

(١) أخرجه مسلم: كتاب اللعان، رقم (١٤٩٣)، من حديث ابن عمر رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمَا.

وإن قيل: فكيف يُوجِّهون قولَهُ تعالى: ﴿لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾.

فالجَوابُ: يُمكنُ أن يُوجِّهوها بأن يُحَرِّفوها عن ظاهِرِها، يقولون: ﴿لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ يعني: أَخْبَرْناهم بذلك لعلَّهم يَرجِعون، لكنَّ هذا خِلافُ ظاهِرِ اللَّفظِ.

فإن قيل: إذا قُلنا إنَّ هذا عَذابُ الدُّنيا، كيف نُثْبِتُ أنَّ القُرآنَ أَثْبَتَ عَذابَ القَبرِ؟

فالجَوابُ: كَثيرٌ في القُرآنِ، قولُهُ تَعالى: ﴿ٱلنَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا ۖ وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ أَدْخِلُوٓا۟ ءَالَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ ٱلْعَذَابِ﴾ [غافر:٤٦]، وقولُهُ: ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ يَتَوَفَّى ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ۙ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَٰرَهُمْ﴾ [الأنفال:٥٠]، وقولُهُ: ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلظَّٰلِمُونَ فِى غَمَرَٰتِ ٱلْمَوْتِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ بَاسِطُوٓا۟ أَيْدِيهِمْ أَخْرِجُوٓا۟ أَنفُسَكُمُ ۖ ٱلْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ ٱلْهُونِ بِمَا كُنتُمْ تَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ غَيْرَ ٱلْحَقِّ وَكُنتُمْ عَنْ ءَايَٰتِهِۦ تَسْتَكْبِرُونَ﴾ [الأنعام:٩٣].

فإن قيل: ﴿وَلَنُذِيقَنَّهُم مِّنَ ٱلْعَذَابِ ٱلْأَدْنَىٰ﴾ البَعضُ يَستدِلُّ بهذه الآيَةِ على عَذابِ القَبرِ يَقولُ: إنَّ ﴿ٱلْعَذَابِ ٱلْأَدْنَىٰ﴾ هو عَذابُ الدُّنيا، ولكن ﴿مِّنَ﴾ في الآيَةِ للتَّبعيضِ، فهل تَبقَى لهم بَقِيَّةٌ من هذا العَذابِ يُعذَّبونَ بها في القَبرِ؟

فالجَوابُ: لا، ﴿مِّنَ﴾ للبَيانِ، مِن بَيانِيَّةٌ، هذا هو الأقرَبُ، ويَجوزُ أن تَكونَ للتَّبعيضِ ولَنُذيقَنَّهم بعضَ العَذابِ الأَدْنى، ولا حاجَةَ له، فإثباتُ عَذابِ القَبرِ -والحمدُ لله- جاء في آياتٍ صَريحَةٍ ما يَحتاجُ أن نَأتيَ إليه بآياتٍ تَحتَمِلُ هذا وهذا، وهي في غَيرِهِ أَرْجَحُ.

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَةُ: إثباتُ الجَزاءِ بالأَسْوَأِ؛ لقولِه: ﴿أَسْوَأَ ٱلَّذِى كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾.

الْفَائِدَةُ الثَّالِثَةُ: أنَّ الجزاءَ من جِنسِ العَمَلِ، فالجزاءُ الصَّالحُ للعَمَلِ الصَّالحِ والجزاءُ السَّيِّئُ للعَمَلِ السَّيِّئِ، وهذا -سُبحانَ اللهِ- حتَّى في مُجازاةِ الدُّنيا، قال اللهُ تعالى: ﴿وَجَزَٰٓؤُاْ سَيِّئَةٖ سَيِّئَةٞ مِّثۡلُهَاۖ فَمَنۡ عَفَا وَأَصۡلَحَ فَأَجۡرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِۚ﴾ [الشورى:٤٠]، فإذا أساء إليك إنسانٌ بسيِّئةٍ فلَكَ أن تُقابِلَه بمِثلِها، وإنْ عَفوتَ وأَصلحتَ فأَجرُك على اللهِ.

فإنْ قال قائلٌ: أمَا يُمكِنُ أن نَأخُذَ من قَولِهِ تعالى: ﴿وَلَنَجۡزِيَنَّهُمۡ أَسۡوَأَ ٱلَّذِي كَانُواْ يَعۡمَلُونَ﴾ أنَّهُ يُجازيهم أَسوأَ عَمَلِهم هذا، وهُو اللَّغو بألَّا يَهتَدوا إلى مَعانيهِ الَّتي تَهديهِمْ إلى الخَيرِ فتكونُ مُجازاتُهم مِن جنسِ عَمَلِهم كذلك؟

فالجَوابُ: لا؛ لأنَّ: ﴿فَلَنُذِيقَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ عَذَابٗا شَدِيدٗا﴾ هذا في الآخِرَةِ، الوَعيدُ هُنا في الآخِرَةِ.

• • ❁ • •

الآية (٢٨)

قال اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿ذَٰلِكَ جَزَآءُ أَعۡدَآءِ ٱللَّهِ ٱلنَّارُۖ لَهُمۡ فِيهَا دَارُ ٱلۡخُلۡدِ جَزَآءَۢ بِمَا كَانُواْ بِـَٔايَٰتِنَا يَجۡحَدُونَ﴾ [فصلت:٢٨].

يَقولُ المفسِّرُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿ذَٰلِكَ﴾ العَذابُ الشَّديدُ وأَسوَأُ الجَزاءِ: ﴿جَزَآءُ أَعۡدَآءِ ٱللَّهِ﴾ بتَحقيقِ الهَمزَةِ الثَّانيَةِ وإبدالِها واوًا]، يعني: أنَّ في ذلكَ قِراءتَينِ الأُولَى تَحقيقُ الهَمزَةِ، ﴿جَزَآءُ أَعۡدَآءِ ٱللَّهِ﴾ والثَّانيَةُ قَلبُها واوًا: «جزاو أعداءِ الله» وهذا مُطَّرِدٌ في كُلِّ هَمزَةٍ بعدَ واوٍ أن تُحقَّقَ أو تُقلَبَ واوًا، ومن ذلك قَولُ المُؤذِّنِ: اللهُ أكبرُ، يَعني: أنَّه يَجوزُ إبْدالُ الهَمْزَةِ واوًا وتحقيقها اللهُ أكبَرُ، وهذه اللُّغَةُ تُهوِّنُ علينا ما يَفعَلُه بعضُ المُؤذِّنينَ من قَلبِ الهَمزَةِ واوًا، فتَجِدُهم يَقولونَ: اللهُ وكبر، كما أنَّه يُهوِّنُ علينا اللُّغَةَ الَّتي تَنْصِبُ الجُزْأَينِ في إنَّ وأَخواتِها؛ حيثُ إنَّ بَعضَ المُؤَذِّنينَ يَقولُ: أَشهَدُ أنَّ مُحَمَّدًا رَسولُ اللهِ، فإنَّ نَصبَ الجُزأينِ بـ(أنَّ) لُغةٌ عربِيَّةٌ ثابتَةٌ.

قَولُه تعالَى: ﴿ذَٰلِكَ جَزَآءُ أَعۡدَآءِ ٱللَّهِ﴾ أعداءُ اللهِ تَعالَى هُمُ الَّذين نَصَبوا لَهُ العَداوَةَ وذلك بمُحاربتِهِ بالمَعاصي، ومِنهم الَّذين آذَنوا بِحَرْبٍ مِنَ اللهِ ورَسولِهِ أَكَلَةُ الرِّبا؛ لقَولِ اللهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَذَرُواْ مَا بَقِيَ مِنَ ٱلرِّبَوٰٓاْ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ ۝٢٧٨ فَإِن لَّمۡ تَفۡعَلُواْ فَأۡذَنُواْ بِحَرۡبٖ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ﴾ [البقرة:٢٧٨-٢٧٩].

المُهِمُّ: أنَّ عَدُوَّ اللهِ مَن نَصَبَ له العَداوَةَ وذلك بمُحاربتِهِ بمَعاصيه.

يَقولُ المُفسِّرُ رَحِمَهُ اللَّهُ: [﴿ٱلنَّارُ﴾ عَطفُ بَيانٍ للجَزاءِ المُخبَرِ به عن ذلك: ﴿لَهُمْ فِيهَا دَارُ ٱلْخُلْدِ﴾] يعني: أنَّ كَلمةَ ﴿ٱلنَّارُ﴾ بَدَلُ عَطْفِ بيانٍ لِلجَزاءِ المُخبَرِ به عن ذلك.

فأَفادَنا أنَّ (ذا) مُبتدأٌ، و﴿جَزَآءُ﴾ خَبَرُ المُبتدأِ، و﴿ٱلنَّارُ﴾ عَطفُ بيانٍ له ﴿ذَٰلِكَ جَزَآءُ أَعْدَآءِ ٱللَّهِ﴾، كأنَّ الكَلامَ على إعرابِ المفسِّر انتهى، ثُمَّ قال: ﴿ٱلنَّارُ﴾ عَطْفُ بيانٍ لهذا الجَزاءِ، ويَحتمِلُ أن تكونَ ﴿ذَٰلِكَ﴾ مُبتدأً و﴿جَزَآءُ أَعْدَآءِ ٱللَّهِ﴾ عَطفُ بَيانٍ له، لكن ما مَشي عليه المفسِّر أَقربُ للقَواعِدِ.

يَقولُ المفسِّرُ رَحِمَهُ اللَّهُ: [﴿لَهُمْ فِيهَا دَارُ ٱلْخُلْدِ﴾ أي إِقامَةٍ لا انتقالَ منها]، ﴿دَارُ ٱلْخُلْدِ﴾ أَضافَ الدَّار للخُلْدِ من بابِ إضافَةِ المَوصوفِ إلى صِفتِهِ يعني: دارَ الخُلودِ الَّتي ليسَ فيها انتِقالٌ، ويَجوزُ أن تَكونَ من بابِ إضافَةِ الشَّيءِ إلى نَوعِهِ؛ لأنَّ الدُّورَ تَنقَسِمُ إلى أَقسامٍ، دُورٌ هي دُورُ انتقالٍ ودُورٌ هي دارُ خُلدٍ، فيَدورُ الانتقالُ الأوَّلُ بَطنُ الأُمِّ والثَّاني الحَياةُ الدُّنيا والثَّالثُ البَرزخُ، ودارُ الخُلدِ هي الأخيرَةُ، ويُذكَرُ أنَّ أعرابيًّا سَمِعَ قارئًا يَقرأُ: ﴿أَلْهَىٰكُمُ ٱلتَّكَاثُرُ ۝١ حَتَّىٰ زُرْتُمُ ٱلْمَقَابِرَ﴾ فقال: واللهِ ما الزَّائرُ بمُقيمٍ، وإنَّ هناكَ دارًا أُخْرى، وهذا لا شَكَّ أنَّه من قُوَّة الاستِنباطِ والفَهمِ.

يَقولُ المفسِّرُ رَحِمَهُ اللَّهُ: [﴿جَزَآءً﴾ مَنصوبٌ على المَصدرِ بفِعلِهِ المُقدَّر]، والمَصدَرُ لا بُدَّ له مِن عاملٍ، والعامِلُ تارَّةً يَكونُ من لفظِ المَصدرِ، وتارَّةً يَكونُ من مَعناه، فإذا قلتَ: قُمتُ وقوفًا، فالعامِلُ مِن معناه، وإذا قلتَ: وقفتُ وقوفًا، فالعاملُ مِن لَفظِه المُقدَّرِ، ويُقدَّرُ مِن لَفظِه، ولا يُقدَّرُ من مَعناه؛ لأنَّنا لا نَلجأُ إلى تَقديرِ المَعنى إلَّا إذا وُجِدَ أَمامَنا ما يَختَلِفُ في لَفظِه، وأمَّا إذا لم نَجِدْ فيُقَدَّر مِنَ اللَّفظِ، وعلى هذا فيَكونُ التَّقديرُ يُجْزَونَ جَزاءً.

قال اللهُ تعالى: ﴿بِمَا كَانُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا يَجْحَدُونَ﴾ أي: بِكونِهم يَجحَدون، وعلى هذا فـ(ما)

هُنا مَصدَرِيَّةٌ، ولا تَصِحُّ أن تكونَ مَوصولَةً.

يَقولُ المفسِّرُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿بِمَا كَانُواْ بِـَٔايَٰتِنَا﴾ القُرآنُ ﴿يَجۡحَدُونَ﴾] أي يُكذِّبون، وإنَّما قدَّرنا يُكذِّبون من أَجْلِ تَعدِّيها بالباءِ؛ لأنَّ جَحَدَ تَتَعَدَّى بنَفسِها، فيُقالُ: جَحَدتُ الشَّيءَ يعني: أَنْكَرتُه، لكن إذا عُدِّيَ المَعمولُ بالباءِ صار الجَحدُ مُضمَّنَ معنى التَّكذيبِ؛ أي: بما كانوا يَكذِبون بآياتِنا.

من فوائدِ الآيَةِ الكريمَةِ:

الْفَائِدَةُ الأُولَى: أنَّ جزاءَ أعداءِ اللهِ هي النَّارُ ولا بدَّ، ولذلك قال: ﴿ذَٰلِكَ جَزَآءُ أَعۡدَآءِ ٱللَّهِ ٱلنَّارُ﴾ وبَيَّنَ أنَّ هذا الجزاءَ هو النَّارُ.

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَةُ: بيانُ خُلدِ أهلِ النَّارِ فيها؛ لقَولِه: ﴿دَارُ ٱلۡخُلۡدِ﴾ وهلِ التَّخليدُ مُؤبَّدٌ أو مُؤَقَّتٌ؟ المَقطوعُ به أنَّه مُؤبَّدٌ؛ لأنَّ اللهَ تعالى صَرَّحَ به في آياتٍ ثلاثةٍ؛ في النِّساءِ وفي الأحزابِ وفي الجِنِّ.

ففي النِّساءِ قال اللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَظَلَمُواْ لَمۡ يَكُنِ ٱللَّهُ لِيَغۡفِرَ لَهُمۡ وَلَا لِيَهۡدِيَهُمۡ طَرِيقًا ﴿١٦٨﴾ إِلَّا طَرِيقَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدٗاۚ وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٗا﴾ [النساء:١٦٨-١٦٩]، وفي سورَةِ الأحزابِ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَعَنَ ٱلۡكَٰفِرِينَ وَأَعَدَّ لَهُمۡ سَعِيرًا ﴿٦٤﴾ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدٗا﴾ [الأحزاب:٦٤-٦٥]، وفي سورَةِ الجِنِّ ﴿وَمَن يَعۡصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَإِنَّ لَهُۥ نَارَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا﴾ [الجن:٢٣].

الْفَائِدَةُ الثَّالِثَةُ: إثباتُ عَدلِ اللهِ عَزَّوَجَلَّ وأنَّه لا يُعذِّبُ أحدًا إلَّا بذَنبٍ؛ لقَولِه: ﴿جَزَآءَۢ بِمَا كَانُواْ بِـَٔايَٰتِنَا يَجۡحَدُونَ﴾.

الْفَائِدَةُ الرَّابِعَةُ: إثباتُ الأَسبابِ يُستفادُ من قَولِه: ﴿بِمَا كَانُواْ بِـَٔايَٰتِنَا يَجۡحَدُونَ﴾؛ لأنَّ الباءَ هنا للسَّببيَّةِ.

الْفَائِدَةُ الخَامِسَةُ: أنَّ التَّكذيبَ بآياتِ اللهِ رِدَّةٌ؛ لأنَّ اللهَ وَصَفَ المُكذِّبين بأنَّهم أعداءٌ وأنَّ جَزاءَهم دارُ الخُلدِ، وهذا أَمْرٌ مُتَّفقٌ عليه، أنَّ مَن كَذَّبَ اللهَ ورَسولَه فإنَّه مُرتدٌّ كافِرٌ يُستَتابُ، فإن تاب وأَقَرَّ وإلَّا قُتِلَ.

فإن قال قائلٌ: مِن المَعلومِ أنَّ مَن كذَّب شيئًا مِن القُرآنِ فهو مُرتدٌّ؛ لأنَّ القُرآنَ ثَبتَ بالتَّواتُرِ، فهل مَن كذَّب بشيءٍ مِنَ السُّنَّةِ يكونُ كذلك؟

قُلنا: إذا صَحَّت السُّنَّةُ وقال القائلُ: أنا أَعلَمُ أنَّ هذا من كَلامِ الرَّسولِ لكنَّه ليس بصَحيحٍ، فهذا مُرتدٌّ؛ لأنَّه أقرَّ بصِحَّةِ نِسبتِه إلى الرَّسولِ ثُمَّ كَذَّبه، أمَّا لو كَذَّبه بِناءً على استِبعادِ أن يَكونَ صَدَرَ مِن الرَّسولِ ﷺ فهذا لا يُكفَّرُ؛ لأنَّه متأوِّلٌ، لكنَّه يَجِبُ عليه أن يَنظُرَ مرَّةً بعد أخرى حتَّى يتبيَّنَ له الأمرُ.

إذن مَن كذَّب شيئًا مِن القُرآنِ فهو كافِرٌ بدونِ تَفصيلٍ لثُبوتِ القُرآنِ ثُبوتًا مُتواترًا لا تَواتُرَ مثلَه في أيِّ كتابٍ مِن الكُتبِ، ومَن كذَّب شيئًا مِن سُنَّةِ الرَّسولِ ﷺ فهو كافِرٌ.

الْفَائِدَةُ السَّادِسَةُ: أنَّ آياتِ اللهِ عَزَّوَجَلَّ بَيِّنةٌ ظاهرةٌ لا يُمكنُ أن يُكذِّبَ بها أحدٌ؛ لقَولِه: ﴿بِئَايَٰتِنَا﴾، وتَخصيصُ المفسِّر رَحِمَهُ اللَّهُ ذلك بالقُرآنِ فيه شَيءٌ من النَّظرِ، بل يُقالُ: إنَّه أعَمُّ.

الْفَائِدَةُ السَّابِعَةُ: إثباتُ عَظمَةِ اللهِ حيثُ أَتى بضَميرِ الجَمعِ، ولم يَقُلْ: بآياتي، بل قال: ﴿بِئَايَٰتِنَا﴾، ولا شكَّ أنَّ اللهَ تعالى له العَظَمةُ المُطلَقةُ من كُلِّ وجهٍ.

الآية (٢٩)

قالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ رَبَّنَآ أَرِنَا ٱلَّذَيْنِ أَضَلَّانَا مِنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ نَجْعَلْهُمَا تَحْتَ أَقْدَامِنَا لِيَكُونَا مِنَ ٱلْأَسْفَلِينَ ﴾ [فُصِّلت:٢٩].

قوله تعالى: ﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ رَبَّنَآ أَرِنَا ﴾ كَفروا باللهِ عَزَّوَجَلَّ بسببِ إضلالِ الشَّيطانِ منَ الجِنِّ والإنسِ.

يَقولُ المفسِّرُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ﴾ في النَّارِ: ﴿رَبَّنَآ أَرِنَا ٱلَّذَيْنِ أَضَلَّانَا ﴾]، قَولُه: في النَّارِ، هذا قَيدٌ لا يَدُلُّ عليه القُرآنُ، فإنَّه يَحتمِلُ أنَّهم يَقولونَ ذلك في النَّارِ أو في عَرَصاتِ القِيامَةِ -اللهُ أعلمُ-، لكنَّهم لا بدَّ أن يَقولوا هذا القَولَ: ﴿رَبَّنَآ أَرِنَا ٱلَّذَيْنِ أَضَلَّانَا مِنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ﴾.

قَولُه تعالى: ﴿أَرِنَا﴾ أي: اجعَلنا نَرى، و﴿ٱلَّذَيْنِ أَضَلَّانَا مِنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ﴾، ﴿ٱلَّذَيْنِ﴾ اسمٌ موصولٌ مُثنًّى، والمُرادُ الجِنسُ لا الواحِدُ.

وقَولُه: ﴿أَضَلَّانَا مِنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ﴾ بَيانٌ للَّذي قال المُفسِّرُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [أي إبليسُ وقَابيلُ سنَّا الكُفْرَ والقَتْلَ]، يعني: مَعناها أنَّ المفسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ حَمَلَ هذا العُمومَ على التَّعيينِ، فقال: ﴿ٱلَّذَيْنِ أَضَلَّانَا﴾ مُثنَّى اثنينِ، أحدُهما إبليسُ سَنَّ الكُفْرَ، هو أوَّلُ مَن كَفَرَ، والثَّاني قابيلُ سَنَّ القَتْلَ، فالأوَّلُ عُدوانٌ في حقِّ اللهِ، والثَّاني عُدوانٌ في حَقِّ عِبادِ اللهِ.

أمَّا إبليسُ فأوَّلُ مَن سَنَّ الكُفْرَ؛ لأنَّ اللهَ أمَرَه أن يَسجُدَ لآدَمَ فأبى واستكبَرَ وكان مِن الكافِرينَ، وأمَّا قابيلُ فأوَّلُ مَن سَنَّ القَتلَ بِغيرِ حَقٍّ؛ لأنَّه قتَل أخاه حَسدًا وبَغيًا، قَرَّبا قُربانًا فتُقُبِّلَ من أحدِهما ولم يُتقَبَّلْ مِن الآخرِ، وكيف عَلِما أنَّه تُقُبِّلَ من أَحدِهما دون الآخَرِ؟ اللهُ أعلمُ، إمَّا أن يَكونَ بنارٍ نَزَلَت فأكَلَت ما تُقُبِّلَ كما يَكونُ ذلك في الغَنائمِ سابقًا، وإمَّا بغَيرِ ذلك مِن العَلاماتِ. المُهمُّ أنَّ أحدَهما تُقُبِّل منه والثَّاني لم يُتقَبَّلْ منه، الَّذي تُقُبِّل منه هو هابيلُ، والثَّاني قابيلُ لم يُتقَبَّلْ منه فحَسَدَه وقال: ﴿لَأَقْتُلَنَّكَ﴾ لماذا؟ حَسدًا؛ لأنَّ اللهَ تَقبَّل منه، فقال له أخوه هابيلُ: ﴿إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ ٱللَّهُ مِنَ ٱلْمُتَّقِينَ﴾ [المائدة:٢٧] كأنَّه يَقولُ له: اتَّقِ اللهَ فيَتقبَّل منك؛ ثُمَّ قال لَهُ: ﴿لَئِنۢ بَسَطتَ إِلَىَّ يَدَكَ لِتَقْتُلَنِى مَآ أَنَا۠ بِبَاسِطٍ يَدِىَ إِلَيْكَ لِأَقْتُلَكَ إِنِّىٓ أَخَافُ ٱللَّهَ رَبَّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [المائدة:٢٨] يَعني: أنَّك إن أَردتَ أن تَقتُلَني ما أنا بباسِطٍ يدي لأَقتلَك لأنِّي أَخافُ اللهَ.

ولعلَّ هذا كان في شَريعَةِ مَن سَبَقَ أنَّه لا يَجوزُ للإنسانِ أن يُدافِعَ عن نفسِهِ، أو أنَّه خاف مِن مَفسدَةٍ أكبَرَ، ومَعلومٌ أنَّ دَفْعَ المَفسدَةِ الكُبرى أمْرٌ واجِبٌ: ﴿إِنِّىٓ أُرِيدُ أَن تَبُوٓأَ بِإِثْمِى وَإِثْمِكَ فَتَكُونَ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلنَّارِ ۚ وَذَٰلِكَ جَزَٰٓؤُا۟ ٱلظَّٰلِمِينَ (٢٩) فَطَوَّعَتْ لَهُۥ نَفْسُهُۥ قَتْلَ أَخِيهِ فَقَتَلَهُۥ فَأَصْبَحَ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾ [المائدة:٢٩-٣٠] فكان قابيلُ أوَّلَ مَن سَنَّ القَتلَ بغَيرِ حَقٍّ، وصارت كُلُّ نفسٍ تُقتَلُ بغيرِ حَقٍّ فعلى قابيلَ شيءٌ مِن وِزرِها والعِياذُ باللهِ؛ لأنَّهُ أوَّلُ مَن سنَّ القَتلَ، ومَن سَنَّ سُنَّةً سَيِّئَةً فعليه وِزرُها ووِزرُ مَن عَمِلَ بها إلى يوم القِيامَةِ.

فإنْ قال قائلٌ: قَولُ اللهِ عَزَّوَجَلَّ حكايةً عن ابنِ آدمَ الأوَّلِ: ﴿لَئِنۢ بَسَطتَ إِلَىَّ يَدَكَ لِتَقْتُلَنِى مَآ أَنَا۠ بِبَاسِطٍ يَدِىَ إِلَيْكَ لِأَقْتُلَكَ﴾ هل يَكونُ هذا في شَرعِنا فيما يَخُصُّ الفِتَنَ؟

فالجَوابُ: بلى، هذا في الفِتنَةِ لكن في مَسألَةِ قابيلَ وهابيلَ ليس فيها فِتنةٌ،

ولهذا أَمَرَ الرَّسولُ عند الفِتنَةِ أن يَكونَ الإنسانُ كخيرِ ابنَيْ آدمَ، كما فَعلَ عُثمانُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ حينَ ثارَ عليه الثُّوَّارُ، وأراد الصَّحابَةُ أن يُدافِعوا عنه، أَمَر بالإمساكِ.

لكن هل الأمرُ كما قال المفسِّر: إنَّه الشَّيطانُ، يعني: إبليسُ الَّذي أبى واستكبَرَ عنِ السُّجودِ لآدمَ أوِ المُرادُ الجنسُ؟ الصَّوابُ الثَّاني بِلا شَكٍّ؛ لأنَّ كَثيرًا مِن الكافِرينَ لا يَخطُرُ ببالِهِم أنَّهم كَفَروا تَأسِّيًا بالشَّيطانِ الَّذي أبى واستكْبَرَ، وكَثيرٌ منَ القَتَلَةِ لا يَتأَتَّى ببالِه أنَّه فَعَلَ ذلك تَأَسِّيًا بقابيلَ.

فإذا كانت الآيَةُ تَدُلُّ بلَفظِها على العُمومِ والمَعنى يَقتَضي ذلك، فإنَّه لا وَجهَ لكونِنا نَخُصُّها بمُعَيَّنٍ. وهذه قاعِدَةٌ يَجِبُ أن نَفهَمَها من قَواعدِ التَّفسيرِ: أنَّ اللَّفظَ العامَّ لا يَجوزُ أن يَقتصِرَ فيه على بعضِ أفرادِه إلَّا بدَليلٍ، فإن لم يَكُن دَليلٌ فالواجِبُ العُمومُ.

هُنا نَقولُ الواجِبُ العُمومُ؛ لأنَّ اللَّفظَ عامٌّ ولأنَّ المَعنى يَقتَضيه؛ لأنَّ كُلَّ إنسانٍ كافِرٍ قد لا يَخطُرُ ببَالِه أنَّه مُتأَسٍّ بالشَّيطانِ بإبْليسَ، كُلُّ إنسانٍ يَقتُلُ عمدًا بِلا حقٍّ لا يَخطُرُ ببالِه أنَّه قتَل تأسِّيًا بقابيلَ، وحينَئِذٍ فاللَّفظُ والمَعنى لا يُساعدانِ على التَّخصيصِ بإبْليسَ وقابيلَ.

وقولُهُ: ﴿أَضَلَّانَا مِنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ﴾، ﴿ٱلْجِنِّ﴾ على كَلامِ المفسِّر هو إبليسُ: ﴿وَٱلْإِنسِ﴾ قابيلُ، والصَّوابُ العُمومُ.

فإن قال قائِلٌ: نَحنُ نَعلمُ أنَّ الإنسانَ يُضِلُّه البَشَر يَأتي إنسانٌ سَيِّئٌ ويُضِلُّه، لكن كيف يَكونُ مِنَ الجِنِّ؟

قُلنا: لأنَّ الجِنَّ وعلى رَأسِهم الشَّيطانُ يَأمرُ الإنسانَ بالفَحشاءِ، ويَأمُرُه بالمُنكَرِ،

ويَأمُرُه بالكُفرِ، فيَكونُ بذلك مُضلًّا له، أرأيتم ما حَصَلَ من آدَمَ وزَوجِه ألم يَكُنِ الشَّيطانُ قد أَضَلَّهما؟ بلى، قد أَضَلَّهما، نَهاهما اللهُ عن الأَكلِ مِنَ الشَّجرَةِ، فجاء لَهما الشَّيطانُ بغُرورٍ، وجعل يُقسِمُ لهما أنَّه ناصحٌ، ووَسوسَ إليهما حتَّى أَكَلا مِنَ الشَّجَرَةِ.

فإنْ قال قائلٌ: هلِ الجِنُّ المُضِلُّ للإنسِ يَكونُ مِن جَميعِ الجِنِّ أم مِن جِنسٍ خاصٍّ؟

فالجَوابُ: مِن المَعلـوم أنَّ الجِـنَّ فيهم الصَّالحونَ وفيهم دونَ ذلك، وفيهم المُسلِمونَ وفِيهم الكُفَّارُ، فالَّذي يُضِلُّ إنَّما هو الكافِرُ، أمَّا الجِنِّيُّ المُؤمنُ فلا يُضِلُّ.

وإن قيل: هل جَميعُ كُفَّارِ الجِنِّ مَكَّنَهم اللهُ عَزَّوَجَلَّ من إغواءِ الإنسِ؟

فالجَوابُ: لا، لكن أَصلُ كُفرِ الإنسانِ منَ الشَّيطانِ والنَّفسِ، والشَّيطانُ منَ الجِنِّ لا شكَّ في هذا: ﴿إِلَّآ إِبۡلِيسَ كَانَ مِنَ ٱلۡجِنِّ﴾ [الكهف:٥٠].

قال اللهُ تعالى: ﴿نَجۡعَلۡهُمَا تَحۡتَ أَقۡدَامِنَا﴾، ﴿نَجۡعَلۡهُمَا﴾ بالجَزمِ جَوابُ الأمرِ في قَولِه: ﴿أَرِنَا﴾ يعني: إن أَريتَنا إيَّاهما: ﴿نَجۡعَلۡهُمَا تَحۡتَ أَقۡدَامِنَا﴾، يَقولُ المُفسِّرُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [في النَّارِ]، ولا شكَّ أنَّ الَّذي يَجعَلَه الإنسانُ تحتَ قدمِه قد أذلَّه أعظَمَ الإذلالِ، ولهذا مِن الأمثالِ السَّائرَةِ أنَّ الإنسانَ إذا أرادَ إعزازَ شَخصٍ قال: أنت مِنِّي على الرَّأسِ، وإذا أَرادَ إذلالَه قال: أنت تَحتَ قَدَمي.

فهم يَقولونَ: ﴿أَرِنَا ٱلَّذَيۡنِ أَضَلَّانَا مِنَ ٱلۡجِنِّ وَٱلۡإِنسِ نَجۡعَلۡهُمَا تَحۡتَ أَقۡدَامِنَا لِيَكُونَا مِنَ ٱلۡأَسۡفَلِينَ﴾. يَقولُ المُفسِّرُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [أي: أَشَدَّ عذابًا منَّا] كما كانا عالِيَينِ علينا مِن قَبلُ فلْنَجْعَلْهما نحنُ الآنَ تَحتَ أقدامِنا؛ ليَكونا مِن الأسفَلِينَ.

فإنْ قال قائلٌ: الدُّعاءُ في قولِه تعالَى: ﴿رَبَّنَآ أَرِنَا ٱلَّذَيۡنِ أَضَلَّانَا﴾، هل هو خاصٌّ

بكَفَرَةِ الإنسِ أم شاملٌ لكَفَرَةِ الإنسِ والجِنِّ؟

فالجَوابُ: يَشملُ هذا وهذا؛ لأنَّ الجِنَّ يَدخلُ كافِرُهم النَّارَ بالإجماعِ.

وإنْ قِيل: لماذا أتتِ الآيَةُ بصيغَةِ الماضي؟

فالجَوابُ: أنَّ هذا القَولُ لم يَحصُلْ لكنَّه على حِكايةِ الحالِ، أو يُقالُ: إنَّه لـمَّا تَحقَّقَ وُقوعُه صار بمَنزِلَةِ الماضي كقَولِه تعالى: ﴿أَتَىٰٓ أَمْرُ ٱللَّهِ فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ﴾ [النحل:١]، فإنَّ أمْرَ اللهِ لم يأتِ بَعدُ بدليلِ قولِهِ: ﴿فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ﴾.

فإنْ قال قائلٌ: ألا يُمكنُ أن يُقالَ: إنَّ قَولَ الكافِرينَ: ﴿أَرِنَا ٱلَّذَيْنِ أَضَلَّانَا﴾ كذلك في النَّارِ بدَليلٍ قولِهم بعدَ ذلك: ﴿نَجْعَلْهُمَا تَحْتَ أَقْدَامِنَا﴾؟

فالجَوابُ: لا يـدُلُّ عليه؛ لأنَّه يُمكـنُ أن يَجعَلونهم تَحـتَ أقدامِهم وهم في عَرَصاتِ القِيامَةِ لا يَلزَمُ أن يَكونَ هذا في النَّارِ.

من فوائِدِ الآيَةِ الكريمَةِ:

الْفَائِدَة الأُولَى: إقرارُ الكُفَّارِ برُبوبيَّةِ اللهِ، وأنَّه المُجيبُ للدُّعاءِ؛ لقولِهم: ﴿رَبَّنَآ أَرِنَا ٱلَّذَيْنِ أَضَلَّانَا﴾ وهذا كَلامُ الكُفَّارِ.

فإنْ قال قائلٌ: قَولُهم: ﴿رَبَّنَآ أَرِنَا ٱلَّذَيْنِ﴾ أليس فيه إقرارٌ بالأُلوهِيَّةِ وتَوحيـدِ العِبادَةِ؟

فالجَوابُ: لا، دُعاءُ اللهِ تعالَى يَكونُ بالدُّنيا لكنَّهم يَدعونَ اللهَ تعالَى بالضَّـرَّاءِ ويَنسونَه في السَّرَّاءِ، وهُناكَ أيضًا في الآخِرَةِ رُبَّما يُقِرُّونَ بأنَّه حقٌّ، لا إِلَهَ إلَّا اللهُ، لكن لا يَنفَعُهم هذا الإِقْرارُ.

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَةُ: أنَّ الإنسانَ يَنبَغي له أن يَبتَعِدَ، بل يَجِبُ عليه أن يبتَعِدَ عن قُرناءِ السُّوءِ؛ لقولِهِ: ﴿ٱلَّذَيۡنِ أَضَلَّانَا مِنَ ٱلۡجِنِّ وَٱلۡإِنسِ﴾، وقد حَذَّرَ النَّبيُّ ﷺ مِن جَليسِ السُّوءِ فقال: «المَرءُ على دينِ خَليلِه فَلْيَنْظُرْ أَحَدُكُم مَنْ يُخالِلْ»[1] أي: على دينِ صَديقِه ومُحِبِّه فَلْيَنْظُرْ أحدُكم مَن يُخالِلُ، وقال عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: «مَثَلُ الجَليسِ السُّوءِ كنافِخِ الكيرِ، إمَّا أن يَحرِقَ ثيابَك وإمَّا أن تَجِدَ منه رائِحةً خَبيثَةً»[2]، فاحذَرْ قَرينَ السُّوءِ لا تَجتَمِعْ به، لا تُصادِقْه، لا تَستأمِنْه على أيِّ شيءٍ.

الْفَائِدَةُ الثَّالِثَةُ: تَبَرُّؤ التَّابعينَ مِن المَتبوعينَ يومَ القيامَةِ، ويَشهَدُ على ذلك قولُهُ: ﴿إِذۡ تَبَرَّأَ ٱلَّذِينَ ٱتُّبِعُواْ مِنَ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُواْ وَرَأَوُاْ ٱلۡعَذَابَ﴾ [البقرة:١٦٦]، فالمَتبوعون في آيةِ البقرَةِ يَتبرَّؤونَ مِنَ التَّابعينَ، كما أنَّ التَّابعينَ أيضًا يَتبرَّؤون مِنَ المَتبوعينَ.

الْفَائِدَةُ الرَّابِعَةُ: أنَّ الإضلالَ يَكونُ مِنَ الجِنِّ والإنسِ؛ لقولِه: ﴿أَضَلَّانَا مِنَ ٱلۡجِنِّ وَٱلۡإِنسِ﴾ فمُصاحبَةُ الإنسيِّ للإنسيِّ واضحَةٌ، مُصاحبَةُ الجِنِّيِّ للإنسيِّ أيضًا مُستفادَةٌ من قولِه تعالى: ﴿وَقَيَّضۡنَا لَهُمۡ قُرَنَآءَ فَزَيَّنُواْ لَهُم مَّا بَيۡنَ أَيۡدِيهِمۡ وَمَا خَلۡفَهُمۡ﴾ [فُصِّلَت:٢٥].

الْفَائِدَةُ الخَامِسَةُ: شِدَّةُ حَنَقِ هؤلاءِ الضَّالينَ على المُضلِّينَ؛ لقولِه: ﴿نَجۡعَلۡهُمَا تَحۡتَ أَقۡدَامِنَا لِيَكُونَا مِنَ ٱلۡأَسۡفَلِينَ﴾.

---

(١) أخرجه الإمام أحمد (٢/ ٣٠٣)، وأبو داود: كتاب الأدب، باب من يؤمر أن يجالس، رقم (٤٨٣٣)، والترمذي: كتاب الزهد، رقم (٢٣٧٨) من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٢) أخرجه البخاري: كتاب الذبائح والصيد، باب المسك، رقم (٥٥٣٤)، ومسلم: كتاب البر والصلة، باب استحباب مجالسة الصالحين، رقم (٢٦٢٨)، من حديث أبي موسى الأشعري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

الآيات (٣٠-٣٢)

قال اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَٰمُواْ تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ أَلَّا تَخَافُواْ وَلَا تَحْزَنُواْ وَأَبْشِرُواْ بِٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ ﴿٣٠﴾ نَحْنُ أَوْلِيَآؤُكُمْ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِي ٱلْءَاخِرَةِ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهِيٓ أَنفُسُكُمْ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدَّعُونَ ﴿٣١﴾ نُزُلًا مِّنْ غَفُورٍ رَّحِيمٍ﴾ [فُصِّلَت:٣٠-٣٢].

قولُه تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُ﴾، قالوا بألْسِنَتِهم وقُلوبِهم، ولا يَكفي مُجرَّدُ القَولِ باللِّسانِ؛ لأنَّ القولَ باللِّسانِ يَقعُ مِن المُنافقِ ومِنَ المُخلصِ، لكنَّ المُرادَ: القَولُ باللِّسانِ والقَلبِ.

﴿قَالُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُ﴾ وهذا القَولُ الَّذي قالوه ليس مُجرَّدَ قَولٍ باللِّسانِ أو اعتِقادٍ بالجَنانِ، بل هو مُستلزِمٌ لطاعَةِ اللهِ عَزَّوَجَلَّ ولهذا قال: ﴿ثُمَّ ٱسْتَقَٰمُواْ﴾ أي: استقاموا على طاعَةِ اللهِ، في الإيمانِ في القَلبِ والاستِقامَةِ في الجَوارحِ، فلم يَكتَفِ اللهُ بالثَّناءِ عليهم وبَيانِ جَزائِهم على الإيمانِ بالقَلبِ، بل لا بدَّ مِنْ الاستِقامَةِ، ولهذا قال: ﴿ثُمَّ ٱسْتَقَٰمُواْ﴾، وقول المُفسِّرُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [على التَّوحيدِ وغَيرِه ممَّا وَجبَ عليهم] صَحيحٌ، يعني: استَقاموا على التَّوحيدِ فلا إِشْراكَ، استَقاموا على الاتِّباعِ فَلا بِدعَةَ، استَقاموا على الطَّاعَةِ فلا مَعصيَةَ، استَقاموا على الخَيرِ فلا شَرَّ، وهَلُمَّ جرًّا.

وتَأمَّلْ قولَه: ﴿ثُمَّ ٱسْتَقَٰمُواْ﴾ أتى بـ﴿ثُمَّ﴾ الدَّالَّةِ على التَّرتيبِ بمُهلَةٍ يعني:

أنَّ إيمانَهم لم يَكنْ إيمانًا خاطِفًا، آمَنَ ثُمَّ زال، بل إيمانٌ مُستقِرٌّ؛ لأنَّهم استَقاموا على دينِ اللهِ عَزَّوَجَلَّ، وقد سُئِلَ النَّبيُّ ﷺ سأله رَجلٌ فقال: «**يا رَسولَ اللهِ، قُل لي في الإسلامِ قولًا لا أَسألُ عنه أحدًا غيرَك** -يعني: قَولًا فَصلًا-، **فقال له: قُل آمَنتُ باللهِ ثُمَّ استقِمْ**»(١) وهو مَأخوذٌ من هذه الآيةِ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسۡتَقَٰمُواْ﴾.

وقولُه: ﴿تَتَنَزَّلُ عَلَيۡهِمُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ﴾، ﴿تَتَنَزَّلُ﴾ مَدلولُها يُخالِفُ مَدلولَ تنزَّلُ؛ لأنَّ ﴿تَتَنَزَّلُ﴾ فيها زِيادةُ (التَّاء)، فهذه الزِّيادةُ تَقتَضي مَعنيينِ: المَعنى الأَوَّلُ أنَّ تنزُّلَهم يَكونُ شيئًا فشيئًا. ﴿تَتَنَزَّلُ﴾ لا تنزَّلُ دُفعةً واحدَةً، والثَّاني: أنَّ التَّنزُّلَ أو النُّزولَ مُتكرِّرٌ، ﴿تَتَنَزَّلُ عَلَيۡهِمُ﴾، يعني: كُلَّما دَعت حالُهم إلى تنزُّلِ المَلائِكةِ عليهم تَنزَّلت عليهم، فصار الفَرقُ الآنَ بين تَنزَّلُ و﴿تَتَنَزَّلُ﴾ من وجهينِ:

الوَجهُ الأوَّلُ: أنَّ تنزَّلُ تَعني النُّزولَ مَرَّةً واحدةً.

والوَجهُ الثَّاني: دُفعةً واحدةً.

و﴿تَتَنَزَّلُ﴾ تَقتَضي تَكرارَ النُّزولِ، وأنَّه يَكونُ شيئًا فشيئًا.

قولُه تعالَى: ﴿عَلَيۡهِمُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ﴾ سَبَقَ الكَلامُ على ذِكرِ المَلائِكَةِ، وقَولُ المُفسِّرِ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [عندَ المَوتِ] فيه نَظَرٌ؛ لأنَّ اللهَ تعالَى لم يُقيِّدْ ذلك، فالظَّاهرُ أنَّ المَلائكةَ تَتنزَّلُ عليهم كُلَّما دعت الحالُ إلى النُّزولِ عندَ المَوتِ وعِندَ الخَوفِ وعندَ المَعارِكِ، وفي كُلِّ حالٍ تَقتَضي أن تَنزِلَ المَلائكةُ عليهم؛ لأنَّ اللهَ أَطلَقَ: ﴿تَتَنَزَّلُ عَلَيۡهِمُ﴾، ويَشهَدُ لهذا قولُه تعالَى: ﴿إِذۡ يُوحِي رَبُّكَ إِلَى ٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ أَنِّي مَعَكُمۡ فَثَبِّتُواْ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ [الأنفال:١٢].

---

(١) أخرجه مسلم: كتاب الإيمان، باب جامع أوصاف الإسلام، رقم (٣٨)، من حديث سفيان بن عبد الله الثقفي رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ.

فإنْ قال قائلٌ: قولُنا نَستفيدُ نُزولَ المَلائكَةِ في الآخِرَةِ عندَ المَوتِ مِن قَصْرِ الآيةِ، هل يَصدُرُ هذا عن قولِ اللهِ عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةً ضَنكًا﴾ [طه:١٢٤]، يعني أنَّ أكثرَ المُفسِّرينَ على أنَّها في القَبرِ في الآخِرَةِ وهُنا الآيَةُ عامَّةٌ؟

فالجَوابُ: وهو كذلك الآيَةُ عامَّةٌ، ويدُلُّ لعُمومِها قولُه تَعالى: ﴿مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً﴾ [النحل:٩٧]، فإنَّ مَفهومَها أنَّ مَن لم يَتَّصِفْ بذلك فَليسَ لَه حَياةٌ طَيِّبةٌ.

فإن قيل: فما الَّذي حَمَلَهم -على كَثرَتِهم- على هذا؟

فالجَوابُ: لعلَّهم فَهِموا أنَّ السِّياقَ يدُلُّ على هذا، فهُنا مثلًا: ﴿أَلَّا تَخَافُوا۟ وَلَا تَحْزَنُوا۟ وَأَبْشِرُوا۟ بِٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى كُنتُمْ تُوعَدُونَ﴾ البِشارَةُ بالجَنَّةِ حقيقةً إنَّما تكونُ عندَ المَوتِ، فلعلَّه السِّياقُ ظَنُّوا أنَّه يَقتَضي التَّخصيصَ.

يَقولُ المفسِّرُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿أَ﴾ بأنْ لا ﴿تَخَافُوا۟﴾ مِن المَوتِ وما بَعدَهُ ﴿وَلَا تَحْزَنُوا۟﴾ على ما خَلَّفتم من أهلٍ وولدٍ، فنحن نَخلُفُكم فيهم].

نحن نَقولُ: ألَّا تَخافوا مِن مُستقبَلِكم ولا تَحزنوا على ماضيكم؛ لأنَّ الإنسانَ عندَ الخوفِ إمَّا أن يَخافَ من المُستقبَلِ أو يَحزنَ على ما مَضى فيَقولُ: لو أنِّي فَعلتُ كذا لكان كذا، لم يَحدُثْ لي الخَوفُ مثلًا، فالمَلائِكةُ تَتنزَّلُ عليهم فتَقولُ: لا تَخافوا مِنَ المُستقبَلِ ولا تَحزنوا مِنَ الماضي، وقَدَّمَ الخَوفَ مِنَ المُستقبَلِ؛ لأنَّه أَهمُّ مِن الحُزنِ على ما مضى؛ لأنَّ مُستقبَلَ الإنسانِ هو الَّذي يَجعلُه يَسيرُ أو يَتوقَّفُ؛ فلهذا بَدَأَ به قَبْلَ ذِكرِ الحُزنِ.

وإذا جعلناها مَثلًا ممَّا يَدعو إلى التَّنزُّلِ حالَ المَوتِ، فالإنسانُ عندَ المَوتِ حالُه

يَقتَضي أن يَزدادَ قُوَّةً ونشاطًا على الإيمانِ والتَّوحيدِ، فتَتنزَّلُ عليهمُ المَلائِكَةُ عندَ المَوتِ أيضًا وتُبشِّرُهم بها: ﴿أَلَّا تَخَافُواْ وَلَا تَحْزَنُواْ وَأَبْشِرُواْ بِٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى كُنتُمْ تُوعَدُونَ﴾ وهي مِن البِشارَةِ، والبِشارَةُ هي الإخبارُ بما يَسُرُّ، وسُمِّيت بِشارَةً؛ لأنَّه إذا سُرَّ الإنسانُ ظَهرت عَلامَةُ السُّرورِ على وَجهِه فتَغيَّرت بِشرَةُ الوَجهِ.

وقد تُطلَقُ البِشارَةُ على الإخْبارِ بما يَسوءُ من بابِ التَّهكُّمِ، قال اللهُ تَعالى: ﴿بَشِّرِ ٱلْمُنَٰفِقِينَ بِأَنَّ لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾ [النساء:١٣٨]، وقال تعالى: ﴿فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ [التوبة:٣٤]، مع أنَّ هذا ممَّا يَسوءُ، لكنَّه على سَبيلِ التَّهكُّمِ بهم كما تَقولُ أنت لِلعاصي: أَبشِرْ بِسوءِ العاقِبةِ أبشِرْ بالنَّارِ وما أَشْبَهَ ذلك ممَّا يَكونُ تَهكُّمًا به، ومثلُ قولِه تعالى: ﴿ثُمَّ صُبُّواْ فَوْقَ رَأْسِهِۦ مِنْ عَذَابِ ٱلْحَمِيمِ ﴿٤٨﴾ ذُقْ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْكَرِيمُ﴾ [الدخان:٤٨-٤٩].

قال اللهُ تَعالى: ﴿وَأَبْشِرُواْ بِٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى كُنتُمْ تُوعَدُونَ﴾ الجَنَّةُ هي الدَّارُ الَّتي أعدَّها اللهُ لأوليائِه، وفيها كما في القُرآنِ الكريمِ: ﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّآ أُخْفِىَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ﴾ [السجدة:١٧]، وفيها كما جاءَ في الحديثِ القُدسيِّ: «**ما لا عينٌ رأت ولا أُذنٌ سَمِعت، ولا خَطَرَ على قَلبِ بشرٍ**»(١).

﴿بِٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى كُنتُمْ تُوعَدُونَ﴾ وعَدَهم بها اللهُ عَزَّوَجَلَّ قال اللهُ تَعالى: ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ﴾ [التوبة:٧٢].

يَقولُ المُفسِّرُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿نَحْنُ أَوْلِيَآؤُكُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾] أي: نَحفَظُكم فيها ﴿وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ﴾ أي: نَكونُ معكم فيها حتَّى تَدخلوا الجَنَّةَ ﴿وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهِىٓ

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب بدء الخلق، باب ما جاء في صفة الجنة، رقم (٣٢٤٤)، ومسلم: كتاب الجنة وصفة نعيمها، رقم (٢٨٢٤)، من حديث أبي هريرة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ.

أَنفُسُكُمْ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدَّعُونَ ﴾ تطْلُبون].

تَقولُ لهم المَلائِكَةُ: ﴿ نَحْنُ أَوْلِيَآؤُكُمْ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِي ٱلْأَخِرَةِ ﴾ يعني: أنَّ المَلائكَةَ تَتولَّى المُؤمنينَ، تحثُّهم على الخَيرِ، وتُحذِّرُهم منَ الشَّرِّ، وقد قال النَّبيُّ -صلَّى اللهُ عليه وعلى آلِه وسلَّم-: أنَّ «للمُلكِ في قَلبِ ابنِ آدمَ لَـمَّةً وللشَّيطانِ لَـمَّةً، فلَمَّةُ المُلكِ إيعادٌ بالخَيرِ وحثٌّ على الطَّاعَةِ، ولَـمَّةُ الشَّيطانِ بالعَكسِ»(١).

فإنْ قال قائلٌ: هل تَرِدُ اللَّمَّتانِ في آنٍ واحدٍ؟

فالجَوابُ: نعم، قد تَرِدُ اللَّمَّتانِ في آنٍ واحدٍ فيَهوى الإنسانُ الخَيرَ وإذا بالشَّيطانِ يَصُدُّه عنه، وقد يَكونُ لم يَطرأْ على بالِه فِعلُ الخَيرِ، والشَّيطانُ قد وَسوسَ له بالشَّرِّ.

وقولُه: ﴿فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ أي: نَحفَظُكم فيها؛ وذلك أنَّ الإنسانَ إذا كانت المَلائكَةُ معه فإنَّها تُسدِّدُه وتَدلُّه على الخَيرِ وتَحثُّه عليه، ﴿وَفِي ٱلْأَخِرَةِ﴾ يَتولَّونَهم أيضًا، فإنَّ المَلائِكَةَ تَتلقَّاهم: ﴿هَٰذَا يَوْمُكُمُ ٱلَّذِى كُنتُمْ تُوعَدُونَ﴾ [الأنبياء:١٠٣]، وفي الجَنَّةِ تَدخُلُ عليهم المَلائِكَةُ من كُلِّ بابٍ ﴿سَلَٰمٌ عَلَيْكُم بِمَا صَبَرْتُمْ فَنِعْمَ عُقْبَى ٱلدَّارِ﴾ [الرعد:٢٤]، فهُمْ أولياءُ المُؤمنينَ في الدُّنيا وفي الآخِرَةِ، جَعلَنا اللهُ منهم وإيَّاكم.

قال اللهُ تعالى: ﴿وَلَكُمْ فِيهَا﴾ أي: في الآخِرَةِ ﴿مَا تَشْتَهِىٓ أَنفُسُكُمْ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدَّعُونَ﴾ كُلُّ ما اشتَهاهُ الإنسانُ وإن لم يَطلُبْه فإنَّه يَحصُلُ بين يَديه، وكذلك أيضًا كُلُّ ما طَلَبَه فإنَّه يَحضُرُ بين يَديه.

في الدُّنيا لا يَتسَنَّى للإنسانِ ما يَطلُبُه حتَّى لو طَلَبَ وكرَّرَ الطَّلبَ فإنَّه قد

---

(١) أخرجه الترمذي: كتاب تفسير القرآن، باب ومن سورة البقرة، رقم (٢٩٨٨)، من حديث عبدالله بن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

لا يَأتيه، لكن في الآخِرَةِ مُجَرَّدُ ما يَقعُ في قَلبِ الإنسانِ أنَّه يَشتَهي كذا يحضُرُ، كذلك أيضًا ما يَطلُبون يحضُرُ أيضًا، ويأتيهم أيضًا ما لا يَخطُرُ على بالِهم كما قال تَعالى: ﴿لَهُم مَّا يَشَآءُونَ فِيهَا وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ﴾ [ق:٣٥] يعني يَأتيك منَ النَّعيمِ ما لم تَطلُبْه وما لم تَشتَهِه نفسُك وما لم يخطُرْ على بالِك.

يَقولُ المُفسِّرُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿نُزُلًا﴾] رِزقًا مُهيًّأً منصوبٌ بجُعِلَ مُقَدَّرًا]؛ أي: جُعِل نُزلًا [﴿مِّنْ غَفُورٍ رَّحِيمٍ﴾ أي اللهِ] عَزَّوَجَلَّ؛ لأنَّهم لم يَصِلوا إلى الجَنَّةِ إلَّا بمغفِرتِه ورَحمتِه.

يعني على تَقديرِ المفسِّر: أنَّ ﴿نُزُلًا﴾ مفعولٌ ثانٍ لجُعِلَ المَحذوفِ، أي: جُعِل ﴿نُزُلًا﴾ ومَفعولُها الأوَّلُ هو نَائبُ الفاعِلِ؛ لأنَّ نائبَ الفاعِلِ يَنوبُ عن المَفعولِ به. يَقولُ: ﴿نُزُلًا﴾، أي: جُعِلَ ﴿نُزُلًا مِّنْ غَفُورٍ رَّحِيمٍ﴾ وهو اللهُ عَزَّوَجَلَّ وذَكَرَ المغفرةَ والرَّحمَةَ؛ لأنَّهم بمَغفِرَةِ اللهِ ورحمتِهِ وصَلوا إلى هذا، فبِمَغفِرتِه للذُّنوبِ نقُّوا منها وبرحمَةِ اللهِ تَعالى صاروا أهلًا لدُخولِ الجَنَّةِ.

من فوائدِ الآياتِ الكريمَةِ:

الْفَائِدَة الأُولَى: أنَّ مُجرَّدَ العَقيدَةِ لا يُغني شيئًا حتَّى يَكونَ معه عَملٌ؛ لقولِه تَعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَٰمُواْ﴾، وما يَقولُه كَثيرٌ منَ النَّاسِ: نحن على العَقيدَةِ هذا حَقٌّ ولا شكَّ، ويَمدَحونَ عليه لكن لا بُدَّ مِن أن يُقالَ: نحن على العَقيدَةِ والعَملِ الصَّالحِ، إذ لا بُدَّ منَ العملِ.

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَةُ: الحثُّ على الاستقامَةِ، والاستقامَةُ على دينِ اللهِ عَزَّوَجَلَّ أن يَثبُتَ عليه، ويَستَقيمَ عليه ولا يَتغيَّرَ.

الْفَائِدَةُ الثَّالِثَةُ: إثباتُ المَلائكَةِ؛ لقولِه: ﴿تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ﴾.

الْفَائِدَةُ الرَّابِعَةُ: أنَّ اللهَ تَعالى سَخَّرَ المَلائكَةَ لبَني آدَمَ في مَواطنَ كَثيرةٍ كما في هذه الآيَةِ، وكما في قولِهِ تعالى: ﴿وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِم مِّن كُلِّ بَابٍ ﴿٢٣﴾ سَلَٰمٌ عَلَيْكُم بِمَا صَبَرْتُمْ﴾ [الرعد:٢٣-٢٤]، وكما سَخَّرهم اللهُ تعالى يَجلِسونَ على أَبوابِ المَساجِدِ يومَ الجُمُعةِ يَكتُبونَ الأَوَّلَ فالأَوَّلَ، إلى غيرِ ذلك مِنَ المَواطنِ الَّتي جاءت في الكِتابِ والسُّنَّةِ.

الْفَائِدَةُ الخَامِسَةُ: أنَّ المَلائكَةَ الَّتي تتنزَّلُ على هَؤلاءِ المُؤمنينَ المُستَقيمينَ تُبشِّرُهم بثَلاثَةِ أُمورٍ: أَوَّلًا: أنَّه لا خَوفَ عليهم، والثَّاني: أنَّهم لا يَحزنونَ، والثَّالثُ: أنَّ الجَنَّةَ مَأواهم، وقد سَبَقَ الفَرْقُ بين الخَوفِ والحُزْنِ.

الْفَائِدَةُ السَّادِسَةُ: تَحقيقُ البُشرى بما يُؤيِّدُها، يعني: لا يَكفي أن تَقولَ: يا فُلانُ أَبشِرْ بالخَيرِ حتَّى تُبيِّنَ ما يُؤَيِّدُ هذه البُشْرى، يُؤخَذُ من هذه الآيَةِ وهي قولُه: ﴿ٱلَّتِى كُنتُمْ تُوعَدُونَ﴾ وذلك لِعلمِهم بأنَّ وعدَ اللهِ لا يُخلَفُ.

الْفَائِدَةُ السَّابِعَةُ: أنَّ المَلائكَةَ أَولياءُ لِمَن آمَنَ واستقامَ في الحَياةِ الدُّنيا وفي الآخِرَةِ.

أمَّا في الحَياةِ الدُّنيا فهِيَ حِفظُهم مِنَ المَعاصي والزَّلَلِ وتَهيئَتُهم للعَمَلِ الصَّالحِ ومَعونَتُهم على ذلك وتَثْبيتُهم عليه.

وأمَّا في الآخِرَةِ فلا تَسأَلْ، فإنَّ المَلائكَةَ تَتلقَّاهم، وكذلك أيضًا يَدخُلونَ عليهم مِن كُلِّ بابٍ في الجَنَّةِ إلى غيرِ ذلك مِمَّا ذَكَرَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ.

الْفَائِدَةُ الثَّامِنَةُ: أنَّ للَّذين آمَنوا باللهِ واستَقاموا في الجَنَّةِ ما تَشتَهيهِ الأنفُسُ، وفي آيَةٍ أُخْرى: ﴿مَا تَشْتَهِيهِ ٱلْأَنفُسُ وَتَلَذُّ ٱلْأَعْيُنُ﴾ [الزُّخرُف:٧١] فيَكونُ لأهلِ الجَنَّةِ فيها مُتعَتانِ؛ المُتعَةُ الأُولى بالذَّوقِ والطَّعمِ، والمُتعَةُ الثَّانيةُ بالرُّؤيَةِ والنَّظرِ.

الْفَائِدَةُ التَّاسِعَةُ: أنَّ في الجَنَّةِ كُلَّ شيءٍ يَطلُبُ؛ لقولِه: ﴿وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدَّعُونَ﴾،

فكُلُّ ما يَطلُبون فإنَّه مَوجودٌ في الجَنَّةِ، نَسأَلُ اللهَ أن يَجعلَني وإيَّاكم من أَهلِها.

الْفَائِدَةُ الْعَاشِرَةُ: أنَّهم يُؤتَونَ هذا الرِّزقَ في الجَنَّةِ على أنَّه إكرامٌ وكَرامةٌ؛ لقولِهِ: ﴿نُزُلًا﴾، وأصلُ النُّزُلِ ما يُقدَّمُ للضَّيفِ مِنَ الكَرامَةِ.

الْفَائِدَةُ الحَادِيَةَ عَشْرَةَ: أنَّهم إنَّما وَصَلوا إلى ذلك بمَغفِرةِ اللهِ ورَحمَتِه؛ لقولِه: ﴿نُزُلًا مِّنْ غَفُورٍ رَّحِيمٍ﴾، ولولا ذلك ما وَصَلوا إلى ما وَصَلوا إليه، ولهذا أَخْبَرَ النَّبيُّ ﷺ أنَّه «**لن يَدخُلَ الجَنَّةَ أحدٌ بعَمَلِه**»، قالوا: ولا أنت يا رَسولَ اللهِ؟ قال: «**ولا أنا؛ إلَّا أن يَتَغَمَّدَني اللهُ برَحمَتِه**»[1]، فالإنسانُ لا يَصِلُ إلى الجَنَّةِ بالعَمَلِ، ووَجهُ ذلك أنَّه لو قوبِلَ العَمَلُ بالنِّعمَةِ الَّتي أَنعَمَ اللهُ بها على الإنسانِ لم يَكُنْ شيئًا، إذ إنَّ نِعَمَ اللهِ لا تُحصَى ولا تُعَدُّ.

بل قال بَعضُ أهلِ العِلمِ: إنَّ شُكرَ نِعمَةِ اللهِ على النِّعمَةِ هو نِعمَةٌ يَحتاجُ إلى شُكرٍ ثانٍ، والشُّكرُ الثَّاني نِعمَـةٌ يَحتاجُ إلى شُكرٍ ثَالثٍ وهَلُمَّ جرًّا، وعليه يَقولُ الشَّاعرُ[2]:

إذا كـان شُـكْري نِعمَـةَ اللهِ نِعمَـةً ... عَـلَيَّ لـه في مِثلِهـا يَجِـبُ الشُّـكرُ

فكيـف بُلـوغُ الشُّـكرِ إلَّا بفَضـلِه ... وإن طالـت الأيَّـامُ واتَّصـلَ العُمـرُ

فإنْ قالَ قائِلٌ: في الحَديثِ: «**لا يَدخُلُ الجَنَّةَ مَن كان في قَلْبه مِثقالُ ذَرَّةٍ مِن**

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب المرضى، باب تمني المريض الموت، رقم (٥٦٧٣)، ومسلم: كتاب صفة القيامة، باب لن يدخل أحد الجنة بعمله بل برحمة الله تعالى، رقم (٢٨١٦)، من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٢) البيتان لمحمود بن الحسن الوراق، انظر: الفاضل للمبرد (ص:٩٥)، والصناعتين لأبي هلال العسكري (ص:٢٣٢).

كِبْرٍ»[١]. هَلْ لا يَدْخُلُ الجَنَّةَ دُخُولًا أَوَّلِيًّا، أمْ لا يدخُلُ الجَنَّةَ أبَدًا؟

فالجَوابُ: هَذا فِيه تَفصِيلٌ؛ إنْ كان الكِبْرُ كُفرًا فَلا يَدخُل الجَنَّة أبدًا، وإنْ كان كِبْرٌ مَعَ الإيمانِ فَإنَّه لا يَدخُلُها الدُّخُولَ المُطلَقَ الَّذي لمْ يُسبَق بعَذابٍ، وهَذا أيْضًا مِن آيات الوَعِيدِ، إذا شاء اللهُ تَعالَى عَفا عَنْه ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ﴾ [النِّساء:٤٨].

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَةَ عَشْرَةَ: إثباتُ اسمَينِ مِن أَسماءِ اللهِ وهُما الغَفورُ الرَّحيمُ.

وهُنا قاعدَةٌ مُفيدَةٌ في الأسمـاءِ الحُسنى: الأَسْماءُ الحُسنـى تَدُلُّ على الذَّاتِ والصِّفاتِ دَلالَةَ مُطابقَةً وتَضمَنُ ودَلالَةَ التِزام، فغَفورٌ يَدُلُّ على أنَّ هُناك غافرًا وهو اللهُ، ويدُلُّ على صِفةِ المَغفرَةِ له إذ لا يُمكِنُ أن يُوجَدَ اسمٌ مُشتقٌّ لا يوجَدُ في مَوصوفِه أَصلُ الاشتِقاقِ، ولهذا لا تَقولُ للأعمى أنَّه بَصيرٌ ولا الأَصَمِّ أنَّه سَميعٌ.

فلا بدَّ إذن مِن إثباتِ الذَّاتِ المُتَّصِفَةِ بما دلَّ عليه الاِسمُ، ولا بدَّ مِن إثباتِ الصِّفَةِ الَّتي اشتُقَّ منها الاِسمُ، ولا بُدَّ أيضًا مِن إثباتِ لازم تلك الصِّفةِ، مِثالُ ذلك قال اللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ وَمِنَ ٱلْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ ٱلْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ لِتَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ ٱللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَىْءٍ عِلْمًۢا﴾ [الطلاق:١٢].

فأَخبرَ أنَّه خَلَقَ وبيَّنَ أنَّه أخبرَنا بذلك لنَعلمَ أنَّه على كُلِّ شيءٍ قديرٌ، وأنَّ اللهَ قد أَحاطَ بكُلِّ شيءٍ عِلمًا، فكيف دَلَّت صِفةُ الخَلقِ على العِلمِ والقُدرَةِ؟ لأنَّه لا يُمكنُ أن يَخلُقَ إلا بِعلمٍ، فهو يَعلمُ كيف يَخلُقُ، ولا يُمكنُ أن يَخلُقَ إلَّا بقُدرَةٍ؛ ولهذا مَن لا عِلمَ له لا يُمكـنُ أن يَخلُقَ، ومَن عِنـدَه عِلمٌ ولكنَّه عاجِزٌ لا يُمكِنُ أن يَخلُقَ،

---

(١) أخرجه مسلم: كتاب الإيمان، باب تحريم الكبر وبيانه، رقم (٩١)، من حديث عبد الله بن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

أرأيتَ لو أنَّ شخصًا أرادَ أن يُلحَ مُسَجِّلًا، هل يُمكنُ أن يُصلحَه إلَّا بعِلمٍ كيف يُصلحُه؟ لا يُمكنُ، وهل يُمكنُ أن يُصلحَه وهو عاجِزٌ أَشَلُّ؟ لا يُمكنُ.

إذن الخالِقُ مِن أسماءِ اللهِ تَتضَمَّنُ الدَّلالَةَ على الذَّاتِ وهو اللهُ، وعلى صِفَةِ الخَلقِ، وعلى صِفةِ العِلمِ، وعلى صِفةِ القُدرَةِ، فتَدُلُّ على صِفةِ الخالِقِ الَّذي هو ذاتُ اللهِ عَزَّوَجَلَّ وعلى صِفةِ الخَلقِ بالتَّضمُّنِ والمُطابقَةِ، فإذا أُخِذَ اللَّفظُ بكامِلِ معناه سُمِّيتِ الدَّلالَةُ مُطابِقةً، وإذا أُخِذَ ببَعضِ معناه صارت الدَّلالَةُ تَضَمُّنًا، وإذا أُخِذَ بما يَلزَمُ على ذلك صارت الدَّلالَةُ التِزامًا، فدَلالَةُ الخالِقِ على الذَّاتِ وصِفةِ الخَلقِ مُطابِقَةٌ، ودَلالَتُها على الذَّاتِ وحدَها تَضمُّنٌ، وعلى الخَلْقِ وحدَه تَضمُّنٌ، وعلى العِلمِ والقُدرَةِ التِزامٌ.

نَضرِبُ مَثَلًا في المَحسوساتِ تَقولُ مَثَلًا: (لي دارٌ) الدَّارُ كما نَعلَمُ تَتضَمَّنُ غُرَفًا وحُجَرًا وساحاتٍ وأبوابًا وشَبابيكَ وما إلى ذلك، دَلالَةُ هذه الكَلِمَةِ (دار) على مَجموعِ هذا دَلالَةٌ مُطابِقَةٌ، ودَلالَتُها على كُلِّ حُجرَةٍ وغُرفَةٍ وشَبَّاكٍ تَضَمُّنٌ، ودَلالَتُها على أنَّ لهذا البَيتِ بانيًا التِزامٌ؛ وأسماءُ اللهِ تَعالى تَجرِي على هذا.

وكذلك أيضًا: يَقولون إذا كانَ الاسمُ مُتعدِّيًا فلا بدَّ منَ الإيمانِ به اسمًا من أسماءِ اللهِ، والإيمانُ بما دَلَّ عليه من صِفَةٍ، والإيمانُ بما يَترَتَّبُ على تلك الصِّفَةِ من أفعالٍ.

فالغَفورُ لا يَتِمُّ الإيمانُ به حتَّى تُؤمِنَ بأنَّ اللهَ تعالى تَسمَّى بهذا الاسمِ، فتُؤمِنُ بأنَّ الغَفورَ اسمٌ من أسماءِ اللهِ، ولا بدَّ أن تُؤمِنَ بما تَضَمَّنه من صِفَةِ المَغفرَةِ، ولا بدَّ أن تُؤمِنَ بأنَّ اللهَ يَغفِرُ، يَغفِرُ بمُقتَضى هذا الاسمِ، ويَغفِرُ لِمَنْ يَشاءُ ويُعذِّبُ مَن يَشاءُ.

فهُنا قاعِدَتانِ:

١- الدَّلالَةُ دَلالَةُ الاسمِ على المَعنى تَتضَمَّنُ ثَلاثَةَ دَلالاتٍ: مُطابِقةٍ، تَضمُّنٍ، التِزامٍ.

٢- ثُمَّ الاسمُ من أسماءِ اللهِ إذا كان مُتعدِّيًا فلا يَتِمُّ الإيمانُ به إلَّا بثَلاثَةِ أُمورٍ: أن تُؤمنَ بأنَّه اسمٌ من أسماءِ اللهِ، أن تُؤمِنَ بما دَلَّ عليه مِن صِفةٍ، أن تُؤمِنَ بما يَترتَّبُ عليه مِن أَثَرٍ، فإذا كانَ الاسمُ غيرَ مُتَعَدٍّ فلا بُدَّ مِن الإيمانِ بأنَّه اسمٌ من أسماءِ اللهِ وبما تَضَمَّنه مِن صِفَةٍ، وليس له أَثَرٌ؛ لأنَّه غَيرُ مُتعَدٍّ.

فالحَيُّ مثلًا، الحَيُّ اسمٌ من أسماءِ اللهِ لا يَتِمُّ الإيمانُ به حتَّى تُؤمِنَ بأنَّه اسمٌ من أسماءِ اللهِ وبأنَّ اللهَ مُتَّصِفٌ بما دَلَّ عليه من صفة وهي الحَياةُ، ولا أَثَرَ لها؛ لأنَّ الحَياةَ صِفةٌ لازِمَةٌ لا تَتعَدَّى، لكنَّ السَّميعَ مُتعدٍّ، السَّميعُ ذو سَمْعٍ يَسمَعُ به، والبَصيرُ ذو بَصَرٍ يُبصِرُ به.

• ● ۞ ● •

الآية (٣٣)

قال اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِّمَّن دَعَآ إِلَى ٱللَّهِ وَعَمِلَ صَٰلِحًا وَقَالَ إِنَّنِى مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾ [فصلت:٣٣].

هذه ثَلاثةُ أوصافٍ إذا اتَّصَفَ بها الإنسانُ، فلا أَحسَنَ من قولِهِ.

يَقولُ المُفسِّرُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا﴾ أي: لا أَحَدَ أَحسنُ قولًا] تَفسيرُ المفسِّر بهذه الجُملَةِ يُفيدُ أنَّ (مَن) اسمُ استفهامٍ، لكنَّها بمَعنى النَّفيِ (من أحسن) يعني: لا أَحَدَ أحسنُ.

وإذا جاء الاستِفهامُ بمَعنى النَّفيِ فإنَّه مُشْرَبٌ معنى التَّحدِّي، أيُّهما أَبلغُ: أن تَقولَ لا أحدَ أحسنُ قولًا ممَّن دعا إلى اللهِ، أو أن تَقولَ: مَن أحسنُ؟ الثَّاني أَبلغُ؛ لأنَّ الثَّاني يَتضمَّنُ النَّفيَ ويَتضمَّنُ التَّحدِّي كأنَّه يَقولُ: ائتني ببيِّنَةٍ على أنَّ هُناك أحدًا أَحسنَ ممَّن دعا إلى الله، فكُلُّ استِفهامٍ جاء بمَعنى النَّفيِ فإنَّه مُشرَبٌ مَعنى التَّحدِّي؛ لأنَّك إذا قُلت: مَن كذا؟ يَعني: مَعناها أتحدَّاك أن تَأتيَ لي بشَيءٍ سِوى ذلك.

﴿وَمَنْ أَحْسَنُ﴾ أَشَدُّ نفيًا مِن قولِ: لا أَحَدَ أحسنُ، وذلك لأنَّها جُملَةٌ استِفهاميَّةٌ مُشرَبةٌ مَعنى التَّحدِّي.

﴿أَحْسَنُ﴾ هذه خَبرُ مُبتدإٍ، و(مَن) هو المُبتَدأُ و﴿قَوْلًا﴾ تَمييزٌ؛ لأنَّه كُلَّما جاءَك اسمٌ مَنصوبٌ بَعدَ اسمِ التَّفضيلِ فإنَّه تَمييزٌ له.

يَقولُ المُفسِّرُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿مِّمَّن دَعَآ إِلَى ٱللَّهِ﴾ بالتَّوحيدِ]. وهذا لا شَكَّ حَسَنٌ، لكنَّ الآيَةَ أشمَلُ مِنَ التَّوحيدِ، ﴿مِّمَّن دَعَآ إِلَى ٱللَّهِ﴾ بالتَّوحيدِ والعَمَلِ الصَّالحِ، وغيرِ ذلك مِمَّا يُجعلُ إلى اللهِ، وقولُه: ﴿مِّمَّن دَعَآ إِلَى ٱللَّهِ﴾ يَعني: إلى دينِ اللهِ، ودينُ اللهِ يَتضمَّنُ التَّوحيدَ والأعمالَ الصَّالحةَ.

ثانيًا: قال: ﴿وَعَمِلَ صَـٰلِحًا﴾ فبَدَأَ بإصلاحِ الغَيرِ ثُمَّ ثَنَّى بإصلاحِ النَّفْسِ مع أنَّ مَن دعا إلى اللهِ فهو مُصلِحٌ أيضًا.

قَولُه تعالى: ﴿صَـٰلِحًا﴾ صِفةٌ لَموصوفٍ محذوفٍ، التَّقديرُ: وعَمِلَ عملًا صالِحًا، ولا يَكونُ العَمَلُ صالِحًا إلا بشَرْطينِ هما: الإخْلاصُ للهِ، والمُتابَعةُ لرَسولِ اللهِ ﷺ.

فعَمَلُ المُرائي فَقَدَ الإخلاصَ، وعَمَلُ المُبتَدِعِ فَقَدَ المُتابعةَ، وحينَئِذٍ نَقولُ لهؤلاءِ المُبتَدِعينَ الَّذين عِندَهم منَ الإخلاصِ للهِ ما عِندَهم: إنَّ عَمَلَكم حابِطٌ، قال النَّبيُّ -صلَّى اللهُ عليه وعلى آله وسلَّم-: **«مَن عَمِلَ عملًا ليس عليه أَمرُنا فهو رَدٌّ»**[(١)].

ثُمَّ نَقولُ: حَقيقَةُ الإخلاصِ تَستلزِمُ ألَّا تَعبُدَ اللهَ إلَّا بما شَرَعَ لا تَعبُدُه بهواكَ؛ لأنَّك إذا عَبدتَ اللهَ بهَواكَ بالبِدعَةِ فأنت غَيرُ مُخلِصٍ، المُخلِصُ لا بدَّ أن يَعبُدَ اللهَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ بما شَرَعَ، فصار العَمَلُ الصَّالحُ ما تَركَّبَ من شَيئَينِ: الأَوَّلُ: الإخلاصُ، والثَّاني: المُتابَعةُ لرَسولِ اللهِ ﷺ.

فإنْ قال قائلٌ: كيف نَجمَعُ بين هذا وبينَ حَديثِ الرَّسولِ ﷺ: **«أنَّه يَخرُجُ مِنَ النَّارِ أُناسٌ لم يَعملوا خَيرًا قط»**[(٢)]؟

---

(١) أخرجه مسلم: كتاب الأقضية، باب نقض الأحكام الباطلة، ورد محدثات الأمور، رقم (١٧١٨)، من حديث عائشة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهَا.

(٢) أخرجه مسلم: كتاب الإيمان، باب معرفة طريق الرؤية، رقم (١٨٣)، من حديث أبي سعيد الخدري رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ.

فالجَوابُ: أنَّ هذا عُذِّبَ على ما تَرَكَ، وما تَنزَّلت عليه المَلائِكةُ، ثُمَّ لا بدَّ أن يَكونَ عِندَ الإنسانِ عَقيدَةٌ إيمانيَّةٌ وإلَّا لقُلنا: إنَّ النَّصارى أيضًا يَخرُجون مِنَ النَّارِ بعَقيدتِهم.

قال اللهُ تعالى: ﴿وَقَالَ إِنَّنِي مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾ قال باللِّسانِ والقَلبِ بهما جميعًا.

فإن قال قائلٌ: قولُهُ: إنِّي مِنَ المُسلمينَ هو مِنَ العَمَلِ الصَّالحِ لا شكَّ، فما الفائِدَةُ من ذلك؟

قُلنا: الفائدَةُ أنَّه يُعلنُ هذا القَولَ ولا يُبالي بمَنْ خالَفَهُ؛ لأنَّ مِن النَّاسِ مَن يَعمَلُ صالحًا لكن تَجِدُه مُتستِّرًا ليس عِندَه الشَّجاعَةُ الَّتي تَجعَلُه يُعلِنُ ذلك.

أمَّا هذا فإنَّه يُعلِنُ ويَقولُ بلِسانِ المَقالِ غيرَ مُبالٍ: ﴿إِنَّنِي مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾، والجُملَةُ ﴿إِنَّنِي﴾ مُؤَكَّدةٌ بأنَّ.

ذَكَرَ بعضُ أهلِ العِلمِ أنَّ المُرادَ بذلك المُؤذِّنُ؛ لأنَّ المُؤذِّنَ يَدعو إلى اللهِ يَقولُ للنَّاسِ: حَيَّ على الصَّلاةِ حَيَّ على الفَلاحِ، ولأنَّه مُؤمنٌ عاملٌ صالحًا، ولأنَّه يَقولُ: أشهدُ أن لا إلهَ إلَّا اللهُ، يُعلِنُها وأَشهَدُ أنَّ محمَّدًا رَسولُ اللهِ، وهذا معنى قولِه: ﴿إِنَّنِي مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾.

لكنَّ الصَّحيحَ أنَّ الآيَةَ عامَّةٌ تَشمَلُ المُؤذِّنَ وغيرَ المُؤذِّنِ، الخَطيبُ على المِنبرِ يَدخُلُ في الآيَةِ، المُعلِّمُ في حَلْقةِ تَعليمِه يَدخُلُ في ذلك، فالآيَةُ أَعمُّ مِمَّا ذُكِرَ.

ولكنِ اعلَمْ أنَّ بعضَ السَّلَفِ يَذكُرُ للآيَةِ مَعنًى خاصًّا لا يُريدُ حَصرَها في هذا المَعنى، وإنَّما يُريدُ التَّمثيلَ، وهذه مَسألَةٌ قد تَفوتُ على بَعضِ النَّاسِ، دائمًا نَنظُرُ في تَفسيرِ ابنِ كثيرٍ أو ابنِ جَريرٍ أنَّه قال فُلانٌ كذا الجُزءِ المَعنى، فهم لا يُريدون أن

يَقْصُروا العامَّ على الخاصِّ؛ لأنَّهم أَعلمُ مِن أن يَقتَصِروا على بَعضِ أفرادِ العامِّ مثلًا، لكنَّهم يُريدونَ التَّمثيلَ.

مِثالُ ذلك: قال بَعضُ العُلماءِ: ﴿ثُمَّ أَوْرَثْنَا ٱلْكِتَٰبَ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا ۖ فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ وَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌۢ بِٱلْخَيْرَٰتِ﴾ [فاطر:٣٢] قال: الظَّالِمُ لنَفسِه الَّذي يُؤخِّرُ الصَّلاةَ عن وقتِها، المُقتَصِدُ الَّذي يُصلِّيها في آخِرِ الوقتِ، السَّابقُ بالخَيراتِ الَّذي يُصلِّيها في أَوَّلِ الوقتِ.

هذا لا شكَّ أنَّه حَصرٌ بل لا شكَّ أنَّه تَخصيصٌ لعامٍّ، فنَقولُ: أَرادوا بذلك التَّمثيلَ.

ويَرِدُ علينا كَثيرًا سُؤالٌ: هل الأفْضلُ طَلَبُ العِلمِ أو الِاشتِغالُ بالدَّعوةِ؟

والواقعُ أنَّه سُؤالٌ غيرُ مُحرَّرٍ:

أوَّلًا: أنَّه يُمكنُ الجَمعُ بين هذا وهذا، ونحن نَعلَمُ أنَّ الدَّاعيَةَ ليس يَشغَلُ وقتَه من صَلاةِ الفَجرِ إلى ما بعدَ صَلاةِ العِشاءِ وهو يَدعو أبدًا، هل أَحَدٌ مِنَ الدُّعاةِ يَفعلُ هكذا، يَدعو نِصفَ ساعَةٍ هُنا ونِصفَ ساعَةٍ هُناك، وأمَّا أن يَبقى لا يَسكُتُ من صَلاةِ الفَجرِ إلى أن يُصلِّيَ العِشاءَ، لا يُمكنُ لا بدَّ مِن فَتراتٍ، فلا يَتعذَّرُ الجَمعُ بينَ الدَّعوَةِ إلى اللهِ وطَلَبِ العِلمِ، يَطلُبُ العِلمَ ساعةً أو ساعَتين، ثُمَّ يَدعو نِصفَ ساعةٍ مثلًا فلا منافاةَ، هذه واحدةٌ.

ثانيًا: أنَّه لا يُمكنُ الدَّعوَةُ إلى اللهِ بلا عِلمٍ والدَّعوةُ إلى اللهِ عن جَهلٍ قد يكونُ فيها مِنَ الضَّررِ أَكثَرُ من عَدمِ الدَّعوةِ، فكَثيرٌ مِنَ الدُّعاةِ، يَكونُ عندَه غَيْرَةٌ ومَحبَّةٌ للخَيرِ فتَجِدُه يُحرِّمُ الحَلالَ أو يوجِبُ ما ليس بواجبٍ بِناءً على ما عِندَه مِنَ الغَيرَةِ،

ولو كان ذا عِلمٍ لحَصَلَ له الثَّباتُ، ولا يَخفى ما جَرى من عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ في صُلحِ الحُديبيَّةِ صار يُعارِضُ الصُّلحَ[1]، ويأتي للرَّسولِ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ يُريدُ أن يَحِلَّ عُقدةَ الصُّلحِ، لكنَّ الثَّباتَ كَثباتِ أبي بكرٍ تبيَّنَ بحَقٍّ، فلا يُمكنُ أن يَكونَ داعِيةً يَدعو إلى اللهِ بِلا عِلمٍ، هذا إذا أَردْنا العِلمَ بما يَدعو إليه، ولسنا نُريدُ أنَّه لا يُمكنُ أن يَدعوَ إلى اللهِ إلَّا مَن كان مُتبحِّرًا بالعُلومِ، لا، لو قُلنا هكذا ما صحَّ قَولُ الرَّسولِ: «**بَلِّغوا عنِّي ولو آيَةً**»[2].

فالجَوابُ إذن مِن وَجهينِ:

الوَجهُ الأَوَّلُ: أنَّه لا مُنافاةَ بين العِلمِ والدَّعوةِ.

الوَجهُ الثَّاني: أنَّه لا تُمكنُ الدَّعوةُ إلَّا بعِلمٍ بما يَدعو عليه.

بَقِيَ علينا وَسائلُ الدَّعوةِ، ووَسائلُ الدَّعوةِ كَثيرةٌ يَعني: ليس الدَّعوَةُ مُختَصَّةً بأن يَقومَ الإنسانُ يَتكلَّمُ، بل الدَّعوَةُ تكونُ بالقَولِ وتَكونُ بالكِتابَةِ وتَكونُ بنَفْسِ الفِعلِ، الإنسانُ الَّذي تَثِقُ منه تَجِدُ أنَّك تَنظُرُ ماذا يَصنَعُ وتَفعَلُ مِثلَه، هذه دَعوَةٌ، هذا نَوعٌ مِنَ الدَّعوَةِ، بل قد تَكونُ الدَّعوَةُ بالفِعلِ والعَملِ أَقوَى تَأثيرًا مِنَ الدَّعوةِ باللِّسانِ.

فإن قيل: طالِبُ العِلمِ الَّذي يُريدُ الدَّعوَةَ ولا سِيَّما الدَّعوةُ في الحاراتِ؛ لأنَّه يوجَدُ في الحاراتِ مُنكرٌ كَثيرٌ كتَركِ الصَّلاةِ ويَعرِفُ فُلانًا وفُلانًا وتَركَهم الصَّلاةَ،

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب الشروط، باب الشروط في الجهاد، رقم (٢٧٣١)، من حديث المسور بن مخرمة، ومروان بن الحكم رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.

(٢) أخرجه البخاري: كتاب أحاديث الأنبياء، باب ما ذكر عن بني إسرائيل، رقم (٣٤٦١)، من حديث ابن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

فإن مَشَى إليهم ضاعَ وَقتُه، فهل يَترُكُهم؛ لأنَّ الوَقتَ قَليلٌ؟ وهل يُعذَرُ الإنسانُ إذا غَلَبَ على ظَنِّه أنَّ هذا الشَّخصَ بَعيدُ الاستِجابَةِ أو بَعيدٌ أن يَقبَلَ منه، ولا يَجِدُ الوَقتَ المُناسبَ له؟

فالجَوابُ: هذه في الواقِعِ مَوعِظَةٌ أو أمْرٌ، فالدَّعوَةُ تَكونُ بصِفةٍ عامَّةٍ، أمَّا أن تَذهَبَ إلى فُلانٍ وتَنصَحُه فهذا في الحَقيقَةِ مَوعِظَةٌ، وإن كان لك سُلطَةٌ فهو أمرٌ، أمرٌ بالمَعروفِ، وهذا كما نَعرِفُ له أَحوالٌ، لا يَجِبُ على الإنسانِ أن يَترُكَ ما يَهُمُّه في دينِه ودُنياهُ من أجلِ أن يَذهبَ إلى النَّاسِ ويَقرَعَ أبوابَهم ليَأمُرَهم أو يَعِظَهم، هذا ليس بواجبٍ.

فإن قيل: قولُهُ ﷺ: «مَن رأى مِنكم مُنكرًا فَلْيُغيِّرْه»[1]؟

فالجواب: نعم في: (مَن رَأى)، لكنَّ الرَّسولَ ﷺ ما ذَهبَ وما قال: تطلَّبوا رُؤيَةَ المُنكَرِ، وهذا الَّذي لا يُصلِّي يُمكنُ أن أَعِظَه في السُّوقِ أو في المَسجدِ؛ ولهذا نَجِدُ النَّاسَ الآنَ يَستثقِلونَ أن يَقرعَ عليهِمُ البابَ أحدٌ فيَعِظَهم أو يَأمُرَهم، ورُبَّما حَصَلَ من ذلك ما يُسَمَّى برَدِّ الفِعلِ.

من فوائدِ الآيَةِ الكريمَةِ:

الْفَائِدَة الأُولَى: تَفاضُلُ الأعمـالِ؛ لقَولِه: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا﴾، وأحسنُ اسمُ تَفضيلٍ، ولا شكَّ أنَّ الأعمالَ تَتَفاضَلُ بثَلاثِ اعتِباراتٍ: باعتِبارِ الجِنسِ، وباعتِبارِ النَّوعِ، وباعتِبارِ الهَيئَةِ والكَيفيَّةِ.

---

(١) أخرجه مسلم: كتاب الإيمان، باب بيان كون النهي عن المنكر من الإيمان، رقم (٤٩)، من حديث أبي سعيد الخدري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

تَتفاضَلُ باعتِبارِ الجِنسِ: فمَثلًا الصَّلاةُ أفضَلُ مِنَ الزَّكاةِ، الزَّكاةُ أفضَلُ مِنَ الصَّومِ، الصَّومُ أفضَلُ مِنَ الحَجِّ، هذا باعتِبارِ الجِنسِ، وتَتَفاضَلُ أيضًا مِن وَجهٍ آخَرَ؛ واجِبُ العِبادَةِ أفضَلُ مِن نَفلِها، فصَلاةُ الظُّهرِ مَثَلًا أفضَلُ مِن قيامِ اللَّيلِ، هذا تَفاضُلٌ باعتِبارِ الجِنسِ لكنَّه من وَجهٍ آخَرَ، ودَليلُ ذلك أنَّ النَّبيَّ -صلَّى اللهُ عليه وعلى آله وسلَّم- قال عن اللهِ: «وما تَقرَّب عَبدي بشَيءٍ أحبَّ إِلَيَّ مِمَّا افتَرَضتُ عليه»[1].

وتَتفاضَلُ باعتِبارِ النَّوعِ: مِثلَ: الوِترُ أفضلُ من مُطلَقِ التَّهجُّدِ، والرَّواتبُ أفضَلُ مِنَ النَّفلِ المُطلَقِ، هذا باعتِبارِ النَّوعِ، وإن شِئتَ فاجعَلْ تَفاضُلَها باعتِبارِ الوُجوبِ والنَّدبِ من هذا النَّوعِ.

والثَّالثُ باعتِبارِ الهَيئَةِ: صَلاةٌ يَخشعُ فيها الإنسانُ ويَتدبَّرُ ما يَقولُ وما يَفعَلُ ويَطمَئِنُّ، وصَلاةٌ أخرى يَقتَصِرُ على الواجبِ وبدون خُشوعِ قَلبٍ مثلًا فالأُولَى أفضَلُ.

والمُهِمُّ أنَّنا نُؤمِنُ بأنَّ الأعمالَ تَتفاضَلُ وأنَّ بعضَها أَحبُّ إلى اللهِ من بعضٍ، لكن يَبقى النَّظرُ: هل يَلزَمُ مِن تَفاضُلِ العَملِ تَفاضُلُ العامِلِ؟ نَعَمْ، وعلى هذا فالعامِلُ أيضًا يَختلِفُ ويَتفاضَلُ، قال النَّبيُّ -صلَّى اللهُ عليه وعلى آله وسلَّم-: «لا تَسُبُّوا أصحابي، فوالَّذي نَفسي بيَدِهِ لو أَنفَقَ أحدُكم مِثلَ أُحُدٍ ذَهبًا ما بَلَغ مُدَّ أحدِهم ولا نَصيفَه»[2]. العَملُ واحدٌ لكنَّ العامِلَ مُختلِفٌ.

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَةُ: فَضيلَةُ الدَّعوةِ إلى اللهِ عَزَّوَجَلَّ في قولِه: ﴿مِّمَّن دَعَآ إِلَى ٱللَّهِ﴾.

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب الرقاق، باب التواضع، رقم (٦٥٠٢)، من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٢) أخرجه البخاري: كتاب أصحاب النبي ﷺ، باب قول النبي ﷺ: «لو كنت متخذا خليلا»، رقم (٣٦٧٣)، ومسلم: كتاب فضائل الصحابة، باب تحريم سب الصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ رقم (٢٥٤١) من حديث أبي سعيد الخدري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

الْفَائِدَةُ الثَّالِثَةُ: الإشارَةُ إلى الإخلاصِ في الدَّعوَةِ نَأخُذُها من قولِه: ﴿إِلَى ٱللَّهِ﴾؛ لأنَّ الدَّاعيَ رُبَّما يَدعو ويَقومُ للنَّاسِ ويُذكِّرُهم ويَعِظُهم ويَحُثُّهم على الخَيرِ ويُحذِّرُهم مِنَ الشَّرِّ، لكن يُريدُ أن يَكونَ مَرموقًا بينهم، هذا دعا إلى نَفسِه، فلا بدَّ إذن مِنَ الإخلاصِ، فلو قال قائلٌ: هل يُسلَبُ الإخلاصُ ما لو أَرادَ بالدَّعوَةِ إصلاحَ النَّاسِ؟ الجَوابُ: لا، لا يُسلَبُه؛ لأنَّ الأصلَ دَعوتُهُ من أجلِ إصلاحِ النَّاسِ.

الْفَائِدَةُ الرَّابِعَةُ: فَضيلَـةُ العَمَلِ الصَّالحِ الَّذي جَمَعَ بينَ أمـرَينِ: الإخلاصِ والمُتابَعَةِ؛ لقَولِه: ﴿وَعَمِلَ صَٰلِحًا﴾.

الْفَائِدَةُ الخَامِسَةُ: وُجـوبُ العِلمِ، نَأخُذُه مِن قَـولِه: ﴿وَعَمِلَ صَٰلِحًا﴾؛ لأنَّه لا يُمكِنُ أن تَعرِفَ أنَّ العَمَلَ مُوافِقٌ للشَّرعِ أو غَيرُ مُوافقٍ إلَّا بالعِلمِ، وهذا واضِحٌ، فيَكونُ في الآيَةِ دَليلٌ على وُجوبِ العِلمِ؛ لأنَّه إذا كان العَمَلُ الصَّالحُ مِنَ الواجِباتِ فلا بُدَّ أن تَعلَمَهُ بالشَّرعِ، وما لا يَتِمُّ الواجِبُ إلَّا به فهو واجِبٌ.

الْفَائِدَةُ السَّادِسَةُ: أنَّه يَنبَغي للمُسلمِ أن يَكونَ عَزيزًا بِدينِه وأن يُعلِنَ به وأن يَقولَ: ﴿إِنَّنِي مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾ وألَّا يَستحيَ إذا قيل له أنَّه مُسلِمٌ؛ لقَولِه: ﴿وَقَالَ إِنَّنِي مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾.

الْفَائِدَةُ السَّابِعَةُ: الإشارَةُ إلى تَجنُّبِ التَّزكيةِ الذَّاتيَّةِ؛ لأنَّه قال: ﴿مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾، ولم يَقُلْ: وقال إنَّني مُسلِمٌ؛ لأنَّ الإنسانَ قد يَعتزُّ بقَولِه: إنَّني مُسلمٌ ويَفخَرُ أَكثَرَ ممَّا يَكونُ ذلك فيما لو قال: ﴿إِنَّنِي مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾.

الْفَائِدَةُ الثَّامِنَةُ: الإشارَةُ إلى المُؤاخاةِ بينَ المُسلمينَ؛ لقَولِه: ﴿مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾ إشارَةٌ إلى أنَّني كواحدٍ من هَؤلاءِ، لا افْتِراقَ عنهم.

• • ❁ • •

الآيات (٣٤-٣٦)

قال اللهُ عزَّوَجلَّ: ﴿وَلَا تَسْتَوِى ٱلْحَسَنَةُ وَلَا ٱلسَّيِّئَةُ ٱدْفَعْ بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ فَإِذَا ٱلَّذِى بَيْنَكَ وَبَيْنَهُۥ عَدَٰوَةٌ كَأَنَّهُۥ وَلِىٌّ حَمِيمٌ ﴿٣٤﴾ وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلَّذِينَ صَبَرُوا۟ وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ ﴿٣٥﴾ وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ نَزْغٌ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ ۖ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾ [فصلت:٣٤-٣٦].

• • ● • •

يَقولُ المُفسِّرُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿وَلَا تَسْتَوِى ٱلْحَسَنَةُ وَلَا ٱلسَّيِّئَةُ﴾ في جُزئِيَّاتها؛ لأنَّ بعضَها فوقَ بَعضٍ].

قَولُه: ﴿وَلَا تَسْتَوِى ٱلْحَسَنَةُ وَلَا ٱلسَّيِّئَةُ﴾ فَسَّرها المفسِّر بأنَّ المَعنى: لا تَستَوي الحَسناتُ بعضُها مع بعضٍ، ولا السَّيِّئاتُ بعضُها مع بَعضٍ، وعلى هذا التَّفسيرِ تَكونُ (لا) غيرَ زائدةٍ تكونُ أَصليَّةً، ويَكونُ المُرادُ بالآيةِ انتِفاءَ تَساوي الحَسناتِ وانْتِفاءَ تَساوي السَّيِّئاتِ.

وهذا أمرٌ لا إشكالَ فيه أنَّ الحَسناتِ بَعضُها أَحسَنُ مِن بَعضٍ وأَفضلُ مِن بعضٍ وأَوكَدُ مِن بَعضٍ، وكذلك السَّيِّئاتُ بَعضُها أَسوَأُ مِن بَعضٍ وأَشَدُّ، لكنَّ هناك تفسيرًا آخَرَ، وهو أنَّ المَعنى أنَّ الحَسناتِ والسَّيِّئاتِ لا تَتَساوى بدَليلِ قَولِه: ﴿ٱدْفَعْ بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ﴾ إلخ؛ وبِناءً على ذلك تكونُ (لا) زائدَةً للتَّوكيدِ كما هي في قَولِه تعالى: ﴿غَيْرِ ٱلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ﴾ [الفاتحة:٧]، فإنَّ (لا) هُنا زائدَةٌ

للتَّوكيدِ، ولهذا لو قُلتَ في غَيرِ القُرآنِ العَزيزِ لو قُلتَ: غَيرَ المَغضوبِ عليهم الضَّالينَ، لاستَقامَ الكَلامَ، فإذا قال قائِلٌ: هل هُناكَ تَرجيحٌ؟ قُلنا: المفسِّر رَجَّح المَعنى الأَوَّلَ وهو: أنَّ الحَسناتِ لا تَتَساوى والسَّيِّئاتِ لا تَتَساوى. وبَعضُهُم رَجَّحَ الثَّانيَ؛ لأنَّه قال: ﴿ فَإِذَا ٱلَّذِى بَيْنَكَ وَبَيْنَهُۥ عَدَٰوَةٌ ﴾ إلخ.

ولو قيل بالمَعنيينِ جَميعًا لم يَكُنْ هُناكَ بَأسٌ، وذلك أنَّ الآيَةَ إذا كانت تَحتمِلُ مَعنَيينِ على السَّواءِ وهما لا يَتنافيانِ، فإنَّها تُحمَلُ عليهما جَميعًا، هذه قاعِدَةٌ في أُصولِ التَّفسيرِ.

﴿ٱلْحَسَنَةُ﴾ هي ما يَحسُنُ ذِكرُهُ و﴿ٱلسَّيِّئَةُ﴾ هي ما يَسوءُ ذِكرُه، هذا التَّفسيرُ العَامُّ للحَسنَةِ وللسَّيِّئةِ.

يَقولُ المُفسِّرُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿ٱدْفَعْ﴾ السَّيِّئَةَ ﴿بِٱلَّتِى﴾ أي بالخِصلَةِ الَّتي ﴿هِىَ أَحْسَنُ﴾] إلى آخِرِه.

الغَريبُ أنَّ كَلامَ المفسِّر في: ﴿ٱدْفَعْ بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ﴾ يَقتَضي أنَّ مَعنى الجُملَةِ قَبلَها: لا تَستَوي الحَسَنةُ مع السَّيِّئَةِ، ﴿ٱدْفَعْ﴾ السَّيِّئَةَ ﴿بِٱلَّتِى﴾ أي: بالخِصلَةِ الَّتي هِي أحسَنُ.

أفادَنا رَحِمَهُ ٱللَّهُ أنَّ (الَّتي) صِفةٌ لِموصوفٍ مَحذوفٍ؛ أي: بالخِصلَةِ الَّتي هي أَحسَنُ مِنَ السَّيِّئَةِ، فإذا قال قائِلٌ: السَّيِّئَةُ ليس فيها حُسنٌ، فكَيف يَقولُ: أَحسَنَ مِنَ السَّيِّئَةِ؟ قُلنا: إنَّ اسمَ التَّفضيلِ قد يَأتي وليس في الطَّرَفِ الآخَرِ منه شَيءٌ، كما في قَولِه تَعالى: ﴿ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ يَوْمَئِذٍ خَيْرٌ مُّسْتَقَرًّا وَأَحْسَنُ مَقِيلًا ﴾ [الفرقان:٢٤] مع أنَّ أصحابَ النَّارِ ليس في مُستَقَرِّهم خَيرٌ ولا في مَقيلِهم خَيرٌ.

ويَكونُ معنى الآيَةِ أنَّه لـمَّا كان مِن المُعتادِ أنَّ الإنسانَ لا يَدفَعُ السَّيِّئَةَ بالَّتي هي أَحسَنُ أَمَرَه اللهُ أن يَدفَعَ بالَّتي هي أحسنُ وذلك؛ لأنَّ مُدافعَةَ السَّيِّئَةِ تكونُ من ثَلاثةِ وجوهٍ:

الوَجهُ الأوَّلُ: أن يَدفعَ سَيِّئَةً بمِثلِها وهذا جائِزٌ، يقولُ تعالى: ﴿وَجَزَٰٓؤُاْ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا﴾ [الشورى:٤٠].

والثَّانيَةُ: أن يَدفعَ السَّيِّئَةَ بحَسَنَةٍ -لكنَّ هناك شَيئًا أَحسنَ منها- وهذا أيضًا جائِزٌ وهو أَعلَى مِنَ الأوَّلِ.

الثَّالثُ: أن يَدفعَ السَّيِّئَةَ ﴿بِٱلَّتِى هِىَ أَحۡسَنُ﴾ يعني: بأَحسَنِ ما يَدفعُها به، وهذا أَفضَلُ وأَطيَبُ، وهو الَّذي أَمَرَ اللهُ به. يَعني: إذا أَساءَ إليكَ إنسانٌ فلا تُقابلْه بإساءَةٍ ولا تُقابلْه بحَسنةٍ أيضًا، بل قابلْه بما هو أَحسَنُ.

يَقولُ المُفسِّرُ رَحِمَهُ اللَّهُ مُمَثِّلًا: [كالغَضبِ بالصَّبرِ، والجَهلِ بالحِلمِ، والإساءَةِ بالعَفوِ]، هذه أَمثلَةُ الغَضبِ بالصَّبرِ يعني: إذا غَضِبَ عليك إنسانٌ فاصبرْ وتَحمَّلْ، والجَهلِ بالحِلمِ إذا جَهِلَ عليكَ إنسانٌ بالإساءةِ فقَابلْه بالحِلمِ.

فإذا قال إنسانٌ: الجَهلُ هل هو يُقابِلُ الحِلمَ أو يُقابِلُ العِلمَ؟

قُلنا: أمَّا الجَهلُ الَّذي هو عَدمُ العِلمِ فيُقابَلُ بالعِلمِ، وأمَّا الجَهلُ الَّذي هو ضِدُّ الحِلمِ بمَعنى أن يَكونَ الإنسانُ ذا عُدوانٍ على الغَيرِ فهذا يُقابَلُ بالحِلمِ، قال الشَّاعرُ العَربيُّ[1]:

ألا لا يَجهَلَــنْ أحــدٌ علينــا   فنَجهلُ فوقَ جَهلِ الجاهِلينـا

---

(١) البيت لعمرو بن كلثوم من معلقته المشهورة، انظر: جمهرة أشعار العرب (ص:٣٠٠)، وشرح القصائد السبع لابن الأنباري (ص:٤٢٦).

وكذلك الإِساءَةُ بالعَفوِ، إذا أَساءَ إليكَ إنسانٌ فاعفُ عنه، وقد سَبَقَ مِرارًا ونُكرِّرُه تِكرارًا: أنَّ العفوَ إنَّما يَندُبُ إليه إذا كان فيه إِصلاحٌ؛ لقَولِه تَعالى: ﴿فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِ﴾ [الشورى:٤٠].

فإنْ قال قائلٌ: الَّذي لا يَقدِرُ على رَدِّ السَّيِّئةِ بمِثلِها هل يَدخُلُ في قَولِه: ﴿ٱدْفَعْ بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ﴾؟

فالجَوابُ: لا، هذا ضَعفٌ وجُبنٌ، الَّذي لا يَقدِرُ على الانتِصارِ لنَفْسِه هذا لا يُحمَدُ، بل يُقالُ: هذا ضَعيفٌ، ولأنَّه لا يُحمَدُ إلَّا العَفوُ عندَ المَقدِرَةِ، والصَّفحُ عندَ المَقدِرَةِ. أمَّا إنسانٌ عاجِزٌ فيَجيءُ شَخصٌ ضَعيفٌ يَضرِبُه يَضرِبُه يَضرِبُه وهو يَقولُ: جَزاكَ اللهُ خَيرًا، عَفا اللهُ عنك، فهذا لا يُحمَدُ؛ لأنَّه عاجِزٌ.

قال اللهُ تعالى: ﴿فَإِذَا ٱلَّذِى بَيْنَكَ وَبَيْنَهُۥ عَدَٰوَةٌ كَأَنَّهُۥ وَلِىٌّ حَمِيمٌ﴾ [فُصِّلَت:٣٤] فإذا فُجائيَّةٌ والفاءُ عاقبَةٌ؛ أي: فإذا دَفعتَ بالَّتي هي أَحسَنُ فاجَأتك هذه الحالُ، وهي أن تَنقَلِبَ عَداوةُ الشَّخصِ الَّذي أَساءَ إليك، فيَصيرُ كأنَّه وَليٌّ حَميمٌ، يعني: صَديقًا قَريبًا.

وتَأمَّلْ كَونَ الجَوابِ بـ«إذا» الفُجائيَّةِ لِيتبَيَّنَ لك أنَّ انقلابَ عَداوتِهِ إلى وِلايَةٍ حَميمَةٍ لا يَتأَخَّرُ كَثيرًا؛ لأنَّ إذا الفُجائيَّةَ تَدُلُّ على الفَورِيَّةِ: ﴿فَإِذَا ٱلَّذِى بَيْنَكَ وَبَيْنَهُۥ عَدَٰوَةٌ كَأَنَّهُۥ وَلِىٌّ حَمِيمٌ﴾ لو كان المُخبِرُ بذلك غَيرَ اللهِ عَزَّوَجَلَّ لكان الإنسانُ يَترَدَّدُ، وكيف يَنقلِبُ العَدوُّ صَديقًا حَميمًا بهذه السُّرعَةِ، نَقولُ: إنَّ الَّذي أخبَرَ بذلك هو اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ ٱللَّهِ قِيلًا﴾ [النساء:١٢٢].

ثُمَّ إنَّ الَّذي أخبَرَ بذلك هو الَّذي قُلوبُ بَني آدمَ بين أُصبُعَينِ من أَصابعِهِ

يُقلِّبُها حيثُ يَشاءُ، لا تَستبعِدُ هذه الأمورَ بَيدِ اللهِ، وكم مِن عَدوٍّ انقلَب صَديقًا وصَديقٌ انقلَبَ عَدوًّا.

يَقولُ المُفسِّرُ رَحِمَهُ اللَّهُ: [﴿فَإِذَا ٱلَّذِى بَيْنَكَ وَبَيْنَهُۥ عَدَٰوَةٌ كَأَنَّهُۥ وَلِىٌّ حَمِيمٌ﴾، فيَصيرُ عَدوُّك كالصَّديقِ القَريبِ في محبَّتِه إذا فَعلتَ ذلك، فالَّذي مُبتدأٌ وكأنَّه الخَبرُ وإذا ظَرفٌ لِمعنى التَّشبيهِ].

قال اللهُ تَعالى: ﴿فَإِذَا ٱلَّذِى بَيْنَكَ وَبَيْنَهُۥ عَدَٰوَةٌ كَأَنَّهُۥ﴾ أعرَبها المفسِّر: يقولُ: ﴿ٱلَّذِى﴾ مُبتدأٌ ﴿بَيْنَكَ وَبَيْنَهُۥ عَدَٰوَةٌ﴾، هذا صيغَةُ المَوصولِ ﴿كَأَنَّهُۥ﴾ الخَبرُ خَبرُ المُبتدأِ ﴿ٱلَّذِى﴾، و(إذا) في قولِهِ: ﴿فَإِذَا ٱلَّذِى﴾ ظَرفٌ لمعنى التَّشبيهِ الَّذي هو ﴿كَأَنَّهُۥ﴾؛ لأنَّ التَّشبيهَ مُضَمَّنٌ مَعنى الفِعلِ؛ فلذلك صَحَّ أن يَتعلَّقَ به الظَّرفُ، هذا ما ذَهَبَ إليه المفسِّر بالنِّسبةِ لـ(إذا)، والصَّحيحُ أنَّ (إذا) فُجائيَّةٌ لا تَحتاجُ إلى مُتعلِّقٍ.

يَقولُ المُفسِّرُ رَحِمَهُ اللَّهُ: [﴿وَمَا يُلَقَّىٰهَآ﴾ أي: يُؤتى الخِصلَةَ الَّتي هي أحسنُ، ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ صَبَرُوا۟ وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ذُو حَظٍّ﴾ ثَوابٍ ﴿عَظِيمٍ﴾].

قال اللهُ تَعالى: ﴿وَمَا يُلَقَّىٰهَآ﴾ قال المفسِّر رَحِمَهُ اللَّهُ: [أي: يُؤتى الخِصلَةَ]. وقيل: مَعناها لا يُوَفَّقُ لها، والمَعنى مُتقارِبٌ، يَعني: لا يَنالُ أحدٌ هذه الخِصلَةَ، وهي الدِّفاعُ بالَّتي هي أَحسنُ ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ صَبَرُوا۟﴾.

وهذه الجُملَةُ فيها حَصرٌ، طَريقُه النَّفيُ والإثباتُ: ﴿وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلَّذِينَ صَبَرُوا۟﴾.

وقَولُه: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ صَبَرُوا۟﴾ أي: حَبَسوا أَنفُسَهم وأَجبَروها على تَحمُّلِ هذا الأمرِ؛ وذلك لأنَّ هذا الأمرَ شَديدٌ إذ إنَّ النُّفوسَ تُحبُّ الانتِقامَ ممَّن أساءَ إليها، لكن قال: ﴿ٱدْفَعْ بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ﴾؛ لهذا قال: ﴿وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلَّذِينَ صَبَرُوا۟﴾، فكُلُّ إنسانٍ سوف

يُعاني مُعاناةً شَديدةً إذا سَلَكَ هذا الطَّريقَ وهي الدِّفاعُ بالَّتي هي أحسنُ، لا بُدَّ أن يَجِدَ عَناءً ومَشقَّةً فأثْنَى اللهُ تَعالى على الصَّابرينَ على ذلك.

والصَّبرُ لا يَحتاجُ إلى أن نُطيلَ الشَّرحَ فيه؛ لأنَّهم قالوا: يَكونُ ثَلاثَةَ أنواعٍ: يَكونُ صَبرًا على طاعَةِ اللهِ، وصَبرًا عن مَعصيتِه، وصَبرًا على أقدارِه.

قال اللهُ تعالى: ﴿وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلَّذِينَ صَبَرُواْ وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ﴾.

يَقولُ المُفسِّرُ رَحِمَهُ اللَّهُ: [﴿ذُو حَظٍّ﴾ ثوابٍ]، والصَّوابُ أن يُقالَ: الحَظُّ النَّصيبُ، أي: وما يُلَقَّاها إلَّا ذو نَصيبٍ عَظيمٍ، ليس مِنَ الثَّوابِ فَحسْبُ، بل مِنَ الثَّوابِ والأخلاقِ والرَّزانَةِ وغيرِ ذلك، يَعني: مَن له نَصيبٌ عَظيمٌ مِنَ الثَّوابِ والأخلاقِ والرَّزانَةِ والتَّأنِّي وغيرِ ذلك، فلا يَنبغي أن يَقتَصِرَ في ذلك على الثَّوابِ.

فإنْ قال قائِلٌ: قَولُه تعالى: ﴿وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ﴾ هل يَكونُ ظاهِرًا أو معنَويًّا، لأنَّ الصَّفحَ في مَنظورِ النَّاسِ هو خَوفٌ وجُبنٌ؟

فالجَوابُ: لا، هذا هو الحِكمَةُ في أنَّ اللهَ قال: ﴿وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلَّذِينَ صَبَرُواْ وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ﴾ لأنَّ الإنسانَ يَنالُ دَرجةً عَظيمَةً عاليةً مِنَ الأخلاقِ والرَّزانَةِ والرُّجولَةِ والثَّوابِ، وليس الحَظُّ العَظيمُ أنَّ الإنسانَ يَزدادُ دِرهمًا ودينارًا، الأخلاقُ هي كُلُّ شيءٍ سَواءٌ مَع اللهِ أو مَع عِبادِ اللهِ.

وإنَّما الأُمَمُ الأخـلاقُ مـا بَقِيَـت فإن هُمُ ذَهَبت أخلاقُهـم ذَهَبـوا

ولَمَّا ذَكَر اللهُ تَعالى دَفعَ العَدُوِّ مِن بني آدَمَ ذَكَر دَفعَ العَدُوِّ مِن غيـرِ بَني آدَمَ؛ فقال: ﴿وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ نَزْغٌ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ﴾ في مُدافعَةِ العَدُوِّ مِن غيرِ بَني آدَمَ، لم يَقُلْ: ﴿ٱدْفَعْ بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ﴾، بل قال: الجأْ إلى اللهِ؛ لأنَّك لا تَستطيعُ أن تَدفَعَ

الشَّيطانَ إلَّا باللُّجوءِ إلى اللهِ عَزَّوَجَلَّ إذ إنَّ الشَّيطانَ ليس أمامَك حتَّى تلوِيَ عُنقه وتَقتُلَه، ولكنَّه لا يَدفعُه إلَّا اللهُ ولهذا قال: ﴿وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ ٱلشَّيۡطَٰنِ﴾، فالمُناسَبةُ بين هذه الآيةِ والَّتي قبلَها أنَّه لـمَّا ذكَرَ مُدافعةَ العَدُوِّ مِن بَني آدمَ ذكَرَ مُدافعةَ العَدُوِّ من غيرِ بَني آدمَ فقال: ﴿وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ ٱلشَّيۡطَٰنِ نَزۡغٞ فَٱسۡتَعِذۡ بِٱللَّهِ﴾.

يَقولُ المُفسِّرُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿وَإِمَّا﴾ فيه إدغامُ نونِ (إن) الشَّرطيَّةِ في (ما) الزائدةِ].

﴿وَإِمَّا﴾ أَصلُها: وإنْ يَنزَغنَّك، لكن (ما) الزَّائدةَ تُزادُ كثيرًا في أدواتِ الشَّرطِ كقولِه هنا: ﴿وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ﴾، وكقولِه تعالى: ﴿أَيّٗا مَّا تَدۡعُواْ فَلَهُ ٱلۡأَسۡمَآءُ ٱلۡحُسۡنَىٰ﴾.

﴿وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ﴾ يَعني: إنْ يَنزَغْك مِن الشَّيطانِ نَزغٌ فاستَعِذْ باللهِ. يَقولُ المُفسِّرُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [أي: يَصرِفُك عنِ الخِصلَةِ وغيرِها مِنَ الخَيرِ صارفٌ ﴿فَٱسۡتَعِذۡ بِٱللَّهِ﴾].

المفسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ إذا نَظرنا إلى تَفسيرِه وجَدْناه يَقْصُرُ هذه الآيَةَ على شَيءٍ مُعيَّنٍ وهو: إنْ صَرَفَك الشَّيطانُ عَنِ المُدافعةِ بالَّتي هي أَحسنُ فاستَعِذْ باللهِ، والصَّوابُ خِلافُ ذلك، الصَّوابُ أنَّ الآيَةَ عامَّةٌ، ولهذا قال: ﴿وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ﴾ أي: يُصيبنَّك مِن الشَّيطانِ نَزغٌ، -نَزغٌ- نَكِرَةٌ في سياقِ الشَّرطِ فتكونُ عامَّةً سَواءَ كان في المُدافعةِ بالَّتي هي أَحْسَنُ أو غيرَ ذلك، كُلَّما أَصابَك نَزغٌ مِنَ الشَّيطانِ فاستَعِذْ باللهِ، ولهذا أَمَرَ النَّبيُّ -صلَّى اللهُ عليه وعلى آله وسلَّم- الَّذي شَكا إليه الوَسوسَةَ في الصَّلاةِ أَمَرَه بأنْ يَستَعينَ باللهِ قال: يَتفُلُ عن يَسارِه ثَلاثًا ويَستعيذُ باللهِ[1].

المُهِمُّ أنَّه متى نَزَغَك مِنَ الشَّيطانِ نَزغٌ فالجأْ إلى مَن يَستطيعُ دَفعَه، وهو اللهُ عَزَّوَجَلَّ ولكن كيف أَعرِفُ أنَّ الشَّيطانَ نَزَغَ أحدًا؟ ﴿ٱلشَّيۡطَٰنُ يَعِدُكُمُ ٱلۡفَقۡرَ وَيَأۡمُرُكُم

(١) أخرجه مسلم: كتاب السلام، باب التعوذ من شيطان الوسوسة في الصلاة، رقم (٢٢٠٣)، من حديث عثمان بن أبي العاص رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ.

بِٱلْفَحْشَآءِ﴾ [البقرة:٢٦٨] كُلَّما رَأيتَ أنَّه أُلْقِيَ في رُوعِك أن تَفعَلَ مَعصيَةً فاعلَمْ أنَّه نَزْغٌ مِنَ الشَّيطانِ، وكُلَّما أُلقِيَ في رُوعِك أنَّك تَتْرُكُ طاعَةً فهذا نَزْغٌ مِنَ الشَّيطانِ استَعِذْ باللهِ؛ لأنَّ الشَّيطانَ ليس شَيئًا محَسوسًا يحُسُّه الإنسانُ ويَسمَعُه لكنْ يُعرَفُ بما يُلقي في القَلبِ فاستَعِذْ باللهِ أي: اعتصِمْ به.

يَقولُ المُفسِّرُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [جَوابُ الشَّرطِ وجَوابُ الأمرِ محَذوفٌ، أي: يَدفعُه عنك]، الأمرُ (استَعِذْ) يَعني: كأنَّ قائلًا يَقولُ: وإذا استَعَذْت فالنَّتيجَةُ أن يَدفعَه اللهُ عَنك؛ لأنَّ اللهَ تَعالى لم يَأمُرْك بِالاستِعاذَةِ به، والاستِعاذَةُ كما هو مَعروفٌ هي الاستِجارَةُ ممَّا يَسوءُ استَعِذ باللهِ يَدفَعْه عنك.

قَولُه: ﴿فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ﴾ جَوابُ الشَّرطِ اقْتَرَنَ بالفاءِ؛ لأنَّ الجُملَةَ طَلَبيَّةٌ، والقاعِدَةُ ذكَرَها ابنُ مالكٍ[1]:

واقْرِنْ بفا حَتمًا جَوابًا لو جُعِل ... شَرطًا لـ(إن) أو غَيرها لم يَنْجَعِلْ

يعني: إذا لم يَصِحَّ مُباشرةً جَوابُ الشَّرطِ لأداةِ الشَّرطِ فإنَّه يجَبُ اقتِرانُه بالفاءِ.

فإنْ قال قائلٌ: ما مَعنى قَولِه: ﴿إِنَّ عِبَادِى لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنٌ﴾ [الحجر:٤٢].

فالجَوابُ: السُّلطانُ هو الَّذي يَتولَّى الأمرَ بسُلطَتِه ويَغلِبُ، فالشَّيطانُ يَنْزِغُ حتَّى عِبادَ اللهِ الصَّالحينَ، ولكن ليس له عَليهم سُلطانٌ، أليس قَد تَفلَّت على الرَّسولِ عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ شَيطانٌ يُريدُ أن يُفسِدَ عليه صَلاتَه؟ لكن ما له سُلطانٌ، فالسُّلطانُ يَقولُ ويَفعلُ، كما قال ابنُ الوَردي في المَنظومَةِ[2]:

جانِبِ السُّلطانَ واحذَرْ بَطشَه ... لا تخُاصِمْ مَن إذا قال فَعلَ

---

(١) الألفية (ص:٥٨).

(٢) شرح لامية ابن الوردي (ص:١٥٧).

فالمُـرادُ بأنَّه ليس لك عليهم سُلطانٌ، يعني: لا يُمكِـنُ أن تَتَسـلَّطَ عليهم فتُغوِيَهم.

يَقولُ المُفسِّرُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ﴾ للقَولِ ﴿ٱلْعَلِيمُ﴾ بالفعل]، هذه الجُملَةُ تَعليلِيَّةٌ؛ لقَولِه: (استَعِذ باللهِ)، يَعني: فإنَّك إذا استَعذت مِنه باللهِ سَمِعَك، وإنَّه عَليمٌ بكيفيَّةِ دَفـعِ هذا الشَّيطانِ الَّذي نَزَغَك منه نَـزْغٌ فهو سَميعٌ لقولك إذا استَعَذتَ به، عليم بما يَدفَعُ به عنك هذا الشَّيطانَ.

من فوائِدِ الآياتِ الكريمَةِ:

الْفَائِدَةُ الأُولَى: انتِفاءُ تَساوي الحَسناتِ بَعضِها ببَعضٍ، وانتِفاءُ تَساوي السَّيِّئاتِ بَعضِها ببَعضٍ، فيَترَتَّبُ على ذلك فائدَةٌ: أنَّ الحَسناتِ تَتَفاوتُ والسَّيِّئاتِ تتفاوتُ، فمِن الحَسناتِ ما هو أُصولٌ في الإسلامِ كالأُصولِ الخَمسَةِ، ومنها ما هو دونَ ذلك، ومنه ما هو فَرائضُ ومنه ما هو نَوافلُ، كذلك في المُحرَّماتِ ما هو شِركٌ مُخرِجٌ عنِ المِلَّةِ وما هو شِركٌ دون ذلك، وكذلك يُقالُ في الكُفرِ، منه ما هو فُسوقٌ ومنه ما هو دونَ ذلك، هذا إذا قُلنا: إنَّ المُرادَ أنَّ الحَسناتِ لا تَتَساوى والسَّيِّئاتِ لا تَتَساوى.

أمَّا إذا قلنا: لا تَستَوي الحَسنَةُ ولا السَّيِّئةُ فهي أنَّ الحَسَنَةَ والسَّيِّئَةَ لا يَتساوِيانِ، فَيُفيدُ الحثَّ على فِعلِ الحَسناتِ في مُقابِلِ السَّيِّئاتِ، وليس الفائدَةُ أن يَعلَمَ أنَّ الحَسنَةَ لا تُساوي السَّيِّئَةَ؛ لأنَّ هذا أمرٌ مَعلومٌ، ولا يُمكنُ في القُرآنِ ببَلاغتِه أن يَأتِيَ بمِثلِ ذلك؛ لأنَّ هذا كقولِكَ السَّماءُ فَوقَنا والأرضُ تَحتَنا، لكنَّ المُرادَ الحَثُّ على أن تُقابِلَ السَّيِّئَةَ بحَسَنةٍ.

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَةُ: الإرشادُ إلى مُدافَعَةِ السَّيِّئاتِ، يُؤخَذُ من قولِه: ﴿ٱدْفَعْ بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ﴾.

الْفَائِدَةُ الثَّالِثَةُ: الحَثُّ على المَقاماتِ في مُدافعَةِ السَّيِّئاتِ تُؤخَذُ من قولِهِ: ﴿أَحۡسَنُ﴾ ولم يَقُلِ ادفَعْ بالحَسَنِ، بل قال: ﴿بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُ﴾.

الْفَائِدَةُ الرَّابِعَةُ: أَنَّ اللهَ تَعالى مُقَلِّبُ القُلوبِ، فقد يَكونُ العَدوُّ صَديقًا والصَّديقُ عَدوًّا؛ لقَولِه: ﴿فَإِذَا ٱلَّذِي بَيۡنَكَ وَبَيۡنَهُۥ عَدَٰوَةٌ﴾.

الْفَائِدَةُ الخَامِسَةُ: أَنَّك لا تَأخُذُك العِزَّةُ بالإثمِ فتَقولَ: لا يُمكنُ أن أَسكُتَ أمامَ هذا الَّذي أَساءَ إِلَيَّ ولا بُدَّ أن آخُذَ بحَقِّي، نَقولُ: إذا أَخذْتَ بحَقِّك فذلك لك ولكن هُناكَ خُلُقٌ أفضَلُ وأكمَلُ وهو المُدافعَةُ بالَّتي هي أحسنُ.

الْفَائِدَةُ السَّادِسَةُ: أَنَّ المُدافعَةَ بالَّتي هي أَحسنُ شاقَّةٌ على النَّفسِ؛ لقَولِهِ: ﴿وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلَّذِينَ صَبَرُواْ﴾ ولكِن اصبِرْ.

الْفَائِدَةُ السَّابِعَةُ: أَنَّ مَن سَلَكَ هذا الطَّريقَ وهي مُدافعَةُ السَّيِّئَةِ بالَّتي هي أَحسَنُ، فإنَّه ذو نَصيبٍ عَظيمٍ مِنَ الأخلاقِ والثَّوابِ والرَّزانَةِ والرُّجولَةِ والشَّهامَةِ وغَيرِ ذلك؛ لقَولِه: ﴿وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٖ﴾.

الْفَائِدَةُ الثَّامِنَةُ: أَنَّ مَلجأَ الإنسانِ عِندَ الخَوفِ مِمَّا لا يُمكِنُه دَفعُه هو اللهُ عَزَّوَجَلَّ لقَولِه: ﴿وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ ٱلشَّيۡطَٰنِ نَزۡغٞ فَٱسۡتَعِذۡ بِٱللَّهِ﴾.

الْفَائِدَةُ التَّاسِعَةُ: أَنَّك كُلَّما أَحسستَ بشيءٍ مِن نَزغاتِ الشَّيطانِ مِن تَهاوُنٍ بمَأمورٍ أو ارتِكابٍ لمَحظورٍ، فعليك أَنْ تَلجأَ إلى اللهِ عَزَّوَجَلَّ.

فإن قال قائلٌ: نَجِدُ الاستِعاذةَ مَشروعَةً في غَيرِ هذا الحالِ، مَشروعَةً عندَ قِراءَةِ القُرآنِ مثلًا، مَشروعَةً عِندَ دُخولِ الخَلاءِ، فما الجَوابُ؟

الجَوابُ: أَنَّ مشروعيَّتَها عندَ تِلاوتِه القُرآنَ؛ لأنَّ الشَّيطانَ يَتسلَّطُ على الإنسانِ

عندَ قِراءةِ القُرآنِ بأن يَصُدَّه عمَّا فيه مِنَ الذِّكرِ الحَكيمِ، يَصُدُّه عن تَدبُّرِه، عنِ الخُشوعِ فيه، عن كَونِ الإنسانِ يَلتزِمُ بأوامِرِه ونَواهيه ويُصَدِّقُ بإخبارِه. المُهِمُّ أنَّ الشَّيطانَ يَحرِصُ على الإنسانِ إذا أَراد قِراءةَ القُرآنِ، فناسَبَ أن يُؤمَرَ بالاستِعاذةِ باللهِ مِنَ الشَّيطانِ الرَّجيمِ وكَذلك عِند الخَلاءِ؛ لأنَّ الخَلاءَ مَوطِنُ الشَّياطينِ، الشَّياطينُ تكونُ في أخبثِ الأماكِنِ، والمَلائِكةُ في أَطيبِ الأماكِنِ؛ ولهذا كانت المَساجِدُ بُيوتَ المَلائكةِ وكانت المَراحيضُ بُيوتَ الشَّياطينِ.

الْفَائِدَةُ الْعَاشِرَةُ: إثباتُ الشَّيطانِ وأنَّ له سُلطةً على بَني آدَمَ؛ لقَولِه: ﴿مِنَ ٱلشَّيۡطَٰنِ نَزۡغٞ فَٱسۡتَعِذۡ بِٱللَّهِ﴾ وهو كذلكَ، واللهُ سُبۡحَانَهُۥ وَتَعَالَىٰ سَلَّطَ الشَّيطانَ على بَني آدَمَ وأَيَّدَ المُؤمنينَ بالملائكَةِ، فإنَّ الشَّيطانَ إذا أَمَر بالفَحشاءِ فإنَّ هناك أَمْرًا آخرَ يُضادُّه وهو أَمْرُ المُلْكِ.

الْفَائِدَةُ الحَادِيَةَ عَشْرَةَ: أنَّه لا يُستعاذُ إلَّا باللهِ؛ لقَولِه: ﴿فَٱسۡتَعِذۡ بِٱللَّهِ﴾، لكن هذا مُقيَّدٌ بما لا يَقدِرُ عليه إلَّا اللهُ، فإنَّه لا استِعاذَةَ منه إلَّا باللهِ، وكذلك أيضًا لا استِعاذَةَ بمَخلوقٍ غَيرِ قادِرٍ، فمثلًا لو أنَّ الإنسانَ استَعاذَ بمَيِّتٍ لكان هذا شِركًا؛ لأنَّ المَيِّتَ لا يُمكنُ أن يُفيدَك، لكن لو استَعاذَ بحَيٍّ فيما يَقدِرُ عليه فلا بَأسَ بذلك؛ لأنَّ النَّبيَّ ﷺ قال: «مَن وَجَدَ مَلاذًا فلْيَعُذْ به أو مُعاذًا فلْيَعُذْ به»[1]، فالاستعاذَةُ بالمَخلوقِ فيما يَقدِرُ عليه كَالاستِعانَةِ به فيما يَقدِرُ عليه، وكالاستِغاثَةِ به فيما يَقدِرُ عليه.

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَةَ عَشْرَةَ: إثباتُ السَّميعِ العَليمِ للهِ بأنَّهما مِن أَسماءِ اللهِ عَزَّوَجَلَّ.

وسَبَقَ أنَّه لا يَجوزُ الإيمـانُ بالاسمِ إلَّا بثَلاثَةِ أُمورٍ إن كان مُتَعَدِّيًا، وبأمرينِ

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب المناقب، باب علامات النبوة في الإسلام، رقم (٣٦٠١)، ومسلم: كتاب الفتن، باب نزول الفتن كمواقع القطر، رقم (٢٨٨٦)، من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

إن كان غيرَ مُتعدِّيًا.

والسَّميعُ مُتعدٍّ فتُثْبِتُ السَّميعَ اسمًا والسَّمْعَ صِفةً وكَونُه يَسمَعُ أثرًا. وكذلك يُقالُ في العَليمِ.

وقَولُ المُفَسِّرِ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿ٱلسَّمِيعُ﴾ للقَولِ]، هذا صَحيحٌ؛ لأنَّ مُتعلِّقَ السَّمعِ هي الأَقوالُ، [﴿ٱلْعَلِيمُ﴾ بالفِعلِ] فيه نَظَرٌ؛ لأنَّ اللهَ عَليمٌ بالفِعلِ، عَليمٌ بالقَولِ، عَليمٌ بما ليس بِفِعلٍ ولا قَولٍ. ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِۦ نَفْسُهُۥ﴾ [ق:١٦] فقَصْرُها على الفِعلِ لا شكَّ أنَّه قاصِرٌ، فيُقالُ: الصَّوابُ العَليمُ بكُلِّ شَيءٍ مِنَ الأقوالِ والأفعالِ والإِرَاداتِ والحاضِرِ والمُستَقْبَلِ والماضي.

الْفَائِدَةُ الثَّالِثَةَ عَشْرَةَ: بَلاغَةُ القُرآنِ بذِكْرِ المُتقارِبَيْنِ في المَعنى وإن كان بَينَهما فَرقٌ مِن حَيثُ الحَقيقَةُ، وَجهُ ذلك أنَّه ذَكَرَ في الآيَةِ الأُولَى مُعامَلَةَ المُسيءِ مِنَ الإنسِ بأن تَدفَعَه بالَّتي هي أحسنُ، وذَكَرَ في الثَّانيَةِ مُعامَلَةَ المُسيءِ مِن غيرِ الإنسِ وهو الشَّيطانُ.

• • ❁ • •

الآيتان (٣٧، ٣٨)

❁ قال اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِ ٱلَّيْلُ وَٱلنَّهَارُ وَٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ لَا تَسْجُدُوا۟ لِلشَّمْسِ وَلَا لِلْقَمَرِ وَٱسْجُدُوا۟ لِلَّهِ ٱلَّذِى خَلَقَهُنَّ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ ﴿٣٧﴾ فَإِنِ ٱسْتَكْبَرُوا۟ فَٱلَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ يُسَبِّحُونَ لَهُۥ بِٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَهُمْ لَا يَسْـَٔمُونَ﴾ [فصلت:٣٧-٣٨].

•••

قوله: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِ﴾ أي: آياتِ اللهِ عَزَّوَجَلَّ، والآيَةُ في اللُّغةِ العَلامَةُ وهي بالنِّسبَةِ لآياتِ اللهِ ما كان عَلامَةً على قُدرَةِ اللهِ عَزَّوَجَلَّ وقُوَّته وحِكمَته وعِلمِه ورَحمَته وغَيرِ ذلك. وقَولُه: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِ﴾ الدَّالَّةُ على قُدرَته وعِلمِه وحِكْمَته ورحمَته وغَيرِ ذلك مِمَّا دَلَّ عليه هذا اللَّيلُ والنَّهارُ.

﴿ٱلَّيْلُ وَٱلنَّهَارُ﴾ اللَّيلُ بظَلامِه والنَّهارُ بضِيائِه، هذا من آياتِ اللهِ لا أَحَدَ يَستَطيعُ أن يَفعَلَ ذلك إطلاقًا يقولُ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن جَعَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمُ ٱلَّيْلَ سَرْمَدًا إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ مَنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ يَأْتِيكُم بِضِيَآءٍ أَفَلَا تَسْمَعُونَ﴾ [القصص:٧١] الجَوابُ: لا إلَهَ، لا أَحَدَ يأتي بذلك، ﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن جَعَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمُ ٱلنَّهَارَ سَرْمَدًا إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ مَنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ يَأْتِيكُم بِلَيْلٍ تَسْكُنُونَ فِيهِ أَفَلَا تُبْصِرُونَ﴾ [القصص:٧٢] الجَوابُ: لا أَحَدَ.

فهذا مِن آياتِ اللهِ العَظيمَةِ الدَّالَّةِ على قُدرَتـه وعلى رَحمَته وعِلمِه وحِكمَته وقُوَّته، بينَما اللَّيلُ قد غَشِيَ الأَرضَ بظَلامِه، وإذا بِالصُّبحِ قد كَشَفَ هذا الغِطاءَ،

فأصبحت الدُّنيا ضياءً.

كذلك مِن آياتِه الشَّمسُ والقَمرُ، وما أَعظَمَها من آيَةٍ، هذانِ الكَوكبانِ يَسيرانِ مُنذُ خَلَقَهما اللهُ عَزَّوَجَلَّ إلى أن يَأذَنَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ بخَرابِها يَسيرانِ على نَمَطٍ واحدٍ لا يَتَعَدَّيانِه ولا يَتجاوَزُانَّه قال بَعضُ العُلماءِ: لو أنَّ الشَّمسَ بَعُدَت عن مَقرِّها شَعرةً واحدةً لهَلَكَ النَّاسُ مِنَ البَردِ وجَمُدَت المَائعاتُ، ولو أنَّها نَزَلَت شَعرَةً واحدةً لَذابَت الأرضُ مِنَ الحَرِّ، وهذا مِن قُدرَةِ اللهِ عَزَّوَجَلَّ ثُمَّ هذا الجِرمُ العَظيمُ له هذه الإضاءةُ العَظيمَةُ مع البُعدِ التَّامِّ.

وهذه الحَرارَةُ العَظيمَةُ مع البُعدِ التَّامِّ، لو أنَّك سَعَّرت أَقوَى نارٍ في الدُّنيا ما بَلَغَت مَسافةَ حَرِّها إلى مئةِ مِترٍ، ومعَ ذلك تَجِدُ مَسَّ الحَرارَةِ فقط لا أن يَصِلَ إلى هذه الدَّرجَةِ، وهذه بَينَك وبَينَها ما لا يَعلَمُه إلَّا اللهُ عَزَّوَجَلَّ وتَجِدُ هذا الحَرَّ في أَيَّامِ الصَّيفِ، قال لي بَعضُهم: رُبَّما بَدَأَ المَاءُ يَغلي مِن شِدَّةِ الحَرارَةِ في بَعضِ المَناطِقِ، مِمَّا يَدُلُّ على عَظَمَةِ هذه الشَّمسِ.

والقَمرُ أيضًا عَظيمٌ، هذا القَمرُ الكَوكَبُ الكُتلَةُ يُضيءُ هذه الإضاءَةَ العَظيمَةَ مِن بُعدٍ مع ذلك هو باردٌ لا يُسخِّنُ الجَوَّ ولا يُسَخِّنُ الأرضَ؛ لأنَّه آيَةَ لَيلٍ. أرأيتم لو أنَّه كان حارًّا أيَتمتَّعُ النَّاسُ باللَّيلِ كما يَتمتَّعونَ اليومَ؟ لا يَتمتَّعونَ أبدًا، لكن مِن رحمَةِ اللهِ عَزَّوَجَلَّ أن جَعلَه نورًا باردًا حتَّى لا تَبقى حَرارَةُ الأرضِ طَوالَ أَربعٍ وعِشرينَ ساعةً، وحتَّى يَستقِرَّ النَّاسُ في مَنامِهم وذَهابِهم ومَجيئِهم.

قال اللهُ تَعالى: ﴿وَمِنْ ءَايَـٰتِهِ﴾ (مِن) هذه للتَّبعيضِ وعَلامَةُ مِنِ التَّبعيضِيَّةِ أن يَحِلَّ محلَّها بَعضُ، يَعني: بَعضُ آياتِه اللَّيلُ والنَّهارُ والشَّمسُ والقَمرُ، وذَكَرنا وَجهَ كَونِها هذه الأربع مِن آياتِه.

ثُمَّ قال اللهُ تعالى: ﴿لَا تَسْجُدُواْ لِلشَّمْسِ وَلَا لِلْقَمَرِ﴾ الخِطابُ لجَميعِ العِبادِ نَهاهم أن يَسجُدوا للشَّمسِ ولا للقَمرِ؛ لأنَّ مِن النَّاسِ مَن يَعبُدُ الشَّمسَ والقَمرَ ويَسجُدُ لها، وقد أَخبرَ النَّبيُّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: «**أنَّ الشَّمسَ تَطلُعُ بين قَرنَيْ شَيطانٍ فإذا طَلُعَت سَجَدَ لها الكُفَّارُ**»[1]؛ ولذلك نُهِيَ عنِ الصَّلاةِ عندَ طُلوعِ الشَّمسِ وعندَ غُروبِها، وقال بَعضُ العُلماءِ رَحِمَهُ اللَّهُ: إنَّ المُرادَ: لا تَسجُدوا للشَّمسِ ولا للقمرِ عندَ تَغيُّرِهما بالكُسوفِ.

ولكن في قوله تعالى: ﴿وَٱسْجُدُواْ لِلَّهِ ٱلَّذِى خَلَقَهُنَّ﴾ يَقولُ المُفسِّرُ رَحِمَهُ اللَّهُ: [أي: الآياتِ الأربعَ، ﴿إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ﴾]، يَعني: إن كُنتُم صادِقينَ في عِبادتِه فلا تَسجُدوا لغَيرِه؛ لأنَّ مَن يعبُدُ اللهَ ويَعبُدُ غَيرَه ليس صادقًا في عِبادَتِه، فالصَّادقُ في عِبادَتِه هو الَّذي يُخلِصُ العِبادَةَ للهِ عَزَّ وَجَلَّ.

وقوله تعالى: ﴿وَٱسْجُدُواْ لِلَّهِ ٱلَّذِى خَلَقَهُنَّ﴾ المُرادُ بالسُّجودِ هُنا -واللهُ أعلمُ- ما هو أعمُّ مِنَ السُّجودِ الخاصِّ الَّذي هو وَضعُ الأعضاءِ السَّبعَةِ على الأرضِ؛ أي أنَّ المُرادَ بالسُّجودِ هُنا الذُّلُّ، كما قال تعالى: ﴿وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا﴾ [الرعد:١٥].

ويَحتَمِلُ أن يَكونَ المُرادُ به السُّجودَ الخاصَّ؛ لقَولِه: ﴿لَا تَسْجُدُواْ لِلشَّمْسِ وَلَا لِلْقَمَرِ﴾ والقاعدَةُ في عِلمِ التَّفسيرِ أنَّه إذا كان اللَّفظُ يَحتَمِلُ مَعنيينِ أَحدُهما أوسعُ وأعَمُّ وأشمَلُ، فإنَّه يُحمَلُ على الثَّاني الَّذي هو أَوسَعُ وأعمُّ.

وقوله تعالى: ﴿وَٱسْجُدُواْ لِلَّهِ ٱلَّذِى خَلَقَهُنَّ﴾ الَّذي خَلَقَ هذه الأشياءَ، وفي

---

(١) أخرجه مسلم: كتاب صلاة المسافرين وقصرها، باب إسلام عمرو بن عبسة، رقم (٨٣٢)، من حديث عمرو بن عبسة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

هذا إِشارَةٌ إلى أنَّ اللهَ هو المُستَحِقُّ لأن يُسجَدَ له؛ لأنَّه هو الخالِقُ، وأمَّا هذه فهي مَخلوقَةٌ لا تَستَحِقُّ أن يُسجَدَ لها.

وقَولُه تَعالى: ﴿إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ﴾ أي: إن كُنتم ذَوِي عِبادَةٍ للهِ حقًّا فاسجُدوا للهِ ولا تَسجُدوا للشَّمسِ ولا للقَمرِ.

وقَولُه: ﴿إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ﴾ العِبادَةُ بمَعنى: الذُّلِّ، ومنه قَولُهم طَريقٌ مُعَبَّدٌ؛ أي: مُذَلَّلٌ لِمَن سَلَكَه ليس فيه وُعورَةٌ لا طُلوعَ ولا نُزولَ ولا التِفافَ يَمينًا ولا شِمالًا، فالطَّريقُ المُعَبَّدُ يَعني: المُذَلَّلَ. إذن فَالتَّعبُّدُ للهِ هو التَّذَلُّلُ له مَحبَّةً وتَعظيمًا. واعلَمْ أنَّ العِبادَةَ تُطلَقُ على مَعنيينِ:

المَعنى الأَوَّلِ: التَّعبُّدُ للهِ الَّذي هو فِعلُ العابِدِ.

والمَعنى الثَّاني: المُتَعَبَّدُ به الَّذي هي العِباداتُ، ولهذا قال شَيخُ الإسلام ابنُ تَيمِيَّةَ رَحِمَهُ اللَّهُ: «إنَّ العِبادَةَ اسمٌ جامعٌ لكُلِّ ما يُحِبُّه اللهُ ويَرضاه»[1] بناءً على أنَّ المُرادَ بها المُتَعَبَّدُ به.

قَولُه تعالى: ﴿إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ﴾ قَدَّمَ المَفعولَ به لإِفادَةِ الحَصْرِ؛ لأنَّ مِن القَواعِدِ المُقرَّرةِ في عِلمِ البَلاغَةِ وغَيرِها أنَّ تَقديمَ ما حَقُّه التَّأخيرُ يُفيدُ الحَصْرَ، فإذا قُلتَ مَثلًا: إيَّاكَ أكرَمْتُ، المَعنى لم أُكْرِمْ غَيرَك، وقَولُ القائِلِ في سورَةِ الفاتِحَةِ: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾ يَعني: لم نَعبُدْ غَيرَك ﴿وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ [الفاتحة:٥] يَعني: لا نَستَعينُ غَيرَك.

ثُمَّ قال تَعالى: ﴿فَإِنِ ٱسْتَكْبَرُوا۟﴾ يَعني: عن عِبادَةِ اللهِ والسُّجودِ له فإنَّ اللهَ تَعالى غَنيٌّ عنهم.

---

(١) مجموع الفتاوى (١٠/ ١٤٩).

يَقولُ المُفسِّرُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿ فَإِنِ ٱسْتَكْبَرُواْ ﴾ عَنِ السُّجودِ للهِ وَحدَه ﴿فَٱلَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ﴾ أي: فالمَلائِكةُ ﴿يُسَبِّحُونَ﴾ يُصلُّون ﴿لَهُۥ بِٱلَّيۡلِ وَٱلنَّهَارِ وَهُمۡ لَا يَسۡـَٔمُونَ ۩﴾ لا يملون] يَعني: فإنِ استكبَرَ هؤلاءِ عَن عِبادَةِ اللهِ فللهِ عِبادٌ آخَرون، كما في قَولِهِ تَعالى: ﴿فَإِن يَكۡفُرۡ بِهَا هَٰٓؤُلَآءِ فَقَدۡ وَكَّلۡنَا بِهَا قَوۡمًا لَّيۡسُواْ بِهَا بِكَٰفِرِينَ﴾ [الأنعام:٨٩].

ثُمَّ على فَرضِ أنَّه لا يُوجَدُ عابدٌ للهِ فإنَّ اللهَ تَعالى يَقولُ: ﴿ إِن تَكۡفُرُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِيٌّ عَنكُمۡ﴾ [الزُّمَر:٧] ﴿وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ [آل عمران:٩٧] فهُنا شَيئانِ:

الشَّيءُ الأَوَّلُ: أن يَستكبِرَ طائفَةٌ مِن المَخلوقينَ عن عِبادَةِ اللهِ، فإنِ استكبَروا فهُناكَ طائفَةٌ أُخرى تَعبُدُ اللهَ.

الثَّاني: أن يَستكْبِرَ الكُلُّ وهذا مُحالٌ حَسَبُ ما نَعلمُ، لكن على فَرضِ أنَّ جَميعَ المَخلوقاتِ استكبَرَت عن عِبادَةِ اللهِ، فإنَّ اللهَ غَنِيٌّ عنهم، كُلُّ هذا أَفصَحَ اللهُ عنه: ﴿وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ ﴿ إِن تَكۡفُرُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِيٌّ عَنكُمۡ ﴾ ﴿فَإِن يَكۡفُرۡ بِهَا هَٰٓؤُلَآءِ فَقَدۡ وَكَّلۡنَا بِهَا قَوۡمًا لَّيۡسُواْ بِهَا بِكَٰفِرِينَ﴾، هذا إذا كَفَرَ بَعضٌ وآمَنَ بَعضٌ.

﴿ فَإِنِ ٱسۡتَكۡبَرُواْ فَٱلَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ﴾ هذا إذا استكبَرَ بَعضٌ وذَلَّ بَعضٌ: ﴿ فَإِنِ ٱسۡتَكۡبَرُواْ فَٱلَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ يُسَبِّحُونَ لَهُۥ بِٱلَّيۡلِ وَٱلنَّهَارِ﴾.

جُملَةُ ﴿فَٱلَّذِينَ﴾ هي جَوابُ الشَّرطِ وقُرِنت بالفاءِ؛ لأنَّ ما بَعدَها لا يَصِحُّ أن يَكونَ فِعلًا للشَّرطِ، وهذه قاعِدَةٌ: إذا كان جَوابُ الشَّرطِ لا يَستقيمُ أن يَكونَ فِعلًا للشَّرطِ وَجَبَ اقتِرانُه بالفاءِ كما قال ابنُ مالكٍ[1]:

واقرِنْ بفا حتمًا جَوابًا لـو جُعِـلَ   شرطًا لـ(إن) أو غَيرِها لم يَنْجَعِلْ

(١) الألفية (ص:٥٨).

وقد ذَكَرَ بَعضُ الجامِعينَ لـما يَجِبُ أن يَقتَرِنَ بالفاءِ جَمعَ ذلك في بَيتٍ هو[(١)]:

اسمِيَّةٌ طَلبيَّةٌ وبجامِدٍ وبما   قـد وبلـن وبـالتَّنفيسِ

قال اللهُ تَعالى: ﴿فَٱلَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ﴾ وهُم الملائِكَةُ ﴿يُسَبِّحُونَ لَهُۥ بِٱلَّيۡلِ وَٱلنَّهَارِ﴾.

يَقولُ المُفسِّرُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿يُسَبِّحُونَ﴾ أي: يُصلُّون]، وهذا نَعَمْ له وِجهَةُ نَظرٍ؛ لأنَّ السِّياقَ في السُّجودِ ويُمكِنُ أن نَقولَ: يُسبِّحونَ بما هو أَعمُّ مِنَ الصَّلاةِ أي: يَقولون: سُبحانَ اللهِ والحَمدُ للهِ وما أَشبَهَ ذلك مِن كُلِّ ما فيه تَنزيهٌ للهِ عَزَّوَجَلَّ عمَّا لا يَليقُ به.

وقَولُه: ﴿يُسَبِّحُونَ لَهُۥ﴾ أي للهِ، واعْلَمْ أنَّ التَّسبيحَ مَعناه التَّنزيهُ، فما الَّذي يُنزِّهُ اللهُ عنه؟

يُنزَّهُ اللهُ تَعالى عن كُلِّ نَقصٍ، فهو عَزَّوَجَلَّ مُنزَّهٌ عن كُلِّ نَقصٍ، لا يُمكِـنُ أن يَعتَرِيَه نَقصٌ بأيِّ حالٍ مِنَ الأحوالِ.

ثانيًا: يُنزَّهُ عن كُلِّ نَقصٍ في كمالِه فلا نَقصَ في سَمعِه ولا بَصَرِه ولا قُدرَتِه ولا قُوَّتِه.

الثَّالثُ: يُنزَّهُ عن مُماثَلةِ المَخلوقيـنَ فلا يُمـاثلُ المَخلوقَ أبدًا بأيِّ حالٍ مِنَ الأحوالِ، والتَّماثُلُ بينَ الخالِقِ والمَخلوقِ مِن أكبرِ المُحالِ.

فما يُنزَّهُ اللهُ عنه ثَلاثَةُ أشياءَ:

الأوَّلُ: النَّقصُ لا يُمكنُ أن يَعتَرِيَه نَقصٌ إطلاقًا.

---

(١) انظر النحو الوافي (٤/ ٤٦٣).

والثَّاني: النَّقصُ في كَمالِه، فكَمالاتُه من عِلمٍ وقُدرةٍ وحَياةٍ وسَمْعٍ وبَصرٍ ورحمةٍ وغيرِ ذلك لا يُمكنُ أن يَعترِيَها نقصٌ بأيِّ حالٍ مِنَ الأحوالِ.

والثَّالثُ: مُماثلَةُ المَخلوقينَ.

ولاحِظوا هذه المَسألَةَ فأكثَرُ الَّذين يُعبِّرون بمِثلِ هذا يُعبِّرون بمُشابهَةٍ، وهذا ليس بصَوابٍ، الصَّوابُ أن يُعبِّرَ بما عَبَّر اللهُ به عن نَفسِه فقال: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ﴾ [الشورى:١١] وقال: ﴿فَلَا تَضْرِبُواْ لِلَّهِ ٱلْأَمْثَالَ﴾ [النحل:٧٤]، ولم يَذكُرِ التَّشبيهَ بأيِّ حالٍ منَ الأحوالِ، ولهذا كان التَّعبيرُ بنَفيِ التَّمثيلِ هو الصَّوابُ دونَ التَّشبيهِ.

دَليلُ هذا أنَّ اللهَ مُنزَّهٌ عن كُلِّ نَقصٍ وعَيبٍ قولُه: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْمَثَلُ ٱلْأَعْلَىٰ﴾ [النحل:٦٠] المَثَلُ يعني: الوَصفَ؛ لأنَّ المَثَلَ يُطلَقُ على ذلك كما في قَولِه تَعالى: ﴿مَّثَلُ ٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى وُعِدَ ٱلْمُتَّقُونَ﴾ [محمد:١٥] مَثَلُ بمعنى: وَصفُها صِفتُها، ﴿فِيهَآ أَنْهَٰرٌ مِّن مَّآءٍ غَيْرِ ءَاسِنٍ﴾ فإذا كان اللهُ له المَثَلُ الأعلى؛ أي: الأَكمَلُ لَزِمَ أن يَكونَ مُنزَّهًا عن كُلِّ نقصٍ.

أمَّا النَّقصُ في كَمالِه فيَدُلُّ له قَولُه تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ وَمَا مَسَّنَا مِن لُّغُوبٍ﴾ [ق:٣٨] أي: مِن نَقصٍ على أنَّ هذه المَخلوقاتِ عَظيمَةٌ جدًّا، ومع ذلك ما لَحِقَ اللهُ تعالى فيها نَقصٌ. ﴿أَوَلَمْ يَرَوْاْ أَنَّ ٱللَّهَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَلَمْ يَعْىَ بِخَلْقِهِنَّ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يُحْۦِىَ ٱلْمَوْتَىٰ﴾ [الأحقاف:٣٣].

الثَّالثُ: عدمُ مُماثلَةِ المَخلوقينَ، يَقولُ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ [الشورى:١١]، ﴿فَلَا تَضْرِبُواْ لِلَّهِ ٱلْأَمْثَالَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ [النحل:٧٤]، ويَقولُ تَعالى: ﴿فَلَا تَجْعَلُواْ لِلَّهِ أَندَادًا وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة:٢٢].

إذن؛ التَّسبيحُ بمعنى: التَّنزيهِ، والَّذي يُنزِّهُ اللهُ عنه ثَلاثَةُ أشياءَ.

قال اللهُ تَعالى: ﴿يُسَبِّحُونَ لَهُۥ بِٱلَّيۡلِ وَٱلنَّهَارِ﴾ الباءُ هُنا بمَعنى (في)؛ لأنَّ المَقصودَ ﴿بِٱلَّيۡلِ﴾ يَعني: ظَرفَ اللَّيلِ، وعلى هذا تَكونُ الباءُ بمعنى (في) كما هي في قَولِه تَعالى: ﴿وَإِنَّكُمۡ لَتَمُرُّونَ عَلَيۡهِم مُّصۡبِحِينَ ١٣٧ وَبِٱلَّيۡلِۚ أَفَلَا تَعۡقِلُونَ﴾ [الصافات:١٣٧-١٣٨] باللَّيلِ يَعني: في اللَّيلِ.

فإنْ قال قائِلٌ: ما القَولُ في رَأيِ عُلماءِ البَصرَةِ الَّذين يُنكِرون تَقابُلَ الحُروفِ بَعضِها بَعضًا؟

فالجَوابُ: نَحنُ لَدينا قاعدَةٌ:

أَوَّلًا: أنَّه إذا دَلَّ القُرآنُ على شَيءٍ جائزٍ فلا عِبرَةَ بمَن خالَفَه.

ثانيًا: إذا اختَلَف النَّحويُّون في مسألَةٍ، فإنَّنا نتَّبعُ الأسهَلَ، لا يوجَدُ دَليلٌ شَرعيٌّ مَثلًا يُؤيِّدُ هؤلاءِ ولا هَؤلاءِ فنتَّبعَ الأسهَلَ، فإذا رَأيتُم عُلماءَ البَصرَةِ وعُلماءَ الكوفَةِ مُختلِفون في شَيءٍ فاتَّبعوا الأسهَلَ، وأَقولُ: الحَمدُ للهِ على الرَّاحةِ.

فإن قيل: هَل شَيخُ الإسلامِ يُغَلِّطُ مثلَ هذا؟

فالجَوابُ: لا، لا يَغلِّطُ بمثل هذا، شَيخُ الإسلامِ[1] يُغلِّطُ فيما إذا أَمكَنَ تَضمينُ الفِعلِ مَعنًى يُناسبُ حَرفَ الجَرِّ مثل: ﴿عَيۡنٗا يَشۡرَبُ بِهَا عِبَادُ ٱللَّهِ﴾ [الإنسان:٦] منهم مَن يَقولُ ﴿بِهَا﴾ (الباءُ) بمَعنَى (مِن) أي: يَشرَبُ مِنها عِبادُ اللهِ. نحنُ نَقولُ: لا، الأَوْلَى أن تُضَمِّنَ الفِعلَ مَعنًى يُناسِبُ الحَرفَ، أمَّا الآيَةُ الَّتي مَعَنا ﴿يُسَبِّحُونَ لَهُۥ بِٱلَّيۡلِ﴾ [فُصِّلَت:٣٨] فلا تَستَقيمُ.

وقَولُه: ﴿بِٱلَّيۡلِ وَٱلنَّهَارِ﴾ يَعني: إذن كُلُّ الوَقتِ يُسبِّحونَ اللهَ.

---

(١) انظر: مجموع الفتاوى (٢١/ ١٢٣-١٢٤).

ويَقولُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَهُمْ لَا يَسْـَٔمُونَ ۩﴾ هُم مَعَ كَونِهم مُستغرِقينَ اللَّيلَ والنَّهارَ في تَسبيحِ اللهِ ﴿لَا يَسْـَٔمُونَ﴾. يَقولُ المُفسِّرُ رَحِمَهُ اللَّهُ: [لا يَمَلُّون] وكذلك لا يَتعَبونَ؛ لأنَّ المَلَلَ يَكونُ مِنَ الضَّجَرِ والتَّعَبِ وذُلِّ النَّفسِ أَمامَ ما يَتحمَّلُه الإنسانُ، هؤلاء المَلائِكةُ -عليهم الصَّلاةُ والسَّلامُ- ﴿لَا يَسْـَٔمُونَ﴾.

من فوائِدِ الآيتينِ الكَريمتَينِ:

الْفَائِدَة الأُولَى: أنَّ للهِ آياتٍ كثيرةً لا تَنحَصِرُ بآيتينِ أو ثَلاثٍ نُدرِكُ ذلك من قَولِه: ﴿وَمِنْ ءَايَـٰتِهِ﴾ وما أَكْثَرَها في القُرآنِ الكَريمِ: ﴿وَمِنْ ءَايَـٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ﴾ [الروم:٢٠] ﴿وَمِنْ ءَايَـٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا﴾ [الروم:٢١] ﴿وَمِنْ ءَايَـٰتِهِۦ خَلْقُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَثَّ فِيهِمَا مِن دَآبَّةٍ﴾ [الشورى:٢٩] وهي كَثيرَةٌ.

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَةُ: أنَّ للهِ تَعالى آياتٍ محَسوسةً تُعينُ على الآياتِ المَعقـولَةِ، وهذا من رَحمَةِ اللهِ عَزَّوَجَلَّ أنَّ اللهَ أرى عِبادَه الآياتِ المَحسوسَةَ ليَستَعينوا بها على الآياتِ المَعقولَةِ.

فالآياتُ المَعقولَةُ كُلٌّ يَعلمُ أنَّ كُلَّ حادثٍ لا بدَّ له من مُحدِثٍ هذه آيَةٌ عَقليَّةٌ لا يُنكِرُها أحدٌ؛ ولهذا قال تَعالى: ﴿أَمْ خُلِقُوا۟ مِنْ غَيْرِ شَىْءٍ أَمْ هُمُ ٱلْخَـٰلِقُونَ﴾ [الطور:٣٥] الجَوابُ: لا هذا ولا هذا. هم لم يُخلَقوا مِن غيرِ شَيءٍ بل لا بدَّ لهم مِن خالقٍ ولا خَلَقوا أنفُسَهم، إذن لَهم خالِقٌ وهو اللهُ عَزَّوَجَلَّ؛ ولهذا لـمَّا سَمِعَ جُبيرُ بنُ مُطعَم رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ هذه الآيَةَ وكان من أَسرى بَدرٍ، وسَمِعَ النَّبيَّ -صلَّى اللهُ عليه وعلى آله وسلَّم- يَقرَأُ بالطُّورِ يَقولُ: كاد قَلبي يَطيرُ(١)، يَعني: عَرفْتُ أنِّي على خَطإٍ وأنَّ المُشركينَ كُلَّهم يُخطِئونَ.

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب تفسير القرآن، باب سورة والطور، رقم (٤٨٥٤).

إذن آياتُ اللهِ عَزَّوَجَلَّ إمَّا عقليَّةٌ وإمَّا سَمعيَّةٌ محسوسَةٌ هنا، ﴿وَمِنْ ءَايَـٰتِهِ ٱلَّيْـلُ وَٱلنَّهَـارُ﴾ الآياتُ هذه محسوسَةٌ، كُلٌّ يَعرِفُها، اللَّيلُ والنَّهارُ، وأنَّه لا يُمكِنُ لأحدٍ أن يأتيَ بهما.

الْفَائِدَةُ الثَّالِثَةُ: أنَّ اللَّيلَ والنَّهارَ والشَّمسَ والقَمرَ آياتٌ عَظيمَةٌ، ولهذا نَصَّ اللهُ عليهن، والأمرُ كذلكَ، هذه الشَّمسُ الكَوكَبُ العَظيمُ المُنيرُ الحارُّ لا يُمكِنُ لأيِّ مخلوقٍ أن يَصنَعَ مِثلَها إطلاقًا، وقد بَيَّنَّا في أثناءِ التَّفسيرِ وَجهَ ذلك.

الْفَائِدَةُ الرَّابِعَةُ: النَّهيُ عنِ السُّجودِ للشَّمسِ والقَمرِ؛ لقَولِه: ﴿لَا تَسْجُدُوا۟ لِلشَّمْسِ وَلَا لِلْقَمَرِ﴾ مع أنَّهما مِن آياتِ اللهِ، لكنَّها مخلوقَةٌ، والسُّجودُ إنَّما يَكونُ للخالِقِ.

وننتَقِلُ مِن هذا إلى نُقطةٍ مُهمَّةٍ أشارَ إليها شَيخُ الإسلامِ ابنُ تيميَّةَ رَحِمَهُ ٱللَّهُ وهو أنَّ صِفاتِ اللهِ عَزَّوَجَلَّ ليست هي اللهُ. فلا يجوزُ دُعاءُ الصِّفةِ ولا السُّجودُ لصِفاتِ اللهِ، ولهذا قال شَيخُ الإسلامِ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: مَن دعا صِفةً من صِفاتِ اللهِ فإنَّه كافرٌ بالاتِّفاقِ[1]، يَعني: لو قال قائِلٌ: يا رَحمَةَ اللهِ ارحَميني، كيف يا رَحمَةَ اللهِ ارحميني، هل الرَّحمَةُ شَيءٌ بائنٌ عنِ اللهِ يَستطيعُ أن يرحَمَ؟ لا، فإذا قُلتَ: يا رَحمَةَ اللهِ ارحميني، مَعناها أنَّك جَعلْتَ معَ اللهِ إلهًا آخَرَ وهذا كُفْرٌ.

وكذلك إذا قُلت: يا قُدرَةَ اللهِ أنقِذيني هذا حَرامٌ شِركٌ، قُل: يا اللهُ بقُدرَتِك أَنقِذني، ولا يَردُ على هذا قَولُه: اللهُمَّ برحمَتِك أستَغيثُ[2]؛ لأنَّ ليس مَعناها أنِّي أستَغيثُ بالرَّحمَةِ وكأنَّني أَعتقِدُها شيئًا مُستقلًّا، لكنَّ المَعنى التَّوسُّلُ إلى اللهِ تَعالى برَحمَتِه كأنَّه يَقولُ: يا رَبِّ أَغِثني برَحمتِك. فيَجِبُ التَّنبُّهُ لهذه المَسأَلَةِ.

---

(١) انظر: تلخيص كتاب الاستغاثة (ص:١٨١).

(٢) أخرجه الترمذي: كتاب الدعوات، رقم (٣٥٢٤)، من حديث أنس بن مالك رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ.

ومن ذلك أيضًا مِنَ الخَطأِ في مِثلِ هذا قَولُ بَعضِ النَّاسِ: شاءَت قُدرَةُ اللهِ، شاءَ القَدَرُ، هذا حَرامٌ، لا يَجوزُ، القُدرَةُ نَفسُها ليس لها مَشيئَةٌ، المَشيئَةُ للهِ عَزَّوَجَلَّ أمَّا القُدرَةُ فليس لها مَشيئَةٌ؛ لأنَّها صِفةٌ في موصوفٍ والشَّائي والمُختارُ هو اللهُ عَزَّوَجَلَّ. أمَّا اقتضت قُدرَةُ اللهِ فهذا صَحيحٌ، يعني: أنَّ من مُقتَضياتِ القُدرَةِ كذا وكذا، أمَّا المَشيئَةُ فلا تَكونُ إلَّا مِن شاءٍ له اختِيارٌ، وهذا لا يُمكِنُ أن يَكونَ من صِفةٍ.

فإنْ قال قائِلٌ: هُناك عِبارَةٌ شائعَةٌ بَينَ العامَّةِ قَولُهم: نَحمَدُ اللهَ ونَشكُرُ فَضلَه؟

فالجَوابُ: أليس اللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى يقولُ: ﴿وَٱشۡكُرُواْ نِعۡمَتَ ٱللَّهِ﴾ [النحل:١١٤]، والمُرادُ نِعمَةُ اللهِ المَخلوقَةُ لا الصِّفَةُ، يَعني: ما أَنعَمَ اللهُ، كذلك أَشكُرُ فَضلَ اللهِ ليس مَعناه أنِّي أَجعَلُ هذه الصِّفَةَ مَشكورَةً لكنَّ هذا الفضلَ الَّذي مَنَّ اللهُ عَلَيَّ أشكُرُه عليه، فهذه العِبارَةُ لا شَيءَ فيها.

الْفَائِدَةُ الخَامِسَةُ: أنَّ من بَلاغةِ القُرآنِ أنَّه إذا ذَكَرَ الحُكْمَ ذَكَرَ الدَّليلَ العَقليَّ عليه؛ لقَولِه: ﴿وَٱسۡجُدُواْ لِلَّهِ ٱلَّذِي خَلَقَهُنَّ﴾ اسجُدوا للهِ، هذا واضحٌ أمرٌ شرعيٌّ لكن: ﴿ٱلَّذِي خَلَقَهُنَّ﴾ دَليلٌ كونيٌّ قَدَريٌّ على أنَّ المُستحِقَّ للسُّجودِ الَّذي خَلَقَ هذه الأشياءَ، كيف تَسجدونَ للشَّمسِ والقَمرِ ولا تَسجُدون للهِ الَّذي خَلقَهنَّ، ونَظيرُ هذا قَولُه تَعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعۡبُدُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِي خَلَقَكُمۡ وَٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكُمۡ﴾ [البقرة:٢١] وقَولُه تَعالى: ﴿فَأَمَّا عَادٞ فَٱسۡتَكۡبَرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ بِغَيۡرِ ٱلۡحَقِّ وَقَالُواْ مَنۡ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً﴾ [فُصِّلَت:١٥] قال اللهُ تَعالى: ﴿أَوَلَمۡ يَرَوۡاْ أَنَّ ٱللَّهَ ٱلَّذِي خَلَقَهُمۡ هُوَ أَشَدُّ مِنۡهُمۡ قُوَّةٗ﴾، لم يَقُل: أَوَ لَمْ يَرَوا أنَّ اللهَ هو أَشدُّ منهم قُوَّةً، بل قال: ﴿ٱلَّذِي خَلَقَهُمۡ﴾ ليَدُلَّ بذلك دَلالةً عَقليَّةً واضحَةً أنَّهم دونَ اللهِ تعالى في القُدرَةِ؛ لأنَّ اللهَ هو الَّذي خَلقَهم، وهذا مِن أساليبِ القُرآنِ المُعجزَةِ الَّتي تَدُلُّ على أنَّه من لَدن حَكيمٍ خَبيرٍ.

الْفَائِدَةُ السَّادِسَةُ: الرَّدُّ على عابِدِ الشَّمسِ والقَمرِ؛ لقَولِه: ﴿لَا تَسْجُدُوا لِلشَّمْسِ وَلَا لِلْقَمَرِ وَاسْجُدُوا لِلَّهِ﴾، استنبَطَ بَعضُ العُلَماءِ من تلكَ الآيَةِ فائدَةً وهي مَشروعِيَّةُ صَلاةِ الكُسوفِ، قال: لأنَّ اللهَ قال: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِ ٱلَّيْلُ وَٱلنَّهَارُ وَٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ لَا تَسْجُدُوا لِلشَّمْسِ وَلَا لِلْقَمَرِ﴾، ولم يَقُلْ: للَّيلِ وللنَّهارِ وذلك لأنَّ الشَّمسَ والقَمرَ إذا تَغيَّرتا فقدْ يَنشأُ في قَلبِ عابِدِهما أن يَسجُدَ لهما كالتائِبِ، فقال: لا تَسجُدوا للشَّمسِ ولا للقَمرِ واسجُدوا للهِ الَّذي خَلَقَهما، وهذا الاستِنباطُ فيه شَيءٌ مِنَ البُعدِ لكنَّه ليس مُمتنعًا أنْ يَكونَ في ذلك إشارَةٌ إلى مَشروعِيَّةِ صَلاةِ الكُسوفِ.

الْفَائِدَةُ السَّابِعَةُ: أنَّه لا يُمكنُ لإنسانٍ يَدَّعي أنَّه يَعبُدُ اللهَ حقًّا أن يَسجُدَ لغَيرِ اللهِ؛ لقَولِه: ﴿إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ﴾.

الْفَائِدَةُ الثَّامِنَةُ: التَّحدِّي لمَنْ أَشرَكَ باللهِ -بأيِّ نَوعٍ مِنَ الشِّركِ- أن يَكونَ عابدًا حقًّا للهِ، فالمُـرائي مَثلًا نَقولُ: إنَّك لم تَعبُدِ اللهَ حَقًّا لم تُفـرِدْه بالعِبادةِ لأنَّك أَردتَ بعِبادتِك التَّقرُّبَ إلى المَخلوقينَ؛ ولهذا قال: ﴿إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ﴾.

الْفَائِدَةُ التَّاسِعَةُ: أنَّ المُستكبرينَ عن عِبادةِ اللهِ لن يَضُـرُّوا اللهَ شيئًا؛ لقَولِه: ﴿فَإِنِ ٱسْتَكْبَرُوا فَٱلَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ﴾.

الْفَائِدَةُ الْعَاشِرَةُ: كَشفُ تَحدِّي هَؤلاءِ الَّذين يَعبُدونَ غَيرَ اللهِ بأنَّهم إذا عَبَدوا غَيرَ اللهِ فللهِ مَن يَعبُدُه عَزَّوَجَلَّ.

الْفَائِدَةُ الحَادِيَةَ عَشْرَةَ: استدَلَّ بها بَعضُهم على أنَّ المَلائكَةَ أفضلُ مِنَ البَشرِ، وعَلَّلَ ذلك بأنَّ المَلائكةَ ليس فيهم مُشرِكٌ؛ لقَولِه: ﴿ٱلَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِ﴾ وبنو آدمَ فيهم مُؤمنٌ وكافِرٌ والجِنسُ الَّذي ليس فيهم مُشرِكٌ خيرٌ مِنَ الجِنسِ الَّذي يَكونُ فيه مُشرِكٌ ومُوحِّدٌ.

ولكن قد يُعارَضُ هذا الاستدلالُ فيُقالُ: عِبادةُ الجِنسِ الَّذي فيه مُشركٌ ومُوحِّدٌ أفضلُ مِن عِبادةِ جِنسٍ ليس فيه مُشرِكٌ، وذلك لَمشقَّةِ التَّوحيدِ في جِنسٍ فيه مُشرِكٌ والمُوحِّدُ فيكونُ المُوحِّدُ مِن بَني آدمَ أفضلَ مِن المَلائِكَةِ؛ لأنَّه عَبَدَ اللهَ في قومٍ لا يَعبُدون اللهَ، أمَّا المَلائكةُ فكُلُّهم يَعبُدونَ اللهِ ولا يَستكبِرون عن عِبادتِه.

وهذه المَسألَةُ فيها خِلافٌ بينَ أهلِ العِلمِ ولكُلٍّ منهم أَدِلَّةٌ لكن جَمَعَ شَيخُ الإسلامِ رَحِمَهُ ٱللَّهُ بينَ الأَدِلَّة فقال: المَلائكَةُ أفضلُ باعتِبارِ البدايةِ وصالِحُ البَشَرِ أفضلُ باعتِبارِ النِّهايَةِ[1]، وهذا قولٌ لا بأسَ به، جَمَعَ بين الأَدِلَّةِ الدَّالَّةُ على التَّفضيلِ تفضيلِ المَلائكَةِ على البَشَرِ والبَشَرِ على المَلائكَةِ، ولهذا قال السِّفارينيُّ رَحِمَهُ ٱللَّهُ[2]:

وعِندَنا تَفضيلُ أعيانِ البَشَرِ ... على مَلائكِ رَبِّنا كما اشتُهِرَ

قال: ومَن قال سِوَى هذا افتَرَى ... .

قوله: «قال» الأُولى يَعني: الإمامُ أحمدُ- يَعني: مَن قال بغَيرِ تَفضيلِ أعيانِ البَشَرِ على المَلائكَةِ فهو مُفترٍ، لكنَّ الصَّوابَ أن نَقولَ كما قال شَيخُ الإسلامِ رَحِمَهُ ٱللَّهُ، أمَّا باعتِبارِ البِدايَةِ فالمَلائكَةُ أفضلُ؛ لأنَّهم خُلِقوا مِن نورٍ، و﴿لَّا يَعْصُونَ ٱللَّهَ مَآ أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾ [التحريم:٦]. لكن في النِّهايَةِ يَكونُ لصالِحِ البَشَرِ مِنَ الثَّوابِ والأَجْرِ والقُربِ مِنَ اللهِ ما ليس للمَلائِكَةِ.

فإنْ قال قائلٌ: كيف تَكونُ المَلائكَةُ أفضَلَ بِدايَةً والبَشَرُ أفضَلَ نِهايَةً؟

فالجَوابُ: المَلائكَةُ أفضَلُ مِن حيثُ البِدايَةُ؛ لأنَّهم خُلِقوا مِن نورٍ وامتَثلوا

(١) الاختيارات العلمية [المطبوع مع الفتاوى الكبرى] (٥/ ٣٧٩).
(٢) العقيدة السفارينية (ص:٩٠).

أمْرَ اللهِ، وليس فيهم مَن يَستكبِرُ عن عِبادَةِ اللهِ، لكن في النِّهايَةِ يَكونُ مآلُ البَشرِ أفضَلَ حتَّى المَلائِكَةُ عَملُهم في يومِ القِيامَةِ أنَّهم يَدخُلون عليهِمْ مِن كُلِّ بابٍ يُهنِّئونَهم يَقولُون: ﴿سَلَٰمٌ عَلَيْكُم بِمَا صَبَرْتُمْ﴾ [الرعد:٢٤] ولا يَنالون مِنَ النَّعيم مِثلَما يَنالُه المُؤمنونَ.

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَةَ عَشْرَةَ: أنَّ للمَلائِكَةِ إرادةً، يُؤخَذُ مِن ﴿يُسَبِّحُونَهُۥ﴾ ولا تَسبيحَ إلَّا بإرادَةٍ. ومِن هُنا نَقفِزُ إلى فائدَةٍ ثانيَةٍ:

الْفَائِدَةُ الثَّالِثَةَ عَشْرَةَ: وهي أنَّ جَميعَ المَخلوقاتِ مِن الأشجارِ والأحجارِ والأنهارِ والشَّمسِ والقمرِ والسَّماءِ والأرضِ لها إرادَةٌ؛ لأنَّها كُلَّها تُسبِّحُ اللهَ: ﴿تُسَبِّحُ لَهُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ ٱلسَّبْعُ وَٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ ۚ وَإِن مِّن شَىْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِۦ﴾ [الإسراء:٤٤].

وبهذا نَرُدُّ على الَّذين قالوا: إنَّ قَولَه تَعالى: ﴿يُرِيدُ أَن يَنقَضَّ﴾ [الكهف:٧٧] يعني: الجِدارَ، هذا مَجازٌ؛ لأنَّ الجِدارَ ليس له إرادَةٌ، فيُقالُ: مَن قال لكم إنَّه ليس له إرادَةٌ؟ بل له إرادَةٌ، ومَيلُه يَدُلُّ على أنَّه أرادَ، ولقد قال النَّبيُّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ في أُحُدٍ: «**إنَّه يُحبُّنا ونُحبُّه**»(١)، والمَحبَّةُ أخصُّ مِنَ الإرادَةِ وأثبَتَها الرَّسولُ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ للجَبَلِ.

الْفَائِدَةُ الرَّابِعَةَ عَشْرَةَ: أنَّ بَعضَ أهلِ العِلمِ استَدَلَّ بها على عُلوِّ اللهِ، وأنَّ الأشياءَ ليست كُلُّها سَواءً بالنِّسبَةِ للقُربِ منه؛ لقَولِه: ﴿فَٱلَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ﴾، والعِندِيَّةُ تَقتَضي القُربَ، وأنَّ بعضَ المَخلوقاتِ إلى اللهِ أَقرَبُ مِن بعضٍ، وهذا لا إشكالَ فيه، مَن يَقولُ: إنَّ مَن كان في الأرضِ السَّابعَةِ السُّفلى هو في القُربِ إلى اللهِ كالَّذي في السَّماءِ السَّابعَةِ لا أحدَ يَقولُ بهذا.

أمَّا مِن جِهةِ الإحاطَةِ بالخَلقِ فلا شَكَّ أنَّ القَريبَ والبَعيدَ عِندَ اللهِ على حدٍّ

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب الجهاد، باب فضل الخدمة في الغزو، رقم (٢٨٨٩)، ومسلم: كتاب الحج، باب أحد جبل يحبنا ونحبه، رقم (١٣٩٣)، من حديث أنس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

سواءٍ، وأمَّا من جِهةِ الواقعِ فلا شكَّ أنَّ مَن كان في السَّمواتِ أَقربَ إلى اللهِ ممَّن كان في الأرضِ، ولهذا قال: ﴿فَٱلَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ﴾.

أَقولُ: إنَّ بَعضَ العُلماءِ استَدَلَّ بهذه الآيَةِ على عُلوِّ اللهِ، وقال: نحنُ في الأرضِ والَّذين عِندَ اللهِ لا بَّد أن يَكونوا في السَّماءِ؛ لأنَّه لولا عُلوُّه لكُنَّا نحن أيضًا عِندَه، فكَونُه يقولُ: ﴿فَٱلَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ﴾ يُخاطِبُ مَن في الأرضِ يَدُلُّ على عُلوِّ اللهِ عَزَّوَجَلَّ وهذا لا شكَّ أنَّه استنباطٌ جَيِّدٌ، لكنَّنا لسنا بحاجَةٍ إلى أن نَأتيَ بهذا الدَّليلِ الَّذي قد تَخفى دَلالتُه على كَثيرٍ مِنَ النَّاسِ.

وعِندَنا أدِلَّةٌ كَثيرةٌ واضحَةٌ على عُلوِّ اللهِ عَزَّوَجَلَّ أدِلَّةٌ عَقليَّةٌ وأدِلَّةٌ سمعيَّةٌ وأدِلَّةٌ فِطريَّةٌ على عُلوِّ اللهِ، ولا أَحَدَ يُنكِرُ عُلوَّ اللهِ عَزَّوَجَلَّ العُلوَّ الذَّاتيَّ إلَّا مَخبولٌ غيرُ عاقلٍ، وهو بَيْن أَمرينِ: إمَّا أن يَقولَ بالحُلولِ، وإمَّا أن يَقولَ بالعَدَمِ، وفِعلًا التَزِموا ذلك، فالَّذين أنكَروا عُلوَّ اللهِ انقَسَموا إلى قِسمَينِ:

قِسمٌ قال: إنَّ اللهَ في كُلِّ مَكانٍ، ولم يُنزِّهِ اللهَ عَزَّوَجَلَّ عَن الحُشوشِ والأقذارِ والأنتانِ والأسواقِ الَّتي بها اللَّغو والكَذِبُ والغِشُّ، وهذا فيما أَرى كُفْرٌ صَريحٌ، أنَّ من قال: إنَّ اللهَ بذاتِه في كُلِّ مكانٍ، فهو كافِرٌ لو مات ما صَلَّيتُ عليه ولا دَعوتُ له بالرَّحمَةِ؛ لأنَّه مُكذِّبٌ للقُرآنِ وللأدِلَّةِ العَقليَّةِ وواصِمٌ لرَبِّه بكُلِّ عيبٍ.

ومنهم مَن يَقولُ: إنَّ اللهَ تَعالى ليس داخِلَ العالَمِ ولا خارِجَ العالَمِ ولا مُتَّصِلٌ بالعالَمِ ولا مُباينٌ ولا مُحايثٌ ولا فوقُ ولا تَحتُ ولا يمينَ ولا شِمالَ، بماذا وَصَفَ اللهَ؟ بالعَدَمِ، لو قيل لنا صِفوا المَعدومَ ما وَصَفناه بأَكثَرَ مِن هذا، فيُقالُ: أين هو ما دام لا داخِلُ العالَمِ ولا خارِجُه ولا مُتَّصِلٌ بالعالَمِ ولا هو مُنفصِلٌ عنِ العالَمِ، ولا فَوقُ ولا تَحتُ ولا يَمينَ ولا شِمالَ أين يَروحُ إلَّا العَدَمَ!؟

ولهذا لـما قال ابنُ فَورَكٍ لمحمودَ بنِ سُبُكْتِكِين رَحِمَهُ ٱللَّهُ: إنِّي لا أقولُ: إنَّ اللهَ فَوقَ العالَمِ ولا تحتَ إلى آخرِه، قال: بيِّنْ لنا الفَرقَ بين وُجودِ رَبِّك وعَدمِه أو كَلِمَةً نحوَها[1] يَعني: مَعناه أنَّك إذا وَصَفْتَ اللهَ بهذه الأوصافِ فهذا هو العَدمُ تمامًا.

وتَقريرُ أنَّ اللهَ تَعالى في السَّماءِ يَعني: العُلوَّ الذَّاتيَّ أمرٌ لا إشكالَ فيه، والعَجَبُ أنَّك تَأتي العَجوزَ الَّتي لم تَدرُسْ ولم تَفهَمْ ولم تَعلَمْ وتَسألُها أين اللهُ؟ تَقولُ في السَّماءِ، إلَّا إذا كان الأمرُ كما قال النَّبيُّ ﷺ: «أبواه يُهوِّدانِه أو يُنصِّرانِه أو يُمجِّسانِه»[2] أي: إلَّا إذا كانت عائشَةُ بين قومٍ يُنكِرونَ العُلوَّ فرُبَّما تُنكِرُ بِناءً على أنَّ البِيئَةَ تُغيِّرُ، أمَّا لو أتينا إلى الإنسانِ مِن حيثُ الفِطرةُ لرأينا أنَّه لا يشكُّ في أنَّ اللهَ في السَّماءِ.

ولذلك أَفْحَمَ الهَمَذانيُّ رَحِمَهُ ٱللَّهُ أبا المَعالي الجُوَينيَّ حين كان أبو المَعالي الجُوَينيُّ يُنكرُ استِواءَ اللهِ على العَرشِ ويَقولُ: إنَّ اللهَ تَعالى كانَ ولا عَرشَ.

وهو الآنَ على ما كان عليه يُريدُ أن يُنكِرَ استواءَه على العَرشِ، واستواءُ اللهِ على العَرشِ دَليلُه سَمعيٌّ، يَعني: لولا أنَّ اللهَ أخبَرَنا أنَّه استوَى على العَرشِ ما عَلِمنا بخِلافِ العُلوِّ، فالعُلوُّ دَليلُه عَقلِيٌّ وسَمْعيٌّ وفِطرِيٌّ، أمَّا هذا فدَليلُه سَمعِيٌّ.

قال له الهَمَذانيُّ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: يا شَيخُ دَعْنا مِن ذِكـرِ العَرشِ، وأَخْبِـرنا عن هذه الضَّرورَةِ، فما قال عارفٌ قطُّ: يا أللهُ إلَّا وَجَدَ من قلبه ضَرورَةً بطَلَبِ العُلوِّ، صَحيحٌ هذا أم لا؟

---

(١) انظر: درء تعارض العقل والنقل (٦/ ٢٥٣).

(٢) أخرجه البخاري: كتاب الجنائز، باب إذا أسلم الصبي فمات هل يصلى عليه، رقم (١٣٥٨)، ومسلم: كتاب القدر، باب معنى كل مولود يولد على الفطرة، رقم (٢٦٥٨) من حديث أبي هريرة رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ.

يَعني: أيُّ إنسانٍ يَقولُ: يا أللهُ يَجِدُ قَلبَه يَتَّجهُ إلى السَّماءِ، وكَلمَةُ (عارف) اصطِلاحٌ صوفيٌّ، العارِفُ عِندَهم هو العالِمُ الواسعُ العِلمَ، العابِدُ الكَثيرُ العِبادَةَ.

فصَرَخَ أبو المَعالي وجَعَلَ يَضرِبُ على رَأسِه ويَقولُ: حَيَّرَني الهَمَذانيُّ حَيَّرَني الهَمَذانيُّ[1]، وعَجَز أن يَرُدَّ على هذا.

فنحن نَقولُ والحَمْدُ للهِ: إنَّ العُلوَّ أمرٌ لا غُموضَ فيه ولا إشكالَ فيه، ولا يُنكِرُه إلَّا شَخصٌ مَغموسٌ -والعِياذُ باللهِ- بالبِدعَةِ، ونحن نَرى أنَّه كافرٌ وأنَّه لا تَنفَعُه صَلاةٌ ولا صَدقةٌ ولا صيامٌ ولا حَجٌّ ولو مات ما صلَّينا عليه.

الْفَائِدَةُ الخَامِسَةَ عَشْرَةَ: أنَّ المَلائكَةَ مُستغرِقون الزَّمنَ كُلَّه في العِبادَةِ؛ لقَولِه: ﴿يُسَبِّحُونَ لَهُۥ بِٱلَّيۡلِ وَٱلنَّهَارِ﴾، و(الباءُ) وإن كانت بمَعنَى (في) الَّتي للظَّرفِيَّةِ لكن فيها نَوعٌ مِنَ الدَّلالَةِ على الاستِيعابِ، كما قال اللهُ تَعالى في آيةٍ أُخرى: ﴿يُسَبِّحُونَ ٱلَّيۡلَ وَٱلنَّهَارَ لَا يَفۡتُرُونَ﴾[الأنبياء:٢٠].

الْفَائِدَةُ السَّادِسَةَ عَشْرَةَ: بَيانُ قُوَّةِ المَلائكَةِ؛ لقَولِه: ﴿وَهُمۡ لَا يَسۡـَٔمُونَ﴾ أي: لا يَمَلُّون ولا يَتْعَبون مِمَّا يَدُلُّ على قُوَّتِهم.

والأَدلَّةُ على قُوَّتِهم كَثيرةٌ منها قِصَّةُ سُليمانَ عَلَيۡهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ حين جاءَه الهُدهُدُ بخَبَرِ مَلِكةِ سَبأٍ أنَّ لها عَرشًا عَظيمًا، فقال سُليمانُ: ﴿أَيُّكُمۡ يَأۡتِينِي بِعَرۡشِهَا قَبۡلَ أَن يَأۡتُونِي مُسۡلِمِينَ ﴿٣٨﴾ قَالَ عِفۡرِيتٞ مِّنَ ٱلۡجِنِّ أَنَا۠ ءَاتِيكَ بِهِۦ قَبۡلَ أَن تَقُومَ مِن مَّقَامِكَ﴾ وكان له وَقتٌ مُحدَّدٌ يَقومُ فيه: ﴿وَإِنِّي عَلَيۡهِ لَقَوِيٌّ أَمِينٞ﴾ [النمل:٣٨-٣٩] جِنِّيٌّ يأتي به مِن أقصى اليَمَنِ إلى الشَّامِ وهو واحدٌ ويَقولُ: إنِّي عليه لقَوِيٌّ يُؤكِّدُ قُوَّتَه أمينٌ لن أَخونَ فيه: ﴿قَالَ ٱلَّذِي عِندَهُۥ

---

(١) انظر: مجموع الفتاوى (٣/ ٢٢٠).

عِلْمٌ مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ أَنَا۠ ءَاتِيكَ بِهِۦ قَبْلَ أَن يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ﴾ [النمل:٤٠] اللهُ أكبرُ! في الحالِ وَجدَه أَمامَه: ﴿فَلَمَّا رَءَاهُ مُسْتَقِرًّا عِندَهُۥ قَالَ هَٰذَا مِن فَضْلِ رَبِّى﴾ [النمل:٤٠] و(الفاء) تَدُلُّ على التَّرتيبِ والتَّعقيبِ، ثُمَّ قال: ﴿فَلَمَّا رَءَاهُ مُسْتَقِرًّا عِندَهُۥ﴾، ولم يَقُلْ فلمَّا رآه عِنده، ﴿مُسْتَقِرًّا﴾ كأنَّه وَضع في هذا المَكانِ مِن سنواتٍ مُستقِرًّا، ﴿قَالَ هَٰذَا مِن فَضْلِ رَبِّى﴾، الآنَ حَضَرَ مِن هناك بلَحظَةٍ، يَعني: كأنَّ العَرشَ مثلًا على يَمينِك فنَقلتَه على يَسارِك بل أدنى، وهذا أشدُّ، قال أهلُ العِلم: لأنَّ هذا دَعا اللهُ عَزَّوَجَلَّ فحَمَلَته المَلائكَةُ، والمَلائكَةُ أقوى مِن الجِنِّ، وهذا لا شكَّ فيه أنَّهم أَقوى مِنَ الجِنِّ.

مسألةٌ: يَقولون عنِ السِّحْرِ أنَّه عِلمٌ ويَستدِلُّون بهذه الآيَةِ: ﴿ٱلَّذِى عِندَهُۥ عِلْمٌ مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ﴾ [النمل:٤٠] فكيفَ نَرُدُّ على هَؤلاءِ النَّاسِ؟

فالجَوابُ: نحنُ نَقولُ: السِّحْرُ عِلمٌ، أليس اللهُ تَعالى قال عَنِ المَلَكينِ: ﴿وَمَا يُعَلِّمَانِ مِنْ أَحَدٍ حَتَّىٰ يَقُولَآ إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلَا تَكْفُرْ ۖ فَيَتَعَلَّمُونَ مِنْهُمَا مَا يُفَرِّقُونَ بِهِۦ بَيْنَ ٱلْمَرْءِ وَزَوْجِهِۦ﴾ [البقرة:١٠٢] لا إشكالَ هُنا أنَّه عِلمٌ، أمَّا استِدلالهُم بهذه الآيَةِ فلا، ليس بصَحيحٍ، يَعني: كأنَّهم يُريدون أنَّ هذا الَّذي عِندَه عِلمٌ بالكِتابِ ساحِرٌ، وقد قال تَعالَى: ﴿عِلْمٌ مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ﴾، وما قال عِلمٌ مِنَ السِّحْرِ، ثُمَّ إنَّ السِّحرَ لا يُمكنُ أن يُغيِّرَ الحَقائقَ، السِّحرُ يُخيِّلُ الأشياءَ، إمَّا أن يَجعلَ المَسحورَ يَرى السَّاكنَ مُتحرِّكًا أو المُتحرِّكَ ساكنًا.

• • ❁ • •

الآية (٣٩)

• • ● • •

۞ قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنَّكَ تَرَى ٱلْأَرْضَ خَٰشِعَةً فَإِذَآ أَنزَلْنَا عَلَيْهَا ٱلْمَآءَ ٱهْتَزَّتْ وَرَبَتْ ۚ إِنَّ ٱلَّذِىٓ أَحْيَاهَا لَمُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰٓ ۚ إِنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾ [فصلت:٣٩].

• • ● • •

قال اللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنَّكَ تَرَى ٱلْأَرْضَ خَٰشِعَةً﴾ (مِن) للتَّبعيضِ و(آياتٌ) جَمعُ آيَةٍ وهي العَلامَةُ المُعيِّنَةُ لمَعلومِها، فكُلُّ عَلامَةٍ تُعيِّنُ مَعلومَها وتُحدِّدُه فهي آيَةٌ.

قَولُه: ﴿أَنَّكَ﴾ الخِطابُ هُنا لكُلِّ مَن يَتأتَّى خِطابُه وليس خاصًّا بالنَّبيِّ ﷺ واعلمْ أنَّ الخِطابَ المُوجَّهَ إلى واحدٍ يَنقَسِمُ إلى ثَلاثةِ أقسامٍ:

الأَوَّلُ: ما دَلَّ الدَّليلُ بأنَّه خاصٌّ برَسولِ اللهِ -صلَّى اللهُ عليه وعلى آلِه وسلَّم- فهو خاصٌّ به.

والثَّاني: ما دَلَّ الدَّليلُ على العُمومِ فهو للعُمومِ.

والثَّالثُ: ما لا دَليلَ فيه على هذا ولا على هذا، فيَصِحُّ أن يَكونَ خاصًّا بالرَّسولِ وأن يَكونَ مُوجَّهًا لكُلِّ مَن يتأتَّى خِطابُه.

ففي قَولِه تعالى: ﴿أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ ۝١ وَوَضَعْنَا عَنكَ وِزْرَكَ﴾ [الشَّرح:١-٢]، الخِطابُ خاصٌّ بالرَّسولِ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ إذ إنَّ هذا لا يَتأتَّى لغَيرِه، وفي قَولِه تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغْ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ﴾ [المائدة:٦٧] هذا أيضًا خاصٌّ به، وفي قَولِه تعالى:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِذَا طَلَّقۡتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَطَلِّقُوهُنَّ﴾ [الطلاق:١] هذا عامٌّ دَلَّ الدَّليلُ عليه؛ لأَنَّه قال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ﴾ ثُمَّ قال: ﴿إِذَا طَلَّقۡتُمُ﴾.

وغالِب ما يَأتي أَلَّا يَكونَ فيه دَليلٌ لهذا ولا لهذا، فنَقولُ: إمَّا أَنَّه مُوجَّهٌ للرَّسولِ عَلَيۡهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ وأُمَّتُه تَكونُ مُتأسِّيةً به في ذلك، وإمَّا أن نَقولَ: إنَّه خِطابٌ لكُلِّ مَن يَتأَتَّى خِطابُه.

في هذه الآية: ﴿أَنَّكَ تَرَى ٱلۡأَرۡضَ﴾ الخِطابُ عامٌّ للرَّسولِ ولغَيرِه، إمَّا أَنَّ غيرَه داخلٌ في ذلك في أصلِ المُخاطبَةِ وإمَّا بالتَّبَعِ.

يَقولُ المُفسِّرُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿أَنَّكَ تَرَى ٱلۡأَرۡضَ خَٰشِعَةً﴾: يابِسةً] هامِدَةً ليس فيها نَباتٌ إطلاقًا، ﴿فَإِذَآ أَنزَلۡنَا عَلَيۡهَا ٱلۡمَآءَ﴾ يعني المَطرَ [﴿ٱهۡتَزَّتۡ﴾ تَحرَّكت ﴿وَرَبَتۡ﴾ انتفَخت وعَلَت].

قال اللهُ تَعالى: ﴿فَإِذَآ أَنزَلۡنَا عَلَيۡهَا ٱلۡمَآءَ﴾ أي: ماءَ المَطرِ ﴿ٱهۡتَزَّتۡ﴾ أي: اهتزَّ نَباتُها من فَوقِها، وليس المُرادُ أنَّ الأرضَ نَفسَها تَهتزُّ؛ لأَنَّنا لا نَشعُرُ بذلك، وإن كنَّا نَجوزُ أن يَكونَ اهتِزازُها اهتِزازًا يَسيرًا، لكنَّ الَّذي يَظهرُ أنَّها اهتَزَّت بالنَّباتِ، ﴿وَرَبَتۡ﴾ أي: عَلَت.

وهلِ المُرادُ ما أشارَ إليه المفسِّر انتِفاخُ الأرضِ عِندما تُريدُ الحَبَّةُ أن تَخرُجَ، فإنَّ الحَبَّةَ تَنتفِخُ في باطنِ الأرضِ، ثُمَّ إذا أَراد غُصنُها أن يَخرُجَ رَفَعَ الأرضَ، فهل هذا هو مَعنى رَبَتْ، أو المُرادُ عَلَت بالنَّباتِ؟

الجواب: يَحتمِلُ هذا وهذا، أنَّها عَلَت بالنَّباتِ وأنَّه لـمَّا ذَكَرَ اهتِزازَها أوَّلًا اهتِزازُ النَّباتِ الخَفيفِ ذَكَر عُلوَّ النَّباتِ والأشجارِ الكَبيرةِ الَّتي تَعلو، كُلُّ هذا مُمكِنٌ.

ثُمَّ قال عَزَّوَجَلَّ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِىٓ أَحۡيَاهَا لَمُحۡيِ ٱلۡمَوۡتَىٰٓۚ إِنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٌ﴾.

﴿إِنَّ ٱلَّذِىٓ أَحۡيَاهَا﴾ أي: أحيا الأرضَ الخاشعةَ ﴿لَمُحۡيِ ٱلۡمَوۡتَىٰٓ﴾ الجملةُ مُؤكَّدةٌ بمُؤكِّدينِ إنَّ واللَّامَ، و﴿ٱلۡمَوۡتَىٰٓ﴾ جمعُ مَيِّتٍ، والمُرادُ به كُلُّ مَن مات مِن بَني آدمَ وغيرِهم، فهو قادرٌ على إحيائِهم.

﴿إِنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٌ﴾ أيضًا جُملَةٌ مُؤكَّدةٌ بإنَّ، و﴿عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٌ﴾ كُلُّ شيءٍ، فاللهُ قادرٌ عليه قادرٌ على إيجادِ المَعدومِ، وعلى إعدامِ المَوجودِ وعلى تَغييرِ الثَّابتِ وعلى تَثبيتِ المُتغيِّرِ كُلُّ شيءٍ قادِرٌ عليه.

من فوائدِ الآيَةِ الكريمَةِ:

الْفَائِدَةُ الأُولَى: أنَّ مِن آياتِ اللهِ الدَّالَّةِ على قُدرتِه أنَّ الأرضَ اليابسةَ الهامدةَ إذا نَزَل عليها الماءُ نَبتَتْ واهتزَّت ورَبَت. وهل أحدٌ يَستطيعُ أن يَفعلَ مِثلَ ذلك؟ أبدًا قال اللهُ تَعالى: ﴿أَفَرَءَيۡتُم مَّا تَحۡرُثُونَ ٦٣ ءَأَنتُمۡ تَزۡرَعُونَهُۥٓ أَمۡ نَحۡنُ ٱلزَّٰرِعُونَ﴾ [الواقعة:٦٣-٦٤] لا أَحَدَ يَستطيعُ مهما بَلَغَ مِن القُوَّةِ أن يُنبتَ ورقةً واحدةً، وقد تَحدَّى اللهُ عَزَّوَجَلَّ جَميعَ الخَلقِ فقال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٞ فَٱسۡتَمِعُواْ لَهُۥٓۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدۡعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَن يَخۡلُقُواْ ذُبَابٗا وَلَوِ ٱجۡتَمَعُواْ﴾ [الحج:٧٣] وهذا تَحدٍّ بالأمرِ الكونيِّ القَدريِّ، وتَحدَّى اللهُ الخَلقَ بالأمرِ الشَّرعيِّ فقال: ﴿قُل لَّئِنِ ٱجۡتَمَعَتِ ٱلۡإِنسُ وَٱلۡجِنُّ عَلَىٰٓ أَن يَأۡتُواْ بِمِثۡلِ هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانِ لَا يَأۡتُونَ بِمِثۡلِهِۦ﴾ [الإسراء:٨٨] إذن فالإنسانُ عاجزٌ مهما كان.

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَةُ: الاستِدلالُ بالمَحسوسِ المَنظورِ على المَوعودِ المُنتظَرِ، وَجهُه أنَّ اللهَ استدَلَّ بالشَّيءِ المَنظورِ المَحسوسِ وهو نَباتُ الأرضِ بعدَ أن كانت هامدةً على شَيءٍ مُنتظَرٍ وهو إحياءُ المَوتَى بعد مَوتِهم، وفيه أيضًا الاستِدلالُ بالأدِلَّةِ العَقليَّةِ أنَّ

الإنسانَ يَستَدِلُّ بالمَحسوسِ على المَعقولِ يَعني: أنَّ قُدرةَ اللهِ على هذا تَدُلُّ على قُدرَتِه على الآخَرِ.

الْفَائِدَةُ الثَّالِثَةُ: استِعمالُ القِياسِ وأنَّ القِياسَ ثابتٌ؛ لأنَّ اللهَ تَعالى قاس إِحياءَ المَوتى على إِحياءِ الأرضِ.

الْفَائِدَةُ الرَّابِعَةُ: تَأكيدُ ما يَنبَغي تَأكيدُه سَواءٌ كان ذلك لإِنْكارِ مُنكَرٍ أو شكِّ شاكٍّ أو لأَهَمِّيَّةِ الأمرِ؛ لأنَّ التَّأكيداتِ تَكونُ: إمَّا لأَهَمِّيَّةِ الأمرِ، وإمَّا لرَفعِ الشَّكِّ والتَّرَدُّدِ في الشَّيءِ حتَّى يَكونَ أمرًا يَقينيًّا، وإمَّا لإثباتِ الشَّيءِ المُنكَرِ. فمثلًا إذا كانت الآيَةُ تُخاطِبُ الَّذين يُنكِرونَ البعثَ، فهذا الإِثباتُ لِإثباتِ مُنكَرٍ يَعني لإِثباتِ شَيءٍ أنكَرَه قَومٌ.

وإذا كانت الآيَةُ تُخاطِبُ مَن يَتَرَدَّدون في ذلك فهي لرَفعِ الشَّكِّ والتَّرَدُّدِ، وإذا قَدَّرنا أنَّها تُخاطِبُ مَن لا شكَّ عندَه ولا إِنكارَ، فهي لأَهَمِّيَّةِ الأمرِ أوِ المَوضوعِ؛ لأنَّ الإيمانَ بذلك هو الَّذي يَحدو الإنسانَ إلى أن يَعمَلَ لو لا أنَّ الإنسانَ يُؤمنُ بأنَّه سوف يُبعثُ ويُجازى لكان غَيرَ نَشيطٍ على العَمَلِ، أكثَرُ ما يُنَشِّطُ الإنسانَ على العملِ هو خوفُ يومِ القيامَةِ.

الْفَائِدَةُ الخَامِسَةُ: عُمومُ قُدرةِ اللهِ عَزَّوَجَلَّ لقَولِه: ﴿إِنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ فلا يُعجِزُه شَيءٌ لتَمامِ عِلمِه وتَمامِ قُدرتِه، قال اللهُ تَعالى: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعْجِزَهُۥ مِن شَيْءٍ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِي ٱلْأَرْضِ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ عَلِيمًا قَدِيرًا﴾ [فاطر:٤٤] لأنَّ العاجزَ إمَّا أن يَكونَ لعَدَمِ عِلمِه، وإمَّا أن يَكونَ لعَدَمِ قُدرتِه، فنَفَى اللهُ عَزَّوَجَلَّ العَجزَ وبَيَّن ذلك بسَببِ كمالِ عِلمِه وقُدرَتِه، إذن إنَّ اللهَ على كُلِّ شَيءٍ قَديرٍ.

ذَكَرَ الجَلالُ السُّيوطِيُّ -غَفَرَ اللهُ لنا وله- في سورَةِ المائدَةِ كلامًا مُنْكَرًا قال: [وخصَّ العقلَ ذاتَه فليس عليها بقادِرٍ]. يعني: كأَنَّه يَقولُ على كُلِّ شَيءٍ قَديرٌ إلَّا على ذاتِه فليس عليها قادرًا، وهذا لا شكَّ أَنَّه قَولٌ مُنكَرٌ، كأَنَّه يَقولُ مثلًا هل يَقدِرُ اللهُ عَزَّوَجَلَّ على أن يُفنِيَ نفسَه على كَلامِه؟

فنَقولُ: هذا قَولٌ ساقطٌ؛ لأنَّ القُدرَةَ إنَّما تَتعلَّقُ بالشَّيءِ المُمكِنِ أمَّا الشَّيءُ المُستحيلُ فهو مُستحيلٌ وليس مُستَحيلًا على قُدرتِنا، لا، المُستَحيلُ على قُدرتِنا غَيرُ المُستَحيلِ على قُدرةِ اللهِ، لكنَّ المُستَحيلَ لذاتِه فإنَّه لا يُمكِنُ أن تتعلَّقَ به قُدرةٌ ولا غَيرُ قدرةٍ إلَّا العِلمَ؛ ولهذا قال السَّفارينيُّ في العَقيدَةِ[1]:

....واقتَدَرْ

بقُدرةٍ تعلَّقت بمُمكِنٍ ....

فيُقالُ للجَلالِ عَفا اللهُ عنَّا وعنه: إن أَردتَ أنَّ اللهَ ليس بقادِرٍ على أن يُفنِيَ نفسَه فهذا أمرٌ غيرُ واردٍ إطلاقًا؛ لأنَّ القُدرَةَ لا تُعلَّقُ بهذا، وإن أَردتَ أَنَّه غَيرُ قادرٍ على أن يَنزِلَ إلى السَّماءِ الدُّنيا، وأن يَأتيَ للفَصلِ بَينَ عِبادِه، وأن يَستوِيَ على عَرشِه ونحو ذلك مِنَ الأفعالِ الاختِيارِيَّةِ، فهذا كَذِبٌ بل هو قادرٌ على ذلك، لكنَّ السُّيوطيُّ عفا اللهُ عنَّا وعنه ممَّن يَرونَ أنَّ الأفعالَ الاختِيارِيَّةَ لا تَقومُ باللهِ، يَعني: يَقولُ: اللهُ ما يُمكنُ يَنزِلُ ولا يَستَوِي ولا يَأتي يَومَ القيامَةِ؛ لأنَّ هذه على زَعمِه حَوادثُ والحَوادثُ لا تَتعلَّقُ إلَّا بحادِثٍ.

على كُلِّ حالٍ: هذه فَلسفَةٌ جاءَ بها أهلُ الكَلام، وما أكثَرَ ما جاؤوا به مِنَ الكَلامِ، وكَلامُهم كَلامٌ في كَلامٍ، لا فائدَةَ فيه، تَطويلٌ بلا فائدَةٍ، إضاعَةُ الوَقتِ

---

(١) العقيدة السفارينية (ص:٥٢).

بلا فائدَةٍ مُؤدٍّ إلى الشَّكِّ والتَّردُّدِ بلا فائدَةٍ، ولهذا قال بعضُهم: أكثرُ النَّاسِ شكًّا عندَ الموتِ أهلُ الكَلامِ نَعوذُ باللهِ، لماذا؟ لأنَّهم لم يَبنوا عَقيدَتَهم على الكِتابِ والسُّنَّةِ بَنَوْها على وَهْمِيَّاتٍ ظَنُّوها عقليَّاتٍ، فضلُّوا وأَضَلُّوا، نحنُ نَقولُ كما قال رَبُّنا عَزَّوَجَلَّ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [البقرة:١٤٨] فقط ويَكفي.

أمَّا العِلمُ فهو أَوسَعُ مِنَ القُدرةِ؛ لأنَّ العِلمَ يَتعلَّقُ بالواجبِ والمُستحيلِ والمُمكِنِ، يَعني: عِلمُ اللهِ مُتعلِّقٌ بكُلِّ شيءٍ يَتعلَّقُ حتَّى بالمُستحيلِ، قال اللهُ تَعالى: ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ لَفَسَدَتَا﴾ [الأنبياء:٢٢] وهذا مُستَحيلٌ، ومع ذلك تَعلَّقَ به العِلمُ: ﴿وَلَوِ ٱتَّبَعَ ٱلْحَقُّ أَهْوَآءَهُمْ لَفَسَدَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ﴾ [المؤمنون:٧١] وهذا أيضًا مِنَ المُستَحيلِ على حِكمةِ اللهِ عَزَّوَجَلَّ.

الْفَائِدَةُ السَّادِسَةُ: الاستِدلالُ بالعُمومِ على الخُصوصِ، فاللهُ تَعالى استَدَلَّ على قُدرَتِه على إِحياءِ المَوتى بدَليلَينِ أحدُهما خاصٌّ والثَّاني عامٌّ، الخاصُّ يُحيي الأرضَ بعدَ مَوتِها، والعامُّ: ﴿إِنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾.

ويَنبَني على هذه الفائدَةِ: أنَّ العامَّ يَتناوَلُ جَميعَ أفرادِه، وقد ذَكَرَ ذلك النَّبيُّ ﷺ في قَولِه حينَ عَلَّمَ أُمَّتَه التَّشهُّدَ قال: «**إذا فَعلتُم ذلك فقد سَلِمْتُم على كُلِّ عَبدٍ صالحٍ في السَّماءِ والأرضِ**»(١) فمثلًا، إذا قال الرَّجلُ: دُورِي وَقفٌ، يَشمَلُ جَميعَ الدُّورِ، ولو قال: سَيَّاراتي لفُلانٍ، يَشمَلُ جَميعَ السَّيَّاراتِ، ولو قال: نِسائي طَوالِقُ، يَشمَلُ كُلَّ امرأةٍ له، ولو قال: عَبيدي أحرارٌ، شَمِلَ كُلَّ عبدٍ، المُهِمُّ أنَّ العامَّ يَتناولُ جَميعَ أفرادِه.

• ● ۞ ● •

(١) أخرجه البخاري: كتاب الأذان، باب التشهد في الآخرة، رقم (٨٣١)، ومسلم: كتاب الصلاة، باب التشهد في الصلاة، رقم (٤٠٢)، من حديث عبد الله بن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

الآية (٤٠)

❁ قالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُلۡحِدُونَ فِيٓ ءَايَٰتِنَا لَا يَخۡفَوۡنَ عَلَيۡنَآۗ أَفَمَن يُلۡقَىٰ فِي ٱلنَّارِ خَيۡرٌ أَم مَّن يَأۡتِيٓ ءَامِنٗا يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِۚ ٱعۡمَلُواْ مَا شِئۡتُمۡ إِنَّهُۥ بِمَا تَعۡمَلُونَ بَصِيرٌ ﴾ [فصلت:٤٠].

ثُمَّ قال جَلَّ وَعَلَا: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُلۡحِدُونَ فِيٓ ءَايَٰتِنَا لَا يَخۡفَوۡنَ عَلَيۡنَآ ﴾ يَقُولُ المُفسِّرُ رَحِمَهُ اللَّهُ: [مِن أَلحَدَ ولحَدَ] مِن أَلحَدَ تكونُ يُلحِدون، ولحَدَ يَلحَدون، وأصلُ اللَّحدِ أو الإلحادِ هو المَيلُ ومنه سُمِّيَ اللَّحدُ لحدًا؛ لمَيلِه إلى جانبِ القبرِ. إذن فهذه المادَّةُ (لامٌ حاءٌ دالٌ) مأخوذَةٌ مِنَ المَيلِ، فمَعنى: ﴿يُلۡحِدُونَ فِيٓ ءَايَٰتِنَا﴾ أي: يَميلون فيها، وآياتُنا جَمعُ آيةٍ، وآياتُ اللهِ تَعالى تَنقَسِمُ إلى قِسمَينِ: آياتٍ شرعيَّةٍ وهي الوَحيُ المُنزَّلُ على الأنبياءِ والرُّسلِ، وآياتٍ قَدرِيَّةٍ وهي المَخلوقاتُ، كُلُّ المَخلوقاتِ آياتٌ قَدريَّةٌ تَدُلُّ على خالِقِها وبارِئِها، وفي ذلك يَقولُ الشَّاعرُ الصَّادِقُ في قَولِه[1]:

فوا عَجبًا كيف يُعصى الإلَهُ ... أم كيف يَجحَدُه الجاحِدُ

وفي كُلِّ شيءٍ لَه آيَةٌ ... تَدُلُّ على أنَّه واحِدُ

كُلُّ المَخلوقاتِ آيةٌ من آياتِ اللهِ، والإلحادُ في الآياتِ الكَونيَّةِ يَكونُ بواحِدٍ مِن أُمورٍ ثلاثَةٍ؛ إمَّا بإضافتِها إلى غَيرِ اللهِ، وإمَّا باعتِقادِ مُشارِكٍ للهِ فيها، وإمَّا باعتِقادِ مُعينٍ للهِ فيها.

(١) من شعر أبي العتاهية، انظر: ديوانه (ص:١٢٢)، ومعاهد التنصيص (٢/ ٢٨٦).

أَمَّا الأَوَّلُ: فنِسبتُها إلى غَيرِ اللهِ فيَقولُ مثلًا الَّذي خلَقَ السَّماءَ القُوَّةُ الطَّبيعيَّةُ هذا إلحادٌ بالآياتِ الكَونيَّةِ.

والثَّاني: اعتِقادُ مُشارِكٍ للهِ فيها مِثل أن يَقولَ الَّذي يُدبِّرُ الكَونَ هو اللهُ والإمامُ الفُلانيُّ كما تَقولُه بعضُ الرَّافضةُ.

والثَّالثُ: اعتِقادُ مُعينٍ للهِ فيها يَعني: كأنَّ اللهَ عَجزَ عن إقامَةِ السَّمواتِ والأرضِ فأَعانَه آخرُ، يَعني: أن يَكونَ عَزَّوَجَلَّ مُنفرِدًا بالخَلقِ لكنَّ هناك مَن يُساعِدُه، ولكنَّ هذا المُساعِدَ ليس له شَرِكةٌ في الخَلقِ، وبهذا نَعرفُ الفرقَ بَينَ المُعينِ والمُشارِكِ.

هذا هو الإلحادُ في آياتِ اللهِ الكَونيَّةِ، وإلى هذا يُشيرُ قَولُه تَعالى: ﴿قُلِ ٱدْعُوا۟ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا لَهُمْ فِيهِمَا مِن شِرْكٍ وَمَا لَهُۥ مِنْهُم مِّن ظَهِيرٍ﴾ [سبأ:٢٢] كُلُّ الثَّلاثَةِ نَفاهُنَّ، ﴿لَا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾ على سَبيلِ الاستِقلالِ ﴿وَمَا لَهُمْ فِيهِمَا مِن شِرْكٍ﴾ على سَبيلِ المُشارَكَةِ، ﴿وَمَا لَهُۥ﴾ أي: ما للهِ منهم من ظَهيرٍ أي مُعينٍ.

والآياتُ الشَّرعِيَّةُ قُلنا: إنَّها ما نَزلَ مِنَ الوَحيِ على رُسلِ اللهِ، الإلحادُ فيها يَكونُ أيضًا في ثَلاثةِ أُمورٍ: تَكذيبُها أو تَحريفُها أو مُخالفَتُها، هذا الإلحادُ في الآياتِ الشَّرعيَّةِ، فمَن كَذَّب وقال: إنَّ مُحمدًا مثلًا لم يَنزِلْ عليه الوَحيُ وإنَّما يُعلِّمُه بَشَرٌ فهو مُلحِدٌ، ومَن حَرَّفَها وغَيَّرَ مَعناها أو غَيَّرَ لَفظَها فهو مُلحِدٌ؛ لأنَّ التَّحريفَ يَكونُ لفظًا ويَكونُ مَعنًى، والثَّالثُ مَن خالفَها فهو مُلحِدٌ، فمَن عصا اللهِ فهو مُلحِدٌ لكنَّه ليس الإلحادُ الَّذي نَفهَمُه وهو الخُروجُ مِنَ الدِّينِ، بل هو مُلحِدٌ إلحادًا بقَدْرِ ما فَعَلَ مِنَ المَعصيَةِ والمُخالَفَةِ، دَليلُ ذلك قَولُه تَعالى: ﴿وَمَن يُرِدْ فِيهِ بِإِلْحَادٍۭ بِظُلْمٍ نُّذِقْهُ مِنْ

عَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ [الحج:٢٥] هذا سَمعيٌّ، والدَّليلُ العَقليُّ: أنَّنا قُلنا الإلحادُ في اللُّغةِ هو المَيلُ، والعاصي المُخالفُ للأوامِرِ مائلٌ بلا شَكٍّ.

هَؤلاءِ الَّذين يُلحِدون في هذا أو في هذا، يَقولُ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿لَا يَخْفَوْنَ عَلَيْنَآ﴾ هذه صِفَةُ نَفيٍ ﴿لَا يَخْفَوْنَ﴾ نَفَى اللهُ عَزَّوَجَلَّ أن يَخفى عليه هَؤلاءِ؛ لِكَمالِ عِلمِه.

واعلَمْ أنَّه لا يُمكنُ أن يوجَدُ في صِفاتِ اللهِ نَفيٌ مَحضٌ، بل كُلُّ ما نَفى اللهُ عن نَفسِه فهو مُتَضَمِّنٌ للكَمالِ والإثباتِ، وهذه ضَعْها قاعدَةً عِندَكَ لا تُفرِّطْ بها: لا يوجَدُ في صِفاتِ اللهِ نَفيٌ مَحضٌ، بل كُلُّ ما نَفى اللهُ عن نَفسِه فإنَّه مُتَضَمِّنٌ لكَمالٍ، فمثلًا ﴿لَا يَخْفَوْنَ عَلَيْنَآ﴾ لماذا؟ لكَمالِ عِلمِه؛ لأنَّ اللهَ تَعالى كامِلُ العِلمِ مُحيطٌ بكُلِّ شيءٍ: ﴿أَمْ يَحْسَبُونَ أَنَّا لَا نَسْمَعُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَاهُم ۚ بَلَىٰ وَرُسُلُنَا لَدَيْهِمْ يَكْتُبُونَ﴾ [الزخرف:٨٠].

إذن ﴿لَا يَخْفَوْنَ عَلَيْنَآ﴾ أي: لا تَخفى عَلينا حالُهم ولا أعيانُهم لكَمالِ عِلمِه، والمُرادُ بهذه الجُملَةِ التَّهديدُ، كما تَقولُ لابنِك: يا بُنيَّ اذهبْ لما شِئتَ فإنَّه لا يَخفى عَلَيَّ فِعلُك. فالمُرادُ بها التَّهديدُ وهي في غايَةِ التَّهديدِ؛ لأنَّه إذا قال اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي آيَاتِنَا لَا يَخْفَوْنَ عَلَيْنَآ﴾ فسوف تَرتَعِدُ الفَرائصُ من هذا الوعيدِ.

يَقولُ المُفسِّرُ رَحِمَهُ اللَّهُ: [﴿فِي آيَاتِنَا﴾ القُرآنِ بالتَّكذيبِ ﴿لَا يَخْفَوْنَ عَلَيْنَآ﴾ فنُجازيهم].

في تَفسيرِ المفسِّرِ قُصورٌ:

أَوَّلًا: أنَّه جَعلَ الآياتِ هُنا الآياتِ الشَّرعيَّةَ وهذا غَلطٌ، فالآياتُ أعمُّ.

ثانيًا: أنَّه لم يَجعلِ الإلحادَ في الآياتِ الشَّرعيَّةِ إلَّا بنَوعٍ واحدٍ منَ الإلحادِ وهو التَّكذيبُ، وقد قُلنا: إنَّ الإلحادَ فيها يَكونُ بواحدٍ من ثَلاثةِ أُمورٍ؛ إمَّا التَّكذيبُ

أو التَّحريفُ أو المُخالفةُ.

ولم نَتكلَّمْ على الإلحادِ في الأسماءِ؛ لأنَّه ليس في الآيةِ، لكن إتمامًا للفائدةِ نَقولُ: الإلحادُ يَكونُ في أسماءِ اللهِ، وهو المَيلُ بها عمَّا يَجبُ؛ وذلك أوَّلًا أن يُسمِّيَ اللهَ تَعالى بما لم يُسَمِّ به نَفسَه كتَسمِيَةِ الفَلاسِفَةِ له: عِلَّةٌ فاعلَةٌ. يَقولون: إنَّ اللهَ هو العِلَّةُ الفاعِلَةُ لهذا الكَونِ، وتَسميَةُ النَّصارى إيَّاه أبًا يُسمُّونَه الأبَ والابنَ والرُّوحَ القُدُسَ.

الثَّاني: أن يُنكِرَ شَيئًا منَ الأسماءِ، أو مِمَّا دَلَّت عليه وهذا عَكسُ الأوَّلِ، الأوَّلُ سَمَّى اللهُ بما لم يُسَمِّ به نَفسَه، والثَّاني أنكَرَ ما سَمَّى اللهُ به نَفسَه إمَّا إنكارًا كُلِّيًّا وإمَّا إنكارًا جُزئيًّا، أو يُنكِرُ ما تَضمَّنَته الأسماءُ مِنَ المَعاني والصِّفاتِ، فيُنكِرُ الأسماءَ أو بَعضَها أو ما دَلَّت عليه مِنَ المَعاني والصِّفاتِ، فمثلًا الَّذين يَقولون: إنَّ اللهَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى ليس لَه أسماءٌ ولا صِفاتٌ كغُلاةِ المُعتزلَةِ والجَهميَّةِ، هؤلاءِ مُلحِدونَ، والَّذين يَقولونَ له أسماءٌ لكن ليس لها مَعانٍ هَؤلاءِ أيضًا مُلحِدون كما هو المَشهورُ مِن مَذهَبِ المُعتزلَةِ، والَّذين يُنكِرون بَعضَ الصِّفاتِ كالأشاعِرَةِ هم أيضًا مُلحِدونَ فيَقولون مَثلًا: إنَّ اللهَ لا يَثبُتُ له مِنَ الصِّفاتِ إلَّا سَبعُ صِفاتٍ، زَعَموا أنَّ العَقلَ دَلَّ عليها وأنَّ الباقيَ لا يَدُلُّ عليه العَقلُ، وقد تَكلَّمنا على هذا كثيرًا ولا حاجَةَ لإعادتِه.

الثَّالثُ: أن يُشتَقَّ من أسمائِه أسماءٌ للأصنامِ، ومنه اشتِقاقُ اللَّاتِ مِنَ الإلَهِ والعُزَّى مِنَ العَزيزِ ومَناةَ من المَنَّانِ، هذا أيضًا مِنَ الإلحادِ في أسماءِ اللهِ.

كُلُّ الإلحادِ هذا وغَيرُه في أسماءِ اللهِ قد تَوعَّدَ اللهُ مَن سَلَكَه في قَولِه: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ فَٱدْعُوهُ بِهَا ۖ وَذَرُوا۟ ٱلَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِىٓ أَسْمَـٰٓئِهِۦ ۚ سَيُجْزَوْنَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾.

قال اللهُ تعالى: ﴿أَفَمَن يُلْقَىٰ فِى ٱلنَّارِ خَيْرٌ أَم مَّن يَأْتِىٓ ءَامِنًا يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ﴾ استِفهامٌ مِنَ اللهِ عَزَّوَجَلَّ والجَوابُ لا شكَّ أنَّه الثَّاني.

وفي قَولِه: ﴿أَفَمَن يُلْقَىٰ﴾ هذا نَتيجَةُ قَولِه: ﴿لَا يَخْفَوْنَ عَلَيْنَا﴾ إذن فالمَعنى لا يَخفَونَ علينا وسنُلقيهم في النَّارِ، يَعني: هذه هي النَّتيجَةُ، وأخبِروني: ﴿أَفَمَن يُلْقَىٰ فِي النَّارِ خَيْرٌ أَم مَّن يَأْتِي آمِنًا يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ والجَوابُ أنَّ النَّاسَ بصَوتٍ واحدٍ سيقولونَ مَن يَأتي آمِنًا يومَ القيامَةِ هو الخَيرُ.

وقَولُه: ﴿أَفَمَن يُلْقَىٰ فِي النَّارِ خَيْرٌ﴾ ﴿يُلْقَىٰ﴾ يُفيدُ هذا أنَّ أهلَ النَّارِ والعِياذُ باللهِ إذا وَردوها لا يَدخُلوها طائِعينَ ولا مُختارينَ، ولكنَّهم يُلقَون إلقاءً كما يُلقى الحَجَرُ مِن على الجَبَلِ، قال اللهُ تعالى: ﴿كُلَّمَا أُلْقِيَ فِيهَا فَوْجٌ سَأَلَهُمْ خَزَنَتُهَا﴾ [المُلك:٨]، وقال تَعالى: ﴿يَوْمَ يُدَعُّونَ إِلَىٰ نَارِ جَهَنَّمَ دَعًّا﴾ [الطور:١٣]؛ لأنَّهم لا يُريدون أن يَذهَبوا، ولكن قد ثَبتَ أنَّ النَّارَ تُمثَّلُ لهم كالسَّرابِ فيَأتونَ إليها سِراعًا، نَقولُ: لا مُنافاةَ هي تُمثَّلُ لهم كالسَّرابِ وهم يُريدون الشُّربَ فيَأتونَ إليها سِراعًا، فإذا وَصَلوا إليها وعَرَفوا أنَّها النَّارُ فهُم حينَئذٍ يَقِفونَ ثُمَّ يُدَعُّون إلى نارِ جهنَّمَ دعًّا -أعاذَنا اللهُ وإيَّاكم منها-، ثُمَّ يُلقَون فيها إلقاءً.

وقَولُه: ﴿خَيْرٌ أَم مَّن يَأْتِي آمِنًا يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ وهم المُؤمِنونَ الَّذين لا يُلحِدون في آياتِ اللهِ هَؤلاءِ يَأتونَ يومَ القيامَةِ آمِنيـن، قال اللهُ تَعالى: ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُم بِظُلْمٍ أُولَٰئِكَ لَهُمُ الْأَمْنُ﴾ [الأنعام:٨٢] في الدُّنيا والآخِرَةِ.

﴿أَم مَّن يَأْتِي آمِنًا﴾ إعرابُ ﴿آمِنًا﴾ حالٌ، والفاعِلُ مُستتِرٌ، التَّقديرُ: أَمَّن يَأتي هو آمِنًا يومَ القِيامَةِ.

﴿يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ يَعني: به يَومَ البَعثِ والنُّشورِ وسُمِّيَ يَومَ القِيامَةِ لوُجوهٍ ثَلاثَةٍ:

الأَوَّلُ: أنَّ النَّاسَ يَقومون فيه مِن قُبورِهم لرَبِّ العالَمينَ، كما قالَ تعالى: ﴿يَوْمَ يَقُومُ النَّاسُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [المطفِّفين:٦].

الثَّاني: أنَّه يُقامُ فيه العَدلُ كما قالَ تَعالى: ﴿وَنَضَعُ ٱلْمَوَٰزِينَ ٱلْقِسْطَ لِيَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ [الأنبياء:٤٧].

والثَّالثُ: أنَّه يُقامُ فيه الأشهادُ، ﴿إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ ٱلْأَشْهَٰدُ﴾ [غافر:٥١]، فلهذا سُمِّيَ يومَ القيامَةِ.

قال اللهُ تَعالى: ﴿أَم مَّن يَأْتِىٓ ءَامِنًا يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ٱعْمَلُوا۟ مَا شِئْتُمْ﴾ يَعني بَعدَ هذا الإنذارِ والتَّهديدِ والوَعيدِ: ﴿ٱعْمَلُوا۟ مَا شِئْتُمْ﴾ وهذه الجُملَةُ أيضًا تُفيدُ التَّهديدَ بِلا شَكٍّ، يَعني: اعمَلوا ما شِئتم مِنَ الخَيرِ أو مِنَ الشَّرِّ، ﴿إِنَّهُۥ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾.

إذن ﴿ٱعْمَلُوا۟ مَا شِئْتُمْ﴾ ليست إِباحةً أنَّ الإنسانَ يَعملُ ما شاءَ كما يَدَّعي هَؤلاءِ أنَّ الحُرِّيَّةَ أن تَعمَلَ ما شِئتَ، عندَ هؤلاءِ الكُفَّارِ أنَّ الإنسانَ حُرٌّ في دينِه، يَدينُ بما شاءَ، حُرٌّ في أخلاقِه، يَتَخَلَّقُ بما شاءَ، حُرٌّ بأعمالِه يَعمَلُ ما شاءَ، هكذا عِندَهم، ونحن نَقولُ: لا، الحُرِّيَّةُ المُطلَقَةُ هي الرِّقُّ المُطلَقُ؛ لأنَّك إذا تَحَرَّرت من قُيودِ الشَّرعِ تَقَيَّدت بقُيودِ الشَّرِّ، ولهذا يَقولُ ابنُ القَيِّمِ في النُّونيَّةِ[1]:

هَرَبوا مِنَ الرِّقِّ الَّذي خُلِقوا لـه   وبُلـوا بِـرِقِّ الـنَّفسِ والشَّـيطانِ

الرِّقُّ الَّذي خُلِقنا له هو عِبادَةُ اللهِ عَزَّوَجَلَّ؛ وقوله: «وبُلوا» يَعني: ابتُلوا.

فصاروا عَبيدًا لأنفُسِـهم والشَّياطيـنَ. فَرُّوا من رِقِّهم للهِ إلى رِقِّهم للهَـوى والشَّيطانِ.

فنَقولُ: إنَّ قَولَه: ﴿ٱعْمَلُوا۟ مَا شِئْتُمْ﴾ ليس إطلاقًا بمَعنى ليس إباحَةً، ولكنَّه تَهديدٌ، وهو أُسلوبٌ عربيٌّ مُبينٌ منذُ نَزَلَ القُرآنُ وإلى يَومِنا هذا، ولهذا أَكَّدَه بقَولِه:

---

(١) النونية (ص:٣٠٨).

﴿إِنَّهُۥ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾، يقولُ المُفسِّرُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [تهديدٌ لهم].

قَولُه: ﴿إِنَّهُۥ﴾ الضَّميرُ يعودُ على اللهِ عَزَّ وَجَلَّ.

وقَولُه: ﴿بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ أي: عَليمٌ، وقُدِّمَ على عامِلِه لسَببينِ: أحدُهما لَفظِيٌّ، والثَّاني مَعنَويٌّ.

أمَّا اللَّفظيُّ: فهو لتَناسُبِ رُؤوسِ الآياتِ، والقُرآنُ الكريمُ نَزلَ بلِسانٍ عَربيٍّ، يُراعي التَّناسُبَ اللَّفظيَّ والمَعنويَّ.

والفائدَةُ الثَّانيةُ: أنَّه أَشَدُّ تهديدًا مِمَّا إذا جاءَ مُتأخِّرًا عن عامِلِه كأنَّه يَقولُ: لو لم يَكُنْ عالِمًا بأيِّ شَيءٍ لكانَ عالمًا بأعمالِكم. فهُنا الحَصرُ لِبيانِ التَّهديدِ لهَؤلاءِ كأنَّه يَقولُ: لو خَفِيَ عليه كُلُّ شيءٍ لم يَخفَ عليه أَعمالُكم.

من فوائدِ الآيةِ الكريمةِ:

الْفَائِدَةُ الأُولَى: تَحريمُ الإلحادِ في آياتِ اللهِ، وَجهُ ذلك أنَّ اللهَ تَعالى هَدَّد المُلحِدينَ في آياتِ اللهِ.

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَةُ: إِثباتُ الآياتِ والتَّقسيمُ من عِندنا مَبنِيٌّ على التَّتبُّعِ والاستِقراءِ، يَعني: إِثباتُ أنَّ اللهَ تَعالى له آياتٌ كونِيَّةٌ وشَرعيَّةٌ، والآياتُ ليس فيها ذلك لكن بالتَّتبُّعِ والاستِقراءِ عَلِمنا أنَّ آياتِ اللهِ تَنقَسِمُ إلى قِسمينِ شَرعِيَّةٍ وكَونيَّةٍ.

الْفَائِدَةُ الثَّالِثَةُ: تَهديدُ المُلحِدينَ بأنَّ اللهَ مُطَّلعٌ عليهم لا يَخفى عليهِ شَيءٌ مِن أحوالِهم.

الْفَائِدَةُ الرَّابِعَةُ: سِعةُ عِلمِ اللهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى وأنَّه لا يَخفى عليهِ شَيءٌ.

الْفَائِدَةُ الخَامِسَةُ: أنَّ الإلحادَ سببٌ لدُخولِ النَّارِ؛ لقَولِه: ﴿أَفَمَن يُلْقَىٰ فِي ٱلنَّارِ﴾ يَعني: مِثلَ المُلحِدينَ.

الْفَائِدَةُ السَّادِسَةُ: أنَّ أهلَ النَّارِ والعِياذُ باللهِ يُلْقَونَ فيها إلقاءً ويُدَعُّون إليها دَعًّا إهانَةً لهم وذُلًّا وإذلالًا؛ لقَولِه: ﴿أَفَمَن يُلْقَىٰ فِي ٱلنَّارِ﴾.

الْفَائِدَةُ السَّابِعَةُ: جَوازُ المُفاضَلَةِ بينَ شَيئينِ بَينَهما مِنَ التَّبايُنِ أكثرُ ممَّا بَينَ السَّماءِ والأرضِ إفحامًا للخَصْمِ.

والدَّليلُ: ﴿أَفَمَن يُلْقَىٰ فِي ٱلنَّارِ خَيْرٌ أَم مَّن يَأْتِيٓ ءَامِنًا يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ كُلٌّ يَعلَمُ أنَّ الثَّاني خَيرٌ وأنَّه لا حاجَةَ للاستِفهامِ لكن من أَجْلِ إفحامِ الخَصمِ وإقامَةِ الحُجَّةِ عليه، ونَظيرُ ذلك قَولُه تَعالى: ﴿ءَآللَّهُ خَيْرٌ أَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [النمل:٥٩] كُلٌّ يَعرِفُ أنَّ اللهَ خَيرٌ لكنَّ هذا من بابِ إفحامِ الخَصمِ، ومنه قولُه تَعالى: ﴿قُلْ ءَأَنتُمْ أَعْلَمُ أَمِ ٱللَّهُ﴾ [البقرة:١٤٠] كُلٌّ يَعلَمُ أنَّ الأعْلَمَ هو اللهُ لكنَّ هذا أيضًا من بابِ إفحامِ الخَصمِ، وهذه فائدَةٌ يُنتبَهُ لها: أنَّ المُفاضَلَةَ بَينَ شَيئينِ التَّفاوُتُ بينَهما ظاهِرٌ لا يُرادُ به المُقارَنَةُ، ولكنْ يُرادُ به إفحامُ الخَصمِ.

الْفَائِدَةُ الثَّامِنَةُ: أنَّ مَنِ استَقامَ في آياتِ اللهِ ولم يُلحِدْ فيها فإنَّه يَأتي يومَ القِيامَةِ آمنًا؛ لقَولِه: ﴿أَم مَّن يَأْتِيٓ ءَامِنًا يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ في مُقابلِ المُلحِدينَ الَّذين يُلْقَون في النَّارِ.

الْفَائِدَةُ التَّاسِعَةُ: عَظمَةُ اللهِ عَزَّوَجَلَّ وقُوَّةُ سُلطانِه؛ لقَولِه: ﴿ٱعْمَلُوا۟ مَا شِئْتُمْ﴾ فإنَّ مِثلَ هذا التَّهديدِ لا يَكونُ إلَّا من كاملِ السُّلطانِ.

الْفَائِدَةُ الْعَاشِرَةُ: إثباتُ يَومِ القيامَةِ؛ لقَولِه: ﴿يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾.

الْفَائِدَةُ الحَادِيَةَ عَشْرَةَ: ومنها أيضًا أنَّ النَّاسَ في يَومِ القِيامَةِ بينَ آمِنٍ وخائِفٍ؛ لقَولِه: ﴿أَم مَّن يَأْتِيٓ ءَامِنًا يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾.

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَةَ عَشْرَةَ: إِثباتُ المَشيئَةِ للعَبْدِ؛ لقَولِه: ﴿ٱعۡمَلُواْ مَا شِئۡتُمۡ﴾ فيكونُ في ذلك رَدٌّ على الجَبرِيَّةِ.

فالجَبرِيَّةُ يَقولونَ: الإنسانُ مُجبَرٌ على العملِ، وليس له أيُّ إرادةٍ فيما يَفعَلُ، عَجبًا لهم يُصلِّي بِلا إرادَةٍ، ويَتوضَّأُ بِلا إرادَةٍ، ويَمشي بِلا إرادَةٍ، ويَقعُدُ بِلا إرادَةٍ، ويُؤمِنُ بِلا إرادَةٍ، ويَكفُرُ بلا إرادَةٍ، سُبحانَ اللهِ- مُجبَرٌ قال: نَعَمْ، مُجبَرٌ، فالحَركةُ هذه طَبيعيَّةٌ فيه كالإحراقِ في النَّارِ، هل النَّارُ تَحرِقُ باختِيارِها؟ لا، لكن أُودعَ فيها الإحراق، هم يَقولونَ: هذه الأفعالُ والحَركاتُ مِنَ الإنسانِ لا إرادِيَّةَ، لكنَّه جُبِلَ عليها.

ويَقولونَ: إنَّ حركَتَه الإرادِيَّةَ كحَركتِه الاضطراريَّةِ فنُزولُ الإنسانِ في الدَّرجِ مِنَ العُليا إلى السُّفلى وصُعودُه مِنَ السُّفلى إلى العُليا، كمَن دَحرَجَ دَحرجَةً على الدَّرَجِ، والمُدحرِجُ ليس له اختِيارٌ، هم يَقولون هكذا، الَّذي يَنزِل باختِيارِه لا فَرقَ.

فقيل لهُم: إذا كان كذلك، فإنَّ مِن أظلَمِ الظُّلمِ أن يُعذِّبَ اللهُ الظَّالمَ؛ لأنَّ الظَّالمَ يَقولُ: أنا مُجبَرٌ ولا لي قُدرَةٌ ولا لي اختيارٌ قالوا: لا يُمكنُ، الظُّلمُ في حقِّ اللهِ مُستحيلٌ لذاتِه، لا لأنَّ اللهَ لا يُريدُه لكنَّه مُستحيلٌ لذاتِه لماذا؟ قالوا: لأنَّه تَصرُّفُ الخالِقِ في مُلكِه والمُتصرِّفُ في مُلكِه ليس بظالمٍ، ولهذا قال ابنُ القَيِّمِ رَحِمَهُ ٱللَّهُ عنهم[1]:

والظُّلمُ عندهم المُحالُ لذاتِـه ....

ونحنُ نَقولُ: أخطَأتُم؛ لأنَّ اللهَ تَعالى شَرَعَ شَرائِعَ وأوعَدَ مَن خالفَها ووَعَدَ مَن وافقَها وأعطى الإنسانَ حُرِّيَّةً، والظُّلمُ مُمكِنٌ في حَقِّ اللهِ لكنَّه مُستحيلٌ عليه إرادَةً، بمعنى أنَّه لا يُريدُ الظُّلمَ ولو شاءَ لظَلَمَ لكنَّه لا يُريدُه وليس وَصْفَه إطلاقًا،

(١) النونية (ص:٨).

قال اللهُ تعالى: ﴿وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ﴾ [فُصِّلَت:٤٦] وقال: ﴿مَا يُبَدَّلُ ٱلْقَوْلُ لَدَىَّ وَمَآ أَنَا۠ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ﴾ [ق:٢٩]، وقال تعالى في نَفيِ إرادةِ الظُّلم ﴿وَمَا ٱللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِّلْعِبَادِ﴾ [غافر:٣١] وكيف يَتَمَدَّحُ اللهُ عَزَّوَجَلَّ بأمرٍ مُستحيلٍ هذا غيرُ مُمكِنٍ، لولا أنَّ الظُّلمَ مُمكِنٌ ما كان وَصْفُ اللهِ به كمالًا فهو مُمكِنٌ، مُمكِنٌ أن يُعذِّبَ الإنسانَ الَّذي أمضى لَيلَه ونَهارَه في طاعَةِ اللهِ مُمكِنٌ عقلًا، لكنَّ اللهَ تَعالى لا يُريدُ هذا، لذلك بَطَلَ قَولُهم بأنَّ الظُّلمَ مُحالٌ في حقِّ الخالقِ؛ لأَنَّه يَتصرَّفُ في مُلكِه.

وعلى كُلِّ حالٍ: في الآيَةِ هذه ﴿ٱعْمَلُوا۟ مَا شِئْتُمْ﴾ دَليلٌ على إثباتِ المَشيئَةِ للعَبدِ وهو يَرُدُّ ردًّا واضحًا على الجَبريَّةِ، العَجبُ أنَّه قامَ أُناسٌ ضِدَّ الجَبريَّةِ فدَاوَوا البِدعَةَ ببِدعَةٍ، قالوا: الإنسانُ له مَشيئةٌ وإرادةٌ واختِيارٌ لكنَّه مُنفَصلٌ عن إرادَةِ اللهِ ومَشيئَتِه مُستَقِلٌّ بالعَمَلِ ما للهِ إرادةٌ فيه إطلاقًا كيف؟ قال: نعم أنت الآنَ تَذهَبُ وتَجيءُ باختِيارِك لا تَشعُرُ أنَّ أحدًا يُجبِرُك أو يُكرِهُك فإذن لا عَلاقَةَ للهِ بفِعلِك، فأنت تَفعَلُ مُختارًا مُستقِلًّا عن إرادَةِ الخالِقِ، والأقرَبُ إلى المَعقولِ هم القَدريَّةُ؛ لأنَّ كُلَّ إنسانٍ يَعرِفُ أنَّه يَفعَلُ الشَّيءَ باختِيارِه، وأنَّه يُحمَدُ على فِعلِه للخَيرِ، ويُذَمُّ على فِعلِه للشَّرِّ، ولو كان بِغيرِ اختِيارٍ ما استحَقَّ أن يُحمَدَ على الخيرِ ولا أن يُذَمَّ على الشَّرِّ، كُلٌّ يَعلمُ ذلك ولهذا يُسمَّونَ العَقلانِيِّينَ؛ لأنَّهم يُحكِّمون العَقلَ حتَّى في مِثلِ هذا الأمرِ.

إذن؛ نَقولُ: قوبِلَت بِدعَةُ الجَبريَّةِ ببِدعةِ القَدريَّةِ الَّذين أثبَتوا للإنسانِ إرادَةً استقلالًا؛ ولهذا يُسمَّونَ مَجوسَ هذه الأُمَّةِ؛ لأنَّ المَجوسَ يَقولون: الحَوادثُ لها خالِقانِ: الظُّلمَةُ والنُّورُ. كُلُّ ما في الدُّنيا مِن شَرٍّ فخالِقُه الظُّلمَةُ وكُلُّ ما فيها مِن خيرٍ فخالِقُه النُّورُ؛ لأنَّ الأشياءَ في الدُّنيا كُلِّها إمَّا خيرٌ وإمَّا شَرٌّ.

فيَجبُ أن يَكونَ هناك إلهانِ إلهُ الخيرِ وإلهُ الشَّرِّ، والمُناسِبُ للخيرِ النُّورُ؛ لأنَّ

فيه سِعةَ الصَّدرِ والانشِراحِ، والأنسَبُ للشَّرِّ الظُّلمَةُ، قالوا: إذن جَميعُ ما يَحصُلُ في الكَونِ له خالِقانِ ظُلمَةٌ ونورٌ، الظُّلمةُ تَخلُقُ الشَّرَّ والنُّورُ يَخلُقُ الخيرَ، وفي هذا يَقولُ المُتنبِّي في مَمدوحِه[1]:

وكم لظَلامِ اللَّيلِ عِندَك من يدٍ تُحدِّثُ أنَّ المانويَّةَ تكذِبُ

(كم) للتَّكثيرِ (كم لِظَلامِ اللَّيلِ عِندَك من يدٍ) أي: مِن نِعمَةٍ، (تُحدِّثُ أنَّ المانَويَّةَ) وهم فِرقَةٌ مِنَ المَجوسِ (تكذِبُ)؛ لأنَّ المانويَّةَ تَقولُ: الظُّلمَةُ تَخلُقُ الشَّرَّ والنِّعم خيرٌ، فيَقولُ لمَدوحِه: أنت تَجودُ ليلًا ونهارًا ممَّا يُكَذِّبُ المانويَّةَ الَّذين يَقولونَ: إنَّ الظُّلمةَ تَخلُقُ الشَّرَّ.

ونحن نَقولُ: إنَّ الجبريَّةَ قوبِلت بِدعتُهم ببِدعةٍ؛ واعلمْ أنَّ البدعةَ لا يُمكنُ أن تُقَاوَمَ ببدعة؛ لأنَّك إذا ابْتَدَعتَ ادَّعَوا عَليك، ومِنْ ذلك ما يَفعلُه بعضُ النَّاس في يومِ عاشوراءَ، فَيومُ عاشوراءَ عند الرَّافضةِ يومُ حزنٍ وبَلاءٍ فجاءَ أُناسٌ مِن أهلِ السُّنَّةِ قالوا: إذنْ نَجعلَه يومَ فَرحٍ وسُرورٍ، وأنَّه يَنبغي أنْ نَتزيَّنَ ونَتجمَّلَ ونُوسِّعَ على العِيال، ضدَّ الحُزنِ، لكن هل هَذا صَحِيحٌ؟ لا؛ لأنَّا إذا فَعَلْنا هَذا قالتِ الرَّافضةُ: ما دَلِيلُكُمْ على هَذا؟ فلا يُمكِنُ أن تُقابَلَ البِدعةُ بالبدعَةِ أبدًا، لا تُقابَلُ إلَّا بالسُّنَّةِ.

مسألة: وَجدنَا ما يُسَمَّى الآنَ بالتَّمثيلِ السَّاقطِ، فَالبعضُ دعا إلى التَّمثيلِ الهادفِ، هل هَذا مُقابَلةُ بِدْعةٍ بِبِدعةٍ؟

فالجوابُ: هذا التَّمثيلُ ليس هو بِدعةٌ في حَدِّ ذاتِها، التَّمثيلُ تَقريبُ المَعاني بصورتِهَا الفِعليَّةِ، وقد وَرَدَ التَّمثيلُ في الحديثِ الصَّحيحِ في قصَّةِ المَلَكِ الَّذي جاءَ

(١) البيت للمتنبي، انظر: ديوانه (ص:٤٦٦).

إلى الأَقرعِ والأَبرصِ والأعمى بِصورَتِه الَّتي عليها[1] وقالَ: إِنَّهُ مسكينٌ وابنُ سبيلٍ، ولا أَبرصَ ولا أَقرعَ ولا أَعمَى، لكنَّ هذا للتَّقريبِ، إِنَّما المُبالغةُ في التَّمثيلِ بحيثُ لا نَدْعو النَّاسَ إِلَّا بِه، هَذَا هو الخطأُ.

فنَقولُ: الدَّعـوةُ إِلَى اللهِ تَعالى لَهَا وَسـائِلُ، كُلُّ ما يَكونُ فيه تَصـويرُ الواقعِ والتَّحذيرُ منه بِدونِ أن يَشتمِلَ على كَذِبٍ أو مُحاكاةِ البَهائمِ أو مُحاكاةِ الرَّجُلِ المَرأَةَ أو بالعكسِ، فَلا مانِعَ، فنَحنُ لا نُنكِرُ التَّمثيلَ مُطلقًا ولا نُحبِّذُه، ونُنكِرُ أن يَكونَ هوَ الوَسيلةَ إلى الدَّعوةِ إلى اللهِ؛ لِأَنَّكَ إذا عـوَّدتَ النَّاسَ على أنَّك لا تَدعُوهم إلى اللهِ إِلَّا بِهَذه الوَسيلَةِ نَسوا الأَهَمَّ وهو مَوعِظةُ القُرآنِ والسُّنَّةِ.

نحنُ نُقابِلُ الجَبريَّةَ الَّذينَ يُنكِـرونَ مَشيئَةَ العبدِ بِدَلالةِ الكِتابِ والسُّنَّةِ أنَّ لِلإنسانِ مَشيئَةً، ونُقابِلُ القَدَريَّةَ بأنَّ اللهَ تَعالَى له مُلكُ السَّمواتِ والأَرضِ: ﴿وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ﴾ [الإنسان:٣٠].

إذن أَنا إذا شِئتُ شَيئًا وفَعَلتُهُ أَقولُ: إنَّ اللهَ شَاءَ ذلكَ قَبلَ أن أَشاءَه، لا يُمكِنُ أن أَشاءَ شَيئًا وأَفْعلَه دونَ أنْ يَكونَ اللهُ شَاءَه أبدًا.

فإذا قَالَ قَائِلٌ: أَنتَ إِذَا قُلتَ هَذَا، وأَنَّ مَشيئَتَك بَعْدَ مَشيئَةِ اللهِ وتَابعَةٌ لِمَشيئَةِ اللهِ لَزِمَ على ذَلكَ أن يَحْتَجَّ العَاصِي عَلينَا بِقَدَرِ اللهِ ومَشيئَتِه. العاصي يَشاءُ المَعصيةَ ويَفعَلُ المَعصيةَ. قُلنَا له: لِماذَا؟ قَالَ: لأنَّ اللهَ شَاءَ ذلك، أَنتم تَقولُونَ: إِنَّه ما مِنْ مَشيئَةٍ لِلعبدِ إِلَّا وَهي مَسبُوقَةٌ بمَشيئَةِ اللهِ: ﴿وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ﴾، أَنا ماذا أَفعلُ! شَاءَ اللهُ أن أَفْعلَ فَفعلتُ، كيف تَلومونَني على أَمرٍ كَتبَه اللهُ عَليَّ وشَاءَهُ عَليَّ؟

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب أحاديث الأنبياء، باب حديث أبرص وأعمى وأقرع في بني إسرائيل، رقم (٣٤٦٤)، ومسلم: كتاب الزهد والرقائق، رقم (٢٩٦٤)، من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

نَقولُ قَبْلَ كُلِّ شيءٍ: مَن أَعْلَمَكَ أنَّ اللهَ شَاءَ ذلكَ؟ هل أَحدٌ يَعْلمُ أنَّ اللهَ شَاءَ الشَّيءَ إلَّا بَعدَ وقوعِـهِ؟ لا يعلَمُ ذلك أَحَدٌ: ﴿وَمَا تَدْرِى نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا﴾ [لقمان:٣٤]. أَنا مَثلًا عِندمَا أَقومُ وأُصلِّي، أَعْلمُ أَنَّني عِندَما شِئتُ الصَّلاةَ وفَعَلتُ فَقدْ شاءَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ مِنْ قَبْلِي، لكن قَبْلَ أن أُصلِّيَ هل أَعْلمُ أنَّ اللهَ شَاءَ أَنْ أُصلِّيَ أم لا؟ الجَوابُ: لَا، فالعاصي حينَ يَفعلُ المَعْصيةَ هل يَعلَمُ أنَّ اللهَ شاءَ له أَنْ يَفْعلَ المعصيةَ قَبْلَ أن يَفعلَها؟ لَا، إِذن لَا حُجَّةَ له، وما أَحْسَنَ مَا قال بَعضُ العُلماءِ: «إِنَّ القَدَرَ سِرٌّ مَكتومٌ لا يُعلَمُ إلَّا بَعْدَ وقوعِ المَقدورِ» وهوَ كذلِكَ، هذا جَوابٌ مُفحِمٌ، لا يُمكِنُ أن يَتخطَّاه المُجرِمُ قِيدَ أُنمُلَةٍ.

ثم نَقولُ له: أَلَستَ الآنَ إذا كان أَمامكَ نارٌ مُحرِقَةٌ أو أَوديةٌ مُغرِقةٌ، أَلَستَ تُحجِمُ عنها ولا تُقدِمُ عليها؟ فإن قيلَ: بَلَى، قُلْنَا: فلِماذا لا تُقدِمُ وتُلْقي نَفسَكَ بالنَّارِ وتَقولُ: هَذِه مَشيئَةُ اللهِ؟ لا يُمكِنُ أن يُقْدِمَ لا على أَوْدِيةٍ مُغرِقةٍ ولَا على نارٍ مُحرِقةٍ، ويَدَّعي أنَّ ذلك مَشيئَةُ اللهِ، فلِماذا لم تَتجنَّبِ المعاصيَ الَّتي عَلِمت بِوَعْدِ اللهِ عَزَّوَجَلَّ أو وَعيدِه أَنَّها سببٌ لِدُخولِ النَّارِ؟ هذا نُخاطبُه عندَما نُريدُ منه أن يَجتنِبَ المَعاصيَ.

وأَمَّا عندما نُريدُ مِنْه أَنْ يَفعلَ الطَّاعاتِ نَقولُ: نَزَلَ في الصُّحُفِ مُسابقةٌ على وَظيفتَينِ؛ إِحداهُما عَشَرةُ آلَافِ رِيالٍ في الشَّهرِ، والثَّانيةُ عَشَرَةُ رِيالاتٍ في الشَّهرِ إلى أَينَ يَذْهبُ؟ هل يَذْهبُ إِلَى عَشَرَةٍ ويَقولُ هذا تَقديرُ اللهِ؟ أَلَستَ تَذهبُ لِلْعَشَرةِ آلَافٍ تُريدُ هَذَا الرَّاتِبَ الجَيِّدَ؟

فإِنَّ العملَ الصَّالِحَ عُرِضَ عَليكَ بأَنَّ جَزاءَ الحَسنةِ بِعَشَرةِ أمثالِها إلى سَبعِ مئةِ ضِعْفٍ، لِماذا لا تُقدِمُ عليها كَما كُنتَ تُقدِمُ على ما تَراه حظًّا لَك في الدُّنيَا، فَلماذا لَا تُقدِمُ على ما تَراه حظًّا لَكَ في عَمَلِ الآخرَةِ؟ وبهذا تَنقطعُ حُجَّةُ الظَّالِمِ سَواءٌ ظَلَمَ

بفعلِ المُحرَّماتِ، أو بتَرْكِ الواجباتِ.

وقد تَعرَّضْنا لِهَذا وإنْ كان لَيسَ من خَصائصِ عِلْمِ التَّفْسيرِ؛ لِأنَّ هذا مِنْ عِلْمِ العَقيدةِ، المُهِمُّ رُبَّما يُشَوِّشُ على الإنسانِ مِثْلُ هذهِ الإراداتِ مِنَ الجَبرِيَّةِ أو مِنَ القَدَرِيَّةِ، فنَقولُ بِما تقدَّم، والأمرُ والحمدُ للهِ واضحٌ حتَّى إنَّ الرَّسولَ عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ حَلَّ هذه المُشكلةَ بكَلِمتَينِ فقط، قال عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ وهو على شَفيرِ قَبْرٍ لِإحدَى بَناتِه قال: «**ما مِنكُم مِن أَحدٍ إلَّا وقد كُتِبَ مَقعدُهُ مِنَ الجَنَّةِ ومَقعدُهُ مِنَ النَّارِ، قالوا: يَا رَسُولَ اللهِ، أَفَلا نَدَعُ العَمَلَ ونَتَّكِلُ على الكِتابِ؟**»، هذا اعتِراضٌ لكنَّه اعتراضٌ في بادِئِ الأَمْرِ كما قَالَ تَعالَى: ﴿بَادِىَ ٱلرَّأْىِ﴾ ما دامَ الشَّيءُ مَكتوبًا فَلا حاجَةَ لِلعَمَلِ، هذا مَكْتوبٌ لهُ السَّعادةُ فلْيَنَمْ؛ لأنَّه من أَهْلِ السَّعادةِ، وهذا مِنْ أَهْلِ الشَّقاوَةِ فَلا يَعْمَلُ؛ لأَنَّه مِن أَهْلِ الشَّقاوَةِ، فَلا حاجَةَ أنْ يَعمَلَ!؟ فقال النَّبيُّ عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ كَلِمتَينِ: «**اعْمَلوا، فَكُلٌّ مُيَسَّرٌ لِما خُلِقَ لَهُ**»(١). سُبْحانَ اللهِ لم يَأْتِ بِفَلسفَةٍ وتَطويلٍ بل كَلِمتَينِ: «**اعمَلوا فَكُلٌّ مُيَسَّرٌ لِما خُلِقَ له**»، هذا الَّذي مِنْ قِبَلِنا -أَنْ نَعمَلَ- ثُمَّ كُلٌّ مُيَسَّرٌ لِما خُلِقَ له.

فإذا وَجدتَ مِن نَفْسِكَ أنَّ اللهَ يَسَّرَ لكَ الخَيرَ والهُدَى والنَّشاطَ على العِبادةِ، فاعْلَمْ أنَّكَ مِمَّن كُتِبَ من أَهلِ السَّعادةِ لِقَولِ النَّبيِّ ﷺ: «**أَمَّا أهلُ السَّعادةِ فيُيَسَّرونَ لِعَمَلِ أهلِ السَّعَادةِ، وأَمَّا أهلُ الشَّقاوَةِ فيُيَسَّرونَ لِعَمَلِ أَهلِ الشَّقاوَةِ**».

فَالأَمرُ -والحَمدُ للهِ- واضِحٌ جِدًّا أَنَّه لا حُجَّةَ للعاصي بالقَدَرِ على مَعصيتِه ولَا لِلمُتَهاوِنِ بِالواجِبِ بالقَدَرِ على تَهاوُنِه، فالأمرُ أَوضَحُ مِن أن يَحتاجَ إلى كَثيرِ كَلامٍ.

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب التفسير، باب قوله تعالى: ﴿فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلْعُسْرَىٰ﴾، رقم (٤٩٤٩)، وأخرجه مسلم: كتاب القدر، باب كيفية خلق الآدمي في بطن أمه، رقم (٢٦٤٧)، من حديث علي بن أبي طالب رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ.

بَقِيَ عَلينا أن يُقالَ: أَليسَ آدمُ قَدِ احتَجَّ بالقَدَرِ؟ أَوَلَيسَ اللهُ تَعالَى قد احتجَّ بالقَدَرِ فقال لرسولِه: ﴿وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَآ أَشْرَكُواْ﴾ فما هو الجَوابُ؟ الجَوابُ أن يُقالَ: أمَّا قولُه تَعالَى: ﴿وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَآ أَشْرَكُواْ ۗ وَمَا جَعَلْنَٰكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا﴾ [الأنعام:١٠٧]، فهَذا تَسليةٌ للرَّسولِ عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ، حيثُ قال اللهُ له: ﴿وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَآ أَشْرَكُواْ﴾، فشِرْكُهمْ بمَشيئَةِ اللهِ، ومَعلُومٌ أنَّ الرَّسُولَ عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ سوف يَرْضَى بقَضاءِ اللهِ، ولِهَذا يَجِبُ عَلينا أن نَنظُرَ إلى أهلِ المَعاصي بنَظرينِ؛ نَظرٍ قَدَريٍّ ونَظرٍ شَرعيٍّ.

النَّظرُ القَدَريُّ أنْ نَرضى بِما وَقَعَ مِن مَعاصيهم؛ لأَنَّه بتَقديرِ اللهِ، والنَّظرُ الشَّرعيُّ أن نُلْزِمَهم بِشَرعِ اللهِ، فنُقيمُ عليهمُ الحُدودَ والتَّعزيراتِ، وغَيرَ ذلك مِمَّا يَحمِلُهُم على فِعلِ الطَّاعاتِ وتَرْكِ المُحرَّماتِ، فانْتَبِهوا يا إِخوانُ، هذه المسائِلُ مُهِمَّةٌ جدًّا.

إذن نَقولُ: إنَّ قولَهُ تعالَى للرَّسولِ: ﴿وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَآ أَشْرَكُواْ﴾، الغَرضُ منه تَسليةُ الرَّسولِ عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ؛ لأَنَّه إذا عَلِمَ أنَّ ذلك بمَشيئةِ اللهِ رَضِيَ، ولكنَّ اللهَ تَعالَى أَبطَلَ هذه الدَّعوَى منهم بقولِهِ: ﴿سَيَقُولُ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُواْ لَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَآ أَشْرَكْنَا وَلَآ ءَابَآؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِن شَيْءٍ ۚ كَذَٰلِكَ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ حَتَّىٰ ذَاقُواْ بَأْسَنَا﴾ [الأنعام:١٤٨] بعُقوبَةِ اللهِ، أَبطَلَ اللهُ هذه الحُجَّةَ؛ لأَنَّهم أَرادوا بذلك إبطالَ الشَّرْعِ بالقَدَرِ، فبَيَّنَ اللهُ تَعالَى أنَّه عذَّبَهم.

وأمَّا آدمُ لَمَّا احتَجَّ عليه موسى وقالَ له: خَيَّبْتَنا أَخْرَجتَنا ونَفْسَكَ مِنَ الجَنَّةِ -بمَعصيتِه بأَكْلِه مِنَ الشَّجرةِ- فقال له آدمُ: أَتَلومُني على شيءٍ كَتَبَه اللهُ عَلَيَّ قَبْلَ أن يَخلُقَني بأربعينَ سَنَةً؟ قال النَّبيُّ عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ: «**فَحَجَّه آدمُ**»(١). وفي رِوايةٍ:

---

(١) أخرجه الإمام أحمد (٢/ ٢٦٨)، من حديث أبي هريرة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ.

«فحَجَّ آدَمُ موسى»[1]، ومعنى حَجَّه؛ أي: غَلَبَه في الحُجَّةِ.

فإنْ قال قائلٌ: في احتِجاجِ آدَمَ على موسى وأَنَّهُ قال: «كَيفَ تَلومُني على شيءٍ قد كَتَبَهُ اللهُ عَلَيَّ قَبلَ أن أُخْلَقَ بأربعينَ سَنَةً»، ألا يَدُلُّ على أنَّ آدَمَ خُلِقَ قَبْلَ خَلْقِ القَلَمِ بأربَعينَ سَنةً؟

فالجوابُ: لا، هو يَقولُ: كُتِبَ عليه قَبلَ أن يُخْلَقَ، أي مَكتوبٌ قَبلَ خَلْقِ آدَمَ، فآدَمُ خُلِقَ بَعدَ أن كُتِبَ عليه بأربَعينَ سَنَةً، لكن كيف نَجْمعُ بَينَ قولِه بأربَعينَ سَنةً، وبَينَ أنَّ اللهَ تَعالَى خَلَقَ القَلمَ، وقال له: اكْتُبْ، قَبلَ أن يَخْلُقَ السَّمواتِ بخَمسينَ أَلْفَ سَنَةٍ، يُقالُ: إذا صَحَّتِ الكَلمةُ هَذهِ وكانت محفوظةً، فإنَّ هذه كتابَةٌ أُخْرَى خاصَّةٌ بآدَمَ.

فاحتجَّ آدَمُ بالقَدَرِ الَّذي كُتِبَ عليه قَبْل أن يُخْلَقَ وخَصَمَ موسى. هَذا الحَديثُ يَحتجُّ به أَهلُ المَعاصي على مَعاصيهم ويَقولونَ: إنَّ آدَمَ احْتجَّ بالقَدَرِ على موسى وحَكَمَ النَّبيُّ -صَلَواتُ اللهِ وسَلامُهُ عَليهِ- لآدَمَ وقال: إنَّهُ حَجَّه، فنحنُ نحتجُّ بالقَدَر كما احْتجَّ أبونا، نُجيبُ عَن هَذا بجَوابَينِ:

الجوابُ الأوَّلُ مِن شيخِ الإسلامِ ابنِ تَيْميَّةَ[2] رَحِمَهُ اللَّهُ قال: إنَّ آدمَ لم يَحتجَّ بالقَدرِ على المَعصيةِ، وإنَّما احْتجَّ بالقَدرِ على الخُروجِ مِنَ الجنَّةِ، أَمَّا المَعصيةُ فَقدِ اعْتذَرَ منها آدَمُ وقالَ: ﴿رَبَّنَا ظَلَمْنَآ أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾ [الأعراف:٢٣]، ﴿فَتَلَقَّىٰٓ ءَادَمُ مِن رَّبِّهِۦ كَلِمَٰتٍ﴾ [البقرة:٣٧]، فآدمُ لا يُمكنُ أن يَحتجَّ بالقَدرِ على المَعصيَةِ

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب أحاديث الأنبياء، باب وفاة موسى وذكره بعد، رقم (٣٤٠٩)، ومسلم: كتاب القدر، باب حجاج آدم وموسى عَلَيْهِمَا السَّلَامُ، رقم (٢٦٥٢)، من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٢) انظر: مجموع الفتاوى (٨/ ٣٠٣).

لا يُمكنُ إِطْلاقًا وهو أَجَلُّ قَدْرًا من أن يحتجَّ بالقَدَرِ على مَعصيةِ اللهِ، وإنَّما احْتجَّ بالقَدَرِ على إخراجِهِ منَ الجنَّةِ لا على سببِ الإخراجِ، والاِحتجاجُ بالقَدَرِ على المَصائبِ أَمْرٌ جائِزٌ، وهو غايةُ التَّسليمِ لله عَزَّوَجَلَّ. أَرأيتُم قولَ الرَّسولِ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: «**المُؤمنُ القويُّ خيرٌ وأَحبُّ إِلَى اللهِ مِنَ المُؤمنِ الضَّعيفِ، وفي كُلٍّ خيرٌ، احْرِصْ على ما يَنفعُكَ واسْتعِنْ باللهِ ولا تعجَزْ، وإنْ أصابَكَ شيءٌ فلا تَقُلْ: لو أَنِّي فعلتُ لكانَ كذا وكذا، ولكنْ قُلْ: قَدَّرَ اللهُ وَما شاءَ فَعَلَ**»[1]. وهذا احْتِجاجٌ بالقَدَرِ لكنْ بعدَ فِعْلِ الأسبابِ، فالاحتِجاجُ بالقدَرِ على المَصائبِ أَمْرٌ جائِزٌ، والإنسانُ عِندما يُصابُ بالمُصيبةِ ويَقولُ: ﴿إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيۡهِ رَٰجِعُونَ﴾ [البقرة:١٥٦]، فهَذا يَعني: التَّسليمَ للقَدَرِ.

إذنِ احْتِجاجُ آدَمَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ بالقَدَرِ على المُصيبةِ لا عَلَى المَعصيةِ، هذا وَجهٌ.

وجهٌ آخَرُ: ما كانَ لموسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ أن يَلومَ أَباه على ذَنبٍ تابَ منه وحَصلَ له بَعدَه أَنِ اجْتَباه رَبُّه وهداه، أدنى وَاحدٍ منَ النَّاسِ إذا أُصيبَ بذَنبٍ ثُمَّ تابَ، فإنَّه لنْ يُوَجِّهَ اللَّومَ إليه، قال اللهُ تَعالَى: ﴿وَعَصَىٰٓ ءَادَمُ رَبَّهُۥ فَغَوَىٰ ١٢١ ثُمَّ ٱجۡتَبَٰهُ رَبُّهُۥ﴾ [طه:١٢١-١٢٢]، أَي: اصْطَفاه واختارَه ﴿وَهَدَىٰ﴾ [طه:١٢٢]، هذِهِ المَنزِلَةُ ما حَصَّلَها قَبْلَ أن تَحْصُلَ له المعصيةُ.

إذن لا يُمْكِنُ لموسَى أن يَلومَ أَباه على ذَنبٍ تابَ مِنه وارْتَفعَ بعد التَّوبةِ منه مَنزلةً عِندَ اللهِ عَزَّوَجَلَّ، هذا لا يُمْكنُ أن يَكونَ لأدنَى وَاحدٍ فَضلًا عن رَجُلٍ مِن أُولي العَزمِ مِنَ الرُّسلِ، هذا جَوابُ شيخِ الإسلامِ ابْنِ تَيميَّةَ وهُو جَوابٌ جيِّدٌ لَا شكَّ.

---

(١) أخرجه مسلم، كتاب القدر، باب في الأمر بالقوة وترك العجز والاستعانة بالله وتفويض المقادير لله، رقم (٢٦٦٤)، من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

وذَهبَ ابنُ القَيِّمِ[(١)] رَحِمَهُ اللَّهُ إلى جَوابٍ آخرَ وقالَ: «إنَّ الاحتِجاجَ بالقَدَرِ على المَعصيةِ بعدَ التَّوبَةِ منها والإقْلاعِ عنها مَقبولٌ، لا لرَفْعِ اللَّومِ واستِباحَةِ الاستِمرارِ»، فيقولُ: الاحتجاجُ بالقَدَرِ نوعانِ: نَوعٌ احْتجاجٌ بالقَدَرِ بَعدَ فَواتِ الأَوانِ مَع الإقْلاعِ عنِ المَعصيَةِ وحُسْنِ الحالِ فَهذا جائِزٌ، واحْتِجاجٌ بالقَدَر لِدَفعِ اللَّومِ والاستِمرارِ في المَعصيَةِ، فهذا ممنوعٌ. يَعني: إذا قَدَّرْنا أَنَّ احتجاجَ آدَمَ عَلَيهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ بالقَدَرِ على المَعصيَةِ الَّتي تابَ مِنها وهَداه اللهُ واجْتَباه يَكونُ جائِزًا على هذا التَّقديرِ؛ لِأَنَّ آدَمَ ما احْتَجَّ بذَلكَ لِيَستمِرَّ، احتجَّ بذلك لِأمرٍ قَد فاتَ.

ونَظيرُ هَذا فيما عِندَنا الآنَ لَوْ أَنَّ إنسانًا زَنَى -وَالعياذُ بِاللهِ- وَهو رَجلٌ خَيِّر، لَكِنْ غَلَبَتْه شَهْوَتُه وزَنَى ثُمَّ تابَ، وقُلْنا لَهُ: يا فُلانُ، كَيفَ يَقَعُ مِنك هذا الشَّيءُ؟ قَال: واللهِ هذا قَضاءٌ وقَدَرٌ، وإلَّا فَلَستُ من أَهلِ هَذا الأمرِ لكنَّ المُقَدَّرَ كائنٌ، نَقبلُ مِنه، لَكنْ لَو كانَ يَزني ويَستمِرُّ نَقولُ: تُبْ إلى اللهِ، فَإنْ قالَ: هذا رَغْم عنه؟ قُلْنا: سُبحانَ اللهِ رغمًا عنك وأنت مُمارِسٌ لِهذا العَملِ، لَيسَ هذا رغمًا عنك.

يَقولُ ابْنُ القَيِّمِ رَحِمَهُ اللَّهُ: «الاحتجاجُ بالقَدَرِ بَعدَ وقوعِهِ تَسليمًا للقَدَرِ وتَفويضًا لِأمْرِ اللهِ، لا اسْتِمرارًا ولَا دَفعًا لِلَّومِ» فهَذا جائِزٌ، ثُمَّ استدَلَّ بِقِصَّةٍ وَقَعتْ مِن عَلِيِّ بنِ أَبي طالِبٍ وزَوْجِه فاطمَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا حينَ دَخَلَ عليهما النَّبيُّ ﷺ فقال لَهُما: «**أَلا تُصلِّيانِ؟**» قال عَليٌّ: يا رَسولَ اللهِ، أنفُسُنا بِيَدِ اللهِ لَو شَاءَ لَأَقامنا، احْتَجَّ بالقَدَرِ، فَخَرَجَ النَّبيُّ ﷺ أو تَوَلَّى عنهما وهو يَضرِبُ بيَدِه على فَخِذِه ويَقولُ: ﴿وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ أَكْثَرَ شَىْءٍ جَدَلًا﴾[(٢)]، فَالرَّسولُ عَلَيهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ هَل قَبِلَ مِنهما؟ إنْ قُلْتم: قَبِلَ على

(١) انظر: شفاء العليل في مسائل القضاء والقدر (ص١٨).

(٢) أخرجه البخاري: كتاب التهجد، باب تحريض النبي ﷺ على صلاة الليل، رقم (١١٢٧)، ومسلم: كتاب صلاة المسافرين، باب ما روي فيمن نام الليل أجمع حتى أصبح، رقم (٧٧٥)، من حديث علي بن أبي طالب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

الإطلاقِ، لَيسَ هَذا بصَحيحٍ، وإنْ قُلتم: قَبِلَ الواقِعَ لكنَّهُ كَرِهَ الجِدالَ، فَهَذا هو الواقِعُ؛ لأنَّه لو أَرادَ الإنكارَ عليهما لَقالَ غَيرَ ذَلِكَ، لقالَ: لا حُجَّةَ لَكُما في هَذا، لكنَّه جَعلَ ذلكَ مِن بابِ الجَدَلِ الَّذي نَهى عنه، فَقَدْ خَرجَ يومًا على أَصْحابِه، وهُم يَتجادلونَ في القَدَرِ، فَغَضِبَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ كأنَّما فُقِعَ في وجهِه حَبُّ الرُّمَّانِ، ونَهى عنِ التَّنازُعِ فِي القَدَر(١).

فإنْ قال قائلٌ: ما مَعنى: قَبِلَ الواقعَ وكَرِهَ الجِدالَ؟

فالجَوابُ: قَبِلَ الواقعَ وهو احْتجاجُهم بالقَدَر، النَّائمُ في الحقيقَةِ ما عليه لَومٌ: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يَتَوَفَّىٰكُم بِٱلَّيۡلِ وَيَعۡلَمُ مَا جَرَحۡتُم بِٱلنَّهَارِ ثُمَّ يَبۡعَثُكُمۡ فِيهِ﴾ [الأنعام:٦٠] مِن اللهِ، فيَقولُ: أَنفسُنا بأَيْدي اللهِ لَو شاءَ أن نَقومَ لقُمْنا، هذا واقعٌ، أَمَّا الجَدلُ فكَونُه يُجادِلُ النَّبيَّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ بالقَدَرِ، هَذا أَمرٌ لا يَنبغي، ولِهَذا تَشْعُرُ أَنَّه ما هو راضٍ، يَضرِبُ على فَخِذِه ويَقولُ: ﴿وَكَانَ ٱلۡإِنسَـٰنُ أَكۡثَرَ شَيۡءٖ جَدَلٗا﴾ [الكهف:٥٤]، والجَدَلُ قَد يَكونُ بِحَقٍّ ويُقبَلُ حَتَّى وإنْ كانَ فيهِ جَدَلٌ إذا كان بحقٍّ.

إِذَن المَخرجُ الثَّاني من قصَّةِ آدَمَ مع موسَى عَلَيْهِمَا السَّلَامُ أَنَّ آدمَ احْتجَّ بالقَدَر على أَمرٍ مَضَى وانقَضى وتَخلَّص منه، ولكِنْ قالَ: هَذا أَمْرٌ فَرط مِنِّي، ولِكُلٍّ مِنهما وِجهةٌ.

ولَكنَّ الوِجهَةَ الأُولى في ظَنِّي أَنَّها أَقْوى؛ لِأَنَّ موسَى لَا يُمكنُ أَنْ يَلومَ أَباه على أَمْرٍ تاب مِنه، لكنَّ الثَّانيَ له وِجهةُ نَظرٍ لا شكَّ، لكنْ لا نُنزِلُ قِصَّةَ آدَمَ وموسى عليها بَلْ نَقولُ: هي في سائرِ النَّاسِ الآنَ لَو أَنَّكَ لُمتَ شَخصًا على أَمْرٍ فَعلَه مِن مَعصيةِ اللهِ، ثمَّ احتجَّ بالقَدَرِ بَعدَ أنْ تابَ، فأَنا أَقبَلُ مِنه، وهَذا يَقَعُ كَثيرًا، كثيرًا ما يَفعلُ الإِنسانُ

---

(١) أخرجه الإمام أحمد (٢/ ١٧٨)، وابن ماجه: كتاب المقدمة، باب في القدر، رقم (٨٥)، من حديث عبد الله بن عمرو بن العاص رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.

الذَّنبَ ثُمَّ يَتندَّمُ نَدامةً عَظيمةً، ثمَّ يَقولُ: قَدَّرَ اللهُ ومَا شاءَ فَعَلَ، كيف يَقَعُ منِّي هذا؟ كيف تَغْلِبُني نَفْسي وهذا أَمرٌ لا بأسَ به.

ولا بُدَّ لِطالبِ العِلم أَنْ يَكونَ عِندَه عِلمٌ بمِثلِ هَذهِ الأمورِ؛ لِيُخَلِّصَ بها نَفْسَه مِنَ الشُّبُهاتِ الَّتي يُورِدُها عليه الشَّيطانُ، ومِنَ الشُّبُهاتِ الَّتي يُورِدُها عليه أَولياءُ الشَّيطانِ.

الْفَائِدَةُ الثَّالِثَةَ عَشْرَةَ: إثباتُ عِلْمِ اللهِ تَعالى بكُلِّ ما يَعملُ هَؤُلاءِ لِقولِه: ﴿إِنَّهُۥ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾.

الْفَائِدَةُ الرَّابِعَةَ عَشْرَةَ: تَخصيصُ الحُكم بما فيه النِّزاعُ، وإِنْ كان الحُكمُ عامًّا، فَلَنا أَن نُخصِّصَ هذا الحُكْمَ بمَحَلِّ النِّزاعِ، يُؤخَذُ هذا من تَقديم المَعمولِ: ﴿بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾، لا نَقولُ: هَذَا الحصرُ حَقيقيٌّ أَنَّهُ لا يَعلمُ عَزَّوَجَلَّ إِلَّا بما عَمِلوا، بَلْ يَعلمُ كُلَّ شَيءٍ، لكنْ لَمَّا كانَ الكَلامُ في عَمَلِهم جاءتِ الآيةُ، أو جاء الحُكمُ بِصيغةِ الحَصرِ مِن أَجْلِ شِدَّةِ التَّحذيرِ، وأَنَّهم لن يَفوتوا اللهَ عَزَّوَجَلَّ واللهُ أعلمُ.

فإِنْ قال قائلٌ: كيف نَرُدُّ على مَن قَالوا: إنَّ الظُّلمَ يُمكنُ أن يُطلَقَ على اللهِ تَعالى من بابِ المُقابَلةِ، أَيْ رَدَّ الظُّلم على الظَّالِمِ، واستَدلُّوا بالبَيتِ الجاهِليِّ[1]:

أَلا لا يَجْهلَــنْ أحــدٌ علينــا   فنَجهــلُ فَــوقَ جَهــلِ الجَاهِلينـا

فالجَوابُ: أقولُ هذا مِنَ العَجبِ! أَين في القُرآنِ والسُّنَّةِ أَنَّ اللهَ تَعالى وَصفَ نَفسَه بالظُّلمِ في مُقابلةِ الظَّالِمِ؟ وإذا لم يَكُنْ، فَلِما نَصِفُ اللهَ بالظُّلمِ وَهو قَد نَفاه عَن نَفْسِه؟

---

(١) البيت لعمرو بن كلثوم من معلقته المشهورة، انظر: جمهرة أشعار العرب (ص:٣٠٠)، وشرح القصائد السبع لابن الأنباري (ص:٤٢٦).

فإن قيلَ: إنَّ الرَّدَّ عَلى الظَّالمِ كَمالٌ، نَقولُ: لا -أبدًا- الانتِقامَ مِنَ الظَّالمِ كَمالٌ، لكنْ أن يُرَدَّ على الظَّالمِ بظُلمٍ، ولهَذا لم يأتِ بالقُرآنِ والسُّنَّةِ أنَّ: فَلَمَّا ظَلموناظَلَمناهم، بَلْ قالَ: ﴿وَمَا ظَلَمْنَٰهُمْ وَلَٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ [النحل:١١٨]، وأمَّا الِاستهزاءُ والخِداعُ والمَكرُ والكَيدُ، هذا لا بأْسَ بِه، فَقَدْ ذَكرَ اللهُ تَعالَى هَذِهِ الأَوصافَ في مُقابلةِ مَنْ عَامَله بِمِثْلِها.

• ● ❁ ● •

الآيتان (٤١، ٤٢)

❁ قالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِٱلذِّكْرِ لَمَّا جَآءَهُمْ ۖ وَإِنَّهُۥ لَكِتَٰبٌ عَزِيزٌ ﴿٤١﴾ لَّا يَأْتِيهِ ٱلْبَٰطِلُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِۦ ۖ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ﴾ [فصلت:٤١-٤٢].

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِٱلذِّكْرِ لَمَّا جَآءَهُمْ﴾ هذه جُملةٌ مُؤكَّدةٌ بإنَّ، يقولُ المُفسِّرُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿بِٱلذِّكْرِ﴾ القرآنُ] الكَريمُ كما قال اللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ: ﴿وَهَٰذَا ذِكْرٌ مُّبَارَكٌ أَنزَلْنَٰهُ﴾ [الأنبياء:٥٠]، وقال تعالَى: ﴿وَإِنَّهُۥ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ ۖ وَسَوْفَ تُسْـَٔلُونَ﴾ [الزُّخرُف:٤٤]، وسُمِّيَ القرآنُ ذِكرًا؛ لأنَّه يُذكِّرُ صاحبَه بما للمُتَّقينَ مِن خيرٍ وما للطَّاغينَ مِن شرٍّ، ولأنَّه ذِكْرٌ لِصاحبِه أَيْ: يَرفعُ اللهُ به ذِكرَ مَنْ تَمسَّكَ به، ولهذا قال: ﴿وَإِنَّهُۥ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ﴾، ولأنَّه يُذكِّرُ الإنسانَ بِربِّه، فإنَّ أقربَ النَّاسِ أو مِن أقربِ النَّاسِ إلى اللهِ مَنْ تَلا كِتابَه، ولهذا نَقولُ: إنَّ تِلاوةَ الكتابِ أفضلُ الذِّكرِ المُطلَقِ، وأمَّا الأذكارُ المُعيَّنةُ المُقيَّدةُ بشيءٍ مُعيَّنٍ، فهذه تَبعٌ لِما قُيِّدَتْ بِهِ.

وقولُه: ﴿لَمَّا جَآءَهُمْ﴾ أي: حينَ جاءَهم.

واعْلَمْ أنَّ (لمَّا) تَأْتي في اللُّغةِ العربيَّةِ لِعدَّةِ أَوجُهٍ:

١- منها أَنْ تكونَ ظَرفًا كما في هَذهِ الآيةِ، فمعنى: ﴿لَمَّا جَآءَهُمْ﴾ أَيْ: حينَ جاءَهم.

٢- ومِنها أَنْ تَأتيَ نافيةً جازمةً، لِكنَّها لِتُوقعَ ما بعدَها، كَقولِه تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ:

﴿بَل لَّمَّا يَذُوقُواْ عَذَابِ﴾ [ص:٨] لَـمَّا هُنا بِمعنى «لَمْ»، فَهِي نافيةٌ لَكنَّها لَا تَدخلُ إِلَّا على شيءٍ مُتوقَّعٍ، فمعنى: ﴿لَمَّا يَذُوقُواْ عَذَابِ﴾ أي: لَمْ يَذوقوه، ولَكنَّهم مُستحِقُّون لَه، وَالعذابُ مِنهم قَريبٌ.

٣- وَمنها أَنَّها تَأتي بِمعنى «إِلَّا» كَقولِه تَعالى: ﴿إِن كُلُّ نَفۡسٍ لَّمَّا عَلَيۡهَا حَافِظٌ﴾ [الطارق:٤] أي: إِلَّا عليها حَافِظٌ.

٤- وَمنها أَنَّها تَأتي شَرطيَّةً كَقولِه تَعالى: ﴿فَلَمَّآ أَن جَآءَ ٱلۡبَشِيرُ أَلۡقَىٰهُ عَلَىٰ وَجۡهِهِۦ﴾ [يوسف:٩٦] تَقولُ: لَمَّا زارَني أَكرمتُهُ.

فهذه أَربَعةُ أَوجُهٍ لِـ(لَـمَّا)، الوَجهُ الأوَّلُ: ظَرفٌ، الثَّاني: نَافيةٌ جَازمةٌ، الثَّالثُ: بمعنى إِلَّا، الرَّابعُ: شَرطيَّةٌ.

لم يَذكُرِ اللهُ تَعالى خَبرَ «إِنَّ» بَل حَذَفَه من أَجْلِ أَنْ تَذهبَ النَّفسُ في تَقديرِه كُلَّ مَذهَبٍ، بِمعنَى أَنْ يُفكِّرَ الإِنسانُ فيما يَحصُلُ لَهُم، فتَجدُ الإِنسانَ يُؤَمِّلُ ويُفكِّرُ كَذا أو كَذا، ولهِذا قَدَّرهُ المُفسِّرُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ بِقَولِه: [نُجازيهم]، فـ(نُجازيهم) على تَفسيرِ المفسِّر هي خَبرُ إِنَّ، ويجوزُ أَنْ تُقدِّرَ، لِهذا يُمْكنُ أَنْ تَقولَ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِٱلذِّكۡرِ لَمَّا جَآءَهُمۡ﴾ سوف يُعاقَبون أو لَهُم نارُ جهنَّمَ، أو ما أَشْبهَ ذلكَ.

المُهمُّ أَنَّ حَذْفَه من أَجْلِ أن يَذهبَ الذِّهنُ كُلَّ مَذهـبٍ في تَقْديرِ الخَبَرِ، لكنَّنا نَعلمُ عِلمَ اليقينِ أَنَّه لا يُمكنُ أَنْ يُقدِّرَ خَبرًا سارًّا، يَعني لا يُمكنُ أن نَقولَ: التَّقديمُ أَنَّ الَّذينَ كَفَروا بذِكري لَمَّا جاءهم لَهُم جنَّاتُ النَّعيم، هذا مُستحيلٌ، إنَّما يُقدَّرُ في أيِّ شيءٍ تُقدِّرُه مِنَ العَذابِ، وهذا مِنْ بَلاغةِ القُرآنِ أَنْ يَجعلَ الأَمرَ مَفتوحًا لِيُقدِّرَه الإنسانُ كُلَّ تَقديرٍ.

يَقولُ المُفسِّرُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿وَإِنَّهُۥ لَكِتَٰبٌ عَزِيزٌ﴾ منيعٌ].

قال اللهُ تعالى: ﴿وَإِنَّهُۥ لَكِتَٰبٌ﴾ أَكَّدَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ هذا الكِتابَ أو عِزَّةَ هذا الكتابِ بمُؤكِّدينِ: إنَّ واللَّامِ. وموضعُ الفائدَةِ في الواقعِ ليس «كتابٌ» فقطْ، بَلِ الفائدَةُ قَولُه: ﴿عَزِيزٌ﴾ هذا هو المُهِمُّ، أَمَّا كتابٌ كُلّ شيءٍ كتابٌ كُلّ ما يُكْتَبُ فهو كِتابٌ، لقد قالَت مَلِكةُ سَبأٍ: ﴿إِنِّيٓ أُلۡقِيَ إِلَيَّ كِتَٰبٞ كَرِيمٌ ﴿٢٩﴾ إِنَّهُۥ مِن سُلَيۡمَٰنَ﴾ [النمل:٢٩-٣٠]، لَكنَّ مَوضعَ الفائدَةِ قولُهُ: ﴿عَزِيزٌ﴾.

﴿وَإِنَّهُۥ لَكِتَٰبٌ﴾ الضَّميرُ في «إنَّه» يَعودُ إِلَى الذِّكرِ وَهو القُرآنُ، وكتابٌ هُنا بمعنى مَكتوبٍ، وهو مَكتوبٌ في المَصاحفِ في اللَّوحِ المَحفوظِ، في الصُّحُفِ الَّتي بِأَيْدي الملائِكةِ.

إِذَن هو كتابٌ في ثَلاثِ مَواضعَ: في اللَّوْحِ المَحفوظِ، والثَّاني: في الصُّحُفِ الَّتي بأَيْدي المَلائكةِ، والثَّالثُ: في الصُّحُفِ الَّتي بأَيْدينا.

يَقولُ المفسِّرُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿عَزِيزٌ﴾ مَنيعٌ] ولا شكَّ أنَّ مَنيع من مَعاني عَزيزٍ، ولكنْ هيَ أَعمُّ ممَّا قال المفسِّر: «عَزيزٌ» بمعنى «مَنيعٍ»، أي: يَمتنعُ أَنْ يَنالَه أَحدٌ بِسوءٍ إِلَّا فَضَحَه اللهُ.

الثَّاني: عَزيزٌ بمعنى غالِبٍ، فَالقرآنُ لا شكَّ أَنَّه غالبٌ على غَيرِه؛ لِقَولِه تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِيٓ أَرۡسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلۡهُدَىٰ وَدِينِ ٱلۡحَقِّ لِيُظۡهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ﴾ [الفتح:٢٨]، فهوَ غالبٌ لكُلِّ شَيءٍ.

إِذنْ هوَ مُمتنِعٌ أَنْ يَنالَه أَحدٌ بِسوءٍ إِلَّا فَضَحَه اللهُ. والثَّاني: أَنَّه غالبٌ، ولهذا لَمَّا كانَتِ الأُمَّةُ الإسلاميَّةُ مُتمسِّكةً به كانت غالبةً، هَدَّتْ عروشَ كِسْرى وقَيْصَرَ

وغيرِهما مِنَ الجبابرةِ، وفَتَحتْ بِه مَشارقَ الأرضِ ومَغاربَها، فلمَّا تولَّت عنه الأُمَّةُ الإسلاميَّةُ حُرِمَت مِن هذا الخَيرِ العَظيمِ الَّذي هو العِزَّةُ وَالغَلبَةُ والقَهرُ.

يَقولُ المفسِّرُ رَحِمَهُ اللَّهُ: [﴿لَّا يَأْتِيهِ ٱلْبَٰطِلُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِۦ﴾ أي: لَيس قَبْلَه كتابٌ يُكذِّبه ولا بَعده] ﴿ٱلْبَٰطِلُ﴾ ضِدُّ الصَّحيحِ وضِدُّ الحقِّ، فَعِند الفُقَهاءِ يَقولونَ: «الصَّلاةُ باطلةٌ الصَّلاةُ صَحيحةٌ»، فيَجعلون البُطلانَ في مُقابلِ الصَّحيحِ، وَفي القُرآنِ الكريمِ: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ هُوَ ٱلْبَٰطِلُ﴾ [الحج:٦٢]، فجَعَلَ الباطلَ في مُقابلةِ الحقِّ، إذن لا يَأتيهِ الباطلُ الَّذي هو ضِدُّ الحقِّ.

وقولُه: ﴿مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِۦ﴾ فَسَّرها المفسِّر بتَفسيرٍ غَريبٍ قالَ: [أَيْ لَيس قَبْلَه كتابٌ يُكذِّبه وَلا بَعده]، وفي هَذا نَظرٌ ظاهرٌ، والصَّوابُ أنَّه لا يَأتيه الباطلُ ﴿مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ﴾ أي: فيما يُخبِرُ به، ﴿وَلَا مِنْ خَلْفِهِۦ﴾ فيما أَخبرَ عنه، فكُلُّ ما أَخبرَ به فَهو حقٌّ، وكُلُّ ما أَخبرَ عنه بأنَّه سيكونُ فَهو حقٌّ.

أَيضًا لا يَأتيهِ الباطلُ مِن حَيثُ الأَحكامُ، فَكُلُّ ما حَكَمَ به فَهو حقٌّ وغايتُهُ حقٌّ، فيكونُ المعنَى أنَّ هذا القُرآنَ الكَريمَ ليس فيه شيءٌ مِنَ الكَذِبِ، لا في الإِخبارِ عن ما مَضَى وما هو بَيْن يَدَيه، ولا في الإِخبارِ عمَّا يُستقبَلُ وَهو قَولُه: ﴿وَلَا مِنْ خَلْفِهِۦ﴾ وإنْ شِئتَ اعْكِسْ، فقُلْ: ما بَين يَدَيه هو المُستقبَلُ وما خَلفَه هو الماضي.

كَذلكَ أَيضًا لا يَأتيه الباطلُ مِن حيثُ الأَحكامُ، أَحكامُهُ كُلُّها عَدلٌ ما فيها جَوْرٌ؛ ولهذا تَجِدُ القُرآنَ الكَريمَ كَما يُعطي الرَّبَّ حَقَّه مِن العِبادةِ يُعطي المَخلوقَ حَقَّه أَيضًا: ﴿وَٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا۟ بِهِۦ شَيْـًٔا﴾ [النساء:٣٦] هَذا حَقُّ اللهِ، بَعدَه: ﴿وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا﴾ [النساء:٣٦]. فَهو حقٌّ في أَحكامِه، حقٌّ في أَخبارِه: ﴿لَّا يَأْتِيهِ ٱلْبَٰطِلُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ

وَلَا مِنْ خَلْفِهِۦ﴾ [فُصِّلَت:٤٢]، وَاقرَؤوا إِنْ شِئتُم قولَه تَعالى: ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا﴾ [الأنعام:١١٥] صِدقًا باعتبارِ الإِخبارِ، وعَدلًا باعتِبارِ الأحكامِ.

قَولُه تَعالى: ﴿تَنزِيلٌ﴾ خبرُ مُبتدإٍ مَحذوفٍ، والتَّقديرُ: هوَ ﴿تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ﴾، ولَعلَّ هذا التَّقديرَ أَوْلى؛ لِأَنَّه يَدُلُّ عَلَى أَنَّ الجُملةَ استِئنافيَّةٌ لِبيانِ عَظمةِ هَذا القُرآنِ، ويَجوزُ أَنْ تَكونَ خَبرًا ثانيًا أو ثالثًا لقَولِه: ﴿وَإِنَّهُۥ﴾، فقَولُه: ﴿عَزِيزٌ﴾ صِفةٌ لكتابٍ، وقَولُه تَعالى: ﴿لَّا يَأْتِيهِ ٱلْبَٰطِلُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِۦ﴾ يَجوزُ أَنْ تَكونَ صِفةً لكتابٍ أيضًا، ويَجوزُ أَنْ تَكونَ خبرًا ثانيًا لـ«إِنَّ»، وعلى هَذا فتَكونُ ﴿تَنزِيلٌ﴾ خبرًا ثالثًا.

قَولُه تَعالى: ﴿تَنزِيلٌ﴾ أي: مُنزَّلٌ من حَكيمٍ حَميدٍ، فإِذا فَسَّرنا ﴿تَنزِيلٌ﴾ بأَنَّه مُنزَّلٌ صارَ المصدرُ بِمَعْنى اسمِ المَفعولِ، والمَصدرُ يَأتي بمَعْنى اسمِ المَفعولِ، وبمَعْنى اسمِ الفاعلِ، والَّذي يُعيِّنُ ذلكَ هُو السِّياقُ.

قَولُه تَعالى: ﴿تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ﴾ حَكيمٍ أي: ذي حِكمةٍ وذي حُكمٍ، فالحُكمُ للهِ، والحِكمةُ في أَحْكامِه عَزَّوَجَلَّ، فالرَّبُّ عَزَّوَجَلَّ مُتَّصِفٌ بالحُكمِ الَّذي لا مُعقِّبَ لَه، وبالحُكمِ النَّافذِ الَّذي لا مانعَ لَه، وفي الدُّعاءِ المَأثورِ: «لا مانِعَ لِما أَعْطَيتَ ولا مُعطيَ لِما مَنعْتَ»[1]، وأيضًا هو مُتَّصِفٌ بالحِكمةِ، فكُلُّ أَحكامِه حِكمةٌ، فإِنْ نَظرتَ إلى الأحكامِ القَدَريَّةِ، وجدْتَها في غايةِ الحِكمةِ، وإِنْ نَظرتَ في الأحكامِ الشَّرعيَّةِ وَجدتَها كَذلكَ في غايَةِ الحِكمةِ.

فهو عَزَّوَجَلَّ حاكِمٌ وذُو حكمَةٍ، وكَمْ مِن حاكمٍ لا حِكمةَ لَه، وكَمْ من حَكيمٍ لا حُكْمَ لَه:

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب الأذان، باب الذكر بعد الصلاة، رقم (٨٤٤)، وأخرجه مسلم: كتاب المساجد، باب استحباب الذكر بعد الصلاة، رقم (٥٩٣)، من حديث المغيرة بن شعبة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

فكثيرٌ منَ الرِّجالِ حُكماءُ عُقلاءُ، ولَكن ليس عِندَهم حُكمٌ فلا يَستطيعُ أن يَحكُمَ ولا على امرَأتِه.

وكَمْ مِن إنسانٍ حاكمٍ ذي سُلطةٍ قَويٍّ، ولكنْ لَيس عِندَه حِكمةٌ.

ومِنَ النَّاسِ مَنْ ليسَ بحاكمٍ ولا بِحكيمٍ.

ومِنَ النَّاسِ مَنْ هو حاكمٌ حكيمٌ.

فالأقسامُ إِذَنْ أَربعةٌ.

لَكنَّ بَعضَ النَّاسِ يَكونُ عِندَه عِلمٌ ولَيس عِندَه حِكْمةٌ، وهَذا خَللٌ في تَوازنِ العبدِ، وسَيرُ العبدِ أَنْ يَكونَ عِندَه عِلمٌ ولكن مع الحِكْمة.

أَمَّا الرَّبُّ عَزَّوَجَلَّ فَهو حاكمٌ حَكيمٌ.

فإِنْ قال قائلٌ: هَلِ الإحكامُ صِفةٌ ثالثةٌ في قَولِه: حَكيمٍ؟

فالجَوابُ: لا، لأنَّ الإِحكامَ هو الحِكمَةُ.

وبَدَأَ بِذِكرِ الحَكيمِ قَبْلَ الحَميدِ؛ وذلك لأنَّ الحَمدَ مُفرَّعٌ على الحِكمةِ، فإِنَّ الحَكيمَ يَكونُ مَحمودًا.

يَقولُ المفسِّرُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [أَي: اللهُ المَحمودُ]، يَعني: كأَنَّه يُريدُ أَنْ يَقولَ: المُرادُ بالحَكيمِ الحَميدِ هو اللهُ، وقَولُه: [المَحمودُ في أَمْرِه] أَشارَ إِلَى أَنَّ فَعيلًا هُنا بمَعْنى مَفعولٍ، وفي اللُّغةِ العربيَّةِ تَأتي فَعيلٌ بمَعْنى فاعلٍ وَمَفعولٍ، فَإذا قُلتَ: فُلانٌ جَريحٌ بمَعْنَى مَجروحٍ، وإذا قُلتَ: فُلانٌ سَميعٌ بمَعْنى سامِعٍ، فهِيَ تَأتي في اللُّغةِ العربيَّةِ بمَعْنى فاعلٍ وبمَعْنى مَفعولٍ، وهُنا فَسَّرها المفسِّر بمَعْنى مَحمودٍ.

لكنَّ هذا التَّفسيرَ فيه قُصورٌ؛ لِأَنَّ حَميدًا هُنا بمَعْنى فاعلٍ وبمَعْنى مَفعولٍ، فهو مَحمودٌ وهو أيضًا حامِدٌ، أليس اللهُ تَعالى يُثني كَثيرًا عَلَى المُؤمنينَ، وعَلَى الرُّسلِ، وعَلَى مَنْ شاءَ مِنْ عِبادِه؟ فهذا حَمْدٌ، فَوَصْفُ هَؤلاءِ المَخلوقينَ الَّذين أَثْنى اللهُ عليهم هو حَمْدُهم في الواقِعِ.

وفي هذه الآيةِ الكَريمةِ تَهديدٌ لِلمُكذِّبين بِالقُرآنِ في قَولِه تَعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِٱلذِّكۡرِ﴾ وحُذِفَ الخبرُ لِيَذهبَ الذِّهْنُ في تَقديرِه كُلَّ مَذهبٍ.

مِن فَوائدِ الآيتين الكريمتين:

الْفَائِدَةُ الأُولَى: أنَّ القُرآنَ ذِكرٌ سَمَّاه اللهُ ذِكرًا؛ لِما ذَكَرنا في التَّفسيرِ.

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَةُ: أنَّ هؤلاءِ كَذَّبوا بِالذِّكرِ بَعد أنْ جاءَهم وتَحقَّقوه وعَرَفوه، ومَعلومٌ أنَّ المُكذِّبَ بالشَّيءِ بَعدَ أنْ يَتحقَّقَ لَديهِ أَشدُّ إِثمًا ووَبالًا مِمَّن كَذَّب في أمرٍ مُشتبَهٍ عندَه، يُؤخذُ هذا مِن قولِهِ: ﴿لَمَّا جَآءَهُمۡ﴾.

الْفَائِدَةُ الثَّالِثَةُ: أنَّ هذا القُرآنَ عَزيزٌ غالٍ، لا أحدَ ينالُه بِسوءٍ إِلَّا فَضَحه اللهُ، ولَا أحدَ يَقومُ أَمامَه إِلَّا كان مَهزومًا مَغلوبًا، ووَصَفَ اللهُ تَعالى القُرآنَ بأنَّه عَزيزٌ، وبأنَّه مَجيدٌ وبِأنَّه كَريمٌ وبأَوصافٍ مُتعدِّدةٍ، مِمَّا يَدُلُّ عَلى عَظمةِ هَذا القُرآنِ.

الْفَائِدَةُ الرَّابِعَةُ: أنَّ مَن تَمسَّكَ بالقُرآنِ فَلَه العِزَّةُ، وَجْهُه أنَّه إذا كَان القُرآنُ عَزيزًا، فلا بُدَّ أنْ يَنالَ العِزَّةَ مَن تَمسَّكَ بِه، وإلَّا لكانَ القُرآنُ غيرَ عَزيزٍ، ويَدُلُّ لهذا قَولُ اللهِ تَعالى: ﴿وَلِلَّهِ ٱلۡعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِۦ وَلِلۡمُؤۡمِنِينَ وَلَٰكِنَّ ٱلۡمُنَٰفِقِينَ لَا يَعۡلَمُونَ﴾ [المنافقون:٨].

الْفَائِدَةُ الخَامِسَةُ: أنَّ القُرآنَ الكَريمَ حَقٌّ مُنتفٍ عنهُ الباطِلُ مِن كلِّ وجهٍ؛ لقولِهِ:

﴿لَّا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِن بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ﴾ هذِهِ الصِّفةُ للقُرآنِ مِن صِفاتِ النَّفي، وتضمَّنتْ بالإثباتِ أنَّه إذا انْتفَى الباطلُ عَنه مِن كُلِّ وجهٍ من بَيْن يَدَيهِ ومِن خلفه لَزِمَ من ذلكَ أنْ يَكونَ حقًّا من كلِّ وجْهٍ.

الْفَائِدَةُ السَّادِسَةُ: أنَّ القُرآنَ كَلامُ اللهِ يُؤخذُ مِن قولِهِ: ﴿تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ﴾ وَجْهُ كَونِه كَلامَ اللهِ أنَّ القُرآنَ صفةٌ، ليس عَينًا مُستقلَّةً مُنفصلَةً، فإذا كان صفةً وذَكَرَ اللهُ أنَّه نَزَلَ منه لَزِمَ أنْ يَكونَ كلامَه.

أمَّا لو كان الشَّيءُ الَّذي ذَكَـرَ اللهُ أنَّه أَنزلَه شَيئًا مُعيَّنًا مُنفصلًا عن اللهِ، فهَـذا لا يدُلُّ عَلى أنَّه مِن صِفاتِ اللهِ، كقَولِه تَعالى: ﴿أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً﴾ [الزُّمَر:٢١] هذا الماءُ مَخلوقٌ، وقَولُه: ﴿وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ الْأَنْعَامِ ثَمَانِيَةَ أَزْوَاجٍ﴾ [الزُّمَر:٦] الأنعامُ مَخلوقةٌ؛ لأنَّها شَيءٌ مُنفصلٌ عنِ اللهِ، وقَولُه: ﴿وَأَنزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ﴾ [الحديد:٢٥] الحديدُ مَخلوقٌ.

فإنْ قال قائلٌ: هل التَّنزيلُ هُنا بمَعْنى الخَلْقِ؟

فالجَوابُ: الفَرقُ أدقُّ مِن الخَلْقِ؛ لأنَّ هذه الأشياءَ لَولا أنَّ اللهَ سخَّرَها ما اسْتَطعنا أنْ نُسيطِرَ عليهَا، فهَذا عَلَى أنَّ نِعمةَ التَّسخِيرِ أَنْزَلَها مِنْ علياءَ إلَى أسفلَ حتَّى تَكونَ مُسخَّرةً للخَلْقِ.

لكنْ إذا جاءَ التَّنزيلُ أَوِ الإنزالُ في أَمرٍ هو صِفةٌ، فإنَّه لَا يُمكنُ أنْ يَكونَ مَخلوقًا بائنًا عَنِ اللهِ بَلْ هو صِفةٌ من صِفاتِ اللهِ.

الْفَائِدَةُ السَّابِعَةُ: إثباتُ عُلُوِّ اللهِ، وَجهُ ذلك أنَّه قَالَ: ﴿تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ﴾ [فُصِّلَت:٤٢]، وإذا كانَ تَنزيلًا منه لَزِمَ أنْ يَكونَ عَزَّوَجَلَّ فوقُ، وهو كذلكَ، وقدْ ذَكَرنا

كَثيرًا وذَكَرَ غَيرُنا أَيضًا أنَّ عُلُوَّ اللهِ ثابتٌ بالأَدلَّةِ كلِّها، وهيَ الكتابُ والسُّنَّةُ والإجماعُ والعقلُ والفِطرةُ، كُلُّها مُتَّفِقةٌ على عُلُوِّ اللهِ.

الْفَائِدَةُ الثَّامِنَةُ: إِثباتُ هَذَينِ الاِسمَينِ -الحَكيمِ والحَميدِ- للهِ عَزَّوَجَلَّ، وإثباتُ مَا تضمَّناه مِنَ المَعاني والصِّفَاتِ.

فإنْ قال قائِلٌ: ما مَدَى صِحَّةِ تَسميةِ اللهِ تَعالَى بالطَّبيبِ والنَّظيفِ؟

فالجَوابُ: أمَّا الطَّبيبُ فورَدَ عن أَبي بَكْرٍ رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ أنَّه قالَ: «إنَّ الطَّبيبَ رَآني، فقالَ: إنِّي أَفعلُ ما أُريدُ»[1]، وهَذا لا بَأْسَ بهِ في مَقامِ الخَبرِ، لكنْ ليسَ في التَّسميةِ، وأمَّا النَّظيفُ فورَدَ أيضًا في حديثٍ[2].

الْفَائِدَةُ التَّاسِعَةُ: أنَّه لا يَجوزُ لِأحدٍ أنْ يُشرِّعَ شَرعًا من عِندِه، يُؤخَذُ مِن قَولِه: ﴿حَكِيمٍ﴾ بمعنى حاكمٍ؛ لأنَّ مِن الحُكمِ الحُكمَ بينَ النَّاسِ، فالحُكمُ إمَّا أنْ يَكونَ حُكمًا في النَّاسِ أو أنْ يَكونَ حُكمًا بينَ النَّاسِ، فَلا يَجوزُ لِأحدٍ أنْ يَحكُمَ بينَ النَّاسِ إلَّا بِما أَنزلَ اللهُ؛ لأنَّ الحُكمَ للهِ عَزَّوَجَلَّ: ﴿إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ﴾ [الأنعام:٥٧]، وليس لنا أنْ نَتجاوزَ حَدَّ اللهِ عَزَّوَجَلَّ في الحُكم على أَحدٍ بالفِسقِ أو البِدعةِ أَوِ الكُفرِ أَوِ الإيمانِ وصِحَّةِ العَقيدةِ إلَّا بدَليلٍ مِن الشَّرعِ، يَعني: إلَّا إذا عَرَضنا ما عليه عَلَى الكتابِ والسُّنَّةِ، وإلَّا: ﴿وَلَوِ ٱتَّبَعَ ٱلْحَقُّ أَهْوَآءَهُمْ لَفَسَدَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ﴾ [المؤمنون:٧١].

الْفَائِدَةُ الْعَاشِرَةُ: أنَّ اللهَ تَعالى محمودٌ، بِناءً على أنَّ (حَميد) اسمُ مَفعولٍ، واللهُ عَزَّوَجَلَّ يُحمَدُ عَلى كلِّ حالٍ، فعَلى السَّرَّاءِ واضحٌ أنَّه يُحمَدُ؛ لأنَّهُ أَحْسَنَ إلَيكَ ورأَفَ

---

(١) أخرجه الإمام أحمد في الزهد رقم (٥٨٧).

(٢) أخرجه الترمذي: كتاب الأدب، باب ما جاء في النظافة، رقم (٢٧٩٩)، من حديث سعد بن أبي وقاص رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ.

بك، وأمَّا على الضَّرَّاءِ فيُحمَدُ أولًا: على أنَّهُ -لا شكَّ- ما قدَّر هذا إلَّا لِحكمةٍ، ثانيًا: أنَّ ما يَترتَّبُ عَلى هذه الضَّرَّاءِ منَ المَصالحِ العَظيمةِ يَقتضي أنْ يُحمَدَ اللهُ عليها، فالإنسانُ إذا أصابَته الشَّوكةُ وتَألَّمَ بها يُحطُّ عنه مِن خَطيئتِه، وخَطيئتُه مُثقِلةٌ عَظيمَةٌ مُخزيَةٌ في الآخرَةِ، والشَّوكةُ لَيست مُؤلِمَةً إلى ذاكَ ولَيست ظَاهرةً للنَّاسِ، ومع ذلك يُكفَّرُ بها مِنْ سيِّئاتِه.

ولِهذا قيلَ لِبعضِ العابِداتِ لَمَّا أُصيبَ أُصْبعُها ولَمْ تَتألَّمْ ولَمْ تَتأثَّرْ ولَمْ تَحزنْ قالت: إنَّ حَلاوةَ أَجرِها أنسَتْني مَرارةَ صَبرِهَا -الصُّوفيَّةُ لهُمْ كَلِماتٌ عَجيبةٌ في العبادةِ وَالأَخذِ باللُّبِّ-؛ لأنَّ الأجرَ أَعظَمُ مِن المُصيبةِ، فإذن حتَّى ما يُصيبُ الإنسانَ مِنَ الضَّررِ، فإنَّ اللهَ تَعالَى محمودٌ عليهِ؛ لأنَّه لِحكمةٍ لا شكَّ، والإنسانُ عَبدُ اللهِ عَزَّوَجَلَّ يَفعَلُ به ما يَشاءُ ولِأنَّ العاقبَةَ حَميدةٌ.

ويُحمَدُ اللهُ تَعالَى حتَّى على وُجودِ الكافرينَ؛ لأنَّه لَولا وُجودُ الكافرِ لَمْ يُعرَفِ المُؤمنُ، ولَمْ يَعْرفِ الإنسانُ قَدْرَ نِعمةِ اللهِ عَلَيهِ، ولَمْ يَقُمْ عِلمُ الجِهادِ؟ ولَمْ يَبْقَ للنَّارِ أحدٌ.

لكنَّ هُنا مَسألةً كانَ النَّبيُّ - صلَّى الله عليه وعلَى آلِه وسلَّم - إذا أَصابَه شَيءٌ يَسوؤه لا يَقولُ: الحَمدُ لله على الضَّرَّاءِ مَثَلًا أو على كَذا، بل يَقولُ: «الحَمدُ للهِ على كُلِّ حالٍ»(١)، فيَنبغي أنْ تَنتبِهَ لذلك، إذا أَصابتْكَ سَرَّاءُ تَقولُ: الحمدُ للهِ الَّذي بنِعمتِهِ تَتمُّ الصَّالِحاتُ، وإذَا أصابتك ضَرَّاءُ تَقولُ: الحَمدُ للهِ عَلى كلِّ حالٍ.

وبِهذا نَعرفُ خَطأَ مَن يَقولُ: «الحَمدُ للهِ الَّذي لا يُحمَدُ على مَكروهٍ سِواهُ» هذا غَلطٌ؛ لأنَّ هذه العِبارةَ تُنبئُ عن تَأزُّمٍ نَفسيٍّ وعن كَراهةٍ لِمَا قَدَّرَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ على

---

(١) أخرجه ابن ماجه: كتاب الأدب، باب فضل الحامدين، رقم (٣٨٠٣)، من حديث عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا.

الإنسانِ، ثُمَّ إنَّ فيها تَضادًّا مَكروهًا، وحَمدُ هذا غيرُ مُستقيم، ثُمَّ إنَّ فيهَا أيضًا مُخالَفةً لسُنَّةِ الرَّسُولِ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ كَانَ الرَّسولُ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ يقولُ: «الحَمدُ للهِ علَى كلِّ حالٍ»، ولَا يَذكرُ المَكروهَ، ولَا يَشعُرُ بأنَّه مُتأزِّمٌ منه.

فأَنت إذا أُصِبتَ بسَرَّاءَ فقُلِ: الحَمدُ للهِ الَّذي بِنعمتِهِ تَتِمُّ الصَّالحاتُ، وَإنْ شِئتَ فعَيِّنْ، مثلًا: الحمدُ للهِ الَّذي رَزَقَني وَلدًا، الحَمدُ للهِ الَّذي رزَقَني نَجاحًا، الحمدُ للهِ الَّذي رَزَقني مَالًا ومَا أَشبهَ ذَلك؛ لأنَّ هذا خَيرٌ والثَّناءُ عَليه وَاضحٌ، لكنَّ الأمورَ المكروهَةَ لَا تَقُلِ: الحمدُ للهِ الَّذي أَمْرَضَني، الحمدُ للهِ الَّذي أَصابَني بمُصيبةٍ؛ بِفَقْدِ أَخي أو أَبي أو عَمِّي، وإنَّما تَقولُ: الحمدُ للهِ على كُلِّ حالٍ، وإنْ شِئتَ فَقُلِ: الحَمدُ للهِ على ما قَدَّرَ؛ لأنَّ هَذه بمَعْنى على كُلِّ حالٍ.

فإنْ قال قائلٌ: ما توجيه قوله ﷺ: «والشَّرُّ ليسَ إليهِ»[1].

فالجَوابُ: أنَّ اللهَ عَزَّ وَجَلَّ خالقُ كلِّ شَيءٍ ولهَذا جاءَ في الحَديثِ: «تُؤمِنُ بالقَدَرِ خيرِه وشَرِّه»[2]، لكنْ لَا نَنسِبُ الشَّرَّ إلى اللهِ؛ لِأنَّ اللهَ لم يُقدِّرْ هذا الشَّرَّ إلَّا لخَيرٍ، فالشَّرُّ إذن في مَفعولِه لا في فِعلِه، فمَثلًا إذا قَدَّر اللهُ عَزَّ وَجَلَّ على النَّاسِ مَرضًا، فالشَّرُّ في نَفْسِ المَرَضِ، لكنْ في كَونِ اللهِ قَدَّرَه ليس بشَرٍّ بل هو خَيرٌ؛ لأنَّه من أكبرِ ما يَكونُ مِن مَصالِحِ الأَمراضِ؛ مثلًا تَكفيرُ السَّيِّئاتِ، ومنها أنَّ النَّاسَ يَرجِعونَ إلى اللهِ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿ظَهَرَ ٱلْفَسَادُ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِى ٱلنَّاسِ لِيُذِيقَهُم بَعْضَ ٱلَّذِى عَمِلُوا۟ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ [الروم:٤١]، ومنها أنَّ الإِنسانَ يَعرفُ قَدْرَ نِعمةِ اللهِ عليهِ بالعافيةِ، فمَثلًا نحنُ

---

(١) أخرجه مسلم: كتاب صلاة المسافرين، باب الدعاء في صلاة الليل وقيامه، رقم (٧٧١)، من حديث علي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٢) أخرجه مسلم: كتاب الإيمان، باب بيان الإيمان والإسلام، رقم (٨)، من حديث عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

الآنَ لا نَعرفُ قَدْرَ النِّعمَةِ الَّتي أَنعمَ اللهُ بِها عَلينا في النَّفَسِ والحركَةِ وما أَشبَهَ ذَلكَ، لكنْ لو أُصيبَ الإنسانُ مِنَّا بضِيقِ نَفَسِهِ عَرَفَ قَدْرَ نِعمةِ اللهِ بالنَّفَس، أو بِتَعبٍ في أَعضائِه فيَتكلَّفُ مِنَ الحَركةِ عَرفَ قَدْرَ نِعمةِ اللهِ عَليهِ، ولِهَذا قيلَ: وبضِدِّها تَتبيَّنُ الأَشياءُ.

الْفَائِدَةُ الحَادِيَةَ عَشْرَةَ: أنَّ الرَّبَّ عَزَّوَجَلَّ كاملُ العدلِ بحَيثُ يَحمِدُ مَنْ يستحقُّ الحمدَ كَما أنَّه يُحمَدُ؛ لأنَّه أَهلٌ لِلحمدِ؛ بِناءً على أنَّ «حَميدٌ» بمَعْنى حامِدٍ.

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَةَ عَشْرَةَ: أنَّ جميعَ ما في القُرآنِ مُطابقٌ لِلحِكمةِ تَمامًا من تَحليلٍ أو تَحريمٍ أو إيجابٍ أو إِطلاقٍ؛ لأنَّه نَزَلَ مِن حَكيمٍ حَميدٍ، والنَّازلُ مِن حَكيمٍ لا بدَّ أنْ يَكونَ مُشتملًا على الحِكمةِ.

الآية (٤٣)

قال اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿مَّا يُقَالُ لَكَ إِلَّا مَا قَدْ قِيلَ لِلرُّسُلِ مِن قَبْلِكَ إِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ وَذُو عِقَابٍ أَلِيمٍ﴾ [فُصِّلَت:٤٣].

يَقولُ المفسِّرُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿مَّا يُقَالُ لَكَ﴾ مِن التَّكذيبِ] يَعني: وَالاستهزاءُ والسُّخريةُ وغيرُ ذلك: ﴿إِلَّا مَا قَدْ قِيلَ لِلرُّسُلِ مِن قَبْلِكَ﴾ ومنه قَولُهم: إنَّه ساحرٌ ومجنونٌ، كَما قال تَعالَى: ﴿كَذَٰلِكَ مَآ أَتَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا قَالُواْ سَاحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ﴾ [الذاريات:٥٢]، هَذهِ الكَلمةُ يَقولُها كُلُّ أحدٍ لِلرَّسولِ، ويَحتملُ أَنْ يَكونَ المعْنَى: مَا يُقالُ لَك مِنَ الوَحيِ إلَّا ما قد قيلَ للرُّسُلِ مِنْ قَبْلك، أي مِثلَه، والآيةُ تَحتملُها ولا مانعَ من إرادتِها.

يَقولُ المفسِّرُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿مَّا يُقَالُ لَكَ إِلَّا﴾ مثل: ﴿مَا قَدْ قِيلَ لِلرُّسُلِ مِن قَبْلِكَ﴾] زاد المفسِّر [مثل]، ومَعلومٌ أنَّ قولَه: ﴿إِلَّا مَا قَدْ قِيلَ﴾ لا يُساويه قَولُه: إلَّا مثلَ، وإنَّما لجَأَ المفسِّر إلى ذلك؛ لأنَّ الَّذي قيلَ للرَّسولِ ﷺ لَيس هو بحُروفِه ما قيلَ لمَنْ قبلَه، ولكنَّ الأَوْلى أنْ يُقالَ: الآيةُ على ظاهِرِها أنَّ مَا قيلَ للرَّسولِ قَد قيلَ لمَنْ قبلَه، وكَما ذَكَرْتُ لكم آنِفًا: ﴿كَذَٰلِكَ مَآ أَتَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا قَالُواْ سَاحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ﴾ [الذاريات:٥٢]، فيُقالُ: إنَّهم قَالوا نَفسَ الكلامِ لَكن بِلُغَتِهم ليس بِلُغَةِ العربِ.

قَولُه تَعالَى: ﴿إِلَّا مَا قَدْ قِيلَ لِلرُّسُلِ مِن قَبْلِكَ إِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ وَذُو عِقَابٍ أَلِيمٍ﴾ فيه

عَرْضٌ لِلمُكَذِّبين أَنْ يُؤمِنوا فَإِنْ لَمْ يُؤمِنوا فَقَدْ تَعرَّضوا لِلعِقابِ، عَرَضَ أَنْ يُؤمِنوا بِقَولِه: ﴿إِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ﴾ يعني: كأَنَّه يَقولُ: فَآمِنوا يَغفرْ لكم، وهوَ قَولُه تَعالَى: ﴿قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِن يَنتَهُواْ يُغْفَرْ لَهُم مَّا قَدْ سَلَفَ﴾ [الأنفال:٣٨]، ﴿وَذُو عِقَابٍ أَلِيمٍ﴾ يَعْني: إِنْ لم يُؤمِنوا، ففيهِ تَرغيبٌ وتَرهيبٌ، التَّرغيبُ في قَولِه: ﴿لَذُو مَغْفِرَةٍ﴾ والتَّرهيبُ فِي قَولِه: ﴿وَذُو عِقَابٍ أَلِيمٍ﴾، والعِقابُ هو الانتِقامُ، والأَليمُ بمَعْنى المُؤلِمِ، فَفَعيلٌ تَأتي بمَعْنى مُفْعِلٍ كثيرًا في اللُّغَةِ العربيَّةِ كَما قَال الشَّاعرُ[1]:

أَمِنْ رَيْحانةِ الدَّاعي السَّميعُ ... يُؤرِّقُني وأَصْحابي هُجوعُ

السَّميعُ يَعني: المُسْمِعُ.

من فَوائِدِ الآيَةِ الكريمَةِ:

الْفَائِدَةُ الأُولَى: تَسليةُ الرَّسولِ -صلَّى اللهُ عليه وعَلى آلِهِ وسلَّم-؛ لِأَنَّه إذا عَلِمَ أَنَّه قد قيلَ للرُّسلِ مِن قَبلِه مِثلَما قيلَ له سَهُلَ عَليه الأمرُ.

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَةُ: أَنَّ سُنَّةَ اللهِ تَعالَى وَاحدةٌ، فَالمُكذِّبونَ قَولُهم وَاحدٌ وفِعلُهم وَاحدٌ لِقَولِه: ﴿إِلَّا مَا قَدْ قِيلَ لِلرُّسُلِ مِن قَبْلِكَ﴾.

الْفَائِدَةُ الثَّالِثَةُ: إِثْباتُ صِفةِ المَغفرةِ للهِ عَزَّوَجَلَّ وهيَ سَتْرُ الذَّنبِ والتَّجاوزُ عنه.

الْفَائِدَةُ الرَّابِعَةُ: إِثباتُ شِدَّةِ عِقابِه؛ لقَولِه: ﴿وَذُو عِقَابٍ أَلِيمٍ﴾.

الْفَائِدَةُ الخَامِسَةُ: إِثباتُ رَحمةِ اللهِ بِالعبادِ، حَيثُ يَعرِضُ عَلَيهم مُوجبَ التَّوبةِ حَتَّى لا يَتمادَوْا في مَعصيتِهم؛ لِقَولِه: ﴿إِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ﴾.

(١) البيت لعمرو بن معدي كرب، انظر: الأصمعيات (ص:١٧٢)، الشعر والشعراء لابن قتيبة (١/ ٣٦٠).

الْفَائِدَةُ السَّادِسَةُ: أنَّ هَذا القُرآنَ مِثلانِ، فَإذا ذُكِرَ فِيه جانبُ التَّرغيبِ ذُكِرَ معه جانبُ التَّرهيبِ؛ لِئلَّا تَطمعَ النَّفسُ وتَغلوَ فِي الطَّمعِ، فتَأمنَ مِنْ مَكرِ اللهِ، فَيَجمعُ اللهُ بَين هَذا وهَذا؛ لِئلَّا يَطْمعَ الإِنسانُ فِي الفَضلِ فَيأمنَ مِنْ مَكْرِ اللهِ؛ ولِئلَّا يَخافَ فَيَقْنطَ مِن رَحمةِ اللهِ، وعَلَى هَذا فيكونُ سَيرُه إِلَى اللهِ تَعالى بَينَ الخوفِ والرَّجاءِ؛ ولهَذا قالَ الإمامُ أَحمدُ رَحِمَهُ اللَّهُ: «يَنبَغي لِلسَّائرِ إِلى اللهِ عَزَّوَجَلَّ أنْ يَكونَ خَوفُه ورَجاؤُه واحدًا فأيُّهما غَلَبَ هَلَكَ صاحبُه»(١).

وقالَ بَعضُهم: «يَنْبَغي أَنْ يَكونَ الخَوفُ والرَّجاءُ لِلْإنسانِ كَجَناحَي الطَّيرِ إِنِ انْخفَضَ أَحدُهما سَقطَ الطَّيرُ»، فَيكونُ الرَّجاءُ والخوفُ واحدًا مُتَساويًا تَرجو وتَخافُ، ولهَذا قالَ: ﴿يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا﴾ [السجدة:١٦].

وفَسَّر بَعضُ أَهْلِ العِلمِ فَقالَ: يَنبَغي لِلإنسانِ إِذا عَمِلَ الحَسناتِ أَنْ يَكونَ جانِبُ الرَّجاءِ في حَقِّه أَرجحَ؛ لِأَنَّ هَذا مِن إِحْسانِ الظَّنِّ باللهِ، ووَجهُه أَنَّ اللهَ لَمَّا وفَّقكَ لِلعملِ فإِنَّه قَد وَعدكَ بِالثَّوابِ، ولَمَّا وَفَّقكَ لِلدُّعاءِ فَقدْ وَعدكَ بالإِجابَةِ، فَعَليه إِذَا فَعلتَ الخيرَ فَغَلِّبْ جانبَ الرَّجاءِ، وإِنْ فَعلتَ الشَّرَّ أو هَمَمْتَ به- فَغَلِّبْ جانبَ الخَوفِ؛ لِيردَعَكَ الخَوفُ عنِ التَّمادي في الشَّرِّ أو عَنْ مُواقعةِ الشَّرِّ.

وبَعضُهم سَلَكَ مَنحًى آخرَ فَقالَ: في حالِ الصِّحَّةِ يَنبَغي أَنْ يَغلُبَ جانبُ الخَوفِ؛ لأَنَّ الإِنسانَ الصَّحيحَ الَّذي قَدْ أَعطاه اللهُ صِحَّةً في بَدَنِه وعَقْلِه رُبَّما يَتَمادى فِي الشَّرِّ ولا يُبالي، وإِذا كُنتَ في المَرَضِ فَغَلِّبْ جانبَ الرَّجاءِ؛ لأَنَّ النَّبيَّ -صلَّى اللهُ عليه وعَلَى آلِهِ وسلَّم- قالَ: «لا يَموتنَّ أَحدُكم إِلَّا وهو يُحْسِنُ الظَّنَّ بِرَبِّه»(٢)؛ لأَنَّ اللهَ

(١) انظر: الاختيارات العلمية لابن تيمية [المطبوع مع الفتاوى الكبرى] (٥/ ٣٥٩).

(٢) أخرجه مسلم: كتاب الجنة وصفة نعيمها وأهلها، باب الأمر بحسن الظن بالله تعالى عند الموت، رقم (٢٨٧٧)، من حديث جابر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

تَعالَى عِندَ حُسْنِ ظَنِّ عَبدِه به.

والَّذي يَنبَغي أنْ يُقالَ: إنَّ الإنسانَ طَبيبُ نَفسِه، فَإذا خافَ مِن نَفْسِه التَّمادِيَ في المَعاصي والتَّهاوُنَ بِالطَّاعاتِ فَلْيُغَلِّبْ جانبَ الخوفِ، وإِنْ خافَ مِنْ نَفْسِه الزَّهوَ والخُيَلاءَ والأمنَ مِن مَكرِ اللهِ فَلْيُغَلِّبْ جانِبَ الخَوفِ، فَالإنسانُ في الحَقيقةِ طَبيبُ نَفْسِه.

••۞••

الآية (٤٤)

قال اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَلَوْ جَعَلْنَٰهُ قُرْءَانًا أَعْجَمِيًّا لَّقَالُوا۟ لَوْلَا فُصِّلَتْ ءَايَٰتُهُۥٓ ۖ ءَا۬عْجَمِىٌّ وَعَرَبِىٌّ ۗ قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ هُدًى وَشِفَآءٌ ۖ وَٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ فِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ يُنَادَوْنَ مِن مَّكَانٍۭ بَعِيدٍ﴾ [فصلت:٤٤].

﴿جَعَلْنَٰهُ﴾ الضَّميرُ يَعودُ على القُرآنِ، يَقولُ المفسِّرُ رَحِمَهُ اللَّهُ: [أي الذِّكرُ] وإنَّما قالَ الذِّكْرُ؛ لأنَّه سَبَقَ ذِكرُه قريبًا في قولِه: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِٱلذِّكْرِ لَمَّا جَآءَهُمْ ۖ وَإِنَّهُۥ لَكِتَٰبٌ﴾. والمَعْنى مُتَّفقٌ عليه: أنَّ الضَّميرَ في الهاءِ في ﴿جَعَلْنَٰهُ﴾ يعودُ إلى القُرآنِ.

﴿وَلَوْ جَعَلْنَٰهُ قُرْءَانًا أَعْجَمِيًّا﴾ أي: بِلُغةِ العَجَمِ وهو قَدْ نَزلَ على العَربِ: ﴿لَّقَالُوا۟ لَوْلَا فُصِّلَتْ ءَايَٰتُهُۥٓ﴾ ﴿لَّقَالُوا۟﴾ أي: المُكذِّبونَ لِلرَّسولِ ﷺ.

يَقولُ المفسِّرُ رَحِمَهُ اللَّهُ: [﴿لَوْلَا﴾ هَلَّا ﴿فُصِّلَتْ﴾ بَيِّنت ﴿ءَايَٰتُهُۥٓ﴾ حتَّى نفهمَها]، ولكنَّ اللهَ تَعالى قَد قطَعَ عليهِمُ الحُجَّةَ، فقالَ: ﴿إِنَّا جَعَلْنَٰهُ قُرْءَٰنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ [الزُّخرُف:٣]، وقالَ: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ قُرْءَٰنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ [يوسف:٢].

وقَولُه: ﴿لَوْلَا﴾ بمَعْنى هَلَّا أَفادَنا المفسِّر رَحِمَهُ اللَّهُ أنَّ لَولا تَأتي لِلتَّحضيرِ وتَأْتي شَرطِيَّةً، ويُقالُ في إعرابِها حَرفُ امتِناعٍ لِوُجودٍ.

وهُنا تَتقاسَمُ هَذه الحُروفُ لِلوُجودِ والعدَمِ، فَلو حَرفُ امتِناعٍ لِامتِناعٍ، ولَمَّا حَرفُ وُجودٍ لِوُجودٍ، ولَولا حَرْفُ امتِناعٍ لِوُجودٍ، تَقولُ: لَمَّا جاءَني أَكرَمتُه، هُنا

الإِكْرامُ وُجِدَ لِوُجودِ المَجيءِ، وتَقولُ: لَو جاءَ زَيدٌ لَأَكرمْتُه، هُنا امتنَعَ الإِكرامُ لامتِناعِ الوُجودِ، وتَقولُ: لَولا زَيدٌ لَهَلكتُ أو لَفَعلتُ كَذا وكَذا، فَلَولا هُنا امتِناعُ لِوُجودِ، أَمَّا في الآيةِ الكريمَةِ فَلَولا لَيست مِن هَذا ولا مِنْ هَذا، لَولا هُنا انتَقلَت عَن مَعْنى الشَّرطيَّةِ إِلَى مَعْنى التَّحضيرِ.

فإِنْ قالَ قائلٌ: لَولا في قَولِه تَعالَى في سورَةِ يوسفَ: ﴿لَوْلَآ أَن رَّءَا بُرْهَـٰنَ رَبِّهِۦ﴾ [يوسف:٢٤] هَلْ هي شَرطيَّةٌ؟

فالجَوابُ: نَعَمْ، شَرطيَّةٌ لَكِن مَحذوفةُ الجَوابِ، يَقولُ تَعالى: ﴿وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِۦ وَهَمَّ بِهَا لَوْلَآ أَن رَّءَا بُرْهَـٰنَ رَبِّهِۦ﴾ يَعْني: لِفِعْلِ.

فإِنْ قيل: هَلِ الهَمُّ حَصَلَ مِنه؟

فَالجَوابُ: لَا، فَلَولا بُرهانُ رَبِّه لَفَعَلَ، يَعْني: لَأَجابَها إِلَى ما دَعت، ولَيس المراد بـ﴿لَوْلَآ أَن رَّءَا بُرْهَـٰنَ رَبِّهِۦ﴾: لَمَّا هَمَّ؛ لأَنَّه لَو كانَ كَذلكَ لَتناقَضَ الكلامُ، بَلْ هو هَمَّ بِها لَكن لَولا أَنَّه رَأى بُرهانَ رَبِّه لأَجابَها إِلَى مَا دَعت.

يَقولُ المفَسِّرُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿أ﴾ قُرآنٌ ﴿أعجمي و﴾ نَبيٌّ ﴿عربي﴾] استِفهامُ إِنكارٍ مِنهم، يَعني: لَوْ كانَ القُرآنُ بِلُغةِ العَجمِ لَقالوا: لَولا فُصِّلتْ آياتُه، وبُيِّنتْ باللُّغةِ العربيَّةِ، ثُمَّ لَقالوا: أَيضًا أَأَعْجميٌّ وعَربيٌّ، يَعني: لا يُمكنُ أَنْ يَكونَ القُرآنُ بِلُغةِ العَجمِ ونَزلَ عَلى نَبيٍّ عَربيٍّ، وهَذا الَّذي قَالوه استِفهامٌ حَقيقيٌّ، بمَعْنى أَنَّ قَولَهم حَقٌّ لا يُمكنُ أَنْ يَنزلَ قُرآنٌ أَعجميٌّ عَلَى نَبيٍّ عَربيٍّ، وقَد نَصَّ اللهُ عَلى ذَلكَ في قَولِه: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِۦ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ﴾ [إبراهيم:٤]، فكَلامُهم هَذا حقٌّ ونَحنُ نَقبلُهُ.

أمَّا قَولُهم: ﴿لَوْلَا فُصِّلَتْ ءَايَٰتُهُۥٓ﴾، فنَقولُ: هي مُفصَّلةٌ، لَكنَّها حُجَّةٌ لو كانَ القرآنُ أَعجميًّا، وعَلى هَذا يَكونُ قَولُهم صَحيحًا لَوْ كانَ القرآنُ باللُّغةِ الأعجميَّةِ، حُجَّةً في قَولِهم: ﴿لَوْلَا فُصِّلَتْ ءَايَٰتُهُۥٓ﴾، وحقًّا في قولِهم: ﴿ءَا۬عْجَمِىٌّ وَعَرَبِىٌّ﴾.

يَقولُ المفسِّرُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [بتَحقيقِ الهمزةِ الثَّانيةِ] أَنْ تَقولَ: ﴿أأعجمي﴾ كَما هي القِراءةُ المَشهورةُ [وقَلْبُها أَلِفًا] ﴿ءَا۬عْجَمِىٌّ﴾ قَلَبْنا الثَّانيةَ أَلِفًا [بإِشباعٍ ودونِه] يَعني: أَنَّك تَمُدُّ الأَلِفَ مَدًّا طَبيعيًّا أو تَمُدُّها مَدًّا زائدًا عَلى ذَلكَ، والمَدُّ الطَّبيعيُّ قَولُه: ودونه، والمدُّ الزَّائدُ قَولُه: بإِشباعٍ، وعَلَى هَذا فَيكونُ فيها ثَلاثُ قِراءاتٍ: «أَأَعْجَمِيٌّ» «آَعْجَمِيٌّ» ﴿ءَا۬عْجَمِىٌّ﴾ ثَلاثُ قِراءاتٍ.

والقِراءاتُ كَما هو مَعلومٌ كُلُّها سُنَّةٌ؛ لِأَنَّها ثَبتتْ عَنِ النَّبيِّ ﷺ ويَنبَغي لِلإِنسانِ الَّذي أَتقنَها وحَفِظَها أَنْ يَقرأَ بِهذا مَرَّةً، وبِهذا مَرَّةً كَما نَقولُ في العِباداتِ الَّتي وَرَدت عَلى وُجوهٍ مُتنوِّعةٍ: إِنَّه يَنْبَغِي أَنْ تَفعلَ هَذَا مَرةً وهَذا مَرَّةً.

ولَكنْ لا نَقرأُ بِما يُخالِفُ القُرآنَ الَّذي بَينَ أَيْدي العَوامِّ بِقراءةٍ أُخرى، فنَرى أَنَّ مِن عدَمِ الحِكمةِ ما يَفعلُهُ بَعضُ الطَّلبةِ إِذَا كَانَ يَعرفُ القِراءاتِ أَنْ يَقرأَ بالقِراءةِ الَّتي لَيست بَينَ أَيْدي العَوامِّ، فإِنَّ هَذا خَطأٌ عَظيمٌ؛ لأَنَّ العامِّيَّ لا يُدركُ هَذِهِ الأَشياءَ، وسَوفَ يَهبطُ قَدْرُ القُرآنِ في نَفسهِ وتَقِلُّ عَظمتُه عِندَه، ثُمَّ رُبَّما يَتَّهِمُ هَذا القارِئَ بِأَنَّه أَخطأَ وغَلِطَ، فَإذا كانَ الصَّحابةُ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ تَنازَعوا وهُم مَنْ هُمْ في اخْتلافِ القِراءاتِ فَكيفَ بِعَوامِّ هَذا الزَّمانِ.

قالَ اللهُ تَعالى: ﴿قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ أي: قُل يا مُحَمَّدُ في جَوابِهم.

يَقولُ المفسِّرُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ هُدًى﴾ مِنَ الضَّلالةِ ﴿وَشِفَآءٌ﴾ مِنَ الجهلِ]، ﴿هُوَ﴾ الضَّميرُ يَعودُ على القُرآنِ الذِّكرِ ﴿لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ هُدًى﴾ أي:

عِلمٌ ونورٌ، ﴿وَشِفَآءٌ﴾. يَقولُ المفسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [مِنَ الجَهلِ] وهَذا فيه نَظرٌ؛ لأَنَّ مِنَ الجَهلِ داخلٌ في قَولِه: ﴿هُدًى﴾، إذْ إنَّ الهُدى هو العلمُ وَضِدُّه الجَهلُ، لَكن ﴿شِفاء﴾ يَعني: مِن المَرَض مَرَضِ القُلوبِ، كَما قالَ تَعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَتْكُم مَّوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَشِفَآءٌ لِّمَا فِى ٱلصُّدُورِ﴾ [يونس:٥٧]، فالصَّوابُ أَنَّ قَولَه: ﴿هُدًى﴾ مِن الضَّلالةِ وهي الجهلُ، فَهو هُدًى مِن الجَهلِ، وَالضَّلالةُ شِفاءٌ مِنَ المَرضِ مَرَضِ القُلوبِ، بَلْ هو أيضًا شِفاءٌ مِن مَرَضِ الأبدانِ، فَإنَّ القُرآنَ يُستَشفَى بِهِ في أَمراضِ القُلوبِ، ويُستَشفَى بِه كَذلكَ في أَمراضِ الأَبدانِ، وكَمْ مِن إنسانٍ مَريضٍ مَرضًا بَدَنيًّا شَفاه اللهُ تَعالى بِالقُرآنِ.

وقِصَّةُ اللَّديغ -المَشهورةُ- الَّذي كَانَ سَيِّدَ قَومِه، ونَزَلَ به سَرِيَّةٌ مِنَ الصَّحابةِ ولَمْ يُضيِّفوهُم، فَسَخَّر اللهُ تَعالى عَقربًا كَبيرةً شَديدةً فلَدَغتْ سَيِّدَهمْ فطَلَبوا راقيًا مِنَ الصَّحابةِ، فَقالوا: لا نَرْقي لَكُمْ إلَّا بكَذا وكَذا مِنَ الغَنَمِ فَأَعْطَوهم، فذَهَبَ أَحَدُهم يَقرأُ عَليهِ سورةَ الفاتحةِ حَتَّى قَام كَأنَّما نُشِطَ مِنْ عِقالٍ، لَكنَّهمْ تَربَّصُوا فِي الغنمِ الَّتي أَخذوها خافوا أَلَّا تَكونَ حِلًّا لَهمْ حَتَّى أَتَوُا النَّبيَّ -صلَّى اللهُ عليهِ وعَلى آلِه وسلَّم- فَسألوهُ فَقالَ: «خُذوا وَاضْرِبوا لِي مَعكُمْ بِسَهمٍ»[1]، قالَ ذَلكَ لا حاجةَ إلَى اللَّحمِ ولَكن تَطييبًا لِقُلوبِهم وَاطْمِئنانًا لِنُفوسِهم؛ لِيَتبيَّنوا أَنَّه حَلالٌ حَلالٌ لا إِشكالَ فيهِ.

الشَّاهدُ: أَنَّهم أَخبَروا النَّبيَّ -صلَّى اللهُ عليه وعَلى آلِه وسلَّم- أَنَّهم قَرؤوا عَلى هَذا اللَّديغِ الفاتِحةَ فَقالَ: «وَما يُدْريكَ أَنَّها رُقْيَةٌ»، فَتبيَّنَ بِهذا أَنَّ القُرآنَ شفاءٌ مِن

(١) أخرجه البخاري: كتاب الإجارة، باب ما يعطى في الرقية، رقم (٢٢٧٦)، ومسلم: كتاب السلام، باب جواز أخذ الأجرة على الرقية، رقم (٢٢٠١)، من حديث أبي سعيد الخدري رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ.

أَمراضِ القلُوبِ وَأَسقامِ الأَبدانِ لَكنْ، ﴿لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ آمَنوا بِالقُرآنِ وبِأنَّه مِن عِند اللهِ وبأنَّه شِفاءٌ، أَمَّا رَجُلٌ لَمْ يُؤمِنْ به ولَمْ يَرفعْ به رَأسًا ولَمْ يَرَ بِمُخالفتِه بَأْسًا، فَإِنَّ هَذا لا يَنتفعُ بِه.

فإنْ قال قائلٌ: كَيفَ يُشترَطُ للرُّقيةِ أنْ يَكونَ المَرقيُّ -الَّذي يُتلى عليه القُرآنُ- مُؤمنًا بِه وزَعيمُ القَومِ هَذا لَمْ يَكُنْ مُسلِمًا؟

فَالجَوابُ: هو مُؤمنٌ بأَنَّ قِراءتَهم سَوف تُفيدُه، وهَذا لا بُدَّ مِنه؛ لِأَنَّه إذا لَم يُؤمِنْ لَمْ تَنْفعلِ النَّفسُ وتَكُونُ قَابلةً لَه، فَلا يُمكنُ أَنْ تَنفعلَ النَّفسُ لِقَبولِ هَذا العِلاجِ إِلَّا إِذا آمَنَ بأَنَّه مُفيدٌ.

فَإن قيلَ: هَل يُعالَجُ الكافِرُ بِالقُرآنِ؟

فَالجوابُ: نَعَمْ، يُعالَجُ بِالقُرآنِ، ورُبَّما يَكونُ عِلاجُه بِالقُرآنِ أَوْلى مِن عِلاجِ المُؤمنِ بِه؛ لِأَنَّه إذا عَرفَ أَنَّهُ مُؤثِّرٌ يَكونُ ذَلكَ سَببًا لِإِسلامِه.

وإِنْ قالَ قائلٌ: بَعضُ النَّاسِ يَتوسَّعُ فِي الرُّقيةِ الشَّرعيَّةِ ويُضيفُ فيها كَيفيَّاتٍ مِن عِندِه، فَهَلِ الرُّقيةُ مُتوقِّفةٌ عَلى ما جاءَ عَنِ السَّلفِ أَمْ لَهم أَنْ يَتوسَّعوا؟

فَالجَوابُ: الأَوْلى بِالقارِئِ أَنْ يَقتَصِرَ عَلى ما جاءَ بِهِ السَّلَفُ، أَمَّا غَيرُ ما جاءَ عَنِ السَّلفِ فَهَذا رُبَّما نَقولُ: إِنَّه خاضِعٌ لِلتَّجربةِ إِذا جُرِّبَ ونَفعَ، فَالمَقصودُ النَّفعُ، وَإِذا لَمْ يُجَرَّبْ ولكنَّ الإِنسانَ يَتخرَّصُ فَالظَّنُّ بَعضُهُ إِثمٌ.

وإِنْ سَأَلَ سائلٌ عَنِ اسْتِنطاقِ الجِنِّ بِالقُرآنِ، فَبَعضُ مَن يَرْقي يَقولُ أَنَّه اسْتَنطَقَ الجِنَّ، فَقالوا لَهُ كَذا وقَالوا لَهُ كَذا؟

فَالجَوابُ: أَنَّنا لا نَدري عَن هَذا شَيئًا، فَدائِمًا يَقولونَ: إِنَّهم يَسْتَنطِقونَ ودائِمًا

يُعالِجونَ بِالتَّخييلِ يَضعُ القَارئُ يَدَه عَلَى رَأسِ الإنسانِ ويَقولُ: غَمِّضْ عينَيك، مَاذا تَرى؟ يَقولُ: أَرى كَذا وكَذا. يَقولُ: مَنْ تَتَّهِمُ؟ فيَقولُ: أَتَّهِمُ فُلانًا.

هَذهِ طُرُقٌ غَريبةٌ تَحتاجُ إِلَى دِراسةِ أَحوالِ هَؤلاءِ القارِئينَ ومَعرفةِ كَيفَ يَتوصَّلونَ إِلى هَذا، وَمِنْ أَين جاءَهم؟!.

ثم قال اللهُ تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ فِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى﴾ نَسألُ اللهَ العَافيةَ!.

قَولُه تَعالَى: ﴿وَٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ مُبتدأٌ ﴿فِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرٌ﴾ مُبتدأٌ وخَبرٌ، والجُملةُ خَبرُ المُبتدإِ الأَوَّلِ الَّذي هو: ﴿وَٱلَّذِينَ﴾ يعني: كأَنَّه قال: هو للَّذينَ آمَنوا هُدًى وشِفاءٌ، وأَمَّا الَّذين لا يُؤمنونَ فَفي آذَانِهم وَقْرٌ لا يُؤمنونَ بِاللهِ ولا بِالرُّسلِ وَلا بِالكُتبِ هَؤلاءِ: ﴿فِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرٌ﴾ يَقولُ المفسِّرُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [ثِقْلٌ]؛ لأَنَّ الوَقْرَ بِمَعْنى الحِمْلِ الثَّقيلِ، قالَ اللهُ تَعالى: ﴿فَٱلْحَٰمِلَٰتِ وِقْرًا﴾ [الذاريات:٢]، يَعْني: السَّحابَ تَحمِلُ الماءَ الكثيرَ، فَعَلى هَذا يَكونُ ﴿فِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرٌ﴾ أي: ثِقْلٌ وصَمَمٌ فَلا يَسمعونَ وَالعياذُ بِاللهِ.

﴿وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى﴾ فَلا يُبصِرونَ، فَصارتْ مَنافذُ الفَهْمِ عِندَ غَيرِ المُؤمنينَ مَسدودةً لا يَسمَعونَ ولا يُبصِرونَ، فَلا يَصِلُ هُدَى القُرآنِ إِلَى قُلوبِهم: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ يُنَادَوْنَ مِن مَّكَانِۭ بَعِيدٍ﴾.

فَإِذا قالَ قائلٌ: كيفَ يَكونُ الكَلامُ الواحدُ لِقَومٍ هُدًى وشِفاءً ولِآخرينَ عَمًى وضَلالًا، قُلنا: هَذا بِحَسَبِ ما في القَلبِ؛ لأَنَّ اللهَ قالَ: ﴿فَلَمَّا زَاغُوٓاْ أَزَاغَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمْ﴾ [الصف:٥]، ونَحنُ نَرى الغِذاءَ الحِسِّيَّ يَكونُ لِقَومٍ غِذاءً وَشِفاءً، ويَكونُ لِآخَرينَ

مَرَضًا وعِلَّةً، مَثَلًا: بَعضُ النَّاسِ يُحْجَبُ عَنِ التَّمرِ أَوِ العِنبِ أَوْ عَن كلِّ ما فيه حَلالٌ فَيَضُرُّه، وآخَرونَ يَنفعُهم الحَلالُ، مَعَ أَنَّ الطَّعامَ واحدٌ لكنَّ المَحلَّ مُختلِفٌ، يَكونُ مَحَلَّ هَؤلاءِ قابلًا له، ومَحَلُّ آخرينَ غيرُ قابلٍ.

قال اللهُ تَعالى: ﴿وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى أُولَٰئِكَ يُنَادَوْنَ مِن مَّكَانٍ بَعِيدٍ﴾ [فصلت:٤٤]، ﴿أُولَٰئِكَ﴾ المُشارُ إِلَيهِمُ الَّذينَ لا يُؤمنونَ وَأَشارَ إِلَيهِمْ بِصيغَةِ البَعيدِ لَيس رِفْعةً لِشأنِهم وَلَكِنْ إِظْهارًا لِلتَّبرُّؤِ مِنهم وإِبْعادهم: ﴿أُولَٰئِكَ يُنَادَوْنَ مِن مَّكَانٍ بَعِيدٍ﴾ يَعْني: كالَّذي يُنادَى مِن مَكانٍ بَعيدٍ، وَالَّذي يُنادَى مِن مَكانٍ بَعيدٍ يَعوقُه عَن الحُضورِ وَالِاستجابةِ أَمرانِ:

الأمرُ الأوَّلُ: أنَّه لِبُعدِهِ قَد لا يَسمعُ النِّداءَ.

الأمْرُ الثَّاني: أنَّه لِبُعدِهِ قَد يَرى أَنَّ الِاستجابةَ شاقَّةٌ عَليه فَلا يُجيبُ، وعَلَى هَذا فَكَونُهم يُنادَوْنَ مِنْ مَكانٍ بَعيدٍ يَتعلَّقُ بِنِدائهم آفتانِ:

الأُولَى: يَرَوْنَ المَسافةَ بَعيدةً فَيكسلونَ ويَرَوْنها مِن المَشقَّةِ فَيَدعون إجابَةَ المُنادي.

والثَّاني: أَنَّهم لَا يُدركُون المُناديَ لِبُعْدهم عنه فَلا يُجيبونَ عَلَى الوَجْهِ المَطلوبِ.

يَقولُ المفسِّرُ رَحِمَهُ اللَّهُ: [﴿أُولَٰئِكَ يُنَادَوْنَ مِن مَّكَانٍ بَعِيدٍ﴾ أَيْ: هُمْ كَالمُنادَى مِن مكانٍ بَعيدٍ لَا يَسمَعُ].

من فَوائدِ الآيَةِ الكَريمَةِ:

الْفَائِدَة الأُولَى: حِكْمةُ اللهِ عَزَّوَجَلَّ في كَونِ الوَحيِ النَّازلِ عَلَى النَّبيِّ ﷺ على وِفقِ لُغةِ القَومِ الَّذين أُرسِلَ إِلَيهم يُؤخَذُ مِن قَولِه: ﴿وَلَوْ جَعَلْنَٰهُ قُرْءَانًا أَعْجَمِيًّا لَّقَالُوا۟ لَوْلَا فُصِّلَتْ ءَايَٰتُهُۥٓ﴾ [فصلت:٤٤] إلخ؛ واللهُ تَعالَى جَعلَه قُرآنًا عَربيًّا.

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَةُ: أنَّ الحُجَّةَ لا تَقومُ حَتَّى يَفهمَ الإنسانُ مَعْنى هَذهِ الحُجَّةِ، وأَنَّ مُجَرَّدَ البَلاغِ لا يُعَدُّ حُجَّةً قائمةً حتَّى يَفهَمَها مَن بلُغتِه؛ لِأَنَّك لَو أَلقَيْتَ كَلامًا عَربيًّا بِأَفصحِ ما يَكونُ عَلى قَومٍ عَجَمٍ، وهُمْ لا يَعرفونَ مَقصودَكَ أَصلًا فَلا يَفهمونَ شَيئًا، وكَذَلكَ بِالعَكسِ لَو جاءَ رَجلٌ أَعجميٌّ وقامَ يَتكلَّمُ بِأَفصحِ ما يَكونُ من لُغةِ العَجمِ ونَحنُ لَا نَعرفُ مُرادَه لَمْ نَفهمْ مِنه شيئًا؛ ولِهَذا قالَ تَعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِۦ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ﴾ [إبراهيم:٤].

فَإن قالَ قائلٌ: يَرِدُ عَلى قَولِكم هَذا -وَهو أَنَّه لا بُدَّ مِن فَهْمِ الحُجَّةِ بَعد بُلوغِها- قَولُه تَعالَى: ﴿لِأُنذِرَكُم بِهِۦ وَمَنۢ بَلَغَ﴾ [الأنعام:١٩] ولَمْ يَقُلْ: ومَنْ بَلَّغ وفَهِمَ.

قُلنا: هَذا مُطلَقٌ، لكنَّ الآياتِ الأُخرَى تُقيِّدُه أَنَّه لا بدَّ مِن البيانِ والمَعرفةِ، وكَذَلكَ لَو قالَ قائلٌ: يَرِدُ عَلى قَولِكم هَذا قَولُ النَّبيِّ -صلَّى اللهُ عليه وعَلى آلِه وسلَّم-: «وَالَّذي نَفْسي بِيَدِه لا يَسمَعُ بي أَحدٌ من هَذِهِ الأُمَّةِ؛ يَهوديٌّ ولا نَصرانيٌّ، ثُمَّ لَا يُؤمنُ بِما جِئتُ بِه إِلَّا كانَ مِنْ أَصحابِ النَّارِ»(١)، قال: «لا يَسمعُ بي»، فيُقالُ: لأَنَّه إذا سَمِعَ به يَجِبُ عليهِ أَنْ يَبحثَ حتَّى وإِنْ كانَ لا يَفهمُ يَجِبُ عَليه أَنْ يَبحثَ، أَمَّا أَنْ يَترُكَ الأمرَ فَهو لا يُعذَرُ لِتَفريطِه وتَهاونِه، وعَلى هَذا فَلا بدَّ مِنْ بُلوغِ الحُجَّةِ وَلا بدَّ من فَهمِها.

وإِنْ قالَ قائلٌ: فَكَيفَ الجَوابُ عَن قَولِ اللهِ عَزَّوَجَلَّ: ﴿خَتَمَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَعَلَىٰ سَمْعِهِمْ ۖ وَعَلَىٰٓ أَبْصَٰرِهِمْ غِشَٰوَةٌ﴾ [البقرة:٧]؟

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب أحاديث الأنبياء، باب قصة يأجوج ومأجوج، رقم (٣٣٤٨)، ومسلم: كتاب الإيمان، باب قوله: يقول الله لآدم أخرج بعث النار، رقم (٢٢٢)، من حديث أبي سعيد الخدري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

فالجوابُ: خَتمَ عليها بَعد الفَهمِ؛ لِأَنَّ الخَتمَ مَعناه قَدْ يَكونُ خَتْمٌ يَمنَعُ الفَهمَ، وقَدْ يَكونُ خَتْمٌ يَمنعُ الاِنقيادَ كَقولِه تَعالى: ﴿كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ [المطففين:١٤].

ونَحنُ في الحَقيقةِ لا نَتهاونُ في تَكفيرِ مَن كَفَّره اللهُ، ولا نُبالي أَنْ نُكفِّرَ مَن كَفَّره اللهُ، لكنَّنا لا نَتجاسَرُ أَنْ نُكفِّرَ مَن لَمْ يُكفِّرْه اللهُ عَزَّوَجَلَّ، فَالحُكمُ بِالتَّكفيرِ وَعَدم التَّكفيرِ إِلَى اللهِ عَزَّوَجَلَّ لَيس إِلينا وَلا لِعَواطِفِنا، وإِلَّا لَوْ كانَ إِلَينا أَوْ إِلَى عَواطِفِنا لَكُنَّا نُكفِّرُ مَن كانَ فاسقًا، بَلْ قد نُكفِّرُ مَن كان تاركًا لِلأَوْلَى؛ لأنَّ الإنسانَ لَا شكَّ أَنَّ مَعه غَيرةً يَبغُضُ بِها مَن خالفَ الشَّرعَ، لكن كَونُنا نَحكُم عليه بالكُفرِ أَو بِعَدمِ الكُفرِ لَيسَ إِلَينا، بَل هو إِلى اللهِ عَزَّوَجَلَّ، والخَلقُ عَبيدُ اللهِ عَزَّوَجَلَّ لَيسوا عَبيدَنا حتَّى نَحكُمَ عَليهم بِما نَرى، بل نَحكُمُ عَليهم بِمُقتضى كَلامِ اللهِ ورَسولِهِ.

فإِذا دارَ الأَمرُ بين أَنْ نَقولَ: هَذَا كافرٌ وهو يَنتسبُ إِلى الإِسلامِ، وبَين أَنْ نَقولَ: لَيس بِكافرٍ، فَالأحوطُ أَنْ نَقولَ: لَيس بِكافرٍ لأَنَّنا بِهذا سالِمونَ، لَكنْ لَو كَفَّرناه ثُمَّ بِناءً عَلَى تَكفيرِه نَستَبيحُ دَمَه ومالَه ولا نُصَلِّي عليه وَلا نَدعو لَه بِالرَّحمةِ، فَالمَسألةُ لَيست بِسَهلةٍ، والمَسألةُ صَعبةٌ جِدًّا.

ولِهذا خَطأُ مَن يَتسرَّعون بِالتَّكفيرِ أَشدُّ مِن تَهاوُنِ مَن لا يُكفِّرونَ؛ لِما يَترتَّبُ عَلَى التَّكفيرِ مِن المَصائبِ وَالبَلاءِ.

الْفَائِدَةُ الثَّالِثَةُ: أَنَّ التَّناقُضَ بَين الرَّسولِ وَالوَحيِ مُستَحيلٌ، والدَّليلُ قَولُه تَعالى: ﴿وَلَوْ جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا أَعْجَمِيًّا لَّقَالُوا لَوْلَا فُصِّلَتْ آيَاتُهُ ۖ أَأَعْجَمِيٌّ وَعَرَبِيٌّ﴾ [فصلت:٤٤] وَهَذا مُستحيلٌ أَنْ يَتناقَضَ الوحيُ ومَنْ أُوحِيَ إِليه.

الْفَائِدَةُ الرَّابِعَةُ: أنَّ القرآنَ يَكونُ لِأَقوامٍ رَحْمةً ولِآخرينَ نِقمةً، ويَشهَدُ لِهٰذا قَولُه عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: «**القُرآنُ حُجَّةٌ لَك أَوْ عليك**»(١). رَحمةٌ لِلمُؤمنينَ ونِقمةٌ على الكافرينَ، قال اللهُ تَعالى: ﴿وَإِنَّهُۥ لَحَسْرَةٌ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ [الحاقة:٥٠].

الْفَائِدَةُ الخَامِسَةُ: أَنَّه لا يُمكنُ أَنْ يُبتغَى الهُدَى مِن غَيرِ القُرآنِ لِقولِه: ﴿قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ هُدًى﴾ [فصلت:٤٤]، فَمَنِ ابْتغى الهُدَى مِن غَيرِ القُرآنِ أَضلَّه اللهُ، قالَ اللهُ تعالى: ﴿فَمَنِ ٱتَّبَعَ هُدَاىَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَىٰ ﴿١٢٣﴾ وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِى فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ أَعْمَىٰ﴾ [طه:١٢٣-١٢٤].

الْفَائِدَةُ السَّادِسَةُ: أَنَّ القُرآنَ شِفاءٌ مِن أَمراضِ القُلوبِ وَأَسقامِ الأَبدانِ لِقولِه: ﴿هُدًى وَشِفَآءٌ﴾ [فصلت:٤٤].

وقد فَهِمنا أَثناءَ التَّفسيرِ أَنَّ الفاتِحةَ رُقيةٌ، كَذلكَ أيضًا إذا أَردتَ أَنْ تَرقيَ أحدًا فَانْظُر مَع الفاتحةِ الآياتِ المُناسِبةَ، فمَثلًا إِذَا كنتَ تُريدُ أَنْ تَرقِيَه مِنَ السِّحرِ فَاقرأْ إِضافةً لِلفاتحةِ: ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلْفَلَقِ﴾ و﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلنَّاسِ﴾؛ لِأَنَّهما السُّورَتانِ اللَّتانِ رُقِيَ بِهِما الرَّسولُ ﷺ(٢).

كَذلكَ انظُرْ إِلَى آياتِ السِّحرِ الَّتي تُبطِلُ السِّحرَ مِثلَ قَولِه تَعالى عَنْ موسى: ﴿مَا جِئْتُم بِهِ ٱلسِّحْرُ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ سَيُبْطِلُهُۥٓ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُصْلِحُ عَمَلَ ٱلْمُفْسِدِينَ﴾ [يونس:٨١]، وَأَمْثالِ ذَلكَ.

وَإِذَا كُنتَ تُريدُ أَنْ تَرقيَ مِن مَرَضٍ اقرَأِ الآياتِ المُناسبةَ مِثل: ﴿وَإِذَا مَرِضْتُ

---

(١) أخرجه مسلم: كتاب الطهارة، باب فضل الوضوء، رقم (٢٢٣)، من حديث أبي مالك الأشعري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٢) أخرجه البيهقي في الدلائل (٧/ ٩٢-٩٣)، من حديث عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا.

فَهُوَ يَشْفِينِ ﴾ [الشعراء:٨٠]، لِأَنَّ التَّناسبَ بَين الآياتِ الَّتي هي الدَّواءُ وبَين المَرضِ الَّذي هو الدَّاءُ لا بُدَّ أَن يَكونَ أَمرًا مُهمًّا يُراعيه الإِنسانُ.

كَما يُراعي ذلكَ في الأَدويةِ الحِسِّيَّةِ، فَالحارُّ يُعالَجُ بِالباردِ، ولِهذا قال النَّبيُّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ في الحُمَّى: «الحُمَّى مِن فَيحِ جهنَّمَ فَأَبرِدوها بالمَاءِ»[1]، وقَدْ شَهِدَ الأَطبَّاءُ الآنَ أنَّ البُرودةَ لِمَنْ أُصيبَ بِالحُمَّى مِنْ أَكبرِ العِلاجِ حتَّى كانوا يجعَلونَ المَريضَ أَحيانًا إِلَى جَنبِ المُكيِّفِ مِنْ أَجْل البُرودةِ، ويَضَعون أَحيانًا عَلى المَريضِ بِالحُمَّى ثَوبًا مَبْلولًا بِالماءِ مِن أَجْلِ تَبريدِه.

فَإِن قال قائلٌ: سَبقَ أَنَّ الأَصلَ إِبقاءُ المُطلَقِ عَلى ما جاء، وَهُنا بَعض أَهلِ العِلمِ يُقيِّدونَ بَعضَ الأَمراضِ بِآياتٍ مُعيَّنةٍ، يَقولُ: تَقرأُ آيةَ كَذا وكَذا وهَكَذا، فَهَلْ هَذا يُخالِفُ القاعدَةَ أَمْ لا؟

فالجَوابُ: هَذا لا يُخالفُ القاعدةَ فَهَذه مُوافِقةٌ لِلحِكمةِ، كَما ذَكرنا أَنَّ المَرضَ يُعالَجُ بِما يُناسبُه.

فَإِنْ قيلَ: مِنْ أَين عَرَفوا هَذا؟

فالجَوابُ: مِن حِكْمةِ اللهِ عَزَّوَجَلَّ فَيُعرَفُ هَذا مِنَ الحِكْمةِ.

الْفَائِدَةُ السَّابِعَةُ: أَنَّ الإِنسانَ كُلَّما كانَ أَقوى إِيمانًا كانَ أَهدى وَأَشفى مِن قَولِه تَعالَى: ﴿قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ هُدًى وَشِفَآءٌ﴾ [فصلت:٤٤]، وهُنا قاعِدةٌ مُفيدةٌ مُهمَّةٌ: أَنَّ كلَّ حُكمٍ مُعلَّقٍ بِوَصفٍ أَوْ مُرتَّبٍ على وَصْفٍ، فَإِنَّه يَقوى بِقُوَّةِ ذَلك الوَصْفِ ويَضْعُفُ بِضَعفِ ذَلك الوَصْفِ.

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب بدء الخلق، باب صفة النار وأنها مخلوقة، رقم (٣٢٦٣)، ومسلم: كتاب السلام، باب لكل داء دواء واستحباب التداوي، رقم (٢٢١٠)، من حديث عائشة رَضِيَٱللَّهُعَنْهَا.

الْفَائِدَةُ الثَّامِنَةُ: بَلاغةُ القُرآنِ بِتَصويرِ المَعقولِ بِصورَةِ المَحسوسِ، فَهَؤلاءِ الَّذين لا يُؤمنونَ لَوْ أَنَّك نَظَرتَ إِلَيهم نَظرةً حِسِّيَّةً لم تَجِدْ: ﴿فِيٓ ءَاذَانِهِمۡ وَقۡرٞ﴾؛ لِأَنَّهم يَسمَعونَ، وَقَدْ يَكونونَ أَقوى سَمْعًا مِن المُؤمنِينَ، ولَمْ تَجِدْ أَيضًا أَنَّهمْ إِذا قُرِئَ عليهمُ القُرآنُ عَميَتْ أَعينُهم كَما قالَ: ﴿وَهُوَ عَلَيۡهِمۡ عَمًى﴾، ولَمْ تَجِدْ أَنَّهمْ يُنادَون مِن مَكانٍ بَعيدٍ، بَل تُعْرَضُ عَليهم الدَّعوةُ إِلَى جَنْبِ الدَّاعي، لَكنَّ هَذا مِن بَلاغةِ القُرآنِ أَنْ يُصَوِّرَ الشَّيءَ المَعقولَ بِصورَةِ المَحسوسِ حتَّى يَكونَ أَقربَ إِلى الفَهمِ، فَهُنا صَوَّر اللهُ حالَ هَؤلاءِ بأَنَّهمْ صُمٌّ وبأَنَّهم عُمْيٌ وبِأَنَّهمْ بَعيدونَ مِن الدَّاعي.

• • ❁ • •

الآية (٤٥)

• • ೞ • •

۞ قالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ فَٱخْتُلِفَ فِيهِ ۗ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ لَقُضِىَ بَيْنَهُمْ ۚ وَإِنَّهُمْ لَفِى شَكٍّ مِّنْهُ مُرِيبٍ﴾ [فصلت:٤٥].

• • ೞ • •

﴿ءَاتَيْنَا﴾ أَعْطَيْنَا، والإِيتاءُ هُنا إِيتاءٌ شَرعيٌّ قَدَريٌّ، إِيتاءٌ شَرعيٌّ؛ لِأَنَّه أُضيفَ إِلَى الوَحْيِ، وقَدَرِيٌّ؛ لِأَنَّه وَقَعَ فِعلًا.

وَموسى عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ هو أَفضلُ أَنْبياءِ بَني إِسرائيلَ، وهو بالنِّسبةِ لِأُولي العَزمِ بِالمَرتبةِ الثَّالثةِ؛ لِأَنَّ أُولي العَزمِ خَمسةٌ، أَفضلُهم مُحَمَّدٌ ﷺ ثُمَّ إبراهيمُ ثُمَّ موسى، وَهو -أَيْ مُوسَى- أَكثرُ الأنبياءِ أَتْباعًا بَعْدَ الرَّسولِ ﷺ لِحَديثِ: «**أَنَّه عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ رَأى سَوادًا عَظيمًا قَدْ سَدَّ الأُفقَ فَقيلَ: هَذا موسى وقَومُه**»[1].

يَقولُ المفسِّرُ رَحِمَهُ اللَّهُ: [﴿ٱلْكِتَٰبَ﴾ التَّوراةِ] وسُمِّيتْ كتابًا لأَنَّها مَكتوبةٌ، قالَ اللهُ تَعالى: ﴿وَكَتَبْنَا لَهُۥ فِى ٱلْأَلْوَاحِ مِن كُلِّ شَىْءٍ﴾ [الأعراف:١٤٥] فَهي نَزَلت مَكتوبةً.

يَقولُ المفسِّرُ رَحِمَهُ اللَّهُ: [﴿فَٱخْتُلِفَ فِيهِ﴾ بِالتَّصديقِ والتَّكذيبِ كَالقُرآنِ]، اخْتَلفَ فيه أَقوامُه، قَومُ موسى اخْتلفوا، فَمِنهم مَنْ صَدَّقَ، ومِنهم مَن كَذَّبَ، لكنَّ قَومَ موسَى مَشهورونَ بِالعُتُوِّ والطُّغيانِ والِاستِكبارِ العَظيمِ والجهلِ العَميقِ، لَـمَّا

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب الطب، باب من اكتوى أو كوى غيره، رقم (٥٧٠٥)، ومسلم: كتاب الصيام، باب صوم يوم عاشوراء، رقم (١١٣٠)، من حديث ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.

مَرُّوا بأَقوامٍ يَعبدونَ غيرَ الله: ﴿قَالُواْ يَـٰمُوسَى ٱجْعَل لَّنَآ إِلَـٰهًا كَمَا لَهُمْ ءَالِهَةٌ﴾ [الأعراف:١٣٨]، ولَمَّا صَنَعوا مِنَ الحُلِيِّ عِجلًا قالوا: ﴿هَـٰذَآ إِلَـٰهُكُمْ وَإِلَـٰهُ مُوسَىٰ﴾، فَجعلوا العِجلَ الَّذي صَنَعوه بِأَيديهِمْ إِلَهًا، نَسأَلُ اللهَ العافيةَ.

قَالَ اللهُ تعالَى: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَـٰبَ فَٱخْتُلِفَ فِيهِ﴾ [فصلت:٤٥]، لَـمَّا ذَكَرَ اللهُ تعالَى هَذا الكِتابَ العَزيزَ، وَأَنَّه لِلَّذينَ آمَنوا هُدًى وشِفاءٌ ولِلَّذين في قُلوبِهم مَرضٌ: ﴿وَٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ فِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى﴾ بَيَّنَ ما كانَ مِنَ الأُممِ السَّابقةِ نَحوَ كُتُبِـهم فَقالَ: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَـٰبَ﴾ [فصلت:٤٥] ﴿آتينا﴾ بمَعْنى أَعْطَـيْنا، الجُملةُ هَذه مُؤَكَّدةٌ بِثَلاثةِ مُؤَكِّداتٍ وَهي:

القَسَمُ وَاللَّامُ وَ(قَدْ) وَتَقديرُ الكلامِ: وَاللهِ لَقدْ آتَيْنا، وَهو يَقعُ كَثيرًا في الكِتابِ العَزيزِ، أَيْ: مِثْلُ هَذه الصِّيغَةِ تَقَعُ كَثيرًا في القُرآنِ، وقَولُه: ﴿ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَـٰبَ﴾ هَذا الإِتيانُ إِتيانٌ كَونيٌّ وشَرعيٌّ، فاللهُ تَعالى قَد أَنزلَ عليه التَّوراةَ فِعلًا، وقَدْ آتاهُ الحُكمَ بِها.

و﴿مُوسَى﴾ هو ابْنُ عِمرانَ عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ أَفضلُ أَنبياءِ بَني إِسرائِيلَ، وَهو في المَرتبةِ الثَّالثةِ بِالنِّسبةِ لِأُولي العَزمِ؛ لِأَنَّ أُولي العزمِ هُم خَمسةٌ أَفْضلُهم مُحَمَّدٌ ﷺ، ثُمَّ إِبْراهِيمُ ثُمَّ موسى عليهم الصلاة والسلام.

يَقولُ المفسِّرُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿ٱلْكِتَـٰبَ﴾ التَّوراةُ] وسَمَّاها اللهُ تَعالى كِتابًا؛ لأَنَّ اللهَ كَتبها بِيدِه تَباركَ كَمـا قالَ تَعالى: ﴿وَكَتَبْنَا لَهُۥ فِى ٱلْأَلْوَاحِ مِن كُلِّ شَىْءٍ مَّوْعِظَةً وَتَفْصِيلًا لِّكُلِّ شَىْءٍ﴾ [الأعراف:١٤٥].

يَقولُ المفسِّرُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿فَٱخْتُلِفَ فِيهِ﴾ بِالتَّصديقِ وَالتَّكذيبِ كَالقُرآنِ] أَي: اخْتَلفَ النَّاسُ فيه فَمِنهم المُصدِّقُ ومِنهم المُكذِّبُ كَما كانَ النَّاسُ أيضًا بالنِّسبةِ لِلقُرآنِ،

وهَكذا جَميعُ الأُممِ بِالنِّسبةِ لِما جاءت بِه الرُّسلُ مِنهمُ المُصدِّقُ وَمِنهمُ المُكذِّبُ، كَذلِكَ أيضًا جَميعُ ما جاءَتْ بِه الرُّسُلُ يَختلِفُ النَّاسُ فيه بَين مُؤمنٍ وكافرٍ، وهَذا تَسليةٌ لِلرَّسولِ -صلَّى اللهُ عليه وَعلى آله وَسلَّم-.

قال اللهُ تَعالى: ﴿وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ لَقُضِىَ بَيْنَهُمْ﴾ [فصلت:٤٥]، ﴿وَلَوْلَا﴾ هَذه حَرْفُ شَرطٍ، وَهي كَما قال النُّحاةُ: حَرفُ وُجودٍ لِعَدمٍ، ﴿وَلَوْلَا كَلِمَةٌ﴾ هَذا مَوجودٌ ﴿لَقُضِىَ﴾ هَذا مَعدومٌ.

يَقولُ المفسِّرُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ﴾ بتَأخيرِ الحِسابِ وَالجَزاءِ لِلْخلائقِ إِلَى يَومِ القِيامةِ]، فَإِنَّ الجَزاءَ الكامِلَ إِنَّما يَكونُ يَومَ القِيامةِ، أَمَّا في الدُّنيا فَهو جزاءٌ لَا شكَّ يُعاقَبُ فيه المُجرمونَ ويُفلحُ فيه المؤمنونَ، لَكنَّه لَيس الجَزاءَ الكاملَ مِن كلِّ وَجهٍ.

يَقولُ المفسِّرُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿لَقُضِىَ بَيْنَهُمْ﴾ في الدُّنيا فيما اختَلفوا فيه]، وَالمُرادُ بِذلك القَضاءُ التَّامُّ فَلا يُنافي هَذا ما وَقعَ لِآلِ فِرعونَ مِنَ الغرقِ وَالهلاكِ لَمَّا كَذَّبوا موسَى عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ.

يَقولُ المفسِّرُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿وَإِنَّهُمْ﴾ أَي: المُكذِّبينَ بِه ﴿لَفِى شَكٍّ مِّنْهُ مُرِيبٍ﴾ مُوقعٌ في الرِّيبةِ].

من فوائدِ الآيةِ الكريمةِ:

الْفَائِدَة الأُولَى: تَأكِيدُ الكَلامِ إِذا دَعَتِ الحَاجةُ إِلَيه، إمَّا لِأَهمِّيَّتِه، وإمَّا لِلشَّكِّ فيه، وإمَّا لِإنكارِه، قالَ عُلماءُ البَلاغةِ: والمُخاطَبُ لَهُ ثَلاثُ حالاتٍ:

الحالُ الأُولَى: حَالُ ابتداءٍ وَهي أَلَّا يَكونَ عِندَ المُخاطَبِ عِلمٌ ولا تَردُّدٌ ولا إِنكارٌ،

هَذا تُلقى إِليهِ الجُملةُ غَيرَ مُؤكَّدةٍ؛ لأنَّه لا حاجةَ لِلتَّوكيدِ، مِثلَ أَنْ يُقالَ: قَدِمَ فُلانٌ اليومَ لِإِنسانٍ لَمْ يَكُنْ في قَلبِه شيءٌ مِن قُدومِه إِثباتًا وَلا نَفيًا، وَتُسمَّى هَذِه الجُملةُ ابتِدائيَّةً.

الحالُ الثَّانيةُ: أَنْ يَكونَ المُخاطَبُ مُتردِّدًا في الأمرِ شاكًّا فيه لَكنَّه لَا يُنكِرُه، فَهَذا يَحتاجُ إِلى تَوكيدٍ لكنَّه لَيس بواجبٍ، مِثل أَنْ تُخاطِبَ رَجُلًا في أَمرٍ يَستَبعدُه لكنَّه لَا يُنكرُه، فهُنا يَحسنُ أَنْ تُؤكِّدَ لَه الكَلامَ من أَجلِ أنْ يَزولَ عَنه الشَّكُّ وَالتَّردُّدُ.

الحالُ الثَّالثةُ: أَنْ يَكونَ مُنكِرًا مُكذِّبًا، فَهذا يَتعيَّنُ تَوكيدُ الخبرِ لَه؛ لِأنَّ ذَلك أَبلغُ في إِقامَةِ الحُجَّةِ عَليهِ وَإِقْناعِه.

إِذن: أَحوالُ المُخاطَبِ ثَلاثةٌ: ابتداءٌ، وتَردُّدٌ، وإِنكارٌ، ولِكلِّ حالٍ حُكمُها فِيما يَتعلَّقُ بِالتَّوكيدِ.

فَإِنْ قال قائلٌ: يَردُ عَلى كَلامِكم هَذا قَولُه تَعالَى: ﴿ثُمَّ إِنَّكُم بَعْدَ ذَٰلِكَ لَمَيِّتُونَ ﴿١٥﴾ ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ تُبْعَثُونَ﴾ [المؤمنون:١٥-١٦] وَالمُرادُ الجُملةُ الأُولى: ﴿ثُمَّ إِنَّكُم بَعْدَ ذَٰلِكَ لَمَيِّتُونَ﴾ فَلا أحدَ يُنكرُ الموتَ حتَّى يُؤكَّدَ له، أَجابوا عَنْ ذَلك بأنَّ تكذيبَهم وإِنكارَهم وَاستِكبارَهم وتَمرُّدهم يَفعلونَ ذَلِكَ فِعلَ المُنكِرِ فخوطِبوا خِطابَ المُنكِرِ، وهَذا لَا شكَّ أَنَّه جوابٌ صَحيحٌ.

وقولُه تَعالَى: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ﴾ مُؤكَّدٌ بثَلاثِ مُؤكِّداتٍ؛ لِأَهمِّيَّةِ المَوضوعِ؛ لِأنَّ المَوضوعَ مُهِمٌّ فَيحتاجُ إِلَى التَّوكيدِ لِتَسليةِ الرَّسولِ عَلَيهِ الصَّلاةُ وَالسَّلامُ.

وإِنْ قال قائلٌ: هَلِ الجُملةُ الخَبريَّةُ تُؤكَّدُ لِلاهتمامِ بالأَمرِ؟

فَالجوابُ: أَنَّ تَوكيدَ الخَبرِ لِلاهتمامِ بِه وَإِنْ كانَ المُخاطَبُ مُقِرًّا حالَ المُخاطِبِ

لا تَستدعي التَّوكيدَ؛ لِأنَّه مُقِرٌّ لكنَّ الِاهتمـامَ به اقْتَضَى التَّوكيدَ مَثلًا: ﴿لَآ أُقۡسِمُ بِيَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِ﴾ [القيامة:١] إنْ خاطَبنا بِهِ المُؤمنَ فَهو لِلتَّوكيدِ فَقَطْ وَالِاهتمـامُ بِالأمرِ، وَإِنْ خاطَبنا به المُنكِرَ صارَ لِلإنكارِ.

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَةُ: إثباتُ رِسالةِ موسَى تُؤخذُ مِن قولِه تَعالى: ﴿وَلَقَدۡ ءَاتَيۡنَا مُوسَى ٱلۡكِتَٰبَ﴾، ووَجهُ ذَلك أَنَّ الكِتابَ لَا يُؤتَى إِلَّا لِنبيٍّ.

الْفَائِدَةُ الثَّالِثَةُ: وُجوبُ الإيمانِ بِأنَّ اللهَ تَعالى آتَى موسى كِتابًا؛ لِأنَّ اللهَ أَخبرَ بِه وخَبرُه حَقٌّ، ولأنَّ ذَلك مِن الإيمانِ بِكُتب اللهِ.

الْفَائِدَةُ الرَّابِعَةُ: أنَّ الخِلافَ لَم يَكنْ بِدْعًا في الأُممِ، وقَدْ سَبقَ هَذه الأُمَّةَ مَنِ اختلفوا في كُتُبِهم ورُسلِهم لِقَولِه: ﴿فَٱخۡتُلِفَ فِيهِ﴾.

الْفَائِدَةُ الخَامِسَةُ: تَسليةُ المُصابِ بِذِكرِ المُشارِكِ لَه؛ لأنَّ الغَرضَ مِنَ الإِخبارِ بِأنَّ اللهَ آتى موسى الكِتابَ ﴿فَٱخۡتُلِفَ فِيهِ﴾، تَسليةُ النَّبيِّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ، وعلى هَذا فَينبَغي تَسليةُ المُصابِ، ومِنه ما يُسمَّى بِتعزيةِ المُصابِ بِالمَوتِ، فَمَن أُصيبَ بموتٍ، فَإنَّ مِنَ السُّنَّةِ أَنْ يُعزَّى أي: يُقَوَّى على الصَّبرِ عَلى المُصيبةِ، وتَسليةُ المُصابِ سُنَّةٌ لِما في ذَلك مِن رَفعِ أَلَمِ المُصيبةِ عَن أَخيكَ المُسلمِ.

الْفَائِدَةُ السَّادِسَةُ: حِكمةُ اللهِ عَزَّوَجَلَّ بِتأخيرِ العَذابِ عن مَنْ كَذَّبوا الرُّسلَ؛ لِأنَّ اللهَ تَعالى جَعلَ لك شيئًا قَدرًا، فمِنْ حِكمَتِه تَأخيرُ العذابِ عَنِ الأُممِ لَعلَّهم يَرجِعونَ.

الْفَائِدَةُ السَّابِعَةُ: تَمامُ سُلطانِ اللهِ عَزَّوَجَلَّ وأَنَّه جَلَّوَعَلَا هو المُدبِّرُ لِلأمـورِ أَخْذًا ورَفْعًا لِقولِه: ﴿وَلَوۡلَا كَلِمَةٞ سَبَقَتۡ مِن رَّبِّكَ﴾ [فصلت:٤٥].

الْفَائِدَةُ الثَّامِنَةُ: رِفعةُ مَنزلةِ الرَّسولِ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ عِندَ اللهِ تُؤخذُ مِن قَولِه: ﴿مِن رَّبِّكَ﴾ فَأضافَ الرُّبوبيَّةَ إِليه، وَهذه رُبوبيَّةٌ خاصَّةٌ، وهي تُفيدُ عُلُوَّ مَنزلةِ المَربوبِ عِندَ اللهِ عَزَّوَجَلَّ وقَدِ اجْتمعتِ الرُّبوبيَّتانِ العامَّةُ والخاصَّةُ في قَولِ السَّحَرةِ مِن آلِ فِرعونَ: ﴿قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا بِرَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ﴾ [الأعراف:١٢١] ﴿رَبِّ مُوسَىٰ وَهَـٰرُونَ﴾ [الأعراف:١٢٢] الأُولى: رَبُّ العالَمينَ عامَّةٌ، والثَّانيةُ: خَاصَّةٌ.

الْفَائِدَةُ التَّاسِعَةُ: أنَّ اللهَ تَعالى يُكَنِّي عَنِ الشَّرِّ بِبناءِ الفِعلِ لِما لَمْ يُسمَّ فاعِلُه لِقولِه: ﴿لَقُضِىَ بَيْنَهُمْ﴾ ولم يَقُلْ: لَقَضى بينهُم، وهَذا هو المُطَّردُ في القُرآنِ وَالغالبُ، وَانْظُرْ إِلَى أَدَبِ الجِنِّ حيثُ قالوا: ﴿وَأَنَّا لَا نَدْرِىٓ أَشَرٌّ أُرِيدَ بِمَن فِى ٱلْأَرْضِ أَمْ أَرَادَ بِهِمْ رَبُّهُمْ رَشَدًا﴾ [الجن:١٠] أَدَبٌ عالٍ، فَقالوا في الشَّرِّ: ﴿أُرِيدَ بِمَن فِى ٱلْأَرْضِ﴾ وَلَمْ يُضيفوه إِلَى اللهِ، وفي الرُّشدِ قالوا: ﴿أَمْ أَرَادَ بِهِمْ رَبُّهُمْ رَشَدًا﴾ ولم يقولوا: أَمْ أُريدَ بِهم رَشدًا.

وهَذا مِنْ أَدبِ الجنِّ، والجِنُّ أَحيانًا يكونونَ آدَبَ مِن الإنسِ: ﴿وَإِذْ صَرَفْنَآ إِلَيْكَ نَفَرًا مِّنَ ٱلْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ ٱلْقُرْءَانَ فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوٓا۟ أَنصِتُوا۟﴾ [الأحقاف:٢٩]، أَوصى بَعضُهم بَعضًا أَنْ يُنصِتوا حتَّى يَستمِعوا استِماعًا تامًّا، ﴿فَلَمَّا قُضِىَ﴾ أيضًا لَمْ يَتوقَّفوا أَوْ يَكسلُوا، ﴿وَلَّوْا۟ إِلَىٰ قَوْمِهِم مُّنذِرِينَ﴾ [الأحقاف:٢٩] بادَروا إِلَى قَومِهم مُنذِرينَ: ﴿قَالُوا۟ يَـٰقَوْمَنَآ إِنَّا سَمِعْنَا كِتَـٰبًا ...﴾ إِلَخْ.

الْفَائِدَةُ الْعَاشِرَةُ: أَنَّ المُكذِّبينَ بكِتابِ مُوسَى في شكٍّ مُريبٍ مُوقِعٌ في الرَّيبِ، وهو الشَّكُّ مَع القَلقِ يَعْني: الفَرقُ بَينَ الرَّيبِ والشَّكِّ قَريبٌ؛ ولِهذا يُفسِّرُ بَعضُ العُلماءِ الرَّيبَ بِالشَّكِّ، ولكنَّ شَيخَ الإِسلامِ رَحِمَهُ ٱللَّهُ قال: «هَذا تَفسيرٌ قَريبٌ»[1].

(١) مجموع الفتاوى (١٣/ ٣٤٢).

والرَّيبُ أَخصُّ مِن مُطلَقِ الشَّكِّ إِذْ إِنَّ فيه قلقًا مَع ريبةٍ، وذَلكَ لِأَنَّ الأمرَ المشكوكَ فيه إمَّا أَلَّا يكونَ ذا أَهمِّيَّةٍ فتجدُ الشَّاكَّ فيه يَقولُ: ما يَهُمُّني ثَبتَ أَم لَم يَثْبُتْ، وإمَّا أَنْ يَكونَ ذا أَهمِّيَّةٍ فحينئذٍ إذا شَكَّ فيه سيكونُ في قلقٍ أَيُؤمنُ بِهذا أَمْ يُنكرُ؛ لِأَنَّه أمرٌ هامٌّ، فَالغالبُ أَنَّ الرِّيبةَ لا تَأتي إِلَّا في الأُمورِ الهامَّةِ، وأَمَّا الشَّكُّ الَّذي يُشَكُّ هَلْ فُلانٌ قَدِمَ أو ما قَدِمَ، وليس له أَهمِّيَّةٌ في قُدومِه أو غيابِه، فَهذا لَا يوجبُ الرِّيبةَ.

الْفَائِدَةُ الحَادِيَةَ عَشْرَةَ: أَنَّ الإيمانَ يَجِبُ أَلَّا يُخالطَه شَكٌّ، وأَنَّه إذا وَرَدَ عَلَى القَلبِ شَكٌّ ولَو يَسيرًا بِشَرطِ أَلَّا يُدافعَه بَل يَركَنُ إِليه، فَإِنَّ هذا مُحبِطٌ لِإِيمانِه، أَمَّا لَو وَرَدَ الشَّكُّ عَلى القَلبِ وطَردَه وجاهَدَ نَفسَه عَلى دَفعِه، فَهذا لا يَضُرُّه شيئًا، ولِهذا أَخبرَ النَّبيُّ عَلَيهِ الصَّلاةُ وَالسَّلَامُ «**أَنَّ النَّاسَ يَتساءلونَ مَنْ خَلَقَ كذا مَنْ خَلَقَ كذا؟ حتَّى يَقولوا: مَنْ خلَقَ اللهَ؟**» وهذا شَكٌّ ولَكنَّ الرَّسولَ أَخبرَ قَالَ: «**فَإذا بَلَغَ أحدُكم ذَلكَ -أو كَلمةً نَحوها- فَليَستَعِذْ بِاللهِ ولْيَنْتَهِ**»(١)، وأَخبرَه الصَّحابةُ أَنَّهم يَجِدون في نُفوسِهِمْ مَا يُحبُّونَ أَنْ يَكونوا حِممًا -أي: فَحْمةً مُحتَرِقَةً- ولَا يَنطقونَ بِهِ، فقالَ ﷺ: «**ذاكَ صَريحُ الإِيمانِ**»(٢).

فالحاصِلُ: أَنَّ الشَّكَّ الواردَ عَلى القَلبِ إِنِ اطْمأنَّ بِهِ الإِنسانُ ورَكَنَ إِليه، فَلْيَعلمْ أَنَّه ليس بِمؤمنٍ؛ لأنَّ الإِيمانَ يُنافيه شيئانِ: الشَّكُّ، والإِنكارُ. أَمَّا إِذا وَرَدَ عَلَى القلبِ وطارَدَه وجاهَدَ نَفسَه عَلى تَرْكِه، فَفي هَذه الحالِ لا يَضُرُّه، بَلْ هذا صَريحُ الإِيمانِ وخالصُ الإِيمانِ، وذَلكَ أَنَّ الشَّيطانَ لا يورِدُ مِثلَ هذِه الأُمورِ عَلى قَلبٍ مَيِّتٍ،

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب بدء الخلق، باب صفة إبليس وجنوده، رقم (٣٢٧٦)، ومسلم: كتاب الإيمان، باب بيان الوسوسة في الإيمان، رقم (١٣٤)، من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٢) أخرجه مسلم: كتاب الإيمان، باب بيان الوسوسة في الإيمان، رقم (١٣٢)، من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

فالقلبُ الميِّتُ مُستريحٌ مِنه، إنَّما يورِدُها على قَلْبٍ حَيٍّ لِيُميتَه، ولَمَّا ذَكَر اليَهودُ لابنِ مَسعودٍ أَوْ لِابنِ عَبَّاسٍ أَنَّهم لا يُوَسْوَسونَ في صَلاتِهِمْ، يُريدونَ بِهذا أَنْ يَفتَخِروا على المُسلمينَ، قال: صَدَقوا وما يَصنعُ الشَّيطانُ بِقلبٍ خَربٍ. وهذه كَلمةٌ عَظيمةٌ! يَعني: أنَّ قُلوبَهم خَرِبَةٌ، والشَّيطانُ ماذا يَصنَعُ في قَلبٍ خَرابٍ؟ أَيَأتي إِليه لِيُخرِبَه؟ الجوابُ: لا، إنَّما يَأتي الشَّيطانُ بِهَذه الوَساوسِ إِلى قَلبٍ حَيٍّ لِيُهلِكَه أو يُمْرِضَه.

• ● ۞ ● •

الآية (٤٦)

قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿مَّنْ عَمِلَ صَٰلِحًا فَلِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَنْ أَسَآءَ فَعَلَيْهَا ۗ وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ﴾ [فصلت:٤٦].

قوله: ﴿مَّنْ عَمِلَ صَٰلِحًا فَلِنَفْسِهِۦ﴾ هَذه جُملةٌ شَرطيَّةٌ أَداةُ الشَّرطِ فيها ﴿مَّنْ﴾ وفِعلُ الشَّرطِ ﴿عَمِلَ﴾ وجوابُ الشَّرطِ ﴿فَلِنَفْسِهِۦ﴾ تَمامُ هَذه الجُملةِ شرطيَّةٌ، واقْتُرِنَتْ بِالفاءِ لِأَنَّها جُملةٌ اسميَّةٌ إِذِ التَّقديرُ: فَعَمَلُه لِنفْسِه، وقَدَّرَها المفسِّرُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ بِقولِه: [﴿فَلِنَفْسِهِۦ﴾ عمل]، ولَكِنْ إذا قَدَّرناها جُملةً اسميَّةً فَلا حَرَجَ.

﴿صَٰلِحًا﴾ صِفةٌ لِموصوفٍ مَحذوفٍ، والتَّقديرُ: عَملًا صالحًا، والعَملُ الصَّالحُ مَا اجْتَمعَ فيه أمرانِ:

الأَوَّلُ: الإِخلاصُ للهِ عَزَّوَجَلَّ.

والثَّاني: المُتابَعةُ لِشَريعةِ اللهِ، وَلا نَقولُ هنا: المُتابَعةُ لِمُحمَّدٍ ﷺ لأَنَّنا نَتكلَّمُ عَنِ العَمَلِ الصَّالحِ في هَذه الأُمَّةِ وَفي غَيرِ هَذه الأُمَّةِ، فَنقولُ: الإِخلاصُ للهِ والمُتابعةُ لِشَريعةِ اللهِ؛ لِيَشملَ ما كانَ في أُمَّةِ مُحمَّدٍ ﷺ وما كان في أُمَمٍ سابقةٍ.

إِذا فَقَدَ الإِخلاصَ فَليس بِصالحٍ؛ لأَنَّه شِركٌ مَردودٌ على صَاحِبه، قال اللهُ تَعالى في الحَديثِ القُدسيِّ: «أَنا أَغنى الشُّركاءِ عَنِ الشِّركِ، مَنْ عَمِلَ عَمَلًا أَشْركَ فيه مَعي

غَيري تَرَكْتُه وشِرْكَه»[1]، ومَنْ أَخلصَ لكن عَلَى غَيرِ شَريعةِ اللهِ فَعَمَلُه بِدعةٌ مَردودٌ؛ لِقولِ النَّبيِّ -صلَّى اللهُ عَليه وعلى آلِه وسلَّم-: «مَنْ عَمِلَ عملًا لَيس عَليه أَمرُنا فَهو رَدٌّ»[2]. وَفي رِوايةٍ: «مَنْ أَحدثَ في أَمرِنا هَذا ما لَيس مِنه فَهو رَدٌّ»[3].

قَولُه: ﴿فَلِنَفْسِهِۦ﴾ يَعْني: فَالمَصلحةُ لِنفسِه، فَإِنَّ ذَلك لا يَنفعُ اللهَ شيئًا، ولِهَذا قال اللهُ تَعالى في الحَديثِ القُدسيِّ الَّذي رَواه أَبو ذَرٍّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّ اللهَ قال: «يا عِبادي لَو أَنَّ أَوَّلَكم وآخِرَكم وإِنْسَكم وجِنَّكم كانوا على أَتْقى قَلبِ رَجلٍ واحدٍ مِنكم ما زاد ذَلِكَ في مُلْكي شيئًا»[4]. لِماذا؟ لِأَنَّ اللهَ تَعالى لا يَنتفعُ بِطاعةِ الطَّائعينَ، وَلا يَتضرَّرُ بِمعصيةِ العاصينَ، فَالعملُ لِنفسِك.

يَقولُ المفسِّرُ رَحِمَهُ اللَّهُ: [﴿وَمَنْ أَسَآءَ فَعَلَيْهَا﴾ أي: فَضـرَرُ إِساءَتِه عَلى نَفسِه]، وَلَوْ قُلنا: التَّقديرُ فَإِساءَتُه عليها لَكفى، مَنْ أَساءَ، أي: عَمِلَ عَملًا غَيرَ صالِحٍ، وَالَّذي يَدُلُّنا عَلى أَنَّ المُرادَ بِالإِساءَةِ هُنا العَملُ غَيرُ الصَّالحِ أَنَّهُ قُوبِلَ بِما سَبَقَ بِمَن عَمِلَ عَملًا صالحًا، وهَذا أَحدُ الطُّرقِ الَّتي يُعرفُ بِها تَفسيرُ القُرآنِ الكَريمِ بَلْ وغَيرُهُ مِن الكَلامِ، إِذا ذُكِرَ الشَّيءُ ثُمَّ ذُكِرَ ما بَعدَه عَلى وَجهِ المُقابَلةِ فيُفسَّرُ ما بَعدَه عَلى ضِدِّ ما قَبله، وَمِن ذَلكَ قَولُه تَعالى: ﴿فَٱنفِرُواْ ثُبَاتٍ أَوِ ٱنفِرُواْ جَمِيعًا﴾ [النساء:٧١] لَو أَنَّك

---

(١) أخرجه مسلم: كتاب الزهد، باب من أشرك في عمله غير الله، رقم (٢٩٨٥)، من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٢) أخرجه مسلم: كتاب الأقضية، باب نقض الأحكام الباطلة، ورد محدثات الأمور، رقم (١٧١٨)، من حديث عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا.

(٣) أخرجه البخاري: كتاب الصلح، باب إذا اصطلحوا على صلح جور، رقم (٢٦٩٧)، ومسلم: كتاب الأقضية، باب نقض الأحكام الباطلة رقم (١٧١٨)، من حديث عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا.

(٤) أخرجه مسلم: كتاب البر والصلة، باب تحريم الظلم، رقم (٢٥٧٧)، من حديث أبي ذر الغفاري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

تأمَّلتَ ما مَعنى ﴿ثُبَاتٍ﴾ هل مَعناها انفِروا ثَابتِينَ على الجِهادِ؟ لا، بَلْ يُفسِّرُها ما بَعْدَها: ﴿أَوِ ٱنفِرُواْ جَمِيعًا﴾ فيكونُ مَعْنى ثُباتٍ أي: فُرادَى: ﴿أَوِ ٱنفِرُواْ جَمِيعًا﴾.

قال اللهُ تَعالَى: ﴿وَمَنْ أَسَآءَ فَعَلَيْهَا﴾، إذن الإِساءَةُ تكونُ إِمَّا بالإشـراكِ بِاللهِ كالرِّياءِ مثلًا، وإمَّا بِالبدعةِ كَبِدَعِ الصُّوفيَّةِ وغَيْرِهم مِن أَصْحابِ الطُّرُقِ الَّذين هم مُخلصونَ إِلى اللهِ ويَودُّونَ التَّقـرُّبَ إِلَى اللهِ لكن بغيرِ ما شَرَعَ اللهُ، فَكانوا ضالِّيـن كالنَّصارى تمامًا.

يَقولُ المفسِّرُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّٰمٍ لِّلۡعَبِيدِ﴾ أَيْ: بذي ظُلمٍ] ﴿وَمَا رَبُّكَ﴾ هذه كقَولِه فيما سَبَق: ﴿سَبَقَتۡ مِن رَّبِّكَ﴾ [فصلت:٤٥].

و﴿وَمَا﴾ هُنا حِجازيَّةٌ، فَكُلُّ ما في القُرآنِ حِجازِيٌّ؛ لِأَنَّهُ بِلُغةِ قُريشٍ، وعلى هَذا فمتى أَتَتكَ ﴿مَا﴾ فَهي حِجازيَّةٌ، قال الله تَعالَى: ﴿مَا هَٰذَا بَشَرًا﴾ [يوسف:٣١] ولَو كانتْ تَميميَّةً لقالَ: ما هَذا بَشَرٌ، لكن قال: ﴿مَا هَٰذَا بَشَرًا﴾.

إذن: كُلَّمـا أَتَتْكَ ﴿مَا﴾ الَّتي تَكونُ دائرَةً بَينَ الحِجازيَّةِ والتَّميميَّـةِ فَاجعَلْها حِجازيَّةً، فهُنا نَقولُ: ﴿مَا﴾ حِجازيَّةٌ و(رَبُّ) اسْمُها و﴿بِظَلَّٰمٍ﴾ خَبَرُها لكنَّه جُرَّ بِحَرفِ الجَرِّ الزَّائدِ.

وقَولُه: ﴿وَمَا رَبُّكَ﴾ هَلِ الخطابُ لِلرَّسولِ عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ وَليس عَامًّا، فسياقُ الآيةِ يَدُلُّ على أَنَّه خاصٌّ بِالرَّسولِ عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ، ولكن لِيعلمَ أَنَّ ما وُجِّهَ الخِطابُ فيه إلى رَسولِ اللهِ ﷺ، فإِنَّهُ لَا يَعْني: أَنَّ الحُكمَ خَاصٌّ به، بَلْ هو له ولِلْأُمَّةِ؛ ولِهذا نَقولُ: الخطابُ المُوجَّهُ إِلَى الرَّسولِ عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ يَنقسمُ إِلَى ثلاثةِ أَقسامٍ:

الأَوَّلُ: مَا دَلَّ الدَّليلُ على أَنَّه خَاصٌّ بِهِ كَقَولِه: ﴿أَلَمۡ نَشۡرَحۡ لَكَ صَدۡرَكَ﴾ [الشرح:١] هَذا خاصٌّ بِالرَّسولِ.

الثَّاني: ما دَلَّ الدَّليلُ على أَنَّه عامٌّ كَقَولِه تَعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ﴾ وهَذا خطابٌ للرَّسولِ: ﴿إِذَا طَلَّقۡتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَطَلِّقُوهُنَّ﴾ [الطلاق:١] هَذا عامٌّ؛ لأَنَّه قال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِذَا طَلَّقۡتُمُ﴾ وَمِنه قَولُ اللهِ تَعالَى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ لَكَۖ تَبۡتَغِي مَرۡضَاتَ أَزۡوَٰجِكَۚ وَٱللَّهُ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ١ قَدۡ فَرَضَ ٱللَّهُ لَكُمۡ تَحِلَّةَ أَيۡمَٰنِكُمۡۚ﴾ [التحريم:١-٢] فأَوَّلُ الآيةِ خاصٌّ والثَّاني عامٌّ.

الثَّالثُ: ما لا دَليلَ فيه عَلى هَذا ولا عَلى هَذا، فَهو خَاصٌّ بالرَّسولِ، لَكن لَنا فيه أُسوَةٌ، وقيلَ: إنَّه للأُمَّةِ لكن خوطِبَ بِها الرَّسولُ؛ لأَنَّه قائدُها عَلَيۡهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ.

يَقولُ المفسِّرُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّٰمٖ لِّلۡعَبِيدِ﴾ أي: بذي ظلم] إشارَةٌ مِنه رَحِمَهُ ٱللَّهُ إِلى أنَّ «ظَلَّام» صيغةُ نِسبةٍ وليست صيغةَ مُبالغةٍ؛ لأنَّ فعَّالًا تأتي للنِّسبةِ كنَجَّار وحدَّاد وخشَّاب، وما أَشبهَ ذَلكَ، وتأتي للمُبالَغةِ، فَهُنا (ظَلَّامٌ) يَتعيَّنُ أَنْ تكونَ للنِّسبةِ؛ لأَنَّك لو جَعلتَها لِلمبالغةِ لكان المَنفيُّ هو المُبالغةُ في الظُّلمِ دونَ أَصلِ الظُّلمِ؛ وَالمعلومُ أَنَّ اللهَ تَعالَى مَنفيٌّ عَنه الظُّلمُ أَصلُه والمُبالغةُ فيه، إِذن يَتعيَّنُ أَنْ نَقولَ: إِنَّ (ظَلَّام) صيغةُ نِسبةٍ ولَيست صيغةَ مُبالغةٍ؛ ولهذا فَسَّرها بِقولِه: [أَي: بذي ظُلم] واستَدلَّ لِذلكَ بِقَولِه تَعالى: [﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظۡلِمُ مِثۡقَالَ ذَرَّةٖ﴾] [النساء:٤٠]. وَمَنِ انتَفى عَنه الظُّلمُ في مِثقالِ ذرَّةٍ لا يُمكنُ أَنْ يَكونَ لَديه ظُلمٌ بأَكثرَ، وَلا بِمثقالِ ذرَّةٍ أيضًا، وَلا بِدونِ مِثقالِ ذرَّةٍ.

فَإِن قالَ قائلٌ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظۡلِمُ مِثۡقَالَ ذَرَّةٖ﴾ مَفهومُه أَنَّ ما دونها يُمكنُ؟

قُلنا: لا؛ لأنَّ مِثقالَ ذَرَّةٍ جِيءَ به على سَبيلِ المُبالغةِ لا التَّمثيلِ، وَما كانَ قَيدًا لِلمبالغةِ، فإنَّه لا مَفهومَ لَه، أَرَأَيتُم قَولَ الرَّسولِ ﷺ: «مَنِ اقتطعَ شِبرًا مِنَ الأَرضِ ظُلمًا طُوِّقَه يومَ القيامَةِ مِنْ سَبْعِ أَرَضينَ»[1]، فَهَل نَقولُ: مَنِ اقْتطعَ نِصفَ شِبرٍ لا يُعاقَب

(١) أخرجه البخاري: كتاب المظالم، باب إثم من ظلم شيئا من الأرض، رقم (٢٤٥٣)، ومسلم: كتاب المساقاة، باب تحريم الظلم وغصب الأرض، رقم (١٦١٢/ ١٤٢) من حديث عائشة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنۡهَا.

عليه؟ لا، لَكن ذَكَره على سَبيلِ المُبالغةِ.

يَقولُ المفسِّرُ رَحِمَهُ اللَّهُ: [﴿وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّامٍ لِّلْعَبِيدِ﴾ أي: بِذي ظُلم]. وقولُه: ﴿لِّلْعَبِيدِ﴾ أيِ: العبيدِ كونًا لا شَرعًا، يَعني: لَنْ يَظلمَ أَحدًا حتَّى الكافرَ لا يَظلمُه اللهُ عَزَّوَجَلَّ.

فإنْ قال قائلٌ: إنَّ اللهَ تَعالى -وحاشاه- يَظلمُ الكافرَ، فَالكافرُ مُتِّعَ في الدُّنيا ولنَقُلْ: أَلْفَ سَنَةٍ على كُفرهِ وسيَخْلدُ في النَّارِ إلى الأَبَدِ آلافَ ومَلايينَ السِّنينَ مع أَنَّه لَمْ يَكفُرْ إلَّا أَلفَ سَنَةٍ، فَالعُقوبةُ زائدةٌ عَلى العملِ، وَهَذا ظُلمٌ!

قُلنا: كَلَّا وَاللهِ إنَّ اللهَ تَعالى أَعذَرَ إلى هَذا الرَّجلِ ببَعثِ الرُّسلِ وَإنزالِ الكُتبِ وأَعطاهُ عَقلًا وَقالَ: إنْ فعلتَ كَذا عذَّبتُك أَبد الآبدِينَ فَأقدمَ باختيارِهِ، فَإذا فَعَلَ ما يُوجبُ هَذه العُقوبةَ بِاختيارِه ثُمَّ عوقبَ بها لا يُقالُ: إنَّه مَظلومٌ، إلَّا إذا كان جاهلًا بِالعُقوبةِ لَقُلنا: نَعَم، الواجبُ أَلَّا يُعاقبَ إلَّا بِمِقدارِ ذَنبهِ كمًّا وكَيفًا، لكنَّا نَقولُ: إنَّ هذا الرجُلَ قَد عَلِمَ وأُعذِرَ إليه بِإرسالِ الرُّسلِ وبَيانِ ما يُعذَّبُ به، ومَع ذَلك أَصرَّ كأنَّه يَقولُ: أَنا لا أُبالي إذا عُذِّبتُ أَبَدَ الآبِدينَ، وحِينَئذٍ يَكونُ هو الَّذي جَنَى عَلى نَفسِه وفَعَلَ ما يوجبُ هذا العذابَ المؤبَّدَ: ﴿وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّامٍ لِّلْعَبِيدِ﴾.

مِنْ فَوائِدِ الآيةِ الكريمَةِ:

الْفَائِدَة الأُولَى: الحثُّ عَلى العَملِ الصَّالحِ لِقولِه: ﴿مَّنْ عَمِلَ صَٰلِحًا فَلِنَفْسِهِۦ﴾؛ لِأَنَّك مَتَى عَلِمتَ أَنَّ عَمَلَك لنَفسِك فسوفَ تَجتهدُ في هذا.

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَةُ: أَنَّ كُلَّ عَمَلٍ لا إِخلاصَ فيه فهو ضررٌ على صاحبِه ولَيس لَه، لِأَنَّنا فَسَّرنا العَمَلَ الصَّالحَ بأَنَّه ما جَمَعَ بَين شَرطينِ؛ الإِخلاصِ والمُتابَعةِ.

الْفَائِدَةُ الثَّالِثَةُ: أَنَّ مَنْ عَمِلَ عملًا بِدْعيًّا فعَمَلُه عليه لا له؛ لأَنَّه لا يَدخُلُ في

العَملِ الصَّالِحِ، وكَثيرٌ مِن إخوانِنا الَّذين يَعمَلون بهذه البِدَعِ تَجِدُهم يَبكون ويَخشَعون وتَلينُ قُلوبُهم، ولهم مِنَ البُكاءِ ما لا يَكونُ عِندَ المُخلِصينَ المُتَّبِعينَ، فهؤلاءِ نَقولُ لهم: ﴿قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُم بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمَالًا ﴿١٠٣﴾ الَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا﴾ [الكهف:١٠٣-١٠٤]، فَلا يَخدعنَّكَ هذا الشَّيءُ الَّذي يَقَعُ مِنهم؛ لأنَّ هَذا مِنْ إغْواءِ الشَّيطانِ لَهُمْ وغُرورِه إيَّاهمْ.

فإنْ قال قائلٌ: قولُه تَعالَى: ﴿قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُم بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمَالًا﴾ هل يُقصَدُ به قَولُه بَعدَه: ﴿أُولَٰئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ وَلِقَائِهِ﴾؟

فالجَوابُ: أنَّ كلَّ مَنْ عَمِلَ عَملًا سَيِّئًا وهو يَظنُّ أنَّه مُحسنٌ داخلٌ في الآيةِ وإنْ كانَ بَعدَها قَولُه تعالى: ﴿أُولَٰئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ وَلِقَائِهِ﴾، لَكنَّها تَشملُ حتَّى غَيرَهُمْ.

فإنْ قالَ قائلٌ: هَل نتَّبعُ مثلَ هَذا السَّبيلِ الَّذي ذُكِرَ في الآيةِ؟

فالجَوابُ: نَعَمْ نَتَّبعُ هَذا فَنحكُمُ عَلى ما ثَبَتَ قُبحُه بِعَمَلٍ مُعَيَّنٍ أَنْ يُشارِكَه ما وافقَه في العِلَّةِ.

الْفَائِدَةُ الرَّابِعَةُ: أَنَّهُ لا يُمكنُ أَنْ يَصِلَ ثَوابُ العَمَلِ الصَّالِحِ إلَى الغَيرِ لِقولِه: ﴿فَلِنَفْسِهِ﴾، وبهَذا أَخَذَ أكثرُ العُلَماءِ وَقالوا: إنَّ الميِّتَ لا يَنتفعُ إلَّا بِعَمَلِ وَلَدِه فَقَطْ، أَمَّا غَيْرُهُ فَلا، يَعْني: لَو أَنَّك اعْتمرْتَ لِصَديقٍ لَك ميِّتٍ أو حَيٍّ لا يَستطيعُ العُمرةَ، فإنَّ ذلكَ لَا يَنفَعُه؛ لأنَّ ﴿وَمَنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلِنَفْسِهِ﴾ لا يَتعدَّى غَيرَه، وما جاءتْ به السُّنَّةُ مِن صيامِ المَرأةِ نَذْرَ شَهرٍ على أُمِّها[1] أو حَجِّها عَن أَبيها الَّذي لا يَثبتُ على

---

(١) أخرجه الإمام أحمد (١/ ٣٣٨)، والنسائي: كتاب الأيمان والنذور، باب من نذر أن يصوم ثم مات قبل أن يصوم، رقم (٣٨١٦)، من حديث ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، وفيه: عن أختها.

الرَّاحلةِ(١)، فهَذا إِنَّما وَقَعَ مِن الوَلَدِ، وقَدْ قال النَّبيُّ ﷺ: «إِنَّ أَطيبَ ما أَكَلتم مِن كَسبِكم وإنَّ أَولادَكُمْ مِنْ كَسبِكم»(٢).

فالعملُ مِن كَسبِ الأبِ وَالأُمِّ، وهو جُزءٌ مِنْ أَبيه كَما قال النَّبيُّ -صلَّى اللهُ عليه وعلى آله وسلَّم-: «فاطمَةُ بِضعةٌ منِّي يَريبُها ما رابَني»(٣)، قال ذَلكَ عَلى المِنبرِ، وأَشارَ عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ في هَذا الحديثِ -وَهو حَديثٌ طَويلٌ- إِلى التَّنديدِ بِعليٍّ بنِ أَبي طالبٍ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ، وأَثنى على أَبي العاصِ بْنِ الرَّبيعِ زَوْجِ ابْنتِهِ زَيْنبَ فَقال: «حَدَّثَني فَصَدَقَني ووَعَدَني فوَفَّاني»، وانْتَقدَ عَليًّا؛ لأَنَّه قيلَ: إِنَّه أَرادَ أَنْ يَتزوَّجَ بِنتَ أَبي جَهلٍ، فَقَامَ الرَّسولُ وخَطَبَ النَّاسَ وَقال: «فاطمةُ بِضعةٌ مِنِّي يَريبُها ما رابَني»، وتَكلَّم بِكلامٍ غليظٍ، لكن عَليَّ بنَ أَبي طالبٍ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ عَدَلَ عَنْ هَذا الأمرِ لَمَّا رَأى النَّبيَّ -صَلَّى اللهُ عَليه وعَلى آله وسلَّم- مُتأَثِّرًا هَذا التَّأَثُّرَ، وأَنَّه لا يُمكنُ أَنْ يَجمعَ بَينَ بِنتِ نَبيٍّ اللهِ وبَين بِنتِ عَدوِّ اللهِ، يَعني: هَذا يَكونُ مُتحدَّثَ النَّاسِ.

ونَحنُ نَقولُ: إِنَّ بَعضَ أَهلِ العِلمِ أَخَذَ بما يُفيدُه ظاهرُ هذه الآيةِ، وَقال: لَا يَنفعُ العمَلُ لِأَيِّ إِنسانٍ نَويْته إِلَّا مِنَ الوَلَدِ، ولَكِنَّ كثيرًا مِنَ العُلماءِ قالَ: بَل إِنَّ

(١) أخرجه البخاري: كتاب الحج، باب وجوب الحج وفضله، رقم (١٥١٣)، ومسلم: كتاب الحج، باب الحج عن العاجز رقم (١٣٣٤)، من حديث ابن عباس رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا.

(٢) أخرجه الإمام أحمد (٦/ ١٦٢)، وأبو داود: كتاب البيوع، باب في الرجل يأكل من مال ولده، رقم (٣٥٢٨)، والترمذي: كتاب الأحكام، باب ما جاء أن الوالد يأخذ من مال ولده، رقم (١٣٥٨)، والنسائي: كتاب البيوع، باب الحث على الكسب، رقم (٤٤٤٩)، وابن ماجه: كتاب التجارات، باب ما للرجل من مال ولده، رقم (٢٢٩٠)، من حديث عائشة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهَا.

(٣) أخرجه البخاري: كتاب أصحاب النبي ﷺ، باب ذكر أصهار النبي ﷺ، رقم (٣٧٢٩)، ومسلم: كتاب فضائل الصحابة، باب فضائل فاطمة بنت النبي عَلَيْهَا ٱلسَّلَامُ، رقم (٢٤٤٩)، من حديث المسور بن مخرمة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ.

الَّذي يَنتفعُ بِهِ الميِّتُ مِنْ وَلَدِه لا مانعَ مِن أَنْ يَنتفعَ به مِن غَيرِه، ورُبَّما يُستدلُّ لِذلك بحديثِ ابنِ عبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: أنَّ النَّبيَّ ﷺ سَمِعَ رَجلًا يقولُ: لَبَّيكَ عَنْ شُبرُمَةَ، قال: «مَنْ شُبْرُمَةُ؟» قال: أَخٌ لِي، أو قَريبٌ لِي[1]، فقال: أَخٌ أَو قَريبٌ وَهو مُحْرِمٌ عنه، قالوا: فَهذا يَدُلُّ على أَنَّه يَجوزُ للإنسانِ أَنْ يَنوبَ عن غَيرِه فيُقالُ: هَذه نِيابةٌ عَن الغيرِ، والحجُّ أَيضًا يَسلَمُ له.

ولكنَّ الَّذي يَظهرُ لي أَنَّه لا فَرْقَ بين الولَدِ وغَيرِه وبَين الحجِّ وغَيرِه، لكنَّ الَّذي نَنتقِدُه إِسرافُ النَّاسِ الآنَ بالأعمالِ لِلأمواتِ تَجِدُه يَختُمُ القُرآنَ في رَمضانَ عِدَّةَ مَرَّاتٍ ويَقولُ: المرَّةُ الأُولَى لِأُمِّي والثَّانيَةُ لِأَبَوَيَّ والثَّالثةُ لِجَدَّتي وَالرَّابعةُ لِجَدِّي والخامسةُ لِأخي، وَالسَّادسةُ لِأُختي وَالسَّابعةُ لِعَمِّي وَالثَّامنةُ لعَمَّتي، ويَمضي رَمضانُ ولَيس لَه ثَوابٌ كُلُّه أَعطاه لِلنَّاسِ، هَذا غَلطٌ وإِفراطٌ ولَيس مِن هَدي السَّلفِ الصَّالحِ.

كَذلكَ أَيضًا بَعضُ النَّاسِ يُسرفُ ويُخالفُ السُّنَّةَ فِي إِسرافِه تَجِدُه يَذهبُ يَعتمرُ أَوَّلَ عُمرةٍ لَه، وَفي نَفس الوقتِ وَهو في مَكَّةَ ثَاني عُمرةٍ لِأُمِّه، وثَالثُ عُمْرةٍ لِأَبيه كُلَّ يومٍ عُمْرةٌ، وَإِذا قَدَّرنا أَنَّه بَقِي عَشَرةُ أَيَّامٍ ولَهُ عَشَرةُ أَقاربَ عَشْرَ عُمْراتٍ، هَذا غَلَطٌ ولَيس مِن هَدي السَّلفِ، والشَّرعُ لَيس حَسَبَ الذَّوقِ أو مَيلِ النَّفسِ أَوِ الهَوى، بل الشَّرْعُ مُحدَّدٌ، فهَلْ وَرَدَ عَنِ السَّلَفِ أَنَّهمْ يُكرِّرونَ العُمرةَ لا لأنفسهم ولا لِغيرِهم، لَمْ يَرِدْ إِطْلاقًا، فَأَصلُ تَكرارِ العُمرةِ فِي سَفَرٍ واحدٍ غَيرُ مَشروعٍ؛ ولِهَذا قال عَطاءُ بنُ أَبِي رَباحٍ وهو عَالِمُ مَكَّةَ في زَمنِه: لا أَدْري هَؤلاءِ الَّذين يَخرُجونَ إِلى التَّنْعيمِ أَيأْثمون أَمْ يَسلمونَ؟

---

(١) أخرجه أبو داود: كتاب المناسك، باب الرجل يحج عن غيره، رقم (١٨١١)، وابن ماجه: كتاب المناسك، باب الحج عن الميت، رقم (٢٩٠٣)، من حديث ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.

يَعْني: مَعناهُ أَنَّه لَيس لهم أَجرٌ؛ لأَنَّه لَمْ يَرِدْ عن الرَّسولِ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ، فَلذلكَ يَجِبُ على طَلَبَةِ العلمِ أن يُبيِّنوا لِلنَّاس حتَّى وإنِ انتقدوهم، فَنحنُ دائمًا نُحذِّرُ مِن هَذا في الحَرَمِ، ونَقولُ: هَذا غلطٌ ولَيس بمَشروعٍ، ثُمَّ يَذهبونَ إِلَى ناسٍ مِنَ النَّاسِ فَيقولُ لَهم: لا بأس، أَوَّلُ يَومٍ لكَ وثَاني يومٍ لِأُمِّكَ وثَالثُ يَومٍ لِأبيك، أَعطِها العالَمَ كُلَّ واحدٍ عُمرةً، وإنْ كثُرَ أَقاربُكَ وقلَّتْ أَيَّامُكَ في مكَّةَ فَلا بَأسَ أَنْ تأخُذَ عُمرتَينِ في يَومٍ لا مانِعَ فيه، وإنْ كَثُروا أَكثِرْ، وقَلَّتِ الأَيَّامُ أَقِلَّ، اجْعلْ عُمرتَينِ في اليومِ وعُمرتَينِ في اللَّيلَةِ! فلا إِلَهَ إِلَّا اللهُ! ومَنْ قالَ بِهَذا!

لكنَّ المُشكلَةَ أَنَّ بَعضَ العُلَماءِ يَتهاونونَ في هَذه الأُمورِ ولا يُريحونَ عِبادَ اللهِ، فتَجِدُه مِسكينًا في أَيَّامِ مَوسمِ الحجِّ يَتكلَّفُ كُلفةً عَظيمةً في الزِّحامِ وَالمشقَّةِ، ومع ذَلك يُصِرُّ على أَنْ يَأتيَ بِعُمرةٍ لِأبيه وأُمِّه مع أَنَّ هَذا ليس مِنْ هَديِ السَّلفِ، ويُضيِّقُ عَلى النَّاسِ، يُضيِّقُ بَعضُهم على بَعضٍ، فنَسأَلُ اللهَ الهِدايةَ.

فإِنْ قال قائلٌ: هَلْ يُفْهمُ أَنَّه لا فَرْقَ بينَ الولَدِ وَغيْرِه، وبينَ الحَجِّ وغيرِه كرَجلٍ صلَّى رَكعتَينِ للهِ ويَقولُ: هُما لِأبي؟

فالجوابُ: هُنا صيغتانِ لِمَنْ أَرادَ أَنْ يَعمَلَ لِغيرِه:

الصِّيغةُ الأُولَى: أَنْ يَنويَ النِّيَّةَ لِلغيرِ مِن ابتداءِ العَملِ مِن الأَصلِ مِنْ حين ما أَرادَ أَنْ يُكبِّرَ نَوى أَنَّها لِأبيه أو لِأُمِّه، فَهذا يَصِلُ ولا إِشكالَ فيه؛ لأَنَّه كالَّذي يَحُجُّ ناويًا الحَجَّ عن أَبيهِ أو أُمِّه مِن الأَصلِ.

الثَّانيةُ: أَنْ يَعمَلَ العملَ ثُمَّ بَعد الفَراغِ مِنه يَنويهِ لِأبيه أو أُمِّه هَذه اخْتَلفَ فيها العُلَماءُ حتَّى الَّذين يَقولونَ بِجوازِ إِهْداءِ القُربِ اختلفوا، هَل يَصِحُّ هَذا أَمْ لا؟

ووَجْهُ الفَرقِ بَينَ هَذه وَالَّتي قَبْلَها أَنَّ الَّتي قبلَها ابْتدَأَ النيَّةَ مِن أَوَّل الفِعلِ، فَهو يَفعلُ ويَتحرَّكُ ويَتكلَّمُ فَيَشعُرُ أَنَّه قائمٌ به عَن الغيرِ، أَمَّا هَذا فقدْ صلَّى وَانتهى مِنْ صَلاتِه على أَنَّها لَهُ فَثَبَتَ الأَجْرُ له، وَإذا ثَبتَ الأَجرُ له فَليسَ من حقِّه أَنْ يَتصرَّفَ في الثَّوابِ هُو يَتصرَّفُ فِي العملِ، أَمَّا الثَّوابُ فَلا، فَيَقولُ هَؤلاءِ: إِنَّه إِذا أَهدى العَملَ بَعْدَ فِعلِه لا يَصِلُ إِلَى المُهدَى إِلَيه؛ لِأَنَّ العملَ ثَبَتَ لِنفسِه وَانتهى العمَلُ وَالنِّيَّةُ لِنفسِه، وَإِذا أَهداه لِغيرِه فَقدْ تَصرَّف في الثَّوابِ والتَّصرُّفِ في الثَّوابِ لَيس إِليه، وإِنَّما هو إِلى اللهِ عَزَّوَجَلَّ، ولَيس هَذا أَمْرًا ماليًّا تَقولُ: واللهِ أَبي أَعطَى فُلانًا عَشرَةَ دراهمَ أو مِئةَ دِرهمٍ، هَذا ثَوابٌ عِندَ اللهِ عَزَّوَجَلَّ وكُتبَ لَكَ وانتهى الأَمرُ.

وهَذا التَّفريقُ تَفريقٌ جَيِّد ولَه مَعنًى لَطيفٌ، ولا شَكَّ أَنَّه معنًى جيِّدٌ التَّفْريقُ بَين أَنْ تَعملَ العَملَ من أَوَّلِه لصاحِبك، وبَين أَنْ تَعمَلَه لِنفسِك، ثُمَّ بَعدَ ذَلكَ تُهدي ثَوابَه لِصاحِبك، فَهُنا العملُ كُتِبَ لَكَ والثَّوابُ كُتِبَ لَكَ، فَلا يُمكنُكَ أَنْ تَتصرَّفَ فيه التَّصرُّفَ في الثَّوابِ للهِ عَزَّوَجَلَّ واللهُ أَعلمُ.

إِذنْ قَولُه تعالى: ﴿فَلِنَفْسِهِۦ﴾ اسْتدلَّ بِها بَعضُ العُلماءِ على أَنَّ العَمَلَ الصَّالحَ لا يَتعدَّى الغيرَ؛ أَيْ: لا يَتعدَّى فَاعلَه ونَحنُ نَقولُ: ما جاءت به السُّنَّةُ فَهو مُخصَّصٌ لِهَذا، والسُّنَّةُ تُفسِّرُ القُرآنَ وتُبيِّنُه، ولكن هل يُقاسُ عَليهِ؟ هَذا مَحلُّ نَظرٍ، وعِندي أَنَّهُ لا بَأسَ أَنْ يُقاسَ عَليهِ؛ لِأَنَّ الَّذي وَرَدَ إِنَّما هو قَضايا أَعيانٍ، فَإذا كَانتْ قَضايا أَعيانٍ، فَرُبَّما نَقيسُ على هَذه العَينِ ما شابَهَها، لكنَّ الَّذي يُنكَرُ هو الإِسرافُ وَالإِفراطُ.

الْفَائِدَةُ الخَامِسَةُ: أَنَّ مَن أَساءَ فَعَلى نَفسِه أَساءَ لا يَضُرُّ اللهَ شيئًا.

ولكن **لَو قال قائلٌ**: أَليس النَّبيُّ -صلَّى اللهُ عليه وعلى آله وسلَّم- أَخبَرَ بأَنَّ مَن

سَنَّ في الإِسلامِ سُنَّةً سَيِّئَةً فَعليهِ وزرُهَا ووِزرُ مَنْ عَمِلَ بها إلى يَومِ القيامةِ[1]، إذن هَذا الإنسانُ صارتْ إساءَةُ غَيرِه عليهِ وَاللهُ يَقولُ: ﴿وَمَنْ أَسَآءَ فَعَلَيْهَا﴾ على نَفسِه فَقَطْ؟

فيُقالُ: إنَّ كَونَه سَنَّ هَذه السَّيِّئَةَ هو عَمَلُه الَّذي تَبِعَه النَّاسُ عَليه، ولَولا أَنَّه فَعَلَه ما فَعلَه النَّاسُ، فَالنَّاسُ إنَّما فَعلوا اتِّباعًا لَه فَيكونُ هَذا في الحَقيقَةِ منْ فِعلِه؛ لِأَنَّه هو الَّذي سَنَّ هَذه السُّنَّةَ السَّيِّئَةَ؛ ولِهَذا ما مِنْ إنسانٍ يَقتُلُ نفسًا عَمدًا بِغيرِ حَقٍّ إلَّا كان على ابْنِ آدمَ الأَوَّلِ كِفلٌ مِنها، يَعني: قابيلَ حَيث قَتَلَ هابيلَ حَسَدًا بِدونِ إساءةٍ إِليه، قَرَّبا قُربانًا فتَقَبَّلَ اللهُ مِن هابيلَ ولَمْ يَتقبَّلْ من قابيلَ. فَقالَ لَهُ: ﴿لَأَقْتُلَنَّكَ﴾ حَسَدًا؛ لِأنَّ اللهَ قَبِلَ مِن صاحِبه ولَمْ يَقبَلْ منه، فأَرشدَه صاحِبُه إِلى ما يَكونُ بِه القَبولُ: ﴿قَالَ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ ٱللَّهُ مِنَ ٱلْمُتَّقِينَ﴾ [المائدة:٢٧]، ومَعنى الآيةِ حَثُّه على أَنْ يَتَّقيَ، ولَيس المعنى أَنَّه كان مُتَّقيًا فقُبِلَ، وإِنَّما يَحثُّه على التَّقوى كأَنَّه يَقولُ: اتَّقِ اللهَ يَتقبَّلْ منك. ثُم قال لَه: ﴿لَئِنۢ بَسَطتَ إِلَيَّ يَدَكَ لِتَقْتُلَنِي مَآ أَنَا۠ بِبَاسِطٍ يَدِيَ إِلَيْكَ لِأَقْتُلَكَ إِنِّيٓ أَخَافُ ٱللَّهَ رَبَّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [المائدة:٢٨].

ولَعَلَّ هَذا لَم يَكُنْ مَشروعًا في عَهدِهمْ أَنْ يُدافعَ الإنسانُ عَن نَفسِه؛ لأنَّ في شَريعتِنا مَنْ أَرادَ قَتلَك يَجِبُ عَليكَ أَنْ تُدافِعَه حتَّى لو قَتلْتَه فهو في النَّارِ، ولو قَتلَكَ فأنت شَهيدٌ، لكن لَعلَّه في عَهدِهم لَم يَكُنْ ذَلكَ مَشروعًا، وهو مِنَ الآثارِ الَّتي كَتبَها اللهُ على مَنْ قَبلَنا ونَجَّانا اللهُ منها.

الْفَائِدَةُ السَّادِسَةُ: انتفاءُ الظُّلمِ عَن اللهِ عَزَّوَجَلَّ لِقولِه: ﴿وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ﴾

(١) أخرجه مسلم: كتاب الزكاة، باب الحث على الصدقة، رقم (١٠١٧)، من حديث جرير بن عبد الله البجلي رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ.

وهَذه مِن صِفاتِ النَّفيِ، وصِفاتُ اللهِ تعالى نَوعانِ: صِفاتُ إِثباتٍ، وصِفاتُ نَفيٍ، فصِفاتُ الإثباتِ كَثيرَةٌ جدًّا وصِفاتُ النَّفيِ أَقلُّ، ولكن مَعَ ذَلكَ صِفاتُ النَّفيِ هي في الحقيقةِ صِفاتُ إثباتٍ؛ لأنَّ المُرادَ بالنَّفيِ إثباتُ ضِدِّ ذَلكَ فَمثلًا: ﴿وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّامٍ﴾ المُرادُ إِثباتُ كَمالِ عَدلِه وأَنَّ عَدْلَه لا ظُلمَ فيه بِوَجهٍ مِنَ الوجوهِ.

إِذن خُذْ قاعدةً عَريضةً: لا يوجدُ النَّفيُ المحضُ فِي صِفاتِ اللهِ أَبدًا، كُلُّ نَفيٍ في صِفاتِ اللهِ فَهو إِثْباتٌ لِضدِّ النَّفيِ، فَكأَنَّه يَقولُ عَزَّوَجَلَّ: هو أَعدلُ الحاكمينَ وَلا ظُلمَ في حُكمِهِ إِطلاقًا.

وقولُه تَعالَى: ﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ نَسِيًّا﴾ [مريم:٦٤] مِن صِفاتِ النَّفيِ لكن لِإثباتِ كَمالِ عِلمِه، وَأَنَّه لِكمالِ عِلْمِه لا يَرِدُ عليه النِّسيانُ إِطلاقًا، وأَمَّا عِلمُنا نَحنُ فَيَرِدُ عليه النِّسيانُ، وَهو أيضًا حاصلٌ بعدَ جهلٍ سابقٍ يَقولُ اللهُ تَعالَى: ﴿وَاللَّهُ أَخْرَجَكُم مِّنْ بُطُونِ أُمَّهَـٰتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْـًٔا﴾ [النحل:٧٨] فعِلمُنا في الواقعِ مَعيبٌ مِن وجوهٍ:

الأوَّلُ: أنَّه مَسبوقٌ بِجهلٍ.

الثَّاني: أنَّه مَلحوقٌ بِنسيانٍ.

الثَّالثُ: أنَّه لَيس شاملًا عامًّا.

ونَقولُ: هَذا النَّفيُ في صِفـةِ الله لا يُرادُ به النَّفيَ المَحضَ، بَل هُو إِثـباتٌ في الواقعِ، إذ إِنَّ المُرادَ به إثباتُ كَمالِ ضِدِّه؛ ﴿وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّـٰمٍ﴾ أي: أَنَّه عَدلٌ لا ظُلمَ في عَدلِه إِطلاقًا.

الْفَائِدَةُ السَّابِعَةُ: إثباتُ العدْلِ في أَعلى مَقاماتِه، حَيثُ قال: ﴿لِّلْعَبِيدِ﴾؛ أَيْ: لِعبيدِه، وهَذا أَبلغُ لو قُلتُ لَكَ: أَنتَ لا تَظلِمُ عبيدَك، فَهو أَبلغُ مِمَّا لَو قُلتُ: أَنت

لا تَظلِمُ النَّاسَ؛ لأنَّ عَدمَ ظُلمِك النَّاسَ؛ لِأنَّه لا سَيطرةَ لك عليهم لكن إذا كُنت لا تَظلِمُ عَبيدَك كان هَذا أَبلغَ في إِثباتِ العدلِ، إذا كُنتَ لا تَظلمُ مَن لكَ سُلطةٌ عليهِ، فلِئلَّا تَظلِمَ مَن لا سُلطةَ لَك عليه مِن بابِ أَوْلَى.

إِذَنْ فَقابِلْ: ﴿وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّـٰمٍ لِّلْعَبِيدِ﴾ بقَولِ القائلِ: فُلانٌ لا يَظلِمُ النَّاسَ، أَيُّهما أَبلغُ؟ الأوَّلُ؛ لِأَنَّه إذا كانَ لا يَظلِمُ عَبيدَه مع أَنَّهم عَبيدُه يَفعلُ بِهِمْ ما يشاءُ، فَلِئَلَّا يَظلِمَ غَيرَهم، ولَكنَّ هَذا على سَبيلِ الفرضِ وإلَّا فكلُّ مَن في السَّمواتِ والأرضِ آتي الرَّحمنَ عبدًا.

الْفَائِدَةُ الثَّامِنَةُ: الرَّدُّ على الجبريَّة في قَولِهم: إِنَّ الظُّلمَ في حَقِّ اللهِ مُحالٌ، وانتفاءُ المُحالِ ليس مَدْحًا؛ لأنَّ المُحالَ لا يُمكنُ وُجودُه لِذاتِه ولو أَرادَه الإنسانُ لَم يُوجَدْ؛ لأنَّه مُحالٌ، لكنَّ انتفاءَ المُمكنِ إذا كان الانتفاءُ مَدْحًا فهو مَدْحٌ.

وهُنا في قَولِه تَعالى: ﴿وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّـٰمٍ﴾ تُفيدُ الآيَةُ أَنَّ الظُّلمَ في حقِّه مُمكنٌ، لكن لِكمالِ عَدلِه لا يُمكنُ، فَالظُّلمُ ليس مُحالًا لِذاتِه في حَقِّ اللهِ، بل هو مُحالٌ لِكمالِ عَدْلِ اللهِ، وبِهـذا يَتحقَّق المدحُ مَدحُ اللهِ تَعالَى بِانتـفاءِ الظُّلمِ عنه، أَمَّا لو كان شيئًا مُحالًا لا يُمكنُ فالمُحالُ لا يُمدَحُ به.

فإنْ قال قائلٌ: الأُمورُ الَّتي يُحدِّثُ بها الشَّخصُ نَفسَه غيرَ الشَّكِّ -كالمَعاصي- إذا رَكَنَ إِليها ولَمْ يَعملْ بها هل تَدخلُ في قولِ الرَّسولِ ﷺ: «**إِنَّ اللهَ تَجاوزَ عن أُمَّتي ما حَدَّثتْ به أَنْفُسَها ما لَم تَعمَلْ أو تَتكلَّمْ**»[1]؟

فَالجوابُ: إِن كان فكَّر فيها ولكن ما هَمَّ بها هَذا لا شَيءَ عليه، ولكنَّ السَّلامةَ

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب الطلاق، باب الطلاق في الإغلاق والكره، رقم (٥٢٦٩)، من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

أَسلمُ، ولِهذا نَقولُ: إِنَّ مَن أَرادَ المعصيةَ ولَمْ يَفعلْها له ثلاثُ حالاتٍ:

الحالُ الأُولَى: أَنْ يعجزَ عنها ويَفْعلَ الأسبابَ الَّتي يُريدُ الوصولَ بها إليها ولكن يَعجزُ كَرَجُلٍ سارقٍ هَمَّ بِالسَّرقةِ ووَضَعَ السُّلَّمَ على الجِدارِ لِيَصْعدَ منه، وبَينما هو في أَثناءِ الصُّعودِ إِذا بِرجُل يَمرُّ في الشَّارعِ فَنَزَل وَهَرَب، هذا يُكتَبُ له عَمَلُ السَّيِّئةِ، كأَنَّه عَمِلَها تمامًا مَعَ أَنَّه لم يَعملْها؛ لأَنَّه أَرادَها وعَمِلَ لها لكن عَجزَ.

والدَّليلُ على ذَلِكَ قَولُ النَّبيِّ ﷺ: «**إذا التَقَى المُسلِمانِ بِسَيفَيهِما فالقاتلُ والمقتولُ في النَّار**»، قالوا: يا رَسولَ اللهِ، هَذا القاتلُ -يَعني: في النَّارِ- فما بَالُ المَقتولِ؟ قال: «**لأَنَّه كان حَريصًا على قَتْلِ صاحِبِه**»(١).

إِذنْ: مَن هَمَّ بالسيِّئةِ وعَمِلَ لها عَمَلها لكن عَجزَ عن إِتمامِها كُتِبَ له وِزْرُها كاملًا.

الثَّانيةُ: مَنْ هَمَّ بها وتَمنَّاها ولَكنَّه عَجزَ عَنها بِدونِ أَنْ يَعْمَلَ عَمَلَها، فَهذا عليه وِزرُ النيَّةِ، والدَّليلُ على هَذا: «**أَنَّ النَّبيَّ ﷺ أَخبرَ عنْ رَجُلٍ آتاهُ اللهُ المالَ فَجعَلَ يَتخبَّطُ فيه، فقالَ الفقيرُ: لو أَنَّ لي مِثلَ مالِ فُلانٍ لَعمِلْتُ فيه عَمَلَ فُلانٍ، قال: فَهو بِنِيَّتِه فَهُما في الوِزْرِ سواءٌ**»(٢)، في الوِزْرِ الإِراديِّ لا العَمَليِّ؛ لِأَنَّ هذا لَمْ يَعمَلْ.

الثَّالثةُ: أَنْ يَكونَ هَمَّ بِالسَّيِّئةِ وعَـزَمَ عليها، ولكن تَذكَّـر خَشْيَةَ اللهِ فتَرَكَها

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب الإيمان، باب ﴿وَإِن طَآئِفَتَانِ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱقْتَتَلُوا۟ فَأَصْلِحُوا۟ بَيْنَهُمَا﴾، رقم (٣١)، ومسلم: كتاب الفتن، باب إذا تواجه المسلمان بسيفيهما، رقم (٢٨٨٨)، من حديث أبي بكرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٢) أخرجه الإمام أحمد (٤/ ٢٣٠)، والترمذي: كتاب الزهد، باب ما جاء مثل الدنيا مثل أربعة نفر، رقم (٢٣٢٥)، وابن ماجه: كتاب الزهد، باب النية، رقم (٤٢٢٨)، من حديث أبي كبشة الأنماري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

خوفًا مِنَ اللهِ، فَهذا تُكتَبُ له حَسنَةٌ كاملَةٌ.

وهُناكَ قِسْمٌ رابعٌ -لَكن لا يَدْخُلُ في تَقسيمِنا-، وَهو مَنْ لم تَطرأْ له المَعصيةُ على بالِه، فَهذا لا يُكْتبُ له ولا عَليه، كإنسانٍ مُستقيمٍ، ولا يَطْرأُ على بالِه السَّرِقةُ ولا الزِّنا وَلا شُربُ الخَمرِ، هَذا لَيسَ له ولا عليه، لَكنَّ هَذا غَيرُ داخلٍ في تَقْسيمِ الإِرادةِ يَعني: مَنْ أَرادَ السُّوءَ.

•●۞●•

الآية (٤٧)

قال اللهُ تعالَى: ﴿ ۞ إِلَيْهِ يُرَدُّ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ ۚ وَمَا تَخْرُجُ مِن ثَمَرَٰتٍ مِّنْ أَكْمَامِهَا وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنثَىٰ وَلَا تَضَعُ إِلَّا بِعِلْمِهِۦ ۚ وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ أَيْنَ شُرَكَآءِى قَالُوٓا۟ ءَاذَنَّٰكَ مَا مِنَّا مِن شَهِيدٍ ﴾ [فصلت:٤٧].

قوله: ﴿إِلَيْهِ يُرَدُّ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ﴾ ﴿إِلَيْهِ﴾ أي: إِلَى اللهِ وَحدَهُ، وإِنَّما قُلنا: وَحْدَهُ لِتقديمِ المَعمولِ، وتَقديمُ المَعمولِ يُفيدُ الحَصرَ، وذَلكَ أَنَّ المعمولَ مكانُه أَنْ يَكونَ بَعدَ العامِلِ، فَإذا تَقدَّمَ فَإنَّه يَكونُ مِن بابِ تَقديمِ ما حَقُّه التَّأخيرُ، وَالقاعدةُ اللُّغويَّةُ البلاغيَّةُ: أَنَّ تَقديمَ ما حَقُّه التَّأخيرُ يُفيدُ الحَصرَ، وعلى هَذا فقولُه: ﴿إِلَيْهِ يُرَدُّ﴾ المعنَى: إِليه لا إِلى غَيرِه، وأَخذنا النَّفيَ -لا إِلى غَيرِه- مِن تَقديمِ المعمولِ؛ لِأَنَّ المعمولَ حَقُّه أَنْ يَكونَ بَعدَ العاملِ، فَإذا قُدِّم كان هَذا مِن بابِ تَقديمِ ما حَقُّه التَّأخيرُ، وتَقديمُ ما حَقُّه التَّأخيرُ يُفيدُ الحصرَ، هَذه قاعدةٌ لُغويَّةٌ بَلاغيَّةٌ.

﴿يُرَدُّ﴾ أَيْ: يَرجعُ ﴿عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ﴾.

يَقولُ المفسِّرُ رَحِمَهُ اللَّهُ: [مَتَى تكونُ لا يَعلمُها غيرُه]، أَخذَ هَذا الحصرَ لا يَعلَمُها غَيرُه مِن تَقديمِ المَعمولِ وهو ﴿إِلَيْهِ﴾.

وهَذا لا شَكَّ فيه أَنَّه لا يَعلَمُ مَتَى تَقومُ السَّاعةُ إِلَّا اللهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، ولِهذا قال اللهُ تعالَى: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلسَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَىٰهَا ۖ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ رَبِّى﴾ [الأعراف:١٨٧]

يَعني: ما عِلْمُها إِلَّا عِندَ رَبِّي: ﴿لَا يُجَلِّيهَا لِوَقْتِهَآ إِلَّا هُوَ﴾ [الأعراف:١٨٧].

وقال النَّبيُّ ﷺ: «وقَدْ سَأَله جِبريلُ: أَخْبِرني مَتَى السَّاعةُ؟ قال: ما المَسؤولُ عَنها بِأَعْلَمَ مِنَ السَّائِلِ»(١).

يعني: أَنَّه لا عِلْمَ عِندي كما أَنَّك أنت ليس عِنْدكَ عِلْمٌ، وعَلَى هَذا فَمَنِ ادَّعى عِلْمَ السَّاعةِ فهو كاذبٌ لا شَكَّ فيه ثُمَّ هو كافرٌ أيضًا؛ لأَنَّه مُكَذِّبٌ للقُرآنِ وَالسُّنَّة.

قال اللهُ تَعالى: ﴿إِلَيْهِ يُرَدُّ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ وَمَا تَخْرُجُ مِن ثَمَرَٰتٍ مِّنْ أَكْمَامِهَا﴾ قَوْلُه: ﴿وَمَا تَخْرُجُ﴾ قَدْ يَتراءى لِلإنسانِ أَنَّ (ما) اسمٌ مَوصولٌ يَعني: ويُرَدُّ إِليهِ عِلْمُ: ﴿وَمَا تَخْرُجُ مِن ثَمَرَٰتٍ مِّنْ أَكْمَامِهَا﴾ ولكنَّ هذا وَهْمٌ، وعَلَى هَذا فنَقُولُ: (ما) نافيةٌ.

يَقُولُ المفسِّرُ رَحِمَهُ اللَّهُ: [«وَما تَخرُجُ مِن ثَمَرَةٍ» وَفي قِراءةٍ ﴿ثَمَرَٰتٍ﴾]. المفسِّر فَسَّر على قِراءةِ «ثَمَرةٍ» مُفردةٍ، والقراءةُ الَّتي بَين أَيْدينا في المصحفِ ﴿مِن ثَمَرَٰتٍ﴾، وَاعْلَمْ أنَّ للمُؤلِّف رَحِمَهُ اللَّهُ اصطلاحًا وهو أَنَّه إذا قال: [وفي قراءةٍ] فَهي سَبْعيَّةٌ، وَإِذا قال: [وقُرِئَ] فهي قراءةٌ شاذَّةٌ ليست مِنَ السَّبْعِ هَذا اصطلاحُ الجلالَينِ رَحِمَهُمَا اللَّهُ.

إِذنْ: في قِراءةِ ﴿ثَمَرَٰتٍ﴾ القراءةُ هَذه سَبْعيَّةٌ يَعني: أَنَّها ثابتةٌ تَجوزُ القراءةُ بِها في الصَّلاةِ، وَتَكونُ حُجَّةً في الأحكامِ الشَّرعيَّةِ وَفي الأَخبارِ العلميَّة.

فَأَمَّا عَلَى صيغةِ الجمعِ فَواضحٌ ﴿مِن ثَمَرَٰتٍ﴾ كُلُّ الثَّمراتِ، وأَمَّا عَلى صيغةِ الإفرادِ فَهي أيضًا تُفيدُ العمومَ؛ لِأَنَّ «ثمرة» نكِرَةٌ في سياقِ النَّفيِ مُؤكَّدةٌ بِمِن الزَّائدةِ فتَشملُ جَميعَ الثَّمراتِ، وعَلَى هَذا فَلا اختلافَ في المَعنَى بين ﴿ثَمَرَٰتٍ﴾ وَ«ثمرة».

يَقولُ المُفسِّرُ رَحِمَهُ اللَّهُ: [﴿وَمَا تَخْرُجُ مِن ثمرة﴾، وفي قِراءةٍ ﴿ثَمَرَٰتٍ﴾ ﴿مِّنْ أَكْمَامِهَا﴾

---

(١) أخرجه مسلم: كتاب الإيمان، باب معرفة الإيمان، رقم (٨)، من حديث عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

أَوعيتُها] الأكمامُ الأَوعيةُ يقولُ: [جَمْعُ كِمٍّ بِكسرِ الكافِ].

﴿إِلَّا بِعِلْمِهِۦ﴾ الأكمامُ هي أَوعيةُ الطَّلِّ هَذا مَعروفٌ في النَّخلِ، وكَذلكَ مَعروفٌ في الأزهارِ تَجِدُ الزَّهرةَ عَليها غِلافٌ يُسمَّى كِمًّا، فما تَخرجُ مِن ثَمَرةٍ مِنْ كِمِّها إِلَّا بِعِلمِ اللهِ عَزَّوَجَلَّ أَيُّ ثَمرةٍ تكونُ صَغيرةً أَوْ كَبيرةً مَأكولةً أَوْ غَيرَ مَأكولةٍ، فَهي بِعِلمِ اللهِ عَزَّوَجَلَّ ووَجْهُ كَونِها بِعِلمِهِ أَنَّ هَذه الثَّمراتِ مَخلوقةٌ للهِ، وكُلُّ مَخلوقٍ للهِ فَهو مَعلومٌ لَه لِقولِه تَعالى: ﴿أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ﴾ [الملك:١٤].

فأَنت مَتَى أَقْرَرْتَ أَنَّ اللهَ خالقُ هَذه لَزِمَ مِن إِقْرارِك أَنْ يَكونَ اللهُ عالمًا بِها؛ لِأَنَّه لا يُمكنُ أَنْ يَخْلُقَها وهو لا يَعلمُ، ولِهَذا استدَلَّ اللهُ لِذلك بِدَليلٍ عَقليٍّ: ﴿أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ﴾.

قال اللهُ تَعالى: ﴿وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنثَىٰ وَلَا تَضَعُ إِلَّا بِعِلْمِهِۦ﴾ [فصلت:٤٧]، ﴿وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنثَىٰ﴾ أَيْ: أُنْثى مِن بَني آدمَ أو مِن الحَيوانِ ما تَحملُ ولا تَضعُ إِلَّا بعِلمِ اللهِ عَزَّوَجَلَّ، فابتداءُ الحملِ مَعلومٌ عِندَ اللهِ، ووَضْعُه كَذلكَ مَعلومٌ عِندَ اللهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى.

نَرجِعُ إِلى قَولِهِ: ﴿مِنْ أُنثَىٰ﴾ وإِلَى قَولِه: ﴿مِن ثَمَرَٰتٍ﴾ الإِعرابُ ﴿مِنْ﴾ حَرفُ جَرٍّ زائدٌ مِن حَيثُ الإِعرابُ وليس زائدًا مِن حَيثُ المعنَى؛ لِأَنَّه يُفيدُ مَعنًى وَهو التَّوكيدُ، وعَلَى هَذا فنَقولُ: ﴿مِن ثَمَرَٰتٍ﴾ ﴿مِنْ﴾ حَرفُ جَرٍّ زائدٌ وَ﴿ثَمَرَٰتٍ﴾ فاعلٌ مَرفوعٌ بِضمَّةٍ مُقدَّرةٍ عَلَى آخِره مَنَعَ مِن ظُهورِها اشتغالُ حَركَةِ المَحلِّ بِحرفِ الجرِّ الزَّائِدِ، وكَذلِك يُقالُ: ﴿مِنْ أُنثَىٰ﴾ ﴿مِنْ﴾ حَرفُ جَرٍّ زائدٌ وَ﴿أُنثَىٰ﴾ فاعلٌ مَرفوعٌ بِضَمَّةٍ مُقدَّرةٍ عَلَى آخِرِه، مَنَعَ مِن ظُهورِها التَّعذُّر، وهو في مَحلِّ جَرٍّ لَفظًا لِدخولِ ﴿مِنْ﴾ عَليهِ.

وقَولُه: ﴿إِلَّا بِعِلْمِهِۦ﴾ بعِلْمِهِ السَّابقِ؛ لِأنَّ عِلمَ اللهِ تَعالى مُحيطٌ بِكلِّ شَيءٍ أَزلًا وأَبدًا، فَهو يَعلمُ ما تَخرجُ مِن ثَمراتٍ مِن أَكمامِها إلى يَومِ القِيامةِ، وكَذلكَ ما تَحملُ مِن أُنثَى وَما تَضعُ.

ثُمَّ قال عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ أَيْنَ شُرَكَآءِى﴾ ﴿وَيَوْمَ﴾ ظَرفٌ والظَّرفُ يَحتاجُ إِلَى ما يَتعلَّقُ بِه؛ لِأنَّه مَفعولٌ فيه، وَإذا كانَ مَفعولًا فيه فَلا بُدَّ مِن فِعلٍ يَكونُ عاملًا فيه، وَالعاملُ في هَذا مُقدَّرٌ، وَالتَّقديرُ: «وَاذْكُرْ يومَ يُناديهم أَينَ شُركائِي..» إلى آخرِه، ومِثْلُ هَذا التَّعبيرِ مَوجودٌ في القُرآنِ كَثيرًا.

وإِنَّما أَمَرَ اللهُ تَعالَى نَبيَّهُ بِذِكرِه تَخويفًا لِهؤلاءِ المُكذِّبينَ، وتَسليةً لِرَسولِ اللهِ -صلَّى اللهُ عَليه وعَلى آلِهِ وسَلَّم-.

وقَولُه: ﴿يُنَادِيهِمْ﴾ أَيْ: يَدعوهمْ بِصوتٍ رَفيعٍ؛ لِأنَّ النِّداءَ يَكونُ بِصَوتٍ رَفيعٍ والمُناجاةُ تَكونُ بِصوتٍ أَدنَى، وفاعلُ ﴿يُنَادِيهِمْ﴾ هو اللهُ بِدَليلِ قَولِهِ: ﴿أَيْنَ شُرَكَآءِى﴾ يَعني: أَنَّ اللهَ تَعالى يُنادي هَؤلاءِ المُشرِكينَ يَقولُ: ﴿أَيْنَ شُرَكَآءِى﴾، وَهذا الِاستِفهامُ لِلتَّعجِيزِ وَالتَّوبيخِ أيضًا، فَهو جامعٌ بَينَ مَعنيَينِ: التَّعْجيزِ، وَالثَّاني التَّوبِيخُ. يَعني: أَينَ الَّذينَ أَشركتُم مَعي؟

يَقولُ المفسِّرُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿قَالُوٓاْ ءَاذَنَّٰكَ﴾ أَعلَمناكَ الآنَ: ﴿مَا مِنَّا مِن شَهِيدٍ﴾] آذَنَ بِمعنَى أَعلَمَ، ومنهُ قَولُه تَعالى: ﴿وَأَذَٰنٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦٓ﴾ [التوبة:٣] أَيْ: إِعلامٌ مِنَ اللهِ ورَسولِه (فَآذَنَ) بِمعنَى أَعْلَمَ، ومِنه في الحَديثِ: أَنَّ الرَّسولَ -صلَّى اللهُ عَليهِ وعَلَى آلِهِ وسلَّم- قالَ لِلنِّساءِ اللَّاتي يَغسِلْنَ ابْنتَه: «إِذا فَرغْتُنَّ فَآذِنَّني»(١). أي: أَعلِمْنَني.

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب الجنائز، باب ما يستحب أن يغسل وترا، رقم (١٢٥٤)، ومسلم: كتاب الجنائز، باب في غسل الميت، رقم (٩٣٩)، من حديث أم عطية رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهَا.

قالَ اللهُ تَعالى: ﴿ءَاذَنَّكَ﴾، يقولُ المفسِّر: [أَعْلمناكَ الآنَ] فأفادَ المفسِّر بِقولِه: الآنَ أَنَّ الفعلَ الماضيَ ﴿ءَاذَنَّكَ﴾ بمَعنَى المُضارِعِ، فَهوَ إِذن جُملَةٌ خَبريَّةٌ حاليَّةٌ بِمعنَى الآنَ نُعلِمُكَ، ﴿مَامِنَّا مِن شَهِيدٍ﴾. وقيلَ: ﴿ءَاذَنَّكَ﴾ إِنَّها فِعلٌ ماضٍ عَلى بابِها، فَهي بِمعنَى الخبرِ عن شَيءٍ ماضٍ.

فعِندَنا قَـولانِ هَلِ الإِعلامُ هُنا يَومَ القيامةِ كَما قال المفسِّر: أَعْلمناكَ الآنَ، أَمْ هو إِعلامٌ سابقٌ في الدُّنيا؟

إِنْ نَظَرْنا إِلَى ظاهِرِ اللَّفظِ نُرجِّحُ أَنَّه إِعلامٌ في الدُّنيا يَعني: أَعلَمْناكَ في الدُّنيا فَيكونُ عَلى ظاهِرِه، لَكنْ يَشكُلُ عَلى هَذا التَّفسيرِ أَنَّ واقعَ حالِهِم لا يَدُلُّ عَلَى هَذا؛ لِأَنَّهم مُشركونَ فِعلًا فَكيْفَ يُؤذِنونَه أَنَّه ما منهم مِن شَهيدٍ بِذلكَ، أَجابَ القائِلونَ بِهذا أَنَّ المَعْنَى ﴿ءَاذَنَّكَ﴾ بِحَسَبِ الفِطرةِ وَما في قُلوبِنا؛ لِأَنَّه ما مِن مَوْلودٍ يُولَدُ إِلَّا عَلَى الفِطرةِ.

﴿ءَاذَنَّكَ﴾ صيغَتُها فِعلٌ ماضٍ يَقتضي أَنْ يَكُونَ هَذا الإِعلامُ سابقًا عَن وَقْتِ الخِطابِ، هَذهِ واحدَةٌ. وَالثَّانيةُ: ﴿ءَاذَنَّكَ﴾ فِعْلٌ ماضٍ لَكنْ يُرادُ به الخَبرُ عَنِ الحالِ الحاضرَةِ، فَهو بِمعنى نَحنُ نُؤذِنُك الآنَ، وهَذا التَّفسيرُ مُخالفٌ لِظاهِرِ اللَّفظِ لَكنَّه مُوافقٌ لِواقِعِ حالِهِمْ.

التَّفسيرُ الأَوَّلُ مُوافقٌ لِلَّفظِ لكنَّه مُخالفٌ لِظاهِرِ حالِهِمْ؛ لِأَنَّهم لا يُعْلِمونه بذلِكَ، إذ إِنَّهم مُشركون فِعلًا، وأَجابَ هَؤلاءِ الَّذين يَقولون: إِنَّه آذنَكَ في الدُّنيا أَنَّهمْ أَعْلَموه بِحسَبِ الفِطرةِ الَّتي فُطِرُوا عَليها؛ لِأَنَّه ما من مَولودٍ يُولَدُ إِلَّا على الفِطرةِ.

يَقولُ المُفسِّرُ رَحِمَهُ اللَّهُ: [﴿مَامِنَّا مِن شَهِيدٍ﴾ أَيْ: شاهدٌ بِأَنَّ لَكَ شَريكًا].

﴿مَا مِنَّا مِن شَهِيدٍ﴾ ﴿مَا﴾ نافيةٌ و﴿مِنَّا﴾ جارٌّ ومجرورٌ خبرٌ مُقدَّمٌ و﴿مِن﴾ حَرْفُ جَرٍّ زائدٌ إِعْرابًا، وَ﴿شَهِيدٍ﴾ مُبتدأٌ مَرفوعٌ بِضمَّةٍ مُقدَّرةٍ عَلى آخِرِه مَنعَ مِن ظُهورِها اشْتغالُ المحلِّ بِحركَةِ حَرفِ الجرِّ الزَّائِدِ.

يَعني: أَنَّنا قَد أَقْرَرنا بِأَنَّه لا أَحَدَ مِنَّا يَشهدُ بِأَنَّ لَكَ شريكًا، وهم يَقولون هَذا الآنَ لَكنَّه لا يَنْفعُهم؛ لِأَنَّه إِقرارٌ بَعدَ مُعاينةِ العَذابِ، وَالإِقْرارُ بَعدَ مُعاينةِ العَذابِ لَيس بِنافِعٍ؛ ولِهذا أَقَرَّ فِرعَونُ حينَ أُغْرِقَ بِأَنَّه: ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱلَّذِىٓ ءَامَنَتْ بِهِۦ بَنُوٓاْ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾، ولكنَّه لَمْ يَنفعْه فَقيلَ: ﴿ءَآلْـَٰٔنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنتَ مِنَ ٱلْمُفْسِدِينَ﴾ [يونس:٩١].

مِن فوائِدِ الآيَةِ الكريمَةِ:

الْفَائِدَة الأُولَى: أَنَّ عِلمَ السَّاعةِ عندَ اللهِ وحدَه يُؤخَذُ مِن قَولِه تَعالَى: ﴿إِلَيْهِ يُرَدُّ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ﴾؛ لِأَنَّهُ قَدَّمَ ما حَقُّه التَّأخيرُ وَهو المَعمولُ، وهَذا يُفيدُ الحَصرَ.

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَةُ: أَنَّ مَنِ ادَّعى عِلْمَ السَّاعةِ فَهو كافرٌ؛ لأَنَّه مُكذِّبٌ للهِ ورَسولِه -وتَكذيبُ اللهِ ورَسولِه مِنْ أَسبابِ الرِّدَّةِ؛ لأنَّ الرِّدَّةَ تَدورُ على شَيئين: إِمَّا تَكْذيبٌ وَإِمَّا استكبارٌ، فَكُلُّ رِدَّةٍ يَحكُم العُلماءُ بِها فإِنَّها لا تَخرجُ عَنْ هَذَينِ الأَمرينِ: إِمَّا التَّكذيبُ، وإِمَّا الِاستكبارُ- وَمَنْ صَدَّقَه فَهو كافرٌ أيضًا؛ لِأَنَّه صَدَّق ما هو تَكْذيبٌ لِلقُرآنِ الكريمِ، ومَنْ صَدَّقَ ما هو تكذيبٌ لِلقُرآنِ الكَريمِ فإِنَّه كافرٌ بِلا شَكٍّ.

الْفَائِدَةُ الثَّالِثَةُ: عُمومُ عِلْمِ اللهِ عَزَّوَجَلَّ لِقولِه: ﴿وَمَا تَخْرُجُ مِن ثَمَرَٰتٍ مِّنْ أَكْمَامِهَا﴾ إِلى آخرِه.

الْفَائِدَةُ الرَّابِعَةُ: تَوبيخُ الكُفَّارِ يَومَ القيامـةِ؛ لِقولِه تعالى: ﴿وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ أَيْنَ شُرَكَآءِى﴾، وَهذا هو التَّوبيخُ في ذَلكَ المَكانِ مِن أَعْظمِ ما يَكونُ مِنَ التَّوبيخِ؛ لِأَنَّه

اليَومُ المَشهودُ الَّذي يَشْهدُه اللهُ وَمَلائكتُه وجَميعُ خَلْقِه.

الْفَائِدَةُ الخَامِسَةُ: إِقْرارُ هَؤلاءِ المُكذِّبينَ بِالبعثِ في ذَلكَ اليَومِ أَنَّه لا شَريكَ للهِ عَزَّوَجَلَّ لِقولِه: ﴿قَالُوٓاْ ءَاذَنَّٰكَ مَا مِنَّا مِن شَهِيدٍ﴾.

• ● ۞ ● •

الآية (٤٨)

• قالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا يَدْعُونَ مِن قَبْلُ وَظَنُّوا مَا لَهُم مِّن مَّحِيصٍ﴾ [فصلت:٤٨].

يَقولُ المفسِّرُ رَحِمَهُ اللَّهُ: [﴿وَضَلَّ﴾ غاب ﴿عَنْهُم مَّا كَانُوا يَدْعُونَ﴾] ﴿مِن قَبْلُ﴾.

قَولُه تَعالى: ﴿وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا﴾ ﴿مَّا﴾ اسْمٌ مَوصولٌ فاعلٌ بِمعنَى الَّذي.

يَقولُ المُفسِّرُ رَحِمَهُ اللَّهُ: [﴿مَّا كَانُوا يَدْعُونَ﴾ يَعبُدونَ ﴿مِن قَبْلُ﴾ في الدُّنيا مِن الأصنام] أَصْنامَهُم الَّتي كانوا يَتعلَّقونَ بِها ويَعْبُدونها لِتُقرِّبَهم إِلَى اللهِ زُلفى، في ذَلكَ اليَومِ الَّذي هُمْ أَشدُّ ما يَكونون حاجَةً لَها تَغيبُ عَنهم ولا تَنْفعُهم؛ وَلِهَذا قال: ﴿وَضَلَّ عَنْهُم﴾ أَيْ: ضاعَ وغابَ ما كانوا يَدعون، أَيْ: يَعْبُدونَ مِنْ قَبلُ، ويُريدُ بِذلكَ الأَصنامَ الَّتي كانوا يَعبُدونها في الدُّنيا.

مَثلًا النَّصارى يَعْبُدونَ عيسى ابنَ مَرْيَمَ، وقُريشٌ تَعبُدُ اللَّاتَ والعُزَّى ومَناةَ وهُبَلَ، ومِنهم مَنْ يَعبُدُ النَّارَ كَالمَجوسِ، ومَنْ يَعبُدُ الشَّمسَ، ومَنْ يَعبُدُ القمرَ.. إِلَخ، هَذه الأصنامُ الَّتي تُعبَدُ مِن دونِ اللهِ لا تَنفعُهم يومَ القيامةِ؛ ولِهذا قالَ: ﴿وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا يَدْعُونَ مِن قَبْلُ﴾ [فصلت:٤٨]، ورُبَّما نَفْهَمُ مِن قولِه: ﴿وَضَلَّ عَنْهُم﴾ أَنَّهم ذَهبوا يَطلُبونها يَبحثونَ عَنْها، ولَكنَّها ضَلَّت وضاعَت، ويَكونُ هَذا أَشدَّ حَسرةً في نُفوسِهم أَنَّهم طَلبوها في وَقتِ الحاجةِ وَلكنْ لَمْ يَجِدوها.

يَقولُ المفسِّرُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿وَظَنُّوا﴾ أيقنوا ﴿مَا لَهُم مِّن مَّحِيصٍ﴾] ظَنَّ هُنا بمَعنى أَيقنَ، والظَّنُّ يأتي كثيرًا بمَعنَى اليقينِ، قال اللهُ تَعالى: ﴿وَرَءَا ٱلْمُجْرِمُونَ ٱلنَّارَ فَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُم مُّوَاقِعُوهَا وَلَمْ يَجِدُوا۟ عَنْهَا مَصْرِفًا﴾ [الكهف:٥٣] إذن ظَنُّوا بمَعنَى أَيْقَنوا، وقالَ اللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: ﴿ٱلَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلَٰقُوا۟ رَبِّهِمْ﴾ [البقرة:٤٦] معنى يَظُنُّونَ: أي: يُوقِنون أَنَّهمْ مُلاقو رَبِّهم، ولو كانَ الظَّنُّ بمعنى الشَّيءِ الرَّاجحِ لَمْ يكونوا مُؤمِنينَ، لَكنْ يَظُنُّونَ بمَعْنى يُوقِنون، إذن الظَّنُّ في اللُّغةِ العربيَّةِ يأتي بِمعنى اليَقينِ، ﴿وَظَنُّوا مَا لَهُم مِّن مَّحِيصٍ﴾ أَيقَنوا.

وقَولُه: ﴿مَا لَهُم مِّن مَّحِيصٍ﴾ فِيها تَقديمٌ وتَأخيرٌ وتَوكيدٌ، التَّقديمُ والتَّأخيرُ أَنَّه قَدَّم فيها الخَبرَ وَأخَّر فيها المُبتدَأَ، وَالخَبرُ ﴿لَهُم﴾ وَالمُبتدأُ ﴿مَّحِيصٍ﴾، فيها أيضًا تَوكيدٌ وهو ﴿مِّن﴾ الزَّائدةُ؛ لِأنَّ مَحيص مُبتدأٌ مُؤَخَّرٌ ودَخلَتْ عَليه ﴿مِّن﴾ الزَّائدةُ للتَّوكيدِ، وإعْرابُه أَنَّه مُبتدأٌ مَرفوعٌ بِالِابْتِداءِ، وعَلامَةُ رَفعِه ضَمَّةٌ مُقدَّرةٌ على آخِره مَنَعَ مِن ظُهورِها اشتغالُ المَحلِّ بِحَركَةِ المُناسبةِ.

يَقولُ المفسِّرُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿مَّحِيصٍ﴾ مَهْربٌ مِنَ العَذابِ] يَعني: أَيقَنوا أَنَّه لا مَهْربَ لهم مِنَ العذابِ ولا مَفرَّ لَهمْ مِنه، وأَنَّه واقعٌ بِهِمْ لا مَحالةَ.

ثُمَّ قال المفسِّرُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [والنَّفيُ في المَوضعينِ مُعلَّقٌ عَنِ العَمَلِ، وجُملةُ النَّفيِ سَدَّت مَسدَّ المَفعولَينِ].

النَّفيُ في المَوضِعينِ:

المَوضِعُ الأَوَّلُ: ﴿قَالُوٓا۟ ءَاذَنَّٰكَ مَا مِنَّا مِن شَهِيدٍ﴾ هَذهِ ﴿مَا﴾ نافِيةٌ مُعلَّقةٌ عَنِ العَملِ؛ لِأنَّ ﴿ءَاذَنَّٰكَ﴾ أَعْلمناكَ وَهي تَنْصبُ ثلاثةَ مفاعيلَ، تَقولُ مَثلًا: أَعْلمتُ زيدًا عَمرًا قائمًا، نَصبتْ ثلاثةَ مَفاعيلَ زيدًا وعَمرًا وقائمًا، وهُنا ﴿ءَاذَنَّٰكَ﴾ المفعولُ

الأَوَّلُ مَوجـودٌ وهو الكافُ، والمفعـولُ الثَّاني وَالثَّالثُ مُعلَّقٌ أَغنـت عَنهما جُملةُ الاِستفهام: ﴿مَا مِنَّا مِن شَهِيدٍ﴾، وَعَلَى هَذا فتكونُ جُملةُ: ﴿مَا مِنَّا مِن شَهِيدٍ﴾ كُلُّها تَكونُ فِي مَوضعِ نَصْبٍ سَدَّت مَسدَّ مَفْعولَيْ آذَنَ.

المَوضعُ الثَّاني: ﴿وَظَنُّواْ مَا لَهُم مِّن مَّحِيصٍ﴾ (ظَنَّ) هَذه تَنْصِبُ مَفعولينِ، وهُنا عُلِّقَتْ عَنِ العَملِ بِجُملةِ النَّفي وَهي قَولُه: ﴿مَا لَهُم مِّن مَّحِيصٍ﴾، وعَلَى هَذا فيكونُ: ﴿مَا لَهُم مِّن مَّحِيصٍ﴾ جُملةً في محَلِّ نَصبٍ سَدَّت مَسدَّ مَفعولَي (ظَنَّ)، وهَذا الإِعرابُ في الحَقيقَةِ لا يُدْركُه إِلَّا مَنْ كان عِنده عِلمٌ بِالمفاعيلِ لكنَّا نَحنُ الآنَ شَرحْناه، فَمَنْ فَهِمَه فَهذا المَطلوبُ، وَمَنْ لم يَفهَمْه فَإِنَّه لا يَضُـرُّه؛ لأَنَّه ليسـت لَهُ عِلاقةٌ بِالمَعْنى عِلاقَتُه إِنَّما هو بِالإِعرابِ فَقط.

مِن فَوائِدِ الآيَةِ الكَرِيمَةِ:

الْفَائِدَةُ الأُولَى: أَنَّ ما يُعبَدُ من دونِ الله فإِنَّه هَلاكٌ وضَلالٌ ولَنْ يُجدِيَ شيئًا عَن عابِديه؛ لِقولِه تَعالَى: ﴿وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُواْ يَدْعُونَ مِن قَبْلُ﴾.

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَةُ: أنَّ هَـؤلاءِ المُكذِّبينَ يُوقنـون في ذَلكَ اليومِ أَنَّه لا مَفرَّ لَهُمْ مِن عذابِ اللهِ؛ لأَنَّه لَيس هُناكَ أَحدٌ يَدفعُ عَذابَ اللهِ تَعالى عَنْهم فَيوقنونَ بِأَنَّه لا مَحيصَ لَهُمْ مِنه.

• • ۞ • •

الآية (٤٩)

• ● ○ ● •

۞ قالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿لَّا يَسْـَٔمُ ٱلْإِنسَـٰنُ مِن دُعَآءِ ٱلْخَيْرِ وَإِن مَّسَّهُ ٱلشَّرُّ فَيَـُٔوسٌ قَنُوطٌ﴾ [فصلت:٤٩].

• ● ○ ● •

﴿لَّا يَسْـَٔمُ﴾ يَعني: لا يَمَلُّ فَهو دائمًا يَسأَلُ الخيرَ مِنَ المالِ والغِنى وَالجاهِ وغَيرِ ذَلكَ.

و﴿ٱلْإِنسَـٰنُ﴾ هُنا يَحتَمِلُ أَنْ يَكُونَ المُرادُ بِهِ الكافرَ ويَحتملُ أَنْ يُرادَ بِه الجِنسُ أَيْ: جِنسُ الإِنسانِ سَواءً كان مُؤمنًا أم كافرًا، ثُمَّ تَنْزِلُ الأحوالُ على ما يَليقُ بِها.

﴿دُعَآءِ﴾ مُضافٌ وَ﴿ٱلْخَيْرِ﴾ مُضافٌ إِليهِ مِن بابِ إِضافةِ المَصدرِ إِلَى مَفعولِهِ، وهو أيضًا -أَعنِي الخَيرَ- مَفعولٌ لِدُعاء، وَالمَدعوُّ هو اللهُ عَزَّوَجَلَّ فعِندنا داعٍ ومَدعوٌّ ومَدعوٌّ به أي: مَطْلوبٌ، فالدَّاعي الإِنسانُ، والمدعوُّ اللهُ، والمَدعوُّ بِه الخيرُ.

يَقولُ المفسِّرُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [أَيْ: لَا يَزالُ يَسألُ رَبَّه المالَ وَالصِّحَّةَ وغَيرَهما] مِنَ البَنينَ وَالزَّوجاتِ وَالجاهِ وَالشَّرفِ، وغَيرِ ذَلكَ مِمَّا يَدعوه الإِنسانُ رَغبةً به.

يَقولُ المفسِّرُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿وَإِن مَّسَّهُ ٱلشَّرُّ﴾ الفقرُ وَالشِّدَّةُ]، وتَخصيصُ الشَّرِّ بِالفَقرِ وَالشِّدَّة ليس على سَبيلِ الحَصْرِ، بَلْ هو على سبيلِ المِثالِ؛ لِأَنَّه يَشمَلُ الفَقْرَ والشِّدَّةَ وفَقْدَ الأولادِ، وفَقْدَ الجاهِ، وَالإيذاءَ مِنَ الخَلْقِ وأَشياءَ كَثيرَةً، فَتَخصيصُ المفسِّرِ ذَلكَ بِالفَقْرِ وَالشِّدَّةِ مِن بابِ التَّمثيلِ.

قال اللهُ تعالى: ﴿وَإِن مَّسَّهُ ٱلشَّرُّ فَيَـُٔوسٌ قَنُوطٌ﴾ الفاءُ رابطةٌ لجوابٍ وَهو (إن) و﴿فَيَـُٔوسٌ﴾ خبرٌ لِمُبتدإٍ محذوفٍ، أي: فَهو يَؤوسٌ قنوطٌ.

يَقولُ المفسِّرُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [مِنْ رَحمةِ اللهِ وهَذا وما بَعدَه في الكافرينَ].

﴿فَيَـُٔوسٌ قَنُوطٌ﴾ هُناكَ فَرقٌ بين اليَأسِ والقُنوطِ، اليَأْسُ هو زَوالُ الرَّجاءِ بِحَيْثُ يَنقطعُ رجاءُ الإنسانِ، وَالقُنوطُ أَشَدُّ اليأسِ، وعَلَى هَذا فيكونُ قولُه: ﴿فَيَـُٔوسٌ﴾ هَذا ابْتداءُ القُنوطِ، وَ﴿قَنُوطٌ﴾ هَذا نِهايتُه.

وَقولُه: ﴿فَيَـُٔوسٌ قَنُوطٌ﴾ أَعْرَبْنا ﴿فَيَـُٔوسٌ﴾ خَبرُ مبتدإٍ محذوفٍ، وأَمَّا ﴿قَنُوطٌ﴾ فَنُعربُه عَلى أَنَّه خَبرٌ ثانٍ، وتَعدُّد الأخبارِ جائزٌ، واقعٌ في اللُّغةِ العربيَّةِ وَواقعٌ في القُرآنِ، قالَ اللهُ تَعالَى: ﴿وَهُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلْوَدُودُ ﴿١٤﴾ ذُو ٱلْعَرْشِ ٱلْمَجِيدُ ﴿١٥﴾ فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ﴾ [البروج:١٤-١٦] كُلُّ هذه أَخبارٌ مُتعدِّدةٌ وَلا يَصِحُّ أَنْ يَكونَ الثَّاني وَصفًا لِلْأَوَّل لأَنَّها كُلَّها تَعودُ عَلى مَوصوفٍ واحدٍ. وَعليه فَنَقولُ: ﴿قَنُوطٌ﴾ خَبرٌ ثانٍ لِلمُبتدأِ المحذوفِ، وَلا يَصحُّ أَن يَكونَ نَعتًا لِيَؤوسٍ؛ لأَنَّ يَؤوسًا نَفْسَها نَعتٌ.

يَقولُ المفسِّرُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [وَهذا وَما بَعده في الكافرينَ] هَذا المُشارُ إِليه اليأسُ وَالقُنوطُ، وما بَعدَه سَيُذكَرُ في الكافرينَ، وإنَّما قالَ المفسِّر ذَلكَ؛ لأَنَّ المُؤمنَ لا يَيأَسُ ولا يَقنطُ، قالَ اللهُ تَعالى: ﴿إِنَّهُۥ لَا يَاْيْـَٔسُ مِن رَّوْحِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْكَـٰفِرُونَ﴾ [يوسف:٨٧]، وَقال تَعالى: ﴿قَالَ وَمَن يَقْنَطُ مِن رَّحْمَةِ رَبِّهِۦٓ إِلَّا ٱلضَّآلُّونَ﴾ [الحجر:٥٦]، فَلا يُمكنُ لِلمُؤمنِ أَنْ يَيأسَ، وعَلى هَذا فَيكونُ هَذا الوصفُ لِلكافرينَ.

مِن فَوائِدِ الآيَةِ الكَريمَةِ:

الْفَائِدَة الأُولَى: أَنَّ الإِنسانَ شَحيحٌ وأَنَّه حَريصٌ على الخَيرِ شَحيحٌ بِبذلِ ما يُطلبُ منه.

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَةُ: أَنَّ الإنسانَ يُحبُّ الخيرَ دائمًا لِقولِه: ﴿لَّا يَسْـَٔمُ ٱلْإِنسَـٰنُ مِن دُعَآءِ ٱلْخَيْرِ﴾، وَهذا بِطَبيعةِ الإنسانِ أَنَّه يُحبُّ الخيرَ وَهو ما يُلائمُ نَفسَه ومُرادَه.

الْفَائِدَةُ الثَّالِثَةُ: أَنَّ الإنسانَ الَّذي لَيس عِندَه إِيمانٌ إِذا مَسَّه الشَّرُّ يَئِسَ وقَنَطَ مِن رَحمةِ الله.

الْفَائِدَةُ الرَّابِعَةُ: ذَمُّ أَهلِ اليأسِ والقُنوطِ مِنْ رَحمةِ اللهِ عَزَّوَجَلَّ؛ لأَنَّ اللهَ ساقَ هَذا مَساقَ الذَّمِّ.

الْفَائِدَةُ الخَامِسَةُ: أَنَّه لا يَنبَغي لِلإنسانِ أَنْ يَغلِبَ جانبُ اليأسِ وَالقُنوطِ، كَما أَنَّه لا يَغلِبُ جانبُ الرَّحمةِ؛ لأَنَّه إِنْ غَلَبَ جانبُ الرَّجاءِ وَالرَّحمةِ فإِنَّه يَدخلُ فيمَنْ لا يَأمنُ مَكرَ اللهِ، وَإِن غَلَبَ جانبُ اليأسِ وَالقُنوطِ دَخَلَ في أَهلِ اليأسِ وَالقُنوطِ.

وهَلِ الَّذي يَنبَغي لِلإنسانِ أَنْ يَغلبَه جانبُ الرَّجاءِ أَوِ الخوفِ؟

اخْتلَفَ السَّالِكونَ إِلَى اللهِ عَزَّوَجَلَّ في هَذا فَمِنهم مَنْ قال: يَنْبَغي أَنْ يَغلبَ جانبُ الخوفِ لِيَحذرَ المَعاصيَ ويَتجنَّبَها؛ لأَنَّه إِذا غَلَبَ جانبُ الخوفِ خافَ وحَذِرَ مِنَ المعاصي، ومِنهم مَنْ قال: يَغلِبُ جانبُ الرَّجاءِ؛ لأَنَّ اللهَ تَعالى عِندَ حُسنِ ظَنِّ عَبدِه بِه، وَإِذا غَلَبَ الرَّجاءُ ابتعدَ عَنِ اليأسِ وَالقُنوطِ.

ومِنهم مَنْ قال: إِنَّه لا يَنبَغي أَنْ يَغْلِبَ هَذا على هذا، وَأَنْ يَجعلَ خَوفَه وَرَجاءَه واحدًا، قالَ الإِمامُ أَحمدُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: يَنْبَغي أَنْ يَكونَ خَوفُه ورَجاؤُه واحدًا فأَيُّهما غَلَبَ هَلَكَ صاحبُه[١].

وَقالَ بَعضُهمْ: إِنَّه يَنبَغي لِلإنسانِ أَنْ يَكونَ بَين الخوفِ والرَّجاءِ، كالطَّائرِ

(١) انظر: الاختيارات العلمية لابن تيمية [المطبوع مع الفتاوى الكبرى] (٥/ ٣٥٩).

بين جَناحَيْه إِنِ انْخَفَضَ أَحدُهُما سَقَطَ، وقالَ بَعضُ أَهْلِ العِلمِ: يَنبَغي أَنْ يَغلِبَ جانبُ الرَّجاءِ عِندَ فِعلِ الطَّاعةِ فَيرجو القَبولَ والثَّوابَ، ويَغلِبُ جانِبُ الخَوفِ عِندَ الهَمِّ بِالمَعصيةِ حتَّى لا يَعصيَ اللهَ عَزَّوَجَلَّ.

وَمِن العُلماءِ مَنْ يَقولُ: يَغلِبُ جانبُ الرَّجاءِ عِند المَرَضِ حتَّى إِذَا مَاتَ لَقِيَ اللهَ وَهو يُحسنُ بِهِ الظَّنَّ، وَفي حالِ الصِّحَّةِ يَغلِبُ جانِبُ الخَوفِ؛ لأَنَّ حالَ الصِّحَّةِ يَدعو الإِنسانَ إِلَى البَطَرِ وَالأَشَرِ فَلْيَغلِبْ جانبُ الخوفِ.

كُلُّ هَذه الأقوالِ الَّتي تَبلغُ سِتَّةً أو سَبعةً كُلُّها في الواقعِ تَنْظُرُ إِلى حالِ العبدِ؛ ولِهذا نَرى في هَذه المسألَةِ أَنَّ الإنسانَ يَنْظرُ إِلَى حالِه، فَإِنْ كانَ قَدْ عَمِلَ عَملًا صالحًا وكَدِحَ فيما يُرضي اللهَ فَلْيَغْلِبْ جانبُ الرَّجاءِ، فَكُلَّما عَمِلَ طاعةً غَلَبَ جانبُ الرَّجاءِ أَنَّ اللهَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى تَجاوزَ عنها، وَأَنَّ اللهَ تَعالى قَبِلَها وسَيُثيبُه، وإِذا رَأى مِن نَفسِه العُلوَّ والتَّعاظُمَ فَلْيَغْلِبْ جانبُ الخَوفِ حتَّى يَصيرَ إِلَى اللهِ تَعالى صَيْرًا حسنًا.

الآية (٥٠)

• • ∞ • •

۞ قالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَلَئِنْ أَذَقْنَٰهُ رَحْمَةً مِّنَّا مِنۢ بَعْدِ ضَرَّآءَ مَسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ هَٰذَا لِى وَمَآ أَظُنُّ ٱلسَّاعَةَ قَآئِمَةً وَلَئِن رُّجِعْتُ إِلَىٰ رَبِّىٓ إِنَّ لِى عِندَهُۥ لَلْحُسْنَىٰ ۚ فَلَنُنَبِّئَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِمَا عَمِلُوا۟ وَلَنُذِيقَنَّهُم مِّنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ﴾ [فصلت:٥٠].

• • ∞ • •

يَقُولُ المُفسِّرُ رَحِمَهُ اللَّهُ: [﴿وَلَئِنْ﴾ لَامُ قَسَمٍ] و(إنْ) شَرْطيَّةٌ [﴿أَذَقْنَٰهُ﴾ آتيناه ﴿رَحْمَةً﴾ غِنًى وصِحَّةً]، ﴿مِّنَّا مِنۢ بَعْدِ ضَرَّآءَ﴾ ﴿مِّنَّا﴾ أي: مِنَ اللهِ عَزَّوَجَلَّ يقولُ المُفسِّرُ رَحِمَهُ اللَّهُ: [﴿مِنۢ بَعْدِ ضَرَّآءَ﴾ شِدَّةً وبَلاءً] ﴿مَسَّتْهُ﴾ يَعني: أَصابَته [﴿لَيَقُولَنَّ هَٰذَا لِى﴾، أي: بِعملي] انْظُرْ إِلَى حالِ هَذا.

نَبدأُ أَوَّلًا بالإِعرابِ؛ لأنَّ فيه شيءٌ مِنَ الإِشكالِ، قَولُه: ﴿وَلَئِنْ أَذَقْنَٰهُ﴾ إلى قولِه: ﴿لَيَقُولَنَّ﴾، ففي الجُملةِ الأُولَى ﴿وَلَئِنْ أَذَقْنَٰهُ﴾ حَرْفُ شَرطٍ، والشَّرطُ يَحتاجُ إِلى جَوابٍ، وَفي سياقِ الآيةِ لَمْ نَجِدْ جوابًا لِلشَّرطِ، فَجوابُ الشَّرطِ في هَذه الآيةِ مَحذوفٌ؛ لأَنَّه اجْتَمَعَ قَسَمٌ وشَرْطٌ، وَإِذا اجْتَمعَ القَسَمُ والشَّرطُ حُذِفَ جوابُ المتأخِّر منهما. والقَسَمُ في اللَّامِ والشَّرطُ (إِنْ) والمتأخِّرُ هو الشَّرطُ، فَيُحذَفُ جَوابُ الشَّرطِ؛ ولِهذا جاءَ جوابُ القَسَم في قولِه: ﴿لَيَقُولَنَّ﴾.

قال ابْنُ مالِكٍ رَحِمَهُ اللَّهُ في الأَلْفيَّةِ[1]:

(١) الألفية (ص:٥٩).

واحْذِفْ لَدى اجْتماعِ شَرْطٍ وقَسَمٍ جَوابَ ما أَخَّرتَ فَهْو مُلتَزَمْ

فَهو: أَيْ هَذا الحذفُ.

قَولُه عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَلَئِنْ أَذَقْنَٰهُ﴾، آتيناه لَكِنْ عَبَّر بِالإذاقةِ عَنِ الإيتاءِ؛ لأنَّ مَنْ ذاقَ شيئًا فَقدِ انتفعَ بِه، وَالإيتاءُ قَد يَنتفعُ بِه الإِنسانُ وَقَدْ لا يَنتفعُ، فَإذا أَعطيتُكَ خُبْزةً مَثلًا قَد تَنتفعُ مِنهَا وقَد لا تَنتَفعُ، يَعني: قد تَأكلُها وقَد لا تَأكلُها لَكنْ إِذا ذُقتَها فَقد أَكلْتَها وَانتفعتَ بِها؛ فَلِهذا عَبَّر عَنِ الإِتيانِ بِالإذاقةِ؛ لأَنَّه أَبْلغُ في المَماسَّةِ وَفي الانتفاعِ.

وقَولُه: ﴿رَحْمَةً مِّنَّا﴾ فَسَّر المفسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ الرَّحْمةَ بِأَنَّه الغنَى وَالصِّحَّةُ، وهذا مثالٌ ولَيس هو الحصرَ، بَل تَشمَلُ الرَّحمةُ كُلَّ ما هو مَطلوبٌ لِلْإنسانِ مِن غِنًى وَصِحَّةٍ وَجاهٍ وأَمْوالٍ وبَنِينَ وغَيرِ ذَلِكَ.

وقَولُه: ﴿مِّنَّا﴾ إِشارةٌ واضحةٌ إِلَى أَنَّ هَذه الرَّحمةَ لَيست بكَسبِه ولكنَّها فَضْلٌ مِنَ اللهِ عَزَّوَجَلَّ، فَالغِنَى أَتاه مِن حيث لا يَحتسِبُ، والصِّحَّةُ أَتتْهُ مِن حيثُ لا يَحتسِبُ، والبَنونَ وغَيرُهم، هي مِن عندِ اللهِ، وَواضحٌ أَنَّها مِن اللهِ ولَيستْ بِكَسبِه.

وقَولُه: ﴿مِنۢ بَعْدِ ضَرَّآءَ مَسَّتْهُ﴾ رَحمةٌ مِنْ بَعدِ ضَرَّاءَ يَعني: مَعناه أَنَّه تيَقَّنَ الضَّررَ ثُمَّ جاءتِ الرَّحمةُ مِن عِندِ اللهِ، وهَذا أَبلغُ في النِّعمَةِ أَنْ تَأتيَ بَعدَ الضَّررِ؛ لأنَّ النِّعمةَ الدَّائمةَ لا يُحَسُّ بِها، لَكنَّ النِّعمةَ الطَّارئةَ بَعدَ الضَّررِ هي الَّتي يُحَسُّ بِها؛ ولِهذا مَنْ لَمْ يَذُقْ مَرارةَ المَرضِ، فَإِنَّه لا يَتذوَّقُ حَلاوةَ الصِّحَّةِ حتَّى في الأُمورِ الشَّرعيَّةِ، قالَ عُمرُ بنُ الخطَّابِ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ: لا يَنقُدُ الإسلامَ إِلَّا مَن لَمْ يَعرِفِ الجاهليَّةَ[1] أو كَلِمةً نَحوَها.

(١) انظر: مجموع الفتاوى (١٠/ ٣٠١).

يَعْني: الَّذي لا يَعرفُ الكُفْرَ لا يَعرفُ قَدرَ الإيمانِ، كَذلكَ أيضًا الرَّحمَةُ إذا كانت مُستديمةً مُستمِرَّةً لا يُحسُّ بها الإنسانُ، لَكنْ إذا جاءَت مِن بَعدِ الضَّررِ أَحسَّ بها وذاق لَها طَعمًا، وأَضرِبُ لَكُمْ مثلًا الآنَ في النَّفس، النَّفس نِعمةٌ كَبيرةٌ مِن أَكْبَرِ النِّعَمِ، الإنسانُ لا يُحسُّ بِه، ما دامتِ النِّعمةُ مُستَمِرَّةً لكن لو أُصيبَ بِكَتمِ النَّفس وحَجْبِهِ ثُمَّ فُرِجَ عَنْهُ لَوَجَدَ لِهذا النَّفَسِ نِعْمةً عَظيمةً وأثرًا عَظيمًا، كَذلكَ المَرضُ فَالإنسانُ الصَّحيحُ المُستمرُّ في صِحَّتِه لا يَعرِفُ قَدْرَها لكن لو مَرِضَ ثُمَّ شُفِيَ تَبيَّنَ له قَدْرُ النِّعمَةِ.

وَالرَّحمةُ الَّتي ذَكرها اللهُ هنا رَحمةٌ مِنْ بَعدِ الضَّرَّاءِ، فَيكونُ لها أَثرٌ بالغٌ أَعظمُ مِمَّا لو كانتِ الرَّحمةُ مُستمِرَّةً.

إذا أَذاقَه اللهُ عَزَّوَجَلَّ رَحمةً من عندِه مِنْ بَعدِ الضَّرَّاءِ ﴿لَيَقُولَنَّ هَٰذَا لِى﴾، ﴿هَٰذَا﴾ جوابُ القَسَمِ، يَعني: يَقولُ هَذا لِي.

قَولُه تَعالى: ﴿هَٰذَا لِى﴾ أَيْ: هَذا بِعَمَلي فتَكونُ اللَّامُ بمعنى مِنْ؛ أي: هذا مِنِّي وليس مِن اللهِ، وقيل: اللَّامُ للاستِحقاقِ، يَعني: أَنِّي مُستحِقٌّ له فَلا مِنَّةَ للهِ عَلَيَّ به لأنِّي له أَهلٌ، فأنا حَقيقٌ به، المفسِّر مَشَى على القولِ الأوَّلِ وهو أنَّ اللَّامَ بمعنى مِن؛ أي: لَيَقُولَنَّ هذا مِنِّي وأَنا الَّذي اكْتَسبتُه أَنا الَّذي اتَّجَرْتُ، وما أَشبهَ ذلك. القولُ الثَّاني: يَقولُ: هَذا مِنَ اللهِ. لكن لا مِنَّةَ له عَلَيَّ به؛ لأنِّي مُستحِقٌّ له، والآيةُ تَحتَملُ هذا وهذا.

والقاعدةُ في التَّفسيرِ: أنَّه إذا كانت الآيةُ تَحتَملُ مَعنيينِ لا يُنافي أَحدُهما الآخرَ، فإنَّها تُحملُ عَليهما جَميعًا إذا لَمْ يُوجَدْ مُرَجِّحٌ لِأحدِهما.

قال اللهُ تَعالَى: ﴿لَيَقُولَنَّ هَٰذَا لِى وَمَآ أَظُنُّ ٱلسَّاعَةَ قَآبِمَةً﴾ نَسأَلُ اللهَ العافيةَ، يَعني: ظَنَّ أَنَّه مُخَلَّدٌ لَـمَّا جاءَته هَذه الرَّحمةُ قال: إذن لا بَعْثَ ولا جَزاءَ، ﴿وَمَآ أَظُنُّ ٱلسَّاعَةَ قَآبِمَةً﴾ ثُمَّ قال: ﴿وَلَبِن رُّجِعْتُ إِلَىٰ رَبِّىٓ إِنَّ لِى عِندَهُۥ لَلْحُسْنَىٰ﴾ يَعني: عَلى فَرضِ أَنْ تَقومَ السَّاعةُ وأُرَدُّ إِلَى اللهِ، فإنَّ الَّذي نَعَّمَني في الدُّنيا سَيُنعِّمُني في الآخرةِ؛ ولِهذا قال: ﴿وَلَبِن رُّجِعْتُ إِلَىٰ رَبِّىٓ إِنَّ لِى عِندَهُۥ لَلْحُسْنَىٰ﴾، يَقُولُ المفسِّرُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [أَيِ: الجنَّةَ].

نَقولُ في إِعـرابِ: ﴿وَلَبِن رُّجِعْتُ إِلَىٰ رَبِّىٓ﴾ ما قُلناه في: ﴿وَلَبِنْ أَذَقْنَٰهُ﴾؛ لأنَّه اجْتمعَ قَسَمٌ وشَرْطٌ، وتَأخَّر الشَّرطُ فَحُذِفَ جَوابُه وبَقِيَ جَوابُ القَسَمِ في قَولِه: ﴿إِنَّ لِى عِندَهُۥ لَلْحُسْنَىٰ﴾ فتَجِدُ هذا الرَّجلَ مِن غروره -والعِياذُ باللهِ- أَنَّه أَكَّدَ بِالقَسَمِ و﴿إِنَّ﴾ و(اللَّامُ) القَسَمُ في قولِه: ﴿وَلَبِن﴾ و﴿إِنَّ﴾ في قولِه: ﴿إِنَّ لِى﴾ واللَّامُ في قولِه: ﴿لَلْحُسْنَىٰ﴾ فَهو أَكَّدَ أَنَّه على فَرْضِ أَنْ يَرجِعَ إِلَى اللهِ فَسيجِدُ الحُسنى وهي الجنَّةُ كما قال المفسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ، وأَخَذَ المفسِّر هذا التَّفسيرَ مِنْ تفسيرِ النَّبيِّ ﷺ في قَولِه تعالى: ﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ ٱلْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ﴾ [يونس:٢٦] حَيثُ قَالَ: «إِنَّ الحُسنى الجنَّةُ والزِّيادةُ النَّظَرُ إلى وَجهِ اللهِ»(١).

إذن هذا الرَّجلُ مَغرورٌ في غايةِ الغُرورِ:

أَوَّلًا: أَنَّه أضاف النِّعمةَ الَّتي حَصلَتْ له في الدُّنيا أَضافَها إِلَى نَفْسِه، إمَّا مُباشَرَةً هو الَّذي حصَّلَها من دونِ اللهِ، وإمَّا لأنَّه مُستحِقٌّ لها فلا فَضْلَ للهِ عليه بها.

الغُرورُ الثَّاني: أَنَّه أَنكرَ البَعثَ لِقولِه: ﴿وَمَآ أَظُنُّ ٱلسَّاعَةَ قَآبِمَةً﴾.

(١) أخرجه مسلم: كتاب الإيمان، باب إثبات رؤية المؤمنين في الآخرة ربهم سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، رقم (١٨١)، من حديث صهيب رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ.

الغُرورُ الثَّالثُ: أنَّه على فَرْضِ أَنَّ السَّاعةَ قائمةٌ فَسيَجدُ عندَ اللهِ ما هو أَحسنُ: ﴿إِنَّ لِي عِندَهُۥ لَلْحُسْنَىٰ﴾.

فإن قال قائلٌ: هَل للإنسانِ أَنْ يَنْسِبَ الخيرَ إِلى نَفسِهِ وهو يَعترِفُ بِفضلِ اللهِ عليه؟

فالجوابُ: إِضافةُ العملِ إِلَى النَّفْس جائزةٌ حتَّى إِنَّ الرَّسولَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ قال في عَمِّه أَبي طالبٍ: «لَولا أَنا لكانَ في الدَّركِ الأسفلِ مِن النَّارِ»[1]، لكنَّ الإنسانَ يُضيفُه إِلى نَفسِهِ، كما قال هذا الكافرُ: ﴿هَٰذَا لِي﴾ هَذا بِعَملي أَوْ أَتاني مِنَ اللهِ لأنِّي مُستحِقٌّ له، هَذا لا يَصلُحُ.

قال اللهُ تعالى: ﴿فَلَنُنَبِّئَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِمَا عَمِلُوا۟ وَلَنُذِيقَنَّهُم مِّنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ﴾ ﴿فَلَنُنَبِّئَنَّ﴾ أي: نُخبرنَّ، والفاءُ عاطفةٌ واللَّامُ مُوطِّئةٌ للقَسَمِ المَحذوفِ، والتَّقديرُ: فَواللهِ لَنُنبِّئنَّ.

إِذن الجُملةُ مُؤكَّدةٌ بثَلاثةِ مُؤكِّداتٍ ﴿فَلَنُنَبِّئَنَّ﴾ المؤكِّدُ الأوَّلُ القَسَمُ، والثَّاني: (اللَّامُ)، والثَّالثُ: نونُ التَّوكيدِ في قَولِه: ﴿فَلَنُنَبِّئَنَّ﴾ وَالضَّميرُ في قَولِه: ﴿فَلَنُنَبِّئَنَّ﴾ يَعودُ عَلى اللهِ عَزَّوَجَلَّ وعادَ إِليه بصيغَةِ الجَمعِ مِن بابِ التَّعظيمِ وَإِلَّا فاللهُ إِلهٌ واحدٌ.

﴿فَلَنُنَبِّئَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِمَا عَمِلُوا۟﴾ أَيْ: بالَّذي عَمِلوه نُخبرُهم بِذلكَ يَومَ القيامةِ، وكَيفيَّةُ هذا أَنَّ اللهَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ يُحصي أَعمالَهم يَومَ القيامةِ، فَيُنادِي عَليهم على رُؤوسِ الأَشهادِ بِأَنَّه قَد أَخزاهُم اللهُ: ﴿أَلَا لَعْنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [هود:١٨].

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب مناقب الأنصار، باب قصة أبي طالب، رقم (٣٨٨٣)، ومسلم: كتاب الإيمان، باب شفاعة النبي ﷺ لأبي طالب والتخفيف عنه بسببه، رقم (٢٠٩)، من حديث العباس بن عبد المطلب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عم الرسول ﷺ.

ثم يَقولُ: ﴿وَلَنُذِيقَنَّهُم مِّنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ﴾ يَعني: بَعدَ أَنْ نُنبِّئَهم ويُقِرُّوا بِذلك نُذيقُهم ﴿مِّنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ﴾، يَقولُ المفسِّرُ رَحِمَهُ اللَّهُ: [شَديدٍ واللَّامُ في الفِعلَينِ لَامُ القَسَم] وَالفِعلانِ هما: ﴿فَلَنُنَبِّئَنَّ﴾ ﴿وَلَنُذِيقَنَّهُم﴾.

في هَذه الآيَةِ وَالَّتي قَبلَها بَيانُ حالِ الإنسانِ الكافرِ وَهو كُفرُه بِنعمةِ اللهِ عَزَّوَجَلَّ واعْتزازُه بِنفسِه؛ لِقَولِه: ﴿وَلَئِنْ أَذَقْنَاهُ رَحْمَةً مِّنَّا مِن بَعْدِ ضَرَّاءَ مَسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ هَٰذَا لِي﴾؛ فَإِنَّ هَذا يَدُلُّ على كُفرِه الشَّديدِ، وَاعتزازِه بِنفسِه وَإِعجابِه بِها.

مِن فَوائِدِ الآيةِ الكَريمةِ:

الْفَائِدَة الأُولَى: أَنَّ اللهَ تَعالى يَرحَمُ الكافرَ لِقَولِه: ﴿وَلَئِنْ أَذَقْنَاهُ رَحْمَةً﴾، ولَكنِ اعْلَمْ أَنَّ رَحمَةَ اللهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ نَوعانِ: رَحْمةٌ خاصَّةٌ، ورَحمةٌ عامَّةٌ.

فَما به قَوامُ البَدنِ مِنَ الرَّحمةِ العامَّةِ؛ لأَنَّه يَشملُ المُؤمنَ وَالكافرَ وَالبَرَّ والفاجِرَ والإنسانَ وَالحيوانَ، هَذه رَحمةٌ عامَّةٌ، وَما بِهِ قَوامُ الدِّينِ مِنَ الرَّحمةِ الخاصَّةِ، وَهَذا يَختصُّ بِالمُؤمنينَ.

وَالفرقُ بَينهما: أَنَّ الرَّحمةَ العامَّةَ إِنَّما هي غذاءُ البدنِ فَقط وتَزولُ بِزوالِه، والرَّحمةُ الخاصَّةُ غذاءُ الرُّوحِ تَبقَى بِبقاءِ الرُّوحِ في الدُّنيا وَالآخِرةِ، وَالرُّوحُ مُنذُ خَلقَهَا اللهُ لا تَفنى كَالوِلْدانِ في الجَنَّةِ وَالحورِ العِينِ في الجنَّة، خُلِقت لِلبَقاءِ، بِخِلافِ الأَجسادِ، قالَ اللهُ تَعالَى: ﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ﴾ [الرحمن:٢٦].

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَةُ: بَيانُ فَضلِ اللهِ عَزَّوَجَلَّ عَلى الكافرِ؛ لِكَونِ الرَّحمةِ الَّتي أَصابتِ الكافرَ مِنْ عِندِ اللهِ؛ لِقَولِه: ﴿مِّنَّا﴾.

الْفَائِدَةُ الثَّالِثَةُ: إِعجابُ الكافرِ بِنفسِه حَيثُ يُضيفُ هَذه الرَّحمةَ الَّتي هي مِنَ اللهِ

إِلى نَفسِه لِقَولِه: ﴿هَٰذَا لِى﴾ أَوْ يُضيفُها إِلى اسْتحقاقِه إِيَّاها، فكأنَّ اللهَ لا مِنَّةَ له عليه على القولِ الثَّاني أنَّ مَعنَى قولِه: ﴿هَٰذَا لِى﴾ هذا مُستحَقٌّ لي.

الْفَائِدَةُ الرَّابِعَةُ: بَيانُ عُتوِّ الكافرِ حَيثُ أَنكرَ ما قامتِ الأدلَّةُ الشَّرعيَّةُ والعقليَّةُ والحِسِّيَّةُ على ثُبوتِه في قَولِه: ﴿وَمَآ أَظُنُّ ٱلسَّاعَةَ قَآئِمَةً﴾.

والأدلَّةُ الشَّرعيَّةُ على ثُبوتِ قيامِ السَّاعةِ كَثيرةٌ لا تُحصى، والأدلَّةُ العقليَّةُ هو أَنَّه ليس مِنَ الحِكمةِ أَنْ يُوجِدَ اللهُ هَذِهِ الخَليقةَ ويَأمُرُها ويَنهاها، ويُسلِّطُ بَعضَهَا على بَعضٍ بِالسَّيفِ، وَيُقاتلُ المُؤمنُ الكافرَ ثُمَّ تكونُ النِّهايةُ لا شيءَ، هذا سَفَهٌ، وقَدْ أَشارَ اللهُ إِلى ذلك في قَولِه: ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَٰكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ﴾ [المؤمنون:١١٥] أيُّ فائدةٍ لِخَلقٍ يُوجَدُ ويُؤمَرُ ويُنْهَى ويُسلَّطُ بَعضُهُ على بَعضٍ في القتلِ العَمدِ، ثُمَّ النِّهايةُ لا شيءَ! لا فائدةَ مِن هذا، وحِكمةُ اللهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ تَأبى أَنْ يَقعَ مِثلُ ذَلكَ مِنَ اللهِ، هَذا دَليلٌ عَقليٌّ واضحٌ يُوجبُ أَنْ يُبعثَ النَّاسُ لِيُجازَوْا على أَعْمالِهِمْ.

أَمَّا الدَّليلُ الحِسِّيُّ على ثُبوتِ البَعثِ وإِمكانِه وجَوازِه، فَاللهُ تَعالَى يُقرِّرُه في القُرآنِ: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنَّكَ تَرَى ٱلْأَرْضَ خَٰشِعَةً﴾ يَعني: هامدةً لَيس فيها نَباتٌ: ﴿فَإِذَآ أَنزَلْنَا عَلَيْهَا ٱلْمَآءَ﴾ أَي: ماءُ المَطرِ ﴿ٱهْتَزَّتْ وَرَبَتْ﴾ فَصارت حَيَّةً بَعدَ أَنْ كانت مَيْتةً، قال اللهُ تَعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِىٓ أَحْيَاهَا لَمُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰٓ ۚ إِنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾ [فصلت:٣٩]، فَإِحياءُ الأَرْضِ مِنْ بَعدِ مَوتِها وَالنَّاسُ يُشاهدونَ دَليلٌ عَلى إِمكانِ إِحياءِ الموتى وبَعْثِهم، وهَذا دَليلٌ واضحٌ حسِّيٌّ مُشاهَدٌ، كَذلِكَ أيضًا أَشْهدَنا اللهُ عَزَّوَجَلَّ في الدُّنيا إِحياءَ المَوتى، فَلْنَسْتَعْرِضْ هَذا في القُرآنِ:

المَشهدُ الأَوَّلُ: بَنُو إِسرائيلَ قالوا: ﴿لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ نَرَى ٱللَّهَ جَهْرَةً﴾ [البقرة:٥٥] فَأَخذَتْهمُ الصَّاعقةُ وَماتوا ثُمَّ بُعِثوا، هذا في الدُّنيا.

المَشْهَدُ الثَّانِي: القتيلُ الَّذي اخْتلفتِ القَبيلتانِ فيهِ فَأَمَرَهُمُ اللهُ أَنْ يَذبَحوا بَقرةً وأَنْ يَضْربوا القَتيلَ ببعضِها، فَفعَلوا فَحيِيَ القَتيلُ وَقالَ: إِنَّ الَّذي قَتلَهُ فُلانٌ، فَهذا إِحياءٌ بَعدَ الموتِ.

المَشهدُ الثَّالِثُ: ﴿ٱلَّذِينَ خَرَجُواْ مِن دِيَٰرِهِمۡ وَهُمۡ أُلُوفٌ حَذَرَ ٱلۡمَوۡتِ﴾ [البقرة:٢٤٣] خافوا مِنَ الموتِ وخَرَجوا مِن دِيارهم ﴿فَقَالَ لَهُمُ ٱللَّهُ مُوتُواْ﴾ فَماتوا ﴿ثُمَّ أَحۡيَٰهُمۡ﴾ أَماتهم لِيَعْلموا أَنَّه لا مَفرَّ لَهُمْ مِن قَضاءِ اللهِ ﴿ثُمَّ أَحۡيَٰهُمۡ﴾ لِيَقْضِيَ أَجَلًا.

المَشهَدُ الرَّابِعُ: صاحبُ القَريةِ مَرَّ على قريةٍ: ﴿وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا قَالَ أَنَّىٰ يُحۡيِۦ هَٰذِهِ ٱللَّهُ بَعۡدَ مَوۡتِهَاۖ فَأَمَاتَهُ ٱللَّهُ مِاْئَةَ عَامٖ ثُمَّ بَعَثَهُۥ﴾ [البقرة:٢٥٩].

المَشْهَدُ الخامِسُ: إِبْراهيمُ عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ: ﴿قَالَ إِبۡرَٰهِـۧمُ رَبِّ أَرِنِي كَيۡفَ تُحۡيِ ٱلۡمَوۡتَىٰ﴾ [البقرة:٢٦٠] فَأَمَره اللهُ عَزَّوَجَلَّ أَنْ يَذبَحَ أَربعةً مِنَ الطُّيورِ وَيجعلَ على كُلِّ جبلٍ مِنها جُزءًا، وأَنْ يَدعوها فَفعَلَ، فَأَقْبلَت إِليه حَيَّةً إِمَّا أَنَّها تَطيرُ أو تَمشي بِسرعةٍ.

هَذِه خَمسةُ مَشاهِدَ مَذكورةٍ في البَقرةِ، كُلُّها تَدُلُّ عَلَى إِمْكانِ الإِحياءِ بَعْدَ المَوْتِ.

أَمَّا قِصَّةُ عِيسى فَكذلِكَ أيضًا، فَقدْ كانَ عيسَى عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ يُحيي المَوتى بِإِذْنِ اللهِ يَقِفُ عَلَى المَيِّتِ ويقولُ: يا فُلانُ، قُمْ ويَقومُ بل يَقِفُ عَلَى قَبْرِ المَيِّتِ المَدفونِ، ويَأمرُه أَنْ يَخْرُجَ حَيًّا، فيَخْرُجُ كما قال تَعالَى: ﴿وَإِذۡ تُخۡرِجُ ٱلۡمَوۡتَىٰ بِإِذۡنِي﴾ [المائدة:١١٠].

وفي الدَّجَّالِ أَخبَرَنا النَّبيُّ عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ أَنَّهُ يَقْطَعُ رَجلًا جِزْلَتَيْنِ ويَمُرُّ بينهما ثُمَّ يَقِفُ ويَأمـرُه أَنْ يُقبِلَ يَأمُرُ هذا المَيِّـتَ القِطعَتينِ أَنْ يُقبِلَ فَيلْتئمَ حالًا ويَقومَ،

والنَّاسُ يَنظُرون[1]، هذا أيضًا شاهِدٌ محسوسٌ، فَالْمُهِمُّ أَنَّ البعثَ دَلَّ عَليه السَّمعُ والعقلُ والحسُّ.

الْفَائِدَةُ الخَامِسَةُ: أنَّ هذا الكافرَ عِندَه مِنَ العَجبِ وَالثِّقةِ بنفسِه على أَنَّه لَيس له شَيءٌ يَثِقُ بِه ما أَمْكنَه أَنْ يقولَ: ﴿وَلَبِن رُّجِعْتُ إِلَىٰ رَبِّيٓ إِنَّ لِي عِندَهُۥ لَلْحُسْنَىٰ﴾.

الْفَائِدَةُ السَّادِسَةُ: أَنَّ الإِقرارَ بِالرُّبوبيَّةِ لا يُدخِلُ الإنسانَ في الإِسلامِ؛ لأَنَّ هذا الْمُنكِرَ مُقِرٌّ بِالرُّبوبيَّةِ، يُؤخَذُ من قَولِهِ: ﴿وَلَبِن رُّجِعْتُ إِلَىٰ رَبِّيٓ﴾.

والْمُشركون كانوا مُقِرِّينَ بِالرُّبوبيَّةِ: ﴿وَلَبِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ خَلَقَهُنَّ ٱلْعَزِيزُ ٱلْعَلِيمُ﴾ [الزخرف:٩]، لَكنَّ الإِقرارَ بِالرُّبوبيَّةِ لا يُغني عَنِ الإنسانِ شيئًا، ولقد فَخِرَ بَعضُ النَّاسِ الجُهَّالِ أَنَّ أحدَ رُوَّادِ الفضاءِ شَهِدَ بِأَنَّ لِهذا الكونِ خالقًا لَمَّا صَعَدَ في الفضاءِ، ورَأى الأرضَ وَرَأى ما حولَه مِن الآياتِ شَهِدَ بأَنَّ لها خالقًا، فَصارَ بَعضُ النَّاسِ الجُهَّال يُطَنْطِنُ على إثباتِ أَنَّ للكونِ خالقًا بِشهادةِ هذا الرَّجُلِ الكافرِ.

وهذا -حَقيقَةً- يَدُلُّ على ضَعفِ إِيمانِه؛ لأَنَّ خَبرَ اللهِ ورَسولِه عَنْ ذَلك أَصدقُ وأَوجبُ لِلإيمانِ، نَعَمْ لو كُنَّا نُجادلُ شخصًا مُنكِرًا لا يُؤمِنُ بِالأديانِ فَنقولُ له: صاحِبُك الَّذي هو مِثلُك أَقرَّ بأَنَّ لِلكونِ خالقًا رُبَّما يَنفعُ، فَيكونُ هَذا مِن بابِ إِقامةِ حُجَّته عليه، لَكنْ نَجعلُ هذا حُجَّةً مُطلَقةً، فيه نَظرٌ.

الْفَائِدَةُ السَّابِعَةُ: التَّأكيدُ على أَنَّ هؤلاءِ الكافرينَ سوف يُخبَرونَ بما عَمِلوا؛ لِقولِه: ﴿فَلَنُنَبِّئَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِمَا عَمِلُوا۟﴾ وَيكونُ هذا يَومَ القيامةِ.

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب الفتن، باب لا يدخل الدجال المدينة، رقم (٧١٣٢)، ومسلم: كتاب الفتن، باب ذكر الدجال، رقم (٢٩٣٨)، من حديث أبي سعيد الخدري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

فَإنْ قال قائلٌ: هَلْ لِهذا القَيدِ مَفهومٌ أو هو لِبيانِ الواقعِ: ﴿فَلَنُنَبِّئَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾؟

فَالجوابُ: لِبيانِ الواقعِ لَيس له مفهومٌ لِأَنَّك لو جعلْتَ له مَفهومًا لكانَ المؤمنونَ لا يُنبَّؤونَ بما عَمِلوا مَع أَنَّهم يُنبَّؤونَ، قال اللهُ تَعالى: ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ﴾ [الزلزلة:٧].

وَثبَتَ عَنِ النَّبيِّ -صلَّى اللهُ عَليه وعَلَى آله وسلَّم- أنَّ اللهَ يَخلو بِعبدِه المُؤمنِ فيُقَرِّره بِذنوبه عَمِلْتَ كذا فِي يَومِ كذا[1].

إذن: تَقييدُ الإنباءِ بِالكافِرِ لبيانِ الواقعِ يَعني: أَنَّ هَؤلاء الَّذين كَذَّبوا واقعُهم أَنَّهم سَيُنبَّؤونَ بِما عَمِلوا.

الْفَائِدَةُ الثَّامِنَةُ: أَنَّ كُلَّ شيءٍ مُقيَّدٌ محفوظٌ على الإنسانِ، نَأخذُه مِن قَولِهِ: ﴿بِمَا عَمِلُواْ﴾ فَإنَّ ﴿بِمَا﴾ اسمُ مَوصولٍ يُفيدُ العُمومَ، وقَدْ قال اللهُ تَعالى: ﴿مَّا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ﴾ [ق:١٨] فَأيُّ قَولٍ تَلْفِظُ بِهِ فَلَديكَ رَقيبٌ حاضرٌ عَتيدٌ يَعني: حاضرٌ يَكتبُ ما تَقولُ.

الْفَائِدَةُ التَّاسِعَةُ: أَنَّ عذابَ هَؤلاءِ الكُفَّارِ سَيكونُ غَليظًا، أي: شَديدًا؛ لِأَنَّ الغِلظَةَ مَعناها القَسوةُ، وهي فِي كلِّ مَوضعٍ بِحسبِهِ، فَغِلَظُ الطِّباعِ لَيْس كَغِلَظِ الطِّينِ أو العَجينِ أَو ما أَشبهَ ذَلكَ، وغِلَظُ العذابِ ليس كَغِلَظِ الطِّينِ والعَجينِ وغِلَظِ القولِ، وَما أَشبهَ ذَلِكَ، كُلُّ غِلْظةٍ بِحَسَبِها.

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب المظالم، باب قول الله تعالى: ﴿أَلَا لَعْنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ﴾، رقم (٢٤٤١)، ومسلم: كتاب التوبة، باب قبول توبة القاتل وإن كثر قتله، رقم (٢٧٦٨)، من حديث ابن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.

الْفَائِدَةُ الْعَاشِرَةُ: إثباتُ العذابِ في الآخرةِ: ﴿وَلَنُذِيقَنَّهُم مِّنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ﴾ فَهلْ هناك عَذابٌ قبلَ الآخرةِ؟

الجوابُ: نَعَمْ، يُعذَّبُ الإنسانُ في قَبرِه قَبْلَ أَنْ يُبعثَ، وَهذا ثابتٌ بِالقُرآنِ وَالسُّنَّةِ اسْتَمِعْ إِلَيهِ في القُرآنِ قالَ اللهُ تَعالى: ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلظَّٰلِمُونَ فِى غَمَرَٰتِ ٱلْمَوْتِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ بَاسِطُوٓا۟ أَيْدِيهِمْ أَخْرِجُوٓا۟ أَنفُسَكُمُ ۖ ٱلْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ ٱلْهُونِ﴾ [الأنعام:٩٣]، فَقولُه: ﴿أَخْرِجُوٓا۟ أَنفُسَكُمُ﴾ يَدلُّ على أَنَّهم شَحيحونَ بِأَنْفسِهم لا يُريدونَ أَنْ تَخرُجَ ولهذا يُقالُ: ﴿أَخْرِجُوٓا۟ أَنفُسَكُمُ﴾ توبيخًا، ثُمَّ يُقالُ لَهم: ﴿ٱلْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ ٱلْهُونِ﴾ أي: يومَ مَوتِكم: ﴿تُجْزَوْنَ عَذَابَ ٱلْهُونِ﴾ وهَذه نَصٌّ في إثباتِ عَذابِ القبرِ.

وقال اللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى عَن آلِ فِرعونَ: ﴿ٱلنَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا ۖ وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ أَدْخِلُوٓا۟ ءَالَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ ٱلْعَذَابِ﴾ [غافر:٤٦].

وأَمَّا السُّنَّةُ فَطافِحةٌ في ذَلكَ وكَثيرةٌ، ومِنها ما أَجمعَ المُسلمونَ عَليه، فَكُلُّ المُسلمينَ يَقولون في الصَّلاةِ: أَعوذُ بِاللهِ مِنْ عَذابِ جَهنَّمَ ومِن عَذابِ القبرِ، وهل يُتصوَّرُ أَنَّ أَحدًا يَتعوَّذ مِن شيءٍ إِلَّا وهو يُؤمنُ بوجودِه! لا يُتصوَّرُ.

إِذَنْ: فَعذابُ القَبرِ ثابتٌ بِالقرآنِ والسُّنَّة وَالإجماعِ، وعليهِ فَيكونُ العَذابُ المَذكورُ في قولِه: ﴿وَلَنُذِيقَنَّهُم مِّنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ﴾ هو عذابُ الآخرةِ، وهو أَشدُّ مِن عَذابِ القبرِ، أَجارنا اللهُ وإِيَّاكم مِن ذلك.

الْفَائِدَةُ الحَادِيَةَ عَشْرَةَ: أَنَّ مِن عِبادِ اللهِ مَن لا يَشكُرُ اللهَ عَزَّوَجَلَّ ولا يَعْترفُ له بِالفَضلِ، فَإِذا جاءَته الرَّحمَةُ بَعْدَ الضَّرَّاءِ ادَّعى أَنَّ هذا بِعمَلِه وأَنَّه محقوقٌ به وأَهلٌ له؛ لِقولِه تَبَارَكَ وَتَعَالَى: ﴿وَلَئِنْ أَذَقْنَٰهُ رَحْمَةً مِّنَّا مِنۢ بَعْدِ ضَرَّآءَ مَسَّتْهُ﴾.. إلخ.

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَةَ عَشْرَةَ: أَنَّ الرَّحمةَ إِنَّما هي مِن اللهِ عَزَّوَجَلَّ لا يَستطيعُ الإِنسانُ أَنْ يَجلِبَ لِنفسِه نَفعًا ولا أَنْ يَدفعَ عَنْها ضَررًا، بل ذلك إلى اللهِ، ولكنَّ اللهَ قَد جعَلَ لِكُلِّ شيءٍ سببًا، فَللرَّحمةِ أَسبابٌ ولِلعذابِ أَسبابٌ.

الْفَائِدَةُ الثَّالِثَةَ عَشْرَةَ: بَيانُ حالِ هذا الإِنسانِ الَّذي إِذا أَصابتْه الرَّحمةُ والخَيرُ: ﴿لَيَقُولَنَّ هَٰذَا لِي﴾ ثُمَّ ادَّعَى دَعوةً أُخرى أَنَّه لَو رَجعَ إِلى اللهِ لَوَجَدَ عِندَه خَيرًا من ذلك، مع أَنَّه يُنكِرُ قيامَ السَّاعةِ.

الْفَائِدَةُ الرَّابِعَةَ عَشْرَةَ: تَهديدُ مَنْ هَذهِ حَالُه بِأَنَّ اللهَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ سَوف يُقَرِّرُه بِذنوبِه ويُذيقُه مِنَ العَذابِ الغَليظِ لِقولِه: ﴿فَلَنُنَبِّئَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾.

الْفَائِدَةُ الخَامِسَةَ عَشْرَةَ: أَنَّ الإِظهارَ في مَوضعِه خَيرٌ مِنَ الإِضمارِ يَعني: إِذا دارَ الأَمرُ بَينَ أَنْ تَأتيَ بِضميرِ الُمتحدِّثِ عَنه أو بِاسْمٍ ظاهرٍ، فَإِنَّ الأَصلَ أَنْ تَأتيَ بِالضَّميرِ، لكن إِذا صارَ هناك فائدةٌ في الإِظهارِ في مَوضعِ الإِضمارِ فَهو أَوْلَى وأَحْسَنُ، الإِظهارُ في مَوضعِ الإِضمارِ في قَولِه: ﴿فَلَنُنَبِّئَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾، وَلو أَضْمرَ لقالَ: فَلَنُنَبِّئَنَّهُمْ، لكنَّه أَظْهَرَ في مَوضِعِ الإِضمارِ، والإِظهارُ في مَوضعِ الإِضمارِ، ذَكَرْنا أَنَّ فيه أَربعَ فَوائدَ:

١- بَيانُ الصِّفَةِ أَو الوَصْفِ الَّذي اسْتحقَّ مِن أَجْلِه أَنْ يُعاقَبَ بِهذه العُقوبةِ.

٢- بَيانُ العُمومِ، يَعني: أَنَّ هذا الوعيدَ ليس لِهذا الرَّجُلِ وَحدَه بَل لِكُلِّ كافرٍ، هذا بِالنِّسبةِ لِهذه الآيةِ.

٣- انْتباهُ الُمخاطَبِ؛ لِأَنَّ الكلامَ إِذا كانَ على نَسَقٍ واحدٍ بِضمائرِه ومُظْهَراتِه، فإِنَّ الإِنسانَ لا يَنتبهُ لكن إِذا جاء شيءٌ يُخرِجُ الكلامَ عَن سياقِه، فَإِنَّه لا بُدَّ أَنْ يَنْتبِهَ.

٤- مُراعاةُ فَواصلِ الآياتِ.

الْفَائِدَةُ السَّادِسَةَ عَشْرَةَ: إِثْباتُ البعثِ لِقولِه: ﴿فَلَنُنَبِّئَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِمَا عَمِلُوا۟ وَلَنُذِيقَنَّهُم مِّنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ﴾.

الْفَائِدَةُ السَّابِعَةَ عَشْرَةَ: عُمومُ عِلْمِ اللهِ عَزَّوَجَلَّ؛ لِأنَّ الْمُنبئَ بِالعَملِ لا بُدَّ أَنْ يكونَ عالمًا به.

الْفَائِدَةُ الثَّامِنَةَ عَشْرَةَ: بَيانُ عَظمَةِ اللهِ سُبْحَانَهُوَتَعَالَى حَيثُ أَضاف الضَّمائِرَ إِليه بِصيغَةِ الجَمعِ، والجَمعُ لِلواحِدِ يُرادُ به التَّعظيمُ.

• • ❁ • •

الآية (٥١)

• قال اللهُ تَعالى: ﴿وَإِذَآ أَنْعَمْنَا عَلَى ٱلْإِنسَٰنِ أَعْرَضَ وَنَـَٔا بِجَانِبِهِۦ وَإِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ فَذُو دُعَآءٍ عَرِيضٍ﴾ [فصلت:٥١].

قَولُه تَعالَى: ﴿وَإِذَآ أَنْعَمْنَا عَلَى ٱلْإِنسَٰنِ﴾ يَعني: أَعْطيناهُ نِعمةً والنِّعمةُ تَدورُ على شَيئَينِ: على حُصولِ المَرغوبِ، وعلى النَّجاةِ مِنَ المَرهوبِ. فَمَنْ سَقطَ في بَحرٍ ثُمَّ هيَّأَ اللهُ له مَن يُنقذُه مِنَ الغرَقِ فَتلكَ نِعمةٌ. وكَذلك أيضًا مَنْ رَزَقَه اللهُ مالًا وولدًا هَذه نِعمةٌ، فَالنِّعمَةُ إمَّا انْدفاعُ نِقمةٍ، وإمَّا حُصولُ مَحبوبٍ لِلإنسانِ.

يَقولُ المفسِّرُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿عَلَى ٱلْإِنسَٰنِ﴾] المُرادُ [الجنس] يَعني: ليس المُؤمنُ ولا الكافرُ، بَل هذا الوصفُ يكونُ مِنَ المُؤمنِ ويكونُ أيضًا مِنَ الكافرِ. يَعني: أَنَّ جِنسَ الإِنسانِ بالنَّظَرِ إِلى كَونِه إنسانًا فقط هَذه حالُه، إذا أَنعمنا على إِنسانٍ أَعرضَ عَنِ الشُّكرِ، والشُّكرُ حَقيقةً هو طاعةُ اللهِ عَزَّوَجَلَّ، ويَكونُ بِالقَلبِ وبِاللِّسانِ وبِالجوارحِ، ويَدُلُّ على أنَّ الشُّكرَ هو طاعةُ اللهِ قَولُ النَّبيِّ -صلَّى اللهُ عليه وعَلَى آلِه وسلَّم-: «إِنَّ اللهَ أَمَرَ المُؤمنينَ بِما أَمَرَ بِه المُرسَلينَ، فَقال اللهُ تَعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرُّسُلُ كُلُوا۟ مِنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَٱعْمَلُوا۟ صَٰلِحًا﴾ [المؤمنون:٥١] وَقالَ لِلْمُؤمنينَ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كُلُوا۟ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقْنَٰكُمْ وَٱشْكُرُوا۟ لِلَّهِ﴾ [البقرة:١٧٢]»[1].

---

(١) أخرجه مسلم: كتاب الزكاة، بابِ قبول الصدقة من الكسب الطيب، رقم (١٠١٥)، من حديث أبي هريرة رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ.

فَجَعَلَ النَّبيُّ ﷺ الشُّكرَ لله هُوَ العَمَلُ الصَّالحُ يَعني: القيامَ بطاعَةِ اللهِ ويَكونُ بالقلبِ ويَكونُ باللِّسانِ ويَكونُ بالجَوارحِ، أَمَّا بالقلبِ فَهو شُعورُ الإنسانِ بأنَّ هَذه النِّعمةَ مِنَ اللهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، وأنَّه لَولا فَضلُ اللهِ ما حَصلَت له فيُقِرُّ بقلبه، ويَعترِفُ أنَّ ذلك من عندِ اللهِ وليس بِحولِه وقُوَّته، وأمَّا الشُّكرُ باللِّسانِ فالتَّحدُّثُ بنِعمةِ اللهِ عَزَّوَجَلَّ اعترافًا بِفضلِه لا افتخارًا على خَلقِه بأنْ يَقولَ: الحمدُ لله قدْ رزقَني اللهُ أَولادًا ومالًا وعِلمًا وجاهًا وما أشبهَ ذَلِكَ.

وَمِنَ الشُّكرِ باللِّسانِ جَميعُ الطَّاعاتِ القَولِيَّة، فإنَّها مِنَ الشُّكرِ باللِّسانِ فَقِراءَةُ القُرآنِ مِنَ الشُّكرِ؛ لأنَّ كُلَّ طاعةٍ باللِّسانِ فهي مِنْ شُكرِ اللهِ عَزَّوَجَلَّ.

والشُّكرُ بالجوارحِ العملُ؛ كَالرُّكوعِ والسُّجودِ والقِيامِ والقُعودِ والصَّدقةِ وَما إلى ذلك، وفي هذا يَقولُ الشَّاعرُ[1]:

أَفَادتْكُم النَّعماءُ مِنِّي ثَلاثَةً ... يَدي ولِساني والضَّميرَ المُحَجَّبا

يَقولُ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَإِذَآ أَنۡعَمۡنَا عَلَى ٱلۡإِنسَٰنِ أَعۡرَضَ وَنَـَٔا بِجَانِبِهِۦ﴾ [فصلت:٥١].

يَقُولُ المفسِّرُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿وَنَـَٔا بِجَانِبِهِۦ﴾ أي: ثَنى عِطفَهُ مُتبختِرًا] يَعني: أَعْرَضَ بِبَدَنه وبقَلْبه مُفْتخِرًا مُتعاظِمًا هَذا بالنِّسبةِ لحالِه، وبِالنِّسبةِ لِما يُطلبُ مِنه مِنَ الشُّكرِ يُعرِضُ ولا يَشكُرُ اللهَ عَزَّوَجَلَّ، وهذه حالُ كَثيرٍ مِن بَني آدَمَ؛ ولِهذا عَمَّمها اللهُ قالَ: ﴿وَإِذَآ أَنۡعَمۡنَا عَلَى ٱلۡإِنسَٰنِ﴾؛ لِأنَّ أكثَرَ بَني آدمَ عَلى هذه الحالِ.

وقَولُه: ﴿وَنَـَٔا﴾ في التَّفسيرِ: [(ناء)] يَقولُ المُفسِّرُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [وَفي قِراءةٍ بتَقديمِ الهمزةِ] في قِراءةٍ سَبْعيَّةٍ، واعلمْ أنَّ اصطلاحَ المفسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ أنَّه إذا قال: «وفي قِراءةٍ»

(١) انظره في غريب الحديث للخطابي (١/ ٣٤٦)، والفائق للزمخشري (١/ ٣١٤) غير منسوب.

فَهِي سَبعيَّةٌ أي: مِنَ القِراءاتِ السَّبعِ، وإذا قال: «وقُرِئَ» فَهي مِن القِراءاتِ الشّاذَّةِ.

إذن: (ناء) و(نأى) مَعناهُما واحدٌ كَأَيِسَ ويَئِسَ بِتَقديمِ الهَمزةِ وتَأخيرِها ومَعناهُما واحدٌ، أَيِسَ من كذا ويَئِسَ من كذا، وناءَ بِكذا أو نَأَى بكذا مَعناهُما واحدٌ، والمقصودُ أنَّه كما قال المفسِّر: ثَنَى عِطفَه وانصرفَ مُتبختِرًا ومُتعاظِمًا.

قالَ الله تَعالَى: ﴿وَإِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ﴾ أَقبَلَ: ﴿فَذُو دُعَآءٍ عَرِيضٍ﴾، يَقولُ المُفسِّرُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [كثير]. أي: إذا مَسَّه الشَّرُّ لجَأَ إلى اللهِ وأَطالَ الدُّعاءَ وأَكثَرَ مِنهُ، وانظُروا ما حَكَى اللهُ تعالَى عَنِ المُشركينَ إذا كانوا في البَحرِ وهاجَ البحرُ: ﴿دَعَوُا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ لَئِنْ أَنجَيْتَنَا مِنْ هَٰذِهِۦ لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّٰكِرِينَ﴾ [يونس:٢٢]، ولكنَّهم يَعِدونَ ويَكذِبونَ إذا أَنجاهم اللهُ عادوا إلى كُفرِهم والعياذُ بِاللهِ.

من فَوائِدِ الآيةِ الكَريمَةِ:

الْفَائِدَةُ الأُولَى: أنَّ الإنسانَ مِن حيثُ هو إنسانٌ بَطِرٌ عندَ النَّعماءِ لكنَّه مُقبِلٌ عند الضَّرَّاءِ لِقولِه: ﴿وَإِذَآ أَنْعَمْنَا عَلَى ٱلْإِنسَٰنِ أَعْرَضَ وَنَـَٔا بِجَانِبِهِۦ﴾.

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَةُ: أنَّ ما يَتمتَّعُ به الإنسانُ مِنَ النَّعيمِ، فإنَّما هو مِن عندِ اللهِ لقَولِه: ﴿وَإِذَآ أَنْعَمْنَا عَلَى ٱلْإِنسَٰنِ﴾.

الْفَائِدَةُ الثَّالِثَةُ: التَّحذيرُ مِن هذه الحالِ، فإذا رَأى الإنسانُ مِن نَفسِه أنَّه عند النِّعمَةِ يَفرحُ ويَبطَرُ ويَتهاوَنُ بِما أَوجبَ اللهُ عَليه، فَليَعلَمْ أنَّه داخلٌ في هذا الإنسانِ المَذمومِ.

الْفَائِدَةُ الرَّابِعَةُ: أنَّ الإنسانَ يَعرفُ مِن نَفسِه الضَّعفَ إذا أَصابَه الضَّررُ ويَلجأُ إلى اللهِ حتَّى الكافرُ يَعرفُ مِن نَفسِه الضَّعفَ، ويَلجأُ إلى اللهِ عَزَّوَجَلَّ.

الْفَائِدَةُ الخَامِسَةُ: أنَّ الكُفَّارَ يُؤمنونَ باللهِ وبأنَّه هو كاشفُ الضُّرِّ لِقولِهِ: ﴿فَذُو دُعَآءٍ عَرِيضٍ﴾.

الإعرابُ في قَولِه: ﴿وَإِذَآ أَنۡعَمۡنَا عَلَى ٱلۡإِنسَٰنِ﴾ هذه جُملةٌ شَرطيَّةٌ، وجَوابُها: ﴿أَعۡرَضَ﴾، و﴿وَنَـَٔا بِجَانِبِهِۦ﴾ مَعطوفٌ عليه. وأمَّا في قَولِهِ: ﴿وَإِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ﴾، فَجوابُه: ﴿فَذُو دُعَآءٍ عَرِيضٍ﴾ وعامِلُه مُقَدَّرٌ أي: فَهو ذو دُعاءٍ عَريضٍ. واقتُرِنتِ الفاءُ في جَوابِ الشَّرطِ؛ لِأنَّ جَوابَ الشَّرطِ جُملةٌ اسميَّةٌ، وَإذا كانَ جَوابُ الشَّرطِ جُملةً اسميَّةً وَجَبَ اقترانُها بِالفاءِ وَلا تَسقطُ إِلَّا نادرًا، والجُمَلُ الَّتي إذا وَقعَت جَوابًا لِلشَّرطِ فَإنَّها تُقتَرَنُ بِالفاءِ مَجموعةٌ في قَولِ النَّاظمِ:

اسـميَّةٌ طَلبيَّـةٌ وبِجامـدِ ... وبِلـن وقَـد وبـالتَّنفيسِ

فَإذا وَقعَ جَوابُ الشَّـرطِ جُملةً من هَذهِ الجُمَلِ السَّبعِ وَجَـبَ اقتِرانُه بِالفاءِ ولا تُحذَفُ إِلَّا نادرًا مثل قولِ الشَّاعرِ[1]:

مَن يَفعلِ الحسناتِ اللهُ يَشكُرُها ... .

الأصلُ مَن يَفعلِ الحَسناتِ فاللهُ يَشكُرُها، لَكِنَّها سَقطت إِمَّا لِضرورةِ الشِّعرِ وإِمَّا لِلقِلَّةِ؛ لِأنَّها تَسقطُ حتَّى في النَّثرِ ولكن ذلك قليل.

(١) اختلف في قائله، فنسبه سيبويه في الكتاب (٣/ ٦٤-٦٥) لحسان بن ثابت، ونسبه ابن هشام في مغني اللبيب (ص:٨٠) لعبد الرحمن بن حسان، ونسبه جماعة لكعب بن مالك كما في خزانة الأدب (٩/ ٥١).

الآية (٥٢)

• • ••• • •

قالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن كَانَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ ثُمَّ كَفَرْتُم بِهِۦ مَنْ أَضَلُّ مِمَّنْ هُوَ فِى شِقَاقٍۭ بَعِيدٍ﴾ [فصلت:٥٢].

• • ••• • •

ثم قالَ اللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: ﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن كَانَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ﴾ يقولُ المُفسِّرُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [كَما قالَ النَّبيُّ -صلَّى الله عَليه وعلى آله وسلَّم-]: ﴿ثُمَّ كَفَرْتُم بِهِۦ مَنْ أَضَلُّ مِمَّنْ هُوَ فِى شِقَاقٍۭ بَعِيدٍ﴾ [فصلت:٥٢].

﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ﴾، ﴿أَرَءَيْتُمْ﴾ بمَعنَى أَخبِروني، وقَولُه: ﴿إِن كَانَ﴾ يَعني: القُرآنَ: ﴿مِنْ عِندِ ٱللَّهِ ثُمَّ كَفَرْتُم﴾ وأنكرتُم أن يكونَ من عند اللهِ: ﴿مَنْ أَضَلُّ مِمَّنْ هُوَ فِى شِقَاقٍۭ بَعِيدٍ﴾ أَصلُ الجُملةِ مَن أَضلُّ مِنكُم أَرأيتُم إن كانَ مِن عندِ اللهِ وتَبيَّنَ لَكُم أنَّه مِن عندِ اللهِ: ﴿ثُمَّ كَفَرْتُم بِهِۦ مَنْ أَضَلُّ مِمَّنْ هُوَ فِى شِقَاقٍۭ بَعِيدٍ﴾ الأصلُ لا أَحدَ أَضلُّ مِنكُم ولَكنَّه أُظهِرُ في مَوضعِ الإضمارِ، وذَكَرنا أَنَّ لِلإظهارِ في موضِعِ الإضمارِ فَوائدَ مِنها:

أولًا: تَنبيهُ المُخاطَبِ.

ثانيًا: بَيانُ الصِّفةِ الَّتي استحقَّ بِها صاحبُ الضَّميرِ هذا الوَصفَ.

ثالثًا: بَيانُ العُمومِ.

رابعًا: مُراعاةُ فَواصلِ الآياتِ.

وقولُه: ﴿إِن كَانَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ﴾ يقولُ المُفسِّرُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [أي: القرآن] وتَبيَّنَ لَكم ذلكَ واتَّضحَ، ﴿ثُمَّ كَفَرْتُم بِهِۦ﴾ أَتى بـ«ثُمَّ» الدَّالَّةِ على التَّرتيبِ والتَّراخي إشارةً إلى أَنَّ هَؤلاءِ أَنكروا وكَفَروا بَعدَ التَّروِّي وبَعدَ المُدَّة الَّتي يُؤمنُ بِها مَن أَرادَ الإيمانَ.

وقَولُه: ﴿بِهِۦ﴾ الضَّميرُ يَعودُ عَلى القُرآنِ ويَجوزُ أَن يَكونَ عائدًا إلى الرَّسولِ -صَلَّى اللهُ عليه وعَلى آلِه وسَلَّم-؛ لِأَنَّه هو الَّذي نَزَلَ عليه القُرآنُ.

﴿مَنْ أَضَلُّ﴾ يقولُ المُفسِّرُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [أي: لا أحد ﴿أَضَلُّ﴾]، إشارةٌ إلى أَنَّ الاستفهامَ هُنا بمَعنى النَّفي، واعلَم أَنَّ الاستفهامَ يَأتي بِمعنَى النَّفي كَثيرًا وَإِتيانُه في مَوضعِ النَّفي أَعظمُ مِنَ النَّفي؛ لِأَنَّه إذا أَتى الاستفهامُ في موضعِ النَّفي صارَ مُشربًا مَعنَى التَّحدِّي كَأَنَّه قالَ: أَروني أحدًا أَضَلَّ، وهذا لا شكَّ أَنَّه مُشتَمِلٌ على النَّفي وعلى التَّحدِّي.

وقال: ﴿مَنْ أَضَلُّ مِمَّنْ هُوَ فِى شِقَاقٍۭ بَعِيدٍ﴾ ﴿مَنْ﴾ مُبتدأٌ اسمُ استِفهامٌ وَ﴿أَضَلُّ﴾ خَبرُهُ، ﴿مِمَّنْ هُوَ﴾ أي: مَنِ الَّذي هو في ﴿شِقَاقٍ﴾، يقولُ المُفسِّرُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [خلافٍ ﴿بَعِيدٍ﴾] بَل شِقاقٍ أَخصُّ مِنَ الخِلافِ؛ لِأَنَّه قَد يُخالِفُك ولا يُشاقُّك ولَكِنَّ هَؤلاءِ خالَفوا وشاقُّوا.

وقولُه: ﴿بَعِيدٍ﴾ يقولُ المُفسِّرُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿بَعِيدٍ﴾ عَنِ الحقِّ أَوقعَ هَذا مَوقِعَ منكم بَيانًا لِحالِهم]، يُريدُ أَوقعَ: ﴿مَنْ أَضَلُّ مِمَّنْ هُوَ فِى شِقَاقٍۭ بَعِيدٍ﴾ مَوقِعَ مِنكُم؛ أي: مَوقِعَ الضَّميرِ، فَهو إِظهارٌ في مَوضعِ الإِضمارِ لِبيانِ حالِهم؛ أَي: بَيانُ أَنَّهم هُم أَضلُّ من كُلِّ أَحدٍ وأَنَّ حالَهم الشِّقاقُ البَعيدُ فَفيهِ إِظهارٌ في مَوضِعِ الإِضمارِ.

من فوائد الآيةِ الكريمةِ:

الْفَائِدَةُ الأُولَى: تَحَدِّي هَؤلاءِ المُكذِّبينَ لِلرَّسولِ ﷺ الكافِرينَ بِالقُرآنِ، وأَنَّهم بَعدَ أن عَلِموا بِالحقِّ كَفَروا بِه.

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَةُ: أَنَّ القُرآنَ كَلامُ اللهِ لِقولِه: ﴿أَرَءَيْتُمْ إِن كَانَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ﴾، وَجهُ ذَلِكَ أَنَّ القُرآنَ وَصفٌ لأَنَّه كَلامٌ، والوصفُ لا بُدَّ أن يَقومَ بِمَوصوفٍ، وإذا كانَ مِن عندِ اللهِ لَزِمَ أن يَكونَ المَوصوفُ بِهِ هو اللهُ عَزَّوَجَلَّ، ثُمَّ زيادَةً على ذَلكَ وَجهُ الدَّلالَةِ كَونُه مِن عندِ اللهِ، وأَنَّ الكلامَ صِفةٌ ولَيس عَينًا قائمةً بِنَفسِها حَتَّى نَقولَ: إنَّه مَخلوقٌ كَما في قَولِه تَعالَى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِۦ﴾ [الأعراف:٢٠٦].

وهذا ما نُؤمنُ به ويُؤمنُ بِه السَّلفُ أَهلُ السُّنَّةِ والجماعَةِ بِأنَّ القُرآنَ كَلامُ اللهِ تَكلَّمَ بهِ حَقيقةً بِحُروفِهِ، وسَمِعَه مِنه جِبريلُ وأَلقاه عَلى قَلبِ النَّبيِّ -صلَّى اللهُ عليه وعلى آلِه وسَلَّم-.

ويَرى أَهلُ التَّعطيلِ أنَّ القرآنَ كَلامُ اللهِ لَكنَّه مَخلوقٌ، لَيسَ وَصفًا مِن صِفاتِه بل هو مَخلوقٌ مِن مَخلوقاتِه، وهذا رَأيُ الجَهميَّةِ والمُعتزلَةِ، وهَذا الرَّأيُ يُبطِلُ الأمرَ والنَّهيَ ويُبطِلُ الشَّريعَةَ كُلَّها؛ لِأنَّه إذا كانَ كَذلكَ صارَ مُجرَّد أَصواتٍ أو مُجرَّد حُروفٍ لا مَدلولَ لَها، كَما نَسمعُ صَوتَ الرَّعدِ مَثلًا لا نَستفيدُ مِنهُ شَيئًا، إِنَّما هو شَيءٌ يُسمَعُ فقط ولَيس لَه مَعنًى، أو حُروفٌ خُلِقَت عَلى هَذا النَّحوِ كَأَنَّها نَقشٌ في جِدارٍ أو في بابٍ، نُقوشٌ لَيسَ لَها مَعنًى؛ ولِهذا يُعتبَرُ هَذا القولُ مِن أَشدِّ الإلحادِ؛ لِأنَّه تَبطلُ بِه الشَّريعَةُ.

فَمثلًا: كَلمَةُ (قُل) إذا قلنا: إِنَّها مَخلوقَةٌ إن رَسمتَها في وَرقةٍ صارت صورةَ كَلِمةٍ فَقط كَأَنَّها نَقشٌ؛ لِأَنَّها لَيست بِكلامٍ، وإِن تَكلَّمتَ بِها فالصَّوتُ مَخلوقٌ،

بَلِ اللهُ عَزَّوَجَلَّ حينَ تَكلَّم بِها وأَوحاها إِلى جِبريلَ يُعتبرُ خَلقَ صَوتًا ليس له مَعنًى؛ لِأَنَّه مَخلوقٌ مِنَ المخلوقاتِ.

واللهُ عَزَّوَجَلَّ فَرَّق بينَ الخلقِ والأمرِ فقالَ: ﴿أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ﴾ [الأعراف:٥٤] وكَذلكَ: ﴿أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا﴾ [الشورى:٥٢] ولَم يَقُل: مِن خَلقِنا.

فالقائلونَ بِأنَّ القرآنَ كَلامُ اللهِ لكنَّه مَخلوقٌ قد عَطَّلوا الشَّرائِعَ نِهائيًّا، إِذ إِنَّه لَيس هُناكَ أَمرٌ ولا نَهيٌ.

وهُناكَ قَولٌ آخَرُ لِلأشاعِرَةِ يَقولونَ: إِنَّ القُرآنَ كَلامُ اللهِ، لكنَّه أيِ: الكلامُ هو المعنَى القائمُ بِنفسِهِ أَمَّا ما سَمِعَه جِبريلُ فَإِنَّه مَخلوقٌ، فالقُرآنُ عندهُم كَلامُ اللهِ لَكِنَّ كَلامَ اللهِ هو المعنَى القائمُ بِنفسِه، وأَمَّا ما يُسمَعُ مِنَ اللهِ عَزَّوَجَلَّ كَمُناجاتِه موسَى وكَلامِه بِالوحيِ إلى جِبريلَ فَإِنَّه مَخلوقٌ عِبارةٌ عَنِ المعنَى القائِمِ بالنَّفسِ.

وهذا المعنَى أَشدُّ وأَخبثُ مِن قَولِ المُعتزلَةِ؛ لِأنَّ المُعتزِلَةَ يَقولونَ: ما نَقرأُه في المَصاحفِ كَلامُ اللهِ حقًّا، والأشاعِرَةُ يَقولونَ: عِبارةٌ عَن كَلامِ اللهِ ولَيس كَلامَ اللهِ، والكلُّ مُتَّفِقونَ عَلى أنَّ ما نَقرأُه في المَصاحفِ مَخلوقٌ، لكنَّ المُعتزِلَةَ يَقولونَ: هو كَلامُ اللهِ، والأَشعريَّةُ يَقولون: عِبارةٌ عن كَلامِ اللهِ، فصاروا مِن هَذهِ النَّاحيةِ أَخبثَ وأَشَرَّ مِنَ المُعتزِلَةِ والجهميَّةِ.

أَمَّا نَحنُ فَنُؤمنُ بِأَنَّ ما كُتِبَ في المَصاحفِ وحُفِظَ في الصُّدورِ فَإِنَّه كَلامُ اللهِ وهو غَيرُ مَخلوقٍ.

فإن قالَ قائلٌ: أَرَأَيتَ القارئَ يَقرأُ نَسمَعُ صَوتَه بِالقراءَةِ هَل هذا الصَّوتُ مَخلوقٌ أو غَيرُ مَخلوقٍ؟

قلنا: هو مَخلوقٌ؛ لِأنَّ صَوتَ الإنسانِ وَصفٌ مِن أَوصافِه فَهو مَخلوقٌ كَأصلِه لَكِنَّ الملفوظَ بِهِ والمُصوتَ بِه غَيرُ مَخلوقٍ، وهُناكَ فَرقٌ بَينَ الصَّوتِ والنُّطقِ وبَينَ المُصوَّتِ به والمَنطوقِ به، فأنا لَو قَرأتُ كِتابًا أَلَّفَه عالِمٌ مِنَ العُلَماءِ فالصَّوتُ صَوتي لَكِنَّ المَقروءَ لِلعالِمِ الَّذي كَتَبَ الكِتابَ؛ ولِهذا قالَ شَيخُ الإِسلامِ رَحِمَهُ اللَّهُ في كِتابه العقيدةُ الواسطيَّةُ: الكلامُ إِنَّما يُضافُ حَقيقةً إلى مَن قالَه مُبتَدِئًا لا إلى مَن قالَه مُبَلِّغًا مُؤَدِّيًا[1].

فَلَو أَرادَ الإِنسانُ أَن يَستَفصِلَ، هَل لَفظُ الإِنسانِ بِالقُرآنِ مَخلوقٌ أو لا؟

نَقولُ: لَفظُه الَّذي هو تَلَفَّظَه مَخلوقٌ؛ لِأنَّه حَركاتُ الإِنسانِ وشَفَتَيه وصَوتِه، وأَمَّا المَلفوظُ بِه فَإِنَّه كَلامُ اللهِ غَيرُ مَخلوقٍ، ويَدُلُّ لِهذا أَنَّ اللهَ تَعالَى قالَ في القُرآنِ الكريم: ﴿إِنَّهُۥ لَقَوۡلُ رَسُولٖ كَرِيمٖ ﴿١٩﴾ ذِي قُوَّةٍ عِندَ ذِي ٱلۡعَرۡشِ مَكِينٖ﴾ [التكوير:١٩-٢٠] الرَّسولُ هُنا جِبريلُ، وَقالَ: ﴿إِنَّهُۥ لَقَوۡلُ رَسُولٖ كَرِيمٖ ﴿٤٠﴾ وَمَا هُوَ بِقَوۡلِ شَاعِرٖۚ قَلِيلٗا مَّا تُؤۡمِنُونَ﴾ [الحاقة:٤٠-٤١] الرَّسولُ هُنا مُحَمَّدٌ عَلَيهِ الصَّلاةُ وَالسَّلامُ، ولا يُمكِنُ أَن يَكونَ كَلامٌ واحدٌ لِمُتكَلِّمَينِ اثنَينِ لَكن أَضافَه إِلَيهِما لِأَنَّهما رَسولانِ مُبَلِّغانِ عَنِ اللهِ؛ ولِهَذا قال: ﴿لَقَوۡلُ رَسُولٖ﴾ في الآيتَينِ.

وذُكِرَ عَنِ الإِمامِ أَحمَدَ رَحِمَهُ اللَّهُ أَنَّ مَن قال: لَفظي بِالقُرآنِ مَخلوقٌ فَهو جَهميٌّ، ومَن قالَ: غَيرُ مَخلوقٍ فَهو مُبتَدِعٌ[2]، هكذا رُوِيَ عنه، وفي رِوايةٍ: مَن قالَ: لَفظي بِالقُرآنِ مَخلوقٌ يُريدُ القُرآنَ فَهو جَهميٌّ، ومَن قال: غَيرُ مَخلوقٍ فَهو مُبتَدِعٌ[3].

---

(١) العقيدة الواسطية (ص:٩٠).

(٢) انظر: سيرة الإمام أحمد لابنه صالح (ص:٧٠)، والكامل لابن عدي (٣/ ٢٤١)، طبقات الحنابلة (١/ ٧٥).

(٣) انظر: مجموع الفتاوى (١٢/ ٧٤).

فالرِّوايَةُ الثَّانيةُ عنه فَسَّرتِ الرِّوايةَ الأولَى أي: مَن قالَ لَفظي بِالقُرآنِ مخلوقٌ يُريدُ القُرآنَ الَّذي هو الملفوظُ به.

فإن قالَ قائِلٌ: هَل يُمكنُ أَن يُرادَ بِاللَّفظِ المَلفوظُ؟ قُلنا: نَعَم؛ لِأَنَّ لَفظَ مَصدرٌ والمَصدَرُ يَأتي أَحيانًا بمَعنَى اسمِ المَفعولِ كَما في قولِه -صلَّى اللهُ عليه وَعلَى آلِه وسَلَّم-: «مَن عَمِلَ عملًا ليسَ عَليهِ أَمرُنا فَهو رَدٌّ»[1]. رَدٌّ بمَعنَى مَردودٍ. وكَما في قَولِه تَعالَى: ﴿وَإِن كُنَّ أُوْلَٰتِ حَمۡلٍ﴾ [الطلاق:٦] أي: أولاتُ محمولٌ، فالحَملُ مَصدَرٌ ويُرادُ بِه اسمُ المَفعولِ.

ونَحنُ نَقولُ في كَلامِ اللهِ عَزَّوَجَلَّ: إِنَّه كَلامٌ مَسموعٌ بِحرفٍ وصَوتٍ وأَنَّه غيرُ مخلوقٍ وأَنَّه صِفةٌ مِن صِفاتِه.

ولَكِن هل هو مِنَ الصِّفاتِ الذَّاتيَّةِ أو مِنَ الصِّفاتِ الفِعليَّةِ؟ نَقولُ: أَمَّا بِاعتِبارِ أَصلِه وأَنَّه تَعالَى لَم يَزلْ ولا يَزالُ مُتكلِّمًا فهو مِنَ الصِّفاتِ الذَّاتيَّةِ، وأَمَّا بِاعتِبارِ آحادِه فَهو مِنَ الصِّفاتِ الفِعليَّةِ؛ لِقولِه تَعالَى: ﴿إِنَّمَآ أَمۡرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيۡـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾ [يس:٨٢] صارت ﴿كُن﴾ بَعدَ الإِرادَةِ، وَهذا دَليلٌ على أَنَّ كَلامَ اللهِ من حَيثُ آحادُه وأَفرادُه مِنَ الصِّفاتِ الفِعليَّةِ.

فإن قالَ قائِلٌ: قَولُ الأشاعِرَةِ هَل يُكَفِّرُهم؟

فالجَوابُ: يَجبُ أَن نَعلَمَ قاعدةً مُهِمَّةً أَنَّ المُجتَهدَ مِن هَذهِ الأُمَّةِ ولَو أَخطَأَ فَإِنَّه مَغفورٌ لَهُ، هُم يُريدونَ بهذا أَنَّ اللهَ مُنزَّهٌ أن تَقومَ بِه الحوادِثُ؛ لِأَنَّهم يَعتَقدونَ بِعُقولِهم السَّخيفَةِ أَنَّ الحَوادثَ لا تَقومُ إِلَّا بِحادثٍ وهُم يَعلَمونَ أَنَّ الكَلامَ حادثٌ،

(١) أخرجه مسلم: كتاب الأقضية، باب نقض الأحكام الباطلة، ورد محدثات الأمور، رقم (١٧١٨)، من حديث عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا.

كُلُّ حَرفٍ حَدَثَ بَعدَ الحَرفِ الَّذي قَبلَه، لكن لِعُقولِهم السَّخيفَةِ ظَنُّوا أنَّ مَن يَقومُ بِالحادثِ فَهو حادثٌ، وهَذا خَطأٌ، ولَكن لا نُكفِّرهم في هَذا، ولَو أنَّ إنسانًا تَبيَّن لَهُ الحقُّ وقالَ: إنَّه لا يُريدُ الحقَّ وإنَّما يَتَّبعُ هَواه فَقَد يكفر.

الْفَائِدَةُ الثَّالِثَةُ: أنَّ الكُفرَ بَعدَ التَّبيُّنِ أَشَدُّ قُبحًا مِنَ الكُفرِ مع الجَهلِ بِدَليلِ قولِهِ: ﴿ثُمَّ كَفَرْتُم بِهِۦ﴾، فإِنَّ ﴿ثُمَّ﴾ تَدُلُّ على التَّرتيبِ والتَّراخي وأنَّ كُفرَهُم كان بَعدَ أَن تَبيَّنَ الأمرُ.

الْفَائِدَةُ الرَّابِعَةُ: أنَّه لا أَحَدَ أَضَلُّ مِمَّن شاقَّ اللهَ ورَسولَه حَيثُ إنَّه في شِقاقٍ بَعيدٍ لِقولِه تَعالَى: ﴿مَنْ أَضَلُّ مِمَّنْ هُوَ فِى شِقَاقٍۭ بَعِيدٍ﴾.

الْفَائِدَةُ الخَامِسَةُ: بَلاغَةُ القُرآنِ التَّامَّةُ حيثُ يَختارُ في كُلِّ تَركيبٍ ما يُناسبُ الحالَ؛ لِقولِه تَعالَى: ﴿مَنْ أَضَلُّ مِمَّنْ هُوَ فِى شِقَاقٍۭ بَعِيدٍ﴾.

الْفَائِدَةُ السَّادِسَةُ: وُقوعُ الاِستِفهامِ مَوقعَ النَّفيِ وأنَّ إيقاعَ الاِستِفهامِ مَوقِعَ النَّفيِ أُسلوبٌ عَربيٌّ صَحيحٌ، وفائدتُه أَنَّه إذا كانَ بِصيغَةِ الاِستِفهامِ كانَ مُشربًا بِالتَّحدِّي، فَقولُه: ﴿مَنْ أَضَلُّ﴾ أَبلغُ مِن قولِه: لا أَضَلَّ.

الآيتان (٥٣، ٥٤)

• ● ● •

قال اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْءَافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ ۗ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ﴿٥٣﴾ أَلَآ إِنَّهُمْ فِى مِرْيَةٍ مِّن لِّقَآءِ رَبِّهِمْ ۗ أَلَآ إِنَّهُۥ بِكُلِّ شَىْءٍ مُّحِيطٌۢ﴾ [فصلت:٥٣-٥٤].

• ● ● •

﴿سَنُرِيهِمْ﴾ السِّينُ لِلتَّنفيسِ، وهي تُفيدُ القُربَ والتَّحقيقَ، و(سوف) لِلتَّسويفِ وَهي تُفيدُ التَّحقيقَ مع البُعدِ؛ ولذلكَ يَجِبُ أن نُفرِّقَ بَينَ سَوفَ والسِّين، إذا كان الشَّيءُ سَيكونُ قَريبًا فَقُل: سَيكونُ، وإذا كانَ بَعيدًا فَقُل: سوفَ يَكونُ، ولِهذا تَجِدونَ قَولَ اللهِ تَعالَى: ﴿كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿٣﴾ ثُمَّ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾ [التكاثر:٣-٤]؛ لأنَّه لَم يأتِ بَعدُ وهو بَعيدٌ بِالنِّسبةِ لِكونِه في الدُّنيا.

﴿سَنُرِيهِمْ﴾ يَعني: عَن قُربِ قِراءَةٍ مُتحقِّقةٍ: ﴿سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْءَافَاقِ﴾ أي: نُظهِرُها لَهم حتَّى يَرونَها بِأَعيُنِهم أو حتَّى يَرونَها بِبَصائِرِهم.

﴿ءَايَٰتِنَا﴾ الآياتُ جَمعُ آيَةٍ وهي في اللُّغةِ العَلامَةُ، والمُرادُ بِآياتِ اللهِ عَلاماتُه الدَّالَّةُ عَلى كَمالِ عِلمِهِ وحِكمتِه وقُدرتِه وغَيرِ ذَلكَ مِن مُقتضياتِ رُبوبيَّتِه، واعلَم أَنَّ الآياتِ نَوعانِ:

١- آياتٌ شَرعيةٌ وَهي ما جاءت بِهِ الرُّسلُ ومِنها هَذا القُرآنُ الكَريمُ.

٢- وَآياتٌ كَونيَّةٌ: وَهي الدَّالَّةُ عَلى كَمالِ اللهِ تَبَارَكَوَتَعَالَى في العِلمِ والخَلْقِ وكُلِّ

ما يَتعلَّقُ بِرُبوبيَّته، وهي ما يَعجزُ البَشرُ عَن مثلِه، فالبَشَرُ كُلُّهم عاجزونَ عَن أَن يَخلُقوا أَرضًا أو سَماءً أو نُجومًا أو شَمسًا أو قَمرًا؛ ولِهذا قال تَعالَى: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِ ٱلَّيْلُ وَٱلنَّهَارُ وَٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ﴾ [فصلت:٣٧]، هذه آياتٌ كَونيَّةٌ؛ لأَنَّه يَعجزُ عن مِثلِها البَشَرُ.

والآياتُ الشَّرعيةُ مِثلَ قَولِه تَعالَى: ﴿إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ءَايَٰتُنَا قَالَ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ [القلم:١٥].

يَقولُ المُفسِّرُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْءَافَاقِ﴾ أَقطارِ السَّمَواتِ والأرضِ مِنَ النَّيِّراتِ والنَّباتِ والأشجارِ].

قَولُهُ تعالى: ﴿فِى ٱلْءَافَاقِ﴾ ﴿ٱلْءَافَاقِ﴾ جَمعُ أُفُقٍ وَهو النَّاحيةُ، والآفاقُ هُنا جَمعٌ فتَدُلُّ على أنَّ هذِه الآياتِ سَتكونُ في كُلِّ ناحيةٍ مِنَ السَّماءِ والأرضِ، فَفي السَّماءِ نُجومٌ وَفي السَّماءِ شَمسٌ وَفي السَّماءِ قَمرٌ، وفيها مَشارقُ وفيها مَغارِبُ، كُلُّ هَذه مِن آياتِ اللهِ مَن يَستطيعُ أَن يَخلُقَ مِثلَ الشَّمسِ؟ لا أَحَدَ. مَن يَستطيعُ أَن يُجريَها بِهذا الانتظامِ البديعِ مُنذُ خَلقَها اللهُ عَزَّوَجَلَّ إلى أن يَأذنَ بِخَرابِ العالَمِ؟ لا أَحَدَ يَستَطيعُ، مَن يَستطيعُ أَن يُزحزِحَها مِن مَشارِقِها الشَّرقيَّةِ الشَّماليَّةِ إلى مَشارِقِها الشَّرقيَّةِ الجَنوبيَّةِ؟ لا أَحَدَ، وهَلُمَّ جَرًّا هذا في آفاقِ السَّماءِ.

ومِن آفاقِ السَّماءِ ما يَحصُلُ مِنَ الأمطارِ الغَزيرَةِ أَوِ الخَفيفةِ والرَّعدِ والبرقِ وغَيرِ ذَلكَ، المُهمُّ أنَّ آفاقَ السَّماءِ كُلُّ ما عَلا فَإنَّه داخلٌ في آفاقِ السَّماءِ.

كَذلكَ أيضًا آفاقُ الأرضِ فيها مِن آياتِ اللهِ عَزَّوَجَلَّ ما يَدُلُّ على كَمالِ عِلمِه وقُدرتِه وحِكمتِه ورَحمتِه جِبالٌ وأَنهارٌ وبِحارٌ، فَيافي وأَوديةٌ، هِضابٌ إلى غَيرِ ذَلكَ، نَباتاتٌ مُختلِفَةٌ تَجِدُ النَّباتَ كَأنَّه رُقعةُ ثَوبٍ موشًّى، هذا أَخضرُ وهذا بَنفسَجيٌّ وهذا

أَبيضُ، وزُهورُها مُختلِفةٌ وثِمارُها مُختلِفَةٌ تُسقَى بِماءٍ واحدٍ ويُفضِّلُ اللهُ بَعضَها عَلى بَعضٍ في الأُكُلِ.

كَذَلِكَ أَيضًا يَدخُلُ في قولِهِ: ﴿فِى ٱلْآفَاقِ﴾ ما يَحصُلُ في الآفاقِ مِن حَربٍ وَسِلمٍ وأَمنٍ وخَوفٍ وشِدَّةٍ ورَخاءٍ، كُلُّ هَذهِ مِنَ الآياتِ مِن آياتِ اللهِ في الآفاقِ.

كَذلكَ ما يَحصُلُ مِن غَلَبَةٍ وانهِزامٍ وغَيرِ هَذا، فاللهُ تَعالَى وَعَدَ بِأن يُرِيَ العِبادَ آياتِه في الآفاقِ، فَكلُّ ما في الآفاقِ العُلويَّةِ والسُّفليَّةِ مِمَّا لا يَستطيعُ الخَلقُ أَن يَأتوا بِمِثلِه فَهو مِن آياتِ اللهِ.

﴿وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ﴾ يَعني: ونُريهِم آياتِنا في أَنفسِهم وذَلكَ مِن نَواحٍ مُتعدِّدةٍ، أَولًا مِن جِهةِ الخِلقَةِ كَيفَ خَلقَ اللهُ سُبۡحَانَهُ وَتَعَالَىٰ الآدميَّ على هَذهِ الصِّفةِ البَديعَةِ الغَريبَةِ الَّتي لا يوجَدُ مِنَ الحيواناتِ مَن هو مِثلُه في حُسنِ القامةِ وحُسنِ التَّدبيرِ والعقلِ وغَيرِ ذَلكَ.

كَذلكَ أَيضًا في أَنفُسهم مِن طولٍ وقِصَرٍ وبَياضٍ وسَوادٍ وحُسنِ خُلُقٍ وسوءِ خُلُقٍ.

كَذلكَ في أَنفُسِهم مِن تَقلُّباتِ الأحـوالِ وكَونِ الإنسانِ أَحيانًا يُريدُ كَذا، وأَحيانًا يُريدُ كَذا وأَحيانًا يُريدُ الشَّيءَ ويُصمِّمُ عَليهِ، وإِذا به مَصروفٌ عنه هَذا مِن آياتِ اللهِ.

ولِهذا قيلَ لِعَرَبيٍّ: بِم عَرفتَ رَبَّك؟ قال: بِصَرفِ الهِمَمِ، يَعني: تَقليبَ القُلوبِ، تَجِدُ الإنسانَ مَثلًا مُتَّجِهًا إلى أن يَنصَرِفَ إلى الشَّمالِ، فَإذا به يَنصرِفُ إلى الجَنوبِ بِدونِ أيِّ سَببٍ لَكن بِتقديرِ اللهِ عَزَّوَجَلَّ.

كَذلكَ أَيضًا مِن آياتِ اللهِ في الإِنسانِ تَركيبُ هذا البَدَنِ العَجيبِ البَديعِ، واسأَل أَهلَ التَّشريحِ عَن هَذا تَجِدُ العَجَبَ العُجابَ إن أَتَيتَ إلى الرَّأسِ وَما فيه مِنَ

المُخِّ وما فيه مِنَ الأدواتِ، وإذا أتيتَ إلى الأَمعاءِ وإلى المَعِدَةِ وإلى الكَبِدِ وإلى الغُدَدِ وإلى غيرِها تَجِدُ العجَبَ العُجابَ، يَعني: أنَّه دولَةٌ في الواقعِ، دولةٌ كُلُّ شَيءٍ مِنهُ لَهُ عَملُه الخاصُّ. مَن يَستَطيعُ أن يُركِّبَ هَذا؟ اللهُ عَزَّوَجَلَّ.

كَذلِكَ أَيضًا مِنَ الآياتِ في الأنفُسِ: ما حَصَلَ لِقُريشٍ في بَدرٍ حَيثُ إنَّ قُريشًا في بَدرٍ خَرجت إلى بَدرٍ كَما وَصفَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿بَطَرًا وَرِئَآءَ ٱلنَّاسِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾[الأنفال:٤٧] يَقولُ القائلُ مِنهم: «واللهِ لن نَرجعَ حتَّى نَقدُمُ بَدرًا فنُقيمُ فيها ثَلاثًا نَنحرُ الجَزورَ ونَسقي الخُمورَ وتَعزفُ علينا القيانُ وتَسمَعُ بِنا العَربُ، فَلا يَزالونَ يَهابونَنا أَبدًا».

هَكَذا قالوا، ولَكِنَّ الأمرَ صارَ بِالعَكسِ -والحَمدُ لله-، صار العربُ يَتحدَّثون عَن هَزيمتِهم إلى أن يَشاءَ اللهُ مِن أَمَدِ الدُّنيا، هَذا مِن آياتِ اللهِ.

كَذلِكَ مِن آياتِ اللهِ تَعالَى في الإِنسانِ: أنَّ النَّاسَ يَختَلِفونَ اختلافًا عَظيمًا في الفَهمِ والحِفظِ والعملِ، تَجِدُ هَذا يَختارُ هَذا العَمَلَ، والآخرُ يَقولُ: كَيفَ يَصبِرُ هَذا الرَّجلُ عَلى هذا العَمَلِ، وَآخرُ بِالعَكسِ، هَذا مِن آياتِ اللهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى.

كَذلِكَ أَيضًا النَّاسُ يَختَلِفونَ في الفَهمِ: مِنَ النَّاسِ مَن إذا قَرأتَ عليهِ العبارَةَ فَهِمَها من أَوَّل مَرَّةٍ، ومِنَ النَّاسِ مَن لا يَفهمُها في أوَّل مرَّةٍ، مِنَ النَّاس مَن إذا تَلَوتَ عَليهِ العبارَةَ حَفِظَها مِن أوَّل مَرَّةٍ، ومِنَ النَّاسِ مَن لَيس كَذلكَ، كُلُّ هَذا مِن آياتِ الله، وإلَّا فالدَّمُ واحدٌ والعَصَبُ واحدٌ والعِظامُ واحدةٌ والجِلدُ واحدٌ، وكُلُّ شَيءٍ واحدٌ لَكن يَختَلِفُ النَّاسُ هَذا الِاختلافَ العَظيمَ.

كُلُّ هَـذا داخلٌ في قَولِه: ﴿سَنُرِيهِمْ ءَايَـٰتِنَا فِى ٱلْـَٔافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ﴾ يَقولُ المُفسِّرُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ﴾ مِن لَطيفِ الصَّنعةِ وبَديعِ الحِكمةِ]. ﴿حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ

لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ﴾ يتبيَّنُ بمعنًى يَتَّضِحُ لَهُم أي: لِهؤلاءِ المُكذِّبينَ.

يقولُ المُفسِّرُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿أنه﴾ أَيِ: القُرآنَ]، ويَحتملُ أَن يُرادَ بِهِ الرَّسولُ عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ، ويَحتَمِلُ أَن يُرادَ المَعنيانِ جَميعًا.

قولُه تعالَى: ﴿أَنَّهُ ٱلْحَقُّ﴾ يقولُ المُفسِّرُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿ٱلْحَقُّ﴾ المُنزَّلُ مِنَ اللهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ بِالبَعثِ والحِسابِ والعِقابِ فيُعاقَبونَ عَلى كُفرِهم به وبِالجائي به].

﴿أَنَّهُ ٱلْحَقُّ﴾ الحقُّ في الأصلِ هو الشَّيءُ الثَّابتُ الواقعُ لا مَحالَةَ، ومنه قَولُه تَعالَى: ﴿ٱلْحَآقَّةُ ۝١ مَا ٱلْحَآقَّةُ﴾ [الحاقة:١-٢] يَعني: الشَّيءَ الثَّابتَ، ويُطلَقُ عَلى مَعانٍ مُتعدِّدةٍ مِنها: أَنَّه الصِّدقُ، فالصِّدقُ حَقٌّ وضِدُّهُ الكَذِبُ باطلٌ، ومِنها: العدلُ، فالعَدلُ حَقٌّ وضِدُّه الجَورُ وهو باطلٌ؛ ولِهذا قالَ اللهُ تَعالَى: ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا ۚ لَّا مُبَدِّلَ لِكَلِمَٰتِهِۦ﴾ [الأنعام:١١٥] ومِنها -أي: مِن مَعاني الحَقِّ- أَنَّه الشَّيءُ الثَّابتُ الَّذي لا يُزَحزِحُه أَحَدٌ، وضِدُّه الشَّيءُ الَّذي لا يَثبُتُ ولا يَستَقِرُّ وكُلُّ إِنسانٍ يُبطِلُهُ.

فَأنتَ الآنَ تَجِدُ أَنَّ القُرآنَ الكَريمَ مَهما جادلَ بِهِ المُجادِلُ ليدفَعه فَحُجَّتُه باطِلَةٌ، ولا يُمكنُ لِأحدٍ أَن يَغلبَ القُرآنَ بل القُرآنُ غالبٌ، لَكنِ اعلَموا أَيُّها الإِخوةُ أَنَّ كَونَ القُرآنِ غالبًا إِنَّما هو بِحَسَبِ حامِلِه؛ ولِذلكَ تَجِدُ السَّيفَ البَتَّارَ بيدِ الجَبانِ لا يُغني شَيئًا، لا بُدَّ أَن يَكونَ القُرآنُ بِحَسَبِ حامِلِهِ وإِلَّا فالقُرآنُ نَفسُهُ لا يُمكنُ أَن يُغلبَ أَبدًا إِلَّا أَنَّه قَد يُغلَبُ مِن جِهةِ حامِلِه، وهذا لَيسَ عَيبًا في القُرآنِ ولَكنَّه عَيبٌ في حاملِ القُرآنِ.

قَولُه تَعالَى: ﴿حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ﴾ يَقولُ المُفسِّرُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [المُنزَّلُ مِنَ اللهِ بِالبَعثِ والحِسابِ]، وهذا التَّخصيصُ مِنَ المفسِّرِ رَحِمَهُ ٱللَّهُ على سَبيلِ المِثالِ، وَإِلَّا فَإِنَّه

يَتبيَّنُ أَنَّه الحَقُّ في كُلِّ شَيءٍ في كَونه يَغلِبُ ولا يُغلَبُ، وفي كَونِ أَحكامِه عَدلًا وأَخبارِه صِدقًا وغَيرِ ذلك.

يَقولُ المُفسِّرُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [فيُعاقَبونَ على كُفرِهِم بِه]، أَفادنا المفسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ أنَّ المُرادَ بِالتَّبيُّنِ هُنا لازِمَـه وهو المُعاقَبَةُ؛ لِأَنَّه لَو كانَ المُـرادُ التَّبيُّنَ فقط بِدونِ عِقابٍ عَلى مُخالفتِه بَعدَ التَّبيُّنِ لَم يَكنْ هُناكَ فائدةٌ، وَمِن ذَلكَ أَيضًا -أَي مِن كَونِه يُطلَقُ البَيانُ أَوِ العِلمُ ويُـرادُ بِه اللَّازِمُ- قَـولُ اللهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ: ﴿يَوْمَئِذٍ يَصْدُرُ ٱلنَّاسُ أَشْتَاتًا لِّيُرَوْا أَعْمَٰلَهُمْ﴾ [الزلزلة:٦] أَي: ليَروها ويُجازَوا عَليها، وهذه الآيةُ أَيضًا ﴿يَتَبَيَّنَ﴾ فيُعاقَبونَ على كُفرِهم به.

يَقولُ المُفسِّرُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [وبِالجائي به] الجائي بِهِ الرَّسولُ ﷺ.

قال اللهُ تَعالَى: ﴿أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ﴾ لَمَّا بَيَّنَ اللهُ سُبْحَانَهُۥ وَتَعَالَىٰ أَنَّه سَيُظهِرُ الآياتِ حتَّى يَتبيَّنَ أنَّ هَذا القُرآنَ حَقٌّ وأَنَّ مُحَمَّدًا حَقٌّ ذَكَرَ شيئًا أَعظمَ دَلالَةً على أَنَّ القُرآنَ حَقٌّ، وعلى أنَّ الرَّسولَ ﷺ حَقٌّ، إِنَّه هو اللهُ عَزَّوَجَلَّ ولِهذا قالَ: ﴿أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ﴾؟

والجَوابُ: بَلَى يَكفي ذَلِكَ؛ لِأَنَّ اللهَ تَعالَى إِذا رَأَى هذا الرَّجلَ يَدعو النَّاسَ إلى ما يَدعوهم إِلَيه ويُقاتِلُهم بِهِ ويَنصُره اللهُ عَليهِم ويُمكِّنُ له في الأرضِ ويَتَّبِعُهُ النَّاسُ هَل يُمكنُ أن يُقِرَّ اللهُ ذَلِكَ وهو باطلٌ؟

لا يُمكنُ أَبدًا، لا يُمكنُ إِطـلاقًا، فَكَونُ اللهِ تَعالى يُمَكِّـنُ لِرسولِه ﷺ في الأرضِ، ويَجلِبُ قُلوبَ النَّاسِ إِليهِ ويَنصرُه عَلى أَعدائِهِ ويَفتَحُ بِدينِه آفاقَ الشَّرقِ والغَربِ، كُلُّ هَذا دَليلٌ عَلى أَنَّه حَقٌّ، وشَهادَةُ اللهِ سُبْحَانَهُۥ وَتَعَالَىٰ لِرسولِه نَوعانِ:

١- شَهادَةٌ قَوليَّةٌ.

٢- وشَهادةٌ فِعليَّةٌ.

أَمَّا الشَّهادَةُ القوليَّةُ فَدَليلُها قَولُه تَعالى: ﴿لَّٰكِنِ ٱللَّهُ يَشْهَدُ بِمَآ أَنزَلَ إِلَيْكَ أَنزَلَهُۥ بِعِلْمِهِۦ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَشْهَدُونَ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًا﴾[النساء:١٦٦] هذه شَهادَةٌ مِنَ الله.

أَمَّا الشَّهادَةُ الفِعليَّةُ فَهي تمكينُ اللهِ تَعالَى لِمُحمَّدٍ ﷺ في الأرضِ ونَصرُه إيَّاه وغَلَبَةُ دينِهِ عَلى جَميعِ الأديانِ.

يَقولُ المُفسِّرُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ﴾ فاعلُ يَكفي] والباءُ مَزيدَةٌ فيهِ لِتَحسينِ اللَّفظِ ونَظيرُها: ﴿وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًا﴾ أي: وَكَفَى اللهُ شَهيدًا، وعلى هَذا فَنَقولُ في إعرابِها: الباءُ حَرفُ جَرٍّ زائِدٌ إعرابًا فائدَتُه تحسينُ اللَّفظِ، ورَبُّ فاعلُ يَكفي مَرفوعٌ بِضَمَّة مُقدَّرةٍ على آخِره مَنعَ مِن ظُهورِها حَرفُ الجَرِّ الزَّائدِ.

وقولُه: ﴿أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ﴾ أضافَ الرُّبوبيَّةَ لِلرَّسولِ عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ، وهذا لِلتَّشريفِ والتَّكريمِ؛ لِأنَّه رَبُّ كُلِّ شَيءٍ.

وانظُر إلى قَولِه تَعالَى: ﴿إِنَّمَآ أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ رَبَّ هَٰذِهِ ٱلْبَلْدَةِ ٱلَّذِى حَرَّمَهَا وَلَهُۥ كُلُّ شَىْءٍ﴾ [النمل:٩١]؛ لِئَلَا يَظُنَّ الظَّانُّ أنَّ الرُّبوبيَّةَ خاصَّةٌ بِهذه البَلدَةِ، كَذلِكَ أَيضًا إضافَةُ الرُّبوبيَّة إلى الرَّسولِ مِن بابِ التَّشريفِ والتَّكريمِ، والإشارَةُ إلى أنَّه سَوفَ يَنصُرهُ على عَدوِّه؛ لِأنَّ رُبوبيَّةَ اللهِ لِلرَّسولِ عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ رُبوبيَّةٌ خاصَّةٌ.

وقَولُه تَعالَى: ﴿أَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ﴾ بَدلٌ مِن قَولِه: ﴿بِرَبِّكَ﴾. والبَدلُ يَقولونَ في تَعريفِه: هو الَّذي إذا أَسقطتَ المُبدَلَ مِنه استَقامَ الكلامُ. تَقولُ: أَعجبَني زَيدٌ خُلقُه هَذا بَدلٌ، أَسقِط زَيدًا: أَعجبَني خُلُقُ زَيدٍ. أَكَلتُ الرَّغيفَ ثُلُثَهُ: أَسقِطِ الرَّغيفَ، ويَستَقيمُ الكَلامُ، هَذا رابطُ البَدلِ، وهُنا نَقولُ: ﴿أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ﴾

أَسقِط بِرَبِّكَ تَقولُ: أَوَلَم يَكفِ أَنَّ اللهَ على كُلِّ شَيءٍ شَهيدٌ، يَستَقيمُ، لَكن لا شَكَّ أَنَّ القُرآنَ الكَريمَ لا يُمكنُ أَن يُوجِدَ بَدلًا ومُبدلًا مِنهُ إِلَّا لفائدةٍ عَظيمةٍ، فيَكونُ: ﴿أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ﴾ شَهادَةً ونُصرةً وتَثبيتًا وما أَشبهَ ذَلِكَ، ثُمَّ قالَ: ﴿أَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ﴾ هَذا بَعضٌ مِن مُقتَضى رُبوبيَّتِه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.

يَقولُ المُفسِّرُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿أَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ﴾ بَدَلٌ مِنه أي: أَوَلَم يَكفِهِم في صِدقِكَ أَنَّ رَبَّك لا يَغيبُ عَنه شَيءٌ ما؟]، والشَّهادَةُ هُنا نَوعُها فِعليَّةٌ، يَعني: ﴿أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ﴾ وَقَد مَكَّنَ لَكَ في الأَرضِ وَثَبَّتَك ونَصرَك عَلَيهِم وعلى كُلِّ عَدوٍّ لَكَ؟

والجَوابُ: بَلَى، واللهِ إِنَّ هَذا لَكافٍ، وهذا كقولِه تَعالَى: ﴿وَقَالُوا۟ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ ءَايَٰتٌ مِّن رَّبِّهِۦ ۖ قُلْ إِنَّمَا ٱلْءَايَٰتُ عِندَ ٱللَّهِ وَإِنَّمَآ أَنَا۠ نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾ [العنكبوت:٥٠] بَعدَها: ﴿أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ﴾ [العنكبوت:٥١]، الكِتابُ أَعظَمُ آيةٍ شَهادَةٌ مِنَ اللهِ عَلى صِدقِ رَسولِه.

ثُمَّ قالَ اللهُ تَعالَى: ﴿أَلَآ إِنَّهُمْ فِى مِرْيَةٍ مِّن لِّقَآءِ رَبِّهِمْ﴾ ﴿أَلَآ﴾ أَداةُ استِفتاحٍ وتُفيدُ شَيئَينِ:

الشَّيءَ الأَوَّلَ: التَّوكيدَ.

والشَّيءَ الثَّانيَ: التَّنبيهَ ﴿أَلَآ﴾ وهي غَيرُ مُركَّبةٍ بَل هي كَلمةٌ واحِدَةٌ.

يَقولُ المُفسِّرُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿أَلَآ إِنَّهُمْ فِى مِرْيَةٍ﴾ شكٍّ ﴿مِّن لِّقَآءِ رَبِّهِمْ﴾ لِإنكارِهِم البَعثَ]، فَهُم والعِياذُ بِاللهِ في شَكٍّ مِن لِقاءِ اللهِ ولَو كانوا يَرجونَ للهِ لِقاءً لاستقاموا وخافوا مِنه، كُلُّ إِنسانٍ يُؤمِنُ بِأَنَّه مُلاقٍ رَبَّه، فَإِنَّه سوف يَستَقيمُ على أَمرِ اللهِ؛ لِأَنَّه يَعلمُ أَنَّ الرَّبَّ عَزَّوَجَلَّ سوف يُحاسِبُه على هذا.

﴿أَلَآ إِنَّهُمْ فِى مِرْيَةٍ مِّن لِّقَآءِ رَبِّهِمْ ۗ أَلَآ﴾ ﴿أَلَآ﴾ أداةُ استفتاحٍ أُخرى تُفيدُ التَّنبيهَ والتَّوكيدَ.

يَقولُ المُفسِّرُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿أَلَآ إِنَّهُۥ﴾ تعالى ﴿بِكُلِّ شَىْءٍ مُّحِيطٌۢ﴾ عِلمًا وقُدرةً فَيُجازيهم بِكُفرِهم].

هُم في شَكٍّ مِن لِقاءِ اللهِ لَكِن سوفَ يُنَبِّئُهُمُ اللهُ عَزَّوَجَلَّ بِما عَمِلوا؛ لِأَنَّه بِكُلِّ شَيءٍ مُحيطٌ وعلى هَذا فَصلَةُ قَولِه: ﴿أَلَآ إِنَّهُۥ بِكُلِّ شَىْءٍ مُّحِيطٌۢ﴾ بما قَبلَها الإِشارةُ إلى أَنَّه سوفَ يُجازيهم.

من فوائدِ الآيتين الكريمتين:

الْفَائِدَةُ الأُولَى: أنَّ اللهَ تَعالَى سَيُظهِرُ ما يَتبيَّنُ به صِدقُ الرَّسولِ عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ في الآفاقِ وَفي أَنفُسِهم، نَأخذُها مِن قولِهِ: ﴿سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْءَافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ﴾.

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَةُ: أَنَّ هذه الإِراءَةَ قَريبةٌ مُحقَّقةٌ، تُؤخَذُ مِن: ﴿سَنُرِيهِمْ﴾ لِأَنَّها صُدِّرت بِالسِّينِ الدَّالَّةِ على التَّحقُّقِ والقُرب.

الْفَائِدَةُ الثَّالِثَةُ: أَنَّهُ يَنبغي لِلإِنسانِ أَن يُفكِّرَ في آياتِ اللهِ تعالَى وفي نَفسِه؛ لِأَنَّ ذَلكَ طَريقٌ إلى أن يَتبيَّنَ له الحَقُّ، نَأخذُها مِن: ﴿حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ﴾، فأَنتَ كُلَّما ازددتَ تَأمُّلًا وتَدبُّرًا لِآياتِ اللهِ الآفاقيَّةِ والآتيةِ بِنفسكَ فَإِنَّكَ لا شكَّ تَزدادُ إيمانًا ويَتبيَّنُ لَكَ صِدقُ الرَّسولِ عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ.

الْفَائِدَةُ الرَّابِعَةُ: أَنَّ الإِنسانَ ناقصُ العِلمِ نَقصًا عَظيمًا؛ وَجهُه: أَنَّ اللهَ تَعالَى يُريهِ آياتِه في نَفسِه، فالإِنسانُ غَيرُ عالمٍ بِنَفسِه إِلَّا إذا عَلَّمه اللهُ؛ ولِذلكَ النَّفسُ الَّتي هي مادَّةُ الحياةِ لا نَعرِفُها.

ولِهذا اختَلفَ فيها النُّظَّارُ مِنَ المُتكلِّمينَ والفَلاسِفَةِ وغَيرِهِم، مِنهم مَن قال: إنَّ النَّفسَ هي الدَّمُ، ومِنهم مَن قال: إنَّ النَّفسَ جُزءٌ مِنَ البدنِ، ومِنهُم مَن قالَ: إنَّ النَّفسَ عَرَضٌ في البدنِ، ومِنهم مَن قال: إنَّ النَّفس لا توصَفُ بشيءٍ فَلا هي داخلُ العالَمِ، ولا خارِجُه ولا مُتَّصلَةٌ ولا مُنفصلَةٌ، إلى آخِرِ ما يَقولونَ في النَّفيِ المُطلَقِ، ومِنهم مَن قال: إنَّ النَّفس مَخلوقٌ مِن مَخلوقاتِ اللهِ وأَنَّها ذاتُ جُرمٍ وأَنَّها تَدخُلُ في البدَنِ وتَسيرُ فيهِ كَما تَسيرُ الجَمرُ في الفَحمِ أَوِ الماءُ في المَدَرِ.

وَيَدُلُّ لِذلكَ أَنَّ النَّبيَّ عَلَيهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ أَخبرَ أَنَّ الإنسانَ إذا قُبِضَ أُخِذَت نَفسُه، أَخَذَتها المَلائِكَةُ وجَعَلَتها في كَفَنٍ وحَنوطٍ وأَنَّه إذا قُبِضَ اتَّبَعهُ البَصرُ، وهَذا يَدُلُّ عَلى أَنَّها شَيءٌ مَخلوقٌ له جُرمٌ وجَسَدٌ، لَكِننا مَع ذلك لا نَعلَمُ مِنها إلَّا قَليلًا، ولِهذا لَمَّا سَألوا عَنِ الرُّوحِ قالَ اللهُ تَعالَى: ﴿قُلِ ٱلرُّوحُ مِنۡ أَمۡرِ رَبِّي وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلۡعِلۡمِ إِلَّا قَلِيلٗا﴾ [الإسراء:٨٥].

الْفَائِدَةُ الخَامِسَةُ: أَنَّ القُرآنَ والرَّسولَ -صَلَّى اللهُ عَليهِ وعلى آلِهِ وسَلَّم- حَقٌّ؛ لِقَولِه: ﴿حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمۡ أَنَّهُ ٱلۡحَقُّ﴾.

الْفَائِدَةُ السَّادِسَةُ: أَنَّ الآياتِ الدَّالَّةَ عَلى ذَلكَ: آياتٌ توصِّلُ إلى اليَقينِ لِقولِه: ﴿حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ﴾ التَّبيُّن أي: الوُضوحُ والظُّهور، ومنه قَولُه تَعالَى: ﴿حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكُمُ ٱلۡخَيۡطُ ٱلۡأَبۡيَضُ مِنَ ٱلۡخَيۡطِ ٱلۡأَسۡوَدِ﴾ [البقرة:١٨٧] فَإذا عَلِمتَ أَنَّك لَم تَصِل إلى اليَقينِ فاتَّهِم نَفسَكَ، وعَلَيكَ أَن تُعالِجَ هَذا المَرَضَ العُضالَ الخَطيرَ حَتَّى تَصِلَ إلى اليَقينِ؛ حَتَّى تَصِلَ إلى ما يَدُلُّ عَليه قَولُ الرَّسولِ -صَلَّى اللهُ عَليه وعلى آلِه وسَلَّم-: «**أَن تَعبُدَ اللهَ كَأَنَّك تَراهُ، فَإِن لَم تَكُن تَراهُ فَإِنَّه يَراكَ**»(١).

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب الإيمان، باب سؤال جبريل النبي ﷺ عن الإيمان، رقم (٥٠)، ومسلم: كتاب الإيمان، باب معرفة الإيمان، رقم (٩)، من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

الْفَائِدَةُ السَّابِعَةُ: كِفايَةُ اللهِ تَعالَى عَن كُلِّ شَيءٍ بِشهادَتِه لِقولِه: ﴿أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ﴾.

الْفَائِدَةُ الثَّامِنَةُ: الِاستِدلالُ بِالآثارِ على مُؤَثِّراتِها، وَجهُ ذَلكَ أَنَّ اللهَ تَعالَى استدلَّ بِتَمكينِه الرَّسولَ عَلى أَنَّه حَقٌّ، فالإِنسانُ يَستَدِلُّ بِالآثارِ عَلى مُؤَثِّراتِها؛ ولِهَذا قيلَ: البَعَرَةُ تَدُلُّ عَلى البَعيرِ، وَهذا جَوابٌ مِن أَعرابي سُئِلَ بِما عَرفتَ رَبَّك؟ فَقالَ عَلى البَديهَةِ: «البعَرَةُ تَدُلُّ على البَعيرِ -اختارَ هذا؛ لِأَنَّه أَعرابيٌّ ما يَعرفُ إِلَّا الإِبِلَ- والأَثَرُ يَدُلُّ عَلى المَسيرِ -إِذا رَأَيتَ مَثَلًا صورةَ القَدمِ عَلى الأَرضِ عَرفتَ أَنَّه قد سارَ على هَذا أَحَدٌ- فَسَماءٌ ذاتُ أَبراجٍ وأَرضٌ ذاتُ فِجاجٍ وبِحارٌ ذاتُ أَمواجٍ أَلا تَدُلُّ على السَّميعِ البَصيرِ؟»[1]، والجَوابُ: بَلَى هذا الأَعرابيُّ استدلَّ بِالآياتِ الآفاقيَّةِ عَلى وُجودِ اللهِ وعلى قُدرتِه.

الْفَائِدَةُ التَّاسِعَةُ: الحَذَرُ مِنَ المُخالَفةِ وهذه فائِدَةٌ تَربَويَّةٌ، تُؤخَذُ مِن: ﴿أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ﴾ فَإِذا عَلِمتَ أَنَّ اللهَ شَهيدٌ على كُلِّ شَيءٍ عَلى نَفسِك أَفعالِك أَقوالِك كُلِّ التَّصرُّفاتِ، فَإِنَّكَ سَوفَ تُراقِبُ الله عَزَّوَجَلَّ، ومَن لَم يَتَّعظ بِمِثلِ هذه الآيةِ فَإِنَّه لَن يَتَّعِظَ، إِذا عَلِمتَ أَنَّ اللهَ شَهيدٌ عليكَ في خَلَواتِكَ في وَحدَتِك في جُلوسِكَ مَع أَهلِكَ في جُلوسِكَ مع صَحبِكَ، فَإِنَّك سوفَ تُراقِبُ اللهَ عَزَّوَجَلَّ وهذا هو مَعنَى قَولِ الرَّسولِ عَلَيهِ الصَّلاةُ وَالسَّلَامُ: «**أَن تَعبُدَ اللهَ كَأَنَّكَ تَراهُ فَإِن لم تَكن تَراهُ فَإِنَّه يَراكَ**»[2].

---

(١) انظر: زاد المسير (١/ ٢٦٦)، وتفسير ابن كثير (١/ ١٠٦).

(٢) أخرجه البخاري: كتاب الإيمان، باب سؤال جبريل النبي ﷺ عن الإيمان، رقم (٥٠)، ومسلم: كتاب الإيمان، باب معرفة الإيمان، رقم (٩)، من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

الْفَائِدَةُ الْعَاشِرَةُ: بَيانُ حالِ هَؤلاءِ المُكذِّبينَ وأنَّ سَببَ تكذيبِهم أنَّهم في شَكٍّ مِن لقاءِ اللهِ، ومَعلومٌ أنَّ مَن كانَ في شَكٍّ مِن لِقاءِ اللهِ فَلن يَعمَلَ للهِ؛ ولِهذا تَجِدونَ اللهَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى يَقرِنُ دائمًا بَينَ الإيمانِ بِه واليوم الآخِرِ؛ لِأنَّ مَن نَقَصَ إيمانُه بِاليوم الآخِرِ فَسوفَ يَنقُصُ عَمَلُه ومَن كَمُلَ إيمانُه بِاليومِ الآخِرِ فَسوفَ يَكمُلُ عَمَلُه؛ لِأنَّه يَرجو أن يَكونَ سَعيدًا في ذَلكَ اليومِ، أَنت حينَما تَركَعُ وتَسجُدُ اجعل عَلى بالِكَ أنَّ هَذا الرُّكوعَ والسُّجودَ سَوفَ يَنفعُكَ يَومَ القيامةِ، وهو يَنفَعُكَ مِنَ الآنِ؛ لِأنَّ الصَّلاةَ تَنهى عَنِ الفحشاءِ والمُنكرِ، لَكِنَّ الثَّمرةَ المَلموسَةَ يومَ القيامَةِ الَّتي تَظهرُ لِكُلِّ أحدٍ، وفي الدُّنيا يَظهرُ لِلمُؤمِنِ الانتِفاعُ التَّامُّ بِالطَّاعاتِ، كَما قالَ شَيخُ الإسلامِ ابنُ تَيميَّةَ رَحِمَهُ اللَّهُ: «ما يَفعلُ أعدائي بي! إنَّ جَنَّتي في صَدري، حَبسي خُلوةٌ ونَفيي سياحَةٌ وقَتلي شَهادَةٌ»[1] رَحِمَهُ اللَّهُ، فالإنسانُ المُؤمنُ يَجِدُ هَذا في نَفسِهِ قَبلَ يَومِ القيامَةِ، وفي يَومِ القيامَةِ يَكونُ الظُّهورُ الكاملُ يَكشِفُ عَن كُلِّ شَيءٍ.

الْفَائِدَةُ الحَادِيَةَ عَشْرَةَ: بَيانُ إحاطةِ اللهِ بِكلِّ شيءٍ: عِلمًا وقُدرةً، وسُلطانًا وتَدبيرًا، وغيرِ ذَلكَ؛ مُحيطٌ بِكلِّ شَيءٍ بِأفعالِه وأفعالِ العِبادِ، قالَ اللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: ﴿لِتَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ ٱللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَىْءٍ عِلْمًۢا﴾ [الطلاق:١٢].

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَةَ عَشْرَةَ: تَحقيقُ مُراقبةِ اللهِ؛ لِأنَّك إذا آمَنتَ أنَّ اللهَ بِكُلِّ شَيءٍ مُحيطٌ فَسوفَ تُراقبُه المُراقبةَ التَّامَّةَ، بِحيثُ لا يَفتقدُكَ حَيثُ أَمَرَك، ولا يَراكَ حَيثُ نَهاكَ.

---

(١) انظر: الوابل الصيب (ص:٤٨).

فهرس الأحاديث والآثار

الحديث | **الصفحة**

«النَّظَرُ إلى وجْهِ اللهِ» ٨

«ألا إنَّ القُوةَ الرَّميُ» ٨

«صلُّوا كما رأيتُموني أصلِّي» ٩

«اللَّهمَّ فقِّهْهُ في الدِّينِ وعلِّمْهُ التَّأويلَ» ٩

«إذا قرأتُم: الحمدُ للهِ ربِّ العالَمين فاقرؤُوا: «بسمِ اللهِ الرَّحمنِ الرَّحيمِ» ١٢

«قَسمتُ الصَّلاةَ بيني وبينَ عبدي نِصفَينِ» .... ١٢، ١٣

«فإذا قالَ: الحمدُ للهِ ربِّ العالَمِين، قالَ: حمِدني عبدي...» ١٢

«إنَّكَ تَأتِي قومًا أهلَ كِتابٍ، فَليكُن أوَّلَ ما تَدْعُوهم إلَيْه تَوحيدُ اللهِ، ثمَّ ادْعُهم إلى الصَّلاةِ، ثمَّ ادْعُهم إلى الزَّكاةِ...» ٣٧

«آتِ نفسِي تقْواها، وزَكِّها أنت خيرُ مَن زَكَّاها» ٣٨

«إنَّما أنا بشرٌ مِثْلُكم أنْسى كما تَنسَوْن» ٤٢

«أنَّ العُلماء ورَثَة الأنْبياء» ٤٤

«إنَّ اللهَ حرَّم على النَّارِ مَنْ قال لا إلَه إلَّا اللهُ يَبْتَغي بذَلِك وجْهَ اللهِ» ٤٥

«ويْلٌ لِمَن حدَّث فكذَبَ ليُضحِكَ به القَوم، ويلٌ له! ثمَّ ويلٌ له!» ٤٧

«لا يمُوتنَّ أحدُكم إلَّا وهُو يُحسِنُ الظَّنَّ بربِّه تَبَارَكَ وَتَعَالَى» ٥٠

«الإيمانُ أنْ تُؤمِنَ باللهِ وبمَلائِكتِه وكُتُبه ورُسُلِه واليومِ الآخِرِ وتُؤمِنَ بالقَدَرِ خيْرِه وشرِّه» ٥١

«أنا أغنَى الشُّركاءِ عنِ الشِّركِ، مَن عمِلَ عمَلًا أشرَك فيه معِي غيرِي ترَكتُه وشِركَه» ٥١
«مَن عمِلَ عمَلًا ليْس علَيه أمرُنا فهُو ردٌّ» ٥٢
«أطَّتِ السَّماءُ وحُقَّ لَـها أنْ تَئِطَّ، ما مِن مَوضِعِ أربَعِ أصابعَ مِنها إلَّا وفِيه مَلَكٌ قائِمٌ للهِ أو راكِعٌ أو ساجِدٌ» ٥٨
«تعِسَ عبْدُ الدِّينارِ، تعِسَ عبْدُ الدِّرهَمِ، تعِسَ عبْدُ الخَميصَةِ، تعِسَ عبْدُ القَطِيفةِ» ... ٦٣
«يُحِبُّنا ونُحِبُّه» ٧٧
«إنَّ جِبرِيلَ لَـمَّا وصَل بالنَّبيِّ ﷺ إلَى السَّماءِ الدُّنيا اسْتَفتَح؛ فقِيل: مَن هذا؟ قال: جِبرِيلُ، قِيل ومَن مَعَك؟ قال: مُحمَّد، فقِيل لَه: هَل أُوحِي إلَيْه؟ قال: نَعَم، ففُتِح لَه» ٨٢
«مَعِي مُحمَّدٌ، فقِيلَ: له: وقَد أُرسِلَ إلَيه؟ قال: نعَم، قالوا: مَرْحبًا بِه؛ فنِعْم المَجِيءُ جاء» ٨٢
«أرَأيْتَ لَو كان على أمُّك دَيْن أكُنتِ قاضِيتِه؟... اقضُوا اللهَ فاللهُ أحَقُّ بالْوَفاءِ» ٩٣
«كان يُصيبُنا ذلك فنُؤمَرُ بقَضاءِ الصَّومِ ولا نُؤمَرُ بقَضاءِ الصَّلاةِ» ١٠٥
«أَخبرَ أنَّ مَن أتى شيئًا مِن هذه القَاذوراتِ، فعوقِبَ به في الدُّنيا لَمْ يُعذَّبْ به في الْآخرَةِ» ١٠٧
«يا عَمِّ، قل: لا إِلَهَ إِلَّا اللهُ كَلِمَةً أُحاجُّ لك بها عِنْدَ اللهِ» ١٣٦
«يا عَمِّ قُلْ: لا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وهما يقولانِ له: أَتَرْغَبُ عن مِلَّةِ عَبدِ المُطَّلِبِ يَعني عن مِلَّةِ الكُفْرِ» ١٣٦
«مَنِ اقتطَع شِبرًا مِنَ الأرضِ ظُلْمًا طَوَّقه اللهُ بها يومَ القِيامَةِ من سَبْعِ أَرَضِينَ» ١٤٠
«عَذابُ الدُّنيا أَهونُ من عَذابِ الآخِرَةِ» ١٥٣

«المَرءُ على دينِ خليلِه فَلْيَنْظُرْ أَحَدُكُم مَنْ يُخالِلْ» ١٦٥
«مَثَلُ الجَليسِ السُّوءِ كنافِخِ الكيرِ، إمَّا أن يَحرِقَ ثيابَك وإمَّا أن تَجِدَ منه رائِحةً خَبيثَةً» ١٦٥
«يا رَسولَ اللهِ، قُل لي في الإسلامِ قولًا لا أَسأَلُ عنه أحدًا غَيرَك، فقال لَه: قُل آمَنتُ باللهِ ثُمَّ استَقِمْ» ١٦٧
«في الجنة ما لا عينٌ رأت ولا أُذنٌ سَمِعت، ولا خَطَرَ على قَلبِ بشرٍ» ١٦٩
«للمُلكِ في قَلبِ ابنِ آدمَ لَـمَّة وللشَّيطانِ لَـمَّةً، فلَمَّةُ المُلكِ إيعادٌ بالخَيرِ وحثٌّ على الطَّاعَةِ، ولَـمَّةُ الشَّيطانِ بالعَكسِ» ١٧٠
«لن يَدخُلَ الجَنَّةَ أحدٌ بعَمَلِه» ١٧٣
«لا يَدخُلُ الجَنَّةَ مَن كان في قَلْبه مِثقالُ ذَرَّةٍ مِن كِبْرٍ» ١٧٣
«مَن عَمِلَ عملًا ليس عليه أَمرُنا فهو رَدٌّ» ١٧٨
«أنَّه يَخرُجُ مِنَ النَّارِ أُناسٌ لم يَعمَلوا خَيرًا قط» ١٧٨
«بَلِّغوا عنِّي ولو آيَةً» ١٨١
«مَن رأى مِنكم مُنكرًا فَلْيُغيِّرْه» ١٨٢
«وما تَقرَّب عَبدي بشَيءٍ أحبُّ إلَيَّ ممَّا افتَرضتُ عليه» ١٨٣
«لا تَسُبُّوا أصحابي، فوالَّذي نَفسي بِيـدِهِ لو أَنفَقَ أحدُكم مِثلَ أُحُدٍ ذَهبًا ما بَلَغ مُـدَّ أحدِهم ولا نَصيفَه» ١٨٣
«مَن وَجَدَ مَلاذًا فلْيَعُذْ به أو مُعاذًا فلْيَعُذْ به» ١٩٥
«أنَّ الشَّمسَ تَطلُعُ بين قَرنَيْ شَيطانٍ فإذا طَلُعَت سَجَدَ لها الكُفَّارُ» ١٩٩
«إنَّه يُحبُّنا ونُحبُّه» ٢١٠

«أبواه يُهوِّدانِه أو يُنصِّرانِه أو يُمجِّسانِه» ٢١٢
«إذا فَعلتُم ذلك فقد سَلِمْتُم على كُلِّ عَبدٍ صالحٍ في السَّماءِ والأرضِ» ٢٢٠
«ما مِنكم مِن أحدٍ إلَّا وقد كُتِبَ مَقعدُهُ مِنَ الجنَّةِ ومَقعدُهُ مِنَ النَّارِ، قالوا: يَا رَسُولَ اللهِ، أفَلا نَدَعُ العَمَلَ ونَتَّكِلُ على الكِتَابِ؟» ٢٣٤
«اعْمَلوا، فكُلٌّ مُيَسَّرٌ لِما خُلِقَ لَهُ» ٢٣٤
«أمَّا أهلُ السَّعادةِ فيُيَسَّرونَ لِعَمَلِ أهلِ السَّعادةِ، وأمَّا أهلُ الشَّقاوةِ فيُيَسَّرونَ لِعَمَلِ أهلِ الشَّقاوةِ» ٢٣٤
«فَحَجَّه آدَمُ» ٢٣٥
«فحَجَّ آدمُ موسى» ٢٣٦
«كَيف تَلومُني على شيءٍ قد كَتَبهُ اللهُ عَلَيَّ قَبلَ أن أُخْلَقَ بأربعينَ سَنَةً» ٢٣٦
«المُؤمنُ القَويُّ خَيرٌ وأَحَبُّ إلَى اللهِ مِنَ المُؤمنِ الضَّعيفِ، وفي كُلٍّ خيرٌ» ٢٣٧
«ألا تُصلِّيانِ؟» ٢٣٨
«لا مانِعَ لِما أعْطَيتَ ولا مُعطيَ لِما مَنعْتَ» ٢٤٦
«إنَّ الطَّبيبَ رَآني، فقالَ: إنِّي أفعلُ ما أُريدُ» ٢٥٠
«الحمدُ للهِ على كُلِّ حالٍ» .... ٢٥١، ٢٥٢
«والشَّرُّ ليسَ إليهِ» ٢٥٢
«تُؤمِنُ بالقَدَرِ خيرِه وشَرِّه» ٢٥٢
«لا يَموتنَّ أحدُكم إلَّا وهو يُحسِنُ الظَّنَّ بِربِّه» ٢٥٦
«خُذوا وَاضرِبوا لي مَعكُمْ بِسَهمٍ» ٢٦١
«وَما يُدْريكَ أنَّها رُقْيَةٌ» ٢٦١

«وَالَّذي نَفْسي بِيَدِه لا يَسمَعُ بي أَحدٌ من هَذِهِ الأُمَّةِ؛ يَهوديٌّ ولا نَصرانيٌّ، ثُمَّ لَا يُؤمنُ بما جِئتُ به إِلَّا كانَ مِنْ أَصحابِ النَّارِ» ٢٦٥
«القُرآنُ حُجَّةٌ لَك أَوْ عليك» ٢٦٧
«الحُمَّى مِن فَيحِ جهنَّمَ فَأَبرِدوها بِالمَاءِ» ٢٦٨
«أنَّه عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ رأى سَوادًا عَظيمًا قَدْ سَدَّ الأُفقَ فَقيلَ: هَذا موسى وقَومُه» ٢٧٠
«فَليَستَعِذْ بِاللهِ ولْيَنْتَهِ» ٢٧٦
«ذاكَ صَريحُ الإِيمانِ» ٢٧٦
«أَنا أَغنى الشُّركاءِ عَنِ الشِّركِ، مَنْ عَمِلَ عَمَلًا أَشْرَكَ فيه مَعي غَيري تَرَكْتُه وشِرْكَه» ٢٧٨
«مَنْ عَمِلَ عملًا لَيس عَليه أَمرُنا فَهو رَدٌّ» ٢٧٩
«مَنْ أَحدثَ في أَمرِنا هَذا ما لَيس مِنه فَهو رَدٌّ» ٢٧٩
«يا عِبادي لَو أَنَّ أَوَّلَكم وآخِرَكم وإِنْسَكم وجِنَّكم كانوا على أَتْقى قَلبِ رَجلٍ واحدٍ مِنكم ما زاد ذَلِكَ في مُلْكي شيئًا» ٢٧٩
«مَنِ اقتطعَ شِبرًا مِنَ الأَرضِ ظُلمًا طُوِّقَه يومَ القيامَةِ مِنْ سَبْعِ أَرَضينَ» ٢٨١
«إِنَّ أَطيبَ ما أَكَلتم مِن كَسبِكم وإِنَّ أَولادَكُمْ مِنْ كَسبِكم» ٢٨٤
«فاطمَةُ بِضعةٌ منِّي يَريبُها ما رابَني» ٢٨٤
«حَدَّثَني فَصَدَقَني ووَعَدَني فوَفَّاني» ٢٨٤
«مَنْ شُبْرُمَةُ؟» ٢٨٥
«إِنَّ اللهَ تَجاوزَ عن أُمَّتي ما حَدَّثَتْ به أَنْفُسَها ما لَم تَعْمَلْ أو تَتكَلَّمْ» ٢٩٠
«إِذا التَقى المُسلِمانِ بِسَيفَيهِما فالقاتلُ وَالمقتولُ في النَّار» ٢٩١

«أنَّ النَّبيَّ ﷺ أخبرَ عنْ رَجُلٍ آتاهُ اللهُ المالَ فَجعَلَ يَتخبَّطُ فيه، فقالَ الفقيرُ: لو أنَّ لي مِثلَ مالِ فُلانٍ لَعمِلْتُ فيه عَمَلَ فُلانٍ، قال: فَهو بِنِيَّتِه فَهُما في الوِزْرِ سواءٌ»...... ٢٩١
«ما المَسؤولُ عَنها بأعْلَمَ مِنَ السَّائِلِ»........ ٢٩٤
«إذا فَرَغْتُنَّ فَآذِنَّني»........ ٢٩٦
«إنَّ الحُسنى الجنَّةُ والزِّيادةُ النَّظَرُ إلى وَجهِ اللهِ»........ ٣١٠
«لَولا أنا لكانَ في الدَّركِ الأسفلِ مِن النَّارِ»........ ٣١١
«إنَّ اللهَ أَمَرَ المُؤمنينَ بِما أَمَرَ به المُرسَلينَ»........ ٣٢٠
«مَن عَمِلَ عَملًا لَيسَ عَليهِ أمرُنا فَهو رَدٌّ»........ ٣٢٩
«أن تَعبُدَ اللهَ كَأنَّك تَراهُ، فَإن لَم تَكُن تَراهُ فَإنَّه يَراكَ»........ ٣٤١، ٣٤٢

* * *

فهرس الفوائد

الفائدة	الصفحة

قواعدُ مهمَّةٌ في تفسيرِ كلامِ اللهِ عَزَّوَجَلَّ ٧

تفسير القرآنِ لا يقتصرُ على تَفسِيرِ الصَّحابةِ والتَّابِعين ١٠

البَسمَلةُ آيةٌ مِنْ كِتابِ الله ١١

خمسةُ أوجُهٍ تدُلُّ على أنَّ البسْملةَ ليستْ منَ الفاتِحةِ ١٢

لا تَكادُ تَرى سُورةً مَبدوءةً بهذهِ الحُروفِ إلَّا وبعدَها ذُكِرَ القرآنُ ١٥

السُّنَّةُ في الآياتِ: أنْ تَقرَأها حسْبَ ما فُصِّلَتْ ١٩

ورَدت في القرآنِ آيات تَجرِي على سبيل المَثَل ٢٣

الَّذي يَقرأُ القُرآنَ بلا فَهمٍ للمَعنى فهو أمِّيٌّ وإنْ تلاهُ ٢٦

مِنْ طُرُقِ الحَصْرِ في اللُّغة ٣٤

كُلَّما طَلَبتَ المَغفِرةَ استَحضِرْ أنَّكَ تُريدُ مِنَ اللهِ عَزَّوَجَلَّ أنْ يَتجاوزَ عَنك فَلا يُعاقِبكَ، وأنْ يستُرَ ذَنْبكَ ٣٧

الأعْمالُ الصَّالحاتُ هي ما جَمعَتْ شرطَين ٥١

لا تَجوزُ مُداهَنةُ الكُفَّارِ، وإنْ كانَت المُداراةُ تَجوزُ لكِنَّ المُداهَنةَ لا تَجُوزُ ٥٩

الفَرقُ بين المُداراة والمُداهَنة ٥٩

ينبَغي للإنسانِ إذا رأَى آيتَيْن ظاهِرهُما التَّعارُض ألَّا يُسرِعَ في الحُكْمِ بالتَّعارُضِ ٦١

جعَل الله تعالى في هذِه الأراضِي ما لا يصْلُحُ في الأراضِي الأُخرَى والعَكْس لِحكْمة ٦٨

دوَران الأرْض ٧٠
إثْباتُ الطَّواعِيةِ والكراهيَةِ لغيْرِ العاقِلِ ٧٧
دَعْوَى المُفسِّرِ رَحِمَهُ ٱللَّهُ أنَّ آدمَ خُلِقَ في آخِرِ ساعَةٍ مِن يَوْمِ الجُمُعةِ الَّتي تمَّ فِيها خَلْقُ السَّمواتِ والأرْضِ غيْرُ صَحِيحٍ ٧٩
الكَواكِبُ السَّبْعةُ ٨٠
إذا ورَدَ تَفْسِيرانِ في الآيَةِ أحَدُهما أعمُّ أخَذْنا بالأعمِّ ٨١
العِزَّةُ لها ثَلاثَة مَعانٍ ٨٤
الله تَعالَى خَلَقَ هَذه النُّجومَ لثَلاثِ فوائدَ ٨٦
إنْ قالَ قائِلٌ: كَلامُ الله عَنْ قَومِ عادٍ وثَمُودَ ﴿فَإِنَّا بِمَآ أُرۡسِلۡتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ﴾؛ هَل هُو اللَّفْظُ الَّذي قالَه القَومُ أمْ أنَّ هذا لِسانُ حالِهم؟ ٩٢
جَوازُ القِياسِ والِاعتِبارِ بالنَّظِيرِ والمُماثِلِ ٩٣
هل قَولُ اللهِ عَزَّوَجَلَّ: ﴿فِيٓ أَيَّامٖ نَّحِسَاتٖ﴾ فِيه إضافَةُ النَّحْسِ إلَى الأيَّامِ؟ ١٠١
الدُّنيا سُمِّيَتْ دُنيا لِوَجهَيْنِ ١٠١
أفعال اللهِ -تَعالَى- مَقرونَةٌ بالحِكمةِ ١٠٥
هل عَذابُ القبرِ مُتَّصِلٌ إلى يوم القِيامَةِ؟ ١٠٨
الحُروفُ السَّبعَةُ -في القرآن- الآنَ غَيرُ مَعلومَةٍ ١١٨
في (كافِ المُخاطَبِ) في الإشارَةِ أَقوالُ ثَلاثَةٌ وكُلُّها لُغاتٌ ١٢٤
التَّصريحُ بتأبيدِ النَّار في ثَلاثَةِ مَواضِعَ من كتابِ اللهِ عَزَّوَجَلَّ ١٣١
هل يَثْبتُ عن ابنِ القَيِّمِ القَولُ بفَناءِ النَّارِ؟ ١٣٢
الجِنُّ مُكلَّفونَ ١٣٧
الجِنُّ هل فيهم رَسولٌ؟ ١٣٩

هل الإنسانُ مُستَقِلٌّ بعَمَلِه؟ ١٤١
أحكامُ مَن يُشَغِّلُ القُرآنَ في المُسَجِّلِ ١٤٦
الإظهارُ في مَوضِعِ الإضْمارِ له فَوائِدُ ١٤٩
مَن كذَّب شيئًا مِن القُرآنِ فهو مُرتدٌّ فهل تكذيب السُّنة كذلك؟ ١٥٩
هل الأفضلُ طلب العلم أو الاشتغال بالدعوة؟ ١٨٠
وَسائِلُ الدَّعوةِ كَثيرةٌ ١٨١
مُدافعَةَ السَّيِّئةِ تَكونُ من ثَلاثةِ وجوهٍ ١٨٧
ما يُنَزَّهُ اللهُ عنه ثَلاثَةُ أشياءَ ٢٠٢
كيف تَكونُ المَلائكَةُ أفضَلَ بِدايَةً والبَشَرُ أفضَلَ نِهايَةً؟ ٢٠٩
مسألة احتِجاج آدَمَ على موسى عليهما الصلاة والسلام ٢٣٥
(لَـمَّا) تَأْتي في اللُّغةِ العربيَّةِ لعِدَّةِ أَوجُهٍ ٢٤٢
ما مَدَى صِحَّةِ تَسميةِ اللهِ تَعالَى بالطَّيبِ والنَّظيفِ؟ ٢٥٠
كَيفَ يُشترَطُ للرُّقيةِ أنْ يَكونَ المَرقيُّ -الَّذي يُتلى عليه القُرآنُ- مُؤمنًا بِهِ وزَعيمُ القَومِ -الذي رقاه الصحابي- لَمْ يَكُنْ مُسلمًا؟ ٢٦٢
هَل يُعالَجُ الكافِرُ بِالقُرآنِ؟ ٢٦٢
الخطابُ المُوجَّهُ إِلَى الرَّسولِ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ يَنقسمُ إِلَى ثلاثةِ أَقسامٍ ٢٨٠
هَلِ الَّذي يَنبَغي لِلْإنسانِ أَنْ يَغلبَه جانبُ الرَّجاءِ أَوِ الخوفِ؟ ٣٠٥
فوائدُ الإظهار في موضع الإضمار .... ٣١٨، ٣٢٤
إذا كانت الآيَةُ تَحتَملُ مَعنيينِ لا يُنافي أَحدُهما الآخرَ، فإنَّها تُحملُ عَليهما جَميعًا إِذا لَمْ يُوجَدْ مُرَجِّحٌ لِأحدِهما ٣٠٩

فهرس آيات السورة

الآية	الصفحة
تقديم	٥
سورة فصلت	٧
البسملة	١١
" قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿حمٓ ١﴾	١٤
" قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿تَنزِيلٌ مِّنَ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ٢ كِتَٰبٌ فُصِّلَتْ ءَايَٰتُهُۥ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ٣﴾	١٦
" قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿بَشِيرًا وَنَذِيرًا فَأَعْرَضَ أَكْثَرُهُمْ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ ٤﴾	٢٧
" قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَقَالُوا۟ قُلُوبُنَا فِىٓ أَكِنَّةٍ مِّمَّا تَدْعُونَآ إِلَيْهِ وَفِىٓ ءَاذَانِنَا وَقْرٌ وَمِنۢ بَيْنِنَا وَبَيْنِكَ حِجَابٌ فَٱعْمَلْ إِنَّنَا عَٰمِلُونَ ٥﴾	٣٠
" قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿قُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰٓ إِلَىَّ أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ فَٱسْتَقِيمُوٓا۟ إِلَيْهِ وَٱسْتَغْفِرُوهُ ۗ وَوَيْلٌ لِّلْمُشْرِكِينَ ٦ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَهُم بِٱلْءَاخِرَةِ هُمْ كَٰفِرُونَ ٧﴾	٣٣
" قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ ٨﴾	٥٠
" قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿۞ قُلْ أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْأَرْضَ فِى يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُۥٓ أَندَادًا ۚ ذَٰلِكَ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ٩﴾	٥٥
" قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَجَعَلَ فِيهَا رَوَٰسِىَ مِن فَوْقِهَا وَبَٰرَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَآ أَقْوَٰتَهَا فِىٓ أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَآءً لِّلسَّآئِلِينَ ١٠﴾	٦٥

قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ وَهِىَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ٱئْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَآ أَتَيْنَا طَآئِعِينَ ﴿١١﴾﴾ ٧٤

قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿فَقَضَىٰهُنَّ سَبْعَ سَمَٰوَاتٍ فِى يَوْمَيْنِ وَأَوْحَىٰ فِى كُلِّ سَمَآءٍ أَمْرَهَا ۚ وَزَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِمَصَٰبِيحَ وَحِفْظًا ۚ ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ ﴿١٢﴾﴾ ٧٨

قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿فَإِنْ أَعْرَضُوا۟ فَقُلْ أَنذَرْتُكُمْ صَٰعِقَةً مِّثْلَ صَٰعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ ﴿١٣﴾ إِذْ جَآءَتْهُمُ ٱلرُّسُلُ مِنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّا ٱللَّهَ ۖ قَالُوا۟ لَوْ شَآءَ رَبُّنَا لَأَنزَلَ مَلَٰٓئِكَةً فَإِنَّا بِمَآ أُرْسِلْتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ ﴿١٤﴾﴾ ٨٨

قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿فَأَمَّا عَادٌ فَٱسْتَكْبَرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَقَالُوا۟ مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً ۖ أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّ ٱللَّهَ ٱلَّذِى خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً ۖ وَكَانُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا يَجْحَدُونَ ﴿١٥﴾ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِىٓ أَيَّامٍ نَّحِسَاتٍ لِّنُذِيقَهُمْ عَذَابَ ٱلْخِزْىِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَلَعَذَابُ ٱلْـَٔاخِرَةِ أَخْزَىٰ ۖ وَهُمْ لَا يُنصَرُونَ ﴿١٦﴾﴾ ٩٧

قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَٰهُمْ فَٱسْتَحَبُّوا۟ ٱلْعَمَىٰ عَلَى ٱلْهُدَىٰ فَأَخَذَتْهُمْ صَٰعِقَةُ ٱلْعَذَابِ ٱلْهُونِ بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿١٧﴾﴾ ١١٠

قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَنَجَّيْنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَكَانُوا۟ يَتَّقُونَ ﴿١٨﴾﴾ ١١٤

قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَيَوْمَ يُحْشَرُ أَعْدَآءُ ٱللَّهِ إِلَى ٱلنَّارِ فَهُمْ يُوزَعُونَ ﴿١٩﴾ حَتَّىٰٓ إِذَا مَا جَآءُوهَا شَهِدَ عَلَيْهِمْ سَمْعُهُمْ وَأَبْصَٰرُهُمْ وَجُلُودُهُم بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٢٠﴾ وَقَالُوا۟ لِجُلُودِهِمْ لِمَ شَهِدتُّمْ عَلَيْنَا ۖ قَالُوٓا۟ أَنطَقَنَا ٱللَّهُ ٱلَّذِىٓ أَنطَقَ كُلَّ شَىْءٍ وَهُوَ خَلَقَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٢١﴾ وَمَا كُنتُمْ تَسْتَتِرُونَ أَن يَشْهَدَ عَلَيْكُمْ سَمْعُكُمْ وَلَآ أَبْصَٰرُكُمْ وَلَا جُلُودُكُمْ وَلَٰكِن ظَنَنتُمْ أَنَّ ٱللَّهَ لَا يَعْلَمُ كَثِيرًا مِّمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٢٢﴾ وَذَٰلِكُمْ ظَنُّكُمُ ٱلَّذِى ظَنَنتُم بِرَبِّكُمْ أَرْدَىٰكُمْ فَأَصْبَحْتُم مِّنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٢٣﴾ فَإِن يَصْبِرُوا۟ فَٱلنَّارُ مَثْوًى لَّهُمْ ۖ وَإِن يَسْتَعْتِبُوا۟ فَمَا هُم مِّنَ ٱلْمُعْتَبِينَ ﴿٢٤﴾﴾ ١١٦

” قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿ ۞ وَقَيَّضْنَا لَهُمْ قُرَنَآءَ فَزَيَّنُوا۟ لَهُم مَّا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَحَقَّ عَلَيْهِمُ ٱلْقَوْلُ فِىٓ أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِم مِّنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ ۖ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ خَٰسِرِينَ (٢٥) ﴾ ١٣٤

” قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَا تَسْمَعُوا۟ لِهَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ وَٱلْغَوْا۟ فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ (٢٦) ﴾ ١٤٤

” قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿ فَلَنُذِيقَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ عَذَابًا شَدِيدًا وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَسْوَأَ ٱلَّذِى كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ (٢٧) ﴾ ١٤٩

” قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿ ذَٰلِكَ جَزَآءُ أَعْدَآءِ ٱللَّهِ ٱلنَّارُ ۖ لَهُمْ فِيهَا دَارُ ٱلْخُلْدِ ۖ جَزَآءًۢ بِمَا كَانُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا يَجْحَدُونَ (٢٨) ﴾ ١٥٦

” قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ رَبَّنَآ أَرِنَا ٱلَّذَيْنِ أَضَلَّانَا مِنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ نَجْعَلْهُمَا تَحْتَ أَقْدَامِنَا لِيَكُونَا مِنَ ٱلْأَسْفَلِينَ (٢٩) ﴾ ١٦٠

” قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُوا۟ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَٰمُوا۟ تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا۟ وَلَا تَحْزَنُوا۟ وَأَبْشِرُوا۟ بِٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى كُنتُمْ تُوعَدُونَ (٣٠) نَحْنُ أَوْلِيَآؤُكُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ ۖ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهِىٓ أَنفُسُكُمْ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدَّعُونَ (٣١) نُزُلًا مِّنْ غَفُورٍ رَّحِيمٍ (٣٢) ﴾ ١٦٦

” قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿ وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِّمَّن دَعَآ إِلَى ٱللَّهِ وَعَمِلَ صَٰلِحًا وَقَالَ إِنَّنِى مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ (٣٣) ﴾ ١٧٧

” قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿ وَلَا تَسْتَوِى ٱلْحَسَنَةُ وَلَا ٱلسَّيِّئَةُ ۚ ٱدْفَعْ بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ فَإِذَا ٱلَّذِى بَيْنَكَ وَبَيْنَهُۥ عَدَٰوَةٌ كَأَنَّهُۥ وَلِىٌّ حَمِيمٌ (٣٤) وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلَّذِينَ صَبَرُوا۟ وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ (٣٥) وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ نَزْغٌ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ ۖ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ (٣٦) ﴾ ١٨٥

" قال اللهُ عزَّوَجلَّ: ﴿ وَمِنْ ءَايَٰتِهِ ٱلَّيْلُ وَٱلنَّهَارُ وَٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ ۚ لَا تَسْجُدُوا۟ لِلشَّمْسِ وَلَا لِلْقَمَرِ وَٱسْجُدُوا۟ لِلَّهِ ٱلَّذِى خَلَقَهُنَّ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ ﴿٣٧﴾ فَإِنِ ٱسْتَكْبَرُوا۟ فَٱلَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ يُسَبِّحُونَ لَهُۥ بِٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَهُمْ لَا يَسْـَٔمُونَ ۩ ﴿٣٨﴾ ﴾ ١٩٧

" قالَ اللهُ عزَّوَجلَّ: ﴿ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنَّكَ تَرَى ٱلْأَرْضَ خَٰشِعَةً فَإِذَآ أَنزَلْنَا عَلَيْهَا ٱلْمَآءَ ٱهْتَزَّتْ وَرَبَتْ ۚ إِنَّ ٱلَّذِىٓ أَحْيَاهَا لَمُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰٓ ۚ إِنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٣٩﴾ ﴾ ٢١٥

" قالَ اللهُ عزَّوَجلَّ: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِىٓ ءَايَٰتِنَا لَا يَخْفَوْنَ عَلَيْنَآ ۗ أَفَمَن يُلْقَىٰ فِى ٱلنَّارِ خَيْرٌ أَم مَّن يَأْتِىٓ ءَامِنًا يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۚ ٱعْمَلُوا۟ مَا شِئْتُمْ ۖ إِنَّهُۥ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٤٠﴾ ﴾ ٢٢١

" قالَ اللهُ عزَّوَجلَّ: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِٱلذِّكْرِ لَمَّا جَآءَهُمْ ۖ وَإِنَّهُۥ لَكِتَٰبٌ عَزِيزٌ ﴿٤١﴾ لَّا يَأْتِيهِ ٱلْبَٰطِلُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِۦ ۖ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ ﴿٤٢﴾ ﴾ ٢٤٢

" قالَ اللهُ عزَّوَجلَّ: ﴿ مَّا يُقَالُ لَكَ إِلَّا مَا قَدْ قِيلَ لِلرُّسُلِ مِن قَبْلِكَ ۚ إِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ وَذُو عِقَابٍ أَلِيمٍ ﴿٤٣﴾ ﴾ ٢٥٤

" قالَ اللهُ عزَّوَجلَّ: ﴿ وَلَوْ جَعَلْنَٰهُ قُرْءَانًا أَعْجَمِيًّا لَّقَالُوا۟ لَوْلَا فُصِّلَتْ ءَايَٰتُهُۥٓ ۖ ءَا۬عْجَمِىٌّ وَعَرَبِىٌّ ۗ قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ هُدًى وَشِفَآءٌ ۖ وَٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ فِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ يُنَادَوْنَ مِن مَّكَانٍۭ بَعِيدٍ ﴿٤٤﴾ ﴾ ٢٥٨

" قالَ اللهُ عزَّوَجلَّ: ﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ فَٱخْتُلِفَ فِيهِ ۗ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ لَقُضِىَ بَيْنَهُمْ ۚ وَإِنَّهُمْ لَفِى شَكٍّ مِّنْهُ مُرِيبٍ ﴿٤٥﴾ ﴾ ٢٧٠

" قالَ اللهُ عزَّوَجلَّ: ﴿ مَّنْ عَمِلَ صَٰلِحًا فَلِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَنْ أَسَآءَ فَعَلَيْهَا ۗ وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ ﴿٤٦﴾ ﴾ ٢٧٨

" قالَ اللهُ تعالَى: ﴿ ۞ إِلَيْهِ يُرَدُّ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ ۚ وَمَا تَخْرُجُ مِن ثَمَرَٰتٍ مِّنْ أَكْمَامِهَا وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنثَىٰ وَلَا تَضَعُ إِلَّا بِعِلْمِهِۦ ۚ وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ أَيْنَ شُرَكَآءِى قَالُوٓا۟ ءَاذَنَّٰكَ مَا مِنَّا مِن شَهِيدٍ ﴿٤٧﴾ ﴾ ٢٩٣

" قالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَدْعُونَ مِن قَبْلُ ۖ وَظَنُّوا۟ مَا لَهُم مِّن مَّحِيصٍ ﴿٤٨﴾﴾ ٣٠٠

" قالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿لَّا يَسْـَٔمُ ٱلْإِنسَـٰنُ مِن دُعَآءِ ٱلْخَيْرِ وَإِن مَّسَّهُ ٱلشَّرُّ فَيَـُٔوسٌ قَنُوطٌ ﴿٤٩﴾﴾ ٣٠٣

" قالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَلَئِنْ أَذَقْنَـٰهُ رَحْمَةً مِّنَّا مِنۢ بَعْدِ ضَرَّآءَ مَسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ هَـٰذَا لِى وَمَآ أَظُنُّ ٱلسَّاعَةَ قَآئِمَةً وَلَئِن رُّجِعْتُ إِلَىٰ رَبِّىٓ إِنَّ لِى عِندَهُۥ لَلْحُسْنَىٰ ۚ فَلَنُنَبِّئَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِمَا عَمِلُوا۟ وَلَنُذِيقَنَّهُم مِّنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ ﴿٥٠﴾﴾ ٣٠٧

" قال اللهُ تعالى: ﴿وَإِذَآ أَنْعَمْنَا عَلَى ٱلْإِنسَـٰنِ أَعْرَضَ وَنَـَٔا بِجَانِبِهِۦ وَإِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ فَذُو دُعَآءٍ عَرِيضٍ ﴿٥١﴾﴾ ٣٢٠

" قالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن كَانَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ ثُمَّ كَفَرْتُم بِهِۦ مَنْ أَضَلُّ مِمَّنْ هُوَ فِى شِقَاقٍۭ بَعِيدٍ ﴿٥٢﴾﴾ ٣٢٤

" قالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿سَنُرِيهِمْ ءَايَـٰتِنَا فِى ٱلْـَٔافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ ۗ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ﴿٥٣﴾ أَلَآ إِنَّهُمْ فِى مِرْيَةٍ مِّن لِّقَآءِ رَبِّهِمْ ۗ أَلَآ إِنَّهُۥ بِكُلِّ شَىْءٍ مُّحِيطٌۢ ﴿٥٤﴾﴾ ٣٣١

فهرس الأحاديث والآثار ٣٤٣

فهرس الفوائد ٣٤٩

فهرس آيات السورة ٣٥٣

• ● ● •

سلسلة مؤلفات فضيلة الشيخ ١٤٩

تفسير

القرآن الكريم

سورة الشورى

لفضيلة الشيخ العلامة

محمد بن صالح العثيمين

غفر الله له ولوالديه وللمسلمين

من إصدارات
مؤسسة الشيخ محمد بن صالح العثيمين الخيرية